مروج الذهب

ومعادن الجوهر

تصنيف الرحالة الكبير، والمؤرخ الجليل
أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي
المتوفى في عام ٣٤٦ من الهجرة

بتحقيق
محمد محيي الدين عبد الحميد
عفا الله تعالى عنه!

١ ـ ٢

دار الفكر
بيروت ص. ب ٧٠٦١









مروج الذهب

ومعادن الجوهر

تصنيف الرحالة الكبير ، والمؤرخ الجليل
أبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى
المتوفى فى عام ٣٤٦ من الهجرة

الجزء الأول

بتحقيق
محمد محيى الدين عبد الحميد
عفا الله تعالى عنه !

دار الفكر

الطبعة الخامسة ـ ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م

تمتاز بدقة الضبط ، والزيادة في الشرح والتفصيل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانيَ تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله فما له من هاد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله إلى الناس كافة الذي قصّ الله تعالى عليه من أنباء الأمم السالفة ما لم يكن يعلمه هو ولا قومه، وجعل ذلك موعظة للناس يتدبرها من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفوته من خلقه، ومجتباه من بين العالمين.

أما بعد، فهذا كتاب جمع فيه مؤلفه من علوم الأوائل ومعارفهم عيونَ المسائل وأمهاتها، ولم يفصل القول فيه تفصيلا يطيل به على قارئه، ولا أحاط بأطراف ما عرض له من المسائل، مكتفياً بأن ينتقي من كل عقد دُرّة هي أثمن درره وأغلاها عنده، وأن يغترف من كل بحر قطرة هي أهنأ قطراته وأمرؤها، وأن يقتطف من كل روض زهرة هي أأرج أزاهيره وأنضرُها، وقد عرض لاختلاف العلماء في أكثر ما بحث من مسائله، وبيّنَ أقاويلهم، وأشار إلى بعض حججهم تاركا تفصيل ما أخذ فيه من القول إلى كتبه التي صنفها قبل هذا الكتاب، وقد أخذ علمه الذي أودعه كتابه هذا وكتبه السابقة عليه من مصدرين: أحدهما جملة من كتب العلماء الذين سبقوه بالتدوين، وقد أشار إلى أكثر هذه الكتب في مطلع هذا الكتاب، وبين مقدار أهميتها في نظره، والمصدر الثاني — وهو في الأكثر عندما يريد أن يحدثك عن عادات بعض البلدان أو حاصلاتها — أحاديث الناس التي يتناقلونها كابراً عن كابر؛ فهو يقول لك: «وقد رأيت صاحب هذا الرجل

المقيم بالواحات بباب الإخشيد محمد بن طغج ، وذلك سنة ثلاثين وثلثمائة ، وسألته عن كثير من أخبار بلادهم ، وما احتجت أن أعلمه من خواص أرضهم ، وكذلك كان فِعْلِي مع غيره فى سائر الأوقات ممن لم أَصِلْ إلى بلادهم ، وأخبرنى هذا الرجل عما بأرضهم من الشب وأنواع الزاج ، وما يحمل من بلادهم ، وما بأرضهم من أنواع العيون الحامضة ، وغير ذلك من المياه المختلفة الطعوم » اهـ ، وانظر[1] (ج ١ ص ٣٤١ و ٣٤٢) .

وقد أحصيت كتبه التى اختار منها لمعاً أَوْدَعَهَا فى هذا الكتاب فوجدتها كثيرة العدد ، وأنا ذاكر لك منها جملة ، ومشير لك إلى بعض مواضع التنبيه عليها فى الكتاب الذى بين يديك ، وكل هذه الكتب مفيد نافع جليل الموضوع ، ولكن أكثرها — مع الأسف — قد أصابته يد الضياع :

(١) كتاب أخبار الزمان ، يشير إليه فى نهاية كل موضوع يطرقه تقريباً ، وكذلك الكتاب الأوسط .

(٢) كتاب المبادىء والتراكيب (انظر[1] ج ١ ص ١١٧)

(٣) « الرؤوس السبعة (انظر ج ١ ص ٨٢ و ١٢١)

(٤) « الزلف (انظر ج ٢ ص ١١٧ و ١٢١)

(٥) « الصفوة فى الإمامة (انظر ج ٢ ص ٥٠ و ١٧٣ ، ثم ج ٣ ص ٢٨) .

(٦) كتاب الاستبصار (انظر ج ٢ ص٥٠و١٧٣ ، ثم ج ٣ ص٢٨).

(٧) « الزاهى (انظر ج ٢ ص ١٧٣) .

(٨) « المقالات فى أصول الديانات (٢ : ٥٠ و ٧٣ — ٣ : ٢٥).

(٩) « سر الحياة (٢ : ٦٩ و ٨٨) .

(١٠) « الدعاوى (٢ : ٦٩) .

(١١) « الاسترجاع (٢ : ٧٩) .

(١) هذه أرقام الطبعة الأولى ، وأرقام هذه الطبعة قريبة منها .

(١٢) كتاب مزاهر الأخبار ، وظرائف الآثار (٢ : ٢٦٤ و ٣٠١).

(١٣) « الرؤيا والكمال (٢ : ٨٧).

(١٤) « طب النفوس (٢ : ٨٧).

(١٥) « حدائق الأذهان فى أخبار آل محمد عليه الصلاة والسلام (٢ : ٣٠١ — ٣ : ٢٤).

(١٦) كتاب القضايا والتجارب (٢ : ١٠٣).

(١٧) الواجب فى الفروض اللوازم (٣ : ٢٨).

وليست هذه كل كتبه التى أشار إليها ، وحكى أنه اقتطف منها فى كتابه هذا لُمَعاً تدل عليها وتشير إليها ، بل هى أكثر مما تَتَّسع له هذه العُجَالة اليسيرة التى أكتبها على عجل ، وأحب ألا أثقل فيها على نفسى وعلى القراء بإحصاء ذخائر قد يكون فى إحصائها من إيلام النفس وتعذيب الروح على فَقْدِها وعبث المقادير بها أكبر مما فى ذلك من التغنى بمجد الأسلاف والإشادة بما رَقُوا إليه من معارج البحث والتحقيق.

وقد قمت لهذا الكتاب بعمل أرجو أن يكون مقبولا مرضيا عنه ، وسيعرف كل قارىء قيمة هذا العمل إذا رجع إلى هذه المطبوعة وقارنها بما طبع قبل ذلك ، وأَكِلُ إليه وحده تقدير هذا المجهود المُضْنِى ، وعند الله سبحانه فى ذلك الجزاء الأوفى.

***

وحين نفدت جميع نسخ الطبعة الأولى رجعت إلى الكتاب ، وَأَطَلْتُ النظر فيه ، وراجعته مراجعة أدق ، وحرصت أن أراجعه على نسخ لم تكن تيسرت لى فى المرة السابقة ، فجاء أدقّ وأصحّ ، والله سبحانه ولى التوفيق.

مصر الجديدة { يولية سنة ١٩٤٨ م / رمضان المعظم سنة ١٣٦٨

كتبه

محمد محيى الدين عبد الحميد

ترجمة المؤلف

(١) قال ابن شاكر فى فوات الوفيات (٢/٩٤ بتحقيقنا) ما نصه :

على بن الحسين بن على ، أبو الحسن[1] ، المسعودى ، المؤرخ ، من ذرية عبدُ الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال الشيخ شمس الدين : عِدَادُهُ فى البغداديين ، وأقام بمصر مدة ، وكان أخباريًّا علامة صاحب غرائب ومُلَح ونوادر ، مات سنة ست وأربعين وثلثمائة ، وله من التصنيفات : كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر فى تحف الأشراف والملوك ، وكتاب ذخائر العلوم وما كان فى سالف الدهور ، وكتاب الرسائل ، والاستذكار بما مر فى سالف الأعصار ، وكتاب التاريخ فى أخبار الأمم من العرب والعجم ، وكتاب التنبيه والإشراف ، وكتاب خزائن الملوك وسر العالمين ، وكتاب المقالات فى أصول الديانات ، وكتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ، وكتاب البيان فى أسماء الأئمة ، وكتاب الخوارج ، والله أعلم . اهـ بحروفه .

(٢) وقال ابن النديم فى الفهرست (ص ٢١٩ طبع مصر) :

المسعودى : هذا الرجل من أهل المغرب ، يعرف بأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى ، من ولد عبد الله بن مسعود ، مصنف لكتب التواريخ وأخبار الملوك ، وله من الكتب : كتاب يعرف بمروج الذهب ومعادن الجوهر فى تحف الأشراف والملوك ، وكتاب ذخائر العلوم وما كان فى سائر الدهور ، وكتاب الاستذكار لما مر فى سالف الأعمار ، كتاب التاريخ فى أخبار الأمم من العرب والعجم ، وكتاب رسائل . ا هـ

(٣) وقال جورجى زيدان فى كتاب تاريخ اللغة العربية (ج٢ ص٣١٣)

---

(١) وقع فى أصل الفوات « أبى الحسين » والمحفوظ «أبو الحسن» كما نبهنا عليه هناك . وانظر — مع ما ذكرناه — شذرات الذهب لابن العماد ٢/٣٧١ والنجوم الزاهرة ٣/٣١٥ وكشف الظنون ١/٤٩ بولاق .

هو على بن الحسين بن على ، من ذرية عبد الله بن مسعود ، ولذلك قيل له المسعودىّ ، نشأ فى بغداد وجاء مصر ، ورحل فى طلب العلم إلى أقصى البلاد، فطاف فارس وكرمان سنة ٣٠٩ حتى استقر فى إصْطَخْر ، وفى السنة التالية قصد الهند إلى ملتان والمنصورة، ثم عطف إلى كنباية فصيمور فسرنديب «سيلان» ومن هناك ركب البحر إلى بلاد الصين ، وطاف البحر الهندى إلى مداغسكر وعاد إلى عمان ، ورَحَل رحلة أخرى سنة ٣١٤ إلى ماوراء أذربيجان وجُرْجَان ثم إلى الشام وفِلَسْطين ، وفى سنة ٣٣٢ جاء أنطاكية والثغور الشامية إلى دمشق واستقر أخيراً بمصر، ونزل الفُسْطَاطَ سنة ٣٤٥، وتوفى فى السنة التالية، ولم يَفْتُرْ فى أثناء أسفاره عن الاستقصاء والبحث واكتساب العلوم على اختلاف مواضيعها؛ فجمع من الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه إليه أحد ، وألف كثيراً من الكتب المفيدة فى مواضيع شتى ، وأهمها فى التاريخ ، وهاك أشهر مؤلفاته :

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر : هو أشهر من أن يعرف لشيوعه ، وقد طبع مراراً فى جزءين ، وَصَفَ فى الأول منهما الخليقة وقصص الأنبياء مختصراً ، ثم وصف البحار والأرضين وما فيهما من العجائب ، ويدخل فى ذلك تواريخ الأمم القديمة من الفرس والسريان واليونان والرومان والإفرنج والعرب القدماء وأديانهم وعاداتهم ومذاهبهم وأوابدهم وأطوال الشهور والتقاويم القديمة والبيوت المعظمة وغيرها ، ثم عطف على تاريخ الرسالة الإسلامية من ظهور النبى إلى مقتل عثمان، وذكر فى المجلد الثانى تاريخ الإسلام من خلافة على إلى أيام المطيع لله العباسى « توفى سنة ٣٦٣ »[1] .

ويظهر مما جاء فى مقدمته أنه نقل هذا الكتاب عن عشرات من الكتب التاريخية وغيرها كانت موجودة فى أيامه لم يصلنا منها إلا بضعة قليلة كتاريخ الطبرى وفتوح البلدان للبَلاَذُرِىّ ، وأما الباقى فقد ضاع ، وفيه عشرات من

(١) أى أن وفاة المطيع كانت بعد وفاة المؤلف بسبعة عشر عاما تقريبا .

كتب التاريخ والسياسة والاجتماع ، وفى خلال هذا الكتاب فوائد كثيرة لا تجدها فى سواه ، ولذلك فقد عُنِيَ المستشرق بار بيه دى مينار بنقله إلى اللغة الفرنساوية ، وطبع فى باريس سنة ١٨٧٢ فى تسع مجلدات . وقد انتقد هذه الترجمة عبد الله المراكشى فى مجلة الضياء « سنة ٢ » ونقله إلى الإنجليزية الأستاذ سيرنجر ، وطبع الجزء الأول من ترجمته فى لندن سنة ١٨٤١ .

(ب) كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الغابرة والممالك الدائرة ، وهو كبير طويل مثل اسمه ، يدخل فى ٣٠ مجلدا ، وقد أكثر المسعودى من الإشارة إليه فى مروج الذهب ـ إذا اختصر الكلام فى باب قال : « وقد فصلنا ذلك فى كتابنا أخبار الزمان » ـ لكن هذا الكتاب ضائع الآن ، وليس منه إلا الجزء الأول فى مكتبة فينا .

(حـ) الكتاب الأوسط : هو وسط بين الكتابين المتقدمين ، وقد ضاع أيضاً ، ولكن فى مكتبة أكسفورد نسخة يظنون أنها هو ، ويظن بعض الباحثين أنه وقف على شيء منه فى بعض مكاتب دمشق .

(د) كتاب التنبيه والإشراف : أودعه لمعا من ذكر الأفلاك وهيئاتها، والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها ، وأقسام الأزمنة وفصول السَّنَة ومنازلها والرياح ومَهابها والأرض وشكلها ومساحتها، والنواحى والآفاق وتأثيرها على السكان ، وحدود الأقاليم السبعة والعروض والأطوال ومَصَابِّ الأنهار، وذكر الأمم السبع القديمة ولغاتها ومساكنها ، ثم ملوك الفرس على طبقاتهم، والروم وأخبارهم ، وجوامع تواريخ العالم والأنبياء، ومعرفة السنين القمرية والشمسية ، وسيرة النبى وظهور الإسلام ، وسير الخلفاء وأعمالهم ومناقبهم إلى سنة ٣٤٥، وفيه أشياء كثيرة لا توجد فى غيره من كتب التاريخ ، وقد طبع فى ليدن سنة ١٨٩٤ فى جملة المكتبة الجغرافية فى ٥٠٠ صفحة[1] . اهـ بحروفه .

---

(١) وطبع بعد ذلك فى مصر مرتين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد ، ومُسْتَوجب الثناء والمجد ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله الطاهرين ، وسَلَّمَ تسليما إلى يوم الدين .

باب ذكر جوامع أغراض هذا الكتاب

للمؤلف كتابان اختصرهما فى هذا الكتاب

أما بعد ، فإنا صَنَّفْنَا كتابنا فى أخبار الزمان ، وقَدَّمْنَا القول فيه فى هيئة الأرض ، ومدُنها ، وعجائبها ، وبحارها ، وأغْوَارها ، وجبالها ، وأنهارها ، وبدائع معادنها ، وأصناف مَنَاهلها ، وأخبار غِيَاضِها ، وجزائر البحار ، والبُحَيْرَات الصغار ، وأخبار الأبنية المُعَظّمة ، والمساكن المشرَّفة ، وذكر شأن المبدأ ، وأصل النَّسْل ، وتَبَايُن الأوطان ، وما كان نهراً فصار بحراً ، وما كان بحراً فصار بَرًّا ، وما كان بَرًّا فصار بحراً ، على مرور الأيام ، وكُرُور الدهور ، وعلة ذلك ، وسببه الفلكى والطبيعى ، وانقسام الأقاليم بخواصّ الكواكب ، ومعاطف الأوتاد ، ومقادير النواحى والآفاق ، وتباين الناس فى التاريخ القديم ، واختلافهم فى بَدْئِه وأوليته ، من الهند وأصناف الملحدين ، وما ورد فى ذلك عن الشرعيين ، وما نطقت به الكتب وورد على الدَّيَّانِيينَ .

ثم أتبعنا ذلك بأخبار الملوك الغابرة، والأمم الدَّاثِرَة ، وَالْقُرُون الخالية ، والطوائف البائدة[1] [على مَرّ سيرهم ، فى تغير أوقاتهم وتصنيف أعصارهم ، من الملوك والفراعنة العادية والأكاسرة واليونانية ، وما ظهر من حكمهم]

---

(١) فى ابدل ما بين المعقوفين ما نصه « على اختلاف أجناسهم ، وتغاير أنواعهم ، واختلاف أديانهم ، وما مضى فى أكناف الزمان من حكمهم — إلخ »

ومقاتل فلاسفتهم وأخبار ملوكهم ، وأخبار العناصر ، إلى ما فى تَضَاعِيفِ ذلك من أخبار الأنبياء والرسل والأتقياء ، إلى أن أفْضَى الله بكرامته وشَرَّف برسالته محمداً نبيه صلى الله عليه وسلم ، فذكَرْنَا مولده ، ومنشأه ، وبعثه ، وهجرته ، ومَغَازِيَه ، وسَرَاياه ، إلى أوَانِ وفاته ، واتصال الخلافة ، وَاتِّسَاق الملـكة بزمن زمن ، وَمَقَاتِل مَنْ ظهر من الطالبيينَ ، إلى الوقت الذى شرعنا فيه فى تصنيف كتابنا هذا من خلافة المتقى لله أمير المؤمنين ، وهى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

ثم أتبعناه بكتابنا الأوسط فى الأخبار على التاريخ وما اندرج فى السنين الماضية ، من لدن البَدْء إلى الوقت الذى عنده انتهى كتابنا الأعظم وما تلاه من الـكتاب الأوسط .

ورأينا إيجاز ما بسطناه ، واختصار ما وسطناه ، فى كتاب لطيفٍ نُودِعُه لُمَع ما فى ذَيْنِكَ الـكتابين مما ضَمَّنَّاهما ، وغير ذلك من أنواع العلوم ، وأخبار الأمم الماضية ، والأعصار الخالية ، مما لم يتقدم ذكره فيهما .

على أنا نعتذر من تقصيرٍ إنْ كان ، وَنَتَنَصَّل من إغفالٍ إنْ عَرَض ؛ لما قد شَابَ خَوَاطِرَنَا ، وَغَمَرَ قلوبنا ، من تَقَاذُف الأسفار ، وقَطْع القِفار ، تارة على مَتْن البحر ، وتارة على ظهر البر ، مُسْتَعْلِمِينَ بدائع الأمم بالمشاهدة ، عارفين خواصّ الأقاليم بالمُعَايَنة ، كقَطْعنا بلادَ السِّند والزنج والصنف والصين والزابج ، وَتَقَحُّمنا الشَّرْقَ والغرب ، فتارةً بأقصى خُرَاسان ، وتارة بوسائط إرمينية وأذربيجان والران والبيلقان ، وطوراً بالعراق ، وطوراً بالشام ؛ فسَيرى فى الآفاق ، سُرَى الشمس فى الإشراق ، كما قال بعضهم :

تَيَمَّمَ أَقْطَارَ البِـــــلَادِ ؛ فتَارَةً
لَدَى شَرْقِهَا الأقْصَى وَطَوْراً إلَى الغَرْبِ

سُرَى الشَّمْسِ ، لاَ يَنْفَكُّ تَقْذِفُهُ النَّوَى
إِلَى أُفُقٍ نَاءٍ يُقَصِّرُ بِالرَّكْبِ

قال المصنف : ثم مفاوضتنا أصنافَ الملوكِ على تغاير أخلاقهم ، وتباين هممهم ، وتباعد ديارهم ، وأَخْذُنَا بمسلك مسلك من مواقفهم[(١)] ، على أن العلم قد بادت آثاره ، وطمس مناره ، وكثُرَ فيه العناء ، وقلّ الفُهماء ؛ فلا تُعاين إلا مُموّها جاهلا ، ومتعاطياً ناقصاً ، قد قنع بالظنون ، وعَمِيَ عن اليقين ، لم نرَ الاشتغال بهذا الضَّرْب من العلوم والتفرغ لهذا الفن من الآداب ، حتى صنفنا كتبنا من ضروب المقالات ، وأنواع الديانات ، ككتاب « الإبانة عن أصول الديانة » وكتاب « المقالات فى أصول الديانات » وكتاب « سر الحياة » وكتاب « نظم الأدلة ، فى أصول الملة » وما اشتمل عليه من أصول الفَتْوَى وقوانين الأحكام : كتيقن القياس ، والاجتهاد فى الأحكام ، ووقع الرأى والاستحسان ، ومعرفة الناسخ من المنسوخ ، وكيفية الإجماع وماهيته ، ومعرفة الخاص والعام ، والأوامر والنواهى ، والحظر والإباحة ، وما أتت به الأخبار من الاستفاضة والآحاد ، وأفعال النبى صلى الله عليه وسلم ، وما ألحق بذلك من أصول الفَتْوَى ، ومناظرة أنباء الخصوم فيما نازعونا فيه ، وموافقتهم فى شىء منه ، وكتاب « الاستبصار » فى الإمامة ووصف أقاويل الناس فى ذلك من أصحاب النص والاختيار ، وحِجاج كل فريق منهم ، وكتاب « الصفوة فى الإمامة » وما احتواه ذلك ، مع سائر كتبنا فى ضروب علم الظواهر والبواطن والجلى والخفى والدائر والوافر ، وإيقاظنا على ما يرتقبه المرتقبون ، ويتوقّعه المحدثون ، وما ذكروه من نور يلمع فى الأرض وينبسط فى الجدب والخصب ، وما فى عقب الملاحم الكائنة ، الظاهر أنباؤها المتجلّى أوائلها ، إلى سائر كتبنا فى السياسة ، كالسياسة

(١) فى ا « من مواقفهم »

المدنية وأجزاء المدينة ، ومثالها الطبيعية[1] ، وانقسام أجزاء الملة ، والإبانة عن المواد[2] ، وكيفية تركيب العوالم ، والأجسام السماوية ، وما هو محسوس وغير محسوس ، من الكثيف واللطيف ، وما قال أهل النحلة فى ذلك .

الباعث له على التأليف

وكان مادعانى إلى تأليف كتابى هذا فى التاريخ ، وأخبار العالم ، ومامضى فى أكناف الزمان من أخبار الأنبياء والملوك وسيرها والأمم ومساكنها محبة احتذاء الشاكلة التى قصدها العلماء ، وقفاها الحكماء ، وأن يبقى للعالم ذكراً محموداً ، وعلماً منظوماً عتيداً ؛ فإنا وجدنا مصنفى الكتب فى ذلك مجيداً ومقصراً ، ومسهباً ومختصراً ، ووجدنا الأخبار زائدة مع زيادة الأيام، حادثة مع حدوث الأزمان ، وربما غاب البارع منها على الفطن الذكى ، ولكل واحد قسط يخصه بمقدار عنايته ، ولكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله ، وليس من لزم جهة وطنه[3] وقنع بما نمى إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ،ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار ، واستخراج كل دقيق من معدنه ، وإثارة كل نفيس من مكمنه .

وقد ألف الناس كتباً فى التاريخ والأخبار ممن سلف وخلف ، فأصاب البعض وأخطأ البعض ، وكل قد اجتهد بغاية إمكانه ، وأظهر مكنون جوهر فطنته : كوهب بن منبه ، وأبى مخنف لوط بن يحيى العامرى ، ومحمد بن إسحاق ، والواقدى ، وابن الكلبى ، وأبى عبيدة معمر بن المثنى ، وأبى العباس الهمدانى[4] ، والهيثم بن عدى الطائى ، والشرقى بن القطامى ، وحماد الراوية ، والأصمعى ، وسهل بن هرون ، وعبد الله بن المقفع ،

(١) هنا فى ب زيادة نصها « وانقسام أجزاء تكون المدنية ومثالها الطبيعية منه » ولا يستقيم لها معنى .
(٢) فى ا « عن المبادى »
(٣) فى ا « لزم جحرات وطنه »
(٤) فى ا « وابن عياش »

واليزيدى ، ومحمد بن عبد الله الْعُتْبي ، والأموى(١) ، وأبي زيد سعيد بن أوس الأنصارى ، والنّضر بن شُمَيل ، وعبد الله بن عائشة(٢) ، وأبي عُبَيدٍ القاسم بن سَلاَّم ، وعلى بن محمد المدائنى ، ودَمَاذ بن رفيع بن سلمة(٣) ، ومحمد ابن سَلاَّم الْجُمَحِي ، وأبي عثمان عَمْرو بن بحر الجاحظ ، وأبي زيد عمر بن شَبَّة النميرى ، والزّرَقىّ الأنصارى ، وأبي السائب المخزومى ، وعلى بن محمد ابن سليمان النوفلى ، والزُّبَير بن بَكّار ، والإنجيلى ، والرياشى ، وابن عابد(٤) ، وعمارة بن وسيمة المصرى ، وعيسى بن لهيعة المصرى ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصرى ، وأبي حسان الزيادى ، ومحمد بن موسى(٥) الْخوارَزْمى ، وأبي جعفر محمد بن أبي السرى ، ومحمد بن الهيثم بن شبابة الخراسانى صاحب كتاب الدولة ، وإسحاق بن إبراهيم الْمَوْصِلى صاحب كتاب الأغانى وغيره من الكتب ، والخليل بن الهيثم الهرتَمى(٦) صاحب كتاب الحيل والمكايد فى الحروب وغيره ، ومحمد بن يزيد المبرّدِ الأزدى ، ومحمد بن سليمان المنقرى الجوهرى ، ومحمد بن زكريا الْغَلابىّ [المصرى] المصنف للكتاب المترجم بكتاب الأجواد وغيره ، وابن أبي الدنيا(٧) مؤدب المكتفى بالله ، وأحمد بن محمد الخزاعى المعروف بالخاقانى الأنطاكى ، وعبد الله ابن محمد بن محفوظ البَلَوِىّ الأنصارى صاحب أبي يزيد عمارة بن زيد المدينى(٨) ، وأحمد بن محمد بن خالد البرقى الكاتب صاحب التبيان ، وأحمد ابن أبي طاهر صاحب الكتاب المعروف بأخبار بغداد وغيره ، وابن الوَشّاء ، وعلى بن مجاهد صاحب الكتاب المعروف بأخبار الأمويين وغيره ، ومحمد بن صالح بن النطاح صاحب كتاب الدولة العباسية وغيره ، ويوسف بن إبراهيم

(١) فى ب « والآمدى » (٢) فى ب « وعبيد الله بن عائشة »
(٣) فى ب « ابن ربيع بن سلمة » (٤) فى ب « وابن عائدة »
(٥) فى ب « ومحمد بن عيسى الخوارزمى » (٦) فى ب « الحرتمى »
(٧) فى ب « وابن أبي الزيبى » (٨) فى ب « اليمنى »

صاحب أخبار إبراهيم بن المهدى وغيرها ، ومحمد بن الحارث الثعلبى[١] صاحب الكتاب المعروف بأخلاق الملوك المؤلف للفتح بن خاقان وغيره ، وأبى سعيد السكرى صاحب كتاب أبيات العرب ، وعبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبة ؛ فإنه كان إماماً فى التأليف متبرعاً فى ملاحة التصنيف ، أتبعه من يعتمد ، وأخذ منه ، ووطىء على عقبه ، وقفا أثره . وإذا أردت أن تعلم صحة ذلك فانظر إلى كتابه الكبير فى التاريخ فإنه أجمع هذه الكتب جداً ، وأبرعها نظماً ، وأكثرها علماً ، وأحوى لأخبار الأمم وملوكهم وسيرها من الأعاجم وغيرها ، ومن كتبه النفيسة كتابه فى المسالك والممالك وغير ذلك مما إذا طلبته وجدته ، وإذا تفقدته حمدته ، وكتاب التاريخ من المولد إلى الوفاة ، ومن كان بعد النبى صلى الله عليه وسلم من الخلفاء والملوك إلى خلافة المعتضد بالله ، وما كان من الأحداث والكوائن فى أيامهم وأخبارهم ، تأليف محمد بن على الحسينى العلوى الدينورى ، وكتاب التاريخ لأحمد بن يحيى البلاذرى ، وكتابه أيضاً فى البلدان وفتوحها صلحاً وعنوة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وما فتح فى أيامه وعلى يد الخلفاء بعده ، وما كان من الأخبار فى ذلك ، ووصف البلدان فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ولا نعلم فى فتوح البلدان أحسن منه ، وكتاب داود بن الجراح فى التاريخ الجامع لكثير من أخبار الفرس وغيرها من الأمم ، وهو جد الوزير على ابن عيسى بن داود بن الجراح ، وكتاب التاريخ الجامع لفنون من الأخبار والكوائن فى الأعصار قبل الإسلام وبعده ، تأليف أبى عبد الله محمد بن الحسين[٢] ابن سوار المعروف بابن أخت عيسى بن فرخان شاه ، بلغ فى تصنيفه إلى سنة عشرين وثلثمائة ، وتاريخ أبى عيسى بن المنجم على ما أنبأت به التوراة وغير ذلك من أخبار الأنبياء والملوك وكتاب التاريخ ، وأخبار الأمويين ومناقبهم، وذكر

(١) فى ا « التغلبى »

(٢) فى ب « محمد بن الحسن »

فضائلهم ، وما أتَوْا[١] به عن غيرهم ، وما أحدثوه من السير فى أيامهم ، تأليف أبى عبد الرحمن خالد بن هشام الأموى ، وكتاب القاضى أبى بشر الدولابىّ فى التاريخ ، والكتاب الشريف تأليف أبى بكر محمد بن خلف ابن وكيع القاضى فى التاريخ وغيره من الأخبار ، وكتاب السير والأخبار لمحمد بن خالد الهاشمى ، وكتاب التاريخ والسير لأبى إسحاق بن سليمان الهاشمى ، وكتاب سير الخلفاء لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى صاحب كتاب المنصورى فى الطب وغيره ، فأما عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى فمن كثرت كتبه واتسع تصنيفه ، ككتابه المترجم بكتاب المعارف وغيره من مصنفاته ، وأما تاريخ أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى الزاهى على المؤلفات ، والزائد على الكتب [المصنفات] ، فقد جمع أنواع الأخبار ، وحَوَى فنون الآثار ، واشتمل على صنوف العلم ، وهو كتاب تكثر فائدته ، وتنفع عائدته ، وكيف لا يكون كذلك ؟ ! ومؤلفه فقيه عصره ، وناسِكُ دهره ، إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار ، وحَمَلَة السنن[٢] والآثار ، وكذلك تاريخ أبى عبد الله إبراهيم بن محمد بن عَرَفَةَ الواسطى النحوى الملقب بنِفْطَوَيْهِ فمحشوّ من مَلَاحة كتب الخاصة، مملوء من فوائد السادة ، وكان أحسن أهل عصره تأليفاً ، وأملحهم تصنيفاً ، وكذلك سلك محمد بن يحيى الصُّولىُّ فى كتابه المترجم بكتاب الأوراق فى أخبار الخلفاء من بنى العباس [وبنى أمية][٣] ، وشعرائهم ، وَوزرائهم ، فإنه ذكر غرائب لم تقع لغيره ، وأشياء تفرّدَ بها لأنه شاهدها بنفسه ، وكان محظوظاً من العلم ، ممدوداً من المعرفة[٤] مرزوقا من التصنيف وحسن التأليف ، وكذلك كتاب الوُزراء وأخبارهم لأبى الحسن على بن الحسن المعروف بابن الماشطة ؛ فإنه بلغ فى

ثناؤه على ابن جرير الطبرى

---

(١) فى ب « وما بانوا به »   (٢) فى ا « وحملة السير والآثار »
(٣) هذه الكلمة ساقطة من ا   (٤) فى ا « مجدودا من المعرفة »

ثناؤه على قدامة ابن جعفر

تصنيفه إلى آخر أيام الراضى بالله ، وكذلك أبو الفرج قُدَامة بن جعفر الكاتب ؛ فإنه كان حسن التأليف ، بارع التصنيف ، موجزاً للألفاظ ، مُقرباً للمعانى ، وإذا أردت علم ذلك فانظر فى كتابه فى الأخبار المعروف بكتاب زهر الربيع ، وأشرف على كتابه المترجم بكتاب الخراج ؛ فإنك تشاهد بهما حقيقة ما قد ذكرنا ، وصِدْقَ ما وصفنا ، وما صنفه أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى الفقيه فى كتابه فى الأخبار الذى يعارض فيه كتاب الروضة للمبرد ولقبه بالباهر ، وكتاب إبراهيم بن ماهويه الفارسى الذى عارض فيه المبرد فى كتابه الملقب بالكامل ، وكتاب إبراهيم بن موسى الواسطى الكاتب فى أخبار الوزراء الذى عارض فيه كتاب محمد بن داود ابن الجراح فى الوزراء ، وكتاب على بن الفتح الكاتب المعروف بالمطوق فى أخبار عدة من وزراء المقتدر بالله ، وكتاب زهرة العيون وجلاء القلوب تأليف المصرى ، وكتاب التاريخ تأليف عبد الرحمن بن عبد الرازق المعروف بالجُوْزَجانى السعدى[1] ، وكتاب التاريخ وأخبار الموصل تأليف أبى ذكرة الموصلى ، وكتاب التاريخ تأليف أحمد بن يعقوب المصرى فى أخبار العباسيين وغيرهم ، وكتاب التاريخ فى أخبار الخلفاء من بنى العباس وغيرهم لعبد الله ابن الحسين بن سعد الكاتب ، وكتاب محمد [بن مزيد] بن أبى الأزهر فى التاريخ وغيره ، وكتابه المترجم بكتاب الهرج والأحداث .

نقد المؤلف لثابت بن قرة

ورأيت سِنَانَ بن ثابت بن قرة الحَرانى[2] ــ حين انتحل ما ليس من صناعته ، واستنهج ما ليس من طريقته ـ قد ألَّفَ كتابا جعله رسالة إلى بعض إخوانه من الكتاب ، واستفتحه بجوامع من الكلام فى أخلاق النفس وأقسامها من الناطقة والغضبية والشهوانية ، وذكر لُمَعاً من السياسات المدنية مما ذكره أفلاطون فى كتابه فى السياسة المدنية ، وهو عشر مقالات ، ولمعاً مما يجب على الملوك والوزراء ، ثم خرج إلى أخبار يزعم أنها صحت عنده ولم يشاهدها ،

(١) فى ا « المعروف بالجرجانى السعدى » . (٢) فى ب « الجرجانى »

ووصل ذلك بأخبار المعتضد بالله ، وذكر صحبته إياه ، وأيامه السالفة [معه] ثم ترق إلى خليفة خليفة فى التصنيف ، مضادة لرسم الأخبار [والتواريخ] وخروجاً عن جملة أهل التأليف ، وهو وإن أحسن فيه ، ولم يخرجه عن معانيه ، فإنما عيبه أنه خرج عن مركز صناعته ، وتكلف ما ليس من مهنته، ولو أقبل على عامه الذى انفرد به من علم إقليدس والقطعات[1] والمَجَسْطى والمدورات ، ولو استفتح آراء سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ، فأخبر عن الأشياء الفلكية ، والآثار العلوية ، والمزاجات الطبيعية ، والنسب والتأليفات، والنتائج والمقدمات ، والصنائع المركبات ، ومعرفة الطبيعيات : من الإلهيات، والجواهر والهيآت ، ومقادير الأشكال ، وغير ذلك من أنواع الفلسفة — لكان قد سلم مما تكلفه ، وأتى بما هو أليق بصنعته ، ولكن العارف بقدره مُعْوِز ، والعالم بمواضع الخلة مفقود ، وقد قال عبد الله بن المقفع : مَنْ وضع كتاباً فقد استهدف ، فإن أجاد فقد استشرف ، وإن أساء فقد استقذف[2]

قال أبو الحسن [على بن الحسين بن على] المسعودى : ولم نذكر من كتب التواريخ والأخبار والسير والآثار إلا ما اشتهر مصنفوها ، وعرف مؤلفوها ولم نتعرض لذكر كتب تواريخ أصحاب الأحاديث فى معرفة أسماء الرجال وأعصارهم وطبقاتهم ؛ إذ كان ذلك [كله] أكثر من أن نأتى على ذكره فى هذا الكتاب ، إذ كنا قد أتينا على جميع تسمية أهل الأعصار من حملة الآثار ، ونقلة السير والأخبار ، وطبقات أهل العلم من عصر الصحابة ، ثم مَنْ تلاهم من التابعين، وأهل كل عصر على اختلاف أنواعهم ، وتنازعهم فى آرائهم : من فقهاء الأمصار وغيرهم من أهل الآراء والنحل والمذاهب والجدل، إلى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، فى كتابنا المترجم بكتاب أخبار الزمان ، وفى الكتاب الأوسط .

(١) فى ب « والمعظمات » .

(٢) فى ا « فقد استنزف » ولعلها « فقد استهدف » .

المؤلف يذكر أنه أودع كتابه أجزل الفوائد

وقد وسمت كتابى[1] هذا بكتاب «مروج الذهب ، ومعادى الجوهر» ؛ لنفاسة ماحَوَاه ، وعظم خطرمااستولى عليه : من طوالع بوارع ماتضمنته[2] كتبنا السالفة فى معناه ، وغرر مؤلفاتنا فى مغزاه ، وجعلته تحفة للأشراف من الملوك وأهل الدرايات ؛ لما قد ضمنته من جمل ما تدعو الحاجة إليه ، وتُنَازع النفوس إلى علمه من دراية ما سلف وغَبَر فى الزمان، وجعلته مُنَبِّها على أغراض ماسلف من كتبنا ، ومشتملا على جوامِعَ يحسن بالأديب العاقل معرفتها ، ولا يُعذر فى التغافل عنها ، ولم نترك نوعا من العلوم ، ولا فنا من الأخبار ، ولا طريقة من الآثار ، إلا أوردناه فى هذا الكتاب مفصلا ، أوذكرناه مجملا ، أوأشرنا إليه بضرب من الإشارات ، أولوّحنا إليه بفحوى من العبارات.

المؤلف ينهى عن التصرف فى الكتاب ويخوف من ذلك

فمن حَرّف شيئاً من معناه ، أو أزال ركنا من مبناه ، أو طمس واضحة من معالمه ، أو لبَّسَ شاهدة[3] من تراجمه ، أوغيره ، أو بَدّله ، أو أشأنه[4] ، أو اختصره ، أو نسبه إلى غيرنا ، أو أضافه إلى سوانا ، فوافاه من غضب الله وسرعة نقمه وفوادح بلاياه ما يَعْجَزُ عنه صبره ، ويَحار له فكره ، وجعله الله مُثْلةً للعالمين ، وعبرة للمعتبرين ، وآية للمُتوسِّمين ، وسلبه الله ما أعطاه ، وحال بينه وبين ما أنعم به عليه : من قوةٍ ونعمةٍ مُبدعُ السموات والأرض ، من أى المللِ كان والآراء ، إنه على كل شىء قدير .

وقد جعلت هذا التخويف فى أول كتابى هذا وآخره ، ليكون رادعا لمن ميلِه هوى ، أو غلبه شقاء ، فليراقب الله ربه ، وليحاذر مُنْقلبهُ ، فالمدة يسيرة ، والمسافة قصيرة ، وإلى الله المصير .

وهذا حين نبدأ بجمل ما استودعناه هذا الكتاب من الأبواب ، وما حوى كل باب منها من أنواع الأخبار ، وبالله التوفيق .

---

(١) فى ا « وقد رسمت كتابى » (٢) فى ا « من طوالع ما ضمنته تواريخ »
(٣) فى ا « شاهرة » . (٤) فى ا « أو انتخبه» وأشأنه: أفسده .

الباب الثاني

ذكر ما اشتمل عليه هذا الكتاب من الأبواب

مباحث الكتاب

قد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب ذكرا لأغراضه ، فلنذكر الآن جملا من كمية أبوابه على حسب مراتبها فيه ، واستحقاقها منه ، لكي يقرب تناولها على مريدها .

فأول ذلك ذكر المبدأ ، وشأن الخليقة ، وذرء البرية من آدم إلى إبراهيم عليهما الصلاة والسلام .

ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ، ومن تلا عصره من الأنبياء والملوك من بني إسرائيل .

ذكر ملك أرخبعم بن سليمان بن داود ، ومن تلا عصره من ملوك بني إسرائيل ، وجمل من أخبار الأنبياء | والملوك من بني إسرائيل | .

ذكر أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد صلى الله عليه وسلم .

ذكر جمل من أخبار الهند وأرائها ، ومدد ممالكها ، وسيرها وآرائها في عبادتها[1] .

ذكر الأرض والبحار ، ومبادىء الأنهار والجبال ، والأقاليم السبعة وما والاها من الكواكب وغير ذلك .

ذكر جمل من الأخبار عن انتقال البحار ، وجمل من أخبار الأنهار الكبار .

ذكر الأخبار عن البحر الحبشي ، وما قيل في مقداره وتشعبه وخلجانه .

ذكر تنازع الناس في المد والجزر ، وجوامع ما قيل في ذلك .

ذكر البحر الرومي ، ووصف ما قيل في طوله وعرضه وابتدائه وانتهائه .

ذكر بحر نيطس ، وبحر مايطس ، وخليج القسطنطينية .

(١) في ا « وأخبار الهند وآرائها وبدء ممالكها وسيرها وآدابها في عبادتها »

ذكر بحر الباب والأبواب والخَزَرِ وجُرْجَان ، وجملة من الأخبار عن ترتيب جميع البحار .

ذكر ملوك الصين والترك ، وتفرق ولد عامور ، وأخبار الصين وملوكهم ، وجوامع من سيرهم وسياساتهم [وغير ذلك] .

ذكر جمل من الأخبار عن البحار ، وما فيها وما حولها من العجائب والأمم ، ومراتب الملوك ، وغير ذلك .

ذكر جبل القبج(1) ، وأخبار الأمم من اللان والسرير [والخزر] ، وأنواع من الترك والبَلْغر ، وأخبار الباب والأبواب ، ومن حولهم من الملوك والأمم .

ذكر ملوك السريانيين .

ذكر ملوك الموصل ونِينَوَى ، وهم الصوريون(2) .

ذكر ملوك بابل(3) من النَّبَطِ وغيرهم ، وهم الكلدانيون .

ذكر ملوك الفرس الأولى وسيرها ، وجوامع من أخبارها .

ذكر ملوك الطوائف الأشعانيين(4) ، وهم بين الفرس الأولى والثانية .

ذكر أنساب فارس ، وما قاله الناس فى ذلك .

ذكر ملوك الساسانية ، وهم الفرس الثانية ، وسيرهم ، وجوامع من أخبارهم

ذكر ملوك اليونانيين وأخبارهم ، وما قال الناسُ فى بَدْء أنسابهم .

ذكر جوامع من أخبار حرب الإسكندر بأرض الهند(5) .

ذكر ملوك اليونانيين بعد الإسكندر .

ذكر الروم وما للناس فى بَدْء أنسابهم ، وعدد ملوكهم ، وتاريخ سِنِيهِمْ ، وجوامع من سيرهم .

---

(1) فى ا « جبل القبخ » وفى ب « جبل الفتح » .

(2) فى ا « الأثوريون » .

(3) فى ب « ملوك قبائل من النبط » .

(4) فى ا « والأشغان » .

(5) فى ا «من أخبار جرت للأسكندر » .

ذكر ملوك الروم المتنصرة ، وهم ملوك القسطنطينية ، ولمع مما كان فى أعصارهم.

ذكر ملوك الروم بعد ظهور الإسلام ، إلى أرمينوس ، وهو الملك فى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

ذكر مصر ، ونيلها ، وأخبارها ، وبنائها ، وعجائبها ، وأخبار ملوكها .

ذكر أخبار الإسكندرية ، وبنائها ، وملوكها [وعجائبها ، وما لحق بهذا الباب] .

ذكر السودان ، وأنسابهم ، واختلاف أجناسهم وأنواعهم ، وتباينهم فى ديارهم ، وأخبار ملوكهم .

ذكر الصَّقالبة ، ومساكنهم ، وأخبار ملوكهم ، وتفرق أجناسهم .

ذكر الإفرنجة والجلالقة وملوكهما ، وجوامع من أخبارهما [وسيرهما] وحروبهما مع أهل الأندلس .

ذكر النوكبرد وملوكها ، والأخبار عن مساكنها[1] .

ذكر عاد وملوكها ، ولُمَع من أخبارها ، وما قيل فى طول أعمارهم .

ذكر ثمود وملوكها ، وصالح نبيها عليه السلام ، ولمع من أخبارها .

ذكر مكة وأخبارها ، وبناء البيت ، ومن تداوله من جُرهُم وغيرهم ، وما لحق بهذا الباب .

ذكر جوامع من الأخبار فى وصف الأرض والبلدان ، وحنين النفوس إلى الأوطان .

ذكر تنازع الناس فى المعنى الذى من أجله سمى اليمن يمنًا ، والشام شاما ، والعراق ، والحجاز .

ذكر اليمن وأنسابها ، وما قاله الناس فى ذلك .

ذكر اليمن وملوكها من التَّبابِعة وغيرها ، وسيرها ، ومقادير سنيها.

---

(١) فى ا « مسالكها » .

ذكر ملوك الحِيرَةِ من اليمن وغيرهم، وأخبارهم .

ذكر ملوك الشام من اليمن [من غسان] وغيرهم ، و [ما كان من] أخبارهم.

ذكر البوادى من العرب ، وغيرهم من الأمم ، وعِلّة سُكناها البدو ، وأكراد الجبال ، وأنسابهم ، وجُمَل من أخبارهم ، وغير ذلك مما اتصل بهذا الباب .

ذكر ديانات العرب ، وآرائها فى الجاهلية ، وتفرقها فى البلاد ، وأخبار أصحاب الفيل ، وأمر الأحابيش ، وغيرهم ، وعبد المطلب ، وغير ذلك مما يلحق بهذا الباب .

ذكر ما ذهب إليه العربُ فى النفوس والهَامِ والصَّفَر، وأخبارها فى ذلك

ذكر أقاويل العرب فى التَّغَوُّلِ والغيلان ، وما قاله غيرهم من الناس فى ذلك، وغير ذلك مما لحق بهذا الباب واتصل بهذه المعانى .

ذكر أقاويل الناس فى الهَوَاتِفِ والجانّ ، من العرب وغيرهم ممن أثبت ذلك ونفاه .

ذكر ما ذهب إليه العرب من القِيَافة والعِيَافة والزَّجْر والسانح والبارح ، وغير ذلك .

ذكر الكَهَانة وصفتها ، وما قاله الناس فى ذلك من أخبارها ، وحدّ الناطقة وغيرها من النفوس ، وما قيل فيما يراه النائم ، وما اتصل بهذا الباب.

ذكر جمل من أخبار الكهان ، وسيل العَرِمِ بأرض سبأ ومأرب ، وتفرق الأزْدِ فى البلدان وسكناهم فى البلاد .

ذكر سِنِى العرب والعجم ، وشهورها ، وما اتفق منها وما اختلف .

ذكر شهور القبط والسريانيين ، والخلاف فى أسمائها ، وجمل من التاريخ ، وغير ذلك مما اتصل بهذا المعنى .

ذكر شهور السريانيين ، ووَصف موافقتها لشهور الروم ، وعدد أيام السنة ، ومعرفة الأنواء .

ذكر شهور الفرس ، وما اتصل بذلك .

ذكر أيام الفرس ، وما اتصل بذلك .

ذكر سِنِى العربِ وشهورها وتسمية أيامها ولَيَاليها .

ذكر قول العرب فى ليالى الشهور القمرية ، وغير ذلك مما اتصل بهذا المعنى.

ذكر القول فى تأثير النيرين فى هذا العالم ، وجمل مما قيل فى ذلك مما اتصل بهذا الباب .

ذكر أرباع العالم[1] [والطبائع والأهْوِيَةِ] ، وماخص به كل جزء منه ، من الشرقى والغربى واليمنى والجنوبى ، وغير ذلك من سلطان الكواكب .

ذكر البيوت المعظمة ، والهياكل المشرفة ، وبيوت النِّيرانِ والأصنام ، وعبادات الهند ، وذكر الكواكب ، وغير ذلك من عجائب العالم .

ذكر البيوت المعظمة عند اليونانيين ، وَوصفها .

ذكر البيوت المعظمة عند الصَّقَالبة ، وَوصفها .

ذكر البيوت المعظمة عند أوائل الروم ، ووَصفها .

ذكر بيوت معظمة وهياكل مشرفة للصابئة من الحَرَّانيين ، وغيرها ، وما فيها من العجائب والأخبار وغيرها[2] .

ذكر الأخبار عن بيوت النِّيرانِ ، وكيفية بنائها ، وأخبار المجوس فيها ، وما لحق ببنائها .

ذكر جامع تاريخ العالم من بدئه إلى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وما اتصل بهذا الباب [من العلوم] .

ذكر مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ونسبه ، وغير ذلك مما لحق بهذا الباب.

ذكر مبعثه عليه الصلاة والسلام ، وما كان فى ذلك إلى هجرته صلى الله عليه وسلم .

---

(١) فى ب « ذكر أنواع العالم » وما بين الحاصرتين ساقط من ب .

(٢) فى ا « والأخبار عنها » .

ذكر هجرته، وجوامع مما كان فى أيامه إلى وفاته صلى الله عليه وسلم .

ذكر الأخبار عن أمور وأحوال كانت من مولده إلى حين وفاته صلى الله عليه وسلم .

ذكر ما بدىء به عليه الصلاة والسلام من الكلام، مما لم يحفظ قبله عن أحد من الأنام .

ذكر خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، ونسبه، ولمع من أخباره وسيره .

ذكر خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ونسبه، ولمع من أخباره وسيره .

ذكر خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، ونسبه، ولمع من أخباره وسيره .

ذكر خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه، ونسبه، ولمع من أخباره وسيره . ونسب إخوته وأخواته .

ذكر الأخبار عن يوم الجمل وبدئه، وما كان فيه من الحروب، وغير ذلك .

ذكر جوامع مما كان بين أهل العراق وأهل الشام بصفين .

ذكر الحكمين، وبدء التحكيم .

ذكر حروبه رضى الله عنه مع أهل النهروان، وهم الشراة، وما لحق بهذا الباب .

ذكر مقتل على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ذكر لمع من كلامه، وزهده، وما لحق بهذا المعنى من أخباره .

ذكر خلافة الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه، ولمع من أخباره وسيره .

ذكر أيام معاوية بن أبى سفيان، ولمع من أخباره وسيره، ونوادر من بعض أخباره .

ذكر جمل من أخلاق معاوية وسياسته، وطرف من عيون أخباره .

ذكر الصحابة ومدحهم، وعلى بن أبى طالب والعباس رضى الله عنهم، وفضلهم .

ذكر أيام يزيد بن معاوية بن أبى سفيان .

ذكر خلافة المتقى لله ، وجمل من أخباره وسيره ، ولمع مما كان فى أيامه .

ذكر خلافة المستكفى ، وجمل من أخباره وسيره ، ولمع مما كان فى أيامه .

ذكر خلافة المطيع ، وجمل من أخباره وسيره ، ولمع كان قد جرى فى أيامه.

ذكر جامع التاريخ الثانى : من الهجرة إلى هذا الوقت ، وهو جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، وقد انتهينا فيه إلى الفراغ من هذا الكتاب .

ذكر مَنْ حج بالناس من أول الإسلام إلى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة ، وهو آخر الكتاب .

[ذكر جمل ألقابهم وما ورد عن ذوى الدراية فى أعدادهم][1] .

قال المسعودى : فهذه جوامع[2] ما حوى هذا الكتاب من الأبواب ، على أنه [قد] يأتى فى كل باب مما ذكرناه من أنواع العلوم وفنون الأخبار والآثار ما لم تأت عليه تراجم الأبواب ، وهو مرتب على حسب ما قدمناه من أبوابه على تفصيل منا لتاريخ الخلفاء ومقادير أعمارهم[3] بأبوابٍ نُفرِدها عن سيرهم وأخبارهم ، ثم نعقب بعد ذلك بالغُرَر من أخبارهم ، والعيون من سيرهم ، والجوامع مما كان فى أعصارهم ، وأخبار وزرائهم ، وما جرى من أنواع العلوم فى مجالسهم ، مُلَوِّحين [بذلك] إلى ما سلف من تصنيفنا ، وتقدم من تأليفنا ، فى هذه المعانى والفنون .

عدة أبواب الكتاب

وعدد [ما اجتمع من جميع] ما اشتمل [عليه] هذا الكتاب من الأبواب مائة [باب] واثنان وثلاثون بابا ، أولها ذكر جميع أغراض هذا الكتاب ، والثانى ذكر ما اشتمل عليه هذا الكتاب من الأبواب ، وآخرها ذكر مَنْ حج بالناس من أول الإسلام إلى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة [وذكر جُمَل ألقابهم][1] .

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من ا . (٢) فى ا « فهذا جوامع » .

(٣) فى ا « ومقدار أعمارهم » .

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله

الباب الثالث

ذكر المبدأ ، وشأن الخليقة

وَذَرْءِ البَرِيَّةِ

اتفق أهلُ العلم[1] جميعاً من أهل الإسلام أن الله عز وجل خلق الأشياء على غير مِثَالٍ ، وابتدعها من غير أصل ، ثم رُوِى عن ابن عباس وغيره « أن أول ما خلق الله عز وجل الماء ، وكان عَرْشه عليه ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دُخَانا ، فارتفع [الدخان] فوق الماء فَسَمَّاه سماء ، ثم أيْبَسَ الماء فجعله أرضاً واحدة ، ثم فَتَقَهَا فجعلها سَبْعَ أَرَضين، فى يومين الأحدِ والاثنين ، وخلق الأرض على حُوتٍ[2]، والحوتُ هو الذى ذكره الله سبحانه فى القرآن فى قوله تعالى : (ن والقلم ومايسطرون) والحوتُ فى الماء ، والماء على الصَّفَا ، والصَّفَا على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة على الريح ، وهى الصخرة التى ذكرها الله تعالى فى القرآن حكايةً عن قول لقمان لابنه : (يا بُنَىّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأتِ بها الله ، إن الله لطيف خبير) فاضطرب الحوت فتزلزلت الأرض ، فأرْسَى الله عليها الجبال فَقَرَّتْ الأرض ،وذلك قوله تعالى:(وألقى فى الأرض رَواسِىَ أن تميدَ بكم)وخلق الجبال فيها ، وخَلق أقْوَاتَ أهلها ، وسخرها[3] ومَاينبغى لها،فى يومين[فى]يوم الثلاثاء

---

(١) فى ا « أهل الملة » .

(٢) ليس فى ذلك سنة صحيحة ولا دليل من العقل الواعى .

(٣) فى ا « وشجرها وما ينبغى لها » .

والأربعاء ، وذلك قوله تعالى: (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ، ذلك رب العالمين، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقْوَاتَها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين) فكان ذلك الدخانُ من نَفَسِ الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ، ثم فَتَقَهَا فجعلها سبعاً فى يومين فى يوم الخميس والجمعة ، وإنما سمى الجمعة لأن الله جَمَعَ فيه خلق السموات والأرض، ثم قال: (وَأوحى فى كل سماء أمرها) يقول: خلق فى كل سماء خَلْقَها من الملائكة والبحار وجبال الْبرَد ، وأن سماء الدنيا من زمردة خضراء ، والسماء الثانية من فضة بيضاء ، والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء ، والسماء الرابعة من درة بيضاء، والسماء الخامسة من ذهب أحمر ، والسماء السادسة من ياقوتة صفراء، والسماء السابعة من نور ، قد طبقها الله بملائكة قيامٍ على رِجْلٍ واحدة تعظيما لله لقربهم منه، قد خرقت أرْجُلُهم الأرض السابعة واستقرَّت أقدامهم على مسيرة خمسمائة عام تحت الأرض السابعة ، ورءوسهم تحت العرش من غير أن تبلغ العرش، وهم يقولون: لا إلهَ إلا الله ذو العرش المجيد ، فهم على ذلك منذ خُلِقوا إلى أن تقوم الساعة، وتحت العرش بحر تنزل منه أرزاق الحيوان ، يوحى الله تعالى إليه فَيُمْطِر ماشاء الله من سماء إلى سماء ، حتى ينتهى إلى موضع يقال له الأبْرم، فيوحى الله إلى الريح فتحمله إلى السحاب فتغربله ، وتحت سماء الدنيا بحر من ماء يطفح فيه من الدواب مثل ما فى بحور الأرض مستمسك بالقدرة ، وأن الله تعالى أسكنَ ظهر الأرض — لما فرغ من خلقها — الجنّ ، قبل آدم ، فجعلهم من مارِجٍ من نار ، وإبليسُ فيهم ، فنهاهم الله أن يسفكوا دم البهائم ، وأن يظهروا المعصية بينهم، فسفكوا وعدا بعضهم على بعض، فلما رآهم إبليس لا يُقلِعون عن ذلك سأل الله تعالى أن يرفعه إلى السماء ؛ فصار مع الملائكة يعبد الله أشد عبادة، وأرسل الله إلى الجن — وهم حزب إبليس — قبيلا من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحار

وقتلوا مَنْ شاء الله منهم ، وجعل الله إبليس على سماء الدنيا خازناً ، فوقع فى صدره كبرٌ »[١] .

ثم شاء الله عز وجل أن يخلق آدم فقال الله للملائكة : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) فقالوا : ربنا وما يكون[٢] ذلك الخليفة ؟ قال : تكون له ذرية ، ويُفسِدون فى الأرض ، ويتحاسدون ، ويقتل بعضهم بعضاً،فقالوا : ربنا (أتجعل فيها مَنْ يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم مالا تعلمون) .

ثم بعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها ، فقالت له الأرض: إنى أعوذ بالله منك أن تنقصنى ! ! فرجع ولم يأخذ منها شيئاً [وقال: يارب ، إنها عاذَتْ بك] ثم بعث الله ميكائيل فقالت له مثل ذلك ، فرجع ولم يأخذ منها شيئاً ، فبعث الله ملك الموت فعاذت بالله منه ، فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ الأمر ، فأخذ من تربة سوداء وحمراء وبيضاء ؛ فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فى الألوان ، وسمى آدَمَ لأنه أخذ من أديم الأرض، وقيل غير ذلك .

ووكل الله ملك الموت بالموت ، وجَبَلَه الله تعالى ، [وتركه] حتى صار طيناً لازِباً يلزق بعضه ببعض ، أربعين سنة ، ثم تركه حتى أنْتنَ وتغير أربعين سنة، وذلك قوله تعالى : (من حَمَإٍ مَسْنُون) أى : متغير منتن ، ثم صَوّرَه وتركه بلا روح من صَلْصَال كالفَخّار حتى أتى عليه مائة وعشرون سنة ، وقيل: أربعون سنة، وهو قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حِينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا) فكانت الملائكة تمرُّ به فيفزعون منه ، وكان أشدهم فزعا إبليس، كان يمر به فيضربه برجله، فيظهر له صوت كظهوره من الفخار وتكون له صَلْصَلَة، وذلك

(١) فى ا « فوقع فى صدره الكبر » .
(٢) فى ا « ومن يكون ذلك الخليفة » .

قوله تعالى : (من صلصال كالفخار) وقد قيل: إن الصلصال غير ما ذكرناه، وكان إبليس يدخل من فيه ويخرج من دبره ، وَيقول : لأمر ما خُلِقْتَ ، فلما أراد الله تعالى أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: اسْجُدُوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس (أبى واستكبر) وَقال : يارب (أنا خير منه، خلقتنى من نار وخلقته من طين) والنارُ أشرف من الطين ، وَأنا الذى كنت مستخلفاً فى الأرض، وأنا الملبس بالريش والموشَّحُ بالنور ، والمتوج بالكرامة، وَأنا الذى عبدتك فى سمائك وَأرضك، فقال الله تعالى : (فاخرج منها فإنك رجيم ، وَإن عليك لعنتى إلى يوم الدين) فسأل الله المُهلَة إلى يوم يُبْعثون ، فأنظره الله إلى يوم الوقت المعلوم، وذهب على إبليس المعنى الذى له ومن أجله أمر لآدم بالسجود: فمن الناس من رأى أن آدم كان محرابا للمأمورين بالسجود والمقصود بذلك الخالق عز وجل، وموافقة الأمر والطاعة له على سبيل البلوى والاختبار والمحنة الواقعة بالمكلفين، ومنهم من رأى غير ذلك، ثم نفخ الله تعالى فى آدم من روحه ؛ فكان كلما دخل فى بعضه الروح[1] يذهب ليجلس فقال الله تعالى : (وكان الإنسان عجولا) ولما تتابع[2] فيه الروح عَطِسَ ، فقال الله له : قل الحمد لله ، يرحمك الله يا آدم .

قال المسعودى : وما ذكرناه من الأخبار فى مبدأ الخليقة هو ما جاءت به الشريعة[3] ، ونقله الخلف عن السلف ، وَالباقى عن الماضى، فعبرنا عنهم على حسب ما نقل إلينا من ألفاظهم ووجدناه فى كتبهم ، مع شهادة الدلائل بحدوث العالم واتضاحها بكَوْنه ، ولم نتعرض لوصف قول من وافق ذلك وانقاد إليه من أهل الملل القائلين بالحدوث ، ولا الرد على مَنْ سواهم ممن خالف ذلك وقال بالقدم؛ لذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا، وقد ذكرنا فى مواضع كثيرة

---

(١) فى ا « فكان كلما حلت فى بعضه الروح ذهب ليجلس » .

(٢) فى ا « فلما تبالغ فيه الروح عطس » .

(٣) أغلب هذا التفصيل إسرائيلى ولا يثبت وكل ما ليس فى القرآن نصاً لا يوثق به.

من كتابنا هذا جُمَلاً من علوم النظر والبراهين والجَدَل تتعلق بكثير من الآراء والنحل [وذلك] على طريق الخبر .

وَروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام أنه قال : إن الله حين شاء تقدير الخليقة وذَرْء البرية وَإبداع المُبْدعات نَصَبَ الخلق فى صور كالهباء قبل دَحْو الأرض ورفع السماء، وهو فى انفراد ملكوته وتوحد جبروته فأتاح[1] نوراً من نوره فلمع، و[نزع] قبساً من ضيائه فسطع، ثم اجتمع النور فى وسط تلك الصور الخفية فوافق ذلك صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقال الله عز من قائل : أنت المختار المُنْتَخَبُ ، وعندك مستودَع نورى وكنوز هدايتى، من أجلك أسْطَحُ البطحاء، وأمْرُجُ الماء ، وأرفع السماء، وأجعل الثواب والعقاب والجنة والنار ، وأنصب أهل بيتك للهداية، وأوتيهم من مكنون علمى ما لا يشكل عليهم دقيقٌ ولا يُعييهمْ خفى[2] ، وأجعلهم حجتى على بريَّتى ، والمنبهين على قدرتى ووحدانيتى، ثم أخذ الله الشهادة عليهم بالربوبية والإخلاص وبالوحدانية فبعد أخذِ ما أخذ من ذلك شاب ببصائر الخلق انتخاب محمد وآله[3]، وأراهم أن الهداية معه والنور له والإمامة فى آلِهِ ؛ تقديما لسنة العدل ، وليكون الإعْذَارُ متقدما ، ثم أخفى الله الخليقة فى غيبه ، وغيبها فى مكنون علمه، ثم نصب العوامل وبسط الزمان ، ومَرَجَ الماء، وأثار الزبَدَ ، وأهاج الدخان ، فطفا عرشه على الماء ، فسطح الأرضَ على ظهر الماء [وأخرج من الماء دخانا فجعله السماء] ثم استجلبهما إلى الطاعة فأذعَنَتَا بالاستجابة ، ثم أنشأ الله الملائكة من أنوار أبْدَعَها ، وأرواح اخترعها ، وقرَنَ بتوحيده نبوةَ محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) فى ا « فأساح » .
(٢) فى ا « مالا يخفى عليهم دقيق ، ولا يغيب عنهم خفى » .
(٣) فى ب «فقبل أخذ ما أخذ جل شأنه ببصائر الخلق انتخب محمداً وآله »

فشهرت فى السماء قبل بعثته فى الأرض ، فلما خلق آدم أبَانَ فضله للملائكة، وأراهم ماخَصَّه به من سابق العلم من حيث عَرَّفَه عند استنبائه إياه أسماء الأشياء؛ فجعل الله آدم محراباو كعبة وباباوقبلة أسْجَدَ إليها الأبرار والروحانيين الأنوار ، ثم نَبَّه آدم على مستودعه ، وكشف له [عن] خطر ما ائتمنه عليه ، بعد ماسماه إماما عند الملائكة ، فكان حظ آدم من الخير ما أراه[(1)] من مستودع نورنا ، ولم يزل الله تعالى يَخْبأ النور تحت الزمان إلى أن فَضَّل محمداً صلى الله عليه وسلم فى ظاهر الفترات ، فدعا الناس ظاهراً وباطناً ، ونَدَبهم سراً وإعلاناً ، واستدعى عليه السلام التنبيه على العهد الذى قَدَّمه إلى الذَّرِّ قبل النَّسْل ؛ فمن وافقه وقبس من مصباح النور المقدَّم اهتدى إلى سره ، واستبان واضح أمره ، ومن أبلسته الغفلة استحق السخط. ثم انتقل النور إلى غرائزنا ، ولمع فى أئمتنا ؛ فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض ، فبنا النجاة ، ومنا مكنون العلم ، وإلينا مصير الأمور ، وبمهْدِيِّنَا تنقطع الحجج ، خاتمة الأئمة ، ومنقذ الأمة ، وغاية النور ، ومصدر الأمور ، فنحن أفضل المخلوقين ، وأشرف الموحِّدِينَ ، وحجج رب العالمين ؛ فليهنأ بالنعمة من تمسك بولايتنا ، وقبض على عُرْوَتنا ، فهذا ماروى عن أبى عبد الله جعفر ابن محمد عن أبيه محمد بن على عن أبيه على بن الحسين عن أبيه الحسين بن على عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ولم نتعرض لكثير من أسانيد هذه الأخبار وطُرُقها ؛ لأنا قد أتينا على جميع ذكرها واتصالها فى النقل بمن ذكرناها عنه وعزَوْناها إليه فيما سلف من كتبنا خوف الإكثار والتطويل فى هذا الكتاب .

وأما ماوجد فى التوراة فهو أن الله تعالى ابتدأ الخلق فى يوم الأثنين، وكان انتهاء الفراغ يوم السبت ، فاتخذ اليهود لذلك يوم السبت عيداً ، وزعم

---

(١) فى ا « ثناؤه بمستودع » .

أهل الإنجيل أن المسيح عليه السلام قام من قبره يوم الأحد؛ فاتخذوا ذلك اليوم عيداً.

أما ماذهب إليه الجمهور من أهل الفقه والآثار فهو أن الابتداء كان يوم الأحد والفراغ يوم الجمعة، وفيه نُفِخَ في آدم الروحُ، وهو اليوم السادس من نيسان، ثم خلقت حواء من آدم، وأسكنا الجنة لثلاث ساعات مضت منه، فمكثا ثلاث ساعات، وهو رُبع يوم بمائتي سنة وخمسين سنة من أعوام الدنيا، وأهبط الله آدم بسرنديب، وحواء بجُدَّة، وإبليس ببيسان، والحية بأصبهان، فهبط آدم بالهند على جزيرة سرنديب، على جبل الراهون وعليه الوَرَقُ الذي خَصَفه من ورق الجنة، فييبس، فَذَرَتْهُ الرياح، فانتثر في بلاد الهند، فيقال والله أعلم : إن علة كون الطيب بأرض الهند من ذلك ولذلك خصت أرض الهند بالعود والقرنفل والأفاويه والمسك وسائر الطيب، وكذلك الجبل، لمعت عليه اليواقيت، وكان من الماس، وفي جزائر بحره السنباذج، وفي قعره مغائص اللؤلؤ، وإن آدم لما أهبط من الجنة أخرج منها ومعه صرة من الحنطة وثلاثون قضيباً من شَجَرَات الجنة مُودَعَةٌ أصناف الثمار : منها عشرة مما له قِشْرٌ، وهي : الجوز، واللوز، والجلوز، والبندق، والفستق، والخشخاش، والشاهبلوط، والرانج، والرُّمان، والموز، والبلوط، ومنها عشرة ذات نَوَى، وهي : الخوخ، والمشمش، والإجاص، والرطب، والغبيراء، والنبق، والزعرور، والعنّاب، والمقل، والشاهلوج[1] [وهذا اسم فارسي وتفسيره ملك الإجاص] ومنها عشرة مما لاقشر لها ولاحجاب دون مطعمها[2] ولا نوى داخلها، وهي : التفاح، والسفرجل، والعنب، والكمثرى، والتين، والتوت، والأترج، والقثاء، والخيار، والخروب[3]، ويقال : إن آدم لما أهبط من الجنة هو وحواء هَبَطا

(١) في ا « والقراصيا » وسقط منها ما بين الحاصرتين .

(٢) نقل ذلك ابن جرير أيضاً (ج ١ ص ٦٤) ولكنه قال : « وأما التي لاقشور لها ولا نوى » .

(٣) في ا «والبطيخ» بدل «والخروب» وليس البطيخ مما لاحجاب دون مطعمه

متفارقين ؛ فتعارفا بالموضع الذى يسمى عَرَفَةَ ، وبتعارفهما فيه سمى بهذه التسمية ، وقيل غير ذلك ، وإن آدم عليه السلام تَاقَ إلى حواء فغشيها فاشتملت على ذكر وأنثى ؛ فسمى الذكر قاين والأنثى لويذاء[١] ، ثم عاود الغشيان فاشتملت حواء أيضاً على ذكر وأنثى ؛ فسمى الذكر هابيل والأنثى أقليمياء ، وقد تنوزع فى اسم الولد الأول منهما : فذهب الأكثر من أهل الكتاب وغيرهم أن اسمه قاين على ماذكرنا ، ومنهم من رأى أن اسمه قابيل وهو قول فريق من الناس ، والأغلب ما قَدَّمناه[٢] ، وقد ذكر على بن الجهم فى قصيدته فى بدء الخلق والذَّرْء ذلك، فقال :

واقتنيا الابن فسمى قاينا وعاينا مِنْ نَشْئِهِ ما عاينا
فشبَّ هابيلُ وشبَّ قاينُ ولم يكن بينهما تباينُ

وذكر أهل الكتاب أن آدم زَوَّج أخت هابيل لقاين ، وأخت قاين لهابيل ، وفرق فى النكاح بين البطنين ، وهذه [كانت] سُنَّةَ آدم عليه السلام احتياطاً لأقصى مايمكنه فى ذوى المحارم لموضع الاضطرار وعجز النسل عن التباين والاغتراب . وقد زعمت المجوس أن آدم لم يخالف فى النكاح بين البطون ولم يتحَرَّ المخالفة ، ولهم فى هذا المعنى سر يَدَّعون فيه الفضل فى صلاح الحال بتزويج الأخ من أخته والأم من ابنها ، وقد أتينا به فى الفن الرابعَ عشر من كتابنا الموسوم بـ « أخبار الزمان ، ومَنْ أباده الحدثان ، من الأمم الماضية ، والأجيال الخالية ، والمماليك الداثرة » وإن هابيل وقاين قرَّبا قرباناً فتَحَرَّى هابيل أجود غنمه وأجود طعامه فقربه ، وتحرى قاين شر ماله وقربه ، فكان من أمرهما ما قد حكاه الله تعالى فى كتابه العزيز

(١) فى ا « لبيداء » .

(٢) هذا الذى لم يرق صاحب الكتاب قد حكاه كثير من المؤرخين منهم شيخهم ابن جرير الطبرى . والاختلاف فى هذه الأسماء على كل حال مما لا طائل تحته ، ولا يصح فيه شىء .

من قتل قاين هابيل ، ويقال : إنه اغتاله فى برية قاع ، ويقال : إن ذلك كان ببلاد دمشق من أرض الشام ، وكان قتله شَدْخاً بحجر ، فيقال : إن الوحوش هنالك استوحشت من الإنسان ، وذلك أنه بدأ [فبلغ الغرض] بالشر والقتل ، فلما قتله تحيَّر فى تَوْرِيته ، وحمله يطوف به الأرض ، فبعث الله غراباً إلى غراب فقتله ودفنه ، فأسف قاين ثم قال ماحكاه القرآن عنه : (يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى) فدفنه عند ذلك ، فلما علم آدم بذلك حزن وجزع وارتاع وهلع .

قال المسعودى : وقد استفاض فى الناس شعر يَعْزُونه إلى آدم ، أنه قال حين حزن على ولده وأسف على فقده ، وهو :

تَغَيَّرَتِ البلادُ ومَنْ عليها ... فوجْهُ الأرْضِ مُغْبَرٌّ قبيح
تغير كلُّ ذِى لون وطعمٍ ... وقلَّ بشاشةَ الوجهُ الصبيح[1]
وبُدِّل أهلُها خَمْطا وأثْلاً ... بجناتٍ مِنَ الفردوسِ فِيح
وجاوَرَنا عدوٌّ ليس يَنْسَى ... لَعِينٌ لا يموت فنستريح
وقَتَلَ قاينٌ هابيلَ ظلما ... فوا أسفا على الوجه المليح
فمالى لا أجود بسَكْب دمع ... وهابيل تضمنه الضريح
أرى طول الحياة علىَّ غما ... وما أنا من حياتى مستريح

ووجدت فى عدة من كتب التواريخ والسير والأنساب أن آدم لما نطق بهذا الشعر أجابه إبليس من حيث يسمع صوته ولا يرى شخصه ، وهو يقول:

---

(١) من الناس من يروى هذا البيت بنصب بشاشة من غير تنوين ورفع الوجه الصبيح على أنه فاعل قل ، وذلك ليسلم الشعر من الإقواء ، وهو اختلاف حركة الروى . ومنهم من يرفع بشاشة على الفاعلية ويضيفها إلى مابعدها فيكون فى البيت إقواء ، والخطب يسير ، فإن هذا الشعر مصنوع قد تكلف صانعه فيه هذا ليدل فيما ظن على أنه متقادم العهد حتى ليرقى إلى آدم أبى البشر . وهو مالا نكاد نصدقه أصلا .

تَنَحَّ عَنِ البلادِ وساكنيها فَقَدْ فى الأرْضِ ضاق بكَ الفَسِيحُ
وكنتَ وزوْجكَ الحوَاء فيها أآدمُ مِنْ أذَى الدُّنيا مريحُ
فما زالَتْ مكايدتى ومكرى إلى أنْ فَاتَكَ الثمنُ الرَّبيحُ
فَلَوْلا رَحْمَةُ الرَّحمنِ أضْحَتْ بِكَفِّك منْ جنَانِ الْخُلْدِ رِيحُ(١)

ووجدت أن آدم عليه السلام سمع صوتاً ولا يرى شخصاً وهو يقول بيتاً آخر مفرداً دون ما ذكرنا من هذا الشعر ، وهو هذا البيت :

أبا هابِيلَ قَدْ قتلاَ جميعاً وصارَ الحَىُّ بالميْتِ الذَّبيح

فلما سمع آدم ذلك ازداد حزناً وجزَعاً على الماضى والباقى ، وعلم أن القاتل مقتول ؛ فأوحى الله إليه إنى مخرج منك نورى الذى به السلوك فى القنوَات الطاهرة والأرومات الشريفة ، وأباهى به الأنوار ، وأجعله خاتم الأنبياء ، وأجعل آله خيار الأئمة الخلفاء ، وأختم الزمان بمدتهم ، وأغص الأرض بدعوتهم ، وأنشرها بشيعتهم(٢) ، فشمِّر وتطهَّر ، وقدِّس ، وسبِّحْ ، واغشَ زَوجتك على طهارة منها ، فإن وديعتى تنتقل منكما إلى الولد الكائن منكما ، فواقع آدم حوّاء ، فحملت لوقتها ، وأشرق جبينها ، وتلألأ النور فى مخايلها ، ولمع من محاجرها ، حتى إذا انتهى حملها وضعت نَسَمَةً كأسر ما يكون من الذُّكْران ، وأتمهم وقاراً ، وأحسنهم صورة ، وأكملهم هيئة ، وأعْدَلهم خَلْقاً ، مجللاً بالنور والهيبة ، موشحاً بالجلالة والأبهة ، فانتقل النور من حواء إليه حتى لمع فى أسارير جبهته ، وبَسَق فى غُرَّة طلعته ، فسماه آدم شيثاً ، وقيل شيث هبة الله ، حتى إذا ترعرع وأيفعَ وكمل واستبصر أوْعَزَ إليه آدم وَصِيَّته ، وعرَّفه محل ما استودعه ، وأعلمه أنه حجة الله

حواء تحمل بشيث

(١) فى ا « فلولا رحمة الجبار » .
(٢) فى ا « وأنيرها بشيعتهم » .

بعده ، وخليفته فى الأرض ، والمؤدّى حق الله إلى أوْصيائه ، وأنه ثانى انتقال الذرّة الطاهرة ، والجرْثومة الزاهرة .

وصية آدم لشيث ثم وفاته

ثم إن آدم حين أدى الوصية إلى شيث احْتَقَبَهَا ، واحتفظ بمكنونها ، وأتت وفاة آدم عليه السلام ، وقرب انتقاله ، فتوفى يوم الجمعة لست خَلَوْن من نيسان ، فى الساعة التى كان فيها خَلْقُه ، وكان عمره عليه السلام تسعمائة سنة وثلاثين سنة ، وكان قد وصى ابنه شيثاً عليه السلام على ولده ، ويقال: إن آدم مات عن أربعين ألفاً من ولده وولد ولده .

وتنازع الناس فى قبره ؛ فمنهم من زعم أن قبره بمنى فى مسجد الخَيْف ، ومنهم من رأى أنه فى كهف فى جبل أبى قُبَيْس ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم بحقيقة الحال .

حكم شيث ابن آدم

وإن شيثاً حكم فى الناس ، واستشرع صحف أبيه وما أنزل عليه فى خاصته من الأسفار والأشراع ، وإن شيثاً واقع امرأته فحملت بأنوش ، فانتقل النور إليها ، حتى إذا وضعته لاحَ النور عليه ، فلما بلغ الوَصَاةَ أوعز إليه شيث فى شأن الوديعة [وعرفه شأنها] وأنها شرفهم [وكرمهم] وأوعز إليه أن ينبِّه ولده على حقيقة هذا الشرف وكبر محله ، وأن ينبهوا أولادهم عليه ، ويجعل ذلك [فيهم] وصية منتقلة ما دام النسل .

فكانت الوصية جارية تنتقل من قَرْن إلى قَرْن ، إلى أن أدّى الله النور إلى عبد المطلب وولده عبد الله أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا موضع تنازع بين الناس من أهل الملة ، ممن قال بالنص وغيرهم من أصحاب الاختيار ، والقائلون بالنص هم [الإباضية] أهل الإمامة من شيعة على بن أبى طالب رضى الله عنه والطاهرين من ولده الذين زعموا أن الله لم يُخْلِ عصراً من الأعصار من قائم بحق الله : إما أنبياء ، وإما أوصياء منصوص على أسمائهم وأعيانهم من الله ورسوله ، وأصحابُ الاختيار هم فقهاء الأمصار والمعتزلة وفرق من الخوارج والمرجئة وكثير

من أصحاب الحديث والعوام وفرق من الزَّيْدِية ؛ فزعم هؤلاء أن الله ورسوله فوّض إلى الأمة أن تختار رجلا منها فتنصبه لها إماماً ، وأن بعض الأعصار قد يخلو من حجة الله ، وهو الإمام المعصوم عند الشيعة ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب لمعًا من إيضاح ما وصفنا من أقاويل المتنازعين وتباين المختلفين .

أنوش بن شيث وولده

وإن أنوش قد لبث في الأرض يعمرها ، وقد قيل - والله أعلم - إن شيثاً أصل النسل من آدم دون سائر ولده ، وقيل غير ذلك ، [وكانت وفاة شيث وقد مضت له تسعمائة سنة واثنتا عشرة سنة] وفي زمن أنوش قُتِلَ قاينُ ابنُ آدم قاتلُ أخيه هابيل ، ولمقتله خبر عجيب قد أوردناه في « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، وكانت وفاة أنوش لثلاث خلون من تشرين الأول ، فكانت مدته تسعمائة سنة وستين سنة ، وكان قد ولد له قينان ، ولاح النور في جبينه ، وأخذ عليه العهد ، فعمر البلاد حتى مات ، فكانت مدته تسعمائة سنة وعشرين سنة ، وقد قيل : إن موته كان في تموز بعد ما ولد له مهلائيل ، فكانت مدة مهلائيل ثمانمائة سنة ، وقد ولد له لود ، والنور متوارث ، والعهد مأخوذ ، والحق قائم ، ويقال : إن كثيراً من الملاهي أحدثت في أيامه ، أحدثها ولد قاين قاتل أخيه ، ولولد قاين مع ولد لود حروب وقصص قد أتينا على ذكرها في كتابنا « أخبار الزمان » ووقع التحارب بين ولد شيث وبين غيرهم من ولد قاين ، | فنوع من الهند ممن يقر بآدم ينتسبون إلى هذا الشعب من ولد قاين | وأكثر هذا النوع بأرض قار من أرض الهند ، وإلى بلدهم أضيف العود القماري ؛ فكانت حياة لود سبعمائة سنة واثنتين وثلاثين[1] سنة ، وكانت وفاته في آذار .

أخنوخ

وقام بعده ولده أَخْنُوخُ ، وهو إدريس النبي صلى الله عليه وسلم ، والصابئة تزعم أنه هو هرمس ، ومعنى هرمس عطارد ، وهو الذي أخبر الله

(١) في ا « تسعمائة واثنتين وستين سنة » .

عز وجل فى كتابه أنه رفعه مكاناً علياً [وكانت حياته فى الأرض ثلثمائة سنة ، وقيل أكثر من ذلك] ، وهو أول من دَرَزَ الدروز ، وخاط بالإبرة ، وأنزل عليه ثلاثون صحيفة ، وكان قد نزل قبل ذلك على آدم إحدى وعشرون صحيفة ، وأنزل على شيث تسع وعشرون صحيفة فيها تهليل وتسبيح .

متوشلخ

وقام بعده مَتُّوشَلخ بن أخنوخ ، فعمر البلاد والنورُ فى جبينه ، وولد له أولاد ، وقد تكلم الناس فى كثير من ولده ، وإن البلغر والروس والصقالبة من ولده ، وكانت حياته تسعمائة سنة وستين سنة ، ومات فى أيلول .

لمك

وقام بعده لمك ، وكان فى أيامه كوائن واختلاط فى النسل ، وتوفى ، وكانت حياته سبعمائة سنة وتسعين سنة[1] .

نوح

وقام بعده نوح بن لمك عليه السلام ، وقد كثر الفساد فى الأرض ؛ فاشْتَدَّتْ دَيَاجِى الظلم ، فقام فى الأرض داعياً إلى الله ، فأبوا إلا طغياناً وكفراً ، فدعا الله عليهم ، فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك ، فلما فرغ من السفينة أتاه جبريل عليه السلام بتابوت آدم فيه رمَّته ، وكان ركوبهم فى السفينة يوم الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من آذار ، فأقام نوح ومن معه فى السفينة على ظهر الماء ــ وقد غرق جميعُ الأرض ــ خَمْسَةَ أشهر ، ثم أمر الله تعالى الأرض أن تبتلع الماء والسماء أن تُقلِع ، واستوت السفينة على الْجُودِىِّ ، والجودى : جبل ببلاد باسورى ، وجزيرة ابن عمر ببلاد الموصل ، وبينه وبين دجلة ثمانية فراسخ ، وموضع جُنُوح السفينة على رأس هذا الجبل إلى هذه الغاية .

وذكر أن بعض الأرض لم يُسْرِع إلى بَلْعِ الماء ، ومنها ما أسرع إلى بَلْعِهِ عندما أمرت ، فما أطاع كان ماؤه عذباً إذا احتفر ، وما تأخر عن القبول أعقبها الله بماء مِلْحٍ [إذا احتفر ، وسباخ] ومَلَّاحات ، ورمال ،

(١) فى ا « تسعمائة وتسعا وتسعين سنة » .

وما تخلف من الماء الذى امتنعت الأرض من بَلْعه انحدر إلى قعور مواضع من الأرض ، فمن ذلك البحار ، وهى بقية الماء الذى عصت أرضُه أهلك به أمم ، وسنذكر بعد هذا الموضع من كتابنا هذا أخبار البحار ووصفها .

أولاد نوح

ونزل نوح من السفينة ومعه أولاده الثلاثة ، وهم : سام ، وحام ، ويافث ، وكَنَّاتُه[1] الثلاث أزواج أولاده ، وأربعون رجلا ، وأربعون امرأة ، وصاروا إلى سفح الجبل ؛ فابتَنَوْا هنالك مدينة وسموها ثمانين ، وهو اسمها إلى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، ودَثَرَ عقبُ هؤلاء الثمانين نفساً ، وجعل الله نسل الخليقة من نوح من الثلاثة من ولده ، وقد أخبر الله عز وجل بذلك بقوله : (وجعلنا ذريته هم الباقين) والله أعلم بهذا التأويل .

والمتخلف عنه من ولده الذى قال له : (يا بنى اركب معنا) هو يام .

وقسم نوحٌ الأرض بين أولاده أقساما ، وخص كل واحد بموضع ، ودعا على ولده حام لأمر كان منه مع أبيه قد اشتهر ، فقال : ملعون حام ، عبد [عنيد] يكون لإخوته ، ثم قال : مبارك سام ، ويكثر الله يافث ، ويحل يافث فى مسكن سام .

ووجدت فى التوراة أن نوحا عاش بعد الطوفان ثلثمائة سنة وخمسين سنة ؛ فجميع عمر نوح تسعمائة وخمسون سنة [وقد قيل غير ذلك] .

مساكن حام بن نوح

فانطلق حام وأتبعه ولده ، فنزلوا مساكنهم فى البر والبحر على حسب ما نذكره بعد هذا الموضع من هذا الكتاب ، وسنذكر تفرق النسل فى الأرض ومساكنهم فيها من ولد يافث وسام وحام .

مساكن سام

فأما سام فسكن وسط الأرض من بلاد الحرم إلى حضرموت إلى عمان إلى عالج ، فمن ولده إرم بن سام ، وإرفخشذ بن سام [بن نوح] .

إرم بن سام

ومن ولد إرم بن سام عادُ بن عوص بن إرم [بن سام] وكانوا ينزلون الأحقاف من الرمل ، فأرسِلَ إليهم هودٌ .

---

(١) الكنات : جمع كنة — بفتح الكاف وتشديد النون — وتجمع أيضا على كنائن ، على غير قياس ، وقد ورد فى بعض الأصول « كنانة » والكنة : امرأة الابن

ثمود من ولد سام

وثمود بن عابر[1] بن إرم بن سام ، وكانوا ينزلون الحِجْرَ بين الشام والحجاز ، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحا ، وكان من أمرهم مع صالح ما قد اتضح أمره ، واشتهر خبره ، وسنذكر بعد هذا الوضع من هذا الكتاب لمعا من أخباره وأخبار غيره من الأنبياء عليهم السلام .

طسم وجديس وعمليق

وطَسْمٌ وجَديس ابنا لاوذ بن إرم ، وكانوا ينزلون اليمامة والبحرين ، وأخوهما عمليق بن لاوذ بن إرم ، نزل بعضهم الحرم ، وبعضهم الشام ، ومنهم العماليق ، تفرقوا فى البلاد ، وأخوهم أميم بن لاوذ نزل أرض فارس ، وسنذكر فى باب تنازع الناس فى أنساب الفرس من هذا الكتاب من ألحق كيومرت بأميم ، وقيل : إن أميا نزل أرض وَبَارِ وهى التى غلبت عليها الجن على ما زعم الأخباريون من العرب .

ونزل بنو عبيل بن عوص أخى عاد بن عوص مدينة الرسول عليه السلام .

ماش بن إرم وأولاده

وولد سام بن نوح ماش بن إرم بن سام ، ونزل بابل [على شاطىء الفرات] فولد نمروذ بن ماش ، وهو الذى بنى الصَّرْحَ ببابل ، وجَسَّرَ جِسْراً ببابل على شاطىء الفرات ، وملك خمسمائة سنة ، وهو ملك النَّبطِ ، وفى زمانه فرق الله الألسن : فجعل فى ولد سام تسعةَ عشرَ لسانا ، وفى ولد حام سبعة عشر لسانا ، وفى ولد يافث ستة وثلاثين لسانا ، وتشعبت بعد ذلك اللغات وتفرقت الألسن ، وسنذكر هذا فى موضعه الذى يوجد فى كتابنا هذا ، وتفرق الناس فى البلاد ، وما قالوا فى ذلك من الأشعار عند تفرقهم فى البلاد بأرض بابل ، ويقال : إن فالغ هو الذى قسم الأرض بين الأمم ، ولذلك سمى فالغ ، وهو فالج : أى قاسم .

فالغ بن شالخ وأولاده

وولد إرنخشذ بن سام بن نوح شالخ ، فولد شالخ فالغ بن شالخ الذى قسم الأرض وهو جد إبراهيم عليه السلام ، وعابر بن شالخ ، وابنه قحطان بن عابر ، وابنه يَعْرُب بن قحطان ، وهو أول من حيَّاه ولده بتحية الملك «أنْعِمْ

(١) فى الطبرى « جاثر بن إرم بن سام » (ج ١ ص ١١٥)

ضباحاً » و « أبيْتَ اللّعنَ » وقيل : إن غيره حُيِّيَ بهذه التحية من ملوك الحيرة ، وقحْطان أبو اليمن كلها على حسب ما نذكر إن شاء الله تعالى فى باب تنازع الناس فى أنساب اليمن من هذا الكتاب ، وهو أول من تكلم بالعربية لإعرابه عن المعانى وإبانته عنها ، ويقطن بن عابر بن شالخ هو أبو جرهم وجرهم بنو عم يعرب ، وكانت جُرْهُمْ ممن سكن اليمن وتكلموا بالعربية ، ثم نزلوا مكة فكانوا بها، على حسب ما نورده من أخبارهم، وقَطُورًا بنو عم لهم، ثم أسكنها الله إسماعيل عليه السلام ، ونكح فى جرهم ؛ فهم أخوال ولده..

وذكر أهل الكتاب أن لمك بن سام بن نوح حى ؛ لأن الله عز وجل أوحى إلى سام : إن الذى وكلته بجسد آدم أبقيته إلى آخر الأبد ، وذلك أن سام ابن نوح دفن تابوت آدم فى وسط الأرض ، وكَّلَ لمكاً بقبره ، وكانت وفاة سام يوم الجمعة ؛ وذلك فى أيلول ، وكان عمره إلى أن قبضه الله عز وجل ستمائة سنة .

إرفخشذ بن سام

وكان القيم بعد سام فى الأرض ولده إرفخشذ ، وكان عمره إلى أن قبضه الله عز وجل أربعمائة سنة وخمساً وستين سنة ، وكانت وفاته فى نيسان .

شالخ بن إرفخشذ

ولما قبض الله إرفخشذ قام بعده ولده شالخ بن إرفخشذ ، وكان عمره إلى أن قبضه الله عز وجل أربعمائة سنة وثلاثين سنة .

عابر بن شالخ

ولما قبض الله شالخ قام بعده ولده عابر ؛ فعمر البلاد ، وكانت فى أيامه كوائن وتنازع فى مواضع من الأرض ، وكان عمره إلى أن قبضه الله عز وجل إليه ثلثمائة سنة وأربعين سنة .

فالغ بن عابر

ولما قبض الله عابر قام بعده ولده فالغ على نهج من سَلَفَ من آبائه ، وكان عمره إلى أن قبضه الله عز وجل مائتى سنة وثلاثين سنة[1] ، وقد قدمنا ذكره فى هذا الكتاب فيما سلف، وما كان بأرض بابل عند تبلبل الألسن.

رعو بن فالغ

ولما قبض الله فالغ قام بعده ولده رعو[2] بن فالغ، وقيل: إن فى زمنه كان مولد

(١) فى ا « مائتى سنة وتسعا وثلاثين سنة » .

(٢) فى ا « أرعو بن فالغ » .

نمروذ الجبار ، وكان عمره إلى أن قبضه الله مائتى سنة ، وكانت وفاته فى نيسان.

ساروغ بن رعو

ولما قبض الله رعو قام بعده ساروغ بن رعو ، وقيل : إنه فى أيامه ظهرت عبادة الأصنام والصُّوَر ، لضروب من العلل أحدثت فى الأرض [وشبه ذلك] ، وكان عمره إلى أن قبضه الله إليه مائتى سنة وثلاثين سنة .

ناحور بن ساروغ

ولما قبض الله ساروغ قام بعده ناحور بن ساروغ[1] مقتديا بمن سلف من آبائه، وحدث فى أيامه رجْفٌ وزلازل لم تعهد فيما سلف من الأيام قبله، وأحدثت فى أيامه ضروب من المهن والآلات ، وكانت فى أيامه حروب وتحزيب الأحزاب من الهند وغيرها ، وكان عمره إلى أن قبضه الله إليه مائة سنة وستاً وأربعين سنة.

تارح بن ناحور

ولما قبض الله ناحور قام بعده ولده تارح[2] ، وهو آزر أبو إبراهيم الخليل ، وفى عصره كان نمروذ بن كنعان ، وفى أيام نمروذ حدثت فى الأرض عبادة النيران والأنوار ، وجعل لها مراتب فى العبادات ، وكان فى الأرض هرج عظيم من حروب وإحداث كور وممالك بالشرق والغرب ، وغير ذلك، وظهر القول بأحكام نجوم وصورت الأفلاك[3] ، وعملت لها الآلات ، وقُرِّبَ فهم ذلك إلى قلوب الناس ، فنظر أصحاب النجوم إلى طالع السنة التى ولد فيها إبراهيم عليه السلام وماذا يوجب ، فأخبروا النمروذ أن مولوداً يولد يُسَفِّهُ أحلامهم ، ويزيل عبادتهم ، فأمر النمروذ بقتل الولدان، وأخفى إبراهيم عليه السلام [فى مغارة] ، ومات آزر ، وهو تارح ، وكان عمره إلى أن قبضه الله عز وجل مائتين وستين سنة ، والله الموفق للصواب .

ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ، ومن تلا عصره

من الأنبياء والملوك ، من بنى إسرائيل وغيرهم

ولما نشأ إبراهيم عليه السلام ، وخرج من المغارة التى كان بها ، وتأمل آفاق [الأرض و] العالم ، ومافيه من دلائل الحدوث والتأثير ، نظر إلى الزهرة وإشراقها

(١) فى ا « ناخور بن ساروغ » (٢) فى ا « تارخ » .
(٣) فى ا « وكورت الأفلاك » .

فقال : هذا ربى ، فلما رأى القمر أنور منها قال : هذا ربى ، فلما رأى الشمس أبهَرَ مما رأى قال : هذا ربى هذا أكبر ، وقد تنازع الناس فى قول إبراهيم « هذا ربى » ، فمنهم مَنْ رأى أن ذلك كان منه على طريق الاستدلال والاستخبار ، ومنهم مَنْ رأى أن ذلك منه كان قبل البلوغ وحال التكليف ، ومنهم مَنْ رأى غير ذلك ، فأتاه جبريل فعلَّمه دينه ، واصطفاه الله نبيًّا وخليلا . وكان قد أُوتى رُشْدَه من قبل ، ومن أُوتى رشده فقد عصم من الخطأ والزلل وعبادة غير الواحد الصمد ، فعاب إبراهيم عليه السلام على قومه ما رأى من عبادتهم واتخاذهم الجوَّفَاتِ[1] آلهة لهم ، فلما كثر عليهم ذم إبراهيم لآلهتهم ، واستفاض ذلك فيهم اتخذ النمروذ النار وألقاه فيها ، فجعلها الله بَرْداً وَسَلَاماً ، وخمدت النار فى سائر بقاع الأرض فى ذلك اليوم .

مولد إسماعيل ابن إبراهيم

وولد لإبراهيم إسماعيلُ عليهما السلام ، وذلك بعد أن مضى من عمره ست وثمانون سنة [أو سبع وثمانون سنة] وقيل : تسعون سنة[2] من هَاجَرَ جارية كانت لِسَارَةَ ، وكانت سَارَةُ أول من آمن بإبراهيم عليه السلام ، وهى ابنة بتوايل بن ناحور ، وهى ابنة عم إبراهيم ، وقد قيل غير هذا مما سنورده بعد هذا الموضع ، وآمَنَ به لوط بن هاران بن تارح بن ناحور ، وهو ابن أخى إبراهيم عليه السلام .

أصحاب المؤتفكة

وأرسل الله لوطاً إلى المدائن الخمس ، وهى : سَدُوم ، وعمورا ، وأدموتا ، وصاعورا ، وصابورا ، وإن قوم لوط هم أصحاب المؤتفكة ، وهذا الاسم مشتق من الإفك ، وهو الكذب على رأى من ذهب إلى الاشتقاق ، وقد ذكرهم الله فى كتابه بقوله : (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى) وهذه بلاد بين تُخُوم الشام والحجاز مما يلى الأردن وبلاد فلسطين ، إلا أن ذلك فى حيز الشام ، وهى مُبَقاة إلى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة خراباً

(١) فى ا « المنحوتات » . (٢) فى ب « وقيل سبعون » .

لا أحد بها[1]، والحجارة المُسَوَّمَة موجودة فيها يراها الناس السُّفَّار سَوْدَاء بَرَّاقَةً ، فأقام فيهم لوط بضعاً وعشرين سنة يدعوهم إلى الله فلم يؤمنوا ، فأخذهم العذاب على حسب ما أخبر الله من شأنهم .

ولما ولد إسماعيل لإبراهيم من هاجر غَارَتْ سارة فحمل إبراهيم إسماعيل وهَاجَرَ إلى مكة فأسكنها بها ، وذلك قوله عز وجل يخبر عن إبراهيم (رب إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) فأجاب الله دعوته ، وآنس وحشتهم ، بجُرْهُمَ والعماليق ، وجعل أفئِدَةً من الناس تَهْوِى إليهم .

وأهلك الله قوم لوط فى عهد إبراهيم لما كان من فعلهم واتضح من خبرهم .

ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ، فبادر إلى طاعة ربه ، وَتَلَّهُ للجبين ؛ فَفَدَاه الله بذِبْحٍ عظيم ، ورفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .

مولد إسحاق

ثم ولد لإبراهيم من سارة إسحاقُ عليه السلام ، وذلك بعد مضى عشرين ومائة سنة من عمره .

الذبيح من ولد إبراهيم

وقد تنازع الناس فى الذبيح ، فمنهم من ذهب إلى أنه إسحاق ، ومنهم من رأى أنه إسماعيل ، فإن كان الأمر وقع بالذبح بالحجاز فالذبيح إسماعيل ، لأن إسحاق لم يدخل الحجاز ، وإن كان الأمر بالذبح وقع بالشام فالذبيح إسحاق ، لأن إسماعيل لم يدخل الشام بعد أن حمل منه .

وتوفيت سارة وتزوج إبراهيم بعد ذلك بقنطوراء[2] ، فولد منها ستة ذكور ، وهم : مرق[3] ، ونفس ، ومدن ، ومدين ، وسنان ، وسرح ، وتوفى إبراهيم بالشام ، وكان عمره إلى أن قبضه الله عز وجل مائة سنة وخمساً وتسعين[4] سنة ، وأنزل الله عليه عشراً من الصحف .

أولاد إسحاق ابن إبراهيم الخليل

وتزوج إسحاق بعد إبراهيم برفقا ابنة بتوايل ؛ فولدت له العيص ويعقوب

(١) فى ا « لا أنيس بها » . (٢) فى ا « بقيطوراه » .

(٣) فى ا « وهم مرن ، ويقس ، ومدان ، ومدين ، وسنان ، وسوح » والخلط فى هذه الأسماء كثير . (٤) فى ا « مائة سنة وخمسا وسبعين سنة » .

فى بطن واحد ، وكان البادىء منهما إلى الفصْل عيص ، ثم يعقوب ، وكان لإسحاق فى وقت مولدهما ستون سنة ، وذهب بَصَر إسحاق ؛ فدعا ليعقوب بالرياسة على إخوته والنبوة فى ولده ، ودعا لعيص بالملك فى ولده ، وكان عمر إسحاق إلى أن قبضه الله مائة وخمساً وثمانين سنة ، ودفن مع أبيه الخليل ، ومواضع قبورهم مشهورة ، وذلك على ثمانية عشر ميلا من بيت المقدس فى مسجد هناك يعرف بمسجد إبراهيم ومراعيه .

يعقوب بن إسحاق وأخوه العيص

وقد كان إسحاق أمر ولده يعقوب بالمسير إلى أرض الشام وبَشَّره بالنبوة ونبوة أولاده الاثنىعشر ، وهم : لاوى ، ويهوذا ، ويساخر[1] ، وزبولون، ويوسف ، وبنيامين ، ودان ، ونفتالى[2] ، وكان ، وإشار ، وشمعون ، وروبيل ، هؤلاء الأسباط الاثنا عشر ، والنبوة والملك فى عقب أربعة منهم: لاوى ، ويهوذا ، ويوسف ، وبنيامين ، وكثر جَزَعُ يعقوب من أخيه العيص ، فأمنه الله من ذلك ، وكان ليعقوب خمسة آلاف وخمسمائة من الغنم ؛ فأعطى يعقوبُ لأخيه العيص العشر من غنمه استكفاء للشر وخوفاً من سَطْوَته ، من بعد أن آمنه الله عز وجل من خوفه ، وأن لا سبيل له عليه ، فعاقبه الله فى ولده لمخالفته لوعده ، فأوحى الله تعالى إليه : ألم تطمئن إلى قولى ؟ فلأجعلن ولد العيص يملكون ولدك خمسمائة وخمسين عاماً ، وكانت المدة منذ أخْرَبَتِ الروم بيت المقدس ، واستعبدت بنى إسرائيل إلى أن فتح عمر بن الخطاب رضى الله عنه بيت المقدس .

وكان أحب ولد يعقوب إليه يوسف ؛ فحسده إخوته على ذلك ، وكان من أمره مع إخوته ما قَصَّ الله عز وجل فى كتابه ، وأخبر به على لسان نبيه ، واشتهر ذلك فى أمته .

وفاة يعقوب ويوسف

وقبض الله عز وجل يعقوب ببلاد مصر ، وهو ابن مائة وأربعين سنة ، فحمله يوسف فدفنه ببلاد فلسطين ، عند تربة إبراهيم وإسحاق ، وقبض الله

---

(١) فى ا « ويشسخر » . (٢) فى ا « وزان ونفتال وقاز وأشروما » .

يوسف بمصر وله مائة وعشرون سنة(١) ، وجعل فى تابوت من الرخام ، وسد بالرصاص ، وطلى بالأطلية الدافعة للهواء والماء ، وطرح فى نيل مصر نحو مدينة مَنْفَ ، وهناك مسجده ، وقيل : إن يوسف أوصى أن يحمل فيدفن عند قبر أبيه يعقوب فى مسجد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وكان فى عصره أيوب النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو أيوب بن موص بن زراح ابن رعوايل بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وذلك فى بلاد الشام من أرض حُورَانَ والبثنية من بلاد [الأردن من بين] دمشق والجابية ، وكان كثير المال والولد، فابتلاه الله فى نفسه وماله وولده ،فصَبَر، ورد الله عليه ذلك ، وأقاله عَثْرَته ، واقتص ما اقتص من أخباره فى كتابه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، ومسجدُه والعينُ التى اغتسل منها فى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، مشهوران ببلاد نوَى والجولان فيما بين دمشق وطبرية من بلاد الأردن ، وهذا المسجد والعين على ثلاثة أميال من مدينة نوَى ، أو نحو ذلك ، والحَجَرُ الذى كان يأوى إليه فى حال بلائه هو وزوجته — واسمها رحمة — فى ذلك المسجد إلى هذا الوقت .

أيوب النبى

وذكر أهل التوراة والكتب الأولى أن موسى بن ميشاء بن يوسف بن يعقوب نبى قبل موسى بن عمران ، وأنه هو الذى طلب الخضر بن ملكان ابن فالغ بن عابور بن شالخ بن إرفخشد بن سام بن نوح ، وذكر بعض أهل الكتاب أن الخضر هو خضرون بن عميائيل بن النفر بن العيص بن إسحاق ابن إبراهيم ، وأنه أرسل إلى قومه فاستجابوا له .

موسى بن عمران

فكان موسى بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بمصر فى زمن فرعون الجبار ، وهو الوليد بن مصعب بن معاوية بن أبى نمير بن أبى الهلواس ابن ليث بن هران بن عمرو بن عملاق ، وهو الرابع من فراعنة مصر ، وقد كان طال عمره وعظم جسمه ، وكان بنو إسرائيل قد استرقُّوا بعد مضى يوسف ، واشتد عليهم البلاء ، وأخبر أهل الكهانة والنجوم والسحر فرعون

(١) فى ا « وله مائة وعشر سنين » .

أن مولوداً سيولد ويزيل ملكه ويحدث ببلاد مصر أموراً عظيمة ، فجزع لذلك فرعون ، وأمر بذبح الأطفال ، وكان من أمر موسى ما أوحى الله عز وجل إلى أمّه في أمره : أن اقذفيه في اليم ، فقذفته ، إلى آخر ما اقتص من خبره ، وأوضحه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم .

شعيب

وكان في ذلك الزمان شُعَيْبٌ النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو شعيب بن نويت[1] بن رعوايل بن مر بن عنقاء بن مدين بن إبراهيم ، وكان لسانه عربيًّا ، وكان مبعوثاً إلى أهل مَدْيَنَ ، ولما خرج موسى عليه السلام هارباً من فرعون مرّ بشعيب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان من أمره معه وتزويجه ابنته ما قد ذكره الله عز وجل .

هرون أخو موسى وبعثهما إلى فرعون

وكلم الله موسى تكليما ، وشد عَضُده بأخيه هارون ، وبعثهما إلى فرعون ، فخالفهما ، فأغرق الله عز وجل فرعون ، وأمره الله عز وجل بالخروج ببنى إسرائيل إلى التيهِ ، وكان عددهم ستمائة ألف بالغ دون من ليس ببالغ ، وكانت الألواح التي أنزلها الله على موسى بن عمران على جبل طور سيناء من زمرد أخضر فيها كتابة بالذهب ، فلما نزل من الجبل رأى قوما من بنى إسرائيل قد اعتكفوا على عبادة عجل لهم ، فارتعد ، فسقطت الألواح من يده ، فتكسرت ، فجمعها وأودعها تابوت السكينة مع غيرها وجعله في الهيكل ، وكان هارون كاهنا ؛ وهو قيم الهيكل[2] وأتم الله عز وجل نزول التوراة على موسى بن عمران وهو في التيه ، وقبض الله هارون في التيه فدفن في جبل ومَوَاتٍ[3] من نحو جبل الشراة مما يلى الطور ، وقبره مشهور في مغارة عادية يسمع منها في بعض الليالي دوىٌّ عظيم يجزع منه كل ذى روح ، وقيل : إنه غير مدفون ، بل هو موضوع في تلك

(١) في ا « ابن نويل » .

(٢) في ا « وكان هرون كافل الهيكل ، وهو قيم الزمان » .

(٣) في ب « في جبل مران من نحو جبل الشراء » .

المغارة ، ولهذا الموضع خبر عجيب [قد ذكرناه فى كتابنا « أخبار الزمان عن الأمم الماضية والممالك الدائرة »] ومن وصل إلى هذا الموضع علم ما وصفنا ، وكان ذلك قبل وفاة موسى بسبعة أشهر ، وقبض الله هرون وهو [ابن مائة وثلاث وعشرين سنة ، وقيل : إنه قبض وهو] ابن مائة وعشرين ، وقيل : إن موسى قبض بعد وفاة هارون بثلاث سنين ، وإنه خرج إلى الشام وكان له بها حروب من سرايا كانوا يسرونها من البر إلى العماليق والقربانيين والمدنيين وغيرهم [ممن كانوا بالشام وغيرهم من الطوائف] على حسب ما فى التوراة ، وأنزل الله عز وجل على موسى عشر صحف ، فاستتم مائة صحيفة ، ثم أنزل الله عليه التوراة بالعبرانية وفيها الأمر والنهى والتحريم والتحليل والسنن والأحكام ، وذلك فى خمسة أسفار ، والسِّفْرُ يريدون به الصحيفة ، وكان موسى قد ضرب التابوت الذى فيه السكينة من الذهب من ستمائة ألف مثقال وسبعمائة وخمسين مثقالا ، فصار[1] الكاهن بعد هارون يُوشَعُ بن نون من سبط يوسف ، وقبض الله موسى وهو ابن عشرين ومائة سنة ، ولم يحدث لموسى ولا لهارون شىء من الشيب ، ولا حالا عن صفة الشباب .

يوشع بن نون الكاهن

ولما قبض الله عز وجل موسى بن عمران سار يوشع بن نون ببنى إسرائيل إلى بلاد الشام ، وقد كان غلب عليها الجبابرة من ملوك العماليق وغيرهم من ملوك الشام ، فأسرى إليهم يوشع بن نون سرايا ، وكانت له معهم وقائع ، فافتتح بلاد أريحاء [وزغر] من أرض الغور ، وهى أرض البحيرة المنتنة التى لا تقبل الغرقى ، ولا يتكون فيها ذو روح من سمك ولا غيره ، وقد ذكرها صاحب المنطق وغيره من الفلاسفة ومَنْ تقدم وتأخر من عصره ، وإليها ينتهى ماء بحيرة طبرية ، وهو الأردن ، وبدء ماء بحيرة طبرية من بحيرة كفرلى والقرعون[2] من أرض دمشق ، فإذا

(١) فى ا « فصار الكافل » . (٢) فى ب « كقولى وفرعون » .

انتهى مَصَبُّ نهر الأردن إلى البحيرة المنتنة خَرَقَها وانتهى إلى وسطها متميزاً عن مائها فيغوص فى وسطها ، وهو نهر عظيم ، فلا يدرى أين غاص من غير أن يزيد فى البحيرة ولا ينقص منها ، ولهذه البحيرة — أعنى المنتنة — أخبار عجيبة وأقاصيص طويلة ، وقد أتينا على ذلك فى كتابنا « أخبار الزمان عن الأمم الماضية والملوك الداثرة » وذكرنا أخبار الأحجار التى تخرج منها على صورة البطيخ على شكلين ، ويعرف الواحد منها بالحجر اليهودى ، وذكرته الفلاسفة ، واستعمله أهل الطب لمن به وجع الحَصاة فى المَثانة ، وهو نوعان : ذكر ، وأنثى ؛ فالذكر للرجال ، والأنثى للنساء ، ومن هذه البحيرة يخرج الغبار[1] المعروف بالحمرة ، وليس فى الدنيا والله أعلم بحيرة لا يتكون فيها ذو روح من سمك وغيره إلا هذه البحيرة ، وبحيرة رِكِبْتَها ببلاد أذربيجان بين مدينة إرمينية والمراغة[2] ، وهى المعروفة هنا بكبودان[3] ، وقد ذكر الناس ممن تقدم عذر عدم تكون الحيوان فى البحيرة المنتنة ، ولم يتعرضوا لبحيرة كبودان[3] ، وينبغى على قياس قولهم أن تكون علتهما واحدة .

وسار ملك الشام — وهو السميدع بن هوبر بن مالك — إلى يوشع ابن نون ؛ فكانت بينهم حروب إلى أن قتله يوشع ، واحتوى على جميع ملكه ، وألحق به غيره من الجبابرة والعماليق ، وشَنَّ الغارات بأرض الشام ، وكانت مدة يوشع بن نون فى بنى إسرائيل بعد وفاة موسى بن عمران تسعا وعشرين سنة ، وهو يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وقيل : إن يوشع بن نون كان بدء محاربته لملك العماليق — وهو السميدع — ببلاد أَيْلَةَ نحو مدين؛ ففى ذلك يقول عوف بن سعد الجرهمى :

(١) فى ا « يخرج العكار » . (٢) فى ب « بين أرمينية ومنارة » .
(٣) فى ب « كنودان » .

ألم تر أنَّ الْعَمْلَقِى ابن هوبرٍ بأَيْلَةَ أمسى لَحْمُهُ قد تمزَّعا[1]
تداعت عليه من يهود جَحَافل ثمانين ألفا حاسرين ودُرَّعا
فأمست عداداً للعماليق بعده على الأرض مشيا مصعدين وفُزَّعا
كأنْ لم يكونوا بين أجبال مكة ولم يَرَ راء قبل ذاك السَّمَيْدعا

بلعم بن باعوراء

وكان بقرية من قرى البلقاء من بلاد الشام رجل يقال له بلعم بن باعوراء بن سنور بن وسيم بن ناب بن لوط[2] بن هاران ، وكان مستجاب الدعوة ، فحمله قومه على الدعاء على يوشع بن نون ، فلم يتأتَّ له ذلك ، وعجز عنه ، فأشار على بعض ملوك العماليق أن يبرزوا الحسان من النساء نحو عسكر يوشع بن نون ففعلوا ، فتسرعوا إلى النساء فوقع فيهم الطاعون ، فهلك منهم سبعون ألفا[3] ، وقيل أكثر من ذلك [وبلعم هو الذى أخبر الله عنه أنه آتاه الآيات فانسلخ منها][4] وقيل : إن يوشع بن نون قبض وهو ابن مائة وعشرين سنة[5] .

كالب بن يوقنا

وقام فى بنى إسرائيل بعد يوشع بن نون كالبُ بن يوقنا[6] بن بارض ابن يهوذا ، ويوشع وكالب الرجلان اللذان أنعم الله عليهما .

قال المسعودى : ووجدت فى نسخة أن القائم فى بنى إسرائيل بعد وفاة يوشع بن نون كوشان الكفرى[7] ، وأنه أقام فيهم ثمانين سنة[8] ، وهلك ، وملك عيائيل بن قابيل[9] من سبط يهوذا أربعين سنة ، وقيل : كوش جبار كان فى آب[10] من أرض البلقاء ، وإن بنى إسرائيل كفرت

(١) فى ب « العلقمى » .
(٢) فى ا « بلعم بن باعوراء بن سموم بن فرستم بن ماب بن لوط بن هاران»
(٣) فى ا « فهلك منهم تسعون ألفاً » (٤) مابين الحاصرتين ساقط من ب
(٥) فى ا « ابن مائة وعشر سنين » . (٦) عن ا « كالب بن يوقنا » .
(٧) فى ب « وشان الكعرى » (٨) فى ا « ثمانى سنين » .
(٩) فى ب « عمايل بن قائم » .
(١٠) فى ا « وقتل كوش جبارا وكان بأرض البلقاء بماب » .

بعد ذلك فملَّكَ الله عليهم كنعان عشرين سنة ، وهلك ، فكان على بنى إسرائيل عملال الأحبارى[1] أربعين سنة ، ثم قام شمويل[2] إلى أن وليهم طالوت ، وخرج عليهم جالوت الجبار ملك البربر من أرض فلسطين .

قال المسعودى : فأما على الرواية الأولى التى قدمنا ذكرها أن القيم بعد يوشع فى بنى إسرائيل كالب بن يوقنا وأن القائم بعده فى بنى إسرائيل والمدبر لهم فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران ثلاثين سنة ، وكان عَمَدَ إلى مصاحف موسى بن عمران عليه السلام فجعلها فى خابية نحاس ورصَّصَ رأسَهَا ، وأتى بها صخرة بيت المقدس ، وذلك قبل بنائه ، فانفرجت ، فإذا مغارة فيها صخرة ثانية ، فوضع الخابية فيها ، وانضمت الصخرة على ذلك كَكَوْنها أولا .

ولما هلك فنحاص بن العازر دَبَّر أمرهم كوشان الأثيم[3] ملك الجزيرة، فتعبد بنى إسرائيل ، وأخذهم البلاء ثمان سنين ، ثم دبرهم عنيائيل بن يوقنا أخو كالب من سبط يهوذا أربعين سنة ، ثم دبرهم أعلون ملك مواب بجهد شديد ثمان عشرة سنة ، ثم دبرهم أهوذ من ولد إفرايم خمسا وخمسين سنة ، ولخمس وثلاثين سنة خلت من أيامه تم للعالم أربعة آلاف سنة ، وقيل غير ذلك من التاريخ ، ثم دبرهم شاعان بن أهوذ خمساً وعشرين سنة ، ثم دبرهم يابين الكنعانى[4] ملك الشام عشرين سنة ، ثم دبرهم امرأة يقال لها دبورا ، وقيل : إنها ابنته ، وضمت إليها رجلا من سبط نفتالى يقال له باراق أربعين سنة ، ثم تداولتهم رؤوس من بنى مدين وهم عريب وريب وبرسونا ودارع وصلنا تسع سنين[5] وثلاثة أشهر ، ثم دبرهم كدعون من آل منشا أربعين سنة ، وقتل ملوك مدين ، ثم ابنه أبياخ ثلاث سنين

---

(١) فى ب « علان الأخبارى » (٢) فى ب « سمويه » .
(٣) فى ب « كوشان بن لاسم » . (٤) ا « فيلش الكنعانى » .
(٥) فى ا « وهم عريب وزريب وبنوريا ودارع وصلنا سبع سنين وثلاثة أشهر » .

وثلاثة أشهر ، ثم دبرهم تولع من آل إفراين ثلاثاً وعشرين سنة ، ثم يامين من آل منشا اثنتين وعشرين سنة ، ثم ملوك عمان ثمانى عشرة سنة [وثلاثة أشهر] ، ثم نحشون من بيت لحم سبع سنين ، [ثم شنشون عشرين سنة ، ثم أملج عشر سنين ، ثم عجران ثمانى سنين] ، ثم قهرهم ملوك فلسطين أربعين سنة ، ثم عيلان الكاهن بعد ذلك أربعين سنة ، وفى زمانه ظفر البابليُّونَ ببنى إسرائيل وغنموا التابوت ، وكان بنو إسرائيل يستفتحون به ، فحملوه إلى بابل ، وأخرجوهم من ديارهم وأبناءهم ، وكان ما كان من أمر قوم حزقيل ، وهم الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حَذَرَ الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ، وكان قد أصابهم الطاعون ، فبقى منهم ثلاثة أسباط ، فلحقت فرقة بالرمل ، وفرقة بشواهق الجبال ، وفرقة بجزيرة من جزائر البحر ، وكان لهم خبر طويل حتى رجعوا إلى ديارهم ، فقالوا لحزقيل : هل رأيت قوماً أصابهم ما أصابنا ؟ قال : لا ، ولا سمعتُ بقوم فروا من الله فراركم ، فسلط الله عليهم الطاعون سبعة أيام ، فماتوا عن آخرهم ، ودبر بنى إسرائيل بعد عيلان الكاهنَ شمويلُ بن بروحان ابن ناحورا ، ونبىء فمكث فيهم عشرين سنة ، ووضع الله عز وجل عنهم القتال ، وصلح أمرهم ، فخلطوا بعد ذلك ، فقالوا لشمويل : ابعث لنا

طالوت وجالوت

ملكا يقاتل معنا فى سبيل الله ، فأمر بتمليك طالوت ، وهو ساود[1] بن بشر بن إينال بن طرون بن بحرون بن أفيح بن سميداح بن فالح ابن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، فملكه الله عليهم ، ولم يجمعهم قبل ذلك مثل طالوت ، وكان بين خروج موسى عليه السلام ببنى إسرائل من مصر إلى أن ملك على بنى إسرائل طالوتُ خمسمائة سنة واثنتان وسبعون سنة وثلاثة أشهر ، وكان طالوت دَبَّاغا يعمل الأدمَ

(١) فى ا « وهو شاول بن قيس بن أنيال بن صارون بن نحورب بن أفيح ابن بنيامين » .

فأخبرهم نبيهم شمويل أن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، فقالوا فيه ما أخبر الله عز وجل فى كتابه : (أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سَعَةً من المال ؟ قال : إن الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة فى العلم والجسم) وأخبرهم نبيهم أن (آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة) وكان مدة ما مكث التابوت ببابل عشر سنين ، فسمعوا عند الفجر حفيف الملائكة تحمل التابوت ، واشتد سلطان جالوت ، وكثرت عساكره وقُوَّادُه ، وبلغه انقياد بنى إسرائيل إلى طالوت، فسار جالوت من فلسطين بأجناس من البربر — وهو جالوت[1] بن بايول بن ريال بن حطان بن فارس — فنزل بساحة بنى إسرائيل ، فأمر شمويل طالوت بالمسير ببنى إسرائيل إلى حرب جالوت ، فابتلاهم الله عز وجل بنهر بين الأردن وفلسطين ، وسلط الله عليهم العطش ، وقد قص الله ذلك فى كتابه ، وأمروا كيف يشربون من النهر ، فولغه أهل الريبة ولوغ الكلاب ، فقتلهم طالوت عن آخرهم ، ثم فَضَلَ من خيارهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا فيهم إخوة داود عليه السلام ، ولحق داود بإخوته ، فتوافق الجيشان جميعاً ، وكانت الحروب بينهما سِجَالاً ، وندب طالوت الناس ، وجعل لمن يخرج إلى جالوت ثلث ملكه ويتزوج ابنته ، فبرز داود فقتله بحجر كان فى مِخْلاَتِهِ ، رماه بمقلاع نخر جالوت ميتاً ، وقد أخبر الله عز وجل بذلك فى كتابه بقوله : (وقتل داود جالوت) وقد ذكر أن الحجر الذى كان فى مخلاة داود كان ثلاثة أحجار، فاجتمعت وصارت حجراً واحداً ، ولها أخبار قدمنا ذكرها فيما سلف من كتبنا ، وهى التى قتل بها جالوت ، وإن القوم الذين ولغوا فى الماء وخالفوا ما أمروا به كان القاتل لهم طالوت . وقد أتينا على خبر الدرع التى كان أخبرهم نبيهم أنه لا يقتل جالوت إلا من صلحت عليه تلك الدرع إذا لبسها ، وأنها صلحت على داود ، وما كان من

(١) فى ا « وهو جالوت بن مالود بن دبال بن حطان بن فارس » .

هذه الحروب ، وخبر النهر الذى نَشَّ على رأسه ، وخبر تملك طالوت ، وأخبار البربر وبدء شأنهم ؛ فى كتابنا فى أخبار الزمان ، وسنورد بعد هذا جُمَلاً من أخبار البربر وتفرقهم فى البلاد فى الموضع اللائق بها من هذا الكتاب .

داود

ورفع الله ذكر داود ، وأخْمَل ذكر طالوت ، وأبى طالوت أن يفى لداود بما تقدم من شرطه ، فلما رأى ميل الناس إليه زَوَّجه ابنته ، وسَلّم إليه ثلث الجباية ، وثلث الحكم ، وثلث الناس . ثم حسده بعد ذلك وأراد اغتياله ، فمنعه الله عز وجل من ذلك ، فأبى داود أن ينافسه فى ملكه ، ونما أمر داود ، فبات طالوت على سرير ملكه فمات من ليلته كمداً ، وانقادت بنو إسرائيل إلى داود عليه السلام ، وكانت مدة ملك طالوت عشرين سنة ، وذكر أن الموضع الذى قتل فيه جالوت كان ببيسان من أرض الغور من بلاد الأردن ، وَأَلاَنَ الله عز وجل لداود الحديد فعمل منه الدروع ، وسَخَّرَ له الجبال والطير يُسَبِّحْنَ معه ، وحارب داود أهل مواب من أرض البلقاء ، وأنزل الله عز وجل عليه الزَّبُورَ بالعبرانية خمسين ومائة سورة ، وجعله ثلاثة أثلاث : فثلث ما يلقون من بُخْت نَصَّرَ وما يكون من أمره فى المستقبل ، وثلث ما يلقون من أهل أثور ، وثلث موعظة وترغيب وتمجيد وترهيب ، وليس فيه أمر ولا نهى ولا تحليل ولا تحريم ، واستقامت الأمور لداود ، ولحقت الخوارج من الكفار[١] بأطراف الأرض لهيبة داود ، وبنى داود بيتاً للعبادة بأورشليم ، وهو بيت المقدس ، وهو البيت الباقى لوقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، ويدعى بمحراب داود عليه السلام ، وليس فى بيت المقدس بناء هو أعلى منه فى هذا الوقت ، وقد يرى فى أعلاه البحيرة المنتنة ونهر الأردن المقدم ذكره ، وكان من أمر داود مع الخصمين ما قص الله عز وجل فى كتابه من خبره ، وقوله لأحدهما قبل استماعه من الآخر : (لَقَدْ ظَلَمَكَ) الآية ، وقد تنازع الناس

(١) فى ب « من الأكراد » .

فى خطيئة داود : فمنهم من رأى ما وصفنا ونفى عن الأنبياء المعاصى وتعمد الفسق وأنهم معصومون فكانت الخطيئة ماذكرنا ، وذلك قوله عزوجل : (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض، فاحكم بين‌الناس بالحق) ومنهم من رأى أن ذلك كان من قصة أورياء بن حيان[1] ومقتله على ما ذكرنا فى كتاب المبتدأ وغيره ، وتاب الله عز وجل على داود بعد أربعين يوما كان فيها صائما باكيا ، وتزوج داود عليه السلام مائة امرأة .

نشأة سليمان ابن داود

ونشأ سليمان بن داود عليه السلام ، وبرع ، ودَاخَلَ أباه فى قَضَائه ، فآتاه الله فَصْلَ الخطاب والحكم ، على ما أخبر الله عز وجل عنهما بقوله (وكلا آتينا حكما وعلما) .

ولما حضرت داود الوفاة أوصى إلى ولده سليمان ، وقبض ، فكان ملكه أربعين سنة على فلسطين والأردن ، وكان عسكره ستين ألفاً أصحاب سيوف جُرْدا مُرْدا أصحاب بأس ونجدة .

لقمان الحكيم

وكان ببلاد مَدْين وأيْلَة فى عصر داود عليه السلام لُقمَان الحكيم ، وهو لقمان بن عنقاء بن مربد بن صاوون[2] ، وكان نوبيا مولى للقَيْن بن جسر ، ولد على عشر سنين من ملك دواد عليه السلام ، وكان عبداً صالحاً؛ فَمَنَّ الله عز وجل عليه بالحكمة ، ولم يزل باقيا فى الأرض مُظهراً للحكمة والزهد فى هذا العالم إلى أيام يونس بن مَتّى حين أرسل إلى أرض نِينَوَى من بلاد الموصل .

ملك سليمان

ولما قبض الله دواد عليه السلام قام بعده ولده سليمان بالنبوة والحكم ، وغمر عدلُه رعيته ، واستقامت له الأمور ، وانقادت له الجيوش ، وابتدأ سليمان ببنيان بيت المقدس ، وهو المسجد الأقصى الذى بارك الله عز وجل حَوْلَه ، فلما استتم بناءه بنى لنفسه بيتا ، وهو الموضع الذى يسمى فى وقتنا

(١) فى ا « أوريا بن حيان » .

(٢) فى ا « وهو لقمان بن عنقا بن مزيد بن صارون » .

هذا كنيسة القمامة ، وهى الكنيسة العظمى ببيت المقدس عند النصارى ، ولهم كنائس غيرها معظمة ببيت المقدس ، منها كنيسة صَهْيُون ، وقد ذكرها داود عليه السلام ، والكنيسة المعروفة بالجسمانية ويزعمون أن فيها قبر داود عليه السلام ، وأعطى الله عز وجل لسليمان عليه السلام من الملك ما لم يُعْطِهِ لأحد من خَلْقِهِ ، وسَخَّر له الجن والإنس والطير والريح على حسب ما ذكر الله عز وجل فى كتابه ، وكان ملك سليمان بن داود على بنى إسرائيل أربعين سنة ، وقُبِضَ وهو ابن اثنتين وخمسين سنة ، والله ولى التوفيق.

ذكر ملك أرخبعم[1] بن سليمان بن داود عليهما السلام

ومن تلاه من ملوك بنى إسرائيل ، وجمل من أخبار الأنبياء

ملوك بنى إسرائيل بعد وفاة سليمان

وملك على بنى إسرائيل بعد وفاة سليمان بن داود عليهما السلام أرخبعم ابن سليمان ، واجتمعت عليه الأسباط ، ثم افترقوا عنه ، إلا سبط يهوذا وسبط بنيامين ، وكان ملكه إلى أن هلك سبع عشرة سنة ، وملك على العشرة الأسباط بوريعم[2] ، وكانت له كوائن وحروب ، واتخذ له عِجْلاً من الذهب والجوهر ، واعتكف على عبادته ؛ فأهلكه الله عز وجل ، فكان ملكه عشرين سنة ، [وملك بعده أبيا بن أرخبعم بن سليمان ثلاث سنين ، ثم ملك بعده أحاب أربعين سنة] وملك بعده يورام[3] ، فأظهر عبادة الأصنام والتماثيل [والصور] ، وكان ملكه سنة ، ثم ملكت بعده امرأة يقال لها عيلان ؛ فوضعت السيف فى ولد داود عليه السلام ، فلم يَنْجُ منهم إلا غلام ، فأنكرت بنو إسرائيل ذلك من فعلها ، فقتلوها ، وكان ملكها سبع سنين ، وقيل غير ذلك ، وملكوا

---

(١) فى ب « ملك بن رجبعم بن سليمان » . (٢) فى ب « يورهم » .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من ب ، وفيها « وملك بعده لودم » .

عليهم الغلام الذى بقى من نسل داود ، فملك وله سبع سنين ، فأقام ملكا أربعين سنة ، وقيل دون ذلك ، وملك بعده مليصا[١] ، وكان ملكه اثنتين وخمسين سنة ، وكان فى عصره شعيب النبى[٢] ، ولشعيب معه أخبار ، وكانت له حروب قد أتينا على ذكرها فى كتاب « أخبار الزمان » وملك بعده نوقا بن عدل[٣] عشر سنين ، وقيل : ست عشرة سنة ، وملك بعده أجام[٤] ، فأظهر عبادة الأصنام ، وطغى وأظهر البَغْىَ ، فصار إليه بعض ملوك بابل ، وكان يقال له فلعيعس[٥] ، وكان من عظماء ملوك بابل ، وكان للاسرائيلىّ معه حروب إلى أن أسره البابلى ، وخرّب مدن الأسباط ومساكنهم ، وكان فى أيامه تنازع بين اليهود فى الديانة ، فشذ منهم الأسامرة ،

الأسامرة

وأنكروا نبوة داود عليه السلام ومن تلاه من الأنبياء ، وأبوا أن يكون بعد موسى نبى ، وجعلوا رؤساءهم من ولد هرون بن عمران ، والأسامرة فى وقتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — ببلاد فلسطين والأردن ، وفى قرى متفرقة مثل القرية المعروفة بعارا ، وهى بين الرملة وطبرية ، وغيرها من القرى إلى مدينة نابلس ، وأكثرهم فى هذه المدينة — أعنى نابلس — ولهم جبل يقال له طوريك[٦] ، وللأسامرة عليه صلوات فى أوقاتها ، ولهم بوقات من فضة يُنْفَخ فيها عند أوقات الصلاة ، وهم الذين يقولون « لامِسَاسَ » ويزعمون أن نابلس هى بيت المقدس ، وهى مدينة يعقوب النبى عليه السلام ، وهناك مَرْعَاه ، وهما صنفان متباينان كتباينهم لسائر اليهود ، وأحد الصنفين يقال له الكوسان ، والآخر الدزوسان[٧] ، أحد

---

(١) فى ا « أ.ضيا » .

(٢) فى ا « أشعيا النبى »

(٣) فى ا « يوقام بن عزيا » .

(٤) فى ا « أحار »

(٥) فى ا « فلعيفس » .

(٦) فى ا « طور بريد » .

(٧) فى ا « الدوستان » .

الصنفين يقول العالم ومعان غير ذلك أعرضنا عن ذكرها مخافة التطويل ، وأن كتابنا هذا كتاب خبر لا كتاب آراء ونحل .

وكان ملك أجام[١] إلى أن أسره الملك البابلى : سبع عشرة سنة ، ولما أسر الملك أجام[١] ملك ولد له يقال له حزقيل [بن أجام[١]] ، فأظهر عبادة الرحمن ، وأمر بتكسير التماثيل والأصنام ، وفى ملكه سار سنجارب[٢] ملك بابل إلى بيت المقدس ، وكانت له حروب كثيرة مع بنى إسرائيل ، وقتل من أصحابه خلق كثيرون ، وسبى من الأسباط عدداً كثيراً ، وكان ملك حزقيل إلى أن هلك سبعاً وعشرين سنة[٣] .

ثم ملك بعد حزقيل ولد له يقال له ميشا : فعمر تمرُّه سائر مملكته ، وهو الذى قتل شعيا النبى ، فبعث الله قسطنطين ملك الروم فسار إليه فى الجيوش فهزم جيشه وأسره فأقام فى أرض الروم عشرين سنة ، وأقام عما كان عليه ، وعاد إلى ملكه : فكان ملكه إلى أن هلك خمساً وعشرين سنة ، وقيل : ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده ولد له يقال له أمور بن ميشا[٤] ، فأظهر الطغيان ، وكفر بالرحمن ، وعبد التماثيل والأصنام ، ولما اشتد بغيه سار إليه فرعون الأعرج من بلاد مصر فى الجيوش ، فأمعن فى القتل ، وأسره ومضى به إلى مصر ، فمات هناك ، وكان ملكه خمس سنين ، وقيل غير ذلك .

وملك بعده أخ له يقال [له] يوفين[٥] ، وهو أبو دانيال النبى عليه السلام ، وفى عصر هذا الملك سار البخت نصّر ، وهو مرزُبان العراق والعرب من قبل ملك فارس ، وكان يومئذ ببَلْخ ، وكانت قصبة الملك ، فأمعن البخت نَصَّرُ فى القتل لبنى إسرائيل والأسر ، وحملهم إلى أرض

(١) فى ا « أحاز » . (٢) فى ب « سيجارك » .
(٣) فى ا « تسعا وعشرين سنة » . (٤) فى ب « أمون بن منشا » .
(٥) فى ا « يوسيم » .

العراق ، وأخذ التوراة وما كان فى هيكل بيت المقدس من كتب الملوك وطرحه فى بئر ، وعمد إلى تابوت السكينة فأودعه بعض المواضع من الأرض فيقال : إنه كان عدة من سبى من بنى إسرائيل ثمانية عشر ألفاً .

وفى هذا العصر كان أرميا[1] النبى عليه السلام ، وسار بخت نصر إلى مصر : فقتل فرعون الأعرج ، وكان يومئذ ملك مصر ، وسار نحو المغرب فقتل بها ملوكا ، وافتتح مدائن .

وكان ملك فارس تزوج جارية من سبايا بنى إسرائيل ، فأولدها ولداً ، فردّ بنى إسرائيل إلى ديارهم ، وكان ذلك بعد سنين .

ولما رجعت بنو إسرائيل إلى بلادهم ملكت عليها زربابل بن سلسان[2] ، فابتنى مدينة بيت المقدس ، وعمّر ما كان خرب ، وأخرجت بنو إسرائيل التوارة من البئر ، واستقامت لهم الأمور ، فأقام هذا الملك على عمارة أرضهم ستاً وأربعين سنة ، وشرع لهم الصلوات وغيرها من الشرائع مما كان تلف منهم فى حال السبى ، والأسامرة تزعم أن التوراة التى فى يد اليهود ليست التوراة التى أوردها موسى بن عمران عليه السلام ، وأن تلك حرفت وبدلت وغيرت ، وأن المحدث لهذه التى بأيديهم هذا الملك المذكور ؛ لأنه جمعها ممن كان يحفظها من بنى إسرائيل ، وأن التوراة الصحيحة هى التى فى أيدى الأسامرة دون غيرهم ، وكان ملك هذا الملك ستاً وأربعين سنة ، ووجدت فى نسخة أخرى أن المتزوج فى بنى إسرائيل هو بخت نصر نفسه ، وهو الذى ردّهم ، ومنّ عليهم [وفيه نظر] .

* * *

إسماعيل ابن إبراهيم وأولاده

ودبّر إسماعيل بن إبراهيم أمر البيت بعد إبراهيم عليه السلام ، ونبّأه

---

(١) فى ب « أقدميا » .

(٢) فى ا « زربايل بن سلسال » .

الله عز وجل ، وأرسله إلى العماليق وقبائل اليمن ، فنهاهم عن عبادة الأوثان، فآمن طائفة منهم وكفر أكثرهم ، وولد لإسماعيل أثنا عشر ذكراً . وهم : فائث ، وقيدار ، وأربل ، وميم ، ومسمع ، ودوما ، ودوام ، وميشا ، وحداد ، وحيم ، وقطورا ، وماس[١] ، وكانت وصية إبراهيم إلى ابنه إسماعيل عليه السلام ، ووصى إسماعيل إلى أخيه إسحاق عليهما السلام ، وقد قيل : إلى ولده قيدار بن إسماعيل ، وكان عمر إسماعيل إلى أن قبضه الله مائة سنة وسبعاً وثلاثين سنة ، ودفن بالمسجد الحرام فى الموضع الذى كان فيه الحَجَرُ الأسود .

ودبر أمر البيت بعده فائث[٢] بن إسماعيل عليه السلام ، على منهج إسماعيل وملّته ، وقيل أيضاً : إنه كان وصىّ أبيه إسماعيل عليه السلام .

أنبياء بين سليمان والمسيح

وكان بين سليمان بن داود وبين المسيح عليهما السلام أنبياء وعباد وصالحون منهم : أرمينيا[٣] ، ودانيال ، وعُزَيْر ، وقد تنازع الناس فى نبوته ، وأيوب ، وأشعياء ، وحزقيل ، والياس ، واليسع ، ويونس ، وذو الكفل ، والخضر ، وروى عن ابن إسحاق أنه أرمينيا[٣] ، وقيل : بل كان عبداً صالحاً ، وزكريا [وهو زكريا بن أدق] وهو من ولد داود من سبط يهوذا ، وكان تزوج أشباع بنت عمران أخت مريم بنت عمران أم المسيح عليهما السلام ، وهو عمران بن ماتان بن يعاميم[٤] ، من ولد داود أيضاً ، واسم أمّ أشباع ومريم حنة ، وولدت لزكريا يحيى ، وكان يحيى ابن خالة المسيح عليهم السلام ، وكان زكريا نجاراً ، فأشاعت اليهود أنه ركب من

(١) فى ا « وهم : نابت ، وقيدار ، وأربيل ، وميسم ، ومشمع ، ودوما ، ومسا ، وحداد ، وأسيا ، ويطور ، ونافش ، وباقدما » .
(٢) فى ا « نابت بن إسماعيل » .
(٣) فى ا « أرميا » .
(٤) فى ا « هو عمران بن ماران بن يعاقيم » .

مريم الفاحشة فقتلوه ، وكان لما أحس بهم لجأ إلى شجرة فدخل فى جوفها فدلّهم عليه إبليس لعنه الله عز وجل ، فنشروا الشجرة وهو فيها ، فقطعوه وقطعوها ، ولما ولدت أشباعُ ابنةُ عمران أختُ مريمَ أمِّ المسيح يحيى بن زكريا عليهما السلام هربت به من بعض الملوك إلى مصر ، فلما صار رجلا بعثه الله عز وجل إلى بنى إسرائيل ، فقام فيهم بأمر الله عز وجل ونهيه فقتلوه ، وكثرت الأحداث فى بنى إسرائيل ، فبعث الله عليهم ملكا من ناحية المشرق يقال له حردوس(١) ، فقتل منهم على دم يحيى بن زكريا ألوفاً من الناس [وهو يفور] إلى أن هدأ الدم بعد خَطْب طويل .

مولد عيسى ابن مريم عليه السلام

ولما بلغت مريم ابنة عمران سبع عشرة سنة بعث الله عز وجل إليها جبريل ، فنفخ فيها الروح ، فحملت بالسيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، وولدت بقرية يقال لها « بيت لحم » على أميال من بيت القدس ، ولدته فى يوم الأربعاء لأربع وعشرين ليلة خلت من كانون الأول ، وكان من أمره ما ذكره الله عز وجل فى كتابه ، واتضح على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد زعمت النصارى أن أشيوع الناصرى(٢) أقام على دين مَنْ سلف من قومه يقرأ التوراة والكتبَ السالفة فى مدينة طبرية من بلاد الأردن فى كنيسة يقال لها المِدْرَاسُ ثلاثين سنة ، وقيل : تسعاً وعشرين سنة ، وأنه فى بعض الأيام كان يقرأ فى سفر أشْعياء إذ نظر فى السفر إلى كتاب من نور فيه « أنت نبيى ، وخالصتى ، اصطفيتك لنفسى » فأطبق السِّفْر ودفعه إلى خادم الكنيسة ، وخرج وهو يقول : الآن تمت الشيئة لله فى ابن البشر ، وقد قيل : إن المسيح عليه السلام كان بقرية يقال لها « ناصرة » من بلاد اللجون من أعمال الأردن ، وبذلك سميت النصرانية ، ورأيت فى

(١) فى ا « خردوش » .
(٢) فى ا « أيشوع الناصرى أى المسيح » .

هذه القرية كنيسة تعظمها النصارى وفيها توابيت من حجارة فيها عظام الموتى يسيل منها زيت ثخين كالرُّبّ تتبرك به النصارى ، وأن المسيح مر ببحيرة طبرية وعليها أناس من الصيادين [وهم بنو زبدا ، واثنا عشر من القصارين ، فدعاهم إلى الله وقال : اتبعونى تصيدوا البشر ، فاتبعه ثلاثة من الصيادين ، وهم بنو زبدا واثنا عشر من] القصارين ، وقد ذكر أن ميروحنا وشمعون وبولس ولوقا[1] هم الحواريون الأربعة الذين تلقوا[2] الإنجيل ، فألفوا خبر عيسى عليه السلام ، وما كان من أمره ، وخبر مولده ، وكيف عَمَّدَهُ يحيى بن زكريا ، وهو يحيى المعمدانى ، فى بحيرة طبرية ، وقيل : فى بحر الأردن الذى يخرج من بحيرة طبرية ويجرى إلى البحيرة المنتنة ، وما فعل من الأعاجيب وأتى من المعجزات ، وما قالت اليهود إلى أن رفعه الله عز وجل إليه ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

وفى الإنجيل خطب طويل فى أمر المسيح ومريم عليهما السلام ويوسف النجار ، أعرضنا عن ذلك ، لأن الله عز وجل لم يخبر بشىء من ذلك فى كتابه ، ولا أخبر به محمد نبيه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) فى ا « أن متى ويوحنا ومرقش ولوقا » .

(٢) فى ا « نقلوا الإنجيل ، وألقوا فيه خبر المسيح » .

ذكر أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد

صلى الله عليهما وسلم

وقد كان بين المسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم فى الفترة جماعة من أهل التوحيد ، ممن يُقِرُّ بالبعث ، وقد اختلف [الناس] فيهم : فمن الناس من رأى أنهم أنبياء ، ومنهم من رأى غير ذلك .

حنظلة بن صفوان

فممن ذكر أنه نبى حَنْظَلة بن صفوان ، وكان من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، صلى الله عليهما وسلم ، وأرسل إلى أصحاب الرَّسِّ ، وكانوا من ولد إسماعيل بن إبراهيم — وهم قبيلتان يقال لإحداهما أدمان[1] ، وللأخرى يامن ، وقيل : رعويل — وذلك باليمن ، فقام فيهم حنظلة بأمر الله عز وجل فقتلوه ، فأوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل من سبط يهوذا أن يأمر بخت نَصَّرَ [بأن] يسير إليهم ، فسار إليهم ، فأتى عليهم ، فذلك قوله عز وجل : (فلما أحسوا بأسنا) إلى قوله (حصيداً خامدين) وقيل : إن القوم كانوا من حِمْيَر ، وقد ذكر ذلك بعض شعرائهم فى مرثية له ، فقال :

بكَتْ عينى لأهلِ الرَّسِّ رَعْـــويل وقدْمان
وَأَسلَمَ من أبى زَرْع نــكال الحَىِّ قَحْطان

ذو القرنين

وقد حكى عن وهب بن منبه أن ذا القرنين — وهو الإسكندر — كان بعد المسيح عليه السلام فى الفترة ، وأنه كان حلم حلماً رأى فيه أنه دَنَا من الشمس حتى أخذ بقرنيها فى شرقيها وغربيها ، فقص رؤياه على قومه ، فسموه بذى القرنين ، وللناس فى ذى القرنين تنازع كبير [و] قد أتينا على ذلك فى كتاب « أخبار الزمان » وفى الكتاب الأوسط ، وسنذكر لمعاً من خبره عند ذكرنا الملوك اليونانيين الروم[2] .

أهل الكهف

وكذلك تنازع الناس فى أصحاب الكهف فى أى الأعصار كانوا ؛ فمنهم من زعم أنهم كانوا فى زمن الفترة ، ومنهم من رأى غير ذلك ، وسنأتى بلمع من خبرهم

(١) فى ا « قدمان » وهو المذكور فى الشعر (٢) فى ا « اليونانيين والروم »

في ذكر [نا] ملوك الروم في هذا الكتاب ، وإن كنا قد أتينا على ذلك في الكتاب الأوسط ، وفيما سلف قبله من كتاب «أخبار الزمان» .

جرجيس

ومِمن كان في الفترة بعد المسيح عليه السلام : جرجيس ، وقد أدرك بعض الحواريين ، فأرسله إلى بعض ملوك للوصل ، فدعاه إلى الله عز وجل، فقتله، فأحياه الله وبعثه إليه ثانية ، فقتله ، فأحياه الله، فأمر بنشره ثالثة[1] وإحراقه وإذرائه في دجلة ، فأهلك الله عز وجل [ذلك] الملك وجميع أهل مملكته ممن اتبعه ، على حسب ما وردت به الأخبار عن أهل الكتاب ممن آمن ، وذلك موجود في كتاب المبتدأ والسير لوهب بن مُنَبِّه وغيره .

حبيب النجار

ومِمن كان في الفترة: حبيبُ النجار ، وكان يسكن أنطاكية من أرض الشام وكان بها ملك متجبر يعبد التماثيل والصُّوَر ، فسار إليه اثنان من تلامذة المسيح، فدعواه إلى الله عز وجل ، فحبسهما وضربهما ، فعززهما الله بثالث، وقد تنوزع فيه ؛ فذهب كثير من الناس إلى أنه بطرس، وهذا اسمه بالرومية ، واسمه بالعربية سمعان، وبالسريانية شمعون [وهو شمعون] الصفاء، وذكر كثير من الناس — وإليه ذهب سائر فرق النصرانية — أن الثالث المعزَّز به هو بولس، وأن الاثنين المتقدمين اللذين أودعا الحبس توما وبطرس، فكان لهم مع ذلك الملك خطب عظيم طويل فيما أظهروا من الإعجاز [والأعاجيب] والبراهين: من إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الميت ، وحيلة بولس عليه بمداخلته إياه وتلطفه له، واستنقاذ صاحبيه من الحبس ، فجاء حبيب النجار فصدقهم ، لما رأى من آيات الله عز وجل، وقد أخبر الله عز وجل بذلك في كتابه بقوله: (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما) إلى قوله (وجاء من أقصى المدينة رجل يَسْعَى) وقتل بولس وبطرس بمدينة رومية ، وصُلِبا منكسين ، وكان لهما فيها خبر طويل مع الملك، ومع سيما[2] الساحر، ثم جعلا بعد ذلك في خزانة من البلور، وذلك بعد ظهور دين النصرانية ، وحرمهما[3]

(١) في ا « بنشره في الثالثة » (٢) في ب « سليمان الساحر »
(٣) في ا « وخزنتهما في كنيسة — إلخ »

فى كنيسة هناك قد ذكرناها فى الكتاب الأوسط عند ذكرنا لعجائب رومية، وأخبار تلاميذ المسيح عليه السلام ، وتفرقهم فى البلاد ، وسنورد فى هذا الكتاب لمعاً من أخبارهم ، إن شاء الله تعالى .

أصحاب الأخدود

فأما أصحاب الأخدود فإنهم كانوا فى الفترة فى مدينة نجران باليمن، فى مُلْكِ ذى نُوَاس ، وهو القاتل لذى شنَاتر[1] ، وكان على دين اليهودية ، فبلغ ذا نُوَاس أن قوما بنجْرَان على دين المسيح عليه السلام ؛ فسار إليهم بنفسه، واحتفر لهم أخاديد فى الأرض ، وملأها جَمْراً ، وأضْرَمها ناراً ، ثم عرضهم على اليهودية؛ فمن تبعه تركه ، ومن أبى قَذَفه فى النار ، فأُتِىَ بامرأة معها طفلها ابن سبعة أشهر، فأبت أن تتخلى عن دينها، فأُدْنيتْ من النار ، فجزعت ، فأنطق الله عز وجل الطفل فقال : يا أمَّهْ امْضِ على دينك فلا نار بعد هذه، فألقاها فى النار، وكانوا[2] مؤمنين موحِّدين ، لا على رأى النصرانية فى هذا الوقت ، فمضى رجل منهم يقال له ذو ثعلبان[3] إلى قيصر ملك الروم يستنجده ، فكتب له إلى النجاشى لأنه كان أقرب إليهم داراً، فكان من أمر الحبشة وعبورهم إلى أرض اليمن وتغلبهم عليها إلى أن كان من أمر سَيْفِ ذى يزن واستنجاده الملوك إلى أن أنجده أنوشروان ما قد أتينا على ذكره فى كتابنا أخبار الزمان، وفى الكتاب الأوسط، وسنذكر لُمعاً من ذلك فيما يرد من هذا الكتاب عند ذكرنا لأخبار الأذواء وملوك اليمن، وقد ذكر الله عز وجل فى كتابه قصة أصحاب الأخدود بقوله عز وجل: (قتل أصحابُ الأخدود) إلى قوله (وما نقَمُوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد).

خالد بن سنان العبسى

ومن كان فى الفترة : خالد بن سنان العبسى، وهو خالد بن سنان بن غيث[4] ابن عبس، وقد ذكره النبى صلى الله عليه وسلم فقال: «ذلك نبى أضَاعَهُ قومه» وذلك أن ناراً ظهرت فى العرب، فافتتنوا بها، وكانت تنتقل ، وكادت العرب

(١) فى ب « لذى سار » (٢) فى ا « فألقاها فى النار وكانا »
(٣) فى ب « دمعليان » (٤) فى ب « بن عتب »

تتمجّسُ وتغلبُ عليها المجوسية ، فأخذ خالد بن سنان هراوة وشدّ عليها وهو يقول : بدا بَدَا ، كُلّ هدى ، مؤدّ إلى الله الأعلى ، لأدخلنها وهى تتلظى ، ولأخرُجنّ منها وثيابى تتندّى ، فأطفأها ؛ فلما حضرت خالد بن سنان الوفاة قال لإخوته : إذا أنا دفنت فإنه ستجىء عانة من حمير يَقْدُمُها عَيْرٌ أبتر ، فيضرب قبرى بحافره ؛ فإذا رأيتم ذلك فانبشوا عنى فإنى سأخرج إليكم فأخبركم بجميع ما هو كائن ، فلما مات ودفنوه رأوا ما قال ، فأرادوا أن يخرجوه ، فكره ذلك بعضهم وقالوا : نخاف أن تنسبنا العرب إلى نبشنا عن ميت لنا[1] ، وأتت ابنته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعته يقرأ : (قل هو الله أحد ، الله الصمد) فقالت : كان أبى يقول هذا ، وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب لمعاً من أخباره مما تدعو الحاجة إلى ذكره ، إن شاء الله تعالى .

رئاب الشنى أحد بنى عبد القيس

قال المسعودى : وممن كان فى الفترة : رئاب الشَّنِّىُّ ، وكان من عبد القيس ، ثم من شَن ، وكان على دين المسيح عيسى بن مريم عليه السلام قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، [فسمعوا منادياً ينادِى من السماء قبل مبعث النبي : خير أهل الأرض ثلاثة : رئاب الشنى ، وبحيرَا الراهب ، ورجل آخر لم يأت بعد ، يعنى النبي عليه السلام] وكان لا يموت أحد من ولد رئاب فيدفن إلا رأوا واسطاً على قبره .

أسعد أبو كرب الحميرى

ومنهم أسعد أبو كرب الحميرى ، وكان مؤمنا ، وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة ، وقال :

شهدْتُ على أحمـــدٍ أنه ... رَسُولٌ من الله بارِى النَّسَمْ
فَلَوْ مُدَّ عُمْرِى إلى عمره ... لكنْتُ وزيراً له وابن عمْ
[وألْزِمُ طاعَتَهُ كلَّ منْ ... على الأرض من عُرُبٍ أو عجم]

---

(١) فى ا « نخاف أن تسبنا العرب بأنا نبشا ميتاً لنا »

وهو أول من كسا الكعبة الأنطاع والبُرُودَ ؛ فلذلك يقول بعض حِمْيَر :

وكَسَوْنَا البيْتَ الَّذِى عظم اللـــهُ مُلاءً مُقَصَّـــباً وَبُرُودا

قس بن ساعدة الإيادى

ومنهم : قس بن ساعدة الإيادى من إياد بن أد بن معد ، وكان حكيم العرب ، وكان مقراً بالبعث ، وهو الذى يقول : من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آتٍ آت ، وقد ضرب العرب بحكمته وعقله الأمثال، قال الأعشى :

وأحْكَمُ مِنْ قُسٍّ ، وأجْرَا من الَّذِى

بِذِى الغيل مِنْ خَفَّانَ أصْبَحَ خَادِرَا

وقدم على النبي صلى الله عليه وسلم وَفد من إياد ، فسألهم عنه ، فقالوا : هلك ، فقال : رَحمه الله ؛ كأنى أنظر إليه بسوق عُكَاظ على جمل له أحمر ، وهو يقول : أيها الناس ، اجتمعوا واسمعوا وَعُوا ، مَنْ عاش مات ، ومَنْ مات فات ، وكل ما هو آت آت ، أما بعد فإن فى السماء لخبراً ، وإن فى الأرض لعبراً ، نجوم تمور ، وبحار تغور[1] ، وسَقْف مرفوع ، ومهاد موضوع ، أقسم قس بالله قسما لا حانثاً فيه ولا آثماً ، إن لله لدينا هو أرضى من دين أنتم عليه ، مالى أراهم[2] يذهبون ولا يرجعون ، أرَضُوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا ؟ سبيل مؤتلف ، وعمل مختلف . وقال أبياتاً لا أحفظها ، فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال : أنا أحفظها يارسول الله، فقال: هاتها ، فقال:

فى الذَّاهِبِينَ الأوَّلِيـــنَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ

لمـا رَأيْتُ مَـــوَارِداً لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ

ورَأيْتُ قَوْمِى نَحْوَهَا تَمْضِى الأوَائِلُ وَالأوَاخِرْ[3]

لاَ يَرْجِعُ المَاضِى، ولاَ يَبْقَى مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرْ

(١) فى ا « بحور تمور ، ونجوم تغور » (٢) فى ا « ما بال الناس »

(٣) فى ا « يمضى الأصاغر والأكابر »

أيقَنْتُ أنى لاَ محا لَةَ حَيْثُ صَار القَوْمُ صائِرْ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله قسا ، إنى لأرجو أن يبعثه الله أمة وَحْدهُ » .

قال المسعودى : ولقس أشعار كثيرة وحِكَمٌ ، وأخبار تُبصِّر[1] فى الطب والزجر والفأل وأنواع الحكم ، وقد ذكرنا ذلك فى كتاب «أخبار الزمان» وفى الكتاب الأوسط .

زيد بن عمرو ابن نفيل

ومِمن كان فى الفترة : زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، أبو سعيد بن زيد أحدِ العشَرَة ، وهو ابن عم عمر بن الخطاب [لَحًّا] ، وكان زيد يرغب عن عبادة الأصنام ، وعابها فأولع به عَمُّه الخطابُ سُفَهاء مكة ، وسلطهم عليه ، فآذَوْهُ ، فسكن كهفاً بحراء ، وكان يدخل مكة سراً ، وسار إلى الشام يبحث عن الدين ، فسمته [النصارى ، ومات بالشام ، وله خبر طويل مع الملك والترجمان ، ومع] بعض ملوك غسان بدمشق ، وقد أتينا عليه فيما سلف من كتبنا .

أمية بن أبى الصلت الثقفى

ومنهم : أمية بن أبى الصَّلْتِ الثقفى ، وكان شاعراً عاقلاً ، وكان يتَّجِر إلى الشام ، فتلقاه أهل الكنائس من اليهود والنصارى ، وقرأ الكتب ، وكان قد علم أن نبيًّا يبعث من العرب ، وكان يقول أشعاراً على آراء أهل الديانة يصف فيها السموات والأرض والشمس والقمر والملائكة ، وذكر الأنبياء والبعث [والنشور] والجنة والنار ، ويعظم الله عز وجل ويوحده ، من ذلك قوله :

الحَمْدُ لِلهِ ، لاَ شَرِيكَ لَهُ مَنْ لَمْ يَقُلْهَا فَنَفْسَهُ ظَلَمَا

ووصف أهل الجنة [فى بعض كلماته] فقال :

فَلاَ لَغْوٌ ولاَ تَأْثِيمَ فيهـا وما فَاهُوا بِهِ لَهُمُ مُقيمُ[2]

ولما بلغه ظهور النبى صلى الله عليه وسلم اغتاظ [لذلك] وتأسف ،

---

(١) فى ب «وأخبار مع قيصر» (٢) فى كتب الشواهد « أبداً مقيم » .

وجاء المدينة ليسلم فردّه الحسد ، فرجع إلى الطائف ، فبينا هو ذات يوم في فتية يشرب إذ وقع غراب فنعَبَ ثلاثة أصوات وطار ، فقال أمية : أتدرون ما قال ؟ قالوا : لا ، قال : فإنه يقول لكم : إن أمية لا يشرب الكأس الثالثة حتى يموت ، فقال القوم : لتكذِبَنّ قوله ، ثم قال : احسُوا كأسكم ، فحَسَوْها ، فلما انتهت النوبة[1] إليه أغمى عليه ، فسكت طويلا ، ثم أفاق وهو يقول :

لَبَّيْكُما لَبَّيْكُما ها أنا ذَا لَدَيكُما

أنا من حفت به النعمة ، والحمد والشكر[2] .

إنْ تَغفرِ اللهمَّ تَغفرْ جَمّا وأىُّ عَبْدٍ لَكَ لاَ أَلَمَّا

أو قال : أنا من حفت به النعمة [والحمد] ولم يجهد في الشكر ، ثم أنشأ يقول :

إنَّ يَوْمَ الحِسَاب يَوْمٌ عظيمٌ شَابَ فيه الصَّغير يَوْماً طَوِيلاَ[3]
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ ما قد بَدَالِي في رُءوس الجِبال أرْعَى الوُعُولاَ
كُلُّ عَيْشٍ وَإنْ تَطَاوَلَ حيناً فَقُصَارَى أيَّامه أنْ يزُولاَ[4]

ثم شَهق شهقة ؛ فكانت فيها نفسه .

قال المسعودى : وقد ذكر جماعة من أهل المعرفة بأيام الناس ، وأخبار مَنْ سلف ــ كابن دأب ، والهيثم بن عدى ، وأبى مِخْنَفٍ لوط بن يحيى ، ومحمد بن السائب الكلبى ــ أن السبب فى كتابة قريش ، واستفتاحها فى أوائل كتبها « باسمك اللهم » هو أن أمية بن أبى الصَّلْت الثقفى خرج إلى الشام فى نفر من ثقيف وقريش فى عِيرٍ لهم ، فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلا ، واجتمعوا لعشائهم ؛ إذ أقبلت حية صغيرة حتى دَنَتْ منهم ، فحَصَبَها بعضهم بشىء فى وجهها ، فرجعت ، فشَدُّوا [سفرتهم ثم قاموا

(١) فى ا « فلما انتهت الكأس الثالثة إلى أمية »

(٢) فى ا « ولم يحمد الشكر » وهى أوفق لما بعده (٣) فى ا « شيآ طويلا »

(٤) فى ا « صائر مدة إلى أن يزولا »

فَشَدُّوا] على إبلهم وارتحلوا من منزلهم ، فلما برزوا عن المنزل أشرفت عليهم عجوز من كثيب رمل متوكئة على عَصًا لها ، فقالت : ما منعكم أن تطعموا رحيمة ، الجارية اليتيمة ، التى جاءتكم عشية ؟ قالوا : ومن أنتِ ؟ قالت : أم العوام ، أو تمتُ[1] منذ أعوام ، أما ورب العباد ، لتفترقُنَّ فى البلاد ، ثم ضربت بعصاها الأرض ، فأثارت بها الرمل ، وقالت : أطيلى إيابهم ، وأنفِرى ركابهم ، فوثبت الإبل فكأن على ذِرْوَة كل بعير منها شيطانا ، ما نملك منها شيئاً ، حتى افترقت فى البوادى ، فجمعناها من آخر النهار إلى غد ، ولم نكد ، فلما أنخناها [لنرحلها طلعت علينا العجوز فعادت بالعصا كفعلها أولا ، و]عادت إلى مقالتها الأولى : ما منعكم أن تطعموا رحيمة ، الجارية اليتيمة ؟ أطيلى إيابهم وأنفِرى ركابهم ، فخرجت الإبل ما نملك منها شيئا ، فجمعناها من [آخر النهار إلى] غد ، ولم نكد ، فلما أنخناها [لنرحلها طلعت علينا العجوز ، ف]فعلت مثل فعلتها الأولى والثانية ، فتفرقت الإبل وأمسينا فى ليلة مُقمِرَة ، وقد يئسنا من ظهورنا ، فقلنا لأمية بن أبى الصَّلْتِ : أين ما كنتَ تخبرنا به عن نفسك ؟ فتوجَّهَ إلى ذلك الكثيب الذى كانت تأتى منه العجوز ، حتى هَبَطَ من ناحية أخرى ، ثم صعد كثيباً آخر حتى هبط منه ، ثم رفعت له كنيسة فيها قناديل ، وإذا رجل جالس أبيض الرأس واللحية ، قال أمية : فلما وقفت عليه رفع رأسه إلى وقال : إنك لمتبوع[2] ، قلت : أجل ، قال : فمن أين يأتيك صاحبك ؟ قلت : من أذنى اليسرى ، قال : فبأى الثياب يأمرك ؟ قلت : بالسواد ، قال : هذا خَطْب الجن ، كدت ولم تفعل ، ولكن صاحب هذا الأمر يكلمه فى أذنه اليمنى ، وأحَبُّ الثياب إليه البياضُ ، فما جاء بك ؟ وما حاجتك ؟ فحدثته حديث العجوز ، قال : صدَقَتْ ، وليست بصادقة ،

(١) ربما كان الأصل « إمت منذ أعوام » أو « أو يمت منذ أعوام » وتقول: آمت المرأة تئيم — مثل باعت تبيع — إذا صارت أيما .

(٢) يريد أن له رئياً يحدثه .

هى امرأة يهودية هلك زوجها منذ أعوام ، وإنها لا تزال تصنع بكم ذلك حتى تهلككم إن استطاعتْ ، قال أمية : فما الحيلة ؟ قال : اجمعوا ظُهُورَكم فإذا جاءتكم ففعلت ما كانت تفعل فقولوا لها : سبعاً من فوق ، وسبعاً من أسفل ، باسمك اللهم ، فإنها لا تضركم ، فرجع أمية إلى أصحابه ، فأخبرهم بما قيل له ، فجاءتهم ، ففعلت كما كانت تفعل ، فقالوا : سبعاً من فوق ، وسبعاً من أسفل ، باسمك اللهم ، فلم تضرهم ، فلما رأت الإبل لم تتحرك قالت : عرفت صاحبكم ، لَيَبْيَضَّنَّ أعلاه ، وَيسودَّنَّ أسفله ، وسِرْنَا ، فلما أدركنا الصبح نظرنا إلى أمية قد بَرِصَ فى عذاريه ورقبته وصدره ، واسودّ أسفله ، فلما قدموا مكة ذكروا هذا الحديث .

وكان أمية أول من كتب « باسمك اللهم » إلى أن جاء الله عز وجل بالإسلام فرفع ذلك وكتب : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وله أخبار غير هذه قد أتينا عليها وعلى ذكرها فى «أخبار الزمان» وغيره مما سلف من كتبنا .

ورقة بن نوفل

ومنهم : ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى بن قصى ، وهو ابن عم خديجة بنت خُوَيْلد زوج النبى صلى الله عليه وسلم لَحًّا ، وكان قد قرأ الكتب وطلب العلم ، ورغب عن عبادة الأصنام ، وبشر خديجة بالنبى صلى الله عليه وسلم وأنه نبى هذه الأمة ، وأنه سَيُؤْذَى ويكذَّبُ ، ولقى النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا بن أخى ، اثْبُتْ على ما أنت عليه ، فوالذى نفس ورقة بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولتؤذَيَنَّ ولتكذبن ولتخرجن ولتقاتلن ، ولئن أدركت يومك لأنصرن الله نصراً يعلمه ، وقد اختلف فيه : فمنهم من زعم أنه مات نصرانيا ، ولم يدرك ظهورَ النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يتيسر له أمره ، ومنهم من رأى أنه مات مسلما وأنه مدح النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

يَعْفُو وَيَصْفَحُ لاَ يَجْزِى بِسَيِّئَةٍ ... وَيَكْظِمُ الْغَيْظَ عِنْدَ الشَّتْمِ وَالْغَضَبِ

عداس مولى عتبة بن ربيعة

ومنهم: عَدَّاس(١) مولى عُتْبَةَ بن ربيعة ، وكان من أهل نِينَوَى ، ولقى النبي صلى الله عليه وسلم بالطائف حين خرج يدعوهم إلى الله عز وجل ، وكان له مع النبى صلى الله عليه وسلم خَطْب فى الحديقة ، وقتل يوم بدر على النصرانية ، وكان ممن يبشر بالنبي صلى الله عليه وسلم .

أبو قيس صرمة ابن أبى أنس

ومنهم: أبو قيس صِرْمَة بن أبى أنس من الأنصار من بنى النجار، وكان ترهَّبَ ، ولبس المسوح،وهجر الأوثان، ودخل بيتا، واتخذهُ مسجداً لاتدخله طامث ولا جُنُب ، وقال : أعبد رَبَّ إبراهيم ، فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم وحسن إسلامه ، وفيه نزلت آية السحور : (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) وهو القائل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حَجَّةً بِمَكَّةَ لاَ يَلْقَى صَدِيقاً مُوَاتِياً(٢)

أبو عامر الأوسى

ومنهم : أبو عامر الأوسى [واسمه عبد عمرو بن صَيْفِى بن النعمان ، من بنى عمرو بن عوف ، من الأوس] وهو أبو حنظلة غَسِيلِ الملائكة ، وكان سيدا قد ترهَّبَ فى الجاهلية ، ولبِس المسوح ، فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة كان له معه خطب طويل ، فخرج فى خمسين غلاما ، فمات على النصرانية بالشام .

عبد الله ابن جحش الأسدى

ومنهم: عبدالله بن جَحْش الأسدى،من بنى أسدبن خُزَيمة ، وكانت عندهُ أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ، قبل أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد قرأ الكتب فمال إلى النصرانية ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر إلى أرض الحبشة فيمن هاجر من المسلمين ومعه زوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ، ثم إنه ارتدَّ عن الإسلام هنالك وتنصر ، ومات

---

(١) فى ا « عداسة » ومثل ماهنا عن ب ثابت فى سيرة ابن هشام

(٢) فى ا « لو يلق صديقا مواسيا » .

بأرض الحبشة ، وكان يقول للمسلمين : إنا فقّحْنَا وصأصأتم ، يريد أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر ، وهذا مَثَلٌ ضربه لهم ، وذلك أنه يقال للكلب إذا فتح عينيه بعد ما يولد وهو جَرْو : قد فقحَ ، وإذا كان يريد أن يفتحهما ولم يفتحهما بعدُ قيل : صأصأ ، ولما مات عبد الله بن جَحْش تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان ، زَوَّجَهَا إياه النجاشي ، وأمهرها عنه أربعمائة دينار .

بحيرا الراهب

ومنهم: بَحِيرَا الراهب ، وكان مؤمناً على دينِ المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، واسم بَحِيرَا في النصارى سرجس[1] ، وكان من عبد القيس ، ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب إلى الشام في تجارة وهو ابن اثنتيْ عشرَةَ سنة ومعهما أبو بكر وبلال مرُّوا ببَحِيرا وهو في صَوْمعته، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته ودلائله وما كان يجده في كتابه ونظر إلى الغمام تظله حيث ماجلس ، فأنزلهم بَحِيرَا ، وأكرمهم ، واصطنع لهم طعاما ، ونزل من صومعته حتى نظر إلى خاتم النبوة بين كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم،ووضع يده على موضعه ، وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأعلم أبابكر وبلالا بقصته ، ومايكون من أمره ، وسأل أبا طالب أن يرجع به من وجهه ذلك ، وحَذَّرهم عليه من أهل الكتاب، وأخبر عمه أبا طالب بذلك ، فرجع به ، فلما رجع من سفرة ذلك ، كان بدْء قصته مع خديجة وما أظهر الله لها من دلائل نبوته ، وما أخبرت به مما كان منه في طريقه .

قال المسعودي : فهذه جمل مبدأ الخليقة إلى حيث انتهينا [من هذا الموضع] ولم نَشُبْهُ بشيء غير ما جاءت به الشرائع ، ونطقت به الكتب ، وأوضحت عنه الرسل عليهم الصلاة والسلام .

ولنذكر الآن بدء ممالك الهند ، ولمعاً من آرائها ، ونُتْبِع ذلك بذكر سائر الممالك ؛ إذ كنا قدمنا جملا من ذكر ملوك الإسرائيليين على حسب ما وجدنا في كتب الشرعيين ، والله أعلم .

---

(١) في ب « جرجس »

ذكر جمل من أخبار الهند، وآرائها

وبَدْء ممالكها [وملوكها]

ذكرَ جماعة من أهل العلم والنظر والبحث الذين وصلوا الغاية بتأمل شأن هذا العالم وبدئه أن الهند كانت فى قديم الزمان الفرقة التى فيها الصلاح والحكمة ؛ فإنه لما تجيلت الأجيال ، وتحزبت الأحزاب ،حاولت الهند أن تضم المملكة ، وتستولى على الحوْزة ، وتكون الرياسة فيهم ، فقال كبراؤهم: نحن [كنا] أهل البدء ، وفينا التناهى ، ولنا الغاية والصدر والانتهاء ، ومناسرى الأب إلى الأرض ، فلا ندع أحداً شاققنا ولا عاندنا وأراد بنا الإغماض إلا أتينا عليه وأبدْناه أو يرجع إلى طاعتنا ، فأزْمعَتْ على ذلك، ونصبت لها ملكا ، وهو البرهمن الأكبر ، والملك الأعظم ، والإمام فيها المقدم ، وظهرت فى أيامه الحكمة ، وتقدمت العلماء ، واستخرجوا الحديد من المعادن ، وضُرِبَتْ فى أيامه السيوف والخناجر ، وكثير من أنواع المقاتل، وشيد الهياكل ، ورصعها بالجواهر المشرقة المنيرة ، وصوَّرَ فيها الأفلاك والبروج الأثنى عشر والكواكب ، وبين بالصورة كيفية العالم ، وأرى بالصورة أيضاً أفعال الكواكب فى هذا العالم وأحداثها للأشخاص الحيوانية : من الناطقة وغيرها ، وبين حال المدبر الأعظم الذى هو الشمس، وأثبت فى كتابه براهين جميع ذلك ، وقرّبَ إلى عقول العوام فَهْمَ ذلك ، وغرس فى نفوس الخواص دراية ما هو أعلى من ذلك ، وأشار إلى المبدأ الأول المعطى سائر الموجودات وجودَهَا الفائض عليها بجوده ، وانقاد له الهند ، وأخصبت بلادها ، وأراهم وجه مصالح الدنيا ، وجمع الحكماء فأحدثوا فى أيامه كتاب السندهند وتفسيره دهر الدهور،ومنه فرعت الكتب ، ككتاب الأرجبهد[1] والمجسطى،وفرع من الأرجبهد[1] الأركند،ومن المجسطى كتاب بطليموس،ثم عمل منهما بعد ذلك الزيجات،وأحدثوا التسعة الأحرف

البرهمن

(١) فى ب « الأزجهير »

المحيطة بالحساب الهندى ، وكان أول من تكلم فى أوج الشمس ، وذكر أنه يقيم فى كل برج ثلاثة آلاف سنة، ويقطع الفلك فى ستة وثلاثين ألف سنة ، والأوج الآن على رأى البرهمن فى وقتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — فى برج الثور[1] وأنه إذا انتقل إلى البروج الجنوبية انتقلت العمارة ؛ فصار العامر خرابا ، والخارب عامراً ، والشمال جنوباً ، والجنوب شمالا ، ورتَّبَ فى بيت الذهب حساب الدور[2] الأول والتاريخ الأقدم الذى عليه عملت الهند فى تواريخ البدءة ، وظهورها فى أرض الهند دون سائر الممالك ، ولهم فى البدء خَطْب طويل أعرضنا عن ذكره ؛ إذ كان كتابنا كتاب خبر، لا كتاب بحث ونظر ، وقد أتينا على جمل من ذلك فى الكتاب الأوسط ، ومن الهند من يذكر أن ابتداء العالم فى كل سبعين ألف سنة هازروان ، وأن العالم إذا قطع هذه المدة عاد الكون ؛ فظهر النسل ، ومرحت[3] البهائم ، وتغلغل الماء ، وذبَّ الحيوان ، وبقَلَ العُشْبُ ، وخرق النسيم الهواء ، فأما أكثر أهل الهند فإنهم قالوا بكرور منصوبات على دوائر تبتدىء القوى متلاشية [شبيهة] الشخص ، موجودة القوة ، منتصبة الذات ، وحدُّوا لذلك أجلا ضربوه ، ووقتاً نصبوه ، وجعلوا الدائرة العظمى والحادثة الكبرى ، وسموا ذلك بعمر العالم ، وجعلوا للمسافة بين البدء والانتهاء مدة ست وثلاثين ألف سنة مكررة فى اثنى عشر ألف عام ، وهذا عندهم الهازروان الضابط لقوى الأشياء والمدبر لها ، وأن الدوائر تقبض وتبسط جميع المعانى التى تستودعها ، وأن الأعمار تطول فى أول الكر لانفساخ الدوائر ، وتمكن القوى من المجال ، وتقصُر الأعمار فى آخر الكر لضيق الدوائر ، وكثرة مايعرض فيها من الأكدار الباترة للأعمار ، وذلك أن قوى الأجسام وصَفْوها فى أول الكر تظهر وتسرح ، وأن الصفو سابق الكدر ، والصافى يبادر الثفل ، والأعمار تطول بحسب صفاء المزاج ،

(١) فى ا « برج التوءم » (٢) فى ا « البدء الأول » (٣) فى ا « وسرحت »

وتكامل القوى المدبرة لعناصر أخلاط[1] الكائنات الفاسدات المستحيلات البائدات ، وأن آخر الكر الأعظم وغاية البدء الأكبر تظهر الصورة منشوهة ، والنفوس ضعيفة ، والأمزجة مختلطة ، وتتناقص القوى ، وتبيد المواسك[2] ، وترد المواد فى الدوائر منعكسة مزدحمة ، فلا يحظى ذوو الأعصار بتمام الأعمار ، وللهند فيما ذكرناه علل وبراهين فى المبادى الأول ، وفيما بسطناه من تفريعهم فى الدوائر والهازروانات ، ورموز وأسرار فى النفوس فى اتصالها بما علا من العوالم وكيفية بدئها من أعلى إلى أسفل ، وغير ذلك مما رتب لهم البرهمن فى بدء الزمان ، وكان ملك البرهمن إلى أن هلك ثلثمائة سنة وستين سنة[3] .

البراهمة

وولده يعرفون بالبراهمة إلى وقتنا ، والهند تعظمهم ، وهم أعلى أجناسهم وأشرفهم ، ولا يغتذون بشىء من الحيوان ، وفى رقاب الرجال والنساء منهم خيوط صُفْر يتقلدون بها كحمائل السيوف ، فرقاً بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند.

وقد كان اجتمع منهم فى قديم الزمان فى ملك البرهمن سبعة من حكمائهم المنظور إليهم فى بيت الذهب فقال بعضهم لبعض : اجلسوا حتى نتناظر ؛ فننظر ما قصة العالم ؟ وما سره ؟ ومن أين أقبلنا ؟ وإلى أين نمر ؟ وهل خروجُنا من عدم إلى وجود حكمةٌ أو ضد ذلك ؟ وهل خالقنا المخترع لنا والمنشىء لأجسامنا يجتلب بخلقنا منفعة ، أم هل يدفع بفنائنا عن هذه الدار عن نفسه مضرة ، أم هل يدخل عليه من الحاجة والنقص ما يدخل علينا ؟ أم هل هو غنى من كل وجه فما وجه إفنائه إيانا وإعدامنا بعد وجودنا وآلامنا وملاذنا ؟ فقال الحكيم المنظور إليه منهم : أترى أحداً من الناس أدرك الأشياء الحاضرة والغائبة على حقيقة الإدراك ؛ فظفر بالبغية واستراح إلى الثقة ؟ قال الحكيم الثانى : لو تناهت حكمة البارىء عز وجل فى أحد

(١) فى ا « وتكامل القوى المؤدية للعناصر إلى الأخلاط الكائنات ــ إلخ »
(٢) فى ب « المواصل »
(٣) فى ا « ثلثمائة سنة وستا وستين سنة »

العقول كان ذلك نقصاً من حكمته، وكان الغرض غير مدرك ، وكان التقصير مانعاً من الإدراك ، قال الحكيم الثالث : الواجب علينا أن نبتدىء بمعرفة أنفسنا التي هي أقرب الأشياء منا ونحن أولى بها وهي أولى بنا ، من قبل أن نتفرغ إلى علم ما بعد منا ، قال الحكيم الرابع : لقد ساء وقوع من وقع موقعاً احتاج فيه إلى معرفة نفسه ، قال الحكيم الخامس : من ههنا وجب الاتصالُ بالعلماء المدودين بالحكمة ، قال الحكيم السادس : الواجب على المرء المحب لسعادة نفسه أن لا يغفل عن ذلك ، لاسيما إذا كان المقام في هذه الدنيا ممتنعاً ، والخروج منها واجباً ، قال الحكيم السابع : أنا لا أدري ما تقولون ، غير أني أُخرِجْتُ إلى هذه الدنيا مضطراً ، وعشت فيها حائراً ، وأُخْرَجُ منها مكرهاً .

فاختلف الهند ممن سلف وخلف في آراء هؤلاء السبعة ، وكلٌّ قد اقتدى بهم ، ويمم مذهبهم ، ثم تفرعوا بعد ذلك في مذاهبهم ، وتنازعوا في آرائهم ، والذي وقع عليه الحصر من طوائفهم سبعون فرقة .

قال المسعودي : وقد رأيت أبا القاسم البَلْخِيَّ ذكر في كتاب « عيون المسائل والجوابات » وكذلك الحسن بن موسى النوبَختيُّ في كتابه المترجم بكتاب « الآراء والديانات » مذاهبَ الهند وآراءهم ، والعلة التي من أجلها أحرقوا أنفسهم في النيران ، وقطعوا أجسامهم بأنواع العذاب ، فما تعرضا لشيء مما ذكرنا ، ولا يَمَّما نحو ما وصفنا .

حقيقة البرهمن

وقد تنوزع في البرهمن: فمنهم من زعم أنه آدم عليه السلام، وأنه رسول الله عز وجل إلى الهند ، ومنهم من يقول : إنه كان ملكا على حسب ما ذكرنا ، وهذا أشهر .

الباهبود بن البرهمن

ولما هلك البرهمن جزعت عليه الهند جزعاً شديداً ، وفزعت إلى نَصْبِ ملك عليها من أكبر ولده؛ فكان ولي عهده الموصى له من ولده ابنه الباهبود[1] ،

(١) في ب « الناهود »

فسار فيهم سيرة أبيه ، وأحسن النظر إليهم ، وزاد فى بناء الهياكل ، وقدَّم الحكماء ، وزاد فى مراتبهم ، وحثّهم على تعليم الناس الحكمة ، وبعثهم على طلبها ، فكان ملكه إلى أن هلك مائة سنة .

صنع النرد وحكمته

وفى أيامه عمل النَّرْدُ ، وأحدث اللعب بها ، وجعل ذلك مثالا للمكاسب ، وأنها لا تُنَال بالكَيْس ، ولا بالحيل فى هذه الدنيا ، وأن الرزق لا يتأتى فيها بالحذق ، وقد ذكر أن أردشير بن بابك أول من صنع النرد ، ولعب بها ، وأرى تقلب الدنيا بأهلها ، واختلاف أمورها ، وجعل بيوتها اثنى عشر بيتاً بعدد الشهور ، وجعل كلابها ثلاثين كلبا بعدد أيام الشهر ، وجعل الفصين مثلا للقَدَر ، وتقلُّبه بأهل الدنيا ، وأن الإنسان يلعب بها فيبلغ بإسعاد القدر إياه فى مراده باللعب بها ما يريد ، وأن الحازم الفطن لا يتأتى له ما تأتى لغيره ، إلا إذا أسعده القدر ، وأن الأرزاق والحظوظ فى هذه الدنيا لا تُنَال إلا بالجدود .

زامان بعد الباهبود

ثم ملك زامان بعد الباهبود ، فكان ملكه نحواً من خمسين ومائة سنة ، ولزامان سيَر وأخبار وحروب مع ملوك فارس وملوك الصين قد أتينا على الغُرَرِ منها فيما سلف من كتبنا .

ملك فور

ثم ملك فور ، وهو الذى واقَعَهُ الإسكندر ، فقتله [الإسكندر] مبارزة ، وكان ملك فور إلى أن هلك أربعين ومائة سنة .

ملك دبشليم

ثم ملك بعده دَبْشَلِيمُ ، وهو الواضع لكتاب « كليلة ودمنة » الذى ينسب لابن المقفّع ، وقد صنف سهل بن هرون الكاتب لأمير المؤمنين المأمون كتابا ترجمه ثعلة وعفرة يعارض به كتاب كليلة ودمنة فى أبوابه وأمثاله ، ويزيد عليه فى حسن نظمه ، وكان ملكه مائة وعشرين سنة[1] ، وقيل غير ذلك .

ملك بلهيت وصنع الشطرنج

ثم ملك بعده بلهيت ، وصنعت فى أيامه الشطرنج ؛ فقضى بلعبها على النرد ، وبَيَّنَ الظفر الذى يناله الحازم ، والبلية التى تلحق الجاهل ، وحسب حسابها ، ورتَّبَ

(١) فى ا « مائة وعشر سنين »

لذلك كتابا للهند يعرف بطرق جنكا يتداولونه بينهم ، ولعب بالشطرنج مع حكمائه ، وجعلها مصورة تماثيل مشكلة على صور الناطقين وغيرهم من الحيوان مما ليس بناطق ، وجعلهم درجات ومراتب ، ومثّل الشاه بالمدبِّر الرئيس ، وكذلك ما يليه من القطع ، وأقام ذلك مثالا للأجساد العلوية التي هي الأجسام السماوية من السبعة والاثنى عشر ، وأفرد كل قطعة منها بكوكب ، وجعلها ضابطة للمملكة ، وإذا كان عدو من أعدائه ، فوقعت منه حيلة في الحروب نظروا من أين يؤتون ، في عاجل وآجل ، وللهند في لعب الشطرنج سر يسرونه في تضاعيف حسابها ، ويتغلغلون بذلك إلى ما علا من الأفلاك ، وما إليه منتهى العلة الأولى ، وأعداد أضعاف الشطرنج ثمانية عشر ألف ألف ألف ألف ألف ألف [وأربعمائة ألف وستة وأربعون ألف ألف ألف ألف ألف وسبعمائة وأربعون] ألف ألف ألف ألف ، وثلاثة وسبعون ألف ألف ألف ، وسبعمائة ألف ألف ، وسبعة آلاف ألف وخمسمائة ألف وأحد وخمسون ألف وستمائة وخمسة عشر ، ومراتب هذه الألوف الستة الأولى ، ثم الخمسة التي هي ألف ألف خمس مرات ، ثم الأربع ، ثم الثلاث ، ثم الاثنين ، ثم الواحدة ؛ لها عندهم معانٍ ، يذكرونها في الدهور والأعصار ، وما تقتضيه سائر المؤثرات العلوية في هذا العالم ؛ لارتباط نفوس الناطقين بها ، ولليونانيين والروم وغيرهم من الأمم في الشطرنج كلام ونوع من اللعب بها . وقد ذكر ذلك الشطرنجيون في كتبهم ، ممن تقدم منهم إلى الصولي والعدلي ، وإليهما كان انتهاء اللعب بالشطرنج في هذا العصر .

وكان مُلْكُ بلهيت ملك الهند إلى أن هلك ثمانين سنة ، وفي بعض النسخ أنه ملك ثلاثين ومائة سنة .

ملك كورش

ثم ملك بعده كورش ، فأحدث للهند آراء في الديانات ، على حسب ما رأى من صلاح الوقت ، وما يحتمله من التكليف أهلُ العصرِ ، وخرج

عن مذاهب من سَلَفَ ، وكان فى مملكته وعصره سندباد ، دَوّن له كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك ، وهو الكتاب المترجم بالسندباد وعمل فى خزانة هذا الملك الكتاب الأعظم فى معرفة العلل والأدواء والعلاجات ، وشكلت الحشائش ، وصورت ، وكان مدة ملك الهند هذا إلى أن مات عشرين ومائة سنة .

اختلاف أهل الهند وتعدد ملوكهم

ولما هلك هذا الملك اختلفت الهند فى آرائها ، فتحزَّبَتِ الأحزاب ، وتجيلت الأجيال ، وانفرد كل رئيس بناحية، فملك على أرض السند ملك، وملك على أرض القنوج ملك ، وتملك على أرض قشمير ملك ، وتملك على مدينة المانكير ــ وهى الحوزة الكبرى ــ ملك يسمى بالبلهرى ، وهذا أول ملك سمى من ملوكهم بالبلهرى ؛ فصارت سِمَةً لمن طرأ بعده من الملوك لهذه الحَوْزَة إلى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

صفة أرض الهند

وأرض الهند أرض واسعة فى البر والبحر والجبال ، وملكهم متصل بملك الزابج ، وهى دار مملكة المهراج ملك الجزائر ، وهذه المملكة قدر[1] بين مملكة الهند والصين ، وتضاف إلى الهند ، والهند متصلة مما يلى الجبال بأرض خراسان والسند إلى أرض التبت ، وبين هذه الممالك تباين وحروب ، ولغاتهم مختلفة ، وآراؤهم غير متفقة ، والأكثر منهم يقول بالتناسخ ، وتَنَقُّلِ الأرواح على حسب ما قدمناه آنفاً ، والهند فى عقولهم وسياساتهم وحكمتهم [وألوانهم وصفاتهم] وصحة أمزجتهم وصفاء أذهانهم [ودقة نظرهم] بخلاف سائر السودان من الزّنْج والدمادم وسائر الأجناس.

وقد ذكر جالينوسُ فى الأسْوَدِ عشر خصال اجتمعت فيه، ولم توجد فى غيره : تفلفل الشعر ، وخفة الحاجبين ، وانتشار المنخرين ، وغلظ الشفتين،

---

(١) فى ا « فرز بين مملكة الهند والصين » .

بعض طبائع الهند

وتحديد الأسنان، ونتن الجلد، وسواد الحدق[١] ، وتشقق اليدين والرجلين ، وطول الذكر ، وكثرة الطرب ، قال جالينوس : وإنما غلب على الأسود الطرب لفَسَادِ دماغه ، فضعف لذلك عقله .

وقد ذكر [غير] جالينوس فى طرب السودان ، وغلبة الفرح عليهم ، وما خص به الزنج من ذلك دون سائر السودان فى الإكثار من الطرب أموراً قد ذكرناها فيما سلف من كتبنا .

ولقد كان طاوس اليمانى صاحبُ عبد الله بنِ عباس لا يأكل من ذبيحة الزنجى ، ويقول : إنه عبد مُشَوَّه الخلقة .

وبلغنا أن أبا العباس الراضى بالله ابن المقتدر بالله كان لا يتناول شيئاً من أسود ، ويقول : إنه عبد مشوه خلقه ؛ فلست أدرى أقَلَّدَ طاوسا فى مذهبه أم لضرب من الآراء والنحل .

من عادات الهنود

وقد صنف عمرو بن بحر الجاحظ كتاباً فى فخر السودان ومناظرتهم مع البيضان.

والهند لا تملِّكُ الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة ، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلا فى كل برهة من الزمان معلومة ، ويكون ظهورها للنظر فى أمور الرعية ؛ لأن فى نظر العوام عندها إلى ملوكها خَرْقاً لهيبتها ، واستخفافا بحقها ، والرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلا بالتخير ، ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياسة .

قال المسعودى : ورأيت فى بلاد سرنديب ـ وهى جزيرة من جزائر البحر ـ أن الملك من ملوكهم إذا مات صُيِّرَ على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة مُعَدَّةٍ لهذا المعنى ، وشَعْرُه ينجر على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه ، وتنادى : أيها الناس ، هذا ملككم بالأمس قد ملككم وجاز فيكم حكمه ، وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدنيا ، وقبض

---

(١) فى ا « وسواد الخلق » .

روحه مَلَكُ الموت ، والحى القديم[1] الذى لا يموت ، فلا تَغْتَرُّوا بالحياة بعده ، وتقول كلاماً هذا معناه من الترهيب والتزهيد فى هذاالعالم ، ويطاف به [كذلك فى جميع] شوارع المدينة ، ثم يفصل أربع قطع ، وقد هيىء له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب ، فيحرق بالنار ، ويُذَرُّ رماده فى الرياح ، وكذا فِعْلُ أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم ؛ لغرض يذكرونه ، ونهج يتيممونه فى المستقبل من الزمان ، والملك مقصور على أهل بيتٍ لا ينتقل عنهم إلى غيرهم ، وكذلك بيت الوزراء والقضاة وسائر أهل المراتب لا تغير ولا تبدل .

والهند تمنع من شرب الشراب ، ويعنِّفُون شاربه؛ لا على طريق التديُّن، ولكن تنزهاً [عن] أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها ، ويزيلها عما وضعت له فيهم ، وإذا صح عندهم عن ملك من ملوكهم شربه استحقَّ الخَلْعَ عن ملكه ؛ إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط. [وربما يسمعون السماع والملاهى ، ولهم ضروب من الآلات مطربة تفعل فى الناس أفعالا مرتبة من ضحك وبكاء.] وربما يسقون الجوارى فيطرَبْنَ بحضرتهم ، فتطرب الرجال لطرب الجوارى .

وللهند سياسات كثيرة قد أتينا على ذكر كثير منها ومن أخبارهم وسيرهم فى كتابنا « أخبار الزمان » وفى الكتاب الأوسط ، وإنما نذكر فى هذا الكتاب لمعاً .

وأعظم ملوك الهند فى وقتنا هذا البلهرى صاحب مدينة المانكير[2] ، وأكثر ملوك الهند تتوجَّهُ فى صلواتها نحوه ، وتصلى لرسله إذا وردوا عليهم، وتلى مملكة البلهرى ممالك كثيرة للهند . ومنهم ملوك فى الجبال لا بحر لهم مثل الراى صاحب القشمير وملك الطافن وغير ذلك من ملوكهم — أعنى

---

(١) فى ا « ملك الملوك والحى القيوم الذى لا يموت » .

(٢) فى ب « البلهزا صاحب مدينة المامليز» .

ملوك الهند ـ ومنهم من بملكه بر وبحر ؛ فأما البلهرى فإن بين ديار ملكه وبين البحر مسيرة ثمانين فرسخاً سندية ، والفرسخ ثمانية أميال ، وله جيوش وفِيَلَةٌ لا تدرك كثرتها ، وأكثر جيوشه رَجَّالة ؛ لأن دار ملكه بين الجبال ، ويساويه[1] من ملوك الهند ممن لا بحر له بؤورة[2] صاحب مدينة القنوج ، وهذا الاسم [سمةٌ لكل ملك يلي هذه المملكة ، وله جيوش مرتبة] على الشمال والجنوب والصَّبا والدَّبُور ؛ لأنه في كل وجه من هذه الوجوه يلقى ملكا محاربا له .

وسنذكر جملا من أخبار ملوك السند والهند وغيرهم من ملوك الأرض فيما يرد من هذا الكتاب ، عند ذكرنا البحار وما فيها وما حولها من العجائب والأمم ومراتب الملوك وغير ذلك ، وإن كنا قد أسلفنا ذلك فيما تقدم من كتبنا ، والله أعلم .

---

(١) في ا « ويناويه » . (٢) في ب « بزورة » .

ذكر الأرض والبحار ، ومبادىء الأنهار والجبال

والأقاليم السبعة ، وما والاها من الكواكب وترتيب الأفلاك ، وغير ذلك

وصف الأرض

قَسَّمت الحكماء الأرض إلى جهة المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، وقَسَّمُوا ذلك إلى قسمين : مسكون ، وغير مسكون ، وعامر ، وغير عامر ، وذكروا أن الأرض مستديرة ، ومركزها فى وسط الفلك ، والهواء محيط بها من كل الجهات ، وأنها عند فلك البروج بمنزلة النقطة [قلة]، وأخذوا عمرانها من حدود الجزائر الخالدات فى بحر أوقيانوس الغربى ، وهى ستة أجزاء عامرة إلى أقصى عمران الصين ، فوجدوا ذلك اثنى عشر ساعة ؛ فعلموا أن الشمس إذا غابت فى أقصى الصين كان طلوعها على الجزائر العامرة المذكورة التى فى بحر أوقيانوس الغربى ، وإذا غابت فى هذه الجزائر كان طلوعها فى أقصى الصين ، وذلك نصف دائرة الأرض ، وهو طول العمران الذى ذكروا أنهم وقفوا عليه ومقداره من الأميال ثلاثة عشر ألف ميل وخمسمائة ميل من الأميال التى عملوا عليها فى مساحة دور الأرض ، ثم نظروا إلى العروض ؛ فوجدوا العمران من موضع خط الاستواء إلى ناحية الشمال ينتهى إلى جزيرة تولى التى فى بريطانية حيث يكون طول النهار الأطول عشرين ساعة ، وذكروا أن موضع خط الاستواء من الأرض يقطع فيما بين المشرق والمغرب فى جزيرة بين الهند والحبش من ناحية الجنوب ، فيعرض ما بين الشمال والجنوب فى النصف مما بين الجزائر العامرة وأقصى عمران الصين وهو قبة الأرض المعروفة بما ذكرنا ، ويكون العرض من خط الاستواء إلى جزيرة تولى قريباً من ستين جزأ ، وذلك سدس دائرة الأرض ، وإذا ضرب هذا السدس الذى هو مقدار العرض فى النصف الذى هو مقدار الطول كان مقدار ما يظهر من العمران من ناحية الشمال مقدار نصف سدس دائرة الأرض .

الأقاليم السبعة

وأما الأقاليم السبعة فأولها أرض بابل منه خراسان وفارس والأهواز والموصل وأرض الجبال ؛ وله من البروج الحَمَلُ والقَوْس ، ومن الأنجم السبعة المُشْتَرِى ، والإقليم الثانى الهند والسند والسودان ، وله من البروج الجَدْىُ ، ومن الأنجم السبعة زُحلُ ، والإقليم الثالث مكة والمدينة واليمن والطائف والحجاز وما بينها ، وله من البروج العقرب ، ومن الأنجم السبعة الزُّهْرَة ، وهى سعد الفلك ، والإقليم الرابع مصر وإفريقية والبربر والأندلس وما بينها ، له من البروج الجوزاء ، ومن الأنجم السبعة عُطَارِد ، والإقليم الخامس الشام والروم والجزيرة ، له من البروج الدَّلْو ، ومن الأنجم السبعة القمر ، والإقليم السادس الترك والخزر والديلم والصقالبة ، له من البروج السَّرَطَان ، ومن الأنجم السبعة المَرِّيخُ ، والإقليم السابع الديبل[1] والصين ، له من البروج الميزان ، ومن الأنجم السبعة الشمس .

ذكر حسين[2] المنجم صاحب كتاب الزِّيجِ فى النجوم ، عن خالد بن عبد الملك[3] المروزى وغيره — وقد كانوا رَصَدوا الشمس لأمير المؤمنين المأمون فى بَرِّيَّة سنجار من بلاد ديار ربيعة — أن مقدار درجة واحدة من وجه الأرض ستة وخمسون ميلا ؛ فضربوا مقدار درجة واحدة فى ثلثمائة وستين فوجدوا دَوْرَ كرة الأرض المحيطة بالبر والبحر عشرين ألف ميل ومائة وستين ميلا ، ثم ضربوا دور الأرض فى سبعة فاجتمع مائة ألف ميل وأحد وأربعون ألف ميل ومائة وعشرون ميلا ؛ فقسموا ذلك على اثنين وعشرين ميلا ، وخرج القسم الذى هو مقدار قُطْر الأرض ستة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلا [ونصفاً] ونصف عشر ميل بالتقريب ، ونصف قطر الأرض ثلاثة آلاف ميل ومائتا ميل وسبعة أميال وست عشرة دقيقة

(١) فى ا « الديل » (٢) فى ب « جلس المنجم » (٣) فى ب « خالد بن عبد الله »

وثلثا ثانية[1]، يكون ربع ميل وربع عشر ميل ، والميل أربعة آلاف ذراع بالأسود ، وهى الذراع التى وضعها أمير المؤمنين المأمون لذَرْعِ الثياب ومساحة البناء ، وقسمة المنازل ، والذراع مائة وعشرون إصبعاً[2] .

جغرافية بطليموس

قال المسعودى : وقد ذكر بطليموس[3] فى الكتاب المعروف بجغرافيا صِفَةَ الأرض ومُدُنَهَا وجبالها وما فيها من البحار والجزائر والأنهار والعيون ووَصَفَ المدن المسكونة والمواضع العامرة، وأن عددها أربعة آلاف مدينة وخمسمائة وثلاثون مدينة فى عصره ، وسماها مدينة مدينة فى إقليم إقليم، وذكر فى هذا الكتاب ألوان جبال الدنيا من الحمرة والصفرة والخضرة وغير ذلك من الألوان، وأن عددها مائتا جبل ونَيِّف، وذكر مقدارها وما فيها من المعادن والجواهر.

وذكر هذا الفيلسوف أن عدد البحار المحيطة بالأرض خمسة أبحر؛ وذكر ما فيها من الجزائر، والعامر منها وغير العامر، وما اشتهر من الجزائر دون مالم يشتهر ، وذكر أن فى البحر الحبشى جزائر متصلة نحواً من ألف جزيرة يقال لها الديبحات[4] عامرة كلها [من الجزيرة إلى الجزيرة الميلان والثلاثة وأكثر من ذلك ، دون ما فى هذا البحر] من الجزائر .

وذكر بطليموس فى جغرافيا أن ابتداء بحر مصر من الروم إلى بحر الأصنام النحاس ، وأن جميع العيون الكبار [التى تنبع من الأرض] مائتا عين وثلاثون عيناً ، دون ماعداها من الصغار ، وأن عدد الأنهار الكبار الجارية فى الأقاليم السبعة على [دوام الأوقات مائتان وتسعون نهراً ، وأن الأقاليم على] حسب ماقدمناه [فى عدة الأقاليم ، و] كل إقليم سعته تسعمائة فرسخ فى مثلها ، وفى البحار ما هو معمور بالحيوان ، ومنها ما ليس بمعمور ، وهو أوقيانوس البحر المحيط ، وسنأتى فيما يرد من هذا الكتاب على ذكر جمل فى تفصيل البحار ووصفها ، وهذه

---

(١) فى ا « وثلاثين ثانية » (٢) فى ا « أربعة وعشرون أصبعا »
(٣) فى ا « وقد ذكر الفيلسوف » (٤) فى ب « الدميحات »

البحار كلها مصورة فى كتاب جغرافيا بأنواع من الأصباغ مختلفة المقادير فى الصورة ، فمنها ما هو على صورة الطيلسان ، ومنها ما هو على صورة الشابورة ، ومنها مصرانى الشكل [ومنها مدور] ومنها مثلث ، إلاّ أن أسماءها فى هذا الكتاب باليونانية متعذر فهمها ، وأن قطر الأرض ألفان ومائة فرسخ [يكون ذلك على التصحيح ستة آلاف وستمائة فرسخ] تقدير كل فرسخ ستة عشر ألف ذراع ، والذى يحيط بأسفل دائرة النجوم — وهو فلك القمر — مائة ألف فرسخ وخمسة وعشرون ألفاً وستمائة وستون فرسخاً ، وأن قطار الفلك من حد رأس الحمل إلى حد رأس الميزان أربعون ألف فرسخ بتقدير هذه الفراسخ ، وعدد هذه الأفلاك تسعة ؛ فأولها وهو أصغرها وأقربها إلى الأرض للقمر ، والثانى لعُطارد ، والثالث للزُّهْرة ، والرابع للشمس ، والخامس المريخ ، والسادس المشترى ، والسابع لزُحَل ، والثامن للكواكب الثابتة ، والتاسع للبروج ، وهيئة هذه الأفلاك هيئة الأُكَرِ بعضها فى جوف بعض ؛ ففلك البروج يسمى الفلك الكلى ، وبه يكون الليل والنهار ؛ لأنه يدير الشمس والقمر وسائر الكواكب من المشرق إلى المغرب فى كل يوم وليلة دَوْرَة واحدة ، على قطبين ثابتين : أحدهما مما يلى الشمال وهو قطب بنات نَعْش ، والآخر مما يلى الجنوب وهو قطب سُهَيْل ، وليس البروج غير الفلك ، وإنما هى مواضع لقبت بهذه الأسماء لتعرف مواضع الكواكب من الفلك الكلى ؛ فيجب أن تكون البروج تضيق من ناحية القُطْبين وتتسع فى وسط الكرة ، والخط القاطع للكرة نصفين الآخذ من المشرق إلى المغرب يسمى دائرة مُعَدِّل النهار ؛ لأن الشمس إذا صارت عليها استوى الليل والنهار فى جميع البلدان ، فما كان من الفلك آخذاً من الجنوب إلى الشمال يسمى العَرْضَ ، وما كان آخذاً من الشرق إلى الغرب يسمى الطول ، والأفلاك مستديرة محيطة بالعالم ، وهى تدور على مركز الأرض ، والأرض فى وسطها مثل النقطة فى وسط الدائرة ، وهى تسعة أفلاك ؛

فأقربها من الأرض فلك القمر ، وفوقه فلك عُطَارِد ، وفوق ذلك فلك الزُّهْرة ، ثم فلك الشمس ، والشمس متوسطة الأفلاك السبعة ، وفوقها فلك المريخ ، وفوقه فلك المُشْتَرِى ، وفوق ذلك فلك زُحَل ، وفى كل فلك من هذه الأفلاك السبعة كوكب واحد فقط ، وفوق فلك زُحَل الفلك الثامن [الذى فيه البروج الاثنا عشر ، وسائر الكواكب فى الفلك الثامن] ، والفلك التاسع — وهو أرفع وأعظم جسما ، وهو الفلك الأعظم — يحيط بالأفلاك التى دونه مما سمينا ، وبالطبائع الأربع ، وبجميع الخليقة ، وليس فيه كوكب ، ودَوْرُه من المشرق إلى المغرب فى كل يوم دورة واحدة تامة ، ويدير بدورانه ما تحته من الأفلاك المتقدم وَصْفُها ، وأما الأفلاك السبعة التى قدمنا ذكرها فإنها تدور من المغرب إلى المشرق ، وللأوائل فيما ذكرنا حجج يطول الخطب بها ، والكواكب المرئية[1] التى نشاهدها وسائر الكواكب فى الفلك الثامن ، وهو يدور على قطبين غير قطبى الفلك الأعظم المتقدم ذكره ، وزعموا أن الدليل على أن حركة هذه البروج غير حركة الأفلاك هو أن البروج الاثْنَىْ عشَرَ يتلو بعضها بعضاً فى مسيرها ، ولا تنتقل عن أماكنها ، ولا تتغير حركتها فى طلوعها وغروبها ، وأن الكواكب السبعة لكل واحد منها حركة خلاف حركة صاحبه ، ولها تفاوت فى حركاتها ؛ فربما أسرع الكوكب فى حركته ومسيره ، وربما أخذ فى الجنوب ، وربما أخذ فى الشمال ، وحَدُّ الفلك عندهم أنه نهاية لما[2] تصير إليه الطبائع علواً وسفلا ، وَحَدُّه من جهة الطبائع أنه شكل مستدير ، وهو أوسع الأشكال ، وهو يحيط بالأشكال كلها ، وأن مقادير حركة هذه الكواكب فى أفلاكها مختلفة ؛ فمقام القمر فى كل برج يومان ونصف ، ويقطع الفلك فى شهر ، ومقام الشمس فى كل برج شهر ، ومقام عُطَارد فى كل برج خمسة عشر يوما ، ومقام الزُّهْرة فى كل برج خمسة وعشرون يوما ، ومقام المريخ فى كل برج

(١) فى ا « المرتبة » (٢) فى ا « ذو نهاية لما تصير — إلخ »

خمسة وأربعون يوما ، ومقام المشترى فى كل برج سنة ، ومقام زُحَل فى كل برج ثلاثون شهراً .

وقد زعم بطليموس صاحب كتاب المجسطى أن استدارة الأرض كلها جبالها وبحارها أربعة وعشرون ألف ميل ؛ وأن قطرها — وهو عرضها وعمقها — سبعة آلاف[1] وستمائة وستة وثلاثون ميلا ، وأنهم إنما استدركوا ذلك بأنهم أخذوا ارتفاع القطب الشمالى فى مدينتين وهما على خط واحد من خط الاستواء ، مثل مدينة تَدْمُر التى فى البرية بين العراق والشام ، ومثل مدينة الرقّة ؛ فوجدوا ارتفاع القطب فى مدينة الرقة خمسة وثلاثين جزءاً وثلثاً ؛ ووجدوا ارتفاع القطب فى مدينة تَدْمُر أربعة وثلاثين[2] جزءاً ، بينهما زيادة جزء وثلث جزء ، ومَسَحُوا ما بين الرقة وتدمر فوجدوه سبعة وستين ميلا[3] ؛ فالظاهر من الفلك سبعة وستون ميلا من الأرض ، والفلك ثلثمائة وستون جزءاً ؛ لعلل ذكروها يبعد علينا إيرادها فى هذا الموضع ، وهذه قسمة صحيحة عندهم ؛ لأنهم وجدوا الفلك قد اقتسمته البروج الاثنا عشر ، وأن الشمس تقطع كل برج فى شهر ، وتقطع البروج كلها فى ثلثمائة وستين يوما ، وأن الفلك مستدير يدور بمحورين أو قطبين ، وأنهما بمنزلة محورى النجار والخراط الذى يخرط الأُكَرَ والقِصَاع وغيرها من الآلات الخشب ، وأن من كان مسكنه وسط الأرض وعند خط الاستواء استوت ساعاتُ ليله ونهاره سائر الدهور ، ورأى هذين المحورين أعنى القطب الشمالى والقطب الجنوبى جميعاً ، فأما أهل البلدان التى مالت إلى ناحية الشمال فإنهم يرون القطب الشمالى وبنات نَعْشٍ ، ولا يرون القطب الجنوبى ولا الكواكب التى هى قريبة منه ، وكذلك لا يرى الكوكب

---

(١) فى ب « تسعة آلاف »   (٢) فى ب « أربعة وثمانين جزءا »
(٣) فى ب « سبعة وثلاثين ميلا »

المعروف بسُهَيْلٍ بناحية خراسان ، ويرى فى العراق فى السنة أياماً ، ولا تقع عين جمل من الجمال عليه إلا هلك ، على حسب ما ذكرناه وما ذكر الناسُ من العلة فى ذلك فى موت هذا النوع من الحيوان خاصة ، وأما فى البلدان الجنوبية فإنه يُرَى فى السنة كلها .

وقد تنازع طوائف الفلكيين وأصحاب النجوم فى هذين المحورين اللذين يعتمد عليهما الفلك فى دوره : أساكنان هما أم متحركان ؟ فذهب الأكثر منهم إلى أنهما غير متحركين ؛ وقد أتينا على ما يلزم كل فريق منهم فى بيان هذين المحورين[1] : أمن جنس الأفلاك هما أم من غير ذلك فيما سلف من كتبنا .

شكل البحار

وقد تنوزع فى شكل البحار ؛ فذهب الأكثر من الفلاسفة المتقدمين من الهند وحكماء اليونانيين — إلا من خالفهم وذهب إلى قول الشرعيين — أن البحر مستدير على مواضع الأرض ، واستدلوا على صحة ذلك بدلائل كثيرة ، منها أنك إذا لججت فيه غابت عنك الأرض والجبال شيئاً بعد شىء حتى يغيب ذلك كله ، ولا ترى شيئاً من شَوَامخ الجبال ، وإذا أقبلت أيضاً نحو الساحل ظهرت تلك الجبال شيئاً بعد شىء ، و [إذا قربت من الساحل] ظهرت الأشجار والأرض .

وهذا جبل دُنْبَاوَنْدَ بين بلاد الرى وطبرستان يرى من مائة فرسخ ؛ لعلوه وذهابه فى الجو ، ويرتفع فى أعاليه الدخان ، والثلوج مترادفة عليه غير خالية من أعاليه ، ويخرج من أسفله نهر كثير الماء أصفر كبريتى ذهبى اللون ، مسافة الصعود إليه فى نحو ثلاثة أيام بلياليها ، وإن مَنْ عَلَاه وصار فى قُلَّته وجد مساحة رأس القُلَّة نحو ألف ذراع فى مثل ذلك ، وهى ترى فى رأى العين من أسفل نحو القبة المنخرطة ، وإن فى هذه المساحة فى أعاليه

(١) فى ا « بقاء هذين المحورين » .

رملا أحمر تغوص فيه الأقدام ، وإن هذه القبة لا يلحقها شيء من الوحش ولا من الطير ؛ لشدة الرياح وسموها فى الهواء ، وشدة البرد ، وإن فى أعاليه نحواً من ثلاثين ثقباً[1] يخرج منها الدخان الكبريتى العظيم ، ويخرج مع ذلك من هذه المخارق مع الدخان دوىٌّ عظيم كأشد ما يكون من الرَّعْدِ ، وذلك صوت تلهُّبِ النيران ، وربما يحمل من غَرَّر بنفسه وصعد إلى أعاليه من أفواه هذه الثقوب كبريتاً أصفر كأنه الذهب يقع فى أنواع الصنعة والكيمياء وغير ذلك من الوجوه ، وإن مَنْ عَلَاه يرى ما حوله من الجبال الشامخة كأنها رَوَابٍ وتِلَالٌ لعلوه عليها ، وبين هذا الجبل وبحر طبرستان فى المسافة نحو من عشرين فرسخاً ، والمراكب إذا لَجَّتْ فى هذا البحر غاب عنها جبل دُنْبَاوَنْدَ فلم يرهُ أحد ؛ فإذا صاروا فى هذا البحر على نحو من مائة فرسخ ، ودَنَوْا من جبال طبرستان رأوا اليسير من أعالى هذا الجبل ، فكلما قربوا من هذا الساحل ظهر لهم ، وهذا دليل على ما ذهبوا إليه من كرية ماء البحر ، وأنه مستدير الشكل .

وكذلك مَنْ يكون فى بحر الروم الذى هو بحر الشام ومصر يرى الجبل الأقرع ، وهو جبل عالٍ لا يدرك علوه ، مُطِل على بلاد أنطاكية واللاذقية وطرابلس وجزيرة قبرص وغيرها من بلاد الروم ، فيغيب عن أبصار مَنْ فى المراكب لانخفاضهم فى المسير فى البحر عن المواضع التى يُرَى منها .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جبل دُنْبَاوَنْدَ وما قال الفرس فى ذلك ، وأن الضحاك ذا الأفواه مُوثَقٌ فى أعاليه بالحديد ، وهذه القبة التى فى أعالى هذا الجبل أُطُمٌ عظيمة من آطام الأرض وعجائبها .

مساحة الأرض والكواكب

وقد تكلم الناس فى بعد الأرض ؛ فذكر الأكثر أن من مركز الأرض

---

(١) فى ا « نقبا »

إلى ما ينتهى إليه الهواء والنار مائة ألف وثمانية عشر[١] ألف ميل ، وأما القمر فإن الأرض أعظم منه بتسع وثلاثين مرة[٢] ، والأرض أعظم من عُطَارد بثلاث وعشرين ألف مرة ، والأرض أعظم من الزهرة بأربع وعشرين ألف مرة ، والشمس أعظم من الأرض بمائة وسبعين مرة وربع وثمن[٣] ، وأعظم من القمر بألف وستمائة وأربع وأربعين مرة[٤] ، والأرض كلها نصف عشر ثمن [جزء] من الشمس ، وقُطْر الشمس اثنان وأربعون ألف ميل ، والمريخ مثل الأرض وزيادة ثلاثة وستين مرة ، وقطره ثمانية آلاف وسبعمائة ميل ونصف ميل ، والمشترى مثل الأرض إحدى وثمانين مرة ونصف وربع ، وقطره ثلاثة وثلاثون ألف ميل وستة عشر ميلا[٥] ، وزُحَلُ أعظم من الأرض تسعاً وتسعين مرة ونصفاً ، وقطره اثنان وثلاثون ألف ميل وسبعمائة وستة وثلاثون ميلا[٦] ، وأما أجرام الكواكب الثابتة التي في المشرق الأول — وهى خمسة عشر كوكباً — فكل كوكب منها أعظم من الأرض بأربع وتسعين مرة ونصف مرة ، وأما بعدها من الأرض فإن أقرب بعد القمر منها مائة ألف وثمانية وعشرون ألف ميل ، وأبعد بعده من الأرض مائة ألف وأربعة وعشرون ألف ميل ، وأبعد بعد عُطَارد من الأرض سبعمائة ألف ألف وسبعمائة وثلاثة وثلاثون ألف ميل[٧] ، وأبعد بعد الزهرة من الأرض أربعة آلاف ومائة وتسعة عشر ألف ميل وستمائة ميل[٨] ، وأبعد بعد الشمس من الأرض أربعة آلاف ألف [ألف] وثمانمائة

(١) فى ا « مائة ألف وثمانية وستون ألف ميل »
(٢) فى ا « سبعة وثلاثين مرة وشىء »
(٣) فى ا « مائة وستا وستين مرة وربعا وثمنا »
(٤) فى ا « الفا وستمائة وأربعين مرة » (٥) فى ا « ومائتان وستة عشر ميلا »
(٦) فى ا « وسبعمائة وستة وثمانون ميلا »
(٧) فى ا « تسعمائة ألف وسبعمائة وثلاثون ألف ميل »
(٨) فى ا « أربعة آلاف ألف وتسعة عشر ألفا وستمائة ميل » وهو الموافق لما بعده

ألف وعشرون ألفاً ونصف ميل ، وأبعد بعد المريخ من الأرض ثلاثة وثلاثون ألف [ألف] ميل وستمائة [ألف] ميل وشيء ، وأبعد بعد المشترى من الأرض أربعة وخمسون ألف ألف ومائة ألف [وستة] وستون ألف ميل إلا شيئاً ، وأبعد بعد زُحَل من الأرض سبعة وسبعون ألف ألف ميل إلا شيئاً ، وأبعد الكواكب الثابتة من مركز الأرض نحو ذلك .

وفيما ذكرنا من القسمة والأجزاء والمقاييس استدرك القوم علم الساعات [والكسوفات] وبها استخرجوا الآلات والإسطرلابات ، وعليها صنفوا كتبهم كلها ، وهذا باب إن شرعنا فى إيراد البعض منه كثر ، واتسع الكلام فيه ، وإنما ذكرنا لمعاً من هذه الفنون لندل بها على مالم نورده .

وقد رتبت الصابئة من الحرانيين — وهم عوام اليونانيين وحَشْوية الفلاسفة المتقدمين — الكهنة فى هياكلها مراتب على ترتيب هذه الأفلاك السبعة ، فأعلى كهانهم يسمى رأس كرى[1] ، ثم وزدت بعدهم النصارى فرتبت الكهنة فى كهاَنتها ، على ما تقدمت فيه الصابئة فى مذهبها .

وسميت النصارى هذه المراتب العظات[2] : فأولها الساط ، والثانى اغنسط ، والثالث يودنا ، والرابع شماس ، والخامس قسيس ، والسادس يودوط ، والسابع حور الغينطس ، وهو الذى يخلف الأسقف ، والثامن أسقف ، والتاسع مُطْرَان[3] ، وتفسير مطران رئيس المدينة ، والذى فوق هؤلاء كلهم فى المرتبه البَطْرك ، وتفسيره أبو الآباء ؛ فمن تقدم ذكرهم من أصحاب المراتب وغيرهم من الأدانى وعوامهم ، هذا عند خواص النصارى ؛

---

(١) فى ب « كروردن » (٢) فى ا « الطاعات » (٣) هكذا وقعت هذه الأسماء فى ب ، وفى ا « فأولها الصلط ، والثانى أغسط ، والثالث يوذاقن ، والرابع شماس ، والخامس قسيس ، والسادس بردوت ، والسابع حوار اسفطس ، وهو الذى يخلف الأسقف ، والثامن الأسقف ، والتاسع مطران »

فأما العوام منهم فيذكرون فى هذه المراتب غير ما ذكرنا ، وهو أن مَلَكاً ظهر لهم ، وأظهر أموراً يذكرونها لا حاجة بنا إلى وصفها ، وهذا ترتيب الملكية ، وهم عُمُدُ النصرانية وقُطْبها ؛ لأن المشارقة ـ وهم العباد والملقبون بالنّسْطُورية واليعاقبة ـ عن هؤلاء تفرعوا ، ومنهم تبددوا[1] ، وإنما أخذت النصارى جملا من هذه المراتب على ما ذكرنا من الصابئة ، وأما القسيس والشماس وغير ذلك فمن المانيَّة ، إلا التصدوس والسماع[2] ، وإن كان مانى حَدَث بعد مضى السيد عيسى بن مريم عليه السلام ، وكذلك ابن دَيْصَان ومرقيون ، وإلى مانى أضيفت المانية ، وإلى مرقيون أضيفت المرقيونية ، وإلى ابن ديصان أضيفت الديصانية ، ثم تفرعت بعد ذلك المزْدَقية وغيرها ممن سلك طريقة صاحب الاثنين .

وقد أتينا فى كتابنا « أخبار الزمان » وفى الكتاب الأوسط على جُمَل من نوادر هذه المذاهب ، وما أوردوه من الخرافات المزخرفة ، والشُّبَه الموضوعة ، وما ذكرناه من مذاهبهم فى كتابنا فى « المقالات فى أصول الديانات » وما ذكرناه فى كسر هذه الآراء وهدم هذه المذاهب فى كتابنا المترجم بكتاب « الإبانة فى أصول الديانة » وإنما نذكر فى هذه الأبواب ما يتشعب الكلام إليه ، ويتغلغل الوصف نحوه ، فنورد منه لمعاً على طريق الخبر والحكاية للمذهب ، لا على طريق النظر والجدل ؛ لئلا يخلو كتابنا هذا مما تدعو الحاجة إلى ذكره ، والله أعلم .

(١) فى ا « ومنهم شذوا »

(٢) فى ا « إلا المصدقون والشماع »

ذكر الأخبار عن انتقال البحار

وجمل من أخبار الأنهار الكبار

ذكر صاحب المنطق أن البحار تنتقل على مرور السنين وطويل الدهر[١]، حتى تصير فى مواضع مختلفة ، وأن جملة البحار متحركة ، إلا أن تلك الحركة إذا أضيفت إلى جملة مياهها وسَعَة سطوحها وبُعْدِ قُعُورها صارت كأنها ساكنة ، وليست مواضع الأرض الرطبة أبداً رطبة ، ولا مواضع الأرض اليابسة أبداً يابسة ، لكنها تتغير وتستحيل ، لصبّ الأنهار إليها[٢] ، وانقطاعها عنها ، ولهذه العلة يستحيل موضع البحر وموضع البر ؛ فليس موضع البر أبداً براً ، ولا موضع البحر أبداً بحراً ، بل قد يكون براً حيث كان مرة بحراً ، ويكون بحراً حيث كان مرة براً ، وعلة ذلك الأنهار وبدؤها[٣] ؛ فإن لمواضع الأنهار شبابا وهَرَماً ، وحياة وموتا ، [ونَشْئاً] ونُشُوراً ، كما يكون ذلك فى الحيوان والنبات ، غير أن الشباب والكبر فى الحيوان والنبات لا يكون جزأ بعد جزء ، لكنها تشب وتكبر أجزاؤها [كلها] معاً ، وكذلك تهرم وتموت فى وقت واحد ، فأما الأرض فإنها تهرم وتكبر جزأ بعد جزء ، وذلك بدوران الشمس .

وقد اختلف الناس فى الأنهار والأعين من أين بدؤها .

فذهبت طائفة إلى أن مجراها كلها — أعنى البحار —[٤] واحد ، وهو البحر الأعظم ، وأن ذلك بحر عذب ليس هو بحر أقيانوس .

وزعمت طائفة أن البحار[٤] فى الأرضين كالعروق فى البدن .

(١) فى ا « وطول الدهور » .
(٢) فى ا « بصب الأنهار فيها » .
(٣) فى ا « وجريها » .
(٤) هذه الكلمة ليست فى ا ، والمراد الأنهار .

وقال آخرون : حق الماء أن يكون على سطح ، فلما اختلفت الأرض فكان منها العالى والهابط انحاز الماء إلى أعماق الأرض ، فإذا انحصرت المياه فى أعماق الأرض وقُعُورها طلبت التنفُّسَ حينئذٍ ؛ لغلظ الأرض وضغطتها إياها من أسفل ، فتنبثق من ذلك العيون والأنهار ، وربما تتولد فى باطن الأرضين من الهواء الكائن هناك ، وأن الماء ليس بأسطقس ، وإنما هو متولد من عُفُونات الأرض وبخارها ، وقالوا فى ذلك كلاما كثيراً أعرضنا عن ذكره طلبا للإيجاز وميلا للاختصار ، وقد بسطنا ذلك فى غير هذا الكتاب من كتبنا .

وأما مبادىء الأنهار الكبار ، ومطارحها ، ومقادير جريانها على وجه الأرض كالنيل والفرات والدجلة ونهر بلخ ، وهو جيحون ، ومهران السند وجنجس[1] ، وهو نهر عظيم بأرض الهند ، ونهر[2] سابط وهو نهر عظيم ، ونهر طنابس[3] الذى يصب إلى بحر نيطس ، وغيرها مما كبر من الأنهار فقد تكلم الناس فى مقدار جريانها على وجه الأرض .

النيل

فرأيت فى جغرافيا النيل مصورا ظاهراً من تحت جبل القمر ، ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنتى عشرة عينا ، فتصب تلك المياه إلى بحرين[4] هناك كالبطائح ، ثم يجتمع الماء جاريا فيمر برمال هناك وجبال ، ويخترق أرض السودان مما يلى بلاد الزنج ؛ فيتشعب منه خليج ينصب إلى بحر الزنج ، وهو بحر جزيرة قنبلو ، وهى جزيرة عامرة فيها قوم من المسلمين ، إلا أن لغتهم زنجية : غلبوا على هذه الجزيرة ، وسَبَوْا مَنْ كان فيها من الزنج ، كغلبة المسلمين على جزيرة إقريطش فى البحر الرومى ، وذلك فى مبدأ الدولة العباسية وتَقَضِّى الأموية ، ومنها إلى عمان فى البحر نحو من خمسمائة فرسخ على ما يقول البحريُّونَ حَزْراً منهم لذلك ، لا على طريق التحصيل

(١) فى ب « وجيحس » . (٢) فى ب « سامط » .
(٣) فى ب « أطفاس » . (٤) فى ا « بحيرتين » .

والمساحة ، وذكر جماعة من نَوَاخذة هذا البحر من السيرافيين والعمانيين وهم أرباب المراكب أنهم يشاهدون فى هذا البحر — فى الوقت الذى تكثر فيه زيادة النيل بمصر ، أو قبل الأوان بمدة يسيرة — ماء يخترق هذا البحر ويشقه من شدة جريانه ، يخرج من جبال الزنج ، عرضه أكثر من ميل عذبا حلوا ، يتكدر فى إبان الزيادة بمصر وصعيدها ، فيها الشوهان[1] ، وهو التمساح الكائن فى نيل مصر ، ويسمى أيضاً الورل .

بعض أوهام الجاحظ

وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذى هو نهر السند من نيل مصر ، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، فلست أدرى كيف وقع له هذا الدليل ، وذكر ذلك فى كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان ، وهو كتاب فى نهاية الغَثَاثة[2] ؛ لأن الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ، ولا تقَرَّى المسالك والأمصار [وإنما كان حاطبَ ليلٍ ، ينقل من كتب الوراقين] أو لم يعلم أن نهر مهران السند يخرج من أعين مشهورة من أعالى بلاد السند من أرض القنوج من مملكة بؤورة وأرض قشمير والقفندار[3] والطافر حتى ينتهى إلى بلاد المولتان ، ومن هناك يسمى مهران الذهب ، وتفسير المولتان فرج الذهب ، وصاحب مملكة بلد المولتان رجل من قريش من ولد سَامَةَ بن لؤى بن غالب ، والقوافل منه إلى خراسان متصلة ، وكذلك صاحب مملكة المنصورة رجل من قريش من ولد هَبَّار بن الأسود ، والملك فى هؤلاء وملك صاحب المولتان متوارثان قديما من صدر الإسلام ، ثم ينتهى نهر مهران إلى بلاد المنصورة ويصب نحو بلاد الديبل فى بحر الهند ، والتماسيح كثيرة

---

(١) فى ب « فيه السموسار » .

(٢) فى ا « فى نهاية الحسن وإن كان الرجل » .

(٣) فى ا « والقندهار والطافن » .

فى أجواف هذا البحر[١] ، وفى خليج ميدايون من مملكة ياغرمن أرض الهند[١] وخلجان الزابج من بحر مملكة المهراج ، وكذلك فى خلجان الأغياب ، وهى أغياب تلى جزيرة سرنديب ، والأغلب على التماسيح كونها فى الماء العذب ، وما ذكرنا من خلجانات الهند فالأغلبُ من أمواهها أن تكون عذبة لصب مياه الأمطار إليها .

عود إلى ذكر النيل

فلنرجع الآن إلى الأخبار عن نيل مصر ، فنقول : إن الذى ذكرته الحكماء أنه يجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ ، وقيل : ألف فرسخ ، فى عامر وغير عامر ، حتى يأتى أسوان من صعيد مصر ، وإلى هذا الموضع تصعد المراكب من فُسْطَاط مصر ، وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار يجرى النيل فى وسطها ، ولا سبيل إلى جريان السفن فيه هناك ، وهذه الجبال والمواضع فارقة بين مواضع سفن الحبشة فى النيل وبين سفن المسلمين ، ويعرف هذا الموضع من النيل بالجنادل والصخور ، ثم يأتى النيل الفُسْطَاط وقد قطع الصعيد ومر بجبل الطيلمون وحجر اللاهون من بلاد الفيوم ، وهو الموضع المعروف بالجزيرة التى اتخذها يوسف النبى صلى الله عليه وسلم وطنا ، فيقطعه ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب أخبار مصر [والفيوم] وضياعها وكيفية فعل يوسف عليه الصلاة والسلام فى مائها[٢] ، ثم يمضى جاريا فينقسم خلجاناتٍ إلى بلاد تِنِّيسَ ودمياط ورشيد والإسكندرية ، [كل] يصب إلى البحر الرومى ، وقد أحدث فيه[٣] بحيرات فى هذه المواضع ، وقد كان النيل انقطع عن بلاد الإسكندرية قبل هذه الزيادة التى زادها فى هذه السنة ـ وهى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ ونمى إلى وأنا بمدينة أنطاكية والثغر الشامى أن النيل زاد فى هذه السنة ثمانية عشر ذراعا ؛ فلست أدرى أفى هذه الزيادة

---

(١) فى ا « فى أجوان هذا البحر ، وفى الخلجانات كخليج صندابورة من مملكة باغرة » . (٢) فى ا « فى بليانها » . (٣) فى ا « وأخذت منه » .

دخل خليج الإسكندرية أم لا ، وقد كان الإسكندر بن فيلبس[١] المقدونى بنى الإسكندرية على هذا الخليج من النيل، وكان يتفجر إليه معظم ماء النيل، ويسقى [بلاد] الإسكندرية وبلاد مَرْيُوط، وكان بلاد مريوط هذا فى نهاية العمارة، والجنان متصلة بأرض بَرْقَةَ من بلاد المغرب ، وكانت السفن تجرى فى النيل فتتصل بأسواق الإسكندرية ، وقد بلط أرض نيلها فى المدينة بالرخام والمرمر، فانقطع الماء عنها لعوارض سدت خُلُجانها ومنعت الماء من دخوله، وقيل: لعلل غير ذلك منعت من تنفسه[٢] وردت الماء إلى كنانه، لا يحملها كتابنا هذا لاستعمالنا فيه الاختصار، فصار شربهم من الآبار ، وصار النيل على نحو يوم منهم ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب فى باب ذكرنا الأخبار الإسكندرية جملا من أخبارها وأخبار بنائها، وما ذكرنا من الماء الجارى إلى بحر الزنج فإنما هو [خليج] آخذ من أعالى مصب الزنج ، وفارق بين بلاد الزنج وبين أقاصى بلاد أجناس الأحابيش، ولولا ذلك الخليج ومفاوز من رمال ودهاس لم يكن للحبشة مقام فى ديارهم من أنواع الزنج لكثرتها وبطشها .

جيحون نهر بلخ

وأما نهر بَلْخَ الذى يسمى جَيْحُون فإنه يخرج من عيون تجرى حتى تأتى بلاد خُوَارَزْمَ ، وقد اجتاز قبل ذلك ببلاد الترمذ وإسفرائين وغيرها من بلاد خراسان فإذا ورد إلى بلاد خوارزم تفرق فى مواضع هناك، ويمضى باقيه فيصب فى البحيرة التى عليها القرية المعروفة بالجرْجانية أسفل خوارزم ، وليس فى ذلك الصقع أكبر من هذه البحيرة، ويقال : إنه ليس فى العمران بحيرة أكبر منها؛ لأن طولها مسيرة شهر فى نحو ذلك من العرض، تجرى فيها السفن، وإليها يصب نهر فرْغانة والشاش ويمر ببلاد الفاراب فى مدينة جديس[٣] ، وتجرى فيه السفن إلى هذه

---

(١) فى ب « بن الفيلفوس » .

(٢) فى ا « من تنقيته ورد الماء إلى كامنه » .

(٣) فى ب « العادات وبمدينة حيسة » .

البحيرة ، وعليها مدينة للترك يقال لها المدينة الجديدة ، وفيها المسلمون ، والأغلب من الأتراك فى هذا الموضع الغُزِّية ، وهم بَوَادٍ وحَضَر ، وهذا الجنس من الأتراك هم أصناف ثلاثة : الأسافل ، والأعالى ، والأواسط ، وهم أشد الترك بأساً ، وأقصرهم ، وأصغرهم أعْيُناً ، وفى الترك مَنْ هو أصغر من هؤلاء على ما ذكر صاحبُ المنطق فى كتاب الحيوان فى المقالة الرابعة عشرة والثامنة عشرة حين ذكر الطير المعروف بالغَرَانيق ، وسنذكرها من أخبار أجناس الترك فيما يرد من هذا الكتاب مجتمعا ومفترقا ، وبمدينة بلخ رباط يقال له الأخشبان[1] على نحو من عشرين يوماً منها ، وهو فى آخر أعمالها ، وبإزائهم أنواع من الكفار يقال لهم أوخان وتبت[2] ، وعلى اليمين من هؤلاء جنس آخر يقال لهم إيغان[3] ، ويخرج من هنالك نهر عظيم يعرف بنهر إيغان ، وزعم قوم من أهل الخبرة أنه مبتدأ نهر جيحون ، وهو نهر بَلْخَ ، ومقدار جريانه على وجه الأرض نحو من خمسين ومائة فرسخ ، من مبدأ نهر الترك ، وهو إيغان ، وقيل : أربعمائة فرسخ ، وقد غلط قوم من مصنفى الكتب فى هذا المعنى ، وزعموا أن جيحون يصب إلى نهر مِهْرَان السند ، ولم يذكروا نهر رست[4] الأسود ، ولا نهر رست[4] الأبيض الذى تكون عليه مملكة كياك بيغور[5] ، وهم جنس من الترك وراء نهر بلخ ، وهو جيحون ، وعلى هذين النهرين الغورية من الترك ، ولهذين النهرين أخبار لم نحط بمقدار مسافتهما على وجه الأرض فنذكر ذلك .

نهر جنجس بالهند

وكذلك جنجس نهر الهند ، فمبدؤه فى جبل من أقاصى أرض الهند مما يلى الصين من نحو بلاد الطغرغر[6] من الترك ، ومقدار جريانه إلى أن يصب فى البحر الحبشى مما يلى ساحل الهند أربعمائة فرسخ .

---

(١) فى ب « الإحسان » . (٢) فى ب « يقال لهم أوحاربيت » .
(٣) فى ب « العاركم » . (٤) فى ا « أرشت » فى الموضعين .
(٥) فى ب « مملكة كيان » . (٦) فى ا « الطغزغز » .

نهر الفرات

وأما الفرات فمبدؤه من بلاد قاليقلا من ثغور إرمينية من جبل هناك يدعى إفردحس ، على نحو يوم من قاليقلا ، ومقدار جريانه من بلاد الروم إلى أن يأتى بلاد ملطية مائة فرسخ[١] ، وأخبرنى بعض إخواننا من المسلمين ممن كان أسيرا فى أرض بلاد النصرانية أن الفرات إذا توسط أرض الروم تحابت إليه مياه كثيرة منها نهر يخرج مما يلى بحيرة الماذرمون[٢] ، وليس فى أرض الروم بحيرة أكبر منها ، وهى نحو من شهر ، وقيل : أكثر من ذلك طولا وعرضا ، تجرى فيها السفن ، وينتهى الفرات إلى جسر مَنْبج ، وقد اجتاز تحت قلعة سُمَيْسَاط ، وهى قلعة الطين ، ثم ينتهى إلى بالس ويمر بصِفِينَ موضع حرب أهل العراق وأهل الشام ، ثم ينتهى إلى الرقة وإلى الرحبة وهَيْتَ والأنبار ، ويأخذ منه هناك أنهار مثل نهر عيسى وغيره ، مما ينتهى إلى مدينة السلام ، فيصب فى دجلة ، وينتهى الفرات إلى بلاد سورى وقصر ابن هُبَيرة والكوفة والجامعين وأحمد أباد والفرس[٣] والطفوف ، ثم تنتهى غايته إلى البَطيحَة التى بين البصرة وواسط ، فيكون مقدار جريانه على وجه الأرض [نحو أمن] خمسمائة فرسخ ، وقد قيل أكثر من ذلك ، وقد كان الفراتُ الأكثر منه مائة ينتهى إلى بلاد الحِيرة ونهرها بين إلى هذا الوقت وهو يعرف بالعتيق ، وعليه كانت وقعة المسلمين مع رُستُم ، وهى وقعة القادسية ، فيصب فى البحر الحبشى ، وكان البحر حينئذ فى الموضع المعروف بالنَّجَف[٤] فى هذا الوقت ، وكانت تقدم هناك سفن الصين والهند ترد إلى ملوك الحيرة ، وقد ذكر ما قلنا[٥] عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغسانى حين خاطب خالد بن الوليد فى أيام أبى بكر بن أبى قحافة رضى الله عنه حين قال له : ما تذكر ؟ قال : أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون ، فلما

(١) لم يبين المقدار فى ب . (٢) فى ا « المرزبون » .
(٣) فى ا « والنرس » . (٤) فى ب « بالمحف » .
(٥) فى ا ذكر قصة عبد المسيح بطولها .

انقطع الماء عن مصبه فى ذلك الموضع انتقل البحر براً ؛ فصار بين الحيرة وبين البحر فى هذا الوقت مسيرة أيام كثيرة ، ومَنْ رأى النَّجَفَ وَأشرف عليه تبين له ما وصفنا ، وكتنقل الدجلة العوراء فصار بينها وبين الدجلة فى هذا الوقت مسافة بعيدة ، وصارت تدعى ببطن جوخى[1] ، وذلك من جهة مدينة فارس[2] من أعمال واسط إلى دنوقاء إلى نحو بلاد السوس[2] ، وكذلك ما حدث فى الجانب الشرقى ببغداد من الموضع المعروف برقة الشماسية وما نقل الماء بتياره من الجانب الغربى من الضياع التى كانت بين قُطْرُبُّلَ ومدينة السلام ، كالقرية المعروفة بالقب والموضع المعروف بالبشرى والموضع المعروف بالعين[3] ، وغير ذلك من ضياع قُطْرُبُّلَ ، وقد كان لأهلها مطالبات مع أهل الجانب الشرقى ممن ملك رقة الشماسية [فى أيام المقتدر] ، بحضرة الوزير أبى الحسن على بن عيسى ، وما أجاب به أهل العلم فى ذلك ، وما ذكرناه مشهور بمدينة السلام ، فإذا كان الماء فى نحو من ثلاثين سنة قد ذهب بنحو من[4] سبع ميل ، فإنه يسير ميلا فى قدر مائتى سنة ، فإذا تباعد النهر أربعة آلاف ذراع من موضعه الأول خربت بذلك السبب مواضع وعمرت مواضع ، وإذا وجد الماء سبيلا منخفضا وانصبابا وَسَّع بالحركة وشدة الجِرْيَة لنفسه ، فاقتلع المواضع من الأرض من أبعد غايتها ، وكلما وجد موضعا متسعا من الوهاد ملأه فى طريقه من شدة جَرْيته حتى يعمل بحيرات وبطائح ومستنقعات ، وتخرب بذلك بلاد ، وتعمر بذلك بلاد ، ولا يغيب فهم ما وصفنا على مَنْ له أدنى فكر .

---

(١) فى ب « بطن حرحى » .

(٢) فى ا « بادين من أعمال واسط العراق إلى بلاد دور الراسبى إلى نحو بلاد السوس من بلاد خوزستان » .

(٣) فى ب « كالقرية المعروفة باليسرى والموضع المعروف بالعمر » .

(٤) فى ب « يذهب بنحو من تسعمائة سنة فإنه يسير ميلا فى قدره فى سنة »

دجلة

ولنبدأ بذكر دجلة ومبدأ جريانها ومصبها ، فنقول : دجلة تخرج من بلاد آمدَ من ديار بكر، وهى أعين ببلاد خلاط من أرمينية ، ويصب إليها نهرا سريط وساتيدما يخرج من بلاد أرزن وميّافارقين وغيرهما من الأنهار كنهر دوشا والخابور الخارج من بلاد أرمينية ، ومصبه فى دجلة بين مدينة باسورين وقبر سابور ، من بلاد بقردى وبازبدى [وباهمداء] من بلاد الموصل ، وهذه الديار ديار بنى حمدان ، وفى بقردى وباز بدى يقول الشاعر :

بقردى وبازبدى مصيف ومربع وعَذْبٌ يحاكى السلسبيل بَرُودُ
وبغداد ، ما بغداد ؟ أما ترابها فجمر ، وأما حرُّها فشديد

وليس هذا الخابور خابور النهر الذى يخرج من مدينة رأس العين من أعينها ويصب فى الفرات أسفل مدينة قَرْقيسياء ، ثم تمر دجلة بمدينة بلاد الموصل ، ويصبُّ إليها نهر الزاب ، وهو من بلاد أرمينية وهو الزاب الأكبر بعد الموصل ، وفوق الحديث [مدينة الموصل] ، ثم يصب فيها زاب آخر فوق مدينة السن[1] يأتى من بلاد أرمينية وأذربيجان ، ثم ينتهى إلى مدينة تَكْرِيت وسُرَّمَنْ رأى ومدينة السلام ، فيصب إليها الخندق والصراة ونهر عيسى ، وهى الأنهار التى ذكرنا أنها تأخذ من الفرات وتصب فى دجلة ، ثم تخرج دجلة من مدينة السلام فيصب فيها أنهار كثيرة ، مثل النهر المعروف بدالى[2] ونهر بين ونهر الروان مما يلى بلاد جَرْجَرَايا والسيب وتلى النعمانية ، فإذا خرجت دجلة من مدينة واسط تفرقت فى أنهار هنالك أخر إلى بَطيحة البصرة[3] ، مثل بردود اليهودى وسامى[3] والمصب الذى ينتهى إلى القطر ، وفيه تجرى أكثر سفن البصرة وبغداد وواسط ، فمقدار مسافة جريان دجلة على وجه الأرض نحو من ثلثمائة فرسخ ، وقيل : أربعمائة .

---

(١) فى ب « السحرة » . (٢) فى ا « المعروف بذيالة » .
(٣) فى ا « مثل نهر سابس واليهودى والشامى » .

وقد أعرضنا عن ذكر كثير من الأنهار إلاّ ما كبر واشتهر ؛ إذ كنا قد أتينا على ذكر ذلك على الإشباع فى الكتاب المترجم بأخبار الزمان ، وكذلك فى الكتاب الأوسط ، ونذكر فى هذا الكتاب لمَاً مما سميناه من الأنهار ، ومما لم نُسَمِّه .

وللبصرة أنهار كبار : مثل نهر شيرين ، ونهر الرس[1] ، ونهر ابن عمر ، وكذلك ببلاد الأهواز فيما بينها وبين بلاد البصرة ، أعرضنا عن ذكر ذلك ؛ إذ كنا قد تَقَصَّيْنَا الأخبار عنها وأخبار منتهى بحر فارس إلى بلاد البصرة والأبلة وخبر الموضع المعروف بالجرارة[2] — وهى دخلة من البحر إلى البر تقرب من نحو بلاد الأبلة ، ومن أجاجها مالح الأكثر من أنهار البصرة — ولهذه الجرارة اتخذت[3] الخشبات فى فم البحر مما يلى الأبلة وعَبَّادَان ، عليها أناس يوقدون النار بالليل على خشبات ثلاث كالكرسى فى جوف الليل[4] خوفاً على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرها أن تقع فى تلك الجرارة [وغيرها ، فتعطب] ، فلا يكون لها خلاص ، وقد ذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا ، وهذه الديار عجيبة فى مصبات مياهها واتصال البحر بها ، والله أعلم .

---

(١) فى ا « الدير » .
(٢) فى ب « بالحدارة » .
(٣) فى ب « انحدرت الأخشاب »
(٤) فى ا « فى جوف البحر » .

ذكر جمل من الأخبار عن البحر الحبشى

وما قيل فى [ذلك من] مقداره و [سعة] خُلْجَانه

قَدَّرُوا بحر الهند ، وهو الحبشى، وأنه يمتدُّ طوله من المغرب إلى المشرق من أقصى الحبش إلى أقصى الهند والصين ، ثمانية آلاف ميل ، وعرضه ألفان وسبعمائة[1] ميل ، وعرضه فى موضع آخر ألف وتسعمائة ميل ، وقد يتقارب[2] فى قلة العرض فى موضع دون موضع ، ويكثر كذلك ، وقد قيل فى طوله وعرضه غير ما وصفنا من الكثرة ، وأعرضنا عن ذكره لعدم قيام الدلالة على صحته عند أهل هذه الصناعة ، وليس فى المعمور أعظم من هذا البحر ، وله خليج متصل بأرض الحبشة يمتد إلى ناحية بربرى من بلاد الزنج والحبشة ، ويسمى الخليج البربرى ، طوله خمسمائة ميل ، وعرض طرفيه مائة ميل ، وليست هذه بربرى التى ينسب إليها البرابرة الذى ببلاد المغرب من أرض إفريقية ؛ لأن هذا موضع آخر يدعى بهذا الاسم ، وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج ، وفى هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزنج ، والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربرى — وهم يعرفونه ببحر بربرى ، وبلاد جفونى — أكثر مسافة مما ذكرنا ، وموجه عظيم كالجبال الشواهق؛ فإنه موج أعمى ، يريدون بذلك أنه يرتفع كارتفاع الجبال ، وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية ، لا ينكسر موجه ، ولا يظهر من ذلك زبَدٌ ، كتكسر أمواج سائر البحار ، ويزعمون أنه موج مجنون ، وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرَبٌ من الأزد ، فإذا توسطوا هذا البحر ودخلوا بين ما ذكرناه من الأمواج ترفعهم وتخفضهم فيرتجزون ويقولون :

---

(١) فى ب « وتسعمائة ميل » . (٢) فى ا « وقد يتفاوت » .

بربرى وجفونى وَمَوْجُكَ المَجْنُون
جفــونى وبربرى وَمَوْجُهَا كما ترى

وينتهى هؤلاء فى بحر الزنج إلى جزيرة قنبلو على ما ذكرنا ، وإلى بلاد سفالة والواق واق من أقاصى أرض الزنج ، والأسافل من بحرهم[١] ، ويقطع هذا البحر السيرافيون ، وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينة سنجار ، من بلاد عمان (وسنجار قصبة بلاد عمان) مع جماعة من نَوَاخذة السيرافيين ، وهم أرباب المراكب ، مثل محمد بن الريدوم[٢] السيرافى ، وجوهر بن أحمد ، وهو المعروف بابن سيرة[٣] ، وفى هذا البحر تَلِفَ ومن كان معه فى مركبه ، وآخر مرة ركبت فيه فى سنة أربع وثلثمائة من جزيرة قنبلو إلى مدينة عمان ، وذلك فى مركب أحمد وعبد الصمد أخوى عبد الرحيم بن جعفر السيرافى ، بميكان [وهى محلة من سيراف] وفيه غرقا فى مركبهما وجميع مَنْ كان معهما ، وكان ركوبى فيه أخيراً والأميرُ على عمان أحمدُ بن هلال بن أخت القيتال ، وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن ، وأصابنى فيها من الأهوال مالاأحصيه كثرةً ، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج[٤] الذى قدمنا ذكره ، وفيه السمك المعروف بافال[٥] طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع إلى خمسمائة ذراع بالذراع العمرية ، وهى ذراع ذلك البحر ، والأغلب من هذا السمك طوله مائة ذراع ، وربما يهز البحر فيظهر شيئاً من جناحه ، فيكون كالقلع العظيم ، وهو الشِّرَاع ، وربما يظهر رأسه ، وينفخ الصُّعَدَاء بالماء فيذهب الماء فى الجو أكثر من ممر السهم ، والمراكب تفزع منه فى الليل والنهار ، وتضرب له بالدبادب والخشب لينفر من ذلك ، ويحشر بأجنحته وذنبه السمك إلى فمه ، وقد فَغَرَفَاهُ ، وذلك السمك يهوى إلى جَوْفه جريا ، فإذا بغت هذه السمكة بعث الله عليها سمكة

سمك الأوال

(١) فى ب « من نحوهم » . (٢) فى ا « محمد بن الزبدبود » .
(٣) فى ب «المعروف بابن نسوة» (٤) فى ب « بحر السند » .
(٥) فى ا « المعروف بالأوال » .

نحو الذراع تدعى اللَّشك(١) فتلصق بأصل أذنها فلا يكون لها منها خلاص، فتطلب قعر البحر ، وتضرب بنفسها حتى تموت ، فتطفو فوق الماء ، فتكون كالجبل العظيم ، وربما تلتصق هذه السمكة المعروفة باللشك بالمركب فلا يدنو الأفال مع عظمتها من المركب ، ويهرب إذا رأى السمكة الصغيرة ، إذ كانت آفة له وقاتلته .

آفة التمساح

وكذلك التمساح يموت من دويبة تكون فى ساحل النيل وجزائره ، وذلك أن التمساح لا دبر له وما يأكله يتكون فى بطنه دوداً ، وإذا آذاه ذلك الدود خرج إلى البر فاستلقى على قفاه فاغراً فاه ، فيُقيِّضُ الله إليه طير الماء كالطيطوى والحصاف(٢) وغير ذلك من أنواع الطيور وقد اعتادوا ذلك منه ، فيأكل ما ظهر فى جوفه من ذلك الدود ، وتكون تلك الدويبة قد كمنت فى الرمل تراعيه ، فتدبُّ إلى حلقه ، وتصير فى جوفه ، فيخبط بنفسه فى الأرض فيطلب قعر النيل حتى تأتى الدويبة على حُشْوَة جوفه ثم تخرق جوفه وتخرج ، وربما يقتل نفسه قبل أن تخرج فتخرج بعد موته ، وهذه الدويبة تكون نحوا من ذراع على صورة ابن عُرْس ، ولها قوائم [شتى] ومخالب .

وفى بحر الزنج أنواع من السمك بصور شتى ، ولولا أن النفوس تنكر ما لم تعرفه وتدفع ما لم تألفه ، لأخبرنا عن عجائب هذه البحار ، وما فيها من الحيتان(٣) والدواب ، وغير ذلك من عجائب المياه [والجماد] .

عود إلى البحر الحبشى

فلنرجع الآن إلى ذكر تشعب مياه هذا البحر وخُلْجَانه ، ودخوله فى البر ودخول البر فيه ، فنقول: إن خليجا آخر يمتد من هذا البحر الحبشى فينتهى إلى مدينة القُلْزُم من أعمال مصر ، وبينها وبين فُسْطَاط مصر ثلاثة أيام، وعليه

(١) فى ب « تدعى السل » .
(٢) فى ا « والحصانى والشامرك وغير ذلك » .
(٣) فى ب « من الحيات » .

مدينة أيْلَةَ والحجاز وجُدَّة واليمن ، وطوله ألف وأربعمائة ميل ، وعرض طرفيه مائتا ميل ، وهو أقرب المواضع من عرضه ، وعرضه فى الوسط سبعمائة ميل ، وهو أكثر العرض فيه . ويلاقى ما ذكرناه من الحجاز وبلاد أيْلَةَ من غربيه من الساحل الآخر من هذا الخليج بلاد العلاقى وبلاد العيذاب من أرض مصر وأرض البجة ، ثم أرض الحبشة والأحابش والسودان إلى أن يتصل ذلك بأقاصى أرض الزنج وأسافلها ، فيتصل إلى بلاد سفالة من أرض الزنج ، ويتشعب من هذا البحر خليج آخر ، وهو بحر فارس ، وينتهى إلى بلاد الأبلة والخشبات وعبادان من أرض البصرة ، وعرضه فى الأصل خمسمائة ميل ، وطول هذا الخليج ألف وأربعمائة ميل ، وربما يصير عرض طرفيه مائة وخمسين ميلا ، وهذا الخليج مثلث الشكل ينتهى أحد زواياه إلى بلاد الأبلة ، وعليه مما يلى المشرق ساحل فارس من بلاد دورق الفرس وماهربان ومدينة حسان(١) ، وإليها تضاف الثياب الحسانية(١) ومدينة نجيرم ببلاد سيراف ، ثم بلاد ابن عمارة ، ثم ساحل كرمان ، [وهى بلاد هرموز ، وهرموز مقابلة لمدينة سنجار من بلاد عمان ، ثم يلى ساحل كرمان ويتصل به على ساحل هذا البحر بلاد مكران ، وهى أرض الخوارج الشُّراة ، وهذه كلها أرض نخل ، ثم ساحل السند ، وفيه مصب نهر مهران ، وهناك مدينة الديبل ، ثم يكون ماراً متصلا بساحل الهند إلى بلاد بروص ، وإليها يضاف القنا البروصى ، برا متصلا إلى أرض الصين ساحلا واحداً ، ويقابل ما ذكرنا من مبدأ ساحل فارس ومكران والسند بلاد البحرين وجزائر قطر وشط بنى جذيمة وبلاد عمان وأرض مهرة إلى رأس الجمجمة إلى أرض الشِّحْر والأحقاف ، وفيه جزائر كثيرة مثل جزيرة خارك ، وهى بلاد جنابة ؛ لأن خارك مضافة إلى جنابة ، وبينها وبين البر فراسخ وفيها مَغَاصُ اللؤلؤ المعروف بالخاركى ، وجزيرة أوال فيها بنو مَعْن وبنو مسمار وخلائق

(١) فى ا « مدينة سينيز ، وإليها تضاف الثياب السينيزية ، وبهـا تصنع ، ومدينة جنابة ، وإليهم تضاف الثياب الجنابية » .

كثيرة من العرب بينها وبين مدن ساحل البحرين نحو يوم ، بل أقل من ذلك ، وفى ذلك الساحل مدينة الزارة [والعقل] والقطيف من ساحل هجر ، ثم بعد جزيرة أوال جزائر كثيرة ، منها جزيرة لافت ، وتدعى جزيرة بنى كاوان ، وقد كان افتتحها عمرو بن العاص ، وفيها مسجده إلى هذه الغاية ، وفيها خلق من الناس وقُرًى وعمارة متصلة ، وتقرب هذه الجزيرة إلى جزيرة هنجام ، ومنها يستسقى أرباب المراكب الماء ، ثم الجبال المعروفة بكسير وعوير وثالث ليس فيه خير ، ثم الدردور المعروف بدردور مسندم، ويكنيه البحريون بأبى جهرة[1] ، وهذه مواضع من البحر ، وجبال سود ذاهبة فى الهواء لا نبات عليها ولا حيوان ، يحيط بها مياه من البحر عظم قعرها وأمواج متلاطمة تجزع منها النفوس إذا أشرفت عليها ، وهذه المواضع من بلاد عمان وسيراف لا بد للمراكب من الجواز عليها والدخول فى وسطها ، فتخطىء وتصيب ، وهذا البحر هو خليج فارس ويعرف بالبحر الفارسى ، عليه ما وصفنا من البحرين وفارس والبصرة وكرمان وعمان إلى رأس الجمجمة ، وبين هذا الخليج وخليج القلزم أيلة والحجاز واليمن ، ويكون بين الخليجين من المسافة ألف وخمسمائة ميل ، وهى داخلة من البر فى البحر، والبحر يطيف بها من أكثر جهاتها على ما وصفنا .

فهذا بحر الصين والهند وفارس وعمان والبصرة والبحرين واليمن والحبشة والحجاز والقُلْزم والزنج والسند ومَنْ فى جزائره ومَنْ قد أحاط به من الأمم الكثيرة التى لا يعلم وصفهم ولا عددهم إلا مَنْ خلقهم سبحانه وتعالى ، ولكل قطعة منه اسم يُفرِدها من غيرها ، والماء واحد متصل غير منفصل .

وفى هذا البحر مغاصات الدر واللؤلؤ ، وفيه العقيق والبادبيج[2] ،

(١) فى ا « بأبى حمير » .
(٢) فى ا « والمادنج، وهو نوع من البرازى » .

وهو نوع من البجادى ، وأنواع الياقوت والماس والسنباذج ، وفيه معادن ذهب وفضة نحو بلاد كلة وسريرة ، وحوله معادن حديد مما يلى بلاد كرمان ، ونحاس بأرض عمان ، وفيه أنواع الطيب والأفاويه والعنبر [وأنواع الأدوية والعقاقير] والساج والخشب المعروف بالدارزنجى والقنا والخيزران ، وسنذكر بعد هذا الموضع تفصيل مواضع فيه أدركناها ، وكل ماذكرنا من الجواهر والطيب والنبات ففيه وحوله ، وسائر ما ذكرنا من هذا البحر يدعى بالبحر الحبشى ، ورياح ما وصفنا من قطعه التى تدعى كل واحدة منها بحراً — كقولنا : بحر فارس ، وبحر اليمن ، وبحر القلزم ، وبحر الحبش ، وبحر الزنج ، وبحر السند ، وبحر الهند ، وبحر كلة ، وبحر الزابج ، وبحر الصين — فمختلفة ، فمنها ما ريحه من قعر البحر يظهر فتغليه[١] ويعظم موجه كالقدر تفور مما يلحقها من مواد حرارة النار ، ومنها ما ريحه والآفة فيه من قعره والنسيم ، ومنها ما يكون مهبُّهُ من النسيم دون ما يظهر من قعره ، وما وصفناه مما يظهر من قعره من الرياح فذلك تنفسات[٢] من الأرض تظهر إلى قعره ثم تظهر فى سطحه[٣] ، والله عز وجل أعلم بكيفية ذلك ، ولكل من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفونها فى أوقات تكون منها مَهَابُّها ، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب ، يتوارثون علم ذلك قولا وعملا ، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها إبَّانَ هَيَجَانه وأحوال ركوده وثورانه ، [هذا فيما سمينا من البحر الحبشى] والروم ، والمسافرون فى البحر الرومى سبيلُهم كذلك ، وكذلك من يركب بحر الخزر إلى بلاد جرجان وطبرستان والديلم ، وسنأتى بعد هذا الموضع على جُمَل وفصول من علم معرفة هذه البحار ، وعجائب أوصافها وأخبارها ، إن شاء الله تعالى .

(١) فى ب « فيقله » . (٢) فى ا « متنفسات » .
(٣) فى ا « ثم تظهر إلى سطحه » .

ذكر تنازع الناس فى المد والجزر
وجوامع مما قيل فى ذلك

المد : مضيّ الماء فى فَيْحته وسَيْحته[١] وسنن جريته ، والجزر : رجوع الماء على ضد سنن مُضيّه وانكشاف ما مضى عليه فى هَيْجه[٢]، وذلك كبحر الحبش الذى هو الصينى والهندى وبحر البصرة وفارس المقدم ذكره قبل هذا الباب وذلك أن البحار على ثلاثة أنواع : منها ما يتأتى فيه الجزر والمد ويظهر ظهوراً بيناً ، ومنها مالا يتبين فيه الجزر والمد ويكون خفيفاً مستتراً ، ومنها مالا يجزر ولا يمد .

فالبحار التى لا يكون فيها الجزر والمد امتنع منها الجزر والمد لعلل ثلاث ، وهى على ثلاثة أصناف : فأولها ما يقف الماء فيه زماناً فيغلظ وتَقْوَى مُلوحته، وتتكيف فيه الأرياح ؛ لأنه ربما صار الماء إلى بعض المواضع ببعض الأسباب فيصير كالبحيرة وينقص فى الصيف ويزيد فى الشتاء ، ويتبين فيه زيادة ما ينصبّ فيه من الأنهار والعيون ، والصنف الثانى البحار التى تبعد عن مدار القمر ومسافاته بعداً كثيراً ، فيمتنع منه المد والجزر ، والصنف الثالث المياه التى يكون الغالب على أرضها التخلخل ؛ لأنه إذا كانت أرضها متخلخلة نفذ الماء منها إلى غيرها من البحار وتخلخل، وأنشبت[٣] الرياح الكائنة فى أرضها أولا [فأولا]، وغلبت الرياح عليها ، وأكثر ما يكون هذا فى ساحل البحار[٤] والجزائر .

وقد تنازع الناس فى علة المد والجزر؛ فمنهم من ذهب إلى أن ذلك من القمر لأنه مجانس للماء ، وهو يسخنه ، فينبسط ، وشبهوا ذلك بالنار إذا أسخنت ما فى القدر وأغلته ، وإن الماء يكون فيها على قدر النصف أو الثلثين ، فإذا غلا الماء

---

(١) فى ا « المد هو مضى الماء بسجيته وسنن جريته » .

(٢) فى ا « وانعكاس ما مضى عليه فى نهجه » .

(٣) فى ا « وأنفست » .

(٤) فى ا « فى أرجاء البحار والجزائر » .

انبسط فى القدر وارتفع وتدافع حتى يفور فتتضاعف كميته فى الحس ، وينقص فى الوزن ؛ لأن من شرط الحرارة أن تبسط الأجسام ، ومن شرط البرودة أن تضمها ، وذلك أن قعور البحار تحمى فتتولّد فى أرضها عذوبة وتستحيل وتحمى كما [يعرض ذلك] فى البلاليع والآبار ، فإذا حمى ذلك الماء انبسط ، وإذا انبسط زاد ، وإذا زاد ارتفع ، فدفع كل جزء منه صاحبه، فَطَفَا على سطحه.وبان عن قعره ، فاحتاج إلى أكثر من وهدته[1] ، وإن القمر إذا امتلأ حمى الجو حمياً شديداً فظهرت زيادة الماء ، فسمى ذلك المد الشهرى ، وإن هذا البحر تحت معدل النهار آخذاً من جهة المشرق إلى المغرب ودور الكواكب المتحيرة عليه مع ما يساميه من الكواكب الثابتة إذا كانت المتحيرة فى القدر مثل الميل على تجاوزه[2] ، وإذا زالت عنه كانت منه قريبة فاعلة فيه من أوله إلى آخره فى كل يوم وليلة ، وهى مع ذلك فى الموضع المقابل الحى ، فقليل ما يعرض فيه من الزيادة[3] ويكون فى النهر الذى يعرض فيه المد بينا من أطرافه وما يصب إليه من سائر المياه .

وقالت طائفة أخرى : لو كان الجزر والمد بمنزلة النار إذا أسخنت الماء الذى فى القِدْر وبسطته فيطلب أوسع منها فيفيض حتى إذا خلا قعره من الماء طلب الماء بعد خروجه منه عمق الأرض بطبعه فيرجع اضطراراً بمنزلة رجوع ما يغلى من الماء فى المرجل والقمقم إذا فاض وتتابعت أجزاء النار عليه بالحمى، لكان فى الشمس أشد سخونة ، ولو كانت الشمس علة مَدّه لكان يمدمع بدء طلوع الشمس ، ويجزر مع غيبتها؛ فزعم هؤلاء أن علة الجزر والمد فى الأبحر تتولد من الأبخرة التى تتولد من بطن الأرض ؛ فإنها لا تزال تتولد حتى تكثف وتكثر فتدفع حينئذ ماء هذا البحر لكثافتها ؛ فلا تزال كذلك حتى تنقص موادها من أسفل، فإذا

(١) فى ب « أكثر من هدية » .
(٢) فى ا « إذا كانت المتحيرة فى القدر من الليل على ما يجاوزه » .
(٣) فى ا « ومع ذلك فالموضع المقابل للجة قلما يعرض فيه من الزيادة » .

انقطعت موادها تراجع الماء حينئذ إلى قعر البحر ، وكان الجزر من أجل ذلك ، والمد ليلا ونهاراً ، وشتاء وصيفاً ، وفى غيبة القمر وفى طلوعه، وكذلك فى غيبة الشمس وطلوعها ، قالوا : وهذا يُدْرَك بالحس ؛ لأنه ليس يستكمل الجزر آخره حتى يبدأ أول المد ، ولا ينقضى آخر المد حتى يبتدىء أول الجزر ؛ لأنه لا يفتر تولد تلك البخارات ، حتى إذا خرجت تولَّد غيرها مكانها ، وذلك أن البحر إذا غارت مياهه ورجعت إلى قعره تولدت تلك الأبخرة لمكان ما يتصل منها من الأرض بمائه ، وكلما عاد تولدت ، وكلما فاض نقصت .

وذهب آخرون من أهل الديانات أن كل ما لم يعرف له من الطبيعة مجرى ولا يوجد له فيها قياس فهو فعل الإله ، يدل على توحيد الله عز وجل وحكمته ؛ فليس للمد والجزر علة فى الطبيعة البتة ، ولا قياس .

وقال آخرون : ما هيجان ماء البحر إلا كهيجان بعض الطبائع ؛ فإنك ترى صاحب الدم وصاحب الصفراء وغيرهما تهتاج طبيعته [ثم تسكن ، وكذلك مواد تمدها حالا بعد حال ، فإذا قويت هاجت] ، ثم تسكن قليلا قليلا حتى تعود .

وذهبت طائفة أخرى إلى إبطال سائر ما وصفنا من القول ، وزعموا أن الهواء المطل على البحر يستحيل دائماً ، فإذا استحال عظم ماء البحر وفاض عند ذلك ، وإذا فاض البحر فهو المد ، فعند ذلك يستحيل ماؤه ويتنفس فيستحيل هواء فيعود إلى ما كان عليه ، وهو الجزر ، وهو دائم [لا يفتر ، متصل] مترادف متعاقب ؛ لأن الماء يستحيل هواء ، والهواء يستحيل ماء ، قالوا : وقد يجوز أن يكون ذلك عند امتلاء القمر أكثر ؛ لأن القمر إذا امتلأ استحال الهواء أكثر مما كان يستحيل ، وإنما القمر علة لكثرة المد ، لا للمد نفسه ؛ لأنه قد يكون [والقمر] فى محاقه ، والمد والجزر فى بحر فارس يكونان على مطالع الفجر فى الأغلب من الأوقات .

وقد ذهب كثير من نواخذة هذا البحر — وهم أرباب المراكب ، من

السيرافيين والعمانيين ممن يقطعون هذا البحر ويختلفون إلى عمائره من الأمم التى فى جزائره وحوله — إلى أن المد والجزر لا يكون فى معظم هذا البحر إلا مرتين فى السنة : مرة يمد فى شهور الصيف شرقا بالشمال ستة أشهر ، فإذا كان ذلك طغا الماء فى مشارق الأرض وبالصين بالصين وما وراء ذلك الصقع [وانحسر بالصين من مغارب البحر] ، ومرة يمد فى شهور الشتاء غربا بالجنوب ستةأشهر ، فإذا كان الصيف طغا الماء فى مغارب البحر وانحسر بالصين ، وقد يتحرك البحر بتحرك الرياح ، وإن الشمس إذا كانت فى الجهة الشمالية تحرك الهواء إلى الجهة الجنوبية لعلل ذكروها ، فيسيل بماء البحر بحركة الهواء إلى الجهة الجنوبية ، فكذلك تكون البحار فى جهة الجنوب فى الصيف لهبوب الشمال طامية عالية ، وتقلُّ المياه فى جهة البحار الشمالية ، وكذلك إذا كانت الشمس فى الجنوب وسال الهواء من الجنوب إلى جهة الشمال سال معه ماء البحر من الجهة الجنوبية إلى الجهة الشمالية ،فقلّت المياه فى الجهة الجنوبية منه ، وينتقل ماء البحر فى هذين الميلين — أعنى فى جهتى الشمال والجنوب — فيسمى جزراً ومدا ، وذلك أن مَدّ الجنوب جَزْرُ الشمال ومد الشمال جزر الجنوب ،فإن وافق القمر بعض الكواكب السيارة فى أحد الميلين تزايد الفعلان وقوى الحى وَاشتد لذلك سيلان الهواء فاشتد لذلك انقلاب ماء البحر إلى الجهة المخالفة للجهة التى [ليس] فيها الشمس .

قال المسعودى : فهذا رأى يعقوب بن إسحاق الكندى وَأحمد بن الطيب السرخسى فيما حكاه عنه[1] :أن البحر يتحرك بالرياح، وَرأيت مثل ذلك ببلاد كنباية من أرض الهند ،وَهى المدينة التى تضاف إليها النعال الكنبائية الصرارة وَفيها تعمل وَفيما يليها مثل مدينة سندارة وَسريارة[2] ، وَكان دخولى إليها فى سنة

(١) فى ا « حكيناه عنهما » .

(٢) فى ا « سندان وصوفارة » .

ثلاث وثلثمائة ، والملك يومئذ بانيا ، وكان برهمانيا من قبل البلهرى صاحب المانكير، وكان لبانيا هذا عناية بالمناظرة مع مَنْ يرد إلى بلاده من المسلمين وغيرهم من أهل الملل ، وهذه المدينة على خور من أخوار البحر ، وهو الخليج ، أعرض من النيل أو دجلة أو الفرات ، عليه المدن والضياع والعمائر [والجنانُ] والنخل والنارجيل[1] والطواويس والببغاء وغير ذلك من أنواع طيور الهند ، بين تلك الجنان والمياه ، وبين مدينة كنباية وبين البحر الذى يأخذ منه هذا الخليج يومان ، أو أقل من ذلك ؛ فيجزر الماء عن هذا الخليج حتى يبدو الرمل [فى قعر الخليج ويبقى فى وسطه القليل من الماء فرأيت الكلب على هذا الرمل] الذى ينضبُ عنه الماء وقعر الخليج قد صار كالصحراء ، وقد أقبل المد من نهاية الخور كالخيل فى الحَلْبَة ، فربما أحس الكلب بذلك فأقبل يُحضِرُ ما استطاع خَوْفاً من الماء ، فيطلب البر الذى لا يصل إليه الماء ، فيلحقه الماء بسرعته فيغرقه ، وكذلك المد يَردُ بين البصرة والأهواز فى الموضع المعروف بالباسيان وبلاد القندر[2] ، ويسمى هنالك الذئب[3] له ضجيج ودَوِىّ وغليان عظيم يَفزَع منه أصحاب السفن وهذا الموضع يعرفه من يسلك هنالك إلى بلاد مورق من أرض فارس[4] ، والله أعلم .

---

(١) فى ا « ونخل النارجيل » .

(٢) فى ب « وبلاد الهند » .

(٣) فى ب « أزيب » .

(٤) فى ا « بلاد دورق وأرض فارس » .

ذكر بحر الروم

ووصف ما قيل فى طوله [وعرضه] وابتدائه وانتهائه

أما بحر الروم وطرسوس وأذنة[١] والمصيصة وأنطاكية واللاذقية وطرابلس وصيداء وصور وغير ذلك من ساحل الشام ومصر والإسكندرية وساحل المغرب ، فذكرَ جماعة من أصحاب الزيجات فى كتبهم ، منهم محمد بن جابر النسائى[٢] وغيره ، أن طوله خمسة آلاف ميل ، وعرضه مختلف : فمنه ثمانمائة ميل ، ومنه سبعمائة ميل ، ومنه ستمائة ميل ، وأقل من ذلك ، على حسب مضايقة البر للبحر والبحر للبر ، ومبدأ هذا البحر من خليج يخرج [جارياً] من بحر أقيانوس ، وأضيق موضع من هذا الخليج بين ساحل طنجة [وسبتة] من بلاد الغرب وبين ساحل الأندلس ، وهذا الموضع المعروف بسيطاء[٣] ، وعرضه فيما بين الساحلين نحو من عشرة أميال ، وهذا الموضع هو المَعْبَرُ لمن أراد العبور من الغرب إلى الأندلس ومن الأندلس إلى الغرب [ويعرف بالزقاق ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب فى أخبار مصر القنطرة التى كانت بين هذين الساحلين ، وما ركبها من ماء هذا البحر ، والطريق المتصل بين جزيرة قبرص وأرض العريش وسلوك القوافل إياه] وعلى الحد بين البحرين — أعنى بحر الروم وبحر أوقيانوس — المنارةُ النحاسُ ، والحجارة التى بناها هرقلُ الجبار ، على أعلاها الكتابة والتماثيل مشيرة بأيديها أن لا طريق ورائى لجميع الداخلين إلى ذلك البحر بحر الروم ؛ إذ كان بحر لا تجرى فيه جارية ولا عمارة فيه ، ولا حيوان ناطق يسكنه ، ولا يحاط بمقداره ، ولا تُدْرَى[٤] غايته ، ولا يعلم منتهاه ، وهو بحر الظلمات والأخضر والمحيط [وقد قيل: إن المنارة على غير هذا الزُّقَاق ، بل فى جزيرة من جزائر بحر أوقيانوس المحيط وسواحله]

(١) فى ب « وأدرنة » . (٢) فى ا « البتانى » .
(٣) فى ب « بنيطاء » . (٤) فى ا « ولا تدرك » .

وقد ذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار ، وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها فى كتابنا « أخبار الزمان » فى أخبار من غرّر وخاطر بنفسه فى ركوبه ، ومن نجا منهم ، ومن تَلِفَ ، وما شاهدوا منه ، وما رَأَوْا ، [وأن منهم رجلا من أهل الأندلس يقال له خشخاش ، وكان من فتيان قرطبة وأحْدَاثها فجمع جماعة من أحداثها ، وركب بهم مراكب استعدها فى هذا البحر المحيط ، فغاب فيه مدة ثم انثنى بغنائم واسعة ، وخَبَرُه مشهور عند أهل الأندلس] وبين هذه المنارة المنصوبة ، وبين موضع الأحجار[1] مسافة [طويلة] فى طول مصب هذا الخليج وجريانه ، وذلك أن ماء يجرى [من بحر أوقيانوس إلى البحر الرومى يحس بجريانه ويعلم بحركته ، ويتشعب من] بحر الروم والشام ومصر ، خليج من نحو خمسمائة ميل يتصل بمدينة رومية تسمى بالرومية ادرس [وعلى هذا الخليج من جانب المغرب قرية يقال لها سَبْتَة ، وهى وطنجة من ساحل واحد ، ويقابل سَبْتَة هذه من ناحية الأندلس الجبل المعروف بجبل طارق مَوْلَى موسى بن نُصَيْر ، وَيَعْبُرُ الناس من سَبْتَة إلى ساحل الأندلس من غدوة إلى الظهر ، وفى هذا الخليج مَوْج عظيم ، والماء من هناك يخرج من بحر أوقيانوس ، ويصبُّ إلى البحر الرومى ، وفى هذا الخليج مواضع تعلو أمواجها ، ويعلو الماء من غير ريح ، وهذا الخليج يسميه أهل المغرب وأهل الأندلس الزُّقَاق ؛ إذ كان على هيئة ذلك][2] ، وفى بحر الروم جزائر كثيرة منها جزيرة قبرص بين ساحل الشام والروم ، وجزيرة رودس فى مقابلة الإسكندرية ، وجزيرة إقريطش ، وجزيرة صقلية ، وسنذكر صقلية بعد هذا الموضع عند ذكرنا لجبل البركان الذى تظهر منه النار ، وفيها أجسام وجثث وعظام .

(١) فى ا « البحار » .

(٢) هذه الزيادة عن ب ، ولا توجد فى ا ، وما عداها من الزيادات هنا عن ا وليست فى ب .

وقد ذكر يعقوب بن إسحاق الكندى ، وتلميذه أحمد بن الطيب السرخسى فى طول هذا البحر وعرضه غير ما ذكرنا .

وسنذكر بعد هذا الموضع فيما يرد من هذا الكتاب هذه البحار على نظم من التأليف ، وترتيب من التصنيف ، إن شاء الله تعالى .

ذكر بحر نيطش

وبحر مانطش[1] ، وخليج القسطنطينية

نيطش

فأما بحر نيطش فإنه يمد من بلاد لاذقة إلى القسطنطينية [وطوله ألف ومائة ميل ، وعرضه فى الأصل ثلثمائة ميل ، وفيه يصب] النهر العظيم المعروف بأطنابس ، وقد قدمنا ذكره ، ومبدأ هذا البحر من الشمال ، وعليه كثير من ولد يافث [بن نوح] ، وخروجه من بحيرة عظيمة فى الشمال من أعين وجبال ، ويكون مقدار جريانه على وجه الأرض نحو ثلثمائة فرسخ عمائر متصلة لولد يافث ، ويسير بحر مانطش — فيما زعم قوم من أهل العناية بهذا الشأن — حتى يصب فى بحر نيطش ، وهذا البحر عظيم فيه أنواع من الأحجار والحشائش والعقاقير ، وقد ذكره جماعة ممن تقدم من الفلاسفة ، ومن الناس من يسمى بحر مانطش بحيرة ، ويجعل طوله ثلثمائة ميل ، وعرضه مائة ميل ، ومنه ينفجر خليج القسطنطينية الذى يصب إلى بحر الروم ، وطوله ثلثمائة ميل ، وعرضه نحو من خمسين ميلا ، وعليه القسطنطينية والعمائر من أوله إلى آخره ، والقسطنطينية من الجانب الغربى من هذا الخليج ، متصلة ببر رومية والأندلس وغيرها ؛ فيجب — والله أعلم — على قول المنجمين من أصحاب الزيجات وغيرهم ممن تقدم ، أن بحر البلغر والروس ، [وبجنى وبجناك وبغرد ، وهم ثلاثة أنواع من الترك] هو بحر نيطش ، وسيأتى ذكر هؤلاء الأمم فيما يرد من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى على حسب استحقاقهم فى ذكرهم ، واتصال عمائرهم ، ومن يركب هذا البحر [منهم] ومن لا يركبه ، والله أعلم .

مانطش

الخليج

(١) فى ا « بحر نيطس ومايطس » وهكذا فى كل ما يلى .

ذكر بحر الباب والأبواب والخزر وجرجان

وجمل من الأخبار على ترتيب البحار

بحر الأعاجم

فأما بحر الأعاجم الذى عليه دُورُهَا ومساكنها فهو معمور بالناس من جميع جهاته ، وهو المعروف ببحر الباب والأبواب والخزر والجيل [والديلم] وجرجان وطبرستان ، وعليه أنواع من الترك ، وينتهى فى إحدى جهاته نحو بلاد خُوَارَزْم ، وطوله ثمانمائةميل ، وعرضه ستمائةميل ، وهو مدور الشكل إلى الطول ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من ذكر الأمم المحيطة بهذه البحار المعمورة ، وهذا البحر الذى هو بحر الأعاجم كثير التّنانين ، وكذلك بحر الروم ؛ فالتنانين فيهما كثيرة ، وكثيراً ما تكون مما يلى بلاد طرابلس واللاذقية والجبل الأقرع من أعمال أنطاكية ، وتحت هذا الجبل معظم ماء البحر وأكثره ، ويسمى عجز البحر ، وغاينه إلى ساحل أنطاكية ورشيد[1] والإسكندرية وحصن المثقب [وذلك فى سفح جبل اللكام] وساحل المصيصة ، وفيه مصب نهر جيحان ، وساحل أذنة ، وفيه مصب سيحان ؛ وساحل طرسوس ، وفيه مصب نهر بردان ، وهو نهر طرسوس ، ثم البلد الخالى من العمارات الخراب بين الروم والمسلمين مما يلى مدينة قلمية[2] إلى قبرص وقريطس وقراسيا ، ثم بلاد سلوقية وَنهرها العظيم الذى يصب فى هذا البحر ، ثم حصون الروم إلى خليج القسطنطينية .

وَقد أعرضنا عن ذكر أنهار كثيرة بأرض الروم وَمما يصب إلى هذا البحر كنهر البارد وَنهر العسل وَغيرهما من الأنهار .

وَالعمارةُ على هذا البحر من المضيق الذى قدمنا ذكره ، وَهو الخليج الذى

---

(١) فى ا « وروسيس » .

(٢) فى ب « بكمنة إلى قريش وقراشيا » .

عليه طنجة ، متصلةٌ بساحل المغرب وبلاد إفريقية والسوس [وطرابلس المغرب والقيروان وساحل بَرْقَة والرفادة وبلاد الإسكندرية] وَرشيد وَتنيس وَدمياط وَساحل الشام وَساحل الثغور الشامية ثم ساحل الروم ماراً متصلا إلى بلاد رومية إلى أن يتصل بساحل الأندلس ، إلى أن ينتهى إلى ساحل الخليج الضيق المقابل لطَنْجَة على ما ذكرنا ؛ لا تنقطع من هذا البر كله العمائر التى وَصفناها من الإسلام والروم إلا الأنهار الجارية إلى البحر وخليج القسطنطينية ، وعرضه نحو من ميل ، وخلجانات أخر داخلة فى البر لا منفذ لها ؛ فجميع ما ذكرنا على شاطىء هذا البحر الرومى متصلو الديار غير منفصلين بما يقطعهم أو يمنعهم إلا ماذكرنا من الأنهار وخليج القسطنطينية ، ومثال هذا البحر الرومى ، ومثال ماذكرنا من العمائر عليه إلى أن ينتهى إلى مبدأ الخليج الضيق الآخذ من أوقيانوس الذى عليه المنارة النحاس ، ويلى الأعلى من طَنْجَة ، وساحل الأندلس : مثل الكرنيب ، فى قبضة الخليج[١] ، والكرنيب على ضفة البحر ، إلا أنه ليس بمدور الشكل ؛ لما ذكرنا من طوله .

وليس تعرف التنانين فى البحر الحبشى ، ولا فى شىء من خلجانه من حيث وصفنا فى نهاياته ، وأكثرها بظهر مما يلى بحر أوقيانوس .

التنين وآراء الناس فيه

وقد اختلف الناس فى التنين : فمنهم من رأى أنه ريح سوداء تكون فى قعر البحر فتظهر إلى النسيم ، وهو الجو ، فتحلق السحب كالزوبعة[٢] ، فإذا صارت من الأرض واستدارت وأثارت معها الغبار ثم استطالت فى الهواء ذاهبةً الصُّعَدَاء تَوَهَّم الناسُ أنها حيات سود [قد ظهرت من البحر لسواد السحاب ، وذهاب الضوء وترادف الرياح] .

ومنهم من رأى أنها دوَابُّ تتكون فى قعر البحر ، فتعظم وتؤذى

(١) هكذا فى ا ، وفى ب « ويلى الأعلام طنجة ، فساحل الأندلس ، شمالى الكرنيب ، فمصيصة الخليج — إلخ » .

(٢) فى ا « فتلحق بالسحاب كالزوبعة » .

دواب البحر ، فيبعث الله عليها السحاب والملائكة فيخرجونها من بينها ، وأنها على صورة الحية السوداء لها بريق وبصيص ، لا تمر بمدينة إلا أتت على ما لا يقدر عليه من بناء عظيم أوشجر أو جبل(١) ، وربما تتنفس فتحرق الشجرة الكبيرة فيلقيه السحاب فى بلد يأجوج ومأجوج ، ويمطر السحاب عليهم ، فيقتل التنين ، فمنه يتغذى يأجوج ومأجوج ، وهذا القول يُعْزَى إلى ابن عباس .

وقد ذكر قوم فى التنين غير ما ذكرنا ، وكذلك حكى قوم من أهل السير وأصحاب القصص أموراً فيما ذكرنا أعرضنا عن ذكرها ، منها خبر عمران [بن جابر] الذى صعد فى النيل ، فأدرك عاينه ، وَعبر البحر على ظهر دابة تعلق بشعرها وَهى دابة ينجر منها على الأرض شبر من قوائمها تُعَادى قرن الشمس من مبدأ طلوعها إلى حال غروبها [فاغرة فاها نحوها لتبتلع — عند نفسها — الشمسَ] فَعَبَرَ — على ما وَصفنا من تعلقه بشعرها — البحر ، وَدار بدورانها طالباً لعين الشمس ، حتى صار إلى ذلك الجانب ، فرأى النيل منحدراً من قصور الذهب من الجنة ، وَأعطاه المَلَكُ العنقود العنب ، وَأنه أتى الرجل الذى رآه فى ذهابه ، وَوصف له كيف يفعل فى وُصوله إلى مبدأ النيل ، فوجده ميتاً ، وَخبر إبليس معه وَالعنقود العنب ، وَغير ذلك من خرافات حَشْوية عن أصحاب الحديث ، وَمنها ماروى أن قبة من الذهب وَأنواع الجوهر فى وَسط البحر الأخضر على أربعة أركان من الياقوت الأحمر ينحدر من كل ركن من هذه الأركان ماء عظيم من رشحه فقسم إلى جهات أربع فى ذلك البحر الأخضر غير مخالط له ، وَلا متماسّ به ، ثم ينتهى إلى جهات من البر من سواحل ذلك البحر ، أحدها النيل ، وَالثانى سيحان ، وَالثالث جيحان ، وَالرابع الفرات ، وَمنها أن الملك الموكل بالبحار يضع عقبه فى أقصى بحر الصين فيفور منه البحر ، فيكون منه المد ، ثم يرفع عقبه من البحر فيرجع

(١) فى ا « لا يمر ذنبه بشىء إلا أتى عليه من بناء عظيم أو شجر أو جبل » .

الماء إلى مركزه ، ويطلب قعره ، فيكون الجزر ، ومثلوا ذلك بإناء فيه ماء في مقدار النصف منه ، فيضع الإنسان يده أو رجله فيملأ الماء الإناء ، فإذا رفعها رجع الماء إلى حده ، وانتهى إلى غايته ، ومنهم من رأى أن الملك يضع إبهامه من كفه اليمنى فى البحر فيكون منه المد ، ثم يرفعها فيكون الجزر ؛ وما ذكرنا فغير ممتنع كونُه ، ولا واجب ، وهو داخل فى حيز الممكن والجائز ؛ لأن طريقه فى النقل طريق الأفراد والآحاد ، ولم يرد مَورِد التواتر والاستفاضة كالأخبار الموجبة للعلم ، والعلل القاطعة للعذر فى النقل ، فإن قارنها دلائل توجب صحتها وجب التسليم لها ، والانقياد إلى ما أوجب الله عز وجل علينا من أخبار الشريعة والعمل بها ؛ لقوله عز وجل : (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا) ، وإن لم يصح ما ذكرنا فقد وصفنا آنفاً ما قال الناس فى ذلك ، [وإنما ذكرنا هذا] ليعلم من قرأ هذا الكتاب أنا قد اجتهدنا فيما أوردناه فى هذا الكتاب وغيره من كتبنا ، ولم يَعزُبْ عنا فهم ما قاله الناس فى سائر ما ذكرنا ، وبالله التوفيق .

جملة البحار

فهذه جمل البحار ، وعند أكثر الناس أنها أربعة فى المعمور من الأرض ، ومنهم من يعدها خمسة ، ومنهم من يجعلها ستة ، ومنهم من يرى أنها سبعة منفصلة غير متصلة ، وعلى أنها ستة فأولها البحر الحبشى ، ثم الرومى ، ثم نيطش ، ثم ما نطش[1] ، ثم الخزرى ، ثم أوقيانوس الذى لا يعلم أكثر نهاياته ، وهو الأخضر المظلم المحيط ، وبحر نيطش متصل ببحر ما نطش ، ومنه خليج القسطنطينية الذى يصب إلى بحر الروم ويتصل به ، على حسب ما ذكرنا ، والرومى بدؤه من بحر أوقيانوس الأخضر ؛ فيجب على هذا القياس أن يكون ما وصفنا بحراً واحداً لاتصال مياهها ، وليست هذه المياه ولا شىء منها — والله أعلم — متصلة بشىء من بحر الحبش ، فبحر

(١) فى ا « نيطس ثم مايطس » وكذلك فيما يذكر بعده .

نيطش وبحر مانطش يجب أن يكونا أيضاً بحراً واحداً ، وإن تضايق البحر في بعض المواضع بينهما ، أو صار بين الماءين كالخليج[1] ، وليست تسمية ما اتسع منه وكثر ماؤه بمانطش ، وما ضاق منه وقل ماؤه بنيطش ، يمنع من أن تجمعهما في اسم ما نطش أو نيطش ، فإذا عبرنا بعد هذا الموضع في مبسوط هذا الكتاب فقلنا ما نطش أو نيطش ، فإنما نريد به هذا المعنى فيما اتسع من البحر وضاق .

قال المسعودي : وقد غلط قوم زعموا أن البحر الخزرى يتصل ببحر ما يطس ، ولم أر فيمن دخل بلاد الخزر [من التجار ومن ركب منهم في بحر ما يطس ونيطس إلى بلاد الروس والبلغر أحداً يزعم أن بحر الخزر يتصل] ببحر من هذه البحار أو بشيء من مائها أو من خلجانها إلا من نهر الخزر ، وسنذكر ذلك عند ذكرنا لجبل القبق[2] ومدينة الباب والأبواب ومملكة الخزر وكيف دخل الروس في المراكب إلى بحر الخزر ، وذلك بعد الثلثمائة ، ورأيت أكثر من تعرض لوصف البحار ممن تقدم وتأخر يذكرون في كتبهم أن خليج القسطنطينية الآخذ من نيطش يتصل ببحر الخزر ، ولست أدرى كيف ذلك ، ومن أين قالوه ؟ أمن طريق الحدس أم من طريق الاستدلال والقياس ؟ [أو توهموا أن الروس ومن جاورهم على هذا البحر هو الخزر] وقد ركبت فيه من أبسكون ، وهو ساحل جرجان ، إلى بلاد طبرستان ، وغيرها ، ولم أترك ممن شاهدت من التجار ممن له أدب وفهم ومن لا فهم عنده من أرباب المراكب إلا سألته عن ذلك ، وكلٌّ يخبرنى أن لا طريق له إليها إلا من بحر الخزر حيث دخلت إليه مراكب الروس ، ونفر من أهل أذربيجان والباب والأبواب[3] وبردعة والديلم والجبل وجرجان وطبرستان إليها لأنهم لم يعهدوا عدواً

(١) في ا « وإن ضايقهما البر ببعض المواضع ، وصار ذلك بين الماءين كالخليج » . (٢) في ب « الفتح » .

(٣) في ا « أذربيجان والران والبيلقان ومن بلاد بردعة » .

يطرأ عليهم ، ولا عرف ذلك فيما سلف ، وما ذكرنا فمشهور فيما سمينا من الأمصار والأمم والبلدان ، سالك مسلك الاستفاضة فيهم .

ورأيت فى بعض الكتب المضافة إلى الكندى وتلميذه — وهو أحمد ابن الطيب السرخسى ، صاحب المعتضد بالله — أن فى طرف العمارة من الشمال بحيرة عظيمة بعضها تحت قطب الشمال ، وأن بقربها مدينة ليس بعدها عمارة ، يقال لها تولية ، ولقد رأيت لبنى المنجم فى بعض رسائلهم ذكر هذه البحيرة ، وقد ذكر أحمد بن الطيب فى رسالته فى البحار والمياه والجبال عن الكندى أن بحر الروم طوله ستة آلاف ميل من بلاد صور وطرابلس وأنطاكية واللاذقية والمثقب وساحل المصيصة وطرسوس وقلمية إلى منار هرقل ، وأن أعرض موضع فيه أربعمائة ميل ، هذا قول الكندى وابن الطيب

وقد أتينا على قول الفريقين جميعاً وما بينهما من الخلاف فى ذلك من أصحاب الزيجات وما وجدناه فى كتبهم وسمعناه من أتباعهم ، ولم نذكر ما ذكروه من البراهين المؤيدة لما وصفوا ؛ لاشتراطنا فى هذا الكتاب على أنفسنا الاختصار والإيجاز .

مبادىء تكوين البحار

وأما ما تنازع فيه المتقدمون من أوائل اليونانيين والحكماء المتقدمين فى مبادىء كون البحار وعللها فقد أتينا على مبسوطه فى كتابنا «أخبار الزمان» فى الفن الثانى من جملة الثلاثين فناً ، وقد ذكرنا قول كل فريق منهم وعزونا كل قول من ذلك إلى قائله ، ولم نخل هذا الكتاب من إيراد لمع من قولهم .

وذهبت طائفة منهم إلى أن البحر بقية من الرطوبة الأولى التى جففت أكثرها جوهر النار ، وما بقى منها استحال لاحتراقه .

ومنهم من قال : إن الرطوبة الأولى المجتمعة لما احترقت بدوران الشمس وانعصر الصفو منها استحال الباقى إلى ملوحة ومرارة .

ومنهم من رأى أن البحار عرق تعرقه الأرض لما ينالها من احتراق الشمس لاتصال دورها .

ومنهم من رأى أن البحر هو ما بقى مما صَفَّتْهُ الأرض من الرطوبة المائية لغلظ جسمها ، كما يعرض فى الماء العذب إذا مزج بالرماد ، فإنه إذا صفا من الرماد وجد مالحاً بعد أن كان عَذْباً .

وذهب آخرون أن المـاء عذبه ومالحه كانا ممتزجين ، فالشمس ترفع لطيفه وعَذْبه لخفته .

وبعضهم قال : ترفعه الشمس لتغتذى به ، وقال بعضهم : بل يعود بالاستحالة ماء إذا صار بارتفاعه إلى الموضع الذى يحصره البرد فيه ، ويكيفه.

ومنهم من ذكر أن المـاء الذى هو أُسطُقُس : ما كان منه عن الهواء ومايعرض منه من البرد يكون حلواً ، وما كان منه فى الأرض لما يناله من الاحتراق والحرارة يكون مراً .

ومن أهل البحث من قال : إن جميع الماء الذى يفيض إلى البحر من جميع ظهور الأرض وبطونها إذاصار إلى تلك الحفرة العظيمة فهو مُضَاض[1] من مُضَاض ، والأرض تقذف إليه ما فيها من الملوحة ، والذى فى الماء من أجزاء النار التى تخرج إليه من بطون الأرض ومن أجزاء النيران المختلطة يرفعان لطائف الماء بارتفاعهما وتبخرهما ، فإذا رفعا اللطائف صار منهما مايشبه المطر ، وكان ذلك دأبهما وعادتهما ، ثم يعود ذلك الماء مالحاً ؛ لأن الأرض إذا كانت تعطيه الملوحة ، [والنيران تخرج منها العذوبة واللطافة ، كان واجباً أن يعود إلى الملوحة] وكذلك يكون ماء البحر على كيل واحد ووزن واحد ؛ لأن الحر يرفع اللطيف فيصير طلاً وماء ، ثم تعود تلك الأندية سيولا ، وتطلب الحدور والقَرَار[2] ، وتجرى فى أعماق الأرض حتى يصير إلى ذلك الهور ، فليس يضيع من ذلك الماء شىء ، ولا يبطل منه شىء ، والأعيان قائمة كمنجنون غَرَفَ من نهر وصب إلى حفرة تفيض إلى ذلك النهر ، وقد شبه ذلك قوم بأعضاء الحيوان إذا اغتذت وعملت الحرارة فى غذائه

(١) المضاض ـ بزنة غراب ـ الماء لا يطاق ملوحة ، وفى ا « فالماء عساس مصاص »
(٢) فى ا « فتطلب الجدول والغيران » .

فاجتذبت منه ماء عذب إلى الأعضاء المغتذية به ، وخلفت ماثقل منه ، وهو المالح والمر ، فمن ذلك البول والعرق ، وهذه فضول الأغذية[1] فيها ، ولما كانت عن رطوبات عذبة أحالتها الحرارة إلى المرارة والملوحة ، وإن الحرارة لو زادت أكثر من مقدارها لصار الفضل مراً زائداً على ما يوجد من العرق والبول ؛ لوجودنا كل محترق مراً .

هذا قول جماعة ممن تقدم ، وأما ما يوجد بالعيان وإيقاع المحنة عند المباشرة فإن كل الرطوبات ذوات الطعوم إذا صعدت بالقرع والأنابيق بقيت روائحها وطعومها فيما يرتفع منها كالخل والنبيذ والورد والزعفران والقرنفل ، إلا المالحة فإنها تختلف طعومها وروائحها ، ولاسيما إن صعدت مرتين وأسخنت مرة بعد أخرى .

وقد ذكر صاحب المنطق فى هذا المعنى كلاماً كثيراً : من ذلك أن الماء المالح أثقل من الماء العذب ، وجعل الدلالة على ذلك أن الماء المالح كدر غليظ والماء العذب صافٍ رقيق ، وأنه إذا أخذ شىء من الشمع فعمل منه إناء ثم سد رأسه وصير فى ماء مالح وجد ذلك الماء الذى وصل إلى داخل الإناء عذباً فى الطعم خفيفاً فى الوزن ، ووجد الماء المحيط به على خلاف ذلك ، وكل ماء يجرى فهو نهر ، وحيث ينبع فهو عين ، وحيث يكون معظم الماء فهو بحر .

قال المسعودى : وقد تكلم الناس فى المياه وأسبابها ، وأكثروا ، وقد ذكرنا فى كتابنا «أخبار الزمان» فى الفن الثانى من جملة الثلاثين فناً ما أوردوه من البراهين فى مساحة البحار ومقاديرها ، والمنفعة فى ملوحة مائها ، واتصال بعضها ببعض وانفصالها ، وعدم بيان الزيادة فيها والنقصان ، ولأية علة كان الجزر والمد فى البحر الحبشى أظهر من دون سائر البحار ، ووجدت نواخذة بحر الصين والهند والسند والزنج واليمن والقلزم والحبشة من السيرافيين والعمانيين يخبرون عن البحر الحبشى فى أغلب الأمور على خلاف ما ذكرته الفلاسفة وغيرهم

---

(١) فى ا « لا عذب فيها » .

ممن حكينا عنهم المقادير والمساحة ، وإن ذلك لا غاية له ، وفى مواضع منه شاهدت أرباب المراكب فى البحر الرومى من الحربية والعمالة ـ وهم النواتى[١] وأصحاب الرحل والرؤساء ومن يلى تدبير المراكب والحرب فيهم ، مثل لاوى المكنى بأبى الحرب[٢] غلام زرافة صاحب طرابلس الشام من ساحل دمشق، وذلك بعد الثلثمائة ـ يُعَظِّمون طول البحر الرومى وعرضه ، وكثرة خلجانه وتشعبه ، وعلى هذا وجدت عبد الله بن وزير صاحب مدينة جبلة من ساحل حمص [من أرض الشام] ، ولم يبق فى هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ أبْصَرُ منه فى البحر الرومى ، ولا أسنُّ منه ، وليس فيمن يركبه من أصحاب المراكب من الحربية والعمالة إلا وهو منقاد إلى قوله ، ويُقِر له بالبصر والحِذْق، مع ما هو عليه من الديانة والجهاد القديم فيها ، وقد ذكرنا عجائب هذه البحار وما سمعناه ممن ذكرنا من أخبارها وآفاتها ، وما شاهدوا فيها فيما سلف من كتبنا ، وسنورد بعد هذا الموضع جملا من أخبارها .

علامات لمعرفة وجود المياه

وقد ذهب قوم فى علامات المياه ومستقرها من الأرض مذهباً ، وهو أن يرى فى المواضع التى يكون فيها الماء منابتُ القَصَب والحَلْفاء واللين من الحشيش؛ فذلك دلالة على قرب الماء لمن أراد الحفر ، وأن ما عدا ذلك فعلى البعد .

ووجدت فى كتاب الفلاحة أن مَنْ أراد أن يعلم قرب الماء وبُعْده فليحفر فى الأرض قدر ثلاثة أذرع أو أربعة ، ثم يأخذ قِدْراً من نحاس أو إجّانَةَ خزف ، فيدهنها بالشحم من داخلها مستويا ، ولتكن القدر واسعة الفم ، فإذا غابت الشمس فخذ صوفة بيضاء منفوشة مغسولة، وخذ حجراً قدر بيضة، فالفُفْ ذلك الصوف عليه مثل الكرة ، ثم اطْلِ جانب الكرة بموم مُذَاب وألصقها فى أسفل ذلك

(١) فى ا « وهم النواتية ، وأصحاب الأرحل » .
(٢) فى ا « بأبى الحارث غلام زرافة » .

القدْر الذى قد دهنته بدهن أوشحم ثم ألقها فى أسفل الحفيرة؛ فإن الصوف يصير معلقا والموم يمسكه[١] ، ويصير إلى مكان الحجر معلقاً ، ثم احْثُ على الإناء التراب قدر ذراعين أو ذراع ، ودَعْه ليلتك كلها ، فإذا كان الغد قبل طلوع الشمس فاكنس التراب عنه ، وارفع الإناء ، فإن رأيت الماء ملزقا بالإناء من داخل قطراً كثيراً بعضه قريب من بعض والصوفة ممتلئة فإن فى ذلك المكان ماء ، وهو قريب ، وإن كان القطر متفرقاً لا بالمجتمع ولا بالمتقارب والصوفة ماؤها وسط فإن الماء ليس بالبعيد ولا بالقريب ، وإن كان القطر ملتزقاً متباعداً بعضه عن بعض والماء فى الصوفة قليل ، فإن الماء بعيد ، وإن لم ترَ على الإناء قطراً قليلا ولا كثيراً ولا على الصوفة ماء فإنه ليس فى ذلك الموضع ماء ، فلا تَتَعَنَّ فى حَفْره .

ووجدت فى بعض النسخ من كتاب الفلاحة فى هذا المعنى أن مَنْ أراد علم ذلك فلينظر إلى قرى النمل ؛ فإن وجد النمل غلاظاً سوداً ثقيلة المشى [فلينظر] فعلى قدر ثقل مشيهن الماء قريب منهن ، وإن وجد النمل سريع المشى لا يكاد يُلْحَق فالماء على أربعين ذراعاً ، والماء الأول يكون عذباً طيباً والثانى [يكون] ثقيلا مالحاً .

فهذه جملة علامات لمن يريد استخراج الماء ، وقد أتينا على مبسوط ما ذكرنا فى كتابنا « أخبار الزمان » وإنما نذكر فى هذا الكتاب ما تدعو الحاجة إلى ذكره بالإشارة إليه دون بَسْطه وإيضاحه .

وإذ قد ذكرنا جملا من أخبار البحار وغيرها ، فلنقل فى أخبار ملوك الصين وغيرها وأهلها ، وغير ذلك مما لحق به ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى ا « يملكه ويصير لمكان الحجر مغلقا » .

ذكر ملوك الصين والترك ، وتفرق ولد عابور (١)

وأخبار الصين

وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

القول فى أنساب الصين

قد تنازع الناس فى أنساب أهل الصين وبدئهم : فذكر كثير منهم أن ولد عابور (١) بن سوبيل (٢) بن يافث بن نوح القاسم فالغ بن عابر بن إرفخشذ بن سام ابن نوح الأرضَ بين ولد نوح ساروا يسرةً فى الشرق، فسار قوم منهم من ولد أرعو على سَمْت الشمال، وانتشروا فى الأرض فصاروا عدة ممالك: منهم الدَّيْلَم، والجيل، والطيلسان، والتتر، وفرغان (٣) فأهل جبل القبق (٤) من أنواع اللكز ثم اللان والخزر والأنجاد (٥) والسرير وكشك، وسائر تلك الأمم المنتشرة فى ذلك الصقع، إلى بلاد طوابريدة (٦) إلى بحر ما نطش ونيطش وبحر الخزر إلى البرغر ومن اتصل بهم من الأمم، وعَبَر ولد عابور (١) نهر بلخ، ويمم بلاد الصين الأكثر منهم، وتفرقوا عدة ممالك فى تلك البلاد وانتشروا فى تلك الديار، فمنهم الجيل، وهم سكان (٧) جيلان، والأشروسنة والصغد، وهم بين بخارى وسمرقند، ثم الفراغنة والشاش واستيجاب وأهل بلاد الفاراب ؛ فبنوا المذن والضياع، وانفرد منهم أناس غير هؤلاء فسكنوا البوادى: فمنهم الترك والخرلج والطغرغر، ومنهم أصحاب مدينة كوشان، وهى مملكة بين خراسان وبلاد الصين، وليس فى أجناس

---

(١) فى ا « عامور » .
(٢) فى ب « بن بتويل » .
(٣) فى ا « والبر وموقان »
(٤) فى ب « جبل الفتح » .
(٥) فى ا « الأبخاز » .
(٦) فى ا « إلى طراز زيدة إلى بحر ما يطس ويطس » .
(٧) فى ا « منهم الختل ، ومنهم سكان ختلان وروسان » .

الترك وأنواعهم فى وقتنا هذا ــ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ــ أشد منهم بأساً ، ولا أكثر منهم شوكة ، ولا أضبط ملكا ، وملكهم أيرخان ، ومذهبهم مذهب المانية ، وليس فى الترك من يعتقد هذا المذهب غيرهم ، ومن الترك الكيماكية والبرسخانية والبدية والجعرية ، وأشدهم بأسا الغزية ، وأحسنهم صورة ، وأطولهم قامة ، وأصبحهم وجوهاً : الخزلجية ، وهم أهل بلاد فرغانة والشاش وما يلى ذلك الصقع ، وفيهم كان المُلْكُ ، ومنهم خاقان الخواقين ، وكان يجمع ملكه سائر ممالك الترك ، وتنقاد إليه ملوكها ، ومن هؤلاء الخواقين كان فراسياب التركى الغالب على بلاد فارس ، ومنهم سانة ، ولخاقان الترك فى وقتنا هذا تنقاد ملوك الترك كلهم منذ خربت المدينة المعروفة بعمات[1] ، وهى فى مفاوز سمرقند ، وقد ذكرنا انتقال الملك عن هذه المدينة ، والسبب فى ذلك فى كتابنا الترجم بالكتاب الأوسط ، ولحق فريق من ولد عابور[2] بتخوم الهند ، فأثرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانهم بخلاف ألوان الترك ، ولحقوا بألوان الهند ، ولهم حَضَرٌ وَبَوادٍ ، وسكن فريق منهم ببلاد التبت ، وملكوا عليهم ملكا وكان ينقاد إلى ملك خاقان ، فلما زال ملك خاقان على ما قدمنا ، وسَمَّى أهل التبت ملكهم بخاقان تشبيهاً بمن تقدم من ملوك الترك وهو خاقان الخواقين .

وسار الجمهور من ولد عابور[2] على ساحل البحر حتى انتهوا إلى أقاصيه من بلاد الصين ، فتفرقوا فى تلك البقاع والبلاد ، وقطنوا الديار ، وكَوَّروا الكُوَرَ ، ومصَّروا [الأمصار ومَدَّنوا] المدن ، واتخذوا لملكتهم مدينة عظيمة ، وسمَّوْها انموا ، و بينها وبين ساحل البحر الحبشى ــ وهو بحر الصين ــ مسافة ثلاثة أشهر مدن وعمائر متصلة .

ملك نسطرطاس

وكان أول ملك تملك عليهم فى هذه الديار وهى انموا « نسطرطاس[3] » بن باعور بن مدتج بن عابور بن يافث بن نوح ، فكان ملكه ثلثمائة سنة ونيفاً ،

---

(١) فى ب « المدينة المعروفة بعمان » . (٢) فى ا « عامور » .
(٣) فى ب « اسطر ماس بن فاعور بن بريح » .

وفرق أهله فى تلك الديار ، وشَقَّق الأنهار ، وقتل السباع ، وغرس الأشجار وأطعم الثمار ، وهلك .

ملك عوون

فملك ولد له يقال له « عوون » فجعل جسد أبيه فى تمثال من الذهب الأحمر جزعاً عليه ، وتعظيما له ، وأجلسه على سرير من الذهب [الأحمر مُرَصَّع بالجواهر وجعل مجلسه دونه ، وأقبل يسجد لأبيه وهو فى جوف تلك الصورة ، هو وأهل مملكته ، فى طرفى النهار إجلالا له ، وعاش [بعد أبيه] مائتى سنة وخمسين سنة ، وهلك .

ملك عيثدون

فملك ولد له يقال له « عيثدون[1] » فجعل جسد أبيه مخزوناً فى تمثال من الذهب [الأحمر]،وجعله دون مرتبة جده على سرير من الذهب[وَرصَّعَهُ بأنواع الجواهر]وكان يسجد له،و يبدأ بجده الأول ثم بأبيه ، وأهل مملكته يسجدون له وأحْسَنَ السياسة للرعية ، وسوَّاهم فى جميع أمورهم،وشملهم بالعدل،فكثر النسل وأخصبت الأرض[2] ، فكان ملكه إلى أن هلك نحواً من مائتى سنة .

ملك غيثنان

ثم ملك بعده ولده « عيثنان[3] » فجعل أباه فى تمثال من الذهب [الأحمر] وجرى [فيه] على ما سلف من أفعالهم من السجود والتعظيم ، وطال ملكه واتصلت بلاده ببلاد الترك من بنى عمه ، فعاش أربعمائة سنة ، واتخذ فى أيامه كثيرا من المهن مما لطف فى الدور[4] من الصنائع .

ملك حراتان

وملك بعده ولده « حراتان »[5] فأحدث الفلك وحمل فيها الرجال،وحمل لطائف بلاد الصين ، وصيرها نحو بلاد السند والهند إلى إقليم بابل وإلى سائر الممالك مما قرب منها و بَعُدَ فى البحر ، وأهدى الهدايا العجيبة والرغائب النفيسة إلى الملوك وأمرهم أن يجلبوا إليه ما فى كل بلد من الطرائف والتحف من المآكل والمشارب

---

(١) فى ب « عبرور » .

(٢) فى ا « وأخصبت بلاده » .

(٣) فى ب « عينيان » .

(٤) فى ا « مما لطف فى الرقة » .

(٥) فى ب « حرامان » .

والملابس وسائر الفُرُش(١)، وأن يعرفوا سياسة كل ملك وكل أمة(٢) وشريعتها ونَهْجها الذى هى عليه، وأن يرغِّبوا الناس فيما فى بلدانهم من الجواهر والطيب والآلات؛ فتفرقت المراكب فى البلاد، ووردوا الممالك بما أمروا به، فلم يردوا على أهل مملكة إلا وأعجبوا بهم، واستطرفوا ما أوردوه من أرضهم، فبنت الملوك المطيفة بالبحار المراكِبَ، وجهزت نحوهم السفن، وحملوا إليهم ما ليس عندهم، وكانبوا ملكهم، وكافأوه على ما كان من هداياه إليهم، فعمرت بلاد الصين، واستقامت له الأمور، فكان عمره نحواً من مائتى سنة، فهلك، فجزع عليه أهل مملكته وأقاموا النياحة عليه شهراً.

ملك توتال

ثم فزعوا إلى الأكبر من أولاده فصيروه عليهم ملكاً(٣)، فجعل جسد أبيه فى تمثال من الذهب، وسلك طريقَ مَنْ كان قبله فى فعالهم مقتديا بمن مضى من آبائه، وكان اسم هذا الملك «بونال(٤)» فاستقامت له الأمور، وأحدث من السنن المحمودة ما لم يحدثه أحد [ممن سلف] من ملوكهم، وزعم أن الملك لا يثبت إلا بالعدل فإن العدل ميزان الرب(٥)، وإن من العدل الزيادة فى الإحسان مع الزيادة فى العمل وحصن(٦)، وشرف، ونوج، ورنب الناس فى رتبهم [ووقفهم] على طرائقهم، وخرج يرتاد موضعاً ليبنى فيه هيكلا، فوافى موضعاً عامراً بالنبات حسن الاعتمام بالزهر(٧) تخترقه المياه، فخط الهيكل هناك، وجلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان؛ فشيد الهيكل، وجعل على علوه قبة، وجعل لها مخارج للهواء متساوية، ونصب فيها بيوتاً لمن أراد التفرد بالعبادة؛ فلما فرغ منها نصب فى أعلاها تلك التماثيل التى فيها أجسام من سلف من آبائه، وأمر بتعظيمها، وجمع الخواص من أهل مملكته

---

(١) فى ا « وسائر العروس » . (٢) فى ا « وملة كل أمة » .
(٣) فى ا « فنصبوه عليهم ملكا » . (٤) فى ب « ثوما مان »
(٥) فى ا « لأن العدل ميزان البارى » .
(٦) فى ا « وخص » . (٧) فى ب « الاعتمام بالنهر » .

وأخبرهم أن من رأيه ضم الناس إلى ديانة يرجعون إليها لجمع الشمل وتساوى النظام ، فإنه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل ، ودخول الفساد والزلل ، فرتب لهم سياسة شرعية ، وفرائض عقلية ، وجعلها لهم رِبَاطاً ، ورتب لهم قِصَاصاً فى الأنفس والأعضاء ، ومستحلات مناكح يستباح بها النسوان ، ويصح بها الأنساب ، وجعلها مراتب ؛ فمنها لوازم موجبة يَحْرَجُون من تركها ، ومنها نوافل يتنفلون بها ، وأوجب عليهم صلوات لخالقهم تقرباً لمعبودهم : منها إيماء لا ركوع فيها ولا سجود فى أوقات من الليل والنهار معلومة ، ومنها بركوع وسجود فى أوقات من السنة والشهور محدودة ، ورسم لهم أعياداً ، وجعل على الزُّنَاة منهم حداً ، وعلى من أراد من نسائهم البغاء جزية مفروضة ، وأن لا يستحن[1] النكاح إلا فى وقت من الأوقات ، وإن أقلعن عما كن عليه سكف الجزية عنهن ، وما يكون من أولادهن ذكوراً يكون للملك عبيداً وجُنْداً ، وما يكون من أولادهن إناثاً ، فلأمهاتهن ، ويلحقن بصنعتهن ، وأمرهم بقرابين للهياكل ودخن[2] ، وأبخرة للكواكب ، وجعل لكل كوكب منها وقتاً يتقرب إليه فيه بدخن[2] معلوم من أنواع الطيب والعقاقير ، وأحكم لهم جميع الأمور ، فاستقامت أيامه ، وكثر النسل ، فكانت حياته نحواً من مائة وخمسين سنة ، وهلك ، فجزعوا عليه جزعاً شديداً ، فجعلوه فى تمثال من الذهب [الأحمر] ورَصَّعوه بأنواع الجواهر ، وبنوا له هيكلا عظيما ، وجعلوا سقفه سبعة ألوان من الجوهر على أنواع الكواكب السبعة من النيرين والخمسة بألوانها وأشكالها ، وجعلوا يوم وفاته صلوات وعيداً يجتمعون فيه عند ذلك الهيكل ، وصوروا صورته على أبواب المدينة وعلى الدنانير والفلوس وعلى الثياب ، وأكثر أموالهم الفلوسُ الصفر والنحاس ، فاستقرت هذه المدينة بدار ملك

(١) فى ب « وأن لا يستحسن النكاح — إلخ » ويظهر أن الأصل «وألا يستبحن النكاح » . (٢) فى ب « زخر » فى الموضعين .

الصين ، وهى مدينة انموا ، وبينها وبين البحر نحو من ثلاثة أشهر وأكثر من ذلك على حسب ماقدمنا آنفاً ، ولهم مدينة عظيمة نحو ما يلى من أرضهم مغرب الشمس ، يقال لها مد[1] ، وتلى بلاد التبت ، والحرب بين بلاد التبت وأهل المد[1] سِجَالٌ .

فلم تزل الملوك ممن طرأ بعد هذا الملك أمورهم منتظمة وأحوالهم مستقيمة ، والخصب والعدل لهم شامل ، والجور فى بلادهم معدوم، يقتدون بما نصبه لهم من الشرع مَنْ قدمنا ذكرهم ، وحروبهم على عدوهم قائمة ، وثغورهم مشحونة، والرزق على الجنود دارٌّ ، والتجار يختلفون إليهم فى البر والبحر من كل بلد بأنواع الجهاز ، ودينهم دين مَنْ سلف ، وهى ملة تدعى السمنية ، عباداتهم نحو من عبادات قريش قبل مجىء الإسلام : يعبدون الصور ، ويتوجهون نحوها بالصلوات ، واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق ، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قِبْلَة ، والجاهل منهم ومَنْ لاعلم له يشرك الأصنام بإلٰهية الخالق ، ويعتقدهما جميعاً ، وأن عبادتهم الأصنام تقربهم إلى الله زُلْفَى ، وأن منزلتهم فى العبادة تنقص عن عبادة البارىء لجلالته وعظمته وسلطانه ، وأن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة إليه ، وهذا الدين كان بدء ظهوره فى خواصهم من الهند لمجاورتهم إياهم ، وهو رأى الهند فى العالم والجاهل على حسب ما ذكرنا فى أهل الصين ، ولهم آراء ونحل حدثت عن مذاهب الثنوية وأهل الدهر ، فتغيرت أحوالهم ، وبحثوا ، وتناظروا ، إلا أنهم ينقادون فى جميع أحكامهم إلى مانصب لهم من الشرائع المقدمة ، ومن حيث إن مُلْكهم متصل بملك الطغرغر — على حسب ما تقدم — صاروا على آرائهم من اعتقادهم مذاهب المانية[2] والقول بالنور والظلمة ، وقد كانوا جاهلية سبيلُهم فى الاعتقاد سبيلُ الترك، إلى أن وقع لهم شيطان من شياطين المانية[2] ، فزخرف لهم كلاماً يريهم فيه تضاد مافى هذا العالم وتباينه : من

(١) فى ا « يقال لها مذ » . (٢) فى ا « الثانية » .

موت وحياة ، وصحة وسقم ، وضياء وظلام ، وغنى وفقر ، واجتماع وافتراق ، واتصال وانفصال ، وشروق وغروب ، ووجود وعدم ، وليل ونهار ، وغير ذلك من سائر المتضادات ، وذكر لهم أنواع الآلام المعترضة لأجناس الحيوان من الناطقين وغيرهم مما ليس بناطق من البهائم ، ومايعرض للأطفال والبُلْه والمجانين ، وأن البارىء جل وعز غنى عن إيلامهم ، وأراهم أن هناك ضداً شديداً دَخَلَ على الخير الفاضل فى فعله ، وهو الله عز وجل ، فاجتذب بما وصفنا وغيره من الشُّبَهِ عقولَهم ، فدانوا بما وصفنا ، فإن كان ملك الصين ينتمى لمذهب ذبح الحيوان كانت الحرب بينه وبين صاحب الترك أيرخان سِجَالا ، وإذا كان ملك الصين متنافى المذهب[1] كان الأمر بينهم فى الملك مُشَاعا ، وملوك الصين ذوو آراء ونحل ، إلا أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضية العقل والحق ، فى نَصْب القُضَاة والحكام ، وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك .

بعض عادات الصين

وأهل الصين شعوب وقبائل ، كقبائل العرب وأفخاذها وتشعبها فى أنسابها ، ولهم مراعاة لذلك ، وحفظ له ، وينسب الرجل [منهم] إلى خمسين أبا إلى أن يتصل بعابور[2] وأكثر من ذلك وأقل ، ولا يتزوج أهل كل فخذ من فخذهم[3] مثال ذلك أن يكون الرجل من مُضَرَ فيتزوج فى ربيعة ، أو من ربيعة فيتزوج فى مضر ، أو من كَهْلاَن فيتزوج فى حِمْيَر ، أو من حمير فيتزوج من كهلان ، ويزعمون أن فى ذلك صحة النسل وقوام البنية ، وأنه أصح للبقاء ، وأتم للعمر ، وأسباباً يذكرونها نحو ما ذكرنا .

فلم تزل أمور الصين مستقيمة فى العدل على حسب ما جرى به الأمر فيما سلف من ملوكهم إلى سنة أربع وستين ومائتين ؛ فإنه حدث فى الملك أمر زال به النظام ، وانقضت به الأحكام والشرائع ومنع من الجهاد إلى وقتنا هذا ، وهو سنة

(١) فى ا « مثانى الذهب » . (٢) فى ا « بعامور » .

(٣) فى ب « ولا يتزوج أهل كل فخذ إلا من فخذهم » وفيها فيما بعد « فلا يتزوج » فى كل المواضع .

اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، وهو أن نابغاً نبع فيهم من غير بيت الملك كان فى بعض مدائن الصين يقال له يانشو[1] ، وكان شريراً يطلب الفتنة ، و يجتمع إليه أهل الدعارة والشر ، فلحق الملكَ وأربابَ التدبير غفلةٌ عنه ؛ لخمول ذكره، وأنه ممن لا يُبَالى به، فاشتد أمره ، ونما ذكره ، وكثر عتوُّه ، وقويت شوكته، وقطع أهل الشر المسافات نحوه، وعظم جيشه ، فسار من موضعه ، وَشَنَّ الغارات على العمائر حتى نزل مدينة خانقوا ، وهى مدينة عظيمة على نهر عظيم أكبر من دجلة يصب إلى بحر الصين ،و بين هذه المدينة و بين البحر مسيرة ستة أيام أو سبعة، تدخل هذا النهر سفن التجار الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائر الزابج والصنف وغيرها من الممالك بالأمتعة والجهاز ، وتقرب إلى مدينة خانقوا، وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى و يهود ومجوس ، وغير ذلك من أهل الصين ؛ فقصد هذا العدو إلى هذه المدينة فحاصرها ، وأتته جيوش الملك فهزمها ، واستباح ما فيها ، فكثرت جنوده ، وافتتح مدينة خانقوا عَنْوَة، وقتل من أهلها خلقا لا يُحْصَوْنَ كثرةً، وأحصى من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس ممن قتل وغرق خوف السيف فكان مائتى ألف ، و إنما أحصى ماذكرناه من هذا العدد لأن ملوك الصين تحصى مَنْ فى مملكتها من رعيتها ، وكذا مَنْ جاورها من الأمم ؛ ليصير ذمة لها فى دواوينها ، بكُتَّابٍ قد وكِّلوا بإحصاء ذلك لما يراعون من حياطة مَنْ شملِه ملكهم ، وقَطَع هذا العدو ما كان حول مدينة خانقوا من غابات شجر التوت ؛ إذ كان يحتفظ به لما يكون من ورقه ، وما يطعم منه لدود القز الذى ينتج منه الحرير ، فكان ذهاب الشجر داعياً إلى انقطاع الحرير الصينى وجهازه إلى ديار الإسلام .

وسار يانشو[1] بجيوشه إلى بلد بلد فافتتحه ، وانضاف إليه أمم من الناس ممن يطلب الشر والنهب وغيرهم ممن يخاف على نفسه ، وقصد مدينة أنموا ،وهى دار الملك، فخرج إليه الملك فى نحو مائة ألف ممن بقى معه من خواصه والتقى هو و يانشو[1]

(١) فى ب « يقال له باسر » .

وكانت الحرب بينهم سجالا نحواً من شهر ، وصبر الفريقان جميعاً ، ثم كانت على الملك فولّى منهزماً ، وأمعن الخارجي في طلبه ، فانحاز الملك إلى مدينة في أطراف أرضه، واستولى الخارجي على الحَوْزَة ، واحتوى على ديار الملك، وملك خزائن الملوك السالفة ، وما أعدوه للنوائب، وشن الغارات في سائر العمارات ، وافتتح المدن، وعلم أن لاقوام له بالملك ؛ إذ كان ليس من أهله ، فأمعن في خراب البلاد واستباحة الأموال ، وسَفْك الدماء ، وكاتب ملكُ الصين من المدينة التي انحاز إليها المُتَاخمة لبلاد التبت ، وهى مدينة مد[1] المتقدم ذكرها ، مَلِكَ الترك ابن خاقان[2] ، فاستنجده ، وأعلمه مانزل به ، وأعلمه مايلزم الملوك من الواجبات إذا استنجدها إخوانها من الملوك ، وأن ذلك من فرائض الملك وواجباته، فأنجده ابن خاقان[2] بولد له بنحو من أربعمائة ألف فارس وراجل، وقد استفحل أمر يانشو ، فالتقى الفريقان جميعاً ، فكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من سنة، وتفانى من الفريقين خلق كثير، ففقد يانشو ، فقيل : إنه قتل ، وقيل : إنه أحرق[3]، وأسر ولده والخواص من أصحابه ، وسار ملك الصين إلى دار المملكة وعاد إلى ملكه والعامة تسميه يعبور[4] ، وتفسير ذلك ابن السماء ، تعظيما له ، وهو الاسم الأخص لملوك الصين ، والذى يخاطبون به جميعا جحان[5] ، ولا يخاطبون بيعبور[4] ، ونغلّبَ كل صاحب ناحية من عماله على ناحيته ، كتغلب ملوك الطوائف حين قَتَلَ الإسكندر بن فيلبوس المقدونى دارا بن دارا ملك فارس، وكنحو ما نحن بسبيله فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — فرضى ملك الصين منهم بالطاعة له ، ومكاتبته بالملك ، ولم يتأتّ له المسير إلى سائر أعماله ، ولا محاربة من تغلب على بلاده ، وقنع بما وصفنا ، وامتنع مَنْ ذكرنا من حمل الأموال إليه فتاركهم مسالما لهم ، وعدا كل فريق منهم على ما يليه على حسب قوته وتمكنه ؛ فعدم انتظام الملك واستقامته على حسب ما سلف من ملوكهم .

(١) فى ا « مدينة مذ » (٢) فى ا « ملك الترك أيرخان » .
(٣) فى ا « وقيل إنه غرق » . (٤) فى ا « بغبور » .
(٥) ا « طمغما جبان » .

وقد كان لمن سلف من ملوكهم سير وسياسات للملك ، وانقياد للعدل ، على حسب ما توجبه قضية العقل .

وحكى أن رجلا من التجار من أهل مدينة سمرقند من بلاد خراسان[1] خرج من بلاده ، ومعه متاع كثير ، حتى انتهى إلى العراق ، فحمل من جهازه ، وانحدر إلى البصرة ، وركب البحر حتى أتى إلى بلاد عمان، وركب إلى بلاد كلة ، وهى النصف من طريق الصين أو نحو ذلك ، وإليها تنتهى مراكب [أهل] الإسلام من السيرافيين والعمانيين فى هذا الوقت فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين فى مراكبهم ، وقد كانوا فى بدء الزمان بخلاف ذلك ، وذلك أن مراكب الصين كانت تأتى بلاد عمان وسيراف وساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة وكذلك كانت المراكب تختلف من المواضع التى ذكرنا إلى ماهناك ، ولما عدم العدل وفسدت النيات وكان من أمر الصين ماوصفنا التقى الفريقان جميعاً فى هذا النصف ، ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلة فى مراكب الصينيين إلى مدينة خانقوا ، وهى مرسى المراكب [على حسب ماذكرنا آنفاً، وبلغ ملك الصين خبر المراكب ومافيها من الجهاز والأمتعة][2] فسرح خصيا من خواص خدمه ممن يثق به فى أسبابه، وذلك أن أهل الصين يستعملون الخصيان من الخدم فى الخراج وغيره [من العمالات والمهمات] وفيهم من يخصى ولده طلباً للرياسة [واعتقاد النعمة ؛ فسار الخصى] حتى أتى مدينة خانقوا،وأحضر التجار ومعهم التاجر الخراسانى، فعرضوا عليه مااحتاج إليه من المتاع ومايصلح له ، فسأل الخراسانى أن يحضر متاعه ؛ فأحضره،وجرت بينهم محادثة،ودار الأمر فى التثمين للمتاع،فأمر الخصى بسجن الخراسانى وإكراهه،وذلك أنه زاده ثقة منه بعدل الملك،فمضى الخراسانى من فَوْره حتى أتى إلى مدينة أنموا ، وهى دار الملك ، فوقف موقف المتظلم ،

---

(١) فى ا « من بلاد ما وراء النهر » (٢) زيادة ليست فى ا

وذلك أن المتظلم إذا أتى من البلد الشاسع أو غيره نقمص نوعا من الحرير الأحمر ، ووقف موضعاً قد رسم للظُّلَامة ، وقد رتب بعض ملوك النواحى للقبض على من يرد من المتظلمين ، ويقف ذلك الموقف ، فيحمل مسيرة شهر من أرضهم على البريد ، ففعل ذلك بالتاجر الخراسانى ، ووقف بين يدى صاحب تلك الناحية المرتب لما ذكرناه ، فأقبل عليه ، وقال : أيها الرجل لقد تعرضت لأمر عظيم ، وخاطرت بنفسك ، انظر إن كنت صادقا فيما تخبر به ، وإلا فإنا نقيلك ونردُّك من حيث جئت ، وكان هذا خطابه لمن يتظلم ، فإن رآه قد جزع وضرع فى القول ضربه مائة خشبة ورده من حيث جاء ، وإن هو صبر على ما هو عليه حمل إلى حضرة الملك ، وأوقف بين يديه ، وسمع كلامه ، فصمم الخراسانى فى المطالبة والظُّلَامة فرآه محقًّا غير ضَرِع ولا متلجلج ، فحمل إلى الملك ، فوقف بين يديه وقَصَّ حديثه على الملك ، فلما أن أدى الترجمان إليه ما قاله وفهم ظلامته أمر به إلى بعض المواضع ، وأحسن إليه ، وأحضر الوزير وصاحب الميمنة [وصاحب القلب] وصاحب الميسرة، وهم أناس قد رتبوا لذلك عند الملمات وحين الحروب قد عرف كل واحد منهم مرتبته والمراد منه ، فأمرهم الملك أن يكتب كل واحد منهم إلى صاحبه بالناحية ، ولكل واحد منهم خليفة فى كل ناحية ، فكتبوا إلى أصحابهم بخانقوا أن يكتبوا إليهم بما كان من خبر التاجر والخادم ، وكتب الملك إلى خليفته بالناحية بمثل ذلك ، وقد كان خبر الخادم والتاجر اشتهر واستفاض، فوردت الكتب على بغال البريد بتصحيح ما قاله التاجر ، وذلك أن ملوك الصين لها فى سائر الطرق من أعمالها بغال للبريد مُسْرَجة محذوة الآلات للأخبار والخرائط ، فبعث الملك فاستحضر الخادم ، فلما وقف بين يديه سَلَبه ما كان أنعم به عليه ، ثم قال له : عمدت إلى رجل تاجر قد خرج من بلد شاسع ، وقطع مسالك ، واجتاز بملوك فى بر وبحر ، فلم يتعرض له ، يؤمل الوصول إلى مملكتى ثقة منه بعدلى ، ففعلت به ما فعلت ، وكان ينصرف عن ملكى ، ويقبح الأحدوثة عن

سيرتى ، أما لولا قديم حرمتك بنا لقتلتك ، لـكن أعاقبك بعقوبة إن عقلت فإنها أكبر من القتل ، وهو أن أوليك مقابر الموتى من الملوك السالفة ، أن عجزت عن تدبير الأحياء والقيام بما إليه ندبت ، وأحسن الملك إلى التاجر ، وحمله إلى خانقوا ، وقال له : إن سمحت نفسك أن تبيع منا ما اختير لنا من متاعك بالثمن الجزيل ، وإلا فأنت المحـكَّم فى مالك ، أقم إذا شئت ، وبع كيف شئت ، وانصرف راشداً حيث شئت ، وصَرَف الخادم إلى مقابر الملوك .

قال المسعودى : ومن طرائف أخبار ملوك الصين أن رجلا من قريش من ولد هَبَّار بن الأسود لما كان من أمر صاحب الزنج بالبصرة ما كان واشتهر ، خرج هذا الرجل من مدينة سيراف ، وكان من أرباب البصيرة وأرباب النعم بها ، وذوى الأحوال الحسنة ، ثم ركب منها فى بعض مراكب بلاد الهند ، ولم يزل يتحول من مركب إلى مركب ، ومن بلد إلى بلد ، يخترق ممالك الهند ، إلى أن انتهى إلى بلاد الصين [فصار] إلى مدينة خانقوا ، ثم دعته همته إلى أن صار إلى دار ملك الصين ، وكان الملك يومئذ بمدينة حمدان ، وهى من كبار مدنهم ، ومن عظيم أمصارهم ، فأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب ، فأمر [الملك] بعد هذه المدة الطويلة بإنزاله فى بعض المساكن وإزاحة العلة من أموره وجميع ما يحتاج إليه ، وكتب إلى الملك المقيم بخانقوا يأمره بالبحث عنه ، ومسألة التجار عما يدعيه الرجل من قرابة نبى العرب صلى الله عليه وسلم ، فكتب صاحب خانقوا بصحة نسبه ، فأذن له فى الوصول إليه ، ووصله بمال واسع ، وأعاده إلى العراق ، وكان شيخاً فهماً ، فأخبر أنه لما وصل إليه وسأله عن العرب ، وكيف أزالوا ملك العجم ، فقال له : بالله عز وجل ، وما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس والقمر من دون الله عز وجل ، فقال له : لقد غلبت العرب على أجَلِّ الممالك ، وأنفسها ، وأوسعها رَيْعاً ، وأكثرها أموالا ، وأعقلها

رجالا ، وأهداها صوتاً[١] ، ثم قال له : فما منزلة سائر الملوك عندكم ؟ فقال : ما لى بهم علم ، فقال للترجمان : قل له : إنا نعدُّ الملوك خمسة ، فأوسعهم ملكاً الذى يملك العراق ، لأنه فى وسط الدنيا ، والملوك مُحْدِقَة به ، ونجد اسمه ملك الملوك ، وبعده ملكنا هذا ، ونجده عندنا ملك الناس ، لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا ، ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا ، ولا رعية من الرعايا أطوع لملكها من رعيتنا ، فنحن ملوك الناس ، ومن بعده ملك السباع ، وهو ملك الترك الذى يلينا ، وهم سباعُ الإنْسِ ، ومن بعده ملك الفِيَلَةِ ، وهو ملك الهند ، ونجده عندنا ملك الحكمة أيضاً ؛ لأن أصلها منهم ، ومن بعده ملك الروم ، وهو عندنا ملك الرجال ؛ لأنه ليس فى الأرض أتم خلقاً من رجاله ، ولا أحسن وجوهاً منهم ، فهؤلاء أعيان الملوك ، والباقون دونهم ، ثم قال للترجمان : قل له : أتعرف صاحبك إن رأيته ؟ يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال القرشى : وكيف لى برؤيته وهو عند الله عز وجل ؟ فقال : لم أرد هذا ، وإنما أردت صورته ، فقلت : أجل ، فأمر بسَفَطٍ فأخرج فوضع بين يديه ، فتناول منه درجاً ، وقال للترجمان : أره صاحبه ، فرأيت فى الدرج صور الأنبياء ، فحركتُ شفتىَّ بالصلاة عليهم ، ولم يكن عندهم أنى أعرفهم ، فقال للترجمان : سَلْه عن تحريكه لشفتيه ، فسألنى ، فقلت : أصلى على الأنبياء ، فقال : ومن أين عرفتهم ؟ فقلت : بما صُوِّرَ من أمورهم ، هذا نوح عليه السلام فى السفينة [ينجو] بمن معه لما أمر الله عز وجل الماء فعمَّ الماء الأرض كلها بمن فيها وسلمه وَمَنْ معه ، فقال : أما نوح فصدقت فى تسميته ، وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه ، وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل إلى أرضنا ، وإن كان خبركم صحيحاً فعن هذه القطعة ، ونحن معاشر أهل الصين والهند والسند وغيرنا من الطوائف والأمم لا نعرف ما ذكرتم ، ولا نَقَلَ إلينا أسلافنا

(١) فى ا « وأبعدها صيتا » .

ما وصفتم ، وما ذكرت من ركوب الماء الأرض كلها فمن الكوائن العظام التى تفزع النفوس إلى حفظه وتتداوله الأمم ناقلة له ، قال القرشى : فَهِبْتُ الرد عليه وإقامة الحجة ؛ لعلمى بدَفْعِهِ ذلك ، ثم قلت : وهذا موسى صلى الله عليه وسلم وبنو إسرائيل، فقال: نعم على قلة البلد الذى كان به وفساد قومه عليه ، ثم قلت : هذا عيسى ابن مريم عليه السلام على حماره والحواريُّونَ معه ، فقال : لقد كان قليلَ المدة ، إنما كان أمَدُه يزيد على ثلاثين شهراً شيئاً يسيراً ، وعدد من سائر الأنبياء وأخبارهم ما اقتصرت على ذكر بعضه، ويزعم هذا القرشى ــ وهو المعروف بابن هبار ــ أنه رأى فوق كل صورة كتابة طويلة قدرُوِّن فيها ذكر أسمائهم[1]، وَمواضع بلدانهم ، ومقادير أعمارهم ، وَأسباب نبواتهم وسيرهم ، وقال : ثم رأيت صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جمل وأصحابه مُحْدِقون به فى أرجلهم نعال عربية[2] من جلود الإبل ، وفى أوساطهم الحبال ، قد علقوا فيها المساويك ، فبكيت ، فقال للترجمان : سله عن بكائه ، فقلت : هذا نبينا وسيدنا وابن عمنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : صدقت ، لقد ملكَ قومه أجَلّ الممالك ، إلا أنه لم يعاين من الملك شيئاً ، إنما عاينه من بعده ومن تولى الأمر على أمته من خلفائه ، ورأيت صور أنبياء كثيرة منهم من قد أشار بيده جامعاً بين سبَّابته وإبهامه كالحلقة ، كأنه يصف أن الخليقة فى مقدار الحلقة ، ومنهم من قد أشار بسبابته نحو السماء كالمُرْهِبِ للخليقة بما فوق، وغير ذلك، ثم سألنى عن الخلفاء وزيهم وكثير من الشرائع، فأجبته على قدر ما أعلم منها، ثم قال : كم عمر الدنيا عندكم ؟ فقلت: قد تنوزع فى ذلك، فبعض يقول: ستة آلاف سنة، وبعض يقول: دونها، وبعض يقول : أكثر منها ، فقال : ذلك عن نبيكم ؟ فقلت : نعم ، فضحك ضحكاً كثيراً ووزيرُه أيضاً ، وهو واقف [دَلَّ] على إنكار ذلك ، وقال : ما حسبت نبيكم قال هذا ، فزلت فقلت : بلى هو قال ذلك، فرأيت الإنكار فى وجهه ،

(١) فى ا « ذكر أنسابهم » (٢) فى ا « نعال عدنية » .

ثم قال للترجمان : قل له ميز كلامك ؛ فإن الملوك لا تكلم إلا عن تحصيل ، أما زعمت أنكم تختلفون في ذلك، فإنكم إنما اختلفتم في قول نبيكم ، وما قالت الأنبياء لا يجب أن يختلف فيه ، بل هو مسلم لها، فاحذر هذا وشبهه أن تحكيه، وذكر أشياء كثيرة ذهبت عني لطول المدة، ثم قال لي: لم عدلت عن ملكك وهو أقرب إليك داراً ونسباً ؟ قلت: بما حدث على البصرة، ووقوعي إلى سيراف ، ونزعت بي همتي إلى ملكك أيها الملك ، لما بلغني من استقامة ملكك، وحسن سيرتك، وكثرة جنودك [وشمول سياستك لسائر رعيتك] فأحببت الوقوع إلى هذه المملكة ومشاهدتها ، وأنا راجع عنها إلى بلادي ، وملك ابن عمي، ومخبر بما شاهدت من جلالة هذا الملك ، وسعة هذه البلاد [وعموم هذا العدل، وحسن] شيمك أيها الملك المحمود ، وسأقول بكل قول حسن وأثني بكل جميل، فسرَّهُ ذلك ، وأمر لي بجائزة سنية ، وخلع شريفة ، وأمر بحملي على البريد إلى مدينة خانقوا ، وكتب إلى ملكها بإكرامي وتقديمي على من في ناحيته من سائر خواص الناس ، وإقامة النُّزُل إلى وقت خروجي عنه ، فكنت عنده في أخصب عيش وأنعمه ، إلى أن خرجت من بلاد الصين .

وصف مدينة حمدان

قال المسعودي: وأخبرني أبو زيد الحسن بن يزيد[(١)] السيرافي بالبصرة - وكان قد قطنها وانتقل عن سيراف ، وذلك في سنة ثلاث وثلثمائة، وأبو زيد هذا هو ابن عمر بن زيد بن محمد بن مزدبن ساسياد السيرافي[(٢)]، وكان الحسن بن يزيد من أهل التحصيل والتميز - أنه سأل ابن هبار هذا القرشي عن مدينة حمدان التي بها الملك وصفتها، فذكر سعتها، وكثرة أهلها ، وأنها مقسومة على قسمين يفصل بينهما شارع عظيم طويل عريض، فالملك ووزيره وقاضي القضاة وجنوده وخصيانه ، وجميع أسبابه في الشق الأيمن منه مما يلي المشرق لا يخالطهم أحد من العامة، وليس

(١) في ا « أبو زيد محمد بن يزيد السيرافي »
(٢) في ا « وهو ابن عم مزيد بن محمد بن أبرد بن بستاشة صاحب سيراف »

فيه شىء من الأسواق ، بل أنهار فى سككهم مطردة، وأشجار عليها منتظمة ، ومنازل فسيحة ، وفى الشق الأيسر مما يلى المغرب الرعية والتجار والميرة والأسواق فإذا وضح النهار رأيت فيها قهارمة الملك وغلمانه وغلمان وزرائه وو كلائهم ما بين راكب وراجل قد دخلوا إلى الشق الذى فيه العامة والتجار ، فأخذوا بضائعهم وحوائجهم، ثم انصرفوا فلا يعود واحد منهم إلى هذا الشق إلا فى اليوم الثانى ، وأن هذه البلدان فيها كل نزهة وغَيْضَة حسنة، وأنهار مُطَّردة إلا النخل فإنه معدوم عندهم.

مهارة أهل الصين

وأما أهل الصين فمن أَحْذَق خلق الله كفا بنقش وصنعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم ، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه ؛ فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة ، فإن لم يخرج أحد فيه عيباً أجاز صانعه وأدخله فى جملة صناعه ، وإن أخرج أحد فيه عيباً طرحه ولم يجزه، وأن رجلا منهم صور سنبلة سقط عليها عصفور فى ثوب حرير، لا يشك الناظر إليها أنها سنبلة سقط عليها عصفور ، فبقى الثوب مدة، وأنه اجتاز به رجل أَحْدَبُ، فعاب العمل ، فأدخل إلى الملك وأحضر صاحب العمل ، فسأل الأحدب عن العيب ، فقال : المتعارف عند الناس جميعاً أنه لا يقع عصفور على سنبلة إلا أمالها ، وصَوَّر هذا المصور السنبلة فنصبها قائمة لا مَيْلَ فيها ، وأثبت العصفور فوقها منتصبا، فأخطأ، فصدق الأحدب ، ولم يثب صاحبها بشىء ، وقَصْدُهم بهذا وشبهه الرياضة لمن يعمل هذه الأشياء ؛ ليضطرهم ذلك إلى شدة الاحتراز [والحذر] وإعمال الفكر فيما يصنعه كل واحد منهم بيده .

ولأهل الصين أخبار [عظيمة] عجيبة ، ولبلادهم أخبار ظريفة سنورد فيما يرد من هذا الكتاب جملا منها وإن كنا قد أتينا على سائر الأخبار من ذلك فى كتابنا «أخبار الزمان فى الأمم الماضية والممالك الداثرة» وذكرنا فى الكتاب الأوسط جملا لم نتعرض لذكرها فى كتاب « أخبار الزمان » [وربما] ذكرنا فى هذا الكتاب ما لم يتقدم ذكره فى ذينك الكتابين ، والله أعلم .

ذكر جمل من الأخبار عن البحار

وما فيها [وما حولها] من العجائب والأمم ، ومراتب الملوك
وأخبار الأندلس ، ومعادن الطيب وأصوله وعدد أنواعه ، وغير ذلك

قد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب جملا من ترتيب البحار المتصلة والمنفصلة، فلنذكر الآن فى هذا الباب جملا من أخبار ما اتصل بنا من البحر الحبشى والممالك والملوك ، وجملا من ترتيبها ، وغير ذلك من أنواع العجائب.

اضطراب بحر فارس وبحر الهند وهدوئهما

فنقول: إن بحر الصين والهند وفارس واليمن متصلة مياهُهَا غير منفصلة ، على ما ذكرنا ، إلا أن هيجانها وركودها مختلف ؛ لاختلاف مهاب رياحها وآثار ثورانها[1] وغير ذلك، فبحر فارس تكثر أمواجه ، ويصعب ركوبه ، عند لين بحر الهند واستقامة ركوبه وقلة أمواجه ، ويلين بحر فارس، وتقلُّ أمواجه ، ويسهل ركوبه ، عند ارتجاج بحر الهند ، واضطراب أمواجه وظلمته، وصعوبة مركبه، فأول ما تبتدىء صعوبة بحر فارس عند دخول الشمس السنبلة وقرب الاستواء الخريفى ، ولا يزال فى كل يوم تكثر أمواجه إلى أن تصير الشمس إلى برج الحوت، فأشدُّ [ما يكون] ذلك فى آخر الخريف عند كون الشمس فى القوس، ثم يلين إلى أن تعود الشمس إلى السنبلة ، وآخر ما يكون ذلك فى آخر الربيع عند كون الشمس فى الجوزاء ، وبحر الهند لا يزال كذلك إلى أن تصير الشمس إلى السنبلة فيركَبُ حينئذ، وأهدأ ما يكون عند كون الشمس فى القوس ، وبحر فارس يركَبُ فى سائر السنة من عُمَان إلى سيراف، وهو ستون ومائة فرسخ، ومن سيراف إلى البصرة وهو أربعون ومائة فرسخ، ولا يتجاوز فى ركوبه غير ما ذكرنا من هذين الموضعين ونحوهما، وقد حكى أبو معشر المنجم فى كتابه المترجم بالمدخل الكبير إلى علوم النجوم ما ذكرنا من اضطراب هذه البحار وهدوئها عند كون الشمس فيما ذكرنا

---

(١) فى ا « وإبان ثوراتها »

من البروج ، وليس يكاد يقطع من عمان نحو الهند فى اتهائه إلا مركب معزز ، وحمولته يسيرة، وتسمى هذه المراكب بعمان إذا قطعت أرض الهند فى هذا الوقت التيرماهية ، وذلك أن بلاد الهند وبحر الهند يكون فيه اليساره - وهو الشتاء - ودوام الأمطار فى كانون، وكانون وشباط عندنا صيف، وعندهم النساء، كما يكون عندنا الحر فى حزيران وتموز وآب ، فشتاؤنا صيفهم ، وصيفهم شتاؤنا[٢] ، وكذلك سائر مدن السند والهند وما اتصل بذلك إلى أقاصى هذا البحر ، ومن شتى فى صيفنا بأرض الهند قيل : فلان يسَّرَ بأرض الهند : أى شتى هنالك ، وذلك لقرب الشمس وبعدها .

الغوص على اللؤلؤ

والغَوْص على اللؤلؤ فى بحر فارس ، وإنما يكون فى أول نيسان إلى آخر أيلول ، وما عدا ذلك من شهور السنة فلا غَوْص فيها، وقد أتينا فيما سلف من كتبنا على سائر مواضع الغَوْص فى هذا البحر ؛ إذ كان ما عداه من البحار لا لؤلؤ فيه، وهو خاص بالبحر الحبشى من بلاد خارك وقطر وعمان وسرنديب وغير ذلك من هذا البحر ، وقد ذكرنا كيفية تكون اللؤلؤ، وتنازع الناس فى تكونه ، ومن ذهب منهم إلى أن ذلك من المطر ، ومن ذهب منهم إلى أن ذلك من غير المطر، وصفة صدف اللؤلؤ العتيق منه والحديث الذى يسمى بالمحار، والمعروف بالبلبل، واللحم الذى فى الصدف والشحم ، وهو حيوان يفزع على ما فيه من اللؤلؤ والدر خوفا من الغاصَةِ ، كخوف المرأة على ولدها، وقد أتينا على ذكر كيفية الغوص ، وأن الغاصَةَ لا يكادون يتناولون شيئاً من اللحمان إلا السمك والتمر ، وغيرهما من الأقوات ، وما يلحقهم ، وذكر شق أصول آذانهم لخروج النفس من هناك بدلا عن المنخرين ؛ لأن المنخرين يجعل عليهما شىء من الذبل وهو ظهور السلاحف البحرية التى تتخذ منها الأمشاط أو من القرن يضمهما

(١) فى ا « وليس يكاد يقطع من عمان بحر الهند فى تيرماه إلا مركب »

(٢) لو قال « فشتاؤنا صيفهم وشتاؤهم صيفنا » لكن خيرا

كالمشقاص لا من الخشب ، وما يجعل فى آذانهم من القطن فيه شىء من الدهن ، فيعصر من ذلك الدهن اليسير فى المـاء فى قعره ، فيضىء لهم بذلك فى البحر ضياء بينا ، وما يطلون به أقدامهم وَأسوَاقهم من السواد خوفا من بَلع دواب البحر إياهم ولنفورها من السواد ، وصياح الغاصة فى [قعر] البحر كالـكلاب ، وخرق الصوت المـاء فيسمع بعضهم صياح بعض ، وللغوّاص واللؤلؤ وحيوانه أخبار عجيبة وقد أتينا على جميع أوصاف ذلك وصفات اللؤلؤ وعلاماته وأثمانه ومقادير أوزانه فيما سلف من كتبنا .

فأول هذا البحر مما يلى البصرة والأبلة والبحرين من خشبات البصرة ، ثم بحر لاروى وعليه بلاد صيمور وسوبارة وتابة وسندان وكنباية[١] وغيرها من السند والهند ، ثم بحر هركند[٢] ، ثم بحر كلاه ، وهو بحر كلة والجزائر ، ثم بحر كردنج[٣] ، ثم بحر الصنف ، وإليه يضاف العود الصنفى وإلى بلاده ، ثم بحر الصين وهو بحر صنجى[٤] ليس بعده بحر ، فأول بحار فارس على ما ذكرنا خشبات البصرة والموضع المعروف بالـكفلاء[٥] وهى علامات منصوبة من خشب فى البحر مغروسة علامات للمراكب إلى عمان مسافة ثلاثمائة فرسخ ، وعلى ذلك ساحل فارس وبلاد البحرين ، ومن عمان وقصبتها تسمى سنجار[٦] ، والفرس يسمونها مزون إلى المسقط ، وهى قرية منها يستقى أرباب المراكب المـاء من آبار هناك عذبة خمسون فرسخا ، ومن المسقط إلى رأس الجمجمة خمسون فرسخا ، وهذا آخر بحر فارس ، وطوله أربعمائة فرسخ ، هذا تحديد النواتية[٧] وأرباب المراكب ، ورأس الجمجمة جبل متصل ببلاد اليمن من أرض الشِّحْر والأحقاف ، والرمل منه تحت البحر ، لا يدرى أين تنتهى غايته فى المـاء

(١) فى ب « حمور وسر بارة وثانية وسنوار وكسانة »
(٢) فى ب « بحر دوكيد »	(٣) فى ب « كوريح »
(٤) فى ب « وهو بحر صيحو »	(٥) فى ا « المعروف بالـكنكلا »
(٦) فى ا « تسمى صحار »	(٧) فى ب « النواتى »

[أعنى الجبل المعروف برأس الجمجمة ، وإذا كان ما وصفنا من الجبل فى البر ومنه تحت البحر سمى فى البحر الرومى سفالة ، من تلك السفالة فى الموضع المعروف بساحل سلوقيا من أرض الروم ، واتصالها تحت البحر بنحو من جزيرة قبرص ، وعليها عطَبُ أكثر مراكب الروم وهلاكها ، وإنما نعبر بلغة أهل كل بحر وما يستعملونه فى خطابهم فيما يتعارفونه بينهم[1] ، فمن هنالك تنطلق المراكب إلى البحر الثانى وهو المعروف بلاروى ولا يُدْرى عمقه ولا يحصر طوله وعرضه عند البحريين، وربما يقطع فى الشهرين والثلاثة وفى الشهر ، على قدر مهاب الريح والسلامة ، وليس فى هذه البحار — أعنى ما احتوى عليه البحر الحبشى — أكبر من هذا البحر بحر لا روى ، ولا أشد ، وفى عرضه بحر الزنج وبلادهم ، وعنبر هذا البحر قليل ، وذلك أن العنبر أكثره يقع إلى بلاد الزنج وساحل الشِّحْر من أرض العرب ، وأهل الشحر أناس من قضاعة وغيرهم من العرب ، وهم مَهْرة ، ولغتهم بخلاف لغة العرب ، وذلك أنهم يجعلون الشين بدلا من الكاف ، مثال ذلك أن يقولوا : هل لَشِ فيما قُلْت لَشِ ، وقلت لى : أن تجعلى الذى معى فى الذى مَعَشِ ، يريد هل لك فيما قلت لك ، وقلت لى أن تجعلى الذى معى فى الذى معك ، وغير ذلك من خطابهم ونوادر كلامهم ، وهم ذوو فقر وفاقة ، ولهم نُجُبٌ يركبونها بالليل نعرف بالنجب المَهْرِيَّة تشبه فى السرعة بالنجب البجاوية ، بل عند جماعة أنها أسرع منها ، يسيرون عليها على ساحل بحرهم ، فإذا أحسَّتْ هذه النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه ، قد رِيضَتْ لذلك واعتادته ، فيتناوله الراكب ، وأجود العنبر ما وقع فى هذه الناحية وإلى جزائر الزنج[2] وساحله ، وهو المدور الأزرق النادر[3] كبيض النعام أو دون ذلك ، ومنه ما يبلعه الحوت المعروف بالأوال[4] المقدم ذكره ، وذلك أن البحر إذا اشتد قذف من

العنبر

(١) زيادة ليست فى ب
(٢) فى ب « وجزائر الرانج »
(٣) فى ب « البارز »
(٤) ب « بالأفال »

قعره العنبر كقطع الجبال وأصغر ، على ما وصفنا ، فإذا ابتلع هذا الحوت العنبر قتله فيطفو فوق الماء ، ولذلك أناس يرصدونه فى القوارب من الزنج وغيرهم ، فيطرحون فيه الكلاليب والحبال ، فيشقون عن بطنه ويستخرجون العنبر منه ، فما يخرج من بطنه يكون سَهِكاً[1] ، ويعرفه العطارون بالعراق وفارس بالند[2] ، وما بقى على ظهر الحوت منه كان نقياً جيداً ، على حسب لبثه فى بطن الحوت ، وبين البحر الثالث — وهو هركند — والبحر الثانى — وهو لاروى — على ما ذكرنا جزائر كثيرة ، وهى فرز[3] بين هذين البحرين ، ويقال : إنها نحو من ألفى جزيرة ، وفى قول المحق ألف وتسعمائة جزيرة كلها عامر بالناس ، ومملكة هذه الجزائر كلها امرأة ، وبذلك جرت عادتهم من قديم الزمان لا يملكهم رجل ، والعنبر يوجد فى هذه الجزائر أيضاً ، يقذفه البحر ، ويوجد فى بحرها ، كأكبر ما يكون من قطع الصخر ، وأخبرنى غير واحد من نَوَاخذة السيرافيين والعمانيين بعمان وسيراف وغيرها من التجار ممن كان يختلف إلى هذه الجزائر أن العنبر ينبت فى قعر هذا البحر ، ويتكون كتكون أنواع الفطر : من الأبيض ، والأسود ، والكمأة [والمغاريد ، وبنات أَوْبَرَ] ونحوها ، فإذا هاج البحر واشتد قذف من قعره الصخور والأحجار وقطع العنبر ، وأهل هذه الجزائر متفقون ، وكلمتهم واحدة ، ولا يحصرهم العد لكثرتهم ، ولا تحصى جيوش هذه الملكة عليهم ، وبين الجزيرة والجزيرة نحو الميل والفرسخ والفرسخين والثلاثة ، ونخلهم شجر النارجيل ، لا يفقد من النخلة إلا التمر ، وقد زعم أناس ممن عنى بتولدات الحيوان وتطعيم الأشجار أن النارجيل هو نخل المقل ، وإنما أثرت فيه تربة الهند حين غرس فيها فصار نارجيلا ، وإنما هو نخل المقل ، وقد ذكرنا فى كتابنا المترجم

---

(١) فى ب « يكون سمكا » (٢) فى ب « وفارس والهند »

(٣) فى ب « وهى قرى بين هذين البحرين »

تأثير البيئة

بالقضايا والتجارب ما تؤثره كل بقعة من بقاع الأرض وهوائها فى حيوانها من الناطقين وغيرهم ، وما تؤثر البقاع فى النامى من النبات ، وفيما ليس بنام ، كتأثير أرض الترك فى وجوههم وصغر أعينهم ، حتى أثر ذلك فى جمالهم ، فقصرت قوائمها ، وغلظت رقابها ، وابيض وبرها ؛ وأرض يأجوج ومأجوج فى صورهم ، وغير ذلك ، مما إذا تبينه ذوو المعرفة فى سكان الأرض من المشرق والمغرب وجدوه على ما ذكرناه ؛ وليس يوجد فى جزائر البحر ألطف صنعة من [أهل] هذه الجزائر فى سائر المهن والصنائع، فى الثياب والآلات وغير ذلك ، وبيوت أموال هذه الملكة الودع ، وذلك أن هذا الودع فيه نوع من الحيوان ، وإذا قل مالها أمرت أهل هذه الجزائر أن يقطعوا من سعف نخل النارجيل بخوصه، ويطرحونه على وجه الماء ، فيتراكب عليه ذلك الحيوان ، فيجمع ويطرح على رمل الساحل ، فتحرق الشمس ما فيه من الحيوان ، ويبقى الودع خالياً مما كان فيه ، فتملأ من ذلك بيوت الأموال ، وهذه الجزائر تعرف جميعها بالدبيجات(1) ومنها يحمل أكثر الزانج(2) ، وهو النارجيل ، وآخر هذه الجزائر جزيرة سرنديب ، ويلى جزيرة سرنديب جزائر أخر نحو من ألف فرسخ تعرف بالرامين معمورة وفيها ملوك وفيها معادن من ذهب كثيرة ، ويليها بلاد قنصور وإليها يضاف الكافور القنصورى ، والسنة التى تكون كثيرة الصواعق والبروق والرجف والقذف والزلازل يكثر فيها الكافور ، وإذا قل ذلك كان نقصاناً فى وجوده ، وأكثر ما ذكرنا من الجزائر غذاؤهم النارجيل ، ويحمل من هذه الجزائر خشب البقم والخيزران والذهب ، وفيلتها كثيرة ، ومنها ما يأكل لحوم الناس ، وتتصل هذه الجزائر بجزائر النجبالوس(3) ، وهى أمم عجيبة الصور عراة يخرجون فى القوارب عند اجتياز المراكب بهم ، معهم العنبر والنارجيل ، فيتعاوضون بالحرير وشىء

(١) فى ا « بالدبيهات » (٢) فى ب « الرانج »

(٣) فى ب « وتتصل هذه الجزائر بالحابوس »

من الثياب ، ولا يبيعون ذلك بالدراهم ولا بالدنانير ، ويليهم جزائر يقال لها أنداماان ، فيها أناس سود عجيبو الصورة والمنظر [مفلفلو الشعور] وقَدَمُ الواحد منهم أكبر من الذراع ، لامراكب لهم ، فإذا وقع الغريق إليهم مما قد انكسر في البحر أكلوه ، وكذلك فعلهم بالمراكب إذا وقعت إليهم ، وذكر لي جماعة من النواخذة أنهم ربما رأوا في هذا البحر سحاباً أبيض قطعاً صغاراً يخرج منه لسان أبيض طويل حتى يتصل بماء البحر ، فإذا اتصل به غلا البحر لذلك ، وارتفعت منه زوابع عظيمة ، لا تمر زوبعة [منها] بشيء إلا أتلفته ، ويُمْطَرون عقيب ذلك مطراً سهكاً فيه أنواع من قذى البحر .

بحر كلة

وأما البحر الرابع فهو كلاهبار ، على حسب ماذكرنا ، وتفسير ذلك بحر كلة، وهو بحر قليل الماء، وإذا قل ماء البحر كان أكثر آفات وأشد خبثاً ، وهو كثير الجزائر والصراوى[(١)] ، واحدها صرو ، وذلك أن أهل المراكب يسمون ما بين الخليجين إذا كان طريقهم فيه الصرو ، وبهذا البحر أنواع من الجزائر والجبال عجيبة ، وإنما غرضنا التلويح بلمع من الأخبار عنها ، لا البَسْط.

بحر كردنج

وكذلك البحر الخامس المعروف بكردنج[(٢)] ، فإنه كثير الجبال والجزائر، وفيه الكافور ، وهو قليل الماء كثير المطر ، لا يكاد يخلو منه ، وفيه أجناس من الأمم منهم جنس يقال له الفنجب[(٣)] : شعورهم مفلفلة وصورهم ومناظرهم عجيبة ، يتعرضون في قوارب لهم لطاف المراكب إذا اجتازت بهم، ويرمون بنوع من السهام عجيبة قد سُقِيت السم ، وبين هذه الأمة وبين بلاد كلة جبال معادن الرصاص الأبيض وجبال من الفضة ، وفيها أيضاً معادن من الذهب ، ورَصَاص لا يكاد يتميز [منه] .

بحر الصنف

ثم يليه بحر الصنف على ما رسمناه آنفاً ، وفيه مملكة المهراج ملك الجزائر، ومُلكه لا يضبط كثرة ، ولا تحصى جنوده ، ولا يستطيع أحد من الناس في

---

(١) ا « الجزائر والصرائر واحدها صر »

(٢) في ب « المعروف بكردع » (٣) في ب « يقال لهم الفخت »

أسرع ما يكون من المراكب أن يمر بجزائره فى سنين[١] ، وقد حاز هذا الملك أنواع الطيب والأفاويه ، وليس لأحد من الملوك ماله ، ومما يحمل من بلاده ويجهز من أرضه الكافور والعود والقرنفل والصَّنْدَل والجوز والبسباسة والقاقلة والكبابة وغير ذلك مما لم نذكره ، وجزائره تتصل ببحر لا تدرك غايته ، ولا يعرف منتهاه مما يلى بحر الصين ، وفى أطراف جزائره جبال فيها أمم كثيرة بيض ، آذانهم مخرمة ووجوههم كقطع التراس مُطْرَقة ، يجزُّون شعورهم كما يجز الشعر من الزق مدرجا ، تظهر من جبالهم النار بالليل والنهار ، فنهارها حمراء وبالليل تسود ، وتلحق بعنان السماء لعلوها وذهابها فى الجو ، تقذف بأشد ما يكون من صوت الرعد والصواعق ، وربما يظهر منها صوت عجيب مفزع ينذر بموت ملكهم ، وربما يكون أخفض من ذلك فينذر بموت بعض رؤسائهم ، قد عرف ماينذر من ذلك بطول العادات والتجارب على طول السنين[٢] ، وأن ذلك غير مختلف ، وهذه أحد آطام الأرض الكبار ، وتليها الجزيرة التى يسمع منها على دوام الأوقات أصوات الطبول والسرنايات والعيدان وسائر أنواع الملاهى المطربة المستلذة ، ويسمع إيقاع الرقص والتصفيق ، ومن يسمع ذلك يميز بين كل نوع من أصوات الملاهى وغيره ، والبحريون ممن اجتاز بتلك الديار يزعمون أن الدجال بتلك الجزيرة .

وفى مملكة المهراج جزيرة سريرة ، ومسافتها فى البحر نحو من أربعمائة فرسخ ، عمائر متصلة ، وبه جزيرة الزانج والرامنى[٣] وغير ذلك مما لا يؤتى على ذكره من جزائره وملكه ، وهو صاحب البحر السادس ، وهو بحر الصنف.

بحر الصين

ثم البحر السابع وهو بحر الصين على مارتبناه آنفاً ، ويعرف ببحر صنجي[٤] . وهو بحر خبيث كثير الموج والخب ، وتفسير الخب الشدة العظيمة فى البحر ، وإنما نخبر عن عبارة أهل كل بحر ومايستعملونه فى خطابهم ، وفيه جبال كثيرة لابد

(١) فى ا « فى ستين » (٢) فى نسخة « على قديم الزمان » .
(٣) فى ب « الرانج والرامى » (٤) فى ب « بحر صبحى »

المراكب من النفوذ بينها ، وذلك أن البحر إذا عظم خبه وكثر موجه ظهرت أشخاص سود طول الواحد منهم نحو الخمسة أشبار أو الأربعة كأنهم أولاد الأحابيش الصغار ، شكلا واحداً ، وقداً واحداً ، فيصعدون على المراكب ، ويكثر منهم الصعود من غير ضرر ؛ فإذا شاهد الناس ذلك تيقنوا الشدة ، فإن ظهورهم علامة للخب ، فيستعدون لذلك : فمعافى ، ومبتلى ، فإذا كان كذلك . ربما شاهد المعافى منهم فى أعلى الدقل ـ ويسميه أرباب المراكب فى بحر الصين وغيره من البحر الحبشى الدولى ، ويسميه الرجال فى البحر الرومى الصارى ـ شيئاً على صورة الطائر يتوقد نوراً لا يستطيع الناظر منهم على [ملء] بصره منه ، ولا إدراكه كيف هو ، فإذا استقل على أعلى الدقل يرون البحر يهدأ ، والأمواج تصغر ، والخب يسكن ، ثم إن ذلك النور يفقد ؛ فلا يدرى كيف أقبل ، ولا كيف ذهب ، فذلك علامة الخلاص ، ودليل النجاة ، وما ذكرنا فلا تناكر فيه عند أهل [المراكب والتجار من أهل] البصرة وسيراف وعمان وغيرهم ممن قطع هذا البحر ، وما ذكرناه عنهم فممكن غير ممتنع ولا واجب ؛ إذ كان جائزاً فى مقدور البارى جَلّ وعز خلاص عباده من الهلاك واستنقاذهم من البلاء .

وفى هذا البحر نوع من السراطين يخرج من البحر كالذراع والشبر وأصغر من ذلك وأكبر ، فإذا بان عن الماء بسرعة حركة وصار على البر صار حجارة وزالت عنه الحيوانية ، وتدخل تلك الحجارة فى أكحال العين وأدويتها ، وأمره مستفيض أيضاً .

ولبحر الصين أيضاً ـ وهو السابع المعروف بصنجى ـ أخبار عجيبة ، وقد أتينا على جمل من أخباره وأخبار ما اتصل به من البحار فيما سمينا من كتبنا وأسلفنا من تصنيفنا فى هذا المعنى ، ونحن ذاكرون فيما يرد من هذا الكتاب من أخبار الملوك جوامع وجملا من ذلك .

وليس بعد بلاد الصين مما يلى البحر ممالك تعرف ولا توصف ، إلا بلاد

السيلى[1] وجزائرها ، ولم يصل إليها من الغرباء أحد من العراق ولا غيره ، فخرج منها؛ لصحة هوائها ، ورقة مائها، وجودة تربتها، وكثرة خيرها [وصفاء جواهرها] إلا النادر من الناس ، وأهلها مهادنون لأهل الصين وملوكها ، والهدايا بينهم لا تكاد تنقطع ، وقد قيل : إنهم تشعبوا من ولد عامور ، وسكنوا هناك، على حسب ما ذكرنا من سكنى أهل الصين فى بلادهم ، وللصين أنهار كبار مثل الدجلة والفرات ، تجرى من بلاد الترك والتبت والصغد ، وهى بين بخارى وسمرقند،

جبال النوشادر

وهنالك جبال النوشادر ، فإذا كان فى الصيف رؤيت فى الليل نيران قد ارتفعت من تلك الجبال من نحو مائة فرسخ بالنهار يظهر منها الدخان لغلبة شعاع الشمس وضوء النهار ، ومن هناك يحمل النوشادر ، فإذا كان فى أول الشتاء[2] فمن أراد من بلاد خراسان أن يسلك إلى بلاد الصين صار إلى ما هنالك — وهنالك واد بين تلك الجبال طوله أربعون ميلا أو خمسون — فيأتى إلى أناس هنالك على فم الوادى فيرغبهم فى الأجرة النفيسة فيحملون ما معه على أكتافهم ، وبأيديهم العصى يضربون جنبيه خوفا أن يبلح أو يقف فيموت من كرب الوادى وهوله، حتى يخرجوا إلى ذلك الرأس من الوادى، وهنالك غابات ومستنقعات الماء، فيطرحون أنفسهم فى ذلك الماء ، لما قد نالهم من شدة الكرب وحر النوشادر ، ولا يسلك ذلك الطريق شىء من البهائم، لأن النوشادر يلتهب ناراً فى الصف ، فلا يسلك ذلك الوادى داع ولا مجيب، فإذا كان الشتاء وكثرت الثلوج والأنداء وقع فى دلك الموضع فأطفأ حر النوشادر ولهيبه ، فسلك الناس حينئذ ذلك الوادى ، والبهائم لا صبر لها على ما ذكرناه من حره ، وكذلك من ورد من بلاد الصين فُعِل به من الضرب ما فعل بالمار ، والمسافة من بلاد خراسان على الموضع الذى ذكرناه إلى بلاد الصين نحو من أربعين يوما بين عامر وغير عامر ودماس ورمل ، وفى غير هذه الطريق مما يسلكه البهائم نحو من أربعة أشهر ، إلا أن ذلك فى خفارات أنواع من الترك .

(١) فى ب « السلى » (٢) فى ا « فإذا كان فى الصيف » هنا أيضا .

وقد رأيت بمدينة بلخ شيخاً جميلا ذا رأى وفهم وقد دخل الصين مراراً كثيرة ولم يركب البحر قط ، ورأيت عدة من الناس ممن سلك [من بلاد الصغد] على جبال النوشادر إلى أرض التبت والصين ببلاد خراسان[وبلاد الهند متصل ببلاد خراسان] والسند مما يلى بلاد المنصورة والمولتان ، والقوافل متصلة من السند إلى خراسان ، وكذلك إلى الهند ، إلى أن تتصل هذه الديار ببلاد زابلستان ، وهى بلاد واسعة تعرف بمملكة فيروز بن كبك ، وفيها قلاع عجيبة ممتنعة ، ولغات مختلفة ، وأمم كثيرة ، وقد تنازع الناس فى أنسابهم : فمنهم من ألحقهم بولد يافث ابن نوح ، ومنهم من ألحقهم بالفرس الأولى فى نسب طويل ، وبلاد التبت مملكة متميزة من بلاد الصين، والغالب عليهم حِمْيَر ، وفيهم بعض التبابعة على حسب ما ذكرنا من أخبار ملوك اليمن فيما يرد من هذا الكتاب ، وذلك موجود فى أخبار التبابعة ، ولهم حَضَرٌ وَبَدْو ، وبواديهم ترك لا تدرك كثرة ، ولا يقاومهم أحد من بوادى الأتراك ، وهم معظمون فى سائر أجناس الترك ؛ لأن الملك كان منهم فى قديم الزمان ، وعند سائر أجناس الترك أن الملك سيعود إليهم [ويرجع فيهم] ولبلاد التبت خواص عجيبة فى هوائها وسهلها ومائها وجبلها ، ولا يزال الإنسان أبداً ضاحكا بها فرحا مسروراً ، لا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار ، ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وهوائها وأنهارها ، وهى بلاد تقوى فيها طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره ، ولا يكاد يُرَى فى هذا البلد شيخ حزين ولا عجوز ، بل الطرب فى الشيوخ والكهول والشباب والأحداث عام ، وفى أهلها رقة طبع وبشاشة وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهى [والمعاقرة] وأنواع إيقاع الرقص ، حتى إن الميت إذا مات لا يكاد يداخل أهله عليه كثير من الحزن مما يلحق غيرهم من سائر الناس عند فقد محبوب أو فوت مطلوب ، ولهم تحنن كثير من بعضهم على بعض، والتتيم (١)

وصف بلاد التبت

(١) التتيم : العشق ، ووقع فى ا « التيتم » محرفا .

فيهم عامٌّ ، وكذلك يظهر فى سائر بلادهم ، وهذه البلاد تسمى بمن ثبت فيها ورتب من رجال حمير فقيل تبت[1] لثبوتهم فيها ، وقيل : لمعانٍ غير ذلك، والأشهر ما وصفنا ، وقد افتخر دعبل بن على الخزاعى بذلك فى قصيدته التى يناقض فيها الكميت ويفخر بقحطان على نزار ، فقال :

وهم كتَبُوا الكتاب بباب مَرْوٍ وباب الصين كانوا الكاتبينا

وهم سمّــوا السهام بسمرقند وهم غرسوا هناك التبتينا

وسنذكر فى باب أخبار ملوك اليمن طرفا من أخبار ملوكهم ، ومن طاف منهم البلاد ، وبلاد التبت متاخمة لبلاد الصين وأرضها من إحدى جهاته ، ولأرض الهند وخراسان ولمفاوز الترك ، ولهم مدن وعمائر كثيرة ذوات مَنَعَة وقوة ، وقد كانوا فى قديم الزمان يسمون ملوكهم تُبَّعًا اتِّباعًا لاسم تبع ملك اليمن ، ثم إن الدهر ضرب ضرباته ، فتغيرت لغاتهم عن الحميرية ، وحالت إلى لغة تلك البلاد ممن جاورهم من الأمم فسموا ملوكهم بخاقان ،

ظباء المسك

وفى بلادهم الأرض التى بها ظباء المسك التبتى الذى يفضل على الصينى بجهتين : إحداهما أن ظباء التبت ترعى سنبل الطيب وأنواع الأفاويه وظباء الصين ترعى الحشيش دون ما ذكرنا من أنواع حشائش الطيب التى ترعاه التبتية ، والجهة الأخرى أن أهل التبت لا يتعرضون لإخراج المسك من نوَافجه ويتركونه على ماهو به وأهل الصين يخرجونه من النوافج ويلحقونه الغش بالدم وغيره من أنواع الغش ، وأن الصينى أيضاً يقطع به ما وصفنا من مسافة البحار وكثرة الأنداء واختلاف الأهوية ، وإنْ عُدِم من أهل الصين الغش فى مسكهم وأودع برانى الزجاج وأحكم عِفاصها ووكاؤها ، وأورد إلى بلاد الإسلام من عمان وفارس والعراق وغيرها من الأمصار ، كان كالتبتى ، وأجود المسك وأطيبه ما خرج من الظباء بعد بلوغه النهاية فى النضج ، وذلك أنه لا فرق بين غزلاننا هذه وبين

(١) اسم البلاد تبت ــ بالتاء المثناة ــ ولكن هذا الاشتقاق يجعلها بالثاء المثلثة

غزلان المسك فى الصورة والشكل واللون والقرن ، وإنما تتبين تلك بأنياب لها كأنياب الفِيَلَة ، لكل ظبى نابان خارجان من الفكين قائمان منتصبان [أبيضان] نحو الشبر وأقل وأكثر ، فتنصب لها فى بلاد التبت [والصين] الحبائل والأشراك وَالشِّبَاك فيصطادونها ، وربما رموها بالسهام فيصرعونها فيقطعون عنها نوافجها والدم فى سرزها حار[1] لم ينضج وطرى لم يدرك ، فيكون لريحته سهوكة ، فيبقى زماناً حتى تزول منه تلك الرائحة [السهكة] الكريهة ، ويستحيل بمواد من الهواء فيصير مسكاً ، وسبيل ذلك سبيل الثمار إذا أبينت عن الأشجار وقطعت قبل استحكام نضجها فى شجرها واستحكام موادها فيه ، وخير المسك ما نضج فى وعائه ، وأدرك فى سرته ، واستحكم فى حيوانه ، وتمام مواده ، وذلك أن الطبيعة تدفع مواد الدم إلى السرة ، فإذا استحكم كون الدم فيها ونضج آذاه ذلك وَحَكَّهُ فيفزع حينئذ إلى أحد الصخور والأحجار الحارة من حر الشمس فيحتك بها مستلذا بذلك فينفجر حينئذ ويسيل على تلك الأحجار كانفجار الْخُرَاج وَالدُّمَّل إذا نضج مافيه عند ترادف المواد عليه فيجد لخروجه لذة ، فإذا فرغ مافى نافجته اندمل حينئذ ، ثم اندفعت إليه مواد من الدم ، ويجتمع ثانية ككونها بَدْءًا ، فتخرج رجال التبت يقصدون مراعيها بين تلك الأحجار والجبال ، فيجدون الدم قد جف على تلك الصخور والأحجار ، وقد أحكمته المواد ، وأنضجته الطبيعة فى حيوانه ، وَجَفَّفَتَه الشمس ، وأثر فيه الهواء ، فيأخذونه ، فذلك أفضل المسك ، فيودعونه نوافج معهم قد أخذوها من غزلان قد اصطادوها مستعدة معهم ؛ فذلك الذى تستعمله ملوكهم ويتهادونه بينهم ، ويحمله التجار فى النادر من بلادهم ، والتبت ذو مدن كثيرة ، فيضاف مسك كل ناحية إليها .

قال المسعودى : وقد أقرت ملوك الصين والترك والهند والزنج وسائر ملوك

(١) فى ا « خام لم ينضج » .

العالم لملك بابل بالتعظيم، وأنه أول ملوك العالم ، وأن منزلته فيهم كمنزلة القمر فى الكواكب ؛ لأن إقليمه أشرف الأقاليم ، ولأنه أكثر الملوك مالا ، وأحسنهم طبعاً ، وأكثرهم سياسة ، وأثبتهم قدماً ، وهذا وصف ملوك هذا الإقليم فيما مضى ، لا فى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وكانوا يلقبون هذا الملك شاهنشاه ، وتفسيره ملك الملوك ، ومنزلته فى العالم منزلة القلب من جسد الإنسان والواسطة من القلادة ، ثم يتلوه ملك الهند ، وهو ملك الحكمة ، وملك الفِيَلَة ؛ لأن عند الملوك الأكاسرة أن الحكمة من الهند بدؤها ، ثم يتلوه فى المرتبة ملك الصين ، وهو ملك الرعاية والسياسة وإتقان الصنعة ، وليس فى ملوك العالم أكثر رعاية وتفقداً من ملك الصين لرعيته من جنده وعوامه ، وهو ذو بأس شديد ، وقوة وَمَنَعَة ، له من الجنود المستعدة ، والكراع والسلاح ، ويرزق جنده كفعل ملوك بابل ، ثم يتلو ملك الصين ملك من ملوك الترك صاحب مدينة كوشان ، وهو ملك الطغزغز[1] من الترك ، ويدعى ملك السباع وملك الخيل ؛ إذ ليس فى ملوك العالم أشد بأساً من رجاله ، ولا أشد استئساداً منه على سفك الدماء ، ولا أكثر خيلا منه ، ومملكته فرز بين بلاد الصين ومفاوز خراسان ، ويدعى بالاسم الأعم أيرخان[2] ، وللترك ملوكٌ كثيرة ، وأجناس مختلفة ، ولا تنقاد إلى ملكه ، إلا أنه ليس منهم من يُدَانِي ملكه ، ثم يتلوه ملك الروم ، ويدعى ملك الرجال ، وليس فى ملوك العالم أصبح [وجوهاً] من رجاله ؛ ثم إن ملوك العالم تتفاوت مراتبها ولا تتساوى ، وقد قال ذو عناية بأخبار العالم وملوكهم فى شعر له يصف جملا من مراتب ملوك العالم وممالكهم وأسمائهم :

الدار داران : إيوان، وغمدان ، والملك مُلْكَان : ساسان ، وقحطان
والأرض فارس ، والإقليم بابل ، والإسلام مكة ، والدنيا خراسان

(١) فى ب هنا وفيما تقدم « الطغر غر » . (٢) فى ب « أبرجان » محرفا

والجانبان العليان اللذا حسنا · منها بخارى وبلخ الشاهدا ران
[والبيلقان وطبرستان فارزها والرى شروانها والجيل جيلان][١]
قد رتّب الناس فيها فى مراتبهم فرزبان ، وبطريق ، وطرخان
للفرس كسرى وللروم القياصر والـ حبش النجاشىُّ ، والأتراك خاقان

وصاحب صقلية وإفريقية من بلاد المغرب قبل ظهور الإسلام كان يدعى جرجير[٢] وصاحب الأندلس [كان] يدعى لذريق ، وهذا كان اسم [سائر] ملوك الأندلس ، وقد قيل : إنهم كانوا من الأشبان ، وهم أمة من ولد يافث بن نوح ، دثرت[٣] هنالك، والأشهر عند من سكن الأندلس من المسلمين أن لذريق كان من [ملوك الأندلس] الجلالقة ، وهم نوع من الإفرنجة ، وآخر لذريق الذى كان بالأندلس قتله طارق مولى موسى بن نصير حين افتتح بلاد الأندلس ودخل إلى مدينة طليطلة [وكانت قصبة الأندلس ، و] دار مملكتهم، ويشقها نهر عظيم يدعى تاجة يخرج من بلاد الجلالقة والوشكند[٤] ، وهى أمة عظيمة لهم ملوك ، وهم حَرْب لأهل الأندلس كالجلالقة والإفرنجة ، ويصب هذا النهر فى البحر الرومى، وهو موصوف بأنه من أنهار العالم ، وعليه على بعد من طليطلة مدينة طلبيرة، ثم قنطرة عظيمة تدعى قنطرة السيف بنتها الملوك السالفة ، وهى من البنيان المذكور الموصوف [وإنها] أعجب [عقوداً] من قنطرة سنجة من الثغر الخزرى[٥] مما يلى سميساط من بلاد سرجة ، ومدينة طليطلة ذات منعة عليها أسوار منيعة ، وأهلها بعد أن فتحت وصارت لبنى أُمية قد كانوا عصَوْا على الأمويين ، فأقامت مدة سنين ممتنعة ، لاسبيل للأمويين إليها ، فلما كان بعد الخمس عشرة وثلثمائة فتحها عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن ابن [الحكم بن] هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان

مدينة طليطلة

(١) سقط هذا البيت من ا .
(٢) فى ا « يدعى جرجس » . (٣) فى ب « واتصلت هنالك » .
(٤) فى ب « والوسكيد » . (٥) فى ا « من الثغر المضرى » .

ابن الحكم [الأموى] وعبد الرحمن هذا هو صاحب الأندلس فى هذا الوقت، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، وقد كان غَبَّرَ كثيراً من بنيان هذه المدينة حين افتتحها ، وصارت دار مملكة الأندلس قرطبة إلى هذا الوقت، ومن قرطبة إلى مدينة طليطلة نحو من سبع مراحل ، ومن قرطبة إلى البحر مسيرة نحو من ثلاثة أيام ، ولهم على يوم من ساحل البحر مدينة يقال لها إشبيلية ، وبلاد الأندلس يكون مسيرة عمائرها ومدنها نحواً من شهرين ، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة ، وتدعى بنو أمية بها ببنى الخلائف ، ولا يخاطبون بالخلفاء؛ لأن الخلافة لا يستحقها عندهم إلا من كان مالكا للحرمين ، غير أنه يخاطب بأمير المؤمنين .

بنو أمية بالأندلس

وقد كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان سار إلى الأندلس فى سنة تسع وثلاثين ومائة فملكها ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر ، ثم هلك ، فملكها ابنه هشام بن عبد الرحمن سبع سنين ، ثم ملكها ابنه الحكم بن هشام نحواً من عشرين سنة ، وولدُه وُلاتُهَا إلى اليوم على ما ذكرنا أن صاحبها عبد الرحمن بن محمد ، وولىُّ عهد عبد الرحمن فى هذا الوقت فتاه الحكم أحسن الناس سيرة ، وأجملهم عدلا ، وقد كان عبد الرحمن صاحب الأندلس فى هذا الوقت المقدم ذكره غزا سنة سبع وعشرين وثلثمائة فى أزيد من مائة ألف فارس من الناس ، فنزل على دار مملكة الجلالقة ، وهى مدينة يقال لها سمورة ، عليها سبعة أسوار من عجيب البنيان قد أحكمتها الملوك السالفة ، بين الأسوار فصلان وخنادق ومياه واسعة ، فافتتح منها سورين ، ثم إن أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم — ممن أدرك الإحصاء وممن عُرِفَ — أربعين ألفاً ، وقيل : خمسين ألفاً ، وكانت للجلالقة والوشكند على المسلمين ، وآخر ما كان بأيدى المسلمين من مدن الأندلس ونغورها مما يلى الإفرنجة مدينة أربونة، خرجت من أيدى المسلمين سنة ثلاثين وثلاثمائة مع غيرها مما كان فى أيديهم من المدن والحصون ، وبقى ثغر المسلمين فى هذا الوقت ــ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ــ من شرقى الأندلس

طَرْطوشة ، وعلى ساحل بحر الروم مما يلي طرطوشة آخذاً فى الشمال أفراغة على نهر عظيم ، ثم لاردة ، ثم بلغنى عن هذه الثغور أنها تلاقى الإفرنجة ، وهى أضيق مواضع الأندلس ، وقد كان قبل الثلثمائة ورد إلى الأندلس مراكب فى البحر فيها ألوف من الناس أغارت على سواحلهم ، زعم أهل الأندلس أنهم ناس من المجوس تطرأ إليهم[1] فى هذا البحر فى كل مائتين من السنين ، وأن وصولهم إلى بلادهم من خليج يعترض من بحر أوقيانوس ، وليس بالخليج الذى عليه المنارة النحاس ، وأرى — والله أعلم — أن هذا الخليج متصل ببحر مايطس ونيطس[2] وأن هذه الأمة هم الروس الذين قدمنا ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب ؛ إذ كان لا يقطع هذه البحار المتصلة ببحر أوقيانوس غيرهم ، وقد أصيب فى البحر الرومى فيما بين جزيرة أقريطش ألواح المراكب الساج المثقبة المخيطة بليف النارجيل من مراكب قد عطبت تقاذفت بها الأمواج فى مياه البحار ، وهذا لا يكون إلا فى البحر الحبشى ؛ لأن مراكب البحر الرومى والعرب كلها ذوات مسامير ، ومراكب البحر الحبشى لا يثبت فيها الحديد ؛ لأن ماء البحر يذيب الحديد فترق المسامير فى البحر وتضعف ، فاتخذ أهلها الخياطة بالليف بدلا منها ، وطُلِيَتْ بالشحوم والنورة ، فهذا يدل — والله أعلم — على اتصال البحار ، وأن البحر مما يلى الصين وبلاد السيلى يدور على بلاد الترك ، ويُفْضِى إلى بحار المغرب من بعض خلجان أوقيانوس المحيط .

وقد كان وجد بساحل بلاد الشام عنبر قذف به البحر ، وهذا من المستنكر فى البحر الرومى الذى لم يعهد فيه من قديم الزمان مثل ذلك ، ويمكن أن يكون سبيل وقوع العنبر إلى هذا البحر سبيل ما ذكرناه من ألواح مراكب البحر الصينى ، والله أعلم بكيفية ذلك وعلمه .

---

(١) فى ا « تظهر إليهم » . (٢) فى ب « ما نطش ونيطش » .

ولبحر المغرب وما قرب منه من عمائر السودان وأقاصي أرض المغرب أخبار عجيبة .

بلاد الحبشة والسودان

وقد ذكر ذوو العناية بأخبار العالم أن أرض الحبشة وسائر السودان كلها مسيرة سبع سنين ، وأن أرض مصر جزء واحد من ستين جزءاً من أرض السودان ، وأن أرض السودان جزء واحد من الأرض كلها ، وأن الأرض كلها مسيرة خمسمائة سنة : ثلثٌ عمران مسكون مأهول ، وثلثٌ براري غير مسكون ، وثلثٌ بحار ، وتتصل أقاصي السودان العراة بآخر بلاد ولد إدريس [بن إدريس] بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام من أرض المغرب ، وهي بلاد تلمسان وناهرت وبلاد فاس ، ثم السوس الأدنى ، وبينه وبين بلاد القيروان نحو ألفي ميل وثلثمائة ميل ، وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى من المسافة نحو من عشرين يوماً عمائر متصلة إلى أن تتصل بوادي الرمل والقصر الأسود ، ثم يتصل ذلك بمفاوز الرمل التي فيها المدينة المعروفة بمدينة النحاس وقباب الرصاص التي سار إليها موسى بن نصير في أيام عبد الملك بن مروان ورأى فيها ما رأى من العجائب ، وقد ذكر ذلك في كتاب يتداوله الناس ، وقد قيل: إن ذلك في مفاوز تتصل ببلاد الأندلس ، وهي الأرض الكبيرة ، وقد كان ميمون بن [عبد الوهاب بن] عبد الرحمن بن رستم الفارسي — وهو إباضيُّ المذهب ، وهو الذي أنشأ في ذلك البلد مذهب الخوارج ، وقد قيل : إنهم من بقايا الأشبان — عَمَّرَ تلك الديار ، وكانت له حروب مع الطالبيين ، وقد ذكرنا فيما يرد من هذا الكتاب تنازع الناس في الأشبان ، ومن قال : إنهم من الفرس ناقلة من بلاد أصبهان .

بلاد المغرب

وفي هذا الصقع من بلاد المغرب خلق من الصُّفْرية الخوارج ، لهم مدن ممدودة مثل مدينة ترغية[1] ، وفيها معدن كبير من الفضة ، وهو مما يلي الجنوب ويتصل ببلاد الحبشة ، والحرب بينهم سِجَالٌ ، وقد ذكرنا في كتابنا « أخبار الزمان »

(١) في ب « بدعية » .

خبر المغرب ومدنها ، ومن سكنها من الخوارج الإباضية والصُّفرية ، ومن سكن المغرب من المعتزلة ، وما بينهم وبين الخوارج من الحروب ، وذكرنا خبر [ابن] الأغلب التميمى وتولية المنصور له على المغرب ، ومقامه ببلاد إفريقية [وغيرها من أرض المغرب] وما كان من أمره فى أيام الرشد .
وتداول ولده ببلاد إفريقية وغيرها إلى أن انتهى الأمر إلى أبى نصر[1] زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد [بن محمد][2] بن الأغاب بن إبراهيم بن محمد بن الأغاب [بن إبراهيم] بن سالم بن سوادة ، فأخرجه عنها أبو عبدالله المحتسب الصوفى الداعية لصاحب المهدية حين ظهر فى كتامة وغيرها من أجيال البربر[3] ، وذلك فى سنة سبع وتسعين ومائتين فى أيام المقتدر ، ومسيره إلى الرافقة ، وكان هذا المحتسب من مدينة رامهرمز من كور الأهواز .

ونعود إلى ذكر مراتب الملوك وَنَسَق مابقى من الممالك على البحر الحبشى الذى شرعنا فى وصفه وَمَنْ عليه ، فنقول :

ملوك العالم

ملك الزنج وفليمى[4] ، ملك اللان كركنداج[5] ، ملك الحيرة من بنى نصر النعمانية وللناذرة ، ملك جبال طبرسنان كان يدعى « قارن » والجبل معروف به وبولده فى هذا الوقت ، ملك الهند البلهرا ، ملك القنوج من ملوك السند بؤورة[6] [وهذا اسم كل ملك بلى القنوج ، وهنا مدينة يقال لها بؤورة] باسم ملوكهم ، وقد صارت اليوم فى حيز الإسلام ، وهى من أعمال المولتان ، ومن هذه المدينة يخرج أحد الأنهار التى إذا اجتمعت كانت نهر « مهران السند » الذى زعم الجاحظ أنه من النيل ، وزعم غيره أنه من جيحون خراسان ، وبؤورة[6] هذا الذى هو ملك القنوج هو ضد البلهرا ملك الهند ، وملك القندهار من ملوك السند وجبالها ، يدعى حجج ، وهو اسمه الأعم ، ومن بلاده يخرج النهر المعروف « برائد » وهو أحد الأنهار الخمسة التى منها

(١) فى ب « أبى منصور » .
(٢) لا يوجد هذا الاسم فى ا .
(٣) فى ا « أحياء البربر » .
(٤) فى ب « وقليمان » .
(٥) فى ب كركبداخ » .
(٦) فى ب « فرورة » .

مهران السند والقندهار يعرف ببلاد الرهبوط ، ونهر من الخمسة يخرج من بلادالسند وجبالها يعرف« ببهاطل»ويجتاز بلاد الرهبوط وهى بلاد القندهار، والنهر الرابع يخرج من بلاد كابل وجبالها وهى تخوم السند مما يلى بسط وغزنين وزرعون والرخج وبلاد الدوار[1] مما يلى بلاد سجستان ، ونهرمن الخمسة يخرج من بلاد قشمير ، وملك قشمير يعرف بالرانى ، هذا الاسم الأعم لسائر ملوكهم ، وقشمير هذه من ممالك السند وجبالها مملكة عظيمة حصينة يحتوى ملكها على مدن وضياع على نحو من ستين ألفاً إلى سبعين ألفاً ، لا سبيل لأحد من الناس على بلده إلا من وجه واحد ، ويُغلَق على جميع ما ذكرناه من ملكه باب واحد؛ لأن ذلك فى جبال شوامخ منيعةٍ لاسبيل للرجال أن يتسلَّقوا عليها ، ولا للوحش أن يلحق بعلوها ، ولا يلحقها إلا الطير ، وما لا جبل فيه فأودية وَعْرَة وأشجار وغياض وأنهار ذاتُ مَنَعَة من شدة الأنصباب والجريان، وماذكرنا من منعةذلك البلد فمشهورفى أرض خراسان وغيرها من البلاد ، وذلك أحد عجائب الدنيا .

القنوج

فأما ملك بؤوره — وهو ملك القنوج — فإن مسافة مملكته تكون نحواً من عشرين ومائة فرسخ فى مثلها فراسخ سندية الفرسخ ثمانية أميال بهذا الميل ، وهو الملك الذى قدمنا ذكره فيما سلف أن له من الجيوش أربعة على مهابٍّ الرياح الأربع ، كل جيش منها سبعمائة ألف ، وقيل : تسعمائة ألف [وقيل : تسعة آلاف ألف] فيحارب بجيش الشمال صاحب المولتان ومن معه فى تلك الثغور من المسلمين ، ويحارب بجيش الجنوب البلهرا ملك المانكير، وبالجيوش الباقية من يلقاه فى كل وجه من الملوك ، ويقال : إن ملكه يحيط فى مقدار ما ذكرناه من المسافة من المدن والقرى والضياع مما يدركه الإحصاء والعَدَدُ بألف ألف وثمانمائة ألف قرية بين أنهار وشجر وجبال ومروج ، وهو قليل الفيلة من بين الملوك، ورسمه لحربه ألفا فيلٍ حربية تقاتل ، وذلك أن الفيل

(١) فى ب «وتخوم الهند مما يلى بلاد بسيط وعرس ونفس والرحج وبلاد الدوار».

إذا كان فارهاً ممارساً شجاعا وكان راكبه فارساً وفى خرطومه القرطل ــ وهو نوع من السيوف ــ وخرطومه مغشّى بالزرَدِ والحديد ، وعليه تجافيف[1] قد أحاطت [بسائر جسده[2]] من الفرن والحديد[3] ، وكان حوله خمسمائة راجل يمنعونه ويحرزونه من ورائه ، حارب ستة آلاف فارس ، وقام بها، وأدناها إذا كان معه خمسمائة راجل، كر على خمسة آلاف فارس، ودخل وخرج وصال عليها كالرجل على الفرَسِ ، وهذا رسم فيلتها فى سائر حروبها .

المولتان

فأما صاحب المولتان فقد قلنا : إن الملك فى ولد سَامَةَ بن لؤى بن غالب ، وهو ذو جيوش ومَنَعَة ، وهو ثغر من ثغور المسلمين الكبار ، وحول ثغر المولتان من ضياعه وقراه عشرون ومائة ألف قرية مما يقع عليه الإحصاء والعدد، وفيه على ما ذكرنا الصنم المعروف بالمولتان ، يقصده السند والهند من أقاصى بلادهم بالنذور والأموال والجواهر والعود وأنواع الطيب ، ويحج إليه الألوف من الناس ، وأكثر أموال صاحب المولتان مما يحمل إلى هذا الصنم من العود القمَارِىّ الخالص الذى يبلغ ثمن الأوقية منه مائة دينار[4] ، وإذا ختم بالخاتم أثر فيه كما يؤثر فى الشمع ، وغير ذلك من العجائب التى تحمل إليه، وإذا نزلت الملوك من الكفار على المولتان وعجز المسلمون عن حربهم هددوهم بكسر هذا الصنم وتعويره ، فترحل الجيوش عنهم عند ذلك ، وكان دخولى إلى بلاد المولتان بعد الثلاثمائة ، والملك بها أبو اللهاب[5] المنبه بن أسد القرشى .

المنصورة

وكذلك كان دخولى إلى بلاد المنصورة فى هذا الوقت، والملك عليها أبو المنذر عمر بن عبد الله ، ورأيت بها وزيره رباحا[6] وابنيه محمداً وعلياً، ورأيت بها رجلا سيداً من العرب وملكا من ملوكهم وهو المعروف بحمزة، وبها خلق من ولد على

---

(١) فى ب « تحافيف » . (٢) لا توجد هذه الكلمة فى ا .
(٣) فى ب « من الفرق والحديد » . (٤) فى ا « يبلغ منه الى مائتى دينار »
(٥) فى ب « أبو الدلهات » . (٦) فى ب « زيادا » .

ابن أبى طالب رضى الله عنه، ثم من ولد عمر بن على وولد محمد بن على ، وبين ملوك المنصورة وآل أبى الشوارب القاضى قرابة وصلة ونسب، وذلك أن ملوك المنصورة الذين فيهم الملك فى وقتنا هذا من ولد هبّار بن الأسود ، ويعرفون ببنى عمر بن عبد العزيز القرشى ، وليس هو عمر بن عبد العزيز [بن مروان] الأموى .

فإذا اجتاز جميع ما ذكرنا من الأنهار ببلاد مرج[1] بيت الذهب — وهو المولتان — اجتمعت بعد المولتان بثلاثة أيام فيما بين المولتان والمنصورة فى الموضع المعروف بدوسات ، فإذا انتهى جميع ذلك إلى مدينة الروذ[2] من غربيها، وهى من أعمال المنصورة ، سُمِّىَ هنالك مهرلن ، ثم ينقسم قسمين ، ويصب كل من القسمين من هذا الماء العظيم المعروف بمهران السند فى مدينة شاكرة من أعمال المنصورة فى البحر الهندى ، وذلك على مقدار يومين من مدينة الديبل .

والمسافة من المولتان إلى المنصورة خمسة وسبعون فرسخاً سندية على ما ذكرنا، والفرسخ ثمانية أميال ، وجميع ما للمنصورة من الصياع والقرى مما يضاف إليها ثلثمائة ألف قرية ذات زروع وأشجار وعمائر متصلة ، وفيها حروب كثيرة من جنس يقال لهم الميد[3]، وهم نوع من السند وغيرهم من الأجناس، وهم ثغر السند، وكذلك المولتان من ثغور السند ومما أضيف إليها من العمائر والمدن .

وسميت المنصورة باسم منصور بن جهور عامل بنى أمية، وللملك المنصورة فيلة حربية ، وهى ثمانون فيلا رسمُ كل فيل أن يكون حوله على ما ذكرنا خمسمائة راجل وأنه يحارب ألوفاً من الخيل على ما ذكرنا ، ورأيت له فيلين عظيمين كانا موصوفين عند ملوك السند والهند لما كانا عليه من البأس والنجدة والإقدام على فلّ الجيوش ، وكان اسم أحدهما « منفرقلس[4] » والآخر « حيدرة » ولمنفرقلس هذا أخبار عجيبة ، وأفعال حسنة ، وهى مشهورة فى تلك البلاد وغيرها : منها

---

(١) فى ا « ببلاد فوج بيت الذهب » . (٢) فى ا « الرور » .
(٣) فى ب « السند » . (٤) فى ب « منعرفلس » .

أنه مات بعض سُوَّاسه، فمكث أياما لا يطعم وَلا يشرب، يُبْدى الحنين، وَ يظهر الأنين ، كالرجل الحزين ، وَدموعه تجرى من عينيه لاتنقطع ، ومنها أنه خرج ذات يوم من حائرهِ ، وهى دار الفيلة ، وَحيدرة وراءه ، وباقى الثمانين تبع لهما ، فانتهى منفرقلس فى سيره إلى شارع قايل العرض من شوارع المنصورة، فما جأ فى مسيره امرأة على حين غفلة منها ، فلما بصرت به دهشت واستلقت على قفاها من الجزع ، وانكشفت عنها أطارها فى وسط الطريق ، فلما رأى ذلك منفرقلس وَقف بعرض الشارع مستقبلا بجنبه الأيمن ماوراءه من الفيلة مانعاً لهم من النفوذ من أجل المرأة ، وأقبل يشير إليها بخرطومه بالقيام، ويجمع عليها أثوابها ، ويستر منها ما بدا ، إلى أن انتقلت[1] المرأة وتزحزحت عن الطريق بعد أن عاد إليها روحها ، فاستقام الفيل فى طريقه ، وانبعه الفيلة .

وَللفيلة أخبار عجيبة الحربية منها وَالعَمَّالة ؛ لأن منها ما لا يحارب فيجر العَجَلَ وتحمل عليه الأثقال ويستعمل فى دِيَاس الأرز وغيره من الأقوات كدَوْس البقر فى البَيْدَر ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب أخبار الزنج والفيلة ، وكونها فى بلادها ، وليس فى سائر الممالك أكثر منها فى بلاد الزنج ، وهى وحشية هنالك [كلها] .

فهذه جمل من أخبار ملوك السند والهند ، ولغة السند خلاف لغة الهند ، والسند مما يلى الإسلام ، ثم الهند ، ولغة أهل المانكير — وهى دار مملكة الباهرا — كيرية[2] مضافة إلى الصقع ، وهى كيرة ، ولغة ساحلهم مثل صيمور وسوبارة ونانة[3] وغير ذلك من مدن الساحل لا رية ، وبلدهم مضافة إلى البحر الذى هم عليه ، وهو لاروى، وقد تقدم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب ، ولهذا الساحل

---

(١) فى ا « استقلت المرأة وتحزحزت » .
(٢) فى ب « أكثرها مضافة إلى الصقع ، وهى كبيرة » وفى ا « وهى كرة»
(٣) فى ب « وسومارة ومانة » .

أنهار عظيمة تجرى من الجنوب ، بالضد من أنهار العالم ، وليس فى أنهار العالم ما يجرى من الجنوب إلى الشمال إلا نيل مصر ومهران السند ويسير من الأنهار ، وما عدا ذلك من أنهار العالم يجرى من الشمال إلى الجنوب ، وقد ذكرنا وجه العلة فى ذلك وما قاله الناس فى هذا المعنى فى كتابنا « أخبار الزمان » وقد ذكرنا ما انخفض من الأرض[1] وما ارتفع .

وليس فى ملوك السند والهند من يعز المسلمين فى ملكه إلا البلهرا ، فالإسلام فى ملكه عزيز مَصُون ، ولهم مساجد مبنية ، وجوامع معمورة بالصلوات للمسلمين ، ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين سنة فصاعدا ، وأهل مملكته يزعمون أنه إنما طالت أعمار ملوكهم لسنة العدل وإكرام المسلمين ، وهو ملك يرزق الجنود من بيت ماله كفعل المسلمين بجنودهم ، وله دراهم طاهرية[2] وزن الدرهم منها وزن درهم وَنصف ، سكَّتُهُ بدء تاريخ ملكهم ، وفيلته الحربية لا تحصى كثرة ، وتدعى بلاده أيضاً بلاد الكمكر[3] ، ويحاربهم ملك الخزر من إحدى جهات مملكته ، وهو ملك كثير الخيول والإبل والجنود ؛ ويزعم أنه ليس فى ملوك العالم أجل منه إلا صاحب إقليم بابل ، وهو الإقليم الرابع ، وذلك أن هذا الملك ذو نخوة وَصولة على سائر الملوك ، وهو — مع ذلك — مبغض للمسلمين ، وهو كثير الفيلة ، وملكه على لسان من الأرض ، وَفى أرضه معادن الذهب وَالفضة ، وَمبايعتهم بهما .

ثم يلى هذا الملك ملك الطافن[4] مُوَادع لمن حوله من الملوك ، وَهو مكرم للمسلمين ، وَليست جيوشه كجيوش مَنْ ذكرنا من ملوك ، وَليس فى نساء الهند أحسن من نسائهم ، وَلا أكثر منهن جمالاً وَبياضاً ، وَهن موصوفات الخلوات ، مذكورات فى كتب الباه ، وَأهل البحر يتنافسون فى شرائهن يعرفن بالطافنيات .

رهمى

ثم يلى هذا الملك مملكة رهمى ، وَهذه سمة لملوكهم ، وَهو الأعم من أسمائهم ،

---

(١) فى ب « من الأنهار » . (٢) فى ب « ظاطرية » .
(٣) فى ب « السكنكر » . (٤) فى ب « الطافى » .

ويقاتله الجزر[1] ، وملكه متاخم للكهم ، ورهمى يحارب البلهرا أيضاً من إحدى جهات مملكته، وهو أكثر جيوشاً وفيلة وخيولا من البلهرا ومن ملك الجزر[1] ومن ملك الطافن، وإذا خرج فى حروبه فرسمه أن يكون فى خمسين ألف فيل ، ولا يكون حربه إلا فى الشتاء لقلة صبر الفيلة على العطش وقلة لبثها ، والمكثر من الناس يغلو فى القول فى كثرة جنوده، فيزعمون أن عدد القصارين والغسالين فى عسكره من عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألفاً، وحرب مَنْ ذكرنا من الملوك كراديس ، كلُّ كردوس عشرون ألفاً ، أربعة أوجه كل وجه من الكردوس خمسة آلاف ، ومملكة رهمى تعاملهم بالودع، وهو مال البلد، وفى بلده العود والذهب والفضة والثياب التى ليست لغيره رقة ودقة، ومن بلده يحمل الشعر المعروف بالضمر الذى تتخذ منه المَذَابُّ بنُصُبِ العاج والفضة يقوم بها الخدم على رءوس الملوك فى مجالسها ، وفى بلده الحيوان المعروف بالنشان[2] المعلم، وهو الذى تسميه العوام الكركدن، وله فى مقدم جبهته قرن واحد، وهو دون الفيل فى الخلقة وأكبر من الجاموس ، إلى السواد ما هو ، وهو يجترُّ كما تجتر البقر وغيرها مما يجتر من الحيوان، والفيلة تهرب منه ، وليس فى أنواع الحيوان — والله أعلم — أشد منه ، وذلك أن أكثر عظامه أصم ، ولا مفصل فى قوائمه ولا يبرك فى نيام، وإنما يكون بين الشجر والآجام يستند إليها عند نومه، والهند تأكل لحمه ، وكذلك مَنْ فى بلادهم من المسلمين؛ لأنه نوع من البقر، والجواميس بأرض السند والهند كثيرة، وهذا النوع من الحيوان وهو النشان[2] يكون فى أكثر غابات الهند ، إلا أنه فى مملكة رهمى أكثر، وقرونه أصفى وأحسن، وذلك أن قرنه أبيض ،وفى وسطه صورة سوداء فى ذلك البياض إما صورة إنسان أو صورة طاووس بتخطيطه وشكله أو صورة سمكة أو صورته فى نفسه أو صورة نوع

وصف الكركدن

(١) فى ب « ويقاتلهم ملك الخزر » .
(٢) فى ب « بالنسان »

من الحيوان مما يوجد فى تلك الديار ، فينشر هذا القرن[(١)] وتتخذ منه المناطق والسيور على صورة الحلية من الذهب والفضة فتلبسها ملوك الصين ، وخواصها تتنافس فى لبسها وتبالغ فى أثمانها فتبلغ المنطقة ألفى دينار إلى أربعة آلاف ، فيها معاليق الذهب ، وذلك فى نهاية الحسن والإتقان ، وربما تقمع بأنواع من الجواهر على قضبان الذهب ، ووجوه تلك الصور مكتّبة بسواد فى بياض ، وربما يوجد فى قرونه بياض فى سواد ، وليس فى كل بلد يوجد فى قرون النشان ما ذكرنا من الصور .

وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن الكركدن يحمل فى بطن أمه سبع سنين ، وأنه يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى ثم يدخل رأسه فى بطنها ، وهذا القول أورده فى كتاب « الحيوان[(٢)] » على طريق الحكاية والتعجب ، فبعثنى هذا الوصف على مسألة مَنْ سلك تلك الديار[(٣)] من أهل سيراف وعمان ومن رأيت بأرض الهند من التجار ، فكل يتعجب من قوله إذا أخبرته بما عندى من هذا وسألته عنه ، ويخبروننى أن حمله وفصاله كالبقر والجواميس ، ولست أدرى كيف وَقعت هذه الحكاية للجاحظ : أمن كتاب نقلها أو مخبر أخبره بها ؟ .

ولرهمى فى ملكه بر وَبحر ، ويلى ملكه ملك [لا بحر له] يقال له ملك الكامن[(٤)] ، وأهل مملكته بيض مخرمو الآذان ، لهم فيلة وإبل وخيول ، وحسن وجمال للرجال والنساء ، ثم بعد هؤلاء ملك الإفرنج ، وَله بر وبحر ، وهو على لسان من البر فى البحر ، يقع إلى بلده عنبر كثير ، وفى بلده فلفل يسير ، وهو ذو فيلة كثيرة ، وهو ذو بأس بين الملوك وزهو وفخر ، وزَهْوُه أكثر من قوته ، وفخره أكثر من بأسه ، ثم يلى هذا الملك ملك الموجه أهله بيض ذوو حسن وجمال غير مخرومى الآذان ، لهم خيل كثيرة ، وعدد منيعة ، والمسك فى بلادهم كثير على ما قدمنا من غزلانهم وَوصف ظبائهم فيما سلف من

الكامن

---

(١) فى ا « فيشترى هذا القرن » . (٢) فى ب « حياة الحيوان »

(٣) فى ا « تولج تلك الديار » . (٤) فى ب « الكاسين » .

هذا الكتاب ، وهذه الأمة تشبه بأهل الصين فى لباسهم ، وجبالهم[1] منيعة شواهق بيض ، لا يُعْلَمَ بأرض السند والهند ولا فيما ذكرنا من هذه الممالك جبال أطول منها ولا أمنع ، ومسكهم موصوف مضاف إلى بلدهم يتعارفه البحريون ، ممن عنى بحمل ذلك وتجهيزه ، وهو المسك المعروف بالموجهى ، ثم يلى ملك الموجه مملكة الماند[2] ، ولهم مدن كثيرة وعمائر واسعة وجنود عظيمة ، وملوكهم تستعمل [الخدم و] الخصيان فى عمالات بلدانهم من المعادن وجبايات الأموال والولايات وغيرها كفعل ملوك الصين على حسب ما وصفنا من أخبارهم ، والماند[2] مجاورون لمملكة الصين ، والرسل تختلف بينهم بالهدايا ، وبينهم جبال منيعة وعقبات صعبة ، وللماند[2] البأس العظيم والبطش الشديد والقوة ، وإذا دخل رسل ملك الماند[2] مملكة الصين وَكَّلَ ملك الصين بهم ، ولم يتركهم ينتشرون فى بلادهم خوفاً أن يقفوا على طرقهم وعورات بلادهم[3] ، لكبرة الماند[4] فى نفوسهم .

الماند

بعض عوائد الهند والصين

ولمن ذكرنا من الهند والصين فى بلادهم ولغيرهم من الأمم أخلاق وشيم فى المآكل والمشارب والمناكح والملابس والعلاج والأدوية والكى بالنار وغيره ، وقد ذكر عن جماعة من ملوكهم أنهم لا يرون حبس الريح فى أجوافهم لأنه داء يؤذى[5] ، ولا يحتشمون فى إظهارها فى سائر أحوالهم ، وكذلك فعل حكمائهم ، ورأيهم أن حبسها داء يؤذى ، وأن إرسالها شفاء ينجى ، وأن فى ذلك العلاج الأكبر ، وأن فيه راحة لصاحب القولنج والحصور ، وأن فيه دواء للسقيم المطحول ، ولا يحتشمون من الضرطة ، ولا يحصرون الفسوة ، ولا يرون ذلك عيبا ، وللهند التقدم فى صناعة الطب ، ولهم فيه اللطافة والحذق ، وذكر هذا الخبر عن الهند

---

(١) فى الأصول « وبلادهم » والسياق يوجب ماذكرنا .

(٢) فى ب « المابد » . (٣) فى ا « وعوائد بلادهم » .

(٤) فى ب « لكبر المعابد » . (٥) فى ا « لأنه داء يردى » .

أن السُّعَال عندهم أقبح من الضراط ، وأن الْجُشَاء فى وزن الفُسَاء، وأن صوت الضرطة دباغها والمذهب عنها ريحها ، واستشهد هذا الخبر على صحة ما حكاه عن الهند باستفاضة القول فى ذلك فى كثير من الناس عنهم ، حتى ذكر ذلك عنهم فى السير والأخبار والنوادر والأشعار ؛ فمن ذلك ما ذكر [أبان بن عبد الحميد فى الأرجوزة المعروفة بذات الحلل ، وهى :

قد قال ذو العلم النصيح الهندى مقالة أجاد فيها عندى
لا تحبس الضرطة إمَّا حضرت وَخَلِّها وافتح لها ما استفتحت
فإن أدْوَا الداء فى إمساكها وَالرَّوْحَ وَالراحة فى إفكاكها
وَالقبح فى السعال وَالمخاط وَالشؤم فى العُطاس لا الضراط
أما الجشاء فُفسَاء صاعد وَنَتْنُه على الفُسَاء زائد

وَأن الريح واحدة فى الجوف ، وإنما تختلف أسماؤها باختلاف مخارجها، فما يذهب صُعُداً يسمى جُشَاء ، وَما يذهب سفلا يسمى فساء ، وَلا فرق بين الريحين إلا باختلاف المخرجين ، كما يقال الصفعة وَاللاطمة ، إلا أن اللاطمة فى الوجه وَالصفعة فى مؤخر الرأس وَالقفا ، والجنس واحد، وإنما اختلفت أسماؤها لاختلاف الموضعين وتباين المكانين ، وأن الحيوان الناطق إنما كثرت علله، وَترادفت أدوَاؤه، وَاتصلت أمراضه كالقولنج وَأوجاع المعدة وَغيرها من العوارض بحبس الداء فى جوفه وَترك إظهاره فى حال هيجانه وَتفرغ الطبيعة لدفعه وَإخراجه، وأن سائر الحيوان غير الناطق إنما بَعُد عما ذكرنا من الآفات وَالمعترضات من العاهات لسرعة خروج ما يعرض ويثور من الأدواء فى أجوافها وعدم احتباسها فى وِعائها، وَأن الفلاسفة وَالمتقدمين من الحكماء اليونانيين كديموقرطيس وَفيثاغورس وسقراط وديوجانس[1] وغيرهم من حكماء الأمم لم يكونوا يرون حبس شىء من

(١) فى ب «وروحانس» محرفا

ذلك ؛ لعلمهم بما يتولد من آفاته ، ويؤول إليه من متعقبانه ، وأن ذلك يجده في نفسه كل ذى حس ، وأن ذلك يعلم بالطبيعة ، ويدرك بضرورة العقل ، وَإنما استقبح ذلك أناس من أصحاب الشرائع والكتب لما وردت به الشرائع ومنعت منه الملل ، ولم يجر ذلك فى عاداتهم .

قال المسعودى : وقد أتينا على أخبارهم وما أحكمنا من ذكر شِيَمِهم وعجائب سيرهم ومتصرفاتهم فى كتابنا « أخبار الزمان » وفى الكتاب الأوسط ، وكذلك أتينا على ذكر أخبار المهراج ملك الجزائر والطيب والأفاويه مع سائر ملوك الهند ومع القنجب وغيره من ملوك الجبال مما قابل هذه الجزائر كالزابج[١] وغيرها من بلاد الصين ، وأخبار ملوك الصين وَملك سرنديب مع ملك مندورفين[٢] ، وهى بلاد مقابلة لجزيرة سرنديب كمقابلة بلاد قمار لجزائر المهراج من الزابج[١] وغيرها ، وكل ملك تملك بلاد مندورفين[٢] يسمى القايدى[٣] ، وسنأتى بجمل من أخبار ملوك الشرق والغرب وَاليمن والحيرة[٤] فيما يرد من هذا الكتاب [و] من أخبار ملوك اليمن[٥] والفرس [والروم][٦] واليونانيين وَالمغرب وأنواع الأحابيش والسودان وملوك [الصين][٧] ولد يافث ، وغير ذلك من أخبار العالم وعجائب الأمم[٨]

(١) فى ب « الرانج »
(٢) فى ب «مندرى»
(٣) فى ب « القابدى »
(٤) فى ا «والجدى» محرفا
(٥) هكذا تكررت كلمة اليمن فى ا ، ب جميعا .
(٦) لاتوجد هذه الكلمة فى ب .
(٧) هذه الكلمة ساقطة من ا
(٨) فى ا « وعجائبه »

ذكر جبل القبخ[1] وأخبار الأمم

من اللان [والسرير[2] والخزر[3]] وأنواع الترك [والبرغز[3]] وغيرهم وأخبار الباب والأبواب ومَنْ حولهم من [الملوك و][3] الأمم

جبل القبخ

أما جبل القبخ[1] فهو جبل عظيم ، وصقعه صقع جليل، قد اشتمل على كثير من الممالك والأمم ، وفى هذا الجبل اثنتان وسبعون أمة ، كل أمة لها ملك ولسان بخلاف لغة غيرها ، وهذا الجبل ذو شعاب وأودية، ومدينة الباب والأبواب على شعب من شعابه ، بنَاها كسرى أنوشروان وجعلها بينه وبين [بحر][3] الخزر ، وجعل هذا السور من جوف البحر على مقدار ميل منه ماداً إلى البحر، ثم على جبل القبخ[1] مادا فى أعاليه ومنخفضاته وشعابه نحواً من أربعين فرسخا، إلى أن ينتهى ذلك إلى قلعة يقال لها طبرستان ، وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا السور أو أقل أو أكثر على حسب الطريق الذى جعل الباب من أجله باباً من حديد، وأسكن فيه على كل باب من داخله أمة تراعى ذلك البابَ وما يليه من السور، كل ذلك ليدفع أذى الأمم المتصلة بذلك الجبل من الخزر واللان [وأنواع الترك[3]] والسرير وغيرهم من أنواع الكفار، وجبل القبخ[1] يكون فى المسافة علواً وطولا وعرضاً نحواً من شهرين، بل وأكثر، وحوله أمم لا يحصيهم إلا الخالق عز وجل ، أحد شعابه على بحر الخزر مما يلى الباب والأبواب على ما ذكرنا، ومن شعابه مما يلى بحر مايطس المقدم ذكره فيما سلف من هذا الكلام الذى ينتهى إليه خليج القسطنطينية ، وعلى بحر طرابزندة ، وهى مدينة على شاطىء هذا البحر لها أسواق فى السنة يأتى إليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم من بلاد كشك[4] ولما بنى أنوشروان هذه المدينة المعروفة بالباب والأبواب والسور فى البر والبحر والجبل أسكن هناك أمماً من الناس وملوكا ، وجعل لهم مراتب [رتبهمْ عليها][3] ووسم كل أمة منهم بسمة معلومة، وحدَّ له حداً [معلوماً][3]

(١) فى ب « الفتح »
(٢) زيادة فى ب وحدها
(٣) زيادة فى اوحدها
(٤) فى ب « كسكر »

على حسب فعل أردشير بن بابك حين رتب ملوك خراسان ؛ فمن رتب [منهم] أنوشروان من الملوك فى بعض هذه البقاع والمواضع مما يلى الإسلام من بلاد بردعة ملك يقال له شروان ، ومملكته مضافة إلى اسمه فيقال له شروان شاه ، وكل ملك يلى هذا الصقع يقال له شروان ، وتكون مملكته فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — نحوا [من] شهر ؛ لأنه كان تغلّب على مواضع لم يكن رسمها له أنوشروان فانضافت إلى ملكه ، والملك فى هذا الوقت المؤرخ والله أعلم مسلم يقال له محمد بن يزيد ، وهو من ولد بهرام جور ، لاخلاف فى نسبه ، وكذلك ملك السرير من ولد بهرام جوْر ، وكذلك صاحب خراسان فى هذا الوقت المؤرخ من ولد إسماعيل بن أحمد ، وإسماعيل من ولد بهرام جور ، لاخلاف فيما ذكرنا من شهرة أنساب من ذكرنا ، وقد تملك محمد [بن يزيد] هذا وهو شروان على مدينة الباب والأبواب ، وذلك بعد موت صهر له يقال له عبد الملك بن هشام[1] ، وكان رجلا من الأنصار ، وكان فيه إمرة الباب والأبواب ، وقد كانوا قطنوا تلك الديار منذ دخلها مَسْلَمَة بن عبدالملك وغيره من أمراء الإسلام فى صدر الزمان.

الإيران

وتلى مملكة شروان مملكة أخرى من جبل القبخ يقال لها الإيران ، وملكها يدعى الإيران شاه ، وقد غلب على هذه المملكة فى هذا الوقت شروان أيضاً ، وعلى مملكة أخرى يقال لها مملكة الوقانية ، والمعول فى مملكته على مملكة اللكز ، وهى أمة لا تحصى كثرة ساكنة فى أعالى هذا الجبل ، ومنهم كفار لاينقادون إلى ملك شروان يقال لهم الدودانية جاهلية لا يرجعون إلى ملك[2] ، ولهم أخبار طريفة فى المناكح والمعاملات ، وهذا الجبل ذو أودية وشعاب وفجاج ، وفيه أمم لايعرف بعضهم بعضاً لخشونة هذا الجبل وامتناعه وذهابه فى الجو وكثرة غياضه وأشجاره وتسلسل المياه من أعلاه وعظم صخوره وأحجاره ، وغلب هذا الرجل المعروف بشروان

(١) فى ا « عبد الله بن هشام » هنا، وتتفق النسختان فيما يلى على « عبد الملك »

(٢) فى ب « لا يرجعون إلى قبلة » .

على ممالك كثيرة من هذا الجبل كان رسمها كسرى أنو شروان لغيره ممن رتب هناك ، فأضافها محمد بن يزيد إلى ملكه : منها خراسان شاه وزادان شاه ، وسنذكر بعد هذا الموضع تغلبه على مملكة شروان ، وقد كان قبل ذلك على الإيران هو وأبوه من قبل ، ثم على سائر الممالك .

طبرستان

وتلى مملكة شروان فى جبل القبخ مملكة طبرستان ، وملكها فى هذا الوقت مسلم ، وهو ابن أخت عبد الملك الذى كان أمير الباب [والأبواب]، وهى أول الأمم المُتَّصلة بالباب والأبواب .

جيدان

ويبادى أهل الباب والأبواب مملكة يقال لها جيدان[1] ، وهذه الأمة داخلة فى جملة ملوك الخزر ، وقد كانت دار مملكتها مدينة على ثمانية أيام من مدينة الباب يقال لها سمندر ، وهى اليوم يسكنها خلق من الخزر ، وذلك أنها افتتحت فى بدء الزمان ، افتتحها سلمان بن ربيعة الباهلى رضى الله تعالى عنه، فانتقل الملك عنها إلى مدينة آمل ، وَ بينها وبين الأولى سبعة أيام ، وآمل التى يسكنها ملك الخزر فى هذا الوقت ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالى بلاد الترك ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البرغز[2] وتصب فى بحر مايطس ، وهذه المدينة جانبان ، وفى وسط [هذا] النهر جزيرة فيها دار الملك ، وقصر الملك فى وسط هذه الجزيرة[3] ، وبها جسر إلى أحد الجانبين من سفن ، وفى هذه المدينة خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية ؛ فأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسه ، وكان تهوَّدَ ملك الخزر فى خلافة هرون الرشيد ، وقد انضاف إليه خلق من اليهود وَرَدُوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم ، وذلك أن ملك الروم [فى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، وهو أرمنوس[4]] نَقَلَ من كان فى ملكه من

(١) فى ب « حيدان » . (٢) فى ب « البلغر » .

(٣) فى ا « فى طرف هذه الجزيرة » .

(٤) وقعت هذه العبارة فى ب متأخرة بعد كلمة « وأكرهم » مع شىء من

اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب كيفية أخبار ملوك الروم ، وأعدادهم ، وأخبار هذا الملك ومن قد شاركه فى ملكه فى هذا الوقت المؤرخ ، فتهارَبَ خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرضه على ما وصفنا ، وكان لليهود مع ملك الخزر[1] خبر ليس هذا موضع ذكره. وقد ذكرناه فيما سلف من كتبنا . وأما مَنْ فى بلاده من الجاهلية فأجناس : منهم الصقالبة ، والروس ، وهم فى أحد جانبى هذه المدينة ، وَيحرقون موتاهم ودوابَّ ميتهم وآلاته والحلى ، وإذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهى فى الحياة. وإن ماتت المرأة لم يحرق الرجل، وإذا مات [منهم] أعزب زوج بعد وفاته، والنساء يرغبن فى تحريق أنفسهن لدخولهن عندأنفسهن الجنة، وهذا فعل من أفعال الهند على حسب ماذكرنا آنفاً ، إلا أن الهند ليس من شأنها أن تحرق المرأة مع زوجها إلا أنْ ترى ذلك المرأةُ ، والغالب فى هذا البلد المسلمون ؛ لأنهم جند الملك، وهم يعرفون فى هذا البلد باللارسية ، وهم ناقلة من نحو بلاد خُوَارَزْمَ، وكان فى قديم الزمان بعد ظهور الإسلام وقع فى بلادهم جدب[2] ووباء، فانتقلوا إلى ملك الخزر ، وهم ذوو بأس وشدة، وعليهم يعول ملك الخزر فى حروبه ، وأقاموا فى بلده على شروط بينهم ، أحدها إظهار الدين والمساجد والأذان، وثانيها أن تكون وزارة الملك فيهم ، والوزير فى وقتنا هذا منهم هو أحمد بن كويه، وثالثها أنه متى كان للملك الخزر حرب مع المسلمين وقفوا فى عسكره منفردين عن غيرهم لا يحاربون أهل ملتهم ، ويحاربون معه سائر الناس من الكفار، ويركب منهم مع الملك فى هذا الوقت شخوص منهم سبعة آلاف ناشب بالجواشن والدروع والخوذ ومنهم رامحة أيضاً على حسب ما فى المسلمين من آلات السلاح ، ولهم قضاة مسلمون، ورَسْمُ دار مملكة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة: اثنان منهم للمسلمين ، واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة ، واثنان لمن بها من النصرانية يحكمان بحكم

عادة حرق الموتى وسائر حوائجهم

(١) فى ا « وكان لتهود ملك الخزر ــ إلخ » . (٢) فى ا «خرب ووباء»

النصرانية[١]، وواحد منهم للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية وهى قضايا عقلية؛ فإذا ورد عليهم ما لا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم وانقادوا إلى ماتوجبه شريعة الإسلام، وليس فى ملوك الشرق فى هذا الصقع من له جند مرتزقة غير ملك الخزر ، وكل مسلم من تلك الديار يعرف بأسماء هؤلاء القوم اللارسية ، والروس والصقالبة الذين ذكرنا أنهم جاهلية هم جند الملك وعبيده، وفى بلاده خلق من المسلمين تجار وصناع غير اللارسية فروا إلى بلاده لعدله وأمنه، ولهم مسجد جامع ، والمنارة تشرف على قصر الملك ، ولهم مساجد أخرى فيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن ، فإذا اتفق المسلمون ومن بها من النصارى لم يكن للملك بهم طاقة .

مراسم خاقان

قال المسعودى : وليس إخبارنا عن ملك الخزر نريد به خاقان ، وذلك أن للخزر ملكا يقال له خاقان، ورسمه أن يكون فى يدى ملك آخر هو وغيره[٢]، فخاقان فى جوف قصر لا يعرف الركوب ولا الظهور للخاصة ولا للعامة ، ولا الخروج من مسكنه ، معه حرمه، ولا يأمر ولا ينهى، ولا يدبر من أمر المملكة شيئاً ، ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم إلا بخاقان يكون عنده فى دار مملكته ، ومعه فى حيزه ، فإذا أجدبت أرض الخزر أو نابت بلدهم نائبة ، أو توجهت عليهم حرب لغيرهم من الأمم ، أو فاجأهم أمر من الأمور ، نفرت الخاصة والعامة إلى ملك الخزر ، فقالوا له : قد تطيرنا بهذا الخاقان وأيامه، وقد تشاءمنا به، فاقتله أو سلمه إلينا نقتله ، فربما سلّمه إليهم فقتلوه ، وربما تولّى هو قتله ، وربما رقّ له فدافع عنه؛ لأن قتله بلا جرم استحقه ولا ذنب أتاه [هذا رسم الخزر فى هذا الوقت][٣] فلست أدرى : أفى قديم الزمان كان ذلك أم حدث ، وإنما منصب خاقان هذا من أهل بيت بأعيانهم[٤] أرى أن الملك كان فيهم قديماً ، والله أعلم .

---

(١) فى ا « بحكم الإنجيل » . (٢) فى ا « ووسمه أن يكون فى يدى ملك غيره » . (٣) زيادة فى ب .

(٤) فى ب « وإنما ينسب خاقان هذا لأهل بيت وأعيانهم » .

نهر برطاس

وللخزر زوارق يركب فيها الركاب التجار فى نهر فوق المدينة يصب إلى نهرها من أعاليها ، يقال له برطاس، عليه أمم من الترك حاضرة داخلة فى جملة ممالك الخزر، وعمائرهم متصلة بين مملكة الخزر والبرغز[1] ، يرد هذا النهر من نحو بلاد البرغز ، والسفن تختلف فيه من البرغز والخزر .

أمة برطاس

وبرطاس أمة من الترك على ما ذكرنا على هذا النهر المعروف بهم ، ومن بلادهم تحمل جلود الثعالب السود ، والحمر التى تعرف بالبرطاسية ، يبلغ الجلد منها مائة دينار ، وأكثر من ذلك،وذلك من السود ، والحمر أخفض ثمنا منها ،وتلبس السود منها ملوك العرب والعجم ،وتتنافس فى لبسه،وهو أغلى عندهم من السمور والفنك[2] وماشاكل ذلك ، وتتخذ الملوك منه القلانس والخفاف [والدواويج[3]] ويتعذر فى الملوك من ليس له خفان ودواج مبطن من هذه الثعالب البرطاسية السود .

وفى أعالى نهر الخزر مصب متصل بخليج من بحر نيطس[4] ، وهو بحر « الروس » لا يسلكه غيرهم ، وهم على ساحل من سواحله ، وهى أمة عظيمة [جاهلية] لا تنقاد إلى ملك ولا إلى شريعة ، وفيهم تجار يختلفون إلى ملك البرغز[5] وللروس فى أرضهم معدن الفضة كثير نحو معدن الفضة الذى بجبل بنجهير[6] من أرض خراسان .

البرغز

ومدينة البرغز على ساحل بحر مايطس ، وأرى أنهم فى الإقليم السابع،وهم نوع من الترك ، والقوافل متصلة بهم من بلاد خوارزم من أرض خراسان،ومن خوارزم إليهم ، إلا أن ذلك بين بوادى غيرهم من الترك، والقوافل مخفرة منهم . وملك البرغز فى وقتنا هذا ــ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ــ مسلم،أسلم فى أيام المقتدر بالله ، وذلك بعد العشر والثلثمائة، وذلك لرؤيا رآها ، وقد كان له

---

(١) فى ب « بين ملك الخزر والبلغر » . (٢) فى ب « والعبك » محرفا
(٣) زيادة فى ا (٤) فى ب « إفريطش » .
(٥) فى ب « إلى مدينة بحر البلغر » . (٦) فى ب « مهجير » .

ولد حَجّ ، وورد مدينة السلام ، وحمل معه للمقتدر لواء وبُنُوداً[1] [ومالا]
ولهم جامع ، وهــذا الملك غزا بلاد القسطنطينية فى نحو [خمسين[2]] ألف
فارس فصاعداً ويشن الغارات حولها إلى بلاد رومية والأندلس وأرض
برجان والجلالقة والإفرنجة ، ومنهم إلى القسطنطينية [نحو من شهرين متصلين
عمائر ومفاوز ، وقد كان المسلمون — حين غزوا من بلاد طرسوس من
الثغر الشامى مع أمير الثغور ثمل الخادم المعروف بالزلفى ومن كان معه من
مراكب الشاميين والبصريين سنة اثنتى عشرة وثلثمائه — قطعوا فم خليج
القسطنطينية وفم][2] خليج آخر من البحر الرومى لا منفذ له ، وانتهوا إلى
بلاد فندبة ، وأتاهم فى البحر جماعة من البرغز ينجدونهم ، وأخبروهم أن
ملكهم بالقرب ، وهذا يدل على ما وصفنا أن البرغز تتصل سراياها إلى
ساحل بحر الروم ، وكان نفر منهم ركبوا فى مراكب الطرسوسيين ، فأتوا بهم
إلى بلاد طرسوس ، والبرغز أمة عظيمة منيعة شديدة البأس ، ينقاد إليها من
جاورها من الأمم ، والفارس ممن قد أسلم مع ذلك الملك يقاتل المائة من
الفرسان والمائتين من الكفار ، ولا يمتنع أهل القسطنطينية منهم فى هذا الوقت
إلا بسورها ، وكذلك كل من كان فى هذا الصقع لا يعتصم منهم إلا بالحصون
والجدران ، والليل فى بلاد البرغز فى نهاية من القصر فى بعض السنة ، ومنهم
من زعم أن أحدهم لا يستطيع أن يفرغ من طبخ قدره حتى يأتى الصباح ، وقد
ذكرنا فيما سلف من كتبنا علة ذلك من الوجه الفلكى ، وعلة الموضع الذى يكون
الليل فيه ستة أشهر متصلة لا نهار فيه ، والنهار ستة أشهر متصلة لا ليل فيه ، وذلك
نحو الجدى ، وقد ذكر أصحاب النجوم فى الزيجات علة ذلك من الوجه الفلكى .

الروس وأجناسهم

والروس : أمم كثيرة وأنواع شتى ، ومنهم من يقال لهم اللوذعانة[3] ، وهم
الأكثرون ، يختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس ورومية وقسطنطينية والخزر

(١) فى ا « لواء وسوادا ومالا » . (٢) زياد فى ا وحدها
(٣) فى ب « الودعانة » .

وقد كان بعد الثلاثمائة ورد عليهم نحو من خمسمائة مركب ، فى كل مركب مائة نفس ، فدخلوا خليج نيطس المتصل ببحر الخزر ، وهنالك رجال ملك الخزر مرتبين بالعدد القوية يصدّون من يرد من ذلك البحر ، ومن يرد من ذلك الوجه من البر الذى شعبه من بحر الخزر تتصل ببحر نيطس ، وذلك أن بَوَادِى الترك الغز ترد إلى ذلك البر وتُشَتِّى هنالك ، فربما يجمد هذا الماء المتصل من نهر الخزر إلى خليج نيطس ، فتعبر الغز عليه بخيولها ، وهو ماء عظيم ، فلا ينخسف من تحتهم لشدة استحجاره ، فتغير على بلاد الخزر ، وربما يخرج إليهم ملك الخزر إذا عجز مَنْ هنالك من رجاله المرتبين عن دفعهم وَمَنَعَهم العبور على ذلك الجَمْدِ ، وأما فى الصيف فلا سبيل للترك إلى العبور ، فلما وردت مراكب الروس إلى رجال الخزر المرتبين على فم الخليج راسلوا ملك الخزر فى أن يجتازوا البلاد وينحدروا فى نهره فيدخلوا نهر الخزر ويتصلوا ببحر الخزر الذى هو بحر جرجان وطبرستان وغيرها من بلاد الأعاجم على ما ذكرنا ، ويجعلوا للملك الخزر النصف مما يغنمون ممن هناك من الأمم على ذلك البحر ، فأباحهم ذلك ، فدخلوا الخليج واتصلوا بمصب النهر فيه ، وساروا مُصْعِدين فى تلك الشعبة من الماء ، حتى وصلوا إلى نهر الخزر ، وانحدروا فيه إلى مدينة آمل(١) [واجتازوا بها وانتهوا إلى فم النهر ومصبه إلى البحر الخزرى ، ومن مصب النهر إلى مدينة آمل](١) وهو نهر عظيم وماء كثير فانتشرت مراكب الروس فى هذا البحر ، وطرحت سراياها إلى الجيل والديلم وبلاد طبرستان وآبسكون ، وهى بلاد على ساحل جرجان وبلاد النفاطة ، ونحو بلاد أذربيجان ، وذلك أن من بلاد أردبيل من بلاد أذربيجان إلى هذا البحر نحو من ثلاثة أيام ، فسفكت الروس الدماء ، واستباحت النسوان والولدان ، وغنمت الأموال ، وشنت

---

(١) زيادة فى ا وحدها (٢) فى ب « من مدينة أردشير » .

الغارات، وأخربت، وأحرقت، فضج مَنْ حول هذا البحر من الأمم ، لأنهم لم يكونوا يعهدون فى قديم الزمان عدوا يطرقهم فيه، وإنما تختلف فيه مراكب التجار والصيد، وكانت لهم حروب كثيرة مع الجيل والديلم مع قائد لابن أبى الساج، فانتهوا إلى ساحل النفاطة من مملكة شروان المعروفة بباكة، وكانت الروس تأوى عند رجوعها من غاراتها إلى جزائر نقرب من النفاطة على أميال منها، وكان ملك شروان يومئذ على بن الهيثم ، فاستعد الناس، وركبوا فى القوارب، ومراكب التجار، وساروا نحو تلك الجزائر ، فمالت عليهم الروس، فقتل من المسلمين وغرق ألوف ، وأقام الروس شهوراً كثيرة فى هذا البحر على ما وصفنا لا سبيل لأحد ممن جاور هذا البحر من الأمم إليهم ، والناس مهتابون لهم[1] ، حذرون منهم ؛ لأنه بحر غامر لمن حوله من الأمم ، فلما غنموا وسئموا ماهم فيه ساروا إلى فم نهر الخزر ومصبه ، فراسلوا ملك الخزر وحملوا إليه الأموال والغنائم [على ما اشترط عليهم] ، وملك الخزر لا مراكب له ، وليس لرجاله بها عادة ، ولولا ذلك لكان على المسلمين منهم آفة عظيمة، وعلم بشأنهم اللارسية ومن فى البلاد الخزر من المسلمين، فقالوا للملك الخزر: خلّنا وهؤلاء القوم فقد أغاروا على بلاد إخواننا المسلمين ، وسفكوا الدماء ، وسبوا النساء والذرارى ، فلم يمكن الملك منعهم ، وبعث إلى الروس فأعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم ، وعسكروا ، وخرجوا يطلبونهم منحدرين مع الماء، فلما وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها [وصافُّوا المسلمين، وكان مع المسلمين خلق من النصارى من المقيمين بمدينة آمل][2] وكان المسلمون فى نحو خمسة عشر ألفا بالخيل والعدد ، فأقام الحرب بينهم ثلاثة أيام، ونصر الله المسلمين عليهم ، وأخذهم السيف : فمن قتيل ، وغريق ، ونجا منهم نحو خمسة آلاف ، فركبوا فى المراكب إلى ذلك الجانب مما يلى بلاد برطاس ، وتركوا مراكبهم

(١) فى ا « متأهبون لهم » .

(٢) هذه العبارة متأخرة فى ا .

وتعلقوا بالبر ؛ فمنهم من قتله أهل برطاس ، ومنهم من وقع إلى بلاد البرغز إلى المسلمين فقتلوهم ، وكان من وقع عليه الإحصاء ممن قتله المسلمون على شاطىء نهر الخزر نحواً من ثلاثين ألفاً ، ولم يكن للروس من تلك السنة عودة إلى ما ذكرنا .

قال المسعودى : وإنما ذكرنا هذه القصة دفعاً لقول من زعم أن بحر الخزر متصل ببحر مايطس وخليج القسطنطينية [-من جهة بحر مايطس ونيطس] ولو كان لهذا البحر اتصال بخليج القسطنطينية من جهة بحر مايطس أو نيطس لكانت الروس قد خرجت فيه ، إذ كان ذلك بحرها على ما ذكرنا ، ولا خلاف بين من ذكرنا ممن تجاوز هذا البحر من الأمم فى أن بحر الأعاجم لا خليج له متصل بغيره من البحار ؛ لأنه بحر صغير يحاط بعلمه ، وما ذكرنا من مراكب الروس فمستفيض فى تلك البلاد عند سائر الأمم ، والسنة معروفة ، وكانت بعد الثلاثمائة . وقد غاب عنى تاريخها ، ولعل من ذكر أن بحر الخزر متصل بخليج القسطنطينية يريد أن بحر الخزر هو بحر مايطس ونيطس الذى هو بحر البرغز والروس ، والله أعلم بكيفية ذلك .

وساحل طبرستان على هذا البحر ، وهنالك مدينة يقال لها الهم ، وهى فرضة قريبة من الساحل[1] ، وبينها وبين مدينة آمل ساعة من النهار ، وعلى ساحل جرجان ، مما يلى هذا البحر ، مدينة يقال لها آبسكون[2] ، على نحو من ثلاثة أيام من جرجان ، وعلى هذا البحر الجيل والديلم ، وتختلف المراكب بالتجارات فيه إلى مدينة آمل ؛ فيدخل فى نهر الخزر إليها ، وتختلف المراكب فيه بالتجارات من المواضع التى سمينا من ساحله إلى باكة ، وهى معدن النفط الأبيض وغيره ، وليس فى الدنيا ـ والله أعلم ـ نفط أبيض إلا فى هذا

(١) فى ب « مدينة يقال لها الهمرجى مرسى للساحل » (٢) فى ا « السكون » محرفا

الموضع ، وهى على ساحل مملكة شروان ، وفى هذه النفاطة أطَمَة ، وهى عين من عيون النار[1] لا تهدأ على سائر الأوقات تَتَضَرَّمُ الصعداء .

حديث عن آطام النيران

ويقابل هذا الساحل فى البحر جزائر : منها جزيرة على نحو ثلاثة أيام من الساحل فيها أطمة عظيمة تزفر فى أوقات من فصول السنة فتظهر منها نار [عظيمة] تذهب فى الهواء كأشمخ ما يكون من الجبال العالية فتضىء الأكثر من هذا البحر ، ويرى ذلك من نحو مائة فرسخ من البر ، وهذه الأطمة تشبه أطمة جبل البركان من بلاد صقلية من أرض الإفرنجة ومن بلاد إفريقية من أرض المغرب ، وليس فى آطام الأرض أشد صوتاً ولا أسود دخاناً ولا أكثر تلهباً من الأطمة التى فى أعمال المهراج ، وبعدها أطمة وادى برهوت ، وهى نحو بلاد سبأ[2] وحضرموت من بلاد الشِّحْر ، وذلك بين بلاد اليمن وبلاد عُمَان ، وصوتها يسمع كالرعد من أميال كثيرة [تقذف من قعرها بجمر كالجبال وقطع من الصخور سود حتى يرتفع ذلك فى الهواء وَيُدْرَكُ حسًّا من أميال كثيرة][3] ثم ينعكس سفلا فيهوى إلى قعرها وحولها ، والجمر الذى يظهر منها حجارة قد احمرت مما قد أحالها من مواد حرارة النار[4] ، وقد أتينا على علة تكون عيون النيران فى الأرض ، وما سبب موادها ، فى كتابنا « أخبار الزمان » .

حديث عن البزاة

وفى هذا البحر جزائر أخرى مقابلة لساحل جرجان ، يصاد منها نوع من البُزَاة البيض ، وهذا النوع من البُزَاة أسرع الضوارى إجابة ، وأقلها معاشرة ، إلا أن فى هذا النوع من البُزَاة شيئاً من الضعف ، لأن الصائد يصطادها من هذه الجزائر فيغذيها بالسمك ، فإذا اختلف عليها الغذاء عرض لها الضعف ، وقد قال الجمهور من أهل المعرفة بالضوارى وأنواع الجوارح من الفرس والترك والروم

(١) فى ب « من عيون الباب لا تهدأ على سائر الأوقات » محرفا .
(٢) فى ا « وهى نحو بلاد أسفار وحضر موت » . (٣) زيادة فى ا وحدها
(٤) فى ب « من سواد حرارة النار » .

والهند والعرب : إن البازى إذا كان إلى البياض فى اللون ، فإنه أسرع البُزَاة وأحسنها وأنبلها أجساماً ، وأجرؤها قلوباً ، وأسهلها رياضة ؛ وإنه أقوى جميع البُزَاة على السمو فى الجو ، وأذهبها الصعداء وأبعدها غاية فى الهواء ؛ لأن فيها من حرف الحرارة(١) وجراءة القلب ما ليس فى غيرها من جميع أنواع البُزَاة ، وإن اختلاف ألوانها لاختلاف مواضعها ، وإن من أجل ذلك خاصت البيض لكثرة الثلج فى أرمينية وأرض الخزر وجرجان وما والاها من بلاد الترك .

وقد حكى عن حكيم من خواقين الترك ــ وهم الملوك المنقادة إلى ملكهم جميع ملوك الترك ــ أنه قال : إن بُزَاة أرضنا إذا أسقطت أنفس فراخها من الوعاء(٢) إلى الفضاء سمت فى [آخر] الجو إلى الهواء البارد الكثيف فأنزلت دواب تسكن هناك فتغذيها [بها] ؛ فلا تلبث أن تقوى وتنهض لإسراع الغذاء فيها ، وأنهم ربما وجدوا فى] أوكارها من تلك الدَّواب أشلاء .

وقد قال جالينوس : إن الهواء [حار رطب ، والبرد يعرض فيه لقوة الرياح المرتفعة ولا يخلو الجو] من نشاء فيه وساكن .

وعن بليناس أنه قال : واجب إذا كان لهذين الأسطقصين ــ يعنى الأرض والماء ــ خلق وساكن أن يكون للاسطقصين الأعليين ــ يعنى الهواء والنار ــ خلق وساكن .

القول بأن الهواء مسكون

وَوَجَدت فى بعض أخبار هرون الرشيد أن الرشيد خرج ذات يوم إلى الصيد ببلاد الموصل ، وعلى يده باز أبيض ؛ فاضطرب على يده ؛ فأرسله ؛ فلم يزل يحلق حتى غاب فى الهواء ؛ ثم طلع بعد الإياس منه ؛ وَقد علق شيئاً فهوى به يشبه الحية أو السمكة ؛ وَله ريش كأجنحة السمك ؛ فأمر الرشيد فوضع فى طست ؛ فلما عاد من قنصه أحضر العلماء فسألهم : هل تعلمون للهواء ساكناً ؟ فقال مقاتل :

(١) فى ا « جزء الحرارة وجزؤه الغالب فيها مما ليس فى غيرها » .

(٢) فى ا « إذا سقطت فى العش فراخها من الرعاء » .

يا أمير المؤمنين ، روينا عن جدك عبد الله بن عباس أن الهواء معمور بأمم مختلفة الخلق ، فيها سكان أقربها منا دَوَاب تبيض فى الهواء تفرخ فيه ، يرفعها الهواء الغليظ وَيربيها حتى تنشأ فى هيئة الحَيَّاتِ أو السمك ، لها أجنحةُ ليست بذات ريش تأخذها بُزَاة بيض تكون بأرمينية ، فأخرج الطست إليهم ، فأراهم الدابة ، وأجاز مقاتلا يومئذ .

وقد أخبرنى غير واحد من أهل التحصيل بمصر وغيرها من البلاد أنهم شاهدوا فى الجوحَيَّاتٍ تسعَى كأسرع ما يكون من البرق [بيض] ، وأنها تقع على الحيوان [فى الأرض] فتقتله[1] ، وربما يسمع لطيرانها فى الليل وحركتها فى الهواء صوت كنشر ثوب جديد ، وربما يقول من لا علم له وغيره من البشر[2] : هذا صوت ساحرة تطير ، ذات أجنحة من قصب .

وللناس كلام كثير فيما ذكرنا ، واستدلالهم [على هذا إنما هو] بما يحدث فى أسطقص الماءمن الحيوان ، وأنه يجب على هذه القصة[3] أن يحدث ذلك بين العنصرين الخفيفين وهما الهواء والنار نشو وَحيوان كحدوثه بين الثقيلين وهما الأرض والماء .

وصف البزاة

قال المسعودى : وقد وصفت الحكماء والملوك البُزَاةَ ، وأغربت فى الوصف ، وأطنبت فى المدح ، فقال خاقان ملك الترك : البازى شجاع مريد[4] وقال كسرى أنوشروان : البازى رفيق يحسن الإشارة[5] ولا يؤخر الفرص إذا أمكنت ، وقال قيصر : البازى ملك كريم إن احتاج أخذ وإن استغنى ترك ، وقالت الفلاسفة : حسبك من البازى سرعة فى الطلب وقوة على الرزق وفى السمو إذا طالت قوادمه وبَعُدَ ما بين منكبيه فذلك أبعد لغايته وأخف

(١) فى ا « فتتلفه » .
(٢) فى ا « من النسوان » .
(٣) فى ا « هذه القضية » .
(٤) فى ا « شجاع مؤيد » .
(٥) فى ا « يحسن الأناة » .

لسرعته ، ألا ترى إلى الصقور لا تزداد فى غاياتها إلا بعداً وسرعة وقوة على التكرار ، وذلك لطول قوادمها مع كثافة أجسامها ، وإنما قصرت غاية البازى لقصر جناحيه ورقة جسمه ، فإذا طالت به الغاية أخره ذلك حتى تشتد نفسه ، ولا تُؤْتَى الجوارح إلا من قصر القوادم ، ألا ترى أن الدراجَ والسمان والحجل وأشباهها حين قصرت قوادمها ، كيف قصرت غاياتها ؟ وقال أرستجانس[1] : البازى طير عارى الحجاب ، وما يفوته فى كسوره يزيده فى أخمصه ورجليه ، وهو أضعف الطير جسما ، وأقواها قلباً وأشجعها وذلك لفضله على سائر الطير بالجزء الذى فيه من الحرارة التى ليست فى شىء منها ، وَوَجدنا صدورها منسوجة بالعصب لا لحم عليها وقال جالينوس مؤيداً لما ذهب إليه أرستجانس : إن البازى لا يتخذ وكراً إلا فى شجرة لَفَّاء مشتبكة بالشوك مختلفة الحجوم بين شجر عسى[2] طلباً للكنّ ودفعاً لألم الحر والبرد ، فإذا أراد أن يفرخ بنى لنفسه بيتاً وسقفه تسقيفاً لا يصل إليه منه مطر ولا ثلج إشفاقاً على نفسه وفراخه من البرد [والضر] .

أول من لعب بالصقور

وذكر أدهم بن محرز أن أول من لعب بالصقور الحارث بن معاوية بن ثور الكندى ، وهو أبو كندة ، وأنه وقف يوما لقانص وقد نصب حِبَالة للعصافير فانقضّ أَكْدَرُ على عصفور منها قد علق ، فعلقه الأكدر ـ وهو الصقر ـ ومن أسمائه أيضاً الأجدل ، فجعل يأكل العصفور وقد علق ، فعجب الملك فأتى به وهو يأكل العصفور ، فرمى به فى كِسر البيت ، فرآه قد دجن ولم يبرح مكانه ولم ينفر ، وإذا رمى إليه طعاما أكله ، وإذا رأى لحماً نهض إلى يد صاحبه ثم دعى فأجاب فطعم على اليد ، وكانوا يتباهون بحمله ، إذ رأى يوما حمامة فطار إليها من يد حامله فعلقها ، فأمر الملك باتخاذها والتصيد بها ، فبينما الملك يسير يوما إذ نفجت

(١) فى « ب » « أرسيخاس » .
(٢) فى « ا » « من شجر خشن » .

أرنب فطار الصقر إليها فأخذها ، فطاب بها الطير والأرانب فقتلها، واتخذها العرب بعده ، ثم استفاضت فى أيدى الناس .

أول من اتخذ الشواهين

فأما الشواهين فإن أرستجانس الحكيم ذكر فى كتاب كان وجَّهه إلى المهدى حمل إليه من أرض الروم أهداه إليه الملك أن ملكا من ملوك الروم يقال له فسيان[1] نظر يوما إلى شاهين يَهْوِى منحدراً على طير الماء فيضربه ثم يسمو مرتفعاً فى الهواء ، حتى فعل ذلك مراراً ، فقال : هذا طير ضَارٍ تَدُلُّنا قوة انحداره على الطير فى الماء أنه ضارٍ ، وتدلنا سرعة ارتفاعه فى جو السماء على أنه طير أبِىٌّ ألوف[2] ، فلما رأى إلى حسن تكراره أعجبه ، فكان أول من اتخذ الشواهين .

وقد ذكر سعيد بن عبيس[3] عن هاشم بن خديج قال : خرج قسطنطين ملك عمورية متصيداً بالبزاة ، حتى انتهى إلى خليج نيطس الجارى إلى بحر الروم فعبر إلى مَرْج بين الخليج والبحر فسيح مديد، فنظر إلى شاهين يتكفأ[4] على طير الماء، فأعجبه ما رأى من سرعته وَضراوته ، ولم يدر الحيلة فى صيده، فأمر أن يصطاد له فضَرّاه ، وكان قسطنطين أول من لعب بالشواهين، ونظر إلى ذلك المرج البساط مفروشاً بألوان الزهر ، فقال : هذا موضع حصين بين نهر وَبحر ، وَله سعة وامتداد يصلح أن يكون فيه مدينة، فبنى فيه مدينة القسطنطينية، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب عند ذكرنا لملوك الروم قسطنطين بن هلاين[5] هذا ، وما كان من خبره ، وهو المظهر لدين النصرانية، وهذا الوجه أحد ما ذكر من السبب الداعى لبناء القسطنطينية .

وقد ذكر ابن غفير[6] عن أبى زيد الفهرى أنه كان من رتبة ملوك الأندلس

---

(١) فى ب « سنان » . (٢) فى ا « أنه طير آبق » .
(٣) فى ب « سعيد بن عفر عن هشام » . (٤) فى ا « ينقض » .
(٥) فى ب « بن هلانى » . (٦) فى ب « ابن عمر » .

اللَّذَارقة أنه إذا ركب الملك منهم صارت الشواهين فى الهواء مظلة لعسكره ، مخيمة على موكبه ، تنحدر عليه مرة وترتفع أخرى ، معلمة لذلك ، فلا تزال على ما وصفنا فى حال مسيره حتى ينزل فتقع حوله ، إلى أن ركب يوماً ملك منهم [يقال له أزرق] وصارت الشواهين معه على ما وصفنا ، فاستثارت طائراً فانقضَّ عليه شاهين فأخذه ، فأعجب بذلك الملك ، وَضَرَّاها على الصيد ؛ فكان أول من نصيد بها بالمغرب وبلاد الأندلس .

قال المسعودى : وكذلك ذكر جماعة من أهل العلم بهذا الشأن أنه كان أول من لعب بالعقبان [من] أهل المغرب ، فلما نظرت الروم إلى شدة أَسْرِهَا وإفراط سلاحها قال حكماؤهم : هذه التى لا يقوم خيرها بشرها .

وذكر أن قيصر أهدى إلى كسرى عُقَاباً وكتب إليه يُعْلِمه أنها نعمل أكثر من عمل الصقر الذى أعجبه صيده ، فأمر بها كسرى فأرسلت على ظبي عرض له فدقته ، فأعجبه ما رأى منها ، فانصرف مسروراً ، فجوعها ليصيد[1] بها ، فوثبت على صبي له فقتلته ، فقال كسرى : وَتَرَنَا قيصر فى أولادنا بغير جيش ، ثم إن كسرى أَهْدَى إلى قيصر نمراً ، وكتب إليه أنه يقتل الظباء وأمثالها من الوحش ، وكتب ما صنعت العُقَاب[2] ، فأعجب قيصرَ حسن النمر ، وطابق صفته بوصف من الفهد ، وغفل عنه ، فافترس بعض فتيانه ، فقال : صادنا كسرى ، فإن كنا قد صدناه فلا بأس .

هذا ، وقد تغلغل بنا الكلام عند ذكرنا لبحر جرجان وجزائره إلى الكلام فى أنواع الجوارح ، وسنذكر لُمَعاً من أخبار البزاة وأعداد أجناس الجوارح وأشكالها عند ذكرنا للملوك اليونانيين ، فلنرجع الآن إلى ذكر الباب والأبواب ومن يلي السور من الأمم وجبل القبخ[3] ، وقد قلنا إن شر الملوك ممن جاورها من

(١) فى ا « ليضريها » . (٢) فى ا « وكتم ما صنعت العقاب »

(٣) فى ... « الفتح » .

مملكة جيدان

الأمم مملكة جيدان[١]، وملكهم رجل مسلم يزعم أنه من العرب من قحطان ويعرف بسلفان فى هذا الوقت، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، وليس فى مملكته مسلم غيره وولده وأهله، وأرى أن هذه السمة يسمى بها كل ملك لهذا الصقع، وبين مملكة جيدان[١] وبين الباب والأبواب أناس من المسلمين عرب لا يحسنون شيئاً من اللغات غير العربية فى آجام هناك وغِياضٍ وأودية وأنهار كبار من قرى قد سكنوها، وقطنوا ذلك الصقع منذ الوقت الذى افتتحت فيه تلك الديار ممن طرأ من بوادى العرب إليها، فهم مجاورون لمملكة جيدان[١]، إلا أنهم ممتنعون بتلك الأشجار والأنهار، وهم على نحو ثلاثة أميال من مدينة الباب والأبواب، وأهل الباب يحذرونهم[٢].

ويلى مملكة جيدان[١] مما يلى جبل القبخ والسرير ملك يقال له برزبان[٣] مسلم، ويعرف بلده بالكرج[٤]، وهم أصحاب الأعمدة، وكل ملك يلى هذه المملكة يدعى برزبان.

مملكة غميق

ثم يلى مملكة برزبان مملكة يقال لها غميق[٥]، وأهلها أناس نصارى لا ينقادون إلى ملك، ولهم رؤساء، وهم مهادنون لمملكة اللان.

مملكة زريكران

ثم يليهم مما يلى السرير والجبل مملكة يقال لها زريكران[٦]، وتفسير ذلك عمال الزرد، لأن أكثرهم يعمل الزرد والرِّكابَ واللجم والسيوف وغير ذلك من أنواع الحديد، وهم ذوو ديانات مختلفة: مسلمون، ويهود، ونصارى، وبلدهم بلد خشن، قد امتنعوا بخشونته على من جاورهم من الأمم.

مملكة فيلان شاه

ثم يلى هؤلاء مملكة السرير، وملكها يدعى فيلان شاه[٧]، يدين بدين النصرانية، وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب أنه من ولد بهرام جور، وسمى صاحب السرير لأن يزدجرد - وهو الآخر من ملوك ساسان - حين ولى منهزماً قدم

(١) فى ب «حيزان».

(٢) فى ا «ينجدونهم».

(٣) فى ا «يقال له مدرمان».

(٤) فى ب «بالكرخ».

(٥) فى ب «عميق».

(٦) فى ب «درلكران»

(٧) فى ب «قيلان شاه».

سريره الذهب وخزائنه وأمواله مع رجل من ولد بَهْرَام جور ليسير بها إلى هذه المملكة فيحرزها هناك إلى وقت موافاته ، ومضى يزدجرد إلى خراسان فقتل هناك ، وذلك فى خلافة عمر رضى الله عنه[1] على ما ذكرنا فى هذا الكتاب وغيره من كتبنا ، فقطن ذلك الرجل فى هذه المملكة ، واستولى عليها ، وصار الملك فى عقبه ! فسمى صاحب السرير ، ودار مملكته تعرف بحمرج[2] ، وله اثنا عشر ألف قرية يستعبد منهم من شاء ، و بلده بلد خشن منيع لخشونته ، وهو شعب من جبل القبخ ، وهو يغير على الخزر مستظهراً عليهم ؛ لأنهم فى سهل وهو فى جبل .

مملكة اللان

ثم تلى هذه المملكة مملكة اللان وملكها يقال له كركنداج[3] ، وهذا الاسم الأعم لسائر ملوكهم ، وكذلك فيلان شاه ، فهو الاسم الأعم لسائر ملوك السرير ، ودار مملكة ملك اللان يقال لها معص ، وتفسير ذلك الديانة[4] ، وله قصور ومتنزهات فى غير هذه المدينة ينتقل فى السكنى إليها ، و بينه و بين صاحب السرير مصاهرة فى هذا الوقت ، وقد تزوج كل واحد منهما بأخت الآخر ، وقد كانت ملوك اللان بعد ظهور الإسلام فى الدولة العباسية اعتقدوا دين النصرانية . وكانوا قبل ذلك جاهلية ، فلما كان بعد العشرين والثلثمائة رجعوا عما كانوا عليه من النصرانية ، وطردوا مَنْ كان قبلهم من الأساقفة والقسيسين ، وقد كان أنفذهم إليهم ملك الروم .

و بين مملكة اللان وجبل القبخ قلعة وقنطرة على واد عظيم يقال لهذه القلعة قلعة باب اللان ، بنى هذه القلعة ملك فى قديم الزمان من الفرس الأوائل يقال له اسبنديار بن يستاسف[5] [بن بهراسب] ورتب فى هذه القلعة رجالا يمنعون اللان عن الوصول إلى جبل القبخ ، ولا طريق لهم إلا على هذه القنطرة من تحت هذه القلعة ، والقلعة على صخرة صماء لا سبيل إلى فتحها والوصول إليها إلا بإذن مَنْ فيها ؛ ولهذه القلعة المبنية على أعلى هذه الصخرة

(١) فى ا « وذلك فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه » .
(٢) فى ب « بحبرج » .
(٣) فى ب « كركنداح » .
(٤) فى ب « الدماثة »
(٥) فى ب « اسفنديار بن كستاسب »

عين من المـاء عذبة تظهر فى وسطها من أعلى هذه الصخرة ، وهذه القلعة إحدى قلاع العالم الموصوفة بالمَنَعَة، وقد ذكرتها الفرس فى أشعارها، وما كان لاسبنديار بن يستاسف فى بنائها، ولإسبنديار فى الشرق حروب كثيرة مع أصناف من الأمم ، وهو السائر إلى بلاد الترك ، فخرب مدينة الصفر[١] ، وكانت من المنعة بالموضع العظيم الذى لا يُرَام ، وبها تضرب الفرس[٢] الأمثال ، وما كان من أفعال إسبنديار وما وصفنا فذكور فى الـكتاب المعروف بكتاب البنـكش[٣] ، نقله ابن المقفع إلى لسان العرب ، وقد كان مَسْلمة بن عبد الملك بن مروان حين وصل إلى هذا الصقع ووطىء أهله أسكن فى هذه القلعة أناساً من العرب إلى هذه الغاية يحرسون هذا الموضع ، وربما يحمل إليهم الرزق [وأقوات] من البر من ثغر تفليس ، وبين تفليس وهذه القلعة مسيرة خمسة أيام ، ولو كان رجل واحد فى هذه القلعة لمنع سائر الملوك الـكفار أن يجتازوا بهذا الموضع ؛ لتعلقها بالجو وإشرافها على الطريق والقنطرة والوادى ، وصاحب اللان يركب فى ثلاثين ألف فارس ، وهو ذو مَنَعَة وبأس شديد وذو سياسة بين[٤] الملوك ، ومملـكته عمائرها متصلة ، غير منفصلة ، إذا تصايحت الديوك تجاوبت فى سائر مملـكته لاشتباك العمائر واتصالها

أمة كشك

ثم يلى مملـكه اللان أمة يقال لها كشك[٥] ، وهم بين جبل القبخ وبحر الروم ، وهى أمة مطيعة[٦] منقادة إلى دين المجوسية ، وليس فيمن ذكرنا من الأمم فى هذا الصقع أنقى أبشاراً ، ولا أصفى ألواناً [ولا أحسن رجالا] ولا أصبح نساء ، ولا أقوم قدوداً ، ولا أدق أخصاراً ، ولا أظهر أكفالا وأردافاً ، ولا أحسن شكلا من هذه الأمة ، ونساؤهم موصوفات بلذة الخلوات ، ولباسهم البياض والديباج الرومى والسقلاطونى وغير ذلك من

(١) فى ب « الصعر » .
(٢) فى ب « ضرب الفرس »
(٣) فى ب « السيكس » .
(٤) فى ا « من الملوك » .
(٥) فى ب « كشك » .
(٦) فى ا « أمة نظيفة » .

أنواع الديباج المذهب ، وبأرضهم أنواع من الثياب بصنع من القنب ، فيها نوع يقال له الطلى أرق من الدبيقى على الـكَدِّ ، يبلغ الثوب عشرة دنانير ، ويحمل إلى ما يليهم[1] من الإسلام ، وقد تحمل هذه الثياب ممن جاورهم من الأمم ، إلا أن الموصوف منها ما يحمل من قبل هؤلاء .

واللان مستظهرة على هذه الأمة ، لا تنتصف هذه الأمة من اللان ، إلا أنها تمتنع من اللان بقلاع لها على ساحل البحر ، وقد نُوزع فى البحر الذى هم عليه : فمن الناس من يرى أنه بحر الروم ، ومنهم من يرى أنه بحر نيطس ، إلا أنهم يقربون فى البحر من بلاد طرابزندة[2] ، والتجارة تتصل بهم منها فى المراكب ، وتتجهز من قبلهم أيضاً ، والعلة فى ضعفهم عن اللان تركهم أن يملِّكوا عليهم ملكا يجمع كلمتهم ، ولو اجتمعت كلمتهم لم يُطِقْهم اللان ولا غيرها من الأمم ، وتفسير هذا الاسم وهو فارسى إلى العربية [التِّيه[3] و] الصَّلَفُ ، وذلك أن الفرس إذا كان الإنسان تائها صلفاً قالوا : كشك .

وتلى هذه الأمة التى على هذا البحر أمة أخرى يقال لبلادهم : السبع بلدان ، وهى أمة كبيرة ممتنعة بعيدة الدار لا أعلم ملتها ، ولا نمى إلى خبرها فى دينها .

وتليها أمة عظيمة بينها و بين بلاد كشك نهر عظيم كالفرات يصب إلى بحر [الروم ، وقيل : إلى بحر] نيطس[4] ، و يقال لدار مملكة هذه الأمة إرم ذات العماد ، وهم ذوو خلق عجيب ، وآراؤها جاهلية ، ولهذا البلد على هذا البحر خبر ظريف ، وذلك أن سمكة عظيمة تأتيهم فى كل سنه فيتناولون منها ، ثم تعود ثانية فتتوجه نحوهم من الشق الآخر فيتناولون منها ، وقد عاد اللحم على الموضع الذى أخذ منه أولا ، وخبر هذه الأمة مستفيض فى تلك الديار من الكفار .

إرم ذات العماد

ويلى هذه الأمة أمة بين جبال أربعة كل جبل منها ممتنع ذاهب فى الهواء

---

(١) فى ب « إلى ما بينهم » (٢) فى ب « طار بندة »
(٣) زيادة فى ا وحدها (٤) الزيادة عن ب ، وفيها «مانطش»

وبين هذه الجبال الأربعة من المسافة نحو من مائة ميل صحراء ، فى وسط تلك الصحراء دارة مقورة(١) كأنها قد خطت ببيكار(٢) ، وشكل دائرتها خسفة مجوفة(٣) فى حَجَر صَلْد منخسف كما تدور الدائرة ، استدارة تلك الخسفة نحو خمسين ميلا قطع قائم يهوى سفلا كحائط مبنى من سفل إلى علو يكون قعره على نحو من ميلين ، لاسبيل إلى الوصول إلى مستوى تلك الدارة ، ويرى فيها بالليل نيران كثيرة فى مواضع مختلفة ، وبالنهار يرى قرى وعمائر وأنهار تجرى بين تلك القرى وناس وبهائم ، إلا أنهم يرون لطاف الأجسام لبعد قعر الموضع ، ولا يدرى من أى الأمم هم ، ولاسبيل لهم إلى الصعود إلى جهة من الجهات ، ولاسبيل لمن فوق إلى النزول إليهم بوجه من الوجوه ، ووراء تلك الجبال الأربعة على ساحل البحر خسفة أخرى قريبة القعر فيها آجام وغياض فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه والأغلب عليها صور الناس وأشكالهم ، إلا أنهم ذوو شعر ، وربما وقع فى النادر القرد منها إذا احتيل فى اصطياده ؛ فيكون فى نهاية الفهم والدراية ، إلا أنه لا لسان له فيعبر بالنطق ؛ ويفهم كل ما يخاطب به بالإشارة ، وربما حمل الواحد منها إلى ملوك الأمم من هناك فتعلمه القيام على رءوسها بالمذابّ على موائدها [لما فى القرد من الخاصة بمعرفة السموم من الأكل والمشرب](٤) ويلقى الملك له من طعامه : فإن أكله أكل الملك منه ، وإن اجتنبه علم أنه مسموم فحذر منه ، وكذلك فعل الأكثر من ملوك السند والهند(٥) فى القردة ، وقد ذكرنا فى هذا الكتاب خبر وفد الصين حين وفدوا على المهدىّ ، وما ذكروا له [مما] فى القرد من منافع ملوكهم به عند الطعام وذكرنا خبر القرود باليمن واللوح الحديد الذى كتبه سليمان بن داود عهداً للقرود باليمن ، وما كان من

وصف نوع من القردة

---

(١) فى ا « منقورة » . (٢) فى ا « بيركار » .

(٣) فى ا « منحوتة » .

(٤) زيادة فى ا وحدها ، وبها يتم الكلام (٥) فى ا « ملوك الصين والهند »

أمرهم مع عامل معاوية [بن أبي سفيان] ، وما كتب به في أمرهم ، ووصف القرد العظيم الذي كان في رقبته اللوح الحديد ، وليس في قرود العالم أفطن من هذا النوع ، ولا أخبث ، وذلك أن القردة تكون في بقاع الأرض الحارة: فمنها بأرض النوبة وأعلى بلاد الأحابيش مما يلي أعالي مصب النيل [وهي] القرود المعروفة بالنوبية، وهي صغيرة القد صغيرة الوجوه ذات سواد غير حالك كأنه نوبي وهو الذي يكون مع القرّادين، ويصعد على رمح فيصير على أعلاه، ومنها ما يكون في ناحية الشمال[1] في آجام وغياض نحو أرض الصقالبة وغيرها من هناك من الأمم ، كنحو ما وصفنا من هذا النوع من القرود، وقرب شكله من صورة الإنسان ومنها بخلجانات بلاد الزابج في الصين وفي مملكة المهراج ملك الجزائر، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن ملكه يوازي ملك الصين ، وهو بين مملكة البلهرا وملك الصين ، وهذه القرود مشهورة في هذا الصقع معروفة بالكثرة في هذه الخلجانات ، وهي ذات صور تامة ، وقد كان حمل إلى المقتدر منها، وجاءت في سلاسل عظام[2] ، وكان في القرود ذو ولحى وسبال كبار [وشيوخ وشبان][3] مع أنواع من الهدايا من عجائب البحر ، حمل ذلك أحمد بن هلال أمير[4] عمان يومئذ ، وهذه القرود أمرها مشتهر عند البحريين من أهل سيراف وعمان ممن يختلف إلى بلاد كلة والزابج ، وكيف تأتي بالحيلة لصيد التماسيح من جوف الماء، على أن الجاحظ قد ذكر أن التماسيح لا تكون إلا بنيل مصر ونهر مهران السند وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب ما قيل في ذلك، وأخبرنا عن مواضع التماسيح فأما اليمن فلا تناكر بين مَنْ دخله في أن القرود منه في مواضع كثيرة لا يحصرها عدد لكثرتها : فمنها في وادي نخلة ، وهي بين بلاد الجَنَد وبلاد زبيد التي أميرها

---

(١) في ب « ناحية الشام » محرفا (٢) في ا « وحيات عظام في سلاسل »
(٣) زيادة في ا وحدها (٤) في ب « أحمد بن أبي هلال » .

فى هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ إبراهيم بن زياد صاحب الحرملى ، و بين هذا الوادى وبين زبيد يوم ، و بينه و بين الجَنَد يوم أو أكثر من ذلك ، وهذا الوادى كثير العمائر ، ومصاب المياه إليه كثيرة ، وشجر الموز فيه كثير ، والقرود فيه كثيرة ، وهو بين جبلين ، والقرود قطعان كل قطيع منها يسوقه هزر ، والهزر[1] : الذكر العظيم كالفحل العظيم المقدَّم فيها ، وقد تلد القردة فى بطن واحدة عدة من القرود نحو العشرة والاثنى عشر ، كما تلد الخنزيرة خنانيص كثيرة ، وتحمل القردة البعض من أولادها كحمل المرأة ولدها ، ويحمل الذكر باقيهن ، ولهن [أندية و] مجالس يجتمع فيها خلق منهن فيسمع لهن حديث ومخاطبات وهمهمة ، والإناث [كالنساء] متحيزات عن الذكور ، فإذا سمع السامع محادثتهن وهو لا يرى أشخاصهن بين تلك الجبال وأشجار الموز ، وذلك بالليل ، لم يشك أنهم أناس لكثرتهم بالليل والنهار ، وليس فى جميع البقاع التى تكون فيها القرود أحسن ولا أخبث ولا أسرع قبولا للتعليم من قردة اليمن ، وأهل اليمن يسمون القرد الرباح ، ولهم جُمَم للذكور والإناث قد سرحت [ومنها][2] سود كأسْوَدِ ما يكون من الشعر ، وإذا جلسوا[3] يجلسون مراتب دون مرتبة الرئيس ، ويتشبهون فى سائر أعمالهم بالناس ، ومن القردة باليمن ببلاد مأرب بين بلاد صنعاء و [قلعة][4] كهلان ما يكون فى برارٍ وجبال هنالك كأنها السحب فى تلك البرارى والجبال لكثرتها ، وكهلان هذه قلعة من مخاليف اليمن فيها أسعد بن يعفور[5] ملك اليمن فى هذا الوقت مُحْتَجِب عن الناس إلا [عن] خواصه ، وهو بقيَّة من ملوك حمير ، وحوله من الجنود من الخيل والرجال نحو خمسين ألفاً مرتزقة يقبضون الرزق فى كل شهر ، ويدعى وقت القبض

---

(١) فى ب « يسوقه هدر ، والهدر » .

(٢) زيادة فى ا وحدها . (٣) فى ب « وإذا طلبوا يجلسون »

(٤) فى ب « من بلاد صنعاء » وكلمة « قلعة » زائدة فيها وحدها وفى ا « كحلان »

(٥) فى ب « أسعد بن يعفرا »

البركة[١] ، فيجتمعون هناك [ويتحذرون] وينحدرون من تلك المخاليف ، والمخاليف : القلاع ، وقد كانت لهذا الرجل حروب باليمن مع القرامطة وصاحب المذيخرة ، وهو على بن الفضل ، وذلك بعد السبعين والمائتين[٢] ، وقد كان لعلى باليمن شأن عظيم حتى قتل[٣] ، وتوطأت اليمن لهذا الرجل ، وباليمن للقرود مواضع كثيرة ، وكذلك فى بقاع من الأرض أعرضنا عن ذكرها ، إذ كنا قد أتينا على علة تكونها فى بعض البقاع دون بعض من الأرض وأخبار النسناس فى كتابنا «أخبار الزمان» وكذلك الأخبار عن العرابيد ، وهو نوع كالحيات تكون ببلاد حجر اليمامة فيما زعموا ، واحدها عربد ، وقد كان المتوكل فى بدء خلافته سأل حنين ابن إسحاق أن يأتى له فى حمل أشخاص من النسناس والعربد ، فلم يَسْلَم منهم إلى سُرَّ مَنْ رأى إلا اثنان من النسناس ، ولم تتأتَّ له الحيلة فى حمل العربد من اليمامة ، وذلك أن العربد هذا إذا خرج عن اليمامة وصار إلى موضع منها معروف المسافة عدم من الوعاء الذى حمل فيه ، وأهل اليمامة ينتفعون به لمنع الحيات والعقارب وسائر الهوام ، كمنفعة أهل سجستان بالقنافذ ، ولذلك كان فى عهد [أهل] سجستان القديم ألا يقتل قنفذ ببلدهم ؛ لأنه بلد كثير الرمال بناه ذو القرنين فى مَطَافه ، وحوله جبال كثيرة من الرمل قد سكرت بالخشب والقصب ، والبلد كثير الأفاعى والحيات جداً ، فلولا كثرة القنافذ لتلف من هنالك من الناس ، وكذلك أهل مصر فى صعيدها وغيره ، لهم دويبة يقال لها العرانس[٤] أكبر من الجرذ وأصغر من ابن عرس حمراء بيضاء البطن ، لولا هذه الدويبة لغلب على أهل مصر الثعابين ، وهى نوع من الحيات عظيمة ؛ فينطوى الثعبان على [هذه] الدويبة ويلتف بها فترخى عليه الريح فينقطع الثعبان من ريحها ، هذه خاصية هذه

---

(١) فى ا « يدعى وقت الفيض النزلة » (٢) ا « بعد التسعين والمائتين »
(٣) فى ب « حين قتل » (٤) فى ا « يقال لها العرائس »

الدابة ، وفى الشرق أنواع من الخواص فى بره وبحره وحيوانه ونباته وجماده ، وكذلك فى الغرب واليمن[١] وهو الجنوب ، والجدى[٢] وهو الشمال ، وقد ذكرنا طبع كل واحد من هذه الأرباع ؛ ففى ذكرها فى هذا الباب خروج عن الغرض الذى يممنا نحوه .

فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه آنفاً من ذكر الأمم المحيطة بالباب والأبواب والسور وجبل القبخ وبلاد الخزر واللان ، فنقول :

إنه يلى بلاد الخزر [واللان] فيما بينهم وبين المغرب أمم أربع : ترك ترجع إلى أب واحد فى بدء أنسابهم ، حَضَر وبدو ، وذوو مَنَعَة وبأس شديد ، لكل أمة منها ملك ، مسافة مملكته أيام ، متصلة ممالكهم بعضها ببحر نيطس ، وتتصل عماراتها[٣] بمدينة رومية ، وما يلى بلاد الأندلس ، مستظهرة على سائر ما هنالك من الأمم ، وبينهم وبين ملك الخزر مهادنة ، وكذلك مع صاحب اللان ، وديارهم تتصل ببلاد الخزر ، فالجيل الأول منهم يقال له بجنى[٤] ، ثم تليها أمة ثانية يقال لها بجغرد[٥] ، ثم تليها أمة يقال لها بجناك ، وهى أشد هذه الأمم الأربعة بأساً ، ثم تليها أمة ثانية يقال لها نوكرده[٦] وملوكهم بَدْو ، وكان لهم حروب مع الروم بعد العشرين والثلاثمائة ، أو فيها ، وقد كان للروم فى تخوم أرضهم فيما يلى من ذكرنا من هذه الأجناس الأربعة مدينة عظيمة يونانية يقال لها ولندر[٧] ، فيها خلق من الناس ومَنَعَة بين الجبال والبحر ، فكل من فيها مانع لمن ذكرنا من الأمم ، ولم يكن لهؤلاء الترك سبيل إلى أرض الروم لمنع الجبال والبحر[٨] إياهم ، ومن فى هذه المدينة ، وكان بين هؤلاء الأجناس حروب لخلاف

(١) فى ا «والتيمن وهو الجنوب »

(٢) فى ب « والحرمى » (٣) فى ا « وتتصل غاراتهم ببلاد رومية »

(٤) فى ب « يقال له يحيى » (٥) فى ب « يقال لها جعرد »

(٦) فى ب « يقال لها البوكردة »

(٧) فى ب « يقال لها وليدر » (٨) فى ب « والشجر » محرفا

وقع بينهم على رأس رجل مسلم تاجر من أرض أردبيل : كان نازلا على أرض بعضهم ، فاستضافه ناس من الجبل الآخر ، فاختلفت الكلمة ، وأغار من فى ولندر[١] من الروم على ديارهم وهم عنها خُلُوف ، فَسَبَوْا كثيراً من الذرية ، وساقوا كثيراً من الأموال ، ونمى ذلك إليهم وهم مشاغيل فى حربهم ، فاجتمعت كلمتهم ، وتواهبوا ما كان بينهم من الدماء ، وعمد القوم[٢] جميعاً نحو مدينة ولندر[١] ، فساروا إليها فى نحو من ستين ألف فارس ، وذلك على غير احتفال منهم ولا تجمُّع ، ولو كان ذلك لكانوا فى نحو من مائة ألف فارس ، فلما نمى خبرهم إلى أرمنوس[٣] ملك الروم فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — سَيَّر إليهم اثنى عشر ألف فارس من المتنصرة على الخيول بالرماح فى زى العرب ، وأضاف إليهم خمسين ألفاً من الروم، فوصلوا إلى مدينة ولندر[١] فى ثمانية أيام ، وعسكروا وراءها ، ونازلوا القوم ، وقد كانت الترك قتلت من أهل ولندر[١] خلقاً [كثيراً] من الناس ، وامتنع أهلها بسورهم إلى أن أتاهم هذا المدد ، ولما صح عند الملوك الأربعة من سار إليهم من المتنصرة والروم بعثوا إلى بلادهم فجمعوا من كان قبلهم[٤] من تجار المسلمين ممن يطرأ إلى بلادهم من نحو بلاد الخزر والباب واللان وغيرهم ، وفى هؤلاء الأجناس الأربعة من قد أسلم ، وهم غير مخالطين لهم إلا عند حروب الكفار ، فلما تصافَّ القوم وبرزت المتنصرة أمام الروم خرج إليهم من كان قِبَلَ الترك من التجار [المسلمين] فدعوهم إلى ملة الإسلام ، وأنهم إن دخلوا فى أمان الترك أخرجوهم من بلادهم إلى أرض الإسلام ، فأبوا ذلك ، وتواقف الفريقان فى ذلك الوقت ، فكانت للمتنصرة والروم على الترك ؛ لأنهم كانوا فى الكثرة أضعاف الترك ، وباتوا على مَصَافِّهم ، وتشاور ملوك

---

(١) فى ب « يقال لها وليدر » (٢) فى ا « وحمل القوم »

(٣) فى ب « أرميوس » (٤) فى ا « من كان معهم »

الترك الأربعة فقال لهم ملك بجناك : قلدونى التدبير فى غداة غد ، فأنعموا له بذلك ، فلما أصبح جعل فى جناح الميمنة كراديس كثيرة كل كردوس منها ألف ، وكذلك فى جناح الميسرة ، فلما تصافَّ القوم خرجت الكراديس من ناحية الميمنة[1] فرشقت فى قلب الروم فصارت إلى الميسرة ، وخرجت كراديس الميسرة فرشقت فى قلب الروم فصارت إلى موضع مَنْ خرج من جناح الميمنة ، وانصل الرمْىُ ، واتصلت[2] الكراديس كالرحى ، والقلب والميمنة والميسرة للترك ثابتة ، والكراديس تعمل عليها فى اللفيق[3] ، وذلك أن من خرج من كراديس الترك من جناح ميمنتهم كان يبتدىء فيرمى فى جناح ميسرة الروم ويمر بميمنتهم فيرمى وينتهى إلى القلب ، وما يخرج من كراديسهم من جناح الميسرة يرمى فى جناح ميمنة الروم ، وينتهى إلى الميسرة فيرمى ، وينتهى إلى القلب فيرمى ، فيكون ملتقى الكراديس فى القلب دائراً على ما وصفنا ، فلما نظرت المتنصرة والروم إلى ما لحقهم من تَشَوُّش صفوفهم وتواتر الرمى عليهم حملوا على القوم مشوشين فى مصافهم فصادفوا صفوف الترك ثابتة فأخرجت لهم الكراديس ، فرشقتهم الترك كلها رشقاً واحداً ، فكان ذلك الرشق سبب هزيمة الروم ، وعقبهم الترك[4] بعد الرشق بالحملة على صفوفهم وهم غير متشوشين عما كانوا عليه من التعبئة ، وركضت الكراديس من اليمين والشمال ، وأخذ القوم السيف ، وأسود الأفق ، وكثر صياح الخيل ، فقتل من الروم والمتنصرة نحو من ستين ألفاً حتى كان يصعد إلى سور المدينة على جثثهم ، فافتتحت المدينة ، وأقام السيف يعمل فيها أياماً ، وسبى أهلها ، وخرج عنها الترك بعد ثلاثة [أيام] يؤمون القسطنطينية ، ثم توسطوا العمائر والمروج والضياع قتلا وأسرا وسبيا ، حتى نزلوا على سور القسطنطينية ، فأقاموا عليها نحواً من أربعين

---

(١) فى ا « من جناح الميمنة » (٢) فى ا « وتواترت الكرادس »
(٣) فى ب « ألف ألف » (٤) فى ا « وغلبت الترك بعد الرشق — إلخ »

يوماً يبيعون المرأة والصبى منهم بالخرقة والثوب من الديباج والحرير ، وبذلوا السيف [فى الرجال] فلم يبقوا على أحد منهم ، وربما قتلوا النساء والولدان ، وَشَنُّوا الغارات فى تلك الديار ، فاتصلت غاراتهم بأرض الصقالبة وورومية ، ثم اتصلت غاراتهم [فى هذا الوقت] إلى نحو بلاد الأندلس[١] والإفرنجة والجلالقة ، فغارات من ذكرنا من الترك متصلة إلى أرض القسطنطينية وما ذكرنا من الممالك إلى هذه الغاية .

فلنرجع الآن إلى ذكر جبل القبخ والسور والباب والأبواب ؛ إذ كنا قد ذكرنا جملا من أخبار الأمم القاطنة فى هذا الصقع ، فمن ذلك أن أمة تلى بلاد اللان يقال لها الأبخاز[٢] منقادة إلى دين النصرانية ، ولها ملك فى هذا الوقت [وملك اللان مستظهر عليهم ، وهم متصلون بجبل القبخ ، ثم يلى ملك الأبخاز ملك الجورية ، وهى أمة عظيمة منقادة إلى دين النصرانية تدعى خزران ، ولها ملك فى هذا الوقت][٣] يقال له الطبيعى ، وفى مملكة هذا الطبيعى موضع يعرف بمسجد ذى القرنين ، وكانت الأبخاز والخزرية تؤدى الجزية إلى صاحب ثغر تفليس منذ فتحت تفليس وسكنها المسلمون إلى أيام المتوكل[٤]؛ فإنه كان بها رجل يقال له إسحاق بن إسماعيل ، وكان مستظهراً بمن معه من المسلمين على من حوله من الأمم ، وهم منقادون إلى طاعته وأداء الجزية إليه ، وعلا أمر مَنْ هناك من الأمم حتى بعث المتوكل بعثاً فنزل على ثغر تفليس ، وأقام عليها محارباً حتى افتتحها بالسيف ، وقتل إسحاق بن إسماعيل ؛ لأن إسحاق بن إسماعيل كان متغلباً على الناحية ، وكانت له أخبار يطول ذكرها ، وهى مشهورة فى أهل ذلك الصقع وغيرهم ممن عنى بأخبار العالم ، وأراه رجلا من قريش من بنى أمية أو مولى لاحقاً ، فانخرقت هيبة المسلمين من ثغر تفليس من ذلك الوقت إلى هذه الغاية ، فامتنع من

الأبخاز

(١) فى ا « إلى نحو ثغور الأندلس » . (٢) فى ب « يقال لها الأنجاز »
(٣) سقط هذا الكلام كله من ب . (٤) فى ب « فى أيام المتوكل »

جاورهم من الممالك من الإذعان لهم بالطاعة ، واقتطعوا الأكثر من ضياع تفليس ، وانقطع الوصول من بلاد الإسلام إلى ثغر تفليس بين هؤلاء الأمم من الكفار ؛ إذ كانت محيطة بذلك الثغر ، وأهلها ذوو قوة وبأس شديد ، وإن كان ما ذكرنا من الممالك محيطاً بهم .

مملكة الصنارية

ثم تلى مملكة خزران مملكة يقال لها الصمصخى[1] ، نصارى وفيهم جاهلية لا ملك لهم ، ثم تلى مملكة هؤلاء الصمصخية بين ثغر تفليس وقلعة باب اللان المقدَّم ذكرها مملكة يقال لها الصنارية[2] ، وملكهم يقال له كرسكوس ، هذا الاسم الأعم لسائر ملوكهم ، وينقادون إلى دين النصرانية ، وهؤلاء النصرانية[2] يزعمون أنهم من العرب من نزار بن معد ، من مضر ، وأنهم فخذ من عقيل ، سكنوا هنالك من قديم الزمان ، وهم هناك مستظهرون على كثير من الأمم ، ورأيت ببلاد مأرب من أرض اليمن أناساً من عقيل محالفة لمذحج[3] ، لا فرق بينهم وبين أحلافهم[4] ؛ لاستقامة كلمتهم ، فيهم خيل كثيرة ومَنَعَة ، وليس فى اليمن كلها قوم من نزار بن معد غير هذا الفخذ من عقيل ، إلا ما ذكر من ولد أنمار بن نزار بن معد ، ودخولهم فى اليمن حسب ما ورد به الخبر ، وهو ما كان من خبر جرير بن عبد الله البجَلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وما كان من خبر بجيلة ، والصنارية يزعمون أنهم افترقوا فى قديم الزمان هم ومن سَمَّينا من عقيل ببلاد مأرب فى خبر طويل .

مملكة شكين

ثم تلى مملكة الصنارية مملكة شكين[5] وهم نصارى ، وفيهم خلق من المسلمين من التجار وغيرهم [من ذوى المهن] ، ويقال لملكهم فى هذا الوقت المؤرخ به كتابنا آزر بن نبيه بن مهاجر[6] .

---

(١) فى ب « الصمصحية » .
(٢) فى ب « الصنبارية » .
(٣) فى ا « مخالفة لمذحج » .
(٤) فى ا « أخلاقهم » .
(٥) فى ب « سكين » .
(٦) فى ا « أدرنرسه بن همام » .

مملكة قيلة

ثم تليهم مملكه قيلة[١] وما حوت المدينة منها مسلمون ، وما حولها من العمائر والضياع نصارى ، ويقال لملكهم فى هذا الوقت المؤرخ به كتابنا هذا عنبسة الأعور ، وهو مأوى اللصوص والصعاليك والدُّعَّار .

مملكة الموقان

ثم تلى هذه المملكه مملكه الموقان[٢] ، وهى التى قدمنا ذكرها ، وأنها متغلب[٣] عليها ، وأنها مضافة إلى مملكة شروان شاه ، وليس هذا البلد المعروف بالموقانية هو [الملك] الذى على ساحل بحر الخزر ، وقد كان محمد بن يزيد المعروف بشروان شاه فى هذا الوقت ملك الإيران شاه هو ومن سلف من آبائه ، وكان ملك شروان شاه علىّ بن الهيثم ، فلما هلك على تغلّب محمد على شروان شاه على حسب ماذكرنا آنفاً ، بعد أن قتل عمومة له واحتوى على ماذكرنا من الممالك ، وله قلعة لا يذكر فى قلاع العالم أحسن منها فى جبل القبخ .

وللباب أخبار كثيرة من أخبار الأبنية العجيبة التى بناها كسرى بن قباذ ابن فيروز — وهو أبو كسرى أنوشروان — فى الموضع المعروف بالمسقط من المدينة بالحجارة والحيطان التى بناها ببلاد شروان المعروف بسور الطين وسور الحجارة المعروف بالبرمكى وما يتصل ببلاد برذعة — أعرضنا عن ذكرها ؛ إذ كنا قد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا .

وأما نهر الكر فيبتدىء من بلاد خزران من مملكه جرجين[٤] ، ويمر ببلاد أبخاز[٥] حتى يأتى ثغر تفليس ، ويشق فى وسطه ، ويجرى فى بلاد السياوردية[٦] حتى ينتهى على ثمانية أميال[٧] من برذعة ، ويجرى إلى برداج[٨]

(١) فى ب « قبله » . (٢) فى ا «ثم تتصل هذه المملكة بمملكة الموقانية»

(٣) فى ب « وأنها متغلبة عليها » (٤) فى ب « جرجير »

(٥) فى ب « يبلاد الخان » (٦) فى ب « بلاد السلورية »

(٧) فى ا « ثلاثة أميال » (٨) فى ب « وداح »

[من أعمال برذعة] ثم يصب فيه مما يلى الصنارة نهر الرس ، ويظهر من أقاصى بلاد الروم من نحو مدينة طرابزنده حتى يجىء إلى السكر ، وقد صار فيه نهر الرس ، فيصب فى بحر الخزر ، ويجرى الرس بين بلاد البدين — وهى بلاد بابك الخرّمى — من أرض أذربيجان وجبل أبى موسى من بلاد الران ، ويمر ببلاد ورثان ، وينتهى إلى حيث وصفنا ، وقد أتينا على وصف هذه الأنهار أيضاً ، والنهر المعروف بأسبيذروج[1] [وتفسير ذلك النهر الأبيض على التقديم والتأخير بين اللغتين وهى الفارسية والعربية ، وممره][2] وجريانه فى أرض الديلم نحو قلعة سلار ، وهو ابن أسوار [الديلمى][3] بعض ملوك الديلم [وقد ظهر فى هذا الوقت المؤرخ به كتابنا تغلب بلاد أذربيجان] ثم يمر هذا النهر من الديلم إلى الجيل ، ويصب فيه نهر آخر فى بلاد الديلم ، يقال له : شاهان روذ[4] ، فينتهى مصب الجميع إلى بحر الجيل ، وهو بحر الديلم والخزر وغيرهم ممن ذكرنا من الأمم المحيطة بهذا البحر ، وعلى هذه الأنهار أكثر هؤلاء الديلم والجيل الذين قد ظهروا وتغلبوا على كثير من الأرض .

فإذ قد قدمنا من أخبار بلاد جبل القبخ وما فيه وما حوله من الأمم وأخبار الباب والأبواب وبحر الخزر .

ملوك العالم

فانذكر الآن ملوك السريان ، وهم أول من يعدّ فى كتب الزيجات والنجوم والتواريخ القديمة من ملوك العالم ، ثم ملوك الموصل ونينوى ، ثم ملوك بابل وهم الذين عمروا الأرض ، وشقوا الأنهار ، وغرسوا الأشجار ، وطعموا الثمار ، ومهدوا الوعر ، وسهلوا الطريق ، ثم نتبع ذلك بالفرس الأولى ، وهم المعروفون بالخذاهان[5] إلى ملك أفريدون ، ثم الإسكان إلى دارا [وهو داريوس][6] بن دارا وهم السكنون[7]

(١) فى ب « ونهر أسيدرود »
(٢) زيادة فى ا وحدها
(٣) فى ب « سلام بن سوار »
(٤) فى ا زيادة « وتفسيره ملك الأنهار لبياضه ورقته وصفائه »
(٥) فى ب « بالحدان »
(٦) زيادة فى اوحدها
(٧) فى ب « السكون »

ثم ملوك الطوائف ، ثم الفرس الثانية ، ثم اليونانيين ، ثم الروم ، ونذكر من يتلوهم من ملوك العرب والأمم والسودان ومصر والإسكندرية وغير ذلك من بقاع الأرض إن شاء الله تعالى .

ذكر ملوك السريانيين ، ولمع من أخبارهم

ذَكَرَ أهل العناية بأخبار ملوك العالم أن أول الملوك ملوك السريانيين بعد الطوفان،وقد تنوزع فيهم وفى النَّبَط: فمن الناس من رأى أن السريانيين هم النبط،ومنهم من رأى أنهم إخوة لودماش[1] بن نبيط،ومنهم من رأى غير ذلك.

وكان أول من ملك منهم رجل يقال له «شوسان» وكان أول من وضع التاج على رأسه [فى تاريخ السريانيين والنَّبَط] ، وانقادت له ملوك الأرض،وكان ملكه ست عشرة سنة باغياً فى الأرض ، مفسداً للبلاد ، سفاكا للدماء .

ثم ملكَ ولد له يقال له «بربر[2]» وكان ملكه إلى أن هلك عشرين سنة.
ثم ملك « سماسير » بن آوت[3] ، سبع سنين[4] .

ثم ملك بعده «أهريمون[5]» عشر سنين ، نخط الخطط،وكوَّرَ الكُوَر ، وجَدَّ فى أمره ، وإتقان ملكه،وعمارة أرضه ، فلما استقامت له الأحوال وانتظم له الملك بلغ بعض ملوك الهند ما عليه ملوك السريانيين من القوة وشدة العمارة ، وأنهم يحاولون الممالك ، وقد كان هذا الملك من ملوك الهند غالباً على ما حوله من ممالك الهند،وانقادت إلى سلطانه ، ودخلت فى أحكامه ، وقيل : إن ملكه كان مما يلى [بلاد] السند والهند،فسار نحو بلاد بسط وغزنين ولعس[6] وبلاد الداور

---

(١) فى ب « لولدماس »
(٢) ب « بزندس »
(٣) فى ب « بن أول »
(٤) فى ا « تسع سنين »
(٥) فى ب « أهر تمور »
(٦) فى ب « وعرين وتقير »

على النهر المعروف بنهر الهرمند[1]، وهو نهر سجستان ينتهى جريانه على أربع فراسخ منها ، وهذا النهر عليه أهل سجستان وضياعهم ونخلهم وجبالهم ومنتزهاتهم [فى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة][2]، وهذا النهر يعرف بنهر بسط ، وتجرى فيه السفن من هناك إلى سجستان فيها الأقوات وغير ذلك [ومن بسط إلى سجستان نحو من مائة فرسخ][3]، وبلاد سجستان هى بلاد الرياح والرمال ، وهو البلد الموصوف بأن الريح به تدير الأرْحِيَةَ وتسقى المـاء من الآبار وتسقى الجِنَانَ ، وليس فى الدنيا بلد ـ والله أعلم ـ أكثر منه استعمالا للرياح .

نهر الهرمند

وقد تنوزع فى مبدأ هذا النهر المعروف بنهر الهرمند[1]: فمن الناس من رأى [أنه من عيون بجبال السند والهند ، ومنهم من رأى][2] أن مبدأه من مبدأ نهر الـكنك، وهو نهر الهند ، ويمر بكثير من جبال السند ، وهو نهر حاد الانصباب والجريان ، عليه يعذب أكثر الهند أنفسها بالحديد وتغرقها زهداً فى هذا العالم ورغبة فى النقلة عنه ، وذلك أنهم يقصدون موضعاً فى أعالى هذا النهر المعروف بالـكنك ، وهو جبال عالية ، وأشجار عادية ، ورجال جلوس ، وحدائد وسيوف منصوبة على ذلك الشجر ، وقطع من الخشب ، فتأتيهم الهند من الممالك النائية والبلدان القاصية ، فيسمعون كلام أولئك الرجال المرتبين على هذا النهر وما يقولون من تزهيدهم فى هذا العالم والترغيب فيما سواه ، فيطرحون أنفسهم من أعالى تلك الجبال العالية على تلك الأشجار العادية والسيوف والحدائد المنصوبة ، فيتقطعون قطعاً ، ويصيرون إلى هذا النهر أجزاء ، وما ذكرنا فموصوف عنهم وما يفعلون على هذا النهر كذلك .

وصف نوع عجيب من الشجر

وهناك شجر من إحدى عجائب العالم ونوادره والغرائب من نباته ، يظهر من الأرض أغصان مشتبكة من أحسن ما يكون من الشجر والورق ، فتستقيم فى الجو

(١) فى ب « بنهر ميد » (٢) زيادة فى ا وحدها
(٣) زيادة فى ب وحدها

نأ بعد ما يكون من طوال النخل ، ثم ينحنى جميع ذلك منعكساً فيعود فى الأرض مندساً ، ويهوى فى قعرها سفلا على المقدار الذى ارتفع به فى الهواء [صعُداً] ، حتى يغيب عن الأبصار ، ثم تظهر أغصان بادئة على حسب ما وصفنا فى الأول فتذهب صُعُداً ، ثم تنقطر منعكسة ، ولا فرق بين المقدار الذى يذهب منها فى الهواء ويتسع فى الفضاء وبين ما يغيب منه تحت الأرض ويتوارى تحت الثرى ، فلولا أن الهند قد وكلت بقطعه من يراعيه من أمره لأمر يذكرونه ، وخطر فى المستقبل يصفونه ؛ لطبق على تلك البلاد ولغشى تلك الأرض ، ولهذا النوع من الشجر أخبار يطول ذكرها ، يعرفها من طرأ إلى تلك البلاد ورآها ، أو نمى إليه خبرها .

أنواع من تعذيب الهند أنفسهم

والهند تعذب أنفسها على ما وصفنا بأنواع العذاب من دون الأمم ، وقد تيقنت أن ما ينالها من النعيم فى المستقبل مؤجلا لا يكون بغير ما أسلفته[1] من تعذيب أنفسها فى هذه الدار معجلا ، ومنهم من يصير إلى باب الملك يستأذن فى إحراقه نفسه ، فيدور فى الأسواق وقد أُجِّجَت له النار العظيمة وعليها من قد وكل بإيقادها ، ثم يسير فى الأسواق وقدامه الطبول والصنوج ، وعلى بدنه[2] أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه ، وحوله أهله وقرابته ، وعلى رأسه إكليل من الريحان ، وقد قشر جلده عن رأسه ، وعليها الجمر وعليها[3] الكبريت والسندروس ؛ فيسير وهامته [تحترق] وروائح دماغه تفوح وهو يمضغ ورق التنبول وحب الفوفل ، والتنبول فى بلادهم ورق ينبت كأصغر ما يكون من ورق الأترج يمضغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع الفوفل ، وهو الذى غلب على أهل مكة وغيرهم من بقية أهل الحجاز واليمن فى هذا الوقت مضغه بدلا من الطين[4] ، ويكون

---

(١) فى « هو ما أسلفته وعذبت به أنفسها » وما هنا عن ب أحسن نسقا .
(٢) فى ب « وعلى يديه » . (٣) فى ا « وقد جعل عليها الكبريت » .
(٤) فى ب « بدلا من الطيب » .

عند الصنادلة[١] للورم وغير ذلك، وهذا إذا مضغ على ماذكرنا بالورق والنورة شدّ اللِّثَةَ ، وقوى عمود الأسنان ، وطيب النكهة، وأزال الرطوبة المؤذية، وشهى الطعام ، وبعث على الباه ، وحمر الأسنان حتى تكون كأحمر ما يكون من حب الرمان ، وأحدث فى النفس طرباً وأريحية ، وقوى البدن، وأثار من النكهة روائح طيبة [خمرة] ، والهند خواصها وعوامها تستقبح مَنْ أسنانه بيض، وتجتنب من لا يمضغ ما وصفنا ، فإذا طاف هذا المعذب لنفسه بالنار فى الأسواق وانتهى إلى تلك النار وهو غير مكترث ولا متغير فى مشيته ولا متهيب فى خطوته، ففيهم من إذا أشرف على النار وقد صارت جمراً كالتل العظيم يتناول بيده خنجراً ــ ويدعى الجرىء[٢] عندهم ــ فيضعه فى لبته، وقد حضرتُ ببلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرا ، وذلك فى سنة أربع وثلثمائة، والملك يومئذ على صيمور المعروف بجاج[٣]، وبها يومئذ من المسلمين نحو من عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن فى تلك البلاد ، وفيهم خلق من وجوه التجار مثل موسى ابن إسحاق الصندالونى[٤] وعلى الهزمة[٥] يومئذ أبو سعيد معروف بن زكريا، وتفسير الهزمة[٥] يراد به رآسة المسلمين يتولاها رجل منهم عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة إليه، ومعنى قولنا البياسرة يراد به من ولد من المسلمين بأرض الهند ، يُدْعَوْنَ بهذا الاسم، واحدهم بيسر، وجمعهم بياسرة، فرأيتُ بعض فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا فى أسواقهم ، فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقّه ، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة وهو يتكلم فقطعها بالخنجر ، فدفعها إلى بعض إخوانه تهاوناً بالموت ولذة بالنقلة، ثم هوى

(١) فى ا « عند الصيادلة ». (٢) فى ب « ويدعى الحرمى » .
(٣) فى ا « المعروف بجانج » . (٤) فى ب «موسى وإسحاق الصيدابورى»
(٥) فى ب « وعلى الهيرمة » .

بنفسه فى النار ، وإذا مات الملك من ملوكهم أو قتل[١] نفسه حرّق خلق من الناس أنفسهم لموته ، يدعون هؤلاء البلانجرية ، واحدهم بلانجرى[٢] ، وتفسير ذلك المصادق لمن يموت ؛ فيموت بموته ، ويحيا بحياته .

وللهند أخبار عجيبة تجزع من سماعها النفس : من أنواع الآلام والمقاتل التى تألم عند ذكرها الأبدان ، وتقشعر منها الأبشار[٣] ، وقد أتينا على كثير من عجائب أخبارهم فى كتابنا « أخبار الزمان » .

فلنرجع الآن إلى خبر ملك الهند ومسيره إلى بلاد سجستان ، وقصده مملكة السريانيين ، ونعدل عما احتذينا من أخبار الهند ، فنقول :

كان هذا الملك من ملوك الهند يقال له زنبيل ، وكل ملك يلى هذا البلد من أرض الهند يسمى بهذا الاسم زنبيل إلى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، وكان بين الهند وملوك السريانيين حروب عظام نحو من سنة ، فقتل ملك السريانيين ، واحتوى ملك الهند على الصقع ، وملك جميع ما فيه ، فسار إليه بعض ملوك العرب ، فأتى عليه ، وملك العراق ، ورد ملك السريانيين ، فملكوا عليهم رجلا منهم يقال له : « تبتر[٤] » وكان ولد المقتول ، فكان ملكه إلى أن هلك ثمان سنين .

أهريمون

ثم ملك بعده « أهريمون » وكان ملكه اثنتى عشرة سنة .

هوريا

ثم ملك بعده ابن يقال له « هوريا » فزاد فى العمارة ، وأحسن فى الرعاية ، وغرس الأشجار ، وكان ملكه إلى أن هلك اثنتين وعشرين سنة .

ماروب

ثم ملك بعده «ماروب[٥] » واستولى على الملك ، وكان ملكه مدة خمس عشرة سنة ، وقيل : ثلاثة[٦] وعشرين سنة .

---

(١) فى ب « وقتل نفسه » (٢) فى ب « البلا لحرية ، واحدهم بلالحرى»
(٣) فى ب « ويصفر من ذكرها الإنسان » .
(٤) فى ب « يقال له سيرا » . (٥) فى ب « مارث » .
(٦) فى ا « وقيل اثنتين وعشرين سنة »

أزور وخلنجاس

ثم ملك بعده «أزور» و«خلنجاس» ويقال : إنهما كانا أخوين؛ فأحسنا السيرة ، وتعاضدا على الملك ، ويقال : إن أحد هذين الملكين كان جالساً ذات يوم إذ نظر فى أعلى قصره إلى طائر قد أفرخ هناك ، وإذا هو يضرب بجناحيه ويصيح ، فتأمل الملك ذلك فنظر إلى حية تنساب إلى الوكر صاعدة لأكل فراخ الطائر ، فدَعَا الملك بقوس فرمى به الحية فصرعها، وسلمت فراخ الطائر، فجاء الطائر بعد هنيهة يصفق بجناحيه وفى منقاره حبة وفى مخاليبه حبتان ، وجاء إلى الملك وألقى ما كان فى منقاره ومخاليبه ، والملك يرمقه، فوقع الحب بين يدى الملك فتأمَّله ،وقال: لأمر ما ألقى هذا الطائر ما ألقى ، لاشك أنه أراد مكافأتنا على فعلنا به ، فأخذ الحب وجعل يتأمله فلم يعرف مِثله فى إقليمه ، فقال جايس مِنْ جُلسائه حكيم وقد نظر إلى حيرة الملك فى الحب : أيها الملك ، ينبغى أن يودع النبات أرحام الأرض فإنها تخرج كُنْهَ ما فيه ، فنقف على الغاية مِنْه ، وأداء ما فى مخزونه ومَكنونه ، فدعا بالأكَرَةِ وأمَرَهُم بزرع الحب وَمُرَاعاته ، وما يكون منه ، فزرع ، فنبت وأقبل يلتف بالشجر ثم حصرم وأعنب ، وهم يَرْمُقُونه ، والملك يراعيه ، إلى أن انتهى فى البلوغ وهم لا يُقْدِمون على ذوقه خوفاً أن يكون متلفاً ، فأمر الملك بعصر مائه ، وأن يودع فى أوانى ، وإفراد حَبٍّ منه وتركه على حالته ، فلما صار فى الآنية عصيراً هَدَرَ وقذف بالزبد وفاحت له روائح عبقة ، فقال الملك : علىَّ بشيخ [كبير فان][1] فأتى به ، فلدد له من ذلك فى إناء فرآه لوناً عجيباً ، ومنظراً

أول من شرب الخمر

كاملا ، ولوناً ياقوتياً أحمر ، وشعاعاً نيراً ، ثم سقوا الشيخ فما شرب ثلاثاً حتى مال[2] ،وأرخى من مآزره الفضول[وصفق بيديه][1] وحرك رأسه،ووقع برجليه على الأرض ، فطرب ، ورفع عقيرته يتغنَّى ، فقال الملك : هذا شراب يذهب بالعقل ، وأخاف[3] أن يكون قاتلا ، ألا ترى إلى الشيخ كيف عاد فى حال الصبا

(١) زيادة فى ا وحدها . (٢) فى ا « حتى صال » .

(٣) فى ا « وأخلق به أن يكون قاتلا » .

وسلطان الدم وقوة الشباب ؟ ثم أمر الملك به فزيد ، فسكر الشيخ ، فنام ، فقال الملك : هلك ، ثم إن الشيخ أفاق وطلب الزيادة من الشراب ، وقال : لقد شربته فكشف عنى الغموم ، وأزال عن ساحتى الأحزان [والهموم] ، وما أراد الطائر إلا مكافأتكم بهذا الشراب الشريف ، فقال الملك : هذا أشرف شراب أهل الأرض ، وذلك أنه رأى شيخاً قد حسن [لونه][1] ، وقوى حيله ، وانبسط فى نفسه ، وطرب فى حال طبيعة الحزن وسلطان البلغم ، وجاد هضمه ، وجاءه النوم ، وصفا لونه ، واعترته أريحية ، فأمر الملك [أن يكثر من غَرْس الكَرْم ، فكثر الغرس للكرم ، وأمر][1] أن يمنع العامة من ذلك ، وقال : هذا شراب الملوك ، وأنا السبب فيه ، فلا يشربه غيرى ، فاستعمله الملك بقية أيامه ، ثم نما فى أيدى الناس واستعملوه ، وقد قيل : إن نوحا أول من زرعها ، وقد ذكرنا الخبر حين سرقها إبليس منه حين خرج من السفينة واستولى على الجودى فى كتاب المبدأ وغيره من الكتب .

ذكر ملوك الموصل ونينوى (وهم الأثوريون)[1]

ولمع من أخبارهم (وسيرهم)

مدينة نينوى

نينوى : هى مقابلة الموصل ، وبينهما دجلة ، وهى بين قردى وما زندى من كور الموصل ، ونينوى فى وَقْتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — مدينة خراب فيها قرى ومزارع لأهلها ، وإلى أهلها أرسل الله يونس بن مَتَّى ، وآثار الصور فيها [بينة واضحة ، و][1] أصنام من حجارة مكتوبة على وجوهها ، وظاهر المدينة تل عليه مسجد ، وهناك عين تعرف بعين يونس النبى عليه الصلاة السلام ، ويأوى إلى هذا المسجد النُّسَّاك والعباد والزهاد .

(١) زيادة فى ا وحدها .

بسوس

وكان أول ملك بَنَى هذه المدينة ، وسَوَّر سورها : ملك عظيم قد دانت له الملوك ودانت له البلاد ، ويقال له بسوس بن بالوس[١] ، فكانت مدة ملكه اثنتين وخمسين سنة .

وكان بالموصل ملك آخر محارب لهذا الملك ، وكانت بينهما حروب ووقائع ، ويقال : إن ملك الموصل كان فى ذلك العصر سابق بن مالك رجل من اليمن .

سميرم

ثم ملك أهل نينوى عليهم بعده امرأة ، يقال لها « سميرم[٢] » فأقامت عليهم أربعين سنة تحارب ملوك الموصل ، وملكها من شاطىء دجلة إلى بلاد أرمينية ومِنْ بلاد أذربيجان إلى حد الجزيرة والجودىّ ، وجبل التيتل[٣] إلى بلاد الزوزان ، وغيرها من أرمينية ، وكان أهل نينوى ممن سمينا نبيطاً وسريانيين ، والجنس واحد ، واللغة واحدة ، وإنما بان النبط عنهم بأحرف يسيرة فى لغتهم ، والمقالة واحدة .

الأرسيس

ثم مَلَكَ بعد هذه المرأة « الأرسيس[٤] » ويقال : إنه كان ابنها ، وكان ملكه نحواً من أربعين سنة ، ورجعت إليه الأرمن[٥]، وقد كانت الحروب بينهم سجالا فى ملكه ، ثم غلبوا على أهل نينوى ؛ فكانت الحروب بين أهل أرمينية وبين ملوك الموصل.

ويقال : إن هذا الملك آخر مُلوك نينوى ، [وقيل : إنه مَلَكَ بعده[٦] عشرون] وكان يؤدى الضريبة[٧] إلى مَلِك أرمينية ، ولهؤلاء الملوك أخبار وسير وحروب قد أتينا على جميعها فى كتابنا « أخبار الزمان » وفى الكتاب الأوسط .

(١) فى ب « سينوس بن يالوس ». (٢) فى ب «سيمون » .
(٣) فى ب « النبيل » . (٤) فى ب « رسيس » .
(٥) فى ا « وزحفت إليه ملوك الأرض » . (٦) زيادة فى ا وحدها .
(٧) فى ا « وإن ملكا من ملوك نينوى كانوا يؤدون الضريبة » .

ذكر ملوك بابل ، وهم ملوك النبط وغيرهم
[المعروفين بالكلدانيين][1]

ذَكَرَ جماعة من أهل التبصر والبحث ، ومن ذوى العناية بأخبار ملوك العالم أن ملوك بابل هم أول ملوك العالم الذين مَهَّدُوا الأرض بالعمارة ، وأن الفرس الأولى إنما أخذت الملك من هؤلاء ، كما أخذت الروم الملك من اليونانيين .

نمروذ الجبار

وكان أولهم « نمروذ »[2] الجبار ، وكان ملكه نحواً من ستين سنة ، وهو الذى احتفر أنهاراً بالعراق ، آخذة من الفُرَات ؛ فيقال : إن من ذلك نهر كوثى يطريق من طرق الكوفة ، وهو بين قصر ابن هبيرة و بغداد ، لاخفاء لخبره وشهرته ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب كثيراً من أنهار العراق ، عند ذكرنا لملوك الفرس الأولى والثانية ، وغيرهم من ملوك الطوائف ، وإنما الغرض فى هذا الكتاب التلويح بتاريخ ملوك العالم ، وَالتنبيه على ما سلف من كتبنا .

بقية ملوك بابل

وملك بعده « بولوس[3] » نحواً من سبعين سنة ، وكان عظيم البطش ، متجبراً فى الأرض ، وكانت فى أيامه حروب ، ثم ملك بعده « فيومنوس[4] » نحواً من مائة سنة ، باغياً فى الأرض على أهلها ، ثم ملك بعده « سوسوس[5] » نحواً من تسعين سنة ، ثم ملك بعده « كورش » نحواً من خمسين سنة ، ثم

---

(١) زيادة فى ا وحدها . (٢) فى ا « نمرود » بالدال مهملة .
(٣) فى ب « أندلس » . (٤) فى ب « مرمنوس » .
(٥) فى ب « سوسيوس » وفى هذه الأسماء اختلاف كثير ، وقد اكتفينا بالتنبيه على أكثر هذا الاختلاف ، ولم نستوعبه لأنه لاطائل تحته .

ملك بعده « أذفر[(١)] » نحواً من عشرين سنة ، ثم ملك بعده «سملا[(٢)]» نحواً من أربعين سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، ثم ملك بعده « بوسميس[(٣)] » نحواً من سبعين سنة ، ثم ملك بعده « أنيوس » نحواً من ثلاثين سنة، ثم ملك بعده « أفلاوس[(٤)] » خمس عشرة سنة ، ثم ملك بعده « الحلوس » نحواًمن أربعين سنة ، ثم ملك بعده «أومرنوس[(٥)]» نحو ثلاثين سنة،ثم ملك بعده« كلوس»[(٦)] نحو ثلاثين سنة ، ثم ملك بعده«سيفروس[(٧)]»نحوأربعين سنة ، وقدقيل دون ذلك ، وهلك ، ثم ملك بعده « مارنوس » نحو ثلاثين سنة ، ثم ملك بعده «وسطاليم» أربعين سنة ، ثم ملك بعده « أمنوطوس[(٨)] » نحوستين سنة[(٩)] ، ثم ملك بعده [« تباوليوس » نحواً من خمسين سنة ، ثم ملك بعده][(١٠)] « العداس » نحو ثلاثين سنة ، ثم ملك بعده « أطيروس » نحو ستين سنة ، ثم ملك بعده «ساوساس» نحو عشرين سنة ، ثم ملك بعده « فاربنوس » نحو خمسين سنة ، وقيل : خمساًوأربعين سنة ، ثم ملك بعده «سوساأدرينوس» نحو أربعين سنة ، فغزاهم ملك من ملوك فارس ، من عقب دارا ، ثم ملك بعده « مسروس» نحو خمسين سنة ، ثم ملك بعده « طاطايوس » نحو ثلاثين سنة، ثم ملك بعده « طاطاوس » نحو أربعين سنة ، ثم ملك بعده « أفروس » نحو أربعين سنة ، ثم ملك بعده « لاوسيس » نحو خمسين سنة ، وقيل : خمساً وأربعين سنة ، ثم ملك بعده « أفريقريس » نحو ثلاثين سنة[(١١)] ثم ملك بعده « منطوروس » نحواً من عشرين سنة ، ثم ملك بعده « قولا قسما» نحواً

---

(١) فى ب « أثمر » (٢) فى ب « شبرم » .
(٣) فى ب « فرسميس » (٤) فى ب « إيلاوس » .
(٥) فى ب « أوءونوس » . (٦) فى ب « بعتكلوس » .
(٧) فى ب « سفروس » . (٨) فى ب « أميرطوس » .
(٩) فى ا « نحوا من خمسين سنة » . (١٠) زيادة فى ا .
(١١) فى ا « نحوا من خمسين سنة ، وقيل : اثنتين وأربعين سنة » .

من ستين سنة ، ثم ملك بعده «هنقلس» خمساً وثلاثين سنة ، وقيل : خمسين سنة ، وكانت له حروب مع ملك من ملوك الصابئة ، وكذلك ذكر فى كتاب التاريخ القديم ، ثم ملك بعده « مرحد[1] » نحو ثلاثين سنة[2] ، ثم ملك بعده « مردوح » أربعين سنة ، وقيل : أقل من ذلك ، ثم ملك بعده « سنجاريب[3] » ثلاثين سنه ، وهو الذى أتى بيت المقدس ، ثم ملك بعده « نشوه منوشا[4] » ثلاثين سنة ، وقيل : أقل من ذلك ، ثم ملك بعده « بختنصر » الجبار خمساً وأربعين سنة ، ثم ملك بعده « فرمودوج[5] » نحو سنة ، ثم ملك بعده « بنطسفر[6] » نحو ستين سنة ، وقيل : أقل من ذلك ، ثم ملك بعده « منسوس[7] » نحو ثمان سنين ، وقيل : عشراً ، ثم ملك بعده « سوسا » سنة ، وقيل : أقل من ذلك ، ثم ملك بعده « داونوس » إحدى وثلاثين سنة ، وقيل أكثر من[8] ذلك ، ثم ملك بعده « كسرجوس » عشرين سنة ، ثم ملك بعده [« مرطياسة » تسعة أشهر وقتل ، ثم ملك بعده]«فنحست» إحدى وأربعين سنة ، ثم ملك بعده «أحترست» ثلاث سنين، وقيل : سنتين وشهرين ، ثم ملك بعده «شعرياس» سنة ، وقيل : تسعة أشهر ، ثم ملك بعده « داريوس » عشرين سنة ، وقيل : تسع عشرة سنة ، [ثم ملك بعده « أطحست » تسعا وعشرين سنة] ثم ملك بعده « دارو اليسع » خمس عشرة سنة ، وقيل : عشر سنين .

قال المسعودى : فهؤلاء الملوك الذين أتينا على ذكرهم ، وأسمائهم ، ومدة مملكتهم ، وقد رسمت أسماؤهم هكذا فى كتب التواريخ السالفة ، وهم الذين

---

(١) فى ا « سيموجد » . (٢) فى ا « نحو ثلاث سنين » .
(٣) فى ب « سنخاريب » . (٤) فى ب « سوسا » .
(٥) فى ب « فرمودح » . (٦) فى ب « نيطعر » .
(٧) فى ب « مسنون » . (٨) فى ا « وقيل أقل من ذلك » .

أعمال ملوك بابل

شيدوا البنيان، ومدنوا المدن، وكوروا الكور، وحفروا الأنهار، وغرسوا الأشجار، واستنبطوا المياه، وأثاروا الأرضين، واستخرجوا المعادن من الحديد والرصاص والنحاس وغير ذلك، وطبعوا السيوف، واتخذوا عدة الحرب، وغير ذلك من الحيل والمكايد، ونصبوا قوانين الحرب بالقلب والميمنة والميسرة والأجنحة، وجعلوا ذلك مثالا لأعضاء جسد الإنسان، ورتبوا لكل جزء نوعا من الأمة لا يوازيها غيرها؛ فجعلوا أعلام القلب على صورة الفيل [والتنين][(١)] وما عظم من أجناس الحيوان، وجعلوا أعلام الميمنة والميسرة على صورة السباع على حسب عظمها واختلافها فى أنواعها، وجعلوا فى الأجنحة صور ما لطف من السباع كالنمر والذئب، وجعلوا صور أعلام الكمناء[(٢)] على صور الحيات والعقارب[(٣)]، وما خفى فعله من هوام الأرض، وجعلوا ألوان كل نوع منها من السواد وغيره من الألوان الستة، وهى : السواد][(١)] والبياض، والصفرة [والحمرة][(١)] والخضرة، ولون السماء.

بحث فى الألوان

وقد ذكر قوم أن الألوان ثمانية على حسب الموضع المستحق لها، ومنعوا أن تكون الحمرة تشوب شيئاً من ذلك إلا ما لطف من أجزائها داخلا فى جملة الأكثر من أشباه الحيوان من تلك الأعلام، وزعموا أن قضية القياس توجب أن تكون سائر أعلام الحرب حمراء؛ إذ كانت أليق وأشكل بلون الدم، وأكثر ملاءمة، إذ كان لونهما واحدا، لكن منع من ذلك استعمالها فى حال الزينة والطرب وأوقات السرور، واستعمال النساء والصبيان لها، وفرح النفوس بها، وأوجب ترك ذلك، وإن حس البصر مشاكل للون الحمرة، إذ كان من شأنه أنه إذا أدركها انبسط نوره فى إدراكها، وإذا وقع البصر على اللون الأسود اجتمع نوره ولم ينبسط

---

(١) زيادة فى ا وحدها . (٢) فى ب « الكيمياء » .
(٣) فى ب « والعقبان » .

فى إدراكه انبساطه فى الحمرة ، وأن النسبة الواقعة بين بصر الناظر وبين لون الحمرة الاشتراك ، والمباينة بالضدية بين نور البصر ولون السواد .

وتكلم هؤلاء القوم فى مراتب الألوان من الحمرة والسواد والبياض وغيرها ، ومراتب الأنوار ، وما وجه ذلك من أسرار الطبيعة ، والحد المشترك بين نورية حِسِّ البصر وبين لون الحمرة والبياض ، والضد المباين بين السواد وبين نور البصر ، دون سائر الألوان من الحمرة والخضرة والصفرة والبياض ، وتغلغل القوم فى هذه المعانى إلى ما علا من الأجسام السماوية من النيرين والخمسة ، واختلافها فى ألوانها ، وإلى غير ذلك من الأشخاص العلوية .

وقد أتينا على ما قالوه من ذلك فيما سلف من كتبنا ، وأتينا على سير هؤلاء الملوك وأخبارهم واختلافهم[1] فى كتابنا « أخبار الزمان » ، وفى الكتاب الأوسط .

وقد ذهبت طائفة من الناس إلى أن هؤلاء الملوك كانوا من النبط وغيرهم من الأمم ، وأنه كان يرأس بعضهم غيره من ملوك الفرس ممن كان مقيما بِبَلْخَ ، والأشْهَرُ ما قدمناه ، وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب لمعاً من أخبار النبط وأنسابهم .

---

(١) فى ا « وأخلاقها » .

ذكر ملوك الفرس الأولى

وجمل من سيرهم [وأخبارهم][1]

أصل الفرس

الفرس تخبر – مع اختلاف آرائها وبعد أوطانها وتباينها فى ديارها وما ألزمته أنفسها من حفظ أسابها ، ينقل ذلك باقٍ عن ماضٍ ، وصغير عن كبير – أن أول ملوكهم « كيومرث » ثم تنازعوا فيه ؛ فمنهم من زعم أنه ابن آدم ، والأكبر من ولده ، ومنهم من زعم – وهم الأقلون عدداً – أنه أصل النسل وينبوع الذَّرْء ، وقد ذهبت طائفة منهم إلى أن كيومرث هو أميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ، لأن أميما أول من حَلَّ بفارس من ولد نوح ، وكان كيومرث ينزل بفارس ، والفرس لا تعرف طوفان نوح ، والقوم الذين كانوا بين آدم ونوح عليهما السلام كان لسانهم سريانيا ، ولم يكن عليهم ملك ، بل كانوا فى مسكن واحد ، والله أعلم بذلك .

كيومرث أول الملوك

وكان كيومرث أكبر أهل عصره ، والمقدم فيهم [وكان أول ملك نصب فى الأرض – فيما يزعمون –][2] ، وكان السبب الذى دعا أهل ذلك العصر إلى إقامة ملك ونصب رئيس أنهم رأوا أكثر الناس قد جُبلوا على التباغض والتحاسد والظلم والعدوان ، ورأوا أن الشرير منهم لا يصلحه إلا الرهبة ، ثم تأملوا أحوال الخليقة ، ونصرف شأن الجسم ، وصورة الإنسان الحساس الدراك ، فرأوا الجسم فى بنيته وكونه قد رتب بخواص[3] تؤدى إلى معنى هو غيرها يوردها ويصدرها ويميزها بما يورده إليه من أخلاقها[4] فى مداركها ، وهو معنى فى القلب فرأوا صلاح الجسم بتدبيره ، وأنه متى فسد تدبيره فسد سائره ، ولم تظهر أفعاله المتقنة المحكمة ، فلما رأوا[5] هذا العالم الصغير الذى هو جسد الإنسان المرئى[6] لا تستقيم أموره ولا تنتظم أحواله إلا باستقامة الرئيس الذى قدمنا ذكره – علموا أن الناس لا يستقيمون إلا بملك ينصفهم ،

(١) زيادة فى ا وحدها . (٢) زيادة فى ب . (٣) فى ا « بحواس » .
(٤) فى ا « مع اختلافها » . (٥) فى ا « فلما رأت » . (٦) فى ا « المردى » .

ويوجه[1] العدل عليهم ، وينفذ الأحكام على مايوجبه العقل بينهم ، فساروا إلى كيومرث بن لاوذ[2] ، وعرّفوه حاجتهم إلى ملك وقيم ، وقالوا : أنت أفضلنا ، وأشرفنا ، وأكبرنا ، وبقية أبينا ، وليس فى العصر من يوازيك ، فَرُدَّ أمرنا إليك ، وكن القائم فينا ؛ فإنا تحت سمعك وطاعتك ، والقائلون بما تراه ، فأجابهم إلى مادعوه إليه ، واستوثق منهم بأكيد العهود والمواثيق على السمع والطاعة وترك الخلاف عليه ، فلما وضع التاج على رأسه ، وكان أول من ركب التاج على رأسه من أهل الأرض ، [قام خطيباً و] قال : إن النعم لا تدوم إلا بالشكر ، وإنا نحمد الله [على أياديه] ونشكره على نعمه ، ونرغب إليه فى مزيده ، ونسأله المعونة على ما دفعنا إليه ، وحسن الهداية إلى العدل الذى به يجتمع الشمل ويصفو العيش ، فثقوا بالعدل منا ، وأنصفونا من أنفسكم نوردكم إلى أفضل ما فى هممكم ، والسلام .

فلم يزل كيومرث قائماً بالأمر ، حسن السيرة فى الناس ، والحال آمنة ، والأمة ساكنة طول مدته إلى أن مات .

ولهم فى وضع التاج على الرأس أسرار يذكرونها أعرضنا عن ذكرها ؛ إذ كنا قد أتينا على ذلك فى كتابنا « أخبار الزمان » وفى الكتاب الأوسط .

وذكروا أن كيومرث أول من أمر بالسكوت[3] عند الطعام ؛ لتأخذ الطبيعة بقسطها فيصلح البدن بما يرد إليه من الغذاء ، وتسكن النفس عند ذلك ، فتُدَبِّر كل عضو من الأعضاء تدبيراً يؤدى إلى مافيه صلاحه من أخذ صفو الطعام ، فيكون الذى يرد إلى الكبد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسبها ، ومافيه صلاحها ؛ فإن الإنسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب انصرف قسط من التدبير وجزء من التقدير[4] إلى حيث انصباب الهمة ووقوع الاشتراك ، فأضر

---

(١) فى ا « ويوجب العدل فيهم » . (٢) فى ب « كيومرث بن آدم »
(٣) فى ا « بالسكون » . (٤) فى ا « وجزء من التغذى » .

ذلك بالأنفس الحيوانية والقوى الإنسانية ، وإذا كان ذلك أدى إلى مفارقة النفس الناطقة لهـذا الجسد المرئى ، وفى ذلك ترك للحكمة ، وخروج عن الصواب .

ولهم فى هذا الباب سر لطيف من أسرار السبب الذى بين النفس والجسم ليس هذا موضعه ، وقد أتينا على ذكره فى الكتاب المترجم « بسر الحياة » وفى كتاب « الزلف » عند ذكرنا النفس الناطقة والنفس العلامة والنفس الحسية والمخيلة والنزاعية[١] ، وما قال الناس فى ذلك ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة وغيرهم .

وقد تنوزع فى مقدار عمر كيومرث هذا ؛ فمن الناس من رأى أن عمره ألف سنة ، وقيل : دون ذلك ، وللمجوس فى كيومرث هذا خطب طويل فى أنه مبدأ النسل ، وأنه نبت من نبات الأرض ، وهو الريباس[٢] ، هو وزوجته ، وهماشابة ومنشابة[٣] وغير ذلك مما يفحش إيراده ، وما كان من خبره مع إبليس ، وقتله إياه ، وكان ينزل إصطخر فارس ، وكانت مدة ملكه أربعين سنة ، وقيل : أقل من ذلك .

أوشهنج

ثم ملك بعده « أوشهنج[٤] » بن فروال بن سيامك بن يرنيق بن كيومرث الملك ، وكان أوشهنج ينزل الهند ، وكان ملكه أربعين سنة ، وقيل : أكثر من ذلك ، وقد تنوزع فيه ؛ فمنهم من رأى أنه أخ لكيومرث بن آدم ، ومنهم من رأى أنه ولد الملك الماضى .

طهمورث

ثم ملك بعده « طهمورث[٥] » بن نوبجهان بن أرخشذ بن أوشهنج ، وكان ينزل سابور ، وظهر فى سنة من ملكه رجل يقال له « بوداسف » أحدث

أول الصابئة

مذاهب الصابئة ، وقال : إن معالى الشرف الكامل ، والصلاح الشامل ، ومعدن الحياة ، فى هذا السقف المرفوع ، وإن الكواكب هى المدبرات والواردات

(١) فى ا « والنفس الغضبية والنفس الحسية والنفس الشهوانية » .
(٢) فى ا « وأنه نبت مثل نبات الأرض ، وهو الرياس » .
(٣) فى ب « شانة ومشانة » (٤) فى ب « هوشنج » .
(٥) فى ب « طخمورث بن أنوجهان بن استحاين هوشنج » .

والصادرات ، وهى التى بمرورها فى أفلاكها وقطعها مسافاتها واتصالها بنقطة وانفصالها عن نقطة يتم ما يكون فى العالم من الآثار : من امتداد الأعمار وقصرها ، وترك البسائط ، وانبساط المركبات ، وتتميم الصور ، وظهور المياه وغَيْضها ، وفى النجوم السيارة [و] فى أفلاكها التدبير الأكبر ، وغير ذلك مما يخرج وصفه عن حد الاختصار والإيجاز ، واحتذى به جماعة من ذوى الضعف فى الآراء ؛ فيقال : إن هذا الرجل أول من أظهر آراء الصابئة من الحرانيين والكيماريين[1] ، وهذا النوع من الصابئة مباينون للحرانيين فى نِحْلَتهم ، وديارهم بين بلاد واسط[2] والبصرة من أرض العراق نحو البطائح والآجام ، فكان ملك طهمورث إلى أن هلك ثلاثين سنة ، وقيل غير ذلك .

جمشيد

ثم ملك بعده أخوه « جمشيد[3] » ، وكان ينزل بفارس ، وقيل : إنه كان فى زمنه طوفان ، وذهب كثير من الناس إلى أن النيروز فى أيامه أحدث وفى ملكه رسم ، على حسب ما نورده فيما يرد من هذا الكتاب ، كذلك ذكر أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى عن عمر المعروف بكسرى ، وكان هذا الرجل ممن اشتهر بعلم فارس وأخبار ملوكها حتى لقب بعمر كسرى ، وكان ملك جمشيد[3] إلى أن هلك ستمائة سنة ، وقيل : تسعمائة سنة[4] وستة أشهر ، وأحدث فى الأرض أنواعا من الصناعات والأبنية [والمهن] وادعى الإلهية .

بيوراسب

ثم ملك بعده « بيوراسب » بن أروادسب بن[5] رستوان بن نياداس بن طاح ابن قروال بن ساهر فرس بن كيومرث ، وهو الدهآك ، وقد عربت أسماؤه جميعاً فسماه قوم من العرب الضحاك ، وسماه قوم بهراسب[6] وليس هو كذلك ، وإنما اسمه

(١) فى ا « والكيمرايين » (٢) فى ب « فى بلاد وسط إلخ » .

(٣) فى ا « جم » (٤) فى ا « وقيل سبعمائة سنة وستة أشهر » .

(٥) فى ا « بن ريدوان بن هاباس بن طاح بن فروال بن سيامك بن برس ابن كيومرث » (٦) فى ا « بهراسف » .

على ما وصفنا بيوراسب ، وقتل جمشيد[1] الملك ، وقد تنوزع فيه : أمن الفرس كان أم من العرب ؟ فزعمت الفرس أنه منها ، وأنه كان ساحراً ، وأنه ملك الأقاليم السبعة ، وأن ملكه كان ألف سنة ، وبغى في الأرض [وتمرد][2] ، وللفرس فيه خطب طويل ، وأنه مقيد مغلل في جبل دباوند[3] بين الري وطبرستان ، وقد ذكرته شعراء العرب ممن تقدم وتأخر ، وقد افتخر أبو نواس به ، وزعم أنه من اليمن ؛ لأن أبا نواس مولى لسعد العشيرة من اليمن ، فقال :

وكان منّا الضحّاكُ تَعْبُدُهُ الـجامل والوحش في مساربها[4]

ملك أفريدون

ثم ملك بعده « أفريدون » بن أثقابان بن جمشيد[5] ملك الأقاليم السبعة ، فأخذ بيوارسب ، فقيده في جبل دباوند[3] على حسب ما ذكرنا ، وقد ذكر كثير من الفرس ومن عني بأخبارهم مثل عمر كسرى وغيره أن أفريدون جعل هذا اليوم الذي قيد فيه الضحاك عيداً له ، وسماه المهرجان ، على حسب ما نورده بعد هذا الموضع من هذا الكتاب ، وما قيل في ذلك ، وكانت دار مملكة أفريدون بابل

المهرجان

وهذا الإقليم يسمى باسم قرية من قراه يقال لها بابل ، على شاطئ نهر من أنهار الفرات بأرض العراق ، على ساعة من المدينة المعروفة بجسر بابل ، ونهر النرس ، وإليه تضاف الثياب النرسية ، وفي هذه القرية جب يعرف بجب دانيال النبي عليه السلام ، تقصده النصارى واليهود في أوقات من السنة في أعيادهم ، وإذا أشرف الإنسان على هذه القرية تبين فيها آثاراً عظيمة من ردم وهدم وبنيان قد صارت كالروابي ، وذهب كثير من الناس إلى أن بها هاروت وماروت ، وهما الملكان المذكوران في القرآن على حسب ما قص الله تعالى من تسمية هذه القرية ببابل.

وكان مُلك أفريدون خمسمائة سنة ، وقيل : أقل من ذلك ، وقيل : أكثر ، وقسم الأرض بين ولده [الثلاثة][2] ، وقد قال في ذلك بعض الشعراء ممن سلف :

---

(١) في ا « جم » . (٢) زيادة في ا . (٣) في ا « دنباوند » .
(٤) الجامل : جماعة الجمال ، ووقع في ب « يعبده الحائل » محرفا .
(٥) في ا « أفريدون بن انقياد بن جم » .

من أبناء الفرس بعد الإسلام يذكر ولد أفريدون الثلاثة :

وَقَسَمنا ملكنا فى دهرنا قسمة اللَّحْمِ على ظهر وَضَمْ

وجعلنا الشام والروم إلى معرب الشمس إلى الغطريف سلم (١)

وأطوج جعل الترك له فبلاد الترك يحويها ابن عم (٢)

ولإيران جعلنا عنوة فارس الملك وفزنا بالنعم

وللناس فيما ذكرنا خطب طويل ، وأن بلاد بابل أضيفت إلى ولد أفريدون وهو إيراج (٣) ، وقَتَله أخوه فى حياة أفريدون ، وهلك ، ولم يخلص له الملك فيعدَّ فى ملوك .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب كيفية إضافة هذا الإقليم إلى إيراج (٣) وإسقاطهم الجيم ، وجعلهم النون بدلا منها ، فقالوا : إيران شهر ، والشهر : الملك .

ملك منوجهر

ثم ملك بعد أفريدون «منوجهر» (٤) بن إيران بن أفريدون، على حسب ماذكرنا من التنازع فى نسبه وإلحاقه بإيران بن أفريدون ، وكان ملكه عشرين سنة ، وكان ينزل ببابل ، وقد قيل : إنه فى زمانه كان موسى بن عمران ، ويوشع ابن نون عليهما السلام ، وكان لمنوجهر (٤) حروب مع عميه اللذين قتلا أباه ، وهما أطوج وسلم ، وقد أتينا على ذكر حروبهم فيما سلف من كتبنا .

ملك سهم

ثم ملك بعد منوجهر (٤) «سهم» بن أبان بن أثقبان بن يود بن منوجهر (٤) ، فنزل بابل، وملك ستين سنة ، وقيل : أكثر من ذلك ، وكانت له حروب كثيرة وسير وسياسات كثيرة قد أتينا على ذكرها فى كتابنا « أخبار الزمان » .

ملك فراسياب

ثم ملك بعده « فراسياب » بن أطوج بن ياسر بن رامى بن آرس بن بورك

(١) « إلى الفطرى سلم » وفى ا « العطريف سلم » ، وكلاها تحريف .
(٢) فى ا « ولطوح جعل الترك » وفيها « يحويها برغم » .
(٣) فى ا « وهو أيرج » . (٤) فى ا « منو شهر » .
(٥) فى ا « سهم بن أبان بن انقياد بن نوذر بن منو شهر » .

ابن ساساسب بن زسست بن نوح بن دوم بن سرور بن أطوج بن أفريدون[١] الملك ، وكان مولد فراسياب ببلد الترك[٢] ؛ فلذلك غلط من غلط من أصحاب الكتب والتصنيفات فى التاريخ وغيره فزعم أنه تركى ، وكان تملكه على ما غلب عليه من البلاد اثنتى عشرة سنة ، وعمره عند كثير من الناس أربعمائة سنة .

ولاثنتى عشرة سنة خلت من ملكه ظهر عليه زو بن بهاست بن كمجهور ابن عداسة بن رايريج بن راع بن ماسر بن يود بن منوجهر الملك[٣] ، فهزمه وقتل أصحابه بعد حروب كثيرة ، وعَمَّر ما خَرَّبه فراسياب .

وقد تنوزع فى المقدار الذى ملك فيه : فقيل ثلاث سنين ، وقيل أكثر من ذلك ، وكان مسكنه ببابل ، وللفرس كلام طويل فى قتل فراسياب ، وكيفية قتله وحروبه ، وما كان بين الفرس والترك من الحروب والغارات ، وما كان قتل سياوخس وخبر رستم بن دستان ، هذا كله مشروح فى الكتاب المترجم بكتاب السكيكين[٤] ترجمة ابن المقفع من الفارسية الأولى إلى العربية ، وخبر اسفنديار بن كشتاشب بن بهراسب[٥] وقتل رستم بن دستان [له] ، وما كان من قتل بهمن بن إسفنديار لرستم ، وغير ذلك من عجائب الفرس الأولى وأخبارها ، وهذا الكتاب تعظمه الفرس ؛ لما قد تضمن من خبر أسلافهم وسير ملوكهم ، وقد أتينا بحمد الله على كثير من أخبارهم فيما سلف من كتبنا.

وقد قيل : إن أول من نزل من الملوك بَبَلْخَ وانتقل عن العراق كيكاووس[٦] وقد كان سار نحو اليمن ـ بعد أن كان له بالعراق تَمَرُّدٌ على الله، وبنيان بناه لحرب

---

(١) فى ا « فراسياب بن باسير بن راى أرسن بن بورك بن سانياسب بن رسسب بن نوح بن دور شرين بن طوح بن أفريدون » .

(٢) فى ب « الترل » .

(٣) فى ا « زو بن بهاسف بن كمجهور بن هراسف بن رابدنيج بن رع بن باسير بن نوذر بن منوشهر »

(٤) فى ا « السكيسران » .

(٥) فى ا « اسفنديار بن يستاسف بن بهراسف » .

(٦) فى ا « كيقاوس »

السماء - وكان ملك اليمن الذى سار إليه كيكاووس[١] فى ذلك الوقت شمر ابن فريقس[٢] فخرج إليه شمر فأسره وحبسه فى أضيق محبس ، فَهَوِيَتْهُ ابنة لشمر يقال لها: سعدى ، كانت تحسن إليه فى خِفْيَة من أبيها ، وإلى من كان معه من أصحابه ، ومكث فى محبسه أربع سنين ، حتى أسرى رستم بن دستان من بلادسجستان سرية فيها أربعة آلاف ، فقتل ملك اليمن شمر بن فربقس[٣] واستنقذ كيكاووس[١] ، وردَّه إلى ملكه ، وسعدى معه ، فاعتَلَّتْ عليه ، وأغرته بولده سياوخش[٤] ، حتى كان من أمره مع فراسياب التركى [ما قد شهر من] استئمانه إليه وتزوجه بابنته حتى حملت منه بكيخسرو ، وما كان من قتل فراسياب لسياوخش[٤] ابن كيكاووس[١] ، وقتل رستم بن دستان لسعدى ، وأخذه بطائلة سياوخش[٤] ، فقتل من قتله من وجوه الترك ، وعند الفرس على ما فى كتاب السكيكين[٥] أن كيخسرو كان قبله على الملك جده لأبيه ، وهو كيكاووس[١] [ولم يعلم ممن هو] ولم يكن لكيخسرو عقب ؛ فجعل الملك فى بهراسف ، وهؤلاء القوم كانوا يسكنون بلخ ، وكانت دار مملكتهم ، وكان يدعى نهر بلخ - وهو جيحون - بلغتهم كالف ، وكذلك يسميه كثير من أعاجم خراسان فى هذا الوقت بهذا الاسم .

فلم يزالوا كذلك إلى أن صار الملك إلى «حاى» ابنة بهمن[٦] بن إسفنديار ابن يستاسف بن بهراسف ، فانتقلت إلى العراق ، وسكنت نحو المدائن .

لهراسب

ثم كان بعد كيخسرو بن سياوخش[٤] بن كيكاووس[١] الملك إلى «لهراسب» بن قنوج بن كيمس بن كيناسس بن كيناسة بن كيقباذ الملك[٧] ، فعمر البلاد ، وأحسن السيرة لرعيته ، وشملهم عدله .

---

(١) فى ا « كيقاوس » . (٢) فى ا « شمر بن يرعش » .
(٣) فى ا « يرعش » (٤) فى ا « سياوخس »
(٥) فى ا « السكيسران » . (٦) فى ا « حماية بنت بهمان » .
(٧) فى ا « بهراسف بن قيوجى بن كيمش بن كياسين بن قباذ الملك » .

ولسنين[١] خلت من ملكه نال بنى إسرائيل منه مِحَنٌ ، وَشَتَّتهم فى البلاد ، وكانت له معهم أقاصيص يطول ذكرها .

وذُكر فى بعض الروايات من أخبار الفرس أنه بنى بلخ الحسناء ؛ لما فيها من المياه والشجر والمروج .

وكان ملكه مائة وعشرين سنة ، وقد ذكر خبر مقتله مع الترك وما كان منهم فى حصاره وَمَنْ أخذ بثأره بعد قتله فى كتب قدماء الفرس .

بختنصر

وقد ذكر كثير ممن عُنى بأخبار الفرس أن بختنصر مَرْزُبان العراق والمغرب كان من قِبَلِ هذا الملك ، وهو الذى وطىء الشام ، وفتح بيت المقدس ، وسبى بنى إسرائيل ، وكان من أمره بالشام والمغرب ما قد اشتهر ، والعامة تسميه البخت ناصر[٢] ، وأكثر الإخباريين وَالقُصَّاص يغالون فى أخباره ، ويبالغون فى وصفه ، والمنجمون فى زيجاتهم وأهل التواريخ فى كتبهم يجعلونه ملكا [برأسه] ، وإنما كان مَرْزُبَاناً على ما وصفنا الملوك ممن ذكرنا ، وتفسير مرزبان يراد به صاحب رُبْع من المملكة [وقائد عسكر ووزير][٣] وصاحب ناحية [من النواحى] ، وواليها ، وقد كان حمل سبايا بنى إسرائيل إلى المشرق ، وتزوج منهن امرأة يقال لها دينارد[٤] ، فكانت سبب رَدِّ بنى إسرائيل إلى بيت المقدس .

وقيل : إن دينارد[٤] أولدها لهراسب بن كشتاسب[٥] ، وقيل غير ذلك من الوجوه ، وإن حماية[٦] من نسل بنى إسرائيل من أمها .

وقيل : إن بهراسف قد كان أنفَذَ سنجاريب ـ وكان خليفته على العراق ـ إلى حرب بنى إسرائيل فلم يصنع شيئاً ، فعقب بعده بالبخت نصر ، وقيل

(١) فى ا « ولسنتين خلت من ملكه » .
(٢) فى ا « البخت نصر » . (٣) زيادة فى ا
(٤) فى ا « يقال لها دينا زاد » .
(٥) فى ا « وقد قيل : إن دينا زاد ولدها بهراسف بن يستاسف » .
(٦) فى ب « حناى » مع أن فيها من قبل « حاى » .

فى البخت نصر غير ما ذكرنا مما سنورده بعد هذا الموضع فى ذكر ملك بهمن بن إسفنديار بن يستاسف بن بهراسف .

وقد أرخ بطليموس صاحب كتاب المجسطى تاريخ كتابه من عهد بخت نصر مَرْزُبان المغرب ، وأرَّخَ ثاون صاحب كتاب القانون فى النجوم من مملكة الإسكندر بن فيلبس القدونى .

ثم ملك بعده ابنه يستاسف ، وكان منزله بلخ ، ولثلاثين سنة خلت من ملكه أتاه زرادشت بن أسبيمان ، وقيل : إنه زرادشت بن بورشف بن فذراسف بن أريكدسف بن هجدسف بن حجيش بن باتير بن أرحدس بن هردار بن أسبيمان بن واندست بن هايزم بن أرج بن دورشرين بن منوشهر الملك ، وكان من أهل أذربيجان ، والأشهر من نسبه أنه زرادشت بن أسبيمان ، وهو نبي المجوس الذى أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة عند عوام الناس ، واسمه عند المجوس بستاه[1] وأتى زرادشت عندهم بالمعجزات الباهرات للعقول ، وأخبر عن الكائنات من المغيبات قبل حدوثها من الكليات والجزئيات ، والكليات: هى الأشياء العامة، والجزئيات : هى الأشياء الخاصة، مثل زيد يموت يوم كذا ، ويمرض فلان فى وقت كذا ، ويولد لفلان فى وقت كذا ، وأشباه ذلك ، ومعجم هذا الكتاب يدور على ستين حرفاً من أحرف المعجم ، وليس فى سائر اللغات أكثر حروفاً من هذا ، ولهم خطب طويل قد أتينا على ذكره فى كتابينا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وأتى زرادشت بكتابهم هذا بلغة يعجزون عن إيراد مثلها ، ولا يدركون كنه مرادها ، وسنذكر بعد هذا الموضع من هذا الكتاب ما أتى به زرادشت[2] ، وما جعل له من التفسير وتفسير التفسير ، وكتب هذا الكتاب فى اثنى عشر ألف مجلد بالذهب، فيه وعد وَعيد ، وَأمر وَنهى، وَغير ذلك من الشرائع والعبادات ؛ فلم تزل الملوك تعمل بما فى هذا الكتاب

زرادشت المجوسى

(١) فى ب « نسياه » (٢) فى ا . ما أبانه زرداشت » .

إلى عهد الإسكندر وما كان من قتله لدارا بن دارا ، فأحرق الإسكندر بعض هذا الكتاب .

ثم صار الملك بعد الطوائف إلى أردشير بن بابك ، فجمع الفرس على قراءة سورة منه يقال لها إسناد ؛ فالفرس [والمجوس] إلى هذا الوقت لا يقرؤن غيرها ، والكتاب الأول يسمى بثناه(١) .

ثم عمل زرادشت تفسيراً عند عجزهم عن فهمه ، وسموا التفسير زندا ، ثم عمل للتفسير تفسيراً ، وسماه بازند ، ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادشت تفسيراً لتفسير التفسير وشرحا لسائر ما ذكرنا ، وسموا هذا التفسير بارده؛ فالمجوس إلى هذا الوقت يعجزون عن حفظ كتابهم المنزل ، فصار علماؤهم وموابذتهم(٢) يأخذون كثيراً منهم بحفظ أسباع من هذا الكتاب وأرباع وأثلاث ، فيبتدىء [كل] واحد بما حفظ من جزئه فيتلوه ، ويبتدىء الثانى منهم فيتلو جزأ آخر ، والثالث كذلك ، إلى أن يأتى الجميع على قراءة سائر الكتاب؛ لعجز الواحد منهم عن حفظه على الكمال ، وقد كانوا يقولون : إن رجلا [منهم] بسجستان بعد الثلاثمائة مستظهر بحفظ هذا الكتاب على الكمال.

وكان ملك يستاسف إلى أن تمجس ثم هلك عشرين ومائة سنة ، وكانت مدة نبوة زرادشت فيهم خمساً وثلاثين سنة ، وهلك وهو ابن سبع وسبعين سنة .

خاناس خليفة زرادشت

ولما هلك زرادشت ولى مكانه « خاناس »(٣) العالم ، وكان من أهل أذربيجان وهذا أول موبذ قام فيهم بعد زرادشت ، نصبه لهم يستاسف الملك.

ملك بهمن بن اسفنديار

ثم ملك بعده «بهمن» بن إسفنديار بن يستاسف بن بهراسف ، وكان له حروب كثيرة مع رستم صاحب سجستان إلى أن قتل رستم ووالده دستان،وقيل: إن أم بهمن كانت من بنى إسرائيل من ولد طالوت الملك ، وإنه هو الذى بعث

(١) فى ب « نسياه » .

(٢) فى ا « وهرابذتهم » .

(٣) فى ب « حاماس » .

بالبختنصر مرزبان العراق إلى بنى إسرائيل ، فكان من أمرهم ما وصفنا، وكان ملك بهمن إلى أن هلك مائة واثنتى عشرة سنة ، وقيل : إنه فى ملكه رَدّ بقايا بنى إسرائيل إلى بيت المقدس ، فكان مُقَامهم ببابل إلى أن رجعوا إلى بيت المقدس سبعين سنة ، وذلك فى أيام كورش[١] الفارسى المملك على العراق من قبل بهمن ، وبهمن يومئذ ببلخ، وقد قيل: إن أم كورش[١] كانت من بنى إسرائيل ، وكان دانيال الأصغر خاله ، وكانت مدة ملك كورش[١] ثلاثاً وعشرين سنة، وفى وجه آخر من الروايات أن كورشاً[١] كان ملكا برأسه لا من قبل بهمن، وذلك بعد انقضاء ملك بهمن ، وأن كورشاً[١] من ملوك الفرس الأولى، وليس هذا عاما فى كتب التواريخ القديمة ، ودانيال الأكبر كان بين نوح وإبراهيم الخليل عليهما السلام ، وهو الذى استخرج العلم وما يحدث فى الأزمان إلى أن تنقضى الأرض ومَنْ عليها وَعلوم ملوك العالم وَما يحدث فى السنين وَالشهور [وَالأيام][٢] من الحوادث ، وَدلائل ذلك فى الأفلاك [وَإليه ينسب كتاب الجفر)[٢] ، وَلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس استخرجوا التوراة وَغيرها من المواضع التى خُبِّئت فيها من الأرض على ما قدمنا .

حماية

ثم ملكت «حماية[٣]» بنت بهمن بن إسفنديار بن يستاسف [بن بهراسف] وَكانت تعرف بأمها شهر زاد، وَلهذه الملكة سير وَحروب مع الروم وَغيرهم من ملوك الأرض ، وَكانت حسنة السياسة لأهل مملكتها، وَكان ملكها بعد أبيها بهمن ثلاثين سنة ، وَقيل غير ذلك[٤] .

دارا

ثم ملك [بعدها] أخ لها يقال له « دارا » بن بهمن بن إسفنديار ، وكان ملكه اثنتى عشرة سنة ، وكان ينزل ببابل .

دارا بن دارا

ثم ملك «دارا» بن دارا ابن بهمن بن إسفنديار [بن يستاسف بن بهراسف]

---

(١) فى ب « كورس » .
(٢) زيادة فى ا وحدها .
(٣) فى ب «حماى » .
(٤) فى ا « وقيل أكثر من ذلك ».

والفرس تسمى دارا هذا باللغة الأولى من لغاتهم داريوس[١] ، وهو الذى قتله الإسكندر بن فايلبس المقدونى ، وكان ملكه إلى أن قتل ثلاثين سنة .

وقد ذكر أن منوشهر — حين انهزم من حرب فراسياب التركى — سار إلى جبل[٢] طبرستان فتحصَّن به ، ثم ثاب بعد ذلك ومعه خيل ، فحارب فراسياب التركى ، وقد وطىء العراق ، وغلب على الأقاليم ، فهرب إلى أرض الترك ، وأن الملك صار بعد منوشهر إلى أخوين ، وقيل : بل كانا شريكين فى الملك متظافرين متعاونين على عمارة الأرض وما خرَّبه فراسياب : أحدهما « بهماسف » بن كنجهر بن ورزق بن هومسف بن واحدسك بن دوس بن منوشهر ، والآخر « كرشاسف ابن يمار بن طهاهسف بن آشك بن فرسين بن أرج بن منوشهر ، وكان كرشاسف محاربا لفراسياب ، ومنازلا له ، والآخر وهو زاب بالعراق : يعمر ما خربه فراسياب من الأرض ، واحتفر النهرين المعروفين بالزابين الصغير والكبير ، على ما قدمنا من ذكرهما فى هذا الكتاب ، الخارجَيْن من بلاد أرمينية الصابَّيْن فى دجلة : الأكبر بين الموصل والحديثة ، والآخر ببلاد السن[٣] وسماهما باسمه ، وحفر بسواد العراق نهراً آخر وسماه بالزاب ، وجعل على هذا النهر بالعراق ثلاث طساسيج[٤] من الضياع والعمائر وأسماها الزوابى ، وما ذكرنا فهو باق إلى هذه الغاية ، وأن مملكتهما كانت ثلاث سنين ، وأن كيخسرو لما قتل جده ببلاد السرو[٥] والران من بلاد أذربيجان وهو فراسياب بن بشنك بن نبت بن نشمر ابن ترك[٦] ، وترك هذا جد سائر الترك عند طائفة من الناس مِنْ وَلد يسب بن طوح بن أفريدن ، وقد قدمنا وجهاً من الرواية فى نسبه فيما سلف من هذا

(١) فى ب « دارابنوس » . (٢) فى ا « جبال طبرستان فتحصن بها »

(٣) فى ب « الصين » . (٤) فى ب « طساسيم » .

(٥) فى ب « بلاد السن والران » .

(٦) فى ب « وهو فراسياب بن سيمك بن تبت بن ديشهر بن ترك » .

الكتاب ، وسار كيخسرو فى البلاد ، ووطىء الممالك ، وانتهى إلى بلاد الصين ؛ فبنى هناك مدينة عظيمة ، وسماها كنكدر ، وقد نزلها خلق من ملوك الصين كنزولهم أنموا وغيرها من مدنهم ، وقد قيل : إن كنكدر هى أنموا بعينها ، وقد قيل : إن كيقاوس بنى مدينة قشمير المقدم ذكرها بأرض السند[١] ، وإن سياوخس[٢] بنى فى حياة أبيه كيقاوس مدينة القندهار[٣] من أرض السند المقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب .

قال المسعودى : ولمن ذكرنا من هؤلاء الملوك أخبار وسير قد أتينا على شرحها فيما سلف من كتبنا ، وإنما نذكر فى هذا الكتاب جوامع ، مُنَبِّهين[٤] بها على ماسلف من مبسوطها ، وماذكره من الوجوه فلاختلاف الروايات وتباين الناس فى المصنفات من كتبهم فيما ذكرناه من أخبارهم ؛ ليعلم من قرأ كتابنا هذا أنا قد بذلنا المجهود من أنفسنا ، وذكرنا سائر ما قالوه فيما وصفناه ، وبالله التوفيق ، ومنه الإعانة .

(١) فى ا « بأرض الهند » . (٢) فى ب « سياخوش »
(٣) فى ب « مدينة المهرجان » . (٤) فى ب « نبنى بها » .

ذكر ملوك الطوائف

وهم بين الفرس الأولى والثانية

أصل ملوك الطوائف

قال المسعودى : وقد تنازع الناس فى ملوك الطوائف : أمن الفرس كانوا أم من النبيط أم من العرب ؟ فحكى جماعة من الأخباريين ممن عنى بأخبار الماضين أنه لما قَتَلَ الإسكندر بن فليبس دارا بن دارا تغَلَّبَ كل رئيس ناحية على ناحيته ، وكاتبهم الإسكندر ، فمنهم فُرْس ونبيط وعرب ، وكان مراد الإسكندر من ذلك تشتيت كلمتهم وتحزيبهم ، وغلبة كل رئيس منهم على الصقع الذى هو به ، فينعدم[1] نظام الملك ، والانقياد إلى ملك واحد يجمع كلمتهم [ليرجع إليه الأمر] ، إلاَّ أن أكثرهم كانوا ينقادون إلى الأشغانيين[2] ، وهم ملوك الجبال من بلاد الدينور ونهاوند وهمذان وماسبذان[3] وأذربيجان ، وكان كل ملك منهم يلى هذا الصقع يسمى بالاسم الأعم أشغان ؛ فقيل لسائر ملوك الطوائف « الأشغانيون » إضافة لهم إلى ملك هذا الصقع لانقيادهم إليه .

وقد حكى محمد بن هشام الكلبى عن أبيه وغيره من علماء العرب أنهم قالوا : أول ملوك الدنيا الأسكيان[4] ، وهم من سمينا من ملوك من سلف من الفرس الأولى إلى دارا بن دارا ؛ ثم الأردوان ، وهم ملوك النَّبِيط ، وكانوا من ملوك الطوائف ، وكانوا بأرض العراق مما يلى قصر ابن هبيرة وَسَقْى الفرات والجامعين وسورا وأحمد آباد والنرس إلى حِنْبَا وتل فخار[5] والطفوف وسائر ذلك الصقع ، وكانت ملوك العرب من مضر بن نزار بن معد وربيعة بن نزار وأنمار بن نزار ، والنصرية من بنى نصر من اليمن وغيرهم من قَحْطَان لهم ملوك ، وقد نصبت كل طائفة لها ملكا ؛ لعدم ملك يجمع كلمتهم ،

---

(١) فى ا « فيعدم نظام الملك ، ولا ينقاد إلى ملك واحد »

(٢) فى ب « الأشعانيين » (٣) فى ب « وماسندان » .

(٤) فى ب « السكينان » (٥) فى ب « جبلاوتل فاحر »

وذلك أن الإسكندر أشار عليه مُعَلِّمه وهو وزيره أرسطاطاليس، فى بعض رسائله إليه بذلك ، وكاتب الإسكندر ملك كل ناحية ، وَمَلَّكه على ناحيته، وتوَّجَه وَحَبَاه ، فاستبد كل واحد منهم بناحية ، فصار ملكه من بعده فى عقبه ، ممانعاً عما فى يده ، وطالباً للازدياد من غيره .

وكان ملك الطوائف عند كثير من الناس ممن عُنى بأخبار الماضين، ومعرفة سنيهم : خمسمائة سنة وسبع عشرة سنة ، وذلك من ملك الإسكندر إلى أن ظهر أردشير بن بابك [بن ساسان] فغلب على ملوك الطوائف ، وقتل أردوان الملك بالعراق، ووضع تاج أردوان على رأسه وكان قد قتله [فى] مبارزة على شاطىء دجلة فهذا أول يوم يعدُّ منه ملك أردشير لاستيلائه على سائر ملوك الطوائف، وتمهدت له البلاد ، واستقامت دعائمها[1] بملكه ، فمن ملوك الطوائف مَنْ قتلَهُ أردشير ابن بابك ، ومنهم مَنْ انقاد[2] إلى ملكه وأجاب دعوته .

وملوك الطوائف بين الفرس الأولى ممن سمينا ، وبين الفرس الثانية، وهم الساسانية .

عدة ملوك الطوائف

وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى[3] عن عمر كسرى فى كتاب له فى أخبار الفرس يصف فيه طبقات ملوكهم ممن سلف وخلف، وأخبارهم، وخطبهم وتشعب أنسابهم، و [وصف] ما بَنَوْه من المدن، وكوروه من الكور، واحتفروه من الأنهار ، وأهل البيوتات منهم ، وما وسم به كل فريق منهم، من الشهارجة وغيرهم : أن أول ملك من ملوك الطوائف « أشك » بن أشك بن أردوان ابن أشغان بن آس الجبار بن سياوش بن كيقاوس الملك عشرين سنة، ثم ملك بعد أشك « سابور »[4] بن أشك الملك ستين سنة ، وفى إحدى وأربعين من مملكته كان ظهور السيد المسيح عليه السلام ببلاد فلسطين بإيليا ، ثم ملك

ظهور المسيح

---

(١) فى ب « دعآتها » (٢) فى ب « من قاده »

(٣) فى ا « التمنى » (٤) فى ا « ثم ملك بعده أشك سابور بن أشك » محرفا

« جودرز » بن أشك بن أردوان بن أشغان عشر سنين ، ثم ملك « نيزر[١] » بن سابور الملك بن أشك الملك إحدى وعشرين سنة ، وقيل : إنه فى أيامه سار تطوس ابن أسفانيوس[٢] ملك رومية إلى إيليا ، وذلك بعد ارتفاع المسيح بأربعين سنة فقَتَلَ [وأسر] وسبى وخرب ، ثم ملك بعد نيزر بن سابور ابنه « جودرز » ابن نيزر تسع عشرة سنة ، [ثم ملك بعد جودرز نرس بن نيزر أربعين سنة][٣] ثم ملك بعده أخوه « هرمز » بن نيزر عشرين سنة[٤] ، ثم ملك « أردوان » ابن هرمز بن نيزر خمس عشرة سنة ، ثم ملك بعد أردوان ابنه كسرى بن أردوان أربعين سنة ، ثم ملك بعد كسرى ابنه بلاس بن كسرى أربعاً وعشرين سنة ، ثم ملك بعد بلاس ابنه أردوان بن بلاس ثلاث عشرة سنة[٥] .

قال المسعودى : فهذا وجه آخر غير ما قدمنا [ذكره] ، وقد قيل فى تاريخ سنى ملوك الطوائف غير ما وصفنا ، وإن مدتهم كانت أقل مما وصفنا ، والأول أشهر وأصح فى مقدار ما ملكوا من السنين ، مع تباين التواريخ [واختلافها] وتضاد ما فيها ، غير أن الذى حكيناه ما أخذناه عن علماء الفرس ، وهم يراعون من تواريخ من سَلَفَ ما لا يراعيه غيرهم ؛ لأن الفرس تدين بما وصفنا قولا وعملا ، وغيرهم من الناس يقول ذلك [قولا] ولا ينقاد إليه عملا ؛ لتباين أهل الشرائع ، وقد أتينا فيما سلف من كتبنا على الغرر من أخبار الطوائف وسيرهم وبالله التوفيق .

---

(١) فى ب « نيرو » (٢) فى ب « نطوس بن أشغانوس »
(٣) لا توجد هذه الزيادة فى ب . (٤) فى ا « خمسا وعشرين سنة »
(٥) وقع فى نسخة ب فى هذا الموضع نقص كثير فى عدد الملوك وتغيير أسمائهم ؛ فاعتمدنا على ا

ذكر أنساب فارس ، وما قاله الناس فى ذلك

تنازع الناس فى الفرس وأنسابهم : فمنهم من رأى أن فارس ابن ياسور[١] ابن سام بن نوح ، وكذلك النبط من ولد نبيط بن ياسور[١] بن سام بن نوح ، وهذا قول هشام بن محمد فيما حكاه عن أبيه وغيره من علماء العرب ؛ ففارس ونبيط أخوان [وهما] ابنا ياسور[١] ، ومنهم من زَعَمَ أنه من ولد يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل صلوات الله عليهم ، ومنهم من ذكر أنه من ولد إرم[٢] بن إرفخشذ بن سام بن نوح ، وأنه ولد [له] بضعة عشر رجلا كلهم كان فارساً شجاعاً فسموا الفرس بالفروسية ، وفى ذلك يقول حطان بن المعلى[٣] الفارسى :

اختلاف العلماء فى أنسابهم

وَبِنَا سُمِّيَ الْفَوَارِسُ فُرْسَا ... نًا ، وَمِنَّا مَنَاجِبُ الْفُرْسَانِ

وَكُهُولٌ طَوَاهُمُ الرَّكْضُ وَالْكَـ ... ـرُّ كَمِثْلِ الْكُرَاتِ يَوْمَ الطِّعَانِ

وقد زعم قومٌ أن الفرس من ولد لوط من ابنتيه ، زُهَى وَرَعْوَى ، ولأصحاب التوراة فى هذا خبر طويل ، وذكر آخرون أنهم من ولد بَوَّان ابن [إيران بن] الأسود بن سام بن نوح ، وَبَوَّان هذا هو الذى ينسب إليه شِعْبُ بَوَّان من بلاد فارس ، وهو أحد المواضع المشهورة فى العالم بالحسن ، وكثرة الأشجار ، وتدفُّقِ الميـاه ، وكثرة أنواع الأشجار ، وقد ذكره بعض الشعراء فقال :

فشعب بَوَّان فَوَادى الراهب ... فَثَمَّ نُلْقِى أَرْحُلَ النجائب[٤]

ومنهم من رأى أن الفرس من ولد إيران بن أفريدون ، وقد قدمنا فى صدر

---

(١) فى ب « ناسور » (٢) فى ا « هدرام بن إرفحشد »

(٣) فى ا « خطاب بن المعلى »

(٤) وقع فى ب « شعيب بوان فدار الراهب . . . راحة النوائب » وفى ا « فشعب بوان ووادى النوائب » وكلاهما تحريف ما أثبتناه

هذا الكتاب أخبار ولد أفريدون حين قسم الأرض بينهم ، وما قاله الشاعر فى ذلك من قوله :

ولإيران جعلنا عنوة فارس الملك وفزنا بالنعم[(١)]

فأضيف الفرس إلى ذلك، وإيران تسميه الفرسُ أيرج[(٢)] إذا عرفوا اسمه ، ولا تناكر بين الفرس جميعاً فى أنهامن ولد أيرج جميعاً، وأيرج هو إيران بن أفريدون هذا هو المستفيض بينهم ، و الأغلب عليهم : أنهم من آل أيرج، ومن الناس من ذهب إلى أن سائر أجناس الفرس وأهل كور الأهواز من ولد عيلام، ولا خلاف بين الفرس فى أن الجميع منهم من ولد كيومرث [وهذا هو الأشهر ، وكيومرث هو قبل أيرج بن أفريدون، وأيرج بن أفريدون هو الذى ترجع إليه فارس من ولد كيومرث][(٣)] ومن الناس من ذهب إلى أن الفرس الثانية ــ وهم الساسانية ــ دون من سلف من الفرس الأولى هم من ولد منو شهر بن[أيرج بن]أفريدون، ومنهم من ذهب إلى أن منو شهر[(٤)] هو ابن مشجر بن فريقس بن ويرك ، وويرك هو إسحاق بن إبراهيم الخليل، وسار مشجر إلى أرض فارس، وكان بها امرأة متملكة يقال لها كورك[(٥)] ابنة أيرج ، فتزوجها ، فولدت له منوشهر الملك ، وكثر ولده ، فملكوا الأرض ، وغلبوا عليها ، وهابتهم الملوك؛ لما هم عليه من الشجاعة والفروسية، ودثرت الفرس الأولى كدثور الأمم الماضية والعرب العاربة .

قال المسعودى : وأكثر حكماء العرب من نزار بن معد يقول هذا، ويعمل عليه فى بَدْء النسب ، وينقاد إليه كثير من الفرس، ولا ينكرونه ، وقد ذكرته شعراء العرب من نزار بن معد، وافتخرت على اليمن من قحطان بالفرس، وأنها من ولد إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، فقال فى ذلك إسحاق بن سويد

---

(١) فى ا « فارس الروم » (٢) فى ب « إيراج »

(٣) هذه الزيادة فى ب وحدها

(٤) فى ب « هو ابن مسحر بن أفريرس ، وترك هو — إلخ »

(٥) فى ا « كودك »

العدوىّ عدىّ قريش :

إذا افتخرت قَحْطان يوما بسؤددٍ — أتى فخرنا أعلى عليها وأسْوَدَا
ملكناهم بَدْءًا بإسحاق عمنا — وصاروا لنا غرما على الدهر أعْبُدَا(١)
فإن كان منهم تُبَّع وابن تبع — فأملاكهم كانوا لأملاكنا يدا
ويجمعنا والغُرَّ أبنــــاء سارة — أبٌ لا يبالى بعده من تفردا(٢)
هم مَلَّكوا شرقا وغربا ملوكهم — وهم منحوهم بعد ذلك سؤددا

وفى ذلك أيضاً يقول جرير بن الخطَفَى التميمى يفخر على قحطان بأن الفرس والروم من أولاد إسحاق ، والأنبياء من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، من كلمة طويلة يقول فيها :

وأبناء إسحاق الليوث إذا ارتَدَوْا — حمائل موت لابسين السنَوَّرَا
إذا افتخروا عدوا الصبهبذ منهمُ — وكسرى وَعَدُّوا الهرمُزَانَ وقيصرا
وكان كتاب الله فيهم ونوره — وكانوا بإصْطَخْرَ الملوكَ وَتُسْتَرَا
ومنهمْ سليمان النبيُّ الذى دعا — فأُعْطِيَ بنيانا وملكا مقدرا
أبونا أبو إسحاق ، يجمع بيننا — أبٌ كان مهديًّا نبياً مطهرا(٣)
[بنى قِبلَةَ الله التى يُهْتَدى بها — فأورثنا عزاً وملكا معمرا](٤)
[وموسى وعيسى والذى خر ساجداً — وأَنْبَتَ زرعا دمع عينيه أخضرا](٥)
[ويعقوب منهم ، زاده الله حكمة — وكان ابن يعقوب نبياً مطهرا](٥)
ويجمعنا والغرَّ أبنــاء فارس — أبٌ لا يبالى بعده من تأخرا
أبونا خليل الله ، والله ربنا ، — رضينا بما أعطى الإلٰهُ وقدرا

---

(١) فى ا « بإسحاق جدنا » وفيها « وصاروا لنا عونا »
(٢) فى ا « ويجمعنا والغز » (٣) فى ب « مهديا وملكا معمرا » محرفا
(٤) هذا البيت لا يوجد فى ب (٥) سقط هذان البيتان من ا

وفى ذلك يقول بشار بن برد :

نمتنى الكرام بنو فارس قُرَيْشٌ ، وقومى قريشُ العجم

وقال أحد شعراء الفرس يذكر أنه من ولد إسحاق ، وأن إسحاق هو المسمى ويرك ، على حسب ما قدمنا قبل ، من كلمة له :

أبونا ويرك ، وبه أُسَامِى إذا فخر المُفَاخِر بالولاده[1]

أبونا ويرك عَبدٌ رَسُول له شرف الرسالة والزَّهَاده[2]

فمن مثلى إذا افتخرت قرون ويبقى مثلُ واسطة القلادَهْ ؟

ومن الفرس من يزعم أن ويرك هو ابن أيرك بن بورك[3] ابن سبع نسوة تولدن من غير ذكر إلى أن يلحقن فى نسبهن بأيرج بن أفريدون ، وهذا مما يدفعه العقل ، ويأباه الحس ، ويخرج عن العادة ، وتَنْبُو عنه المشاهدة ، إلا ما خص الله تعالى به السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ليرى[4] آيانه ودلائله الخارجة عن العادة ، وعما ذكرنا من المشاهدات .

وللفرس ههنا منازعات فى نسب منو شهر ، واضطراب فى كيفية إلحاقه بأفريدون وفى وطء أفريدون لبنت أيرج ، ووطئه بنت البنت إلى السبع منهن .

وقد كان بين ملك منوشهر على ما ذكرنا وبين ملك أفريدون مدة خَلَتْ من الدهر ، وعدة من الملوك ؛ لتخرب كان بإقليم بابل ، وعدم ذى همة تنقاد إليه المملكة ، ويستقيم له الملك ، وتجتمع عليه الكلمة ، فانتقل الملك من ولد أفريدون إلى ولد إسحاق .

فإن كان كل ما ذكرنا هو المعول عليه من قول هذه الطائفة فيجب — على ما يوجبه الحساب — أن من كيومرث إلى انتقال الملك إلى ولد إسحاق ألفًا وتسعمائة واثنتين وعشرين سنة ، كذلك وجدت فى كتب تواريخ هذه الطائفة بأرض فارس وبلاد كرمان .

(١) فى ب « أبونا وترك وبه أحاجى » (٢) فى ا « شرف الرسالة والرفاده »

(٣) فى ا « أنوترك ابن أبريك وأن أبريك — إلخ » (٤) فى ب « ليؤدى »

قال المسعودي : وقد افتخر بعض أبناء الفُرْس بعد التسعين والمائتين بجده إسحاق بن إبراهيم الخليل ، على ولد إسماعيل ، بأن الذبيح كان إسحاق دون إسماعيل ، فقال من كلمة له :

قُلْ لبنى هاجر أَبَنْتُ لكم ما هذه الكبرياء والعظمه ؟
ألم تكن فى القديم أمكم لأمنا سارة الجمال أمَهْ ؟
والمُلْكُ فينا والأنبياء لنا إن تُنْكروا ذاك توجدوا ظَلَمَهْ
إسحاق كان الذبيح، قد أجمع الناس عليه إلا ادعاء لمه
حتى إذا ما محمد أظهر الدين وجلى بنوره الظلمه
قلتم : قريش الأحساب مفخرة أصل لنا، إن كنتم بنيه فَمَهْ[1]
[أما بنو يعرب فليسوا كمن أسكنه الله آمنا حرمه][2]
[ولا كأبناء فارس ، وهُمْ فى الأرض مثل الأسود فى الأَجَمَهْ][3]

وهى قصيدة طويلة ، ذكر فيها كلاماً كثيراً لم يسعنا ذكره ، وقد أجابه عبد الله بن المعتز ، وكان قائل هذه القصيدة فى عصره ، وعُمِّرَ إلى أن مضت الثلثمائة ، يناقضه فى أبيات منها ؛ فمن ذلك قوله :

أسمع صوتاً ولا أرى أحداً من ذا الشقى الذى أباح دَمَهْ ؟
حاشا لإسحاق أن يكون لكم أبا ، وإن كنتم بنيه فَمَهْ
قولا لكلب يرى لبطشته قد فغر الليث للفراس فمه[3]

والفرس لا تنقاد إلى القول بأن المُلْكَ كان فيها لأحد غير ولد أفريدون فى عصر من الأعصار فيما سلف وخلف إلى أن زال عنهم المُلكُ ، إلا أن يكون دخل عليهم داخل على طريق الغصب بغير حق .

(١) وقع هذا البيت فى ا هكذا :

قلتم قريش والفخر فى الدين لا الـ أحساب ، إن كنتم بنيه فمه

(٢) سقط هذان البيتان من ا (٣) فى ا « يرى لفطنته »

الفرس يحجون البيت

وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام ، وتطوف به ، تعظيما له، ولجدّها إبراهيم عليه السلام ، وتمسكا بهديه ، وحفظاً لأنسابها ، وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك [وهو] جد أردشير بن بابك ، وهو أول ملوك ساسان وأبوهم الذي يرجعون إليه كرجوع ملوك المروانية إلى مروان بن الحكم، وخلفاء العباسيين إلى العباس بن عبد المطلب ، ولم يل الفرسَ الثانية أحد إلا من ولد أردشير بن بابك هذا ، فكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر إسماعيل ، فقيل : إنما سميت زمزم لزمزمته عليها، هو وغيره من فارس، وهذا يدل على ترادف كثرة هذا الفعل منهم على هذه البئر ، وفى ذلك يقول الشاعر فى قديم الزمان :

زَمْزَمَتِ الفُرْسُ على زَمْــــزَمِ
وذاك من سالِفِهــا الأقــدم

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإســلام بذلك ، فقال من كلمة :

وما زلنا نحجُّ البيت قِدْماً ونُلْفَى بالأباطح آمنينا[1]
وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق يطوف دينا[2]
فطاف به ، وزمزم عند بئر لإسماعيل تُرْوِى الشاربينا

وكانت الفرس تهدى إلى الكعبة أموالا فى صدر الزمان ، وجواهر ، وقد كان ساسان بن بابك [هذا] أهدى غزالَيْنِ من ذهب وجوهر وسيوفاً وذهباً كثيراً فقذفه[3] فى زمزم .

وقد ذهب قوم من مصنفى الكتب فى التواريخ وغيرها من السير أن ذلك

(١) فى ا « ونلقى بالأباطح » .
(٢) فى ا « لنصر دينا » .
(٣) فى ا « فدفن فى زمزم » .

كان لجرهم حين كانت بمكة ،وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك إليها ، ويحتمل أن يكون لغيرها ، والله أعلم .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب ما كان من فعل عبد المطلب بهذه الأسياف وغيرها مما أودع فى زمزم .

وللناس فى [هذه] الأنساب تنازع فى بدئها وتشعبها ، وقد ذكرنا من ذلك جملا ، وأوردنا منه جوامع يكتفى ذو المعرفة بالإشراف عليها عن كثير من مبسوطها .

ذكر ملوك الساسانية ، وهم الفرس الثانية [وأخبارهم][1]

كان أول من نسب إليه ملوكهم على حسب ماقدمنا فى الباب الذى قبل هذا أردشير بن بابك شاه بن ساسان بن بابك بن ساسان بن بهاوند بن دارا بن ساسان ابن بهمن بن إسفنديار بن يستاسف بن بهراسف [على حسب ماقدمنا من نسب بهراسف ، وقيل : إنه أردشير بن بابك بن ساسان الأصغر بن بابك بن ساسان ابن بابك بن مهرمس بن ساسان بن بهمن بن إسفنديار بن يستاسف بن بهراسف][2] ولا خلاف بينهم فى أن أردشير من ولد منوشهر ، وكان مما حفظ من قوله يوم ملك وقتل أردوان وفرغ من ملوك الطوائف ووضع التاج على رأسه أن قال : الحمد لله الذى خصنا بنعمه ، وشملنا بفوائده وقسمه ، ومهد لنا البلاد ، وقاد إلى طاعتنا العباد نحمده حمد من عرف فضل ما آتاه ، ونشكره شكر الدارى بما منحه واصطفاه ، ألا وإنا ساعون فى إقامة [منازل][1] العدل ، وإدرار الفضل ، وتشييد المآثر ، وعمارة البلاد ، والرأفة بالعباد ، وَرَمّ أقطار المملكة ، ورَدّ ما انخرم فى سائر الأيام منها ، فليسكن طائركم ، أيها الناس ، فإنى أعُمّ بالعدل القوىَّ والضعيف ، والدنىء والشريف ، وأجعل العدل سنة محمودة ،وشريعة مقصودة ، وستردون فى سيرتنا إلى ما تحمدوننا عليه ، وتصدق أفعالنا أقوالنا ، إن شاء الله تعالى ، والسلام .

أردشير بن بابك

---

(١) زيادة فى ب . (٢) زيادة فى ا وحدها .

قال المسعودى : وأردشير بن بابك المتقدم فى ترتيب طبقات القدماء ، وبه اقتدى المتأخرون من الملوك والخلفاء ، وكان يرى أن ذلك من السياسة ، ومما يدعم[1] عمود الرياسة ؛ فكانت طبقات خاصته ثلاثا : الأولى الأساورة وأبناء الملوك ، وكان مجلس هذه الطبقة عن يمين الملك ، على نحو من عشرة أذرع ، وهم بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم ، وكانت الطبقة الثانية على مقدار عشرة أذرع من الأولى ، وهم وجوه المَرَازبة وملوك الكور والقيمون بباب أردشير ، و[المرازبة وهم] الإصبهبذية ممن كانت مملكة الكور[2] فى أيامه ، والطبقة الثالثة كانت رتبتها على قدر عشرة أذرع من حد مرتبة الطبقة الثانية ، وأهل هذه الطبقة المضحكون وأهل البطالة والهزل ، غير أنه لم يكن فى هذه الطبقة الثالثة خسيس الأصل ، ولا وضيع القدر ، ولا ناقص الجوارح ، ولا فاحش الطول أو القصر ، ولا مَؤُوف ، ولا مرمى بأبنة ، ولا ابن ذى صناعة دنيئة كابن حائك أو حَجَّام ، ولو كان يعلم الغيب أو حوى كل العلوم مثلا .

وكان أردشير يقول : ماشىء أضر على نفس ملك أو رئيس أو ذى معرفة صحيحة من معاشرة سخيف أو مخالطة وضيع ؛ لأنه كما أن النفس تَصلح على مخالطة الشريف الأريب الحسيب ، كذلك تفسد بمعاشرة الخسيس ، حتى يقدح ذلك فيها ، ويزيلها عن فضيلتها ، ويثنيها عن محمود شريف أخلاقها ، وكما أن الريح إذا مرت بالطيب حملت طيباً تحيا به النفوس وتتقوى به جوارحها[3] ، كذلك إذا مرت بالنتن فحملته ألمت به النفس ، وأضر بأخلاقها إضراراً تاماً ، والفساد أسرع إليها من الصلاح ؛ إذ كان الهدم أسرع من البناء ، وقد يجد ذو المعرفة فى نفسه عند معاشرة السفلة الوضعاء شهراً فساد عقله دهراً .

وكان أردشير يقول : يجب على الملك أن يكون فائض العدل ، فإن [فى] العدل

(١) فى ا « ومما يرم عموم الرياسة » .

(٢) فى ب « الكون » . (٣) فى ا « وتقوى به جوارحها » .

جماع الخير ، وهو الحصن الحصين من زوال الملك وتخرمه ، وإن أول مخايل الإدبار فى الملك ذهاب العدل منه، وأنه متى خَفَقَتْ رايات الجور فى ديار قوم كافحتها عقاب العدل فردتها على العقب ، وليس أحد ممن يصحب الملوك ويخالطهم أولى باستجماع محاسن الأخلاق وفضائل الآداب وظرائف الملح[1] وغرائب النتف من النديم ، حتى إنه لَيَحْتاج[2] أن يكون له مع شرف الملوك تواضع العبيد، ومع عفاف النُّسّاك مجون الفتاك ، ومع وقار الشيوخ مزاح الأحداث ، وكل واحدة من هذه الخلال هو مضطر إليها فى حال لا يحسن أن يجلب غيرها[3] وإلى أن يجتمع له من قوة الخاطر مايفهم به ضمير الرئيس الذى ينادمه ، على حسب ما يَبْلُوه من خلائقه ، و يعلم من معانى لحظه وإشاراته مايعينه على شهوته ، ولا يكون نديماً حتى يكون له جمال ومروءة ؛ فأما جماله فنظافة ثوبه ، وطيب رائحته ، وفصاحة لسانه ، وأما مروءته فكثرة حيائه فى انبساطه إلى الجميل ، ووقاره فى مجاسه ، مع طلاقة وجهه فى غير سخف ، ولا يستكمل المروءة حتى يسلو عن اللذة .

مراتب رجال الدولة

ورتب أردشير المراتب فجعلها سبعة أفواج[4] : فأولها الوزراء ، ثم الموبذان وهو القائم بأمور الدين ، وهو قاضى القضاة ، وهو رئيس الموابذة[5] ،ومعناها القُوّام بأمور الدين فى سائر الممالك ، والقضاة المنصوبون للأحكام ، وجعل الإصبهبذيين أربعة : الأول بخراسان، والثانى بالمغرب، والثالث ببلاد الجنوب، والرابع ببلاد الشمال[6] ؛فهؤلاء الأربعة هم أصحاب تدبير الملك ، كل واحد منهم

---

(١) فى ا « وأفاضل الآداب وطرائف اللح »
(٢) فى ا « حتى إنه يحتاج »
(٣) فى ا « حال لا يحسن أن يجانبه غيرها »
(٤) فى ب « سبعة أوزاح »
(٥) فى ا « رئيس المرابذة »
(٦) فى ب « يلاد الشام »

قدأفرد بتدبير جزءمن أجزاء المملكة ، فكل واحد منهم صاحب ربع منها، ولكل واحدمن هؤلاء مَرْزُبَان،وهم خلفاءهؤلاء الأربعة،ورتب أردشير الطبقات الأربعة من أصحاب التدبير ومَنْ إليهم أزِمَّةُ الملك وحضور المشورة[1] فى إيراد الأمور وإصدارها، ثم رتب طبقات المغنين وسائر المطربين وذوى الصنعة بالموسيقى

فلم يزل على ذلك مَنْ طرأ بعده من ملوك آل ساسان إلى بهرام جور ؛ فإنه قرر[2] مراتب الأشراف وأبناء الملوك وَسَدَنة بيوت النيران والنساك والزهاد وطبقات العلماء بالديانة وأنواع المهن الفلسفية على حالها ، وغَيَّر طبقات المغنين ، فرفع مَنْ كان بالطبقة الوسطى إلى الطبقة العليا ، والطبقة الدنيئة إلى الوسطى، وغَيَّر المراتب على حسب إعجابه بالمطرب له منهم ، وأفسد مارتبه أردشير بن بابك فى طبقات الملهين ، فسلك مَنْ ورَدَ بعده من ملوكهم هذا المسلك ، حتى ورد كسرى أنو شروان فردّ مراتب المغنين إلى ما كانت عليه فى عهد أردشير بن بابك .

وقد كانت ملوك الأعاجم كلها من عهد أردشير تحتجب عن الندماء ، وكان [يكون] بين الملك وبين أول الطبقات عشرون ذراعاً ؛ لأن الستارة التى على الملك تكون منه على عشرة أذرع ، ومن الطبقة الأولى على عشرة أذرع ، وكان الموكل بالستارة رجلا من أبناء الأساورة يقال له خرم باش، فإذا غاب[3] هذا الرجل وكل بها آخر من أبناء الأساورة وذوى التحصيل ، وسمى بهذا الاسم ، وهذا الاسم عم لمن رتِّب فى هذه الرتبة ووقف هذا الموقف، وتفسير ذلك كن فرحاً مسروراً ، وكان خرم باش هذا إذا جلس الملك لنُدَمائه ومُعاقريه[4] أمر رجلا أن يرتفع على أرفع مكان فى دار الملك ، فيرفع عقيرتَه ويُغَرِّد بصوت رفيع يسمعه كل من حضر فيقول : يالسان احفظ رأسك، فإنك تجالس فى هذا اليوم الملك، ثم ينزل ، وكان ذلك فعلهم فى يوم جلوس الملك للهوه وطربه ، فيأخذ الندماء مراتبهم خافتة

(١) فى ا « وحصول المشورة » . (٢) فى ا « فإنه أقر » .
(٣) فى ا « فإذا مات هذا الرجل » (٤) فى ا « ومعاشبرتهم » .

أصواتها ، غير منشيرة بشى من جوارحها ، حتى يطلع الموكل بالستارة ، فيقول : غنِّ أنت يا فلان كذا وكذا ، واضرب أنت يافلان كذا وكذا ، من طريقة كذا وكذا ، من طرائق الموسيقى ، وقد كانت الأوائل من بنى أمية لاتظهر للندماء ، وكذلك الأوائل من بنى العباس .

وكوَّر أردشير بن بابك كُوَراً ، وَمَدَّنَ مُدُناً ، وله عهد فى أيدى الناس .

زهد أرشير

ولما خلا من ملكه أربع عشرة سنة ، وقيل : خمس عشرة سنة ، واستقامت له الأرض ، ومهدها ، وصال[1] على الملوك فانقادت إلى طاعته ، زهد فى الدنيا ، وتبين [له] عوارها ، وما هى عليه من الغرور والعناء[2] ، وقلة المكث ، وسرعة الغِيلة منها إلى مَنْ أمنها ، ووثق بها ، واطمأنَّ إليها ، وبان له أنها غرّارة وضرّارة خاتلة زائلة بائدة ، وما أعْذَوْذَبَ منها جانب لامرىء وَحَلاَ إلا تمرَّرَ منها عليه جانب [وَأَوْبَى] ورأى أن مَنْ بنى قبله المدائن وحَصَّن الحصون وساق الجموع وكان أعظم جيشاً وأشد جنوداً وأتم عديداً قد صار رميا هشيا ، وتحت التراب مقيما ؛ فآثر التفرد[3] عن المملكة ، والترك لها ، واللحاق ببيوت النيران ، والانفراد بعبادة الرحمن ، والأنس بالوحدة ، فنصب ابنه «سابور» لملكته ، وتوَّجه بتاجه ، وذلك أنه رآه أرجح ولده حلماً ، وأكملهم علماً ، وأشدهم بأساً ، وأجزلهم مراساً ، فعاش بعد ذلك فى حال تزهده ، وخلوه بربه ، وكونه فى بيوت النيران سنة ، وقيل شهرا ، وقيل : أكثر مما ذكرنا .

وأقام أردشير اثنتى عشرة سنة يحارب ملوك الطوائف ؛ فمنهم من يكاتبه فينقاد إلى ملكه رهبة من صَوْلته ، ومنهم من يمتنع عليه فيسير إلى داره ويأتى عليه ، وكان آخر من قتل منهم ملكا للنبط بناحية سواد العراق اسمه بابا بن بردينا[4] صاحب قصر ابن هبيرة ، ثم أردوان الملك ، وفى هذا اليوم سمى شاهنشاه ، وهو ملك الملوك .

---

(١) فى ا « ومال على الملوك » . (٢) فى ا « الغرور والفناء » .

(٣) فى ا « فآثر التبرؤ من المملكة » . (٤) فى ب « بابا بن برينا » .

وأمُّ ساسان الأكبر من سبايا بنى إسرائيل ، وهى بنت سانال[1] ،. ولأردشير ابن بابك أخبار فى بَدْء ملكه مع زاهد من زهادهم وأبناء ملوكهم يقال له بيشر[2] وكان أفلاطونى المذهب على رأى سقراط وأفلاطون ، أعرضنا عن ذكرها ؛ إذ كنا قد أتينا على جميع ذلك فى كتابنا « أخبار الزمان » وفى الكتاب الأوسط ، مع ذكر سيره وفتوحه ، وما كان من أمره ، ولأرشير بن بابك كتاب يعرف بكتاب «الكرنامج[3]» فيه ذكر أخباره وحروبه ومسيره فى الأرض وسيره .

من وصايا أردشير وكتبه

وكان مما حفظ من وصية أردشير لابنه سابور عند نصبه إياه للملك أن قال له : يا بنى ، إن الدين والملك أخوان ، ولا غنى لواحد منهما عن صاحبه؛ فالدين أس الملك ، والملك حارسُه ، وما لم يكن له أس فمهدوم[4] ، وما لم يكن له حارس فضائع .

وكان مما حفظ من مكاتباته — أعنى أردشير — إلى خواصٍّ من أنواع رعيته وعماله : من أردشير [بن] بهمن ملك الملوك ، إلى الكتاب الذين بهم تدبير المملكة ، والفقهاء الذين هم عماد الدين ، والأساورة الذين هم حُماة الحرب ، وإلى الحرّاث الذين هم عَمَرَة البلاد ، سلام عليكم ، نحن بحمد الله صالحون ، وقد رفعنا إتاوتنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا ورحمتنا ، ونحن كاتبون إليكم بوصية فاحفظوها ؛ لا تستشعروا الحقد فيكم فيدهمكم العدو ، ولا تحتبوا الاحتكار فيشملكم القحط ، وكونوا لأبناء السبيل مأوى تروروا غداً فى المعاد ، وتزوجوا فى الأقارب فإنه أمَسُّ للرحم وأقرب للنسب ، ولا تركنوا للدنيا فإنها لا تدوم لأحد ، ولا تهتموا لها فلن يكون إلا ما شاء الله ، ولا ترفضوها مع ذلك فإن الآخرة لا تنال إلا بها .

وكتب أردشير إلى بعض عماله : بلغنى أنك تؤثر اللين على الغلظة، والمودة على الهيبة ، والجبن على الجراءة ، فليشتد أوّلك ، وليلن آخرك، ولا تخلين قلباً

---

(١) فى ب «سامات» .
(٢) فى ب « يقال له تيس » .
(٣) فى ب « الكريامخ » .
(٤) فى ا « فمعدوم » .

من هيبة، ولا تعطانه من مودة، ولا يبعد عليك ما أقول [لك] فإنهما يتجاوران.

سابور بن أردشير

ثم ملك بعد أردشير ابنه سابور ، وكان ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة ، وكانت له حروب مع كثير من ملوك العالم ، وبنى كُوَراً ، وَمَصَّر مدناً نسبت إليه ، كما نسب من الكور والمدن إلى آبائه ، والعرب تلقبه سابور الجند[1] ، وفى أيامه ظهر مانى ، وقال بالاثنين[2] ، فرجع سابور عن المجوسية إلى مذهب مانى والقول بالنور والبراءة من الظلمة ، ثم عاد بعد ذلك إلى دين المجوسية ، ولحق مانى بأرض الهند ؛ لأسباب أوجبت ذلك قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا .

مانى الثنوى

بين قيصر وسابور

وكتب ملكُ الروم إلى سابور بن أردشير : أما بعد ، فقد بلغنى من سياستك لجندك ، وضبطك ما تحت يدك ، وسلامة أهل مملكتك بتدبيرك — ما أحببت أن أسلك فيه طريقتك ، وأركب مناهجك .

فكتب إليه سابور : نِلتُ ذلك بثمان خصال : لم أهزل فى أمر ولانهى قط ، ولم أخلف وعداً ولا وعيداً قط ، وحاربت للغنى لا للهوى ، واجتلبت قلوب الناس ثقة[3] بلا كره ، وخوفا بلا مقت ، وعاقبت للذنب لا للغضب ، وعممت بالقوت ، وحسَمْتُ الفضول .

من سابور إلى بعض عماله

ويقال : إن سابور كتب إلى بعض عماله : إذا استكتبت[4] رجلا فأسْنِ رزقه ، وَشُدَّ بصالح الأعوان عضده ، وأطلق بالتدبير يده ؛ فى إسناء رزقه حسم طمعه ، وفى تقويته بالأعوان ثقل وطأته على أهل العدوان ، وفى إطلاقه بالتدبير[5] ما أخافه عواقب الأمور ، ثم قِفْهُ من أمره على ماله تدمته[6] ليمثله إماماً ويحفظه كلاماً ، فإن وقع أمره بما رسمت فأَوْلِهِ غرضك ،

(١) فى ا « سابور الجنود »

(٢) فى ا « بالآيتين » (٣) فى ب « مقة » والمقة : المحبة

(٤) فى ا « إذا استكفيت رجلا » (٥) فى ا « وفى إطلاق يده بالتدبير »

(٦) فى ا « على ماله ندبته ليمتثله إماما »

وأوجب زيادته عليك ، وإن حَادَ عن أمرك علقته حجتك ، وأطلقتَ بالعقوبة عليه يَدَكَ ، والسلام .

وعهد سابور إلى ولده هرمز وَمَنْ تلاه من الملوك بعده ، فقال : اجعلوا علو أخلاقكم كعلو أخطاركم ، وارتفاع كرمكم كارتفاع هممكم ، وفضل سعيكم كفضل جَدِّكم .

وقيل : إن ملك سابور كان إحدى وثلاثين سنة و نصفاً وثمانية عشر يوماً .

هرمز

ثم ملك بعد سابور ابنه « هرمز » [بن سابور] الملقب بالبطل ، وكان ملكه سنة ، وقيل : اثنين وعشرين شهراً ، وبنى مدينة رامهرمز من كُوَر الأهواز .

وكتب إلى بعض عماله : لا يصلح لسد الثغور وقَوْد الجيوش وإبرام الأمور وتدبير الأقاليم إلا رجل تكاملت فيه خمس خصال : حزم يتيقن به عند موارد الأمور حقائق مصادرها ، وعلم يحجبه عن التهوُّر فى المشكلات إلا عند تجلى فرصتها ، وشجاعة لا تنقصها الملمات بتواتر جوائحها ، وصدق فى الوعد والوعيد يوثَقُ بوفائه بهما ، وجود يهون عليه بتدبير[١] الأموال فى حقها .

بهرام

ثم ملك بعده بهرام بن هرمز ثلاث سنين ، وكانت له حروب مع ملوك الشرق .

وقد ذكرنا أن بهرام أتاه مانى بن يزيد تلميذ قاردون[٢] فعرض عليه مذاهب الثَّنَوِيَّة [فأجابه احتيالا منه عليه إلى أن أحضر دعاته المتفرقين فى البلاد من أصحابه الذين يَدْعُون الناس إلى مذاهب الثنوية][٣] فقتله ، وقتل الرؤساء من أصحابه ، وفى أيام مانى هذا ظهر اسم الزندقة الذى إليه أضيف الزنادقة ، وذلك

الزنادقة

أن الفرس حين أتاهم زَرَادشت بن أسبيمان — على حسب ما قدمنا من نسبه فيما

(١) فى ب « وجود يهريق عليه تدبير الأموال فى حقها » .

(٢) فى ب « مانى بن فديك تلميذ ماردون » (٣) زيادة فى ا وحدها

سلف من هذا الكتاب — بكتابهم المعروف بالبستاه باللغة الأولى من الفارسية، وعمل له التفسير ، وهو الزند، وعمل لهذا التفسير شرحا سماه الباز ند، على حسب ما قدمنا ، وكان الزند بياناً لتأويل المتقدم المنزل ، وكان مَنْ أورد فى شريعتهم شيئاً بخلاف المنزل الذى هو البستاه ، وعَدَل إلى التأويل الذى هو الزند، قالوا: هذا زندى ، فأضافوه إلى التأويل ، وأنه منحرف عن الظواهر من المنزل إلى تأويلٍ هو بخلاف التنزيل ، فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس ، وقالوا : زنديق ، وعَرَّبوه ، والثنوية هم الزنادقة ، ولحق بهؤلاء سائر من اعتقد القدم ، وأبى حدوث العالم .

بهرام ابن بهرام

ثم ملك بعده « بهرام » بن بهرام ، وكان ملكه سبع عشرة سنة ،وقيل غير ذلك ، وأقبل فى أول ملكه على القَصْف واللذات والصيد والنزهة، لا يفكر فى ملكه ، ولا ينظر فى أمور رعيته ، وأقْطَع الضياع لخواصه ومَنْ لاذ به من خَدَمه وحاشيته ، فخربت الضياع ، وخلت من عُمَّارها، وسكنوا الضياع المتعززة، فقلّت العمارة إلا ما أقطع من الضياع ، وسقطت عنهم المطالبة بالخراج بممايلة الوزراء خَوَاصَّ الملك، وكان تدبير الملك مفوضاً إلى وزرائه؛ فخربت البلاد، وقلت العمارة وقل ما فى بيوت الأموال ، فضعف القويُّ من الجنود، وهلك الضعيف منهم، فلما كان فى بعض الأيام ركب [الملك] إلى بعض متنزهاته وصيده، فجنه الليل وهو يسير نحو المدائن ، وكانت ليلة قَمْراء ، فدعا بالموبذان[(1)] لأمر خطر بباله فلحق به وسايره ، وأقبل على محادثته[(2)] ، مستخبراً له عن سير أسلافه ، فتوسطوا فى مسيرهم خربات كانت من أمهات الضياع قد خربت فى مملكته، ولا أنيس بها إلا البوم ، وإذا بوم يصيح وآخر يجاوبه من بعض تلك الخربات ، فقال الملك للموبذان : أترى أحداً من الناس أعطى فَهْمَ منطق هذا الطير المصوت فى هذا

---

(١) فى ا « فدعا بالموبذ ».
(٢) فى ا « وأقبل عليه يحادثه » .

الليل الهادىء ؟ فقال له الموبذان : أنا أيها الملك ممن قد خصه الله بفهم ذلك ، فاستفهمه الملك عما قال ، فأعلمه أن قوله صحيح ، فقال له : فما يقول هذا الطائر ؟ وما الذى يقول الآخر ؟ قال الموبذان : هذا بوم ذكر يخاطب بومة ، ويقول لها : أمتعينى من نفسك حتى يخرج منا أولاد يسبحون الله ، ويبقى لنا فى هذا العالم عَقِبٌ يكثرون ذكرنا [والترحم علينا] فأجابته البومة : إن الذى دعوتنى إليه هو الحظ الأكبر ، والنصيب الأوفر ، فى العاجل والآجل ، إلا أنى أشترط عليك خصالا إن أنت أعطيتنيها أجبتك إلى ما دعوتنى إليه ، فقال لها الذكر : وما تلك الخصال ؟ قالت : أولها إن أنا أبحتك نفسى وصرت إلى ما إليه دعوتنى تضمن لى أن تعطينى من خربات أمهات الضياع عشرين قرية مما قد خرب فى أيام هذا الملك السعيد ، فقال له الملك : فما الذى قال لها الذكر ؟ قال الموبذان : كان من قوله لها : إن دامت أيامُ هذا الملك السعيد جده أعطيتك[1] مما يخرب من الضياع ألف قرية ، فما تصنعين بها ؟ قالت : فى اجتماعنا ظهور النسل ، وكثرة الولد ، فنُقْطِع كل واحد من أولادنا قرية من هذه الخربات ، قال لها الذكر : هذا أسهل أمر سألتنيه[2] ، وأيسر أمر طلبته[3] منى ، وقدمت لك الوعد وأنا ملىء بذلك ، فهاتى ما بعد ذلك ؛ فلما سمع الملك هذا الكلام من الموبذان عمل فى نفسه ، واستيقظ من نومه ، وفكر فيما خوطب به ، فنزل من ساعته ، وترَجَّلَ للناس ، وخلا بالموبذان فقال له : أيها القيم بالدين ، والناصح للملك ، والمنبه على ما أغْفَلَه من أمور ملكه ، وأضاعه من أمر بلاده ورعيته ، ما هذا [الكلام] الذى خاطبتنى به ؟ فقد حركت منى ما كان ساكناً ، وبعثتنى على علم ما كنت عنه غائباً ، قال الموبذان : صادفت من الملك السعيد جدُّه وقتَ سعدٍ للعباد والبلاد ، فجعلت الكلام مثلا وموقظاً على لسان الطائر عند طلب الملك

(١) فى ا « أقطعتك » .

(٢) فى ب « أردتيه » والوجه فى العربية « أردته » .

(٣) فى ا ، ب « طلبتيه » والوجه فى العربية « طلبته » بكسر التاء بدون ياء

منى جواب ما سأل ، ثم قال له الملك : أيها الناصح ، اكْشِفْ لى عن هذا الغرض الذى إليه رميت ، والمعنى الذى له قصدت ، ما المراد منه ؟ وإلى ماذا يؤول ؟ قال الموبذان : أيها الملك السعيد جده ، إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله تعالى بطاعته ، والتصرف تحت أمره ونهيه ، ولا قوام للشريعة إلا بالملك ، ولا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل ، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة ، نصبه الربُّ وجعل له قيما[1] ، وهو الملكُ ، قال الملك : أما ما وصفت فحق ، فأبِنْ لى عما تقصد ، وأوضح لى فى البيان ، قال الموبذان : نعم أيها الملك ، عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها وعُمّارها ، وهم أرباب الخراج وَمَنْ تؤخذ منهم الأموال ، فأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة وغيرهم ، فعمدوا إلى ما تعجل من غلاتها ، واستعجلوا المنفعة ، وتركوا العمارة والنظر فى العواقب وما يصلح الضياع ، وسوحوا فى الخراج ؛ لقربهم من الملك ، ووقع الحَيْفُ على من بقى من أرباب الخراج وعمار الضياع ، فانجلوا عن ضياعهم ، ورحلوا عن ديارهم[2] ، وآووا إلى ما تعزز من الضياع [بأربابه] فسكنوه ، فقلت العمارة ، وخربت الضياع ، وقلت الأموال ، فهلكت الجند والرعية ، وطمع فى ملك فارس مَنْ أطاف بها من الملوك والأمم ؛ لعلمهم بانقطاع المواد التى بها تستقيم دعائم الملك ، فلما سمع الملك هذا الكلام من الموبذان أقام فى موضعه ذلك ثلاثاً ، وأحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين ، وأحضرت الجرائد ، فانتزعت الضياع من أيدى الخاصة والحاشية ، ورُدَّت إلى أربابها ، وَجرَوْا على رسومهم[3] السالفة ، وأخذوا فى العمارة ، وقوى من ضعف منهم ، فعمرت الأرض ، وأخصبت البلاد ، وكثرت الأموال عند جباية الخراج[4] .

---

(١) فى ب « وجعله قدماً وهو الملك » وليس بشىء .

(٢) فى ا « وخلوا ديارهم » (٣) فى ا « وحملوا على رسومهم السالفة »

(٤) فى ا « جباة الخراج » .

وقويت الجنود ، وقطعت مواد الأعداء ، وشحنت الثغور ، وأقبل الملك يباشر الأمر بنفسه في كل وقت من الزمان ، وينظر في أمر خواصه وعوامه ، فحسنت أيامه ، وانتظم ملكه ، حتى كانت تدعى أيامه أعياداً ؛ لما عم الناس من الخصب [والإفضال] وشملهم من العدل .

جماعة من ملوك الفرس

ثم ملك بعده بهرام بن الملك بهرام بن بهرام [فكان ملكه إلى أن هلك] أربع سنين ، وأربعة أشهر (١) . ثم ملك بعده نرسى بن بهرام الملك ابن بهرام البطل ، وكان ملكه سبع سنين [وقيل] ونصفاً . ثم ملك بعده هرمز بن نرسى بن بهرام ، على ما ذكرنا من النسب ، وكان ملكه سبع سنين وخمسة أشهر . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى عن عمر كسرى أن كل من ذكرنا من ملوك [آل] ساسان إلى هذا الملك — وهو هرمز ابن نرسى — كانوا ينزلون جنديسابور من بلاد خوزستان ، وقد كان يعقوب بن الليث الصفار أراد سكنى جند يسابور متشبهاً بمن مضى من ملوك ساسان ، إلى أن مات بها . وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب أخبار المعتمد حين سكناه إياها ووفاته فيها .

سابور ذو الأكتاف

ثم ملك بعد هرمز بن نرسى ابنه سابور بن هرمز ، وهو سابور ذو الأكتاف ، وكان ملكه إلى أن هلك اثنتين وسبعين سنة . وخلفهُ والده حَمْلاً ، فغلبت العرب على سواد العراق ، وقام الوزراء بأمر التدبير ، وكانت جمهرة العرب ممن غلب على العراق ولد إياد بن نزار ، وكان يقال لها «طبق» لإطباقها على البلاد ، وملكها يومئذ الحارث بن الأغر الإيادى ، فلما بلغ سابورَ من السن ست عشرة سنة أعدَّ أساورتهُ بالخروج إليهم (٢) والإيقاع بهم ، وكانت إياد تصيف بالجزيرة وتشتو بالعراق ، وكان في حبس سابور (٣) رجل منهم يقال له لقيط ، فكتب إلى إياد شعراً ينذرهم به ، ويعلمهم خبر من يقصدهم ، وهو :

(١) الزيادة في ا وحدها ، وفيها « أربعة أشهر » دون « أربع سنين »
(٢) في ا « للخروج إليهم والإيقام بهم »
(٣) في ا « في جيش سابور »

سلام فى الصحيفة من لقيط   على منْ فى الجزيرة من إياد
بأن الليث يأتيكم دلافا   فلا يحسبكم شوك القتاد
أتاكم منهمُ سبعون ألفاً   يَجُرُّون الكتائب كالجراد[1]
على خيل ستأتيكم ؛ فهذا   أوانُ هلاككم كهلاك عاد[2]

فلم يعبؤا بكتابه ، وسراياه تكر نحو العراق وتُغير على السواد ، فلما تجهز القوم نحوهم أعاد إليهم كتاباً يخبرهم [فيه] أن القوم قد عسكروا ، وتحشَّدُوا لهم[3] ، وأنهم سائرون إليهم ، وكتب لهم شعراً أوله :

يا دار عَمْرَةَ من تذكارها الجرعا   هَيَّجْتِ لى الهم والأحزان والوجعا[4]
أبلغ إياداً وحلل فى سراتهم   أنى أرى الرأى إن لم أُعْصَ قد نصعا
ألا تخافون قوماً لا أبا لكم   مَشَوْا إليكم كأمثال الدَّبَى سُرُعَا
لو أن جمعهمُ راموا بهدتهم   شُمَّ الشماريخ من ثَهْلَانَ لانصدعا
فقلِّدوا أمركم لله دركم   رَحْبَ الذراع بأمر الحرب مضطلعا

فأوقع بهم ، فعمهم القتل ، فما أفلَتَ منهم إلا نفر لحقوا بأرض الروم ، وخلع بعد ذلك أكتاف العرب ، فسمى بعد ذلك سابور ذا الأكتاف .

وقد كان معاوية بن أبى سفيان راسَلَ مَنْ بالعراق من تميم ليثبوا بعلى ابن أبى طالب رضى الله عنه ! فبلغ ذلك عليا رضوان الله عليه ، فقال فى بعض مقاماته فى كلام له طويل :

إن حَيًّا يرى الصلاح فسادا   أو يرى الغىَّ فى الأمور رشادا[5]
لقريبٌ من الهلاك كما أهلك سابورُ بالسواد إيادا

(١) فى ا « يزجون الكتائب كالجراد » .
(٢) فى ا « على خيل تبيتكم » .
(٣) فى ا « وحشدوا لهم »
(٤) فى ا ب « يادار عبلة » وفيها « الجزعا » وهما تحريف ما أثبتناه .
(٥) فى ب « إن خبا » محرفاً ، وفى ا « أو يرى الغى فى الأمور سداداً » .

وقد كان سابور فى مسيره فى البلاد أتى على بلاد البحرين ، وفيها يومئذ بنو تميم، فأمعن فى قتالهم ، وفرت بنو تميم، وَشيخها يومئذ عمرو بن تميم بن مر ، وَله يومئذ ثلثمائة سنة ، وكان يعاق فى عمود البيت فى قفة قد اتخذت له ، فأرادوا حمله ، فأبى عليهم إلا أن يتركوه فى ديارهم ، وقال : أنا هالك اليوم أو غداً ، وماذا بقى لى من فسحة العمر ؟ ولعل الله ينجيكم بى من صَوْلة هذا الملك المسلط على العرب ، فخلوا عنه ، وتركوه على ما كان عليه ، فصَبَّحت خيل سابور الديار ، فنظروا إلى أهلها وقد ارتحلوا ، ونظروا إلى قفة معلقة فى شجرة ، وسمع عمرو صهيل الخيل ووقعها ، وهمهمة الرجال ، فأقبل يصيح بصوت ضعيف ، فأخذوه ، وجاءوا به إلى سابور ، فلما وُضع بين يديه نظر إلى دلائل الهرَم ومرور الأيام عليه ظاهرة[1] ، فقال له سابور : مَنْ أنت أيها الشيخ الفانى ؟ قال : أنا عمرو بن تميم بن مر[2] ، وقد بلغت من العمر ما ترى ، وقد هرب الناس منك لإسرافك فى القتل وشدة عقوبتك إياهم ، وآثرتُ الفناء على يديك ليبقى مَنْ مضى من قومى ، ولعل الله ملك السماوات والأرض يُجرى على يديك فرجهم ، ويصرفك عما أنت بسبيله من قتالهم ، وأنا سائلك عن أمر إن أذنْتَ لى فيه ، فقال له سابور : قل يُسْمع[3] منك ، فقال له عمرو : ما الذى يحملك على قتل رعيتك ورجال العرب ؟ فقال سابور : أقتلهم لما ارتكبوا من أخذ بلادى وأهل مملكتى ، فقال عمرو : فعلوا ذلك ولست عليهم بقيم ، فلما بلغت وقفوا عما كانوا عليه من الفساد هيبة لك ، قال سابور : أقتلهم لأنا ملوكَ الفرس نجد فى مخزون علمنا وما سلف من أخبار أوائلنا أن العرب ستُدال علينا ، وتكون لهم الغلبة على ملكنا ، فقال عمرو : هذا أمر نتحققه أم تظنه[4] ، قال : بل أتحققه ولابد أن يكون ذلك ، قال له عمرو : فإن كنت تعلم ذلك فلم تسىء إلى العرب ؟ والله لأن تُبقِى على العرب جميعاً

(١) فى ا « بينة » .
(٢) فى ا « بن مرة » وليس بشىء
(٣) فى ا « قل نسمع منك » .
(٤) فى ب « تستحقه أو تظنه » محرفا

وتحسنَ إليهم فيكافئون عند إدالة الدولة لهم قومَكَ بإحسانك، وإن أنت طالت بك المدة كافؤك عند مصير الملك إليهم ، فيبقون عليك وعلى قومك، وإن كان الأمر حقاً — كما تقول — فهو أحزم في الرأى ، وأنفع فى العاقبة، وإن كان باطلا فلم تتعجل الإثم وتسفك دماء رعيتك ؟ فقال سابور : الأمر صحيح، وهو كائن لكم ، والرأى ما قلتَ ، ولقد صدقتَ فى القول، ونصحتَ فى الخطاب، فنادى منادى سابور بأمان الناس ، ورفع السيف ، والكف عن قتلهم ، ويقال : إن عمراً بقى فى هذا العالم بعد هذا الوقت ثمانين سنة، وقيل : أقل من ذلك، والله أعلم .

وسار سابور نحو بلاد الشام ، فافتتح المدن ، وقتل خلائق من الروم، ثم طالبته نفسُه بالدخول إلى أرض الروم متنكراً ليعرف أخبارهم وسيرهم، فتنكر ، وسار إلى القسطنطينية ، فصادف وليمة لقيصر قد اجتمع فيها الخاص والعام منهم، فدخل فى جملتهم ، وجلس على [بعض] موائدهم ،وَقد كان قيصر أمر مصوراً أتى عسكر سابور فصوَّره له، فلما جاء قيصر بالصورة أمر بها فصورت على آنية الشراب من الذهب وَالفضة ، وأُتىَ من كان على المائدة التى عليها سابور بكأس ، فنظر بعض الخدم إلى الصورة التى على الكأس وَسابور مقابل [له] على المائدة، فعجب من اتفاق الصورتين، وَتقارب الشكلين[1] ، فقام إلى الملك، فأخبرهُ ، فأمر به ، فمثل بين يديه ، فسأله عن خبره ، فقال: أنا من أساوة سابور استحققت[2] العقوبة لأمر كان منِّى ، فدعانى ذلك إلى الدخول إلى أرضكم ، فلم يقبل ذلك منه ، وَقُدِّم إلى السيف فأقرَّ ، فجعله فى جلد بقرة، وَسار قيصر فى جنوده حتى توسط العراق ، وَافتتح المدائن ، وَشَنَّ الغارات، وَعَضَدَ النخل[3] ، وَانتهى إلى مدينة

---

(١) فى ا « الشبيهين » .

(٢) هكذا على الصواب فى ا ، ووقع فى ب « استحقيت » .

(٣) فى ا « وعقر النخيل » .

جندى يسابور، وقد تحصن بها وجوه فارس، فنزل عليها وحضر عيدٌ لهم فى تلك الليلة التى أشرفوا على فتح المدينة فى صبيحتها، فأغفل الموكلون أمر سابور، وأخذ الشرابُ منهم، وكان بالقرب من سابور جماعة من أسارى الفرس، فخاطبهم أن يحل بعضهم بعضاً، وشجَّعهم، وأمرهم أن يصبوا عليه زِقَاقاً من الزيت كانت هناك ففعلوا، فلانَ عليه الجلد وتخلص، وأتى المدينة وهم يتحارسون على سورها فخاطبهم، فعرفوه ورفعوه بالحبال إليهم، ففتح أبواب خزائن السلاح، وخرج بهم ففرقهم حول مواضع من الجيش، والروم غارونَ مطمئنون [1]، فكبس الجيش عند ضرب النوافيس، فأتوه بقيصر أسيراً، فاستحياه وأبقى عليه، وضم إليه من أفْلَتَ من القتل من رجاله، فغرس قيصر بالعراق الزيتون بدلا مما عضده من النخل فيها، ولم يكن يُعهد بالعراق الزيتون قبل ذلك، وبنى شاذروان مدينة تستر [2] لنهرها، والشاذروان هو المسناة العظيمة، والسكر من الحجر والحديد والرصاص، وعمر ما أخْرَبَ، فى أخبار يطول ذكرها، وانصرف قيصر نحو الروم.

وقد ذكر فى بعض الأخبار أن سابور رَبَقَ قيصر [3]، وقطع أعصاب عقبيه أو رقها، وأن الروم لا تربق دوابها، ولا تلبس الخفاف المعقبة، وفى ذلك يقول الحارث بن جندة المعروف بالهرمزان :

هُمُ ملكوا جميع الناس طرا ... وهم رَبَقوا هرقْلاً بالسواد
وهم قتلوا أبا قابوس غصباً ... وهم أخذوا البسيطة من إياد

وفى فعل سابور وتغريره بنفسه فى دخوله إلى أرض عدوه متجسساً يقول بعض المتقدمين من شعراء أبناء فارس :

وكان سابور صَفْواً فى أرومته ... اخْتِيرَ عنها فأضحى غير مختار
إذ كان بالروم جاسوساً يجول به ... حَزْمُ المنية من ذى كيد مكار

---

(١) فى ا « والروم قارون مطمئنون » .
(٢) فى ا « تشتر » . (٣) فى ا « رتق قيصر »

فاستأسروه وكانت كبوة عجباً وزلة سبقت من غير عثَّار[1]
فأصبح الملكُ الرومىُّ معترضاً أرض العراق على هول وأخطار[2]
فراطَنَ الفرس بالأبواب فافترقوا كما تجاوب أسد الغاب فى الغار[3]
فجذَّ بالسيف أمر الروم فامتحقوا لله درك من طَلَّاب أوتار[4]
إذ يغرسون من الزيتون ما عَضَدُوا من النخيل وما حفوا بمنشار[5]

وغزا سابور بعد ذلك بلاد الجزيرة وامد وغيرها من بلاد الروم ، ونقل خلقاً من أهلها ، وأسكنهم بلاد السوس وتستر وغيرها من مدن كور الأهواز، فتناسلوا وقَطَنوا تلك الديار، فمن ذلك الوقت صار الديباج التسترى وغيره من أنواع الحرير يعمل بتستر ، والخز بالسوس ، والستور والفرش ببلاد نصيبين ، ومكث إلى هذه الغاية ، وقد كان مَنْ قبله من ملوك الساسانية وكثير ممن سلف من فارس الأولى يسكن بطيسون[6] ، وذلك بغربى المدائن من أرض العراق ، فسكن سابور فى الجانب الشرقى من المدائن ، وبنى هناك الإيوان المعروف بإيوان كسرى إلى هذه الغاية ، وقد كان أبرويز بن هرمز أتم مواضع من بناء هذا الإيوان ، وقد كان الرشيد نازلا على دجلة بالقرب من الإيوان ، فسمع بعض الخدم من وراء السرادق يقول لآخر : هذا الذى بنى هذا البناء ابن كذا وكذا أراد أن يصعد عليه إلى السماء ، فأمر الرشيد بعض الأستاذين من الخدم أن يضربه مائة عَصاً ، وقال لمن حضره : إن الملك نسبة ، والملوك به إخوة ، وإن الغيرة بعثتنى على أدبه لصيانة الملك ، وما يلحق الملوك للملوك .

إيوان كسرى

وذكر عن الرشيد بعد القبض على البرامكة أنه بعث إلى يحيى بن خالد بن

---

(١) كذا فى ب ، ووقع فى ا « من غير غمار » .
(٢) فى ا « وأصبح الملك الرومى مقتربا » .
(٣) فى ا « فراطن الفرس بالإيوان » .
(٤) فى ا « فجذ بالسيف أصل الروم » .
(٥) فى ا « ما عقروا من النخيل » . (٦) فى ب « بطيسبون » .

برمك ، وهو فى اعتقاله ، يشاوره فى هَدْم الإيوان ، فبعث إليه : لا تفعل ، فقال الرشيد لمن حضره : فى نفسه المجوسية ، والحنو عليها ، والمنع من إزالة آثارها ، فشرع فى هدمه ، ثم نظر فإذا يلزمه فى هدمه أموال عظيمة لا تضبط كثرة ، فأمسك عن ذلك ، وكتب إلى يحيى يعلمه ذلك ، فأجابه بأن ينفق فى هدمه ما بلغ من الأموال ، ويحرص على فعله ، فعجب الرشيد من تنافى كلامه فى أوله وآخره ، فبعث إليه يسأله[1] عن ذلك ، فقال : نعم ، أما ما أشرتُ به فى الأول فإنى أردت بقاء الذكر لأمة الإسلام وبُعْدَ الصيت ، وأن يكون من يردُ فى الأعصار ويطرأ من الأمم فى الأزمان يرى مثل هذا البنيان العظيم فيقول : إن أمة قهرت أمة هذا بنيانها فأزالت رسومها واحتوت على ملكها لأمة عظيمة شديدة منيعة ، وأما جوابى الثانى فأخبرت أنه قد شرع فى هَدْمه ثم عجز عنه ، فأردت نفى العجز عن أمة الإسلام ؛ لئلا يقول من وصفت ممن يرد فى الأعصار : إن هذه الأمة عجزت عن هدم ما بَنَتْه فارس[2] ، فلما بلغ الرشيد ذلك من كلامه قال : قاتله الله تعالى ! فما سمعته قال شيئاً قط إلا صَدَق فيه ، وأعرض عن هدمه ، وسابور هو الذى بنى [مدينة] نيسابور ببلاد خراسان وغيرها بفارس والعراق .

أردشير

ثم ملك بعد [سابور بن هرمز] أخوه أردشير بن هرمز ، وكان ملكه إلى أن خلع أربعين[3] سنة ، ثم ملك بعده سابور بن سابور ، خمس سنين [وقيل : وأربعة أشهر] ، وكانت له حروب كثيرة مع إياد بن نزار وغيرها من العرب ، وفيه يقول شاعر إياد :

على رغم سابور بن سابور أصبحت قبابُ إيادٍ حولها الخيل والنَّعَمْ

ويقال : إن هذا الشعر قاله نفر قد لحقوا بأرض الروم حين أوقع بهم سابور ذو الأكتاف على ما ذكرنا ثم تراجعوا إلى ديارهم ، وانضافوا إلى

---

(١) فى ب « ليسأله » .
(٢) فى ب « بنتها فارس » .
(٣) فى ا « أربع سنين »

ربيعة من ولد بكر بن وائل ، وإن ربيعة كانت قد غلبت على السواد ، وشَنَّتْ الغارات فى ملك سابور بن سابور ، فقال شاعر إياد فى ذلك ماوصفنا ، وهم داخلون فى جملة ربيعة ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم بالصحيح منه .

بهرام

ثم ملك بعده بهرام بن سابور ، وكان ملكه عشر سنين[1] ، وقيل : إحدى عشرة سنة .

يزدجرد

ثم ملك بعده يزدجرد بن سابور ، المعروف بالأثيم ، وكان ملكه إلى أن هلك إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وقيل : اثنتين وعشرين سنة غير شهرين .

بهرام جور

ثم ملك بعده بهرام بن يزدجرد [وهو بهرام جور] ، فكان ملكه ثلاثاً وعشرين سنة [وقيل : تسع عشرة سنة] ومَلَكَ وهو ابن عشرين سنة ، وغاص هو وفرسه فى حومة حمأة فى بعض أيام صيده ، فجزعت عليه فارس ، لما [كان] عَمَّهَا من عدله ، وشملها من إحسانه ورأفته برعيته ، واستقامة الأمور فى أيامه ، وقد كان خرج فى أيامه خاقان ملك الترك إلى الصغد ، وشن الغارات فى بلاده ، وقيل : إنه أتى إلى بلاد الرى ، وإن بهرام كتب أجناده وتنكب الطريق فى اليسير من جريدة أصحابه حتى أتى على خاقان فى جنوده ، وسار نحو العراق برأسه ؛ فهابته ملوك الأرض ، وهادنه قيصر ، وحمل إليه الأموال ، وقد كان بهرام قبل ذلك دخل إلى أرض الهند متنكراً ، ولأخبارهم متعرِّفاً ، واتصل بشبرمة ملك من ملوك الهند ، فأبلى بين يديه فى حرب من حروبه ، وأمكنه من عدوه ، فزوَّجه ابنته على أنه بعض أساورة فارس ، وكان نشؤه مع العرب بالحيرة ، وكان يقول الشعر بالعربية ويتكلم بسائر اللغات ، وكان على خاتمه مكتوب : بالأفعال تعظم الأخبار . وله أخبار فى أخذه الملك بعد أبيه وتناوله التاج[2] والراية . وقد وضعا بين سَبُعَين[3] وأخبار غير ذلك . وسير يطول ذكرها .

(١) فى ب « عشرين سنة » . (٢) فى ا « التاج والبدنة » .
(٣) فى ب « وضعا بين يديه » .

ولأية علة سمى بهرام جور . وما أحدث من الرمى بالنشّاب فى أيامه . ومن النظم[١] فى داخل القوس وخارجها . وقد أتينا على جميع ذلك فى كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط . وما قالت الفرس والترك فى بنية القوس ، وأنها مركبة على الطبائع الأربع كطبائع الإنسان ، وما ذهبوا إليه من أنواع الرمى وكيفيته ، ومما حفظ من شعر بهرام جور قوله يوم ظفره بخاقان وقتله له :

أقول له لما فضضت جموعه ... كأنك لم تسمع بصولات بَهْرَام

فإنِّىَ حامى مُلْكِ فارس كلها ... وماخير مُلْكٍ لا يكون له حام؟

وقوله أيضاً :

لقد علم الأنام بكلِّ أرض ... بأنَّهُمُ قَدَ أضحوا لى عبيدا

ملكت ملوكهم ، وقهرت منهم ... عزيزهم المسوَّدَ والمسودا

فتلك أسودهم تُقْعِى حذارى ... وترهب من مخافتىَ الورودَا[٢]

وكنت إذا تشاوس ملك أرض ... عبأت له الكتائب والجنودا[٣]

فيعطينى المَقَادَةَ أو أوافى ... به يشكو السلاسل والقيودا

وله أشعار كثيرة بالعربية والفارسية أعرضنا عن ذكرها فى هذا الموضع طلباً للإيجاز .

يزدجرد

ثم ملك بعده يزدجرد بن بهرام ، وكان ملكه تسع عشرة سنة . وقيل: ثمان عشرة سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يوماً . وقد كان بنى حائطاً باللبن والطين بناحية الباب والأبواب على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب فى ذكرنا للباب والأبواب وجبل القبخ[٤] ، وأحضر يزدجرد بن بهرام رجلا من حكماء عصره كان فى أقاصى مملكته آخذاً من أخلاقهم ومقتبس الرأى منه يسوس به رعيته ، فقال له يزدجرد وقد مثل بين يديه :

(١) فى ا « ومن النظر فى داخل القوس » . (٢) فى ا « تبغى حذارى » .
(٣) فى ا « تشاوش ملك أرض » . (٤) فى ب « جبل الفتح » .

أيها الحكيم الفاضل ، ماصَلاَح الملك ؟ فقال : الرفق بالرعية ، وأخذ الحق منهم من غير مشقة ، والتودد إليهم بالعدل ، وأمن السبل ، وإنصاف المظلوم من الظالم ، قال : فما صلاح أمر الملك ؟ فقال : وزراؤه وأعوانه ؛ فإنهم إن صلحوا صلح ، وإن فسدوا فسد ، وقال له يزدجرد : إن الناس قد أكثروا فى أسباب الفتن ، فصف لى ما الذى يَشُبُّهَا وينشئها ، وما الذى يسكنها ويدفنها[1] ، قال : يَشُبُّها ضغائنُ [و] ينشئها جرأة عامة ولدَها استخفاف بخاصة ، وأكدها انبساط الألسن بضمائر القلوب ، وإشفاق موسر ، وأمل مُعْسِر ، وعفلة ملتذ ، ويقظة محروم ، والذى يسكنها أخذ العُدَّة لما يُخَاف قبل حلوله ، وإيثار الجد حين يلتذ الهزل ، والعمل بالحزم فى الغضب والرضا.

ثم ملك بعده هرمز بن يزدجرد ، فنازعه أخوه فيروز ، فقتله وولىَ الملك ، وهو فيروز بن يزدجرد بن بهرام ، وكان ملك فيروز إلى أن هلك على يدى ملك الهياطلة أخشنواز[2] بمروالروذ من بلاد خراسان سبعاً وعشرين سنة[3] ، والهياطلة هم الصغد ، وهم بين بخارى وسمرقند .

بلاس

ثم ملك بلاس بن فيروز الملك ، وكان ملكه أربع سنين .

قباذ

ثم ملك قباذ بن فيروز ، وفى أيامه ظهر مزدك الزنديق ، وإليه تضاف المزدكيه ، وله أخبار مع قباذ ، وما أحدثه فى العامة من النواميس والحيل إلى أن قتله أنو شروان فى ملكه ، وكان ملك قباذ إلى أن هلك ثلاثاً وأربعين سنة .

أنوشروان

ثم ملك بعده ولده أنوشروان بن قباذ بن فيروز ثمانياً وأربعين سنة ، وقيل : سبعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر ، وقد كان قباذ خلع من ملكه وأجلس بدله أخ له يقال له جاماسب[4] نحواً من سنتين ، لأمر كان من مَزْدَك وأصحابه ، فظاهر أنوشروان بزرجمهر بن سرحو[5] حتى أعيد قباذ إلى ملكه فى خبر طويل ، ولما ملك أنوشروان قتل مزدك وأتبعه بثمانين

(١) فى ا « ويدفعها » . (٢) فى ب « باحسران » .
(٣) فى ا « تسعا وعشرين سنة » (٤) فى ب « جاماست » .
(٥) فى ا « فسافر أنو شروان لزر مهر بن سوجرى » .

ألفاً من أصحابه ، وذلك بين حادر والنهروان(١) من أرض العراق ، فسمى من ذلك اليوم أنو شروان ، وتفسير ذلك جديد(٢) الملوك ، وجمع أهل مملكته على دين المجوسية ، ومنعهم النظر والخلاف والحجاج فى الملل(٣) ، وسار نحو الباب [والأبواب] وجبل القبخ(٤) لما كان من غارات من هنالك من الملوك على بلاده، فبنى السور [فى البحر] على أزقاق البقر المنفوخة بالصخر والحديد والرصاص ، فكلما ارتفع البناء نزلت تلك الأزقاق إلى أن استقرت فى قرار البحر ، وقد ارتفع السور على الماء ، وغاصت الرجال حينئذ بالخناجر والسكاكين إلى تلك الأزقاق فشقتها ، وتمكن السور على وجه الماء فى قرار البحر ، وهو باق إلى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، ويسمى هذا الوضع من السور فى البحر الصد(٥) مانعاً للمراكب فى البحر إن وردت من بعض الأعداء ، ثم مد السور فى البر(٦) ما بين جبل القبخ(٤) والبحر ، وجعل فيه الأبواب مما يلى الكفار ، ثم مد السور على جبل القبخ(٤) على ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لأخبار جبل القبخ(٤) والباب ، وكان لأنوشروان خبر مع ملوك الخزر إلى أن تأتى له هذا البناء ، وقيل : إنه بنى ذلك بالرهبة وإذعان من هنالك من الأمم [له] .

وانصرف أنو شروان إلى العراق ، ووفدت عليه رسل الملوك وهداياها والوفود من الممالك ، وكان فيمن وفد إليه رسول لملك الروم قيصر بهدايا وألطاف ، فنظر الرسول إلى إيوانه وحسن بنيانه واعوجاج فى ميدانه ، فقال : كان يحتاج هذا الصحن أن يكون مربعاً ، فقيل له : إن عجوزاً لها منزل من جانب الاعوجاج منه ، وإن الملك أرادها على بيعه ، وأرغبها ، فأبت ، فلم يكرهها الملك ، وبقى الاعوجاج من ذلك على ما ترى ، فقال الرومى : هذا الاعوجاج الآن أحسن من الاستواء .

(١) فى ا « بين جازر والنهروان » . (٢) فى ا « جديد الملك » .
(٣) فى ا « الحجاج فى الملك » . (٤) فى ب « جبل الفتح » .
(٥) فى ا « القيد » (٦) فى ب « مد السور فى البحر » .

وسار أنوشروان فى بلاده ، ودار مملكته[(١)] ، فأحكم البنيان ، وشيد القلاع والحصون ، ورتب الرجال [وغدر بقيصر ، فسار نحو الجزيرة ، فافتتح ماهنالك من المدن ، وانتهى إلى الفرات][(٢)] فعبر إلى الشام فافتتح بها المدن ، وكان مما افتتح بلاد حلب وقِنّسْرين وحمص وفامية ، وهى بين أنطاكية وحمص ، وسار إلى أنطاكية وحاصرها ، وفيها ابن أخت لقيصر ، فافتتحها ، وافتتح مدينة عظيمة كثيرة العمران عجيبة البنيان كانت فى ساحل أنطاكية رسومها بينة إلى هذه الغاية ، وأثرها قائم ، تدعى سلوقية ، وأقبل يفتتح المدائن بالشام وأرض الروم ، ويغنم الغنائم والجواهر والأموال ، وَبَذل السيف ، وبث عساكره وسراياه ، فهادنه قيصر ، وحمل إليه الخراج والجزية ، فقبل ذلك منه ، ونقل من الشام [المرمر والرخام] وأنواع الفسيفساء والأحجار ، والفسيفساء : هى شىء يطبخ من الزجاج والأحجار ذو بهجة وألوان يدخل فيما فرش من الأرض والبنيان كالفصوص ، ومنه على هيئة الجامات شافٍ ، وحمل ذلك إلى العراق ، فبنى مدينة نحو المدائن وسماها رومية ، وجعل بنيانها وما داخلَ سورها بما ذكرنا من أنواع الأحجار ، يحكى بذلك أنطاكية وغيرها من المدن فى الشام ، وهذه المدينة سورها من طين قائم إلى هذا الوقت خراب ، وباق يعرف بما ذكرنا ، وزوجه خاقان ملك الترك بابنته وابنة أخيه ، وهادنته ملوك السند والهند والشمال والجنوب وسائر الممالك ، وحملت إليه الهدايا ، ووفدت إليه الوفود خوفاً من صولته وكثرة جنوده وعظم مملكته ، ولما ظهر[(٣)] من فعله بالممالك ، وقتله الملوك ، وامتداده إلى العدل ، وكتب إليه ملك الصين : من فغفور[(٤)] ملك الصين صاحب قصر الدر والجوهر ، الذى يجرى فى قصره نهران يسقيان العود والكافور الذى توجد رائحته على فرسخين ، والذى تخدمه بنات ألف ملك ، والذى فى مربطه ألف فيل أبيض إلى أخيه كسرى

(١) فى ب « ودار فى مملكته » . (٢) زيادة فى ا وحدها .
(٣) فى ب « ولما يظهر » . (٤) فى ب « يعبور »

أنو شروان ، وأهدى إليه فرساً من در منضداً ، عينا الفارس والفرس من ياقوت أحمر ، وقائم سيفه من زمرد[١] منضد بالجوهر ، وثوب حرير صينى عسجدى[٢] فيه صورة الملك جالساً فى أيوانه ، وعليه حليته وتاجه ، وعلى رأسه الخدم ، وبأيديهم المذابُّ ، والصورة منسوجة بالذهب ، وأرض الثوب لازورد ، فى سفط من ذهب ، تحمله جارية تغيب فى شعرها ، تتلألأ جمالا ، وغير ما ذكرنا من عجائب مايحمل من أرض الصين وتهديه الملوك إلى أكفائها ، وكتب إليه ملك الهند : من ملك الهند ، وعظيم أراكنة المشرق وصاحب قصر الذهب وأبواب الياقوت والدر . إلى أخيه ملك فارس وصاحب التاج والراية كسرى أنوشروان ، وأهدى إليه ألف مَنٍّ من عود هندى يذوب فى النار كالشمع ، ويختم عليه كما يختم على الشمع فتبين فيه الكتابة ، وجاما من الياقوت الأحمر فتحه شبر مملوءاً دراً ، وعشرة أمنان كافور كالفستق وأكبر من ذلك ، وجارية طولها سبعة أذرع[٣] تضرب أشفار عينيها خدها ، وكأن بين أجفانها لمعان البرق من بياض مقلتيها مع صفاء لونها ودقة تخطيطها وإتقان تشكيلها مقرونة الحاجبين لها ضفائر تجرها وفرشاً من جلود الحيات ألين من الحرير وأحسن من الوَشْى ، وكان كتابه فى لحاء الشجر المعروف بالكاذى ، مكتوب بالذهب الأحمر ، وهذا الشجر يكون بأرض الهند والصين ، وهو نوع من النبات عجيب ذو لون حسن وريح طيب ، لحاؤه أرق من الورق الصينى ، تتكاتب فيه ملوك الصين والهند . وورد عليه وهو فى عسكره محارباً لبعض أعدائه كتاب ملك التبت : من خاقان ملك تبت[٤] ومشارق الأرض التاخمة للصين والهند . إلى أخيه المحمود فى السيرة والقدر ، ملك المملكة المتوسطة للأقاليم السبعة[٥] . وأهدى إليه أنواعاً من العجائب التى تحمل من أرض تبت منها

(١) فى ب « من نابت منضد بالجوهر » .

(٢) فى ب « عثريا » . (٣) فى ب « سبعة أشبار » .

(٤) فى ب « ملك تبتان » . (٥) فى ا « المملكة المتوسطة والأقاليم السبعة »

مائة جوشن تبتية ، ومائة قطعة تجافيف[1] ، ومائة ترس[2] تبتية [مذهبة] ، وأربعة آلاف مَنٍّ من المسك [الخزائني] في نوافج غزلانه .

وقد كان أنوشروان سار إلى ماوراء نهر بَلْخَ ، وانتهى إلى ختلان[3] ، وقتل أخشنواز[4] ملك الهياطلة بجده فيروز ، وملك مملكته فأضافها إلى مُلْكه .

وقد كان نقل إليه من الهند كتاب كليلة ودمنة والشطرنج ، والخضاب الأسود المعروف بالهندى ، وهو الخضاب الذى يلمع سواده فيما يظهر من أصول الشعر سنة كاملة بصبغة سوداء ، ولا ينصل منه شيء ..

ويحكى أن هشام بن عبد الملك بن مروان كان يخضب بهذا الخضاب .

وكان لأنو شروان مائدة من الذهب عظيمة عليها أنواع من الجواهر مكتوب عليها من جوانبها : ليهنه طعامه مَنْ أكله من حِلِّه ، وعاد على ذوى الحاجة من فضله ، ما أكلته وأنت تشتهيه فقد أكلته ، وما أكلته وأنت لا تشتهيه فقد أكلك ، وكان له خواتم أربعة : خاتم للخراج فصه[5] من العقيق ونقشه العدل ، وخاتم للضياع فصه فيروزج نقشه العمارة ، وخاتم للمعونة فصه ياقوت كحلى نقشه التأنى ، وخاتم للبريد فصه ياقوت أحمر [يتقد] كالنار نقشه الرجاء[6] ، ووضع أنوشروان على العراق وضائع الخراج فألزم كل جريب من السواد من مزارع الحنطة والشعير درهما ، والأرز نصفاً وثلثاً ، ولكل أربع نخلات فارسية درهما ، وكل ست نخلات دقل درهما ، وكل ست أصول زيتون درهما ، والكرم ثمانية دراهم ، والرطب سبعة دراهم ، فهذه سبعة أنواع من الغلات ، وترك ماعداها ؛ إذ كانت لقضم الناس[7] والبهائم ، وكان أنوشروان يدعى كسرى الخير ، وقد ذكرته الشعراء فى أشعارها ، ففى ذلك يقول عدى بن زيد العبادى من كلمة :

---

(١) فى ب « تحافف » (٢) فى ب « ومائة برس » .

(٣) فى ب « جيلان » . (٤) فى ب « أحسوان » .

(٥) فى ا « فصه ياقوت أحمر يتقد كالنار » .

(٦) فى ا « نقشه الوفاء » . (٧) فى ا « تعم الناس والبهائم » .

أين كسرى خير الملوك أنوشرو وان ؟ أم أين قبله سابور ؟
لم يَهَبْهُ ريب المنون ، فولّى المـــلك عنــه ، فبابه مهجور
حين ولّوْا كأنهم ورق جـــفّ فألوَتْ به الصبا والدبور[1]

وجلس أنو شروان يوماً للحكماء ليأخذ من آدابهم[2] فقال لهم وقد أخذوا مراتبهم فى مجلسه : دُلُّونى على حكمة فيها منفعة لخاصة نفسى وعامة رعيتى ، فتـكلم كل واحد [منهم][3] بما حَضَره من الرأى ، وأنو شروان مطرق يتفـكر فى أقاويلهم ، فانتهى القول إلى بزر جمهر بن البختـكان ، فقال : أيها الملك أنا جامع لك ذلك فى اثنتى عشرة كلمة ، فقال : هات ، فقال : أولهن تقوى الله فى الشهوة والرغبة والرهبة والغضب [والهوى] ، فاجعل ما عرض من ذلك كله لله لا للناس ، والثانية الصدق فى القول [والعمـل] والوفاء بالعِدَاتِ وَالشروط والعهود والمواثيق ، والثالثة مَشُورة العلماء فيما يحدث من الأمور ، والرابعة إكرام العلماء وَالأشراف وأهل الثغور والقواد والـكُتَّاب والخول بقدر منازلهم ، والخامسة التعهد للقُضَاة والفحص عن العمال محاسبة عادلة ، ومجازاة المحسن منهم بإحسانه والمسىء على إســاءته ، والسادسة تعهد أهـل السجون بالعَرْض لهم فى الأيام لتستوثق من المسىء وتطلق البرىء ، والسابعة تعهُّد سبيل الناس وَأسواقهم وَأسعارهم وَتجاراتهم ، والثامنة حسن تأديب الرعية على الجرائم وإقامة الحدود ، والتاسعة إعداد السلاح وجميع آلات الحرب ، والعاشرة إكرام الولد والأهل والأقارب وتفقد ما يصلحهم ، والحادية عشرة إذكاء العيون فى الثغور ليعلم ما يتخوف فيؤخذ له أهبته قبل هجومه ، والثانية عشرة تفقد

(١) فى الأصول « كأنهم ورق جف تذرى به الصبا والدبور » والذى أثبتناه هو المعروف فى رواية البيت ، والمتروك لا يستقيم معه الوزن .
(٢) فى ا « من آرائهم » .
(٣) فى ا « مما حضره » .

الوزراء والخول والاستبدال بذى الغش والعجز[1] عنهم ، فأمر أنو شروان أن يكتب هذا الكلام بالذهب ، وقال : هذا كلام فيه جوامع[2] أنواع السياسات الملوكية .

وكان مما حفظ من كلام أنو شراون وحكمته أنه سئل : ماأعظم الكنوز قدراً ، وأنفعها عند الاحتياج[3] إليها ؟فقال : معروفأودعته الأحرار ، وعلم تُورِثه الأعقاب .

وَقيل لأنو شروان : مَنْ أطول الناس عمراً ؟ فقال : من كثر علمه فتأدب به مَنْ بعده ، أو معروفه فيشرف به عقبه .

وأنو شروان الذى يقول : الإنعام لِقَاحٌ ، والشكر ولادة ، وَالمنعم هو الجاعل [للشاكر] إلى شكره سبيلا .

وهو الذى يقول : لا نعدَّنَّ الحرصاء فى الأمناء ، ولا الكذابين فى الأحرار .

وقال أنو شروان يوماً لبزرجمهر : مَنْ يصلح من ولدى الملك فأظهر ترشيحه والإيماء إليه ، فقال : لا أعرف وَلدك[4] ، ولكنى أصف لك من يصلح للملك : أسماهم للمعالى ، وأطلبهم للأدب ، وأجزعهم من العامة ، وأرأفهم بالرعية ، وَأوْصلهم للرحم ، وأبعدهم من الظلم؛ فمن كانت هذه صفته فهو حقيق بالملك .

قال المسعودى : وَقد ذكرنا فى كتاب « الزلف » الخصالَ التى يستحق بها المُلْكَ مَنْ وجدت فيه ، وماذكرنا عن حكماء الفرس وأسلافها فى ذلك وغيرها من حكماء اليونانيين كأفلاطون ، وماذكره فى كتاب السياسة المدنية وغيره ممن تأخر عن عصره .

وذكر عن بزرجمهر أنه قال : رأيت من أنوشروَان خصلتين متباينتين لم

(١) فى ب « بذوى الغش والفجر »
(٢) فى ا « جمع أنواع السياسات »
(٣) فى ا « عند الحاجة إليها » .
(٤) فى ب « لا أعرف ذلك »

أو مثلهما منه ؛ جلس يوماً للناس فدخل رجل من خاصة أهله فنحّاه وزيره، فأمر به أن يقام وَيحجب عنه سنة لتعديه المرتبة التى رسمت له ، وازدياده فيها عن مرتبة غيره فى المجلس ، ثم رأيته يوماً ونحن عنده فى سر من تدبير شىء من المملكة ، وَخَدَمُه خلف فراشه وسرير ملكه يتحدثون ، فارتفعت أصواتهم حتى شغلونا عن بعض ما كنا فيه ، فقلت له وأخبرته بتفاوت ما بين الحالتين، فقال لى : لا تعجب[1] فنحن ملوك على رعيتنا ، وخدمنا ملوك على أرواحنا ينالون[2] منا فى خَلْوتنا ما لا حيلة لنا معه فى التحرز منهم .

وَكان أنو شروان يقول : الملك بالجند ، والجند بالمال ، والمال بالخراج ، والخراج بالعمارة ، والعمارة بالعدل ، والعدل بإصلاح العمال ، وإصلاح العمال باستقامة الوزراء ، ورأس الكل تفقُّد الملك أمورَ نفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه .

وكان يقول : صلاح أمر الرعية أنْصَرُ من [كثرة الجنود ، وعدل الملك أنفع من] خصب الزمان[3] .

وكان يقول : أيام السرور كلمح البصر ، وأيام الحزن تكاد تكون شهوراً .

قال المسعودى : ولأنو شروان سير [وأخبار] حسان ، قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا ، وما كان منه فى مسيره فى سائر أسفاره ، وما بنى من المدن والحصون ، وَرتب من المقاتلة فى الثغور .

ملك هرمز

ثم ملك بعده « هرمز » بن أنو شروان بن قباذ ، وأمه فاقم بنت خاقان ملك الترك ، وَقيل : بل ملك من ملوك الخزر مما يلى الباب وَالأبواب، فكان ملكه اثنتى عشرة سنة ، وَكان متحاملا على خواص الناس ، مائلا إلى عوامهم

(١) فى ب « لا تعجل » .
(٢) فى ا « يكون منا فى خلوتنا » .
(٣) فى ب « أخصب من عدل الزمان » .

مقوياً لهم[1] . مؤثراً للروبصية[2] وتوابع العوام ، مغرياً لهم بخواص الناس ، وقيل: إنه قتل فى مدة ملكه من خواص فارس ثلاثة عشر ألف رجل مذكور.

ولا ثنتى عشرة[3] سنة من ملكه تخرّمَ عليه الملك ، وتداعت أركانه ، وزحفت إليه الأعداء ، وكثرت عليه الخوارج ، وقد كان أزال أحكام الموبذان . فخربت بذلك السنة المحمودة والشريعة المعهودة ، وغير الأحكام ، وأزال الرسوم ، وكان ممن سار إليه شابة بن شب[4] عظيم من ملوك الترك فى أربعمائة ألف ، فنزل نحو بلاد هَرَاة وبدغيس[5] وبوشنج من أرض خراسان ، وسار إليه من أطراف أرضه طراخنة من الخزر فى جيش عظيم ؛ فشنوا الغارات فيما بين ذلك الصقع بخيل أوقعت[6] ، وملوك تهادنت ، وتواهبت ما كان بينها من الدماء مما يلى جبل القبخ ، وسار بَطْريق لقيصر فى ثمانين ألفاً مما يلى الجزيرة ، وسار مما يلى اليمن جيش عظيم للعرب من قحطان ومعد ، وعليهم العباس المعروف بالأحول وعمرو الأفوه ، فاضطرب على هرمز أمره ؛ وأحضر الموابذة وذوى الرأى منهم من بعد إخماله[7] لهم وشاوَرَهم ، فكان من نتيجة رأيهم موادعة الوجوه الثلاثة وإرضاؤهم والإقبال على شابة بن شاب[4] ، فانتدب لحربه بهرام جوبين[8] مرزبان الرى، وكان بهرام هذا من ولد جوبين بن ميلاد من نسل أنوش المعروف بالرام ؛ فسار فى اثنى عشر ألفاً ، وشابة[4] فى أربعمائة ألف ، فكانت لبهرام معه خطوب ومراسلات من ترغيب وترهيب وحيل فى الحرب ، إلى أن قتله بهرام ، واستباح عسكره ، واستولى على خزانته وأمواله ، وبعث إلى هرمز برأسه ، وقد كان برمودة بن شابة[4] ولده تحصن فى بعض القلاع من بهرام ، فنزل عليه بهرام، فنزل برمودة على حكم هرمز ، وسار إليه، وحمل بهرام حملا من الغنائم وما كان أخذه من شابة[4] مما كان معه من تركات الملوك ، مثل

(١) فى « مقربا لهم » . (٢) فى ا « مهينا للرويبضه وتوابع الأعوام »
(٣) فى ا « ولإحدى عشرة » (٤) فى ا « شيابة بن شيب » .
(٥) فى ب « وبلاد عيسى » . (٦) فى ب « بخيل أوقفت » .
(٧) فى ب « احتماله لهم » (٨) فى ب « بهرام جور بن مرزبان »

ما كان فى خزائن فراسياب من الأموال والجواهر التى كان أخذها من سياوخش ، وما كان بأيدى الترك من تركات بهراسف(١) ملك الترك مما أخذه من خزائن يستاسف من مدينة بلخ وغيرها من ذخائر ملوك الترك السالفة ، فلما انتهى ما وصفنا من الأموال والجواهر وغير ذلك من الغنائم من قبل بهرام حسده وزير هرمز أريخسيس(٢) الخوزى ، وقد نظر إلى إعجاب هرمز بما حمل إليه بهرام وسروره به ، فقال : أعظم هذه زلته ، وعرض لهرمز بخيانة بهرام ، واستبداده بأكثر الجواهر والأموال والغنائم ، وأغراه به ، فعصاه بهرام، ثم احتال بهرام بدراهم ضرب عليها اسم كسرى أبرويز ، ودَسَّ أناساً من التجار فأنفقوها بباب هرمز ، فتعامل بها الناس ، وكثرت فى أيديهم ، وعلم بها هرمز ، فلم يشك فى أن ابنه أبرويز ضربها طلباً للملك ، فهمَّ به هرمز وهو لا يشك أن ذلك من فعله ، ولم يعلم أن الحيلة فى ذلك من بهرام ، فهرب أبرويز من أبيه لتغيره عليه ، ولحق ببلاد أذربيجان وأرمينية والران والبيلقان ، وحبس هرمز خالى أبرويز بسطام وبندويه(٣) ، فأعملا الحيلة فى محبسهما وخرجا فانضاف إليهما خلق من الجيش فدخلا على هرمز فَسَمَلاَ عينيه وأعمياه ، فلما نمى ذلك إلى أبرويز سار إلى أبيه فدخل عليه وأخبره أنه لا ذنب له فى ذلك ، وإنما هرب خوفاً على نفسه منه ، فتوَّجه هرمز وسلَّم الملك إليه ، ونمى ذلك إلى بهرام جوبين(٤) فسار فى عساكره يؤم الباب ودار الملك ، فخرج إليه أبرويز ، فالتقيا على شاطىء النهروان ، والنهر بينهما، فتواقفا ، وكان لهما خطب طويل من تقاذفٍ وتشاتم ، ثم كانت بينهما حروب انكشف فيها أبرويز لتخلف أصحابه عنه وميلهم إلى بهرام ، فقام تحته فرسه المعروف بشبدار(٥) — وهو المصور فى الجبل ، وهو ببلاد قرماسين من أعمال الدينور

(١) فى ب « هو حاسف » . (٢) فى ب « أرتيحسيس » .
(٣) فى ب « ونفدويه » . (٤) فى ب « إلى بهرام جور » .
(٥) فى ب « المعروف بشيداد » .

[من ماء الكوفة]هو وأبرويز وغير ذلك من الصور ، وهذا الموضع من إحدى عجائب العالم[1] ، وغرائب ما فيه من الصور العجيبة المنقورة في الصخر، والفرسُ تذكر في أشعارها وغيرها من العرب هذا الفَرَسَ المعروف بشبدار ، وقد كان أبرويز على شبدار في بعض الأيام فانقطع عِنَانُه ، فدعا بصاحب سروجه ولجمه ، فأراد ضرب عنقه لما لم يتعهد العِنَانَ ، فقال: أيها الملك ، ما بقي سير يحيد[2] به ملك الإنس وملك الخيل ، فأطلقه ، وأجازه ، ولما باخ[3] هذا الفرس تحت أبرويز وقصر طلب إلى النعمان في المعركة أن يمن عليه بفرسه المعروف باليحموم ، فأبى عليه ، ونجا عليه بنفسه ، ونظر حسان بن حنظلة بن حية الطائي إلى أبرويز وقد خانته الرجال وأشرف على الهلاك ، فأعطاه فرسه المعروف بالصبيب[4] ، وقال له: أيها الملك ، انج على فرسي فإن حياتك للناس خير من حياتي ، وأعطاه أبرويز فرسه شبدار فنجا عليه في جملة الناس ، ومضى أبرويز إلى أبيه ؛ ففي ذلك يقول حسان ابن حنظلة الطائي :

وأعطيت كسرى ما أراد، ولم أكن لأتركه في الخيل يعثر راجلا
بذلتُ له ظهر الصبيب وقد بدت مُسَوَّمة من خيل ترك ووائلا[5]

فكافأه أبرويز بعد ذلك ، وعرف له ما صنع ، ولما سار أبرويز من الهزيمة إلى أبيه هرمز أشار عليه أن يلحق بقيصر وَيستنجده ؛ فإن الملوك إذا استُنْجِدت في مثل هذه الحالة أنجدت ، في خطب طويل جرى بينه وبين أبيه ، فمضى أبرويز وتبعه غيره من الخواص، وخالاه بسطام وبندويه ، وَعَبَرَ دجلة ، وقطع الجسر خوفاً من خيل بهرام ، ونظر في مسيره ذلك اليوم إلى خالَيْه ، وقد تأخرا عنه ، فاستراب بهما وبمن انضاف إليهما ممن كان معهم، فسألهما عن السبب ،

---

(١) في ا « أحد عجائب ما فيها من الصور » .
(٢) في ا « مابقي شيء يجتذبه ». (٣) في ب « ولما ثلج » .
(٤) في ا « المعروف بالضبيب » . (٥) في ا ترك وبابلا » .

فقالا : لسنا بآمنين أن يدخل بهرام إلى أبيك هرمز فيضع تاج المملكة على رأسه، وإن كان أعمى ، ويصير هو الهرمزان[١]، وتفسير ذلك أمير الأمراء، والروم تسمى صاحب هذه المرتبة الدمستق ، فيكتب بهرام عن أبيك هرمز إلى قيصر: إن ابنى أبرويز وجماعة انضافوا إليه وثبوا بى وسَملوا عينى ، فاحمله إلىّ، فيحملنا قيصر إليه، فيأتى علينا بهرام، ولابد لنا من الرجوع إلى أبيك وقتله ، فناشدهما الله أن لا يفعلا ذلك ، وأظهر — فيما ذكر عنه — البراءة من فعلهما، فرجعا من فورهما، وَمَنْ تسرَّع معهما إلى المدائن وقد صاروا على أميال منها ، فدخلا على هرمز فخنقناه ، ولحقا بأبرويز ، ولحقتهم خيل بهرام ، وكانت بينهم حملة[٢] فى بعض الديارات إلى أن تخلصوا من تلك الخيل ، وسار أبرويز ؛ ففى هرمز يقول ورقة بن نوفل:

لم يغن هرمز شىء من خزائنه والخلدَ قد حاولت عادٌ فما خَلَدُوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له والجن والإنس تجرى بينها البُرُدُ

وأسرع بهرام جوبين[٣] إلى المدائن من النهروان ، حين بلغه قتل هرمز فاحتوى على الملك، ولحق أبرويز بالرها فنزلها ،وكاتب ملك الروم، وهو موريقس مع خاله بسطام وجماعة ممن كانوا معه ، يسأله النصرة على عدوه، ويضمن له الوفاء بما ينفقه من أمواله ، والإحسان إلى جنده ، وأنه يؤدى إليه ديات مَنْ يقتل من رجاله ، وغير ذلك من الشروط، وأهدى إليه هدايا كثيرة : منها مائة غلام من أبناء أراكنة الترك فى نهاية الحسن والجمال واستقامة الصور ، فى آذانهم أقراط الذهب فيها الدر واللؤلؤ[٤]،ومائدة من العنبر فتْحُها ثلاثة أذرع على ثلاث قوائم من الذهب مفصلة بأنواع الجواهر أحد الأرجل ساعد وكف أسد والآخر ساق وَعِلٍ بظلفه ، والثالث كف عقاب بمخلبه ، وفى وسطها جام جزع يمانى فاخر فتْحُه

---

(١) فى ا « القردمان » . (٢) فى ب « وكانت منهم حيلة » .
(٣) فى ب « بهرام جور » .
(٤) فى ا « فيها الدر والياقوت معلقا » .

شبر مملوء حجارة ياقوت أحمر ، وسفط من ذهب فيه مائة درة وزنُ كل درة مثقال أرفع ما يكون ، فحمل إليه موريقس ملك الروم ألف دينار ، ومائة ألف فارس ، بعث بهم مع هديته ، وألف ثوب من الديباج الخزائنى المنسوج بالذهب الأحمر وغيره من الألوان ، وعشرين [ومائة[1]] جارية من بنات ملوك برجان والجلالقة والصقالبة والوسكنس[2] وغيرهم من الأجناس المجاورة لملك الروم على رءوسهن أكاليل الجوهر ، وزوّجه بابنته مارية وحملها إليه مع أخيه تندوس[3] ، واشترط ملك الروم على أبرويز شروطاً كثيرة : منها النزول عن الشام ومصر مما كان غلب عليه أنو شروان ، وترك التعرض لذلك ، فأجابه إلى ذلك ، وقد كانت ملوك الفرس تتزوج إلى سائر مَنْ جاورها من ملوك الأمم ولا تزوجها ؛ لأنهم أحرار وأمجاد ، وللفرس فى هذا خطب طويل كفعل قريش وتركها السنن[4] وتحمسها ؛ فكانوا يقفون بمزدلفة ، وهو يوم الحج الأكبر ، ويقولون : نحن الْحُمْسُ ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم للأنصار « أنا رجل أَحْمَسِىٌّ » ولما اجتمع لأبرويز ما وصفنا سار إلى بلاد أذربيجان ، فاجتمع إليه هنالك من كان من العساكر بها ، وانضاف إليه كثير من الجنود والأمم ، وبلغ بهرام جوبين ماقد عزم عليه ؛ فسار إليه فيمن كان معه من عساكره ، فالتقى الجيشان جميعاً ، فتوجهت على بهرام ، فانكشف فى نفر من أصحابه ، وانتهى إلى أطراف خراسان ، وكاتب [خاقان][1] ملك الترك فأمنه وسار إلى ملكه هو ومن خَفَّ معه من أصحابه وأخته كردية ، وكانت فى الشجاعة والفروسية نحوه ، وعليها كان يعول فى كثير من حروبه ، ومضى كسرى أبرويز إلى دار مملكته ، وأمر لجنود موريقس بالأموال والمراكب والكساوى ، وكافأهم على ما كان منهم فى معونته ، وحمل إليه ألفى ألف دينار ؛

---

(١) زيادة عن ا .

(٢) فى ب « والوشكنس » .

(٣) فى ب « أخيه سدوس » .

(٤) فى ب « وتركها السبق » .

وَقَرَنَ ذلك بهدايا كثيرة وأموال عظيمة من آلات الذهب والفضة ، وَوَفى له بكل ماوعده ، وخرج من كل ما أوجبه على نفسه ، واحتال أبرويز فى قتل بهرام فى أرض الترك ، فقتل هنـاك غِيلَةً ، وذكر أن رأسه حمل [بعد أن احتيل عليه وأخرجـه من الناووس الذى كان خاقان ملك الترك دفنه فيه ، وحمله إليه رجل تاجر فارسى][1] فنصب على باب أبرويز فى رحبة قصره ، وخرجت كردية فيمن كان معها من أصحاب بهرام من أرض الترك ، وقد كان لها أخبار فى الطريق مع ابن خاقان ، وكاتبها أبرويز فى قتل خاله بسطام ، وكان مرزبان الديلم وخراسان[2] فقتلته ، وقتل خاله الآخر بأبيه هرمز ، ثم صارت كردية إليه فتزوجها .

وللفرس كتاب مفرد فى أخبار بهرام جوبين ، وما كان من مكايده ببلاد الترك حين سار إليها[3] ، واستنقاذه لابنة ملك الترك من حيوان اسمه السمع نحو العنز[4] الكبير كان قد احتملها من بين جواريها وغلابها وقد خرجت لبعض متنزهاتها ، وما كان من بَدْء حاله إلى مقتله ونسبه .

بين أبروز وبزرجمهر

وكان وزير أبرويز ، والغالب عليه ، والمدبر لأمره ، حكيمٌ من حكماء الفرس وهو بزرجمهر بن البختكان ، فلما خلا من ملكه ثلاث عشرة سنة اتهمه بالميل إلى بعض الزنادقة من الثَّنَوِية ، فأمر بحبسه ، وكتب إليه : كان من ثمرة علمك ونتيجة ما أداك إليه عقلك ، أن صرت أهلا للقتل ، وموضعاً للعقوبة ، فكتب إليه بزرجمهر : أما إذ كان معى الجد فقد كنت أنتفع بثمرة عقلى ؛ فالآن إذ لا جَدَّ معى فقد أنتفع بثمرة الصبر ، وَإذ قد فقدت كثير الخير فقد استرحت من كثير من الشر ، وأغرى أبرويز ببزرجمهر ، فدعا به ، وأمر بكسر أنفه وفمه ، فقال بزرجمهر : فمى[5] لأهلٌ لما هو شر من هذا ، فقال أبرويز : ولم يا عدو الله

(١) زيادة فى ب وحدها . (٢) فى ب « مرزبان الديلم بخراسان » .
(٣) فى ب « صارت إليه » . (٤) فى ب « نحو العير الكبير » .
(٥) فى ا « إنى لأهل » وهى أصح .

المخالف ؟ فقال : لأنى كنت أصِفُكَ لخواص الناس وعوامهم بما ليس فيك ، وأقربك من قلوبهم ، وأرفع من محاسن أمورك ما لم تكن عليه ، اسمع منى يا شر الملوك نفساً ، وأخبثهم فعلا ، وأسوأهم عشرة ، أتقتلنى[١] بالشك وترفع به اليقين الذى قد علمته منى من التمسك بالشريعة[٢] ؟ من ذا الذى يرجو عدلك ويثق بقولك ويطمئن إليك ؟ فغضب أبرويز ، وأمر به فضرب عنقه ، ولبزرجمهر فى أيدى الناس قضايا وحكم ومواعظ وكلام كثير فى الزهد وغيره ، وندم أبرويز على قتله ، وتأسف ، ودعا بخيراريس[٣] الوزير الثانى ، وكانت مرتبته دون مرتبة بزرجمهر ، فلما رأى بزرجمهر قتيلا أسف عليه ، وعلم أنه لا ينجو ، فأغلظ لأبرويز فى الكلام ، فأمر به فقتل وأغرق فى دجلة ، فلما عدم هذين الرجلين وما كانا عليه من الكفاية[٤] وتدبير الملك استوحش من شريعة العدل وواضحة الحق فعدل إلى الجور والعسف بخواص رعيته وعوامها ، وحملها على ما لم تكن تعهد ، وأوردهم إلى ما لم يكونوا يعرفونه من الظلم ، فوثب بطريق من بطارقة الروم يقال له فوقاس[٥] فيمن اتبعه على موريقس ملك الروم حمى أبرويز ومنجده فقتلوه ، وملكوا فوقاس[٥] ، ونمى ذلك إلى أبرويز فغضب لحميه ، وسير إلى الروم الجيوش وكانت له فى ذلك أخبار يطول ذكرها ، وسير شهريار مرزبان المغرب إلى حرب الروم ، فنزل أنطاكية ، فكانت له مع الروم وأبرويز أخبار ومكاتبات وحيل إلى أن خرج ملك الروم إلى حرب شهريار ، وقدم خزائنه فى البحر فى ألف مركب ، فألقتها الريح إلى ساحل أنطاكية ، فغنمها شهريار ، وحملها إلى أبرويز ، فسميت خزائن الريح ، ثم فسدت الحال بين أبرويز وشهريار ، ومايل شهريار ملك الروم ، فسيره شهريار نحو العراق إلى أن انتهى إلى النهروان ، فاحتال

---

(١) فى ب « لا تقتلنى بالشك » .
(٢) فى ب « بالتمسك بالشريعة » .
(٣) فى ب « بخبر أرنؤس » .
(٤) فى ب « من الكفالة »
(٥) فى ب «فانوس» .

أبرويز فى كتب كتبها مع بعض أساقفة النصرانية ممن كان فى ذمته حتى رده إلى القسطنطينية وأفسد الحال بينه وبين شهريار ، وغير ذلك مما قد أتينا على ذكره فى الكتاب الأوسط .

يوم ذى قار

وفى ملك أبرويز كانت حروب ذى قار(١)، وهو اليوم الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : « هذا أوَّل يوم انتصفت فيه العرب من العجم، ونُصِرَتْ عليهم بى » وكانت وقعة ذى قار لتمام أربعين سنة من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة بعد أن بعث ، وقيل: بعد أن هاجر ، وفى رواية أخرى أنها كانت بعد وقعة بدر بأشهر(٢)، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وكانت هذه الوقعة بين بكر بن وائل والهرمزان(٣) صاحب كسرى أبرويز ، وقد أتينا على هذه الأخبار على الشرح والإيضاح فى الكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن إيراده فى هذا الموضع .

إرهاصات النبوة ببلاد فارس

وفى أيام أبرويز كانت حوادث(٤) تنذر بالنبوة وتبشر بالرسالة ، وأنفذ أبرويز عبد المسيح بن بقيلة الغسانى إلى سَطيح الكاهن ، فأخبره برؤيا الموبذان وارتجاج الإيوان ، وغير ذلك من أخبار [فَيْض وادى السماوة](٥) وما كان من بحيرة ساوة .

وكان لأبرويز تسعة خواتم تدور فى أمر الملك : منها خاتم [فضة] فَصُّه ياقوت أحمر نقشه صورة الملك وحوله مكتوب صفة الملك وحلقته ماس تُخْتَم به الرسائل والسجلات ، والخاتم الثانى فَصُّه عقيق نقشه « خراسان حرة » وحلقته ذهب تختم به التذكرات والخاتم الثالث فَصُّه جزع نقشه فارس [يركض] وحلقته ذهب منقوش فيه « الوَحَا » يختم به أجوبة البريد ، والخاتم الرابع فصه ياقوت مورد نَقْشُه « بالمال ينال ح » وحلقته ذهب يختم به البراوات والكتب

---

(١) فى ا « كان حرب ذى قار » .
(٢) فى ا « بأربعة أشهر » .
(٣) فى ب « والهامرز » .
(٤) فى ا « حدثت حوادث » .
(٥) زيادة فى ب وحدها .

فى التجاوز عن العصاة والمذنبين ، والخاتم الخامس فصه ياقوت بهرمان ، وهو أحسن ما يكون من الحمرة وأصفاها وأشرفها ، نقشه « حره وخرم »(١) أى بهجة وسعادة حافتاه(٢) لؤلؤ وماس ، يختم به خزائن الجوهر و بيت مال الخاصة وخزانة الكسوة وخزانة الحلى ، والخاتم السادس نقشه « عقاب » يختم به كتب الملوك إلى الآفاق وفصه حديد حبشى(٣) ، والخاتم السابع نقشه « ذباب » يختم به الأدوية والأطعمة والطيب فصه بادزهر ، والخاتم الثامن فصه جمان نقشه « رأس خنزير » يختم به أعناق من يؤمر بقتله وما ينفذ من الكتب فى الدماء ، والخاتم التاسع حديد يلبسه عند دخول الحمام و [فصه] الأبزن .

عدد أبرويز

وكان على مربطه خمسون ألف دابة وسروج ذهب مكللة بالدر والجوهر على عدد ما لركابه من الخيل ، وكان على مربطه ألف فيل ، منها أشهب أشد بياضا من الثلج ، ومنها ما ارتفاعه اثنا عشر ذراعا ، وفى النادر ما يوجد من الفيلة الحربية ما ارتفاعه هذا القدر ، وأكثر ما يوجد من ارتفاع الفيلة من التسعة الأذرع إلى العشرة ، وملوك الهند تبالغ فى أثمان ما عظم من الفيلة ، وارتفع من الأرض ، وقد يكون من الوحشية فى أرض الزنج [من الفيلة] ما هو أعظم سمكا مما وصفنا بأذرع كثيرة على حسب ما تحمل من قرونها المسماة بالأنياب ما وزن الناب [منها] خمسون ومائة منّ إلى المائتين ، والمن رطلان بالبغدادى ، وعلى قدر عظم الناب عظم جسد الفيل(٤) .

تدريب الفيل

وقد كان أبرويز خرج فى بعض الأعياد وقد صفت له الجيوش والعدد والسلاح وفيما صف له ألف فيل ، وقد أحدقت به خمسون ألف فارس دون الرجالة ، فلما نظرته الفيلة سجدت له ، فما رفعت رؤوسها و بسطها لخراطيمها حتى جذبت بالمحاجن(٥) ، وراطنها الفيالون بالهندية ، فلما بصر بذلك أبرويز تأسف على

(١) فى ب « نقشه حره وحزم ». (٢) فى ا « مثناه لؤلؤ وماس ».
(٣) فى ا « حديد صينى » . (٤) فى ا « جسم الفيل » .
(٥) فى ا « بالمحاجز ».

ما خص به [أهل] الهند من فضيلة الفيلة ، وقال : ليت [أن] الفيل لم يكن هنديا وكان فارسيا ، انظروا إليها وإلى سائر الدواب وفضلوها بقدر ما ترون من معرفتها وأدبها ، وقد افتخرت الهند بالفيلة وعظم أجسامها، ومعرفتها، وحسن طاعتها ، وقبولها الرياضات ، وفهمها المرادات ، وتمييزها بين الملك وغيره، وأن غيرها من الدواب لا يفهم شيئاً [من ذلك] ولا يفصل بين شيئين، وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب جملا من الفصول فى أخبار الفيلة وماقالته الهند وغيرهم فى ذلك وتفضيلها على سائر الدواب .

(شيرويه) ابن أبرويز

فكانت مدة ملك أبرويز إلى أن خلع وسملت عيناه وقتل ثمانيا وثلاثين سنة

ثم ملك بعده ولده «قباذ» المعروف بشيرويه القابض على أبيه ، والجانى عليه ، والقاتل له ، والفرس تسميه المشئوم[1] ، وفى أيامه كان الطاعون بالعراق وغيرها من الأقاليم ، فهلك فيه مائتا ألف من الناس[2] ، فالمكثر يقول: هلك نصف الناس ، والمقل يقول: الثلث ، وكان ملك شيرويه إلى أن هلك سنة وستة أشهر ، وقيل : أقل من ذلك .

ولكسرى أبرويز ولابنه شيرويه أخبار عجيبة ومراسلات قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا .

أردشير

ثم ملك بعد شيرويه ولده «أردشير» ولى عهد الملك ، وهو ابن سبع سنين، فسار إليه من أنطاكية من بلاد الشام شهريار مرزبان المغرب المقدم ذكره مع أبرويز وملك الروم فقتله ، فكان ملكه خمسة أشهر .

شهريار

ثم ملك « شهريار » نحوا من عشرين يوما ، وقيل : شهرين ، وقيل غير ذلك ، واغتالته ابنة لكسرى أبرويز يقال لها أرزمى دخت[3] فقتلته .

كسرى

ثم ملك كسرى بن قباذ بن أبرويز، وقيل: إنه ابن لأبرويز ، وكان بناحية

---

(١) فى ا «تسميه الغشوم» .

(٢) فى ا « فهلك فيه مئون ألوف من الناس » .

(٣) فى ب « آزرمى دخت» .

الترك ، فسار يريد دار الملك ، فقتل فى الطريق بعد ملكه ثلاثة أشهر .

بوران

ثم ملكت بعده «بوران» بنت كسرى أبرويز، فكان ملكها سنة و نصفا.

ثم ملك رجل من أهل بيت الملك من ولد سابور بن يزدجرد الأثيم . يقال له « فيروزخشنشده[١] » فكان ملكه شهرين.

ثم ملكت ابنة لكسرى أبرويز يقال لها « أرزمى دخت[٢] » فكان ملكها سنة وأربعة أشهر .

ثم ملك فرحاد خسرو[٣] بن كسرى أبرويز ، وهو طفل ، فكانت مدة ملكه شهراً ، وقيل أشهراً .

يزدجرد

ثم ملك يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان بن قباذ ابن فيروز بن بهرام بن يزدجرد بن سابور بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك ابن ساسان. وهو آخر ملوك الساسانية فكان ملكه إلى أن قتل بمرو من بلاد خراسان عشرين سنة وذلك لسبع سنين و نصف خلت من خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه . وهى سنة إحدى وثلاثين من الهجرة ، وقيل غير ذلك فى مقدار ملكه وخبر مقتله .

إحصاء بعدة ملوك الفرس

قال المسعودى : وذهب الأكثر من الناس ممن عنى بأخبار الفرس وأيامهم إلى أن جميع من ملك من آل ساسان من أردشير[٤] بن بابك إلى يزدجرد بن شهريار من الرجال والنساء ثلاثون ملكا: امرأتان، وثمانية وعشرون رجلا. ووجدت فى بعض التواريخ أن عدد ملوك الساسانية اثنان وثلاثون ملكا، وعدد الملوك الأول -وهم الفرس الأول- من كيومرث إلى دارا بن دارا تسعة عشر ملكا، منهم امرأة وهى حماية[٥] بنت بهمن ، وفراسياب التركى ، وسبعة عشر رجلا، وعدد ملوك الطوائف الذين قدمنا ذكرهم من مقتل دارا إلى أن ظهر أردشير بن بابك

(١) فى ب «فيروز خشنش ». (٢) فى ب «أزرمى دخت» .
(٣) فى ب «فرخ زاد خسرو» . (٤) فى ب «من آل ساسان بن أردشير»
(٥) فى ب «جمانة» .

أحد عشر ملكا . وهم ملوك الشيز[١] والران . ومن أجلهم سمى سائر ملوك الطوائف الأشغان . فجميع الملوك من كيومرث بن آدم — وهو أول ملوك بنى آدم عندهم . على ما ذكرت الفرس — إلى يزدجرد بن شهريار بن كسرى ستون ملكا : منهم ثلاث نسوة . ومدة ما ملكوا من السنين أربعة آلاف سنة وأربعمائة سنة وخمسون سنة . وقيل : إن عدة الملوك من كيومرث إلى يزدجرد ثمانون ملكا .

ورأيت جماعة من الأخباريين وأصحاب السير وأرباب الكتب المصنفة فى التواريخ وغيرها يذهبون إلى أن سنى الفرس إلى الهجرة ثلاثة آلاف سنة وستمائة وتسعون سنة : منها من كيومرث إلى انتقال الملك إلى منوشهر ألف وتسعمائة واثنتان وعشرون سنة . ومن منوشهر إلى زرادشت خمسمائة وثلاث وثمانون سنة . ومن زرادشت إلى الإسكندر مائتان وثمان وخمسون سنة ، وملك الإسكندر خمس سنين[٢] . ومن الإسكندر إلى ملك أردشير خمسمائة سنة وسبع عشرة سنة . ومن أردشير إلى الهجرة أربعمائة سنة [وأربع سنين][٣] .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من تاريخ العالم والأنبياء والملوك فى باب نفرده لذلك فى الموضع المستحق له من هذا الكتاب ، دون ذكر الهجرة وخلافة أبى بكر ومن تلا عصره من الخلفاء ومن ملوك بنى أمية و بنى العباس ؛ لأنا قد أفردنا لما ذكرنا بابا آخر يرد من هذا الكتاب بعد انقضاء أخبار الأمويين والعباسيين ترجمناه بذكر التاريخ الثانى .

أجناس الفرس

وكانت الفرس من بدء الدهر أربعة أجناس إلى أن جاء الله تعالى بالإسلام فالصنف الأول يقال له الخداهان[٤] وهم الأرباب ، كما يقال : رب المتاع ، ورب الدار وذلك من كيومرث إلى أفريدون ، ثم الكيان من أفريدون إلى دارا بن دارا . ثم

---

(١) فى ب « الشعن والران » . (٢) فى ا « ست سنين » .
(٣) زيادة فى ا وحدها (٤) فى ب « الحداهان » .

الأشغان[1] ، وهم ملوك الطوائف بعد الإسكندر على ما ذكرنا فى باب ذكر ملوك الطوائف ، ثم الساسانية وهم الفرس الثانية ، وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه فى «أخبار الفرس» الذى رواه عن عمر كسرى أن الفرس طبقات أربع ممن سلف وخلف : فالطبقة الأولى من كيومرث إلى كرساسب[1] ، والطبقة الثانية من كيان بن كيقباذ إلى الإسكندر وآخرهم دارا ، والطبقة الثالثة وهم الأشغانية[2] ملوك الطوائف ، والطبقة الرابعة سماهم ملوك الاجتماع ، وهم الساسانية أولهم أردشير ابن بابك ، ثم سابور بن أردشير ، هرمز بن سابور ، بهرام بن سابور ، بهرام بن بهرام ، نرسى بن سابور ، هرمز بن نرسى ، سابور بن هرمز ، أرشير بن هرمز ، سابور بن أردشير ، سابور بن سابور ، بهرام بن سابور ، يزدجرد بن بهرام ، بهرام بن يزدجرد ، فيروز بن يزدجرد ، بلاس بن يزدجرد ، قباذ بن فيروز ، أنوشروان ، هرمز . أبرويز . شيرويه . أردشير . شهزيار . بوران . كسرى بن قباذ . فيروز . خشنشده . أرزمى دخت . فرحاذ خسرو . يزدجرد .

وإنما ذكرنا هؤلاء بعد أن قدمنا ذكرهم فيما سلف من هذا الباب للخلاف الواقع وتباين الروايات والتواريخ فى أعدادهم وأسمائهم ، فأوردنا ما قاله المتنازعون من الأخباريين . وقد أتينا على أخبارهم وسيرهم ووصاياهم وعهودهم ومكاتباتهم وتوقيعاتهم وكلامهم عند عقد التيجان على رؤوسهم ورسائلهم وسائر ما كان من الحوادث فى أعصارهم ، وما كوروه من الكور ، وأحدثوه من المدن ، وغير ذلك من أحوالهم ، فيما سلف من كتبنا . وإنما نذكر فى هذا الكتاب جوامع من تاريخهم وأعداد ملوكهم ولمعاً من أخبارهم ، وكذلك ذكرنا فى كتابنا فى «أخبار الزمان» خطب الطبقات الأربع ، وما حفر كل ملك منهم من الأنهار وانفرد ببنائه من المدن . وآراء الملوك وأحكامها ، وكثيراً من قضاياها فى خواصها وعوامها ، وأنساب أصحاب خيل الملك ، ومن كان على خيل كل ملك منهم فى الحروب ، وأنساب حكمائهم وزهادهم ممن اشتهر بذلك فى أعصارهم ، وأنساب المرازبة ، وذكر أولاد الطبقات

(١) فى ب «كوستاسب» . (٢) فى ب «الأشعان» .

الأربع ممن تقدم ذكرهم ، وتشعب أنسابهم ، وتفرق أعقابهم ، ووصفنا الأبيات الثلاثة التى شرفها كسرى على سائر مَنْ بسواد العراق وهم مشهورون فى أهل السواد إلى وقتنا هذا، وأشراف السواد بعد الأبيات الثلاثة من الشهارجة[1] الذين شرفهم أبرج وجعلهم أشراف السواد . ثم الطبقة الثانية بعد الشهارجة[1] وهم الدهاقين وهم ولد وهكرت بن فردال[2] بن سيامك بن نرسى بن كيومرث الملك. وكان لولد وهكرت عشر بنين، فأبناء هؤلاء العشرة هم الدهاقين، وكان وهكرت أول من تَدَهقن. والدهاقين تتفرع على مراتب خمس ومن ذكرنا كانت ملابسهم تختلف على قدر مراتبهم. وقتل يزدجرد الآخر من ملوكهم على حسب ما ذكرنا. وله خمس وثلاثون سنة. وخلف من الولد: بهرام ، وفيروز ، ومن النساء أدرك. وشاهين، ومرداوند[3]. وأكثر عقبه بمرو، والأكثر من أبناء الملوك وأعقاب الطبقات الأربع بسواد العراق إلى الآن يتدارسون أنسابهم ويحفظون أحسابهم كحفظ العرب من قحطان ونزار، ولا خلاف فيما ذكرنا عند ذوى الدراية بما وصفنا.

قال المسعودى : فإذ قد ذكرنا جوامع من أخبار الفرس وطبقاتهم فلنذكر الآن ملوك اليونانيين ولمعاً من أخبارهم ، وتنازع الناس فى بدء أنسابهم، على الاختصار والإيجاز، والله ولى التوفيق ، برحمته ورضوانه .

---

(١) فى ب « السهارجة » . (٢) فى ب « بن فردان ».

(٣) فى ب « أدرك وسها ومراد وزند ».

ذكر ملوك اليونانيين ، ولمع من أخبارهم

وما قاله الناس فى بدء أنسابهم

اختلاف الناس فى أصلهم

قال المسعودى : تنازع الناس فى فرق اليونانيين ؛ فذهب طائفة من الناس إلى انهم ينتمون إلى الروم ، ويضافون إلى ولد إسحاق ، وقالت طائفة أخرى : إن يونان هو ابن يافث بن نوح ، وذهب قوم إلى أنهم من ولد آراش بن ناوان(١) ابن يافث بن نوح ، وذهب قوم إلى أنهم قبيل متقدم فى الزمان الأول ، وإنما وهم من وهم أن اليونانين ينسبون إلى حيث تنسب الروم ، وينتمون إلى جدهم إبراهيم ؛ لأن الديار كانت مشتركة والمقاطن والمواطن كانت متساوية ، وكان القوم قد شاركوا القوم فى السجية والمذهب ؛ فلذلك غلط من غلط فى النسبة ، وجعل الأب واحداً ، وهذا طريق الصواب عند المفتشين ، وسبيل البحث عند الباحثين ، والروم قَفَتْ فى لغاتها ووضع كتبها اليونانيين؛ فلم يصلوا إلى كنه فصاحتهم وطلاقة ألسنتهم والروم أنقص فى اللسان من اليونانيين ، وأضعف فى ترتيب الكلام الذى عليه نهج تعبيرهم وسَنَنُ خطابهم.

قال المسعودى : وقد ذكر [ذوو العناية بأخبار المتقدمين] أن يونان أخو قحطان ، وأنه من ولد عابر بن شالخ ، وأن أمره فى الانفصال عن دار أخيه كان سبب الشك فى الشركة فى النسب ، وأنه خرج عن أرض اليمن فى جماعة من ولده وأهله وَمَنْ انضاف إلى جملته حتى وَافى أقاصى بلاد المغرب ، فأقام هنالك ، وَأنْسَلَ فى تلك الديار ، واستعجم لسانه ، وَوَازى من كان هنالك فى اللغة الأعجمية من الإفرنجة والروم ، فزالت نسبته(٣) ، وانقطع سببه ، وَصار منسياً فى ديار اليمن غير معروف عند النسابين منهم .

---

(١) فى ب «أوزراس بن ياوان بن يافث» .

(٢) زيادة فى ا وحدها (٣) فى ب «وانقطع نسبه» .

وكان يونان جباراً عظيما ، وسيما جسيما ، وكان حَسَنَ العقل [والخلق] جَزْل الرأى ، كثير الهمة ، عظيم القدر .

وقد كان يعقوب بن إسحاق الكندى يذهب فى نسب يونان إلى ماذكرنا من أنه أخٌ لقحطان ، ويحتج لذلك بأخبار يذكرها فى بدء الأنساب ، ويوردها من حديث الآحاد والأفراد ، لا من حديث الاستفاضة والكثرة .

وقد رَدَّ عليه أبو العباس عبد الله بن محمد الناشىء فى قصيدة [له] طويلة ، وذكر خَلْطه[1] نسب يونان بقحطان ، على حسب ما ذكرنا آنفاً فى صدر هذا الباب ، فقال :

أبا يُوسُفٍ ، إنى نظرت فلم أجد ... عَلَى الفَحْصِ رَأْياً صَحَّ منك ولا عَقْدَا
وصرت حكيما عند قوم إذا امرؤ ... بَلَاهُمْ جميعاً لم يجد عندهم عندا
أتَقْرِنُ إلحاداً بدين محمد ؟ ... لقد جئت شيئاً يا أخا كندة إدًّا
وتخلط يونانا بقحطان ضَلَّةً ... لعمرى لقد بَاعَدْتَ بينهما جدا

كن يونان

ولما نشأ ولد يونان وكثر[2] خرج يسير فى الأرض يطلب موضعاً يسكنه ، فانتهى إلى موضع من الغرب ، فنزل بمدينة أثينا[3] ، وهى المعروفة بمدينة الحكماء فى ديار المغرب فى صدر الزمان ، وأقام بها هو ومن معه من ولده ، فكثر نسله بها وبنى [بها] البنيان العظيم ، إلى أن أدركته الوفاة ، فجعل وصيته إلى الأكبر من ولده ، واسمه حريبوس[4] ، فقال له : يا بنى ، إنى قد وافيت الأجل ، وقربت من الحَتْم الواجب ، وإنى راحل عنك ومفارقك ، ومفارق إخوتك وأهل بيتك ، وقد كانت أحوالكم حسنة النظام بى ، وكنت لكم كَهْفاً فى الشدائد ، وعوناً على المحن ، وَمِجَنًّا من الزمان ؛ فعليك بالجود فإنه

---

(١) فى ا « ووكد خلطه »
(٢) فى ب « وكبر » .
(٣) فى ا « أفيتية »
(٤) فى ب « حرينوس » .

قطب الملك ، ومفتاح السياسة ، وباب السيادة ، وكن حريصاً على اقتناء الرجال بالإنعام عليهم تكن سيداً رشيداً ، وإياكَ وَالْحَيْدَ عن الطريق المثلى التى عليها بنى العقل[1] ، فإن من ترك رأى اللب وثمرة العقل تورّط فى المهالك ، ووقع فى مقابض المتالف .

حربيوس

ثم مات يونان ، واستولى ولده حربيوس على مكان أبيه ، وضم إليه أهله وولده [وعمل بما أمره][2] ونما خبرهم ، وكثر نسلهم ، فغلبوا على ديار المغرب من بلاد الإفرنجة والنوكبرد[3] ، وأجناس الأمم من الصقالبة وغيرهم .

فيلبس

وكان أول ملوكهم ممن سماه بطليموس فى كتابه : فيلبس ، وتفسيره محب الفرس ، وقيل : إن اسمه يابس[4] ، وقيل : فيلقوس ، وكانت مدة ملكه سبع سنين .

وقد قيل : إن اليونانيين لما أن سار البخت نصر من ديار المشرق نحو الشام ومصر والمغرب وبذل السيف كانوا يؤدون الطاعة ويحملون الخراج إلى فارس ، وكان خراجهم بيضاً من ذهب عدداً معلوماً ووزناً مفهوماً وضريبة محصورة ، فلما أن كان من أمر الإسكندر بن فيلبس — وهو الملك الماضى الذى هو أول ملوك اليونانيين على ما ذكره بطليموس — ما كان من ظهوره وهمته بعث إليه داريوس[5] ملك فارس ، وهو دارا بن دارا ، يطالبه بما جرى من الرسم ، فبعث إليه الإسكندر : إنى قد ذبحت تلك الدجاجة التى كانت تبيض بيض الذهب ، وأكلتها ، فكان من حروبهم ما دعا الإسكندر إلى الخروج إلى أرض الشام والعراق ، فاصطلم من كان بها من الملوك ، وقتل دارا ابن دارا ملك الفرس ، وقد أتينا على خبر مقتله ومقتل غيره من ملوك الهند ، ومن لحق بهم من ملوك الشرق فى الكتاب الأوسط .

---

(١) فى ا « التى عليها يبنى العقل » .
(٢) زيادة فى ا وحدها
(٣) فى ب « والنوكير »
(٤) فى ب « ملبص » .
(٥) فى ب « دارانوس » .

ونسب قوم الإسكندر أنه الإسكندر بن فيلبس بن مصريم[١] بن هرمس ابن هردوس بن ميطون بن رومى بن نويط بن نوفيل بن رومى بن ليطى بن يونان بن يافث بن نوح ، ونسبه قوم أنه من ولد العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، ومنهم من رأى أنه الإسكندر بن[٢] يونه بن سرحون بن رومى بن قرمط بن نوفيل بن رومى بن الأصفر بن اليغز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم .

الإسكندر وذو القرنين

وقد تنازع الناس فيه : فمنهم من رأى أنه ذو القرنين ، ومنهم من رأى أنه غيره ، وتنازعوا أيضاً فى ذى القرنين : فمنهم من رأى أنه سمى بذى القرنين لبلوغه أطراف الأرض ، وأن الملك الموكل بجبل قاف سماه بهذا الاسم ، ومنهم من رأى أنه من الملائكة . وهذا قول يُعْزَى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والقول الأول لابن عباس فى تسمية الملك إياه . ومنهم من رأى أنه كان بذؤابتين من الذهب . وهذا قول يُعْزَى إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه . وقد قيل غير ذلك . وإنما نذكر تنازع الشرعيين من أهل الكتب . وقد ذكره تُبَّع فى شعره وافتخر به ، وأنه من قحطان . وقيل : إن بعض التبابعة غزا مدينة رومية وأسكنها خلقاً من اليمن ، وإن ذا القرنين الذى هو الإسكندر من أولئك العرب المتخلفين بها . والله اعلم .

وَسار الإسكندر بعد أن ملك بلاد فارس ؛ فاحتوى على ملوكها ، وتزوج بابنة ملكها دارا بعد أن قتله ، ثم سار إلى أرض السند وَالهند ، وَوَطِىء ملوكها ، وَحملت إليه الهدايا وَالخراج ، وَحاربه ملكها فور ، وَكان أعظم ملوك الهند ، وَكان له معه حروب ، وَقتله الإسكندر مبارزة .

ثم سار الإسكندر نحو بلاد الصين وَالتبت ؛ فدانت له الملوك ، وَحملت إليه

(١) فى ا « فيلبس بن مضر بن هرمس بن مردش بن منظور بن رومى بن لبط بن يونان بن يافث بن نوح » .

(٢) فى ا « الإسكندر بن برقة بن سرحون بن رومى بن بربط بن نوفل بن رومى بن الأصفر بن البعر بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم» .

الهدايا والضرائب ، وسار فى مفاوز الترك يُرِيد خراسان من بعد أن ذَلَّل ملوكها ورتب الرجال والقواد فيما افتتح من الممالك ، ورتب ببلاد التبت خلقاً من رجاله وكذلك ببلاد الصين ، وكَوَّر بخراسان كوراً ، وبنى مدناً فى سائر أسفاره ، وكان معلمه أرسطاطاليس حكيم اليونانيين، وهو صاحب كتاب المنطق وما بعد الطبيعة وتلميذ أفلاطون ،وأفلاطون تلميذ سقراط ، وصرف هؤلاء هِمَمَهُمْ إلى تقييد علوم [الأشياء الطبيعية والنفسية،وغير ذلك من علوم](١) الفلسفة واتصالها بالإلهيات ، وأبانوا عن الأشياء ، وأقاموا البرهان(٢) على صحتها وأوضحوها لمن استعجم عليه تناولها .

وسار الإسكندر راجعاً من سفره يؤمُّ المغرب ، فلما صار إلى مدينة شهرزور اشتدت علته ، وقيل : ببلاد نصيبين من ديار ربيعة ، وقيل : بالعراق ، فعهد إلى صاحب جيشه وخليفته على عسكره بطليموس .

الحكماء على جدث الإسكندر

فلما مات الإسكندر طافت به الحكماء ممن كان معه من حكماء اليونانيين والفرس والهند وغيرهم من علماء الأمم ، وكان يجمعهم ، ويستريح إلى كلامهم ولا يصدر الأمور إلا عن رأيهم ، وَجُعِلَ بعد أن مات فى تابوت من الذهب ورصع بالجوهر(٣) بعد أن طلى جسمه بالأطلية الماسكة لأجزائه ، فقال عظيم الحكماء والمقدم فيهم : ليتكلم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة مُعزِّياً وللعامة واعظاً، وقام فوضع يده على التابوت ، فقال : أصبح آسر الأسراء أسيراً ، ثم قام حكيم ثان فقال : هذا الإسكندر الذى كان يخبؤ الذهب فصار الذهب يخبؤه ، وقال الحكيم الثالث : ما أزهد الناس فى هذا الجسد ، وأرغبهم فى هذا التابوت ! وقال الحكيم الرابع: من أعجب العجب أن القوى قد غُلِب،والضعفاء لاهون مغترّون(٤)،وقال الخامس: ياذا الذى جعل أجله ضماناً،وجعل أمله عياناً،هلا باعدت

(١) زيادة عن ا وحدها .

(٢) فى ا «وأقاموا البراهين».

(٣) فى ا « مرصع بالجواهر » .

(٤) فى ا « معترون » محرفا .

من أجلك ، لتبلغ بعض أملك ، هلا حققت من أملك بالامتناع عن فوت[١] أجلك
وقال السادس : أيها الساعي المنتصب[٢] جمعت ما خذلك عن الاحتياج، فغودرت
عليك أوزاره وفارقتك أيامه ، فمغناه لغيرك ، ووباله عليك ، وقال السابع : قد
كنت لنا واعظاً فما وعظتنا موعظة أبلغ من وفاتك ، فمن كان له عقل فليعقل ،
ومن كان معتبراً فليعتبر[٣] ، وقال الثامن : رُبَّ هائب لك كان يغتابك من
ورائك ، وهو اليوم بحضرتك لا يخافك، وقال التاسع: رب حريص على سكوتك
إذ لا تسكت ، وهو اليوم حريص على كلامك إذ لا تتكلم ، وقال العاشر : كم
أماتتْ هذه النفس[٤] لئلا تموت ، وقد ماتت ، وقال الحادي عشر ، وكان
صاحب خزانة كتب الحكمة : قد كنت تأمرني أن لا أبعد عنك ، فاليوم لا أقدر
على الدنو منك ، وقال الثاني عشر : هذا اليوم عظيم العبر ، أقبل من شره ما كان
مدبراً ، وأدبر من خيره ما كان مقبلا ، فمن كان باكياً على مَنْ زال ملكه
فليبك ، وقال الثالث عشر : ياعظيم السلطان اضمحلَّ سلطانك كما اضمحل [ظل]
السحاب ، وعفَتْ آثار مملكتك كما عفت آثار الرباب[٥]، وقال الرابع عشر:
يامن ضاقت عليه الأرض طولا وعرضاً ، ليت شعري كيف حالك فيما احتوى
عليك منها ؟ وقال الخامس عشر : أعجب لمن كانت هذه سبيله كيف شرهت
نفسه بجمع الحطام البائد والهشيم الهامد ، وقال السادس عشر : أيها الجمع الحافل[٦]
والملتقى الفاضل، لا ترغبوا فيما لا يدوم سروره وتنقطع لذته؛ فقد بان لكم الصلاح
والرشاد من الغي والفساد، وقال السابع عشر: انظروا إلى حلم النائم كيف انقضى؟!
وظل الغمام كيف انجلى ؟! وقال الثامن عشر ، وكان من حكماء الهند : يامن كان
غضبه الموت هلا غضبت على الموت ، وقال التاسع عشر : قد رأيتم أيها الجمع

(١) في ا «وقت أجلك» .
(٢) في ا « المغصب » وأحسبه محرفا عن « المغتصب » .
(٣) في ب « ومن كان مغترا فليغتر » .
(٤) في ا « كم أقامت هذه النفس » محرفا .
(٥) في ا «كما عفت آثار الذباب» . (٦) في ا «الجمع الحابل» محرفا .

هذا الملك الماضى فليتعظ به الآن هذا الملك الباقى ، وقال العشرون : هذا الذى دار كثيراً والآن يقر طويلا ، وقال الحادى والعشرون : إن الذى كانت الآذان تُنْصِت له قد سكت ، فليتكلم الآن كل ساكت ، وقال الثانى والعشرون : سيلحق بك مَنْ سَرَّه موتُك كما لحقت بمن سرك موته ، وقال الثالث والعشرون : مالك لا تُقِلُّ عضوا من أعضائك ، وقد كنت تستقل ملك الأرض ؟ بل مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان الذى أنت به ، وقد كنت ترغب بها عن رحب البلاد ؟ وقال الرابع والعشرون ، وكان من نساك الهند وحكمائها : إن دنيا يكون هكذا آخرها فالزهد أولى أن يكون فى أولها ، وقال الخامس والعشرون ، وكان صاحب مائدته : قد فُرِشت النمارق ، ونضدت الوسائد[1] وهيئت الموائد ، ولا أرى عميد المجلس ، وقال السادس والعشرون ، وكان صاحب بيت ماله : قد كنت تأمرنى بالجمع والادخار فإلى من أدفع ذخائرك ؟ وقال السابع والعشرون وكان خازناً من خزانه : هذه مفاتيح خزائنك ، فمن يقبضها قبل أن أوخذ بما لم آخذ منها ؟ وقال الثامن والعشرون : هذه الدنيا الطويلة العريضة قد طُوِيتَ منها فى سبعة أشبار [ولو كنت بذلك موقناً لم تحمل على نفسك فى الطلب][2] ، القول التاسع والعشرون قول زوجته روشنك بنت دارا بن دارا ملك فارس : ما كنت أحسب أن غالب دارا الملك يغلب ، وإن كان هذا الكلام الذى سمعت منكم معاشر الحكماء فيه شماتة[3] فقد خلف الكأس الذى تشرب به الجماعة ، القول الثلاثون ما يحكى عن أمه أنها قالت حين جاءها نعيه : لئن فقد من ابنى أمره ، فما فقدت من قلبى ذكره .

وقبض الإسكندر وهو ابن ست وثلاثين سنة ، وكان ملكه تسع سنين قبل قتله لدارا بن دارا ، وست سنين بعد قتله لدارا بن دارا وتملكه على سائر ملوك

---

(١) فى ا « ونضدت النضائد » . (٢) زيادة فى ا وحدها .

(٣) فى ب « فيه شرابه » .

مأتم الإسكندر ودفنه

الأرض، وملك وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، وذلك بمقدونية ، وهى مصر ، وعهد إلى ولى عهده بطليموس بن أريت[1] أن يحمل تابوته إلى والدته بالإسكندرية ، وأوصاه أن يكتب إليها إذا أتاها نعيه أن تتخذ وليمة وتنادى فى مملكتها أن لا يتخلف عنها أحد ، وأن لا يجيب دعوتها من قد فقد محبوباً أو مات له خليل ؛ وليكون ذلك مأتم الإسكندر بالسرور ، خلاف مأتم الناس بالحزن ، فلما ورد نعيه إليها ، ووضع التابوت بين يديها ، نادت فى أهل مملكتها على ما به أمرها ، فلم يجب أحد دعوتها ، ولا بادر إلى ندائها ، فقالت لحشمها : ما بال الناس لم يجيبوا دعوتى ؟ فقالوا لها : أنت منعتيهم[2] من ذلك ، قالت : وكيف ؟ قيل لها : أمرت أن لا يجيبك من فقد محبوباً ، أو عدم خليلا ، أو فارق حبيباً ، وليس فيهم[3] أحد إلا وقد أصابه بعض ذلك ، فلما سمعت ذلك استيقظت وعلمت ما به سُئلت ، وقالت : لقد عَزَّانى ولدى أحسن العزاء ، وقالت : يا إسكندر ما أشبه أواخرك بأوائلك ، وأمرت به فجعل فى تابوت من المرمر ، وطلى بالأطلية الماسكة لأجزائه ، وأخرجته عن الذهب ؛ لعلمها أن من يطرأ بعدها من الملوك والأمم لا يتركونه فى ذلك الذهب ، وجعل التابوت المرمر على أحجار نُضِّدَتْ ، وصخور نصبت ، من الرخام والمرمر قد رصفت ، وهذا الموضع من الرخام والمرمر باقٍ ببلاد الإسكندرية من أرض مصر يعرف بقبر الإسكندر إلى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جوامع من أخبار الإسكندرية وعجائبها ، ومصر وأخبارها ونيلها ، فى الموضع المستحق له من ذلك فى كتابنا ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى ب « بن أذينة » .

(٢) الوجه فى العربية « منعتهم » بكسر التاء وبدون الياء ، ولكن المؤلف يستعمل مثل ذلك كثيراً ، وقد نبهنا عليه مرارا فيما سبق .

(٣) فى ا « وليس منهم أحد » .

ذكر جوامع من حروب الإسكندر(١) بأرض الهند

قال المسعودى : لما قَتَل الإسكندر فور صاحب مدينة المانكير من ملوك الهند ، وانقاد إليه جميع ملوك الهند ، على حسب ماذكرناه من حمل الأموال والخراج إليه : فبلغه أن فى أقاصى أرض الهند ملكا من ملوكهم ذا حكمة ، وسياسة وديانة ، وإنصاف للرعية ، وأنه قد أتى عليه من عمره مئون من السنين وأنه ليس بأرض الهند من فلاسفتهم وحكمائهم مثله ، يقال له كند ، وكان قاهراً لنفسه ، مميتاً لصفاته من الشهوية والغضبية وغيرها ، حاملا لها على خلق كريم ، وأدب زائن(٢) : فكتب إليه كتاباً يقول فيه : أما بعد ، فإذا أتاك كتابى هذا فإن كنت قائماً فلا تقعد ، وإن كنت ماشياً فلا تلتفت ، وإلا مزقتُ ملكك ، وألحقتك بمن مضى من ملوك الهند ، فلما ورد عليه الكتاب أجاب الإسكندر أحسن جواب ، وخاطبه بملك الملوك ، وأعلمه أنه قد اجتمع له قبله أشياء لا يجتمع عند غيره مثلها [إلا من صارت إليه عنه](٣) فمن ذلك ابنة(٤) له لم تطلع الشمس على أحسن صورة منها ، وفيلسوف يخبرك بمرادك قبل أن تسأله ؛ لحِدَّة مزاجه ، وحسن قريحته ، واعتدال بنيته ، واتساعه فى علمه ، وطبيب لا تخشى معه داء ، ولا شيئاً من العوارض ، إلا ما يطرأ من الفناء والدثور الواقع بهذه البنية ، وحل العقدة التى عقدها المبدع لها المخترع لهذا الجسم الحسى ، وإن كانت بنية الإنسان وهيكله قد نصبت فى هذا العالم غرضاً للآفات والحتوف والبلايا ، وقدحٌ عندى إذا أنا ملأته شرب منه عسكرك بجمعه ولا ينقص منه شىء ، ولا يزيده الوارد عليه إلا دهاقاً ، وأنا مُنْفِذٌ جميع ذلك إلى

---

(١) فى ا « جوامع من أخبار جرت للاسكندر بأرض الهند » .
(٢) فى ا « وأدب فائق » .
(٣) زيادة عن ب وحدها .
(٤) فى ا « فمن ذلك جارية له » .

الملك ، وصائر إليه ، فلما قرأ الإسكندر [هذا] الكتاب ووقف على مافيه قال : تكون هذه الأشياء الأربعة عندى ، ونجاة هذا الحكيم من صولتى أحب من أن لاتكون عندى ويهلك ، فأنفذ إليه الإسكندر جماعة من حكماء اليونانيين والروم فى عدة من الرجال ، وتقدم إليهم : إن كان صادقا فيما كتب به فاحملوا ذلك إلى ، ودعوا الرحل فى موضعه ، وإن تبينتم أن الأمر بخلاف ذلك وأنه أخبر عن الشىء على حلاف ما هو به فقد خرج عن حد الحكمة فأشخصوه إلى ، فمضى القوم حتى انتهوا إلى الملك[١] فتلقاهم بأحسن لقاء ، وأنزلهم أحسن منزل ، فلما كان فى اليوم الثالث جلس لهم مجلساً خاصاً للحكماء منهم دون من كان معهم من المقاتلة ، فقال بعض الحكماء لبعض : إن صدقنا فى الأولى صدقنا فيما بعدها مما ذكر ، فلما أخذت الحكماء مراتبها ، واستقرت بها مجالسها ، أقبل عليهم مباحثاً لهم فى أصول الفلسفة والكلام فى الطبيعيات ومافوقها من الإلهيات ، وعلى شماله جماعة من حكمائه وفلاسفته ، فطال الخطب فى المبدأ[٢] الأول ، وتشاح القوم ، ونظروا فى موضوعات العلماء وترتيبات الحكماء على غير مراء[٣] وتناهى بهم الكلامُ إلى غاية كان إليها صدورهم من العلويات[٤] ، ثم أخرج الجارية فلما ظهرت لأبصارهم رَمَقُوها[٥] بأعينهم فلم يقع طرف واحد منهم على عضو من أعضائها مما ظهر فأمكنه أن يتعدى ببصره إلى غيره ، وشغله تأمل ذلك وحسنه وحسن شكلها وإتقان صورتها ، فخاف القوم على عقولهم لما ورد عليهم عند النظر إليها ، ثم إن كل واحد منهم رجع إلى نفسه [وفهمه] وقهر سلطان هواه ودواعى طبعه ، ثم أراهم بعد ذلك ماتقدم الوعد به ، وسيرهم[٦] وسير الفيلسوف والطبيب والجارية والقدح معهم ، وشيعهم مسافة من أرضه ، فلما وردوا على

---

(١) فى ا « فلما انتهوا إلى مملكته تلقاهم » .

(٢) فى ب « المبادىء الأول وتشاحوا القوم » .

(٣) فى ا « على غير منزلة » . (٤) فى ا « من المعلومات » .

(٥) فى ا « رهقوها بأعينهم » . (٦) فى ا « وصرفهم وسير — إلخ » .

الإسكندر أمر بإنزال الطبيب والفيلسوف ، ونظر إلى الجارية ، فحار عند مشاهدتها ، وبهرت عقله ، وأمر قيّمة جواريه بالقيام عليها ، ثم صرف همته إلى الفيلسوف وإلى علم ما عنده ، وإلى علم الطبيب ومحله من صنعة الطب وحفظ الصحة ، وقص الحكماء عليه ما جرى لهم من المباحثة مع الملك الهندى ، ومن أحضره[1] من فلاسفته وحكمائه ، فأعجبه ذلك ، وتأمل أغراض القوم ومقاصدهم والغاية التى إليها كان أصدرهم[2] ، وأقبل ينظر إلى مطاردة الهند فى عللها ومعلولاتها ومايصفه اليونانيون[3] من عللها وصحة قياسها على ماقدمنا من أوضاعها ، ثم أراد محنة الفيلسوف على حسب ماأخبر عنه ، فخلا بنفسه ، وأجال فكره ، فسنح له سانح من الفكر بإيقاع معنى يختبره به ، فدعا بقدح فملأه سمناً وأدهقه ، ولم يجعل للزيادة عليه سبيلا ، ودفعه إلى رسول له ، وقال له : امض به إلى الفيلسوف ، ولا تخبره بشىء ، فلما ورد الرسول بالقدح ودفعه إلى الفيلسوف قال بصحة فهمه وتبينه للأمور[4] المتقنة المحكمة فى نفسه : لأمرٍ ما بعث هذا الملك الحكيم بهذا السمن إلى ، وأجال فكره ، وسَبَرَ المراد به ، ثم دعا بنحو ألف إبرة فغرز أطرافها فى السمن ، وأنفذها إلى الإسكندر ، فأمر الإسكندر بسبكها كرة مدورة ململمة متساوية الأجزاء ، وأمر بردها إلى الفيلسوف ، فلما نظر إليها الفيلسوف وتأمل فعل الإسكندر فيها أمر ببسطها ، وبأن يتخذ منها مرآة بحضرته ، وصَقَلَها ، فصارت جسماً صقيلا تردُّ صورة مَنْ قابلها من الأشخاص ؛ لشدة صفائها ، وزوال الدرن عنها ، وأمر بردها إلى الإسكندر ، فلما نظر إليها ، وتأمل حسن صورته فيها ، دعا بطست فجعل المرآة فيه ، وأمر بإراقة الماء فيه عليها حتى رسبت فيه ، وأمر بحمل ذلك إلى الفيلسوف ، فلما نظر الفيلسوف إلى ذلك أمر بالمرآة فجعل منها مشربة كالطرجهارة ، وجعلها فى الطست فوق الماء ، فطفت فوقه ، وأمر بردها إلى

(١) فى ا « ومن حضره » . (٢) فى ا « إليها كان صدورهم » .
(٣) فى ا « ومانصه اليونانيون من عللها وصحته من قياسها » .
(٤) فى ا « وتأتيه للأمور » .

الإسكندر، فلما نظر الإسكندر إلى ذلك أمر بتراب ناعم فملئت منه ، وردها إلى الفيلسوف ، فلما نظر الفيلسوف إلى ذلك تغير لونه وحال، وجزع وتغيرت صفاته، وأسبل دموعه على [صحن] خده ، وكثر شهيقه ، وطال أنينه ، وظهر حنينه ، وأقام بقية يومه غير منتفع بنفسه ، ثم أفاق من ذلك الحال، وزجر نفسه ، وأقبل عليها كالمعاتب لها ؛ وقال : ويحك يانفس!! ما الذى قذف بك فى هذه السُّدْفة وأصارك إلى هذه الغمة، ووصلك بهذه الظلمة؟ أنسيت[1] وأنت فى النور تسرحين وفى العلوم تمرحين، وتنظرين فى الضياء الصادق، وتنفسحين فى العالم المشرق؟ أنزلت إلى عالم الظلم والمعاندة ، والغش والمفاسدة ، تخطفك الخواطف ، وتنتهرك[2] العواصف ، قد حرمت علم الغيوب، والسكون فى العالم المحبوب ، ورميت بشدائد الخطوب ، ورفضت كل مطلوب ، أين مصادرك الطيبة وراحتك القوية؟ حللت فى الأجساد ، فقوى عليك الكون والفساد ، حللت يانفس بين السباع القاتلة والأفاعى المهلكة، [والمياه الحاملة][3] والنيران المحرقة، والريح العاصفة، وصيرتك الأعمار[4] فى قرارات الأجسام، لاتشاهدين إلا غافلا، ولا تَرَيْنَ إلا جاهلا، قد زهد فى الخيرات ورغب عن الحسنات، ثم رفع طرفه نحو السماء فرأى النجوم تزهر، فقال بأعلى صوته: يالك من نجوم سائرة، وأجسام زاهرة، من عالم شريف طلعت، ولشىء ما وضعت ، إنك من عالم نفيس قد كانت النفس فى أعاليه ساكنة، وفى أكنافه قاطنة[5] ، فقد أصبحت عنه ظاعنة ، ثم أقبل على الرسول وقال : خذه ورده إلى الملك ، يعنى التراب ، ولم يحدث فيه حادثة ، فلما ورد الرسول على الإسكندر أخبره بجميع ماشاهده ، فتعجب الإسكندر من ذلك ، وعلم مرامى الفيلسوف ومقاصده وغاية مراده فيما وقع بالنفوس من النقلة مما علا من العوالم إلى هذا العالم

---

(١) فى ا « ألست وأنت فى النور — إلخ» .

(٢) فى ا « تنتهزك العواصف » (٣) زيادة فى ا وحدها .

(٤) فى ا « تسير بك الأعمار ». (٥) فى ا « وفى خزائنه قاطنة » .

ولما كان فى صبيحة تلك الليلة جلس له الإسكندر جلوساً خاصاً ، ودعا به ، ولم يكن رآه قبل ذلك ، فلما أقبل ونظر إلى صورته وتأمل قامته وخلقته ، نظر إلى رجل طويل الجسم ، رَحْب الجبين ، معتدل البنية ، فقال فى نفسه : هذه بنية تضاد الحكمة ، فإذا اجتمع حسن الصورة وحسن الفهم كان أوحَدَ زمانه ، ولست أشك أن هذا الشخص [قد اجتمع له الأمران جميعاً ، فإن كان هذا الشخص][1] قد علم كل ما راسلته به ، وأجابنى عليه من غير مخاطبة ولا موافقة ولا مباحثة ، فليس فى وقته أحد يدانيه فى حكمته ، ولا يلحقه فى علمه ، وتأمل الفيلسوف الإسكندر فأدار أصبعه السبابة على وجهه ، ووضعها على أرنبة أنفه ، وأسرع نحو الإسكندر وهو جالس على غير سرير ملكه ، فحياه بتحية الملوك ، فأشار إليه الإسكندر بالجلوس ، فجلس حيث أمره ، فقال له الإسكندر : ما بالك حين نظرت إلى ورميت بطرفك نحوى أدرت أصبعك حول وجهك ووضعتها على أرنبة أنفك ؟ قال : تأملتك أيها الملك بنورية عقلى وصفاء مزاجى ، فتبينت فكرنك فى ، وتأملك لصورتى ، وأنها قلما تجتمع مع الحكمة ، فإذا كان ذلك كان صاحبها أوحد [أهل] زمانه ، فأدرت أصبعى مصداقاً لما سنح لك ، وأريتك مثالا شاهداً ، كما أنه ليس فى الوجه إلا أنف واحد فكذلك ليس فى دار مملكة الهند غيرى ، ولا يلحق أحد من الناس بى فى حكمتى ، فقال له الإسكندر : ما أحسن ما تأتّى لك ما ذكرت ، وانتظم لك بحسن الخاطر ما وصفت ، فدع عنك هذا ، [وأخبرنى] ما بالك[2] حين أنفذت إليك قدحاً مملوءاً سمناً غرزت فيه إبراً ورددته إلىّ ؟ قال الفيلسوف : علمت أيها الملك أنك تقول : إن قلبى قد امتلأ وعلمى قد انتهى كامتلاء هذا الإناء من السمن ، فليس لأحد من الحكماء فيه مستزاد ، فأخبرت الملك أن علمى سيزيد[3] فى علمك ، ويدخل فيه دخول هذه الإبر فى هذا

(١) زيادة فى ا وحدها. (٢) فى ا « مابدا لك » .
(٣) فى ب « أن علمى يستزيد فى علمه » .

الإناء ، قال : فأخبرنى ما بالك[١] حين عملت من الإبر كرة وأنفذتها إليك صيرتها[٢] مرآة ورددتها إلى صقيلة ، قال : [قد] علمت أيها الملك أنك تريد أن قلبك قد قسا من سفك الدماء والشغل بسياسة هذا العالم كقسوة هذه الكرة ، فلا يقبل العلم ، ولا يرغب فى فهم الغايات فى العلوم والحكمة ، فأخبرتك مجيباً متمثلا[٣] بسبك الكرة والحيلة فى أمرها بجعلى منها مرآة صقيلة مؤدية إلى الأجسام عند المقابلة لحسن الصفاء ، قال له الإسكندر : صدقت ، قد أجبتنى عن مرادى ، فأخبرنى أيها الفيلسوف حين جعلت المرآة فى الطست ورسبت فى الماء : لمَ جعلتها قدحاً فوق الماء طافية ثم رددتها إلىّ ، قال الفيلسوف : علمت أنك تريد بذلك أن الأيام قد انقضت وقصرت ، والأجل قد قرب ، ولا يدرك العلم الكثير فى المهل القليل ، فأجبت الملك متمثلا[٣] أنى سأعمل الحيلة فى إيراد العلم الكثير فى المهل القليل إلى قلبه وتقريبه من فهمه ، كاحتيالى للمرآة من بعد كونها راسبة فى الماء حتى جعلتها طافية عليه ، قال له الإسكندر : صدقت فأخبرنى ما بالك حين ملأت الإناء تراباً رددته إلىّ ولم تحدث فيه حادثة كفعلك فيما سلف ، قال : علمت أنك تقول : ثم الموت وأنه لابد منه، ثم لحوق هذه البنية بهذا العنصر البارد اليابس الثقيل[٤] الذى هو الأرض، ودثورها وتفرق أجزائها ومفارقة النفس الناطقة الصافية الشريفة اللطيفة لهذا الجسد المرئى ، قال له الإسكندر : صدقت ، ولأحسنن إلى الهند من أجلك ، وأمر له بجوائز كثيرة ، وأقطعه قطائع واسعة ، فقال له الفيلسوف : لو أحببتُ المال لما أردت العلم ، ولست أدخل على علمى ما يضاده وينافيه ، واعلم أيها الملك أن القنية توجب الخدمة[٥] ، ولسنا نجد عاقلا مَنْ خدم غير ذاته ، واستعمل غير ما يصلح نفسه ، والذى يصلح النفس الفلسفة ، وهى صقالها وغذاؤها ، وتناول

---

(١) ا « ما بدالك » . (٢) فى ا « ضربتها » .
(٣) فى ب « ممثلا » . (٤) فى ب « المعتقل » .
(٥) يريد أن من ملك مايقتنى وجبت عليه خدمته ليدوم ، وفى ب « أن الغنية » محرفا .

الذات][1] الحيوانية وغيرها من الموجودات ضد لها ، والحكمة سبيل إلى لعلو ، وسُلم إليه ، ومن عدم ذلك عدم القربة من بارئه ، واعلم أيها الملك أن العدل ركب جميع العالم بجزئياته ، ولا يقوم بالجور ، والعدل ميزان البارىء جل وعز ، فكذلك حكمته مبرأة عن كل ميل[2] وزلل ، وأشبه الأشياء من فعال الناس بأفعال بارئهم الإحسان إلى الناس ، وقد ملكت أيها الملك سيفك ، وصولة ملكك ، وتأتّيك فى أمورك ، وانتظام سياستك أجسامَ عيتك ؛ فتحَرَّ أن تملك قلوبهم بإحسانك إليهم ، وإنصافك لهم ، وعدلك بهم ، فهى خزانة سلطانك ، فإنك إن قدرت أن تقول قدرت أن تفعل ، احترز من أن تقول تأمن من أن نفعل ، فالملك السعيد من تمت له رياسة يامه[3] ، والملك الشقى من انقطعت عنه ، فمن تحرى فى سيرته العدل استنار لبه بعذوبة الطهارة .

قال المسعودى رحمه الله : وخلّى الإسكندر عن الفيلسوف لإبائه المقام معه لحق بأرضه ، وللإسكندر مع هذا الفيلسوف مناظرات كثيرة فى أنواع ن العلوم ، ومكاتبات ، ومراسلات ، جرت بين الإسكندر وبين كند لك الهند ، قد أتينا على مبسوطها والغرر من معانيها وَالزُّهْر[4] من عيونها ى كتابنا « أخبار الزمان » .

وأما القَدَحُ فامتحنه حين أدهقه بالماء ، وأورد عليه الناس ، فلم ينقص ربهم منه شيئاً ، وكان معمولا بضرب من خواص الهند والروحانية والطبائع تامة والتوهم ، وغير ذلك من العلم مما يَدَّعيه الهند ، وقد قيل : إنه كان لآدم بى البشر عليه السلام بأرض سرنديب من بلاد الهند مبارك له فيه ، فوُرِثَ نه ، وتداولته الملوك ، إلى أن انتهى إلى كند هذا الملك العظيم سلطانه ،

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من ب . (٢) فى ا « من كل عيب وزلل » .

(٣) فى ا « من دامت رياسة أيامه » (٤) فى ا «والرمز من عيونها» .

وما كان عليه من الحكمة ، وقيل غير ذلك من الوجوه ، مما قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا .

وللطبيب معه أخبار ظريفة ، ومناظرات عجيبة ، فى أوائل المعرفة وصنعة الطب وترقيه [معه] إلى مبسوط الصنعة من الطبيعيات وغيرها ، أعرضنا عن ذكرها خوفاً من الإطالة وميلا إلى الاختصار فى هذا الكتاب[١] ؛ لتعلق الكلام بالتوهم الذى تدعيه الهند فى صنعة الطب وغيرها .

وقد كان للإسكندر فى أسفاره وتوسطه الممالك وقطعه الأقاليم ومشاهدته الأمم ، وملاقاته الحكماء مع تنائى ديارهم ، وبعد أوطانهم ، واختلاف لغاتهم ، وعجائب صورهم ، وتباينهم فى شيمهم وأخلاقهم — أخبار كثيرة من حروب ومكايد وحيل وفنون من السير ، وما أحدث من الأبنية ، وقد أتينا على شرح ذلك فيما سلف من كتبنا مما سمينا ، وغير ذلك مما عن وصفه[٢] أمسكنا ، وإنما ذكرنا اليسير من أخباره ، لئلا يَعْرَى[٣] كتابنا [هذا] من شىء منها مع ذكرنا لمسيره ووفاته ، وبالله التوفيق .

---

(١) فى ب « فى هذا المكان » . (٢) فى ب « عن وصفها أمسكنا » .
(٣) فى ا « لئلا يخلو كتابا » .

ذكر ملوك اليونانيين بعد الإسكندر

بطليموس

ثم ملك بعد الإسكندر الملك خليفته « بطليموس » وكان حكيما عالماً سائساً مدبراً ، وكان ملكه أربعين سنة ، وقيل : بل كان ملكه عشرين سنة ، وقد كان لهذا الملك — وهو التالى الملك الإسكندر — حروب مع بنى إسرائيل وغيرهم من ملوك الشام

اللعب بالبزاة والشواهين

وذكر جماعة من أهل الدرايات[1] بأخبار ملوك العالم أنه أول من اقتنى البُزَاة ولعب بها وضَرَّاها ، وأنه ركب فى بعض الأيام فى طربه[2] إلى بعض متنزهاته فنظر إلى بازٍ يطير ، فرآه إذا علا صفق[3] ، وإذا سفل خفق ، وإذا أراد أن يستوى ذرق ، فأتبعه [بصره] حتى اقتحم شجرة ملتفة كثيرة الشوك ، فتأمله فأعجبه صفاء عينيه وصفرتها وكمال خلقه ، فقال : هذا طائر حسن ، وله سلاح وينبغى أن تتزين به الملوك فى مجالسها ، فأمر أن يجمع منها عدة لتكون فى مجلسه زِينته ، فعرض لباز منها أَيْمٌ ، وهو الحية الذكر ، فوثب عليه البازى فقتله ، فقال الملك : هذا ملك يغضب مما تغضب منه الملوك ، ثم عرض له بعد أيام ثعلب كان داجناً ، فوثب عليه البازى فما أفلت إلا جريحاً[4] ، فقال الملك : هذا ملك جبار لا يحتمل الضيم ، ثم مر [به] طائر فوثب عليه فأكله ، فقال الملك : هذا ملك يمنع حماه ولا يضيع أكله ، فلعب بها [ثم لعب] بعده ملوك الأمم من اليونانيين والروم والعرب والعجم وغيرهم ، وثنى مَنْ بعده من ملوك الروم بلعب الشواهين والاصطياد بها ، وقد قيل : إن الذَّلَارقة[5] وهم ملوك الأندلس من الأشبان أول من لعب بالشواهين وصاد بها ، وكذلك اليونانيون أول من صاد بالعقبان ولعب بها ، وقد ذكر أن ملوك الروم أول من صاد بالعقبان .

---

(١) فى ا « أهل الدراية » . (٢) فى ا « فى طرف » .

(٣) فى ب « إذا علاصب » . (٤) فى ا « إلاجريضا » .

(٥) اللذارقة : جمع لذريق ، ووقع فى ب « الأزارقة » محرفا .

قال المسعودى : وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا الجبل القبخ[1] [والباب][2] والأبواب جملا من أخبارها وأخبار من لعب بها، وقد كان من سلف من حكماء اليونانيين يقولون : إن الجوارح أجناس، خلقها الله تعالى وأنشأها على منازلها ودرجاتها ، وهى : أربعة أجناس ، وثلاثة عشر شكلا، فأما الأجناس الأربعة فهى : البازى ، والشاهين[3] ، والصقر ، والعقاب ؛ وقد ذكرنا هذه الأجناس والأشكال على طريق الخبر فى الكتاب الأوسط على مراتبها من سائر أنواع الحيوان الجوارح ، ودلائلها ، وما قاله الناس فى ذلك.

هيفلوس

ثم ملك بعد بطليموس «هيفلوس» وكان رجلا جباراً ، وفى أيامه [عملت الطِّلَّسْمَاتُ و][4] ظهرت عبادة التماثيل والأصنام لشُبَهٍ دخلت عليهم ، وأنها وسائط بينهم وبين خالقهم تقربهم إليه وتُدْنيهم منه ، وكان ملكه ثمانياً وثلاثين[5] سنة ، وقيل : أربعين [سنة][2] .

وقد قيل : إن الذى تملك بعد خليفة الإسكندر بطليموس الثانى ، محب الأخ ، وغزا بنى إسرائيل ببلاد فلسطين وإيليا من أرض الشام ، فسباهم ، وقتل منهم ، وطلب العلوم ، ثم رد بنى إسرائيل إلى فلسطين ، وحمل معهم الجواهر والأموال ، وآلات الذهب والفضة لهيكل بيت المقدس ، وكان ملك الشام يومئذ أبطنجنس[6] ، وهو الذى بنى مدينة أنطاكية ، وكانت دار ملكه ، وجعل بناء سورها أحد عجائب العالم فى البناء على السهل والجبل ، ومسافة السور اثنا عشر ميلا ، عدة الأبراج فيه مائة وستة وثلاثون برجا ، وجعل عدد شُرُفَاته أربعة وعشرين ألف شرفة، وجعل كل برج من الأبراج ينزله[7]

(١) فى ب « جبل الفتح » .
(٢) هذه الكلمة لا توجد فى ب .
(٣) فى ب «والشواهين » .
(٤) لا توجد هذه العبارة فى ا .
(٥) فى ا « ثمانيا وثمانين سنة ».
(٦) فى ب « أنطيخش » .
(٧) فى ب « وجعل على كل برج من الأبراج بتولة بطريق — إلخ » .

بطريق برجاله وخيله ، وجعل كل برج منها طبقات [إلى أعلاه ، فرابط الخيل فى أسفله ، وأرضه ، والرجال فى طبقاته][1] والبطريق فى أعلاه ، وجعل كل برج منها كالحصن عليه أبواب حديد ، وآثار الأبواب ومواضع الحديد بَيِّن إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — وأظهر فيها مياهاً من أعين وغيرها ، لاسبيل إلى قطعها من خارجها ، وجعل إليها مياهاً منصبة فى قنىٍّ مخرقة إلى شوارعها ودورها ، ورأيت فيها من هذه المياه ما يستحجر فى مجاريها المعمولة من الخزف لترادف التقن[2] فيها فيتراكم طبقات ويمنع الماء من الجريان بانسداده ، فلا يعمل الحديد فى كسره ، وقد ذكرنا ذلك فى كتابنا المترجم بـ « القضايا والتجارب » ما شاهدناه حسا ، ونمى إلينا خبراً ، مما يولده ماء أنطاكية فى أجساد الحيوان الناطق وأجوافهم ، وما يحدث فى معدهم ، من الرياح السوداوية الباردة والقولنجية الغليظة ، وقد أراد الرشيد سكناها فقيل له بعض ما ذكرنا من أوصافها ، وترادف الصدأ على السلاح من السيوف وغيرها بها ، وعدم بقاء ريح [أنواع] الطيب بها ، واستحالته [على اختلاف أنواعه] فامتنع من سكناها .

جماعة من ملوك اليونانيين

ثم ملك على اليونانيين بعد هيفلوس « بطليموس » الصانع ، ستاً وعشرين سنة .

ثم ملك بعده عليهم « بطليموس » المعروف بمحب الأب ، تسع عشرة سنة[3] .

وكانت له حروب مع ملوك الشام ، وصاحب أنطاكية الإسكندروس ، وهو الذى بنى مدينة فامية بين حمص وأنطاكية .

ثم ملك بعده على اليونانيين « بطليموس » صاحب [علل] علم الفلك والنجوم ، وكتاب المجسطى وغيره ، أربعاً وعشرين سنة .

(١) زيادة فى ا وحدها . (٢) فى ا « لترادف البصر » .

(٣) فى ا « سبع عشرة سنين » .

ثم ملك [بعده[١]] «بطليموس» محب الأم ، خمساً وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده « بطليموس » الصانع [الثانى][١] سبعاً وعشرين سنة .

ثم ملك بعده « بطليموس » المخلص ، سبع عشرة سنة .

ثم ملك بعده « بطليموس » الإسكندرانى ، اثنتى عشرة سنة .

ثم ملك بعده « بطليموس » الجديد[٢] ، ثمان سنين .

ثم ملك بعده « بطليموس » الجوّال[٣] ، ثمانياً وستين[٤] سنة ، وكانت له حروب كثيرة .

ثم ملك بعده « بطليموس » الحديث[٥] ، ثلاثين سنة .

كليوباترا

ثم ملكت بعد ابنته « قابطرة » وكان ملكها اثنتين وعشرين سنة ، وكانت حكيمة متفلسفة ، مقربة للعلماء [معظمة للحكماء][٦] ولها كتب مصنفة فى الطب والرُّقْيَة[٧] وغير ذلك من الحكمة ، مترجمة باسمها ، منسوبة إليها ، معروفة عند صنعة أهل الطب ؛ وهذه الملكة آخر ملوك اليونانيين إلى أن انقضى ملكهم وَدَثَرَت أيامهم ، وامّحت آثارهم ، وزالت علومهم ، إلا ما بقى فى أيدى حكمائهم ، وقد كان لهذه الملكة خبر ظريف فى موتها وقتلها لنفسها ، وقد كان لها زوج يقال له أنطونيوس[٨] مشارك لها فى ملك مقدونية ، وهى بلاد مصر من الإسكندرية وغيرها ، فسار إليهم الثانى من ملوك الروم ، من بلاد رومية ، وهو أغسطس ، وهو أول من سمى قيصر ، وإليه تنسب القياصرة بعده ، وسنذكر خبره فى باب ملوك الروم بعد هذا الموضع ، وكانت له حروب بالشام ومصر مع قابطرة الملكة وم

(١) هذه الكلمة لاتوجد فى ب .
(٢) فى ب « بطليموس الحديد » .
(٣) فى ا « بطليموس الحوال » .
(٤) فى ا « ثمان سنين » .
(٥) فى ب « الحديد » .
(٦) زيادة فى ب وحدها .
(٧) فى ب « الطب والزينة » .
(٨) فى ا « أفطنيوس » .

زوجها أنطونيوس ، إلى أن قتله ، ولم يكن لقلبطرة فى دفع أغسطس ملك الروم عن ملك مصر حيلة ، وأراد أغسطس إعمال الحيلة فيها[1] لعلمه بحكمتها ، وليتعلم منها إذ كانت[2] بقية الحكماء اليونانيين ، ثم بعدها يقتلها[3] ، فراسلها ، وعلمت مراده فيها وما قد وتَرَها به من قتل زوجها وجنودها ، فطلبت الحية التى تكون بين الحجاز ومصر [والشام] وهى نوع من الحيات : تراعى الإنسان ، حتى إذا تمكنت من النظر إلى عضو من أعضائه قفزت أذرعاً كثيرة كالرمح[4] فلم تخطىء ذلك العضو بعينه ، حتى تتفل عليه سماً ، فتأتى عليه ، ولا يعلم بها ، لخموده من فوره ، ويتوهم الناس أنه قد مات فجأة حتف أنفه ، ورأيت نوعاً من هذه الحيات بين بلاد خوزستان من كور الأهواز لمن أراد بلاد فارس من البصرة ، وهو الموضع المعروف بخان مردويه بين مدينة دورق وبلاد الباسيان والفندم فى الماء ، وهى حيات شبرية ، وتدعى هنالك الفترية[5] ، ذات رأسين تكون فى الرمل وفى جوف تراب الأرض ، فإذا أحست بالإنسان أو غيره من الحيوان وثبت من موضعها أذرعاً كثيرة فضربت بإحدى رأسيها إلى أى موضع من ذلك الحيوان ، فتلحقه من ساعته ضد الحياة وعدمها لحينه ، فبعثت قلبطرة هذه الملكة فاحتمل لها حية من هذه المقدم ذكرها التى توجد بأطراف الحجاز ، فلما أن كان اليوم الذى علمت أن أغسطس يدخل قصر ملكها أمرت بعض جواريها ومن أحَبَّتْ فناءها قبلها ، وأن لا يلحقها

---

(١) فى ا « فى أخذها ».
(٢) فى ا « لأنها كانت — إلخ ».
(٣) فى ا « ثم يعذبها ويقتلها ».
(٤) فى ا « كالريح ».
(٥) فى ب « القبرية ».

العذابُ بعدها ، فسمتها فى إنائها نخمدت من فورها ، ثم جلست قلبطرة الملكة على سرير ملكها ، ووضعت تاجها على رأسها ، وعليها ثيابها وزينة ملكها ، وجعلت أنواع الرياحين والزهر والفاكهة والطيب وما يجتمع بمصر من عجائب الرياحين وغيرها مما ذكرنا ، مبسوطة فى مجلسها وقُدَّام سريرها ، وعهدت بما احتاجت إليه من أمورها ، وفرقت حشمها من حولها ، فاشتغلوا بأنفسهم عن ملكتهم ، لما قد غشيهم من عدوهم ودخوله عليهم فى دار ملكهم ، وأدنت يدها من الإناء الزجاج الذى كانت فيه الحية ، فقربت يدها من فيه فتفلت عليها الحية ، فجفت مكانها ، وانسابت الحية وخرجت من الإناء ، ولم تجد جُحْراً ولا مذهباً تذهب فيه لإتقان تلك المجالس بالرخام والمرمر والأصباغ ، فدخلت فى تلك الرياحين ، ودخل أغسطس حتى انتهى إلى المجلس ، فنظر إليها جالسة والتاج على رأسها ، فلم يشك فى أنها تنطق ، فدنا منها فتبين [له] أنها ميتة ، وأعجب بتلك الرياحين، فمد يده إلى كل نوع منها يلمسه ويتبينه[(١)] ويعجب خواص من معه به ، ولم يدر سبب موتها [وهو يتأسف[(٢)] على ما فاته منها] فبينما هو كذلك من تناول تلك الرياحين وشمها إذ قفزت عليه تلك الحية فرمته بسمها ، فيبس شقه [الأيمن][(٢)] من ساعته ، وذهب بصره الأيمن وسمعه ، فتعجب من فعلها وقتلها لنفسها وإيثارها للموت على الحياة مع الذل ، ثم ما كادته به من إلقاء الحية بين الرياحين ، فقال فى ذلك شعراً بالرومية يذكر حاله وما نزل به وقصتها ، وأقام بعد ما نزل به ما ذكرنا يوماً وهلك ، ولولا أن الحية كانت قد أفرغت سمها على الجارية ثم على قلبطرة الملكة لكان أغسطس قد هلك من ساعته ، ولم تمهله هذه المدة ، وهذا الشعر معروف عند الروم إلى هذه الغاية يذكرونه فى نوحهم[(٣)] ويَرْثُونَ به ملوكهم [وموتاهم] ، وربما

(١) فى ا « ويتشممه » . (٢) زيادة فى ا وحدها .
(٣) فى ب « يومهم » .

ذكروه فى أغانيهم ، وهو متعالم معروف عندهم ، وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا من هؤلاء الملوك وأخبارهم وحروبهم وطوافهم البلاد[١] ، وأخبار حكمائهم ، وما أحدثوه من الآراء والنحل ، ومسائل فلاسفتهم ، وغير ذلك من أسرارهم وعجيب أخبارهم .

عدد ملوك اليونانيين ومدة حكمهم

والذى يعول عليه من عدد ملوكهم ، واتفق على ذلك[٢] أهل المعرفة بأخبارهم ، أن جميع عدد ملوك اليونانيين أربعة عشر ملكا آخرهم الملكة قلبطرة ، وأن جميع عدد سنى ملوكهم ومدة أيامهم وامتداد سلطانهم ثلثمائة سنة وسنة واحدة ، وكان كل ملك يملك على اليونانيين من بعد الإسكندر ابن فيلبس يسمى بطليموس ، وهذا الاسم الأعم الشامل لملكهم[٣] ، كتسمية ملوك الفرس كسرى ، وتسمية ملوك الروم قيصر ، وتسمية ملوك اليمن تبع ، وتسمية ملوك الحبشة النجاشى ، وتسمية ملوك الزنج فليمى[٤] ، وقد ذكرنا جملا من مراتب ملوك العالم وسماتهم واسمهم الأعم الشامل لهم فيما سلف من كتابنا هذا ، وسنورد بعد هذا الموضع فى الموضع المستحق له من هذا الكتاب جملا عند ذكرنا الملوك والممالك ؛ إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى ا « وطروقهم بالبلاد» .
(٢) فى ا « واتفق فيه أهل المعرفة » .
(٣) فى ا « لملوكهم » .
(٤) فى ب « وهليمن » .

ذكر [ملوك] (١) الروم ، وما قاله الناس فى أنسابهم
وعدد ملوكهم ، وتاريخ سنيهم

الاختلاف فى نسب الروم

تنازع الناس فى الروم ، ولأية علة سموا بهذا الأسم ، فمنهم من قال : سموا روما لإضافتهم إلى مدينة رومية ؛ واسمها روماس بالرومية ، وعرب هذا الاسم فسمى من كان بها روما ، وكذلك الروم فى لغتهم لا يسمون أنفسهم ولا يدعوهم أهل الثغور إلا رومينس (٢) ، ومنهم من رأى أن هذا الاسم اسم للأب ، وهو روم بن سماحلين بن هربان بن عقلا بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل (٣) عليه السلام ، ومنهم من رأى أنهم سموا باسم جدهم ، وهو (٤) رومى بن ليطن بن يونان ابن يافث بن بريه بن سرحون بن رومية بن مربط بن نوفل بن روين بن الأصفر ابن النفر (٥) بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام [وقد قيل من الوجوه غير ما ذكرنا ، وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب فى باب اليونانيين نسب الإسكندر واتصاله بهذا النسب ، على ما ذكره الناس فى ذلك ، والله أعلم

وقد ولد للعيص ثلاثون رجلا ، فالروم الآخرة بنو الأصفر بن النفر (٥) بن العيص بن إسحاق] (٦) ، وقد ذكر جماعة ممن سلف من شعراء العرب قبل ظهور الإسلام ذلك لاشتهار ما وصفنا فيهم : منهم عدىّ بن زيد العِبادى حيث يقول :

وبنو الأصفر الكرام ملوك الـــروم لم يبق منهم مذكور

وقد كان العيص بن إسحاق ، وهو عيصو ، تزوج من بنات الكنعانيين ، فأكثر أولاده منهم ، وقد قيل : إن العماليق ـ وهم العرب البادية الذين كانوا بالشام ـ من ولد النفار (٥) بن عيصو ، [وكذلك رعوئيل بن عيصو] (٦) وهذا ما لا ينقاد

(١) هذه الكلمة لا توجد فى ا . (٢) فى ب « رميس » .
(٣) فى ا « وهو روم بن سماحليق بن هريان بن علقاء بن العيص — إلخ » .
(٤) فى ا « وهو روم بن لبسط بن يونان بن يافث بن ثونة بن سرحون بن رومية بن ربط بن نوفيل بن رومن بن الأصفر بن النفر بن العيص بن إسحاق — إلخ » . (٥) فى ب « اليغز » (٦) هذه الجملة كلها ساقطة من ب

إليه علماء العرب إلا فى الروم دون ما ذكرنا من العماليق وغيرهم ، وهذه الأنساب كلها تتعلق بما فى التوراة وغيرها من كتب العبرانيين .

أول ملوك الروم

قال المسعودى : وغلبت الروم على ملك اليونانيين لأخبار يطول ذكرها ويتعذر فى هذا الكتاب شرحها ، وكان أول من ملك من ملوك الروم فيها ساطوخاس (١) ، وهو جاليوس الأصغر بن روم بن سماحايق (٢) ، فكان ملكه اثنتين وعشرين سنة ، وقد قيل : إن أول من ملك من ملوك الروم قيصر ، واسمه غالوس بن كوليوس (٣) ، ثمان عشرة سنة ، وفى نسخة أخرى أن أول من ملك من ملوك الروم بعد اليونانيين توليس (٤) ، سبع سنين ونصفاً ، وكانت مدينة رومية بنيت قبل الروم بأربعمائة سنة .

أغسطس

ثم ملك بعده «أغسطس» قيصر (٥) ، ستاً وخمسين سنة ، وهذا الملك هو أول من سمى من ملوك الروم قيصر ، وهو الثانى من ملوكهم ، وتفسير قيصر [بُقِر] أى شق عنه ، وذلك أن أمه ماتت وهى حامل به فشق بطنها ؛ فكان هذا الملك يفتخر فى وقته بأن النساء لم تلده ، وكذلك من حدث بعده من ملوك الروم ممن كان من ولده يفتخرون بهذا الفعل وما كان من أمهم ، فصارت سِمَة لمن طرأ بعده من ملوك الروم ، والله أعلم .

وغزا هذا الملك الشام ومصر والإسكندرية ، وأزال من بقى من ملوك الإسكندرية ومقدونية وهى مصر ، وقد قدمنا أن كل ملك كان يلى مقدونية والإسكندرية يسمى بطليموس ، واحتوى هذا الملك ـ أعنى أغسطس ـ على خزائن ملوك الإسكندرية ومقدونية ، ونقلها إلى رومية ، وكانت له حروب كثيرة فى الأرض ، وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا ، وكان يعبد الأوثان ، وبنى بأرض الروم مدناً وكوَّر كوراً نسبت تلك المدن إليه : منها قيسارية ، وكذلك بالشام بساحل فلسطين مدينة قيسارية ، وكان مولد المسيح عيسى بن مريم

(١) فى ب « ساطوحاس وهو جانيوس » . (٢) فى ب «سماحلين» .
(٣) فى ب «هالوس بن أفليوس » . (٤) فى ب « بوليس » .
(٥) فى ب « أغسطس بن قيصر » .

عليه السلام بها ، وهو يسوع الناصرى على حسب ما قدمناه ، لاثنتين وأربعين سنة خلت من ملك قيصر أغسطس هذا ، فكان من ملك الإسكندر إلى مولد

مولد المسيح

المسيح ثلثمائة سنة وتسع وستون[١] سنة ، ورأيت فى مدينة أنطاكية فى بعض تواريخ الروم الملكية فى كنيسة القسيان[٢] أنه كان من ملك الإسكندر إلى مولد المسيح ثلاثمائة سنة وتسع سنين[٣] ، وكان مولد يسوع الناصرى [لإحدى وعشرين سنة خلت من ملك هيردوس ملك بنى إسرائيل فى ذلك العصر][٤] بإيليا من بلاد فلسطين ، وهى أورشليم بالعبرانية ، فمن هبوط آدم إلى مولد المسيح فى تواريخ أصحاب الشرائع من أهل الكتب خمسة آلاف سنة وخمسمائة [سنة وخمسون سنة][٥] .

وأقام أغسطس وهو قيصر ملكا بعد مولد المسيح أربع عشرة سنة ونصفاً وكان مدة ملكه على الروم برومية وفى سائر أسفاره ستاً وخمسين سنة ، على حسب ما قدمنا من موته ولسع الحية إياه بمقدونية ، وجفاف نصفه ، وذهاب سمعه وبصره عند ذكرنا لفعل قلبطرة بنفسها فى الباب الذى قبل هذا الباب .

طيباريوس

ثم ملك الروم بعده «طيباريوس[٦]» وكان مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة ، ولثلاث سنين بقيت من ملكه رفع المسيح عليه السلام ، ولما هلك هذا الملك برومية اختلفت الروم وتحزبت ؛ فأقاموا على اختلاف الكلمة والتنازع فى الملك مائتى سنة وثمانياً وتسعين سنة ، لا نظام لهم ، ولا ملك يجمعهم .

ولما انقضى ماذكرنا من المدة ملكوا عليهم «طباريس غانس[٧]» بمدينة رومية، فكان ملكه أربع سنين ، والقوم لا يعرفون غير عبادة التماثيل والصور .

قلوديس

ثم ملك بعد «قلوديس[٨]» أربع عشرة سنة ، وذلك برومية ، وهو أول ملك من ملوك الروم شرع فى قتل النصارى وأتباع المسيح . وقيل : إن فى أيامه

(١) فى ا « وتسع وتسعون سنة » . (٢) فى ا « البستان» .
(٣) فى ا هنا « وتسع وستون سنة » . (٤) ما بين المعقوفين فى ا وحدها.
(٥) عبارة « وخمسون سنة » لا توجد فى ا (٦) فى ا «طباريس » .
(٧) فى ب « بطاريس » . (٨) فى ب « فلوريوس ».

مقتل أتباع المسيح

قتل برومية بطرس ، واسمه باليونانية شمعون، والعرب تسميه سمعان ، هو وبولص، وصلبا منكسين ، وما كان من خبرهما مع سيما[1] الساحر برومية، وهما ممن أتى إلى أنطاكية وأخبر الله عز وجل عنهما فى سورة يس ، ثم كان لهما بعد ذلك نبأ عظيم، وذلك بعد ظهور دين النصرانية برومية ، فجعلا فى أجْرِبَة[2] من البلور، فهما على ذلك بمدينة رومية فى بعض الكنائس إلى هذه الغاية ، على حسب ما قدمنا آنفاً فيما سلف من هذا الكتاب ، وأكثر من عنى بأخبار العالم وسير ملوكهم وتاريخهم ، يذهب إلى أنهما قتلا برومية فى ملك الخامس من ملوك الروم ، وتفرق تلاميذ يسوع الناصرى فى الأرض، فسار مارى[3] إلى [مادَنَا] من العراق فمات بمدينة دير قُنَّى[4] والصافية على شاطىء دجلة بين بغداد وواسط، وهذا البلد بلد على بن عيسى بن داود بن الجراح ومحمد بن داود بن الجراح وغيرهما من الكتاب فقبره هنالك فى كنيسة إلى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، يعظمه أهل دين النصرانية ، ومضى توما ، وكان من الاثنى عشر ، إلى بلاد الهند داعياً إلى شريعة المسيح ، فمات هنالك ، وسار آخر إلى آخر مدينة بخراسان ، فمات هنالك وموضع قبره مشهور يعظمه النصارى، ومنهم من رأى أنه مات ببلاد دقوقا وخانيجار وكرخ حدان[5] فى تخوم العراق ، وموضعه مشهور ، ومات مارقس بالإسكندرية من أرض مصر، وقبره هنالك، وهو أحد التلاميذ الأربعة الذين ألفوا الإنجيل ، وقد كان لمارقس مع أهل مصر خبر ظريف فى مقتله ، وقد أتينا على السبب فى ذلك فى كتابنا الأوسط الذى كتابنا هذا تال له، وأتينا على قصته مع أهل مصر ووصيته لهم حين أراد المسير إلى المغرب : إنه مَنْ جاءكم على صورتى فاقتلوه ، فإنه سيرد عليكم بعدى أناس يتشبهون بى ، فبادروا إلى قتلهم ، ولا تقبلوا منهم

(١) فى ب « سيمن الساحر».
(٢) فى ا « أخزنة » . (٣) فى ب «فسار مارا » .
(٤) فى ب « بمدينة برمى »
(٥) فى ب « ومنهم أردمات يبلاد قوفوحا البحار وكرخ حران » .

الشأم ، وكانت لهما مع بنى إسرائيل حروب عظيمة ، وقتل فيها من بنى إسرائيل ثلاثمائة ألف ، وخربا بيت المقدس [وأحرقا الهيكل بالنار] ، وحرثاه بالبقر ، وأزالا رسمه ، ومَحَوا أثره ، وكانت عبادتهما للأصنام .

ووجدت فى بعض كتب التواريخ أن الله عاقب الروم من ذلك اليوم الذى خربت فيه بيت المقدس أن يسبى كل يوم منهم سبى ، يفعل ذلك من أطاف ببلادهم من الأمم ، فلا [يأتى] يوم من أيام العالم إلا والسبى واقع بهم ، قلّ ذلك أو أكثر .

دو بطياس

ثم ملك الروم بعدها « دوبطياس[١] » خمس عشرة سنة ، عابداً للتماثيل معظماً لها ، ولتسع سنين من ملكه نفى يوحنا التلميذ أحد الأربعة من أصحاب الإنجيل إلى بعض جزائر البحر ، ثم رده بعد ذلك .

جماعة من ملوك الروم

ثم ملك بعده « بيرنوس » سنة .

ثم ملك بعده « طريانوس » سبع عشرة سنة[٢] يعبد الأصنام ، ولتسع سنين خلت من ملكه مات يوحنا التلميذ .

ثم ملك بعده «أدريانس » إحدى عشرة سنة ، يعبد التماثيل ، وخرب سائر ما بنى بنو إسرائيل بالشام .

ثم ملك بعده « أبطوليس » برومية ثلاثاً وعشرين سنة ، وبنى بيت المقدس وسماه إيليا ، وهو أول من سماه بهذا الاسم إيليا .

ثم ملك بعده «مرلس» سبع عشرة سنة[٢] يعبد الأصنام .

ثم ملك بعده « فرمودش » يعبد الأوثان ، ثلاث عشرة سنة .

ثم ملك بعده « سويرس » ثمان عشرة سنة .

[ثم ملك بعده ولد له يقال له «أبطونيس» يعبد التماثيل ، سبع سنين][٣] .

---

(١) فى ب « ذونسطاس » .

(٢) فى ا « تسع عشرة سنة » .

(٣) لا توجد هذه الزيادة فى ا.

الشأم ، وكانت لها مع بنى إسرائيل حروب عظيمة ، وقتل فيها من بنى إسرائيل ثلاثمائة ألف ، وخربا بيت المقدس [وأحرقا الهيكل بالنار] ، وحرثاه بالبقر ، وأزالا رسمه ، ومحوا أثره ، وكانت عبادتهما الأصنام .

ووجدت فى بعض كتب التواريخ أن الله عاقب الروم من ذلك اليوم الذى خربت فيه بيت المقدس أن يسبى كل يوم منهم سبى ، يفعل ذلك من أطاف ببلادهم من الأمم ، فلا [يأتى] يوم من أيام العالم إلا والسبى واقع بهم ، مثل ذلك أو أكثر .

دو بطياس

ثم ملك الروم بعدهما « دو بطياس[١] » خمس عشرة سنة ، عابدا للتماثيل معظما لها ، ولتسع سنين من ملكه نفى يوحنا التلميذ أحد الأربعة من أصحاب الإنجيل إلى بعض جزائر البحر ، ثم رده بعد ذلك .

جماعة من ملوك الروم

ثم ملك بعده « بيرنوس » سنة .

ثم ملك بعده « طريانوس » سبع عشرة سنة[٢] يعبد الأصنام ، ولتسع سنين خلت من ملكه مات يوحنا التلميذ .

ثم ملك بعده «أدريانس » إحدى عشرة سنة ، يعبد التماثيل ، وخرب سائر ما بنى بنو إسرائيل بالشام .

ثم ملك بعده « أبطولبس » برومية ثلاثا وعشرين سنة ، وبنى بيت المقدس وسماه إيليا ، وهو أول من سماه بهذا الاسم إيليا .

ثم ملك بعده «مرقس» سبع عشرة سنة[٢] يعبد الأصنام .

ثم ملك بعده « فرمودش » يعبد الأوثان ، ثلاث عشرة سنة .

ثم ملك بعده « سويرس » ثمان عشرة سنة .

[ثم ملك بعده ولد له يقال له « أبطونيس » يعبد التماثيل ، سبع سنين][٣] .

---

(١) فى ب « ذونسطاس » . (٢) فى ا « تسع عشرة سنة » .

(٣) لا توجد هذه الزيادة فى ا .

ثم ملك بعده « أبطونيس[١] » الثانى ، أربع سنين ، يعبد التماثيل فى آخر ملك هذا الملك مات جالينوس الطبيب .

ثم ملك بعده « الإسكندر ماماياس » وتفسير ماماياس العاجز ، وكان يعبد التماثيل ، وكان ملكه ثلاث عشرة سنة .

ثم ملك بعده « مقسمس » يعبد التماثيل ، وكان ملكه ثلاث سنين .

ثم ملك بعده « غردانس » يعبد التماثيل[٢] ، ست سنين .

دقيوس وأصحاب الكهف

ثم ملك بعده « دقيوس[٣] » يعبد الأوثان ، ستين سنة ، وأمعن فى قتل النصرانية ، وطلبهم ، ومن هذا الملك هرب أصحاب الكهف[٤] ، وقد اختلف الناس فى أصحاب الكهف والرقيم : فمنهم من رأى أن أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم ، وزعموا أن الرقيم هو ما رقم من أسماء أهل الكهف فى لوح من حجر على باب تلك المغارة ، ومنهم من رأى أن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف ، وقد ذكرنا كلا الوضعين بأرض الروم ، وقد حكى أحمد بن الطيب[٥] ابن مروان السرخسى تلميذ يعقوب بن إسحاق الكندى عن محمد بن موسى المنجم ــ حين أنفذه الواثق بالله من سُرَّ مَنْ رَأَى إلى بلاد الروم حتى أشرف على أصحاب الرقيم ، وهو الموضع المعروف من بلاد الروم بخارمى[٦] ، وقد ذكرنا فى الكتاب الأوسط قصة أصحاب الكهف ، وموضعهم ، وكيفية أحوالهم ،

---

(١) فى هذه الأسماء كلها اختلاف كثير ، وقد نبهنا على بعضه ، واعتمدنا فى الآخر ما فى ا وحدها .

(٢) فى ا « يعبد الأوثان » . (٣) فى ب « يعريس » .

(٤) المعروف أن الملك الذى هرب منه أصحاب الكهف اسمه دقيانوس ، والتاريخ فى مثل هذه المواضع ليس محلا للثقة والجزم ؛ فلا معنى لوقوفنا التحقيق مثل هذه المباحث ، والقرآن نفسه لم يتعرض لاسمه ولا زمنه ولا مكانه .

(٥) فى ب « أحمد بن الطيب عن مروان » .

(٦) فى ب « بخارى » .

إلى هذه الغاية ، وخبر أصحاب الرقيم ، وما حكاه محمد بن موسى المنجم من خبرهم ، وما لحقه من الموكل بهم حين أراد قتله بالسم ، وقتل من كان معه من المسلمين ، وأخبرنا عن [خبر] السد الذى بناه ذو القرنين مانعاً ليأجوج ومأجوج .

قال المسعودى : ووجدت فى كتاب صور الأرض ، وما عليها من الأبنية المعظمة والهياكل المشيدة ، قد صور مقدار عرض السد فيما بين الجبلين دون الطول والذهاب فى الصعد تسع درج ونصف من درج الفلك ؛ فمقدار ذلك من الجبل إلى الجبل خمسون ومائة فرسخ ، وهذا عند جماعة من أهل النظر والبحث مستحيل كونه ، وقد أنكر ذلك محمد بن كثير الفَرْغَانى المنجم ، وتكلم عليه ، وبرهن على فساده ، وأفرد أحمد بن الطيب[1] الذى قتله المعتضد بالله لما ذكرنا من الكهف والرقيم رسائل ، وقد أتينا على جميع ما قيل فى ذلك فى كتابنا المترجم بالكتاب الأوسط .

[ثم ملك « جالنوس » ثلاث سنين[2] .

ثم ملك بعده « يدنوس » نحواً من عشرين سنة ، وقيل : خمس عشرة سنة .

[ثم ملك بعده « فورس » نحواً من عشرين سنة][3]

ثم ملك بعده ولد له يقال له « فارس » نحواً من سنتين .

ثم ملك بعده « قليطانس » عشر سنين .

ثم ملك بعده « قسطنطين » .

---

(١) فى ب « وأفرد محمد بن الطيب » .
(٢) لا يوجد ما بين المعقوفين فى ب
(٣) هذه العبارة لا توجد فى ا .

عدد ملوك الروم ، ومدة ملكهم

قال المسعودى : والذى وجدت فى الأكثر من كتب التواريخ مما اتفقوا عليه أن عدة ملوك الروم الذين ملكوا بمدينة رومية ، وهم الذين قدمنا ذكرهم فى هذا الباب ، تسعة وأربعون ملكا ، وجميع عدد سنى ملكهم من أول ملك ملكهم على حسب ما ذكرنا من الخلاف فى صدر هذا الكتاب إلى قسطنطين هذا ، وهو ابن هلانى ، أربعمائة وسبع وثلاثون سنة وسبعة أشهر وسبعة أيام[1] ، ونسخ كتب التواريخ فى هذا المعنى مختلفة ، غير متفقة فى أسماء ملوكهم ، ومدة ملكهم ، وأكثرها بالرومية ؛ فحكينا من ذلك ما تأتى [لنا] وصفه ، ولهؤلاء الملوك أخبار وسير ، هى موجودة فى كتب النصارى الملكية ، وقد أتينا على مبسوطها ، والغرض منها فى كتابنا « أخبار الزمان » وما شيَّدوا من البنيان ، وما كان لهم فى هذا العالم من الأسفار ، وبالله التوفيق .

---

(١) فى ا « وستة أيام » .

ذكر ملوك الروم المتنصرة ، وهم ملوك القسطنطينية

ولمع من أخبارهم

قسطنطين وبناء القسطنطينية

ملك قسطنطين بعد أن هلك قليطانس برومية ، وهو يعبد الأوثان ، وكان أول ملك انتقل من ملوك الروم عن رومية إلى بوزنطيا ، وهى مدينة القسطنطينية فبناها ، وسماها باسمه إلى وقتنا هذا ، وكان له فى بنائها خبر ظريف مع بعض ملوك برجان ؛ لخوفٍ داخله من بعض ملوك ساسان ، وكان خروجه من رومية ، ودخوله فى دين النصرانية ، لسنة خلت من ملكه ؛ ولتسع سنين خلت من ملكه[1] خرجت أمة «هلانى» إلى أرض الشام ، فبنت الكنائس ، وسارت إلى بيت المقدس ، وطلبت الخشبة التى صلب عليها المسيح عندهم ، فلما صارت إليها حلّتها بالذهب والفضة ، واتخذت لوجودها عيداً ، وهو عيد الصليب ، وهو لأربع عشرة تخلو من أيلول ، وفيه تفتح الترع والخلجانات ببلاد مصر ، على حسب ما نورده عند ذكرنا لأخبار مصر من هذا الكتاب ، وهى التى بنت كنيسة حمص على أربعة أركان ، وذلك من عجائب بنيان العالم ، واستخرجت الكنوز والدفائن بمصر[3] والشام ، وصرفت ذلك إلى بناء الكنائس ، وتشييد دين النصرانية ، وكل كنيسة بالشام ومصر و بلاد الروم ؛ فإنها بنتها هذه الملكة « هلانى » أم قسطنطين ، وجعل اسمها مع الصليب فى كل كنيسة لها ، وليس للروم فى أحرفهم هاء ، وأحرف «هلانى» خمسة أحرف ، فالأول إمالة ، وهو بحساب الجمل خمسة ، والثانى — وهو اللام — ثلاثون ، والثالث إمالة أيضاً ، وهى خمسة أيضاً ، والرابع النون وهى خمسون ، والخامس ياء ، وهو فى حساب الجمل عشرة ؛ فذلك مائة اختصاراً على ما ذكرنا ، وهذه صورة

---

(١) فى ب « فليطاليس » . (٢) فى ا « ولسبع سنين خلت من ملكه » .

(٣) فى ا « من مصر والشام » .

الحرف الذى هو مائة بالرومية ، ولتسع عشرة سنة[١] خلت من ملك قسطنطين ابن هلانى اجتمع ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً بمدينة نيقية بأرض الروم ، فأقاموا دين النصرانية ، وهذا الاجتماع أول الاجتماعات الستة [التى يذكرها الروم فى صلواتهم ويسمونها القوانين ، ومعنى هذه الاجتماعات الستة][٢] بالرومية السنودسات[٣] ، واحدها سنودس ؛ فالأول بنيقية على ما ذكرنا من العدد ، وكان الاجتماع فيه على أريوس ، وهذا اتفاق من سائر أهل دين النصرانية من الملكية والمشارقة ، وهم العباد الذين تسميهم الملكية وعامة الناس النسطورية ، واتفاق من اليعاقبة على هذا السنودس أيضاً ؛ والسنودس الثانى بالقسطنطينية على مقدونس ، وعدة المجتمعين فيه من الأساقفة مائة وخمسون رجلا ، والسنودس الثالث بأفسوس وعددهم مائتا رجل ؛ والسنودس الرابع بخلقدونية[٤] ، وعددهم ستمائة وستون رجلا ، والسنودس الخامس بقسطنطينية ، وعددهم مائة وستة[٥] وأربعون رجلا ، والسنودس السادس كان فى مملكة المدائن ، وعددهم مائتان وتسعة وثمانون رجلا ، وسنذكر بعد هذا الموضع فى ترتيب ملوك الروم هذه السنودسات ، وغلبة دين النصرانية ، وزوال عبادة التماثيل والصور .

السنودسات (الاجتماعات) الستة

سبب تنصر قسطنطين

وكان السبب فى دخول قسطنطين بن هلانى فى دين النصرانية والرغبة فيه أن قسطنطين خرج فى بعض حروب برجان ، أو غيرهم من الأمم ، وكانت الحرب بينهم سجالا نحواً من سنة ، ثم كانت عليه فى بعض الأيام ، فقتل من أصحابه خلق كثير ، نخاف البوار ، فرأى فى النوم كأن رماحا نزلت من السماء ، فيها عذاب ، وأعلاماً على رؤوسها صلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس ، وأنواع الجواهر [والخشب] وقيل له : خذ هذه الرماح ، وقاتل بها عدوك تنصر ، فجعل يحارب بها فى النوم ، فرأى عدوه منهزماً ،

---

(١) فى ا « ولسبع عشرة سنة » . (٢) زيادة عن ا وحدها .
(٣) فى ب « السندوسات واحدها سندوس » .
(٤) فى ا « مخلقودية » . (٥) فى ا « مائة وستون رجلا » .

وقد نصر عليه ، وولاه الدبر ، فاستيقظ من رقدته ، ودعا بالرماح فركب عليها ما ذكرنا ، ورفعها[1] فى عسكره ، وزحف إلى عدوه ، فولوا وأخذهم السيف ، فرجع إلى مدينة نيقية ، وسأل من أهل الخبرة عن تلك الصلبان ، وهل يعرفون ذلك فى شىء من الآراء والنحل ؟ فقيل له : إن بيت المقدس من [أرض] الشام مجمع لهذا المذهب ، وأخبر بما فعل مَنْ قبله من الملوك من قتل النصرانية ، فبعث إلى الشام ، وإلى بيت المقدس ، فحشد له ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً ، فأتوه وهو بنيقية ، فقص عليهم أمره ، فشرعوا له دين النصرانية ، فهذا هو السنودس[2] الأول ، وهو الاجتماع على ما ذكرنا ، وقد قيل : إن أم قسطنطين هلانى كانت قد تنصرت وأخفت ذلك عنه قبل هذه الرؤيا .

وكان ملك قسطنطين إلى أن هلك إحدى وثلاثين سنة ، وفى وجه آخر من التاريخ أنه ملك خمساً وعشرين سنة ، وقد أتينا على أخباره وحروبه وخروجه مرتاداً لموضع القسطنطينية ، ووروده إلى هذا الخليج الآخذ من بحر مايطس ونيطس فى كتابنا « أخبار الزمان » وفى الكتاب الأوسط ، وإن خليج القسطنطينية يأخذ من هذا البحر ، ويجرى فيه الماء جريا ، ويصب إلى بحر الشام ، ومسافة هذا الخليج ثلثمائة وخمسون ميلا ، وقيل : أقل من ذلك ، وعرضه فى الموضع الذى يأخذ من بحر مايطس نحو من عشرة أميال ، وهناك عمائر ، ومدينة للروم تدعى سباه[3] ، تمنع من يرد فى هذا البحر من مراكب الروس ، وغيرها ، ثم يضيق هذا الخليج عند القسطنطينية ، فيصير عرضه — وهو موضع العبور من الجانب الشرقى إلى الموضع الغربى الذى فيه القسطنطينية — نحواً من أربعة أميال ، وعليه العمائر ، وينتهى فى ضيقه إلى الموضع المعروف بالأندلس ، وهناك جبال وعين ماء كثير ، ماؤها موصوف ، تعرف بعين مَسْلمة بن عبد الملك وكان

(١) فى ب « ودفعها فى عسكره » .
(٢) فى ب « السندوس » وكذلك فى كل ماسبق .
(٣) فى ا « تدعى مسناة » .

نزوله عليها حين حاصر القسطنطينية ، وأتته مراكب المسلمين ، وفم هذا الخليج مما يلى بحر الشام ، ومنتهى مصبه مضيق ، وهناك برج يمنع من فيه من يرد من مراكب المسلمين فى الوقت الذى كانت للمسلمين فيه مراكب تغزو الروم ، وأما الآن فمراكب الروم تغزو بلاد الإسلام ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وأخبرنى أبو عمير عدىُّ بن أحمد[1] بن عبد الباقى الأزدِى — وهو شيخ الثغور الشامية قديماً وحديثاً إلى وقتنا هذا ، وهو من أهل التحصيل — أنه لما عبر إلى القسطنطينية فى هذا الخليج حين دخل لإقامة الهدنة والفداء كان يتبين جرية هذا الماء وتردده[2] مما يلى بحر مايطس ، وربما يتبين فى الماء الذى يلى بحر الشام فيجده فاتراً ، وهذا يدل على اتصال ماء هذين البحرين ، وأنه قد دخل فى بحر الروم إلى هذا الخليج أيضاً ، وسمعت غير واحد من أهل التحصيل ممن غزا غزاة سلوقية مع غلام زرافة[3] —وقد كانوا قد دخلوا إلى خليج القسطنطينية ، وساروا فيه مسافة بعيدة— أنهم وجدوا الماء فى هذا الخليج يقل فى أوقات من الليل والنهار ويكثر كالمد والجزر ، وعليه العمائر والمدن ، فلما أحسوا بنقص الماء بادروا بالخروج منه إلى البحر الرومى ، وأن فى مدخله من بحر الروم مدينة تقرب من فم الخليج ، والخليج يطيف بالقسطنطينية من جهتين مما يلى الشرق ومما يلى الشمال ، وفى الجانب الجنوبى البر[4] ، وفيه باب الذهب مطلى على صفائح النحاس ، [وهو عدة أسوار مما يلى الغرب ، وفيه قصر][5] وأعلى أسوارها الغربية نحو من ثلاثين ذراعاً ، وقد ذكر أنه أقل من ذلك ، وأن أقصر موضع فيه عشرة أذرع ، [وأعلى موضع من سورها ما كان مما يلى الجنوب ، فأما ما كان مما يلى الخليج فسور واحد ، وفيه قصر وبواشير وأبراج كثيرة]، ولها أبواب كثيرة مما يلى البر والبحر ، وحولها كنائس كثيرة ، وقد قيل : إن لها ثلاثين بابا ، ومنهم من زعم أن عليها مائة باب صغاراً وكباراً وهو بلد عفن مختلف المهابِّ مرطب للأبدان لكونه بين ما وصفنا من هذه البحار

(١) فى ب « عدى بن حاتم بن عبد الباقى الأزدى » .

(٢) فى ب « وبرده » . (٣) فى ب «غلام أزارقة » .

(٤) فى ا « ويلى منها الجانب الغربى البر» . (٥) لاتوجد هذه العبارة فى ب

قال المسعودي : ولم تزل الحكمة باقية عالية[1] زمن اليونانيين ، وبرهة من مملكة الروم ، نعظم العلماء وتشرف الحكماء ، وكانت لهم الآراء في الطبيعيات والجسم والعقل والنفس ، والتعاليم الأربعة ـ أعني : الإرتماطيقي ، وهو علم الأعداد والجو مطريقي ، وهو علم المساحة والهندسة ، والاسترنوميا ، وهو علم النجوم ، والموسيقى وهو علم تأليف اللحون ـ ولم تزل العلوم قائمة السوق ، مشرقة الأقطار[2] قوية المعالم ، شديدة المقاوم ، سامية البناء ، إلى أن تظاهرت ديانة النصرانية في الروم ، فعفوا معالم الحكمة ، وأزالوا رسمها ، ومحوا[3] سبلها ، وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته ، وغيروا ما كانت القدماء منهم أوضحته .

الموسيقى وشرفها

وكان من شريف ما تركته المعرفة بعلم الموسيقى ؛ لأنه غذاء للنفس ، ومطرب لها ، وملهيها ، تبتهج عند سماعه ، وتحنُّ إلى تأليف أوضاعه ، وقد نطقت الحكماء بشرفه ، ونبهت على نفاسة محله ، فقال الإسكندر : مَنْ فهم الألحان استغنى عن سائر اللذات ، وقد قالت الفلاسفة : إن النغم [والأغاني] فضيلة شريفة كانت تعذرت[4] عن المنطق ليست في قدرته ، فلم يقدر على إخراجها ، فأخرجتها النفس ألحاناً ، فلما أظهرتها سُرَّتْ بها وعشقتها وطربت إليها ، ورتبت الحكماء الأوتار الأربعة بإزاء الطبائع الأربع ، فجعلوا الزير بإزاء المرة الصفراء ، والمثنى بإزاء الدم ، والمثلث بإزاء البلغم والبم بإزاء [المرَّة] السوداء ، وقد أشبعنا القول في الموسيقى وأصحاب الملاهي والإيقاع وأصناف الرقص والطرب والنغم ونسب النغم وما استعملته كل أمة من الأمم ، من أصناف الملاهي ، من اليونانيين والروم والسريانيين والنبط والسند والهند والفرس وغيرهم من الأمم ، وذكرنا مناسبة النغم للأوتار ، وممازجة النفس والألحان وكيفية تولد الطرب وأنواع السرور[5] وذهاب الغم وزوال الحزن ، وعلل

(١) في ا « نامية عاليه » . (٢) في ا « مشرقة الأقطار »
(٣) في ب « وعفوا سبلها » . (٤) في ا « كانت تغيب عن المنطق »
(٥) في ا « وإيقاع السرور » .

ذلك الطبيعية والنفسية ، وما أحاط بذلك من جميع الوجوه، فى كتابنا المترجم بكتاب « الزلف » وأتينا على ظريف أخبارهم وأنواع لهوهم وملاهيهم فى كتاب «أخبار الزمان» وفى الكتاب الأوسط، فأغنى ذلك عن إعادته ههنا ؛ إذ هذا الكتاب فى غاية الإيجاز ، وإن سنح لنا سانح ذكرنا لمعاً من هذه الجوامع فيما يرد من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، وإن تعذر ذلك فقد قدمنا التنبيه على ما سلف من كتبنا ، على الشرح والإيضاح .

قسطنطين

ثم ملك الروم بعد قسطنطين بن هلانى الملك المتنصر « قسطنطين بن قسطنطين » وهو ابن الملك الماضى ، وكان ملكه أربعاً وعشرين سنة ، وبنى كنائس كثيرة ، وشيد دين النصرانية

اليانس

ثم تملك ابن أخى قسطنطين الأول « اليانس »[1] فرفض دين النصرانية، ورجع إلى عبادة الأوثان ، وهو اليانس[1] المعروف بالحنيفى . وأهل دين النصرانية لبغضهم فيه لرجوعه عن النصرانية وتغييره لرسومها يسمونه «اليانس» البزطاط[2] وغزا العراق فى ملك سابور بن أردشير بن بابك، فأتاه سهم غَرْب فذبحه ، وقد كان سار إلى العراق فى جنود لا تحصى ، ولم يكن لسابور حيلة فى دفعه ولقائه لفاجأته إياه ، فانصرف سابور عن اللقاء إلى الحيلة [فى دفعه] وكان من أمره ما وصفنا [من سهم الغرب] . وكان ملكه إلى أن هلك سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، وهو الملك الثالث من بعد ظهور دين النصرانية .

يونياس

ولما هلك اليانس جزع مَنْ كان معه من الملوك ، والبطارقة، والجيوش، ففزعوا إلى بطريق كان معظما فيهم ، يقال له يونياس[3]، وقيل: إنه [كان] كاتب الماضى ، فأبى عليهم أن يتملك إلا أن يرجعوا إلى دين النصرانية، فأجابوه إلى ذلك

---

(١) فى ب « بوليانس » (٢) فى ب « البرباط »
(٣) فى ب « مريناس »

وضايق سابور القوم ، وأحاط بعساكرهم؛ فكان ليونياس مع سابور مراسلات ومهادنة واجتماع ومحادثة ومعاشرة، ثم افترقا، وانصرف بجيوش النصرانية مُوَادعا لسابور ، وأخلف عليه ما أتلف من أرضه بأموال حملها إليه، وهدايا من لطائف الروم ، وشيد[هيا كل فى] دين النصرانية ، وردها إلى ما كانت عليه ، ومنع من الأصنام والتماثيل ، وقتل على عبادتها ، وكان ملكه سنة .

ثم ملك بعده « أوالس »(١) وهو على دين النصرانية، ثم رجع عنها، وهلك فى بعض حروبه ، وكان ملكه إلى أن هلك أربع عشرة سنة

يقظة أهل الكهف

وقيل: إن فى أيامه استيقظ أصحاب الكهف من رَقْدَتهم على حسب ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم بَعَثُوا أحدهم بِوَرِقِهِمْ إلى المدينة، وهذا الموضع من أرض الروم فى الشمال ، وللناس ممن عنى بعلم الفلك فى ازورار الشمس عن كهفهم فى حال طلوعها وغروبها لموضعهم من الشمال كلام كثير ، وقد أخبر الله تعالى فى كتابه [عن] ذلك فقال (وترى الشمس إذا طلعت تَزَاوَرُ عن كهفهم ـ الآية) وكانوا من أهل مدينة أفسيس(٢) من أرض الروم .

غراطياس

ثم ملك بعد أوالس « غراطياس »(٣) خمس عشرة سنة ، ولسنة من ملكه كان اجتماع النصرانية، وهو أحد الاجتماعات فأتموا القول(٤) فى روح القدس عندهم وأحرقوا مقدونس بطريق القسطنطينية ، وهو السنودس الثانى .

تدوسيس

ثم ملك بعده «تدوسيس»(٥) الأكبر، وتفسير هذا الاسم عندهم عطية الله وقام بدين النصرانية ، وعَظَّم منها ، وبنى كنائس ، ولم يكن من أهل بيت الملك ولا من الروم ، وإنما كان أصله من الأشبان ، وهم بعض الأمم السالفة، وقد كانت ممن ملك الشام ومصر [والمغرب] والأندلس، وقد تنازع الناس فيهم: فذكر الواقدى

---

(١) فى ب « أوانيس » . (٢) فى ب « أفسس » .
(٣) فى ب « عرامطنامس » (٤) فى ب « باسم القوم فى روح القدس»
(٥) فى ب « بدرسيس » .

في كتابه فنوح الأمصار أن بدأهم من أهل أصبهان، وأنهم ناقلة من هنالك، وهذا يوجب أنهم من قبل ملوك فارس الأولى ، وذكر عبيد الله[١] بن خرداذبه نحو ذلك وساعدهما على ذلك جماعة من أهل السير والأخبار ، والأشهر من أمرهم أنهم من ولد يافث بن نوح ، وهم ملوك الأندلس من اللذارقة[٢] واحدهم لذريق، وقد تنوزع في دياناتهم: فمنهم من رأى أنهم كانوا على دين المجوس، ومنهم من رأى أنهم كانوا على مذهب الصابئة وغيرهم من عبدة الأصنام ، وقد قلنا : إن الأشهر من أنسابهم أنهم من ولد يافث بن نوح ، فكان مدة ملك ندوسيس إلى أن هلك عشر سنين[٣] .

جماعة من ملوكهم

ثم ملك بعده «أرقاديس»[٤] أربع عشرة سنة ، وكان على دين النصرانية.

ثم ملك بعده ابنه «تدوسيس» الأصغر ، وذلك بمدينة أفسيس، وجمع مائتي أسقف ، وهذا الاجتماع الثالث الذي قدمنا ذكره آنفاً ؛ ولعن فيه نسطورس البطرك؛ وقد ذكرنا في كتابنا «أخبار الزمان» الحيلة التي وقعت على نسطورس بطرك القسطنطينية من صاحب الكرسي بالإسكندرية، وما كان من نسطورس، ونفيه ليوحنا المعروف بالراهب[٥]، وما كان من يدوقيا[٦] زوجة الملك إلى أن نفي نسطورس من القسطنطينية إلى أنطاكية ثم منها إلى صعيد مصر، والمشارقة من النصارى أضيفوا إلى نسطورس لأنهم اتبعوه وقالوا بقوله ، وإنما سمتهم الملكية بهذا الاسم لتعيّرهم وتعييهم بذلك ، وقد كانت المشارقة بالحيرة وغيرها من الشرق تُدْعَى بالعِبَاد، وسائر نصارى المشرق يأبون هذه الاضافة إلى نسطورس، ويكرهون أن يقال لهم نسطورية ، وقد أيد برصوما. مطران نصيبين رأى المشارقة في الثالوث ، وهو الكلام في الأقاليم الثلاثة والجوهر الواحد

---

(١) في ب « عبد الله » .

(٢) في ب « وهم الأزارقة واحدهم أزريق » .

(٣) في ا « سبع عشرة سنة » .

(٤) في ب « أوباديس » .

(٥) في ا « المعروف بفم الذهب » .

(٦) في ب « بذريا »

وكيفة اتحاد اللاهوت القديم بالناسوت المُحْدَث ، وكان ملك تدوسيس الأصغر إلى أن هلك اثنتين وأربعين سنة .

ثم ملك بعده « مرقيانوس » ، ثم ملك الروم « باخاريا » زوجة مرقيانوس[١] ، وكانت ملكة معه ، وفى أيامها كان خبر اليعاقبة من النصارى ، ووقوع الخلاف بينهم فى الثالوث ؛ فكان ملكها سبع سنين ، وأكثر اليعاقبة بالعراق وبلاد تكريت والموصل والجزيرة ومصر وأقباطها إلا اليسير فإنهم ملكية ، والنوبة والأرمن يعاقبة ، ومطران اليعاقبة بتكريت بين الموصل وبغداد ، وقد كان لهم بالقرب من رأس العين واحد فمات ، وصاحبهم اليوم بناحية حلب ببلاد قنسرين والعواصم ، وكرسى اليعاقبة رسمه أن يكون بمدينة أنطاكية ، وكذلك لهم كرسى بمصر ، ولا أعلم لهم غير هذين الكرسيين ، وهما مصر وأنطاكية .

اليعاقبة

ثم ملك بعدهما «اليون» الأصغر بن اليون[٢] ، وكان ملكه ست عشرة سنة ، وفى أيامه أحرم مسعرة اليعقوبى[٣] بطرك الإسكندرية ، واجتمع له من الأساقفة ستمائة وثلاثون أسقفاً[٤] ، وفى تاريخ الروم أن عدة المجتمعين ستمائة وستون رجلا ، وذلك بخلقدونية[٥] ، وهذا الاجتماع هو السنودس الرابع عند الملكية ، واليعاقبة لا تعتد بهذا السنودس ، ولهم خبر ظريف فى قصة سوارى البطرك ، وما كان من أمره ، وخبر تلميذه يعقوب البراذعى[٦] ، ودعوته إلى مذهب سوارى ، واليعاقبة أضيفت إلى مذهب يعقوب البراذعى[٦] هذا ، وبه عرفت ، وكان من أهل أنطاكية يعمل البراذع .

ثم ملك بعده اليون الأصغر ابن اليون ، سنة على دين الملكية .

(١) ا « مرفيانوس وزوجته بلخاريا ، وكانت ملكه . وفى أيامها ــ إلخ »
(٢) فى ا «اليون الأكبر بن اليون » . (٣) فى ا « بسفرة اليعقوبى »
(٤) فى ب « ستمائة وستون أسقفا » واتفقت النسختان فى العدد بعده .
(٥) فى ا « بخلقودية » . (٦) فى ا « البردعائى »

ثم ملك بعده « زينو »[١] ، وهو من بلاد الأرمينيان ، وكان يذهب إلى رأى اليعقوبية ، وكان ملكه سبع عشرة سنة ، وكانت له حروب مع خوارج خرجوا عليه فى دار الملك ، فظفر بهم .

ثم ملك بعده « نسطاس » وكان يذهب إلى مذهب اليعقوبية ، وبنى مدينة عمورية ، وأصاب كنوزاً ودفائن عظيمة ، وكان ملكه إلى أن هلك تسعاً وعشرين سنة .

ثم ملك بعده « يوسطاناس »[٢] تسع سنين .

ثم ملك بعده « يوسطانياس »[٣] تسعاً وثلاثين سنة ، وقيل : أربعين ، وبنى كنائس كثيرة ، وشيد دين النصرانية ، وأظهر مذهب الملكية ، وبنى كنيسة الرها ، وهى إحدى عجائب العالم ، والهياكل المذكورة ، وقد كان فى هذه الكنيسة منديل يعظمه النصارى ، وذلك أن يسوع الناصرى — حين أخرج من ماء المعمودية — تنشف به ؛ فلم يزل هذا المنديل يتداول إلى أن قرر بكنيسة الرها ؛ فلما اشتد أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرها فى هذه السنة — وهى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — أعطى هذا المنديل للروم ، فجنحوا إلى الهندنة ، وكان للروم عند تسلمهم هذا المنديل فرح عظيم .

ثم ملك بعده ابن أخيه « نوسطيس »[٤] ثلاث عشرة سنة ، على رأى الملكية

ثم ملك بعده « طباريس » أربع سنين ، وأظهر فى ملكه أنواعاً من اللباس والآلات وآنية الذهب والفضة وغير ذلك من آلات الملوك .

ثم ملك بعده «موريقس» عشرين سنة ، ونصر كسرى أبرويز على بهرام

(١) فى ب « يبر » . (٢) فى ب « يوسطيانوس » .
(٣) فى ب « سطابانس » . (٤) فى ب « فرسطيس »

جوبين[١] ، فقتل غيلة[٢] ؛ وبعث أبرويز غضباً له بجيوش إلى الروم ، وكانت لهم حروب على حسب ما قدمنا .

ثم ملك بعده « فوقاس »[٣] ثمان سنين إلى أن قتل أيضاً .

ثم ملك بعده « هرقل » وكان بطريقاً فى بعض الجزائر قبل ذلك ، فعمَّرَ بيت المقدس ، وذلك بعد انكشاف الفرس عن الشام ، وبنى الكنائس ، ولسبع سنين من ملكه كانت هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة شَرَّفَهَا الله تعالى .

(١) فى ب « على بهرام جور »

(٢) فى ا « فقتل بحيلة »

(٣) فى ب « قرماس ».

ذكر ملوك الروم بعد ظهور الإسلام

ملك الروم في عهد مولد رسول الله

قال المسعودى : وَجَدْتُ فى كتب التواريخ تنازعاً فى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى عصر مَنْ كان من ملوك الروم : فمنهم مَنْ ذهب إلى ماقدمنا من مولده وهجرته ، ومنهم من رأى أن مولده عليه الصلاة والسلام كان فى ملك بوسطينوس[1] الأول ، وكان ملكه تسعاً وعشرين سنة .

ثم ملك « بوسطينوس » الثانى ، وكان ملكه عشرين سنة .

[ثم ملك «هرقل» بن بوسطينوس ، وهو الذى ضرب الدنانير والدراهم الهرقلية ، وكان ملكه خمس عشرة سنة .

ثم ملك بعده ابنه « مورق » بن هرقل][2] .

والذى فى كتب الزيجات فى النجوم وعليه يعمل أهل الحساب ، وفى تواريخ ملوك الروم ممن سلف وخلف ، أن ملك الروم كان فى وقت ظهور الإسلام وأيام أبى بكر وعمر «هرقل» وليس هذا الترتيب فيما عداها من كتب التواريخ وأصحاب الأخبار والسير ، إلا فى اليسير منها ، وفى تواريخ أصحاب السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر وملكُ الروم قيصر بن مورق[3] .

فى عهد خلفاء الإسلام

ثم ملك بعده « قيصر » بن قيصر ، وذلك فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ثم ملك على الروم « هرقل » بن قيصر ، وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو الذى حاربه أمراء الإسلام الذين فتحوا الشام مثل أبى عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبى سفيان وغيرهم من أمراء الإسلام ، حين أخرجوه من الشام .

وكان الملك على الروم «مورق» بن هرقل فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه

---

(١) فى ب « بوسطورس » (٢) مابين المعقوفين عن ا وحدها

(٣) فى ا « قيصر بن فوق »

في عهد على

ثم ملك « مورق » بن مورق[1] فى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأيام معاوية بن أبى سفيان .

فى عهدمعاوية

ثم ملك بعده [قلفط] بن مورق[2] بقية أيام معاوية ، وكان بينه وبين معاوية مراسلات ومهادنات ، وكان المختلف بينهما فناق الرومى[3] غلام كان لمعاوية ، وقد كان معاوية هادَنَ أباه مورق بن مورق حين سار إلى حرب على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان بَشَّره بالملك ، وأعلمه أن المسلمين تجتمع كلمتهم على قتل صاحبهم يعنى عثمان ، ثم يؤول الملك إلى معاوية، وقد كان معاوية يومئذ أميراً على الشام لعثمان فى خبر طويل قد أتينا على ذكره فى الكتاب الأوسط ، وأن ذلك من علم الملاحم يتوارثه ملوك الروم عن أسلافهم ، وكان ملك قلفط بن مورق[2] فى الآخر من أيام معاوية وأيام يزيد بن معاوية وأيام معاوية بن يزيد وأيام مروان بن الحكم وصدراً من أيام عبد الملك بن مروان .

فى عهد الدولة المروانية

ثم ملك «لاون» بن قلفط[4] فى أيام عبد الملك بن مروان ، وكان الملك بعده « جيرون » بن لاون فى أيام الوليد بن عبد الملك وأيام سليمان بن عبد الملك وخلافة عمر بن عبدالعزيز ، ثم اضطرب ملك الروم لما كان من أمر مَسْلَمة بن عبد الملك وغَزْو المسلمين إياهم فى البر والبحر ، فملكوا عليهم رجلا من غير أهل بيت الملك من أهل مرعش، يقال له «جرجيس» ، وكان ملكه تسع عشرة سنة .

فى عهد الدولة العباسية

ولم يزل ملك الروم مضطربا إلى أن ملكهم « قسطنطين » بن اليون ، وذلك فى خلافة أبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور أخيه ، ثم ملك بعده «اليون» بن قسطنطين ، وذلك فى أيام المهدى والهادى ، ثم ملك بعده «قسطنطين» بن اليون ، وكانت أمه أريش[5] ماسكة معه ، مشاركة له فى

(١) فى ا « فوق بن مورق » .
(٢) فى ا « فلنط بن فوق » .
(٣) فى ب « بناق الرومى » .
(٤) فى ا « لاوى بن فلنط »

الملك ، لصغر سنه فى أيام هارون الرشيد ، فمات قسطنطين بن اليون وسملت عينا أمه بعد ذلك لأخبار يطول ذكرها ، ثم ملك على الروم « يعفور »[١] ابن اسدراق[٢] ، وكانت بينه وبين الرشيد مراسلات ، وغزاه الرشيد ، فأعطاه القود من نفسه بعد بغى كان منه فى بعض مراسلاته ، فانصرف الرشيد عنه ، ثم غدر ونقض ما كان أعطاه من الانقياد ، وكُتم عن الرشيد أمره ، لعارض علة كان وجدها بالرقة ، وفى انقياد يعفور[١] إلى الرشيد وحَمْلِه الأموال والهدايا والضريبة إليه يقول أبو العتاهية :

إمامَ الهدى أصْبَحْتَ بالدين مَعْنيًّا ... وَأَصْبَحْتَ تسقى كل مستمطرٍ رَيَّا

لك اسمان شُقَّا من رشاد ومن هدى ... فأنْتَ الَّذِى تدعى رشيداً ومهديًّا

إذا ما سخطْتَ الشيء كان مُسَخَّطاً ... وإن ترض شيئاً كان فى الناس مرضيا

بسطت لنا شرقاً وغرباً يَدَ العلا ... فأوسعت شرقياً وأوسعت غربيا

وغَشَّيت وجه الأرض بالجود والندى ... فأصبح وجه الأرض بالجود مغشيا

وأنت ، أميرَ المؤمنين ، فتى التقى ... نشرت من الإحسان ما كان مَطْوِيًّا

قضى الله أن صَفَّى لهارون ملكه ... وكان قضاء الله فى الخلق مَقْضيا

تحببت الدنيا لهارون بالرضا ... وأصبح يعفور لهارون ذميا[٣]

فلما عوفى الرشيد من علته دخل عليه بعض الشعراء وقد هابه الناس أن يخبروه بغَدْر يعفور[١] ، فقال :

نقض ألذى أعطاكه يعفور ... فعليه دائرةُ البوار تدُور[١]

أبشر ، أمير المؤمنين ، فإنه ... فتحٌ أتاك به الإلهُ كبيرُ

---

(١) كذا فى ب ، وفى تاريخ ابن خلدون « نغفور » بالنون والغين المعجمة وفى ا ، وبعض التواريخ « نقفور » بالنون والقاف .

(٢) فى ا « بن استبرق » .

(٣) فى ا « تجلبت الدنيا » وفيها « وأصبح نقفور » .

فَتْح يزيد على الفتوح ، يؤمُّنا … بالنصر فيه لِوَاؤُكَ المنصور
فلقد تباشَرَتِ الرَّعِيَّة أن أتى … بالغدر عنه وافد وَبَشِيرُ
وَرَجَتْ بيُمْنكَ أن تُعَجِّلَ غزوةً … تشفي النفوسَ ، نَكَالُها مذكور (١)
يعفور ، إنكَ حين تَغْدِرُ أن نأى … عنك الإمام لَجَاهِلٌ مغرور
أظننت حين غدرت أنك مُفْلِتٌ … هَبِلَتْكَ أُمك ، ما ظننت غُرُور (٢)
إن الإمام على اقتسارك قادر … قَرُبَتْ دِيارك أم نأت بك دور
لَيْسَ الإمام وإن غفلنا غَافِلاً … عما يسوس بحزمه ويدير
مَلِك تَجَرَّدَ للجهاد بنفسه … فَعَدُوُّهُ أبداً به مقهور
يا من يريد رضا الإله بسعيه … والله لا يَخْفَى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يَغُشُّ إمامه … والنصح من نصحائِهِ مشكور
نُصْحُ الإمام على الأنام فريضة … ولأهله كفارة وظهور

وهي طويلة ، فلما أنشده إياها قال الرشيد : أو قد فَعَلَ ؟ وعلم أن الوزراء قد احتالوا ، فتجهز وغزاه ، ونزل على هرقلة ، وذلك فى سنة تسعين ومائة .

الرشيد يحاصر هرقلة

وأخبرنى أبو عمير عدىّ بن أحمد بن عبد الباقى الأزدى أن الرشيد لما أراد النزول على [حصن] هرقلة — وكان معه أهل الثغور ، وفيهم شيخا الثغور الشامية مخلد بن الحسين ، وأبو إسحاق الفزارى صاحب كتاب السير — فخلا الرشيد بمخلد بن الحسين ، فقال : أى شيء تقول فى نزولنا على هذا الحصن؟ فقال : هذا أول حصن لقيتَ من حصون الروم ، وهو فى نهاية المنعة [والقوة] ؛ فإن نزلت عليه وسهل الله فتحه لم يتعذر عليك فتح حصن بعده ؛ فأمره بالانصراف ، ودعا بأبى إسحاق الفزارى فقال له مثل ما قال لمخلد ، فقال : يا أمير المؤمنين هذا

---

(١) فى ا « ورجت يمينك » .
(٢) فى ب « لظننت حين غدرت » .

حصن بنته الروم فى نَحْر الدروب[١] ، وجعلته [لها] ثغراً من الثغور، وليس بالآهل ؛ فإن أنت فتحته لم يكن فيه ما يعم المسلمين من الغنائم، وإن تعذر فتحه كان ذلك نقصاً فى التدبير ، والرأى عندى أن يسير أمير المؤمنين إلى مدينة عظيمة من مدن الروم ؛ فإن فتحت عَمَّتْ غنائمها المسلمين ، وإن تعذر ذلك قام العذر ، فمال الرشيد إلى قول مخلد ، فنزل على هرقلة ، ونصب حولها الحرب تسعة عشر[٢] يوماً ، فأصيب خلق كثير من المسلمين، وفنيت الأزواد والعلوفات، وضاق صدر الرشيد من ذلك ، فأحضر أبا إسحاق الفزارى ، فقال: يا إبراهيم قد ترى ما نزل بالمسلمين ، فما الرأى الآن عندك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كنت أشفقت من هذا، وقدمت القول فيه ورأيت أن يكون الجد والحرب من المسلمين على غير هذا الحصن، وأما الآن فلا سبيل إلى الرحيل عنه من بعد المباشرة ؛ فيكون ذلك نقصاً فى الملك ، ووهناً فى الدين ، وإطماعاً لغيره من الحصون فى الامتناع عن المسلمين، والمصابرة لهم، لكن الرأى يا أمير المؤمنين أن تأمر بالنداء فى الجيش أن أمير المؤمنين مقيم على هذا الحصن إلى أن يفتحه الله عز وجل للمسلمين ، وتأمر بقطع الخشب وجمع الأحجار وبناء مدينة بإزاء هذا الحصن إلى أن يفتحه الله عز وجل ، ولا يكون هذا الخبر ينمو إلى أحد من الجيش إلا على المقام ؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «الحرب خدعة» وهذه حرب حيلة لا حرب سيف ؛ فأمر الرشيد من ساعته بالنداء ؛ فحملت الأحجار وقطع الأخشاب من الشجر ، وأخذ الناس فى البناء ؛ فلما رأى أهل الحصن ذلك جعلوا يتسللون فى الليل ، ويُدَلُّون أنفسهم بالحبال .

وفى خبر أبى عمير [بن عبد الباقى] زيادات ، منها خبر الجارية التى سباها

---

(١) فى ب « بحر الدروب » وليس بشىء .
(٢) فى ا « سبعة عشر يوما » .

الرشيد من هذا الحصن ، وهى ابنة بطريقه ، وكانت ذات حسن وجمال ، فزايد[1] فيها صاحب الرشيد فى المغنم ، وبالغ فيها حتى اشتراها له ، فبلغت من قلبه ، وبنى لها نحو الرافقة بأميال على طريق بالس حصناً سماه هرقلة [على الفرات][2] ، يحاكى به حصن هرقلة ببلاد الروم ، فى خبر طويل قد أتينا على جميعه فى كتابنا الأوسط.

وهذا الحصن باقٍ إلى هذه الغاية هنالك خراب يعرف بهرقلة .

وأخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن[3] بن دريد ، قال: أخبرنى أبو العيناء ، قال: أخبرنى شبل الترجمان ، قال: كنت مع الرشيد حين نزل على هرقلة وفتحها ، فرأيت بها حجراً[4] منصوباً مكتوباً عليه باليونانية ، فجعلت أترجمه والرشيد ينظر إلىّ ، وأنا لا أعلم ، فكانت ترجمته. « بسم الله الرحمن الرحيم ، يا ابن آدم غافص الفرصة عند إمكانها ، وكِلِ الأمور إلى وليها ، ولا يحملنك إفراط السرور على المأثم ، ولا تحمل على نفسك هم يوم لم يأت ، فإنه إن يك من أجلك وبقية عمرك يأت الله فيه برزقك ، ولا تكن من المغرورين بجمع المال ، فكم قد رأينا جامعاً لبعل حليلته ، ومقتراً على نفسه ، موفراً لخزانة غيره » وقد كان تاريخ هذا الكتاب فى ذلك اليوم زائداً على ألفى سنة .

وباب هرقلة مُطِلٌّ عَلَى وادٍ وخندق يطيف بها ، وذكر جماعة من أهل الخبرة من أهل الثغور أن أهل هرقلة لما اشتد بهم الحصار ، وعَضتهم الحرب بالحجارة والسهام والنار فتحوا الباب فاستشرف المسلمون لذلك ، فإذا رجل من أهلها كأجمل الرجال قد خرج فى أكمل السلاح ، فنادى: يا معشر العرب: قد طالت موافقتكم إيانا ، فليخرج إلىّ منكم الرجل والعشرة إلى العشرين مبارزة ، فلم يخرج إليه من الناس أحد ، ينتظرون إذْنَ الرشيد ، وكان الرشيد نائماً [فعاد الرومى إلى حصنه][2] ، فلما استيقظ

(١) فى ب « فزاد فيها » .

(٢) زيادة فى ا وحدها .

(٣) فى ا ، ب « محمد بن الحسين »

(٤) فى ا « فرأيت ببابها حجرا » .

أخبر بذلك ، فتأسف ولامَ خدمه على تركهم إيقاظَه، فقيل له: ياأمير المؤمنين، إن امتناع الناس منه [اليوم] يُطْمعه ويطغيه ويجرئه أن يخرج فى غدٍ فيطلب المبارزة ويعود لمثل قوله ، فطالت على الرشيد ليلته ، وأصبح كالمنتظر له ، إذ فتح الباب ، فإذا الفارس قد خرج ، وعاد إلى كلامه ، فقال الرشيد : مَنْ له؟ فابتدره جلة القواد ، فعزم على إخراج بعضهم ، فضجَّ أهل الثغور والمتطوعة بباب المضرب ، فأذن لبعضهم ، وفى مجلسه مخلد بن الحسين وإبراهيم الفزارى ، فدخلوا ، فقالوا : ياأمير المؤمنين، قوادك مشهورون بالبأس والنجدة، وعلو الصيت ومباشرة الحرب ومتى خرج واحدمنهم وقتل هذا العلج لم يكبر ذلك ، وإن قتله العلج كانت وصمة[1] على العسكر عظيمة، وثلمة لا تنسد ، ونحن عامة لا يرتفع لأحدمنا صيت فإن رأى أمير المؤمنين أن يختار رجلا منا يخرج إليه فَعَل ، فصوَّبَ الرشيد[2] رأيهم وقال مخلد وإبراهيم : صدقوا يا أمير المؤمنين، فأومؤا إلى رجل منهم يعرف بابن الجزرى[3] مشهور فى الثغور موصوف بالنجدة، فقال له الرشيد: أتخرج إليه؟ قال: نعم ، وأستعين بالله عليه ، فقال: أعطوه فرساً وسيفاً ورمحاً وترساً، فقال: ياأمير المؤمنين أنا بفرسى أوثق، ورمحى فى يدى أشد، ولكن قد قبلت السيف والترس. فلبس السلاح ، واستدناه الرشيد [فودعه] وأتبعه بالدعاء، وخرج معه عشرون من المتطوعة، فلما انقضَّ فى الوادى قال لهم العلج وهو يعدهم واحداً واحداً : إنما كان الشرط عشرين ، وقد ازددتم رجلا ، ولكن لا بأس ، فنادوه: ليس يخرج لك منا إلا رجل واحد ، فلما فَصَل[4] منهم ابن الجزرى[3] تأمله العلج، وقد أشرف أكثر الروم من الحصن يتأملون صاحبهم، فقال له الرومى : أتصدقنى عما أسألك

(١) فى ب « كانت وضيعة على العسكر »
(٢) فى ا « فاستصوب الرشيد الرأى »
(٣) فى ا « يعرف بابن الجرزى »
(٤) فى ا « فلما انفصل »

وهذا كلام ضعيف ولكن قد عظم قدره في ذلك الوقت للمعنى ، وعظمت لصاحبه الجائزة ، وصُبَّت الأموال على ابن الجزرى ، وقُوِّدَ ، وخُلع عليه ، فلم يقبل شيئاً من ذلك ، وسأل أن يُعْفَى ويترك على ما هو عليه ، ففى هذا يقول الشاعر أبو العتاهية :

ألا نادت هِرَقْلَة بالخراب من الملك المُوَفَّق للصواب
غدا هرُونُ يرعد بالمنايا ويبرق بالمذكَّرَةِ العضاب
ورايات يحل النصر فيها تمر كأنها مَرُّ السحاب
أميرَ المؤمنين ظفرت فاسلم وأبشر بالغنيمةِ والإياب

وللرشيد مع يعفور[1] هذا بعد ذلك أخبار كثيرة ، وقد أتينا على مبسوطها فى كتابنا الأوسط ، وما كان من خبره فى إرساله ليحيى بن الشخير حين أمره أن يتطارش على يعفور[1] ، وما كان من يعفور[1] وإخباره لبطارقته أن الرشيد بعث بهذا متصاماً ، وما طالبه ابن الشخير بدينار أو درهم عليه صورة الملك حين عرضت عليه الخزائن ، وما كان من انقياد يعفور[1] بعد ذلك إلى طاعة الرشيد، وشرطه عليه أن يحمل إليه أينما كان من ماء عين العشيرة ، هى عين البز بدون[2] ، وهى فى نهاية الصفاء والرقة ، وغير ذلك مما عنه أمسكنا طلباً للاختصار .

ثم ملك بعد يعفور[1] « استراق بن يعفور بن استراق »[3] فى أيام محمد الأمين ، فلم يزل ملكا حتى غلب على الملك قسطنطين بن قلفط[4] ، وكان ملك قسطنطين هذا فى خلافة المأمون .

ثم ملك بعده « توفيل »[5] ، وذلك فى خلافة المعتصم ، وهو الذى فتح زبطرة ، وغزاه المعتصم بالله ففتح عمورية ، وسنورد خبره فيما يرد من هذا الكتاب فى أخبار المعتصم ، إن شاء الله تعالى .

(١) فى ا هنا « نقفور » . (٢) فى ب « البديدون » .
(٣) فى ا « استبراق بن نقفور بن استبراق » .
(٤) فى ا « بن فلنط » (٥) فى ب « نطر نوفيل » .

وهذا كلام ضعيف ولكن قد عظم قدره فى ذلك الوقت للمعنى
لصاحبه الجائزة ، وصُبّت الأموال على ابن الجزرى ، وقُوِّدَ ، و
فلم يقبل شيئاً من ذلك ، وسأل أن يُعْفَى ويترك على ما هو عليه
يقول الشاعر أبو العتاهية :

ألا نادت هِرَقْلَة بالخراب من الملك المُوَفَّق للصـ
غدا هٰرُونُ يرعد بالمنايا ويبرق بالمذكَّرة ال
ورايات يحل النصر فيها تمر كأنها مَرُّ الـ
أميرَ المؤمنين ظفرت فاسلم وأبشر بالغنيمة و

وللرشيد مع يعفور[1] هذا بعد ذلك أخبار كثيرة ، وقد أتينا على
كتابنا الأوسط ، وما كان من خبره فى إرساله ليحيى بن الشخير حين
يتطارش على يعفور[1] ، وما كان من يعفور[1] وإخباره لبطارقته أن ال
بهذا متصاماً ، وما طالبه ابن الشخير بدينار أو درهم عليه صورة الملك حين
عليه الخزائن ، وما كان من انقياد يعفور[1] بعد ذلك إلى طاعة الرشيد
عليه أن يحمل إليه أينما كان من ماء عين العشيرة ، وهى عين البر
وهى فى نهاية الصفاء والرقة ، وغير ذلك مما عنه أمسكنا طلباً للا

ثم ملك بعد يعفور[1] « استراق بن يعفور بن استراق »[3] فى
الأمين ، فلم يزل ملكا حتى غلب على الملك قسطنطين بن قلفط[4]
ملك قسطنطين هذا فى خلافة المأمون .

ثم ملك بعده « توفيل »[5] ، وذلك فى خلافة المعتصم ، وهو
زبطرة ، وغزاه المعتصم بالله ففتح عمورية ، وسنورد خبره فيما يرد
الكتاب فى أخبار المعتصم ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى ا هنا « نقفور » . (٢) فى ب « البديدو...
(٣) فى ا « استبراق بن نقفور بن استبراق » .
(٤) فى ا « بن فلنط » (٥) فى ب « نظر نوفيل

ثم ملك بعده « ميخائيل بن توفيل » وذلك فى خلافة الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين .

ثم كان بين الروم تنازع فى الملك ، فملكوا عليهم « توفيل بن ميخائل ابن توفيل[١] » ثم غلب على الملك بسيل الصقلبى[٢] ، ولم يكن من أهل بيت الملك ، وكان ملكه أيام المعتز والمهتدى ، وبعض خلافة المعتمد .

[ثم ملك بعده ابنه « اليون بن بسيل » بقيَّة أيام المعتمد وصدراً من أيام المعتضد[٣]] .

ثم هلك فملكوا عليهم ابناً له يقال له « الإسكندروس » فلم يحمدوا أمره ؛ فخلعوهُ وملكوا عليهم أخاه « لاوى بن اليون بن بسيل الصقلبى[٤] » وكان ملكه بقيَّة أم المعتضد والمكتفى وصدراً من أيام المقتدر .

ثم هلك وخلف ولداً صغيراً يقال له « قسطنطين » فملك وغلب على مشاركته فى الملك « أرمنوس » بطريقُ البحر وصاحب [غَزْوه و] حروبه ، فزوَّج قسطنطينَ الصبيَّ بابنته ، وذلك فى بقيَّة أيام المقتدر وأيام القاهر والراضى والمتقى ، إلى هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ فى خلافة أبى إسحاق المتقى لله بن المقتدر .

وملوك الروم فى هذا الوقت المؤرخ ثلاثة ، والأكبر منهم والمدبر للأمور أرمنوس المتغلب ، ثم الثانى وهو قسطنطين بن لاوى بن اليون بن بسيل[٤] ، والملك الثالث ابنٌ لأرمنوس ، يخاطَبُ بالملك ، واسمه اسطفنوس[٥]

---

(١) فى ب « نوفيل بن ميخائيل بن نوفيل » .
(٢) فى ب « نسيل الصقلبى » .
(٣) مابين المعقوفين ساقط من ا .
(٤) فى ا « لاوى بن بسيل الصقلبى » وليس فيها ذكر اليون .
(٥) فى ا « واسمه اسطفانس » .

وجعل أرمنوس ابناً له آخَرَ صاحبَ الكرسيّ بالقسطنطينية ، وهو البطرك الأكبر الذي يأخذون عنه دينهم ، وقد كان خَصَاه قبل ذلك ، وقربه إلى الكنيسة ، وأمرُ الروم يدور في وقتنا هذا على من ذكرنا من ملوكهم .

قال المسعودي : وإلى هذا الوقت انتهت أخبار ملوك الروم ، على حسب ما ذكرنا ، والله أعلم ما يكون من أمرهم في المستقبل من الزمان .

مدة ملك الروم

فعدد سني ملوك الروم المتنصرة من قسطنطين بن هلاني ، وهو المظهر لدين النصرانية على ما ذكرنا ، إلى هذا الوقت ، خمسمائة سنة وسبع سنين ، والذي أجمع عليه من عدد ملوكهم — من قسطنطين إلى هذا الوقت المؤرخ — أحد وأربعون ملكا ، ولم يعد بعدُ ابن أرمنوس[1] ، ووقع العدد على قسطنطين وأرمنوس[1] اللذين هما ملكا الروم في هذا الوقت المؤرخ ، وإن أدخلنا في هذا العدد ابن أرمنوس[1] فعدد ملوك الروم من بدء النصرانية — وهو الملك قسطنطين بن هلاني — اثنان وأربعون ملكا ، في مدة هذه السنين المذكورة

وقد ذهب جماعة ممن عُنِي بأخبار العالم إلى أن مِنْ حين هَبَطَ آدم عليه السلام إلى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، ستة آلاف سنة ومائتين وتسعاً وخمسين سنة ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من تاريخ سِنِي العالم والأنبياء والملوك في بابٍ نفرده لذلك ، إن شاء الله تعالى .

(١) في ب « أرميوس » في كل الموضع .

ذكر مصر ، وأخبارها ، ونيلها ، وعجائبها ، وأخبار ملوكها

وغير ذلك مما اتصل بهذا الباب

ذكر مصر في القرآن

قال المسعودى : ذَكَرَ الله جل ثناؤه مصر فى مواضع من كتابه ، فقال عز وجل(وقال الذى اشتراهُ مِنْ مِصْرَ)وقال(اُدْخُلُوا مِصرَ إنْ شَاءَ اللهُ آمِنِين) وقال تعالى : (وأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى وأخيه أن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصرَ بُيُوتاً) وقال : (اهْبِطُوا مِصراً فإنَّ لَكُمْ مَا سأَلْتُمْ) وقال تعالى : (وقالَ نِسْوَةٌ فى المدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فتاهَا عَنْ نَفْسِهِ) .

وصف مصر

ووصف بعض الحكماء مصر فقال: ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء، وثلاثة أشهر زمردة خضراء، وثلاثة أشهر سبيكة [ذهب][1] حمراء فأما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر فى شهر أبيب — وهو تموز — وَمِسرى — وهو آب — وتوت — وهو أيلول — يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء ، وضياعها على رَوَابٍ وتلال مثل الكواكب ، قد أحاطت المياه بها من كل وجه ؛ فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض إلا فى الزوارق، وأما المسكة السوداء فإن فى شهر بابه — وهو تشرين الأول — وهاتور — وهو تشرين الثانى ، وكيهك — وهو كانون الأول — ينكشف الماء عنها ، وينضب عن أرضها[2] ، فتصير أرضاً سوداء ، وفيها نقع الزراعات ، وللأرض روائح طيبة تشبه روائح المسك ، وأما الزمردة الخضراء ؛ فإن فى شهر طوبة — وهو كانون الثانى — وأمشير — وهو شباط — وبرمهات — وهو أذار — تلمع ويكثر عشبها[3] ونباتها ؛ فتصير كالزمردة الخضراء وأما السبيكة الحمراء فإن فى شهر برمودة — وهو نيسان — وبشنس — وهو أيَّارُ — وبؤونه — وهو حزيران — يبيضُّ الزرع ، وبتورد الشعب ، فهو كسبيكة الذهب منظراً ومنفعة .

(١) لا توجد هذه الكلمة فى ب .

(٢) فى ا « وتنصب على أرضها » محرفا عما أثبتناه موافقا لما فى ب .

(٣) فى ا « تلمع بكثرة عشبها ونباتها فتصير الدنيا خضراء كالزمردة » .

وسنذكر هذه الشهور بالسريانية والعربية والفارسية ، ونسمى كل شهر منها بعد هذا الموضع من هذا الكتاب ، وإن كنا قد أتينا على جميع ذلك فى الكتاب الأوسط .

ووصَفَ آخَرُ مصر فقال : نيلها[1] عجب ، وارضها ذهب ، [وخيرها جَلَب] وملكها لمن سلب ، ومالها رغب ، وفى أهلها صَخَب ، وطاعتهم رَهَب ، وسلامهم شغب ، وحروبهم حَرَبٌ ، وهى لمن غلب .

نهر النيل

ونهرها النيل من سادات الأنهار ، وأشراف البحار ؛ لأنه يخرج من الجنة على حسب ما ورد به خبر الشريعة إن النيل وسيحان ، وهو نهر أذنة من الثغر الشامى ، ويصب إلى البحر الرومى ، ومخرجه على ثلاثة أيام من ملطية ، ويجرى فى بلاد الروم ، وليس للمسلمين عليه إلا مدينة أذنة][2] بين طرسوس والمصيصة ، وجيحان ، ومخرجه من عيون تعرف بعيون جيحان على ثلاثة أيام[3] من مدينة مرعش ، ويطرح إلى البحر الرومى ، فليس للمسلمين عليه من المدن إلا المصيصة وكفر بيا[4] ، ومجراه بينهما ، والفرات وقد قدمنا الأخبار عنه وعن النيل ومبدئهما ومقدار جريانهما على وجه الأرض ومصبهما ، فيما سلف من هذا الكتاب ، وأنه يخرج من الجنة ، وكذلك الدجلة وغيرها مما اشتهر من الأنهار الكبار .

وقد قالت العرب فى النيل : إنه إذا زاد غاضت له الأنهار ، والأعين والآبار ، وَإذا غاض زادت ؛ فزياداتها من غَيْضه ، وَغيضهُ من زياداتها .

[قال البسرى :

يغيض إن زادت له الأنهار فى الأرض ذات العرض وَالمقدار][5]

وَقالت الهند : زيادته وَنقصانه بالسيول ، وَنحن نعرف ذلك بتوالى الأنواء وَكثرة الأمطار ، وَركود السحاب .

---

(١) تتقدم بعض هذه الفقر فى ا عن بعض ، والخطب فى ذلك سهل

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من ب (٣) فى ا « ثلاثة أميال » .

(٤) فى ب « وكفرياد » . (٥) ما بين هذين المعقوفين ساقط من ا

وقالت الروم : لم يزد قط ولم ينقص ، وإنما زيادته ونقصانه من عيون[١] كثرت واتصلت .

وقالت القبط : زيادته ونقصانه من عيون فى شاطئه ، يراها مَنْ سافر ، ولحق بأعاليه .

[وقيل : لم يزد قط ، وإنما زيادته بريح الشمال إذا كثرت واتصلت به ، فتحبسه ، فيفيض على وجه الأرض][٢] .

وقد ذكرنا التنازع فى النيل وزيادته ممن سلف وخلف ، على الشرح والإيضاح ، وغيره من الأنهار الكبار والبحار والبحيرات الصغار ، فى كتاب « أخبار الزمان » فى الفن الثانى ، فأغنى ذلك عن إعادتها فى هذا الكتاب .

وصف مصر أيضاً

ومصر من سادات القُرَى ، ورؤساء المدن ، قال الله تعالى : [حاكياً عن فرعون : (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تُبصرُون) وقال عزّ وجل][٢] حاكياً عن يوسف عليه السلام : (اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظ عليم) [وهى مصر] ، وليس فى أنهار الدنيا نهر يسمى بحرا [ويَمًّا] غير نيل مصر لكبره واستبحاره ، وقد قدمنا فيما سلف من كتبنا الخبر عن جبل القمر الذى بَدْء النيل منه ، وما يظهر من تأثير القمر فيه عند زيادته ونقصانه من النور والظلام فى البدر والمحاق[٣] .

وقد روى عن زيد بن أسلم فى قوله تعالى : (فإن لم يصبها وابل فطل) ، قال : هى مصر ، إن لم يصبها وابل زَكَتْ[٤] ، وإن أصابها مطر ضعفت ، وقال بعض الشعراء يصف مصر ونيلها :

مصر ، ومصْرٌ شأنها عجيب ونيلها تجرى به الجنوب

---

(١) فى ا « وإنما زيادته بالشمال إذا كثرت واتصلت » .
(٢) ما بين هذين المعقوفين ساقط من ا . (٣) فى ب « البدء والمحاق »
(٤) فى ا « إن لم يصبها مطر أزكت » .

وهى مصر ، واسمها كمعناها ، وعلى اسمها سميت الأمصار ، ومنه اشتق هذا الاسم عند علماء البصريين[1] ، وقد قال عمرو بن معديكرب :

ما النِّيل أصبح زاخراً بمدوده وجرت له ريح الصَّبَا فجرى لها[2]
عودْتَ كندة عادة محمودة فاصبر لجاهلها وَرَوِّ سِجَالَهَا[3]

زيادة النيل ونقصانه

قال المسعودى : ويبتدىء نيل مصر بالتنفس والزيادة بقية بؤونة — وهو حزيران — وأبيب — وهو تموز — ومسرى — وهو آب — فإذا كان الماء زائداً زاد شهر توت كله — وهو أيلول — إلى انقضائه ، فإذا انتهت الزيادة إلى ست عشرة ذراعاً ، ففيه تمام الخراج ، وخصب الأرض ، وريْع للبلد عام[4] ، وهو ضار للبهائم لعدم المرعى والكلأ ، وأتم الزيادات كلها العامة النفع للبلد كله سبع عشرة ذراعاً ، وفى ذلك كفايتها ، وَرَيٌّ جميع أراضيها ، وإذا زاد على السبع عشرة وبلغ ثمان عشرة ذراعاً وغلقها استبحر من أرض مصر الربع ، وفى ذلك ضرر لبعض الضياع ؛ لما ذكرنا من وجه الاستبحار وغير ذلك ، وإن كانت الزيادة ثمان عشرة ذراعاً كانت العاقبة فى انصرافه حدوث وباء بمصر ، وأكثر الزيادات ثمان عشرة ذراعاً ، وقد كان النيل بلغ فى زيادته تسع عشرة ذراعاً ، وذلك سنة تسع وتسعين فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، ومساحة الذراع إلى أن تبلغ اثنى عشر ذراعاً ثمان وعشرون أصبعاً ، ومن اثنى عشر ذراعاً وما فوق يصير الذراع أربعاً وعشرين أصبعاً ، وأقل ما يبقى فى قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع ، وفى مثل تلك السنة يكون الماء قليلا ، والأذْرُعُ التى يستسقى عليها بمصر هى ذراعان تسميان منكراً ونكيراً ، وهى الذراع الثالث عشر ، والذراع الرابع عشر ؛ فإذا انصرف الماء عن هاتين الذراعين — أعنى ثلاث عشرة وأربع عشرة — وزيادة نصف ذراع

(١) فى ب « المصريين » .
(٢) فى ا « فالنيل » وفى ب « أصبح واحدا » .
(٣) هذا البيت لايوجد فى ا .
(٤) فى ا « ففيه تمام خراج السلطان ، وخصب الناس ، وفيه ظمء ربع البلاد »

من الخمس عشرة ، استسقى الناس بمصر ، وكان الضرر شاملا لكل البلدان ، إلا أن يأذن الله[1] عز وجل فى زيادة الماء ، وإذا تم خمس عشرة ودخل فى ست عشرة ذراعا كان فيه صلاح لبعض الناس ، ولا يستسقى فيه ، وكان ذلك نقصاً من خراج السلطان ، والترع التى بغَيْضَةِ مصر أربع أمهات ؛ أسماؤها: ترعة ذنب التمساح ، وترعة بلقينة ، وخليج سردوس ، وخليج ذات الساحل ، وتفتح هذه الترع إذا كان الماء زائداً فى عيد الصليب ، وهو لأربع عشرة تخلو من توت وهو أيلول ، وقد قدمنا خبر تسمية هذا اليوم بعيد الصليب فيما سلف من هذا الكتاب ،والنبيذ الشيراري[2] يتخذ بمصر من ماء طوبة ، وهو كانون الآخر ، بعد الغطاس ، وهو لعشرة تمضى من طوبة ، وأصفى ما يكون النيل فى ذلك الوقت ، وأهل مصر يفتخرون بصفاء النيل فى هذا الوقت ، وفيه تختزن المياه أهل تنيس ودمياط وبونة وسائر قرى البحيرة .

ليلة الغطاس

وللبلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها ، لا ينام الناس فيها ، وهى ليلة إحدى عشرة[3] تمضى [من طوبة وستة من] كانون الثانى.

ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر ، والإخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها ،وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل[4] غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو آلاف من الناس [من] المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط ، لا يتناكرون الحضور ، ويُحْضِرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف ، وهى أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشملها سروراً ، ولا تغلق

(١) فى ا « إلى أن يأذن الله »
(٢) فى ب « الشيرازى » .
(٣) فى ا « ليلة عشر تمضى » وليست فيها الزيادة التى بين المعقوفين .
(٤) فى ا « ألفا مشعل » .

فيها الدروب ،ويغطس أكثرهم فى النيل ، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرىء للداء[1] .

مقاييس النيل

قال المسعودى : وأما المقاييس الموضوعة بمصر لمعرفة زيادة النيل و نقصانه فإنى سمعت جماعة من أهل الخبرة يخبرون أن يوسف النبى صلى الله عليه وسلم ، حين بنى الأهرام ، اتخذ مقياساً لمعرفة زيادة النيل و نقصانه ، وأن ذلك كان بمنف ، ولم يكن الفسطاط يومئذ ، وأن دلوكة الملكة العجوز وضعت مقياساً [بأقصى] الصعيد ، ووضعت أيضاً مقياساً آخر ببلاد إخميم ؛ فهذه المقاييس الموضوعة قبل مجىء الإسلام، ثم ورد الإسلام، وافتتحت مصر، وكانوا يعرفون زيادة النيل بماذكرنا و نقصانه بماوصفنا ، إلى أن ولى عبد العزيز بن مروان، فاتخذ [مقياسا[2] بحلوان ، وهو صغير الذراع ، وحلوان فوق الفسطاط ، ثم اتخذ أسامة بن زيد التنوخى] مقياساً بالجزيرة التى تدعى جزيرة الصناعة ، وهى الجزيرة التى بين الفسطاط و الجيزة ، والمَعْبَر عليها من الفسطاط على الجسر ، ثم منها على جسر آخر إلى الجيزة ، وهو الجانب الغربى ؛ لأن الفسطاط من الجانب الشرقى ، وهذا المقياس الذى اتخذه أسامة بن زيد التنوخى هو أكثرها استعمالا ، واتخذ ذلك فى أيام سليمان بن عبد الملك بن مروان ، وهو المقياس الذى يعمل عليه فى وقتنا هذا ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ بالفسطاط ، وقد كان مَنْ سلف يقيسون بالمقياس الذى بمنف ، ثم ترك استعماله ، وعمل على مقياس الجزيرة المعمول فى أيام سليمان بن عبد الملك ، وفى هذه الجزيرة مقياس آخر لأحمد بن طولون ، والعمل عليه عند كثرة الماء ، وترادف الرياح ، واختلاف مَهَابها ، وكثرة الموج ، وقد كانت أرض مصر كلها تروى من ست عشرة ذراعاً عامرها وغامرها ، لما أحكموا من جسورها ، وبناء قناطرها، وتنقية خلجانها ، وكان بمصر سبع خلجانات : فمنها خليج الإسكندرية ، وخليج

(١) فى ا « ونشرة من الداء » .

(٢) مابين المعقوفين ساقط من ب، ويؤيد صحة هذه الزيادة مافى الكلام بعدها

فى أوامرهم ونواهيهم ، ومنهم من رأى أن ذلك جائز عَلَى ماتوجبه أحوال الوقت والأصلح للحال ، وقد ذكرنا قول كل فريق من هؤلاء فى كتابنا فى « المقالات فى أصول الديانات » .

الفيوم

وأما أخبار الفيوم من صعيد مصر وخلجانها من المرتفع والمطاطى ومطاطى المطاطى، وهذه عبارة أهل مصر يريدون بذلك المنخفض، وكيفية فعل يوسف فيها وعمارته أرضها بعد كونها خَرِبة[1] ومصفاة لمياه الصعيد، وهى جزيرة قد أحاط الماء حينئذ بأكثر أقطارها[2] ، فقد أتينا على ذلك فى الكتاب الأوسط فأغنى عن إعادته فى هذا الكتاب ، وكذلك فى تسمية الفيوم فيوماً ، وأن ذلك ألف يوم ، وما كان من خبر يوسف مع الوزراء وحسدهم إياه .

وقد كانت مصر — على مازعم أهل الخبرة والعناية بأخبار شأن [هذا] العالم — يركب أرضَهَا ماء النيل وينبسط على بلاد الصعيد إلى أسفل الأرض، وموضع الفسطاط فى وقتنا هذا ، وقد كان بدء ذلك من موضع يعرف بالجنادل بين أسوان والحبشة[3] وقد قدمنا ذكر هذا الموضع فيما سلف من هذا الكتاب ، إلى أن عرض لذلك موانع من انتقال الماء وجريانه ، وما ينقل من التربة[4] بتيَّاره من موضع إلى موضع فيصب من بعض المواضع من بلاد مصر على حسب ما وصفنا عن صاحب المنطق فى عمران الأرض وخرابها فيما سلف من هذا الكتاب ، فسكن الناس بلاد مصر ، ولم يزل الماء ينصب عن أرضها قليلا قليلا حتى امتلأت أرض مصر من المدن والعمائر ، وطرقوا للماء ، وحَفَروا له الخلجانات، وعقدوا فى وجهه المسنّاة، إلا أن ذلك خفى على ساكنيها ؛ لأن طول الزمان أذْهَبَ معرفة أول سكناهم كيف كان ذلك ، ولم نتعرض فى هذا الكتاب لذكر العلة الموجبة لامْتناع المطر بمصر

(١) فى ا « وعمارته لأرضها بعد كونها جوبة.» .
(٢) فى ا « أطرافها » . (٣) فى ب « من أسوان الحبشة »
(٤) فى ب « وما ينقل من النوبة بتياره »

فى أوامرهم ونواهيهم ، ومنهم من رأى أن ذلك جائز عَلَى ماتوجبه أحو
الوقت والأصلح للحال ، وقد ذكرنا قول كل فريق من هؤلاء فى كتاب
« المقالات فى أصول الديانات » .

القيوم

وأما أخبار الفيوم من صعيد مصر وخلجانها من المرتفع والمطاطى ومطا
المطاطى، وهذه عبارة أهل مصر يريدون بذلك المنخفض،وكيفية فعل يو
فيها وعمارته أرضها بعد كونها خَرِبة[1] ومصفاة لمياه الصعيد،وهى جزيرة
أحاط الماء حينئذ بأكثر أقطارها[2] ،فقد أتينا على ذلك فى الكتاب الأو
فأغنى عن إعادته فى هذا الكتاب ، وكذلك فى تسمية الفيوم فيوماً ، و
ذلك ألف يوم ، وما كان من خبر يوسف مع الوزراء وحسدهم إياه .

وقد كانت مصر ـ على مازعم أهل الخبرة والعناية بأخبار شأن [هذا] العالم ـ ير
أرضها ماء النيل وينبسط على بلاد الصعيد إلى أسفل الأرض، وموضع الفسط
فى وقتنا هذا ، وقد كان بدء ذلك من موضع يعرف بالجنادل بين أسوان والحبشة[3]
وقد قدمنا ذكر هذا الموضع فيما سلف من هذا الكتاب ، إلى أن عرض لذ
موانع من انتقال الماء وجريانه ،وماينقل من التربة[4] بتيّاره من موضع إلى مو
فيصب من بعض المواضع من بلاد مصر على حسب ماوصفنا عن صاحب المنط
فى عمران الأرض وخرابها فيما سلف من هذا الكتاب ، فسكن الناس بلاد مصر
ولم يزل الماء ينصب عن أرضها قليلا قليلا حتى امتلأت أرض مصر من المد
والعمائر ، وطرقوا الماء ، وحفروا له الخلجانات، وعقدوا فى وجهه المسنّاة، إلا
ذلك خفى على ساكنيها ؛ لأن طول الزمان أذْهَبَ معرفة أول سكناهم كيف ك
ذلك ، ولم نتعرض فى هذا الكتاب لذكر العلة الموجبة لامتناع المطر بمص

(١) فى ا « وعمارته لأرضها بعد كونها جوبة » .
(٢) فى ا « أطرافها » . (٣) فى ب « من أسوان الحبشة »
(٤) فى ب « وما ينقل من النوبة بتياره »

ولا لكثير من أخبار الإسكندرية وكيفية بنائها ، والأمم التى تداولتها والملوك التى سكنتها من العرب وغيرهم ؛ لأنا قد أتينا على ذلك فى الكتاب الأوسط ، وسنذكر بعد هذا الموضع جملا من أخبارها، وجوامع من كيفية بنائها، وما كان من أمر الإسكندر فيها .

بين ابن طولون ورجل من مصر

قال المسعودى: وقد كان أحمد بن طولون بمصر بَلَغَه فى سنة نيف وستين ومائتين أن رجلا بأعالى بلاد مصر من أرض الصعيد له ثلاثون ومائة سنة من الأقباط ، ممن يشار إليه بالعلم من لدن حداثته، والنظر والإشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل ، وأنه علامة بمصر وأرضها من برها وبحرها وأخبارها وأخبار ملوكها ، وأنه ممن سافر فى الأرض، وتوسَّطَ الممالك، وشاهد الأمم من أنواع البيضان والسودان، وأنه ذو معرفة بهيئات الأفلاك[1] والنجوم وأحكامها، فبعث أحمد بن طولون برجل من قواده فى أصحابه ، فحمله فى النيل إليه مكرما ، وكان قد انفرد عن الناس فى بنيان اتخذه ، وسكن فى أعلاه، وقد رأى [الولد] الرابع عشر من ولد ولده، فلما مثل بحضرة أحمد بن طولون نظر إلى رجل دلائلُ الحزم فيه بينة، وشواهد ما أتى عليه من الدهر ظاهرة، والحواسُّ سليمة والقضية[2] قائمة، والعقل صحيح؛ يفهم عن مخاطبه[3]، ويحسن البيان والجواب عن نفسه ، فأسكنه بعضَ مقاصيره ، ومهَّد له ، وحمل إليه لذيذ المآكل والمشارب ، فأبى أن يتوطأ[4] على شىء ، وأن يتغذى إلا بغذاء كان حمله معه من كعك وغيره، وقال : هذه بِنْيَة قوامُها بما ترون من هذا الغذاء، وهذا اللبس، فإن أنتم سُمْتُمُوها النقلة عن هذه العادة وتناول ما أوردتموه عليها من المآكل والمشارب والملابس كان ذلك سبب انحلال هذه البِنْيَة ، وتفريق هذه الصورة، فترك على ما كان عليه ، وما جرت به عادته ، وأحضر له أحمد بن طولون من حضره من

---

(١) فى ا « بهيئة الأفلاك » .
(٢) فى ا « والعصبة قائمة ».
(٣) فى ا « يفهم من مخاطبه » .
(٤) فى ب « فأبى أن لا يتواطأ »

أهل الدراية[1] ، وصرف همته عليه ، وأخلى نفسه له فى ليال وأيام كثيرة، يسمع كلامه وإيراداته وجواباته فيما يسأل[2] عنه ؛ فكان مما سئل عنه الخبر عن بحيرة تنيس ودمياط ، فقال: كانت أرضاً لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة وثراوة، وكانت جناناً ونخلا وكرماً وشجراً ومزارع ، وكانت فيها مجارٍ[3] على ارتفاع من الأرض وقرى على قرارها ، ولم ير الناس بلداً كان أحسن من هذه الأرض، ولا أحسن اتصالا من جنانها وكرومها ، ولم يكن بمصر كورة يقال إنها تشبهها إلا الفيوم [وكانت أكثر خيراً من الفيوم] وأخصب وأكثر فاكهة ورياحين من الأصناف الغريبة ، وكان الماء منحدراً إليها لا ينقطع عنها صيفاً ولا شتاء، يسقون منه جناتهم إذا شاؤوا وكذلك زروعهم، وسائره يصب إلى البحر من سائر خُلْجَانه، ومن الموضع المعروف بالأشتوم، وقد كان بين البحر وبين هذه الأرض نحو مسيرة يوم، وكان فيما بين العريش وجزيرة قبرس طريق مسلوكة إلى قبرس تسلكه الدواب يَبَساً ، ولم يكن فيما بين العريش وجزيرة قبرس إلا مخاضة ، وجزيرة قبرس اليوم بينها وبين العريش فى البحر سير طويل ، وكذلك فيما بينها وبين أرض الروم، وقد كان بين الأندلس وبين الموضع الذى يسمى الخضراء — وهو قريب من فاس المغرب وطنجة ـ قنطرة مبنية بالحجارة والطوب تمر عليها الإبل والدواب من ساحل المغرب من بلاد الأندلس إلى المغرب[4]، وماء البحر تحت تلك القنطرة متقطع خلجانات صغاراً تجرى تحت قناطرها وما عقد من الطاقات تحتها على صخور صُمّ ، وقد عقد من كل حجر إلى حجر طاق ، وهو مبدأ بحر الروم الآخذ من أوقيانوس ، وهو البحر المحيط الأكبر ، فلم يزل البحر يزيد ماؤه ويعلو

بحيرة تنيس ودمياط

---

(١) فى ب « أهل الديار » .

(٢) فى ب « فيما سئل عنه » .

(٣) فى ا « قرى على ارتفاع من الأرض وقرى على قرارها » .

(٤) فى ا من ساحل المغرب إلى بلاد الأندلس ومنه إلى المغرب » .

أرضاً فأرضاً فى طول ممر السنين ، يرى زيادته أهل كل زمان، ويتبينه أهل كل عصر ، ويقفون عليه ، حتى علا الماء الطريق الذى كان بين العريش و بين قبرس وعلا القنطرة التى كانت بين الأندلس و برّ طنجة[١]، وما وصفت فبين ظاهر عند أهل الأندلس وأهل فاس من بلاد المغرب من خبر هذه القنطرة ، وربما بدا الموضع لأهل المراكب تحت الماء ، فيقولون : هذه القنطرة، وكان طولها نحو اثنى عشر ميلا ، فى عرض واسع ، وسمو بين، فلما مضت لديقلطيانوس[٢] من ملكه مائتان وإحدى وخمسون سنة هجم الماء من البحر على بعض المواضع التى تسمى اليوم بحيرة تنيس فأغرقه ، وصار يزيد فى كل عام حتى أغرقها بأجمعها، فما كان من القرى التى فى قرارها غرق ، وأما التى كانت على ارتفاع من الأرض فبقيت منها بونة وسمنود[٣] وغير ذلك مما هى باقية إلى هذا الوقت ، والماء محيط بها، وكان أهل القرى التى فى هذه البحيرة ينقلون موتاهم إلى تنيس فيقبرونهم واحداً فوق آخر[٤]، وهى الأكوام الثلاثة التى تسمى اليوم أبو الكوم، وكان استحكام غرق هذه الأرض بأجمعها وقد مضى لديقلطيانوس الملك مائتان وإحدى وخمسون سنة ، وذلك قبل أن تفتتح مصر بمائة سنة ، وقال : وقد كان للملك من ملوك الأمم كانت داره الفرما مع أركون من أراكنة البليناوما اتصل بها من الأرض حروب[٥] وخنادق وخلجانات فتحت من النيل إلى البحر، يمنع كلّ واحد من الآخر، وكان ذلك داعياً لتشعب الماء من النيل واستيلائه على هذه الأرض .

وسئل عن ملوك[٦] الأحابش على النيل وممالكهم فقال: لقيت من ملوكهم ستين ملكا فى ممالك مختلفة، كل ملك منهم ينازع من يليه من الملوك، وبلادهم حارة يابسة مسودة لييسها وحرارتها ولاستحكام النارية فيها تغيرت الفضة ذهباً لطبخ الشمس

(١) فى ا « بين الأندلس وبين خضراة فاس » .
(٢) فى ا « دقلطيانس » . (٣) فى ب « تونة وسيمود »
(٤) فى ب « فيعبونهم واحد فوق واحد » .
(٥) فى ب « خروق وخنادق – إلخ » . (٦) فى ب «عن طول الأحابيش»

إياها حرارتها ويبسها ونارتيها فتحولت ذهباً، ولم يطبخ الذهب الذى يؤتى به من المعدن خالصاً صفائح بالملح والزاج[1] والطوب فيخرج منه فضة خالصة بيضاء، وليس يدفع هذا الأمر إلا مَنْ لا معرفة له بما وصفنا، ولا قارب شيئاً مما ذكرنا.

قيل له : فما منتهى النيل فى أعاليه؟ قال: البحيرة التى لا يدرك طولها وعرضها، وهى نحو الأرض التى الليل والنهار فيها متساويان طول الدهر، وهى تحت الموضع الذى يسميه المنجمون الفلك المستقيم، وما ذكرت فمعروف غير منكر.

الأهرام

وسئل عن بناء الأهرام، فقال: إنها قبور الملوك، وكان الملك منهم إذا مات وضع فى حوض حجارة ويسمى بمصر والشام الجرن[2] وأطبق عليه، ثم يبنى من الهرم على قدر ما يريدون من ارتفاع الأساس، ثم يحمل الحوض فيوضع وسط الهرم، ثم يقنطر عليه البنيان والأقباء، ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذى ترونه ويجعل باب الهرم تحت الهرم، ثم يحفر له طريق فى الأرض بعقد أزج، فيكون طول الأزج تحت الأرض مائة ذراع وأكثر، ولكل هرم من هذه الأهرام باب يُدْخَل منه على ما وصفت، فقيل له: فكيف بنيت هذه الأهرام الملساء؟ وعلى أى شىء كانوا يصعدون ويبنون؟ وعلى أى شىء كانوا يحملون هذه الحجارة العظيمة التى لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد إلا بجهد إن قدروا؟ فقال: كان القوم يبنون الهرم مُدَرَّجاً ذا مراقٍ كالدرج، فإذا فرغوا منه نحتوه من فوق إلى أسفل، فهذه كانت حيلتهم، وكانوا مع هذا لهم صبْرٌ وقوة وطاعة لملوكهم ديانة[3]

فقيل له : ما بال هذه الكتابة التى على الأهرام والبرابى لا تقرأ؟ فقال: دَثَرَ الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم، وتداول أرض مصر الأمم، فغلب على أهلها القلم الرومى، وأشكال الأحرف للروم، والقبط تقرؤه على حسب تعارفها إياه، وخلطها الأحرف الروم بأحرفها، على حسب ما وَلّدُوا من الكتابة بين الرومى

---

(١) فى ب « والزجاج ». (٢) فى ب « الجرون »
(٣) فى ا « ديانة ».

والقبطى الأول ؛ فذهبت عنهم كتابة آبائهم .

فقيل له : فمن أول من سكن مصر ؟ قال : أول من نزل هذه الأرض مصر بن بيصر بن حام بن نوح ، ومر فى أنساب ولد نوح الثلاثة وأولادهم، وتفرقهم فى الأرض .

فقيل له : أتعرف بمصر مقاطع رخام ؟ قال: نعم فى الجانب الشرقىّ من الصعيد جبل رخام عظيم كانت الأوائل تقطع منه العمد وغيرها، وكانوا يَجْلُون ماعملوا[1] بالرمل بعد النقر ، فأما العمد والقواعد والرؤوس التى تسميها أهل مصر الأسوانية، ومنها حجارة الطواحين ، فتلك نَقَرَها الأولون بعد حدوث النصرانية بمئين من السنين، ومنها العمد التى بالإسكندرية ، والعمود الذى بها الضخم الكبير لا يعلم بالعالم عمود مثله ، وقد رأيت فى جبل أسوان أخاً لهذا العمود قد هندس ونقر ولم يفصل من الجبل ، ولم يُحَكّ ماظهر[2] منه، وإنما كانوا ينتظرون أن يفصل من الجبل ثم يحمل إلى حيث يريد القوم .

وسئل عن مدينة العقاب ، فقال : هى غربى أهرام بوصير الجيزة[3] وهى على خمسة أيام بلياليها للراكب الجد ، وقد وعرت[4] طريقها وعميت المسالك إليها ، والسمت الذى يؤدى نحوها ، وذكر مافيها من عجائب البنيان والجواهر والأموال والعلة التى لها سميت مدينة العقاب ، ووصف مدينة أخرى غربى أخميم من أرض الصعيد ذات بنيان عجيب اتخذتها الملوك السالفة[5] ، وذكر من شأن هذه المدينة الأخرى عجائب من الأخبار ، وزعم أن بينها وبين إخميم من أرض الصعيد مسيرة ستة أيام .

وسئل عن النوبة وأرضها ، فقال : هم أصحاب إبلٍ وبُخْت[6] وبقر وغنم ، وملكهم يستعد الخيل العتاق ، والأغلب من ركوب عوامهم البراذين ، ورميهم بالنبل عن قسىّ عربية ، وعنهم أخذ الرمى أهل الحجاز

(١) فى ا « يخلون ماعملوا » محرفا . (٢) فى ا « ولم يحل ماظهر منه»
(٣) فى ا « بوصير والجيزة » . (٤) فى ا « وقدغور طريقها »
(٥) فى ا « أحدثتها الملوك السالفة » . (٦) فى ا« نجب وإبل وبقر وغنم»

واليمن وغيرهم من الغرب ، وهم الذين يسميهم العرب رماة الحدق ، ولهم النخل والكرم والذرة والموز والحنطة ، وأرضهم كأنها جزء من أرض اليمن ، وللنوبة أترج كأكبر ما يكون بأرض الإسلام ، وملوكهم تزعم أنهم[١] من حمير ، وملكهم يستولى على مقرا ونوبة وعلوة ، ووراء علوة[٢] أمة عظيمة من السودان تدعى بكنة[٣] وهم عُرَاة كالزنج ، وأرضهم تنبت الذهب ، وفى مملكة هذه الأمة يفترق[٤] النيل فيتشعب منه خليج عظيم ، ثم يخضر الخليج بعد انفصاله من النيل ، وينحدر الأكثر إلى بلاد النوبة ، وهو [النيل] لا يتغير ، فإذا كان فى بعض الأزمنة انفصل الأكثر من الماء فى ذلك الخليج ، وابيض الأكثر ، واخضر الأقل ؛ فيشق ذلك الخليج فى أودية وخلجان وأعماق مأنوسة حتى يخرج إلى جلاسق والجنوب[٥] ، وذلك [على] ساحل الزنج ، ومصبه فى بحرهم.

ثم سئل عن الفيوم والمنهى وحجر اللاهون ، فذكر كلاماً طويلا فى أمر الفيوم ، وأن جارية من بنات الروم وابنها[٦] نزلوا الفيوم ، وكانوا البدء فى عمارتها وعمارة أرضها ، وإنما كان الماء يأتى الفيوم من المنهى أيام جرْى النيل ، ولم يكن حجر اللاهون بنى ، وإنما كان مصب الماء [من المنهى] من الموضع المعروف بدمونة ، ثم بنى اللاهون على ما هو اليوم عليه ، ويقال : إن يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، بناه أيام العزيز ، ودَبَّرَ من أمر الفيوم ما هو اليوم قائم بين من الخلج المرتفعة والمطاطية ، وهو خليج فوق خليج فوق خليج ، وبنى القنطرة[٧] المعروفة بسفونة[٨] ، وأقام العمود الذى فى وسط الفيوم وهو غائص فى الأرض لا يُدْرَك منتهاه منها ، وهو أحد عجائب الدنيا مربع الشكل قد جهد أناس من الأمم ممن ورد بعد يوسف أن ينتهوا إلى آخره فى الأرض حَفْراً فلم يتأتَّ لهم ذلك ، [ولا قدروا عليه] وغلبهم الماء فعجزهم ، ورأس هذا العمود مساو

(١) فى ب « أنها من حمير » .

(٢) فى ا « وملكهم يستولى على معرد ونوبة ، ووراء علوة ــ إلخ » .

(٣) فى ب « بنكنة » (٤) فى ب « يخترق النيل »

(٥) فى ا « إلى خلابس الجنوب » . (٦) فى ا « وأمها » .

(٧) فى ب « وهى القنطرة » . (٨) فى ا « بنوسفية » .

لأرض المنهى، قال: وأما حجر اللاهون فإن من سطح الحجر الذى فيما بين القبتين[1] إلى ناحية اللاهون ، واللاهون هى القرية بعينها ، ففى ما بين[2] السطح إلى القرية ستون درجة[3] وربما قل الماء فى المنهى ، وظهر بعضُ الدرج، وفى حائط الحجر فوارات بعضها اليوم يخرج منه الماء ، وبعض لا يرى، وفيما بين سطح الحجر الذى بين القبتين و بين القرية شاذروان ، وهو من أسفل الدرج، وإنما يدخل الماء الفيوم بوزن[4] الحجر ، وجعلت الإسقالة — وهى القناطر — ليخرج الماء منها، ولا يعلو الماء الحجر أيام سده، فبالتقدير بُنى حجر اللاهون[5] ، و بقدر ما يكفى الفيوم من الماء يدخل إليها، و بناء حجر اللاهون من أعجب الأمور، ومن أحكم البنيان ، ومن البناء الذى يبقى على وجه الأرض لا يتحرك ولا يزول، بالهندسة عمِلَ ، وبالفلسفة أتقن ، وفى السعود نصب ، وقد ذكر كثير من أهل بلدنا أن يوسف عليه السلام عمل ذلك بالوحى ، والله أعلم.

ولم تزل ملوك الأرض — إذا غلبت على بلادنا ، واحتوت على أرضنا ؛ صارت إلى هذا الموضع فتأملته؛ لما قد نمى إليها من أخباره ، وسارفى الخليقة من عجائب بنيانه وإتقانه .

وكان هذا الرجل من أقباط مصر ، ممن يظهر دين النصرانية ورأى اليعقوبية، فأمر [السلطان أحمد بن طولون فى بعض الأيام ، وقد أحضر مجالسه بعض أهل النظر ، أن يسأله عن الدليل على صحة دين النصرانية ، فسأله عن ذلك ، فقال : دليلى على صحتها وجودى إياها [متناقضة] متنافية ، تدفعها العقول ، وتنفر منها النفوس، لتباينها و تضادها، لا نظر يقويها ، [ولا جَدَل يصححها] ولا برهان يعضدها من العقل والحس عند التأمل لها والفَحْص عنها، ورأيت مع ذلك أمماً كثيرة ، وملوكا عظيمة ذوى معرفة وحسن[6] رأى، قد انقادوا إليها

(١) فى ب « فيما بين الفرش » (٢) فى ب « ففيها من السطح إلى القرية »

(٣) فى ب « ستون ذراعا » . (٤) فى ب « بدرب الحجر » .

(٥) فى ب « فالتقدير بناء حجر اللاهون » .

(٦) فى ب « ذوى معرفة وحس » .

وتدينوا بها ، فعلمت أنهم لم يقبلوها ، ولم يتدينوا بها ـ مع ما ذكرت من تناقضها فى العقل ـ إلا لدلائل شاهدوها، وآيات علموها، ومعجزات عرفوها، أوجبت انقيادهم إليها والتدين بها ، قال له السائل: وما التضاد الذى فيها؟ قال. وهل يدرك أو يعلم غايته؟ منها قولهم بأن الواحد ثلاثة، والثلاثة واحد، ووصفهم الأقانيم والجوهر وهو الثالوث ، وهل الأقانيم فى أنفسها قادرة عالمة أم لا ؟ وفى اتحاد ربهم القديم بالإنسان المحدَث ، وماجرى فى ولادته وقتله وصلبه، وهل فى التشنيع أكبر وأفحش من إله صُلب ، وبُصق فى وجهه، ووضع على رأسه الإكليل من الشوك ، وضرب رأسه بالقضيب، وسمرت يداه، ونخس بالأسنة والخشب جَنْباه ، وطَلَب الماء فسُقى الخل فى بطيخ الحنظل؟ فأمسكوا عن مناظرته، وانقطعوا عن مجادلته ؛ لمـا قد أعطاهم من تناقض مذهبه وفساده ووَهْيه[1]

بين يهودى ونصرانى

فقال طبيب لابن طولون يهودى وقد حضر المجلس: أيأذن لى الأمير فى مخاطبته؟ قال : شأنك ، فأقبل عَلَى القبطى مسائلا له، فقال له القبطى: وما أنت أيها الرجل؟ وما نحلتك ؟ فقال له[2]: يهودى، فقال له : مجوسى إذا!؟ قال له: كيف ذلك وهو يهودى ؟ قال : لأنهم يرون نـكاح البنات فى بعض الحالات؛ إذ كان فى دينهم أن الأخ يتزوج بنت أخيه ، وعليهم أن يتزوجوا نساء إخوتهم إذا ماتوا ، فإذا وَافق اليهودى أن تـكون امرأة أخيه ابنته لم يجد بدأ من أن يتزوجها، وَهذا من أسرارهم ، وما يكتمونه[3] ولا يُظْهرونه، فهل فى المجوسية أشنع من هذا؟ فأنـكر اليهودى ذلك، وجحد أن يكون فى دينه أو يعرفه أحد من اليهود ، فاستخبر ابن طولون [عن] صحة ذلك ، فوجد [ذلك] الطبيب اليهودى قد تزوج امرأة أخيه، وكانت بنته ، ثم أقبل القبطى على ابن طولون، فقال: أيها الأمير، هؤلاء يزعمون ـــ وأشار إلى اليهودى ـــ أن الله خلق آدم على صورته، وعن نبى من أنبيائهم سماه

(١) فى ا «ووهانته» . (٢) فى ا «قيل له يهودى»
(٣) فى ا « مما يكتمونه » .

قال فى كتابه: إنه رآه فى قديم الزمان أبيض الرأس واللحية، وإن الله تعالى قال : إنى أنا النار المحرقة ، والحمى الآخذة[1] ، وأنا الذى آخذ الأبناء بذنوب الآباء، ثم فى توراتهم أن بنات لوط سَقَيْنَه الخمر حتى سكر وزنى بهن ، وحملن منه ، وولدن ، وأن موسى ردَّ على الله الرسالة مرتين حتى اشتد غضب الله عليه . وأن هارون صنع العجل الذى عبده بنو إسرائيل . وأن موسى أظهر معجزات لفرعون وفعلت السَّحَرَة مثلها . ثم قالوا[2] فى ذبائح الحيوان والتقرب إلى الله بدمائها ولحومها وتحكمهم على العقل ومنعهم من النظر بغير برهان، وهو قولهم: إن شريعتهم لا تُنسَخ ، ولا يقبل قول أحد من الأنبياء بعد موسى إذا انحرف عما جاء به موسى ولا فرق فى قضية العقل بين موسى وغيره من الأنبياء إذا أتى ببرهان ، وبان بحجة، ثم الأكبر من كفرهم قولهم فى يوم عيد الكفور ، وهو يوم الاستغفار وذلك لعشر تخلو من تشرين الأول: إن الرب الصغير — ويسمونه ميططرون[3] — يقوم فى هذا اليوم قائماً ، وينتف شعور رأسه ، ويقول : ويلى إذا خربت بيتى وأيتمت بنتى ، قامتى منكسة لا أرفعها ، حتى آتى بنتى[4] ، وذكر عن اليهود أقاصيص وتخاليط كثيرة ، ومناقضات واسعة .

ولهذا القبطى مجالس كثيرة عند أحمد بن طولون مع جماعة من الفلاسفة والديصانية والثنوية والصابئة والمجوس ، وعدة من متكلمى الإسلام، وقد أتينا على ما احتمل منها إيراده فى كتابنا فى « أخبار الزمان » وذكرنا جميع ذلك فى كتابنا « المقالات ، فى أصول الديانات » وكان هذا القبطى — على ما نمى إلينا من خبره ، وصح عندنا من قوله — يذهب إلى فساد النظر ، والقول بتكافؤ المذاهب ، وأقام عند ابن طولون نحو سنة ، فأجازه ، وأعطاه، فأبى قبول شىء

(١) فى ا « والحمى الآكلة » (٢) فى ا « ثم ما قالوا فى ذبائح الحيوان »
(٣) فى ب « ويسمونه منتظرون » .
(٤) فى ا « حتى أبنى بيتى » وهى تناسب الكلام السابق

من ذلك ؛ فرده إلى بلده مكرماً ، وأقام بعد ذلك مدة من الزمان ، ثم هلك — وله مصنفات تدل من كلامه على ما ذكرنا عنه ، والله أعلم بكيفية ذلك .

[واليهود تأبى ما ذكره القبطى فى نكاح بنت الأخ ، وأكثرهم يقر بالتزويج ببنت الأخ][1]

بعض عجائب مصر ونيلها

قال المسعودى : وفى نيل مصر وأرضها عجائب كثيرة من أنواع الحيوان مما فى البر والبحر ، من ذلك السمك المعروف بالرعَّاد ، وهو نحو الذراع ، إذا وقعت فى شبكة الصيَّاد رَعِدت يداه وعضداه ، فيعلم بوقوعها ، فيبادر إلى أخذها وإخراجها عن شبكته ، ولو أمسكها بخشب أو قصب فعلت ذلك ، وقد ذكرها جالينوس ، وأنها إن جعلت على رأس مَنْ به صداع شديد أو شقيقة وهى فى الحياة هدأ من ساعته . وَالْفَرَسُ الذى يكون فى نيل مصر إذا خرج من الماء وانتهى وطؤه إلى بعض المواضع من الأرض علم أهل مصر أن النيل يزيد إلى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا متصر عنه، لا يختلف ذلك عندهم بطول العادات والتجارب ، وفى ظهوره من الماء ضرر بأرباب الأرض والفلاحة[2] لرعيه الزرع ، وذلك أنه يظهر من الماء فى الليل فينتهى إلى موضع من الزرع، ثم يولى عائداً إلى الماء ، فيرعى فى حال رجوعه من الموضع الذى انتهى إليه سيره[3] ، ولا يراعى من ذلك شيئاً فى ممره ، كأنه يحدد مقدار ما يرعاه فمنها ما إذا رعت وردت إلى النيل فشربت ثم تقذف ما فى أجوافها فى مواضع شتى، فينبت ذلك مرة ثانية ؛ فإذا كثر ذلك من فعله واتصل ضرره بأرباب الضياع طرح له الترمس فى الموضع الذى يعرف خروجه منه مكاكيك[4] كثيرة مبدَّداً مبسوطاً ، فيأكله ، ثم يعود إلى الماء فيربو فى جوفه، ويزداد فى انتفاخه فيشق جوفه، فيموت ويطفو على الماء ، ويقذف به إلى الساحل والموضع

(١) هذه الزيادة لا توجد فى ا (٢) فى ا « بأرباب الأرضين والغلات»
(٣) فى ا « انتهى إليه فى مسيره » (٤) فى ب « مكاكى كثيرة »

الذى يكون فيه لا يكاد يرى فيه تمساح ، وهو على صورة الفرس إلا أن حوافره وذنبه بخلاف ذلك ، والجبهة أوسع .

من نزل مصر من أبناء نوح

قال المسعودى : وقد ذكر جماعة من الشرعيين أن بيصر بن حام بن نوح لما انفصل عن أرض بابل بولده و كثير من أهل بيته غرّب نحو مصر ، وكان له أولاد أربعة : مصر بن بيصر ، وفارق بن[1] بيصر ، وماح وياح ، فنزل بموضع يقال له منف ، وبذلك يسمى إلى وقتنا هذا ، وكان عددهم ثلاثين فسميت [ثلاثين][2] بهم ، كما سميت مدينة ثمانين من أرض الجزيرة وبلاد الموصل من بلاد بنى حمدان ، وإنما نسبت إلى عدد ساكنيها ممن كان مع نوح فى السفينة ، وكان بيصر بن حام قد كبر سنه ، فأوصى إلى الأكبر من ولده ، وهو مصر ، واجتمع الناس إليه وانضافوا إلى جملتهم ، وأخصبت البلاد ، فتملك عليهم مصر بن بيصر ، وملك من حد رفح من أرض فلسطين من بلاد الشام ، وقيل : من العريش ، وقيل : من الموضع المعروف بالشجرة ، وهو آخر أرض مصر ، والفرق بينها وبين الشام ، وهو الموضع المشهور بين العريش ورفح — إلى بلاد أسوان من أرض الصعيد طولا ، ومن أيلة — وهى تخوم الحجاز — إلى برقة عرضاً ، وكان لمصر أولاد أربعة ، وهم قبط ، وأشمون ، وإتريب ، وصا ، فقسم مصر الأرض بين أولاده الأربعة أرباعاً ، وعهد إلى الأكبر من ولده — وهو قبط — وأقباط مصر يضافون فى النسب إلى أبيهم قبط بن مصر ، وأضيفت المواضع إلى ساكنيها ، وعرفت بأسمائهم ، فمنها أشمون وقبط ، وصا ، وإتريب ، وهذه أسماء هذه المواضع إلى هذه الغاية ، واختلطت الأنساب ، وكثر ولد قبط ، وهم الأقباط ، فغلبوا على سائر الأرض ، ودخل غيرهم فى أنسابهم ؛ لما ذكرنا من الكثرة ، فقيل لكل قبط مصر وكل فريق منهم يعرف نسبه واتصاله بمصر بن بيصر بن حام بن نوح إلى هذه الغاية.

---

(١) فى ب « وقوف بن بيصر وساح وباح ».
(٢) هذه الكلمة لاتوجد فى ب .

جملة من ملوك مصر

ولما هلك قبط بن مصر ملك بعده أشمون بن مصر ، ثم ملك بعده صابن مصر ، وملك بعده « إتريب » بن مصر ، ثم ملك بعده « ماليق بن دارس » ثم ملك بعده « حرايا بن ماليق » ثم ملك بعده « كلكى[1] بن حرايا » وأقام فى الملك نحواً من مائة سنة ، ثم ملك بعده أخ يقال له « ماليا بن حرايا[2] » ثم ملك بعده « لوطس ابن ماليا[3] » نحواً من سبعين سنة ، ثم ملكت بعده ابنة له يقال لها « حوريا بنت لوطس » نحواً من ثلاثين سنة ، ثم ملكت بعدها امرأة أخرى يقال لها « ماموم » وكثر ولد بيصر بن حام بأرض مصر ، فتشعبوا ، وملكوا النساء ، فطمعت فيهم ملوك الأرض ، فسار إليهم من الشام ملك من ملوك العماليق ، يقال له الوليد بن دومع ، فكانت له حروب بها ، وغلب على الملك ، فانقادوا إليه ، واستقام له الأمر إلى أن هلك ، ثم ملك بعده « الريان بن الوليد » العملاقى ، وهو فرعون يوسف ، وقد ذكر الله تعالى خبره مع يوسف وما كان من أمرهما فى كتابه العزيز ، وقد أتينا على شرح ذلك فى كتابنا الأوسط ، ثم ملك بعده « دارم بن الريان » العملاقى ، ثم ملك بعده « كامس بن معدان » العملاقى ، ثم ملك بعده « الوليد بن مصعب » وهو فرعون موسى ، وقد تنوزع فيه : فمن الناس من رأى أنه من العماليق ومنهم من رأى أنه [من لخم] من بلاد الشام ، ومنهم من رأى أنه من الأقباط من ولد مصر بن بيصر ، وكان يعرف بظلما ، وقد أتينا على ذلك فى الكتاب الأوسط ، وهلك فرعون غرقاً حين خرج فى طلب بنى إسرائيل حين أخرجهم موسى بن عمران وجعل الله لهم طريقاً فى البحر يبساً ، ولما غرق فرعون ومن كان معه من الجنود وخشى من بقى بأرض مصر من الذرارى والنساء والعبيد أن يغزوهم ملوك الشام والمغرب فملكوا عليهم امرأة ذات رأى وحزم ؛ يقال لها « دلوكة » فبنت على بلاد مصر حائطاً يحيط بجميع البلاد ؛ وجعلت عليه المحارس والأحراس[4] والرجال متصلة

---

(١) فى ب « كالى بن حرايا »
(٢) فى ب « باليا بن حرابا »
(٣) فى ب « لو طيس بن باليا » .
(٤) فى ب « والأجراس »

أصواتهم يقرب بعضهم من بعض ، وأثر هذا الحائط باقٍ إلى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، يعرف بحائط العجوز ، وقيل ؟ إنما بنته خوفا على ولدها وكان كثير القَنص ، فخافت عليه من سباع [البر و] البحر واغتيال مَنْ جاور أرضهم من الملوك والبوادى ، فحوّطت الحائط من التماسيح وغيرها ، وقد قيل فى ذلك من الوجوه غير ماذكرنا ، فملكتهم ثلاثين سنة [وقيل : أقل من ذلك .]

عمل البرابى

واتخذت بمصر البرابى والصور ، وأحكمت آلات السحر ، وجعلت فى البرابى صور مَنْ يرد من كل ناحية ، ودوابهم إبلا كانت أو خيلا ، وصورت ما يرد فى البحر من المراكب من بحر المغرب والشام ، وجمعت فى هذه البرابى العظيمة المشيدة البنيان أسرار الطبيعة وخواص الأحجار والنبات والحيوان ، من الجاذبة والدافعة[1] ، وجعلت ذلك فى أوقات حركات فلكية واتصالها بالمؤثرات العلوية وكانوا إذا ورد إليهم جيش من نحو الحجاز أو اليمن عورت تلك الصورة التى فى البرابى من الإبل وغيرها ، فيتعور ما فى ذلك الجيش ، وينقطع عنهم ناسه وحيوانه ، وإذا كان الجيش من نحو الشام فعل فى تلك الصوز التى من تلك الجهة التى أقبل منها جيش الشام ما فعل بما وصفنا [قبلها] فيحدث فى ذلك الجيش من الآفات فى ناسه وحيوانه ماصنع فى تلك الصور [التى من تلك الجهة] وكذلك ماورد من جيوش الغرب ، وما ورد فى البحر من رومية والشام وغير ذلك من الممالك ، فهابتهم الملوك والأمم ، ومنعوا ناحيتهم[2] من عدوهم ، واتصل ملكهم بتدبير هذه العجوز وإتقانها لزم أقطار المملكة وإحكامها السياسه[3] .

وقد تكلم الناس ممن سلف وخلف فى هذه الخواص ، وأسرار الطبيعة التى كانت ببلاد مصر ، وهذا الخبر من فعل العجوز عند المصريين مستفيض لا يشكون فيه ، والبرابى بمصر من صعيدها وغيره باقية إلى هذا الوقت ، وفيها أنواع الصور مما

(١) فى ا « من الحادية والبادبة » .

(٢) فى ا « ومنعوا أجنبتهم من عدوهم » .

(٣) فى ب « لزوم أقطار هذه المملكة وأحكامها السياسية » .

إذا صورت فى بعض الأشياء أحدثت أفعالا على حسب ما رسمت له ووضعت من أجله[1] ، على حسب قولهم فى الطباع التام ، والله أعلم بكيفية ذلك .

كتابة على البرابى

قال المسعودى : وأخبرنى غير واحد من بلاد أخميم من صعيد مصر ، عن أبى الفيض ذى النون [بن إبراهيم][2] المصرى الإخميمى الزاهد ، وكان حكيما ، وكانت له طريقة يأتيها ونحلة يعضدها[3] ، وكان ممن يقرأ عن أخبار[4] هذه البرابى ودارها وامتحن كثيراً مما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور ، قال : رأيت فى بعض البرابى كتاباً تدبرته ؛ فإذا هو « احذروا العبيد المعتقين ، والأحداث المغترين[5] والجند المتعبدين ، والنبط المستعربين » قال : ورأيت فى بعضها كتاباً تدبَّرْته فإذا فيه « يقدر المقدور والقضاء يضحك » وزعم أنه رأى فى آخره كتابة وتبينها بذلك القلم الأول فوجدها :

تُدَبِّرُ بالنجوم ولستَ تَدْرى وربُّ النجم يفعلُ ما يريد

وكانت هذه الأمة التى اتخذت هذه البرابى لهجة بالنظر فى أحكام النجوم مواظبة على معرفة أسرار الطبيعة ، وكان عندها مما دلت عليه أحكام النجوم أن طوفاناً سيكون فى الأرض ، ولم نقطع بأن ذلك الطوفان ماهو : أنار تأتى على الأرض فتحرق ما عليها ، أو ماء فيغرقها ، أو سيف يبيد أهلها ؟ فخافت دثور العلوم وفناءها بفناء أهلها ، فاتخذت هذه البرابى ، واحدها بربا ، ورسمت فيها علومها من الصور والتماثيل والكتابة ، وَجعلت بنيانها نوعين : طينا ، وَحجراً وَفرزت ما يبنى بالطين مما يبنى بالحجر ، وَقالت : إن كان هذا الطوفان ناراً استحجر ما يبنى من الطين وَاحترق ، وَ بقيت هذه العلوم ، وإن كان الطوفان الوارد ماء أذهب ما يبنى بالطين ، ويبقى ما يبنى بالحجارة ، وَ إن كان الطوفان سيفاً بقى كلاَ

(١) فى ا « وصنعت من أجله » . (٢) زيادة فى ب
(٣) فى ا « يقصدها » (٤) فى ا « وكان ممن يفسر أخبار — إلخ »
(٥) فى ب « احذر العبيد المعتقين ، والأحداث القريبين »

النوعين ماهو بالطين وما هو بالحجر ، وهذا على ما قيل — والله أعلم — كان قبل الطوفان ،| وقيل: إن ذلك كان بعد الطوفان| وإن الطوفان الذى كانوا يرقبونه ولم يتيقنوا[1] أنار هو أم ماء أم سيف ، كان سيفاً أتى على جميع أهل مصر من أمة غشيتها وملك نزل عليها فأباد أهلها | ومنهم من رأى أن ذلك الطوفان كان وباء عم أهلها | ومصداق ذلك ما يوجد ببلاد تنيس من التلال المنضدة من الناس من صغير وكبير ، وذكر وأنثى ، كالجبال العظام ، وهى المعروفة ببلاد تنيس من أرض مصر بأبى الكوم[2] وما يوجد ببلاد مصر وصعيدها من الناس المتكسين[3] بعضهم على بعض فى كهوف وغيران[4] ونواويس ، ومواضع كثيرة من الأرض لا يدرى من أى الأمم هم ، فلا النصارى تخبر عنهم أنهم من أسلافهم ، ولا اليهود تقول عنهم إنهم من أوائلهم ، ولا المسلمون يدرون مَنْ هم ولا تاريخ ينبىء عن حالهم ، عليهم أثوابهم ، وكثيراً ما يوجد فى تلك الروابى والجبال من حليهم ، والبرابى ببلاد مصر بنيان قائم عجيب : كالبربا المتخذة بأخميم من صعيد مصر ، وهو أحد الموصوفين منها ، والبربا التى ببلاد أخميم ، والبربا التى ببلاد سمنود ، وغير ذلك .

الأهرامات أيضاً

والأهرام وطولها عظيم ، وبنيانها عجيب ، عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة ، والممالك الداثرة ، لا يدرى ما تلك الكتابة ولا ما المراد بها ، وقد قال مَنْ عنى بتقدير ذرعها : إن مقدار ارتفاع ذهابها فى الجو نحو من أربعمائة ذراع ، أو أكثر ، وكلما علا به الصعداء دق ذلك ، والعرض نحو ما وصفنا ، عليها من الرسوم ما ذكرنا ، وإن ذلك علوم وخواص وسحر وأسرار الطبيعة ، وإن من تلك الكتابة مكتوب: إنا بنيناها فمن يدعى موازنتنا[5] فى الملك وبلوغنا فى القدرة وانتهاءنا من السلطان فليهدمها ، وليزل

---

(١) فى ب « لم يعينوه » (٢) فى ب « ذوات الكرم »
(٣) فى ا « المكبسين » (٤) فى ا « وغدران »
(٥) فى ا « موازاتنا »

رسمها ؛ فإن الهدم أيسر من البناء ، والتفريق أيسر من التأليف ، وقد ذكر أن بعض ملوك الإسلام شرع فى هدم بعضها فإذا خراج مصر وغيرها [من الأرض] لا يفى بقلعها ، وهى من الحجر والرخام ، والغرض فى كتابنا هذا الإخبار عن جُمَل الأشياء وجوامعها ، لا عن تفصيلها وبسطها ، وقد أتينا على سائر ما شاهدناه حساً فى مطافاتنا الأرضَ والممالكَ ، وما نمى إلينا خبراً من الخواص وأسرار [الطبيعة من] الحيوان والنبات والجماد فى عجائب البلدان والآثار والبقاع ، فى كتابنا المترجم بكتاب « القضايا والتجارب » .

ولا تمانع بين ذوى الفهم أن فى مواضع من الأرض مدناً وقرى لا يدخلها عقرب ولا حية ، مثل مدينة حمص ومَعَرَّة و بُصْرَى[1] وأنطاكية ، وقد كان ببلاد أنطاكية ، إذا أخرج إنسان يده خارج السور وقع عليها البق ، فإذا جذبها إلى داخل لم يبق على يده من ذلك شيء ، إلى أن كسر عمود من الرخام فى بعض المواضع بها ، فأصيب فى أعلاه حُقٌّ من نحاس فى داخله بق مصور من نحاس نحو كف ، فما مضت أيام ــ أو على الفور من ذلك ــ حتى صار البق فى وقتنا هذا يعم الأكثر من دورهم ، وهذا حجر المغناطيس يجذب الحديد ، ولقد رأيت بمصر حية مصورة من حديد أو نحاس توضع على شيء ويُدْنى منها حجر المغناطيس فتحدث فيها حركة تباعد منه ، وحجر المغناطيس إذا أصابته رائحة الثوم بطل فعله [فى الحديد] وإذا غسل بشيء من الخل أو ناله شيء من عسل النحل عاد إلى فعله الأول من جذب الحديد ، وللمغناطيس فى الحديد[2] خواص عجيبة غير ما ذكرنا كالحجر الماص للدم[3] ، والله عز وجل قد استأثر بعلم الأشياء ، وأظهر للعباد ما شاء مما لهم فيه الصلاح على قدر الوقت وحاجتهم فيه [إليه] وأشياء استأثر بعلمها لم يظهرها لخلقه ؛ فلا تقف العقول عَلَى كنهها ، وكما يجمع بين أشياء فيحدث لاجتماعها[4]

(١) فى ا «ومصر» مكان «وبصرى»

(٢) فى ا « وللمغناطيس والحديد »

(٣) فى ا «كالحجر الناعض للدم» (٤) فى ا «فيحدث باجتماعها»

معنى هو غيرها ، كما يحدث من ماء العفص والزاج عند الاجتماع من شدة السواد، وكحدوث جوهر الزجاج عند جمعنا بين الرمل والمغنيسيا والقلى عند الطبخ والسبك لذلك ، وكذلك لو جمع بين ماء القلى وماء الرماد وهو المرداسنج خرج الحادث من مزاجيهما كالزبد بياضا ، وإذا مزج ماء القلى بماء الزاج خرج من مزاجيهما لون أحمر كالعصفر ، وكجمعنا فى النتاج بين الفرس الأنثى والحمار فتحدث بغلا ، ولو نتج دابة على أتان لخرج منها بغل أفطس ذو خبث ودهاء يسمى الكودن.

وقد ذكرنا النتاج الذى كان بصعيد مصر مما يلى الحبشة ، وما كان ينتج من الثيران على الأتن ، والحمير على البقر ، وما كان يحدث من ذلك من الدواب العجيبة التى ليست بحمير ولا بقر كالبغل الذى ليس بدابة ولا حمار .

وقد ذكرنا ضروب الوليدات فى أنواع الحيوان والنبات من تطعيمهم الغروس والأشجار وما تولد من الطعوم فى المذاق فى كتابنا المترجم بكتاب «القضايا والتجارب» فى أنواع الفلاحات وغيرها، وذكرنا باب خواص الأشياء ومعرفتها والطلسمات وعجائبها ، وهو باب كبير فى ذكر بعضه نيابة عن بعض ، والجزء منه يوهمك الكل ، واليسير منه يدلك على [معرفة] الكثير.

ويمكن — والله أعلم — أن تكون هذه الخواص والطلسمات والأشياء المحدثة فى العالم المحركات مما وصفنا والدافعة والمانعة والمنفردة[1] والجاذبة والفاعلة فى الحيوان وغير ذلك مثل الطرد والجذب — كانت دلالة لبعض الأنبياء فى الأمم الخالية ، جعلها الله كذلك لذلك النبى دلالة ومعجزة تدل على صدقه وتبيينه[2] من غيره ليؤدى عن الله أمره ونهيه وما فيه من الصلاح لخلقه فى ذلك الوقت ، ثم رفع الله ذلك النبى[3] ، وبقيت علومه ، وما أبانه الله عز وجل مما ذكرنا ، فى أيدى الناس، وأصل ذلك إلهى كما وصفنا ؛ إذ كان ما ذكرنا ممكنا غير واجب ولا ممتنع [فى القدرة] .

(١) فى ا « المتفردة » (٢) فى ا « وتبيه من غيره »

(٣) فى ب « ذلك النبى » محرفا

قال المسعودى : فانرجع إلى ما كنا فيه من أخبار ملوك مصر

بقية ملوك مصر

وكان الملك بعد انقضاء ملك دلوكة العجوز « دركوس بن بلوطس[١] » ثم ملك بعده « بورس بن دركوس[٢] » ثم ملك بعده « فغامس[٣] بن بورس » نحواً من خمسين سنة ، ثم ملك بعده « دنيا بن بورس[٤] » نحواً من عشرين سنة ، ثم ملك بعده [« نماريس » ابن مرينا عشرين سنة ، ثم ملك بعده « بلوطس » ابن ميناكيل أربعين سنة ، ثم ملك بعده « مالوس » بن بلوطس عشرين سنة ، ثم ملك بعده « بلوطس » بن ميناكيل بن بلوطس ، ثم ملك بعده « بلونا » ابن ميناكيل] وكانت له حروب ومسير فى الأرض ، وهو فرعون الأعرج الذى غزا بنى إسرائيل وخَرَّبَ بيت المقدس ، ثم ملك بعده « مرينوس » وكانت له حروب [كثيرة] بالمغرب ، ثم ملك بعده « نقاس بن مرينوس » ثمانين سنة ، ثم ملك بعده « قوميس بن نقاس » عشر سنين ، ثم ملك بعده « كابيل » وكانت له حروب مع ملوك المغرب ، وغزاه البخت ناصر مَرْزُبَان المغرب من قبل ملوك فارس ، فخرب أرضه وقتل رجاله ، وسار البخت ناصر نحو المغرب ، وقد أتينا على أخباره فى كتاب « راحة الأرواح » لأن هذا الكتاب رسمناه بأخبار مسير الملوك للأرض ، وأخبار مقاتلهم ، دون ما ذكرناه فى كتابنا « أخبار الزمان »

ولما زال أمر البخت ناصر ومن معه من جنود فارس ، ملكت الروم مصر ، وغلبت عليها ؛ فتنصر أهلها ، فلم يزالوا على ذلك إلى أن ملك كسرى أنوشروان ، فغلبت جيوشه على الشام ، وسارت نحو مصر ، فملكوها ، وغلبوا على أهلها ، نحواً من عشرين سنة[٥] [وكانت بين الروم وفارس حروب كثيرة] فكان أهل مصر يؤدون خراجين : خراجا إلى فارس ، وخراجا إلى الروم ، عن بلادهم .

---

(١) فى ب « دركوش بن ملوطش »
(٢) فى ا « نورش بن دركوش »
(٣) فى ب « لعس بن نورش »
(٤) فى ب « دسا بن نورس »
(٥) فى ا « نحوا من عشر سنين »

ثم انجلت فارس عن مصر والشام لأمر حدث فى دار مملكتهم ، فغلب الروم على مصر والشام وأشهروا النصرانية ، فشمل ذلك مَنْ بالشام ومصر ، إلى أن أتى الله بالإسلام ، وكان من أمر المقوقس صاحب القبط مع النبي صلى الله عليه وسلم من الهدايا ما كان إلى أن افتتحها عمرو بن العاص ، ومن كان معه فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فبنى عمرو بن العاص الفسطاط وهى قصبة مصر فى هذا الوقت ، وكان ملك مصر — وهو المقوقس صاحب القبط — ينزل الإسكندرية فى بعض فصول السنة ، وفى بعضها [ينزل] مدينة مَنْف ، وفى بعضها قصر الشمع ، وهو اليوم يعرف بهذا الاسم فى وسط مدينة الفسطاط .

ولعمرو بن العاص فى فتح مصر أخبار ، وما كان بينه وبين المقوقس وفتحه لقصر الشمع ، وغير ذلك من أخبار مصر والإسكندرية ، وما كان من حروب المسلمين فى ذلك ، ودخول عمرو بن العاص إلى مصر والإسكندرية فى الجاهلية ، وما كان من خبره مع الراهب والكُرَة الذهب التى كانوا يظهرونها [للناس] فى أعيادهم ، ووقوعها فى حِجْر عمرو بن العاص ، وذلك قبل ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، قد أتينا على جميع ذلك فى كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط .

عدة ملوك مصر

قال المسعودى : والذى اتفقت عليه التواريخ — مع تباين ما فيها — أن عدة ملوك مصر من الفراعنة [وغيرها] اثنان وثلاثون فرعوناً ، ومن ملوك بابل ممن تملك على مصر خمسة ، ومن ملوك بابل[1] — وهم العماليق الذين طرأوا[2] إليها من بلاد الشام — أربعة ، ومن الروم سبعة ، ومن اليونانيين عشرة ، وذلك قبل ظهور السيد المسيح عليه السلام ، وملكها أناس من الفرس من قبل الأكاسرة ، وكان

(١) فى ا « ومن ملوك مأرب وهم العملاقيون »
(٢) فى ب « الذين ظهروا إليها »

مدة من ملك مصر من الفراعنة [والفُرْس] والروم والعماليق واليونانيين ألف سنة[١] وثلثمائة سنة

قال المسعودى : وسألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من بلاد مصر من أهل الخبرة عن تفسير « فرعون » فلم يخبرونى عن معنى ذلك ، ولا تحصّل لى فى لغتهم ، فيمكن — والله أعلم — أن هذا الاسم كان سِمَةَ ملوك تلك الأعصار[٢] وأن تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية ، وهى الفارسية الأولى إلى الفارسية الثانية ، وكاليونانية إلى الرومية ، وتغير الحميرية ، وغير ذلك من اللغات .

دفائن أرض مصر

ولمصر أخبار عجيبة من الدفائن [والبنيان] وما يوجد فى الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض ، وندعى بالمطالب إلى هذه الغاية ، وقد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا .

فمن عجيب أخبارها ما ذكره يحيى بن بكير ، قال : كان عبد العزيز بن مروان عاملا على مصر لأخيه عبد الملك [بن مروان] فأتاه رجل متنصح ، فسأله عن نصحه ، فقال : بالقبة الفلانية كنز عظيم ، قال عبد العزيز : وما مِصْدَاق ذلك ؟ قال : هو أن يظهر لنا بلاط من المرمر والرخام عند يسير من الحفر ، ثم ينتهى بنا الحفر إلى قلع باب من الصُّفْر ، تحته عمود من الذهب على أعلاه ديك [من الذهب] عيناه ياقوتتان تساويان ملك الدنيا[٣] ، وجناحاه مُضَرَّجان بالياقوت والزمرد ، بَرَاثنُه على[٤] صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود ، فأمر له عبد العزيز بنفقة ألوف من الدنانير لأجرة من يحفر من الرجال فى ذلك ويعمل فيه ، وكان هنالك تل عظيم ، فاحتفروا حفرة عظيمة فى الأرض ، والدلائل المقدم ذكرها من الرخام والمرمر تظهر ، فازداد عبد العزيز حرصاً على ذلك ، وأوْسَعَ فى النفقة ، وأكثر من الرجال ، ثم انتهوا فى حفرهم

(١) فى ا « ألفى سنة وثلثمائة سنة » (٢) فى ا « الأمصار »
(٣) فى ا « خراج الدنيا » (٤) فى ب « على رأسه صفائح الذهب »

إلى ظهور رأس الديك ، فبرق عند ظهوره لمعان عظيم كالبرق الخاطف لما في عينيه من الياقوت وشدة نوره ولمعان ضيائه[١] ، ثم بانت قوائمه، وظهر حول العمود عمود من البنيان بأنواع من الأحجار والرخام ، وقناطر مقنطرة ، وطاقات على أبواب معقودة ، ولاحت منها تماثيل وصور أشخاص من أنواع الصور والذهب وأجربة من الأحجار قد أطبقت عليها أغطيتها وشبكت[٢] ، وقيد ذلك بأعمدة الذهب ؛ فركب عبد العزيز بن مروان حتى أشرف على الموضع، فنظر إلى ما ظهر من ذلك ، فأسرع بعضهم فوضع قدمه على درجة منسبكة[٣] من نحاس تنتهي إلى ما هنالك ، فلما استقرت قدمه على المرقاة الرابعة ظهر سيفان عظيمان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها ، فالتقتا[٤] على الرجل ، فلم يدرك حتى جزآه قطعا وهوى جسمه سفلا ، فلما استقر جسمه على بعض الدرج اهتز العمود وصفر الديك تصفيرا عجيبا سمعه مَنْ كان بالبعد من هنالك، وحرك جناحيه فظهرت من تحته أصوات عجيبة ، وقد عملت بالآلات[٥] والحركات ، إذا ما وقع على بعض تلك الدرج شيء أو ما سها تهافت من هنالك من الرجال إلى أسفل تلك الحفيرة ، وكان ممن يحفر ويعمل وينقل التراب ويبصر ويتحرك ويأمر وينهى نحو ألف رجل[٦] ، فهلكوا جميعا ، فجزع عبد العزيز، وقال: هذا ردم عجيب الأمر ممنوع النيل ، نعوذ بالله منه ! وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من التراب على مَنْ هلك من الناس ، فكان الموضع قبرا لهم .

قال المسعودي : وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب، ومن قد أغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز ودخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض

---

(١) في ا « وإشراق ضيائه ، ثم بان جناحاه . ثم بانت براثنه وظهر -إلخ »
(٢) في ا « وسبكت » (٣) في ا « مشبكة »
(٤) في ا « فالتقيا » (٥) في ب ، بالكواكب »
(٦) في ا « نحو ألفي رجل »

ـ أعنى أرض مصر ـ أربعة آلاف سنة ، وفيما ذكرناه دلالة على أن هؤلاء ليسوا بيهود ولا بنصارى ، ولم يؤدهم الحَفْرُ إلا إلى ماذكرنامن هذه التماثيل، وكان ذلك فى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة .

وقد كان لمن سلف وخلف من وُلاة مصر إلى أحمد بن طولون وغيره إلى هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ أخبار عجيبة،فيما استخرج فى أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر ، وما أصيب فى القبور [من المطالب] والخزائن ، وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من تأليفنا ، وتقدم من تصنيفنا ، وبالله التوفيق .

– أعني أرض مصر – أربعة آلاف سنة ، وفيما ذكرناه دلالة على أن هؤلاء ليسوا بيهود ولا بنصارى ، ولم يؤدهم الحفر إلا إلى ما ذكرناه من هذه التماثيل ، وكان ذلك في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة .

وقد كان لمن سلف وخلف من ولاة مصر إلى أحمد بن طولون وغيره إلى هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة – أخبار عجيبة ، فيما استخرج في أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر ، وما أصيب في القبور [من المطالب] والخزائن ، وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من تأليفنا ، وتقدم من تصنيفنا ، وبالله التوفيق .

ذكر [أخبار] الإسكندرية، وبنائها، وملوكها، وعجائبها

وما ألحق بهذا الباب

اختيار الموضع

ذكر جماعة من أهل العلم أن الإسكندر المقدونى لما استقام ملكه فى بلاده سار يختار أرضاً صحيحة الهواء والتربة والماء ، حتى انتهى إلى موضع الإسكندرية فأصاب فى موضعها آثار بنيان عظيم وعمداً كثيرة من الرخام ، وفى وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المُسْنَدِ — وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد — « أنا شداد بن عاد بن شداد بن عاد ، شددت بساعدى البلاد، وقطعت عظيم العماد ، من الجبال والأطواد، وأنا بنيت إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وأردت أن أبنى ههنا كإرم ، وأنقل إليها كل ذى إقدام وكرم [1] ،من جميع العشائر والأمم ، وذلك إذ لا خوف ولا هرم ، ولا اهتمام ولا سقم ، فأصابنى ما أعجلنى [2] ، وعما أردت قطعنى [3] مع وقوع ما أطال همى [4] وشجنى ، وقل نومى وسكنى ، فارتحلت بالأمس [5] عن دارى لا لقهر ملك جبار ، ولا لخوف جيش جرّار ، ولا عن رهبة ولا عن صغار ، ولكن لتمام المقدار ، وانقطاع الآثار ، وسلطان العزيز الجبار ، فمن رأى أثرى ، وعرف خبرى ، وطول عمرى ، ونفاذ بصرى ، وشدة حذرى ، فلا يغتر بالدنيا بعدى ، [فإنها غرارة تأخذ منك ما تعطى ، وتسترجع ما تولى] [6] » . وكلام كثير يرى فناء الدنيا ويمنع من الاغترار بها والسكون إليها .

ونزل الإسكندر [متفكراً] يتدبر هذا الكلام ويعتبره ، ثم بعث لحشر الصناع من البلاد ، وخط الأساس ، وجعل طولها وعرضها أميالا ، وحشد إليها العمد والرخام ، وأتته المراكب فيها أنواع الرخام . وأنواع المرمر والأحجار ، من جزيرة صقلية ، وبلاد إفريقية ، وإقريطش ، وأقاصى

(١) فى ا « كل ذى قدم وكرم » (٢) فى ا « من أعجلنى »
(٣) فى ا « وعما أردت أحالنى » (٤) فى ب «ومع وقوعه طال همى»
(٥) فى ا « فارتحلت بالأمن » (٦) ما بين المعقوفين ساقط من ا

بحر الروم مما يلى مصبه [من] بحر أوقيانوس ، وحمل إليه أيضاً من جزيرة رودس وهى جزيرة مقابلة للاسكندرية على ليلة منها فى البحر ، وهى أول بلادالإفرنجة ، وهذهالجزيرة فى وقتنا هذا ، وهوسنة اثنتينوثلاثين وثلثمائة، دار صناعةالروم ، وبها تنشأ المراكب الحربية ، وفيها خلق كثير من الروم، ومراكبهم تطرق بلاد الإسكندرية وغيرها من بلاد مصر فتُغيرُوتأسروتسبى .

وأمَرَ الإسكندر الفَعَلة والصناع أن يدوروا بما رسم لهم من أساس سور المدينة ، وجعل على كل قطعة من الأرض خشبة قائمة ، وجعل من الخشبة إلى الخشبة حبالا منوطة بعضها ببعض ، وأوصل جميع ذلك بعمود من الرخام ، وكان أمام مضربه ، وعلَّق على العمود جرساً عظيما مصوتاً ، وأمر الناس والقوَّام على البنَّائين والفَعَلة والصناع أنهم إذا سمعوا صوت ذلك الجرس وتحركت الحبال وقد علق على كل قطعة منها جرساً صغيراً [حرصوا] على أن يضعوا أساس المدينة دفعة واحدة من سائر أقطارها، وأحَبَّ الإسكندر أن يجعل ذلك فى وقت يختاره ذى طالع سعيد(1) ، فخفق الإسكندر برأسه وأخذته سِنَةٌ فى حال ارتقابه الوقتَ المحمودَ المأخوذَ فيه الطالعُ ، فجاءغراب فجلس على حبل الجرس الكبير الذى فوق العمود فحركه ، وخرج صوت الجرس وتحركت الحبال ، وخفقت ماعليها من الأجراس الصغار ، وكان ذلك معمولا بحركات فلسفية ، وحيل حكمية ، فلما رأى الصناع تحرك تلك الحبال وسمعوا تلك الأصوات وضعوا الأساس دفعة واحدة ، وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس ، فاستيقظ الإسكندر من رَقْدته وسأل عن الخبر ، فأخبر بذلك ، فعجب وقال : أردت أمراً وأراد الله غيره ، ويأبى الله إلا ما يريد ، أردت طول بقائها ، وأراد الله سرعة فنائها وخرابها وتداول الملوك إياها .

وإن الإسكندرية لما أحكم بنيانها وأثبت أساسها وجن الليل عليهم خرجت

---

(1) فى ا « وطالع سعد يأخذه » .

دواب من البحر فأتت على جميع ذلك البنيان ، فقال الإسكندر حين أصبح : هذا بدء الخراب فى عمارتها ، وتحقق مراد البارى فى زوالها ، وتطير من فعل الدواب ، فلم يزل البناء يُبْنَى فى كل يوم ويحكم ، ويوكل به من يمنع الدواب إذا خرجت من البحر ، فيصبحون وقد أخرب البنيان ، فقلق الإسكندر لذلك ، وراعه ما رأى ، فأقبل يفكر ما الذى يصنع ، وأى حيلة تنفع[1] فى دفع الأذية عن المدينة ، فسنحت له الحيلة فى ليلته عند خلوته بنفسه وإيراده الأمورَ وإصدارها ، فلما أصبح دعا بالصناع فاتخذوا له تابوتاً من الخشب طوله عشرة أذرع فى عرض خمس ، وجعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باستدارتها ، وقد أمسك ذلك بالقار والزفت وغيره من الأطلية الدافعة للماء ، حذراً من دخول الماء إلى التابوت ، وقد جعل فيها مواضع للحبال ، ودخل الإسكندر فى التابوت هو ورجلان معه من كتابه ممن له علم بإتقان التصوير [ومبالغة فيه] وأمر أن تسد عليهم الأبواب ، وأن تطلى بما ذكرنا من الأطلية ، وأمر فأتى بمركبين عظيمين ، فأخرجا إلى لجة البحر ، وعلق على التابوت من أسفله مثقلات الرصاص والحديد والحجارة لتهوى بالتابوت سفلا إذ كان من شأنه لما فيه من الهواء أن يطفو فوق الماء ولا يرسب فى أسفله ، وجعل التابوت بين المركبين[2] ، [فألصقهما بخشب بينهما لئلا يفترقا ، وشد حبال التابوت إلى المركبين][3] وطَوَّلَ حباله ، فغاص التابوت حتى انتهى إلى قرار البحر ، فنظروا إلى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف فى صفاء ماء البحر ؛ فإذا هم بشياطين[4] على مثال الناس رءوسهم على مثال رؤوس السباع ، وفى أيدى بعضهم الفؤوس ، وفى أيدى بعض المناشير والمقامع ، يحاكون بذلك صناع المدينة والفَعَلَة وما فى أيديهم من آلات البناء ، فأثبت الإسكندر ومن معه

---

(١) فى ب « وأى حيلة يوقع » (٢) فى ب « إلى المركبين »
(٣) مابين المعقوفين ساقط من ب (٤) فى ا « فإذا بصور شياطين »

تلك الصور وأحكموها[1] بالتصوير في القراطيس، على اختلاف أنواعها وتشوه خلقتهم وقدودهم وأشكالهم، ثم حرك الحبال ، فلما أحس بذلك مَنْ في المركبين جذبوا الحبال وأخرجوا التابوت ، فلما خرج الإسكندر من التابوت وسار إلى مدينة الإسكندرية أمر صناع الحديد والنحاس والحجارة فصنعوا تماثيل تلك الدواب على ما كان صوره الإسكندر وصاحباه، فلما فرغوا منها وضعت الصور على العمد بشاطئ البحر ، ثم أمرهم فبنوا ، فلما جن الليل ظهرت تلك الدواب والآفات من البحر ، فنظرت إلى صورها على العمد مقابلة إلى البحر ، فرجعت إلى البحر ولم تعد بعد ذلك .

ثم لما بنيت الإسكندرية وشيدت أمر الإسكندر أن يكتب على أبوابها «هذه الإسكندرية، أردت أن أبنيها على الفلاح والنجاح واليمن والسعادة والسرور والثبات في الدهور[2]، فلم يرد البارى عز وجل ملك السموات والأرض ومفنى الأمم أن نبنيها كذلك ، فبنيتها وأحكمت بنيانها ، وشيدت سورها ، وآتاني الله من كل شيء علما وحكما ، وسهل لي وجوه الأسباب ، فلم يتعذر على شيء في العالم مما أردته، ولا امتنع عني شيء مما طلبته ، لطفا من الله عز وجل ، وصنعا لي، وصلاحا لي ولعباده من أهل عصري ، والحمد لله رب العالمين ، لا إله إلا الله رب كل شيء».

ورسم الإسكندر بعد هذه الكتابة كل ما يحدث ببلده من الأحداث بعده في مستقبل الزمان : من الآفات[3]، والعمران ، والخراب ، وما يؤول إليه إلى وقت دثور العالم .

وكان بناء الإسكندرية طبقات ، وتحتها قناطر مقنطرة ، عليها دور المدينة[4] ، يسير تحتها الفارس وبيده رمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التي تحت المدينة، وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق، وتنفسات للضياء[5] ، ومنافذ للهواء .

---

(١) في ا « وحكاها بالتصوير من القراطيس » .

(٢) في ا « على الدهور » (٣) في ا « من الأحداث »

(٤) في ب « كما تدور المدينة » (٥) في ا « ومتنفسات للضياء »

وقد كانت الإسكندرية تضىء بالليل بغير مصباح ، لشدة بياض الرخام والمرمر ، وأسواقها وشوارعها وأزقتها مقنطرة بها لئلا يصيب أهلها شىء[1] من المطر ، وقد كان عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة ألوانها ، بينها خنادق ، وبين كل خندق وسور فصلان[2] ، وربما علق على المدينة شقاق الحرير الأخضر ؛ لاختطاف بياض الرخام أبصارَ الناسِ لشدة بياضه.

فلما أحكم بناؤها ، وسكنها أهلها ، كانت آفات البحر وسكانه — على ما زعم الإخباريون من المصريين والإسكندريين — تختطف بالليل أهل [هذه] المدينة ، فيصبحون وقد فقد منهم العدد الكثير .

المسال

ولما علم الإسكندر بذلك اتخذ الطلسمات على أعمدة هناك تدعى المسالّ ، وهى باقية إلى هذه الغاية ، وكل واحد من هذه الأعمدة على هيئة السَّرْوَة ، وطول كل واحد منها ثمانون ذراعا ، على عمد من نحاس وجعل تحتها صوراً وأشكالا وكتابة ، وذلك عند انخفاض درجة من درجات الفلك وقربها من هذا العالم، وعند أصحاب الطلسمات من المنجمين والفلكيين أنه إذا ارتفع من الفلك درجة وانخفض أخرى فى مدة يذكرونها من السنين نحو ستمائة سنة تأتى فى هذا العالم فعل الطلسمات [النافعة][3] المانعة والدافعة ، وقد ذكر هذا جماعة من أصحاب الزيجات والنجوم وغيرهم من مصنفى الكتب فى هذا المعنى ، ولهم فى ذلك سر من أسرار الفلك ليس كتابنا هذا موضعاً له، ولغيرهم ممن ذهب إلى أن ذلك للطف قوى الطبائع التام[4] وغير ذلك مما قاله الناس، وما ذكرنا من درج الفلك فموجود فى كتب من تأخر من علماء المنجمين والفلكيين ، كأبى معشر البلخى ، والخوارزمى ، ومحمد بن كثير الفرغانى ، وماشاء الله ، وحبش[5] ، واليزيدى،

(١) فى ا « مقنطرة كلها لايصيب أهلها شىء من المطر »
(٢) فى ب « بين كل خندق وسور فصول»
(٣) هذه الكلمة لاتوجد فى ا
(٤) فى ا « إلى أن ذلك ألطف قوى الطبائع التامة »
(٥) فى ب « وحسن »

ومحمد بن جابر البتانى فى زيجه الكبير ، وثابت بن قرة ، وغير هؤلاء ممن تكلم فى علوم هيآت الفلك والنجوم .

منارة الإسكندرية

قال المسعودى : فأما منارة الإسكندرية فذهب الأكثر من المصريين والإسكندرانيين ممن عنى بأخبار بلدهم - إلى أن الإسكندر بن فيلبس[1] المقدونى هو الذى بناها على حسب ماقدمنا فى بناء المدينة ، ومنهم من رأى أن دلوكة الملكة هى التى بنتها ، وجعلتها مرقبا لمن يرد من العدو إلى بلدهم ، ومنهم من رأى أن العاشر من فراعنة مصر هو الذى بناها ، وقد قدمنا ذكر هذا الملك فيما سلف من هذا الكتاب ، ومنهم من رأى أن الذى بنى مدينة رومية هو الذى بنى مدينة الإسكندرية ومنارتها والأهرام بمصر ، وإنما أضيفت الإسكندرية إلى الإسكندر لشهرته بالاستيلاء على الأكثر من ممالك العالم فشهرت به ، وذكروا فى ذلك أخبارا كثيرة ، يدلون بها على ما قالوا ، والإسكندر لم يطرقه فى هذا البحر عدو ، ولاهاب ملكا يرد إليه فى بلده ويغزوه فى داره ؛ فيكون هو الذى جعلها مرقبا ، وإن الذى بناها جعلها على كرسى من الزجاج على هيئة السرطان فى جوف البحر وعلى طرف اللسان الذى هو داخل فى البحر من البر ، وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره ، وفيها تمثال[2] قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك[3] ، وإذا علت فى الفلك فأصبعه مشيرة نحوها فإذا انخفضت انخفضت يده سفلا ، يدور معها حيث دارت ، ومنها تمثال يشير بيده إلى البحر إذا سار العدو منه على نحو من ليلة، فإذا دنا وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من ميلين أو ثلاثة ، فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم ، فيرمقونه بأبصارهم ، ومنها تمثال كلما مضى من الليل والنهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف ما صوت فى الساعة التى قبلها ، وصوته مُطرِب .

---

(١) فى ب « الإسكندر بن فليبش »

(٢) فى ا « فمنها تمثال » (٣) فى ا « أين كانت من الفلك »

حيلة لهدم المنارة

وقد كان ملك الروم فى مدة الوليد[1] بن عبد الملك بن مروان أنفذ خادماً من خواص خدمه ذا رأى ودهاء [سراً][2] ، وجاء مستأمناً إلى بعض الثغور ، فورد بآلة حسنة ، ومعه جماعة ، فجاء إلى الوليد فأخبره أنه من خواص الملك ، وأنه أراد قتله لمَوْجِدَةٍ وحالٍ بلغته عنه لم يكن لها أصل ، وأنه استوحش منه ، ورغب فى الإسلام ، فأسلم على يد[ى] الوليد ، وتقرب من قلبه ، وتنصح إليه فى دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن ، فلما رأى الوليد تلك الأموال والجواهر شَرِهَتْ نفسه ، واستحكم طمعه ، فقال له الخادم : يا أمير المؤمنين ، إن ههنا أموالا وجواهر ودفائن للملوك ، فسأله الوليد عن الخبر ، فقال : تحت منارة لإسكندرية أموال الأرض ، وذلك أن الإسكندر احتوى على الأموال والجواهر التى كانت لشداد بن عاد وملوك العرب بمصر والشام ، فبنى لها الآزاج تحت الأرض ، وقَنْطَر لها الأقباء والقناطر والسراديب ، وأودعها تلك الذخائر من العين والوَرِق والجواهر وبنى فوق ذلك هذه المنارةَ ، وكان طولها فى الهواء ألف ذراع ، والمرآة على علوها والدبادبة جلوس[3] حولها ، فإذا نظروا إلى العدو فى البحر [فى ضوء تلك المرآة][4] صوتوا بمن قرب منهم ، ونصبوا ونشروا أعلاماً فيراها من بَعُدَ منهم فيحذَر الناس وينذر البلد ، فلا يكون للعدو عليهم سبيل ، فبعث الوليد مع الخادم بجيش وأناس من ثقاته وخواصه فهدَمَ نصف المنارة من أعلاها ، وأزيلت المرآة ؛ فضجَّ الناس من أهل الإسكندرية وغيرها ، وعلموا أنها مكيدة وحيلة فى أمرها ، ولما علم الخادم استفاضة ذلك ، وأنه سينمى إلى الوليد ، وأنه قد بلغ ما يحتاج إليه هرب فى الليل فى مركب كان قد أعده ، وواطأ قوما على ذلك من أمره ، فتمت حيلته ، وبقيت المنارة على ما ذكرنا

(١) فى ا « فى ملك الوليد بن عبد الملك »

(٢) مابين المعقوفين ساقط من ب (٣) فى ا « والدبادب جلوس »

(٤) هذه العبارة لاتوجد فى ا

إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة — وكان حوالى | منارة | الإسكندرية فى البحر مَغاصٌ يخرج منه قطع من الجواهر تتخذ منه فصوص للخواتم يشبه أنواعا من الجواهر : منه السكركهن والأدرك[1] وأشباد جشم ، ويقال : إن ذلك من الآلات التى كان اتخذها الإسكندر للشراب ، فلما مات كسرتها أمه ورمتْ بها فى تلك المواضع من البحر ، ومنهم من رأى أن الإسكندر اتخذ ذلك النوع من الجوهر وغرّقه حول المنارة لكيلا يخلو من الناس حولها ؛ لأن من شأن الجوهر أن يكون مطلوبا أبدا فى كل عصر فى معدنه[2] برا كان أو بحرا ، فيكون الموضع على دوام الأوقات بالناس معمورا ، والأكثر مما يستخرج من الجوهر حول منارة الإسكندرية الأشباد جشم ، وقد رأيت كثيرا من أصحاب التلويحات وممن عُنى بأعمال الجواهر المنسوبة بالمغرب[3] يعمل هذه الجواهر المعروفة بالأشباد جشم ، ويتخذ منه الفصوص[4] وغيرها ، وكذلك الفصوص المعروفة بالباقلمون وهى ترى ألوانا مختلفة من حمرة | وخضرة | وصفرة تتلون فى المنظر ألوانا مختلفة على حسب ما قدمنا ، والتلون من ذلك على حسب الجوهر فى صفائه واختلاف نظر البصر فى إدراكه ، وتلون هذا النوع من الجوهر أعنى الباقلمون — نحو تلون ريش | صدر | الطواويس ؛ فإنها تتلون ألوانا مختلفة بأذنابها وأجنحتها أعنى الذكور دون الإناث - وقد رأيت منها بأرض الهند ألوانا تظهر لحس البصر عند تأملها ، لا تدرك ولا تحصى ، ولا تشبه بلون من الألوان ؛ لما يترادف[5] من تموج الألوان فى ريشها ، ويأتى ذلك منها لعظم خلقها وكبر أجسامها وسعة ريشها ؛ لأن للطواويس بأرض الهند شأنا عجيبا ، والذى يحمل منها إلى أرض الإسلام ويخرج عن أرض الهند فيبيض ويفرخ يكون صغيرة الأجسام ، كدرة الألوان ،

الطواويس

(١) فى ا « منه السكركن والأذرك والأسباد جشم »

(٢) فى ا « فى سائر الأعصار فى معدنه »

(٣) فى ب « المشبهة بالمعدنية » (٤) فى ب « النصول وغيرها »

(٥) فى ب « لما يتراءى من تموج الألوان »

لا تخطف أنوار الأبصار بإدراكها[١] ، وإنما تشبه بالهندية بالشبه اليسير ، هذا فى الذكور منها دون الإناث .

وكذلك شجر النارنج والأترج المدور ، حمل من أرض الهند إلى أرض غيرها بعد الثلثمائة ، فزرع بعمان ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام ، حتى كثر فى دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية وأنطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر ، وما كان يعهد ولا يعرف ، فعدمت منه الروائح الخمرية[٢] الطيبة ، واللون الحسن الذى يوجد فيه بأرض الهند ؛ لعدم ذلك الهواء والتربة والماء وخاصية البلد .

سر بناء المنارة

ويقال : إن هذه المنارة إنما جعلت المرآة فى أعلاها ؛ لأن ملوك الروم بعد الإسكندر كانت تحارب ملوك مصر والإسكندرية[٣] ، فجعل من كان بالإسكندرية من الملوك تلك المرآة تُرِى من يرد فى البحر من عدوهم ، إلا أن من يدخلها يتيه فيها إلا أن يكون عارفاً بالدخول والخروج فيها لكثرة بيوتها وطبقاتها[٤] ومَمَارقها ،وقد ذكر أن المغاربة حين وافوا فى خلافة المقتدر فى جيش صاحب المغرب دخل جماعة منهم على خيولهم إلى المنارة فتاهوا فيها ، وفيها طرق تؤول إلى مَهَاوٍ تهوى إلى سرطان الزجاج[٥] ، وفيها مخارق[٦] إلى البحر فتهوَّروا بدوابهم ، وفقد منهم عدد كثير ، وعلم بهم بعد ذلك ، وقيل : إن تهورهم كان فى كرسى[٧] بها قدامها ، وفيها مسجد فى هذا الوقت يرابط فيه [فى الصيف][٨] متطوعة المصريين وغيرهم .

ولبلاد مصر والإسكندرية [والمغرب][٨] وبلاد الأندلس ورومية وما فى الشرق واليمن والمغرب[٩] أخبار كثيرة فى عجائب البلدان والأبنية والآثار وخواص

(١) فى ا « لاتعطى أنوارا للأبصار بإدراكها »
(٢) فى ا « الروائح الحمرة » (٣) فى ب « على الإسكندرية »
(٤) فى ب « ومجراتها » (٥) فى ب « السرطان الزجاج »
(٦) فى ا « مخاريق إلى البحر » (٧) فى ا « كرسى لها قدامها »
(٨) مابين القوسين لايوجد فى ب
(٩) فى ا « وما فى النرق والغرب والجدى والتيمن »

البقاع وما يؤثر فى ساكنيها وقطانها أعرضنا عن ذكرها ؛ إذ كنا قد أتينا على الأخبار عنها فيما سلف من كتبنا من عجائب العالم وحيوانه وبره وبحره ، فأغنى ذلك عن إعادة ذكره

ولم نتعرض فيما سلف من هذا الكتاب لذكر بيوت النيران والهياكل المعظمة والبيوت المشرفة وغير ذلك مما يليق بمعناها[1] ، بل نذكرها فى الموضع المستحق لها[2] من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى ا « مما يلحق بمعناها » . (٢) فى ب « المستحق بها » .

قد تم — بحمد الله تعالى ، وحسن توفيقه — مراجعة الجزء الأول من
كتاب « مروج الذهب ، ومعادن الجوهر » للمسعودى ، ويليه — إن شاء
الله تعالى — الجزء الثانى ، مفتتحاً بذكر السودان وأنسابهم ، نسأل الله
أن يمن بإتمامه ، ويعين على ذلك بفضله وكرمه ومِنَّته .

فهرس الموضوعات

الواردة فى الجزء الأول من كتاب

« مروج الذهب ، ومعادن الجوهر » للمسعودى



فهرس الموضوعات

الواردة فى الجزء الأول من كتاب « مروج الذهب ، ومعادن الجوهر »
لأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى

تمت فهرست الجزء الأول

من كتاب «مروج الذهب، ومعادن الجوهر» للمسعودى

والحمد لله أولا وآخرا ؛ وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه







مروج الذهب

ومعادن الجوهر

تصنيف الرحالة الكبير ، والمؤرخ الجليل
أبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى
المتوفى فى عام ٣٤٦ من الهجرة

الجزء الثانى

بتحقيق
محمد محيى الدين عبد الحميد
عفا الله تعالى عنه !

دار الفكر

الطبعة الخامسة ـ ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م

تمتاز بدقة الضبط ، والزيادة فى الشرح والتفصيل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهْلِ الحمد ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه وجنده

ذكر السودان ، وأنسابهم ، واختلاف أجناسهم ، وأنواع
وتباينهم فى ديارهم ، وأخبار ملوكهم

ولد كوش ابن كنعان ومساكنهم

قال المسعودى : [و] لما تفرق ولد نوح فى الأرض سار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر ، ثم افترقوا فسارت منهم طائفة مُيَمِّنة[1] بين المشرق والمغرب وهم النوبة والبجة والزنج ، وسار فريق منهم نحو المغرب وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والكانم ومركه وكوكو وغانة وغير ذلك من أنواع السودان[2] والدمادم ، ثم افترق الذين مضوا بين المشرق والمغرب ، فصارت الزنج من المكير والمشكر[3] وبربرا وغيرهم من أنواع الزنج ، وقدمنا فيما سلف عند ذكرنا للبحر الحبشى ، الخليج البربرىَّ وما عليه من أنواع السودان واتصالهم فى ديارهم إلى بلاد الدهلك والزيلع وناصع ، وهؤلاء القوم أصحاب جلود النمور الحمر[4] وهى لباسهم ، ومن أرضهم تحمل إلى بلاد الإسلام ، وهى أكبر ما يكون من جلود النمورة وأحسنها للسروج ، وبحر الزنج والأحابش هو عن يمين بحر الهند ، وإن كانت مياههما متصلة ، ومن أرضهم يحمل لذبل[5] من ظهور السلاحف ، وهو الذى تتخذ منه الأمشاط كالقرون ، وأكثر ما تكون الدابة المعروفة بالزرافة فى أرضهم ، وإن كانت عامة الوجود فى أرض النوبة دون سائر بلاد الأحابش .

الزرافة

وقد تنوزع فى نتاج هذا النوع من الدواب المعروفة بالزرافة ؛ فمنهم من رأى أن بدء نتاجها من الإبل ، ومنهم من رأى أن ذلك كان بجمع بين الإبل والنمورة[6] وأن الزرافة ظهرت من ذلك ، ومنهم من زعم أنه نوع من

---

(١) فى ا « متيمنين » .

(٢) فى ب « نحو الزغاوة والفافو ومرك وكوكو والحمى وغانة وغير ذلك من أنواع الأحابش والدمادم » . (٣) فى ب « من المكين والمسكون وبربرا »

(٤) فى ب « النمور والحمير » (٥) فى ب « الذجل » .

(٦) فى ب « كان يجمع بين الإبل والزرافة ، وأن النمور » .

الحيوان قائم بذاته كقيام الخيل والحمير والبقر ، وأن ليس سبيلها كسبيل البغال المولدة من [النتاج بين] الخيل والحمير ، وتدعى الزرافة بالفارسية اشتركاو[1] ، وقد كانت تُهْدَى إلى ملوكهم من أرض النوبة كما تحمل إلى ملوك العرب ومَنْ مضى من خلفاء بنى العباس وولاة مصر ، وهى دابة طويلة اليدين والرقبة ، قصيرة الرجلين ، لا ركبتين لرجليها وإنما الركبتان ليديها ، وقد ذكر الجاحظ فى كتاب الحيوان عند ذكر الزرافة كلاماً كثيراً فى نتاجها ، وأن فى أعالى بلاد النوبة يجتمع سباع ووحوش ودواب كثيرة فى حَمَارَّةِ القيظ[2] إلى شرائع المياه ، فتتسافد هنالك ، فيلقح منها ما يلقح ويمتنع منها مايمتنع ، فيجىء من ذلك خلق كثير مختلفون فى الصور والأشكال ؛ منها الزرافة ذات الأظلاف ، وهى دابة منحنية إلى خلفها ، منصوبة الظهر إلى مؤخرها ، وذلك لقصر رجليها ، وللناس فى الزرافة كلام كثير على حسب ما قدمنا فى بدء نتاجها ، وأن النمور ببلاد النوبة عظيمة الخلق ، وأن الإبل صغيرة الخلق قصيرة القوائم ، وأن ذلك كاتساع أرحام القِلَاصِ العربية ، لفوالج كرمان[3] وغيرها من إبل خراسان ، فيظهر بينهما ويتولد عنهما الجمال البُختُ والجمازات[4] ، ولا ينتج بين بختى وبختية ، وإنما يصح هذا النوع من الإبل بين فوالج الإبل[5] ، وهى ذات السنامين ، وبين قِلَاصِ الإبل ، وهى النوق العربية ، وكنتاج البُخْتِ بين البجاوية والمهرية ، وللزرافة أخبار كثيرة قد ذكر ذلك صاحب المنطق فى كتابه الكبير [فى الحيوان] ومنافع أعضائها وغير ذلك من سائر أعضاء الحيوان ، وقد أتينا على جميع ما يحتاج إليه من ذلك فى كتابنا المترجم بـ « القضايا والتجارب » .

والزرافة عجيبة الفعل فى إلفها، وتوددها إلى أهلها ، وهى كالفيلة: منها وحشية، ومنها مستأنسة أهلية ، مع من قدمنا ذكره من الزنوج والأجناس من الأحابش

(١) فى ب « اشتراكا » .
(٢) فى ا « حرارة القيظ » .
(٣) فى ب « لحوائج الزمان » .
(٤) فى ب « الجمارات » .
(٥) فى ب « بين نواتج الإبل » .

الذين صاروا عن يمين النيل، ولحقوا بأسافل البحر الحبشى، وقطعت الزنج دون سائر الأحابش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذى يصبُّ إلى بحر الزنج، فسكنت الزنج فى ذلك الصقع، واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة، وهى أقاصى بلاد الزنج، وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين، وهى غاية مقاصدهم فى [أسافل] بحر الزنج كما أن أقاصى بحر الصين متطل ببلاد السيلى، وقد تقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب، وكذلك أقاصى بحر الزنج هو بلاد سفالة[1]، وأقاصيه بلاد الواق واق، وهى أرض كثيرة الذهب، كثيرة العجائب، خصبة[2] حارة.

وقليمى ملك الزنج

وَاتخذها الزنج دار مملكة، وَملَّكوا عليهم ملكا سموه وَقليمى[3]، وَهى سمة لسائر ملوكهم فى سائر الأعصار على ماقدمنا آنفاً، وَيركب وَقليمى — وَهو يملك ملوك سائر الزنوج — فى ثلثمائة ألف فارس، وَدوَابهم البقر، وَليس فى أرضهم خيل وَلا بغال وَلا إبلٌ، وَلا يعرفونها، وَكذلك لا يعرفون الثلج وَالبرد، وَلا غيرهم من الأحابش، وَمنهم أجناس محدَّدة الأسنان يأكل بعضهم بعضاً.

وَمساكن الزنج من حد الخليج المتشعب من أعلى النيل إلى بلاد سفالة وَالواق وَاق، وَمقدار مسافة مساكنهم وَاتصال مقاطنهم فى الطول وَالعرض نحو سبعمائة فرسخ أوْدية وَجبال وَرمال.

وَالفيلة فى بلاد الزنج فى نهاية الكثرة، وَحشية كلها غير مستأنسة، وَالزنج لا تستعمل منها شيئاً فى حروب ولا غيرها، بل تقتلها، وَذلك أنهم يطرحون لها نوعاً من وَرق الشجر وَلحائه وَأغصانه يكون بأرضهم فى الماء، وَيختفى رجال الزنج، فترد الفيلة لشربها، فإذا وردت وشربت من ذلك الماء [حرقها و] أسكرها، فتقع، ولا مفاصل لقوائمها ولا رُكَب على حسب ماقدمنا، فيخرجون إليها بأعظم ما يكون من الحِرَاب فيقتلونها لأخذ أنيابها؛ فمن أرضهم تجهز أنياب

(١) فى ا « وكذلك أقاصى بحر الزنج وبلاد سفالة وأقاصى بلاد واق واق ».

(٢) فى ب « حصينة حارة ». (٣) فى ب « لوقليمن ».

الفيلة ، فى كل ناب منها خمسون ومائة مَنٍّ ، بل أكثر من ذلك [والاثنان منها ثلثمائة مَنٍّ ، وأكثر من ذلك][1] فيجهز الأكثر منها من بلاد عمان إلى أرض الصين والهند ، وذلك أنها تحمل من بلاد الزنج إلى عمان ، ومن عمان إلى حيث ذكرنا ، ولولا ذلك لكان العاج بأرض الإسلام كثيراً ، وأهل الصين يتخذ ملوكها وقوادها وأراكنتها الأعمدة من العاج ، ولا يدخل قُوَّادها ولا أحد من خواصها على ملوكها بشىء من الحديد ، بل بتلك الأعمدة المتخذة من العاج ، ورغبتهم فيما استقام من أنياب الفيلة ولم يتقوس؛ لاتخاذ الأعمدة منها على ما ذكرنا ، ويستعمل العاج فى دخن بيوت أصنامها وأبخرة هياكلها ، كاستعمال النصارى فى الكنائس الدخنة المعروفة بدخنة مريم وغيرها من الأبخرة ، وأهل الصين لا يتخذون الفيلة فى أرضهم ، ويتطيرون من اقتنائها [عندهم][2] والحربِ عليها ؛ لخبر كان لهم فى قديم الزمان فى بعض حروبهم .

لعب الشطرنج ومقامرة الهند به

والهند كثيرة الاستعمال لما يجهز إليهم من العاج فى نُصُب الخناجر ، وهى الحرارى[2] ، واحدها حَرِّى ، وفى قوائم سيوفها ، وهى القراطل ، واحدها قرطل ، وهى سيوف معوجة ، والأغلب فى استعمال الهند العاج اتخاذها منه الشطرنج والنرد ، والشطرنج ذو صور وأشكال على صور الحيوان من الناطقين وغيرهم ، كل قطعة من الشطرنج كالشبر فى عرض ذلك بل أكثر، فإذا لعبوا بها فإنما يقوم الواحد[منهم]قائماًفينقلها فى بيوتها ،والأغلب عليهم القمار فى لعبهم بالشطرنج والنرد على الثياب والجواهر ، وربما أنفد الواحد منهم ما معه فيلعب فى قَطْع عضو من أعضاء جسمه ، وهو أن يجعلوا بحضرتهم قدراً من النحاس صغيرة على نار فحم فيها دهن لحم أحمر فيغلى ذلك الدهن المدمل

---

(١) هذه الزيادة لاتوجد فى ا (٢) فى ب « الحرازى واحدها حرزى »

للجراح والماسك لسيلان الدم ، فإذا لعب فى أصبع من أصابعه وقُمِرَ[1] قطعها بذلك الخنجر ، وهو مثل النار ، ثم غمس يده فى ذلك الدهن ، فكواها ، ثم عاد إلى لعبه ، فإذا توجه عليه اللعب أبان أصبعاً ثانية ، وربما توجه عليه اللعب فى قطع الأصابع والكف ثم الذراع والزند وسائر الأطراف ، وكل ذلك يستعمل فيه الكى بذلك الدهن ، وهو دهن عجيب يعمل من أخلاط وعقاقير بأرض الهند عجيب المعنى ، لما ذكرنا ، وما ذكرناه عنهم فمستفيض من فعلهم .

الفيل ببلاد الهند

والهند تتخذ الفيلة [فى بلادها][2] وتتناتج فى أرضها ، ليس فيها وحشية ، وإنما هى حربية ومستعملة كاستعمال البقر والإبل ، وأكثرها يأوى [إلى] المروج [والضياع][2] والغياض كالجواميس فى أرض الإسلام ، والفيلة تهرب من المكان الذى يكون فيه الكركدن على حسب ما قدمنا ، فلا ترعى فى موضع تشم فيه رائحة الكركدن ، ويعمر الفيل بأرض الزنج[3] نحواً من أربعمائة سنة ، كذلك يذكر الزنج ؛ لأنها تعرف فى ديارها ومفاوزها ، والفيل العظيم مما لا يتأتى لهم قتله ، ومنها الأسْوَدُ والأبيض والأبلق والأغبر ، وفى أرض الهند منها ما يعمر المائة سنة والمائتين ، ويضع حمله فى كل سبع سنين .

حيوان الزبرق

ولها بأرض الهند آفة عظيمة نوع من الحيوان يعرف بالزبرق[4] ، وهى دابة أصغر من الفهد أحمر ذو زَغَب وعينين براقتين [عجيبة][2] سريع الوثبة ، يبلغ فى وثبته الثلاثين والأربعين والخمسين ذراعاً ، وأكثر من ذلك ، فإذا أشرف على الفيل رشش عليه بوله بذنبه فيحرقها . وربما لحق الإنسان فأتى عليه ، وفى الهند مَنْ إذا أشرفت عليه هذه

---

(١) قمر — بالبناء للمجهول — غلب فى لعب القمار .

(٢) الزيادة عن ب .

(٣) فى ب « بأرض الهند » . (٤) فى ب « بالزبرقان » .

الدابة تعلق بأكبر ما يكون من [شجر] الساج ، وهي أكبر من النخل وأكبر من شجر الجوز ، يُكِنُّ الشجرة منها الخلق الكثير من الناس وغيرهم من الحيوان على حسب ما يحمل إلى البصرة والعراق ومصر من خشب الساج في طوله ، فإذا تعلق الإنسان بأعلى تلك الشجرة وعجز هذا الحيوان عن إدراكه لصق بالأرض[1] ووثب إلى أعلى الشجرة ، فإن لم يلحق الإنسان في وَثْبته رشش من بوله إلى أعلى الشجرة ، وإلا وضع رأسه في الأرض وصاح صياحا عجيباً ، فيخرج من فيه قطع دم ويموت من ساعته ، وأي موضع من الشجر سقط عليه بوله أحرقه ، وإن أصاب الإنسان شيء من بوله أتلفه ، وكذلك سائر الحيوان .

وملوك الهند تتخذ في خزائنها مرارة هذه الدابة ، ومذاكيره ، ومواضع من أعضائه ، وهو السم القاتل من ساعته ، ومنه ما يسقى به السلاح فيتلف من فوره ، ومذاكير هذه الدابة كمذاكير كلب الماء الذي يخرج منه الجند بادستر ، وهذا الكلب [أمره] مشهور عند الصيادلة[2] وغيرهم ، وهو اسم فارسي معرب ، وإنما هو كند وتفسير ذلك الخصية ، فعرب فقيل جندبادستر .

والدابة المتقدم ذكرها المعروفة بالزرق لا تأوي إلى موضع يكون فيه النوشان ــ وهو الكركدن ــ وتهرب منه كما يهرب منه الفيل أيضاً ، والفيل يهرب من السنانير — وهي القطاط — ولا يقف لها البتة إذا أبصرها ، وقد ذكر عن ملوك الفرس أنها كانت توقى الفيلة المقاتلة بالرجالة حولها ومراعاة حيل الأعداء عند الحرب بتخلية السنانير عليها ، وكذلك أفعال ملوك السند والهند إلى هذه الغاية ، وقد ذكر أن الخنازير ربما تهرب منها الفيلة .

وقد كان رجل بالمولتان من أرض السند يدعى هارون بن موسى مولى الأزد ، وكان شاعراً شجاعاً ذا رياسة في قومه ومَنَعَة بأرض السند مما يلي أرض المولتان ، وكان في حصن له ، فالتقى مع بعض ملوك الهند وقد قدمت الهند أمامها الفيلة ،

---

(١) في ا « لطيء بالأرض » .

(٢) في ا « عند الصيادين وغيرهم » .

فبرز هارون بن موسى أمام الصف وقصد لعظيم [من] الفيلة وقد خبأ تحت ثوبه سنورا ، فلما دنا فى حملته من الفيل خلّى القط عليه ، فولّى الفيل منهزماً لما بصر بذلك الهر ، وكان ذلك هزيمة الجيش ، وقتل الملك ، وغلبة المسلمين عليهم ، ولهارون بن موسى قصيدة يصف فيها ما ذكرناه[1] ، وهى :

أليس عجيباً بأن تلقه ... له فطن الأسد فى جرم فيل[2]
وأطرف من نسبه زوله ... بحلم يجل عن الخنشبيل
أليس عجيباً بأن تلقه ... غايظ الدراك لطيف الحْويل
وأرقص مختلف خلقه ... طويل النيوب قصير النصيل
ويخضع لليث ليث العَرِين ... فإن ناشب الهر من رأس ميل
ويلقى العدو بناب عظيم ... وجوف رحيب وصوت ضئيل
وأشبه شىء إذا قسته ... بخنزير بر وجاموس غيل
ينازعه كل ذى أربع ... فما فى الأنام له من عَدِيل
ويعصف بالبَبْرِ بعد النمور ... كما تعصف الريح بالعندبيل
وشخص ترى يده أنفه ... فإن وصلوه فسيف صقيل
وأقبل كالطَّوْد هادى الخميس ... بصوت شديد أمام الرعيل
فمرَّ بسيل كسيل الأتىِّ ... بخطو خفيق وجرم ثقيل
فإن سُمْتَهُ زاد فى هوله ... بشاعة أذنين فى رأس غول
وقد كنت أعددت هراً له ... قليل التهيب للزندبيل
فلما أحسَّ به فى العجاج ... أتانا الإله بفتح جليل

---

(١) خمسة الأبيات الأولى مختلفة الترتيب فى ا ، ب . وفى جميع الأبيات اختلاف فى بعض الألفاظ ، وقد اخترنا منها عبارة ا .

(٢) فى ا « فطن الإنس » .

وطار وراغَمَ فَيَّاله بقلب نخيب وجسم ثقيل
فسبحان خالقه وحـــده إله الأنام ورب الفيول

العندبيل : طائر صغير يكون بأرض السند والهند، تذكره الشعراء في أشعارها تمثلا به لصغره ، والزندبيل : هو العظيم من الفيلة والمقدم فيها ، وقد قيل : إن الزندبيل هو اسم لما اشتد فى الحرب من إناث الفيلة ، وقد ذكر بعض الشعراء فى هذا المعنى الزندبيل عند ذكره للفيل فقال :

ذاك الذى مشفره طوبل وهو من الأفيال زندبيل

وقال آخر :

* وفيلُهُ كالطودُ زنديل *(١)

وقد ذكر عمرو بن بحر الجاحظ فى كتاب الحيوان هذه القصيدة ، وفسر بعض أبياتها، وذكر فى معنى الخنشبيل وتفسيره قول الأنصارى فى صفة النحل :

[تبيض العشـــاء بأذنابها وفى مَدَرِ الأرض عنها فضول](٢)
ويشبعها المص مص الثرى إذا عاجت الشاة والخنشبيل(٣)

قال : وهذا غير قوله :

قد علمت جارية عُطبُول أنى بنصل الصيف خَنْشَبِيلُ

والفيلة لا تنتج ولا تتوالد إلا بأرض الزنج والهند، ولا تعظم أنيابها بأرض السند والهند على حسب ما تعظم بأرض الزنج، والزنج تتخذ من جلود الفيلة الدَّرَقَ وكذلك الهند ، ولا يلحق ذلك فى المنعة شىء من الدرق الصينى والتبتى ، [واللمطى] والبجاوى ، ولا ما نقع فى اللبن وغير ذلك من أنواع الدرق . وخرطومه أنفه ، وبه يوصِّلُ الطعام والشراب إلى جَوْفه ، وهو شىء بين

(١) فى ب * وفيله ذو الطول زنديل * (٢) هذا البيت لا يوجد فى ا
(٣) ف ب * إذا جاعت الشاة للخنشبيل *

الغضروف واللحم والعصب ، وبه يقاتل ويضرب ، ومنه يصيح ، وليس صوت الفيل على مقدار عظم جسمه وكبر خلقه .

عناية المنصور بالفيلة

وقد كان المنصور عُنى بجمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها، وإعدادها للحروب والزينة فى الأعياد وغيرها ؛ فإنها أوطأ مراكب الملوك وأمْهَدُها ، وأخبرنى بعض الكتاب ممن يرجع إلى أدب [وَعقل] وَمعرفة بأيام الناس بمدينة السلام ، أنه اشترى بغلة فى غاية الفَرَاهة وَالحسن[1]، فكان يركبها فى مهماته وَنصرفاته ، وَكانت إذا رأت الجمال البُخْتَ أو العراب من العَمَّالة أو غيرها فى الطريق نفرت وَشَبَّتْ، وَكان يلقى منها جهداً جهيداً فيصبر على ذلك المكروه ؛ لما هى عليه من الفراهة وَالحسن[2] ، وَأنه لا يحمله غيرها لعظم جسمه وَكبر بطنه [وَسمنه] قال : فلما كان فى بعض الأيام اجتزت بباب الطاق ـ وَذلك فى أيام المقتدر، وَقد أخرج الفيلة للرياضة وَالتمهيد وَليحمل عليها الليث بن على الصفار وَأصحابه، وَقد كان مؤنس [المظفر] الخادم أسره ببلاد فارس حين خرج على السلطان ـ قال : فأشرفت على قطار من الجمال البُخْتِ منهزمة خائفة من الفيل، تجمز فى مشيتها، لا سبيل لمن عليها أن يحبسها[3] لما قد لحقها من الجزع، فلما رأت البغلة ذلك شَبَّتْ وَوَلت على عقبها ، وَرمت بى الأرض فوقعت كجلد ثور منفوخ، وَدخلت الجمال إلى درب لا ينفذ ، وَقد كانت البغلة حين رمت بى وَنفرت من الجمال دخلت ذلك الدرب ، وَجاءت الفيلة على أثر ذلك ، فلما نظرت البغلة إلى الفيلة وَعظم خلقها لحقت بالجمال وَدخلت بينها كأنها لم تزل معها وَتزلزلت كتزلزل الجمال، إذ رآنى جماعة من الناس، فرفعونى[4]، وَدخل الغلام فأخرج البغلة، وَما استطاع إخراجها حتى مضت الفيلة ، وَأخرجت من وَسط بعض الجمال، فوالله ما نفرت بعد ذلك من

---

(١) فى ا « فى نهاية من الحسن والفراهية » .

(٢) فى ا « من الفراهية والنضارة » .

(٣) فى ا « لاسبيل لمن عليها إلى ردها » .

(٤) فى ا « فعرفونى » .

جمل ، وقد ألفت الجمال حتى كأنها بعضها ؛ لاستصغارها صورة الجمل عندما شاهدت [من عظم] صورة الفيل .

عود إلى وصف الفيل

وكل حيوان ذى لسان فأصل لسانه إلى داخل ، وطرفه إلى خارج ، إلا الفيل ؛ فإن طرف لسانه إلى داخل وأصله إلى خارج ، والهند تزعم أنه لولا أن لسانه مقلوب ثم لقن الكلام لتكلم ، والهند تُشَرِّفُ الفيل ونفضله على سائر الحيوان ، لما اجتمع فيه من الخصال المحمودة : من علو سمكه ، وعظم صورته ، وبديع منظره ، واتصال صَهْوَته[1] ، وطول خرطومه ، وسَعَة أذنه ، وكبر غرموله ، مع خفة وَطْئه ، وطول عمره ، وثقل جسمه ، وقلة اكتراثه بما وضع على ظهره ، وأنه — مع كبر هذا الجسم وعظم هذه الصورة — يمر بالإنسان فلا يحس بوطئه ، ولا يشعر به [حتى يغشاه] لحسن خطوته واستقامة مشيه .

وقد وصف [عمرو بن بحر] الجاحظ الفيل فى كتاب الحيوان فأغرق فى وصفه ، وأكثر فى مدحه ، وعَدَّد معانى[2] كثيرة فى صفة الفيل وهيئته ، وما هو عليه من عجيب التركيب وغريب التأليف ، وللمعانى الصحيحة ، والإحساسات اللطيفة ، وفى قبولها التأديب [وصحة تمييزها] وسرعتها إلى التلقين والتقويم ، وما فى أبدانها من الأعضاء الكريمة ، والأجزاء الشريفة ، وكم مقدار منافعها ، ومبلغ مضارها ، وبتلك الفضيلة من الإحساس فاقت تلك الأجناس ، وما فيها من الآيات والبرهانات والعلامات النيرات التى جلاها الله لعيون خلقه ، وفرق بينها وبين عقول عباده ، وقيدها عليهم ، وحفظها لهم ، لتكثر لهم ، وتزيدبهم[3] إلى وضوح الحجة ، وتسخرهم لتمام النعمة ، وما ذكر الله فى الكتاب الناطق والخبر الصادق ، وفى الآثار المعروفة ، والأمثال المضروبة ، والتجارب الصحيحة ، وما قالت الشعراء فيه ، ونطقت به الفصحاء ، وميزته العلماء ، وعجبت منه الحكماء ، وحالها عند

(١) فى ا « وتضاؤل صوته » .

(٢) فى ا « ووعد إيراد معان » .

(٤) فى ا « وحفظها لهم لنزيدهم فى وضوح الحجة » .

الملوك ، وموضع نفعها عند الحروب، وتباينها فى العلوم ، وجلالتها فى الصدور ، وفى طول أعمارها ، وقوة أبدانها ، وفى اعتزامها[1] وتصميمها وأحقادها وشدة اكترائها، وطلبها بطوائلها ، وارتفاعها عن ملك السُّقاط واقتناء السفلة والأراذل وعن ارتخاصها فى الثمن، وارتباطها على الخَسْفِ ، وابتذالها، وإذلالها، وعن امتناع طبائعها، وتمنع غرائزها أن تصلح أبدانها وتنبت أنيابها وتعظم جوارحها وتتسافد وتتلاقح إلا فى معادنها و بلادها ومغارس أعراقها ، مع التماس الملوك ذلك منها ، وطمع القوم عليها بالتقرب بذلك منها ، حتى أعجزت الحيل ، وخرجت عن حد الطمع ، وعن الأخبار عن حملها ووضعها ومواضع أعضائها، والذى خالفت فيه الأشكال الأربعة التى تحيط بالجميع مما يستناخ[2] أو يقوم أو يمشى أو يطير ، وجميع ما ينتقل عن أولية خلقه ، وما يبقى على الطبع الأول من صورته ، وعما يتنازعه من شَبَهِ الحيوان ، وما يخالف فيه جميع الحيوان ، وعن القول فى شدة قلبه وأسْرِه وفى حدته[3] على ما هو أعظم بدناً وأشد قلباً[4] وأحَدُّ ظفراً وأذرب لساناً[5] وهربه مما هو أصغر جسما، وأكَلُّ حداً ، وأضعف أسراً ، وأخمل ذكراً، وعن الأخبار عن خصاله المذمومة، وأموره المحمودة، وعن القول فى لونه وجلده وشعره ولحمه وشحمه وعظمه وبوله ونَجْوِه ، وعن لسانه وفمه ، مع غير ذلك من المواعيد الكثيرة التى تضمن إيرادها ، فلما انتهى إلى موضع نظمها وإيراد وصفها وما أسلفه من القول فى هذه المعانى التى قَدَّمها أورد جوامع متفرقة ، ولمعاً غير متسقة فى الفيلة وغيرها ، وأعرض عن إيراد خواص أعضائها، وأكثر منافعها ، وعجيب خصالها ، وما ذكر من أسرار الطبيعة فيها، وما قالته فلاسفة الهند فى بَدْئها ، وما أثرته عمن تقدم من حكمائها فى بدء أوليتها وعلة تكوينها فى أرض الزنج والسند، دون سائر البقاع

---

(١) فى ا « وفى اعتراضها وتصميمها » .
(٢) فى ا « مما يسبح » . (٣) فى ا « وفى جرائه » .
(٤) فى ا « وأشد كلبا » . (٥) فى ا « وأذرب أنيابا » .

من الأرض ، والسبب المانع لتكونها فى غيرها ، والتضاد الذى بينها وبين الكركدن مع عظم خَلْقها ، وفرارها من السنور ، مع صغر حجم جسمه ولطافة منظره ، وعن كثرة الطرب الذى يوجد فى الفيل دون غيره من الحيوان ، وقبولها الرياضة والدربة[1] والمعرفة عند المحاورة ، والدهاء ، والخبث ، والتمييز.

وقد ذكر صاحب المنطق فى كتاب الحيوان جملا كثيرة من خصال الفيل ومنافع أعضائه ، وسلك طريقة لم يسلكها من تقدم من حكماء الهند [فى الفيل ، وما ذهب إليه حكماء الهند] من أن العالم بما فيه من الأجسام على جهات ثلاث : متفق ، ومختلف ، ومضاد ، وأن ذلك فى الجملة هو جماد ونامٍ ، وإخراجهم عن العالم الأفلاكَ والنجومَ والبروج وغير ذلك من الأجسام السماوية ، وأنها ليست بجماد ولا نام ، وأنها أحياء ناطقة[2] .

عود إلى وصف الزنج

قال المسعودى : فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه آنفاً فى صدر هذا الباب، من ذكر الزنج وبلادهم وغيرهم من أنواع الأحابش ؛ فالزنج ــ مع كثرة اصطيادها لما ذكرنا من القبلة وجمعها لعاجها ــ غير منتفعة بشىء من ذلك فى آلاتها، وإنما تتحلى الزنج بالحديد بدلا عن الذهب والفضة ، وماذكرنا من دوابهم أنها بقر ، وأنهم عليها يتقاتلون بدلا من الإبل والخيل ، وهى بقر تجرى كالخيل بسروج ولُجُم ،

البقر والجواميس

ورأيت بالرى نوعاً من هذا البقر يبرك كما يبرك الجمل[3] ، ويثور بحمله كما تثور الإبل إذا استقلّتْ بأحمالها ، وهذا النوع من البقر يحمل عليه الميتة من الحيوان كالخيل والإبل والحمير والبغال، ومُلاَّكها نوع من المجوس مزدقية[4] ، ولهم خارج الرى قرية لا يسكن معهم فيها غيرهم ، فإذا مات بالرى أو قزوين شىء مما ذكرنا من البهائم ورد الواحد منهم مع ثوره فأناخه، وحمل عليه تلك الجيفة وسار بها إلى

(١) فى ا ، ب « الدراية » وأحسبها محرفة عما أثبت .

(٢) فى ب « وأنها أحيانا ناطقة » .

(٣) فى ب « يبول كما تبول الخيل » . (٤) فى ب « نوع من المجوس من دفنه » .

قريته ، فأكلهم منها ، وبنيانهم من عظامها ، ويجففون من لحمها مايدخرونه لشتائهم ، فأكثر أكلهم وأكل بقرهم من تلك اللُّحْمَان رطباً ويابساً ، وهذا النوع من البقر الغالبُ عليه حمرة الحدق ، وسائر البقر تنفر وتهرب من هذا البقر ، ورأيت بأصبهان وقُمّ منها ما فى أنوفها حلق الحديد والصُّفْر ، قد خُزِمَتْ فيها الحبال ، وخطمت بها كما يفعل بالجمال البُخْت ، وكذلك بالرى رأيت ثوراً منها قد عدا نحو ثور من غير هذا النوع ، فلما رآه [قد] قصده قام فزعاً من هذا الجنس .

وليس فى سائر أنواع البقر ما يأوى المياه والجزائر والبحيرات إلا البقر المعروف الحبشية التى تكون ببلاد مصر وأعمالها ، وبحيرة تنيس ودمياط وما اتصل بتلك الديار ، وأما الجواميس فإنها بالثغر الشامى تجر(١) أكبر ما يكون من العَجَل ، فى أنوفها حلق الحديد والصُّفْر على ما ذكرنا من البقر ، وكذلك منها ببلاد أنطاكية ، وأكثر ذلك ببلاد السند والهند وطبرستان ، وقرون تلك البقر أكبر من قرون هذه الجواميس التى بأرض الإسلام ، وطول القرن منها نحو الذراع والذراعين وكذلك الجواميس كثيرة بأرض العراق مما يلى طفوف الكوفة(٢) والبصرة والبطائح وما اتصل بهذه الديار ، والناس يذكرون عَنْقاء مُغْرب ويصورون العنقاء فى الحمامات وغيرها ، ولم أجد أحداً فى هذه الممالك ممن شاهدته أو نمى إلىَّ خبره ذكر أنه رآها ، ولست أدرى كيف ذلك ، ولعله اسم لامسمى له ! .

تفسير لقب ملك الزنج

ولنرجع الآن إلى أخبار الزنج وأخبار ملوكها : فأما تفسير اسم ملك الزنج — الذى هو وقليمى — فمعنى ذلك ابن الرب الكبير ؛ لأنه اختاره لملكهم والعدل فيهم(٣) ، فمتى جار الملك عليهم فى حكمه وحاد عن الحق قتلوه وحرموا اعقبه المُلْكَ ، ويزعمون أنه إذا فعل ذلك فقد بطل أن يكون ابن الرب الذى هو ملك السموات

(١) فى ب « فى بحر أكبر ما يكون من العجل » ولا معنى له .

(٢) فى ب « صفوف الكوفة » . (٣) فى ا « والعدل بينهم » .

والأرض ، ويسمون الخالق عز وجل ملكنجلو[١] ، وتفسيره الرب الكبير ، والزنج أولو فصاحة فى ألسنتهم ، وفيهم خطباء بلغتهم ، يقف الرجل الزاهد منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم ، ويرغبهم فى القرب من بارئهم ، ويبعثهم على طاعته ، ويرهبهم من عقابه وصَوْلته ، ويذكرهم مَنْ مضى من ملوكهم وأسلافهم ، وليس لهم شريعة يرجعون إليها ، بل رسوم لملوكهم ، وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم ، وأكلهم الموز ، وهو ببلادهم كثير ، وكذلك بأرض الهند ، والغالب على أقوات الزنج الذرة ، ونبت يقال له الكلارى يقلع من الأرض : كالكمأة ، والراسن ؛ ومنه كثير ببلاد عدن وما اتصل بها من أرض اليمن ، ويشبه هذا الكلارى القلقاس الذى يكون بالشام ومصر ، ومن غذائهم أيضاً العسل واللحم ، ومن هَوِىَ منهم شيئاً من نبات أو حيوان أو جماد يَعْبده[٢] ، وجزائرهم فى البحر لا تحصى كثرة ، وفيها النار جيل يعم أكله سائر الزنج ، ومن بعض تلك الجزائر جزيرة بينها و بين ساحل الزنج نحو من يوم أو يومين ، فيها خلائق من المسلمين يتوارثها ملوك من المسلمين ، يقال لها قنبلو[٣] ، على حسب ما ذكرنا من أمرها فى هذا الكتاب .

مساكن النوبة

وأما النوبة فافترقت فرقتين : فرقة فى شرق النيل وغربيه ، وأناخت على شطيه ، فاتصلت ديارها بديار القبط [من] أرض مصر والصعيد من بلاد أسوان وغيرها ، واتسعت مساكن النوبة على شاطىء النيل مُصْعِدة ، ولحقوا بقريب من أعاليه ، وبنوا دار مملكة ، وهى مدينة [عظيمة] تدعى دنقلة ، والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوة ، وبنوا مدينة عظيمة وسموها سرية .

قال المسعودى : وانتهيت فى تصنيفى إلى هذا الموضع من كتابنا هذا فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، [وكنت بفسطاط مصر]

(١) فى ب « مكلنجلو » بتقديم الكاف

(٢) فى ا « عبده »

(٣) فى ب « يقال لهم قبلو ، ويتوارثها المسلمون »

فأخبرت أن الملك فى مدينة دنقلة للنوبة « كابل[١] » بن سرور ، وهو ملك ابن ملك ابن ملك فصاعدا وملكه يحتوى على ماقرة وعلوة ، والبلد المتصل بمملكته بأرض أسوان يعرف بمَرِيس ، وإليه تضاف الريح[٢] المريسية ، وعمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان .

البجة

وأما البجة فإنها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر ، وتشعبوا فرقا ، وملكوا عليهم ملكا ، وفى أرضهم معادن الذهب ، وهو التبر ، ومعادن الزمرد ، وتتصل سراياهم [ومناسرهم] على النُّجُبِ إلى بلاد النوبة ، فيغيرون ويسبُون ، وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجة ، إلى أن قوى الإسلام وظهر ، وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقى وعيذاب ، وسكن فى تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم ، وتزوجوا فى البجة ؛ فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة ، وقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار ممن سكن تلك الديار ، وصاحب المعدن فى وقتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — أبو مروان بشر بن إسحاق[٣] ، وهو من ربيعة ، يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألف حراب على النُّجُب من البجة بالحجف البجاوية ، وهم الحداربة[٤] ، وهم المسلمون ممن بين سائر البجة ، وباقى البجة كفار يعبدون صنما لهم .

الحبش

وأما الحبشة فاسم مملكتهم كعبر[٥] وهى مدينة عظيمة، وهى دار مملكة النجاشى ، وللحبشة مدن كثيرة وعمائر واسعة ، يتصل ملك النجاشى بالبحر الحبشى ، ولهم ساحل لهم فيه مدن كثيرة ، وهو مقابل لبلاد اليمن : فمن مدن

---

(١) هكذا فى نسخة عند ا ووقع فى ا « كبرى بن سرور » ووقع فى ب « ليرنى بن سدر »
(٢) فى ب « الزنج المريسية » محرفا
(٣) فى ب « بشر بن مروان بن إسحاق »
(٤) فى ب « وهم الحدارب »
(٥) فى ب « كعمى »

الحبشة على الساحل الزيلع والدهلك وناصع ، وهـــذه مدن فيها خلق من المسلمين إلا أنهم فى ذمة الحبشة ، وبين ساحل الحبشة ومدينة غلافقة[١] — وهى ساحل زبيد من أرض اليمن — ثلاثة أيام عرض البحر بين الساحلين ، ومن هذا الموضع عَبَرَتِ الحبشة البحر حين ملكت اليمن فى أيام ذى نُوَاس وهو صاحب الأخدود المذكور فى القرآن ، وصاحب زبيد فى وقتنا هذا إبراهيم ابن زياد صاحب الحرملى ومراكبه تختلف إلى ساحل الحبشة ، وتركب فيها التجار بالأمتعة ، وبينهم مهادنة ، وهذا الموضع من البحر بين هذين الشطين — أعنى ساحل اليمن ، وساحل الحبشة — أقل المواضع فيه عرضاً ، وهنالك جزائر بين هذين الساحلين : منها جزيرة العقل ، يقال : إن فيها ماء يعرف بماء العقل ، يستسق[٢] منه أرباب المراكب ، ويفعل فى القرائح والذكاء فعلا جميلا ، وقد ذكر بعض الفلاسفة المتقدمين ما يفعل هذا الماء وماله من الخواص ، وذكر علة ذلك ، وقد أتينا على الخبر فى كتابنا « أخبار الزمان» عند ذكرنا لأخبار المتطببين فى تجاربهم وما كان من قضاياهم فى علاجاتهم ممن سلف قبل ظهور الإسلام وغيرهم ممن انصل بالملوك والخلفاء بعد ظهور الشرع ، وقد غلب ابن زياد على هذه الجزيرة ، وله فى هـذا الوقت رجال مرتبون فيها من أصحابه .

جزيرة سقطر وسكانها

وفى هذا البحر مما يلى بلاد عدن جزيرة تعرف بسقطرة ، إليها يضاف الصبر السقطرى ، ولا يوجد إلا فيها ، ولا يحمل إلا منها ، وقد كان أرسطاطاليس بن نقوماخس[٣] كتب إلى الإسكندر بن فيلبس حين سار إلى الهند[٤] فى أمر هذه الجزيرة يوصيه بها ، وأن يبعث إليها جماعة من اليونانيين يُسْكِنهم فيها من أجل الصبر السقطرى الذى يقع فى الأيارجات وغيرها ، فصيَّر الإسكندر إلى هذه الجزيرة خلقاً من اليونانيين أكثرهم من مدينة أرسطاطاليس بن نقوماخس[٣] ، وهى

(١) فى ب « علاقته »
(٢) فى ب « تسق »
(٣) فى ب « نمرياحين »
(٤) فى ب « إلى الشام »

مدينة اسطاغر[١] ، فى المراكب بأهليهم فى بحر القلزم ؛ فغلبوا على من كان بها من ملوك الهند ، وملكوا الجزيرة ، وكان للهند بها صنم عظيم ، فنقل ذلك الصنم فى أخبار يطول ذكرها ، وتناسل مَنْ بالجزيرة من اليونانيين فيها ، ومضى الإسكندر فظهر المسيح فتنصر من كان بها إلى هذا الوقت ، وليس فى الدنيا — والله أعلم — موضع فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم لم يُدَاخلهم فى أنسابهم رومى ولا غيرهم غير أهل هذه الجزيرة ، وهم فى هذا الوقت تأوى إليهم بَوَارِجُ الهند الذين يقطعون على المسلمين فى هذه البوارج — وهى المراكب — على من أراد الصين والهند وغيرها كما يقطع الروم فى الشوانى على المسلمين فى البحر الرومى من ساحل الشام ومصر ، ويحمل من جزيرة سقطرة الصبر [السقطرى] وغيره من العقاقير ، ولهذه الجزيرة أخبار عجيبة ، ولما فيها من خواص النبات والعقاقير قد أتينا على كثير من ذكرها فيما سلف من كتبنا.

بقية أجناس السودان

وأماغير هؤلاء من الحبشة الذين قدمنا ذكرهم ممن أمعن فى المغرب — مثل الزغاوة والكوكو والقراقر ومديدة ومريس والبرس والملانة والقوماطى ودويلة والقرمة[٢] — فلكل واحد من هؤلاء وغيرهم من أنواع الأحابش ملك ، ودار مملكة .

وقد أتينا على ذكر جميع أجناس السودان وأنواعهم ومساكنهم ومواضعها من الفلك ، ولأية علة تفلفلت شعورهم واسودت ألوانهم ، وغير ذلك من أخبارهم وأخبار ملوكهم وعجائب سيرهم وتشعبهم فى أنسابهم ؛ فى كتابنا « أخبار الزمان » فى الفن الأول من جملة الثلاثين فناً ، ثم فى الكتاب الأوسط مما لم نذكره فى كتابنا « أخبار الزمان » من أخبارهم ، وذكرنا فى هذا الكتاب مالا يسع ترك إيراده فيه ولا تعريته منه .

---

(١) فى ب « اسطاعور »

(٢) فى ب « مثل الزعاوة والكركر والقراقر ومرندة والمرويين والهنديين واللالة والقرماطن وزويلة والعرمد »

بين النوبة وفاتح مصر

قال المسعودى : وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما افتتح عمرو بن العاص مصر كتب إليه بمحاربة النوبة ، فغزاهم المسلمون ، فوجدوهم يرمون الحدق وأبى عمرو بن العاص أن يصالحهم ، حتى صُرِفَ عن مصر ، ووليها عبد الله بن سعد، فصالحهم على رءوس من السّبى معلومة ، مما يَسْبِى هذا الملك المجاور للمسلمين من غيرهم من ممالك النوبة المقدم ذكرها فيما سلف من صدر هذا الباب المدعو بملك مَرِيس وغيرها من أرض النوبة ، فصار ماقبض منه من السبى سُنَّةً جارية فى كل سَنَةٍ إلى هذه الغاية يحمل إلى صاحب مصر ويدعى هذا السبى [فى العربية][1] بأرض مصر والنوبة بالبقط ، وعدد ذلك ثلثمائة رأس وخمس وستون رأساً ، وأراه رُسِم على عدد أيام السنة ، هذا لبيت مال المسلمين بشرط الهدنة بينهم وبين النوبة ، وللأمير بمصر غير ماذكرنا من عدد السبى أربعون رأساً ، ولخليفته المقيم ببلاد أسوان المجاورة لأرض النوبة ، وهو المتولى لقَبْض هذا البقط ، وهو السبى ، عشرون رأساً غير الأربعين ، وللحاكم المقيم بأسوان الذى يحضر مع أمير أسوان قَبْضَ البقط خمسة رؤوس غير العشرين التى يقبضها الأمير ، ولاثنى عشر شاهداً عدولا من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم حين قبض البقط اثنا عشر رأساً من السبى حسب ما جرى به الرسم فى صدر الإسلام فى بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة ، والموضع الذى يتسلّم فيه هذا البقط ويحضره من سميناه وغيرهم من النوبة من ثقات الملك يعرف بالقصر ، وهو على ستة أميال من مدينة أسوان بالقرب من جزيرة بلاق ، وبلاق هذه مدينة فى الموضع المعروف بالجنادل من الجبال والأحجار ، وهذه المدينة فى هذه الجزيرة يحيط بها ماء النيل كإحاطة ماء الفرات بالمدن التى فى الجزائر [الكائنة][2] بين رَحْبَة مالك بن طَوْق وهَيْت[3] ، وهى

(١) هذه الكلمة لاتوجد فى (٢) هذه الكلمة لاتوجد فى ب

(٣) فى ب « بين رحبة ملك بن طوق وبين الرسة وناوسة وغانة والحديث — إلخ »

ناوسة وعانة والحديثة ، وفى مدينة بلاق خلق كثير من الناس[١] ومنبر ونخل كثير فى كلا الشطين ، وهذه المدينة إليها تنتهى سفن النوبة وسُفُن المسلمين من بلاد مصر وأسوان ، ومدينة أسوان يسكنها كثير من العرب من قحطان ونزار بن معــد من ربيعة[٢] ومضر وخلق من قريش ، وأكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره ، والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير تُودَعُ النواة الأرضَ فتنبت نخلة ، ويؤكل من ثمرها بعد سنتين ، وليست تربتهم كتربة البصرة ولا الكوفة ولا غيرهما من أرض النخل ؛ لأن النخل بالبصرة لا ينبت من النوى بل ينبت من التال والفسيل ، وهو النخل الصغير ، وما يخرج من النواة فليس يثمر ولا يفلح[٣] ، ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخــلة بأرض النوبة يؤدُّونَ خراجها إلى ملك النوبة ، وابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدر الزمان فى دولة بنى أمية وبنى العباس ، وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفد أوفدهم إلى الفسطاط ، ذكروا عنه أن ناساً من أهل مملكته وعبيده باعوا ضياعاً من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان ، وأنها ضياعُه والقوم عبيد [ه ، و] لا أملاك لهم ، وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها ، فرد المأمون أمرهم إلى الحاكم بمدينة أسوان ومَنْ بها من أهل العلم والشيوخ ، وعلم من ابتاع هذه الضياع من أهل أسوان أنها ستنزع من أيديهم ، فاحتالوا على ملك النوبة بأن تقدموا إلى من ابتاع منهم من أهل النوبة أنهم إذا حضروا حضرة الحاكم أن لا يقروا لمليكهم[٤] بالعبودية ، وأن يقولوا : سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم تجب علينا طاعته وترك مخالفته ، فإن كنتم أنتم عبيداً لملككم وأموالكم له فنحن كذلك ، فلما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب

(١) فى ا « من المسلمين » (٢) فى ا « ونزار بن ربيعة ومضر »
(٣) فى ا « ولا يلقح » (٤) فى ب « لملوكهم »

الملك أتوا بهذا الكلام للحاكم أو نحوه مما وقفوا عليه من هذا المعنى ، فمضى البيع لعدم إقرارهم بالرق لملكهم إلى هذا الوقت ، وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مَرِيس ، وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين : نوع ممن وصفنا أحرار غير عبيد ، وَالنوع الآخر من أهل مملكته عبيد ، وهم مَنْ سكن النوبة فى غير هذه البلاد المجاورة لأسوان ، وهى بلاد مَرِيس .

معدن الزمرد وأنواعه

ومعدن الزمرد فى عمل الصعيد الأعلى من أعمال مدينة قفط[1] ، ومنها يخرج إلى هذا المعدن ، والموضع الذى فيه الزمرد يعرف بالخربة مفاوز وجبال ، والبجة تحمى هذا المكان المعروف بالخربة ، وإليها يؤدى الخفارات من يرد إلى حفر الزمرد ، والزمرد الذى يقتلع من هذا المكان يتنوع أربعة أنواع : النوع الأول منها يعرف بالمر ، وهو أجودها وأغلاها ثمناً ، وهو شديد الخضرة كثير الماء ، وتشبه خضرته بأشد ما يكون من السلق خضرة ، وهذا اللون غير كدر ولا ضارب إلى السواد ، والنوع الثانى يدعى بالبحرى ، ومعناهم فى هذه التسمية هو أن ملوك البحر من السند والهند والزنج[2] والصين ترغب فى هذا النوع من الزمرد ، وتباهى فى استعماله ولباسه فى تيجانها وأكاليلها وخواتيمها وأسورتها ، فسمى البحرى لما ذكرنا ، وهو ثانى المر فى الجودة وتشبه خضرته بالأول والماء كفراخ[3] ورق الآس الذى يظهر فى أوائل أغصان الآس وأطرافه ، والنوع الثالث يعرف بالمغربى ، ومعناهم فى هذه التسمية وإضافتهم إياه إلى المغرب هو أن ملوك المغرب من الإفرنجة والنوكبرد[4] والأندلس والجلالقة والوشكند[5] والصقالبة والروس ، وإن كان أكثر هؤلاء الأمم متصلين بالجدى[6] وهو ما بين المشرق والمغرب على حسب ما ذكرنا من ديار ولد يافث بن نوح يتنافسون فى هذا النوع من الزمرد كتنافس مَنْ ذكرنا من ملوك الهند والصين

(١) فى ا « من أعمال مدينة قبط » (٢) فى ب « والرانج »
(٣) فى ب « كقداح ورق الآس » (٤) فى ب « والنوكير »
(٥) فى ب « والوسكنس » (٦) فى ب « بالجربى »

فى النوع المعروف بالبحرى ، والنوع الرابع هو المسمى بالأصم ، وهو أدنى الأنواع وأقلها ثمناً ؛ لقلة مائه وخُضْرته ، وهذا النوع يتفاوت فى اللون من الخضرة فى القلة والكثرة ، وجملة الوصف لهذه الأنواع الأربعة فى الجودة والمبالغة فى الثمن هو أكثرها ماء وأصفاها وأكثرها خضرة وأنقاها من السواد والصفرة ، وغير ذلك من الألوان ، مع تعرى هذا الجوهر[١] من النموشة ، فإذا سلم مما ذكرنا كان فى نوعه غايةً فى الجودة ونهاية فى الوصف، وفى حجارته ما يبلغ الخمسة المثاقيل من الوزن ، إلى أن ينتهى إلى حد العدسة فى المقدار ، فيدخل ذلك فى النظم من المخانق وغيرها .

وآفات هذا الجوهر كثيرة ، منها الريم ، والحجارة ، والعروق البيض التى تشوب هذا الجوهر وتُوجَد فيه ، ولا تناكر بين ذوى الدراية بهذا الجوهر ومن عنى بمعرفته أن الحيات والأفاعى وسائر أنواع الحيات من الثعابين وغيرها إذا أبصرت الزمرد الخالص سالت أحداقها ، وأن الملسوع إذا سقى من الزمرد الخالص ، وزن دانقين على الفور أمن على نفسه من أن يسرى السم فى جسده[٢] ، ولا يوجد شىء من أنواع الحيات يقرب من معدنه وأرضه ، وهو حجر لين رخو ، يتكلس إذا ورد على النار[٣] .

وقد كانت ملوك اليونانيين ومَنْ تلاهم من ملوك الروم تعظم شأن هذا الجوهر ، وتفضله على غيره من سائر الجواهر ؛ لما اجتمع فيه من الخواص العجيبة ، والمنافع الكثيرة ، وخفته فى الوزن دون سائر الجواهر المعدنية .

وأكثر ما يوجد من هذه الأنواع الأربعة العروق فى الأرض ، وهو المتنَافس فيه ، إذا سلم من الاعوجاج والثقب[٤] ، واستقام سلكه ، واستطال ما استدار ، وأدناه ما ينحل فى معدنه من التراب ويلتقط من الطين ، وقد

---

(١) فى ا « مع تعرى هذا النوع من النموشة » .
(٢) فى ا « فى جوفه » . (٣) فى ب « إذا ورد على الناس » .
(٤) فى ب « والتنقب » .

يوجد على ظهر الأرض فى هذا المعدن فى وهاده وجباله وما انخفض وارتفع من أرضه نوعان منه وهما المغربى والأصم المقدم ذكرهما

وقد يحمل من أرض الهند من بلاد سندان ، ونحو كنباية[1] من مملكة البلهرا صاحب المانكير المقدم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب نوع من الزمرد يلحق بما وصفناه من النور والخضرة والشعاع ، إلا أنه حجر صلب أصلب مما وصفنا، وأثقل مما ذكرنا ، ولا يُفرِّقُ بين هذا النوع المحمول من أرض الهند وبين الأنواع الأربعة المتقدم ذكرها إلا ذو دراية فَطِن أو ماهر فيه[2]، وهذا النوع الهندى يعرفه أصحاب الجوهر بالمكى ؛ لأنه يحمل من أرض الهند إلى بلاد عدن وغيرها من سواحل اليمن ، ويؤتى به مكة ، فاشتهر بهذا الاسم لما وصفنا ، وبان بهذا النعت لما ذكرنا .

وقد أتينا على مبسوط أخبار الجواهر الشفافة وغيرها ووصف معادنها على الشرح والإيضاح فى كتابنا «أخبار الزمان» ووجدت جماعة بصعيد مصر ، من ذوى الدراية ــ ممن اتصلت معرفته بهذا المعدن ، وعرف هذا النوع من الجوهر الذى هو الزمرد ــ يخبرون أن هذا الزمرد يكثر ويقل فى فصول من السنة ، وفى قوة من مواد الهواء ، وهبوب نوع من الرياح الأربع ، وتَقْوَى الخضرة فيه والشعاع النورى فى أوائل الشهر والزيادة فى نور القمر ، وكذلك وجدت فى أخبار من عُنِىَ بمعرفة أكثر المعادن من الجوهرية وغيرها أن الكبريت الأبيض والأصفر وغيرهما من أنواع الكبريت يكثر فى معدنه فى السنة التى يكثر بَرْقُها ، وتشتد صواعقها، على حسب ما أخبرنا به فيما سلف من هذا الكتاب عن الكافور فى بلاد منصورة[3] وغيرها من أرض الهند أنه يكثر فى السنة التى تكثر فيها الصواعق والرعود والبروق ، ولولا أن المكثار كحاطب ليل ، والإيجاز لمحة دالة ، وَوَحْىٌ صَرَّح عن ضمير ، والبلاغة إيضاح بإيجاز لأسهبت فى هذا الباب .

---

(١) فى ب «من بلاد سندان وبحر كنبايت من مملكة البلهرا صاحب الناكور»

(٢) فى ب « أو ماهر ظريف » (٣) فى ب « من بلاد قيصورة »

وبين هذا الموضع المعروف بالخربة الذى فيه معدن هذا النوع من الجوهر، وهو الزمرد، وبين ما اتصل به من العمارة وقَرُبَ منه من الديار، مسيرة سبعة أيام وهى قفط وقوص وغيرها من صعيد مصر، وقوص راكبة للنيل، وبين النيل وقفط نحو من ميلين، ولمدينتى قفط وقوص أخبار عجيبة فى بَدْء عمرانهما وما كان فى أيام الأقباط [من أخبارها] إلا أن مدينة قفط فى هذا الوقت متداعية للخراب، وقوص أعمر، والناس فيها أكثر.

قوص وقفط من بلاد مصر

وَبوَادى البجة المالكة لهذا المعدن تتصل ديارها بالعلاقى، وهى معدن الذهب على حسب ما قدمنا فى هذا الباب، وبين العلاقى والنيل خمس عشرة مرحلة، وماء أهل العلاقى ما انْهَلَّ من السماء، ولهم ماء من عين[1] يسيل فى وسط العلاقى، وأقرب العمارة إليه مدينة أسوان، ومنها يسمى[2] العلاقى، والنوبة متصلة بتجارتها وقوافلها بمدينة أسوان[3]، وأهل أسوان مختلطون بالنوبة.

الواحات

قال المسعودى: وأما بلاد الواحات — وهى بين بلاد مصر والإسكندرية وصعيد مصر والمغرب وأرض الأحابش من النوبة وغيرهم — فقد ذكرنا جملا من أخبارها، وكيفية العمران بها، والخواص فى أرضها، فيما سلف من كتبنا، وبها أرض شَبِّيَة وزاجية وعيون حامضة وغير ذلك من الطعوم، وصاحب الواحات فى وقتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — عبد الملك بن مروان، وهو رجل من من لَوَاتة، إلا أنه مروانى المذهب، ويركب فى ألوف من الناس خيلا [ورجلا] ونجبا، وبينه وبين الأحابش نحو من ستة أيام، وكذلك بينه وبين سائر ما ذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة، وفى أرضه خواص وعجائب، وهو بلد قائم بنفسه، غير متصل بغيره، ولا مفتقر إليه، ويحمل من أرضه التمر

(١) فى ب «ولهم معين يسيل»
(٢) فى ب «ومنها يستمد العلاقى»
(٣) فى ب «والنوبة متصلة بجاراتها وقوافلها بمدينة آسوان»

والزبيب والأعناب ، وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الإخشيد محمد بن طغج ، وذلك سنة ثلاثين وثلثمائة ، وسألته عن كثير من أخبار بلدهم ، وما احتجْتُ أن أعلمه من خواص أرضهم ، وكذلك كان فعلى مع غيره فى سائر الأوقات ممن لم أصل إلى بلادهم ، وأخبرنى هذا الرجل عما بأرضهم من الشَّبِّ وأنواع الزاج ، وما يحمل من بلادهم ، وما بأرضهم من أنواع العيون الحامضة ، وغير ذلك من المياه المختلفة الطعوم .

وقد ذكر صاحب المنطق أن ببعض المواضع عيونا حامضة يستعمل ماؤها، كاستعمال الخل ، وذكر المواضع التى تنبع منها العيون المرة ، وأن قوة مائها فى المرارة لا يخالط شيئاً إلا مَرَّره ، وأن العلة فى اختلاف هذه الطعوم فى المياه أن الأرضين مختلفة مثل مواضع الشب والمواضع النارية والرمادية ، وذكر الأطعمة[1] التى ببلاد صقلية المقدم ذكرها إذا خالطت المـاء أفادته طعوما مختلفة على قدر اختلافها وأعداد طعومها .

أعداد الطعوم وخواصها

وأعداد الطعوم ثمانية : فأولها العذب، والملح، والدسم، والحلو، والحامض والمر ، والقابض، والحِرِّيف ، وقد تنازع الناس فيما ذكرنا ؛ فمنهم من رأى أن أعدادها سبعة ، ومنهم من ذهب إلى أنها ستة ،وأكثر من قال فى أعدادها هو ما ذكرنا آنفاً [من أنها][2] ثمانية ، وقد قال مَنْ سلف فى قوى المياه أقاويل مختلفة : فمن ذلك أن العذب مُغَذٍّ وإن كان سخناً ؛ فإن استعمل من داخل أو من خارج [بقدر الحاجة إليه][2] فإنه ينقِّى الجسد ، وإن استعمل أكثر مما يحتاج إليه فإنه يرخى الأعضاء وَيضعفها ، وَأن الماء البارد يشدُّ الأعضاء ، وَيقطع العطش[3] ،وَأن الزيادة منه تخدر الجسد وَتميته ، وأن المـاء الأجاج ينفع

(١) كذا فى الأصل ، والظاهر أنه أراد « وذكر أن المعادن إلخ »
(٢) ما بين المعقوفين ساقط من ب وحدها
(٣) فى ا « ويدفع العطش »

من سُدَد الكبد والطحال،وأن الماء الكبريتى ينفع الجراح والقروح العتيقة والحكة ، والبورقى[(١)] نافع للحكة والجرب،وأما القارى[(٢)] فإنه نافع من أوجاع الصلب والعصب ، وماء الحديد نافع من الاسترخاء فى الأحشاء وَما بَطَن من الأوعية ، وماء النحاس نافع من الرطوبة والبلة الكائنة فى الجسد والرأس، وماء الجص يشنج المعدة و يقبضها ويكرشها ، وماء الزاج يحبس[(٣)] الدم ، وماء البحر نافع من البرص،وقد ذكر جماعة أنه ينفع من الأخلاط الفاسدة إذا شرب منه اليسير مع دهن اللوز،وله فى البصر إتعاب فظيع[(٤)] ، وأن أصحَّ المياه للأجساد الأبيضُ البراق الذى يخرج من جبال الطين[(٥)] من مشرق الشمس نحو مغربها، القابل بسرعة مايرد إليه من الحر والبرد،وللناس فيما ذكرنا كلام كثير فى أنواع المياه وأوصافها ومنافعها ومضارها ، وليس كتابنا هذا موضعا له ، وإنما تغلغل بنا الكلام إلى ذكرها ، وتشعب بنا القول إلى وصفها .

وصف بلاد الأحابش وحاصلاتها

وكلُّ ما ذكرنا من بلاد الأحابش ما كان من غربى اليمن وجدة والحجاز[(٦)] مما يلى بحر القلزم ، فبلادٌ قشفة لاخير فى أرضها ، ولاشىء يحمل من ساحلها إلا ما وصفنا من الذبل والنمور [وغيرهما] ، وكذلك ما عليه من ساحل الشحر وبلاد الأحقاف من ساحل حضرموت إلى عدن ، فبلدٌ لاخصب لأهله فيه، ولايحملُ من أرضهم [فى وقتنا] إلا اللبان ويسمى الكندر،وهذا البحر اتصاله بالقلزم وهو عن يمين بحر الهند وإن كان الماء متصلا ، وليس فى البحار ، وما ذكرنا من الخلجان مما احتوى عليه البحر الحبشى،أصعبُ ولاأكثر حيالا، ولا أسْهَكُ رائحة،ولاأقحط ،ولا أقل خيراً فى بطنه وظهره من بحر القلزم،وسائر البحر الحبشى تقطعه المراكب فى إبان سيرها فيه بالليل والنهار ، إلا بحر القلزم؛

(١) فى ب « والروق »
(٢) فى ب « وأن ماء النضار فإنه »
(٣) فى ب « يحسن الدم »
(٤) فى ب « إيعاب فطيع »
(٥) فى ب « من جبال الصين »
(٦) فى ب « والجار »

فإن المركب تسير فيه بالنهار ، فإذا جَنَّ الليل أرْسَتْ فى مواضع معروفة كالمراحل المشهورة ، والمنازل[1] المعروفة ؛ لكثرة جباله وظلمته ووحشته ، وليس هذا البحر مما اتصل به من بحر الهند والصين وغيره فى شىء ، وهو بالضد من ذلك ؛ لأن بحر الهند والصين فى قعره اللؤلؤ ، وفى جباله الجواهر ، ومعادن الذهب والفضة والرصاص القلعى ، وفى أفواه دوابه العاج ، وفى منابته الآبنوس ، والخيزران ، والقنا ، والبقّم ، والساج ، والعود ، وأشجار الكافور ، والجوز ، والقرنفل ، وَالصندل ، والأفاويه ، والطيب ، والعبر ، وطيوره الببغى البيض والخضر ، وَاحدها ببغة[2] ، ثم الطواويس وأنواعها فى صورها واختلافها فى الصغر والكبر ومنها ما يكون كالنعامة كبراً ، وحشرات أرض[3] الهند الزباد كالسنانير بأرض الإسلام كثيرة متّخَذة[4] كالسنور ، وأكثر ما يخرج من ضروعها الطيبُ المعروف بابن الزباد ، وهو نوع من الطيب عجيب ، ثم ما يظهر فى وَقتٍ من السنة من جباه الفيلة بأرض الهند ورءوسها من العرق الذى هو كالمسك ، والهند تراعى ظهور هذا الطيب فى الفصل من الزمان الذى يكون فيه ، فتأخذه وَتجعله على بعض أدهانها الطيبة ، فيكون أغلى طيبها وَالمستطرف عندها ، وَالذى تستعمله ملوكها وخواصها لضروب من المنافع منها طيب الرائحة والتجمر[5] الذى قد فاق على سائر الطيب عندهم ، وما يؤثر فى الإنسان عند شمه إياه واستعماله من ظهور الشَّبَق من الرجال والنساء والطلب للباه وَالاغتلام وَالطرب وَالنشاط وَالأريحية ، وكثير من فُتَّاك الهند وَشجعانهم يستعمل هذا الدهن عند اللقاء وَالحرب ؛ لأن ذلك عندهم مما يشجع القلب ، وَيقوى النفس ، وَيبعثها على الإقدام ، وَأكثر

من أوصاف الفيل أيضاً

( ) فى ب « والنافذ المعروفة »

(٢) المعروف أن الواحد ببغاء ، والجمع ببغاوات

(٣) كذا ، ولعل الأصل « ومن حشرات أرض الهند الزباد وهى كالسنانير — إلخ »

(٤) فى ا « منمرة كالسنور »

(٥) فى ا « والتخمر »

ما يظهر هذا النوع من العرق فى جباه الفيلة فى ذلك الفصل من السنة فى حال اغتلامها وهيجانها ، وإذا كان ذلك منها هرب عنها سُوَّاسُها ورُعَاتها ، ولا تفرق بين من تعرف وغيره من الناس ، وإذا وجد الفيل ما وصفنا سلك الأودية والجبال والغياض ، ونَدّ عن بلده ، وغاب عن وطنه ؛ فإذا قدم على النوشان الذى هو الكركدن هرَبَ حينئذ من الفيل، ولا يقيم فى الموضع الذى هو فيه ؛ لأن الفيل عند ذلك بحَال السكران لا يعقل ولا يميز بين الكركدن الذى كان يخافه قبل ذلك وغيره ؛ فإذا خرج عنه ذلك الفصل من السنة واسترجع عاد إلى بلاده على مسيرة شهر وأكثر من ذلك ، وهو فى بقيةٍ من سكره ، فيبقى نحو ذلك المقدار الذى كان هيجانه فيه عليلا ، ولا يكون ذلك إلا فى الفحول من الفيلة وذوى الجراءة منها والإقدام ، وما ذكرنا من ظباء[1] المسك وغير ذلك مما عنه أمسكنا من عجائبه [وخيراته] وفيما ذكرنا تنبيه على غيره .

وللهند خَطْب طويل فى ظهور هذا النوع من الطيب فى هذه الحالة[2] من الفيلة ، والفرق بينه وبين سائر أنواع الدواب وما يظهر من الفيل من الجزع عند وروده المياه من الغدران والأنهار للشرب إذا كان الماء صافياً ، فإنه يثيره ويكدره ويمتنع من شربه حين صفائه ، وإن ذلك يوجد فى أكثر الخيل إذا وردت المـاء وكان صافياً ضربته بأيديها فكَدَّرته فتشرب حينئذ ، وتوافق الخيل الفيلة فى هذا المعنى دون سائر الحيوان ، وإن ذلك لمشاهدة صُوَرها فى المـاء لصقالته وصفائه ، ولعلها تقصد زوال ذلك عند كدر [ما تضربه بأيديها ؛ لعدم ظهور الصور فيه فى حال الكدر][3] ، وإن الإبل الأغلب منها يفعل ذلك ، ولمعانٍ غير ذلك مما وصفنا من أن ما عظم من الحيوان إذا رأى صورته منعكسة على صفاء المـاء أعْجَبَتْهُ لعظمها وحسنها وما بان به من حسن الهيئة عما دونه من أنواع الحيوان ، وليس شىء يفعل ذلك من

(١) فى ب « من طيب المسك » (٢) فى ب « فى هذه الحياة »

(٣) زيادة فى ا وحدها .

الحيوان غير ما ذكرنا من الخيل والإبل [والفيلة][1] ، وإن الفيل — مع عظم جسمه [ولطافة نفسه][2] وخفة روحه وحسن تمييزه والتفرقة بين وليه[3] وعدوِّه من الناطقين وغيرهم وقبوله الرياضة — يمتنع من الأنثى كما تمتنع النوق إذا لقحت ، وليس شيء من الدواب يمتنع من السِّفَاد من الإناث عند حملها إلا الفيلة والإبل ، وهذا باب إن نحن تَقَصَّيْنَاه وذكرنا ما فيه طال به الكتاب ، وخرج عن حد الاختصار والإيجاز . وقد أتينا على وصف جميع ذلك فى كتابنا « أخبار الزمان » وغيره من كتبنا ، فلنذكر الآن أنواعاً من ولد يافث بن نوح ؛ إذ كنا قد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب كثيراً من ذكر الأمم مع اختلاف ألوانهم ، وتباينهم فى ديارهم ، واختلافهم فى أحوالهم ، إن شاء الله تعالى .

(١) زيادة فى ا وحدها .

(٢) زيادة فى ب وحدها .

(٣) فى ب « والمعرفة بوليه وعدوه » .

ذكر الصقالبة ومساكنها

وأخبار ملوكها ، و[تفرق] أجناسها

نسب الصقالبة وأجناسهم

الصقالبة : من ولد مار[1] بن يافث بن نوح ، وإليه يرجع سائر أجناس الصقالبة ، وبه يلحقون فى أنسابهم ، هذا قول كثير من أهل الدراية ممن عنى بهذا الشأن ، ومساكنهم بالجدى[2] إلى أن يتصلوا بالمغرب ، وهم أجناس مختلفة وبينهم حروب ، ولهم ملوك ، ومنهم من ينقاد إلى دين النصرانية إلى رأى اليعقوبية[3] ، ومنهم من لا كتاب له ولا ينقاد إلى شريعة ، وهم جاهلية لا يعرفون شيئاً من الشرائع ، وهؤلاء أجناس : فمنهم جنس كان الملك فيهم قديماً فى صدر الزمان ، وكان ملكهم يدعى ماجك[4] ، وهذا الجنس يدعى ولينانا ، وكان يتلو هذا الجنس فى القديم سائر أجناس الصقالبة ؛ لكون الملك فيهم ، وانقياد سائر ملوكهم إليه ، ثم يتلو هذا الجنس من أجناس الصقالبة اصطبرانة ، وملكهم فى هذا الوقت يدعى بصقلائح[5] ، وجنس يقال له دلاونة ، وملكهم يدعى وانج علاف[6] وجنس يقال لهم نامجين[7] ، وملكهم يدعى عزانة[8] ، وهذا الجنس أشجع أجناس الصقالبة وأفرس ، وجنس يدعى منابن[9] ، وملكهم يدعى زنبير[10] ، ثم جنس [يقال له سرتين وهو جنس][11] عند الصقالبة مهيب لعلل يطول ذكرها وأوصاف يكثر شرحها ، ونُفْرتهم من ملة ينقادون إليها ، ثم جنس يقال له صاصين[12] ، ثم جنس يقال له جروانيق[13] ، ثم جنس يقال له خشانين[14] ، ثم جنس

---

(١) فى ب « من ولد بار بن يافث » (٢) فى ب « ومساكنهم بالجرا »
(٣) فى نسخة عند ب « النسطورية » (٤) فى ب « يدعى ماجل »
(٥) فى ب « بصقلابج » (٦) فى ب « وابح صلاف »
(٧) فى ب « ياحيق » (٨) فى ب « يدعى عرابة »
(٩) فى ب « ماين » (١٠) فى ب « رييرٍ »
(١١) زيادة عن ا وحدها (١٢) فى ب « مرادة »
(١٣) فى ب « جروانش » (١٤) فى ب « صاصيف »

يقال له برانجابين(١) ، وما سميناه من أسماء بعض ملوك هذه الأجناس فَسِمَةٌ معروفة لملوكهم ؛ والجنس الذى سميناه المعروف بسرتين يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات فيهم الملك والرئيس ، ويحرقون دوابه ، ولهم أفعال مثل أفعال الهند ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب طرفاً من ذكرهم عند ذكرنا لجبل القبخ(٢) والخزر ، وأن فى بلاد الخزر [مع الخزر] خلقاً من الصقالبة والروس ، وأنهم يحرقون أنفسهم بالنيران ، وهذا الجنس من الصقالبة وغيرهم متصلون بالمشرق ، ويعبرون من المغرب(٣) .

ملوك الصقالبة

فالأول من ملوك الصقالبة ملك الدير ، وله مدن واسعة ، وعمائر كثيرة ، وتجار المسلمين يقصدون دار ملكه بأنواع التجارات .

ثم يلى هذا الملك من ملوك الصقالبة ملك الأوانج(٤) ، وله مدن وعمائر واسعة ، وجيوش كثيرة ، وعدد كثير ، ويحارب الروم والإفرنج والنوكبرد ، وغير هؤلاء من الأمم ، والحرب بينهم سِجَالٌ .

ثم يلى هذا الملك من ملوك الصقالبة ملك الترك ، وهذا الجنس أحسن الصقالبة صوراً ، وأكثرهم عدداً ، وأشدهم بأساً .

أجناس الصقالبة

والصقالبة أجناس كثيرة ، وأنواع واسعة ، لا يأتى كتابنا هذا على وصف أجناسهم وتفريع أنواعهم ، وقد قدمنا الأخبار عن الملك الذى كان ينقاد إليه ملوكهم فى قديم الزمان ، وهو ماجك [ملك] وليناتا ، وهذا الجنس أصل من أصول الصقالبة مُعَظَّم فى أجناسهم ، وله قدم فيهم .

ثم اختلفت الكلمة بين أجناسهم ؛ فزال نظامهم ، وتحزَّبتْ أجناسهم ، وملَّكَ كل جنس [منهم] ملكاً على حسب ما ذكرنا من ملوكهم لأمور يطول ذكرها ، وقد أتينا على جمل من شرحها وكثير من مبسوطها فى كتابنا(٥) « أخبار الزمان » من الأمم الماضية ، والأجيال الخالية ، والممالك الداثرة .

---

(١) فى ب « حانين » . (٢) فى ب « الفتح » .

(٣) فى ا « ويتعددون من المغرب » وفى ب « ويبعدون من المغرب » وأظنه تحريفا عن « ويعبرون من المغرب » الذى أثبتناه .

(٤) فى ب « ملك الإفرنج » . (٥) فى ا « كتابينا أخبار الزمان والأوسط » .

ذكر الإفرنجة والجلالقة ، وملوكها

[وما يتصل بذلك]

نسبهم وصفاتهم

الإفرنجة والصقالبة والنوكبرد والأشبان ويأجوج ومأجوج والترك والخزر وبرجان واللان والجلالقة وغير ذلك ممن ذكرنا ممن حل الجدى[1]، وهو الشمال، لا خلاف بين أهل البحث والنظر من الشرعيين أن جميع من ذكرنا من هؤلاء الأمم من ولد يافث بن نوح [وهو الأصغر من ولد نوح]؛ فالإفرنجة أشد هؤلاء الأجناس بأساً ، وأمنعهم هيبة[2] ، وأكثرهم عُدَّة ، وأوسعهم ملكا ، وأكثرهم مدناً ، وأحسنهم نظاماً وانقياداً لملوكهم ، وأكثرهم طاعة ؛ إلا أن الجلالقة أشد من الإفرنجة بأساً ، وأعظم منهم نكاية ، والرجل من الجلالقة يقاوم عدة من الإفرنجة ، وكلمة الإفرنجة متفقة على ملك واحد ، لا تنازع بينهم فى ذلك ، ولا تحزب ، واسم دار مملكتهم فى وقتنا هذا بويرة[3] ، وهى مدينة عظيمة ، ولهم من المدن نحو من خمسين ومائة مدينة غير العمائر والكُوَر .

مساكنهم

وكان أوائل بلاد الإفرنجة قبل ظهور الإسلام فى البحر جزيرة رودس ، وهى الجزيرة التى ذكرنا أنها مقابلة للإسكندرية، وأن فيها دار صناعة المراكب فى وقتنا هذا للروم ، ثم جزيرة إقريطش، وقد كانت للإفرنجة أيضاً ففتحها المسلمون ونزلوها إلى هذه الغاية ، وكانت بلاد إفريقية وجزيرة صقلية للإفرنجة أيضاً ، وقد أتينا على أخبار هذه الجزائر وخبر الجزيرة المعروفة بالبركان ، وهى الأطمة التى يخرج منها أجسام من النار كأجساد الناس بلا رءوس فتعلو فى الهواء بالليل ، ثم تسقط فى البحر [فتطفو على الماء] وهى الحجارة التى يحك بها الكتابة من الدفاتر ، وهى خفاف بيض على هيئة الشهد وأكوار الزنابير الصغار ، وهى

---

(١) فى ب « الجرا » . (٢) فى ا « وأمنعهم جهة » .

(٣) فى ب « نومرة » .

الأطمة المعروفة بأطمة صقلية ، وفيها قبر فرفوريس[١] الحكيم الذى صنف كتاب إيساغوجى ، وهو المدخل إلى علم المنطق، وهذا الكتاب بهذا الرجل يعرف ، وكذلك أتينا على ذكر آطام الأرض ، كأطمة وادى برهوت من بلاد حضر موت و بلاد الشِّحْر ، وأطمة بلاد الزابج[٢] من بحر الصين، وأطمة بلاد أسك ، وهى ما بين بلاد فارس [وبلاد الأهواز من أعمال مدينة أرْجَانَ من بلاد فارس][٣] ، وهذه النار ترى بالليل من نحو عشرين فرسخاً ، وهى مشهورة بأرض الإسلام ، وتفسير أطمة هى عين النار التى تنبع[٤] من الأرض .

ولم نتعرض فى هذا الكتاب لذكر الحمامات[٥] الكبريتية والزاجية ، ولا الحمامات التى تظهر من مائها النار بالأطمة[٦] التى ببلاد ماسبذان من أرض أربوجان والسيروان يقال لها النومان [وهى أطمة تظهر من وسط مائها النار] وهى أطمة عجيبة تمنع ورود الماء عن إطفائها ، وتدفعه بشدة قوتها وسلطان لهبها ، وهى إحدى عجائب العالم ؛ إذ كنا قد أتينا على علل جميع ذلك فيما سلف من كتبنا .

وقد أتينا على منافع أنواع المياه بجوامع ذكرناها ، ولمع لوحنابها، فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لأرض الواحات من بلاد مصر ، وإن كنا قد أتينا على مبسوط ذلك فيما تقدَّم من كتبنا .

---

(١) فى ب « وفيها هلاك مرقونوس » .
(٢) فى ب « الزنج » .
(٣) زيادة عن ا وحدها .
(٤) فى ب « التى تعرض من الأرض » .
(٥) فى ب « لذكر الخاصة » .
(٦) فى ب « كالخاصة » .

ملوك الإفرنجة

قال المسعودى، ووجدت فى كتاب وقع إلىَّ بفسطاط مصر سنة ست وثلاثين وثلثمائة[1] أهْدَاه عرماز الأسقف بمدينة جريدة من مدن الإفرنجة فى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة إلى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية [بن هشام] بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ولى عهد أبيه عبد الرحمن صاحب الأندلس فى هذا الوقت فى عهده: يا أمير المؤمنين، إن أول ملوك إفرنجة قلودية، وكان مجوسياً فنصَّرَتْهُ امرأته وكان اسمها غرطلة، ثم ملك بعده ابنه لذريق، ثم ولى بعد لذريق ابنه دقشرت، ثم ولى بعده ابنه « لذريق »، ثم ولى بعده « قرطان » ابن دقشرت، ثم ولى بعده ابنه « قارله » ثم ولى بعده ابنه « تبين » ثم ولى بعده « قارلة[2] بن تبين » وكانت ولايته ستاً وعشرين سنة، وكان فى أيام الحكم صاحب الأندلس، وقد تدافع أولاده بعده ووقع الاختلاف بينهم، حتى تفانت الإفرنجة بسببهم، وصار لذريق بن قارلة[2] صاحب ملكهم؛ فملك ثمانياً وعشرين سنةً وستة أشهر، وهو الذى أقبل إلى طرطوشة فحاصرها، ثم ولى بعده ابنه « قارلة بن لذريق » وهو الذى تَهَادَنَ[3] مع محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وكان محمد يخاطَبُ بالإمام، وكانت ولايته تسعاً وثلاثين سنة، وستة أشهر، ثم ولى بعده ابنه « لذريق » ستة أعوام، ثم وثب عليه قائد الإفرنجة المسمى نوسة[4]، وملك إفرنجة، وأقام فى ملكه ثمان سنين، وهو الذى صالح المجوس على بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة يؤديها صاحب الإفرنجة إليهم، ثم ولى بعده « قارلة بن تقويرة »[5] أربع سنين، ثم ملك بعده قارلة آخر، ومكث

(١) كذا والمؤلف يذكر دائما سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، وانظر أول ٣٧ أيضا

(٢) فى ب « نازله » (٣) فى ب « وهو الذى كان يهادى محمد — إلخ »

(٤) فى ب « المسمى برشة » (٥) فى ب « نازلة بن بغريرة ».

إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ، ثم ولى بعده « لذريق ابن قارلة » وهو ملك إفرنجة إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين[1] وثلاثين وثلاثمائة — وقد استوفى فى مملكته عشر سنين إلى هذا التاريخ على حسب ما نمى إلينا من خبره .

بين عبد الرحمن والجلالقة

قال المسعودى: وأشدها على الأندلس من الأمم المحاربة لهم الجلالقة ، كما أن الإفرنجة حربٌ لهم ، غير أن الجلالقة أشد بأساً ، وقد كان لعبد الرحمن بن محمد صاحب الأندلس فى هذا الوقت وزير من ولد أمية[2] يقال له أحمد بن إسحاق فقبض عليه عبد الرحمن لأمر كان منه استحق عليه فى الشريعة العقوبة ، فقتله عبد الرحمن ، وكان للوزير أخ يقال له أمية فى مدينة من ثغور الأندلس، يقال لها شَنْتَرِين[3] ، فلما نمى إليه ما فعل بأخيه عصى على عبد الرحمن، فصار فى حيز ردمير ملك الجلالقة ، فأعانه على المسلمين ، ودلّه على عوراتهم، ثم خرج أمية فى بعض الأيام من المدينة يتصيد فى بعض منتزهاتها، فغلب على المدينة بعض غلمانه ومنعوه من الدخول إليها ، وكتبوا إلى عبد الرحمن[4]، ومضى أمية بن إسحاق أخو الوزير المقتول إلى ردمير، فاصطفاه ، واستوزره، وصيره فى جملته[5]، وغزا عبد الرحمن صاحب الأندلس سمورة[6] مملكة الجلالقة المتقدمة صفة بنيانها وأسوارها فى باب جمل الأخبار عن البحار وما فيها وما حولها من العجائب والأمم ومراتب الملوك وأخبار الأندلس وغير ذلك ، وكان عبد الرحمن فى مائة ألف أو يزيدون ، فكانت الواقعة بينه وبين ردمير ملك الجلالقة فى شوال سنة سبع وعشرين وثلثمائة بعد الكسوف الذى كان فى هذا الشهر بثلاثة أيام، وكانت

---

(١) فى ا « وهو سنة ست وثلاثين وثلثمائة » وانظر أول ص ٣٦ السابقة .
(٢) فى ا « من ولد أبيه » . (٣) فى ب « سيرين » .
(٤) فى ا « وكاتب عبد الرحمن » (٥) فى ا « فى حملته » .
(٦) فى ب « بثورة » .

للمسلمين عليهم ، ثم أنابوا[١] بعد أن حوصروا وأولجوا إلى المدينة فقتلوا من المسلمين — بعد عبورهم الخندق — خمسين ألفاً ، وقيل : إن الذى منع رذمير من طلب مَنْ نجا من المسلمين أميةُ بن إسحاق ، وخوَّفه الكمين ، ورغبه فيما كان فى معسكر المسلمين من الأموال والعُدَدِ والخزائن، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين ، ثم إن أمية بعد ذلك استأمن إلى عبد الرحمن ، وتخلص من رذمير ، فقبله عبد الرحمن أحسن قبول ، وقد كان عبد الرحمن [صاحب الأندلس] بعد هذه الواقعة جَهَّزَ عساكر مع عدة من قواده إلى الجلالقة ، وكانت لهم معهم حروب هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين فى الوقعة الأولى ، وكانت للمسلمين عليهم إلى هذه الغاية ، ورذمير ملك الجلالقة إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين[٢] وثلاثين وثلثمائة — وكان قبله على الملك أردون [وكان قبل أردون أذبوشن][٣] ، والجلالقة والإفرنجة تدين بدين النصرانية على رأى الملكية .

(١) فى ب « ثم ثابوا » .
(٢) فى ا « وهو سنة ست وثلاثين وثلثمائة » .
(٣) زيادة عن ا وحدها .

ذكر النوكبرد، وملوكها

نسبهم ومساكنهم

قد تقدم ذكرنا للنوكبرد ، وأنهم من ولد يافث بن نوح،وبلادهم متصلة بالمغرب ، ومحلهم بالجدى ، ولهم جزائر كثيرة فيهاأمم من الناس،وهم ذوو بأس شديد ومنعة ، ولهم مدن كثيرة يجمعهم ملك واحد ، وأسماء ملوكهم فى سائر الأعصار « أدنكبس » والمدينة العظمى من مدنهم ودار مملكتهم هى يست ، ويخترقها نهر عظيم ، وهى جانبان ، وهذا النهر أحد أنهار العالم الموصوفة بالكبر والعجائب يقال له سابيط ، قد ذكره جماعة ممن عنى بهذا المعنى ممن تقدم،وكان المسلمون ممن جاورهم من بلاد الأندلس والمغرب غلبوهم على مدن كثيرة من مدنهم مثل مدينة بارى ومدينه طارنيو ومدينة شبرامة وغيرها من مدنهم الكبار.

ثم إن النوكبرد أنابوا[1] ورجعوا على من [كان] فى تلك المدن من المسلمين فأخرجوهم عنها بعد حرب طويل ، وما ذكرنا من المدن فى وقتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة — فى أيدى النوكبرد .

قال المسعودى:ومن ذكرنا من الجلالقة والإفرنجة والصقالبة والنوكبرد وغيرها من الأمم فديارهم متقاربة ، والأكثر منهم حَرْبٌ لأهل الأندلس ، وصاحب الأندلس فى هذا الوقت ذو مَنَعة وقوة عظيمة على ما قدمنا من نسبه وأخباره،وقد كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام سار إلى الأندلس فى أول دولة بنى العباس،وَله أخبار كثيرة فى كيفية وصوله إلى الأندلس،ودار مملكة الأندلس قرطبة على ما ذكرنا ، ولهم مدن كثيرة وعمائر [متصلة] واسعة،وثغور فى أطراف أرضهم ، وَربما يجتمع عليهم مَنْ جاورهم من الأمم من ولد يافث من الجلالقة وبرجان وَالإفرنجة وغيرها من الألسن[2] وَصاحب الأندلس فى هذا الوقت يركب فى مائة ألف،وهو ذو مَنَعَة بالرجال والمال وَالكُرَاع والعدد ، والله أعلم .

---

(١) فى ا « ثابوا » .

(٢) فى ب « من الأمم » .

ذكر عاد وملوكها

عاد الأولى

ذكر جماعة من ذوى العناية بأخبار العالم أن الملك يؤثر[1] من بعد نوح فى عاد الأولى التى بادت قبل سائر ممالك العرب كلها ، ومصداق ذلك قوله عز وجل : (وأنه أهلك عاداً الأولى) فإنه يدل على تقدمهم ، وأن هناك عاداً ثانية ، وأخبر الله عن ملكهم ، ونطق بشدة بطشهم ، وما بنوه من الأبنية المشيدة التى تدعى على مر الدهور العاديّة ، وقد أخبر الله تعالى عن قول نبيه هود عليه السلام وخطابه إياهم : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين) .

عاد أول ملك بعد نوح

وعاد أول من ملك فى الأرض فى قول هذه الطائفة ، بعد أن أهلك الله عز وجل الكفار من قوم نوح ، وذلك لقوله تعالى : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة) وذلك أن هؤلاء القوم كانوا فى هيآت النخل طولا ، وكانوا فى اتصال الأعمار وطولها بحسب ذلك من القدر ، وكانت نفوسهم قوية ، وأكبادهم غليظة ، ولم يكن فى الأرض أمة هى أشد بطشا وأكثر آثاراً وأقوى عقولا وأكثر أحلاماً[2] من قوم عاد ، ولم يكن الهلاك يعرض فى أجسامهم ، لقوة آثار الطبيعة فيها ، وما أوتوه من الزيادة فى تمام البنية وكمال الهيئة على حسب ما أخبر الله عز وجل .

نسب عاد وعبادته وأولاده

وكان عاد رجلا جباراً عظيم الخلقة ، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وكان عاد يعبد القمر ، وذكروا أنه رأى من صلبه أربعة آلاف ولد ، وأنه تزوج ألف امرأة ، وكانت بلاده متصلة باليمن ، وهى بلاد الأحقاف ، وبلاد

---

(١) فى ا « تأثل من بعد نوح » .

(٢) فى ا « وأعظم أخلاقا »

صحارى[1] [هى و] بلاد عمان إلى حضر موت على حسب ما قدمنا آنفاً فيما سلف من هذا الكتاب وغيره من كتبنا

وقد ذكر جماعة من الإخباريين — ممن عنى بأخبار العرب — أن عادا لما توسط العمر واجتمع له الولد وولد الولد ، ورأى البطن العاشر من ولده، وظهور الكثرة مع تشييد الملك واستقامة الأمر ، غمر[2] إحسانه الناس[3] ، وقرى الضيف ، وأحواله منتظمة ، والدنيا عليه مقبلة ، فعاش ألف سنة ومائتى سنة ثم مات

شديد بن عاد

وكان الملك بعده فى الأكبر من ولده ، وهو « شديد بن عد » وكان ملكه خمسمائة سنة وثمانين سنة ، وقيل غير ذلك .

شداد بن عاد

ثم ملك بعده أخوه « شداد بن عاد » وكان ملكه تسعمائة سنة،ويقال : إنه احتوى على سائر ممالك العالم ، وهو الذى بنى مدينة إرَمَ ذات العماد ، على حسب ما قدمنا فيما سلف من كتبنا عند إخبارنا عن هذه المدينة وتنازع الناس فى كيفيتها [وماهيتها] وفى أى بلاد هى .

وهذه عاد الثانية التى ذكرها الله تعالى فقال : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرَمَ ذات العماد) وإلى هذه الأمة[4] انتهى البطش ، ولشداد بن عاد مسير فى الأرض ، وطواف فى البلاد [وبأس] عظيم فى ممالك الهند وغيرها من ممالك الشرق والغرب ، وحروب كثيرة ، أعرضنا عن ذكرها لشرط الاختصار ، ومُعَوَّلنا فى ذلك على ما بَسَطْناه من أخبارهم فى كتاب « أخبار الزمان : من الأمم الماضية ، والأجيال الخالية ، والممالك الداثرة » وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب — عند ذكرنا تفرق الناس ببابل وتشعب الأنساب ، وماقالوا فى ذلك من الأشعار — جملا من أخبار عاد ونبيها هود ، فأما تنازع الناس ممن سلف وخلف فى العلة التى

(١) فى ب « سنجار » محرفا ، وكلمة « وهى » ساقطة منها .

(٢) فى ا « عم » . (٣) فى ب « النامى » .

(٤) فى ب « وإلى هذه المدينة » .

لما عظمت أجسامهم وطالت أعمارهم فقد أتينا على ذكر ذلك فى كتابنا المترجم بـ«كتاب الرؤس السبعة من السياسة الملوكية » وكذلك فى كتابنا المترجم بـ « كتاب الزلف » .

[وذكرنا العلة التى لها ومن أجلها عدم كون السباع والجمال بأرض الأندلس، ومايتكون فى هذه الأرض من الجواهر فى نباتها ومعادنها، ومافى أرض جليقية، وإلى هذه الأرض أضيفت مملكة الجلالقة المقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب ، وهم أشد الأمم على أهل الأندلس ، وأعظمهم بطشاً ممن جاورهم، ثم يليهم فى الناس أمة عظيمة الملك يقال لها الوشكنش ، على حسب ماقدمنا من ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب وفى غيره من كتبنا مما تقدم تأليف هذا الكتاب][1]

ذكر ثمود وملوكها ، وصالح نبيها

مساكن ثمود

قد ذكرنا فيما سلف من ذكر ثمود [ونبيها صالح عليه السلام لمعا ، وإن كنا قد بسطنا ذلك] فى غير هذا الكتاب ، وكان ملك ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر الحبشى ، وديارهم بفج الناقة ، وبيوتهم إلى وقتنا هذا أبنية[2] منحوتة فى الجبال، ورسومهم[3] باقية ، وآثارهم بادية ، وذلك فى طريق الحاج لمن ورد من الشام بالقرب من وادى القرى ، وبيوتهم منحوتة فى الصخر بأبواب صغار ، ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا ، وهذا يدل على أن أجسامهم على قدر أجسامنا ، دون ما يخبر به القصاص من بعد أجسامهم ، وليس هؤلاء كعاد ؛ إذ كانت آثارهم ومواضع مساكنهم وبنيانهم بأرض الشحر تدل على بعد أجسامهم .

(١) هذا الكلام لايوجد فى ب ، وهو ثابت فى ا فى هذا الموضع، وظاهر أن محله الحقيقى فى الباب الذى قبل هذا الباب .

(٢) فى ا « بينة منحوتة فى الجبال » . (٣) فى ب « ورممهم باقية » .

ملوك ثمود

وكان ملك الملك الأول من ملوكهم مائتى سنة ، وهو عابر بن إرم بن ثمود بن عابر [بن إرم] بن سام بن نوح .

ثم ملك بعده «جندع بن عمرو» بن الدبيل[1] بن إرم بن ثمود بن عابر ابن إرم بن سام بن نوح ، وكان ملكه إلى أن هلك مائتى سنة وتسعين سنة ، وهلك جندع هذا بعد أن كان من أمر صالح النبى صلى الله عليه وسلم ما كان على ما ذكرنا أربعين سنة ، فجميع ما ملك هذا الملك -وهو جندع- ثلثمائة وسبع وعشرون سنة ؛ فهؤلاء ملوك ثمود .

صالح رسول الله إلى ثمود

وبعث الله صالحاً نبياً وهو غلام حَدَثٌ لثمود على حين فترة كانت بينه وبين هود نحو من مائة سنة ، فدعاهم إلى الله ، وملكهم يومئذ هو جندع ابن عمرو على ما ذكرنا ، فلم يجب صالحاً من قومه إلا نفر يسير ، وكبر صالح ، ولم يزدد قومه من الإيمان إلا بُعْداً ، فلما تواتر عليهم إعذاره وإنذاره ووعده ووعيده ساموه المعجزات ، وإظهار العلامات ليمنعوه من دعائهم ، وليعجزوه عن خطابهم ، فحضر عيداً لهم ، وقد أظهروا أوثانهم ، وكان القومُ أصحابَ إبل ، فساموه الآية من جنس أموالهم[2] ، وطالبوه بما هو مجانس لأملاكهم ، [وذلك] من بعد اتفاق آرائهم فقال له زعيم من زعمائهم : ياصالح ، إن كنت صادقاً فى قولك ، وأنك مُعَبِّر عن ربك ، فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة ، ولتكن [وَبْرَاء] سوداء عُشَرَاء نَتُوجاً حالكة صافية[3] اللون ذات عرف وناصية وشعر ووبر ، فاستغاث بربه ، فتحركت الصخرة وتململت ، وبدا منها حَنِينٌ وأنين ، ثم انصدعت من بعد تمخض شديد كتمخض المرأة حين الولادة ، وظهر منها ناقة على ما طلبوه من الصفة ، ثم تلاها من الصخرة سَقْبٌ لها نحوها فى الوصف ، فأمْعَنَا فى رَعْى الكلأ وطلب [الماء و] المرعى ، فآمن خلق ممن حضره ، وزعيمهم

(١) فى ب « بن الديل » .
(٢) فى ا « فساموه الدلالة من حيث أموالهم » .
(٣) فى ا « صهابية » وليس فيها كلمة « اللون » .

الذى سأله وهو جندع بن عمرو ، وأقامت الناقة يحابون من لبنها ما يعم شربه ثمودا كلها ، وضايقتهم فى الكلأ والماء ، وكان فى ثمود امرأتان ذَوَاتَا حسن وجمال ، فزارها رجلان من ثمود ، وهما قدار بن سالف ، ومصدع بن مفرج[1] ، والمرأتان عنيزة بنت غنم[2] ، وصدوف بنت المجبا[3] . فقالت صدوف : لو كان لنا فى هذا اليوم ماء لأسقينا كما خمراً ، وهذا يوم الناقة ووردها [إلى الماء] ولا سبيل لنا إلى الشرب ، فقالت عنيزة : بلى والله لو أن لنا رجالا لَكَفَوْنَا إياها ، وهل هى إلا بعير من الإبل ؟ ! ! فقال قدار : يا صدوف ، إن أنا كفيتك أمر الناقة فمالى عندك ؟ فقالت : نفسى ، وهل حائل دونها عنك ؟ فأجابت الأخرى صاحبها بنحو ذلك ، فقالا : مِيلاَ علينا بالخمر ، فشربا حتى توسطا السكر ، ثم خرجا فاستغوَيَا تسعة رهط[4] ، وهم التسعة الذين أخبر الله تعالى عنهم فى كتابه بقوله : (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) وقصدوا طريق الناقة فى حال صدورها ، فضرب قدار عرقوبها بالسيف ، فعرقبها[5] ، وأتبع صاحبه الآخر العرقوب الآخر [بسهمه] ، فخرت الناقة لوجهها ، ووَجَأ قدار لَبَّتَهَا فنحرها ، ولاذ السَّقْب بصخرة فلحقه بعضهم فعقره [وفرقوا لحم الناقة][6] ، وورد صالح فنظر إلى ما فعلوه ، فوعَدَهم العذاب ، وكان ذلك فى يوم الأربعاء ، فقالوا له مستهزئين : يا صالح ، متى يكون ما وعدتنا به من العذاب عن ربك ؟ فقال : تصبح وجوهكم يوم مؤنس — وهو يوم الخميس — مصفرة ، ويوم العروبة محمرة ، ويوم شيار مسودة ، ثم يصبحكم العذاب يوم أول ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب أسماء الشهور والأيام بلغتهم ، فَهَمَّ التسعة بقتل صالح ، وقالوا : إن كان صادقاً كنا قد عاجلناه قبل أن يعاجلنا ، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته ، فأتوه ليلا ، لحالت

(١) فى ا « ومصدع بن معرج » . (٢) فى ب « بنت زعيم » .
(٣) فى ب « وصدوف بنت المحيا » .
(٤) فى ا « فاستغويا سبعة رهط » . (٥) فى ا « فعقرها » .
(٦) لا توجد هذه الجملة فى ب .

الملائكة بينهم وبينه ، وأمطرتهم الحجارة ، ومنعه الله منهم ، فلما أصبحوا نظروا إلى وجوههم كما وعدهم صفراء كأنها الوَرْس : قد حالت الألوان ، وتغيرت الأجسام ، وتيقن القوم صدق الوعيد ، وأن العذاب واقع بهم ، وخرج صالح فى ليلة الأحد من بين ظهرانَيْهِمْ مع من خَفّ من المؤمنين ، فنزل موضع مدينة الرمله من بلاد فلسطين ، وأتاهم العذاب يوم الأحد ، وفيهم يقول[1] بعض من آمن بصالح عليه السلام :

أراكم يا رجال بنى عتيـــد كأن وجوهكم طُلِيَتْ بِوَرْسِ
ويوم عروبة احْمَرّتْ وجوه مُصَفرَة ، ونادوا يال مرس
ويوم شيار فاسْوَدّتْ وجوه من الحيين قبل طلوع شمس
فلما كان أول فى نحاه أتتهم صَيْحَة عَمّتْ بِتَعْسِ

وفيهم يقول حباب بن عمرو ، وكان ممن اعتزلهم من المؤمنين [وبان عن ديارهم] :

كانت ثمود ذوى عزّ ومكرمة ما إن يُضَام لهم فى الناس مِنْ جَارِ
[لا يرهبون من الأعداء حولهم وَقْعَ السيوف، ولا نزعاً بأوتار][2]
فأهلكوا ناقة كانت لربّهم قد أنذروها وكانوا غير أبرار
[نادوا قدار أو لحم السَّقْبِ بينهمْ هل للعجول وهل للسقب من ثا_]
[لم يرْعَيا صالحاً فى عقر ناقته وأخفروا العهد هَدْياً أى إخفار]
[فصادفوا عنده من ربه حَرَسَا فَشَدّخوا روسهم شدخاً بأحجار]

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب — عند ذكرنا لتفرق الناس ببابل — من أخبار ثمود جُمَلاً، وما كان من أمر الناس [بأرض بابل] وافتراق لغاتهم، وما قاله كل فريق منهم من الشعر ، على حسب ما أعطاه الله من اللسان ، وإن كنا قد أتينا على شرح ذلك على الكمال فيما تقدم لنا من كتابنا « أخبار الزمان » وبالله التوفيق .

(١) لا توجد القطعة الأولى فى ا (٢) الأبيات الأربعة التى بين المعقوفين ساقطة من ا

ذكر مكة وأخبارها ، وبناء البيت

ومَنْ تداوله من جُرْهم وغيرها ، وما لحق بهذا الباب

سكن إسماعيل وأمه بمكة

ولما أسكن إبراهيمُ ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجَر ، واستودعهما خالقَهُ على حسب ما أخبر الله عنه أنه أسكنه بواد غير ذى زرع ، وكان موضع البيت رَبْوَةٌ حمراء — أمر إبراهيم هاجر أن تتخذ عليها عريشاً يكون لها مسكناً ، وكان من ظمأ إسماعيل وخبر هاجر ما كان إلى أن أنبع الله لهما زمزم ، وأقحط الشحر واليمن ، فتفرق العماليقُ وجرهم [فى البلاد] وَمَنْ هناك من بقايا عاد .

نزول العماليق معهما

فيممت العماليق نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى والدار الخصيبة ، وعليهم السميدع بن هوبر بن لاوى بن[1] قيطور بن كركر بن حيدان ، فلما أمعنت بنو كركر فى المسير — وقد عدمت الماء [والمرعى] ، واشتد بها الجهد — أقبل السميدع بن هوبر يحثهم على السير فى شعرٍ له ويشجعهم بما قد نزل بهم ، وهو .

سيروا بنى الكركر فى البلاد إنى أرى ذا الدَّهْرَ فى فساد
قد سار من قَحْطان ذى الرشاد [جُرْهُمُ لمَّا هَدَّها التعادى][2]

فأشرف رُوَّادهم — وهم المتقدمون منهم لطلب الماء — على الوادى ، فنظروا الطير ترتفع وتنخفض ، فهبطوا الوادى ونظروا إلى العريش على الرَّبْوَة الحمراء ، وفيها هاجر وإسماعيل ، وقد زَمَّتْ حول الماء[3] بالأحجار ومنعته من الجريان ، وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « رحمَ الله أمنا هاجر ، لولا أنها بخلت ومنعت ماء زمزم من أن يجرى بما حَوَّطَتْ حوله من الأحجار لجرى الماء على وجه الأرض » فسلم الرُّوَّاد عليها ، واستأذنوها فى نزولهم وشربهم من الماء ،

---

(١) فى ب « السميدع بن هود بن لابى بن قنطور بن كركر بن حيدان » .
(٢) ما بين المعقوفين ساقط من ا (٣) فى ا « وقد زما . . ومنعوه » .

فأنِسَتْ إليهم ، وأذنت لهم فى النزول، فتلقوا مَنْ [كان] وراءهم من أهليهم ، وأخبروهم خبر الماء ، فنزلوا الوادى مطمئنين ، مستبشرين بالماء ، وبما أضاء الوادى من نور النبوة وموضع البيت الحرام ، [فرحين ، وَعَيَّل إسماعيل] ، وتكلم إسماعيلُ بالعربية خلاف لغة أبيه.

وقد ذكرنا فى هذا الكتاب وغيره ما قاله الناس فى ذلك من قَحْطَان ونزار وتزَوَّجَ إسماعيل بالجداء بنت سعدٍ العملاقى .

زيارة إبراهيم الأولى لابنه

وقد كان إبراهيم استأذن سارة فى زيارة إسماعيل ، فأذنت له ، فوافى مكة وإسماعيلُ فى الصيد [والرعى] ومعه أمه هاجر ، فسلم على الجداء [بنت سعد] زوجة إسماعيل ، فلم تردَّ عليه السلام ، فقال : هل من منزل ؟ فقالت : لا ها الله ، قال : فما يفعل رب البيت؟ قالت: هو غائب ، فقال لها : إذا ورد فأخبريه أن إبراهيم يقول لكَ بعد مسألته عنك وعن أمك : استبدل بعتبة بيتك غيرها ، وانصرف إبراهيم من فَوْره نحوَ الشام ، وراح إسماعيل وهاجر ، فنظر إلى الوادى قد أشرق وأنار ، والأغنام تتنسم[1] الآثار ، فقال لزوجته الجداء : هل كان لك بعدى من خبر ؟ قالت : نعم ، شيخ وَرَدَ على ، وأخبرتْهُ بالقصة ، فقال : ذاك أبى خليل الرحمن ، وقد أمرنى بتخليتك ، فالحقِى بأهلك ، فلا خير فيك .

نزول جرهم مكة

وتسامعت جرهم ببنى كركر ونزولهم الوادى ، وما هم فيه من الخصب وإدرار الضَّرْع[2] ، وهم فى حال القَحْطِ ، فبادروا نحو مكة ، وعليهم الحارث بن مُضَاض ابن عمرو بن سعد بن الرقيب بن ظالم بن هينى[3] بن نبت بن جُرْهم ، حتى أتوا الوادى ، ونزلوا مكة ، واستوطنوها مع إسماعيل وَمن تقدمهم من العماليق من بنى كركر ، وقد قيل فى [بنى] كركر : إنهم من العماليق ، وقيل : إنهم من جرهم ، والأشهر أنهم من العماليق ، وتزوج إسماعيل زوجته الثانية ، وهى سامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف بن هينى بن نبت .

---

(١) فى ا « والأغنام تشتم الآثار » . (٢) فى ا « ودرور الضرع » .

(٣) فى ب « ظالم بن محالة بن هى بن نبت » .

زيارة إبراهيم الثانية

واستأذن إبراهيم سارة فى زيارة إسماعيل ، فاستحلفته غيرةً عليه أنه إذا أتى الموضع لا ينزل من ركابه ، وقد تنازع الناس على أى شىء كان ركوبه : فمنهم من قال : إنه كان راكباً على البُرَاق ، ومنهم من قال : على أتان ، وقيل غير ذلك من الحيوان ، فلما أتى إبراهيم الوادى سلم على زوجة إسماعيل الجرهمية ، فسلمت عليه ، ورَحَّبتْ به وتَلَقّته بأحسن لقاء[١] ، وسألها عن إسماعيل وهاجر ، فأخبرته بخبرهما ، وأنهما فى رَعْيهما ، وعرضت عليه النزول ، فأبى ، وقيل : إن هاجر كانت قد ماتت ولها من السن تسعون سنة ، وألحت الجرهمية على إبراهيم فى النزول ، فأبى ، فقدّمت إليه لبناً وشرائح من لحم الصيد ، فدعا فيه بالبركة ، وجاءته بحجر كان فى البيت ، فمال عن ركابه[٢] ، وجعلته تحت قدمه اليمنى ، ثم رَجَّلَتْ شعره ودَهَنته ، ثم حوّلت الحجر إلى شماله ، فوضع رجله اليسرى عليه أيضاً ، ومال برأسه نحوها ، فرَجَّلته ودهنته ، فأثرت قدماه فى الحجر على ما وصفنا من ترتيب اليمين والشمال ، فلما رأت الجرهمية ذلك أكْبَرَتْ ما شاهدته[٣] ، وهذا الحجر هو مقام إبراهيم ، فقال لها إبراهيم : ارفعيه ، فسيكون له شأن ونبأ بعد حينٍ ، ثم قال لها : إذا جاءك إسماعيل فقولى له : إن إبراهيم يقرأ عليك السلام ويقول لك : احتفظ بعتبة بيتك ، فنعمت العتبةُ هى ، وسار إبراهيم راجعاً نحو الشام .

سر تسمية إسماعيل

وقيل : إنما سمى إسماعيل لأن الله سمع دعاء هاجر ورحمها حين هَرَبَتْ من سيدتها سارة أمِّ إسحاق ، وقيل : إن الله سمع دعاء إبراهيم .

وقبض إسماعيل وله مائة وسبع وثلاثون سنة ؛ فدفن فى المسجد الحرام حِيَالَ الموضع الذى [كان][٤] فيه الحجر الأسود .

---

(١) فى ا « بأحسن لقيان » .
(٢) فى ا « فمال على ركابه » .
(٣) فى ا « أكبرته » .
(٤) لا توجد هذه الكلمة فى ب .

أبناء إسماعل

وولد لإسماعيل اثنا عشر ولداً ذكراً ، وهم نابت[1] ، وقيدار ، وأدبيل ، ومبسم ، ومشمع، ودوما ، ودوام ، ومسًّا ، وحداد، وثيما ، ويطور ، ونافش وكلُّ هؤلاء قد أنْسَلَ[2] .

بناء الكعبة

وقد كان إبراهيم قدم إلى مكة ولإسماعيل ثلاثون سنة ، حين أمره الله تعالى ببناء البيت ، فبناه ، وكان إسماعيل يأتى بالحجر من عـــدة[3] جبال ذكرت ، وطوله ثلاثون ذراعا ، [والحجر فيه وهو سبعة أذرع] ، وعرضه اثنان وعشرون ذراعا ، وسمكه سبعة أذرع[4] ، وجعل له باباً ، ولم يسقف ، ووضع الركن موضعه ، وألصق المقام بالبيت ، وذلك قوله عز وجل : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وإِسماعِيلُ) الآية ، وأمر الله تعالى إبراهيم أن يؤذِّنَ فى الناس بالحج .

ولاة البيت من جرهم وأبناء إسماعيل

ولما قُبض إسماعيل قام بالبيت بعده نابت بن إسماعيل ، ثم قام من بعده أناس من جُرْهم ، لغلبة جرهم على ولد إسماعيل ، وكان ملك جُرْهم يومئذ الحارث ابن مُضَاض ، وهو أول من ولى البيت ، وكان ينزل هنالك فى الموضع المعروف بقُعَيْقِعَانَ فى هذا الوقت ، وكان كل من دخل مكة بتجارة عَشَّرَها عليه[5] ، وذلك فى أعلى مكة ، وملك العماليق السَّمَيْدَع بن هو بر [بن لاوى بن قبطور بن كركر بن حيد] وكان ينزل أجيادا من أسفل مكة ، وكان يُعَشِّرُ[5] من دخل مكة من ناحيته ، وكانت بينهم حروب ، فخرج الحارث بن مُضَاض ملك جرهم تتقعقع معه الرماح والدَّرَق ، فسمى الموضع بقعيقعان لما ذكرنا ، وخرج السميدع ملك العماليق ومعه الجياد من الخيل فعرف للموضع بأجياد إلى هذا الوقت ، فكانت على

(١) فى بعض هذه الأسماء اختلاف كثير ، وقد رأينا بقاءه كما فى ا ، فمن أمثلة ذلك أنه وقع فى ب « نابت وقيذار وإربل ومسيم ومسمع ودوما ودوام ومشى وحداد ونيم وبطور ونابسر » .

(٢) فى ا « وكل هؤلاء قد أسلم » محرفا . (٣) فى ب « عشرة جبال »

(٤) فى ا « تسعة أذرع » . (٥) عشرها عليه : أى أخذ عشرها .

الجرهميين وافتضحوا ، فسمى الموضع فاضحا إلى هذا الوقت، ثم اصطلحوا ونحروا [ألجزُرَ] وطبخوا فسمى الموضع بطابخ إلى الآن ، وصارت ولاية البيت إلى العماليق ، ثم كانت لجرهم عليهم ، وأقاموا ولاة البيت نحو ثلثمائةسنة ، وكان آخر ملوكهم الحارث بن مُضَاض الأصغر بن عمرو بن الحارث بن مُضَاض الأكبر ، وزادوا فى بناء البيت ، ورفعته على ما كان عليه من بنـاء إبراهيم عليه السلام ، وبَغَتْ جرهم فى الحرام وطَغَتْ ، حتى فسق رجل منهم فى الحرم بامرأة ، وكان الرجل يدعى بإساف والمرأة نائلة ، فمسخهما الله عزوجل حجرين صُيِّرا بعد ذلك وثنين وعُبِدَا تقربا بهما إلى الله تعالى ، وقيل : بل هما حجران نحتا وَمُثِّلاَ بمن ذكرناوسميا بأسمائهما ، فبعث الله على جرهم الرُّعَاف والنمل وغير ذلك من الآفات[1] فهلك كثير منهم ، وكثر ولد إسماعيل [وصاروا ذوى قوة ومَنَعَة فغَلَبوا على أخوالهم جرهم][2] وأخرجوهم من مكة ، فلحقوا بجُهَينة، فأتاهم فى بعض الليالى السيل فذهب بهم ، وكان الموضع يعرف بإضم ، وقد ذكر ذلك أمية بن أبى الصَّلْت الثقفى فى شعر له فقال :

إساف ونائلة صنمان

وجرهم دمنوا تهامة فى الد هرِ فسالتْ بجمعهم إضَمُ

وفى ذلك يقول الحارث بن مُضَاض الأصغر الجرهمى :

كأنْ لم يكن بين الحَجُون إلى الصفا أنيس ، ولم يسمر بمـكة سـامر

بلى نحن كنا أهلها ، فأبادَنَا صروف الليـالى والجدود العوائر

وكنا لإسماعيل صهراً وَوصـلة ولمَّا تَدُرْ فيها علينا الدوائر[3]

وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف بذاك البيت والخير ظاهر[4]

[فبدَّلَنَا ربى بهـا دار غربة بها الذئب يعوى والعدو المحاصر][5]

وفيما ذكرنا من أخبارهم يقول عمرو بن الحارث بن مُضَاض الأصغر الجرهمى :

(١) فى ا « وغير ذلك من الآيات » .

(٢) زيادة فى ب وحدها . (٣) فى ا « صهرا وجيرة » .

(٤) فى ا « والخير ظاهر » ، (٥) لا يوجد هذا البيت فى ا

وكنا ولاة البيت وَالقاطِنَ الذى إليـه يؤدِّى نذرَهُ كلُّ محرم
سكنَّا بهـا قبـل الظباء وراثة لها عن بنى هَيْنِى بن نبت بن جُرْهُمِ

[وفى ذلك يقول :[1]

كهفنا جرهم ، وأية كهفٍ وَوُلاةٌ لبيته والحجـــاب
فَسَقُوا فى الحرام بعد تُقَاهم واستعاضوا العقاب بعد الثواب][1]

ثم صارت ولاية البيت فى ولد إياد بن نزار بن معد ، وكانت حروب كثيرة بين مضر وإياد ، وكانت لمضر على إياد ، فانجلوا[2] عن مكة إلى العراق .

وسنورد بعد هذا جملا من أخبار مكة وولد نزار وخُزاعة وغيرهم .

رواية أخرى فى الولاة بمكة

قال المسعودى : وقد أتينا على جمل من الأخبار فى هذا الباب من أخبار جرهم وغيرها ، ووجدت فى [وجه] آخر من الروايات أن أول من ملك من ملوك جرهم بمكة مُضَاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هينى بن نبت بن جرهم بن قحطان مائة سنة ، ثم ملك بعده ابنه عمرو بن مضاض مائة وعشرين سنة ، ثم ملك بعد الحارث بن عمرو مائتى سنة ، وقيل دون ذلك ، ثم ملك بعده عمرو بن الحارث مائتى سنة [وقيل دون ذلك] ثم ملك مُضَاض بن عمرو الأصغر بن الحارث بن عمرو بن مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هينى بن نبت بن جرهم بن قحطان أربعين سنة .

وانقرضت العرب العاربة من عاد وثمود وعبيد وطَسْم وجَدِيس والعماليق ووبار[3] وجرهم ، ولم يبق من العرب إلا من كان من عدنان وقحطان ، ودخل من بقى ممن ذكرنا من العرب البائدة فى عدد قحطان وعـدنان ، فانمحت أنسابهم وزالت آثارهم

---

(١) ما بين المعقوفين لا يوجد فى ا

(٢) فى ا « فانجفلوا عن مكة »

(٣) فى ب « وإياد وجرهم » وليس بشىء ؛ لأن إيادا من العدنانية لا البائدة .

العماليق

وقد كانت العماليق بَغَتْ فى الأرض ، فسلط الله عليهم ملوك الأرض فأفنتها ، وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا للروم وأنسابها مَنْ ألحق ولد عملاق وغيرهم ، ممن ذكرنا ، بولد عيصو بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام ، وأن علماء العرب تنسبهم إلى غير هذا النسب ، وهو الأشهر فى الناس ؛ وقد رثتهم الشعراء : فقال بعض من رثاهم :

مضى آل عملاق فلم يبق منهمُ خطير ، ولاذو نخوة متشاوس[1]

عَتَوْا فأدَال الله منهم ، وحكمه على الناس هذا وعده وهو سائس

طسم وجديس

وأما طَسْم وجَدِيس فتفانت فى نحو من سبعين سنة فى البرارى ، بما كان بينهم من الشَّحْناء ، وطلب الرياسة ، فدثروا ، ولم يبق لهم باقية ، فضربت بهم العرب المثل ، وضربت بهم الشعراء المقال[2] [فمن ذلك ما قاله بعض الشعراء ممن رثاهم فى قوله :

فوَيْلِى من جَوًى هم رسيس من اللاّوا لطَسْمٍ أو جديس

بنو عم تفانوا بالذاكى وباليوم الأحَمِّ العيطموس][2]

أصحاب الرس

أما الرسُّ وأصحابه فقدقدمنا ذكرهم فيما سلف من كتبنا ، وهم قوم حَنْظَلة ابن صفوان العبسى ، بعثه الله [إليهم] فكذبوه ، وقد ذكرنا من خبره لمعا ، وقد قيل فىأصحاب الرأسأوْجُهٌ كثيرة غيرما ذكرنا فىهذا الكتاب، وقد ذكرت هذه القبائل فى التوراة ، وكل يرجع إلى ولد سام بن نوح . من بنى إرم بن سام وهو من ولده عوص بن إرم ، ومن ولده [عابر بن إرم ، ومن ولده][2] ماش بن إرم .

النبيط

[فولد عوص عاد بن عوص ، وولد عابر ثمود بن عابر ، وولد ماش بن إرم][2] نبيط بن ماش ؛ فسائر النبط وملوكها ترجع فى أنسابها إلى نبيط ابن ماش .

(١) فى ا « فلم يبق منهم * حقير » .

(٢) مابين المعقوفين لايوجد فى ا

مساكن عاد وثمود وجديس وطسم وعيلام ونبيط

فحلّ عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وولده الأحقافَ من بلاد حضرموت ، وحل ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح وولده أكنافَ الحجاز ، وحل جديس بن عابر بلاد جَوٍّ ، وهى بلاد اليمامة ما بين البحرين وا[illegible] ، وهذا البلد فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — بيد ولد الأخيضر [illegible] ، وهو من ولد الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو مجاور للبحرين ، ومَنْ فيها إلى هذا الوقت ، وحلَّ طَسْم بن لود بن سام بن نوح وولده اليمامة مع بنى جَدِيس ، وحل عمليق بن لود[1] ابن سام بن نوح الحجاز ، وقد ذكرنا ولد عيلام فيما سلف من هذا الكتاب أنهم حلوا الأهواز وفارس ، وهو عيلام بن سام بن نوح ، وحل نبيط ابن ماش بن إرم بن سام بن نوح بابلَ ، فغلبوا على العراق ، وهم النبط ، ومنهم ملوك بابل الذين قدمنا ذكرهم ، وأنهم الملوك الذين عمروا الأرض ، ومهدوا البلاد ، وكانوا أشر[2] ملوك الأرض ، فأدال منهم الدهر[3] ، وسلبهم الملك والعزّ ، فصاروا على ما هم عليه من الذل فى هذا الوقت بالعراق وغيرها .

دعوى الشعوبية

وقد زعم جماعة من المتكلمين — منهم ضرار بن عمرو وثمامة بن الأشرس وعمرو بن بحر الجاحظ — أن النبط خير من العرب ؛ لأن من جعل الله تبارك وتعالى النبى صلى الله عليه وسلم منهم لم يَدَعْ أكبر شرف فى الدنيا إلا وقد أعطاهم إياه ، ومَنْ لم يجعله منهم فلم يدع أكبر شرف فى الدنيا إلا وقد [4] أعراهم منه وسَلَبهم إياه ، ولا نعمة على من جعل الله تعالى النبى عليه السلام منهم أكبر من النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا بَلْوَى على من لم يجعل الله عز وجل النبى صلى الله عليه وسلم منهم أكبر من خروج النبى صلى الله عليه وسلم عنهم ، إلا أنهم مع هذا كله لهم عند الله فضل ما بين النعمة والبلاء .

---

(١) فى ب « عملوق بن أد » (٢) فى ا « وكانوا أشرف ملوك الأرض » محرفا

(٣) فى ا « فأذلهم الدهر » . (٤) زيادة فى ا وحدها .

الرد على الشعوبية

قال المسعودى : ولما لم يبال من قدمنا ذكره من تشريف النبط وتفضيلهم على ولد قحطان وعدنان وفيهم الفضل والشرف من النبوة والملك والعزة قال لهم المحتج عن قحطان ونزار : إذا كان النبط قد صاروا أفضل من العرب لما امتحن الله به النبط من سَلْبه النبوة منهم وأنعم على العرب بكون النبى صلى الله عليه وسلم منهم ، فللعرب أيضاً التعلق بهذه العلة التى اعتل بها النبط ، فتقول: قد صرنا بعدُ أفضل من النبط ؛ لما امتحنًّا به من سلب ما جعل الله للنبط من الفضل فى شدة امتحانهم بسلب النبى صلى الله عليه وسلم عنهم ، والنبط أيضاً قد صاروا دون العرب ؛ إذ للعرب من فضل النبى صلى الله عليه وسلم مما جعله الله لهم بتعريتهم من فضل النبط على شدة امتحانهم بتعرية الله إياهم من النبى صلى الله عليه وسلم ما ليس للنبط ؛ فتصير العرب أيضاً خيراً من النبط ، وهذا لا يصح لهم إلا كما يصح عليهم ، والكلام متوجِّهٌ عليهم فيما قالوه ، ومكافىء لعلتهم فيما أوردوه : من تفضيل النبط على العرب .

وقد ذكرنا تنازع الناس فى الأنساب والفضل بها وبالأعمال دون الأنساب [ومن قال العمل والنسب] ومن قال العمل دون النسب ، وما قالته الشعوبية وغيرها فى كتابنا « المقالات ، فى أصول الديانات »[1] .

وقد ذكر أبو الحسن أحمد بن يحيى فى كتابه فى الرد على الشعوبية عِلَلاً كثيرة ، وذكر أن من اختصه الله تعالى من عباده ، واصطفاه من خلقه، أذَاكَ على طريق الثواب أم على طريق التفضيل ؟ قال : فإن زعم زاعم أن ذلك ثواب خرج من معقول كلام العرب ومفهوم خطابها ؛ لأنه لا يقال لمن أعطى الأجير أجرته ووفّى العامل ثوابه: قد اختص فلان فلانا بعطيته ، وإنما يقال ذلك إذا تطوع عليه[2] بالعطية بغير عمل ومنعها غيره بغير جرم ، وإن زعموا أنه تفضُّلٌ قلنا

(١) فى هذه العبارات قلق ليس بالقليل .

(٢) فى ا « تطول عليه بالعطية » ومعناه تفضل .

لهم : فإذا جاز أن يصرف الله عز وجل رحمته إلى بعض خلقه بغير عمل استحقوها به ، فَلِمَ لا يجوز أن يشرفهم بأنسابهم ، وإن لم تكن الأنساب من أعمالهم ؟! فإن قالوا : ليس من العدل[1] أن يشرفهم بغير أعمالهم ، قلنا لهم : أرأيتكم إن عارضكم مُعَارِض ؛ فزعم أنه ليس من العدل أن يمن عليهم برحمته دون غيرهم بغير عمل كان منهم ، وبغير معصية كانت من غيرهم، ماذا يكون الفصل بينكم معاشر الشعوبية وبينه ، وقد أخبر الله عمن اصطفاه من خلقه فقال : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم) ؟

والواجب على ذى النسب الشريف، والجد الرفيع، أن لا يجعل ذلك سلماً إلى التراخى عن الأعمال الموافقة لنسبه ، والاتكال على آبائه[2] ، فإن شرف الأنساب يحض[3] على شرف الأعمال ، والشريف بهذا أولى ؛ إذ كان الشرف يدعو إلى الشرف [ولا يثبط عنه] كما أن الحسن يدعو إلى الحسن [ويحرك عليه] وأكثر الممدوحين إنما مدحوا بأعمالهم دون أنسابهم ، وهذا كثير فى أشعار الناس ومنثور كلامهم ، وقد قال الشاعر فى هاشم بن عبد مناف وهو إمام ذوى الأنساب :

عَمْرو الذى هَشَمَ الثريد لقومه ورجال مكة مُسْنِتُونَ عِجَافُ

فمدحه بعمله ، ولم يذكر نسبه ، وإن كان شريفاً رفيعاً ، وإنما ينبغى لذوى الأنساب أن يكونوا كما قال أخوهم وشريكهم فى النسب [عامر بن الطُّفَيْل] :

وإنى وإن كُنْتُ ابْنَ سيد عامر وفى السِّرِّ منها والصَّرِيحِ المُهَذَّب

فما سَوَّدَتْنِى عامر عن وراثةٍ أبى الله أن أسْمُو بأم ولا أب

ولكننى أحمى حماها ، وأتقى أذاها ، وأرمى مَنْ رماها بمقنب

وكما قال الآخر :

---

(١) فى ا « ليس فى العدل أن يشرفهم » . (٢) فى ا « والإنكار على آبائه » محرفا . (٣) فى ا « يختص على أشرف الأعمال » وليس بذاك .

لسنا وإن كرمت أوائلنا يوماً عَلَى الأحْسَابِ نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ، ونفعل كالذى فعلوا[1]

ولاية خزاعة أمر البيت

قال المسعودى : ولما خرج عمرو بن عامر وولده من مأرب انخزع بنو ربيعة ، فنزلوا تهامة ، فسُمُّوا خُزَاعَةَ لانخزاعهم ، ولما ثارت الحرب بين إياد ومضر ابنى نزار ، وكانت على إياد قلعت الحجر الأسود ودفنته فى بعض المواضع ، فرأت ذلك امرأة من خُزَاعة ، فأخبرت قومها ، فاشترطوا على مضر أنهم إن رَدُّوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم ، فوفَوْا لهم بذلك ، ووليت خُزَاعة أمر البيت ،وكان أول من وليه منهم عمرو بن لُحَىٍّ ، واسم لحى حارثة بن عامر[2] ، فغير دين إبراهيم وَبَدَّله ، وبعث العربَ على عبادة التماثيل ؛ لخبر قد ذكرناه فى هذا الكتاب وغَيْره ،حين خرج إلى الشام ورأى قوماً يعبدون الأصنام ، فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة ، وقويت خُزَاعة ، وَعَمَّ الناس ظلم عمرو بن لحى ، وفى ذلك يقول رجل من جُرْهُم كان على دين الحنيفية :

عمرو بن لحى أول من عبد الأصنام

يا عمرو لا تظلم بمكَّةَ إنها بَلَدٌ حرام
سائل بعادٍ أين هُمْ وكذاك تَخْتَرِم الأنام
وبنى العماليق الذين لهم بها كان السَّوَام

ولما أكثر عمرو بن لحى من نَصْب الأصنام حول الكعبة وغلب على العرب عبادتها ، وامحت الحنيفية منهم إلا لمماً ، قال فى ذلك شحنة بن خلف[3] الجرهمى :

يا عمرو ، إنك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رَبٌّ واحد أبدا فقد جعلت له فى الناس أربابا

---

(١) فى ا « ونفعل مثلما فعلوا » . (٢) فى ا « حارث بن عامر »
(٣) فى ب « سحنة بن خلف » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لتعرفَنّ بأن الله فى مَهَــــل سيصطفى دونكم للبيت حُجّابا

وَعُمِّرَ عمرو بن لحى ثلثمائة سنة وخمساً وأربعين سنة .

خصال ولاية البيت ثلاثة خصال

وكانت ولاية البيت فى خُزَاعة وفى مضر ثلاث خِصَال : الإجازة بالناس من عَرَفَةَ ، والإفاضة بالناس غَدَاةَ النحر إلى مِنًى ، فانتهى ذلك منهم إلى أبى سَيَّارة ، فدفع أبو سَيَّارة من مزدلفة إلى مِنًى أربعين سنة على حمار له ، ولم يعتل فى ذلك ، حتى أدركه الإسلام ، فكانت العرب تتمثل به فتقول « أَصَحُّ من عَيْرِ أبى سيارة »[١] .

وفى أبى سيارة يقول قائلهم :

نحن دفعنا عن أبى سَيَّاره حتى أفاض مُحْرِماً حماره[٢]

* مستقبل القبلة يدعو جاره *

النسء والنسأة

والنسء للشهور الْحُرُمِ[٣] ، وكانت النَّسَأة فى بنى مالك بن كنانة ، وكان أولهم أبو القلمس[٤] حذيفة بن عبد ، ثم ولده قلع بن حذيفة ، وورد الإسلام وآخرهم أبو ثمامة ، وذلك أن العرب كانت إذا فرغت من الحج وأرادت الصَّدَر اجتمعت إليه ، فيقوم فيهم ، فيقول : اللهم إنى قد أحللت أحد الصَّفَرَيْنِ الصفر الأول ، وأنسأت الآخر للعام المقبل ، وظهر الإسلام وقد عادت الشهور الحرم إلى بَدْئِهَا على ما كانت عليه فى أصلها ، وذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » وما ذكر عليه الصلاة والسلام فى هذا الحديث إلى آخره ، فأخبر الله عز وجل عنهم بذلك بقوله تعالى : (إِنَّمَا

(١) فى ا « أحج من عير أبى سيارة » .

(٢) فى ا « مجريا حماره » . (٣) هذه هى الخصلة الثالثة .

(٤) فى ب « العملس » وفيها « ولده فيولع » والصواب ما ذكرنا عن ا موافقا لابن إسحاق .

النَّسِيء زِيَادَة فِي الـكُفْرِ — الآية) وقد فَخَر بذلك عمير بن قيس بن جِذْل الطِّعَان(١) فقال :

أ لسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما ؟

ولاية البيت تؤول إلى قصى بن كلاب

وقد كان قصى بن كلاب بن مرة تزوج ابنة حليل ، وحليل هو آخر من ولى البيت من خُزَاعة ، وقد كان عمرو بن لحى — حين عُمِّر ما ذكرنا من السنين — مات وله من الولد وولد الولد ألف ، ولما حضرت حليلا الوفاة — وهو آخر من ولى البيت من خُزَاعة — وقد كان عمرو على ما ذكرنا جعل ولاية البيت إلى ابنته زوج قصى بن كلاب ، فقيل له : إنها لا تقوم بفتح الباب وَغَلْقِهِ ، فجعل ولاية البيتِ إليها ، وَفَتْح الباب وَغَلْقه إلى رجل من خُزَاعة يعرف بأبى غَبْشَان الخزاعى ، فباعه أبو غبشان إلى قصى ببعير وزق خمر ، فأرسلت العرب ذلك مثلا ، فقالت «أخْسَرُ من صفقة أبى غَبْشَان(٢)» وفى بيعه لولاية البيت ببعير وزق من الخمر وَنَقْله ولاية البيت من قومه من خُزَاعة إلى قصى بن كلاب ، يقول الشاعر :

أبو غَبْشَان أظلم من قصى وأظلم من بنى فِهْرٍ خُزَاعَهْ
فلا تَلْحَوْا قصيا فى شِرَاهُ وَلُومُوا شيخكم إذ كَانَ بَاعَهْ

وقال فى ذلك آخر :

إذا افتخرت خُزَاعة فى قديم وجدنا فَخْرَهَا شرب الخمور
وباعت كعبة الرحمن جهراً بزقٍّ ، بئس مُفْتَخَرُ الفخور(٣)

وقد كانَتْ ولاية البَيْتِ فى خزاعة ثلثمائة سنة ، واستقام أمر قصى ، وعَشَّر على مَنْ دخل مكة من غير قريش ، وبنى الكعبة ، ورتب قريشاً على منازلها فى النسب بمكة ، وَبَيَّنَ الأبطحىَّ من قريش ، وهم الأباطح ، وجعل الظاهرى ظاهريا

(١) فى ا م « عمير بن قيس القرشى » وفى ب « عمرو بن قيس الفراسى »
(٢) انظر المثل رقم ١١٦٧ فى مجمع الأمثال بتحقيقنا .
(٣) فى ا « مفتخر الفجور » .

قريش البطاح

وقريش البطاح : هى قبائل عبدمناف ، وبنى عبدالدار ، وبنى عبد العُزَّى ابن قصى ، وزُهْرة ، ومخزوم ، وتَيْم بن مرة ، وجُمَح ، وسَهْم ، وعَدِىّ ، وهم لَعَقَة الدم ، وبنو عتيك بن عامر (١) بن لُؤَى .

قريش الظواهر

وقريش الظواهر : بنو [محارب ، و] الحارث بن فهر ، وبنو الأدْرَم بن غالب بن فهر ، وبنو هصيص (٢) بن عامر بن لؤى ، وفى ذلك يقول ذكوان مولى عبد الدار للضَّحَّاك بن قيس الفهرى :

تطاوَلْتُ للضحاك حتى رَدَدْتُه ... إلى نسب فى قومه متقاصر (٣)

فلو شاهَدَتْنِى من قريش عصابة ... قريش البطاح لا قريش الظواهر

ولكنهم غابوا وأصبحْتُ شاهدا ... فقبحت من حامى ذمار وناصر (٤)

[فريقان منهم ساكن بطن يثرب ... ومنهم فريق ساكن بالمشاعر] (٥)

الأحلاف

والأحلاف من قريش : بنو عبد الدار بن قصى ، وسهم ، وجُمَح ، وعدىٌّ ، ومخزوم .

المطيبون

والمُطَيِّبون : بنو عبدمناف ، وبنو أسد بن عبد العُزَّى ، وزُهْرة ، وتيم ، وبنو الحارث بن لؤى .

وفى ذلك يقول عمر بن أبى ربيعة المخزومى فى امرأة :

ولها فى المطيبين جدودٌ ... ثم نالت ذوائب الأحلاف

إنها بين عامر بن لؤى ... حين تُدْعى وبين عبد مناف

الإيلاف والتقريش

وأخذت قريش الإيلاف من الملوك ، وتفسير ذلك الأمن ، وتَقَرَّشت ، والتقرش : الجمع ، ومنه قول ابن حِلِّزة اليشكرى (٦) :

---

(١) فى ا « وبنو حنبل بن عامر بن لؤى » .

(٢) فى ا « وبنو معيص بن عامر بن لؤى ، (٣) فى ا « إلى حسب فى قومه متقاصر »

(٤) فى ا « تقبحت من حامى ديار وناصر » (٥) لا يوجد هذا البيت فى ا

(٦) فى ا « أبى خالد اليشكرى » .

إخْوَةَ قَرَّشُوا الذنُوب علينا فى حديث مِنْ دَهْرِنَا وقديم

ورحلت[١] قريش — حين أخذ لها الإيلاف من الملوك — إلى الشام [والحبشة] واليمن والعراق ، وفى ذلك يقول مَطْرود[٢] الخزاعى :

يا أيها الرجل المُحَوِّل رَحْله هَلاَّ نزَلْتَ بآلِ عبد مناف

الآخِذِينَ العَهْدَ من آنافنا وَالرَّاحِلِينَ بِرِحْـلة الإيلاف[٣]

ولقريش أخبار كثيرة ، وكذلك لجرهم وَخُزَاعَة وغيرهما من معد ، وقد أتينا على جميعها فيما سلف من كتبنا ، وإنما نذكر فى هذا الكتاب لمعاً ، تنبيهاً بها على ما سلف ، وسنورد عند ذكرنا تفرقَ الناس من بابل جملا من أخبار مكة وعبد المطلب والحبشة ، وغير ذلك مما لحق بهذا المعنى ، إن شاء الله

---

(١) فى ا « وانحدرت قريش » . (٢) فى ب « مطرف الخزاعى »

(٣) فى ا * الآخذين العهد من آفاقها *

ذكر جوامع [من] الأخبار ، ووصف الأرض والبلدان

وحنين النفوس للأوطان(١)

عمر بن الخطاب يستوصف بقاع الأرض

ذكر ذوو الدراية(٢) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه — حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر ، وغير ذلك من الأرض — كتب إلى حكيم من حكماء العصر : إنا أناسٌ عرب ، وقد فتح الله علينا البلاد ، ونريد أن نتبوأ الأرض ، ونسكن [البلاد و] الأمصار ، فَصِفْ لى المدن وأهويتها ومساكنها ، وما تؤثِّرُه التربة والأهوية فى سكانها .

تأثير البيئة الطبيعية

فكتب إليه ذلك الحكيم : اعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى قد قسم الأرض أقساماً : شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، فما تناهى فى التشريق [وَلَجَّجَ فى المطلع السانح منه النور](٣) فهو مكروه لاحتراقه وناريته وحِدَّته وإحراقه لمن دخل فيه ، وما تناهى مغرباً أيضاً أضرَّ سكانه ؛ لموازاته ما أوغل فى التشريق ، وهكذا ما تناهى فى الشمال أضرَّ ببرده وقره وثلوجه وآفاته الأجسام فأورثها الآلام ، وما اتصل بالجنوب وأوغل فيه أحرق بناريته ما اتصل به من الحيوان ؛ ولذلك صار المسكون من الأرض جزءاً يسيراً ، ناسبَ الاعتدال ، وأخذ بحظه من حسن القسمة ، وسأصف لك — يا أمير المؤمنين — القطع المسكونة من الأرض .

الشام

أما الشام فسُحُبٌ وآكام ، وريح وغمام ، وغدَق ورُكام ، ترطب الأجسام ، وتبلد الأحلام ، وتصفى الألوان ، لا سيما أرض حِمْص فإنها تحسن الجسم ، وتصفى اللون ، وتبلد الفهم ، وتنزح غوره ، وتجفى الطبع ، وتذهب بماء القريحة ، وتنصب العقول ، والشام — يا أمير المؤمنين — وإن كانت على ما وصفت لك — فهى مَسْرَح خصب ، ووابل سَكْب ، كثرت أشجاره ،

---

(١) فى ا « إلى الأوطان » .
(٢) فى ا « ذوو الرواية » .
(٣) زيادة عن ا .

واطَّرَدت أنهارهُ ، وغمرت أعشاره[1] ، وبه منازل الأنبياء ، والقدس المجتبى ، وفيه حَلَّ أشراف خلق الله تعالى من الصالحين والمتعبدين ، وجباله مساكن المجتهدين والمنفردين .

مصر

وأما أرض مصر فأرض قَوْرَاء غَوْرَاء ، ديار الفراعنة ، ومنازل الجبابرة ، تحمد بفضل نيلها ، وذَمُّهَا أكثر من حمدها ، هواؤها راكد ، وحرها زائد ، وشرها وارد[2] ، تكدر الألوان ، وتخبب الفِطَن [وتكثر الإحَن] وهى معدن الذهب والجوهر والزمرد والأموال ، ومغارس الغَلاَّت ، غير أنها تسمن الأبدان[3] وتسود الأبشار ، وتنمو فيها الأعمار ، وفى أهلها مكر ورياء ، وخبث ودهاء وخديعة ، إلا أنها بلد مكسب لا بلد مسكن ؛ لترادف فتنها ، واتصال شرورها .

اليمن

وأما اليمن فيضعف الأجسام ، ويذهب الأحلام[4] ، ويذهب بالرطوبة ، فى أهله همم كبار ، ولهم أحساب وأخطار ، مَغَايضه خِصْبَة ، وأطرافه جَدْبَة ، وفى هوائه انقلاب ، وفى سكانه اغتيال ، وبهم قطعة من الحسن ، وشعبة من التَّرَفه[5] وفقرة من الفصاحة .

الحجاز

وأما الحجاز فحاجز بين الشام واليمن والتهائم ، هواؤه حَرُور ، وليله بَهُور[6] ، ينحف الأجسام ، ويُجَفف الأدمغة ، ويشجع القلوب ، ويبسط الهمم[7] ، ويبعث على الإحن[8] [وهو بلد مَحْل قَحْط جَدْب ضَنْك .

المغرب

وأما المغرب فَيُقَسِّى القلب ، ويوحش الطبع ، ويُطِيش اللُّبَّ[8]] ويذهب بالرحمة ، ويكسب الشجاعة ، ويقشع الضراعة ، وفى أهله غَدْر ، ولهم خبث ومكر ، ديارهم مختلفة ، وهممهم غير مؤتلفة ، ولديارهم فى آخر الزمان نبأ عظيم ، وخطب جسيم ، من أمر يظهر ، وأحوال تبهر .

(١) فى ا « وعمرت عشاره » (٢) فى ا « وشرها بائد »
(٣) فى ا « تسهل الأجسام » . (٤) فى ا « ويهذب الأحلام » .
(٥) فى ا « وشعبة من الرقة » . (٦) فى ب « وليله سهور » .
(٧) فى ا ويسقط الهمم » . (٨) ما بين المعقوفين ساقط من ا .

العراق

وأما العراق فمنار الشرق ، وسُرَّة الأرض وقلبها ، إليه تحادرت المياه[1] ، وبه اتصلت النضارة ، وعنده وقف الاعتدال ، فصَفَت أمزجة أهله ، ولطفت أذهانهم ، واحتدَّتْ خواطرهم ، واتصلت مسراتهم[2] ، فظهر منهم الدهاء ، وقويت عقولهم ، وثبتت بصائرهم ، وقَلْبُ الأرض العراق [وهو المجتبى من قديم الزمان] وهو مفتاح الشرق ، ومسلك النور [ومسرح العينين ، ومدنه المدائن وما والاها] ولأهله أعدل الألوان ، وأنْقَى الروائح ، وأفضل الأمزجة ، وأطوع القرائح ، وفيهم جوامع الفضائل ، وفوائد المبرات ، وفضائله كثيرة ؛ لصفاء جوهره ، وطيب نسيمه ، واعتدال تربته ، وإغداق الماء عليه ، ورفاهية العيش به

الجبال

وأما الجبال فتخشن الأجسام وتغلظها ، وتبلد الأفهام وتقطبها ، وتفسد الأحلام ، وتميت الهمم ؛ لما هى عليه من غلظ التربة ، ومتانة الهواء ، وتكاثفه ، واختلاف مَهَابه ، وسوء متصرفاته.

والأخلاق والصور — يا أمير المؤمنين — تناسب البلد وتحاذيه ، وتقاربه ، وتوافقه وتضاهيه ، وكل بلد اعتدل هواؤه ، وخف ماؤه ، ولطف غذاؤه — كانت صور أهله وخلائقهم تناسب البلد وتحاذيه ، وتشاكل ما عليه أركانه ، وما أسِّسَ عليه بنيانه [وكل بلد يزول عن الاعتدال ، انتسب أهله إلى سوء الحال] .

خراسان

وأما خراسان فتكبر الهام ؛ وتعظم الأجسام ؛ وتلطف الأحلام ؛ ولأهلها عقول وهمم طامحة ؛ وفيهم غَوْص وتفكير ؛ ورأى وتقدير[3] .

فارس

وأما بلد فارس فخصب الفضاء ، رقيق الهواء ، متراكم الماء ، مُعْتَمّ بالأشجار ، كثير الثمار ؛ وفى أهله شحٌّ ، ولهم خب ؛ وغرائزهم سيئة ، وهممهم دنيئة ، وفيهم مكر وخداع .

---

(١) فى ا « إليه تطاردت المياه » . (٢) فى ا وتصلبت مرائرهم » .

(٣) فى ا « ورأى وتقرير » .

خوزستان

وأما بلاد خوزستان فهى كَدِرَة الأهواء ، تفسد الأحلام[١] ، وتبلد الأفهام، وتخبث الهمم ، وتستأصل الكرم، يساق أهله سَوْقَ الأنعام ، وهم الهَمَجُ الطَّغَام .

الجزيرة

وأما أرض الجزيرة فتناسب البر بالهواء اللطيف، وفيها خصب وسَرْحٌ، ولأهلها بأس ومراس .

والبر — يا أمير المؤمنين — أفضل قطع الأرض وأسناها ، وأشرفها وأعلاها ، نحو الأنجاد والتهائم ؛ لحماية الهواء الأقذاء عن سكانه ، ودفعه الآفات عن قُطَّانه ، وسماحة الثْوَى ، وتهذيب الماء ، وصحة المُتَنَسَّم ، وارتفاع الأكدار ، وذهاب الأضرار .

واعلم — يا أمير المؤمنين — أن الله تبارك وتعالى قسم الأرض أقساما فَضَّل بعضها على بعض ، فأفْضَلُ أقسامها العراق ، فهو سيد الآفاق ، وقد سكنه أجيال وأمم ذوو كمال .

الهند والصين

وأما الهند والصين وبلاد الروم فلا حاجة بى إلى وصفها لك ؛ لأنها منازل شاسعة ، وبلدان نائية ، كافرة طاغية .

وفى الذى ذكرته لك ما أشفى بك إلى ما شَمَّرْتَ إلى علمه[٢] ، وكل ما وصفته فى هذه البلدان فهو الأعم من أمور أهلها ، والأغلب على أحوالهم، فإن وجد فيهم أحد بخلاف ذلك فهو النادر يا أمير المؤمنين ، والحكم [فى ذلك] للأغلب .

كعب الأحبار يصف لعمر العراق

قال المسعودى: وذكر جماعة من أهل العلم بالسير والأخبار أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أراد الشخوص إلى العراق ـ حين بلغه ما عليه الأعاجم من الجمع ببلادهم[٣] ـ سأل كعب الأحبار عن العراق ، فقال : ياأمير المؤمنين ،

---

(١) فى ا « وهى كور الأهواز فتفسد الأحلام »

(٢) فى ا « إلى ماسموت إلى علمه » . (٣) فى ا « ببلاد نهاوند » محرفا

إن الله لما خلق الأشياء ألحق كل شيء بشيء ، فقال العقل : أنا لاحق بالعراق ، فقال العلم : وأنا معك ، فقال المال : وأنا لاحق بالشام ، فقالت الفتن : وأنا معك ، [فقال الخصب : وأنا لاحق بمصر ، فقال الذل : وأنا معك ، فقال الفقر : وأنا لاحق بالحجاز ، فقالت القناعة : وأنا معك][1] فقال الشقاء[2] : وأنا لاحق بالبوادى ، فقالت الصحة : وأنا معك .

وصف إقليم بابل وحنين المؤلف إليه

قال المسعودى : وأوسط الأقاليم الإقليم الذى ولدنا به ، وإن كانت الأيام أنأتْ بيننا وبينه ، وساحَقَتْ مسافتنا عنه ، وَولدت فى قلوبنا الحنين إليه ، إذ كان وطننا ومسقطنا ، وهو إقليم بابل ، وقد كان هذا الإقليم عند ملوك الفرس جليلا ، وقدره عظيما ، وكانت عنايتهم إليه مصروفة ، وكانوا يَشْتون بالعراق ، وأكثرهم يصيفون بالجبال ، وينتقلون فى الفصول [إلى الصرود من الأرض والحرور][1] ، وقد كان أهل المروءات فى الإسلام كأبى دُلَفَ القاسم بن عيسى[3] العِجْلى وغيره يشتون فى الحرور[4] ، وهو العراق ، ويصيفون فى الصرود ، وهى الجبال ، وفى ذلك يقول أبو دلف :

وإنى امرؤ كِسْرَوِىُّ الفعال أصيفُ الجبالَ وَأشتُو العراقا

وذلك لما خص به هذا الإقليم من كثرة مرافقه ، واعتدال أرضه ، وغضارة عيشه ، ومادة الوافدين إليه[5] ، وهما دجلة والفرات ، وعموم الأمن فيه ، وبُعْد الخوف عنه[6] ، وتوسطه الأقاليم السبعة ، وقد كانت الأوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد ؛ لأن أرضه من إقليم بابل الذى تشعبت الآراء عن أهله بحكمة الأمور كما يقع ذلك عن القلب[7] ، وبذلك اعتدلت ألوان أهله [واقتدرت]

(١) مابين المعقوفين ساقط من ا

(٢) فى ا «فقال الشفاء» بالفاء بدل القاف .

(٣) فى ب «القاسم بن على» (٤) فى ا «فى الجروم وهى العراق»

(٥) ربما كان الأصل «الرافدين إليه» (٦) فى ا «وبعد الأشرار عنه» .

(٧) فى ا «التى كشفت الآراء من أهله بحكمة الأموركما يرتفع ذلك عن القلب»

أجسامهم ، فسلموا من شُقْرة الروم والصقالبة ، وسواد الحبشة ، وغلظ البربر ، ومَنْ جَفَا من الأمم ، واجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار ، وكما اعتدلوا فى الجِبِلّةِ كذلك لَطُفوا فى الفطنة ، والتمسك بمحاسن الأمور ، وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام ، ويعز علىَّ ما أصارنى إليه الأقدار من فراق هذا المصر الذى عن بقعته فصلنا ، وفى قاعته تجمعنا[1] ، لكنه الزمن الذى من شيمته التشتيت ، والدهر الذى من شروطه الإبانة[2] [ولقد أحسن أبو دلف العجلى حيث يقول :

أيا نَكْبَةَ الدهر التى طَوَّحَتْ بنا أيادى سَبَاً فى شرقها والمغارب

قِفِى بالتى نَهْوَى فقد طِرْتِ بالتى إليها تناهت رَاجِعَاتُ المصائب][2]

الحنين إلى الاوطان

وقد ذكر الحكماء — فيما خرجنا إليه من هذا المعنى — أن من علامة وفاء المرء ودوام عهده حنينه إلى إخوانه ، وشوقه إلى أوطانه ، وبكاءه على ما مضى من زمانه ، وأن من علامة الرشد أن تكون النفوس إلى مولدها مشتاقة ، وإلى مسقط رأسها تَوَّاقة ، وللإلف والعادة قَطَع الرجل نفسه لصلة وطنه .

وقال ابن الزبير : ليس الناس بشىء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم ، وقال بعض حكماء العرب : عمر الله البلدان بحب الأوطان ، وقالت الهند : حرمة بلدك عليك كحرمة والديك ؛ لأن غذاءك منهما ، وغذاءهما منه ، وقال آخر : أولى البلدان [بصبابتك] بلد رضعت ماءه ، وطعمت غذاءه ، وقال آخر : ميلك إلى موضع مولدك من كرم محتِدِك ، وقال بقراط : يداوى كل عليل بعقاقير أرضه ؛ فإن الطبيعة تتطلع إلى هوائها ، وتنزع إلى غذائها ، وقال أفلاطون : غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها ، وقال جالينوس : يتروح العليل بنسيم أرضه كما تنبت الحبة ببلل الأرض[3] .

وللنفوس فى علة حنينها إلى الأوطان كلام ليس هذا موضعه ، وقد ذكرناه

---

(١) فى ا «وفى قاعه تجمعنا» (٢) ما بين المعقوفين ساقط من ا
(٣) فى ا «كما تثوب الجنة ببل القطر».

فى كتابنا المترجم بـ « سر الحياة » وفى كتاب « طب النفوس » .

فضل علم الأخبار

ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر لبطل أول العلم ، وضاع آخره ؛ إذ كان كل علم من الأخبار يستخرج [وكل حكمة منها تستنبط][1] والفقه منها يستثار[2] والفصاحة منها تستفاد ، وأصحاب القياس عليها يبنون ، وأهل المقالات بها يحتجون ومعرفة الناس منها تؤخذ ، وأمثال الحكماء فيها توجد ، ومكارم الأخلاق ومعاليها منها تقتبس ، وآداب سياسة الملك والحزم[3] منها تلتمس ، وكل غريبة منها تعرف ، وكل عجيبة منها تستطرف ، وهو علم يستمتع بسماعه العالم والجاهل ، ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل ، ويأنس بمكانه وينزع إليه الخاصى والعامى ، ويميل إلى رواياته[4] العربى والعجمى .

وبعد ؛ فإنه يوصل به كل كلام ، ويتزين به فى كل مقام ، ويتجمل به فى كل مشهد ، ويحتاج إليه فى كل محفل ، ففضيلة علم الأخبار بينة على كل علم ، وشرف منزلته صحيح فى كل فهم ، فلا يصبر على فهمه وتيقن ما فيه ، وإيراده وإصداره إلا إنسان قد تجرد له ، وفهم معناه ، وذاق ثمرته ، واستسفر من غرره[5] ونال من سروره ، وقد قالت الحكماء : الكتاب نعم الجليس ، ونعم الذخر[6] ، إن شئت ألهتك نوادره ، وأضحكتك بوادره ، وإن شئت أشجتك مواعظه ، وإن شئت تعجبت من [غرائب] فوائده ، وهو يجمع لك الأول والآخر [والغائب والحاضر] والناقص والوافر [والشاهد والغائب] والبادى والحاضر ، والشكل وخلافه ، والجنس[7] وضده ، وهو ميت ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء وهو مؤنس يَنْشَطُ بنشاطك ، وينام بنومك ، ولا ينطق [معك] إلا بما تهوى ، ولا نعلم جاراً أبر ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع[8] ،

فضل الكتاب

(١) زيادة عن ب وحدها .
(٢) فى ا «يستشار» وليس بشىء
(٣) فى ا « سياسة الملك والحرب »
(٤) فى ا «ويميل إلى روايته »
(٥) فى ا « واستشعر من عزة »
(٦) فى ا « نعم الجليس والعمدة »
(٧) فى ب « والحسن وضده »
(٨) فى ا «ولا معلما أجمع»

ولا صاحباً أظهر كفاية ، وأقل خيانة[1]، ولا أجْدَى[2] نفعاً ، ولا أحمد أخلاقاً [ولا أقل خِلاَفاً] ولا أدوم سروراً ، ولا أسكت غيبة ، ولا أحسن موافاة[3]، ولا أعجل مكافأة ، ولا أخف مؤنة [منه] إن نظرت إليه أطال إمتاعك ، وشحذ طباعك ، وأيَّدَ فهمك ، وأكثر علمك ، ونَعْرِف منه فى شهر ، مالا نأخذه من أفواه الرجال فى دهر ، ويغنيك عن كد الطلب ، وعن الخضوع لمن أنت أثبت منه أصلا ، وأسمح فرعاً[4]، وهو المعلم الذى لا يجفوك ، وإن قطعت عنه المائدة ، لم يقطع عنك الفائدة ، وهو الذى يطيعك بالليل طاعته لك بالنهار ، ويطيعك فى السفر كطاعته لك فى الحضر، وقد قال الله تبارك وتعالى : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرَأْ وربكَ الأكْرم ، الذى عَلّمَ بِالقَلَم ، عَلّم الإنسان مالم يَعْلَم) [فوصف عن نفسه أنه علم بالقَلَم] كإخباره عن نفسه بالكرم ، [وفى ذلك يقول بعض أهل الأدب :

لَمَّا عَلِمْتُ بأنى لست أعجزهم ... فَوْتاً ولا هرباً قدمتُ أحتجبُ
فصرت بالبيت مسروراً بِهِ جذلا ... حاوِى البراءة لاشكوى ولا شغبُ
فرداً يُحدثنى حقًّا وينطق لى ... عن علم ماغاب عنى منهُمُ الكتبُ
المؤنسون هُمُ اللائى عُنِيتُ بهم ... فليس لى فى جليس غيرِهِم أرَبُ
لله درُّ جليسى لا جليسهم ... فذا عشيرهم للسوء يرتقبُ]

وقد كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لايجالس الناس،ونزل مقبرة،وكان لايُرَى إلا وفى يده كتاب يقرؤه ، فسئل عن ذلك، فقال : لم أرَ واعظاً أوعظ من قبر ، ولا ممتعاً أمتع من كتاب ، ولا شيئاً أسلم

(١) فى ا « ولا أقل جناية » (٢) فى ب « ولا أبدى نفعا »
(٣) فى ا « ولا أحسن مواتاة» (٤) فى ا« وأشمخ فرعا »

من الوحدة ، فقيل له : قد جاء فى الوحدة ما جاء ؛ فقال : ماأفسدهاللجاهل
وَقد قال بعض الشعراء فيمن يجمع الكتب ولا يعلم ما فيها :

زَوَامِلُ للأسفار لا علم عندهم بجَيِّدِها إلا كعلم الأباعرِ[(١)]
لَعَمْرُكَ ما يدرى البعيرُ إذاغدا بأحماله أو راح ما فى الغَرَائرِ[(٢)]

ذكر تنازع الناس

فى المعنى الذى من أجله سمى اليمن يمنا ، والعراق عراقا والشام شاماً ، والحجاز حجازاً

تنازع الناس فى اليمن وتسميته ؛ فمنهم من زعم أنه إنما سمى يمناً لأنه عن يمين الكعبة [وهو التيمن] وسمى الشام شاماً لأنه عن شمال الكعبة ، وسمى الحجاز حجازاً لأنه حاجز بين اليمن والشام ، نحو ما أخبر الله عز وجل عن البرزخ[(٣)] الذى بين بحر القلزم وبحر الروم بقوله عز وجلَّ : (وَجَعَلَ بين البحرين حاجزا) وإنما سمى العراق عراقا لمصب المياه إليه كالدجلة والفرات وغيرها من الأنهار ، وأظنه مأخوذاً من عَرَاقِى الدلو وَعَرَاقِى القربة .

ومنهم من زعم أن اليمن إنما سمى يمناً ليمنه ، والشام شاماً لشؤمه ، وهذا قول يُعْزَى إلى قُطْرب النحوى فى آخرين من الناس .

ومنهم من رأى أنه إنما سمى [اليمن] يمناً لأن الناس حين تفرقت لغاتهم ببابل تَيَامَنَ بعضهم يمين الشمس وهو اليمن ، وبعضهم تشاءم فوسم له هذا الاسم ، وسنذكر تفرق هذه القبائل من أرض بابل بعد هذا الموضع ، وبعض ما قالوه فى ذلك من الشعر ، عند مسيرهم فى الأرض واختيارهم البقاع .

---

(١) حفظى « زوامل للأشعار » وسياق المؤلف يؤكد ما أثبتناه فى الأصل
(٢) فى ا « بأوساقه ،أو راح ، مافى الغرائر »
(٣) فى ب « عن الفرق الذى بين — الخ » .

وقيل : إنما سمى الشام شاماً لشاماتٍ فى أرضه بيض وسود ، وذلك فى التراب والبقاع [والحجر] وأنواع النبات والأشجار ، وهذا قول الكلبى.

وقال الشرقى بن القطامى : إنما سمى الشام شاماً بسام بن نوح ، لأنه أول من نزله وقطَن فيه ، فلما سكنته العرب تطيرت من أن تقول سام ، فقالت : شام .

وقيل : إن سامَرّا إنما سميت بذلك إضافة إلى سام .

وقيل : إن أول من سكنها من خلفاء بنى العباس سماها بهذا الاسم، وإنها سرور لمن رآها[1]

وقد ذكر فى أسماء هذه [المعاقل و] البقاع والأمصار وجوه غير ما ذكرنا قد اتينا عليها فيما سلف من كتبنا .

ذكر اليمن وأنسابها ، وما قاله الناس فى ذلك

اختلف الناس فى أنساب قحطان ؛ فحكى هشام بن الكلبى عن أبيه والشرقى ابن القطامى أنهما كانا يذهبان إلى أن قَحْطَانَ ابنُ الهميسع بن نَبت — وهو نابت — بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، ويحتجان لذلك بوجوه من الأخبار. منها ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ما رواه هشام عن أبيه عن ابن عباس ، ورواه الهيثم عن الكلبى عن أبى صالح أن النبى صلى الله عليه وسلم مر على فتية من الأنصار يتناضلون ، فقال . « ارْمُوا يا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارْمُوا وأنا مع ابن الأدرع » رجل من خزاعة ، فرمى القوم نبالهم[2] ، وقالوا : يا رسول الله ، مَنْ كنت معه فقد نَضَلَ ! ! فقال « ارْمُوا وأنا معكم جميعاً » .

قال المسعودى : وسائر ولد قحطان من حمير وكهلان يأبى هذا القول وينكره

(١) المعروف أن الاسم الأول لهذه المدينة «سر من رأى» ثم لما كثر استعمال هذا الاسم خففوه بقولهم «سامرا» فهم لابد يلحظون المعنى الذى يدل عليه الاسم الذى وضعوه لها أولا .

(٢) فى ا «فألقى القوم نبالهم» .

وقد ثبت أن قحطان هو يقطن[(١)] ، وإنما عُرِّبَ فقيل له : قحطان

وحكى ابن الكلبى ، أن اسم يقطن فى التوراة الجبار بن عابر بن شالخ بن إرنخشذ بن سام بن نوح ، والواضح من أنساب اليمن ، وما تدين به كهلان وحمير أبنا قحطان إلى هذا الوقت قولا وعملا ، وينقله الباقى عن الماضى والصغير عن الكبير [والذى] وجدت عليه التواريخ القديمة للعرب وغيرها من الأمم ، وعليه وجدت الأكثر من شيوخ ولد قحطان من حمير وكهلان بأرض اليمن والتهائم والأنجاد وبلاد حَضْرَمَوْتَ والشِّحْرِ والأحقاف وبلاد عمان وغيرها من الأمصار أن الصحيح فى نسب قحطان أنه قحطان بن عابر بن شالخ [بن سالم[(٢)]] — وهو قينان — ابن إرنخشذ بن سام بن نوح ، وقد كان لعابر ثلاثة أولاد : فالغ ، وقحطان ، وملكان ، والخضر عليه السلام من ولد ملكان فى قول كثير من الناس ، وولد لقحطان أحد وثلاثون ذكراً ، وأمهم حَىّ[(٣)] بنت روق بن فزارة بن منقذ[(٤)] ابن سويد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، فولد قحطان يعرب بن قحطان ، وولد يعرب يشجب ، وولد يشجب ولدين ، أحدهما عبد شمس — وهو سبأ بن يشجب — وإنما سمى سبأ لسبيه السبايا ، فولد سبأ حمير وكهلان ابنى سبأ ، والثانى لم يعقب ، وإنما العقب من ولد هذين — وهما حمير وكهلان ؛ فهذا المتفق عليه عند أهل الخبرة بهما ، والمتيقن لديهم .

وكان الهيثم بن عدى الطائى [ينكر أيضاً أن يكون قحطان من ولد إسماعيل ، وإنما] إسماعيل تكلم بلغة جرهم ؛ لأن إسماعيل كان سريانى اللسان على لغة أبيه خليل الرحمن حين أسكنه هو وأمه هاجر بمكة على ماذكرناه ، فصاهرَ جرهم ، ونشأ على لغتها ، ونطق بكلامها[(٥)] [وقفَا فى مُرَاده خطابَهَا] .

---

(١) فى ا « وتذهب طائفة منهم فى أنسابها وما اتضح من أحسابها أن قحطان هو يقطن » .

(٢) سقط هذا الاسم من ب

(٣) فى ب «حنى»

(٤) فى ب «فزارة بن سعد »

(٥) فى ا «وأعرب بكلامها»

ونزار تأبى أن يكون إسماعيل نشأ على لغة جُرْهم ، ويقولون : إن الله عز وجل أعطاه هذه اللغة ، وذلك أن إبراهيم خلفه هو وأمه هاجر ، وإسماعيل ابن ست عشرة سنة ، وقيل : ابن أربع عشرة سنة ، فى واد غير ذى زرع ، ولا أنيس ، فحفظهما الله تعالى ، وأنبع لها زمزم ، وعَلّم إسماعيل هذه اللغة العربية .

قالوا : ولغة جرهم غير هذه اللغة ، ووجدنا لغة ولد قحطان بخلاف لغة ولد نزار بن معد ، فهذا يقضى بإبطال قول من قال : إن إسماعيل أعرب[1] بلغة جرهم ، ولو وجب أن يكون إسماعيل [إنما كان] عربى اللسان لأجل جرهم [ونَشْئِهِ فيها] لوجب أن تكون لغته موافقة لاعة جرهم ، أو لغيرها ممن نزل مكة ، وقد وجدنا قحطان سريانى الاسان ، وولده يعرب بخلاف لسانه ، وليس منزلة يعرب عند الله أعلى من منزلة إسماعيل ، ولا منزله قحطان أعلى من منزلة إبراهيم [خليل الرحمن] فيمنع إسماعيلَ فضيلةَ اللسان العربى التى أعطيها يعرب بن قحطان

ولولد نزار وولد قحطان خَطْب طويل ومناظرات كثيرة لا يأتى عليها كتابنا هذا ، فى التنازع والتفاخر بالأنبياء والملوك ، وغير ذلك مما قد أتينا على ذكر جُمَل من حِجَاجهم وما أدلى به كل فريق منهم ممن سلف وخلف ، وكذلك مناظرات السودان والبيضان والعرب والعجم ومناظرات الشعوبية فى كتابنا « أخبار الزمان » .

وزعم الهيثم [بن عدى] أن جرهم بن عابر بن سبأ بن يقطن هو قحطان ، وتأول الهيثم قول النبى صلى الله عليه وسلم ـ حين قال للرماة من الأنصار ، « ارْمُوا يا بنى إسماعيل » ـ أنه عليه السلام نسبهم إلى إسماعيل من جهة الأمهات ، وما نالهم من الولادات[2] من ولد إسماعيل ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يزيل نسباً

---

(١) فى ب « أعرف بلغة جرهم » (٢) فى ب « نالهم من الولايات » محرفا

قد ثبت ، ولا يثبت نسب قوم إلى غير آبائهم ، وقد نقلوا ذلك قولا وعملا وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أن سائلا سأله مِنْ مُرَاد عن سَبَأ : أرجلا كان أو امرأة أو واديا أو جبلا ؟ فقال له : « كان رجلا ، ولد له عشرة فتشاءم أربعة وتيامن ستة ؛ فالذين تشاءموا لَخَمُ وجُذَام وعاملة وغسَّان ، والذين تيامنوا حمير والأزد ومَذْحِج وكنانة والأشعريون وأنمار الذين هم بَجِيلة وخَثْعَم » .

وقال أبو المنذر[1] : هو أنمار بن إياد[2] بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

قال المسعودى : وقد تنوزع فى نسب أنمار ؛ فذهب الأكثر إلى أن أنماراً وإياداً وربيعة ومضر بنو نزار بن معد بن عدنان ، وإنما دخلوا فى اليمن فأضيفوا إليهم ، وما ذكرناه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيمن تيامن وتشاءم فمن أخبار الآحاد ، وليس مجيئه مجىء الاستفاضة التى يقطع بها العذر[3] ويثبت بها الحكم .

وللناس فى هؤلاء كلام كثير ، وقد ذكر هشام عن أبيه الكلبى قال : كان يقال لسائر ولد سبأ السَّبَئيون ، ولم تكن لهم قبائل تجمعهم دون سبأ.

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب خبر عمرو بن عامرٍ مزيقياء ، وخبر طريفة الكاهنة ، وخبر عمران الكاهن ، وهو أخو عمرو بن عامر ، وأخبار العَرِم والسيل ، وما كان من كهانتهما فى أمر السد وسيل العرم ، وتفرق القبائل من مأرِبَ ، ومن لحق بعُمَان وشَنُوءة والسَّراة[4] والشام وغير ذلك من بقاع الأرض .

* * *

(١) فى ب « ابن المنذر » (٢) فى ب «أنمار بن إياس»
(٣) فى ب «التى يقطع بها العدد» (٤) فى ا «الشراة»

ذكر اليمن وملوكها ، ومقدار سنيها

سبأ

أول من يُعَد من ملوك اليمن سبأ بن يَشْجُب بن يَعرُب بن قحطان ، واسمه عبد شمس ، وقد أخبرنا فيما سلف من هذا الكتاب وغيره من كتبنا لأية علة سمى سبأ على ما قيل ، والله أعلم ، وكان ملكه أربعمائة سنة وأربعاً وثمانين سنة.

حمير

ثم ملك بعده ولده حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب ، وكان أشْجَعَ الناس فى وقته ، وأفرسهم ، وأكثرهم جمالا ، وكان ملكه خمسين سنة ، وقيل : أكثر من ذلك ، وقيل : أقل [وكان يعرف بالمتوج][1] وكان أول من وضع على رأسه تاج الذهب من ملوك اليمن .

كهلان

ثم ملك بعده أخوه كهلان بن سبأ ، فطال عمره ، وكبر سنه ، واستقامت له الأمور ، وكان ملكه ثلثمائة سنة ، وقيل غير ذلك[2]

ثم عاد الملك بعد أن هلك كهلان إلى ولد حمير ؛ لأخبار يطول ذكرها ، وتنازع فى الملك [بين][1] ولد حمير وكهلان .

عمرو بن سبأ

ثم ملك أبو مالك عمرو بن سبأ[3] ، واتصل ملكه ، وغمر الناس عدله[4] ، وشملهم إحسانه ، وكان ملكه ثلثمائة سنة .

قول آخر

وقيل : إن أول من ملك بعد كهلان الرائش ، وهو الحارث بن شداد[5] .

ثم ملك جبار بن غالب [بن زيد بن كهلان ، فكان ملكه عشرين ومائة سنة .

ثم ملك بعده الحارث بن مالك][6] بن إفريقس بن صيفى بن يشجب بن سبأ ، وكان ملكه مائة سنة ونحو أربعين سنة ، وقيل : إن هذا الملك هو [أبو] أبرهة بن الرائش المعروف بذى المنار

---

(١) زيادة عن ب وحدها (٢) فى ا « وقيل : أقل من ذلك »

(٣) فى ا « أبو مالك بن عسكر بن سبأ » (٤) فى ا « وعم الناس عدله »

(٥) فى ب « الحارث بن ذى سدد »

(٦) هذه الزيادة لا توجد فى ب

جماعة من ملوك اليمن

ثم ملك بعده الرائش بن شداد بن ملطاظ[1] ، وكان ملكه مائة وخمساً وعشرين سنة .

ثم ملك بعده أبرهة بن الرائش ، وهو ذو المنار ، وكان ملكه مائة وثمانين سنة.

[ثم ملك بعده أفريقس بن أبرهة ، فكان ملكه مائة وأربعاً وستين سنة][2] .

ثم ملك بعده أخوه العبد بن أبرهة[3] ، وهو ذو الأذعار ، وكان ملكه خمساً وعشرين سنة .

ذو الأذعار

ثم ملك بعده الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش ، وقد تنوزع فى مقدار ملكه ؛ فمنهم من رأى أنه عاش عشر سنين ، ومنهم من ذكر سبعاً ، ومنهم من قال : ستًّا .

تبع الأول

ثم ملك تبع الأول ، وكان ملكه أربعمائة سنة ، وذكر كثير من الناس أن بلقيس قتلته ، وقيل غير ذلك ، والأشهر ما قدمنا .

بلقيس وسليمان

ثم ملكت بعده بلقيس بنت الهدهاد ، وكان لمولدها خبر ظريف ذكرته الرواة فيما روى أنه تصور لأبيها فى بعض قنصه حيّتان سوداء وبيضاء فأمر بقتل السوداء منهما ، وما ظهر له بعد ذلك من شيخ وشاب من الجن ، وأن الشيخ زوجه بابنته ، واشترط عليه شروطاً [لها] ، فعلقت منه ببلقيس ، ونقض تلك الشروط المأخوذة عليه لها ، فغابت عنه ، فى خبر ظريف ، وهو موجود فى كتاب [أخبار] التبابعة .

وإنما نحكى هذه الأخبار على حسب ما وجدناه فى كتب الأخباريين وعلى حسب ما توجبه الشريعة والتسليم لها ، وليس قصدنا[4] من ذلك وصف أقاويل أصحاب القدم ؛ لأنهم ينكرون هذا ويمنعونه ، وإنما نحكى فى هذا الكتاب أقاويل أصحاب الحديث المنقادين للشرع والمسلّمين للحق ، وأخبار الشياطين[5] على حسب ما نطق به الكتاب المنزل على النبى المرسل ، وما قارن ذلك من الدلائل الدالة على

(١) فى ا « ملطاط » بطاءين مهملتين (٢) زيادة عن ا وحدها
(٣) فى ب « المعبد بن أبرهة » (٤) فى ا « وليس وصفنا فى ذلك »
(٥) فى ا « والمسلمين للجن ولأخبار الشياطين »

صدقه صلى الله عليه وسلم ، وإعجاز الخليقة أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وكان ملك بلقيس عشرين ومائة سنة ، وكان من أمرها مع سليمان عليه السلام ما ذكر الله عز وجل فى كتابه ، وما اقتص من خبر الهدهد ، وما اقتص من أمرهما ، فملك سليمان اليمن ثلاثاً وعشرين سنة .

بقية ملوك اليمن

ثم عاد بعد ذلك الملكُ إلى حِمْير ؛ فملكهم ناشر النعم بن عمرو بن يعفر[١] وكان ملكه خمساً وثلاثين سنة .

[ثم ملك بعده شمر بن إفريقس بن أبرهة ، فكان ملكه ثلاثاً وخمسين سنة.

ثم ملك بعده تُبَّع الأقْرَن بن شمر ، فكان ملكه مائة وثلاثاً وستين سنة][٢] .

ثم ملك بعده كليكرب بن تُبَّع[٣] وكان ملكه مائة سنة[٤] وعشرين سنة ، وسَيَّر[٥] قومه نحو الشرق من بلاد خراسان والتبت والصين وسجستان .

ثم ملك بعده حسان بن تُبَّع ، فاستقام له الأمر ، ثم وقع بعد ذلك فى مُلكه تنازع وخلاف ، وكان ملكه إلى أن قتل خمساً وعشرين سنة .

ثم ملك بعده عمرو بن تُبَّع ، وهو القاتل لأخيه حسان الملك الماضى ، وكان ملكه أربعاً وستين سنة ، ويقال : إنه عدم النوم ، لما كان من فعله من قتل أخيه .

ثم ملك بعده تُبَّع بن حسان بن كليكرب[٦] ، وهو الملك السائر من اليمن إلى الحجاز[٧] ، وكانت له مع الأوس والخزرج حروب ، وأراد هدم الكعبة فمنعه

---

(١) فى ا «ياسر بن عبد بن يعفر» (٢) ما بين المعقوفين ساقط من ب

(٣) وقع فى ا «ملكيكرب» ومنهم من يجعله ابن زيد ، وزيد هو تبع الأول وزيد : ابن عمرو ذو الأذعار بن أبرهة ذو المنار ، أما حسان الآتى فهو ابن تبع الآخر ، واسم تبع الآخر تبان أسعد، وكنيته أبو كرب، وتبان بزنة غراب أو رمان

(٤) فى ب «ثلثمائة وعشرين سنة» (٥) فى ب «وسكن قومه ـ إلخ» محرفا

(٦) فى ا «تبع بن حسان أبو كرب» (٧) فى ا «من اليمن إلى يثرب»

مَنْ كان معه[1] من أخبار اليهود ، فكساها القصب اليمانى ، وسار نحو اليمن وقد تهوَّدَ وغلبت على اليمن اليهودية ، ورجعوا عن عبادة الأصنام ، وكان مُلْكه نحو مائة سنة .

ثم ملك عمرو بن تبع بعد تفرق وتنازع كان بينهم فى الملك ، ثم خلع عن الملك وملكوا عليهم مرثد بن عبد كلال ، وكان فى اليمن تنازع وحروب ، وكان ملكه أربعين سنة .

ثم ملك بعده وَلِيعة بن مرثد[2] ، وكان ملكه تسعاً وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده أبرهة بن الصباح بن وليعة بن مرثد ، وهو الذى يدعى شيبة الحمد[3] ، وكان ملكه ثلاثاً وتسعين سنة ، وقيل : أقل من ذلك ، وكان عَلامة وله سير مُدَوَّنة .

ثم ملك بعده عمرو بن ذى قيفان[4] ، وكان ملكه سبع عشرة سنة[5]

ثم ملك بعده ذو شَنَاتِر[6] ، ولم يكن من أهل بيت الملك ، فغرِىَ بالأحداث من أبناء الملوك ، وطالبهم بما تُطَالَب به النسوان ، وأظهر الفسق باليمن واللواط ، وعدل مع ذلك فى الرعية ، وأنصف المظلوم ، وكان ملكه ثلاثين سنة ، وقيل : تسعاً وعشرين سنة ، وقتله يوسف ذو نواس ، وكان من أبناء الملوك ، خوفاً على نفسه ، وأَنَفَة أن يفسق به

ثم ملك بعده يوسف ذو نُوَاس بن زرعة بن تبع الأصغر بن حسان بن كليكرب ، وقد ذكرنا خبره فى غير هذا الموضع من كتبنا[7] ، وما كان من أمره مع أصحاب الأخدود ، وتحريقه إياهم بالنار ، وهم الذين خبر الله تعالى عنهم فى كتابه فقال : (قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود) وإليه عبرت الحبشة من بلاد ناصع وَالزيلع ، وَهو ساحل الحبشة على حسب ما ذكرنا ، إلى بلاد [غلافقة

(١) فى ا « من كان بها من أحبار اليهود » (٢) فى ب « وكيعة بن مرثد »
(٣) فى ا «وهو الذى يدعى شبيه الخير» (٤) فى ب « بن ذى قيعان »
(٥) فى ا « تسع عشرة سنة » (٦) فى ا « ثم ملك لخنيعة ذو شناتر »
(٧) فى ا « من كتابنا »

من ساحل] زبيد من أرض اليمن، فغرق يوسف نفسه بعد حروب طويلة خوفاً من العار ؛ وكان ملكه مائتى سنة وستين سنة، وقيل أقل من ذلك، وذلك أن النجاشى ملك الحبشة لما بلغه فعل ذى نواس بأتباع المسيح عليه السلام، وما يعذبهم به من أنواع العذاب والتحريق بالنار بعث إليه الحبشة وعليهم أرياط بن أصحمة[1] فملك اليمن عشرين سنة، ثم وثب عليه أبرهة الأشرم أبو يكسوم[2] فقتله وملك اليمن، فلما بلغ ذلك من فعله إلى النجاشى غضب عليه، وحلف بالمسيح أن يجز ناصيته، ويريق دمه، ويطأ تربته — يعنى أرض اليمن — فبلغ ذلك أبرهة فجز ناصيته وجعلها فى حق من العاج، وجعل من دمه فى قارورة، وجعل من تراب اليمن فى جراب، وأنفذ ذلك إلى النجاشى ملك الحبشة، وضم إلى ذلك هدايا كثيرة وألطافاً، وكتب إليه يعترف بالعبودية، ويحلف له بدين النصرانية أنه فى طاعته، وأنه بلغه أن الملك حلف بالمسيح أن يجز ناصيته ويريق دمه ويطأ أرضه، وقد أنفذت إلى الملك ناصيتى فليجزها بيده، وبدمى فى قارورة فليهرقه، وبجراب من تربة بلادى فليطأه بقدميه، وليطفىء الملك عنى غضبه، فقد أبررت يمينه، وهو على سرير ملكه، فلما وصل ذلك إلى النجاشى استصوب رأيه، واستحسن عقله، وصفح عنه [وكان ذلك فى ملك قباذ ملك فارس]

أبرهة أبو يكسوم

وأبرهة أبو يكسوم[2] هو الذى سار بأصحاب الفيل [إلى مكة] لإخراب الكعبة، وذلك لأربعين سنة خلت من ملك [كسرى] أنوشروان، فعدل إلى الطائف فبعثت معه ثقيف بأبى رُغَال ليدلّه على الطريق السهل إلى مكة، فهلك أبو رُغَال فى الطريق بموضع يقال له المُغَمّس بين الطائف ومكة، فرُجم قبره بعد ذلك [والعرب تتمثل بذلك] ، وفى ذلك يقول جرير بن الخطفى فى الفرزدق

أبو رغال

---

(١) فى ا « فعبر بالحبشة إليه وعليهم أرياط بن أضخم »
(٢) فى ب « أبرهة الأشرم بن يكسوم »

إذا مات الفرزدق فارْجُمُوهُ كما تَرْمُونَ قَبْرَ أبى رُغَال

قال المسعودى رحمه الله ، وقيل : إن أبا رُغَال وجَّهَهُ صالح النبى صلى الله عليه وسلم على صدقات الأموال ، فخالف أمره ، وأساء السيرة ، فوثب عليه ثقيف ــ وهو قَسِّى بن منبه ــ فقتله قِتْلَةً شنيعة لسوء سيرته فى أهل الحرم؛ فقال غيلان بن سلمة[1] وذكر فسوة أبيهم ثقيف على أبى رُغَال * نحن قسىّ وقسا أبونا *
وفى ذلك يقول أمية بن أبى الصلت الثقفى :

نَفَوْا عن أرضهم عَدْنَانَ طُرًّا وكانوا للقبـــائل قاهرينا
وهم قتـــلوا الرئيس أبا رُغَال بمكة إذ يسوق بها الوضينا

وفى ذلك يقول عمرو بن دراك العبدى :

ترانى إن قطعت حبالَ قَيس وخالفتُ المُرُورَ على تميم[2]
لأعظمُ فَجْرَةً منَ أبى رُغَالٍ وأجْوَرُ فى الحكومة من سَدُوم[3]

[وقال مسكين الدارمى :

وأرْجُمُ قبرَهُ فى كلِّ عامٍ كَرَجْمِ الناس قبرَ أبى رُغَال]

وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب قصه الحبشة وورودهم الحرم وما كان من أمرهم فى ذلك .

قال : وفى طريق العراق إلى مكة ــ وذلك بين الثعلبية والهبير[4] نحو البطان ــ موضع يعرف بقبر العبادى ، تَرْجُمه المارة إلى هذه الغاية كما ترجم قبر أبى رُغَال، وللعبادى خبر ظريف قد أتينا على ذكره فى كتاب « أخبار الزمان » وفى كتاب « حدائق الأذهان » وفى أخبار أهل البيت رضى الله عنهم .

قبر العبادى

فكان ملك أبرهة على اليمن إلى أن هلك بعد أن رجع من الحرم وقد

(١) فى ا « عيلان بن سلمة » بالعين المهملة فى أوله.
(٢) فى ا « إن قطعت جبال قيس »
(٣) فى ب «لأعظم من فخار أبى رغال » ولا يتسق مع المعنى
(٤) فى ب « بين النعلبية والهند نحو النظامية » محرفا ، ووقع فى ا « نحو البطانية » والبطان بكسر أوله ــ منزل بطريق الكوفة من جهة مكه دون الثعلبية

سقطت أنامله وتقطعت أوصاله حين بعث الله عليه الطير الأبابيل ثلاثاً وأربعين سنة

وكان قدوم أصحاب الفيل مكة يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمانمائة واثنتين وثلاثين[1] سنة للاسكندر وست عشرة سنة ومائتين من تاريخ العرب الذى أوله حجة الغدر[2] .

وسنذكر بعد هذا فى الموضع المستحق له من هذا الكتاب جملا من تاريخ العالم وتاريخ الأنبياء والملوك ، فى باب نُفْرِده لذلك إن شاء الله تعالى .

ثم ملك اليمن بعد أبرهة الأشرم ولده يكسوم ، فعمَّ أذاه سائر اليمن ، وكان ملكه إلى أن هلك عشرين سنة .

مسروق ابن أبرهة

ثم ملك بعده مسروق بن أبرهة ، فاشتدت وطأته على اليمن ، وعم أذاه سائر الناس ، وزاد على أبيه وأخيه فى الأذى ، وكانت أمه من آل ذى يَزَن ، وكان سيف بن ذى يَزَن قد ركب البحار ، ومضى إلى قيصر يستنجده ، فأقام ببابه سبع سنين[3] ، فأبى أن يُنْجِده ، وقال : أنتم يهود ، والحبشة نصارى ، وليس فى الديانة أن ننصر المخالف على الموافق ، فمضى إلى كسرى أنوشروان فاستنجده ومَتَّ إليه بالقرابة ، وسأله النصرة ، فقال له كسرى : وما هذه القرابة التى أدْلَيْتَ بها إلىّ ؟ فقال : أيها الملك الجِبِلة وهى الجلدة البيضاء ؛ إذ كنت أقرب إليك منهم ، فوعده أنوشروان بالنصرة [على السودان] وَشغل بحرب الروم وغيرها من الأمم ، ومات سيف بن ذى يَزَن ، فأتى بعده ابنه معد يكرب بن سيف ، فصاح على باب الملك ، فلما سئل عن حاله ، قال : لى قِبَلَ الملك ميراثٌ ، فوقف بين يدى أنو شروان ، فسأله عن ميراثه ، فقال : أنا ابنُ الشيخ الذى وَعده الملك بالنصرة على الحبشة ، فوجَّهَ معه وَهْرِز إصْبَهْبِذَ الديلم فى أهل السجون ، فقال : إن فتحوا

---

(١) فى ا « سنة ثمانمائة واثنتين وثمانين للاسكندر »

(٢) كذا فى ا ونسخة عند ب ، وفى ب « حجة العدد » وفى أخرى عند ب أيضاً « العذر » (٣) فى ا « سنتين »

فلنا ، وإن هلكوا فانا ، وكلا الوجهين فتح ، فحملوا فى السفن [فى دجلة] ومعهم خيولهم وعُدَدهم وأموالهم(١) ، حتى أتوا أُبلة البصرة — وهى فرج البحر(٢) ، ولم يكن حينئذ بصرة ولا كوفة ، وهذه مدن إسلامية — فركبوا فى سفن البحر ، وساروا حتى أتوا ساحل حضرموت بموضع يقال له مَثْوَب(٣) ، فخرجوا من السفن ، وقد كان أصيب بعضهم فى البحر ، فأمرهم وَهْرِز أن يحرقوا السفن ليعلموا أنه الموت ، ولا وجه يؤملون المفرّ إليه فيجهدون أنفسهم ، وفى ذلك يقول رجل من حضرموت :

أصبح فى مَثْوَب ألفٌ فى الجُنَنْ ... من رهط ساسان ورهط مهرسن(٣)
ليخرجوا السودان من أرض اليمن ... دَلّهُمُ قَصْدَ السبيل ذو يَزَنْ

فى شعر له طويل ، ونما خبرهم إلى ملك اليمن مسروق بن أبرهة ، فأتاهم فى مائة ألف من الحبشة وغيرهم من حمير وكهلان ومن سائر مَنْ سكن اليمن [من الناس] وتصافّ القوم ، وكان مسروق على فيل عظيم ، فقال وَهْرز لمن كان معه من الفرس : أصدقوهم الحملة(٤) ، واستشعروا الصبر ، ثم تأمل ملكهم وقد نزل عن الفيل فركب جملا ، ثم نزل عن الجمل فركب فرساً ، ثم أنف أن يحارب على فرس فركب حماراً استصغاراً لأصحاب السفن ، فقال وَهْرِزُ ذهب ملكه ، وتنقل من كبير إلى صغير ، وكان بين عينَيْ مسروق ياقوتة حمراء معلقة فى تاجه بعلاق من الذهب تضىء كالنار ، فرمى وَهْرِزُ ، ورمى القوم ، وقال وَهرِزُ لأصحابه : قد رميت ابن الحمارة ، فانظروا إن كان القوم يجتمعون عليه [ولا يتفرقون عنه فهو حى ؛ وإن كان أصحابه يجتمعون عليه](٥) ويتفرقون عنه فقد هلك ، فنظروا إليهم [فرأوهم] يجتمعون ويتفرقون عنه ، فأخبروه بذلك ، فقال : احملوا

(١) فى ا « وغلمانهم » (٢) فى ب « وهى برج البحر » .
(٣) مثوب — بفتح الميم وسكون الثاء وفتح الواو — بلد باليمن ، قاله ياقوت .
(٤) فى ب « اصدقوهم الخبر » محرفا .
(٥) ما بين القوسين ساقط من ب.

على القوم واصدقوهم [فحملوا عليهم وصدقوهم][1] ، فانكشفت الحبشة وأخذهم السيف ، ورفع رأس مسروق ورؤوس خواص الحبشة ورؤسائهم ، فقتل منهم نحو ثلاثين ألفاً ، وقد كان أنو شروان اشترط على معديكرب شروطاً : منها أن الفرس تتزوج باليمن ولا تتزوج اليمن منها [وفى ذلك يقول الشاعر :

على أن ينكحوا النسوان منهم
ولا ينكحوا فى الفارسينا][2]

[وَخَرَاج يحمله إليه][1] فتوَّجَ وهرز معديكرب بتاج كان معه وبدنة[3] من الفضة ألبسه إياها ، [ورتبه فى ملكه على اليمن][2] ، وكتب إلى أنو شروان بالفتح ، وخلف هناك جماعة من أصحابه .

وكان جميع ما ملكت الأحابش [اليمن][1] اثنتين وسبعين سنة ، وكان ملك مسروق بن أبْرَهَة إلى أن قتله وَهْرِزُ ثلاث سنين ، وذلك لخمس وأربعين خلت من ملك أنوشروان .

[وأتت[2] معدى كرب الوفود من العرب تهنئه بالملك ، فأتاه عبدالمطلب وجَدُّ أمية بن أبى الصَّلت ، وقد ذكرنا خبر عبد المطلب ووفادته على ابن ذى يزن فى هذا الكتاب فيما بعد ، وما قيل من الشعر][2] وفى مسير الفرس إلى اليمن ونصرتهم على الحبشة يقول بعض أولاد فارس :

نحن خُضنا البحار حتى فككنا   حميراً من بَلِيَّةِ السودانِ
بليوث من آل ساسان شُوس   يمنعون الحريم بالمرَّان
وببيض بواتر تتلالا   كسَنَا البرقِ فى ذرى الأبدان
فقتلنا مسروق إذ تاه لَمَّا   أن تداعَتْ قبائل الحبشان
وفلقنا ياقوتة بين عينيه   بنُشَّابة الفتى الساسانى

(١) زيادة عن ا .   (٢) زيادة عن ب .
(٣) فى ب « وقفازات من الفضة » .

[وَهْرِزُ الديلمىُّ لمَّا رآهُ رابط الجأش ثابت الأركان][1]

وحوَيْنَا بلاد قحطان قسراً ثم سرنا إلى ذرى غُمْدَان

فنعمنا فيه بكل سرور وَمَنَنَّا على بنى قحطان

وفى ذلك يقول البحترى يمدح أبناء العجم ، ويذكر فضل الفرس على أسلافه لأنه من قطحان :

فكم لكم من يَدٍ يزكو الثناء بها ونعمة ذكْرُهَا باقٍ على الزمن

إن تفعلوها فليست بِكْرَ أنعمكم ولا يد تأياديكم على اليمن

أيام جَلَّى أنو شروان جدكم غيابة الذل عن سيف بن ذى يزن[2]

إذ لا تزال خيول الفرس دافعة

بالضرب والطعن عن صَنْعاَ وعن عَدَن[3]

أنتم بنو المنعم المُجْدِى ونحن بنو

مَنْ فاز منكم بفضل الطوْل والمنَنِ

وفود العرب تهنئ معديكرب

قال المسعودى : وأتت معديكرب الوفود من العرب تهنيه بعَوْدِ الملك إليه وأشراف العرب وزعماؤها ، وفيهم عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف [وأُمية ابن عبد شمس بن عبد مناف] ، وخوَيلد بن أسد بن عبدالعزى [بن قصى] و [أبو زَمْعَة] جَدُّ أُمية بن أبى الصَّلْت الثقفى ، وقيل : بل أبو الصلت أبوه ، فدخلوا إليه وهو فى أعلى قصره بمدينة صنعاء المعروف بغُمْدَان وهو مُضَمَّخ بالعنبر ، وسواد المسك يلوح على مَفْرِقه ، وسيفه بين يديه ، وعلى يمينه ويساره الملوك [وأبناء الملوك] وأبناء المَقَاول .

عبد المطلب يهنئ الملك

فتكلمت الخطباء ، ونطقت الزعماء ، وقد تقدمهم عبد المطلب بن هاشم فقال عبد المطلب : إن الله جل جلاله قد أحلك ـ أيها الملك ـ مَحَلاًّ رفيعا ، صعبا

---

(١) هذا البيت لا يوجد فى ا .

(٢) فى ا « عيابة الذل »

(٣) فى ا « صنعاء أو عدن » .

منيعا، شامخا، باذخا ، وأنبتك مَنْبتاً طابت أرومته، وعزت جُرْثُومته، وثبت أصله وَ بَسَق فرعه ، فى أكرم معدن، وأطيب [موضع و] موطن، فأنت ــ أبيت اللعن ! ــ رأس العرب ورَبيعُها الذى تُخْصِب به[1] ، وأنت ــ أيها الملك ــ ذروة العرب الذى له تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومَعْقِلها الذى تلتجىء إليه العباد ، سَلَفُكَ خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه، أيها الملك ، نحن أهل (حرم) الله، وسَدَنَة بيته، أشْخَصَنَا إليك الذى أبهجنا من كشف الكرب الذى[2] فَدَحَنَا، ونحن وفد التهنئة، لا وفد المرزئة[3] فقال له الملك : وأيهم أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، فقال الملك معدى كرب بن سيف : ابْنُ أختنا ؟ قال : نعم ، قال : أَدْنُوه منى، فأُدنى ، ثم أقبل عليه وعلى الوفد ، فقال لهم : مرحباً وأهلا ، وناقة وَرَحْلاً ، ومستناخا سهلا ، وملكا رِبَحْلاً[4] ، يعطى عطاء جزلا، قد سمع الملك مقالتكم ، وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ، لكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء إذا ظعنتم .

أبو زمعة يهنئه

ثم قام أبو زَمْعَة جد أمية بن أبى الصلت الثقفى ، فأنشأ يقول[5] :

ليطلُبِ الوتر أمثال ابن ذى يزن في لجة البحر أحوالا وأحوالا
حتى أتى بنى الأحرار يحملهم تخالهم فى سواد الليل أجبالا
لله درهُمُ من عصبة خرجوا ما إن رأيت لهم فى الناس أمثالا

---

(١) فى ب « وتبعها الذى يخطب له » وهو تحريف ما أثبتناه موافقا لما فى ا
(٢) فى ب « من كشف الكرب فرحا » وفى ا ، « من كشف الكرب الذى فرجنا » وكلاهما تحريف .
(٣) الذى فى ب « الرزية » وما أثبتناه موافق لما فى ا ، وهو المحفوظ المعروف
(٤) فى ب « وملكا مرتجلا » وهو تحريف .
(٥) فى بعض هذه الأبيات اختلاف فى الرواية ، ولم نشأ أن نغيره ، فانظر (سيرة ابن هشام ج ١ ص ٦٩ و ٧٠) فهى موجودة فيها مع زيادة .

أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد أمسى شريدُهُمُ فى الأرض فُلّالاَ
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقاً فى رأس غُمْدَان داراً منك محلالا
ثم اطْلُ بالمسك إذ شالت نعامتهم وأسْبِلِ اليوم فى بُرْدَيْكَ إسبالا
تلك المكارم لاقَعْبَانِ من لبن شِيباً بماء فعادا بعد أبوالا

ولمعد يكرب بن سيف بن ذى يزن كلام كثير مع عبد المطلب وكوائن أخبره بها فى أمر النبي صلى الله عليه وسلم وبَدْء ظهوره ، بَشر به عبدَ المطلب وأخبره عن أحواله ، وما يكون من أمره ، وحَبَا جميع الوفد ، وانصرفوا ، وقد أتينا على ما كان من أخبارهم فى كتابنا « أخبار الزمان » فأغنى عن إعادته ووصفه .

مقتل معد يكرب

قال المسعودى : وأقام معديكرب بن سيف بن ذى يزن ملكا على اليمن ، واصطنع عبيداً من الحبشة حرابة يمشون بين يديه بالحراب ، فركب فى بعض الأيام من باب قصره المعروف بغُمْدَان بمدينة صنعاء، فلما صار إلى رحبتها عطفت عليه الحرابة من الحبشة ، فقتلوه بحرابهم ، وكان ملكه أربع سنين ، وهو آخر ملوك اليمن [1] من قحطان ، فعدد ملوكهم سبعة وثلاثون ملكا [و] ملكوا ثلاثة آلاف سنة ومائة وتسعين سنة .

رواية عبيد ابن شرية

قال المسعودى : وأما عبيد بن شَرِيَّةَ الجرهمى حين وفد على معاوية، وسأله عن أخبار اليمن [وملوكها] وتواريخ سنيها ، فإنه ذكر أن أول ملوك اليمن على حسب ما قدمنا فى هذا الباب سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ملك مائة سنة وأربعا وثمانين سنة .

ثم ملك بعده الحارث بن شداد بن ملطاط [2] بن عمرو ، مائة وخمساً وعشرين سنة .

---

(١) فى ا « وهو آخر من ملك اليمن من قحطان » .
(٢) فى ا « بن شداد بن ملطاط » .

ثم ملك بعده أبرهة بن الرائش ، وهو [أبرهة] ذو المنار ، مائة وثلاثا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده إفريقس بن أبرهة ، مائة وأربعا وستين سنة .

[1][ثم ملك بعده أخوه العبد بن أبرهة ، خمسا وأربعين سنة][1]

ثم ملك بعده الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو ، وهو ذو الصرح ، سنة .

ثم ملكت [بعده] بلقيس بنت الهدهاد ، سبع سنين .

ثم ملك سليمان بن داود عليهما السلام ، ثلاثا وعشرين سنة ، على حسب ماقدمنا من أمر بلقيس .

ثم ملك بعده رحبعم[2] بن سليمان ، سنة .

ثم رجع الملك إلى حمير ، فملك من بعد رحبعم بن سليمان[2] ناشر النعم بن يعفر[3] بن عمرو ذى الأذعار ، خمسا وثلاثين سنة ، وقد قيل فى تسميته ذا الأذعار خبر تأباه العقول ، وتنكر النفوس كون مثله فى العالم، ويجوز كون ذلك فى المقدور وأنه إنما سمى الأذعار لأنه وصل إلى قوم فى أقاصى مفاوز اليمن و[أرض] حضرموت مشوهى الخلقة عجيبى الصورة وجوههم فى صدورهم ، فلما رأى أهل اليمن ذلك أذعرهم ماشاهدوا من ذلك ، وجزعت منه نفوسهم ، فسمى ذا الأذعار ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم بكيفيته .

ثم ملك بعده عمرو بن شمر بن إفريقس ، ثلاثا وخمسين سنة .

[1][ثم ملك بعده تبع الأقرن بن عمرو ، وهو تبع الأكبر ، مائة سنة وثلاثا وخمسين سنة][1]

ثم ملك بعده ابنه ملكيكرب بن تبع[1] [خمسا وثلاثين سنة[1]

ثم ملك بعده تبع بن ملكيكرب بن تبع][1] وهو تبع أبو كرب أسعد ابن ملكيكرب أربعا وثمانين سنة .

---

(١) لا يوجد مابين المعقوفين فى ب (٢) فى ا «أرخبعم بن سليمان» .

(٣) فى ا «ياسر بن ينعم بن يعفر» .

ثم ملك بعده كلال بن مثوب[١] ، أربعاً وسبعين سنة .
ثم ملك بعده تبع بن حسان بن تبع[٢] [ثلثمائة سنة وستا وعشرين سنة][٢]
ثم ملك بعده مرثد ، سبعاً وثلاثين سنة .
ثم ملك بعده أبرهة بن الصباح ، ثلاثا وسبعين سنة .
ثم ملك بعد ذوشناتر[٣] بن زرعة ، و يقال يوسف ، ويقال : بل اسمه[٤] عريب بن قطن ، تسعاً وثمانين سنة .

ثم ملك بعده لخنيعة[٥] ، ويعرف بذى الشناتر ، أربعاً وثمانين سنة.

فذلك ألف [وتسعمائة سنة[٢] وسبع وعشرون سنة ، وإنما ذكرنا ما حكيناه عن عبيد بن شَرِيَّةَ فى ترتيب ملوكهم ، وتباين تواريخ سنيهم، لنأتى على جميع ماقيل فى ذلك من التنازع ، والله ولى التوفيق

ملك فارس باليمن

ولما قتلت الحبشة معديكرب بن سيف بن ذى يزن ـ على حسب ماقدمنا ـ فى الرحبة بحرابهم كان بصنعاء خليفة لِوَهْرِزَ فى جماعة من العجم، ممن كان ضمهم وَهْرِز إلى معديكرب (فركبوا) أتى على من كان هنالك من الحبشة ، وضبط البلد ، وكتب بذلك إلى وَهْرِز وهو بباب أنوشروان الملك ، وذلك بالمدائن من أرض العراق[٦] ، فأعلم وَهْرِز بذلك الملكَ ، فسيره فى البر فى أربعة آلاف من الأساورة ، وأمره بإصلاح اليمن، وأن لا يبقى على أحد من بقايا الحبشة ، ولا على جَعْد قَطَط قد شرك السودان فى نسبه، فأتى وَهْرِز اليمن، ونزل صنعاء ، فلم يترك بها أحداً من السودان ولا من أنسابهم، وَمَلَّكَ أنوشروان وهرز على اليمن إلى أن هلك بصنعاء [ثم ملك بعده النوشجان بن وَهْرِز إلى أن هلك بها] ثم ملك بعده رجل من فارس يقال له سبحان، ثم ملك بعده خرزاد ستَّةَ أشهر ، ثم ملك بعده ابن سبحان ، ثم ملك بعده المرزبان وكان من أهل بيت مملكة فارس ، ثم ملك بعده خرخسرو[٧] ، وكان مولده باليمن، ثم ملك بعده باذان بن ساسان .

(١) فى ب « كلال بن سويب » (٢) لا يوجد مابين المعقوفين فى ب .
(٣) فى ا « ذو نواس زرعة» (٤) فى ا «غريب بن قطن» .
(٥) فى ب «حنيفة» . (٦) فى ب «من أرض فارس» . (٧) فى ب «حرحس» .

ملك اليمن في أبناء إبراهيم

قال المسعودى : فهؤلاء جميع من ملك اليمن من قحطان والحبشة والفرس ، وقد ملك اليمن رجل من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهو يعدُّ من ملوك اليمن واسمه هُنَيبة[1] بن أميم بن بدل بن مدين[2] بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان له شأن عظيم فى (ملك) اليمن ، وطالت أيامه ، وذكره امرؤ القيس فى شعره (فقال :

وهينية الذى زادت قواه ... على زيدان إذ حان الزوال

تمكن قائما وبنى طريقا ... إلى زيدان أعيط لا ينال)

(ويقال : إنه منتبه بن أميم بن بدل بن لسان بن إبراهيم الخليل)

عاصمة اليمن

وقد كانت ملوك اليمن تنزل بمدينة ظَفَارِ ، مثل آل ذى سحر وآل ذى الكلاع وآل ذى أصبح وآل ذى يزن ، إلا اليسير منهم فإنهم نزلوا غيرها وكان على باب ظَفَارِ مكتوب بالقلم الأول فى حجر أسود[3] :

يوم شيدت ظفار قيل : لمن أنـ ... ـت ؟ فقالت : لحمير الأخيار

ثم سيلت : مَنْ بعد ذاك؟فقالت : ... إن ملكى للأحْبُشِ الأشرار

ثم سيلت : مَنْ بعد ذاك ؟ فقالت : ... إن ملكى لفارس الأحرار

(ثم سيلت : ما بعد ذاك ؟ فقالت: ... إن ملكى إلى قريش التجّار)

(ثم سيلت : ما بعد ذاك؟فقالت : ... إن ملكى لحمير وصحار)

وقايلا ما يلبث القومُ فيها ... منذ شيدت مَشِيدُهاَ للبوار

من أسودٍ يلقيهمُ البحر فيها ... تشعل النار فى أعالى الديار

وهذا خبر عن ملوك تداولوها ، أخبروا عن ملكهم قبل كونه، فتداولتها (هذه) الملوك على حسب ما وصفناه ، وينتظر فى المستقبل من الزمان ما ذكرنا من وقود النيران فى أعالى الديار ، وعند أهل اليمن أن ديارهم سيغلب عليها الأحابش

---

(١) فى ب «هينية» وكذلك هو فى الشعر المنسوب لامرىء القيس

(٢) فى ا « بن مرن» (٣) فى ا «بالحجر الأسود ماصورته » .

فى آخر الزمان بعد هَنَات وكوائن وأحداث ، وبُعِثَ النبى صلى الله عليه وسلم وعلى اليمن عُمَّال كسرى ، ثم غلب الإسلام فظفر بحمد الله .

وقد أتينا على أخبار من ذكرناه من الملوك ، وسيرهم ، ومطافاتهم فى البلاد وحروبهم ، وأبنيتهم فى سائر مطافاتهم ، فى الكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الباب.

مساحة اليمن وحدوده

وبلد اليمن طويل عريض : حده مما يلى مكة إلى الموضع المعروف بطلحة الملك[1] سبع مراحل ، ومن صنعاء إلى عدن – وهو آخر عمل اليمن – تسع[2] مراحل ، والمرحلة من خمسة فراسخ إلى ستة ، والحد الثانى من وادى وحا إلى ما بين مَفَاوز حضرموت وعمان عشرون مرحلة ، ويلى الوجه الثالث بحر اليمن على ما ذكرنا أنه بحر القلزم والصين والهند ، فجميع ذلك عشرون مرحلة فى ست عشرة مرحلة .

وأسماء ملوك اليمن كذى يزن وذى نُوَاس وذى منار وغير ذلك مضافة إلى مواضع وإلى أفعالهم وسير وحروب وغير ذلك ، وهى سِمَاتٌ لهم تميزهم عن غيرهم ، وتبين كل واحد منهم عن غيره من ملوكهم.

وإذ قد ذكرنا جوامع من أخبار اليمن وملوكها فلنذكر الآن ملوك الحيرة من بنى نَصْرٍ وغيرهم ، للحوقهم باليمن ، ثم نعقب ذلك بملوك الشام وغيرهم[3] من الملوك ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى ب «بلجة الملك» وهو تحريف ، وطلحة الملك : اسم واد باليمن .

(٢) فى ا « سبع مراحل » .

(٣) فى ا « بملوك الشام من اليمن وغيرهم ، إن شاء الله » .

ذكر ملوك الحيرة من بنى نصر وغيرهم

جذيمة الوضاح ومقتله

ولما هلك جَذِيمة الوَضَّاح وأتت عليه الزَّبَّاء بنت عمرو بن ظرب بن حسان ابن أذينة بن السميدع بن هوبر ، وقد كان ملك من مشارق الشام[1] إلى الفرات من قبل الروم ، وكانت داره بالموضع المعروف بالضيق[2] ، بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا، وقد كانت الزباء تملكت بعد أبيها ، وأطمعت جَذيمة فى نفسها إلى أن قتلته ، وأقام جذيمة ملكا فى زمن ملوك الطوائف خمساً وتسعين سنة، وفى ملك أردشير بن بابك وسابور الجنود بن أردشير ثلاثاً وعشرين سنة؛ فكان ملكه مائة وثمان عشرة سنة ،وكان يكنى بأبى مالك،وفيه يقول بعض شعراء الجاهلية وهو سُوَيْد بن أبى كاهل اليشكرى :

إن أذُقْ حَتْفِى فقبلى ذاقَهُ   طسم عاد وجديس ذو الشنع[3]
وأبو مالكٍ الْقَيْلُ الذى   قتلته بنت عمرو بالخدع[4]

مالك بن فهم

وكان الملك قبل جذيمة أباه ، وهو أول من ملك الحيرة ، والله أعلم ، وكان يقال له مالك بن فَهْم بن دَوْس بن الأزد بن الغَوْث [بن نبت[5]] بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان سار من اليمن مع ولد جَفْنة بن عمرو بن عامر مُزَيْقياء ، فسار بنو جَفْنة نحو الشام ، وانفصل مالك نحو العراق فملك على مضر بن نزار اثنتى عشرة سنة ، ثم ملك بعده ابنه جذيمة على ما ذكرنا .

عمرو بن عدى

ثم ملك بعد جذيمة ابنُ أختِهِ عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن الحارث ابن مالك بن غنم بن نمارة بن لَخْم ، وهو أول من نزل من الملوك الحِيَرةَ واتخذها

---

(١) لعله «مشارف الشام» (٢) فى ب « بالمصيرة» .
(٣) فى ب «ذو السبع». (٤) فى ا « وأبو مالك الكهل » .
(٥) فى ب « بن العوف بن مالك » ولم يذكر نبت .

منزلا ودار ملكٍ ، وإليه تنسب الملوك النصرانية ، وهم ملوك الحِيرة ؛ فكان ملك عمرو بن عدى ابن أخت جذيمة مائة سنة.

قصة عمرو ابن عدى

قال المسعودى : وقد ذكر غير واحد ممن عنى بأخبار العرب وأيامها أن جَذِيمة أول من ملك من قُضَاعة ، وهو جذيمة بن مالك بن فَهْم التَّنُوخى ، وأنه قال ذات يوم لندمائه : لقد ذكر لى عن غلام من [لخم ، فى أخواله من] إياد ، له ظَرْفٌ وأدب ، فلو بعثت إليه فولَّيته تأسى والقيام على رأسى لكان الرأى ، قالوا : الرأى ما رأى الملك ، فليبعث إليه ، ففعل ، فلما قدم عليه قال : من أنت؟ قال : أنا عدى بن نصر بن ربيعة ، فولاه مجلسه ، فعشقته رَقَاش ابنة مالك أخت الملك ، فقالت : يا عدى ، إذا سقيت القوم فامْزُجْ لهم ، وَغَدِّقْ للملك ، فإذا أخذَتِ الخمر منه فاخطبنى منه فإنه يزوجك ، فأشْهِدِ القوم إن فعل ، ففعل الغلام ذلك [وخطبها] وزوجها به ، فأشهد عليه ، وانصرف الغلام إليها فأنبأها ، فقالت : عَرِّسْ بأهلك ، ففعل ، فلما أصبح غدا متضرجاً بالخَلُوق ، فقال له جَذِيمة : ما هذه الآثار يا عدى؟ قال : آثار العرس ، وقال : وأى عرس ؟ قال : عرس رقاش فنَخَرَ وأكبَّ على الأرض ، ورفع عدى جراميزه ، [وهرب] وأسرع جذيمة فى طلبه ، فلم يجده ، وقال بعضهم : بل قتله ، و بعث إليها يقول :

حَدِّثينى رَقَاشِ لاتكذبينى ... أبحرٍّ زنيت أم بهجين ؟
أم بعبدٍ فأنت أهل لعبد ... أم بدون فأنت أهل لدون ؟

فأجابته رقاش تقول :

أنْتَ زَوَّجتنى وَما كُنتُ أدرى ... وأتانى النساء للتزيين
ذَاكَ من شُرْبك المدامةَ صِرْفاً ... وتماديكَ فى الصبا وَالْمُجُونِ[1]

فنقلها جَذِيمة إليه ، وحَصَّنها فى قصره ، فاشتملت على حمل ، وولدت غلاماً فسمته عمراً ، ووشحته ، حتى إذا ترعرع حلّته وعطرته وألبسته كسوة فاخرة ،

---

(١) فى ب «الصبا والجنون» .

ثم أزارته خالَهُ ، فأُعجب به ، وألقيت عليه منه محبة [ومودة] حتى إذا خرج الملك فى سنة مُكْلِئة قد أكمأت، فبسط له فى رَوْضَة ، وخرج عمرو فى غلمة يجتنون الكمأة ،فكانوا إذا أصابوا كمأة طيبة أكلوها ، وإذا أصابها عمرو خَبَأَها ، ثم أقبلوا يتعادون وعمرو يتقدمهم ، ويقول:

هذا جَنَايَ وخياره فيه إذ كل جانٍ يدُهُ إلى فيه

قصة نديمى جذيمة

فالتزمه جذيمة وحَبَاه ، ثم إن الجن استطارته ، فضرب له جذيمة فى الآفاق زمانا ، فلم يسمع له بخبر [فكف عنه] إذ أقبل رجلان يقال لأحدهما : مالك، وللآخر :عقيل، ابنا فالج ، وهما يريدان الملك بهدية ،فنزلا على ماء ، ومعهما قَيْنة يقال لها أم عمرو ، فنصبت [لهما] قدراً ، وأصلحت لهما طعاماً ، فبينما هما يأكلان إذ أقبل رجل أشعث أغبر الرأس[1] قد طالت أظفاره وساءت حاله، حتى جلس مَزْجَرَ الكلب، ومدّ يده ، فناولته القينة طعاماً ، فأكل ،فلم يغنِ عنه شيئاً ، فمدّ يده ، فقالت القينة : إن تعط العبد كُرَاعاً طلب ذِراعاً،فأرسلتها مثلا ، ثم ناولت صاحبيها من شرابها ، وأوكت زِقّها[2] ، فقال عمرو ابن عدى :

عدلْت الكأس عنا أمّ عمرو وكان الكأسُ مجراها اليمينا
وما شَرُّ الثلاثة أمَّ عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا[3]

فقال له الرجلان : من أنت ؟ فقال : إن تنكرانى فلن تنكرا حسبى[4]، أنا عمرو بن عدى ، فقاما إليه فلثماه ، وَغَسَلا رأسه ، وَقَلما أظفاره، وَقَصَّرا من لمته ، وألبساه من طرائف ثيابهما ، وقالا : ما كنا لنهدى إلى الملك هدية هى

---

(١) فى ا « رجل شعث الرأس وقد طالت أظفاره » .
(٢) فى ا «وأوكأت سقاءها» .
(٣) والبيتان ينسبان لعمرو بن معد يكرب وهما فى طويلته .
(٤) فى ا « فلن تنكرا نسبي » .

أنفس عنده ولا هو عليها أحرص[١] من ابن أخته ، قد ردَّه الله إليه، فخرجا به، حتى إذا وقفا على باب الملك بَشَّراه به [فسر به] وصرفه إلى أمه، وقال لهما : حُكْمكما ، فقالا : حكمنا منادمتك ما بقيت وبقينا ، قال : ذلك لكما ، فهما نَدْمَانا جَذِيمة المعروفان ، وإياهما عنى متمم بن نويرة اليربوعى فى مَرْثيته لأخيه مالك حين قتله خالد بن الوليد [بن المغيرة] يوم البطاح :

وكنا كَنَدْمانَىْ جَذِيمة حقبةً — من الدهر حتى قيل: لن يتصدَّعَا

فلما تفرقنا كأنى ومالكا — لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وقال أبو خراش الهذلى:

ألم تعلمى أن قد تَفَرَّقَ قبلنا — خليلا صفاء مالك وعقيل

وإن أم عمرو عمدت إليه، فبعثت معه حَفَدَة يقومون عليه فى الحمام ، حتى إذا خرج ألبسته من طرائف ثياب الملوك، وجعلت فى عنقه طَوْقاً من ذهب لنَذْر كان عليها ، ثم أمرته بزيارة خاله ، فلما رأى خاله لحيته والطوق فى عنقه قال : شَبَّ عمرو عن الطوق ، وأقام عمرو مع جذيمة خاله قد حمل عنه عامة أمره.

بين الزباء وجذيمة

وإن الزباء ابنة عمرو بن ظرب بن حسان [بن أذينة بن السميدع بن هوبر] ملكة الشام والجزيرة من أهل بيت عاملة من العماليق كانوا فى سليح، وقال بعضهم: بل كانت رومية، وكانت تتكلم بالعربية ، مدائنها على شاطىء الفرات من الجانب الشرقى والغربى ، وهى اليوم خراب ، وكانت فيما ذكر قد سقفت الفرات[٢] [وجعلت من فوقه أبنية رومية] وجعلته أنقابا[٣] بين مدائنها ، وكانت تغزو بالجنود [قبائل] فخطبها جذيمة الأبرش، فكتبت إليه: إنى فاعلة، ومثلك من يُرْغَبُ فيه ، فإذا شئت فاشْخَصْ إلى، وكانت بكرا ، فجمع عند ذلك جذيمة أصحابه ، فاستشارهم،

(١) فى ا « ولا هو عليها أحسن صفدا من ابن أخته » والصفد : العطاء .

(٢) فى ا « قد شققت الفرات » .

(٣) فى ا « وجعلته أنفاقا » .

فأشاروا عليه بالمضى ، وخالفهم قصير بن سعد تابع كان له من لَخْم،فأمره أن لايفعل ، ويكتب إليها،فإن كانت صادقة أقبلت إليك[(١)]،وإلا لم تقع فى حِبَالها ، فعصاه وأطاعهم [وسار] حتى إذا كان بَبَقّة – من دون هَيْتَ إلى الأنبار – جمعهم وشاورهم فأمروه بالشخوص إليها لماء له وامن رأيه فى ذلك،وقال قصير : تنصرف وَدَمُكَ فى وجهك،فقال جذيمة : ببَقّة قضى الأمر،فأرسلها مثلا،وقال قصير بن سعد حين رآه قد عزم[(٢)]: لا يطاع لقصير أمر ، فأرسلها مثلا،وظعن جذيمة ، حتى إذا عاين مدينتها – وهى بمكانٍ دون الخانوقة – ونظر إلى الكتائب [من] دونها ، فهاله ما رأى،فقال : أىْ قصير،ما الرأىُ ؟فقال قصير : إنى تركت الرأى ببقة، فقال عند ذلك : أشِرْ على ، فقال : إن لقيتكَ الكتائبُ فحيتك بتحية الملك وانصرفوا أمامك فالمرأة صادقة ، وإن هم أخذوا بجنبيك ووقفوا دونك فالقوم منعطفون عليك فيما بينهم وبين جنودهم ، فاركب العَصَا فإنها لا تدرك ولا تسبق، يعنى فرساً كانت جنبت معه[(٣)]،فاستقبله القوم وأحاطوا به،فلم يركب العصا ، فعمد إليها قصير فركبها وحمل وانطلق[(٤)]،فالتفت جذيمة فإذا هو بالعصا عليها قصير أمام خيلهم حتى توارت به ، فقال جذيمة:ماضل مَنْ تجرى به العصا ، فأدخل على الزباء فاستقبلته وقد كشفت عن كَبْعَثَاتِهَا (أى عفلها) وتنظفت باستها ، وقالت : ياجذيمة ، أىّ متاع عروسٍ ترَى؟قال : أرى مَتَاع أمَةٍ لكعاء غير ذات خَفَرٍ ، فقالت:أما والله ما ذاك من عدم مَوَاس ، ولا قلة أواس،ولكن شيمة ما أناس، ثم أجاسته على نِطَع ،ودعت له بطست من عسجد ، فقطعت رَوَاهِشه واستنزفته، حتى إذا ضعفت قواه ضرب بيده فقطرت قَطْرة [من دمه] على دعامة من رُخَام ، وقد قيل لها : إنه إن وقع من دمه قطرة فى غير طَسْت طلب بدمه،

(١) فى ا « فإن كانت صادقة أقبلت إليه » .
(٢) فى ا « حين رأى ماقد عزم عليه » .
(٣) فى ا « يعنى فرسا كانت تجنب معه » .
(٤) فى ا « وختل الخيل وانطلق » .

فقالت : أى جذيمةُ ، لاتضيعن من دمك شيئاً ، فإنى إنما بعثت إليك لأنه بلغنى أن دمك شفاء من الخبل ، فقال جذيمة : وما يحْزنكِ[1] من دم أضاعه أهْلُه!!؟ وفى ذلك يقول البَعيث:

من الدارميين الذين دماؤهم شفاء من الداء المجنة والخبل[2]

واستصفت دمه ، وجعلته فى برنية ، وقال بعضهم : دخل عليها جذيمة فى قصر لها ليس فيه إلا الجوارى،وهى على سريرها ، فقالت للإماء : خُذْنَ بيد سيدكن ، ثم دعت بنطع فأجلسته عليه[فعرف الشر] وكشفت عن عورتها فإذا هى قد عقدت شعر استها من وراء ، فقالت : أشَوَارَ عروس ترى ؟فقال: بل شوار أمة بظراء،فقالت : أما والله ماذاك من عدم مَوَاس ، ولا قلة أواس،ولكنها شيمة ما أناس ، ثم أمرت بِرَوَاهشة فقطعت ، فجعل دمه يشخب فى النِّطَع كراهة أن يفسد مقعدها ،فقال جذيمة : لا يحزنك دَمٌ أراقه أهله .

عمرو بن عدى يأخذ بثأر خاله

ونجا قُصَيرْ ، فأورد الخبر على عمرو بن عبد الجن[3] التنوخى بالحيرة ، فأشفق لذلك ، فقال له قصير : اطلب بثأر ابن عمك ، وإلا سبَّتْكَ العرب، فلم يحفِل بذلك،فخرج قصير إلى عمرو بن عدى ، فقال له : هل لك فى أن أصرف الجنود إليك على أن تطلب ثأر خالك ؟ فضمن له ذلك ، فصرف وجوه الجنود إليه، ومناهم بالمال والحال ، فانصرف إليه منهم بَشَرٌ كثير ، فالتقى هو والتنوخى، فلما خافوا الفناء تابعهُ التنوخى ، وتم الأمر لعمرو بن عدى، فقال له قصير: انظر ما وعدتنى به فى الزباء،فقال عمرو : وكيف لَنَا بها وهى أمنع من عُقَاب الجو ؟ فقال :أما إذ أبيت فإنى جادع أنفى وأذنى ومحتال لقتلها جَهْدى ، فأَعِنِّى وَخَلاَكَ ذم ، فقال له عمرو: أنت أبصر ،وعلىَّ مَعُونتك ، فجَدَعَ أنفه ،فقيل : لأمر ما جدع قصير أنفه، ثم انطلق حتى دخل على الزباء، فقالت: من أنت؟ فقال:

---

(١) فى ب « وما يغنيك من دم – إلخ » .
(٢) فى ب « المحبة والخبل »
(٣) ف ب « بن عبد الحى » .

أنا قصير ، لا ورب المشارق ما كان على وجه الأرض بَشَر كان أنصح لجذيمة ولا أغش لك منى ، حتى جدع عمرو بن عدى أنفى وأذنى ، فعرفْتُ أنى لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منى معك ، فقالت : أى قصير ، نقبل منزلتك ونصرفك فى بضائعنا ، فأَعطته مالا للتجارة ، فأتى بيت مال الحيرة، فاستخف ما فيه بأمر عمرو بن عدى،وانصرف به إليها ، فلما رأت ما جاءها به فرحت بذلك ، وزادته ما لا إلى ماجاء به ، وقال : إنه ليس من ملك إلا وهم يتخذون فى مدائنهم أنقابا[1] تكون لهم عُدَداً ، فقالت له : أما إنى قد فعلت ذلك ، قد نقبت سَرَباً وبنيته من تحت سريرى هذا حتى أخرج من تحت الفرات إلى سرير أختى رحيلة[2] ففرح بذلك قصير[3] ، ثم ظعن حتى أتى عمرا ، فركب عمرو فى ألفَىْ رجل على ألف بعير فى الصناديق[4] ، حتى صار إليها ، فتقدم قصير وسبق الأبعِرَةَ ، فقال لها : اصعدى حائط مدينتك ، وانظرى إلى مالك ، وتقدمى إلى بوابك فلا يتعرض لشىء من أموالنا[5] ، فإنى قد جئت بمال صامت[6] . وكانت قد أمنته ، فلم تكن تخافه ، وصعدت وفعلت ما أمرها ، فلما نظرت إلى ثقل مشى الجمال قالت :

ما للجمال مشيها وئيدا أجَنْدَلا يحملن أم حديدا
أم صَرَفَانًا باردا شديدا أم الرجالَ جُثَّماً قعودا ؟

ودخلت الإبل المدينة ، حتى إذا بقى آخرها جملا عيلَ صَبْر البواب ، فطعن بمنخسة كانت فى يده خاصرة رجل فضرط،فقال البواب: بشتا بشتا[7] ،وهى بالنبطية أى : فى الجوالق شر ، وثار الرجال من الجوالق ضرباً بأسيافهم ، فخرجت الزباء هاربة إلى سَرَبها ، فأبصرت قصيراً عند نفقها مُصْلتاً سيفه، فانصرفت راجعة ،

(١) فى ا « أنقاقا » .
(٢) كذا فى ا ، وفى ب « دخلة » وذكر فى هامشها أن فى نسخة « زبيبة » .
(٣) فى ا « فخزنها قصير » .
(٤) فى ا « فى الجوالق » .
(٥) فى ا « من أعكامنا » .
(٦) حفظى « بما صأى وصمت » .
(٧) فى ا « بشتا لشقا » .

وتَلَقَّاها عمرو بن عدى ، فضربها . وقال بعضهم :مَصَّت خاتمها ، وكان فيه سم ساعة ، وقالت : بيدى لا بيد عمرو ، وحربت المدينة ، وسبيت الذرارى ، فقالت الشعراء فى أمرها وأمر قصير فأكثرت ؛ فمن ذلك قول المتلمس :

ومن طَلَب الأوتار ماحــزَّ أنفه قصير ، ورام الموت بالسيف بَيْهَس[1]

[نَعَامَــةُ لمــا صَرَّع القوم رهطه تبين فى أثوابه كيف يلبس][2]

[ومن ذلك قول عدى بن زيد التميمى يصف ذلك من أمرهم :[3]

ألا يأيهــا الملك المرجَّى ألم تسمع بخطب الأولينـــا

دعا بالبقَّــة الأمراء يوما جــذيمةُ عام ينجوهم ثُبِينَا[4]

وطاوع أمرهم ، وعصا قصيرا وكان يقول ـ لو وقع ـ اليقينا

لخطابته التى غــدرت وخانت وهُنَّ ذوات غائلة ، لُحِينَا][3]

مع أشعار كثيرة قيلت فى ذلك .

وكانت الزباء لاتأتى حصناإلا ضفرت شعر أُستها من خلفه[5]، ثم تقاعست فتقلعه ، حتى فعلت ذلك بمارد ــ حصن دُومةِ الجندل ــ وبالأبلق ــ حصن تيماء ــ حصنين منيعين ، فقالت: تمرد مارد وعز الأبلق[فذهبت مثلا] ، وهما الحصنان اللذان تذكرهما العرب فى أشعارها [كثيراً] ، قال الأعشى فى ذلك:

بالأبلق الفرد من تيماء منزلُهُ حصنٌ حَصِينٌ وجار غير غَدَّارِ

[وجذيمة الوضاح الذى يقول فيه :

ماست مودعــة الحديــــث فمنجدٌ منهــمْ وغائر

(١) فى ا « ما جذ أنفه » . (٢) هذا البيت لايوجد فى ا .

(٣) هذه الزيادة لاتوجد فى ا

(٤) فى ب « دعا بالثقبة » وهو تحريف . وانظر ياقوت « بقة » ووقع عجز هذا البيت فى ب « جذيمة عصره ينجو معينا » والكلام غير مستقيم .

(٥) فى ا « فلما تأتى حصناً إلا صفرت باستها من خلفها وتقاعست به فتقلعه »

أن تاه أحْــوَرُ ذو رعيــــن لنا وأحوى ذو أباعر
والملك كان لذى نُوَا س حوله من ذى بحائر
بالسابغـــات وبالْقَنـــا والبيض تبرق والمغافر[١]
أزمان عمـــلاق وفيـــهم منهـــمُ بادٍ وحاضر]

وإنما سمى جذيمة الأبرش الوضاح لأنه كان به بَرَصٌ، فكنى عنه إعظاماً له[٢]

قال المسعودى : هذا بدء خبر بنى عدى[٣] ، وقد قدمنا أن مدة ملكه كانت [مائة سنة[٤] .

بقية ملوك الحيرة

وملك بعده ولده امرؤ القيس بن عمرو بن عدى ستين سنة .

وملك بعده عمرو بن امرىءالقيس ، وهو مُحَرِّقُ العرب[٥] خمساوعشرين سنة ، وكانت أمه مارية البرية أخت ثعلبة بن عمرو من ملوك غسان .

وملك النعمان بن امرىء القيس قاتل الفرس[٦] خمساً وستين سنة،وكانت أمه الهيجمانة بنت سلول من مراد، ويقال : من إياد .

وملك المنذر بن النعمان] ابن امرىء القيس خمساوعشرين سنة ، وكانت أمه الفراسية بنت مالك بن المنذر ، من آل نصر .

وملك النعمان بن المنذر[فارس حليمة ، وهو الذى بنى الخَوَرْنَقَ وكَرْدَسَ الكراديس]خمساوثلاثين سنة ، وكانت أمه هند [بنت زيد مَنَاةَ من آل غسان

وملك الأسود بن النعمان ؛ عشرين سنة، وكانت أمه هند] بنت الهيجمانة، من آل نصر .

وملك المنذر بن الأسود بن النعمان بن المنذر أربعا وثلاثين سنه ، وكانت أمه ماء السماء بنت عوف بن النمر بن قاسط بن هيت بن أفصى بن دعمى بن جديلة ابن أسد بن ربيعة بن نزار ؛ وإنما سميت ماء السماء لحسنها وجمالها .

---

(١) فى نسخة « السابقات وبالقنا » (٢) فى ب « فكنى به إعظاما له ».
(٣) فى ا « بدء خبر عمرو بن عدى» (٤) فى ب «مدة ملكه سنة » .
(٥) فى ا « محرق الحرب » (٦) فى ا « قائد الفرس ».

ثم ملك بعده عمرو بن المنذر ، أربعاً وعشرين سنة ، وكانت أمه حليمة بنت الحارث من آل معد يكرب .

وملك المنذر بن عمرو بن المنذر ، ستين سنة ، وكانت أمه أخت عمرو بن قابوس من آل نصر .

ثم ملك قابوس بن المنذر ثلاثين سنة ، وكانت أمه هند بنت الحارث ، من آل معاوية بن معديكرب .

وملك النعمان بن المنذر ، وهو الذى يقال له : « أبيت اللعين ! » اثنتين وعشرين سنة ، وكانت أمه سلمى بنت وائل بن عطية من كلب .

بين النابغة والنعمان

وذكر عدة من الأخباريين أن النابغة استأذن على النعمان يوماً ، فقال له الحاجب : إن الملك على شرابه ، قال [النابغة] : فهو وقت المَلَق ، تقبله الأفئدة ، وهو جَذِل للرحيق [والسماع] ، فإن تلج تاق المجد عن غرر مواهبه(١) ، فأنت قسيم ما أفدت ؛ قال له الحاجب : ما تفى عنايتى بدون شكرك ، فكيف أرغب فيما وصفت ودون ماطلبت رهبة التعدى ؟ [فهل من سبب ؟] قال النابغة : ومن عنده ؟ قال الحاجب : خالد بن جعفر الكلابى نديمُهُ ، فقال النابغة : هل لك إلى أن تؤدى إلى خالد عنى ما أقول لك ؟ قال : وماهو ؟ قال : تقول إن من قدرك وفاء الدرك بك وناحيتى من الشكر ما قد علمت ، فلما صار خالد إلى بعض ماتبعثه موارد الشراب عليه نهض ، فاعترضه الحاجب ، فقال : ليهنك [أبا البَسّام] حادث النعيم(٢) ، قال : وما ذاك ؟ فأخبره الخبر ، وكان خالد رفيقاً ، يأتى الأشياء(٣) بلطف وحسن بصيرة ، فدخل مبتسما ، وهو يقول :

إلا لمثلك أو من أنت سابقه   سَبْق الجواد إذا استولى على الأمد

واللات لكأنى أنظر إلى [أملاك] ذى رُعَيْنٍ ، وقدمدت لهم قضبان المجد(٤) إلى

---

(١) فى ا « فإن ملق فلق المجد عن مواهبه » والعبارتان قلقتان .

(٢) فى ب « ليهنك التّام حادث النعيم » .

(٣) فى ا « يتأتى الأشياء »   (٤) فى ا « قصبات المجد » .

[معالم أحسابكم] ، ومناقب أنسابكم ، في حَلْبة أنت — أبيت اللعن ! — غُرّتها فخثت سابقاً متمهلا ، وجاؤا لم يلم لهم سعى ، قال النعمان : لأنت في وصفك أبلغ إحسانا من النابغة في نظام قافيته ، فقال خالد : ما أبلغ فيك حسناً ، إلا وهو دون قدرك استحقاقاً للشرف الباهر ، ولو كان النابغة حاضراً لقال وقلنا ، فأمر النعمان بإدخاله ، فخرج [إليـه][1] الحاجب ، [فقال النابغة : ما وراءك][1] فقال : قد أذن بفتح الباب ، ورفع الحجاب ، ادخل ، فدخل ثم انتصب بين يديه ، وحيـاه بتحية الملك ، وقال : أبيت اللعن ! أنفاخَرُ وأنت سائس[2] العرب ، وغرة الحسب ، واللاتِ لأَمسُك أَيمنُ من يومه ، ولَقَفَاكَ أحسن من وجهه ، وليَسَارك أسمح من يمينه ، ولَوَعْدُك أصلح من رِفدِه ، ولعبيدك أكثر من قومه ، ولاَسْمُك أشهر من قــدره ، ولنفسك أكبر من جده[3] ، وليومك أشرف من دهره ، ثم قال :

أخلاق مجدك جلت ما لها خطر ... في الجود والبأس بين العلم والخبر

مُتَوَّج بالمعـالى فوقَ مَفْرِقِهِ ... وفي الوَغَى ضَيْغَمٌ في صورة القمر

فتهلل وجه النعمان بالسرور ، ثم أمر فَحُشِىَ فُوهُ جوهراً ، ثم قال : بمثل هذا فلتمدح الملوك .

بين النعمان وزيد بن عدي وكسرى

وقد كان النعمان قَتَلَ عدى بن زيد العبادى ، وكان يكتب لـكسرى أبرويز بالعربية ، ويترجم له إذا وفد عليه زعماء العرب ؛ لوجدة وجدها عليه النعمان ، في خبر طويل الشرح ، فلما قتل صار زيد بن عدى ابنه مكان أبيه ، فذكر لأبرويز جمال نساء آل المنذر ، ووصَفَهن له ، فكتب إلى النعمان يأمره أن يبعث إليه بأخته ، فلما قرأ النعمان كتابه ، قال للرسول — وهو زيد بن عدى — : يازيد ، أما لـكسرى في مَهَا السواد كفاية حتى يتخطى إلى العربيات ؟ ! فقال زيد : إنما أراد الملك إكرامك — أبيت اللعن ! — بصهرك ، ولو علم أن ذلك يشق عليك لما فعله ، وسأحسن ذلك عنده ، وأعذرك بما يقبله ، فقال له النعمان : فافعل ،

---

(١) زيادة في ا (٢) في ب «سائد العرب» (٣) في ا «أكرم من جده»

فقد تعرف ما على العرب فى تزويج العجم من الغَضَاضَة والشناعة[١] ، [فلما انصرف إلى كسرى أخبره أنه رغب عنه] فأدى إليه قوله فى مَهَا السواد على أقبح الوجوه ، وَأَوْجَدَهُ عليه ، وقال : ما المها ؟ فقال : البقر ، [فأخذ عليه] وقال : رُبَّ عبد قد صار فى الطغيان إلى أكثر من هذا ، فلما بلغت كلمته [إلى] النعمان تخوَّفه ، خرج هارباً حتى صار إلى طيء ، لصهر كان له فيهم ، ثم خرج من عندهم حتى أتى بنى رَوَاحَة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس ، فقالوا له : أقم معنا فإنا مانعوك مما نمنع منه أنفسنا ، فجزَّاهم الخير ، ورحل عنهم يريد كسرى ليرى فيه رأيه ، وذلك قول زهير بن أبى سُلْمَى :

ألم ترَ للنعمان كَانَ بِنَجْــوَة ... من الدهر لو أن امرأ كَانَ نَاجِيَا
فغير عنــه ملك عشرين حجة ... من الدهر يَوْمٌ واحد كان غَاوِيَا
فلم أر مسلوباً له مثــل ملــكه ... أقَلَّ صديقاً معطياً أو مُوَاسِيَا
خَلاَ أن حَيًّا من رَوَاحَة حافظوا ... وكانوا أُنَاساً يَتَّقُونَ المَخَازِيَا
يسيرون حتى جَيَّشُوا عند بَأْرِهِ ... هِجَانَ المطايا والعتاق المَذَاكِيَا[٢]
فَجَازَاهُمْ خـــيراً وأثنى عليهمُ ... وودَّعهم توديع أنْ لاَ تَلاَقِيَا[٣]

وأقبل النعمان حتى أتى المدائن ، فَصَفَّ له كسرى ثمانية آلاف جارية عليهن المصبغات صفين ، فلما صار النعمان بينهن قلن له : أما فينا للملك غِنًى عن بقر السواد !؟ فعلم النعمان أنه غير ناج منه ، ولقيه زيد بن عدى ، فقال له النعمان : أنت فعلت هذا بى ، لئن تخلصت لأسقينك بكأس أبيك ، فقال له زيد : امض نُعَيْمُ ، فقد أَخَّيْتُ لك أَخِيَّةً لا يقطعها المهر الأَرِنُ ، وأمر كسرى بالنعمان ، فحبس بساباط المدائن ، ثم أمر به فرمى تحت أَرْجُلِ الفِيَلَةِ ، وقال

(١) فى ا « من الفضاحة والبشاعة » .
(٢) فى ا « يسيرون حتى خيموا عند بابه » .
(٣) فى ا « فقال لهم خيراً » وفيها « وودعهم حياً وداع التلاقيا » .

بعضهم : بل مات فى محبسه بساباط ، وقد ذكرت ذلك الشعراء فأكثرت؛ فمن ذلك قول الأعشى وأجاد :

ولا الملك النعمان يَوْمَ لقيته بغبطته يعطى الصكاك ويرفق
[ويجبى إليه المسلمون ، وعنده صريعون فى أنهارها وَالْخَوَرْنَق][1]
ويقسم أمر الناس يَوْماً وليلة وهم ساكتون والمَنِيَّة تنطق
فذاك، وما أنجى من الموت ربه بساباط حتى مات وهو محزرق[2]

وقال هانىء بن مسعود الشيبانى :

إن ذا الناج ، لا أبا لك ، أضحى فى الورى رأسه تخوت الفيول
إن كسرى عدَا على الملك النعمان حتى سقاه مر البليل

[ومما رثى به النعمان :

لم تبكه هند ولا أختها خرقاء ، واستعجم ناعيه
بين فيول الهند تخبطنَهُ مختبطاً تَدْمَى نواحيه] .

وقد كان النعمان حين أراد المضى إلى كسرى [مستسلماً] مر على بنى شيبان فأودعهم سلاحه وعياله عند هانىء بن مسعود (بن هانىء) الشيبانى ، فلما أتى كسرى على النعمان بعث إلى هانىء بن مسعود ، وطالبه بتركته ، فامتنع ، وأبى أن يخفر الذمة ، فكان ذلك السبب الذى أهاج حرب ذى قار ، وقد أتينا على ذلك فى الكتاب الأوسط فأغنى عن إعادته هنا .

بنت النعمان عند سعد ابن أبى وقاص

وقد كانت حرقة بنت النعمان بن المنذر إذا خرجت إلى بِيعَتِها يفرش لها طريقها بالحرير والديباج ، مغشى بالخز والوشى ، ثم تقبل فى جواريها حتى تصل إلى بيعتها ، وترجع إلى منزلها ، فلما هلك النعمان نكبها الزمان ، فأنزلها من الرفعة إلى الذلة ، ولما وفد سعد بن أبى وَقَّاص القادسية أميراً عليها لما هزم الله الفرس وقتل رُسْتُم ، فأتت حرقة بنت النعمان فى حفدة من قومها وجواريها وهن فى زيها عليهن المسوح والمقطعات السود ، مترهبات تطلب صلته ، فلما وقفن بين يديه

(١) هذا البيت لا يوجد فى ا (٢) فى ا « نفسه ... مات وهو مخرق » .

أنكرهن سعد ، فقال : أفيكن حرقة ؟ قالت : ها أنا ذِه ، قال : أنت حرقة ؟ قالت : نعم ، فما تكرارك فى استفهامى ؟ ثم قالت : إن الدنيا دار زوال ، ولا تدوم على حال ، تنتقل بأهلها انتقالا ، وتُعقِبهم بعد حال حالا ، كنا ملوك هذا المصر يُجْبَى لنا خراجه ، ويطيعنا أهله مدى المدة وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى صاح بنا صائح الدهر ، فصدع عصانا وشَتَّت شملنا(١) ، وكذلك الدهر ياسعد، إنه ليس يأتى قوماً بمسرة إلا ويعقبهم بحسرة ، ثم أنشأت تقول :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة ليس نعرف(٢)

فأفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف

[فقال سعد : قاتل الله عدى بن زيد ، كأنه ينظر إليها حيث يقول :

إنّ للدهر صولة فاحْذَرَنْهَا لا تبيتنَّ قد أمنت الدهورا

قد يبيت الفتى مُعَافًى فيردى ولقد كان آمناً مسرورا](٣)

قال : فبيناهى واقفة بين يدى سعد إذ دخل عمرو بن معديكرب ، وكان زَوَّاراً لأبيها فى الجاهلية ، فلما نظر إليها قال : أنت حرقة ؟ قالت : نعم ، قال : فما دَهَمَكِ فأذهب محمودات شيمك ، وأين تتابع نعمتك وسطوات نقمتك ؟ فقالت : يا عمرو ، إن للدهر [لسطوات و] عثرات وعبرات ، تعثر بالملوك وأبنائهم ، فتخفضهم بعد رفعة ، وتفردهم بعد منعة ، وتذلهم بعد عزة ، إن هذا لأمر كنا ننتظره ، فلما حل بنا لم ننكره ، قال : فأكرمها سعد ، وأحسن جائزتها ، فلما أرادت فراقه قالت : حتى أحييك بتحية(٤) ملوكنا بعضهم لبعض ، لا نَزَعَ الله من عبد صالح نعمة إلا جعلك سبباً لردها عليه !

---

(١) فى ا « وشتت ملأنا » .

(٢) كذا فى ب وحفظى « إذا نحن فيهم سوقة نتنصف » ، وكذلك هو فى ا .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ا . (٤) فى ب « حى أختك بتحية » محرفا .

ثم خرجت من عنده فلقيها نساء المدينة ، فقلن لها : ما فعل بك الأمير ؟ قالت : [حاط لى ذمتى ، و] أكرم وجهى ، إنما يكرم الكريمَ الكريمُ .

[وسنذكر خبر هند بنت النعمان مع المغيرة بن شعبة أيام إمرته على الكوفة، فيما يرد من هذا الكتاب ، عند ذكرنا لأخبار معاوية بن أبى سفيان] .

قال أبو الحسن على بن الحسين المسعودى : فهؤلاء ملوك الحيرة إلى أن ظهر الإسلام ، فأظهره الله ، وأذل الكافرين ، فجميع من سَمَّينا من هؤلاء الملوك من ولد عمرو بن عدى بن أخت جذيمة الأبرش، على حسب ما قدمنا آنفاً فى صدر هذا الباب ، ثم جاء الإسلام وملكُ الفرس كسرى أبرويز بن هرمز، فملّكَ على العرب بالحيرة إياسَ بن قَبيصة الطائى ، فكان ملكه تسع سنين ، ولثمانية أشهر[1] ، مَضَتْ من ملك إياس ، كان مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ملك الحيرة جماعة من الفرس ، وقد كان قبل عمرو بن عدى ملوك على الحيرة على حسب ما ذكرنا ، وكان عدة الملوك بالحيرة ثلاثة وعشرين ملكا من بنى نصر وغيرهم من العرب والفرس ، وكان مدة ملكهم ستمائة سنة واثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر ، وقد قيل : إن عُمْرَان الحيرة وبدوه إلى أن خربت فى وقت بناء الكوفة ، كان خمسمائة سنة وبضعاً وثلاثين سنة[2] .

خراب الحيرة

قال المسعودى : ولم يزل عُمْرانها يتناقص من الوقت الذى ذكرنا إلى صدر من أيام المعتضد ، فإنه استولى عليها الخراب ، وقد كان جماعة من خلفاء بنى العباس ـ كالسفاح ، والمنصور ، والرشيد ، وغيرهم ـ ينزلونها وَيَصِلُون[3] المقام بها لطيب هوائها ، وصفاء جوهرها ، وصحة تربتها ، وصلابتها ، وقرب الخورنق ، والنجف[4] منها ؛ وقد كان فيها ديارات كثيرة فيها رهبان ،

---

(١) فى ا « ولست سنين وثمانية أشهر » . (٢) فى ا « كان خمسمائة سنة ونيفا » .

(٣) فى ا « ويطيلون المقام بها » وفى ب «ويتطلبون المقام بها » .

(٤) كذا فى ا ، وفى ب « النجف » .

فلحقوا بغيرها من البلاد ، لتداعى الخراب إليها ، وأقفرت [من كل أنيس] فى هذا الوقت [ليس بها] إلا الصَّدَى والبُومُ ، وعند كثير من أهل الدراية [التامة] بما يحدث فى المستقبل من الزمان : أن سَعدها سيعود بالعمران ، وأن هذا النحس عنها سيزول ؛ وكذلك الكوفة .

قال المسعودى : ولمن سمينا من ملوك الحيره أخبار . وسير وحروب قد أتينا على ذكرها وَالغُرَرِ من مبسوطها فى كتابنا « أخبار الزمان » ، [وفيما بعد من هذا الكتاب] فأغنى ذلك عن إعادته [فى هذا الباب] .

ذكر ملوك الشام من اليمن ، من غسان وغيرهم [من الملوك]

أول ملوك الشام

كان أول من ملك الشام من اليمن فالغ بن يغور[1] .

ثم ملك بعده يوتاب[2] ، وهو أيوب بن رزاح[3] ، وقد ذكر الله عز وجل فى كتابه ما كان من خبره على لسان نبيه ، وما اقتص من أمره ، ثم غلبت الروم[4] على ديارها ، فتفرقوا فى البلاد ، وكانت قُضَاعة بن مالك بن حمير أول من نزل الشام ، وانضافوا إلى ملوك الروم ، فملكوهم بعد أن دخلوا فى النصرانية على من حوى الشام من العرب .

تنوخ ونسبها

وكان أول من ملك من تَنُوخَ النعمان بن عمرو بن مالك ، ثم ملك بعده عمرو بن النعمان بن عمرو ، ثم ملك بعده الحوارى بن النعمان ، ولم يملك من تَنُوخ إلا من ذكرنا ، وهو تَنُوخ بن مالك بن فَهْم بن تَيْم اللات بن الأزد بن وَبْرة بن ثعلبة بن حلوان [بن عمران] بن إلحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير .

وقد تنوزع فى قضاعة : أمن معد كان أم من قحطان ؟ فقضاعة تأبى أن تكون من معدّ ، وتزعم أنها من قَحْطَان ، على ما ذكرنا .

وقد قيل فى نسب قضاعة واتصالها بحمير غير ما ذكرنا من النسب .

سليح ونسبها

ثم وردت سليح الشام فغلبت على تَنُوخَ ، وتنصرت فملكتها الروم على العرب الذين بالشام ، [وهم ولد سليح بن حلوان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة ، فاستقام ملك سليح بالشام] وتفرقت قبائل العرب لما كان بمأرب وقصة عمرو بن عامر مزيقياء ؛ فسارت غسان إلى الشام وهم من ولد مازن ، وذلك أن الأزد بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ولد مازن ، وإليه ترجع جميع قبائل غسان ، وإنما غسان ماء شربوا منه فسموا بذلك [وهو ما بين زبيد ورمع، وادى الأشعريين بأرض اليمن] وفى ذلك يقول حسان بن ثابت الأنصارى :

مازن

(١) فى ب « فالغ بن هور » (٢) فى ب « سومات »
(٣) فى ا « بن زراح » (٤) فى ا « ثم غلبت اليمن على ديارها »

إمَّا سألتِ فإنَّا معشر نُجُبٌ الأزد نسبتُنا ، وَالمَاء غسَّانُ

وسنذكر بعد هذا الوضع خبر عمرو بن عامر مزيقياء ، وخبر سيل العَرِم ، ونفرقهم فى البلاد ، وخبر الماء المعروف بغَسَّان ، وقد ذكر أن عمرو بن عامر حين خرج من مأرب لم يزل مقيما على هذا الماء إلى أن أدركه الموت ، وكان عمره ثمانمائة سنة : أربعمائة سوقةً ، وأربعمائة ملكا .

ملوك غسان على الشام

وغلبت غسان على من بالشام من العرب ، فملَّكها الرومُ على العرب ، فكان أول من ملك من ملوك غسان بالشام : الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة ابن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن[1] ، وهو غسان بن الأزد بن الغوث .

ثم ملك بعده الحارث بن ثعلبة [بن جَفْنَة][2] بن عمرو [بن عامر بن حارثة] وأمه مارية ذات القُرْطَين بنت أرقم بن ثعلبة بن جَفْنَة بن عمرو ، وذكر أنها مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية بن ثور وهو كندة[3] ، وهى التى ذكرتها الشعراء فى أشعارها ، وتنسب جماعة من ملوك غسان إليها .

وملك بعده النعمان بن الحارث بن جَبَلَة بن الحارث بن ثعلبة بن جَفْنَة بن عمرو .

[ثم ملك بعده المنذر أبو شمر بن الحارث بن جَبَلَة بن ثعلبة بن جَفْنَة بن عمرو .

ثم ملك بعده عوف بن أبى شمر .

ثم ملك بعده الحارث بن أبى شمر] فكان ملكه حين بُعِثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حسان والحارث الغسانى

وذكر عدة من الأخباريين أن حسان بن ثابت الأنصارى زار الحارث بن أبى شمر الغسانى بالشام ــ وكان النعمان بن المنذر اللخمى [ملك الحيرة] يُسَامِيه ــ فقال له وهو عنده : يابن الفُرَيْعة ، لقد نبئت أنك تفضل النعمان علىَّ ، فقال : وكيف أفضله عليك ! ! فوالله لقفاك أحسَنُ من وجهه[4] ،

(١) فى ب « ماس بن غسان » محرفاً (٢) سقط ما بين المعقوفين من ا
(٣) فى ب « ثور بن كندة » (٤) انظر ص ١٠٠ السابقة

ولأمك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من جميع قومه ، ولَشِمَالُكَ أجود من يمينه ، ولحرمانك أنفع من نَدَاه ، ولقليلك أكثر من كثيره ، ولثمادك أمْرَعُ من غديره ، ولكرسيك أرفع من سريره ، وَلَجَدَاوِلُكَ أغور من بحره[1] ، وليومك أطول من شهره ، ولشهرك أمَدُّ من حوله ، ولحولُكَ خير من حِقَبِه ، ولزندك أورى من زنده ، ولجندك أعز من جنده ، وإنك من غسَّان وإنه من لَخْم ، فكيف أفضله عليك أو أعدله بك ؟؟ فقال : يابن الفُرَيْعَة ، هذا لا يسمع إلا فى شعر ، فقال :

ونبئت أن أبا منـــذر يساميك للحارث الأصغر
قفاؤك أحسن من وجهــه وأمك خـــير من المنذر[2]
وَيُسْرَى يديك على عُسْرِهَا كيمنى يديه على المعسر

جبلة بن الأيهم

ثم ملك بعده جَبَلَة بن الأيهم بن جَبَلَة بن الحارث بن ثعلبة بن جَفْنَة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن [مازن ، وهو غسان بن] الأزد بن الغوث ، وهو الملك الذى امتدحه حسان بن ثابت الأنصارى ، حيث يقول فى شعر طويل :

أشْهِرَنْهَا فإنَّ ملكاك بالشا م إلى الروم فخر كل يمانى

وفيه يقول أيضاً :

لمن الدار أقفـــرت بمعان بين أعلى اليرموك وَالصَّمَّان
من قريات من ثلاثين عدت ناسكا منـــه بالقصور الدوانى
قد دَنَا الفِصْحُ والولائد ينظمـــنَ سراعاً أكِلَّة المرجان
ذاك مغنى لآل جَفْنَة فى الدهـ ر ، وحقاً تصرف الأزمان
صَلَوَاتُ المسيح فى ذلك الديـ ر دعاء القسيس والرهبان

---

(١) فى ا « أغزر من بحوره »

(٢) فى ب «قفاك» ووزن البيت عليه لا يستقيم ، ومد المقصور يقع فى الشعر

وهذه مواضع وقرى من غوطَة دمشق وأعمالها بين الجولان واليرموك .

وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان وغيرها ، من غُوطَة دمشق منازل غسان وأعمالها ، ومنهم من نزل الأردن من أرض الشام .

وَجَبَلَة [بن الأيهم] هو الذى أسلم وارتدَّ عن دينه خوف العار وَالقَوَدِ من اللَّطْمَة ، وخبره واضح مشهور ، قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا ، وسائر أخبار ملوك تَنُوخ وسليح [وغسان] وغيرهم ممن ملك الشام ، ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم الحارث بن أبى شمر الغسانى إلى الإسلام وترغيبه فى الإيمان ، وقد أتينا على خبره وما كان من أمر إسلامه وأخباره مع النبي صلى الله عليه وسلم فى كتابنا « أخبار الزمان » ، وفى أبيه يقول النابغة :

هذا غُلامٌ حسنٌ وَجْهُهُ ... مستقبل الخير سريع التَّمَام
للحارث الأكبر والحارث الأصغر ، والحارث خير الأنام
ثم لهند ولهند ، وقد ... أسرع فى الخيرات منه أمام
وخمسة آباؤهم ما هم ... أكرم مَنْ يشرب صَوْبَ الغمام

فجميع من ملك من ملوك غسان بالشام أحد شر ملكا ، وقد كان بالشام ملوك ببلاد مأدب[1] من أرض البلقاء من بلاد دمشق ، وكذلك مدائن قوم لوط من أرض الأردن وبلاد فلسطين ، وكانت خمس مدن ، وكانت دار المملكة منها ، والمدينة العظمى مدينة سَدُوم ، وكانت سمة كل ملك يملكها بارعاً[2] ، وكذلك ذكر فى التوراة ، وذكرت أسماء هذه المدن ، أعرضنا عنه ؛ إذ كان فيه خروج عن شرط الاختصار .

(١) فى ب « مأرب » وليس بذاك
(٢) فى ب « قارعا »

وقد كان لكندة وغيرها من العرب من قحطان وَمَعَدٍّ ملوك كثيرة لم نتعرض لذكرها ؛ إذ كان لا أسماء لهم تعمهم وتشهرهم ، كقولنا الخليفة وقيصر وكسرى والنجاشى ، ولئلا يطول الكتاب بذكرهم .

وقد أتينا على سائر ملوك العرب من معد وقحطان وغيرهم ممن وسم بالملك فى بعض الممالك فى سائر الأمم الخالية ، والممالك الباقية ، من البيضان والسودان ، ممن أمكن ذكره وتأتّى لنا الإخبار عنه ، وإنما ذكرنا فى هذا الكتاب من الملوك من اشتهر ملكه ، وعرفت مملكته ميلا إلى الاختصار ، وطلباً للإيجاز ، وتنبيهاً على ما سلف من أخبارهم فى كتبنا المتقدم ذكرها من تصنيفنا ، والله الموفق .

ذكر البوادى من العرب ، وغيرها من الأمم

وعلة سكناها البَدْوَ ، وجمل من أخبار العرب

وغير ذلك مما اتصل بهذا المعنى

قد تقدم ذكرنا لولد قَحْطَان ، وأن مَنْ عداهم من العرب العاربة دَثَرَت من عاد وطسم وجديس وعملاق وجرهم وثمود وعبيل ووبار ، وسائر من سمينا ، وأن مَنْ بقى ممن ذكرنا دخلوا فى العرب الباقية إلى هذا الوقت ، وهم قحطان ، ومعد ، ولا نعلم أن قبيلا بقى يشار إليه فى الأرض من العرب الأولى غير معد وقحطان ، وذكرنا مَنْ طاف البلاد من [ملوكهم ، مثل] التبابعة والأذواء ، ومن شَيَّد البنيان فى الشرق والغرب ، وَمَصَّرَ الأمصار ، وبنى المدن الكبار ، كإفريقس بن أبرهة ، وما بنى بالمغرب من المدن كمدينة إفريقية وصقلية ، وما كَوَّر من الكُوَر هنالك ، وما اتخذ من العمائر ، وكسير شمر إلى أرض المشرق ، وبنيانه سمرقند ، ومن خلف هنالك من حمير بها ، وببلاد التبت والصين ، وقد ذكر ذلك جماعة من شعرائهم ممن سلف وخلف .

بين دعبل والكميت

وقد افتخر دِعْبِل بن على الخزاعى فى قصيدته التى يردُّ فيها على الكُمَيْت ، وفخر دِعْبِل بمن سلف من ملوكهم ومسيرهم فى الأرض [1] ، [وأن لهم من الفضل ما ليس لمعد بن عدنان ، فقال فى شعره :

هُمُو كتبوا الكتاب بباب مَرْوٍ ... وباب الصين كانوا الكاتبينا

وهم جمعوا الجموع بسمرقند ... وهم غرسوا هناك التبتينا] [2]

(١) فى ب « وسير فى الأرض »

(٢) زيادة عن ب وحدها . ووقع فى ا مكانه « وقد ذكرنا طرفاً من قوله ذلك فيما تقدم من هذا الكتاب »

وقد كان لليمن ملوك لا يدعون بالتبابعة ، ممن تقدم وتأخَّر منهم ، حتى ينقاد إلى ملكه أهل الشِّحْر وحضرموت ، فحينئذ يستحق أن يسمى تبّعا ، ومن تخلف عن ملكه من ذكرنا سمى ملكا ، ولم يطلق عليه اسم تُبَّع ، وقد قال الله عز وجل فى قصة قريش وتفاخرها بقوتها وعددها : (أهم خير أم قوم تبع - الآية) حين دخل الحرمَ فبعث الله عليه الظلة ، وإنما سمى تبعاً بمن تبعه ، وكذلك حكى عن عبد الله بن العباس .

بين تبع وقباد ملك الطوائف

وقد كان تبع أبو كرب سار فى الأرض ، ووطىء الممالك وذللها ، ووطىء أرض العراق فى مُلك الطوائف ، وعميد الطوائف حينئذ جوذر بن سابور ، فلقى أبو كرب ملكا من الطوائف يقال له قباد ، وليس بقباد بن فيروز من الساسانية ، فانهزم قباد ، وأتى تبع أبو كرب على ملكه ، وملك العراق والشام والحجاز وكثيراً من الشرق .

وفى ذلك يقول تبع ويذكر ما صنع :

[وَرَدَ الملكَ تُبَّع وبنوه وَرِثُوهم جدودهم والجدودا][1]
إذ جَنَبْنَا جيادنا من ظفار ثم سرنا بها مسيراً بعيدا[2]
فاستبحنا بالخيل ملك قباد وابن أقلود قائماً مصفودا[3]
فكسونا البيت الذى حرم الله مُلاَءً مُقَصَّباً وَبُرُودا
وأقمنا به من الشهر عشرا وجعلنا لبابه إقليدا[4]
[ثم طفنا بالبيت سبعاً وسبعا وسجدنا عند المقام سجودا][1]

وقال أيضاً فيه :

لَسْتُ بالتُّبع اليمانىِّ إن لم تركضِ الخيل فى سَوَاد العراق
وتؤدِّى ربيعة الخَرْج قَسْرا أو تعقنى عوائق العواق

وقد كانت لنزار بن معد معه وقائع وحروب كثيرة ، واجتمعت عليه معد بن

(١) هذا البيت ساقط من ا (٢) فى ب « إذ جبينا جيادنا من ظفار »
(٣) فى ا « وابن أفلوذ جاءنى مصفوداً » (٤) فى ب « وجعلنا لنابه إقليداً »

ربيعة ومضر وإياد وأنمار ، وتداعت بجدها نزار ، وتواهبت ما كان بينها من الدماء والثأر[١] ، فكانت لهم عليه ؛ فنى ذلك يقول أبو دُوَاد الإيادى :

ضَرَبْنَا على تُبَّع جزية جيادَ البرود وخَرْجَ الذهب[٢]

وولّى أبو كرب هاربا وكان جبانا كثير الرَّهَبْ[٣]

[وأتبعه فَهَوَى للجبين وكان العزيز بها مَنْ غلب][٤]

وقد ذكرنا فى الكتاب الأوسط[٥] بدء النسب من إبراهيم عليه الصلاة والسلام وولد إسماعيل وتفرق النسب[٦] إلى نزار بن معد [وتشعب الناس من نزار بن معد] بن عدنان ، فلنذكر الآن فى هذا الموضع خبر ولد نزار الأربعة مع الأفعى بن الأفعى الجرهمى ، ثم نعقب ذلك بما إليه قصدنا فى هذا الباب من هذا الكتاب ، من علة سكنى البوادى من العرب البدو وغيرهم ممن سكن الجبال والأودية [وسائر البرارى] والقِفَار .

أولاد نزار ابن معد

ذكر عدة من [رواة] أخبار العرب أن نزار بن معد ولد أربعة أولاد: إيادا، وبه كان يكنى، وأنمارا ــ وبَجِيلة وخَثْعَم من ولده على ما قيل، إذ كان فيما ذكرنا تنازع لأن من الناس من ألحقهم باليمن ، ومن الناس من ذكر فيهم ما وصفنا أنهم من ولد أنمار بن نزار ــ وربيعة، ومُضَر ، فلما حضرت نزاراً الوفاة دعا بنيه ودعا بجارية له شَمْطاء ، فقال لإياد : هذه الجارية وما أشبهها من مالى فلك ، ثم أخذ بيد مُضَر[٧] فأدخله قبة له حمراء من أَدَمٍ ، ثم قال : هذه القبة وما أشبهها من مالى فلك ، ثم أخذ بيد ربيعة وقال له: هذا الفرس الأدْهَمُ والخِبَاء الأسود وما أشبههما من مالى فلك ، ثم أخذ بيد أنمار وقال له : هذه البَدْرَة والمجلس وما أشبههما من مالى فلك ، فإن أشكلت عليكم هذه القسمة فأتُوا الأفعى بن الأفعى الجرهمى

(١) فى ا «من الدماء والطوائل» (٢) فى ب «على تبع حربه حبال البرود
(٣) فى ا «كثير الكذب» (٤) لا يوجد هذا البيت فى ا
(٥) فى ب «وقد ذكرنا فيما بعد» (٦) فى ا «وتفرع النسب»
(٧) تتقدم بعض هذه العبارات وتتأخر فى بعض النسخ .

ـ وكان ملك نجْران ـ حتى يقسم بينكم وَتراضوا بقسمته، فلم يلبث نزار إلا قليلا حتى هلك ، وأشكلت القسمة على ولده، فركبوا رواحلهم ثم قصدوا نحو الأفعى، حتى إذا كانوا منه على يوم وليلة من أرض نجران ، وهم فى مَفَازة ، إذا هم بأثر بعير فقال إياد : إن هذا البعير الذى تَرَوْنَ أثره أعور ، فقال أنمار : وإنه لأبتر ، قال ربيعة : وإنه لأزْوَرُ ، قال مضر : وإنه لشَرود ، فلم يلبثوا أن رفع إليهم راكب تُوضِعُ به راحلته ، فلما غشيهم قال لهم : هل رأيتم من بعير ضال فى وجوهكم[1] ؟ قال إياد [أ كان] بعيرك أعور ؟ قال : فإنه لأعور ، قال أنمار : [أ كان] بعيرك أبتر ؟ قال : فإنه لأبتر ، قال ربيعة : [أ كان] بعيرك أزور ؟ قال : فإنه لأزور ، قال مضر : أ كان بعيرك شروداً ، قال : إنه لشرود ، ثم قال لهم : فأين بعيرى ؟ دُلُّونى عليه ، قالوا : والله ما أحسسنا لك ببعير ولا رأيناه ، قال : أنتم أصحاب بعيرى وما أخطأتم من نعته شيئاً ، قالوا : ما رأينا [لك] بعيرا ، فتبعهم حتى قدموا نجران ، فلما أناخوا بباب الأفعى استأذنوا عليه ، فأذن لهم ، فدخلوا ، وصاح الرجل من وراء الباب : أيها الملك ، هؤلاء أخذوا بعيرى ثم حلفوا أنهم ما رأوه ، فدعا به الأفعى فقال : ما تقول ؟ فقال : أيها الملك ، هؤلاء ذهبوا ببعيرى وهم أصحابه ، فقال لهم الأفعى : ما تقولون ؟ قالوا : رأينا فى سفرنا هذا إليك أثَرَ بعير ، فقال إياد : إنه لأعور ، قال : وما يدريك أنه أعور ؟ قال : رأيته مجتهداً فى رَعْى الكلأ من شق قد لحسه والشق الآخر وافٍ كثير الالتفاف لم يمسه فقلت : إنه أعور[2] ، وقال أنمار : رأيته يرمى ببعره مجتمعا ولو كان أهلب أصَعَ به فعلمت أنه أبتر ، وقال ربيعة : رأيت أثر إحدى يديه ثابتاً والآخر فاسداً فعلمت أنه أزْوَر ، وقال مضر : رأيته يرعى الشقة من الأرض ثم يتعدّاها فيمر بالكلأ الملتفّ الغض فلا ينهش منه[3] حتى يأتى ما هو أرق منه ، فيرعى فيه ، فعلمت أنه شَرُود ، فقال الأفعى : صدقوا[4] ، قد أصابوا أثر بعيرك وليسوا بأصحابه ، التمس بعيرك

قصتهم مع الأفعى الجرهمى

---

(١) فى ا « فى وجهكم هذا » (٢) فى ا « فعلمت أنه أعور »
(٣) فى ب « فلا ينعش منه » (٤) فى ب « صدقتم » .

ثم قال الأفعى للقوم: من أنتم؟ فأخبروه بحالهم، وانتسبوا [إليه] فرحَّبَ بهم وحياهم ثم قال: ماخطبكم؟ فقصوا عليه قصة أبيهم، قال الأفعى: وكيف تحتاجون إلىَّ وأنتم على ماأرى؟ قالوا: أمرنا بذلك أبونا، ثم أمرهم فأنزلوا، وأمر خادماً له على دار الضيافة أن يحسن إليهم ويكرم مَثْوَاهم وإلطافهم[1] بأفضل مايقدر عليه ثم أمر وصيفاله من بعض خدمه ظريفاً أديباً، فقال [له]: انظر كل كلمة تخرج من أفواههم فأتنِي بها، فلما نزلوا بيت الضيافة أتاهم القَهْرَمَانُ بقرص من شهد فأكلوا وقالوا: مارأينا شهداً أعذب ولاأحسن ولاأشد حلاوةمنه، فقال إياد: صدقتم لولاأن نحله [ألقاهُ] فى هامة جبَّار، فوعاها الغلام، فلماحضر غداؤهم وجىء بالشواء فإذا بشاة مَشْوِية فأكلوها وقالوا: مارأينا شواء أجود [شيًّا] ولاأرخص لحماً ولا أسمن منه، فقال أنمار: صدقتم لولا أنه غُذى بلبن كلبة. ثم جاءهم بالشراب فلما شربوا قالوا: مارأينا خمراً أرق ولاأعذب ولاأصفى ولاأطيب رائحةمنه، فقال ربيعة: صدقتم لولا أن كرمها نَبتَ على قبر. ثم قالوا: مارأينا منزلا أكرم قرى ولاأخصب رَحْلا[2] من هذا الملك. قال مضر: صدقتم لولا أنه لغير أبيه. فذهب الغلام إلى الأفعى فأخبره بما كان منهم، فدخل الأفعى على أمه، فقال: أقسمت عليك إلا [ما] أخبرتنى من أناومن أبى، فقالت: يابنى، ومادعاك إلى هذا؟ أنت ابن الأفعى الملك الأكبر، قال: حقا لتصدقنى، فلما ألحّ عليها قالت: يابنى إن أباك الأفعى الذى تُدْعَى له كان شيخاً قد أثقل، فخشيت أن يخرج هذا الملك عنا أهل البيت، وقد كان قدم إلينا شاب من أبناء الملوك، فدعوته إلى نفسى، فعلقْتُ بك منه، ثم بعث إلى القهرمان، فقال: أخبرنى عن الشهد الذى بعثت به إلى هؤلاء النفر[3] ماخطبه؟ قال: إنا أخبرنا بدَبْر فى طف[4].

(١) فى ا « ويلطفهم بأكثرمايقدر عليه » .

(٢) فى ب « أخصب رجلا » (٣) فى ا « قدمته إلى هؤلاء السفر ».

(٤) الدبر — بفتح فسكون — جماعة النحل .

فبعثت إليه من يَشُورُه ، فأخبرونى أنهم هجموا على عظام نخرة منكرة[١] فى ذلك الطف ، فإذا النحل قد عسلت فى جمجمة من تلك العظام ، فأتوا بعسل لم أَر مثله فقدمته إلى القوم لجودنه، ثم بعث إلى صاحب مائدته فقال: ماهذه الشاة التى شَوَيْتها لهؤلاء القوم ؟ قال : إنى بعثت إلى الراعى أن ابعث إلى بأحسن شاة عندك ، فبعثَ بها إلى ، وما سألته عنها ، فبعث إلى الراعى أن أعلمنى خبر هذه الشاة ، قال : إنها أول ما ولدت من غنمى عام أول ، فمانت أمها ، فبقيت ، وكانت كلبة لى قد وضعت فأنست السَّخْلة بِجِرَاء الكلبة ، فكانت ترضع من الكلبة مع جِرَائها ، فلم أجد فى غنمى مثلها ، فبعثت بها إليك ، ثم بعث إلى صاحب الشراب ، فقال : ما هذا الخمر الذى سقيت لهؤلاء القوم ؟ قال : من حبة كَرْم [نبتت] غرستها[٢] على قبر أبيك ، فليس فى العرب مثل شرابها ، فقال الأفعى : ما هؤلاء القوم ؟ إنْ هُمْ إلا شياطين ، ثم أحضرهم فقال : ما خطبكم ؟ قُصُّوا على قصتكم ، فقال إياد : إن أبى جعل لى خادما شمطاء وماأشبهها من ماله ، فقال : إن أباك ترك غنما بَرْشَاء[٣] فهى لك ورعاؤها مع الخادم، قال أنمار: إن أبى جعل لى بدرة ومجلسه وماأشبههما من ماله، قال: فلك ما ترك أبوك من الرِّقَة[٤] والحرث والأرض ، فقال ربيعة : إن أبى جعل لى فرسا أدهم وبيتا أسود وما أشبههما من ماله، قال: فإن أباك ترك خيلا دُهْماً وسلاحا فهى لك ومافيها من عبيد ، فسمى ربيعة الفرس ، فقال مضر : إن أبى جعل لى قبة حمراء من أَدَم وماأشبههما من

---

(١) فى ا « مكثرة فى ذلك الطف » (٢) فى ب « من جنة كرم » .

(٣) فى ب « نقدا » والنقد ـ بالتحريك ـ جنس من الغنم، وكان قد قضى لإياد بالخادم والماشية البلق فسمى إياد الشمطاء ، وانظر (مجمع الأمثال : ١/١٤ بولاق) (المثل ٣٢ فى ١/١٥ بتحقيقنا) وكان فى ب « إن أباك ترك برسا فهى لك ورعاولها مع الخادم» وهو كلام كما ترى ... ليس له محصول من المعنى .

(٤) الرقة : الفضة .

ماله ، فقال : إن أباك ترك إبلا حمراء فهى لك وما أشبهها من ماله، فصارت لمضر الإبل والقبة الحمراء ، والذهب ، فسمى مضر الحمراء ، وكانوا على ذلك مع أخوالهم جرهم بمكة فأصابتهم سنة أهلكت الشاء وعامة الإبل، وبقيت الخيل، وكان ربيعة يغزو عليها ويَصِلُ إخوته[1] ، وذهب ما كان لأنمار من شاء فى تلك السنين ، ثم عاود الناس الخصب والغيث ، فرجعت الإبل وثابت إليها أنفسها ومشت[2] ، فتناسلت وكثرت وقام مضر بأمر إخوته، فبينماهم كذلك وقد قدم الرعاء بإبلهم فتعشوا ليلا وعشوا رعاءهم فقام مضر يوصى الرعاء وفى يد أنمار عظم بتعَرَّقُهُ فرمى به فى ظلمة الليل وهو لا يبصر فأوتد فى عين مضر وفقأها [فتأوه مضر] وصاح: عينى ، عينى، وتشاغل به إخوته ، فركب أنمار بعيراً من كرائم إبله، فلحق بديار اليمن ، وكان بين إخوته ما ذكرنا من التنازع .

فهؤلاء ولد نزار الأربعة : إليهم يرجع سائر ولد نزار على حسب ماقدّمنا أن مضر الحمراء لما ذكرنا من أمر القبة ، وبذلك تفتخر مضر فى كلامها من المنثور والمنظوم ، وربيعة الفرس وربيعة القشعم من الفروسية والشجاعة والنجدة والعز[3] وشن الغارات لما ذكرنا من أمر الفرَس ، وإياد وقد ذكرنا ما لحق عقبه ، وأنمار وقد بينا الخلاف فى تفرع نسله وما قاله النسابون فى عقبه .

ولكل واحد من هؤلاء ومن أعقب أخبار كثيرة يطول ذكرها ، ويتسع شرحها : من ذكر ماحلوا به من الديار، وتشعب أنسابهم وتناسلها، قد أتى الناس على ذكرها ، وقد قدمنا فيما سلف من كتبنا اليسير من مبسوطها؛ فمنعنا ذلك من إعادته فى هذا الكتاب .

فلنذكر الآن الغرض من هذا الباب الذى به ترجم ، وإليه نسب ، من

---

(١) فى ا « ويعيل إخوته » (٢) فى ا « وثارت إليها أنفسها وسمنت » .
(٣) فى ا « والغزو وشن الغارات » .

سكنى مَنْ حلَّ البَدْوَ من العرب وغيرها من الأمم المتوحشة كالترك والكرد والبجة والبربر ، ومن تقطن بالبرارى[١] وقَطَنَ الجبال ، والعلة الموجبة لذلك من فعلهم .

علة سكنى البدو

تباين الناس فى السبب الموجب لما وصفنا ، فذهب كثير من الناس إلى أن الجيل الأول ممن سكن الأرض مكثوا حيناً من الزمان لم يبنوا بناء ، ولا شيدوا مُدُناً ، وكان سكناهم فى شبه الأكواخ والمظال ، ثم إن نفراً منها أخذوا فى ابتناء المساكن ، وَخَلَفَ من بعدهم [خلف] فابتنوا الأبنية ، وثبتت فرقة منهم على سجيتها الأولى فى البيوت والأظلال ينتجعون الأماكن الرفهة الخصبة ، وينتقلون عنها إذا أجدبت ، فمضت هذه الطائفة على نهج الأقدمين .

وذكرت طائفة أن أول ذلك أن الناس لما نَضَبَ عنهم الطوفان الذى أهلك الله به الأرض فى زمن نوح على نبينا وعليه السلام تفرق من نجا فى طلب البقاع الخصبة المتخيرة ، وانفرد من انفرد بانتجاع الأرضين وحلول البيداء ، و[استوطن آخرون بقاعا تخيروها ، كمن ابتنى إقليم بابل من النبط ، ومن حله[٢] من ولد حام بن نوح عليه السلام مع نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن نمروذ الأول بن كوش بن حام ابن نوح ، وذلك حين تملك على إقليم بابل من قبل الضحاك ، وهو بيوراسف[٣] وكمن حَلَّ بلاد مصر من ولد حام على حسب ما ذكرنا فى باب مصر وأخباره [فى هذا الكتاب] وكمن عمر الشام من الكنعانيين ، وكمن حَلَّ بوادى البربر وهم هوارة وزناتة وضريسة ومغيلة وورفجومة ونفزة[٤] وكتامة ولواتة

(١) فى ا « ومن تبطن البرارى » .
(٢) فى ب « ومن سلم من ولد حام » .
(٣) فى ب « وهو بنوراست » .
(٤) فى هذه الأسماء اختلاف كثير ، واخترنا ما فى ا .

ومزانة ونفوسة ولفظه وصدينة ومصمودة وزنارة وغمارة وقالة ووارقة وأتيتة وبابه وبنو سبخون وأركنة وهى من زنانة وبنو كلان وبنو مصدريان وبنو أفباس وزيحن وبنو منهوسا وصنهاجة ، ومن سكن من أنواع الأحابيش وغيرهم الغابة المعروفة بغابة العافريم سون ورعوين والعورفة ويكسوم ، ومنهم من سكن غير الغابة واتسع فى هذه البلاد من المغرب .

وقد ذكرنا أن أرض البربر خاصة كانت أرض فلسطين من بلاد الشام ، وأن ملكهم كان جالوت ، وهذا الاسم سمة لسائر ملوكهم ، إلى أن قتل داود عليه الصلاة والسلام ملكهم جالوت ، فلم يتملك عليهم بعده ملك ، وأنهم انتهوا إلى ديار المغرب إلى موضع يعرف بلوبية [ومرافية] ، فانتشروا هنالك ، فنزل منهم زنانة ومغيلة وضريسة الجبال من تلك الديار وتبطنوا الأودية ، ونزلوا أرض برقة ، ونزلت هوارة بلاد إياس وهى بلاد طرابلس المغرب أى الثلاث المدن ، وقد كانت هذه الديار للافرنجة والروم ، فانجلوا عن البربر حين أوطنوا أرضهم إلى جزائر البحر الرومى فسكن الأكثر منهم جزيرة صقلية ، وتفرقت البربر ببلاد إفريقية وأقاصى بلاد المغرب من نحو من مسافة ألفى ميل ، [وانتهوا إلى موضع يعرف بقبوسة ، على أكثر من ألفى ميل] من بلاد القيروان ، وتراجعت الروم والإفرنجة إلى مدنهم [وعمائرهم] وذلك على موادعة وصلح من البربر ، واختارت البربر سكنى الجبال والأودية والرمال والدهاس وأطراف البرارى والقفار .

ومن بحر إفريقية وصقلية يخرج المرجان ، وهو المتصل ببحر الظلمات المعروف ببحر أقيانس ، وغير هؤلاء ممن ذكرنا (من الأمم) ممن سكن قطع الأرض وابتنى المدائن شرقا وغربا .

ورأت العرب أن جولان الأرض وتخير بقاعها على الأيام أشبه بأولى العز وأليق بذوى الأنفة ، وقالوا : لنكون[1] محكمين فى الأرض [و]نسكن حيث نشاء أصلح من غير ذلك ، فاختاروا سكنى البدو ، من أجل ذلك .

(١) كذا ، ولعل الأصل « لأن نكون » .

وذكر آخرون أن القدماء من العرب لما ركبهم الله من سمو الأخطار [١]، ونبل الهمم والأقدار ، وشدة الأنَفَة ، والحمية من المعرة ، والهرب من العار ، بدأت بالتفكير فى المنازل، والتقدير للمواطن ، فتأمَّلوا شأن المدن والأبنية، فوجدوا فيها معرة ونقصا ، وقال ذو المعرفة والتمييز [منهم] : إن الأرضين تمرض كما تمرض الأجسام ، وتلحقها الآفات. والواجب تخير المواضع بحسب أحوالها من الصلاح. إذ الهواء ربما قوى فأضر بأجسام سكانه ، وأحال أمزجة قُطَّانه ، وقال ذوو الآراء منهم : إن الأبنية والتحويط حَصْر عن التصرف فى الأرض ، ومَقْطعة عن الجولان ، وتقييد للهمم، وحبس لما فى الغرائز من المسابقة إلى الشرف، ولا خير فى اللبث على هذه الحالة. وزعموا أيضاً أن الأبنية والأطلال [٢] تحصر الغذاء وتمنع اتساع الهواء [٣]، وتسد سروحه عن المرور وقذاه عن السلوك، فسكنوا البر الأفيحَ الذى لا يخافون فيه من حصر ومنازلة ضر، هذا مع ارتفاع الأقذاء، وسماحة الأهواء ، واعتزال الوباء [٤]، ومع تهذيب الأحلام فى هذه المواطن، ونقاء القرائح فى التنقل فى المساكن ، مع صحة الأمزجة ، وقوة الفطنة ، وصفاء الألوان وصيانة الأجسام [٥]. فإن العقول والآراء تتولد من حيث تولد الهواء، [وطبع الهواء الفضاء] وفى هذا الأمن من العاهات والأسقام والعلل والآلام، فآثرت العرب سكنىَ البوادى والحلول فى البيداء ، فهم أقوى الناس همما ، وأشدهم أحلاما، وأصحهم أجساما، وأعزهم جاراً، وأحماهم ذمارا، وأفضلهم جوارا [٦] ، وَأجودهم فطنا؛ لما أكسبهم إياه صفاء الجو ونقاء الفضاء ؛ لأن الأبدان تحتوى أجزاؤها على متكاثف الأكدار [وعناء الأقذار] مما يرتفع إليه ، ويتلاطم فى عرصاته وأفقه من جميع المستحيلات ، والمستنقعات من المياه ، ففى أكنافه

---

(١) فى ا « على سمو الأخطار » (٢) فى ا « الأظلال والأبنية » .
(٣) فى ا « انفساح الهواء » (٤) فى ا « وعدم الوباء ».
(٥) فى ا « وصفاء الهواء ومتانة الأجسام » .
(٦) فى ا « وأفضلهم جودا » .

جميع ما يتصعد إليه ، ولذلك تراكبت الأقذاء والأدواء والعاهات فى أهل المدن ، وتركبت فى أجسامهم ، وتضاعفت فى أشعارهم وأبصارهم ، ففضلت العرب على سائر مَنْ عداها من بوادِى الأمم المتفرقة لما ذكرنا من تخيرها الأماكنَ وارتيادها المواطن .

قال المسعودى: ولذلك جانبوا فظاظة الأكراد وسكان الجبال من الأجيال الجافية وغيرهم الذين مساكنهم حُزُونُ الأرض ودِهاَسُها ، وذلك أن هذه الأمم الساكنة هذه الجبال والأودية تناسب أخلاقها مساكنها فى انخفاضها وارتفاعها ؛ لعدم استقامة الاعتدال فى أرضها ، فلذلك أخْلاَقُ قطّانها على ما هى عليه من [الجفاء و] الغلظ .

خطيب العرب عند كسرى يعلل اختيار قومه البداوة

وذكر الهيثم بن عدى والشَّرَقى بن القطامى وغيرهما من الأخباريين أنه وفد على كسرى أنوشروان بعض خطباء العرب ، فسأله كسرى عن شأن العرب وسكناها [البر] واختيارها البدو ، فقال : أيها الملك ، ملكوا الأرض ولم تملكهم ، وأمِنُوا عن التحصن بالأسوار ، واعتمدوا على المرهفات البائرة ، والرماح الشارعة جُنَناً وحصونا[1] ، فمن ملك قطعة من الأرض فكأنها كلها له ، يَرِدُون منها خيارها ، ويقصدون ألطافها ، قال : فأين حظوظهم من الفلك ؟ قال : من تحت الفرقدين ورأس المجرة وسعد الجدى مشرقين فى البر[2] بحسب ذلك ، قال : فما رياحها ؟ قال : أكثرها النَّكْباء بالليل والصَّبَا عند انقلاب الشمس ، قال : فكم الرياح ؟ قال : أربع ، فإذا انحرفت واحدة منهن قيل : نَكْبَاء ، وما بين سُهَيْل إلى طرف بياض الفجر جَنُوب ، وما بإزائهما يستقبلهما من المغرب شمال ، وما جاء من وراء الكعبة فهى دَبُور ، وما جاء من قبل ذلك فهى صَبًا ، قال : فما أكثر

---

(١) فى ب « والرماح السامرة حسا وحصناً » .

(٢) فى ب « مشرفين على الأرض بحسب ذلك» .

غذائهم ؟ قال : اللحم واللبن والنبيذ والتمر ، قال : فما خلائقهم ؟ قال : العز ، والشرف، والمكارم، وقرى الضيف، وإذمام الجار[١] ، وإجارة الخائف، وأداء الحمالات ، وبذل المهج فى المكرمات، وهم سُرَاة الليل ، وليوث الغِيل، وعمار البر، وأنس القفر، ألفوا القناعة ، وَشَنِفُوا الضراعة[٢]، لهم الأخذ بالثار ، والأَنَفَة من العار، والحماية للذمار ، قال كسرى: لقد وصفت [عن] هذا الجيل كرماً ونبلا ؛ وما أولانا بإنجاح وفادتك فيهم .

فتخيرت العرب فى البر أنزالا منها مَشَاتٍ ومنها مصايف ؛ فمنهم المُنْجِد والمُتْهِم [فالمنجد منهم هم الذين سكنوا أرض نجد والمتهم هم الذين سكنوا أرض تهامة ، ومنهم من] سكن أغوار الأرض كغور بيسان وغور غزة من أرض الشام من بلاد فلسطين والأردن ومن سكنه من لخم وجُذَام ، ولجميع العرب مياه يجتمعون عليها وملكية يعرجون إليها ، كالدهناء[٣] والسماوة والتهائم وأنجاد الأرض والبقاع والقِيعَان والوهاد ، ولست تكاد ترى قبيلا من العرب توغل من الأماكن المعروفة لهم والمياه المشهورة بهم، كماء ضارج وماء العقيق والهَبَاءَة[٤] وما أشبه ذلك من المياه .

الأكراد ونسبهم ومساكنهم

وأما أجناس الأكراد وأنواعهم فقد تنازع الناس فى بدئهم ؛ فمنهم من رأى أنهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، انفردوا فى قديم الزمان ، وانضافوا إلى الجبال والأودية ، دعتهم إلى ذلك الأنفة ، وجاوروا من هنالك من الأمم الساكنة المدن والعمائر من الأعاجم والفرس، فحالوا عن لسانهم ، وصارت لغتهم أعجمية ؛ ولكل نوع من الأكراد لغة لهم بالكردية، ومن الناس من رأى أنهم من مُضَر بن نزار، وأنهم من ولد كرد بن مرد بن صعصعة بن هوازن، وأنهم انفرَدُوا

---

(١) فى ب « وإذمار الجار » (٢) شنفوا : كرهوا وأبغضوا ، وفى ب « وسبقوا الضراعة »
(٣) فى ب « كالرها »
(٤) فى ب « والسباط » وفى ا « والمبادة » .

فى قديم الزمان لوقائع [ودماء] كانت بينهم وبين غسان ، ومنهم من رأى أنهم من ربيعة ومضر ، وقد اعتصموا فى الجبال طلبا للمياه والمراعى فحالوا عن اللغة العربية لما جاورهم من الأمم .

ومن الناس من ألحقهم بإماء سليمان بن داود عليهما السلام حين سلب ملكه ووقع على إمائه المنافقات الشيطان المعروف بالجسد ، وعصم الله منه المؤمنات أن يقع عليهن ، فعلق منه المنافقات ، فلما ردَّ الله على سليمان مُلْكه ووضع تلك الإماء الحوامل من الشيطان قال : أكردوهن إلى الجبال والأودية ، فربَّتهم أمهاتهم ، وتناكحوا ، وتناسلوا ، فذلك بدء نسب الأكراد .

ومن الناس من رأى أن الضحاك ذا الأفواه المقدَّم ذكره فى هذا الكتاب الذى تنازعت فيه الفرس والعرب من أى الفريقين هو ، أنه خرج بكتفيه حيَّتان فكانتا لا تُغَذَّيان إلا بأدمغة الناس ، فأفنى خلقا كثيراً من فارس ، واجتمعت إلى حربه جماعة كثيرة وافاه أفريدون بهم[1] وقد شالوا راية من الجلود تسميها الفرس درفش كاوان[2] ، فأخذ أفريدون الضحاك وقيده فى جبل دنباوند[3] على ما ذكرنا ، وقد كان وزير الضحاك فى كل يوم يذبح كبشا ورجلا ويخلط أدمغتهما ، ويطعم تينك الحيتين اللتين كانتا فى كتفى الضحاك ، ويطرد من تخلَّص إلى الجبال ، فتوحشوا وتناسلوا فى تلك الجبال فهم بدء الأكراد ، وهؤلاء من نسلهم ، وتشعبوا أفخاذا ، وما ذكرنا من خبر الضحاك فالفُرْسُ لا يتناكرونه ، ولا أصحاب التواريخ القديمة ولا الحديثة .

وللفرس فى أخبار الضحاك مع إبليس أخبار عجيبة ، وهى موجودة فى كتبهم ، وتزعم الفرسُ أن طهومرث[4] المقدم ذكره فى ملوك الفرس الأولى هو نوح النبى عليه السلام ، وتفسير درفش بالفارسية الفهلوية ـ وهى الأولى ـ الراية والمطرد والعلَم .

وأما الترك وأجناسها فقد قدمنا كثيراً من أخبارها ، وقد غلط قوم فزعموا

(١) فى ا « وأتاه أفريدون » (٢) فى ب « درفش كاصان » .
(٣) فى ب « نهاوند » (٤) فى ب « وتزعم أن ظهور المقدم ذكره »

أن الترك من ولد طوح[1] بن أفريدون، وهذا غلط بَيِّن؛ لأن طوح ولآء أفريدون [على الترك وسلم على الروم، وكيف توليه عليهم وهم ولده؟ وما قاناه يدل على أن الترك من غير ولد طوح بن أفريدون ، بل لطوح فى الترك عقب مشهور، والمعظم فى أجناس الترك هم التبت، وهم من حمير على حسب ماذكرنا أن بعض التبابعة رتبهم هناك[2]

وما قلنا من الأكراد فالأشهر عند الناس ؛ والأصح من أنسابهم ؛ أنهم من ولد ربيعة بن نزار ؛ فأما نوع من الأكراد ـ وهم الشوهجان ببلاد ما بين[3] الكوفة والبصرة ، وهى أرض الدينور وهمذان ـ فلا تناكر بينهم أنهم من ولد ربيعة بن نزار بن معد ، والماجردان ـ وهم من الكنكور ببلاد أذربيجان والهلبانية والسراة وما حوى بلاد الجبال من الشادنجان واللزبة والمادنجان والمزدنكان والبارسان والخالية والجابارقية والجاوانية والمستكان ومن حلَّ بلاد الشام من الدبابلة وغيرهم ـ فالمشهور فيهم أنهم من مضر بن نزار، ومنهم اليعقوبية والجورقان وهم نصارى ، وديارهم مما يلى بلاد الموصل وجبل الجودى .

وفى الأكراد مَنْ رأيهم رأى الخوارج والبراءة من عثمان وعلى رضى الله عنهما

فهذه جمل من أخبار بوادى العالم ، وقد أعرضنا عن ذكر الغوز والخرلج وهم أنواع من الترك نحو بلاد غرش وبسطام وبُسْت مما يلى بلاد سجستان وكذلك من بيلاد كرمان من أرض القفص والبلوج والجت .

بعض أيام العرب

قال المسعودى: فأما أيام العرب ووقائعها وحروبها فقد ذكرناها فيما سلف من كتبنا ، وما كان منها فى الجاهلية والإسلام ، كيوم الهباءة، وحروب ذبيان وغطفان ، [وما كان بين عبس وسائر العرب من نزار واليمن] وحرب داحس والغبراء ، وحرب بكر بن وائل وتغلب ، وهى حرب البسوس ، ويوم الكلاب ، ويوم خزاز ، ومقتل شاس بن زهير ، ويوم ذى قار ،

(١) فى ب « طوج » . (٢) فى ا « رتبهم هناك »
(٣) فى ا « ببلاد ماهى الكوفة والبصرة » .

ويوم شِعْب جَبَلَة ، وما كان من بنى عامر وغيرهم ، وحرب الأوس والخزرج ، وما كان بين غَسَّان وعَكٍّ .

وسنورد بعد هذا الباب جملا من أخبار العرب الدائرة وغيرها وتفرقها فى البلاد ، ونذكر جملا من آرائها ودياناتها فى الجاهلية ، وما ذهبت إليه فى الغيلان وَالهَوَاتف وَالقِيَافَة وَالكَهَانة والتفرس[1] وَالصَّدَى والهام ، وغير ذلك من شيمها ، وبالله التوفيق .

(١) فى ب « والنفوس » ولعله أصح .

ذكر ديانات العرب وآرائها فى الجاهلية

وتفرقها فى البلاد ، وخبر أصحاب الفيل وعبد المطلب
وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

ديانات العرب فى الجاهلية

[قال المسعودى] :

كانت العرب فى جاهليتها فرقاً : منهم الموحد المقر بخالقه ، المصدق بالبعث والنشور ، موقناً بأن الله يثيب المطيع ، ويعاقب العاصى ، وقد تقدم ذكرنا فى هذا الكتاب وغيره من كتبنا مَنْ دعا إلى الله عز وجل ونَبَّهَ [أقوامه] على آياته فى الفترة ، كقُسِّ بن ساعدة [الإيادى] ورِئاب الشَّنِّيِّ ، وَبَحِيرا الراهب ، وكانا من عبد القيس .

وكان من العرب من أقر بالخالق ، وأثبت حدوث العالم [وأقر] بالبعث والإعادة ، وأنكر الرسل ، وعكف على عبادة الأصنام ، وهم الذين حكى الله عز وجل قولهم : (ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفَى ـ الآية) وهذا الصنف [هم] الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها ، ونحروا [لها] البُدْنَ ، ونسكوا لها النسائك ، وأحلوا لها وحرموا .

ومنهم من أقر بالخالق ، وكَذَّب بالرسل والبعث ، ومال إلى قول أهل الدهر ، وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم ، وخَبَّرَ عن كفرهم ، بقوله تعالى : (وقالوا: ماهِىَ إلاحَيَاتُنَا الدُّنياَ نموتُ وَنحْيَا ،وَماَ يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْر) [فردَّ الله عليهم بقوله] : (ما لهم بذلك مِنْ عِلْمٍ ، إنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّون) .

ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية .

ومنهم المارُّ على عَنْجَهِيَّتِه ، الرَّاكب لِهَجْمَته(1) .

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة ، ويزعمون أنها بنات الله ؛

(1) ربما كانت « لهمجيته » .

فكانوا يعبدونها لتشفع لهم إلى الله[1] ، وهم الذين أخبر الله عزوجل عنهم بقوله تعالى: (ويجعلونَ للهِ البنَاتِ ،سبحانه،ولهم مايشتهون) وقوله تعالى:(أفرَأيتمُ اللاّتَ والعُزّى ، وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذاً قِسْمَةٌ ضيزَى) .

عبد المطلب ابن هاشم

فممن كان مقراً بالتوحيد،مثبتاً للوعيد، تاركاً للتقليد : عبدُ المطلب بن هاشم ابن عبد مناف ، وقد كان حفر بئر زمزم ، وكانت مَطْوِية ، وذلك فى ملك كسرى[2] قباذ،فاستخرج منها غزالتى ذهب عليهما الدر والجوهر،وغير ذلك من الحلى، وسبعة أسياف قلعية ، وسبعة أدرع سوابغ[3]؛ فضرب من الأسياف باباً للكعبة ، وجعل إحدى الغزالتين صفائح [ذهب فى الباب] ، وجعل الأخرى فى الكعبة ، وكان عبد المطلب أول من أقام الرِّفادة والسِّقاية [للحاج ، وكان أول من سقى الماء] بمكة عذْباً ، وجعل باب الكعبة مذهباً ، وفى ذلك يقول عبد المطلب:

أعطى بلا شُحٍّ ولا مشاحح سقياً على رغم العدو الكاشح
بعد كنوز الحلى والصفائح حلياً لبيت الله ذى المسارح[4]

وكان قد نذر إنْ رزقه الله عزوجل عشرة أولاد ذكور أن يقرب أحدهم لله تعالى [فكان أمره — حين رزقه الله إياهم — أن قرب]أحبهم إليه وهو عبد الله أبو النبى صلى الله عليه وسلم ، فضرب عليه بالقِداح حتى افتداه بمائة من الإبل، فى خبر طويل .

أصحاب الفيل

وقد كان أبرهة حين سار بالحبشة وأتى أنصاب الحرم ، فنزل بالموضع المعروف بحب المحصب[5] ،فأتى بعبد المطلب بن هاشم فأخبر أنه سَيِّدُ مكة ، فعظمه وهابه لاستدارة نور النبى صلى الله عليه وسلم فى جبينه ، فقال له : سَلْنِى ياعبد المطلب

(١) فى ا « لتشفع بهم إلى الله » (٢) فى ا « كسرى بن قباذ » .
(٣) فى ا « وخمسة أدرع سوابغ » . (٤) هذان البيتان لا يوجدان فى ا
(٥) فى ا « بجنب المحضب » .

فأبى أن يسأله إلا إبلا له ، فأمر بردها [عليه] وقال له : ألا تسألنى الرجوع ؟ فقال: أنا رب هذه الإبل، وللبيت رب سيمنعه [منك] وانصرف عبد المطلب إلى مكة وهو يقول :

يا أهل مكة قد وافاكُمُ ملك مع الفيول على أنيابها الزَّرَدُ[1]

[هذا النجاشىُّ قد سارت كتائبه مع الليوث عليها البَيْضُ تتَّقد][2]

[يريد كعبتكم ، والله مانعه كمنع تُبَّع لما جاءها حرد]

وأمر قريشاً أن تلحق ببطون الأودية ورءوس الجبال من مَعَرَّة الحبشة ، وقلَّدَ الإبل النعال وخلاها فى الحرم [ووقف بباب الكعبة] وهو يقول :

[يارب لا أرجو لهم سواكا يارب فامنع منهمُ حماكا][2]

[إنَّ عَدُوَّ البيت مَنْ عاداكا فامنعهمُ أن يخربوا قراكا][2]

[ويقول] :

يارب إن العبد يمنع رَحْلَهُ فامنع رحالك

لا يغلبنَّ صليبهم ومِحَالهم أبداً مِحَالك

فأرسل الله عليهم الطير الأبابيل ، أشباه اليعاسيب ، ترميهم بحجارة من سجيل، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر، مع كل طير ثلاثة أحجار فأهلكهم الله عز وجل[3] .

وقد ذكرنا خبر أبى رُغَال فيما سلف من هذا الكتاب حين دلهم [على الطريق] ، وهلاكه فى الطريق ، وجعلت الحبشة يومئذ تسأل عن نُفَيْل بن حبيب الخثعمى يدلها على الطريق[4] ، ونفيل يسمع كلام الحبشة وسؤالها عنه وقد رِيعَ لما عمهم من البلاء ، وانفرد من جملتهم يؤمل الخلاص، وقد تاهوا ، فأنشأ يقول :

---

(١) فى ا « على أنيابها الربد » (٢) هذه الزيادة لا توجد فى ا .
(٣) فى ا « فأتلفهم الله عز وجل » (٤) فى ا « دليلها على الرجوع ».

ألا رُدَّى جمالك يا رُدَيْنَا | نعمناكم مع الإصباح عينا[1]
فإنك لو رأيت ولن تريه | لدى جنب المحصب ما رأينا
حمدت الله إذ عاينت طيراً | وَحَصْبَ حجارة تُلْقَى علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل | كأن علىَّ للحبشان دَيْنَا

وقد ذكرنا ما كان منهم فى هلاك عميدهم فيما سلف من هذا الكتاب ، فلما صَدَّهم الله عز وجل عن الكعبة أنشأ عبد المطلب يقول :

أيها الداعى لقد أسمعتنى | ثم ما بى عن نِدَاكم من صَمَمْ
إن للبيت لربًّا مانعاً | مَنْ يُرِدْه بأثام يُصْطَلم
رامه تبع فيمن جَنَّدَتْ | حِمْير والحى من آل قدم[2]
فانثنى عنه وفى أوداجه | جارحٌ أمسك منه بالكَظَمْ
قلت والأشرم تردى خيله | : إن ذا الأشرم غر بالحرم[3].
نحن آل الله فيما قد مضى | لم يزل ذاك على عهد أَبْرَهَمْ
نحن دَمَّرْنا ثمــوداً عَنْوة | ثم عاداً قبلها ذات الإرم
[نعبد الله وفينا سُنَّة | صِلَةُ القربى وإيفاء الذِّمم]
لم تزل لله فينا حجة | يدفع الله بها عنا النِّقَمْ

القول بتناسخ الأرواح

قال المسعودى : وقد استدل قوم ممن ذهب إلى الغلو فى بعض المذاهب والخروج عما أوجبته قضية العقل وضرورات الحواس بهذا الشعر وقول عبد المطلب فيما كان منهم فى قديم الزمان ، وأيدوا ذلك [الشعر] بشعر العباس [بن عبد المطلب] فى مدحه النبي صلى الله عليه وسلم [وهو ما ذكره قريم بن أوس بن حارثة بن لأم الطائى أنه هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم] فقدم عليه مُنْصَرَفَه من تَبُوك فأسلم ، قال : سمعت العباس بن عبد المطلب يقول : يارسول

(١) فى ب « ألا ردى حمى لك » (٢) فى ب « من آل قرم »
(٣) فى ب « والأشرم يرمى حيلة »

الله ، إني أريد أن أمتدحك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل لا يَفضُضِ الله فاك [ياعمي] ، فأنشأ يقول :

من قبلها طِبْتَ في الظلال وفي مستودع حيث يُخْصَفُ الوَرَقُ
ثم هبطت البلاد ، لا بشر أنت ، ولا مضغة ، ولا عاق
بل حجة تركب السفين ، وقد ألجم نَسراً وأهــلَهُ الغرق[1]
تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طَبَقُ
وأنت لما وُلِدْتَ أشرقت الا أرض ، وضاءت بنورك الأفق[2]
[حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق]
فنحن في ذلك الضياء وفي النـ ور وسبل الرشاد نخترق

قالوا : وهذا الخبر قد ذكره أصحاب السير والأخبار والمغازي، ونقلوا هذا المديح من قول العباس ، وما كان من سرور النبي صلى الله عليه وسلم بذلك واستبشاره [به] فجعلت هذه الطائفة من الغلاة ما ذكرنا من الشعرين ــ شعر عبدالمطلب ، وشعر العباس ــ دلالة لهم على مواطن ادعوها ، ونغلغلوا إلى شبه بعيدة استخرجوها ، يمنع منها ماتقدم من أوائل العقول ، وموجبات الفحص ، ذكر ذلك جماعة من مصنفي كتبهم ، ومن حذاق مبرزيهم ، من فرق المحمدية والعلبانية ، وغيرهم [من فرق الغلاة] : منهم إسحاق بن محمد النخعي المعروف بالأحمر في كتابه المعروف بكتاب الصراط ، وقد ذكر ذلك الفياض بن علي [ابن محمد بن الفياض في كتابه المعروف بالقسطاس] في نقضه لكتاب الصراط وذكره المعروف بالنهكيني[3] في نقضه هذا الكتاب المترجم بالصراط ، وهؤلاء محمدية نقضوا هذا الكتاب ، وهو على مذهب العلبانية ، وقد أتينا على ذكر

---

(١) يروى « بل نطفة تركب السفين — إلخ »

(٢) هكذا في ا ، وهو الموافق لما في كتب السيرة وأدب الكاتب لابن قتيبة (٣٣٣ بتحقيقنا) ، ووقع محرفا في ب هكذا :

أنت لها وارث وأشرقت الا أرض وأورى بنورك الأفق

(٣) في ب « بالهنكي »

هؤلاء الحمدية [والعلبانية] والمغيرية والقدرية وسائر فرق الغُلاة وأصحاب التفويض والوسائط، واستقصينا النقض عليهم وعلى سائر من ذهب إلى القول بتناسخ الأرواح فى أنواع أشلاء الحيوان ممن ادعى الإسلام وغيرهم ممن سلف من اليونانيين والهند والثنوية والمجوس واليهود والنصارى، وذكرنا قول أحمد ابن حائط وابن يافوس (١) وجعفر القاضى (٢)، إلى مَنْ نَجَم فى وقتنا ممن تقدم وتأخر إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - ممن أحدث [قولا] تفريعاً على ما سلف من أصولهم، وأبدى شبهاً أيّد بها ما تقدم من مذاهبهم، مثل الحسين ابن منصور المعروف بالحلاج ، وأصحاب أبى يعقوب المزابلى (٣) ، ثم أصحاب السوق (٤) ومن تأخر عنهم وفارقهم فى أصولهم ، مثل أبى جعفر محمد بن على الشلمغانى (٥) المعروف بابن أبى العزاقر (٦) وغيرهم ممن أمَّ نهجهم ، وذكرنا الفرق بينهم وبين غيرهم من أصحاب الدور فى هذا الوقت ممن يراعى وقت الظهور، وأصحاب حجج الليل والنهار ؛ إذ كان هؤلاء قد أثبتوا القول بالتناسخ (٧) ، وأن الأرواح تنتقل فى شىء من الأجسام الحيوانية، وأحالوا على القديم عز وجل أن يجوز عليه شىء مما تقدم ، فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه آنفاً ، وما تغاغل بنا الكلام عنه من ذكر عبد المطلب .

الاختلاف فى إيمان عبد المطلب

تنازع الناس فى عبد المطلب : فمنهم من رأى أنه كان مؤمناً موحداً ، وأنه لم يشرك بالله عز وجل ، ولا أحد من آباء النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه نقل فى الأصلاب الطاهرة ، وأنه أخبر أنه ولد من نكاح لا من سفاح ، ومنهم من رأى أن عبد المطلب كان مشركا ، وغيره من آباء النبى صلى الله عليه وسلم إلا من صح إيمانه، وهذا موضع فيه تنازع بين الإمامية والمعتزلة والخوارج والمرجئة

---

(١) فى ب «وابن يالوس» (٢) فى ا « وجعفر القصى »
(٣) فى ب « المرابلى » (٤) فى ا « ثم أصحاب الشريعين »
(٥) فى ب « اللقانى » (٦) فى ب «أبى القراقر» وفى نسخة «العزافر»
(٧) فى ا « قد أبوا القول بالتناسخ »

وغيرهم من الفرق فى النص والاختيار ، وليس كتابنا هذا موسوماً للحِجَاج فنذكر حجاج كل فريق منهم .

وقد أتينا على قول كل فريق منهم وما أيد به قوله فى كتابنا « المقالات فى أصول الديانات » وفى كتاب « الاستبصار » ووصف أقاويل الناس فى الإمامة وفى كتاب « الصفوة » أيضاً .

وكان عبد المطلب يوصى ولده بصلة الأرحام ، وإطعام الطعام ، ويرغبهم [ويرهبهم] فعل من يراعى فى المنعقب معاداً وبعثاً ونشوراً ، وجعل السقاية والرفادة إلى ابنه عبدمناف ــ وهو أبو طالب ــ وأوصاه بالنبى صلى الله عليه وسلم.

أبو طالب

وقد تنوزع فى اسم أبى طالب : فمنهم من رأى أن اسمه عبدمناف ، على ما وصفنا، ومنهم من رأى أن كنيته اسمه ، وأن على بن أبى طالب رضى الله عنه كتب فى كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ليهود خيبر بإملاء النبى صلى الله عليه وسلم « وكتب على بن أبى طالب » [بإسقاط الألف] وقد ذكر عبد المطلب فى شعر له وصية أبى طالب بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال :

أوصيت مَنْ كنيته بطالب ... بابن الذى قد غاب ليس بآئب

وقد كان أكثر العرب ممن بقى ودَثَرَ يقرُّ بالصانع ، ويستدل على الخالق.

اختلاط الألسنة

وقد كان فى ملك [النمروذ بن] كوش[1] بن حام بن نوح هيجانُ الريحِ التى نسفت صرح النمروذ ببابل من أرض العراق ، فبات الناس ولسانهم سريانى ، وأصبحوا [و] قد تفرقت لغاتهم على اثنين وسبعين لساناً ، فسمى الموضع من ذلك الوقت بابل ، فصار من ذلك فى ولد سام بن نوح تسعة عشر لساناً [وفى ولد حام ابن نوح ستة عشر لساناً] وفى ولد يافث بن نوح سبعة وثلاثون لساناً على حَسَب ماذكرنا فى صدر هذا الكتاب ، وكان مَنْ تكلم بالعربية يعرب وجرهم وعاد

مسير يعرب وسكناه اليمن

وعبيل وجديس وثمود وعملاق وطسم ، ووبار وعبد ضخم[2] ، فسار يعرب

(١) فى ا « فى زمان كوش بن حام بن نوح »
(٢) فى ا « وعبد بن ضخم » وانظر ص ١٤٣ الآتية

ابن قحطان بن عابر بن شالخ[١] بن إرفخشذ بن سام بن نوح بمن تبعه من ولده وغيرهم وهو يقول[٢] :

أنا ابن قحطان الهمام الأفضل [الأيمن المعرب ذى المهلل]
ا قوم سيروا فى الرعيل الأول أنا النَّدِىُّ باللسان المسهل
الأبين المنطق غير المشكل [حثوث والأمة فى تبلبل]
[يا قوم سيروا فى الرعيل الأول] نحو يمين الشمس فى تمهل

فحل باليمين على ما وصفنا آنفاً من هذا الكتاب .

مسير عاد إلى الأحقاف

وسار بعده عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده [ومن تبعه وهو يقول :

إنى أنا عاد الطويل البادى وسام جدى ابن نوح الهادى
فقد رأيتم يعرب الزيادى وسَوْقَه الطارف والتلاد]

فحل بالأحقاف [وأدانى الرمل] بين عمان وحضرموت واليمن، وتفرق هؤلاء فى الأرض، فانتشر منهم ناس كثير : منهم جيرون بن سعد بن عاد حلَّ بدمشق فمصَّر مصرها، وجمع عمد الرخام والمرمر إليها ، وشيد بنيانها ، وسماها إرم ذات العماد، وقد روى عن كعب الأحبار[٣] فى إرم ذات العماد غير هذا ، وهذا الموضع بدمشق فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — سوق من أسواقها عند باب المسجد الجامع ، يعرف بجيرون ، وجيرون : هو بنيان عظيم، كان قصر هذا الملك ، عليه أبواب من نحاس عجيبة : بعضها على ما كانت عليه ، والبعض من مسجد الجامع ، وقد ذكرنا فيما مر خبر نبى الله هود[٤] .

إرم ذات العماد

نزول ثمود الحجر

وسار بعد عاد بن عوص ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه [وهو يقول :

---

(١) فى ا « بن سالح بن سالم »
(٢) ما بين المعقوفين من هذا الرجز لا يوجد فى ا
(٣) فى ا « وقد روى عن كتب الأخبار »
(٤) فى ب « خبر بنى أسهود »

أنا الفتى الذى دعا ثمودا ياقوم سيروا ودَعُوا التردِيدا
لعلنا أن ندرك الوفودا فنلحق البادى لنا العديدا
إنا أبينا اليعرب الحميدا وعاد ما عاد الفتى الجليدا]

فنزل هؤلاء الحِجْرَ إلى فرع[1] ، وقد تقدم ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب ، وخبر نبيهم صالح عليه السلام ، وأنهم نحو وادى القُرَى ، بين الشام والحجاز .

مسير جديس إلى اليمامة

وسار بعد ثمود جديس بن عابر بن إرم[2] بن سام بن نوح بولده ، ومن تبعه [وهو يقول :

أنا جديس والمسير المسلكا فَدَتْكَ نفسى يا ثمود المهلكا
دعونى فقد قصدت نحوكا إذسارت العيس وأبدت شخصكا]

وقد قلنا فيما سلف : إن هؤلاء الذين نزلوا اليمامة .

مسير عملاق إلى مواضع مختلفة

وسار بعد جديس عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام[2] بن نوح [بولده] ومن تبعه : وهو يقول :

لما رأيت الناس ذا تبلبل وسار منا ذو اللسان الأول
[وحدثتنا فى اللحاق الأول] فسرت حثًا بالسوام المهمل

فنزل هؤلاء أكناف الحرم والتهائم ، ومنهم من سار إلى بلاد مصر والمغرب ، وقيل : إن هؤلاء بعض فراعنة مصر، وقد ذكرنا قول من ألحق العماليق وغيرهم ممن ذكرنا بعيص[3] بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، وزعم أنهم من ولد العيص على حسب ما ذكرنا فيما تقدم .

وقد كانت للعماليق ملوك كثيرة سلفت فى مواضع من الأرض بالشام

---

(١) فى ا « إلى قزح »
(٢) فى ا « جديس بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام »
(٣) فى ب « بقطور بن إسحاق بن إبراهيم الخليل »

وغيره ، وقد أتينا على أخبارهم وذكر ممالكهم وحروبهم فى كتابنا « أخبار الزمان » ، وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب قصة يوشع بن نون مع ملك العماليق [ببلاد أيلة ، وهو السميدع بن هوبر ، وقد كان من بقى من العماليق] انضافوا إلى ملوك الروم ؛ فملكتهم الروم على مشارق الشام[1] والغرب والجزيرة من ثغور الشام فيما بينهم وبين فارس .

أذينة بن السميدع العملاقى

فممن ملك الروم من العماليق : أذينة بن السميدع ، الذى ذكره الأعشى فى قوله :

أزال أذينة عن ملكه وأخرج عن ملكه ذا يزن

وقد كان ملك بعد العماليق حسان بن أذينة بن طرب [بن حسان]ويقال: هو الذى يعرف بأمه [زَبَّاء] .

ثم ملك عمرو بن طرب ، ويقال : هو الذى كان يعرف بأمه [زباء] ؛ وقد كان بينه وبين جذيمة الأبرش الأزدى أبى مالك[2] حروب كثيرة ، فقتله جذيمة على ماذكرنا ، وما كان من قتل الزباء لجذيمة [وقول الشاعر :

كأن عمرو بن زَبَّا لم يعش ملكا ولم يكن حوله الرايات تختفق

لاءم جذيمة من ضرساء مشعلة فيها خراشف بالنيران ترتشق]

مسير طسم إلى البحرين

ثم سار طسم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح بعد عملاق بن لاوذ بولده؛ ومن تبعه [وهو يقول :

إنى أنا طسم وَجَدِّى سام سام بن نوح وهو الإمام

لما رأيت الأخ والأعلاما قلت لنفسى: الْحَقِى السواما

أخاك عملاقا وذا الإقدام يافث لا كان ولبى حام]

فنزل هؤلاء البحرين .

---

(١) ربما كان أصل العبارة « مشارف الشام » وانظر ص ٩ السابقة من هذا الجزء

(٢) فى ب « بن مالك »

وقد كان جميع من ذكرنا [بَدْواً ، و] انتشروا فى الأرض، على حسب ما ذكرنا من مساكنهم ، وكثرت جديس ، فملكت عليها الأسود بن غفار، وكثرت طسم ، فملكت عليها عملوق[1] بن جديس ، وقد ذكر عبيد بن شَرِيَّة الجرهمى حين وفد على معاوية [وأخبره] أن طسم بن لاوذ [بن إرم بن سام بن نوح ، وجديس بن عابر بن][2] سام بن نوح ، هم العرب العاربة ، وقد كان منزلهم جميعا باليمامة ، واسمها إذ ذاك جَوٌّ .

عملوق الظالم ملك طسم

وكان لطسم ملك يقال له عملوق، وكان ظلوما غشوما ، لا ينهاه شىء عن هواه ، مع إضراره وإقدامه على جديس ، وتعديه عليهم، وقهره إياهم، فلبثوا فى ذلك دهراً ، وهم أهل مظالم[3] ، قد غمطوا النعمة ، وانتهكوا الحرمة، وبلادهم أفضل البلاد ، وأكثرها خيراً ، فيها صنوف الشجر والأعناب، وهى حدائق ملتفة ، وقصور مصطفة ، فلم يزل على ذلك حتى أتته امرأة من جديس ، يقال لها هُزَيلة بنت مازن ، وزوجٌ لها قد فارقها ، يقال له ماشق ، فأراد قبض ولده منها[4] ، فأبت عليه ، فارتفعا إلى الملك عملوق ليحكم بينهما ، فقالت المرأة: أيها الملك ، هذا الذى حملته تسعا ، ووضعته دفعا ، وأرضعته شفعا ، ولم أنل منه نفعا ، حتى إذا تمت أوصاله ، واستوفت خصاله ، أراد أن يأخذه قسراً ، ويسلبنيه قهراً ، ويتركنى منه صِفْراً ، قال زوجها : قد أخذت المهر كاملا ، ولم أنل منه نائلا ، إلا ولداً خاملا[5] ، فافعل ما كنت فاعلا . فأمر الملك أن يؤخذ الولد منهما ويجعل فى غلمانه ، فقالت هُزَيلة فى ذلك :

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا ... فأبرم حكما فى هُزَيْلَةَ ظالما
لعمرى لقد حُكِّمْتَ لامتورِّعا ... ولا فَهِماً عند الحكومة عالما

(١) فى ب « عمليق » (٢) ما بين المعقوفين ساقط من ب
(٣) فى ا « وهم أهل بطالة قد غمطوا النعمة »
(٤) فى ا « قبض ولدها منها »
(٥) فى ا « ولم أنل منه طائلا ، إلا ولدا جاهلا »

ندمتُ فلم أقدر على متزحزح وأصبح زوجى حائر الرأى نادما

فبلغ المَلِكَ قولُ هُزَيلة ، فغضب ، وأمر أن لا تتزوج امرأة من جديس فتزف إلى زوجها حتى تحمل إليه ، فيفترعها قبل زوجها ، فلقوا من ذلك ذلا طويلا ، ولم تزل تلك حالتهم حتى تزوجت عنيرة ، وقيل : الشموس ، بنت غفار الجديسى[1] أخت الأسود بن غفار[2] ، فلما كانت ليلة هَدْيِهَا إلى زوجها انطلق بها إلى عملوق الملك ليطأها على عادته ، ومعها القَيْنَات يغنين ويقلن فى غنائهن :

إبْدِى بعملوق وَقُومى فاركبى وَبَادِرِى الصبح بأمر معجب

* فَمَا لِبِكْرٍ بَعدكُمْ مِنْ مذهب *

فلما دخلت عفيرة على عملوق افترعها وخلى سبيلها ، فخرَجَتْ عفيرة على قومها فى دمائها شَاقَةً جيبها عن قبلها ودبرها ، وهى تقول :

لا أحــد أذل من جَدِيس أهــكذا يفعــل بالعروس ؟

وقالت أيضاً تحرض [قومها] جديس على طسم ، وأبت أن تمضى إلى زوجها من كلة :

أيَصْلُح ما يؤتى إلى فتياتكم وأنتم رجال فيكم عدد الرمل[3]

أيَصْلُح تمشى فى الدما فتياتكم صبيحة زُفَّت فى النساء إلى البعل[4]

فإن أنتم لا تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تفروا من الكحل[5]

ودونكم طيبَ العروس ؛ فإنما خلقتم لأثواب العروس وللغسل

فقبحاً وشيكاً للذى ليس دافعا ويختال يمشى بيننا مشية الفحل

---

(١) فى ب « الطسمى »

(٢) هكذا ورد فى تاريخ الطبرى (٣٨:٢) ووقع فى ب « الشموس بنت عمار أخت الأسود بن عفار » بالخطأ فى الموضعين ، وعدم الاتفاق حتى على الخطأ

(٣) فى ا « عدد النمل »   (٤) حفظى « وتصبح تمشى فى الدماء عفيرة »

(٥) فى ا « عند هذه » وفيها « لاتعيضوا من الكحل » وأحفظ « لم تغضبوا »

فلو أننا كنا الرجال وكنتم نساء لكنا لا نقر على الذل

فموتوا كراماً ، واصبروا لعدوكم بحرب تَلَظَّى فى القرام من الجزل(١)

ولا تجزعوا للحرب ياقوم ، إنما تقوم بأقوام كرام على رِجْل

فيهلك فيها كل نِكْسٍ مواكل ويسلم فيها ذو النجابة والفضل

[وفى ذلك يقول أخوها :

جاءتْ تَمَشَّى طَسْمُ فى خميس كالرِّيح فى هشهشة اليبيس

يا طَسْم ما لقيت من جديس حَقًّا لك الويل فهيسى هيسى]

التفكير فى الانتقام

قال : فلما سمعت جديس بذلك وغيره من قولها اجتمعت غضباً لذلك ، فقال لهم الأسوْد بن غفار — وكان فيهم سيداً مطاعاً — يا جديس ، أطيعونى فيما آمركم به ، وأدعوكم إليه ، ففى ذلك عز الدهر ، وذهاب الذل ، قالوا : وماذلك ؟ قال : قد علمتم أن هؤلاء —يعنى طسما— ليسوا بأعز منكم ، ولكن مُلْكَ صاحبهم عليكم وعليهم هو الذى يُذْعِننا إليه بالطاعة(٢)، ولولا ذلك ما كان له علينا من فضل ، ولو امتنعنا منه لكان لنا النصف(٣)، فقالوا : قد قبلنا قولك ، ولكن القوم أقراننا ، وأكثر عدداً وَعُدَداً مِنَّا ، فنخاف إن ظفروا بنا أن لا يقيلونا ، فقال: والله ياجديس لتطيعننى فيما آمركم به وأدعوكم إليه أو لأتكئن على سيفى فأقتل [به] نفسى، قالوا : فإنا نطيعك فيما قد عزمت عليه، قال : إنى صانع لعملوق وقومه من طسم طعاماً وداعيهم إليه ، فإذا جاءوا إليه متفضلين فى الحلل والنعال(٤) نهضنا إليهم بأسيافنا، فانفردت أنا بالملك، وانفرد كل رجل منكم برجل منهم، قالوا له : فافعل مابدالك، واجتمع رأيهم عليه ، فقالت عفيرة

(١) فى ا « واضرموا لعدوكم» وفيها « تلظى بالضرام »
(٢) فى ا « هو الذى ودعنا له بالطاعة »
(٣) فى ا « ولو امتنعنا منهم لكان لكم النصف »
(٤) فى ب « منفصلين من الخيل والبغال » محرفا

لأخيها الأسود : لا تفعل هذا ؛ فإن الغدر فيه ذلة وعار ، ولكن كابدوا القوم فى ديارهم تظفروا أو تموتوا كراماً ، قال : لا ، ولكن نمكر بهم ، فيكون ذلك أمْكَنَ لنا من نواصيهم ، وأبلغ فى الانتقام منهم ، فقالت عفيرة فى ذلك أشعاراً قد ذكرناها فيما سلف من كتبنا .

ثم إن الأسود صنع طعاماً كثيراً ، وأمر قومه فاخترطوا سيوفهم ودفنوها فى الرمل حيث أعَدُّوا الطَّعام ، ثم قال لهم : إذا أتاكم القوم يرفلون فى حليهم[1] فخذوا أسيافكم ثم شدوا[2] عليهم قبل أن يأخذوا مجالسهم، وابدؤا بالرؤساء ؛ فإنكم إذا قتلتموهم لم تبالوا بالسَّفِلة ، ولم تكُن بعد ذلك منهم حال تكرهونها ، قالوا : نفعل ما قلت .

ثم دعا الأسود بعملوق الطسمى ومن معه من رؤساء طسم باليمامة ، فأسرعوا إجابة دعوة الأسود ، فلما توافوا إلى المَدْعَاة وَثَبَتْ جديس ، فاستثاروا سيوفهم من الرمل ، وشدوا على عملوق وأصحابه فقتلوهم حتى أفنوهم عن آخرهم ، ومضوا إلى ديارهم فانتهبوها ، وقال الأسود بن غفار فى ذلك أشعاراً يرثى بها طسما ، ويذكر بغيها[3] وفعل عملوق بأخته ، يطول بذكرها الكتاب ، وقد تقدمت فيما سلف من كتبنا .

رباح الطسمى يستنجد حمير على جديس

قال : وهرب رجل من طسم ، وكان اسمه رباح بن مرة الطسمى ، فأتى إلى حسان بن تُبَّع [الحميرى ملك اليمن يومئذ] فاستغاث به ، وقد كان عمد إلى جريدة نخل رطبة فجعل عليها طيناً رطباً ، وحملها معه وأخرج معه كلبة ، فلما ورد على حسان كسر يَدَ كلبته ، ونزع الطين عن الجريدة فخرجت خضراء ودخل إلى حسان واستعاذ به ، وأخبره بالذى صنعت جديس بقومه ، فقال له الملك : لله أبوك ، فمن أين مَبْدَاكَ ؟ قال : جئتك ، أبيت اللعن من أرض

---

(١) فى ا « يرفلون فى حللهم » (٢) فى ا « ثم تقدموا عليهم »
(٣) فى ب « ويذكر نعيمها »

قريبة وقوم انتهك منهم مالم ينتهك من أحد، أنا رباح بن مرة الطَّسْمى، دعتنا جديس إلى مَدْعَاة لهم فأجبناهم متفضلين فى الحلل وقد أعدوا لنا السلاح عند جِفَانهم ، فما ذُقْنَا الطعام حتى صرنا خُطَاماً ، بلا طلب دم ولا تِرَةٍ سلفت ، فدونك ــ أبيت اللعن ! ــ قوماً قطعوا أرحامنا ، وسفكوا دماءنا ، قال الملك حسان: أمعك خرجت هذه الجريدة وهذه الكلبة؟ قال: نعم، فقال الملك : إن كنت صادقاً لقد خرجت من أرض قريبة، ووَعَده[1] بالنصرة، ثم نادى فى حمير بالمسير ، وأعلمهم بما فعل بطسم ، قالوا : مَنْ فعلَ هذا أبيت اللعن ؟ قال : عبيدهم ، قالوا : ما لنا فى هذا من أرَبٍ ، هم إخواننا فلا نعين بعضنا على بعض، وهم عبيدك أيها الملك فدعهم ، فقال حسان : ما هذا بحسن ، أرأيتم لو كان هذا فيكم أكان حسناً للملككم[2] أن يهدر دماءكم؟ وما علينا فى الحكم إلا أننا ننصف بعضنا من بعض ، فقام فرسانهم فقالوا : أبيت اللعن الأمر أمرك ، فمرنا بما أحببت ، فأمرهم بالمسير ، فساروا وسار بهم رباح بن مرة حتى إذا صاروا من اليمامة على ثلاث قال رباح بن مرة للملك حسان : أبيت اللعن ، إن لى أختاً متزوجة فى جديس ليس فى الأرض أبصر منها ، إنها تبصر الراكب على مسيرة ثلاث ليال ، وأنا أخاف أن تنذر القوم بك ، فتأمر كل واحد من أصحابك أن يقتلع شجرة من الأرض فيجعلها أمامه ثم يسير ، فأمر[هم] حسان بذلك ، ففعلوا ثم ساروا ، وكان اسم أخت رباح « يمامة » [بنت مرة] فأشرفت من منظرها فقالت : يا جديس ، لقد سارت إليكم الشجر ، قالوا لها : وماذاك ؟ قالت: أرى أشجاراً تسير [و] وراءها شىء، وإنى لأرى رجلا من وراء شجرة ينهش كتفاً أو يخصف نعلا ، فكذبوها ، وكان ذلك كما ذكرت فغفلوا عن أخذ أهبة الحرب ، ففى ذلك تقول اليمامة لجديس [تحذرهم] :

زرقاء اليمامة

إنى أرى شجراً من خلفها بشر ... فكَيْفَ تجتمع الأشجار وَالبشر ؟
ثورُوا بأجمعكُمْ فى وجه أولهم ... فإن ذاك منكُمْ فاعلموا ظَفَرُ

---

(١) فى ا « ووعده النصر » (٢) لعلها « لملكهم »

وأقبل الملك حسان بحمير، حتى إذا كان من جوٍّ على مسيرة ليلة عبّأ جيشه ثم صبّحها فاستباح أهلها من جديس قتلا ، فأفنا [هم وسبى] نساءهم وصبيانهم ، وهرب الأسود بن غفار ملكها حتى نزل بدار طيء فأجاروه من الملك وغيره ، من غير أن يعرفوه ؛ فيذكر أن نسله اليوم فى طيء مذكور .

فلما فرغ حسان من جديس دعا باليمامة بنت مرة ، وكانت امرأة زرقاء ، فأمر فنزعت عيناها فإذا فى داخلها عروق سود ، فسألها عن ذلك ، فقالت : حجر أسود يقال له الإثمد كنت أكتحل به [فنشب إلى بصرى] وكانت [هى] أول من اكتحل به ، فاتخذوه بعد ذلك كحلا ، وأمر الملك باليمامة ، فصلبت على باب جو ، وقال : سموا جواً باليمامة ؛ فسميت بها إلى اليوم .

مسير وبار ابن أميم

قال المسعودى : ثم سار — بعد طسم بن لاوذ — وَبَارُ بن أميم بن لاوذ ابن إرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه من قومه ، فنزل بأرض وَبَارِ بالأرض المعروفة برمل عالج ، فأصابهم نقمة من الله فهلكوا لما كان من بغيهم فى الأرض ، وقد قدمنا فصلا من ذلك فيما سلف من هذا الكتاب على ما زعم الأخباريون من العرب ، وخروجهم بذلك عن حد المعقول والمعتاد[1] من الأمر المفهوم ، بزعمهم أن الله عز وجل حين أهلك هذه الأمة العظيمة ، المعروفة بوبار[2] ، كما أهلك طسما وجديساً وداسماً ، وكانت ديار داسم بأرض السماوة فأهلكوا بالريح السوداء الحارة ، وداسم كانت ديارهم بالجولان وجازر[3] من أرض نوى من بلاد حُورَان والبثنية ، وذلك بين دمشق وطبرية من أرض الشام ،

---

(١) فى ب « عن حد العقول والعناد »

(٢) فى مهلك « وبار » يقول الراجز :

ألم تروا إرما وعادا أودى بها الليل والنهار

ومر دهر على وبار فهلكت جهرة وبار

(٣) فى ب « بالجولان والجيدور من أرض بوا وبلاد حوران والتبت »

وعملاق وعاد وثمود ، وأن الجن كانت تسكن فى ديار وبار ، وحمتها من كل من أرادها وقصد إليها من الإنس ، وأنها كانت أخصب بلاد الله عز وجل وأكثرها شجراً وأطيبها ثمراً وعنباً ونخلا وموزاً ، وإن دنا أحد من الناس إلى تلك البلاد غالطاً أو متعمداً حَثَتِ الجن فى وجهه التراب ، وسفت عليه سَوَافى الرمل ، وأثارت عليه الزوابع ، فإن أراد الرجوع [عنها] خبلوه وتيهوه ، وربما قتلوه ، وهذا الموضع عند كثير من ذوى الحجا باطل ، فإذا قيل لهم : دلونا على جهته ، ووقِفُونا على حده ، زعموا أنها من أرادها ألقى على قلبه الصَّرْفة ، حتى كأنهم بنو إسرائيل الذين كانوا مع موسى فى التيه فصدهم الله تعالى عن الخروج ، ولم يجعل لهم سبيلا إلى أن تم فيهم مراده ، وانتهى فيهم حكمه ، وقد قال فى ذلك شاعرهم يخبر بمثل ما وصفنا من قولهم فى هذه الأرض المجهولة[1] :

دعا جحفلا لا يهتدى لمقيله — من اللؤم حتى يهتدى لوبار[2]

[وَدَاعٍ دعا والليل مُرْخٍ سدوله — رجاء القرى يا مسلم بن جبار][3]

وأقوالهم فى مثل هذا كثيرة .

والعرب ممن سلف وخلف فى الجاهلية والإسلام يخبرون عن هذه الأرض كإخبارهم عن وادى القُرَى وَالصَّمَّان وَالدَّهْنَاء والرمل الذى بيبرين وغيرها من الأرضين التى نزلوا فيها ، ويخيمون عليها طلباً للماء والكلأ ، وزعموا أنه ليس بهذه الأرض اليوم أحد إلا الجن والإبل الوَحشية ، وهى عندهم من الإبل التى قد ضربت فيها فحول الجن ، فالوحشية من نسل إبل الجن ، والعبدية والعسجدية والعمانية قد ضربت فيها الوَحْشِية ، وفى ذلك يقول أبو هريم[4] :

كأنى عَلَى وَحْشِية أو نَعَامة — لها نسب فى الطير وَهْوَ ظليم[5]

(١) أعتقد أن ترتيب البيتين أن يتقدم ثانيهما

(٢) فى ب « دعا جحلا لا يهتدى لمقيله » (٣) هذا البيت ساقط من ا

(٤) فى ب « زهير بن أبى سلمى المزنى » (٥) فى ا « وهى ظليم »

والأشعار فى ذلك كثيرة .

وفى بسطنا لجوامع أخبار العرب فيما نقلته عن أسلافها ـ مما أمكن كونه وخرج عن حد الوجوب والجواز — خروج عن حد الإيجاز والاختصار ، وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا .

مسير عبد ضخم للطائف

وسار بعد وبار بن أميم عبدُ ضخم [1] بن إرم بن نوح بولده ومن تبعه فنزلوا الطائف، فهلك هؤلاء ببعض غوائل الدهر، فدثروا وذكرتهم الشعراء، [وفيهم يقول الأزدى :

وعبد ضـــخم إذا نسبتهم ابيضّ أهل الحي بالنسب

ابتـــدعوا منطقاً يجمعهم فبين الخط قحة العرب]

بدء الكتابة بالعربية

وذكروا أن هؤلاء أول من كتب بالعربية ، ووضع حروف المعجم وهى حروف ا ب ت ث ، وهى التسعة والعشرون حرفا [2] ، وقد قيل غير ذلك، على حسب تنازع [الناس فى] بدء الكتابة .

مسير جرهم إلى مكة

وسار بعد عبد ضجم بن إرم جُرْهُم بن قحطان بولده ومن تبعه ، وطافوا البلاد ، حتى أتوا مكة فنزلوها [وفى ذلك يقول مُضَاض بن عمرو الجرهمى:

هذا ســـــبيل كسبيل يعرب البادىء القول المبـــين المعرب

يا قوم سيروا عن فعال الأجنب جرهم جدى وقحطان أبى][4]

مسير أميم إلى فارس

وسار أميم بن لاوذ بن إرم بعد جرهم بن قحطان فحلّ بأرض فارس ؛ فالفرس — على حسب ماقدمنا فيما سلف من هذا الكتاب ، فى باب تنازع الناس فى أنساب فارس — من ولد كيومرث بن أميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ، وفى ذلك يقول بعض مَنْ تقدم من أهل الحكمة من شعراء فارس فى الإسلام[3] :

---

(١) فى ا « عبد بن صخم » وانظر ص ١٣٢ من هذا الجزء .

(٢) فى ا « الثمانية والعشرون » (٣) فى ا « بعد ظهور الإسلام »

(٤) جميع ما بين المعقوفين ساقط من ا وحدها والشعر المروى هنا كله غير مستقيم

أبونا أميم الخير من قبل فارس وفارس أرباب الملوك؛ بهم فخرى
[وما عد قوم من حديث وحادث من المجد إلا ذِكْرُنا أفضل الذكر][1]

أول امرئ بنى البيوت أميم بن لاوذ

وقد ذكر جماعة من أهل السير والأخبار أن جميع من ذكرنا من هذه القبائل كانوا أهل خيم وبدواً مجتمعين فى مساكنهم من الأرض، وأن أميما أول من ابتنى البنيان، ورفع الحيطان، وقطع الأشجار، وسقف السقوف، واتخذ السطوح، وأن ولد حام [بن نوح حلوا ببلاد الجنوب، وأن ولد كوش بن كنعان خاصة هم النوبة، على حسب ما قدمنا آنفاً فى باب السودان من هذا الكتاب، وأن فخذا من ولد كنعان بن حام][2] ساروا نحو بلاد إفريقية وطنجة من أرض المغرب، فنزلوها، وزعم هذا القائل أن البربر من ولد كنعان بن حام.

أنساب البربر

وقد تنازع الناس فى بدء أنساب البربر؛ فمنهم من رأى أنهم من غسان وغيرهم من اليمن، وأنهم تفرقوا حول تلك الديار حين تفرق الناس من بلاد مأرب عندما كان من سيل العرم، ومنهم من رأى أنهم من قيس عيلان، ومنهم من رأى غير ذلك، وقد ذكرناه فيما سلف من كتبنا.

الشام بلاد كنعان

ونزل ولد كنعان بن حام — وهم الأغلب من ولد كنعان — بلادَ الشام، فهم الكنعانيون، وبهم تعرف تلك الديار، فقيل: بلاد كنعان.

مسير نوفير إلى الهند

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أخبار مصر بن حام وبيصر والأنباط.

وسار نوفير [بن فوط][3] بن حام بولده ومن تبعه إلى أرض الهند والسند، وبالسند

(١) كذا فى ب، ولعله «من قديم وحادث» والبيت برمته ساقط من ا
(٢) هذه الزيادة لاتوجد فى ا
(٣) هكذا فى ا، وفى ب «بوقر بن لوط» وسقط الأب فيما يلى

أم لهم أجسام طوال ، وهم على بلاد المنصورة من أرض السند ؛ فعلى هذا القول أن الهند والسند من ولد نوفير [بن فوط] بن حام بن نوح ، فولد حام فى الجنوب من الأرض الأكثر منهم، وولد يافث فى الشمال فيما بين الشرق والمغرب على حسب ما ذكرنا من الأمم تفرقها فى الشرق وغيره مما يلى جبل القبخ والباب والأبواب.

عبادة عاد ، وبغيهم

وبَغَتْ عاد فى الأرض وملكها الخلجان بن الوهم[1]؛ فكانوا يعبدون ثلاثة أصنام ، وهى : صمود ، وصداء ، والهباء ، فبعث الله إليهم هوداً على حسب ما قدمنا ، فكذبوه ، وهو هود بن عبد الله بن رياح بن خالد بن الخلود بن عاد[2] ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وقد قدمنا أن قوم عاد كانوا عشرة قبائل ، وقد تقدم ذكر أسمائهم ، فدعا عليهم هود ؛ فمنعوا المطر ثلاث سنين ، وأجدبت الأرض فلم يَدِرَّ عليهم ضَرْعٌ[3].

أصل الشرك

وقد كان من ذكرنا من الأمم لا يجحد الصانع جل وعز ، ويعلمون أن نوحا عليه السلام كان نبياً، وأنه وفى لقومه بما وعدهم من العذاب، إلا أن القوم دخلت عليهم شُبَه بعد ذلك لتركهم البحث واستعمال النظر، ومالت نفوسهم إلى الدَّعة، وما تدعو إليه الطبائع من المَلاذِّ والتقليد، وكان فى نفوسهم هيبة الصانع، والتقرب إليه بالتماثيل وعبادتها ، لظنهم أنها مقربة لهم إليه ، وكانوا مع ذلك يعظمون موضع الكعبة ، وكان موضعها على ما ذكرنا ربوة حمراء ، فوفدت عاد إلى مكة يستسقون لهم ، وكان بمكة يومئذ العماليق ، فأتى الوفد مكة ، فأقبلوا على

وفود عاد على مكة

---

(١) فى ب « الجلجان بن الوهم ».

(٢) كذا فى ا وتاريخ الطبرى (١ : ١١١) وفى ب « بن الخلود بن عياذ » وسقط من الطبرى ذكر خالد ، وفيه أن الذين نزلوا الهند بنو نوقين بن يقن (١:١٠٥).

(٣) فى ا « فلم يدر لهم ضرع » .

الشرب واللهو ، حتى غَنَّتْهم[(١)] الجرادتان قَيْنَتَا معاوية بن بكر بشعر فيه حَثٌّ لهم[(٢)] على ما وردوا من أجله ، وهو :

ألا يا قَيْلُ وَيْحَكَ قم فَهَيْنِمْ ... لعــــلَّ الله يمطرنا غماما
فيسقى أرض عادٍ ، إنَّ عاداً ... قد امْسَوْا لا يبينون الــكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو ... به الشيخ الــكبير ولا الغلاما[(٣)]
وإن الوحش تأتى أرض عاد ... فلا تخشى لراميهم سهاما
وأنتم ههنـــــا فيما اشتهيتم ... نهارَكُمُ وليلــكُمُ التماما
فَقبِّح وفدكم من وفد قوم ... ولا لُقُّوا التحية والســـــلاما

[(٤)][ثم إن معاوية بن بكر دعا إحدى الجرادتين فغنت :

ألا يا قَيْلُ من عُوصٍ ... ومن عاد بن سام
وعاد كالشماريخ ... من الطول الــكرام
ســـــقى الله بنى عاد ... معاً صَوْبَ الغمام][(٤)]

فاستيقظ القوم من غفلتهم ، وبادروا إلى الاستسقاء لقومهم ؛ فــكان من أمرهم فى مجىء السحاب واختيارهم لمـا اختاروه منها ما قد اتضح ، وفيهم يقول مَرْثد بن سعد من كلمة :

عَصَتْ عاد رسولَهُمُ فأمسوا ... عِطَاشـــــا لا تَبُلُّهم السماء
ألا قَبحَ الإلهُ حُــلُومَ عاد ... فإنَّ قلوبهم قَفْرٌ هواء
[(٤)][لهم صنم يقـــال له صمود ... يقابله صـــــداء والهباء][(٤)]
[(٤)][فبصَّرنا النبى سبيلَ رشد ... فأبصرنا الهدى ونأى العَماء][(٤)]
[(٤)][وإنى موقن فاستيقنوه ... بأن إله هود هو العلاء][(٤)]

---

(١) فى ب « جاءتهم الجردانان » . (٢) فى ب « يشرحن لهم ما وردوا »

(٣) وقع فى ا « فليس يرجى * حياة الشيــخ الــكبر » وليس بشىء وورد فيها هذا البيت متأخرا عما بعده هنا .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من ا .

[وأن إله هود هو إلهى … على الله التوكل والرجاء]

[وأنى لاحق بالأمس هوداً … وإخوته إذا حق المساء]

مهلك عاد

فأرسل الله عز وجل على عاد الريح العقيم ،[فخرجت الريح عليهم]من وادٍ لهم ، فلما رأوا ذلك قالوا : (هذا عارضٌ ممطرنا) وتباشروا بذلك ، فلما سمع هود ذلك من قولهم قال : (بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم — الآية) فأتتهم الريح يوم الأربعاء ، فلم تأت الأربعاء الثانية ومنهم حَىٌّ ، فمن أجل ذلك كره الناس يوم الأربعاء[1]

وقد بينا فيما يرد من هذا الكتاب كيفية ذلك ، وكيف وقوعه من أيام الشهر فى باب [ذكر]الشهور ، فلما شاهد هود النبى صلى الله عليه وسلم ما نالَ قومه انفرد هو ومن معه من المؤمنين ، وفى ذلك يقول الهيل بن الخليل[2] :

لو أن عاداً سَمِعَتْ من هود … واتبعت طريقــــة الرشيدْ

وقد أتى بالوعـــد والوعيد … عاداً وبالتقريب والتبعيد

ما أصبحت عاثرة الجدود … صَرْعَى على الآناف والخدود

ساقطة الأجســـاد بالوصيد … ماذا جنى الوفد من الوفود ؟

أحدوثة فى الأبد الأبيد

[3][وقال مهد بن سعد فى شعر له :

دعاهم خيفـــــة لله هود … فما نفع النذير ولا أجابوا

فلمـــا أن أبوا إلا عتواً … أصابهمُ ببغيهم العذابُ][3]

وقد كان الآخر من ملوكهم الخلجان[4] ، وقد تقدم ذكرنا فى هذا الباب لملك عاد وثمود وغيرهم ، وقيل : إن أول من ملك عاداً من الملوك عاد بن عوص

---

(١) فى ا « فمن أجل ذلك كره أربعاء لا تدور » .

(٢) فى ا « النهليل بن الخليل » .

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ا (٤) فى ب «الآخر من الملوك الجلجان»

[ثلثمائة سنة ، ثم ملك ابن عاد بن عوص][1]

قال : ولما دثرت هذه الأمم من العرب والقبائل خلت منهم الديار فسكنها غيرهم من الناس ، فنزل قوم من بنى حنيفة اليمامة واستوطنوها ، وقد كانوا نزلوا بلاد الجُحْفَة بين مكة والمدينة[1] [وقطنوها ؛ فقال شاعرهم يرثى من كان في تلك الديار :

الجحفة

إنّ طَسْماً وجُرْهُماً وجديسا والعماليق فى السنين الخوالى
عمروا البيت حِقْبَة ثم وَلّوْا واستمرت بهم صروف الليالى
وأراك الزمان منهم ، وأضحى غيرهم ساكناً بتلك الخوالى
ورماهم رَيْبُ الزمان فأمسوا دورهم بلقع لِمَرِّ الشمال][1]

وقد كان نزل بلاد الجحفة بين مكة والمدينة عبيل[2] بن عوص بن إرم بن سام بن نوح هو وولده [ومن تبعه] ، فهلكوا بالسيل ، فسمى ذلك الموضع بالجُحْفَة لإجحافها عليهم .

يثرب

وكان يثرب بن قاتية[3] بن مهليل بن إرم بن عبيل نزل بالمدينة هو وولده ومن تبعه فسميت به يثرب ، فهلك هؤلاء أيضاً ببعض غوائل الدهر وآفاته ، فقال شاعرهم :

عَيْنُ جودى على عبيلٍ ، وهل يرجع ما فات فَيضُها بالسجام ؟
عَمَرُوا يثرباً وليس بها سَفْــر ولا صارخ ولا ذو سَنَام
غرَسوا لِينَهَا بمجرى معين ثم حفوا القَسيلَ بالآجام[4]

وقد أخبر الله جلت قدرته عنهم ، فقال : (كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صَرْصَرٍ عاتية).

قوم شعيب

وقد تنازع أهل الشرائع فى قوم شعيب بن نويل بن رعويل[5] بن مر بن عنقاء

(١) هذه الزيادة لاتوجد فى ا (٢) فى ب « عبيد بن عوص »
(٣) فى ب « يثرب بن قامة » (٤) فى ب «ثم حفوا السبيل بالأزحام»
(٥) فى ب « شعيب بن نوفل بن رعيل بن مر بن عنقاء — إلخ » .

ابن مَدْين بن إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم وكان لسانه العربية: فمنهم من رأى أنهم من العرب الدائرة، والأمم البائدة، وبعض من ذكرنا من الأجيال الخالية، ومنهم من رأى أنهم من ولد المحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم، وأن شعيباً أخوهم فى النسب، وقد كانوا عدة ملوك تفرقوا فى ممالك متصلة [ومنفصلة] فمنهم المسمى بأبى جاد[1] وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت، وهم على ما ذكرنا بنو المحض بن جندل، وأحرف الجُمَّل على أسماء هؤلاء الملوك، وهى التسعة والعشرون[2] حرفا التى [يدور] عليها حساب الجمل، وقد قيل فى هذه الأحرف غير ما ذكرنا من الوجوه، على حسب ما قدمنا فى هذا الكتاب، وليس كتابنا هذا موضعاً لما قاله الناس فيها، وتنازعوا فى تأويلها والمراد بها، وكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز، وكان هوز وحطى ملكين ببلاد وَجٍّ، وهى أرض[3] الطائف وما اتصل بذلك من أرض نجد، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكا بمَدْيَن، وقيل: ببلاد مصر، وكان كلمن على ملك [مدين، ومن الناس مَنْ رأى أنه كان ملكا على] جميع من سمينا مشاعاً متصلا على ما ذكرنا، وأن عذاب يوم الظُّلة كان فى ملك كلمن منهم، وأنَّ شعيباً دعاهم فكذبوه، فوعدهم بعذاب يوم الظلة، ففتح عليهم باب من السماء من نار، وانحاز[4] شعيب بمن آمن معه إلى الموضع المعروف بالأيكة، وهى غَيْضَةٌ نحو مدين، فلما أحس القوم بالبلاء واشتد عليهم الحر وأيقنوا بالهلاك طلبوا شعيباً ومن آمن معه وقد أظلتهم سحابة بيضاء طيبة النسيم والهواء لا يجدون فيها ألم العذاب، فأخرجوا شعيباً ومن آمن معه من موضعهم [وأزالوهم عن أماكنهم] وتوهموا أن ذلك ينجيهم مما نزل بهم، فجعلها الله عليهم ناراً، فأتت عليهم [فرثت حارثة بنت كلمن أباها فقالت وكانت بالحجاز:

حروف الجمل

عذاب يوم الظلة

---

(١) فى ا «بأبجد» (٢) فى ا «وهى الأربعة والعشرون حرفاً»
(٣) فى ا «وعلى أرض الطائف — إلخ» (٤) فى ب «ونجا شعيب»

كمن هَدَّم ركنى هُلْكُه وَسْطَ المَحَلّة
سيد القوم أتاه الحَتْفُ ناراً تحت ظُلّهْ
كونت نارا ، وأضحت دار قومى مضمحلّه][1]

وفى ذلك يقول المنتصر بن المنذر المدينى[2] :

ألا يا شعيب قد نَطَقْتَ مقالة أتيت بها عمرا وحَيَّ بنى عمرو
وهم ملكوا أرض الحجاز وأوجَهَا كمثل شعاع الشمس فى صورة البدر
ملوك بنى حُطِّى وسَعْفَصَ ذى الندى وهَوَّزَ أرباب البَنِيَّة والحجر
وهم قطنوا البيت الحرام ورتبوا خطورا وساموا فى المكارم والفخر[3]

ولهؤلاء الملوك أخبار عجيبة من حروب وسير ، وكيفية تغلبهم على هذه الممالك وتملكهم عليها ، وإبادتهم من كان فيها وعليها [قبلهم] من الأمم ، قد أتينا على ذكرها فيما تقدم من كتبنا فى هذا المعنى مما كتابُنَا هذا منبه عليها وباعث على درسها .

حضورا

تنازع الناس فى أنسابهم

وأما بنو حضورا وكانت أمة عظيمة ذات بطش وشدة ، فغلبت على كثير من الأرض والممالك ، وقد تنازع الناس فيهم : فمنهم من ألحقهم بمن ذكرنا من العرب البائدة ممن سمينا ، ومنهم من رأى أنهم من ولد يافث بن نوح ، وقيل فى أنسابهم غير ما ذكرنا من الوجوه ، وقد كان الله عز وجل بعث إليهم شعيب ابن مهدم بن حضورا بن عدى نبيا ناهيا عما كانوا عليه ، وهذا غير شعيب ابن نويل بن رعويل بن مر بن عنقاء بن مدين بن إبراهيم الخليل صاحب مدين المتزوج ابنتَه موسى بن عمران المقدم ذكره ، وبينهما مئون من السنين ، وقد

---

(١) لاتوجد هذه الزيادة فى ا
(٢) اختلف ترتيب هذه الأبيات فى النسخ ، ولا يوجد أولها فى ا
(٣) فى ا « وزينوا * مطورا وسادوا بالمكارم والفخر * » .

كان بين موسى بن عمران وبين المسيح ألف نبي[1] ، ولما بُعِثَ إلى حضورا ، واشتد كفرهم جَدَّ نبيهم شعيب بن مهدم[2] فى دعائهم وخَوَّفهم وتوعدهم ، فقتلوه من بعد ظهور معجزات كانت له ودلائل أظهرها الله على يديه تدل على صدقه وتثبت حجته على قومه ، فلم يضيع الله دمه ، ولم يكذب وعيده ، فأوحى الله تعالى إلى نبي كان فى عصره ـ وهو برخيا بن أخبيا بن رزنائيل بن شالتان[3] ـ وكان من سبط يهوذا بن إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام ـ أن يأتى بختنصر ـ وكان بالشام ـ وقيل : غيره من الملوك ، فيأمره أن يغزو العرب الذين لا أغْلاَقَ لبيوتهم ، فلما أتى برخيا ذلك الملك قال له الملك : صدقت ، لى سبع ليال أومَرُ فى نومى بما ذكرت ، وأنادَى بمجيئك إلى ، وأبشر بخطابك ، ويقال لى ما أمرتنى به ، وأن أنتصر للنبي المقتول الفريد [المظلوم] فسار إليهم فى جنوده وغشى دارهم فى عساكره ، وصاح بهم صائح من السماء وقد استعدوا لحربه من حيث عَمَّ الصوت جميعهم ، وهو يقول :

سَيُغْلَبُ قوم غالبوا الله جهرة . وإن كايدوه كان أقوَى وأكيدا

كذاك يضل الله من كان قلبه مريضاً وَمَنْ وَالَى النفاق وألحدا

فلما سمعوا ذلك علموا أن الأمر قد نزل بهم ، فانفضت جنودهم ، وتفرقت جموعهم ، وولَّتْ كتائبهم [يتراكضون] ، وأخذهم السيف ، فَحُصِدوا أجمعين . وقد ذكر أن فى قصة هلكهم قال الله عز وجل من قائل : (فَلَمَّا أَحَسُّوا بأسنا إذا هم منها يركضون) .

وقد تنوزع فى ديارهم والموضع الذى كانوا فيه : فمن الناس من رأى أنهم كانوا بأرض السماوة ، وأنها كانت عمائر متصلة ذات جنان ومياه متدفقة ، منازل حضروا

(١) فى ب « ألف سنة »
(٢) فى ب « شعيب بن ذى مهدم »
(٣) فى ب « برخيا بن أحيا بن روبابيل بن شاليال » .

وذلك بين العراق والشام إلى حد الحجاز ، وهى الآن ديار خراب برارى وقفار ، ومنهم من رأى أن ديارهم كانت [بلاد جند قنسرين إلى تل ماسح إلى خناصرة][1] إلى بلاد سورية ، وهذه المدن فى هذا الوقت مضافة إلى أعمال حلب من بلاد قنسرين من أرض الشام .

قال المسعودى : وقد أتينا على جمل من أخبار العرب الماضية والباقية ، وقد كان قبل ظهور الإسلام للباقى منهم مذاهب وآراء فى النفوس وتغول الغيلان والهواتف والجن ، وسنورد جملا منها منفردة على حسب ما يقتضيه شرط الاختصار فى هذا الكتاب ، وعلى حسب ما نمى إلينا من أخبارهم ، واتصل بنا من آثارهم ، وذكره الناس من آرائهم ، عن الفانى والباقى [منهم] ، إن شاء الله تعالى .

(١) زيادة فى اوحدها .

ذكر ما ذهب اليه العرب فى النفوس والهام والصفر

وغير ذلك [من مذاهب الجاهلية فى النفوس والمرىء]

[كانت للعرب مذاهب فى الجاهلية فى النفوس ، وآراء يتنازعون فى كيفياتها] : فمنهم من زعم أن النفس هى الدم [لا غير] وأن الروح الهواء الذى فى باطن جسم المرء منه نفسه ، ولذلك سموا المرأة منه نُفَساء ، لما يخرج منها من الدم ، ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نَفْسٌ سائلة إذا سقط فى الماء : هل ينجسه أم لا ؟ وقال تأبط شرا لخاله الشنفرى الأكبر [وقد سأله عن قتيل قتله — كيف] كانت قصته ؟ فقال : ألجمته عضبا فسالت نفسه سكبا ، وقالوا : إن الميت لا ينبعث منه الدم ولا يوجد فيه ، بَدْأً فى حال الحياة ، وطبيعته [طبيعة الحياة و] النماء مع الحرارة والرطوبة ؛ لأن كل حى فيه حرارة ورطوبة ، فإذا مات بقى اليبس والبرد ، ونفيت الحرارة ، وقال ابن براق من كلمة :

الاختلاف فى النفس

وكم لاقيت ذا نجب شديد تسيل به النفوس على الصدور

[إذا الحرب العوان به استهامت وحال ، فذاك يوم قمطرير][1]

وطائفة منهم تزعم أن النفس طائر ينبسط فى جسم الإنسان ، فإذا مات أو قتل لم يزل مطيفا به متصوراً إليه فى صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً ، وفى ذلك يقول بعض الشعراء وذكر أصحاب الفيل :

سلط الطير والمنون عليهم فلهم فى صَدَى المقابر هَامُ

لأن هذا الطائر يسمونه الهام ، والواحدة هامة ، وجاء الإسلام وهم على ذلك حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم « لاهَامَ ولا صَفَرَ » .

الهام

ويزعمون أنّ هذا الطائر يكون صغيرا ، ثم يكبر حتى يصير كضرب من البوم

---

(١) هذا البيت لا يوجد فى ا ، وفيه مع ما قبله الإقواء .

وهى أبداً تتوحش وتَصْدَح ، وتوجد أبداً فى الديار المعطَّلة والنواويس ، وحيث مصارع [القتلى وأجداث] الموتى .

ويزعمون أن الهامة لاتزال [على ذلك] عند ولد الميت فى محلته بفنائهم؛ لتعلم مايكون بعده فتخبره به ، حتى قال الصلت بن أمية لبنيه :

هامِى تخبِّرنى بمـا تستشعروا فتجنبوا الشنعاء والمـكروها(١)

وفى ذلك يقول فى الإسلام توبة فى ليلى الأخيلية :

ولو أن ليلىَ الأخيلية سلَّمت علىَّ وَدونى جندل وصفائح(٢)

لسلمت تسليم البشاشة ، أو زقا إليها صدًى من جانب القبر صائح(٣)

وهذا من قولهم يدل على أن الصَّدَى [قد] ينزل إلى قبورهم وَ يصعد [وَمن ذلك ماروى عن حاتم طيء مما سنورد خبره فى هذا الـكتاب .

أتيت لصحبك تبغى القرى لدى حُفَر صدحَتْ هامها](٤)

وسنذكر هذا الشعر فى أخبار الحجاج بن يوسف مع ليلى الأخيلية من هذا الـكتاب ، وقد قيل : إن هـــذه الأبيات لغير توبة [فى غير ليلى] ، وهذا كثير فى أشعارهم ومنثور كلامهم وسَجْعهم وخطبهم ، وغير ذلك من محاوراتهم .

تنقل الأرواح

وللعرب وغيرهم من أهل الملل ممن سلف وخَلَفَ كلام كثير فى تنقل الأرواح وقد أتينا على [مبسوط] ذلك فى كتابنا المترجم بـ « سر الحياة » وكتاب « الدعاوى » وبالله التوفيق .

---

(١) فى ا ، ب « هامتى تخبرنى » ولا يستقيم معه وزن البيت، وفى ا « وتحيفوا الشنعاء والمـكروها» وليس بشىء .

(٢) فى ا « وفوقى تربة وصفائح » .

(٣) فى ا « أو رقى إليها » وليس بذاك .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من ا ، والـكلام الذى بعده مرتبط ببيتى توبة قبل المعقوفين .

ذكر أقاويل العرب فى الغيلان والتغول

وما لحق بهــذا الباب

للعرب فى الغيلان وتغولها أخبار طريفة .

رأيهم فى الغول

العرب يزعمون أن الغول يتغول لهم فى الخلوات ، ويظهر لخواصهم فى أنواع من الصور ، فيخاطبونها ، وربما ضيفوها[1] ، وقد أكثروا من ذلك فى أشعارهم:
فمنها قول تأبط شراً :

وأدهم قــد جُبْت جلبــابه كما أجتابت الــكاعب الخيعلا
[على إثر نارٍ يَنَوِّرُ بهـــا فبتُّ لهـا مدبِراً مقبلا][2]
فأصبحتُ والغول لى جارة فياجارتى أنت ما أهْوَلاَ
وطالبتهـــا بُضْعهاَ فالتوت بوجـــــه تغول لستغولا
فمن كان يسأل عن جارتى فإن لهـــا باللِّوَى منزلا

وَيزعمون أن رجليها رجلا عنز[3] ، وكانوا إذا اعترضتهم الغول فى الفيافى يرتجزون ويقولون :

يا رجــل عنز أنْهِقِى نهيقا لن نترك السبسب والطريقا[4]

الغول تتلون وتضلل

وذلك أنها كانت تتراءى لهم فى الليالى وأوقات الخلوات ، فيتوهمون أنها إنسان فيتبعونها ، فتزيلهم عن الطريق التى هم عليها ، وتتيههم . وكان ذلك قــــد اشتهر عندهم وعرفوه ، فلم يكونوا يزولون عمــا كانوا عليه من القَصْد فإذا صيح بها على ما وصفنا شردت عنهم فى بطون الأودية ورءوس الجبال .

وقد ذكر جماعة من الصحابة [ذلك] : منهم عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه! أنه

(١) فى ا « وربما باضعوها » (٢) هذا البيت لا يوجد فى ب
(٣) فى ا « رجلا عير » .
(٤) فى ب « لن تبزلى السبيل والطريقا » وفى ا « يارجل عير » .

شاهد ذلك فى بعض أسفاره إلى الشام ، وأن الغول كانت تتغول له، وأنه ضربها بسيفه ، وذلك قبل ظهور الإسلام ، وهذا مشهور عندهم فى أخبارهم

رأى الفلاسفة

وقد حكى عن بعض المتفلسفين أن الغول حيوان شاذ من جنس الحيوان [مُشَوَّه] لم تحكمه الطبيعة ، وأنه لما خرج منفرداً فى نفسه وهيئته توحَّش من مسكنه ، فطلب القفار ، وهو يناسب الإنسان والحيوان البهيمى فى الشكل ، وقد ذهبت طائفة من الهند إلى أن ذلك إنما يظهر من فعل ما كان غائبا من الكواكب عند طلوعها ، مثل الكوكب المعروف بكلب الجبار[1] ، وهى : الشِّعْرَى الْعَبُور ، وأن ذلك يحدث داء فى الكلاب ، وسهيل فى الحمل والذئب فى الدب[2] وحامل رأس الغول يحدث عند طلوعه تماثيل وأشخاص تظهر فى الصحارى ، وغيرها من العامر والخرائب ، فتسميه عوام الناس غولا ، وهى ثمانية وأربعون كوكبا ، وقد ذكرها بطليموس وغيره ممن تقدم وتأخر ، وقد وصف ذلك أبو معشر فى كتابه المعروف بـ « المدخل الكبير إلى علم النجوم » وذكر كيفية صورة كل كوكب عند ظهوره فى أنواع مختلفة .

[3][وزعمت طائفة من الناس أن الغول اسم لكل] شىء يعرض للسُّفَّار ، ويتمثل فى ضروب من الصور ، ذكراً كان أو أنثى ، إلا أن أكثرهم كلامهم على أنه أنثى ، وقد قال أبو المطراب [عبيد بن أيوب العنبرى] :

[وحالفنى الوحوش على الوفاء وتحت عهودهن وَبَا البعاد]

وغولا قفرة ذكراً وأنثى كأن عليهما قطع النجاد

وقال آخر [وهو كعب بن زهير الصحابى) :

[فما تَدُومُ على حال تكون بها كما تَلَوَّنُ فى أثوابها الغولُ][3]

(١) فى ب « بكلب الحبار » .

(٢) فى ا « وسهيل فى الجمال والذئب فى الذئبة » ولا يتجه لى معنى ما فى ا ولا ما فى ب

(٣) ما بين هذين المعقوفين متأخر فى ا عن الذى بعده .

وقد قدمنا [ذكر ذلك] فيما سلف من كتبنا فى هـذا المعنى ، وأن كل كوكب [من هذه] يظهر فى صورة مخالفة لما تقدمه من الصور يحدث فى هذا العالم نوعا من الأفعال [لم ينفرد يفعله غيره من الكواكب] .

[1][وكانت العرب قبل الإسلام تزعم أن الغيلان توقد بالليل النيران للعبث والتحيل ، واختلال السابلة ، قال أبو المطراب :

فلله در الغول ، أى رفيقةٍ   لصاحب قفر خائف وهو معبر
أرنَّتْ بلحن بعد لحن وَأوقدت   حوالىَّ نيرانا تلوح وتزهر][1]

قولهم فى السعلاة

وقد فرقوا بين السِّعْلاَة والغول ، قال عبيدُ [بن أيوب] :

وساخرة منى ، ولو أن عينها   رأت مارأت عينى من الهول جُنَّتِ
أبيت بسعلاة وغول بقفرة   إذا الليل وارى الجنَّ فيه أرَنَّتِ

وقد وصفها بعضهم ، فقال :

وَحافِرُ العنز فى سَاقٍ مُدَمْلَجة[2]
وَجفن عين خِلاَفَ الإنس بالطول

قولهم فى الشياطين ونحوهم

وللناس كلام كثير فى الغيلان ، والشياطين ، والمردة ، والجن ، والقطرب ، والغدار[3] ، وهو نوع من الأنواع المتشيطنة ، يعرف بهذا الاسم ، يظهر فى أكناف اليمن والتهائم ، وأعالى صعيد مصر ، وأنه ربما يلحق الإنسان فينكحه فيتدود دبره فيموت ، وربما يتوارى للانسان فيذعره ، فإذا أصاب الإنسان

---

(١) لايوجد ما بين المعقوفين فى ا   (٢) فى ا « وحافر العير فى ساق مدلجة »
(٣) فى ب « والقرب والقدار » .

ذلك منه يقول له أهل تلك النواحى التى سمينا : أمنكوح هو أم مذعور ؟ فإن قالوا منكوح يُئِسَ منه ، وإن كان مذعوراً أسكن روعه ، وشجع مما ناله ، وذلك أن الإنسان إذا عَايَنَ ذلك سقط مغشيا عليه ، ومنهم من يظهر له ذلك فلا يكترث [به] لشهامة قلبه ، وشجاعه نفسه ، وما ذكرنا مشهور فى البلاد التى سمينا ، ويمكن جميعُ ماقلنا مما حكيناه عما ذكرنا من أهل هذه البقاع أن يكون ضربا من السوانح الفاسدة والخواطر الرديئة ، أو غير ذلك من الآفات والأدواء المعترضة لجنس الحيوان من الناطقين [وغيرهم] ، والله أعلم بكيفية ذلك .

ولم نذكر فى هذا الكتاب ماذكره أهل الشرائع ، وماذكره أهل التواريخ والمصنفون لكتب البدو ، كوهب بن منبه ، وابن إسحاق ، وغيرهما أن الله تعالى خلق الجان من نار السموم ، وخلق منه زوجته ، كما خلق حواء من آدم ، وأن الجان غشيها ، فحملت منه ، وأنها باضت إحدى وثلاثين بيضة ، وأن بيضة من تلك البيض تفلقت عن قطربة ، وهى : أم القطارب ، وأن القطربة على صورة الهرة ، وأن الأبالس من بيضة أخرى منهم الحارث أبو مرة ، وأن مسكنهم [البحور ، وأن المَرَدَة من بيضة أخرى مسكنهم] الجزائر ، وأن الغيلان من بيضة أخرى ، مسكنهم الخلوات والفلوات ، وأن السعالى من بيضة أخرى ، سكنوا الحمامات والمزابل[1] ، وأن الهوام من بيضة أخرى ، سكنوا الهواء فى صورة الحيات ذوات أجنحة يطيرون هنالك ، وأن من بيضة أخرى [الدواسق ، وأن من بيضة أخرى] الحاميص — لأنا قد ذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا ، وتقدم من تصنيفنا ، وأتينا على ذكر [ما تشعب] من أنسابهم والمشهور من أسمائهم ومساكنهم من الأرض والبحار ، وإن كان ماذكره أهل

(١) فى ا « ومسكنها الجبال ، وأن الوهاويس » .

الشرع مما وصفنا ممكناً غير ممتنع ولا واجب ، وإن كان أهل النظر والبحث والمستعملون لقضية العقل والفحص يمتنعون مما ذكرناه ، ويأبون ما وصفنا ، والمصنف حاطِبُ ليلٍ ، فأوردنا ماقاله الناس من أهل الشرائع وغيرهم ؛ إذ كان الواجب على كل ذى تصنيف أن يورد جميع ما قاله أهل الفرق فى معنى ما ذكرناه ، وأتينا أيضاً على سائر ماخبرنا من الأشخاص التى هى غير مرئية من الجن والشياطين وما قالوه فى سلوك الجن [فى الناس] فى كتابنا المترجم بكتاب « المقالات ، فى أصول الديانات » وبالله التوفيق .

ذكر قول العرب فى الهواتف والجان

[قال المسعودى] :

فأما الهواتف فقد [كانت] كثرت فى العرب ، واتصلت بديارهم ، وكان أكثرها أيام مولد النبى[1] صلى الله عليه وسلم ، وفى أولية مبعثه ، ومن حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئى .

قولهم فى الهواتف والجان

قال المسعودى : وقد تنازع الناس فى الهواتف والجان : فذكر فريق منهم أن ما تذكره العرب وتُنْبىء به من ذلك إنما يعرض لها من قبل التوحد فى القفار ، والتفرد فى الأودية ، والسلوك فى المهامة والمَرَوْرَاة[2] المُوحِشَة ؛ لأن الإنسان إذا صار فى مثل هذه الأماكن وتوحَّد تفكر ، وإذا هو تفكر وجِلَ وجَبُنَ ، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة ، والأوهام المؤذية ، والسوداوية [الفاسدة] ، فصورت له الأصوات ، ومثلت له الأشخاص ، وأوهمته المحال ، بنحو ما يعرض لذوى الوسواس ، وقُطْبُ ذلك وأُسُّه سوء التفكير ، وخروجه على غير نظام قوى ، أو طريق [مستقيم] سليم ؛ لأن المتفرد فى القفار والمتوحد فى المَرَوْرَاة[3] مستشعر للمخاوف ، متوهم للمتالف ، متوقع للحُتُوف ؛ لقوة الظنون الفاسدة على فكره ، وانغراسها فى نفسه ، فيتوهم ما يحكيه من هَتْف الهواتف به واعتراض الجان له .

وقد كانت العرب قبل ظهور الإسلام تقول : إن من الجن مَنْ هو على

---

(١) فى ا « أمام مولد النبى صلى الله عليه وسلم » .

(٢) المروراة ــ بفتح الميم والراء وسكون الواو ــ الأرض لا شىء بها ، وجمعها مرورى ومروريات .

(٣) وقع فى أ فى هذا الوضع والذى قبله « المروت » ، وهو جمع مرت ، والمرت ــ بفتح الميم وسكون الراء ــ المفازة لا نبات فيها .

صورة نصف الإنسان ، وأنه كان يظهر لها فى أسفارها وحين خلواتها وتسميه شقًّا.

بين شق وعلقمة ابن صفوان

وذكر[وا] عن علقمة بن صفوان بن أمية بن محرب الكنانى جد مروان بن الحكم لأمه أنه خرج فى بعض الليالى يريد مالا له بمكة ، فانتهى إلى الموضع المعروف إلى هذا الوقت بحائط حرمان؛ فإذا هو بشق قد ظهر له فى أوصاف ذكرها فقال [شق]:

عاقم إنى مقتول وإن لحمى مأكول
أضربهم بالمسلول ضَرْبَ غلامٍ مشمول
رَحْبِ الذراع بهلول

فقال علقمة :

شِقُّ ، مالى ولك اغمد عنى مُنْصُلَكْ
تقتل من لا يقتلك ؟

فقال شق :

عَلْقَم ، غنيت لك كيما أبيح معقلك
فاصبر لما قد حُمَّ لك

فضرب كل منهما صاحبه ، فخرا ميتين ، وهذا مشهور عندهم ، وأن علقمة ابن صفوان قتلته الجن.

الجن تقتل حرب بن أمية

وذكروا عن الجن بيتين من الشعر قالتهما فى حرب بن أمية حين قتلته [الجن] وهما :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

واستدلوا على أن هذا [الشعر] من قول الجن بأن أحداً من الناس لا يتأتى له أن ينشد هذين البيتين ثلاث مرات متواليات لا يتتعتع[1] فى إنشادهما ؛ لأن الإنسان قد ينشد[2] العشرين بيتاً والأكثر والأقل أشد من هذا الشعر وأثقل منه ولا يتتعتع فيه.

(١) فى ا « إلا ويتعتع فى إنشادها » (٢) فى ب « لأن الناس قد ينشدون »

ممن قتله الجن

ومن قتلته الجن مرداس [بن أبي عامر] السُّلَمي ، وهو أبو عباس [بن مرداس] السُّلَمي ، ومنهم الغريض[1] المغني ، بعد أن ظهر غناؤه [وحمل عنه]، وقد كانت الجن نهته أن يغني بأبيات من الشعر ، فغناها[2] فقتلته .

قبر حاتم طيء يقرى الضيف

وحدث يحيى بن عقاب[3] ، عن علي بن حرب ، عن أبي عبيدة معمر بن المثنى عن منصور بن يزيد الطائي [ثم الصامتي][4] قال: رأيت قبر حاتم طيء ببقة[5] ، وهو [أعلى] جبل له وادٍ يقال له الحابل[6] ، وإذا قِدْرٌ عظيمة من بقايا قدور [حجر] مكفأة في ناحية من القبر من القدور التي كان يطعم فيها الناس ، وعن يمين قبره أربع جوارٍ من حجارة، وعلى يساره أربع جوارٍ من حجارة ، كلهن صاحبة شَعْر منشور محتجرات على قبره كالنائحات عليه ، لم يرَ مثل بياض أجسامهن وجمال وجوهن، مَثَّلهن الجن على قبره، ولم يكنَّ قبل ذلك، والجواري بالنهار كما وصفنا، فإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه ، ونحن في منازلنا نسمع ذلك، إلى أن يطلع الفجر [فإذا طلع الفجر][7] سكتن وهدأن ، وربما مر المار فيراهن فيفتتن بهن فيميل إليهن عجباً بهنَّ ؛ فإذا دنا منهن وجدهن حجارة .

وحدث يحيى بن عقاب[3] الجوهري [قال : حدثنا علي][8] قال : أنبأني عبد الرحمن بن يحيى المنذري ، عن أبي المنذر هشام الكلبي ، قال : حدثنا أبو مسكين بن جعفر بن محرز بن الوليد ، عن أبيه ، وكان مولى لأبي هريرة [قال: سمعت محمد بن أبي هريرة][8] يحدث قال : كان رجل يكنى أبا البختري[9] مر في نفر من قومه بقبر حاتم طيء ، فنزلوا قريباً منه ، فبات أبو البختري

---

(١) في ا «العريض» بالعين المهملة (٢) في ا « فغنى بها »
(٣) في ب «يحيى بن عتاب». (٤) في ب «منصور بن زيد الطائي»
(٥) في ب «ببيعة» وما أثبتناه موافق لما في ا
(٦) في ب «الحامل» (٧) زيادة عن ا ، ولابد منها
(٨) زيادة في ب وحدها . (٩) في ا «أبا الخيري»

يناديه : يا أبا الجعد ، أقْرِنا ، فقال قومه له : مهلا ما تكلم رِمَّةً بالية ؟ قال : إن طيئاً تزعم أنه لم ينزل به أحد قط إلا قَرَاه ، وناموا ، [فلما أن كان فى آخر الليل قام أبو البخترى مذعوراً فزعاً ينادى] : واراحلتاه ، فقال له أصحابه : مابدالك ؟ قال : خرج حاتم من قبره بالسيف ، وأنا أنظر ، حتى عقر ناقتى ، قالوا له : كذبت ، ثم نظروا إلى ناقته بين نوقهم مُجدَّلة لا تنبعث ، فقالوا له : [قَدْ] والله قَرَاك ، فظلوا يأكلون من لحمها شواء وطبيخاً حتى أصبحوا ، ثم أردفوه ، وانطلقوا سائرين ، فإذا راكبُ بعيرٍ يقود آخر قد لحقهم فقال : أيكم أبو البخترى ؟ فقال أبو البخترى : أنا ذلك ، قال : أنا عدى بن حاتم ، وإن حاتما جاءنى الليلة فى النوم ونحن نزول وراء هذا الجبل ، فذكر شتمك إياه ، وأنه قَرَى أصحابك براحلتك ، وأنشد [نى يقول فى شعره] :

أبا البخترىِّ ، لأنت امرؤ ظلومُ العشـيرة شتَّامُها
أتيْتَ بصحبك تبغى القِرَى لدى حفرة صدحَتْ هامها
أتبغى لىَ الذمَّ عنـد المبيت وحَـولَكَ طى وأنعامها ؟
فإنَّا سنشـــبع أضيافنا ونأتى المطى فنعتـــامها

وقد أمرنى أن أحملك على بعير مكان راحلتك ، فدونكه .

وقد ذكر هذا سالم بن زرارة الغطفانى فى مدحه عدى بن حاتم حيث يقول :

أبوك أبو سَقَّانَة الخير لم يزل لدن شبَّ حتى مات فى الخير راغبا[١]
[به تضرب الأمثال فى الشعر ميتا وكان لَهُ إذ ذاك حيا مصاحبا][٢]
قَرَى قبره الأضياف إذ نزلوا به ولم يقر قبر قبله الدَّهْرَ راكبا

وحدث أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد عن أبى حاتم السجستانى ، عن أبى عبيدة مَعْمَر بن المثنى ، قال : سمعت شيخاً من العرب قد أناف على المائة

(١) فى ا ، ب «أبوك أبو سباقة الخير» والذى نعرفه من كنية حاتم «أبو سفانة»
(٢) هذا البيت لا يوجد فى ا .

يقول: إنه خرج وافداً على بعض ملوك بنى أمية ، قال : فسرت فى ليلة ضُحيا كية حالكة كأن السماء قد برقعت نجومها بطرائق السحاب ، وضللت الطريق ، فتولجت وادياً لا أعرفه، فأهمتنى نفسى [بطرحها حتى الصباح](1) فلم آمن عريف الجن ، فقلت : أعوذ برب هذا الوادى من شره ، وأستجيره فى طريق هذا ، وأسترشده ، فسمعت قائلا يقول من بطن الوادى :

تيامن تجاهك تاق الكلا   تسير وتأمن فى المسلك(2)

قال : فتوجهت حيث أشار إلى وقد أمنت بعض الأمن فإذا أنا بأقباس نار تلمع أمامى فى خللها كالوجوه على قامات كالنخيل السحيقة ، فسرت وأصبحت بأوشال — وهو ماء لكلب — بقرب برية دمشق .

وقد ذكر الله عز وجل ذلك من فعلهم [فى كتابه] فقال : (وَأَنَّهُ كَانَ رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ، فزادوهم رَهَقاً)

---

(١) هذه الجملة لاتوجد فى ا ، وغناؤها قليل .

(٢) فى ا « تلق الضياء منيرا » .

ذكر ماذهبت إليه العرب

من القِيافة، والزجر [والعِيافة] والسانح، والبارح، وغير ذلك

الخلاف فى القيافة وجوازها

تنازع الناس فى العيافة والقيافة وغيرها مما ذكر: فذهبت طائفة إلى تحقيق القيافة والأخذ بها؛ لأن الأشباه تنزع، وغير جائز أن يكون الولد غير مشبه لأبيه، أو أحد من أهله من جهة من الجهات، ومنهم من ذهب إلى أن فى الولد مواضع تلحقها القيافة دون غيرها من الأعضاء مما لم يحلها الشبه[1]، ولا توافق بينهما بحد مشترك، وأبى آخرون ماوصفنا؛ إذ كان الناس قد يتشابهون فى حد الإنسانية [وغير ذلك] من الحدود، ويفترقون فى غيرها من الصور، وليس وجود الأغلب من الأشباه مما يوجب إلحاق الشبه بشبهه، دون أن يخالف من حيث أوجبت قضية [العقل] الاختلاف بالتباين.

اختصاص العرب بذلك

وهذه المعانى من خواص ما للعرب، وما تفردت به، دون سائر الأمم فى الأغلب منها، وإن كانت الكهانة قد وجدت فى غيرها، فإن القيافة[2] والزجر والتفاؤل والتطير ليس لغيرها فى الأغلب من الأمور، وليس هو موجوداً فى سائر العرب، وإنما هو للخاص منها الفَطِن والمتدرب الظَّنِن[3]، وإن وجد ذلك فى بعض الأمم، كوجود ذلك فى الإفرنجة، وما جانسها ممن هنالك من الأمم، فيمكن أن يكون ذلك موروثاً عن العرب، ومأخوذاً منها فى سالف الدهر، لأن العرب قد تنقلت فى البلاد، وتغيرت لغاتها[4]، فنسب ذلك إلى الجنس الذى قطنت بينهم العرب، ويمكن أن تكون الإفرنجة، ومن وجد فيها

---

(١) فى ا « مما لم يلحقها الشبه ولا وافق بينهما حد مشترك »
(٢) فى ا « فإن العيافة ». (٣) فى ب « والتدرب النظير »
(٤) فى ا « وتفترق لغاتها ».

ذلك من الأمم ، وأخذوه بعد ظهور الإسلام عمن جاورهم من أمم العرب، ممن سكن بلاد الأندلس من الأرض الكبيرة ، وإن كان ذلك قبل ظهور الإسلام فهو ماذكرنا آنفاً ، ويمكن أن يكون الله عز وجل خص بذلك أمما غير العرب كما خص العرب به ؛ إذ كان ذلك داخلا فى الإمكان ، خارجاً من باب الممتنع [والواجب] ، فيكون الزجر والفأل شاملا لبعض العرب وغيرها من خواص الأمم كوجود النقط للبربر[1] ، والنظر فى الكتف ، وغير ذلك مما خص به كل جنس من الناس .

منشأ القيافة

وقد ذهبت طائفة ممن سلف ، من أهل البحث [والتنقير] إلى أن القيافة : اسم مشتق من القَفْوِ ، وهو معنى استدلالىٌّ ، وأصل ذلك : أن الأشكال انفصلت فى صورة أنسابها بأشياء تخص الأنواع بالتشكيل وخواص وجدت لما[2] به ضربت الفواصل أضرابها فى وحيدات الأشخاص ، وكان التناسل على وساعه وقدر[3] من الغير لما توجبه الطبيعة من اتفاق كل شىء[4] فى حوزته ، وصرفه إلى وجهه ، كما خصت الطبيعة كل نوع من الجنس بفصل أبانته من أغياره ، وفرقت بينه وبين أشكاله ، فكذلك أيضاً خصت أوحاد الأشخاص المنفصلة فى الهيئة ، بتغير الغير من أغياره . وكذلك لا تكاد[5] فنون الصور تتراءى فى المرائى لغير من أغياره ؛ وكذلك لا تكاد وإن ضمها النوع وشملتها المادة[5] فالقائف يقارب بين الهيآت ، فيحكم للأقرب صورة ؛ لأن تشبيه النسل أقرب من تشبيه النوع . وكذلك تشبيه الشخص إلى النوع أقربَ منه إلى الجنس ؛

(١) فى ب « كوجود النعط للبربر » .

(٢) فى ا « انفصلت فى صور أنسابها بأشياء تختص الأنواع بالشكل بخواص وحيدة لها به ضربت الفواصل أجزاءها فى وحيدات الأشخاص » والكلام كله قلق مضطرب

(٣) فى ا « على تشابه وفرز » (٤) فى ا « من اتفاق كل شكل فى حوزته »

(٥) فى ا « وكذلك لا يكادى فنون الصور توازى فى أحد وإن ضمها النوع وشملها النسل » وهذه العبارات كلها قلقه غير واضحة .

لأن النوع والشخص ضمهما حدان مشتركان ، وإنما ضم [الجنس واحد فهو أصل القيافة عند هذه الطائفة ، وهو] ضرب من ضروب البحث ، وإلحاق النظير فى الأغلب بنظيره ، ومن حيث تساويهما من حيث ذكرنا فى قضية العقل ، وهو القياس بعينه ، وليس هذا الاستدلال من كلام أحد من فقهاء القائسين ولا غيرهم من المسلمين ، وإنما هذا [الكلام] انتزعناه من كلام طائفة من الفلاسفة المتقدمين ؛ فيجب أن يكون نظر القائف على قول هذه الطائفة إلى القَدَم ؛ لأنها نهاية الشكل وغاية الهيئة ، والولد لو خالف صورة أبيه فى كنه أفعاله ، وباينه فى سائر شكله فى الأغلب يوافقه فى القَدَم ؛ لأن النسل لا بد له من تخصيص قوته بشىء يميزه من غيره ويُبينه من سواه ، ولذلك وجدوا الطول فى أزدشَنُوأة ، ولذلك صار الجفاء والغلظ فى الروم ، وأصحاب الأجبال ، والأكثر من أهل الشام[١] وأوباش مصر ، واللؤم فى الخزر وأهل حران من بلاد ديار بكر[٢] ، والشح بفارس ، واللؤم على الطعام بأصفهان ، وصار نفر طح الرجاين وفَطَس الأنوف فى السودان ، وَالطرب فى الزنج خاصة .

وهذا الذى وصفنا عند هذه الطائفة من أسرار الطبيعة ، وخواص تأثير الأشخاص العلوية ، والأجسام السماوية ، وقد تقصينا هذا الشأن على كماله [فى كتابنا فى الأسرار الطبيعية وخواص تأثير الأشخاص العلوية والغرائب الفلسفية فى كتابنا فى الرءوس السبعية] فى أنواع السياسات المدنية [وملكها الطبيعية وفى كتاب الاسترجاع فى الكلام] على من زعم أن العالم متغير جوهره إلى الظلمة ، وأن النور فيه غريب مختار ، وأن ستة أنفس كانوا نوراً بلا أجساد : شيث بن آدم ، وزرادشت ، والمسيح ، ويونس ، واثنان لا يمكن ذكرهما ، وأن النور والظلمة قديمان ، وأنهما لا يُرَيَانِ إلا غير ممتزجين[٣] وأن الأشياء لا تعمل إلا فى جوهرهما ثم امتزجا من تلقاء أنفسهما ، من غير داخل عليهما ولا مكره أكرههما ، وهذا الخلف من الكلام والفاسد

(١) فى ا « من أغتام الشام » (٢) فى ا « من بلاد ديار مضر »

(٣) فى ا « وأنهما لم يزالا ممتزجين » .

من المقال ،[1] [وأعجب من هذا القول قول زرادشت نبي المجوس : إن القديم تعالى ذكره طالت وَحْدَته فطالت فكرته ، فلما أن طالت فكرته ، واشتدت وَحْشَته ، توالد الهَمُّ منه ، وهو الشيطان ، من تلك الوحشة التى ولدتها تلك الفكرة ، ونتجتها الوحدة ، وأن الله عز وجل لو كان قادراً على إفناء الهَمّ منه لما ضرب له أجلا ، ولا أجَّلَ له أمرا يغوى عباده ، ويفسد بلاده . وهذا هو المُحَال بعينه ، والتناقض بنفسه ، وعجب آخر من الآراء من قول بولس : إن المسيح عليه السلام هو الذى أرسله ، وإن المسيح إنسان وإله ؛ لأنه إله صار إنسانا ، وإنسان صار إلها ، وقد أتينا على جمل من متناقضات أهل الآراء ، فى أثناء ما تقدم من كتبنا ، وإنما تشعب بنا الكلام إلى هذا النوع ، وتغلغل بنا القول إلى هذا المعنى ، لأنه من جنس ما كنا فيه ، لكن عند ذكرنا لما أودعناه كتاب الاسترجاع والإبانة عن غرض فيه][1] .

الزجر

فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه من هذا الكتاب :

وحدث المنقرى عن العتبي ، قال : وقف عُبَيْد الراعى ذات يوم مع ركب بفَيْفَاء قَفْر[2] ، وكانوا يريدون استقصاد رجل من تميم ؛ إذ سنحت ظباء سود منكرة ، ثم اعترضت الركب مقصرة فى حُضْرِها[3] ، واقفة على شأنها ، فأنكر ذلك عُبَيْد الراعى ، ولم ينتبه له أصحابه ، فقال عبيد :

ألم تَدْرِ ما قال الظباء السوانح ؟ أطَفْنَ أمام الركب والركب رائح ؟
فكرَّ الذى لم يعرف الزَّجْرَ منهمُ وأيقن قلبى أنهن نوائح

ثم شارفوا مقصدهم ، فألْفَوُا الرئيس قد نهشته أفعى ، فأتت عليه .

(١) هذا الكلام الفاسد المحال لا يوجد فى ا . واتصاله بالموضوع الأصلى بعيد
(٢) فى ب « ركب من ثقيف على نفر » .
(٣) فى ا « محصرة فى حصرها واقفة على شأوها » .

قال أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى : وهذا من غريب الزجر ، وذلك أن السانح مَرْجُوٌّ عند العرب ، والبارح : هو المخوف ، وأظن عُبَيْداً إنما زجر الظباء فى حالة رجوعها ، ووصف الحال الأول فى شعره ، كما أن من شرط الواصف أن يبدأ بهوادى الأسباب[1] فيوضح عنها ، فهذا وجه زجر عبيد الراعى فى شعره .

اختصاص بعض العرب ببعض هذه الأمور

ويقال : إن الكهانة لليمن[2] ، والزجر لبنى أسد ، والقيافة لبنى مُدْلج وأحياء مضر بن نزار بن مَعَدّ ، لما كان من فعل بنى نزار الأربعة فى مسيرهم نحو الأفعى الجرهمى ، ووصفهم الجمل الشارد ، على ماذكرنا ، وذلك منهم قيافة؛ فمن هنالك تفرقت القيافة من أحياء مضر على حسب ماتغلغل فى العروق ونزع ، وأهل المياه أكْهَنُ ، وأهل البر القائم أقْوَفُ[3] ، وبأرض الجفار[4] — وهى بلاد الرمل بين بلاد مصر وأرض الشام — أناسٌ من العرب فى تلك الجفار يتناول الإنسان من تمر نخلهم فيغيب عنهم السنين ولم يروه ولا شاهدوه ، فإن رأوه بعد مدة علموا أنه الآخذ لتمرهم ، ولا يكادون يخطئون وهذا من فعلهم مشهور ، ولا يكاد تخفى عليهم أقدام أى الناس هم .

ورأيت بهذه الأرض أناساً قد رتبهم وُلاَة المنازل يطوفون فى هذا الرمل، يُعرفون بالقُصَّاص ، يقصون آثار الناس وغيرهم ، فيخبرون ولاة المنازل أى الناس هم ممن طرق [تلك] البلاد ، وهم لم يروهم ، بل رأوا آثار أقدامهم ، وهذا معنى لطيف وحس دقيق .

القيافة

وقد قَفَتْ القَافَةُ بقريش حين خرج النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ، حتى أتت باب الغار على حجر صلد وصخر صم وجبال لا رمل عليها ولا

---

(١) فى ا « بيوادى الأسباب » (٢) فى ا « إن الكهانة لقيس » .
(٣) فى ب « وأهل العروق أكهن ، وأهل الجمال أقوف » .
(٤) فى ب « وبأرض الحفاء » .

طين ولا تراب تتبين عليه الأقدام ، فحجبهم الله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم بما كان من نَسْج العنكبوت ، وماسَفَتْ عليه الرياح ، وما لحق القائف من الحيرة ، وقوله : إلى هنا انتهت الأقدام ، ومعه الجماعة من قريش ، لا يرون على الصلد ما يرى [ولا] على الصَّفْوَان ما يشاهد ، وأبصارهم سليمة ، والآفات عنها مرتفعة ، والموانع زائلة ، ولولا أن هنالك لطيفة لا يتساوى الناس فى علمها ، ولا يتفقون بالأبصار إحصاء إدراكها ، لَمَا استأثر بذلك طائفة دون أخرى ، وأهل الجبال والقفار والدَّهَاس[1] أزْجَرُ وأعرف .

القافة عند أهل الشرع

وقد ذهب قوم من أهل الشريعة ، من فقهاء الأمصار وغيرهم ممن سلف ، إلى الحكم بالقيافة ؛ استدلالا على شرف القيافة ، وعظم خطرها ، وكبر محلها ، وتحقيق فضلها ؛ لتعجب النبى صلى الله عليه وسلم منها ، وتصديقه مُجَزِّزًا المدْلجى .

وقد أنكر جماعة من فقهاء الأمصار ، ممن سلف وخلف ، الحكم بالقيافة ، والدليل على فساد الحكم بها إلحاق[2] النبى صلى الله عليه وسلم الوَلَدَ بأبيه حين شك فيه لعدم التشابه ، فقال : يارسول الله ، إن امرأتى وضعت غلاماً وإنه لأسود فقال النبى صلى الله عليه وسلم مقرباً إلى فهمه وقصداً منه لفساد علته التى قصدها وشك [من أجلها فى وَلده] « فهل لك من إبل » ؟ قال : نعم ، قال : « فما ألوانها » ؟ قال : حُمْر ، قال « فهل فيها من أوْرَقَ » ؟ قال : نعم ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فمن أين ذلك ؟ لعل عرقا نزع[3] » وقوله صلى الله عليه وسلم فى قصة شريك بن سَحْماء[4] « إن جاءت به على النعت المكروه ، فهو للذى رميت به » فلما جاءت به على النعت المكروه وَجَدَ التشابه بينه وبين من رميت به ، فقال النبى صلى الله عليه

(١) فى ب « والرهاش » محرفا .

(٢) فى ا « للدلائل الدالة على فساد الحكم فيها ، ولإلحاق النبى صلى الله عليه وسلم »

(٣) فى ا « فمن أين ذلك ؟ قال : لعل عرقا نزع ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فلعل عرقا نزع » وهو كذلك فى كتب الحديث .

(٤) فى ب « شريك بن أسحمة » وفى ا « شريك بن سنعمة » وكلاهما تحريف ما أثبتناه ، وسحماء : أم شريك ، وأبوه عبدة بن مغيث .

وسلم : « لولا حكم الله لكان لى ولك شأن » فألحق الولد مع عدم الشبه هنالك ، ولم يلحق بالشبه ههنا ، ولم يجعله حكما ، وقضى بوجود الفراش وثبوت النص على فساد الحكم بالتشابه .

وهذا باب قَصَدْنَا فيه هذا الكلام ، وإنما ذكرنا هذا الفصل لنذكر الحكم بضده من القيافة ، وهذا باب يطول فيه الخطب ، ويكثر فى معانيه الشرح ؛ لغموضه ولُطْفه[1] ، وقد ذكرنا وجه الكلام فى ذلك وما ذهبت إليه كل فرقة من الناس ممن سلف وخلف فى كتابنا المترجم بـ « كتاب الرءوس السبعة فى الإحاطة بسياسة العالم وأسراره » [وهو كتاب مشهور مستوعب][2] .

(١) فى ا « لغموضه ولطف الكلام فيه » .

(٢) لاتوجد هذه العبارة فى ا .

ذكر الكهانة ، وما قيل فى ذلك

وما اتصل بهذا الباب مما يراه الناس (١)

وحَدّ النفس الناطقة

أصل ادعاء علم الغيب

تنازع الناس فى الكَهَانة : فذهبت طائفة من حكماء اليونانيين والروم إلى التكهن، وكانوا يدعون العلوم من الغيوب ، فادعى صنف منهم أن نفوسهم قد صَفَتْ فهى مطلعة على أسرار الطبيعة ، وعلى ما تريد أن يكون منها ؛ لأن صور الأشياء عندهم فى النفس الكلية ، وصنف منهم ادعى أن الأرواح المنفردة — وهى الجن — تخبرهم بالأشياء قبل كونها ، وأن أرواحهم كانت قد صَفَتْ ، حتى صارت لتلك الأرواح من الجن متفقة(٢) .

وذهب قوم من النصارى أن السيد المسيح إنما كان يعلم الغائبات من الأمور ، ويخبر عن الأشياء قبل كونها ؛ لأنه كانت فيه نفس عالمة بالغيب ، ولو كانت تلك النفس فى غيره من أشخاص الناطقين لكان يعلم الغيب ، ولا أمة خلت إلا [وقد] كان فيها كَهَانة ، ولم يكن الأوائل من الفلاسفة اليونانية يدفعون الكهانات ، وشُهِرَ فيهم أن فيثاغورس كان يعلم علوما من الغيب وضروبا من الوحى ؛ لصفاء نفسه وتجردها من أدران هذا العالم(٣) ، والصابئة تذهب إلى أن أورياپس الأول وأورياپس(٤) الثانى — وهما : هُرْمُس ، وأغاثيمون — كانوا يعلمون

---

(١) فى ا « مما يراه النائم » .

(٢) فى ا « موافقة » .

(٣) فى ا « من أدناس هذا العالم » .

(٤) فى ب « أرياسيس وأوايس وأويس الثانى » .

الغيب؛ ولذلك كانوا أنبياء عند الصابئة ، ومنعوا أن تكون الجن أخبرت مَنْ ذكرنا بشىء من ضروب الغيب، لكن صفت نفوسهم حتى اطلعوا على ما استتر عن غيرهم من جنسهم .

وطائفة ذهبت إلى أن التكهن سبب نفسانى لطيف يتولد من صفاء مزاج الطباع ، وقوة النفس ، ولطافة الحس.

وذكر كثير من الناس أن الكهانة تكون من قبل شيطان يكون مع الكاهن يخبره بما غاب عنه ، وأن الشياطين كانت تسترق السمع وتلقيه على ألسنة الكهان فيؤدون إلى الناس الأخبار ، بحسب ما يرد إليهم، وقد أخبر الله عز وجل بذلك فى كتابه فقال :(وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حَرَساً شديداً وشهبا) إلى آخر القصة، وقوله تعالى : (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وقوله تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ـ الآية) والشياطين والجن لا تعلم الغيب ، وإنما ذلك لاستراقها السمع مما تسمع من الملائكة بظاهر قوله عز وجل : (فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين)

وطائفة ذهبت إلى أن وجه سبب الكهانة من الوحى الفلكى[1] ، وأن ذلك [يكون] فى المولد عند ثبوت عطارد على شرفه، وأما ماعداه من الكواكب المدبِّرات من النيرين والخمسة إذا كانت فى عقد متساوية[2] وأرباع متكافئة ومناظر متوازية وجب لصاحب المولد التكهن والإخبار بالكائنات قبل حدوثها؛ لإشراق هذه الأشراق الكوكبية ، ومن هؤلاء من أوجب كون ذلك فى القرانات الكبار .

وذهب كثير ممن تقدم [وتأخر] أن علة ذلك علل نفسانية ، وأن النفس إذا قويت وزادت قهرت الطبيعة، وأبانت للانسان كل سر لطيف[3]، وخبرته بكل

---

(١) فى ا « من الوجه الفلكى » . (٢) فى ا « فى عقود متساوية »
(٣) فى ا « وأباحت للانسان كل سر الطبيعة » .

معنى شريف ، وغاصت بلطافتها فى انتخاب المعانى اللطيفة البديعة[١] فاقتنصتها وأبرزتها على الكمال، وكشفت هذه الطائفة وجه اعتلالها فيما ذكرنا؛ فإنهم قالوا: رأينا الإنسان ينسب إلى قسمين، وهما النفس والجسد ، ووجدنا الجسد مَوَاتاً لا حركة له ولا حس إلا بالنفس، وكان الميت لا يعلم شيئاً ولا يؤدِّيه[٢]؛ فوجب أن يكون العلم للنفس ، والنفوس طبقات : منها الصافى وهى النفس الناطقة، [ومنها الكَدِرُ ، وهى النفس] الحسية والنفس النزاعية والنفس المتخيلة[٣]، ومنها ما قوته فى الإنسان أزيد [من قوة الجسم، ومنها ما قوة الجسم أزيد] منه ، فلما كانت النسبة النورية للإنسان إلى النفس كانت تهدى الإنسان إلى استخراج الغيب وعلم الآتى ، وكانت فطنته وظنونه أبعث وأعم ؛ فإذا كانت النفس فى غاية البرور ونهاية الخلوص وكانت تامة النور وكاملة الشعاع كان توجهها فى دراية الغائب بحسب ما عليه نفوس الكهنة، وبهذا وجد الكهان على هذه السبيل من نقصان الأجسام وتشويه الخلق ، كما اتصل بنا عن شق وسطيح وسَملقة وزوبعة وسديف بن هوماس[٤] وطريفة الكاهنة وعمران أخى مُزَيْقياء وحارثة وجهينة[٥] وكاهنة باهِلَةَ وأشباههم من الكهان .

العرافة وبعض العرافين

وأما العراف — وهو دون الكاهن — فمثل الأبلق الأزْدِى ، والأجْلَح[٦] الدهرى ، وعروة بن زيد الأزدى ، ورباح بن عجلة[٧] عراف اليمامة الذى قال فيه عُرْوَةُ :

جعلتُ لعَرَّافِ اليمامة حكمه وعَرَّاف نجد إن هما شَفَيَانِى

وكهند صاحب المسنبر ، وكان فى نهاية التقدم فى العرافة .

---

(١) فى ا «وغاصت بلطافتها فى كثائف المعانى البعيدة فاقتضتها وأبرزتها على الكمال »
(٢) فى ا « ولا يوريه » . (٣) فى ب « البراعية والنفس المجلية » .
(٤) فى ب « وسديف بن هرماس » . (٥) فى ب « وحارثة بنت جهينة » .
(٦) فى ا « والأخلج » . (٧) فى ب «ورياح بن كله » .

الكهانة فى العرب

والكهانة أصلها نفسىّ ؛ لأنها لطيفة باقية ومقارنة لأعجاز باهرة ، وهى تكون فى العرب على الأكثر وفى غيرهم على وجه الندرة ؛ لأنه شىء يتولد على صفاء المزاج الطبيعى ، وقوة مادة نور النفس ، وإذا أنت اعتبرت أوطانها(١) رأيتها منعاقة بعفة النفس وقمع شرها بكثرة الوحدة وإدمان التفرد وشدة الوحشة من الناس وقلة الأنس بهم ، وذلك أن النفس إذا هى تفردت فكرت ، وإذا هى فكرت تعدت(٢) [وإذا تعدت] هَطَلَ عليها سُحُبُ العلم النفسى ، فنظرت بالعين النورية ، ولحظت بالنور الثاقب ، ومضت على الشريعة المستوية ، فأخبرت عن الأشياء على ما هى به [وعليه] وربما قويت النفس فى الإنسان فأشرفت به على دراية الغائبات قبل ورودها

وكان كبراء اليونانيين ينعتون هذه الطائفة بالروحانية ، ويقولون : إن النفس إذا هى زادت(٣) وكانت أكبر جزء فى الإنسان تَهَدَّتْ(٤) إلى استخراج البدائع والأخبار المستترات ، واستدلوا على ذلك أن الإنسان إذا قوى فكره وزادت مواد نفسه وخاطره فكر فى الطارىء قبل وروده فعلم صورته فيكون ورُوده إلى حال على ما تصوره ، وهكذا النفس أيضاً إذا تهذبت كانت الرؤيا فى النوم صادقة وفى الزمان موجودة

الرؤيا وأسبابها

وقد تنازع الناس فى الرؤيا ، والسبب الموقع لها [وماهيتها] وكيفية وقوعها ، فقال فريق : إن النوم هو اشتغال النفس عن الأمور الظاهرة بملاقاة حوادث باطنة فيها ، وذلك على وجهين : أحدهما معروف [بالعين] قائم بالصفة [فى خواطر] تحدث فى النفس معانى تعبرها وتفرق بينها ، فتشغل به عن استعمال الظاهر ، والباطن فيه يؤدى إليه الحواس الخمس فتبطل الحواس عن الإدراك إلى الحاس أعنى الروح لاشتغال الروح عن استعمالها ، وإذا وجب بطلانها سمى نوماً عرضيا ، لأنه ليس النوم الكلى الذى يعم الأطفال والعجائز والشيوخ الذين خرجوا من موقع السرور أو مخافة الشر . وكذلك نوم الليل على ما وصفنا ، والوجه الآخر — وهو النوم الكلى الذى يعم الأطفال والعجائز والطبقات الحيوانية ذوات الفكر وغيرها — وهى طبيعة توجبها الخلقة فى

(١) فى ا « أقطابها » . (٢) فى ب « بعدت » وسقط منها ما بين المعقوفين
(٣) فى ب « إذ هى أدت » . (٤) فى ب « تهذبت » وهو تحريف.

وقته ضرورة كما يوجب الجوع فى وقته ضرورة ؛ لأن الجوع عند أهل صناعة الطب علة ، وهى الموجبة تحديد[1] الكبد من الفراغ من الأغذية .

ومنهم من رأى أن النفس تدرك صورة الأشياء على ضربين : أحدهما حس والآخر فكر ؛ فالصورة المحسوسة[2] لا تدركها إلا فى هيئتها ؛ فإذا تخلص علمها عندها كان إدراكها مفرداً من طبعها ؛ فيكون فكر الإنسان مالم يتم تابعاً[3] للحس ، حتى إذا نام فعدمت النفس الحواس كلها كانت تلك الصورة التى أخذتها من أعيان الأشياء فيها قائمة كأنها محسوسة ؛ لأن الحس بها فى أعيانها كان قبل استيلائها بالفكر ضعيفاً ، فلما ارتفع الحس قوى الفكر فصار يُصَوِّر الأشياء كأنها محسوسة يخطر على بال النائم منها كما يخطر على باله إذا كان يَقْظَان الشىء الذى قد كان أنيسه ، وليس لذلك نظام ، وإنما هو ما اتفق ؛ فلذلك يرى الإنسان كأنه يطير وليس بطائر ، وإنما [يرى] صورة الطيران مفردة كما يعلمها إذا غابت ؛ ولكن فكرته فيها تقوى حتى كأنها معاينة له ، فأما ما يراه النائم من الأشياء التى تدل على ما يريد فإنما ذلك لأن النفس عالمة بالصور ، فإذا خلصت فى المنام من شوائب الأجسام أشرفت على ما [تريد أن] ينالها ، وهى عالمة أنها فى حال اليقظة لا يمكنها معرفة ذلك فتتخيل خيالات تدل بها على تلك الأشياء التى تريد أن تكون ، حتى إذا [انتبهت] تذكرت تلك الخيالات وتلك الأشياء ؛ فمن كانت نفسه صافية لم تَكَدْ رؤياه تكذب [ومن كانت نفسه كدرة كانت تكذب] كثيراً ، ثم ما بين الكدرة والصافية وسائط على حسب مَرَاتبها من الصفاء والكَدَر يكون صدق ما تخيلته وكذبه .

وقال فريق آخر : إذا بطل استعمال النفس للحواس ظاهراً لم يبطل استعمالها فى نفسها ، ولم يبطل استعمال قواها ؛ فتنتقل فى الأماكن ، وتشاهد الأشخاص

---

(١) فى ا « لتحذير » . (٢) فى ب « المحبوسة » .

(٣) فى ب « مانعا للحس » .

بالقوة الروحانية التى ليست بجسم ، لا بالقوة الجسمانية الغليظة ، وذلك أن القوة الجسدانية لا تدرك إلا بمشاركة وملابسة الأشياء[1] : إما باتصال كاتصال اللون [من الملون] وإما بانفصال كانفصال الجسم من الأماكن ، والروح تدرك المتصل والمنفصل جميعاً ، لا بمشاركة الجسد الذى يوجب الحاجة إلى قرب المدرك .

ومنهم من رأى أن النوم هو اجتماع الدم وجريانه إلى الكبد .

ومنهم من رأى أن ذلك هو سكون النفس وهدوء الروح

ومنهم من زعم أن ما يجده الإنسان فى نومه من الخواطر إنما هو [من] عمل الأغذية والأطعمة والطبائع .

ومنهم من رأى أن بعض الرؤيا من المَلَك وبعضها من الشيطان ، واعْتَلَّ هؤلاء بقوله تعالى : (إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا)

وَمنهم من رأى أنها جزء من إحدى وستين جزأ من النبوة ، وتنازع هؤلاء فى كيفية [ذلك] الجزء وماهيته .

ومنهم من ذهب إلى أن الإنسان الحساس هو غير هذا الجسم [المرئى] وأنه يخرج عن البدن فى حال النوم فيشاهد العالم ويرى الملكوت ، على حسب صفائه ، واعْتَلَّ هؤلاء وغيرهم — ممن ذهب إلى نحو هذا المعنى — بقوله عز وَجل : (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها) إلى قوله (إلى أجل مسمى) .

وذهب الجمهور من المتطببين فى ذلك [إلى] أن الأحلام من الأخلاط ، وترى بقدر مزاج كل واحد منها وقوته ، وذلك أن الذين تشتغل أجسادهم من المرة الصفراء يَرَوْنَ فى منامهم النيران [والنواويس ودخانا ومصابيح وبيوتا تحترق ومدائن تلتهب بالنار] ونحو ذلك وما أشبهه ، والغالب على من كان مزاجه البَلْغَم أن يرى بحوراً وأنهارا وعيونا وأحواضا وغُدْرَانا ومياها كثيرة وأمواجاً ، ويرى

(١) فى ب « وملامسة الأشياء » .

كأنه يسبح أو يصيد سمكا ونحو ذلك وما قاربه ، والغالب على من كان مزاجه السوداء أن يرى فى منامه أجداثاً وقبوراً وأمواتاً [مكفنين بسواد] وبكاء ونوحاً ورنيناً وصراخاً وأشياء مفزعة وأموراً مقظعة وفيلة وأسوداً ، والغالب على من كان مزاجه الدم أن يرى خمراً أو نبيذاً ورياحين ولعباً وقصْفاً وعَزْفاً وأنواع الملاهى والرقص والسكر والفرح والسرور والثياب المُصَبَّغَات من الحمرة وغيرها وما لحق بهذا الباب مما وصفنا من أنواع السرور .

ولا خلاف بين المتطببين فى أن الضحك واللعب — على ماذكرناه — من أنواع السرور من الدم ، وأن كل حزن وخوف وإن اختلفت معانيه فإن ذلك من المرة السوداء ، واحتجوا بضروب من الاحتجاجات ؛ فهذه جملتها ، وقد أوضحناها هذا فى كتابنا «الرؤيا والكمال»(١) وفى كتاب «طب النفوس» فلا وجه لإطنابنا فى هذا الموضع من كتابنا هذا ؛ إذ كان هذا الكتاب كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر .

وإنما تغلغل بنا الكلام لما تشعب من مذاهبهم فى إخبارنا عنهم ، ولم نعرض فى هذا الكتاب لما ذهبت إليه الناس فى تحديد النفس ، وما قاله أفلاطون فى تحديده للنفس إن النفس جوهر محرك(٢) للبدن ، وما حَدَّه صاحب المنطق أن حد النفس كمال الجسم الطبيعى ، وحدها من وجه آخر أنه حَىّ بالقوة ، ولا للفرق بين النفس والروح ؛ لأن الفرق بينهما أن الروح جسم [والنفس لا جسم ، وأن الروح يحويه البدن ، وأن النفس لا يحويها البدن ، وأن الروح إذا فارق البدن بطل] والنفس تبطل أفعالها فى البدن ، ولا تبطل هى فى ذاتها ، والنفس تحرك البدن وتنيله الحس ، وقد ذكر أفلاطون فى كتاب السياسه المدنية [نهر البستان و] مايلحق الإنسان من صفات النفس الداخلة على النفس الناطقة ، وذكر أفلاطون فى كتابه إلى طيماوس(٣) ، وفى كتاب فاردون(٤) ، وكيفية مقتل سُقْراط

---

(١) فى ا « فى كتاب النهى والكمال » .

(٢) فى ب « جوهر ليس بمحرك للبدن »

(٣) « طيماويس » (٤) فى ب « قارون » .

الحكيم وما تكلم فى ذلك فى النفس والصورة .

وقد تكلم الناس فى طبقات النفوس وصفاتها من أصحاب الاثنين[1] وغيرهم من الفلاسفة ، ثم تنازع أهل الإسلام فى ماهية[2] الإنسان الحساس الدرّاك المأمور المنهى ، وما قالته المتصوفة وأصحاب المعارف والدعاوى فى طبقات النفوس من النفس المطمئنة ، والنفس اللوامة ، والنفس الأمارة بالسوء ، وغير ذلك مما ذهب إليه اليهود [والنصارى] والمجوس والصابئة ، وغير ذلك مما قد أتينا على إيضاحه فى كتاب « سر الحياة » وغيره من كتبنا .

سطيح وشق الكاهنات

وقد كان سَطِيحٌ الكاهن — وهو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب[3] بن عدى بن مازن بن غسان — يدرج سائر جسده كما يدرج الثوب ، لا عظم فيه إلا جمجمة الرأس ، وكانت إذا لمست باليد يلين عظمها ، وكان شق بن [مصعب بن شكران بن أترك بين قيس بن] عنقر بن أنمار بن ربيعة ابن نزار معه[4] فى عصر واحد ، وكان فيهما جمرة[5] الكهانة ، وكذلك سملقة[6] وزوبعة كانا فى عصر واحد ، والله أعلم .

---

(١) فى ب « من أصحاب الألسن وغيرهم »

(٢) فى ب « فى هيئة الإنسان الحساس » .

(٣) فى ا « دغير » مكان « ذئب » .

(٤) هكذا ورد فى أصول الكتاب نسب سطيح وشق الكاهنين مع سقوط ما بين المعقوفين فى نسب شق من ا ، وفيها « عقبر » مكان « عنقر » ، والذى فى سيرة ابن هشام (ج ١ ص ١٠) أن اسم سطيح ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن ، وأن شقا ابن صعب بن يشكر بن أفرك بن قسر ابن عبقر بن أنمار بن إراش ، بغير خلاف فى نسب سطيح ، ومع خلاف كثير فى أسماء آباء شق ، ولم نشأ أن نغير فى حروف الأصل بما يتوافق مع رواية السيرة لأنا نعلم أن العلماء لا يتفقون على ضبط هذه الأسماء وترتيبها .

(٥) فى ا « وكانت معها جمرة الكاهنة »

(٦) فى ب « سمقله »

ذكر جمل من أخبار الكهان ، وسيل العرم

وتفرق الأزد فى البلدان

قال المسعودى : قد ذكرنا جملا من الكهانة والقيافة والزجر والبارح والسانح فلنذكر الآن لمعا من أخبار الكهان ، وتفرق ولد سبأ فى البلدان .

السد وبانيه ومكانه

ولم يزل ولد قحطان فى أطيب عيش إلى أن هلك سبأ ، وكان القوم بعد مضى سبأ تداولتهم الأعصار قرناً بعد قرن إلى أن أرسل الله عليهم سيل العرم وذلك أن الرياسة انتهت فيهم إلى عمرو بن [عمرو[1] مزيقياء — وهو عمرو بن] عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن بن الأزد بن الغوث بن كهلان بن سبأ — وذلك ببلاد مازن من أرض اليمن[2] ، وهى بلاد سبأ التى ذكر الله فى القرآن أنه أرسل على أهلها سيل العرم ، وهو السد ، وكان فرسخاً فى فرسخ ، بناه لقمان الأكبر العادى — وهو لقمان بن عاد بن عاد[3] — وقد ذكرنا خبره وخبر غيره ممن كان عُمِّر منهم عمر النسور ، وهذا السد هو الذى كان يردُّ عنهم السيل فيما سلف من الدهر إذا حان أن يغشى أموالهم ، فمزقهم الله كل ممزق ، وباعد بين أسفارهم ، والناس فى قصة هلكهم يختلفون ، وفى سياقة أخبارهم يتباينون .

وصف بلاد سبأ

وذكر أصحاب التاريخ القديم أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن ، وأثراها ، وأغدقها ، وأكثرها جناناً وغيطاناً[4] ، وأفسحها مروجاً ، مع بنيان حسن

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ا ، ويؤيد أنه زيادة لا معنى لها ما سيأتى أن آخرهم هو عمرو بن عامر . وانظر أيضاً ص ١٨٥ و ١٨٦ و ١٩٠

(٢) فى ا « وذلك ببلاد مأرب من أرض اليمن »

(٣) فى ب « لقمان بن عاد بن عاديا » .

(٤) فى ب « وأكثرها جناناً وغيضاناً » .

وشجر مَصْفوف[١] ، ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار [وأزهار] متفرقة ، وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجدّ على هذه الحالة ، وفى العرض مثل ذلك ، وأن الراكب والمار كان يسير فى تلك الجنان[٢] من أولها إلى أن ينتهى إلى آخرها لا تواجهه الشمس ولا تعارضه ؛ لاستتار الأرض بالعمارة الشجرية ، واستيلائها عليها ، وإحاطتها بها ، وكان أهلها فى أطيب عيش وأرْفَهِهِ ، وأهنأ حال ، وأرغد قرى ، وفى نهاية الخصب ، وطيب الهواء ، وصفاء الفضاء ، وتدفق الماء ، وقوة الشوكة ، واجتماع الكلمة ، ونهاية المملكة وكانت بلادهم فى الأرض مثلا ، وكانوا على طريقة حسنة من اتباع شريف الأخلاق ، وطلاب الأفضال على القاصد والسفر[٣] بحسب الإمكان وماتوجبه القدرة من الحال ؛ فمكثوا على ذلك ما شاء الله من الأعصار ، لا يعاندهم ملك إلا قَصَموه ، ولا يوافيهم جَبّار فى جيش إلا كسروه ، فذلت لهم البلاد ، وأذْعَنَ لطاعتهم العباد ، فصاروا تاج الأرض ، وكانت المياه التى هى أكثر ما يرد إلى أرض سبأ تظهر من مخراق من الحجر الصَّلْد والحديد من [ذلك] السد والجبال ، طول المخراق فيما وصفنا فرسخ ، وكان وراء السد والجبال أنهار عظام ، وكان [فى] هذا المخراق الآخذ من تلك الأنهار ثلاثون نَقْباً مستديرة فى استدارة الذراع طولا وعرضاً مدورة على أحسن هندسة وأكمل تقدير ، وكانت المياه تخرج من تلك الأنقاب فى مجاريها حتى تأتى الجنان فترويها سَقْيا ، وتعم شرب القوم ، وقد كانت أرض سبأ قبل ماوصفنا من العمارة والخصب يركبها السيل من تلك المياه ، وكان ملك القوم فى ذلك الزمان يقرب الحكماء ، ويدنيهم ، ويؤْثرهم ، ويحسن إليهم ، فجمعهم من أقطار الأرض للالتجاء إلى رأيهم ، والأخذ من محض عقولهم ، فشاورهم فى دفع ذلك السيل

---

(١) فى ا « بين بنيان وجسر مقيم وشجر موصوف » .

(٢) فى ب « فى تلك الجبال » . (٣) فى ا « على القاعد والسافر »

وجصره، وذلك أنه كان ينحدر من أعالى الجبل هابطاً على رأسه [حتى] يهلك الزرع ويسوق من حملته البناء(١)، فأجمع القوم رأيهم على عمل مصارف [له] إلى برارى تقذف به إلى البحر، وأخبروا الملك أن الماء إذا حفرت المصارف الهابطة طابها، وانحدر فيها، ولم يتراكم حتى يعلو الجبال؛ لأن فى طباع الماء طلاب الخفض(٢) فحفر الملك المصارف حتى انحدر الماء وانصرف وتدافع إلى تلك الجهة واتخذوا السد(٣) فى الموضع الذى كان فيه بدء جريان الماء من الجبل إلى الجبل، وجعلوا فيه الخراق على ما وصفنا آنفا، ثم اجتذبوا من تلك المياه نهراً مرسلا [و] مقداراً معلوما ينتهى فى جريانه إلى الخراق، ثم ينبعث الماء منه إلى تلك الأنقاب، وهى الثلاثون مخراقا الصغار التى قدمنا ذكرها، وكانت البلاد عامرة على ما وصفنا [آنفا].

بدأ التهدم

ثم إن تلك الأمم بادت ومرت عليها السنون، وضربها الدهر بضرباته وطحنها بكلكله، وعمل الماء فى أصول ذلك الخراق، وأضعفه مَرُّ السنين عليه وتدافع الماء حوله، وقد قيل فى المثل: إذا أثر تواتر الماء على الحجر الصلد فما ظنك بسيل يتدافع على حديد وحجر مصنوع؟.

فلما سكنت أبناء قحطان ما وصفنا من هذه الديار وتغلبت على من كان فيها من القطان لم تعلم الآفة من انحطام السد والخراق [وضعفه، فغلب الماء عند تناهى السد والبنيان فى الضعف عنه على السد والخراق] والبنيان، فقذف به فى جريه ورمى به فى تياره، وذلك إبان زيادة الماء، واستولى الماء على تلك الديار والجنان والعمائر والبنيان، حتى انقرض سكان تلك الأرض، وزالوا عن تلك المواطن، فهذه جملة من أخبار سيل العرم وبلاد سبأ.

العرم

ولا خلاف بين ذوى الدراية(٤) منهم أن العرم هو المسناة التى قد أحكموا عملها لتكون حاجزاً بين ضياعهم وبين السيل، ففجرته فأرة، ليكون ذلك أظهر فى

(١) فى ا « ويسوق فى جفائه البناء »
(٢) فى ا « طلب الخفض »
(٣) فى ب « وانحدر السيل ».
(٤) فى ا « الرواية ».

الأعجوبة ، كما أفار الله تعالى [ماء] الطوفان من جوف تَنُّور ليكون أثبت فى العبرة وأوكَدَ فى الحجة، ولا يتناكر أحلاف قحطان من أهل تلك الديار إلى هذا الوقت ما كان من العرم ؛ لاستفاضته فيهم ، وشهرته عندهم.

مفاخرة عند السفاح بين قحطانى وعدنانى

وقد فخر بعض أولاد قحطان فى مجلس السفاح بمناقب قَحْطَان من حمير وكهلان على ولد نزار، وخالد بن صفوان وغيره من نزار بن معد منصتون هيبة[1] للسفاح ؛ لأن أخواله من قحطان ، فقال السفاح لخالد بن صفوان: ألا تنطق وقد غمرتكم قحطان بشرفها وعلت عليكم[2] بقديم مناقبها ؟ فقال خالد: ماذا أقول لقوم ليس فيهم إلا دابغ جلد ، أو ناسج برد، أو سائس قرد، أو راكب عَرْد، أغرقتهم فأرة ، وملكتهم امرأة ، ودل عليهم هدهد ، ثم مر فى ذمهم إلى أن انتهى إلى ما كان من قصتهم وتملك الحبشة[3] وما كان من استنقاذ[4] الفرس إياهم على حسب ما قدمنا آنفا .

العرم فى شعر العرب

وقد ذكروا فى أشعارهم العرم، وما كان لسبأ وأرض مأرب ، وأن مأرب سِمَةٌ للملك الذى [كان] يتملك على هذه البلدة ، وأن هذا الاسم وقع على هذا البلد فاشتهر به وصار سِمَةً له ، وقال الشاعر :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ ... يبنون من دون سيله العَرِما

وقد قيل : إن مأرب سِمَةٌ لقصر هذا الملك فى صدر الزمن ، قال أبو الطَّمَحان فى ذلك:

ألم تروا مأربا ما كان أحْصَنَهُ ... وما حواليه من سور وبنيان ؟
[ظل العبادىُّ يسقى فوق قُلَّته ... ولم يهب رَيْبَ دهر جِدِّ خَوَّان]
[حتى تناوله من بعدما هجعوا ... يرقى إليه على أسباب كتان]

---

(١) فى ب « يسطون بأبهة السفاح » .
(٢) فى ا « وغلبت عليكم » . (٣) فى ب « فى ملك الحبشة »
(٤) فى ا « واستعباد الفرس إياهم » .

وقد ذكر الأعشى [فى شعره]ما وصفنا [ه] حيث يقول فى كلمته :

فَفِى ذاكَ للمؤتسى أُسْوَةٌ بمأرب عَفّىَّ عليها العَرِمْ
رخام بناه لهم حمــــير إذا جاء ماؤُهم لم يَرِمْ
فأغنى الحروث وأغنامَهاَ على ساعة ماؤهم قد قسم
[فطار الفيولُ وفيَّالها بها فى فيافى سَرَابٌ يطم]
وكانوا بذلكمُ حقبةً فمال بهم جارف منهدم
فطاروا سراعا وما يقدمو ن منه لشرب صبى فطم

طول العمر وعمر النسور

وقد ذكرنا فى كتابنا « أخبار الزمان » الملك الذى طال عمره وحسنت سيرته،وأنه بنى هذا السد الذى هو المسناة، وأن عمره انتهى على عمر النسور،عند ذكرنا لطول الأعمار ، وقد أكثرت العرب فى صفة طول عمر النسر ،وضربت به الأمثال ، وبلبَدٍ ، وبصحة بدن الغراب ؛ فمن ذلك ما ذكره الخزرجى(١) فى شعره عند ذكره لطول عمر مُعَاذ بن مسلم بن رجاء مولى القَعْقاع بن حكيم(٢) من قوله فيه عند ذكره سنه وهرمه ، وهو :

إنَّ معاذ بن مسلم رجل قد ضَجَّ من طول عمره الأبَدُ(٣)
[قد شاب رأس الزمان واختضب الـــدهر وأثوابُ عمره جُدُدُ](٤)
يا نسر لقمان كم تعيش ؟ وكم تلبس ثوب الحيــــاة يا لُبَدُ ؟
قد أصبحَتْ دار حمير خَرِبت وأنت فيها كأنك الوَتِدُ
تســـــأل غربانها إذا حجلت كيف يكون الصُّدَاع والرمد

---

(١) فى ب « الخارجى » .
(٢) فى ا « القعقاع بن حكم » .
(٣) فى الأصول « قد صح فى طول عمره الأبد » وهو كما ترى من التحريف .
(٤) سقط هذا البيت من ا .

علة طول الأعمار ونقصها

وقد قدمنا فيما سلف فى مواضع من هذا الكتاب ماقالت الأوائل فى علة طول الأعمار وقصرها ، وعظم الأجسام فى بَدْء الأمر[١]، وتناقصها على مرور [الأعصار وَمُضِىّ] الدهور، وأن الله تبارك وتعالى لما بدأ الخلق كانت الطبيعة التى جعلها الله جبلّة للأجسام[٢] فى تمام الكثرة ونهاية القوة والكمال، والطبيعة إذا كانت نامة القوة كانت الأعمار أطول، والأجسام أقوى؛ لأن طرق الموت الطارىء يكون بانحلال قوى[٣] الطبيعة، فلما كانت القوة أتم كانت الأعمار أزيد، وكان العالم فى أولية شأنه تامّ العمر ، ثم لم يزل ينقص أولا فأولا لنقصان المادة [فتنقص الأجسام والأعمار مع نقصان المادة] حتى يكون آخر مائية الطبيعة فى تناهى النقص فى الأجسام والأعمار .

وقد أبى[٤] ما ذكرنا من عظم أجسام الناطقين فى صدور الزمان كثير من أهل النظر والبحث ممن تأخر ، وزعموا أن تأثيرهم فى بنيانهم وما ظهر فى الأرض من أعمالهم يدل على صغر أجسامهم ، وأنها كانت كأجسامنا ، لما شاهدوه من مساكنهم وأبوابهم وممراتهم فيما أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن فى سائر الأرض، كديار ثمود وتَحْتِها المساكن فى الجبال وحَفْرِها فى الصخر الصلد بيوتاً صغاراً وأبواباً لطافاً ، وكذلك أرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الأرض فى الشرق والغرب، وهذا [باب] إن أكثرنا القول فيه طال ، وإن أطْنبنا فى صفته كثر ، فلنرجع الآن إلى ما عنه عَدَلْنا ومن صفته خرجنا من ذكر سبأ ومأرب ، وما كان من الملك فى ذلك الوقت وهو عمرو بن عامر.

عود لذكر سبأ

وكان للملك عمرو بن عامر المقدم ذكره فى هذا الباب أخ كاهن عقيم ، يقال له عمران ، وكان لعمرو كاهنة من أهله من حمير[٥] يقال [لها] طريفة الخير[٦]

---

(١) فى ا « بدء الدهر » . (٢) فى ب « للاسلام » محرفا .
(٣) فى ب « بإعلال قوى الطبيعة » . (٤) فى ا « وقد أبى على ماذكرنا »
(٥) فى ا « وكان لعمرو زوجة كاهنة من أهل ردمان من حمير » .
(٦) كذا فى معجم البلدان (١ : ٢٥٥) ووقع فى الأصول « ظريفة الخير » وهو تحريف

فكان أول شىء وقع بمأرب وعرف من سيل العرم أن عمران الكاهن أخا عمرو رأى فى كهانته أن قومه سوف يمزقون كل ممزق ويباعد بين أسفارهم ، فذكر ذلك لأخيه عمرو ، وهو الملك مزيقياء الذى كانت محنة القوم فى أيام ملكه ، والله أعلم بكيفية ذلك .

طريفة الكاهنة

وبينا طريفة الكاهنة ذات يوم نائمة إذ رأت فيما يرى النائم أن سحابة غشيت أرضهم وأرعدت وأبرقت ثم صعقت فأحرقت ما وقعت عليه ، ووقعت إلى الأرض ، فلم تقع على شىء إلا أحرقته ، ففزعت طريفة لذلك ، وذعرت ذعراً شديداً ، وانتبهت[1] وهى تقول : ما رأيت مثل اليوم ، قد أذهب عنى النوم ، رأيت غيماً أبرق ، وأرعد طويلا ثم أصعق ، فما وقع على شىء إلا أحرق ، فما بعد هذا إلا الغرق ، فلما رأوا ما داخلها من الرعب خفضوها[2] وسكنوا من جأشها حتى سكنت ، ثم إن عمرو بن عامر دخل حديقة من حدائقه ومعه جاريتان له فبلغ ذلك طريفة ، فأسرعت نحوه ، وأمرت وصيفاً لها يقال له سنان أن يتبعها ، فلما برزت من [باب] بيتها عارضها ثلاث مَنَاجِذَ منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن ، وهى دواب تشبه اليرابيع يكنَّ بأرض اليمن ، فلما رأتهن طريفة وضعت يدها على عينها وقعدت ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجذ عنًّا فأعلمنى ، فلما ذهبت أعلمها ، فانطلقت مسرعة ، فلما عارضها خليج الحديقة التى فيها عمرو وثَبَتْ من الماء سُلَحْفاة ، فوقعت على الطريق على ظهرها وجعلت تريد الانقلاب فلا تستطيع ، فتستعين بذنبها وتحثو التراب على بطنها وجنبها وتقذف بالبول ، فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء مضت [طريفة] إلى أن دخلت على عمرو الحديقة حين انتصف النهار فى ساعة شديد حرها ، فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح ، فنفذت[3] حتى دخلت على عمرو

(١) فى ا « وأتت الملك عمرا وهى تقول » .
(٢) فى ا « حفظوها » وليس بذاك .
(٣) فى ب « فغدت حتى دخلت على عمر »

ومعه جاريتان [له] على الفراش ، فلما رآها استحيا منها ، وأمر الجاريتين فنزلتا عن الفراش ، ثم قال لها : هلمى يا طريفة إلى الفراش ، فتكهنت ، وقالت : والنور والظلماء، والأرض والسماء، إن الشجر لتالف[1]، وسيعود[2] الماء لما كان فى الدهر السالف ، قال عمرو : مَنْ خَبَّرك بهذا ؟ قالت : أخبرنى المَنَاجد ، بسنين شدائد ، يقطع فيها الولد والوالد[3]، قال : ماتقولين؟ قالت : أقول : قول النَّدْمَان لهفا، قد رأيت سُلَحْفَا ، تجرف التراب جَرْفا، و تقذف بالبول قذفا ، فدخلت الحديقة فإذا الشجر يتكفَّا ، قال عمرو : وما ترين ذلك؟ قالت: هى داهية ركيمة[4]، ومصائب عظيمة ، لأمور جسيمة[5]، قال: وماهى؟ ويلك! قالت: أجل إن لى الويل ، ومالك فيها من نيل ، فلى ولك الويل ، مما يجى به السيْل ، فألقى عمرو نفسه على الفراش وقال : ماهذا يا طريفة ؟ قالت : هو خطب جليل، وحزن طويل ، وخلف قليل ، والقليل خير من تركه ، قال عمرو : وما علامة ذلك ؟ قالت : تذهب إلى السد فإذا رأيت جُرَذا يكثر [بيديه] فى السد الحفر ، ويقلب برجليه من الجبل الصخر؛ فاعلم أن النقر عقر[6]، وأنه وقع الأمر ، قال : وماهذا الأمر الذى يقع؟ قالت: وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نزل ، فبغيرك يا عمرو فليكن الثكل ، فانطلق عمرو إلى السد يحرسه ، فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة مايقلبها خمسون رجلا فرجع إلى طريفة فأخبرها الخبر وهو يقول:

أبصرت أمراً عادنى منــه ألم ... وهاج لى من هَوْله بَرْحُ السَّقَمْ
من جُرَذٍ كفَحْلِ خنزير الأجَمْ ... أو تَيْس مرم من أفاريق الْغَنَمْ
يسحب صخراً من جلاميد العَرِمْ ... له مخاليبُ وأنياب قضم
ما فاته سحلا من الصخر قصم ... كأنما يرعى حظيراً من سَلَمْ

(١) فى ب « لهالك » ولا يتفق مع سجع الكهانة .
(٢) فى ا « وليعودن الماء كما كان » .
(٣) فى ب « الوالد الواحد » . (٤) فى ب « داهية كبيرة ».
(٥) فى ا « بأمور جسيمة » . (٦) فى ا « أن العفر حقر ».

فقالت له طريفة : إن من علامة ما ذكرت لك أن تجلس فى مجالسك بين الجنتين ، ثم تأمر بزجاجة فتوضع بين يديك ، فإنها ستمتلىء بين يديك من تراب البطحاء من سَهْلة الوادى ورمله ، وقد علمت أن الجنان مُظلة ما يدخلها شمس ولا ريح ، فأمر عمرو بزجاجة فوضعت بين يديه ، فلم يمكث إلا قليلا حتى امتلأت من تراب البطحاء ، فذهب عمرو إلى طريفة فأخبرها بذلك ، وقال : متى ترين هلاك السد ؟ قالت : فيما بينك وبين السبع السنين(١) ، قال : ففى أيها يكون ؟ قالت : لا يعلم ذلك إلا الله تعالى ، ولو علمه أحد لعلمته ، ولا يأتى عليك ليلة فيما بينك وبين السبع السنين(١) إلا ظننت هلاكه فى غدها أو فى تلك الليلة .

عمرو بن عامر يتحيل للخروج من بلاده

ورأى عمرو فى النوم سيل العرم ، وقيل له : إن آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت فى سَعَفِ النخل ، فذهب إلى(٢) كَرَب النخل وسعفه فوجد الحصباء قد ظهرت فيها ، فعلم أن ذلك واقع بهم ، وأن بلادهم ستخرب ، فكتم ذلك وأخفاه ، وأجمع أن يبيع كل شىء له بأرض سبأ ، ويخرج منها هو وولده ، ثم خشى أن يستنكر [الناس] ذلك ، فصنع طعاماً وأمر بإبل فنحرت ، وبغنم فذبحت ، وصنع طعاماً واسعاً ، ثم بعث إلى أهل مأرب أن عمراً صنع يوم مجد وذِكْرٍ فاحضُرُوا طعامه ، ثم دعا ابناً له يقال له مالك ، ويقال : بل كان يتيما فى حجره ، فقال : إذا جلستُ أطعم الطعام الناس فاجلس عندى ونازعنى الحديث ، واردد[ه] علىّ ، وافعل بى مثل ما أفعله بك ، وجاء أهل مأرب ، فلما جلسوا أطعم الناس وجلس عنده الذى أمره [بما أمره] به ، فجعل ينازعه الحديث ، ويردّ عليه ، فضرب عمرو وجهه وشتمه ، فصنع الصبى بعمرو مثل ما صنع [به] فقام عمرو وصاح : واذلاّه ! ! يوم فخر عمرو ومجده يضربُ وجْهَه صبىٌّ(٣) ، وحلف ليقتلنّه ، فلم يزالوا بعمرو حتى تركه [ففى ذلك قال حاجر الأزدى :

---

(١) فى ب « السبعين سنة » (٢) فى ب « سرب النحل » .

(٣) فى ا « شتمه صبى وضرب وجهه » .

يارب لطمة غدْرٍ قد سخنت بها بكف عمرو التى بالغدر قد غرقت][١]

ثم قال: والله لا أقيم ببلد صنع هذا بى فيه، ولأبيعن عقارى فيه وأموالى، فقال الناس بعضهم لبعض: اغتنموا غضبة عمرو، واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى، فابتاع الناس منه جميع ماله بأرض مأرب، وفشا بعض حديثه فيما بلغه من شأن سيل العَرِم، فخرج ناس من الأزد وباعوا أموالهم، فلما أكثروا البيع استنكر ذلك الناس، فأمسكوا بأيديهم [عن الشراء]، فلما اجتمعت إلى عمرو بن عامر أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم، فقال أخوه عمران الكاهن: قد رأيت أنكم ستمزَّقون كل مُمزَّق، ويباعَدُ بين أسفاركم، وإنى أصف لكم البلدان فاختاروا أيها شئتم، فمن أعجبه منكم صفة بلد فليصر إليها[٢]، من كان منكم ذا همٍّ بعيد وجمل شديد[٣] [ومزاد جديد] فليلحق بقصر عمان المشيد، [فكان الذين نزلوه أزد عمان] قال: ومن كان منكم ذا هم غير بعيد، وجمل غير شديد [ومزاد غير جديد] فليلحق بالشعب من كرود[٤]، قال: وهى أرض همدان، فلحق به وادعة[٥] بن عمرو، فانتسبوا فيهم، وقال الكاهن، ومن كان منكم ذا حاجة ووطر [وسياسة] ونظر، وصبر على أزمات الدهر، فليلْحَقْ ببطن مَرٍّ، وكان الذين سكنوه خزاعة [سميت بذلك] لانخزاعها فى ذلك الموضع عمن كان معها من الناس، وهم بنو عمرو بن لحىٍّ، فتخزعت هنالك إلى هذه الغاية، وفى ذلك يقول حسان بن ثابت:

ولمّا هَبَطْنَا بطنَ مَرٍّ تَخَزَّعَتْ خزاعة منا فى ملوك كراكر[٦]

[فى شعرٍ له طويل] ومالك وأسلم وملكان بنو قصى بن حارثة بن عمرو مزيقياء[٧]،

---

(١) لا يوجد هذا البيت فى ا . (٢) فى ا « فليصر إليه » .
(٣) سقط ما بين المعقوفين من ب ، وفيها « وجمل شديد » .
(٤) فى ا « من كرد » . (٥) فى نسخة « وداعة » .
(٦) فى ا « فى بطون كراكر » .
(٧) فى ب « بن عمرو بن مزيقياء » وليس بشىء .

وقال الكاهن: ومن كان يريد الراسيات في الرحل[(١)]، المطعمات في المَحْل، فليلحق بيثرب ذات النخل، وهي المدينة، وكان الذين سكنوها الأوس والخزرج ابنا حارثه بن ثعلبة بن عمرو مزيقياء[(٢)]، قال الكاهن: ومن كان يريد منكم الخمر والخمير، والديباج والحرير، والأمر والتدبير، فليلحق ببصرى وحفير، وهي أرض الشام [فكان الذين سكنوها غسان] قال الكاهن: ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق [والخيول العتاق، والكنوز والأرزاق، فليلحق بالعراق، وكان الذين لحقوا بالعراق منهم مالك بن فهم الأزدى وولده، ومَنْ كان بالحيرة من غسان، على حسب ما قدمنا آنفا فيما سلف من هذا الكتاب.

وقال هشام بن الكلبي: وأما أبي فكان يقول: إنما نزل بالحيرة من غسان مع تبع بعد هذا بزمان.

ثم خرج عمرو بن عامر مزيقياء[(٢)] وولده، من مأرب، وخرج من كان بمأرب من الأزد يريدون أرضا تجمعهم يقيمون بها، ففارقهم وادعة بن عمرو بن عامر مُزَيقياء فسكنوا همدان، وتخلف مالك بن اليمان بن فهم[(٣)] بن عدى بن عمرو بن مازن بن الأزد، وكان بعدهم بمأرب ملكا إلى أن كان من أمرهم ما كان في الهلاك، ثم ساروا حتى إذا كانوا بنَجْرَان تخلف أبو حارثة بن عمرو بن عامر مُزَيقياء ودعبل[(٤)] ابن كعب بن أبي حارثة فانتسبوا في مذحج، قال أبو المنذر: ويقال: إن أبا حارثة هو جد الحارث بن كعب بن أبي حذيفة الذى بنجران، والله أعلم.

ثم سار عمرو بن عامر حتى إذا كان بين السراة[(٥)] ومكة أقام هنالك أناس من بنى نصر من الأزد، وأقام معهم عمران بن عامر الكاهن أخو عمرو بن عامر مُزَيقياء، وعدى بن حارثة بن عمرو مزيقياء، وسار عمرو بن عامر وبنو مازن حتى نزلوا بين بلاد الأشعريين وعكٍّ على ماء يقال له

(١) في ا «الراسيات في الوحل، وهذا أثبت، وهو الموافق لما في كثير من الأمهات
(٢) في بعض أصول الكتاب «بن عمرو بن مزيقياء» هنا أيضا، وليس بشيء
(٣) في ب « مالك بن الهمان بن جهم » . (٤) في ب «ورعيل»
(٥) في ب «حتى إذا كان بأدنى المسناة ومكة »

غسان بين واديين ، يقال لهما زبيد ورمع ، وهما مما يلى صدورهما بين صعيد يقال له : صعيد الحسك[1] ، وبين الجبال التى تدفع به فى زبيد ورمع،فأقاموا على غسان ، وشربوا منه ، فسموا غسان ، وغلب على أسمائهم ، فلا يعرفون إلا به ، قال شاعرهم :

إما سألت فإنا معشر نُجُبٌ الأَزْدُ نسبتنا والماء غسان

والذين سموا غسان من بنى مازن الأوسُ والخزرج ، ابنا[2] [حارثة بن ثعلبة بن عمرو مُزَيْقياء ، وجَفْنة بن عمرو مزيقياء ، والحارث وعوف وكعب ومالك بنو عمرو مزيقيا ، والنوم وعدى ابنا حارثة بن][2] ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن بن الأزد .

وللقوم أخبار فى تفرقهم ، ومن دخل منهم فى معد بن عدنان وما كان بينهم من الحروب إلى أن ظفرت بهم بنو معد ، فأخرجتهم إلى أن لحقوا بالسراة — والسراة جبل الأزد الذى هم به يقال له السراة ، ويقال له : الحجاز ، وإنما سمى السراة من هذا الجبل ظهره ، فيقال لظهره السراة كما يقال لظهر الدابة السراة ، فأقاموا به وكانوا فى سهله وجبله ومافاربه ، وهو جبل على تخوم الشام ، وفرز بينه وبين الحجاز مما يلى أعمال دمشق والأردن وبلاد فلسطين ويلاقى جبل موسى .

عادة أهل مأرب وصنعهم مع رسلهم

وقد كان أهل مأرب يعبدون الشمس ، فبعث الله إليهم رُسُلاً يدعونهم إلى الله ، ويزجرونهم عما هم عليه ، ويذكرونهم آلاء الله ونعمته عليهم ، فجحدوا قولهم ، وردوا كلامهم ، وأنكروا أن [يكون] لله عليهم نعمة ، وقالوا لهم : إن كنتم رُسُلاً فادعوا الله أن يسلبنا ما أنعم به علينا ، ويذهب عنا ما أعطانا ، وفى ذلك تقول امرأة منهم [كافرة] :

إن كان ما نُصْبِحُ فى ظلاله من ربكم فلينطلق بماله

* إليه عنا وإلى عياله *

---

(١) فى ا « صعيد الحيك » . (٢) مابين المعقوفين ساقط من ب

[فأجابتها امرأة مؤمنة ، فقالت[1] :

لولا الإلٰهُ لم يكن عيالنا ولم يَسَعْ عيالنا أموالنا

هو الذى يجيبنا سؤالَنَا ويكشف الغم إذا ما هالَنَا[1]]

[فدعت عليهم الرسل] فأرسل الله عليهم سيل العرم ، فهدم سدهم وغشى الماء أرضهم ، فأهلك شجرهم وأباد خَضْراءهم ، وأزال أموالهم وأنعامهم ، فأتوا رسلهم فقالوا : ادْعُوا الله أن يخلف علينا نعمتنا ، وَيُخْصِب بلادنا ، ويرد علينا ما شرد من أنعامنا ، ونعطيكم مَوْثقا أن لا نشرك بالله شيئاً ، فسألت الرسل ربها ، فأجابهم إلى ذلك ، وأعْطاهم ما سألوا ، فأخصبت بلادهم ، واتسعت عمائرهم إلى أرض فلسطين والشام : قُرًى ومنازل وأسواقاً ، فأتتهم رسلهم ، فقالوا : موعدكم أن تؤمنوا بالله ، فأبوا إلا طغيانا وكفراً ، فمزقهم الله كل ممزق ، وباعد بين أسفارهم .

قال المسعودى : وإذ قد ذكرنا جملا من أخبار السد وبلاد مأرب ، وعمرو ابن عامر ، وغير ذلك مما تقدم ذكره فى هذا الباب ، فلنرجع الآن إلى أخبار الكهان .

أول كهانة سطيح الغسانى

وكان أول ماتكهن به سطيح الغسانى أنه كان نائما فى ليلة صُحَيا كية مظلمة مع إخوته فى لحاف ، والحى خُلُوف ، إذ زعق من بينهم ورَنَّ وتأوه ، وقال: والضياء والشفق ، والظلام والغسق ، ليطرقنكم ماطرق ، قالوا : ماطرق ياسطيح؟ قال : ماطرق إلا الأجْلَحُ ، حين سرى الليل البهيم الأفلح ، وولاهم بسردح ، قالوا : وماعلامة ذلك ياسطيح ؟ قال : أمر يسد النقرة ، ذو حبسة فى الوجرة ، وحرة بعد حرة ، فى ليلة قرة ، فانصرفوا عن قوله ، واستهانوا بأمره ، وتعاصفت مدود من أودية هناك ، ففاجأتهم فى ليلة باردة قرة كما ذكر ، فساقت الأنعام والمواشى ، وكادت أن تذهب بعامتهم .

---

(١) مابين المعقوفين لا يوجد فى ا . (٢) هذه الجملة ساقطة من ب.

ولسطيح الكاهن ولشق بن صعب[1] أخبار كثيرة [عجيبة] : منها رؤيا تُبَّع الحميرى فى أن جَمْرة[2] خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تِهَمَة ، أكلت منها كل ذات جمجمة ، وما فَسَّرَاه له فى ذلك ، وكذلك خبر سطيح ، [وعبد المسيح] فى رؤيا الموبذان ، وارتجاج الإيوان ، وخبر سملقة وزوبعة ، وما كان من أمرهما ، وخبر شأن الظليم والشجرة ، وما كان بين عك وغسان من الحرب فى رقة اللبن وحلاوته وثخنه[3] ، ونزول غسان أعلى الوادى ، وعك فى أسفله ، وما كان فى ذلك من القيافة بينهم فى طلوع الشمس وغروبها على إبلهم ، وخبر السموأل بن حسان[4] بن عادياء ، وما كان من أمره ، وأمر خازن الكاهن[5] ، وما قاله حين طرقه ليلا ، وانقياده إلى ذمته ، وما كان من العير الأقمر[6] ، والظليم الأحمر ، والفرس الأشقر ، والجمل الأزور[7] ، والشيخ الأحقر[8] ، وغير ذلك مما ذكرناه فيما سلف من كتبنا ، فى « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، والله أعلم .

(١) فى ب « بن مصعب » وقد ذكرنا سابقا أنه « شق بن صعب » .
(٢) فى ب « فى أن جمجمة »
(٣) فى ا « وخلاوته وثجنه » تحريف
(٤) فى ا « السموءل بن حنا »
(٥) فى ا « مازن الكاهن »
(٦) فى ا « العنز الأقمر »
(٧) فى ب « الجمل الأورق »
(٨) فى ب « والشيخ الأسدى » .

ذكر سنى العرب والعجم وشهورها

وما اتفق[(١)] منها ، وما اختلف

قال المسعودى: عدة الشهور[(٢)] عند العرب وسائر العجم اثنا عشر شهراً .

فلنذكر الآن سِنِى وشهور وأيام ما اشتهر أهله من جل الأمم ، وهم العرب والفرس والروم والسريانيون والقبط ؛ إذ كان قول اليونانيين فى ذلك[(٣)] [هو ماذهبت إليه الروم ، ولم نعرض لوصف قول الهند فى السنين والشهور والأيام وماذهبوا إليه فى ذلك][(٣)] من حسابهم ، ومن تبعهم على ذلك من أهل الصين وكثير من الممالك والأمم ؛ إذ كان فى ذلك خروج عما عليه الجمهور والمعهود بين الناس ، ونجعل المبتدأ بذكر سنى وشهور القبط ؛ لموافقتها السريانيين [ثم نعقب بعد ذلك بذكر شهور السريانيين] وموافقتها لشهور الروم . ثم نتبع ذلك بذكر سِنِى العرب وشهورها وأيامها ، [ثم نعقب بعد ذلك بذكر سِنِى الفرس وشهورها وأيامها][(٣)] ولأية علة استحق عندها تسمية كل شهر منها ، وكل يوم ، وما قالته العرب فى تسمية الليالى ، وجمل من ذكر أفعال الشمس والقمر وتأثيرهما فى هذا العالم فى الجماد والنبات والحيوان ، وغير ذلك مما يقف عليه المتأمل عند قراءته — إن شاء الله تعالى — على ما يريد ، والله تعالى ولى التوفيق .

---

(١) فى ا « وما اتفق بها »

(٢) فى ا « عدد الشهور »

(٣) مابين المعقوفين ساقط من ب

ذكر شهور القبط والسريانيين

والخلاف فى أسمائها [وجمل] من التاريخ

شهور القبط ومقابلها من شهور السريان

أول شهور القبط : توت، وهو أيلول ، وبابه ، وهو تشرين الأول، وهاتور وهو تشرين الثانى ، وكيهك، وهو كانون الأول ، وطوبه، وهو كانون الثانى ، وأمشير ، وهو شباط ، وبرمهات، وهو آذار ، وبرمودة، وهو نيسان، وبشنس وهو أيار ، وبؤونه، وهو حزيران، وأبيب ، وهو تموز ، ومسرى، وهو آب .

وللقبط بعد هذا خمسة أيام لواحق ، تدعى العمياء[1] ، تزيدها على ما سمينا من شهورها ، وهى ثلثمائة يوم وستون يوماً ؛ فتصير السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوماً .

سنة القبط

وأول يوم من السنة عند القبط هو اليوم التاسع والعشرون من شهر آب، وعدة كل شهر منها ثلاثون يوماً ، وكانت أيام السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوماً كعدة[2] أيام سنة الفرس [وكانت شهور القبط فيما مضى توافق أوائلها شهور الفرس][3] فكان أول توت أول آذرماه ، ثم كل شهر كذلك على هذا الوصف إلى آخر سنة القبط آخر آذرماه ، وهذا الحساب بعينه موجود فى كتب الزيجات فى النجوم ، وأهل مصر وسائر القبط فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة – يستعملون فى حسابهم فى الشهور غير ما قدمنا، وذلك أنهم زادوا فى أيام السنة ربع يوم على مذهب السريانيين[4] والروم [فصارت شهورهم مخالفة لشهور الفرس وموافقة لشهور السريانيين والروم] فى عدد أيام السنة ، [وتاريخ القبط فى كتاب المجسطى من أول السنة] التى ملك فيها البختنصَّر وكان أولها يوم الأربعاء .

---

(١) فى ب « تدعى العمائر » (٢) فى ب « بعد أيام سنة الفرس »

(٣) لا توجد هذه العبارة فى ا

(٤) فى ب « على مذهب اليونانيين والروم » .

مبدأ التواريخ

وأما تاريخ القبط فى كتاب زيج بطليموس، فمن أول سنة ملك فيلقوس[1] وكان أولها يوم الأحد ، و[التباين] الذى بين تاريخ البخت نصر وتاريخ يزدجرد ألف وثلثمائة وتسع وتسعون[2] سنة فارسية وثلاثة أشهر ، والذى بين تاريخ فيلقوس[1] وتاريخ يزدجرد [تسعمائة وخمس وخمسون سنة وثلاثة أشهر ، وبين تاريخ الإسكندر وتاريخ يزدجرد] تسعمائة واثنتان وأربعون سنة من سنى الروم ومائتان وتسعة وخمسون يوماً ، وبين تاريخ يزدجرد وتاريخ الهجرة من الأيام ثلاثة آلاف وستمائة وأربعة وعشرون يوماً ، فأول هذه التواريخ تاريخ البخت نصر ، ثم تاريخ فيلقوس[1] ، [ثم تاريخ ابنه الإسكندر ، ثم تاريخ الهجرة] ، ثم تاريخ يزدجرد .

أوائل كل تاريخ

وتاريخ العرب من أول السنة التى هاجر فيها النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، وكان أولها يوم الخميس .

وتاريخ الفرس من أول السنة التى ملك فيها يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز ، وكان أولها يوم الثلاثاء .

وتاريخ الروم والسريانيين من أول السنة [من] ملك الإسكندر ، وكان أولها يوم الاثنين ، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

---

(١) فى ب « فليلفوس » (٢) فى ا «وتسع وسبعون سنة»

ذكر شهور السريانيين

ووصف موافقتها لشهور العرب

وعـــــدة أيام السنة ومعرفة الأنواء

شهور وأيام كل شهر

فأول ذلك أن أيام السنة ثلثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم ، وهى مختلفة فى العدد : فنيسان ثلاثون يوماً ، وأيَّار أحد وثلاثون يوماً ، وحزيران ثلاثون يوماً ، ولثمان عشرة ليلة منه رجوع الشمس هابطة من الشمال[1] [على ما أوجبه حساب الهند] وهو أطول يوم فى السنة [وليلته] أقصر ليلة ، وتموز أحد وثلاثون يوماً ، وآب أحد وثلاثون يوماً ، فإذا انسلخ [آب] ذهب الحر ، قال محمد بن عبد الملك الزيات :

بَرَدَ الماء وطلب الـ ـليل والْتَذَّ الشراب
ومضى عنك حَزِيرا ن وتموزُ وآبُ

وأيلول ثلاثون يوماً ، ولخمس منه عيد زكريا ، ولعشر منه تطلع الصرفة فينصرف الحر ، ولثلاث عشرة منه عيد الصليب ، وهو اليوم الرابع عشر منه ، وفى هذا اليوم تفتح الترع بمصر على حسب ما ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب ، ولتمام عشرين[2] منه ، يستوى الليل والنهار ، وقال أبو نُوَاس :

مضى أيلول وارتفع الحـرُور وأخْبَتْ نارها الشعرى العَبور[3]

سر تسمية المهرجان

وتشرين الأول أحد وثلاثون يوماً ، وفيه يكون المهرجان ، وبين النيروز والمهرجان مائة وتسعة وستون يوماً ، وعند الفرس فى معنى المهرجان أنه كان لهم ملك فى قديم الزمان من ملوك الفرس قد عَمَّ ظلمه خواصَّ الناس وعوامَّهم ، وكان يسمى مهر ، وكانت الشهور تسمى بأسماء الملوك ، فقيل مهرماه ، ومعنى ماه :

(١) فى ب «من السماء» . (٢) فى ا «ولثمانى عشرة منه»
(٣) فى ب «وأذكت نارها الشعرى العبور»

هو الشهر ،وأن ذلك الملك طال عمره واشتدت وطأته؛ فمات فى النصف من هذا الشهر ، وهو مهرماه ، فسمى ذلك اليوم الذى مات فيه «مهرجان» وتفسيره نفس مهر ذهبت ؛ لأن الفرس تقدم فى لغتها ماتؤخره العرب فى كلامها،وهذه اللغة الفهلوية ، وهى الفارسية الأولى ، وأهل المروآت بالعراق وغيرها من مدن[1] العجم يجعلون هذا اليوم أول يوم من الشتاء ؛ فتتغير فيه الفرش والآلات وكثيراً من الملابس ، ولخمس منه —وهو تشرين الأول— عيد كنيسة القمامة ببيت المقدس ، وفى هذا اليوم تجتمع النصارى من سائر الأرض ، وتنزل عليهم نار من السماء ، فيسرج هناك الشمع ، ويجتمع فيه من المسلمين خلق عظيم للنظر إلى العيد، ويقتلع فيه ورق الزيتون ، ويكون للنصارى فيه أقاصيص،ولهذه النار حيلة لطيفة وسرّ عظيم ، وقد ذكرنا وجه الحيلة فى ذلك فى كتابنا المترجم بـ«كتاب القضايا والتجارب » وتشرين الثانى ثلاثون يوماً، وكانون الأول[2] ثلاثون يوماً ، ولتسع عشرة منه يكون النهار تسع ساعات [ونصفا] وربعاً ، وهو منتهى قصره، والليل أربع عشرة ساعة وربعاً ، وهو منتهى طوله ، وليلة الخامس والعشرين منه ميلاد المسيح عليه السلام ، وكانون الثانى أحد وثلاثون يوماً ، وأول يوم منه القلندس[3] ، فيكون فيه بالشام لأهله عيد يوقدون فى ليلته النيران،ويظهرون الأفراح ، لاسيما بمدينة أنطاكية ، ومايكون فى كنيسة القسيان بها من القداس عندهم ، وكذلك بسائر الشام وبيت المقدس ومصر وأرض النصرانية كلها،وما يظهر أهل دين النصرانية بأنطاكية من الفرح والسرور وإيقاد النيران والمآكل والمشارب،ويساعدهم على ذلك عوام الناس وكثير من خواصهم،وذلك أن مدينة أنطاكية بها كرسى البطرك المعظم عندهم فى دياناتهم،وأن النصرانية تسمى أنطاكية

---

(١) فى ا « من مدن الشام »

(٢) فى ب « وكانون الأول أحد وثلاثون يوما ، ولسبع عشرة منه — إلخ »

(٣) فى ب « الغطاس »

مدينة الله ، ويسمونها أيضاً مدينة الملك ، وأم المدن ، لأن بُدُوَّ ظهور النصرانية كان فيها .

بطارقة النصارى

والبطارقة عند النصرانية أربعة : أولهم صاحب مدينة رومية ، ثم الثانى وهو صاحب مدينة قسطنطينية ، وهى أقسس[1] ، واسمها القديم بوزنطيا ، ثم الثالث وهو صاحب الإسكندرية من أرض مصر ، ثم الرابع وهو صاحب أنطاكية ، ورومية وأنطاكية لبطرس ، فبدؤا برومية لأنها لبطرس ، ثم ختموا بأنطاكية لأنها له ، وتعظيما [لبولس] ، وقد أحدثوا كرسيا ببيت المقدس ، ولم يكن هذا متقدما ؛ وإنما هو محدث ، وكان لإيلياو هو بيت المقدس أسقف [ولكورةلدمن أرض فلسطين] .

مشهور كنائسهم

وبأنطاكية أيضاً كنيسة [بولس ، وتعرف بأنطاكية بدير البراغيث وهى مما يلى باب فارس ، وبها أيضاً كنيسة أخرى تدعى أشمونيت] ، وبها عيد عظيم للنصرانية وكذلك بها كنيسة [بربارا ، وكنيسة مريم] وهى كنيسة مدورة ، وبنيانها من إحدى عجائب العالم فى التشييد والرفعة ، وكان الوليد بن عبد الملك بن مروان اقتلع من هذه الكنيسة عُمُداً عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق [حملت فى البحر إلى ساحل دمشق] ، وبقى الأكثر من هذه الكنيسة إلى هذا الوقت .

وقد كان لملك من ملوك الروم [مع اليهود] بأنطاكية خبر عجيب فى كنيسة أشمونيت[2] وكانت خارج السور من أنطاكية ، وهى فى أيدى اليهود ، فعوضت اليهود دار الملك بأنطاكية [بدلا من كنيسة أشمونيت ، وهذه الدار التى كانت دار الملك] تعرف فى هذا الوقت بدار اليهود ، ولليهود حيلة احتالوها حين خرجت الكنيسة من أيديهم حتى قتلوا من النصرانية خلقاً عظيما من نشر خشب فيها وغير ذلك .

وقدمنا أخبار بطرس وبولس وما كان من أمرهما بمدينة رومية وغيرهما من تلاميذ المسيح وتفرقهم فى البلاد ، وذكرنا قصة الملك الذى بنى مدينة أنطاكية ، وهو المعروف بأنطيخش[3] ، وتفسير ذلك محوط الحوائط ، وكان اسم أنطاكية

(١) فى ا « وهى أحسن » (٢) فى ب « استوست » فى المرتين

(٣) فى ب « بأفطنحس »

بالرومية على اسمه أنطيخش ، فلما ورد المسلمون وافتتحوها حذفت الأحرف إلا الألف والنون والطاء .

وفى تاريخ النصارى الملكية وغيرها من أهل دين النصرانية يكون لمولد المسيح إلى وقتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — تسعمائة سنة وأربعون سنة ، وتكون سِنُو الإسكندر ألفاً ومائتين وخمساً وثمانين[1] ، ويكون من الإسكندر إلى المسيح ثلثمائة سنة وتسع وستون[2]

هذا ما وجد[ت] فى تاريخ الملكية فى كنيسة القسيان بمدينة أنطاكية، وسنذكر بعد هذا الموضع جملا من التاريخ فى باب نفرده لذلك ، إن شاء الله تعالى .

عود إلى الشهور وأيامها

فلنرجع الآن إلى وصف حساب الشهور : شباط ثمانية وعشرون يوماً وربع ثلاث سنين متوالية ، والرابعة كبيسة فيكون تسعاً وعشرين يوماً ، وتكون السنة ثلثمائة وستة وستين يوماً ، ولسبعة منه تسقط الجمرة الأولى ، وهى الجبهة ولأربع عشرة منه تسقط الجمرة الثانية ، وهى [الزبرة، ولإحدى وعشرين منه تسقط الجمرة الثالثة ، وهى] الصرفة ، وينصرف البرد ، وثلاثة أيام من آخره أيام العجوز ، وآذار أحد وثلاثون يوماً ، ولأربعة من أوله تتم أيام العجوز ، والعرب تسمى هذه السبعة الأيام : صِنًّا ، وصِنَّبْرا ، ووَبْراً ، وآمرا ، ومؤتمرا ،

أيام العجوز

ومعللا ، ومطفىء الجمر ، قال بعض العرب فى أسماء أيام العجوز :

كسع الشتاء بسبعة غُبْرِ صِنٍّ وصِنَّبرٍ وبالوبر

[وبآمر وأخيه مؤتمر ومعلل ، وبمطفىء الجمر]

فإذا انقضت أيام شَتْوَتنا أيام صادرة عن القر

كسع الشتاء مُوَلِّيًا هربا وأتتك واقدة من الحر

ولخمس عشرة من آذار يستوى الليل والنهار ، وتحل الشمس الحمل ، وهذا اليوم تحويل سنة العالم ، قال أبو نُوَاس[3] :

(١) فى ا « وخمسا وخمسين » (٢) فى ا « وتسع سنين »

(٣) فى ب « أبو فراس »

أما ترى الشمس حَلَّتِ الحملا وطاب وَزْنُ الزمان واعْتَدَلاَ
وغَنَّتِ الطير بعــد عُجْمَتِهَا واستوفت الخمر حولهـا كَمَلاَ
واكتست الأرض من زخارفها وَشْيَ نَبَاتٍ تخـالها حُلَلاَ
فاشرب على جِدَّةِ الزمان فقد أصبح وجه الزمان مقتبلا

وليس بحاول الشمس الحمل تستوفى الخمر سنة ، وإنمـا أراد بحاولها قربها من الحول والقوة .

شهور الروم

قال المسعودى : وأما شهور الروم فهى موافقة لشهور السريانيين فى العدد وذلك أن أول شهور الروم يواريوس[1] ، وهو كانون الثانى ، وقد قدمنا أن فى أول يوم منه يكون القلندس[2] ، وشباط فبراريوس[3] ، وآذار مارتيوس ، ونيسان إبريليس[4] ، وأيار مايوس ، وحزيران يونيوس ، وتموز يوليوس ، وآب أغسطوس ، وأيلول[5] سبطمبر ، وتشرين الأول أقطوبر[6] ، وتشرين الثانى نوفمبر[7] ، وكانون الأول دشمبر[8] .

(١) فى ا «بنوار خوس» (٢) فى ب «الغطاس»
(٣) فى ا «فراخاويس» (٤) فى ا «إبريلوس»
(٥) فى ا «سطريوس» (٦) فى ا «أفريطيوس»
(٧) فى ا «نوبوطس» (٨) فى ا «دجموتوس»

ذكر شهور الفرس

أسماء الشهور وعدة أيامها

[شهور الفرس] كلها ثلاثون يوماً ، فأولها فروردينماه[١] ، وأول يوم منه النيروز ، وبينه وبين المهرجان مائة وأربعة وسبعون يوماً[٢] ، والثانى أرديبهشت‌ماه ، وخردادماه ، وتيرماه، وتيمروز عيد المهرجان ، ومردادماه ، وشهريرماه ، ومهرماه ، ويوم السادس عشر منه المهرجان ، وأبانماه فيه أبان روز عيد أبان كاه ، وفى آخره خمسة أيام: الفرودجان، وآذرماه ، وأول يوم منه يخرج الكوسج فيه راكباً بغاله بالعراق وأرض فارس ، ولا يعرف ما وصفنا إلا بالعراق وأرض العجم ، وأهل الشام والجزيرة ومصر واليمن لا يعرفون ذلك ، ويطعم مدة من الأيام الجوز والثوم واللحم السمين ، وماعدا ذلك من الأطعمة الحارة والأشربة المسخنة الدافعة للبرد ، فيظهر طارداً للبرد ، فيصب عليه الماء البارد ؛ فلا يجد لذلك شيئاً من ألمه ، ويصيح بالفارسية كرما كرما، [يعنى الحر الحر]، وهذا وقت عيد الأعاجم: يطربون فيه، ويظهرون السرور، وكذلك فى أوقات كثيرة من فصول السنة ودوران الأذرخش ، وديماه ، وبهمناه ، وإسفندارمزماه ؛ فذلك ثلثمائة وخمسة وستون يوماً ، والله أعلم .

---

(١) فى ب « فرودرى »

(٢) فى ا « مائة وأربعة وتسعون يوما » وفى ب « مائة وأربعة وسبعون يوماً » وقد سبق أن بينهما « مائة وتسعة وستين يوما »

ذكر أيام الفرس

أسماء الأيام

وهى[١] هرمز وبهمان وأرديبهشت وشهرير وإسفندارمز وخرداذ ومرداذ وديباذر وآذر وأبان وخوروماه وتيروجوش ودبر ومهر ودمل وأسروش وفروردين وبهرام ، وفيه يقول الشاعر :

باكر بنا لذة المُدَام   فى يوم سَبْتٍ ويوم رام
شريطتى فيه أن ترانى   وَقْتَ الضحى فاتر الكلام

وباد وديبادين وآذر وأشتاد وأسمان وداماد ومار وسفند وأنيران .

[١]فأما أيامهم المعروفة بالفرودجان فهى أهندكاه أسميهاه مشركاه مشروكاه كاساه .

وكانت العرب تسمى[٣] هذه الأيام الخمسة : الهرير ، والهبير ، وقالب الفهر[٢] ، وحافل الضرع ، ومدحرج البعر[٣]

كبس الفرس

وكانت الفرس تكبس فى كل مائة وعشرين سنة شهراً ، وإنما أخروا ذلك إلى مائة وعشرين سنة ، لأن أيامهم كانت سُعُوداً ونحوساً فكرهوا أن يكبسوا فى كل أربع سنين يوماً ، فتنتقل بذلك أيام السعود إلى أيام النحوس ، ولا يكون النيروز[٤] أول يوم من الشهر ، والله تعالى أعلم .

---

(١) فى أسماء هذه الأيام اختلاف ليس باليسير ، وقد اخترنا مافى ا ، ولم ننبه كعادتنا على الاختلاف الواقع فى كل اسم اكتفاء بهذه الإشارة إذ كنا نعتقد أن بعضها محرف عن بعض

(٢) فى ا « وقالب القهر »

(٣) فى ا « وجافل الطعن ومزحزح البعير »

(٤) فى ا « ولا يكون السرور أول يوم الشهر »

ذكر سنى العرب وشهورها

وتسمية أيامها ولياليها

أسماء الشهور

شهور الأهلة : أولها المحرم ، وأيامها ثلثمائة وأربعة وخمسون يوماً ، تنقص عن السريانى أحد عشر يوماً وربع يوم ، فتفرق فى كل ثلاث وثلاثين سنة سنة؛فتنسلخ تلك السنة العربية، ولا يكون فيها نيروز ، وقد كانت العرب فى الجاهلية تكبس فى كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسىء [وهو التأخير] وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله : (إنما النسىء زيادة فى الكفر) وسمت العرب الشهور فبدأت بالمحرم ؛ لأنه أول السنة ، وإنما سمته المحرم لتحريمها الحرب والغارات فيه ، وصفر بالأسواق التى كانت باليمن تسمى الصفرية ، وكانوا يمتارون منها ، ومن تخلف عنها هلك جوعاً ، وقال نابغة ذبيان :

إيماء إلى النسىء

إنى نهيت بنى ذبيان عن أفق وعن ترفُّهم فى كل أصفار[1]

وقيل : إنما سمى الصفر لأن المدن كانت تخلو فيه من أهلها بخروجهم إلى الحرب ، وهو مأخوذ من قولهم : صَفِرَتِ الدار منهم ، إذا خلت ، وربيع ، وربيع ؛ لارتباع الناس والدواب فيهما ، فإن قيل : قد توجد الدواب ترتبع[2] فى غير هذا الوقت ، قيل : قد يمكن أن يكون هذا الاسم لزمها فى ذلك الوقت فاستمر تعريفهما بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ، وجمادى ؛ وجمادى ؛ لجمود الماء فيهما فى الزمان الذى سميت به هذه الشهور ؛ لأنهم لم يعلموا أن الحر والبرد يدوران فتنتقل أوقات ذلك ، ورجب ؛ لخوفهم إياه ، يقال : رَجَبْتُ الشىء ، إذا خفته ، وأنشد :

---

(١) فى ا « عن أقر » وفيها « وعن تربعهم »

(٢) فى ا « ترتع فى غير هذا »

* فلا تَهَيَّبْهَا ولا ترجبها *

وشعبان ؛ لتشعبهم إلى مياههم وطلب الغارات ، ورمضان ؛ لشدة حر الرَّمْضَاء فيه ذلك الوقت ، والوجه الآخر أنه اسم من أسماء الله تعالى ذكره ، ولا يجوز أن يقال رمضان ، وإنما يقال : شهر رمضان ، وشوال ؛ لأن الإبل كانت تَشُول فى ذلك الوقت بأذنابها [من شَهْوَة الضِّراب] ، تشاءمت به العرب ، ولذلك كرهت التزويج فيه ، وذو القعدة ؛ لقعودهم فيه عن الحرب والغارات ، وذو الحجة ؛ لأن الحج فيه .

الأشهر الحرم

والأشهر الحرم هى : المحرم ، ورجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة .

شهور الحج

وأشهر الحج : شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة ، والأيام المعلومات العشر ، والأيام المعدودات أيام التشريق ، والتعجيلُ باتفاقٍ غيرُ جائز إلا فى اليوم الثالث من يوم النحر ، فدل ذلك على أن أولها ثانى يوم النحر ، ولو كان يوم النحر من المعدودات كان يوم التعجيل فى ثلاثة أيام ، وهذا خلاف القرآن ؛ لإخبار الله تعالى أن التعجيل فى يومين من المعدودات وإذا كانت المعدودات ماوصفنا صح أن المعلومات منها ، والذبح فى يوم النحر ذبح فى المعلومات لكونه منها .

ولا تمانع بين العرب أن يقول القائل « أتيتك فى الشهر » ، والإتيان إنما كان فى بعضه . و « جئتك فى اليوم » والمجىء فى بعض أوقاته ، ولا يُصَام يوم النحر ، ولا يوم الفطر ، ولا أيام منى ، لفرضٍ ولا تطوع ؛ لنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ ولم يخص فرضاً من تطوع بالنهى ، فالواجب الامتناع على وصفنا .

وقد ذكر عن عقبة بن عامر أن النبى صلى الله عليه وسلم « نهى عن صيام ثلاثة أيام التشريق » وفى جميع ماذكرنا من المعلومات والمعدودات والصيام فى

أيام التشريق خلاف بين الناس ، وأيام التشريق أولها ثانى النحر ، وآخرها اليوم الثالث عشر من ذى الحجة [إلى العصر] .

تسمية أيام التشريق

قال المسعودى : وقد اختلفت الناس فى علة [تسميتها] أيام التشريق ، وهى أيام مِنَى ولياليها ، فقالت طائفة : إنما سميت أيام التشريق لأنهم كانوا يَذْبحون الذبائح [بمنى] ويُشَرِّقون اللحم فى الشمس ، وقال آخرون : إنما سميت أيام التشريق[1] [لأن أهل مكة وغيرهم يتشرقون منصرفين إلى أوطانهم ، وفيه قول آخر ، وهو أنها إنما سميت أيام التشريق][1] لأنهم كانوا يخرجون بمنى وغيرها كالمزدلفة إلى مصليات لهم فى فضاء من الأرض فيسمونها المشارق ، واحدها مشراق ، يسبحون ويدعون ، فسميت بذلك أيام التشريق ، وفيه قول آخر ، وهو أن طائفة زعمت أنه مأخوذ من ذبح البهائم ، وهو التشريق[2] ، وقالوا : إن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الضحية بالمشرقة ، يعنى المشقوقة الأذنين بالطول ، فهى أيام التشريق ، وللناس فى التشريق من أهل الآراء والنحل كلام كثير لا يحتمله كتابنا هذا وإنما ذكرنا ما أوردناه لتغلغل الكلام بنا إليه واتصاله بما قدمناه ، وإن كان كلاماً يلحق بالفقه .

الأيام النحسات

والأيام النحسات : كل أربعاء يوافق أربعاً من الشهر ، مثل أربع خلون [وأربع عشرة خلت ، وأربع عشرة بقيت] وأربع وعشرين ، وأربع بقين .

أسماء الأيام عند العرب قديما

وأما أسماء الأيام فأولها الأحد ، وإنما سمى بذلك لأنه أول يوم خلقه الله من الزمان ، وبذلك نطقت التوراة ، وقد قدمنا فى صدر هذا الكتاب ما فى الأيام من بَدْء الخلق ، والاثنين ، وسمى لأنه ثان ، والثلاثاء ، وسمى لأنه ثالث ، والأربعاء لأنه رابع ، والخميس لأنه خامس ، والجمعة لأن الخلق اجتمعوا فيه ، والسبت لأن الخلق انقطع فيه [وخلق فى آخره آدم] : وهو

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ا
(٢) فى ا « وهو الشرق »

مأخوذ من قولهم : نعل سِبْتِيَّة ، إذا كانت مقطوعة الشعَر ، ويقال : سَبَتَ شعره ، إذا قطعه، وكانت العرب تسميها فى الجاهلية : الأحد أول، والاثنين أهون ، والثلاثاء جبار ، والأربعاء دبار ، والخميس مؤنس ،والجمعة عروبة ، والسبت شيار [قال شاعرهم :

أؤمل أن أعيش وأن يومى بأول أو بأهون أو جبار
أو المردى دبار ، فإن أفته فمؤنس أو عروبة أو شيار]

أسماء الشهور عند العرب

وكانوا يسمون الشهور : المحرم ناتق ، وصفر ثقيل ، ثم طليق ، ناجر ، أسلخ[1] أميح[2] ، أحلك ، كسع ، زاهر ، برك[3] ، حرف ، نعس ، وهو ذو الحجة .

الأزمنة الأربعة

وقد اختلف العرب فى أسماء الأزمنة [الأربعة] : فزعمت طائفة منها أن أولها الوَسْمى ، وهو الخريف ، ثم الشتاء ، ثم الصيف ، ثم القَيْظ ، ومنهم [من] يعدُّ الأول من فصول السنة الربيع، وهو الأشْهَرُ والأ مُّ ، والعرب تقول : خَرَفْنَا فى بلد كذا ، وشَتَوْنا فى بلد كذا ، وتربعنا فى بلد كذا ، وصِفْنَا فى بلد كذا .

شهور الروم مرسومة على فصول السنة دون شهور العرب

وشهور العرب ليست مرتبة على فصول السنة [ولا على حساب سنة الشمس] بل المحرم وغيره من الشهور العربية قد يقع تارة فى الربيع وتارة فى غيره من فصول السنة .

وشهور الروم مرسومة على مايوافق فصول السنة التى تقطع فيها الشمس بروج الفلك عن آخرها ، ومقادير أيام كل شهر منها ولياليه فى الطول والقصر وظهور مايظهر فيه من النجوم الثابتة للأبصار واستتار مايستتر منها على ممر الدهور والسنين وهى اثنا عشر شهراً على حسب ماذكرنا أن أولها تشرين إلى أيلول؛ فكل فصل من السنة أربعة شهور معلومة[4] من هذه الأثنى عشر شهراً غير حائلة ولا منتقلة

(١) فى ب « سماح »
(٢) فى ب « أمنح »
(٣) فى ب « برط »
(٤) كذا ، ولعله « ثلاثة شهور »

انتقال الشهور العربية ، ولكل برج منها شهر ، فأيلول وتشرين وتشرين لسلطان السوداء ،وكانون وكانون وشباط لسلطان البلغم ، وآذار ونيسان وأيار لسلطان الدم ، وحزيران وتموز وآب لسلطان الصفراء ، فأيلول لبرج السنبلة وتشرين الأول لبرج الميزان، وتشرين الآخر لبرج العقرب ، وكانون الأول برجه القوس،وكانون الآخر برجه الجَدْى،وشباط برجه الدَّأو ، وأذار برجه الحوت ، ونيسان برجه الحمل ، وأيار برجه الثور ، وحزيران برجه الجوزاء ، وتموز برجه السرطان ، وآب برجه الأسد .

قال المسعودى : وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من الكلام فى الطبائع وفصول السنة ، ومايلائم ذلك من المآكل والمشارب وغير ذلك مما لحق بهذا الباب ، إن شاء الله تعالى ، والله ولى التوفيق .

ذكر قول العرب فى ليالى الشهور القمرية وغيرها

كانت العرب تخبر عن القمر فى كل ليلة [من الشهور] على حسب ماهو به من انضياء غيره على طريق المسألة والجواب ؛ فتقول : قيل للقمر : ما أنت ابن ليلة ؟ قال : رضاع سخيلة ، حل أهلها برميلة ، قيل : فما أنت لليلتين ؟ قال : حديث أمتين ، ذَوَاتَىْ إفك وَمَيْن[1] ، قيل : فما أنت لثلاث ؟ قال : حديث فتيات ، يجتمعن من شتات وقيل : قليل الثبات[2] ، قيل فما أنت لأربع ؟ قال : غنمة رتع ، غير جائع ولا مرضع[3] قيل : فما أنت لخمس ؟ قال : حديث وأنس ، قيل : فما أنت لست ؟ قال : سِرْوَبت ، قيل : فما أنت لسبع ؟ قال : تصفر فى الشفع ، وقيل : دلجة[4] الضبع قيل : فما أنت لثمان ؟ قال : قمر أصبحان ، وقيل : رغيف اقتسمه أخوان ، قيل فما أنت لتسع ؟ قال : تلتقط فى الجزع ، قيل : فما أنت لعشر ؟ قال : محق للفجر ، قيل : فما أنت لإحدى عشرة ؟ قال : أُرَى عشاء وأُرَى بكرة ، قيل : فما أنت لاثنتى عشرة ؟ قال : موفق للسير فى البدو والحضر ، قيل : فما أنت لثلاث عشرة ؟ قال : قمر باهر ، يُغشِى عين الناظر ، قيل : فما أنت لأربع عشرة ؟ قال : مقتبل الشباب ، أضىء بين السحاب[5] ، قيل : فما أنت لخمس عشرة ؟ قال : تم التمام ونفدت الأيام ، قيل : فما أنت لست عشرة ؟ قال : ناقص الخلق ، فى الغرب والشرق ، قيل : فما أنت لسبع عشرة ؟ قال : ركب الفقير الفقر ، قيل : فما أنت لثمان عشرة ؟ قال : قليل البقاء ، سريع الفناء ، قيل : فما أنت لتسع عشرة ؟ قال : بطىء الطلوع ، من الخشوع ، قيل : فما أنت لعشرين ؟ قال : أطلع سحرة ، وأرى بكرة ، قيل : فما أنت لإحدى وعشرين ؟ قال : لا أطيل السرى ، إلا ريثما

(١) فى ب « حديث مشيق ، ذو أفل ونيق » .
(٢) فى ا « وقيل : قليل اللباث »
(٣) فى ا « عتمة ربع غير رابع ولا مرتع »
(٤) فى ب « قال : نصف فى السبع ، وقيل : حلجة للضبع »
(٥) فى ا « أضىء مثل السحاب »

أرى ، قيل : فما أنت لاثنتين وعشرين ؟ قال : مسفع خطب ، وليث حرب ، قيل : فما أنت لثلاث وعشرين ؟ قال : كالقبس ، أطلع فى الغلس ، قيل : فما أنت لأربع وعشرين ؟ قال : أطلع فى قسمة ، ولا أجلى ظلمة ، قيل : فما أنت لخمس وعشرين ؟ قال : أنا فى تلك الليال ، لا قمر وَلا هلال ، قيل : فما أنت لست وعشرين ؟ قال : دنا الأجل ، وانقطع الأمل ، قيل : فما أنت لسبع وعشرين ؟ قال : دنا مادنا ، فليس فىَّ من سَنَا ، قيل : فما أنت لثمان وعشرين؟ قال : أطلع بكراً ، ولا أرى ظهراً ، قيل: فما أنت لتسع وعشرين ؟ قال : أسبق شعاع الشمس ، ولا أطيل الجلس ، قيل : فما أنت لثلاثين ؟ قال : [هلال] مستقبل سريع الأفل .

تقسيم الليالى ثلاثا وثلاثا واسم كل ثلاث

وكانت العرب تسمى الثلاث الأولى من ليالى الشهر ، فتقول : ثلاث غرر ، والثلاث التى تليها ثلاث سُمَر ، والثلاث التى تليها ثلاث زهر ، والثلاث التى تليها ثلاث درر ، والثلاث التى تليها ثلاث قمر ، وثلاث بيص ، وتقول فى النصف الثانى من الشهر فى الثلاث الأول: ثلاث درع، وفى الثلاث التى تليها ثلاث ظلم، وفى الثلاث التى تليها ثلاث حناديس ، وفى الثلاث التى تليها ثلاث دوارى ، وفى الثلاث التى تليها ثلاث محاق ، وقيل فى وجه آخر من الروايات : إنه يقال لليالى الشهر : ثلاث هلل، وثلاث قمر ، وست نفل [وثلاث بيض] ، وثلاث درع ، وثلاث بهم[1] ، وست حناديس ، وليلتان داريتان[2] ، وليلة محاق .

أسماء الهلال والليالى

قال المسعودى : فأما ما ذهب إليه العرب فى تسمية القمر فإنها تسميه فى ليلة طلوعه هلالا ، وما لم يستدر فهو هلال ، ثم تسميه قمراً إذا ما استدار ، وإذا ما حجر وأضاء فهو قمير ، قال شاعرهم[3] :

---

(١) فى ا هنا «وثلاث ظلم » (٢) وفى ا « وليلتان دآديتان »

(٣) فى ا «قال عمرو بن أبى ربيعة » وصوابه عمر بن أبى ربيعة .

وقمير بَدَا ابن خمس وعشريـ ن له قالت الفتانان قوما

ثم يستوى لثلاث عشرة منه ، وهى ليلة السَّوَاء ، ثم ليلة البدر لأربع عشرة ، ويقال : غلامٌ بدر ، إذا امتلأ شباباً قبل أن يحتلم ، ويقال : عين حدرة بدرة[1] ، إذا كانت حديدة كعين الفرس ، والليالى البيض ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة ، والليالى الدُّرْع هى التى تسودُّ صدورها وتبيض سائرها ، والمحاق إذا ما طلعت عليه الشمس ، والسواد حين يستتر فيكون خلف الشمس ، ويقال : قد حجر القمر ، إذا استدار بخط رقيق من غير أن يغلظ ، ويقال : أفتق [القمر] إذا أصابته فرجة من السحاب فخرج [وأفتق علينا فأبصرنا الطريق][2] ، وكل سواد من الليل حِنْدِس ، والليالى الزُّهْر الليالى البيض [والزهرة : البياض] والله الموفق للصواب .

---

(١) فى ب « عين حذرة قمرة »

(٢) زيادة فى ب وحدها .

ذكر القول فى تأثير النيرين فى هذا العالم

وجُمَل مما قيل فى ذلك

وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

[قال المسعودى] :

ذهب الحكماء جميعاً من اليونانيين وغيرهم إلى أن أفعال القمر فى الجواهر التى قلنا[١] عظيمة، إلا أنها أقصر من أفعال الشمس، وهو الثانى بعدها، وذلك أن الشهور به تكون، وعلى حسب حركته يجرى أمرها، وأفعاله ترى أعظم وأبين فى حيوان البحر خاصة، وهو ينمى النبات وغيره، ويعظم البحار[٢]، ويسمن الحيوان، ويلزم النساء الطمث أزماناً محدودة.

تصور الجنين فى الرحم

قال المسعودى رحمه الله : وقد تنازع الناس فى كيفية تصور الجنين فى الرحم. فذهب قوم من أهل القدم إلى أن فى المنى قوة تصور الجنين إما منه، وإما من دم الطمث.

وذهب قوم إلى أن فى الرحم قالباً يتصور فيه الجنين، وقد ذكر جالينوس فى كتابه عن بقراط أن مقام المنى مقام الفاعل والمفعول فى تصور الجنين.

وقال صاحب المنطق : إن ذلك بمنزلة الفاعل، وإن الجنين يتصور فى دم الطمث من المنى، قال : والمنى يعطى الدم مثل الحركة، ثم يستحيل ريحاً فيخرج من الرحم، وزعم جالينوس أن الجنين يكون من المنى، وقد يجذب[٣] إليه الدم الذى هو الطمث، والروح من العروق والشريانات فيكون من المنى، ومن ذلك الدم الذى يجذبه، ومن الريح الذى تصير إليه من الشريانات. قال : وكون الجنين بمنزلة كون النبات، والطبيعة تصوره من المنى والدم، وتفعل الطبيعة فى الجنين ما تفعله فى النبات.

(١) فى ا « التى قبلنا »
(٢) فى ا « ويعظم الثمار »
(٣) فى ب « وقد يحدث »

لأن بزر النبات يحتاج إلى أرض لينال منها مايغتذى به ، فالجنين إلى الرحم ، والنبات يرسل عروقه من الأصول ليجذب بها [من الأرض غذاءه ، وللجنين فى المشيمة شريانات ، والعروق نظير لذلك][1] وهى أصول الجنين ، وبزر النبات ينبت منه سوق ، ومن السوق أغصان كبار ، ثم من هذه الأغصان أغصان أخرى تتفرع أولا حتى تنتهى إلى الأقاصى ، ونظير ذلك يوجد فى الجنين ؛ فتجد السوق[2] فى بدئه ثلاثة من كل واحد من الأغصان الأصول وهى : الشريان الأعظم ، والعرق الأجوف ، والنخاع ، ثم تجد كل واحد من هذه تتشعب منه شعب كالأغصان المنقسمة إلى أغصان أخر حتى ينتهى إلى الأطراف ، ثم قال بعد ذلك: إن المنى هو المحرك لنفسه ، وإن الجنين يكون من الرجل والمرأة ودم الطمث .

وحكى جالينوس عن أنبدقلس[3] أن أجزاء الولد منقسمة فى منى الذكر والأنثى وأن شهوة الجماع تسوق هذه الأجزاء إلى الالتئام[4] ، وهذا موجود فى كتاب أنبدقلس[3] الكبير وفيما ذكره من مذهبه فى كيفية تركيب العالم واتصال النفس بعالمها وغير ذلك .

وقد ذهب قوم من أهل القدم إلى أن ذلك هو أجزاء تخرج من أعضاء الإنسان لطيفة من جنس سائر أعضاء الإنسان ، فتنصب فى الرحم ، فيتغذى منه وينمو ، فيكون من ذلك الجنين .

يشبه الولد أباه وأهل بيت أبيه

ومنهم من رأى أن هذه الأجزاء الواردة من سائر أعضاء الذكر تقاربها مواد من الرحم ومن ماء المرأة عند اجتماعهما فيكون الجنين من ذلك ؛ فمن ذلك صار الولد يشبه أباه فى الأغلب من سائر الأعضاء ويشاكله وأهل بيت أبيه ، ولهذا وقع الشبه بين البنين والآباء فى الأغلب من تشابه الأعضاء ، ومن ههنا أدركت القافة إلحاق النسب عند الشبه والشك فى النسب ، وذلك على قول من رأى

---

(١) زيادة فى ب (٢) فى ب « فتجد العرق »
(٣) فى ب « عن أبيه بليس »
(٤) فى ب « تسبق هذه الأجزاء إلى أن لاينام »

إلحاق النسب بالقيافة من الفقهاء[1]، وقد تقدم الكلام فى هذا المعنى فيما سلف من هذا الكتاب فى باب القيافة .

وللناس فى كيفية تصور الجنين فى الرحم ومابدؤه وماعنصره وكيفية تقلبه من النطفة إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة إلى استكمال شكله كلام كثير : منهم أصحاب الاثنين[2] وغيرهم ممن تقدم وتأخر ، أعرضنا عن ذكر ذلك ؛ إذ كان فيه خروج عما إليه قصدنا فى هذا الباب .

قال المسعودى رحمه الله : والذى يقضى على سائر ما تقدم وصفه وينقطع علم العقول عنده ، وهو ما أخبر به البارى عز وجل فى كتابه بقوله : (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم) ولم يخبر عن كيفية [وقوع] ذلك وما سبب مواده ، بل استأثر [بعلمه ، وأبدى] الدلالة بظهور حكمته [دالة على توحيده و إتقانه لما أظهر لعباده من حكمته] ثم أخبر عن المبدأ الذى خلقهم منه فقال : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) وقال عز وجل : (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ؛ لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر — الآية) .

الاختلاف فى تأثير النيرين

قال المسعودى : وللناس ممن سلف من الأوائل وخلف من الشرعيين كلام كثير فى كيفية أفعال النيرين وتأثيرهما فى هذا العالم، وماقالوه فى ذلك ، وماخصوا به كل واحد منهما وأفراده ، وما ذهبوا إليه من فعل الثانى منهما وهو القمر ومايظهر من تأثيره فى الجزر والمد فى بحر الصين [والهند] والحبش واليمن على حسب ماقدمنا فى هذا الكتاب ، وكذلك فعله فى المعادن وأدمغة الحيوان [والبيض] وسائر

---

(١) فى ب « من القافة » (٢) فى ب «منهم أصحاب الأنبيق »

النبات ، وما يظهر من الزيادات فيه عند امتلائه ، والنقص عند نقصانه ، وما يكون من بحرانات المرضى فى اليوم السابع من العلة ، والرابع عشر والحادى والعشرين [والثامن والعشرين][1] لأن للقمر أربعة أشكال هى أثبت صوره ، فيه شكل التنصيف ، وشكل التمام ، وشكل التنصيف عن[2] التمام ، وشكل المحاق ، ولكل شكل من هذه سبعة أيام ؛ لأنه فى سبع ليالى يتنصف ، وفى الرابعة عشرة يتم ، وفى الحادية والعشرين يتنصف ، وفى الثامنة والعشرين ينمحق ، فكذلك البحرانات ، وعند هذه الطائفة يصح فى السابع والرابع عشر والحادى والعشرين [والثامن والعشرين] ويصح أيضاً فى تنصيفات هذه ؛ إذ كانت هذه الأشكال أثبت أشكال الشىء المنقسم ، وقد خالف هؤلاء خلق [كثير] ممن ذهب إلى غير هذا القول ، وأن ذلك من قبل الأخلاط ، وغير ذلك من الطبائع الأربع ، وغيرها مما قد أتينا على إيضاحه فى كتابنا المترجم بكتاب « الزلف » وفى كتاب « المبادى والتراكيب » وغير ذلك فى كيفية تأثير الشمس والقمر .

كروية السماء والأرض

وأما الدلائل على أن السماء على مثال الكرة وتدويرها بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة ، وأن الأرض بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة ، وأن كرة الأرض مثبتة فى وسط السماء كالمركز[3] ، وقدرها عند قدر السماء قدر النقطة فى الدائرة صغراً ، ووصف الربع المسكون من الأرض ، وما يعرض فيه من دور الفلك ، واختلاف الليل والنهار [ووصف خواص هذا الربع المسكون من الأرض] ووصف المواضع التى تطلع الشمس فيها شهوراً لا تغرب ، وتغرب شهوراً لا تطلع ، فقد أتينا على وصف جميع ذلك ، وما اتضح عليه وانتصب من البراهين ، وما قاله الناس فى ذلك فى كتابنا المترجم بكتاب « أخبار الزمان » وما أوضحنا فيه من هيئة الأفلاك

---

(١) زيادة فى ب وحدها (٢) فى ب « عند التمام »
(٣) فى ب « كالكرة »

والكواكب ، وأن الأرض مع ماوصفنا تدويرها موضوعة فى جوف الفلك كالمُحَّة فى البيضة ، والنسيم جاذب أيضاً لما فى أبدان الخلق من الخفة ، والأرض جاذبة لما فى أبدانهم من الثقل ؛ إذ كانت الأرض بمنزلة حجر المغناطيس الذى يجذب بطبعه الحديد ، وأن الأرض مقسومة نصفين ، وبينهما خط الاستواء ، وهو [بين] المشرق إلى المغرب [وهذا عندهم هو طول الأرض ؛ لأنه أكبر خط فى كرة الأرض] كما أن منطقة البروج أكبر خط فى الفلك ، وعرض الأرض من القطب الجنوبى [إلى القطب الشمالى] الذى تدور حوله بنات نَعْشٍ ، وأن استدارة الأرض فى خط الاستواء ست وثلاثون درجة ، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً ، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع ، والذراع اثنان وأربعون أصبعاً ، والأصبع ست حبات [وتسعان][1] مصفوفة بعضها إلى بعض ، يكون ذلك تسعة آلاف فرسخ .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب فى باب ذكر الأرض والبحار ومبادىء الأنهار مقدار المِيلِ والذراع الأسود ، وإنما نذكر فى كل موضع من هذا الكتاب ما يسنح لنا ونجده فى كتب الناس ؛ فننقل ذلك عنهم على ما وجدناه فى كتبهم ، لا أنا نقطع على صحته ؛ إذ كان ما يذهب إليه فى مقدار الميل من الأذرع ، والذراع من الأصابع ، هو ما بيناه آنفاً فى باب ذكر الأرض والبحار .

وبين خط الاستواء وكل واحد من القطبين تسعون درجة ، واستدارتها عرضاً مثل ذلك ، وزعم هؤلاء أن العمارة فى الأرض بعد خط الاستواء أربع وعشرون درجة ، وأن الباقى قد عمه البحر[2] الكبير ، وأن الخلق على [الربع] الشمالى من الأرض ، والربع الجنوبى خراب لشدة الحر فيه ، والنصف الباقى من الأرض لا ساكن فيه ، وكل ربع من الشمال والجنوب سبعة أقاليم ، وقد ذكرناها فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا الأرض والأقاليم السبعة ، وأن عدد

(١) لا توجد هذه الكلمة فى ا (٢) فى ا « قد غمره البحر الكبير »

المدن عند صاحب[١] كتاب الجغرافيا أربعة آلاف مدينة ومائتا مدينة ، فأما قبلة [أهل] المشرق والمغرب والتيمن والجنوبى[٢]، فقد ذكرنا جملا من ذلك فى كتابنا « أخبار الزمان » .

وقد حرر[٣] ذلك فى كتابه أبو حنيفة الدِّينَوَرِىّ ، وقد سلب ذلك ابن قتيبة ونقله إلى كتبه نقلا ، وجعله عن نفسه ، وقد فعل ذلك فى كثير من كتب أبى حنيفة الدينورى . هذا ، وكان أبو حنيفة هذا ذا محل من العلم كبير ، ولبطايموس فى كتاب المجسطى ، وغيره ممن تقدم ، ثم لمن طرأ بعد ظهور الإسلام — مثل الكندى ، وابن المنجم[٤]، وأحمد بن الطيب، وما شاء الله ، وأبى معشر ، والخوارزمى[٥] ، ومحمد بن كثير الفرغانى ، فيما ذكره فى كتابه الفصول[٦] الثلاثين ، وثابت بن قُرَّة ، والتبريزى[٧]، ومحمد بن جابر البتَّانِى ، وغير هؤلاء ممن قد عنى بعلوم الهيئة — علوم كثيرة فى هذا المعنى ، وإنما ننقل من ذلك إلى هذا الكتاب لمعاً ؛ طلباً للاختصار والإيجاز ، وبالله التوفيق .

(١) فى ا « على عهد صاحب كتاب جغرافيا »
(٢) فى ا « والجدى » (٣) فى ا « وقد جرد ذلك » محرفا
(٤) فى ا « وبنى المنجم » (٥) فى ا « وأبى معشر الخوارزمى »
(٦) فى ب « فى كتابه فى الأصول الثلاثين »
(٧) فى ب « والسديدى »

ذكر أرباع العالم ، والطبائع

وما خص به كل جزء منه من الشرق والغرب والتيمن والجنوبى[(١)] والأهوية ، وغير ذلك من سلطان الكواكب وما لحق بهذا الباب [واتصل بهذا المعنى]

الطبائع الأربع

[قال المسعودى] فأما الطبائع الأربعة: الأرض،فالنار حارة يابسة [وهى الطبيعة الأولى]والطبيعة الثانية:باردة رطبة،وهى الماء، والطبيعة الثالثة:الهواء، وهو حار رطب ، والطبيعة الرابعة : وهى باردة يابسة ؛ فاثنتان[منها] تذهبان الصُّعَدَاء ، وهما : النار ، والهواء ، واثنتان ترسخان سُفْلا، وهما : الأرض،والماء والعالم أربعة أجزاء ؛ فالمشرق الربع الأول، وجميع مافيه حار رطب[مثل]الهواء والدم ، وهذا الربع[(٢)] ريحه الجنوب، وله من الساعات الأولى و الثانية والثالثة، وله من قوى البدن قوة الطبيعة الهاضمة[(٣)] ، ومن المذاقات حظه الحلاوة ، وله من الكواكب : القمر ، والزهرة ، وله من البروج : الحمل ، والثور ، والجوزاء . وللحكماء [فى هذا] خطب طويل فى وصف هذه الأرباع منها جُمَل[(٤)] فيما مضى وما يأتى . والمغرب : وهو الربع الثانى ، وجميع ما فيه بارد رطب [مثل] الماء والبلغم[(٥)]، والشتاء ، ورياحه : الدَّبُورُ ، وله من الساعات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة ، وله من المذاقات : المالح ، وما شابه ذلك ، وله من القوى : القوة الدافعة ، وله من الكواكب : المشترى ، وعُطَارد ، ومن البروج : الجدى،والدلو ، والحوت . والجزء الثالث[(٦)]:التيمن، وجميع ما فيه حار يابس [مثل] المِرَّة الصفراء . والصيف ، وريحه : الصَّبا ، وله من الساعات الرابعة والخامسة والسادسة من النهار . وله من قوى البدن

(١) فى ا « والجدى » (٢) فى ا « والربيع ريحه الجنوب »
(٣) فى ا « وله من قوى البدن القوة الهاضمه »
(٤) فى ب « هذه جمل منها ما مضى وما يأتى »
(٥) فى ب «رطب الماء واللبن فى الشتاء» (٦) فى ا « وهو الربع الثالث»

القوة النفسانية والحيوانية ، وله من المذاقات : المرارة، وله من الكواكب: المريخ، والشمس ، ومن البروج : السرطان، والسنبلة ، والميزان[١] ، والجزء الرابع هو الجنوبى، وجميع ما فيه بارد يابس ، مثل الأرض [والمرة السوداء ، والخريف] [وريحه الشمال] وله من الساعات : السابعة والثامنة والتاسعة ، وله من قوى البدن القوة الماسكة ، ومن [الطعوم و] المذاقات : العَفْصُ ، وله من الكواكب: زُحَل ، وله من البروج: الميزان ، والعقرب ، والقوس ، والأرض بعد ما وصفناه [تتهايأ] فى الهيئة ، وتختلف فى التأثير على مقادير الخطوط ، فإذا بعد الخط كان التأثير بخلاف ماهو إذا قرب ؛ لموجبات متنافية متغايرة، وأفضل المواضع من المسكون مانطرح الشمس ضوء شعاعها إليه ، وإلى الإقليم الرابع ينتهى عند هذه الطائفة شعاعها فى صفوه وارتفاع كدره ؛ لأن شعاع الشمس يهبط متساويا إلى هذا الموضع وهو العراق .

علة عدم سكنى بعض الأرض

قال المسعودى : والمواضع التى لاتسكن عند هذه الطائفة = مت السكنى لعلتين : إحداهما إفراط الحر وإحراق الشمس وكثرة تواتر شعاعها على تلك الأرضين [حتى قد] جعلتها كِلْسِية[٢] وأغاضت مياهها لكثرة التنشيف ، والعلة الأخرى بُعْدُ الشمس عن الإقليم ، وارتفاعها عن حوزته ، فاكتنف تلك الأرضين البرد ، واستولى عليها القر والجمد[٣] ، فزاد إفراط البرد فى الجو حتى أزال حسن الاعتدال ورفع فضيلة النشف ، فلم نلبث الحرارة فى الأجسام ، ولم تظهر الرطوبة فى إنماء الحيوان هنالك ؛ فصارت تلك البلاد قاعا صفصفا من الحيوان والنبات ، وهذه البلدان التى تراها مفرطة الحرارة والبرودة هى تناسب ما ذكرنا من هذه الديار البلاقع .

ولهذه الطائفة كلام كثير فى فناء العالم ونقصه[٤] وعَوْدِه جديداً، وذكروا أن السلطان فى هذا الوقت السنبلة [وهو سبعة آلاف سنة ، وذلك عمر هذا العالم البشرى ، وقد ساعَدَ السنبلةَ] المشترى فى التدبير ، وأن نهاية العالم فى كثرة

(١) فى ا « السرطان والأسد والسنبلة والجدى »
(٢) فى ب « جعلتها يابسة » (٣) فى ب « والجهد »
(٤) فى ا « ونقضه »

قطع الكوكب المدبر المسافة التامة بالقوى ، فإذا استكمل قَطْع[1] المسافة التى ذكروها [فى الفلك] فهنالك يقع النفاد ويكون الدُّثُور بالعالم، والكواكب إذا كانت مالها من كرٍّ ودَوْر عاد التدبير إلى الأول منها، وعادت أشخاص كل عالم وصوره مع اجتماع المواد التى كانت له فى حال[2] حركة تأثير الكوكب الذى كان التدبير إليه ، وهكذا عند هؤلاء يجرى شأن العالم سرمداً .

مدة سلطان الكوكب

وزعموا أن سلطان الحَمَلِ اثنا عشر ألف سنة [وسلطان الثور إحدى عشرة ألف سنة ، وسلطان الجوزاء عشرة آلاف سنة ، وسلطان السرطان تسعة آلاف سنة ، وسلطان الأسد ثمانية آلاف سنة ، وسلطان السنبلة سبعة آلاف سنة ، وسلطان الميزان ستة آلاف سنة] وسلطان العقرب خمسة آلاف سنة [وسلطان القوس أربعة آلاف سنة] وسلطان الجدى ثلاثة آلاف سنة ، وسلطان الدلو ألفا سنة [وسلطان الحوت ألف سنة ، فجميع ذلك ثمانية وسبعون ألف سنة] وعند ذلك هو انقضاء العالم ونقض ما فيه ورجوعه إلى كونه .

وتكلم هؤلاء فى الجن الذين كانوا فى الأرض قبل خلق [الله] آدم واستخلافه فى الأرض ، وأن المتولى لهم كوكب من الكواكب النارية .

وتكلم كلا الفريقين فى أوج الشمس عند انفصالها إلى البروج الجنوبية وما يحدث فى العالم فى كون الشمال جنوبا والجنوب شمالاً ، وتحول العامر غامراً والغامر عامراً ، على حسب ماذكرنا فى كتابنا المترجم بكتاب «الزلف» .

أجناس الاجسام

وقد ذهب [غير] هؤلاء ممن تقدم من الأوائل [إلى] أن التى وجد بها سائر الموجودات كالأول والثوانى والثوالث على قدر مراتبها [فى العقل] النفس والصورة والهيولى ، وأنها المبادىء على حسب ما رتبناه وقدمناه فى كتاب « الزلف » فما عدا ماوصفنا فهى الأجسام ، وأجناسها ستة : الجسم السماوى [والجسم الأرضى] والحيوان الناطق ، والحيوان غير الناطق ، والنبات ، والأجسام الحجرية وهى المعدنية ، والأستقصات الأربعة وهى النار والهواء والماء والأرض .

---

(١) فى ب « استكمل وبلغ المسافة » (٢) فى ب فى حد حركة تأثير الكوكب »

وتكلم هؤلاء فيما يخص كل واحد مما ذكرنا مما لا يحتمله كتابنا هذا ؛ إذ كان فيه خروج عن الغرض الميمَّم فيه ، وقد أتينا على بسط ذلك فى . كتاب « الرؤس السبعية ، فى باب السياسة المدنية ، وعدد أجزائها وعللها الطبيعية »[1] وهل ملك تلك المدينة جزء من أجزائها أو من غيرها ؟ وإليه نهاية أجزائها على حسب ماذكره فرفوريوس[2] فى كتابه فى وصف منازعة أفلاطون وأرسطاطاليس فى ذلك .

فأما علة كون الشتاء بأرض الهند فى الحالة التى يكون الصيف بها عندنا، و[الحالة التى يكون فيها عندنا] الشتاء يكون الصيف عندهم[3] فقد ذكرنا علة ذلك ووجه البرهان عليه، وأن ذلك للشمس فى قربها وبعدها، وكذلك علة تكون السودان فى بعض البقاع من الأرض دون بعض [وتفلفل شعورهم ، وغير ذلك من مشهور أوصافهم، وعلة تكوُّن البيضان فى بعض البقاع دون بعض] وتفطر ألوان الصقالبة وشقرتهم وصُهُوبة شعورهم، وما لحق الترك من استرخاء مفاصلهم وتعوج أسوقهم[4] ولين عظامهم حتى إن أحدهم ليرمى بالنشاب من خلف كرْسيه من قدّام فيصير وجهه قفاه وقفاه وجهه ؛ ومطاوعة فقارات الظهور لهم على ذلك، وكون الحمرة فى وجوههم عند تكامل الحرارة فى الوجه على الأغلب من كونها وارتفاعها؛ لغلبة البرد على أجسامهم ، وقد أتينا بحمد الله على [شرح ذلك ؛ وما انتظم من الدلائل الدالة على مصداق] ماذكرنا فيما سلف من كتبنا فى هذه المعانى المقدم ذكرها . ولم نتعرض لذكر مالم يصح عندنا فى العالم وجوده حساً ولا خبراً قاطعاً للعذر ولا دافعاً للرَّيْبِ ومزيلا للشك كأخبار العامة فى كون النسناس ، وأن وجوههم على نصف وجوه الناس ، وأنهم ذوو أنياب[5] ، وقولهم فى عنقاء مغرب. وقد زعم كثير من الناس أن الحيوان الناطق ثلاثة أجناس : ناس، ونسناس ، ونسانس وهذا محال من القول؛ لأن النسناس إنما وقع هذا الاسم على السفلة من الناس والرُّذال

(١) فى ب « وملتها الطبيعية » محرفا (٢) فى ب « فرقورنوس»
(٣) وقع فى ب «وقد ذكرنا »والوجه فى العربية أن يقول« فقد ذكرنا »وكذلك وقع فى ا (٤) فى ب « سيقانهم » (٥) فى ب « ذوو ألباب »

وقد قال الحسن : ذهب الناس وبقى النسناس ، وقال الشاعر :

ذهب الناس فاستقلوا ، وصرنا خلفاً فى أراذل النسناس

أراد به ما وصفنا : أى ذهب الناس وبقى مَنْ لا خير فيه .

الجن وأنواعها

وقد ذهب كثير من الناس إلى أن الجن نوعان : أعلاهم وأشدهم الجن ، [وأخفضهم] وأضعفهم الحن ، وأنشد الراجز :

* مختلف نَجْرُهُمُ جِنٌّ وحِنّْ *[1]

وهذا التفصيل بين الجنسين من الجن لم يرد به خبر ، ولا صح به أثر ، وإنما ذلك من توهم الأعراب على [حسب] ما بيناه آنفاً .

النسناس

وقد غلب على كثير من العوام الأخبار عن معرفة النسناس وصحة وجوده فى العالم كالأخبار عن وجود [ه فى] الصين وغيرها من الممالك النائية والأمصار القاصية فبعضهم يخبر عن وجودهم فى المشرق ، وبعضهم فى المغرب ، فأهل المشرق يذكرون كونها بالمغرب ، وأهل المغرب يذكرون أنها بالمشرق ، وكذلك كل صقع من البلاد يُشير سكانه[2] إلى أن النسناس فيما بعد عنهم من البلاد ونأى من الديار .

وقد روى فى ذلك خبراً مخرجه من طريق الآحاد أن ذلك فى بلاد حضرموت من [أرض] الشِّحْر ، وهو ما ذكره[3] عبدالله بن [سعيد بن] كثير بن عفير المصرى ، عن أبيه عن يعقوب بن الحارث بن نجيم[4] ، عن شبيب بن شيبة بن الحارث التميمى ، قال : قدمت الشِّحْر فنزلت على رأسها[5] ، فتذاكرنا النسناس ، فقال: صيدوا لنا منها ، فلما أن رجعت إليه [مع بعض أعوانه المَهْرِيين] إذا أنا بنسناس منها ، فقال لى النسناس : أنا بالله وبك ، فقلت لهم : خلوه ، نخلوه ، فلما حضر الغداء قال : هل اصطدتم منها شيئاً ؟ قالوا : نعم ، ولكن خَلَّاه ضيفك ، قال:

(١) فى ب « مختلف سحرهم جن وجن » وليس بشىء أصلا ، والنجر — ومثله النجار : الأصل .

(٢) فى ب « يسير سلطانه » (٣) فى ب «ماذكرناه عن عبد الله بن كثير»

(٤) فى ب « يعقوب بن محرث بن لحيم » (٥) فى ا « على رئيسها»

استعدوا فإنا خارجون فى قَنَصِهِ ، فلما خرجنا إلى ذلك فى السَّحَر[(١)] خرج منها واحد يعدو وله وجه كوجه الإنسان وشَعَرات فى ذقنه ، ومثل الثدى فى صدره ، ومثل رجلى الإنسان رجلاه ، وقد ألَظَّ به كلبان ، وهو يقول :

الويل لى مما به دهانى ... دهرى من الهموم والأحزان

قفا قليلا أيها الكلْبَانِ ... واستمعا قولى وصَدِّقانى[(٢)]

إنكما حين تحاربانى ... ألفيتمانى حضرا عِنانى[(٣)]

لولا سُبَاتى ما ملكتمانى ... حتى تموتا أو تفارقانى[(٤)]

لست بخوّار ولا جبان ... ولا بنكس رَعشِ الجنان

لكن قضاء الملك الرحمن ... يُذِل ذا القوة والسلطان[(٥)]

قال : فالتقيا به فأخذاه ، ويزعمون أنهم ذبحوا منها نسناساً ، فقال قائل منها : سبحان الله ، ما أشد حمرة دمه ! فذبحوه أيضاً ، فقال نسناس آخر من شجرة : كان يأكل السماق ، قال : فقالوا نسناس آخر خذوه ، فأخذوه وذبحوه ، فقالوا : لو سكت هذا لم يعلم بمكانه ، فقال نسناس من شجرة أخرى : أنا صمت[(٦)] [قالوا : نسناس ، خذوه] فأخذوه [فذبحوه] فقال نسناس من شجرة أخرى : يا لسان احْفَظْ رأسك ، فقالوا : نسناس خذوه ، فأخذوه ، وزعم من روى هذا الخبر أن المهرة تصطادها [فى بلادها] وتأكلها .

قال المسعودى : ووجدت أهل الشِّحر من بلاد حضرموت وساحلها — وهى الأحساء مدينة على الشاطىء من أرض الأحقاف ، وهى أرض الرمل وغيرها مما اتصل بهذه الديار من أرض اليمن وغيرها من عمان وأرض المَهْرَة — يستطرفون

---

(١) فى ب « فلما خرجنا إلى ذلك السرح » (٢) فى ب « أيها الركبان »

(٣) فى ا « حين تجاريانى » وفى ب « حضرا عانى » .

(٤) فى ا « لو فى شبابى ما ملكتمانى »

(٥) فى ا « القدرة والسلطان » (٦) فى ا « أنا صميت » .

أخبار النسناس إذا ما حدثوها ، ويتعجبون من وصفه ، ويتوهمون أنه ببعض بقاع الأرض مما قد نأى عنهم وبعد ، كسماع غيرهم من أهل البلاد بذلك عنهم ، وهذا يدل على عدم كونه فى العالم ، وإنما ذلك من هَوَس العامة واختلاطها[١] ، كما وقع لهم فى خبر عنقاء مُغرِب]وهذا يدل على عدم كونه فى العالم[ورووا فيه حديثاً عزوه إلى ابن عباس ، ونحن لم نُحِلْ وجود النسناس والعنقاء وغير ذلك مما اتصل به بهذا النوع من الحيوان الغريب النادر فى العالم من طريق العقل ؛ فإن ذلك غير ممتنع فى القدرة ، ولكن أحَلْنَا ذلك لأن الخبر القاطع للعذر لم يرد بصحة وجود ذلك فى العالم ، وهذا باب داخل فى حيز الممكن الجائز خارج عن باب الممتنع والواجب ، ويحتمل هذه الأنواع من الحيوان النادر ذكرها كالنسناس والعنقاء والعَرَابد وما اتصل بهذا المعنى أن تكون أنواعا من الحيوان أخرجتها الطبيعة من القوة إلى الفعل[٢] ولم تحكمه ولم يتأتَّ فيه الصُّنع[٣] كما تأتيه فى غيره من الحيوان ، فبقى شاذاً فريداً متوحشاً نادراً فى العالم طالباً للبقاع النائية من البر مباينا لسائر أنواع الحيوان من الناطقين وغيرهم ؛ للضدية التى فيه لغيره مما قد أحكمته الطبيعة ، وعدم المشاكلة والمناسبة التى بينه وبين غيره من أجناس الحيوان وأنواعه ، على حسب ما قدمنا فى باب الغيلان فيما سلف من هذا الكتاب ، وفى الإكثار من هذا خروج عن الغرض الذى إليه قصدنا فى هذا الكتاب.

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب من الأخبار عمن زعم أن المتوكل أمر حُنَيْن بن إسحاق[٤] — أو غيره من أهل عصره ممن عنى بهذا الشأن من الحكماء — أن يتأتى له ويحتال فى حمل النسناس والعَرْبَد من أرض اليمامة ، وأن حُنَيناً[٤] حمل له شيئاً من ذلك ، وقد أتينا على شرح هذا الخبر فيمن أرسل إلى اليمامة فى حمل العربد وإلى بلاد الشِّحر فى حمل النسناس فى كتابنا « أخبار الزمان » والله تعالى أعلم بصحة هذا الخبر ،

---

(١) فى ا « وأخلاطها » (٢) فى ب « من القدرة إلى الفعل »
(٣) فى ب « ولم يتات فيه الطبع » (٤) فى ب « حسين بن إسحاق » محرفا

وليس لنا فى ذلك إلا النقل ، وأن نعزوهُ إلى راويه ، وهو المقلَّد بعلم ذلك فيما حكاه ورواه ؛ فننظمه على حسب مايتأتى لنا نظمه فى الموضع المستحق له ، والله ولى التوفيق برحمته .

وأما ما ذكروه عن ابن عباس فهو خبر يتصل بخبر خالد بن سنان العبسى ، وقد تقدمنا فيما سلف من هذا الكتاب خبر خالد بن سنان العبسى ، وأنه ذكر أنه كان فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وذكرنا خبره مع النار وإطفائه لها .

العنقاء

فلنذكر الآن خبر العنقاء على حسب ما رووه ، فلا بد من إعادة خبر خالد لذكر [نا] العنقاء واتصال[1] الخبرين ، ومخرج هذه الأخبار كلها عن ابن عفير .

حدث الحسن بن إبراهيم قال : حدثنا محمد بن عبد الله المروزى ، قال : حدثنا أسد ابن سعيد بن كثير بن عفير [عن أبيه عن جده كثير ، عن جد أبيه عفير[2] عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق طائراً فى الزمان الأول من أحسن الطير ، وجعل فيه من كل حسن[3] قسطا ، وخلق وجهه على مثال وجوه الناس ، وكان فى أجنحته كل لون حُسَنٍ من الريش ، وخلق له أربعة أجنحة من كل جانب منه ، وخلق له يدين فيهما مخالب ، وله منقار على صفة منقار العُقَاب غليظ الأصل ، وجعل له أنثى[4] على مثاله ، وسماها بالعنقاء ، وأوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران : إنى خلقت طائراً عجيباً خلقته ذكراً وأنثى ، وجعلت رزقه فى وحش بيت المقدس ، وآنستك بهما ؛ ليكونا مما فضلت به بنى إسرائيل ، فلم يزالا يتناسلان حتى كثر نسلهما ، وأدخل الله موسى وبنى إسرائيل فى التيه فمكثوا فيه أربعين سنة حتى مات موسى وهرون فى التيه وجميع من كان مع موسى من

(١) فى ب « واتساع الخبرين » .
(٢) فى ب « أسد بن سعيد بن كثير عن ابن عفير عن عكرمة » ووقع الإسناد فيها فيما يأتى كما ذكرناه هنا موافقا لما فى ا .
(٣) فى ب « من كل جنس » . (٤) فى ب « أبناء على مثاله ، وسماها »

بنى إسرائيل ، وكانوا ستمائة ألف ، وَخَلَفهم نسلُهم فى التيه ، ثم أخرجهم الله تعالى من التيه مع يوشع بن نون تلميذ موسى ووصيه ، فانتقل ذلك الطائر فوقع بنجد والحجاز فى بلاد قيس عَيْلاَن ، ولم يزل هنالك يأكل من الوحوش ويأكل الصبيان وغير ذلك من البهائم إلى أن ظهر نبى من بنى عبس بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم يقال له خالد بن سنان ، فشكا إليه الناس ما كانت العنقاء تفعل بالصبيان ، فدعا الله عليها [أن يقطع نسلها فقطع الله نسلها][1] فبقيت صورتها تحكى فى البُسُطِ وغير ذلك .

وقد ذهب جماعة من ذوى الروايات[2] إلى أن قول الناس فى أمثالهم « عنقاء مُغْرِب » إنما هو للأمر العجيب النادر وقوعه ، وقولهم « جاء فلان بعنقاء مُغْرِب » يريدون أنه جاء بأمر عجيب ، قال شاعرهم :

* وَصَبَّحَهم بالجيش عنقاء مُغْرِب *

وَالْعَنَق : السرعة .

خالد بن سنان العبسى

قال ابن عباس : وكان خالد بن سنان نبى بنى عبس بَشَّرَ[3] برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما حضرته الوفاة قال لقومه : إذا أنا مت فادفنونى فى حِقْفٍ من هذه الأحقاف ، وهى تلول عظام من الرمل ، واحرسوا قبرى أياما ، فإذا رأيتم حماراً أشهب أبتر يدور حول الحِقْف الذى فيه قبرى أياما فاجتمعوا ثم انبشوا قبرى وأخرجونى إلى شفير القبر ، وأحضروا لى كاتباً ومعه ما يكتب فيه حتى أملى عليكم ما يكون وما يحدث إلى يوم القيامة ، قال : فرَصَدوا قبره [بعد وفاته ثلاثاً ثم ثلاثاً ثم ثلاثاً ، فإذا الحمار يرعى حول الحقف قريباً من قبره][1] واجتمعوا عليه لينبشوه كما أمرهم ، فحضر وَلَدُه وشهروا سيوفهم ، وقالوا : والله لا تركنا أحداً ينبشه ، أتريدون أن نُعَيَّر بذلك غداً وتقول لنا العرب : هؤلاء ولد المنبوش ؟ فانصرفوا عنه وتركوه ، قال ابن عباس : ووردت ابنة له عجوز قد عمرت على النبى صلى الله عليه وسلم ، فتلقاها بخير وأكرمها وأسلمت ، وقال لها :

(١) ما بين المعقوفين لا يوجد فى ب. (٢) فى ب « من ذى الدراية »

(٣) فى ا « مبشراً برسول الله » .

« مرحباً بابنة نبي ضيعه أهله» قال شاعر بنى عبس :

بنى خالد لو أنكم إذ حضرتمُ نبشتم عن الميت المغيّبِ فى القبر
لأبقى عليكم آلَ عبسٍ ذخيرةً من العلم لاتبلى على سالف الدهر

وقد رويتُ عن ابن عفير أخبار كثيرة فى هذا المعنى وأشباهه من فنون الأخبار من أخبار بنى إسرائيل وغيرها .

خلق الخيل

منها خبر خلق الخيل ، وهو ماحدث به الحسن بن إبراهيم الشعبي القاضي، قال : حدثنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله المروزى قال : حدثنا أبو الحارث أسد ابن سعيد بن كثير بن عفير ، عن أبيه ، عن جده كثير ، عن [جد] أبيه عفير قال: قال عكرمة: أخبرنى [مولاى] ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لما أراد أن يخلق الخيل أوحى إلى الريح الجنوبى[1]: إنى خالق منك خلقا [فاجتمعى] فاجتمعت ،فأمر جبريل فأخذمنها [قبضة] ثم قال الله: هذه قبضتى ، قال : ثم خلق الله منها فرساً كُمَيْتاً ، ثم قال الله : خلقتك فرساً ، وجعلتك عربياً ، وفضلتك على سائر ماخلقته من البهائم بسعة الرزق ، والغنائم تقاد على ظهرك ، والخير معقود بناصيتك ، ثم أرسله ، فصَهَلَ ، فقال الله : باركت فيك ، بصهيلك أرعب المشركين ، وأملأ مسامعهم ، وأزلزل أقدامهم، ثم وسَمه بغرة وتحجيل، فلما خلق الله آدم قال: يا آدم ، أخبرنى أى الدابتين أحب إليك الفرس أو البراق ؟ قال : وصورة البراق على صورة البغل ، لا ذكر ولا أنثى ، فقال آدم : يارب، اخترتُ أحسنهما وجها ،. فاختار الفرس، فقال الله: يا آدم اخترت عزك وعز ولدك باقياً ما بقوا وخلدوا » قال ابن عباس : فذلك الوَسْمُ فيه وفى ولده إلى يوم القيامة ، يعنى الغرة والتحجيل

قال المسعودى رحمه الله : وقد ذكر عيسى بن لهيعة المصرى فى كتابه المترجم بكتاب «الحلائب والجلائب» وذكره لكل حَلْبة أجريت فيها الخيل

(١) فى ا « ريح الجنوب » .

في الجاهلية والإسلام : أن سليمان بن داود زَوَّدَ أناساً من الأزد فرساً يصيدون عليه ، فسمى زاد الراكب ، وكذلك ذكر ابن دريد في كتاب الخيل وغيره .

وللناس في الخيل أخبار [عظيمة] كثيرة قد أتينا على ذكرها في السالف من كتبنا .

[ولولا أن المصنف حاطبُ ليلٍ لذكره في تصنيفه من كل نوع لما ذكرنا هذه الأخبار؛ إذ الناس من أهل العلم والدراية في قبول الأخبار على وجوه][1] .

الكلام على الاخبار

[وقد] ذهبت طائفة إلى أن الأخبار التي تقطع العذر وتوجب العلم والعمل هي أخبار الاستفاضة : مارواه الكافة عن الكافة ، وأن ما عدا ذلك فغير واجب قبوله .

وذهب الجمهور من فقهاء الأمصار إلى قبول خبر الاستفاضة ، وهو خبر التواتر ، وأنه يوجب العلم والعمل ، وأوجبوا العمل بخبر الواحد ، وزعموا أنه موجب للعمل دون العلم بأوصاف ذكروها .

ومن الناس من ذهب إلى غير هذه الوجوه في قبول الأخبار من الضرورية وغيرها[2] .

وماذكرناه من حديث النسناس والعنقاء وخلق الخيل فغير داخل في أخبار التواتر الموجبة للعمل واللاحقة بما أوجب العمل دون العلم ، ولا بالأخبار المضطرة لسامعها إلى قبولها عند ورودها واعتقاد صحتها عن مُخْبِرها ، وهذا النوع من الأخبار قد قدمنا [أنها] في حيِّز الجائز الممكن الذي ليس بواجب ولا ممتنع ، وهي لاحقة بالإسرائيليات من الأخبار والأخبار عن عجائب البحار . ولولا ماقدمنا آنفاً من اشتراطنا على أنفسنا الاختصار والإيجاز لذكرنا ما اتصل بهذا المعنى من الأخبار

(١) وقعت هذه العبارة مختصرة في ب قبل خبر عيسى بن لهيعة

(٢) في ب « في فنون الأخبار من الضرورة وغيرها » .

مما رواه أصحاب الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم جملة السنن ونقلة الآثار ، مما لا يتناكرونه ، ويعرفونه ولا يدفعونه .

أمثلة من الأخبار

مثل حديث القرد الذى كان فى السفينة فى عهد بنى إسرائيل مع رجل كان يبيع الخمر لأهل السفينة ويَشُوبُ الخمر بالماء ، وأنه جمع من ذلك دراهم كثيرة ، وأن القرد قبض على الكيس الذى كانت فيه الدراهم وصعد على الدقل ، وهو صارى المركب ويُدْعَى بالعراق الدقل ، فحل الكيس ولم يزل يرمى درهماً إلى الماء ودرهماً إلى السفينة ، حتى قسم ذلك نصفين .

ومثل ماروى الشعبي عن فاطمة بنت قيس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك قد رواه عن فاطمة بنت قيس عدة من الصحابة ، وهو خبر تميم الدارى ، أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عنه أنه أخبره أنه ركب البحر فى جماعة من بنى عمه فى سفينة ، فأضَلَّ بهم البحر[1] وألقاهم إلى جزيرة [فخرجوا من السفينة إلى الجزيرة] فنظروا إلى دابة عظيمة قد نشرت شعرها ، فقالوا لها : أيتها الدابة ، ما أنت ؟ فقالت : أنا الجَسَّاسة التى أخرج آخر الزمان ، وذكروا عنها كلاماً غير هذا ، وأنها قالت : عليكم بصاحب القصر ، فنظروا فإذا هم [بقصر من حاله ووصفه كذا ، وإذا هم][2] برجل بالحديد والقيود مُسَلْسل إلى عمود من حديد وصفة وجهه كذا ، وأنه خاطبهم وساءلهم ، وأنه الدجال ، وأنه أخبرهم بجمل من الملاحم ، وأنه لايدخل مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وغير ذلك مما ذكر فى هذا الحديث وغيره مما ورد من الأخبار فى معناه ، وهذا باب كبير يتسع وصفه ويعظم شرحه .

عود إلى ذكر أرباع العالم والطبائع

ثم رجع بنا القول إلى ما كنا فيه آنفاً من ذكر أرباع العالم والطبائع ، وما اتصل بهذا المعنى ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب جوامع من الكلام فى الطبائع وغيرها مما ينبه على عظم هذا الباب ومبسوطه ، وقد زعم جماعة

(١) فى ا « فاعتل بهم البحر » .

(٢) مابين هذين المعقوفين ساقط من ا .

للطعام انهضامات ثلاثة

ممن تقدم وتأخر من الأطباء ومصنفى الكتب فى الطبيعيات وغيرها أن للطعام ثلاثة انهضامات : أما الأول فهى المعدة [فإن المعدة] تهضم الطعام فتأخذ قوته فيصير مثل ماء الكشك ، ثم تدفعه إلى الكبد [ثم يدفعه الكبد] فى العروق إلى جميع الجسد كاندفاع الماء من النهر إلى السواقى والمشارب ، فتهضمه أعضاء الجسد التالية ، فتصيره إلى شبهها اللحم لحما والشحم شحما ، وكذلك العروق والعصب وما سوى ذلك [وأن أقتارها إذا استوت استوت أقدار القوى] وإذا استوت القوى استوى الجسد واعتدل ويصح بإذن الله تعالى.

فصول السنة وأثر كل منها

وأن الزمان أربعة فصول : الصيف ، والخريف ، والشتاء ، والربيع ؛ فالصيف يقوى المرة الصفراء ويكثر اهتياجها ، والخريف يقوى السوداء ، والشتاء يقوى البلغم ، والربيع يقوى الدم .

ثم ينقسم عمر الإنسان أربعة أقسام : الصبا وفيه يقوى الدم ، والشباب وفيه تقوى المرة الصفراء ، والكهولة وفيها تقوى السوداء ، والشيخوخة وفيها يقوى البلغم .

وأن البلدان أيضاً تنقسم على أربعة[١] أقسام : المشرق وطبيعته الحرارة والرطوبة ، وفيه يقوى الدم ، والجنوب[٢] وطبيعته البرودة واليبس ، وفيه تقوى المرة [السوداء ، والغرب وطبيعته البرودة والرطوبة وفيه يقوى البلغم ، والتيمن وطبيعته الحرارة واليبس ، وفيه تقوى المرة] الصفراء ، وأن بنية الأصول من الجسد ربما كانت مستوية معتدلة الأخلاط ، وربما كان أحد الأخلاط أغلب فى البنية فتظهر قوته بأعلامه حتى يكون مقوياً لذلك الخلط إذا هاج.

---

(١) ترك فى ب ذكر المغرب فلم يعرض له ، وترك ذكر الشمال أيضاً .ثم ذكر تأثير ريح الجنوب والشمال مقحما فى تضاعيف الكلام ، مما يدعو إلى توهم أنه المتروك ، ويسمى المؤلف الشمال بالتيمن ، وقد أثبتنا ما فى ا وهو تام .

(٢) فى ا « والجدى » .

وقد قال أبقراط : ينبغى أن يكون كل شىء فى هذا العالم مقدراً على سبعة أجزاء ، فالنجوم سبعة ، والأقاليم سبعة [والأيام سبعة] وأسنان الناس سبعة : أولها طفل ، ثم صبى إلى أربع عشرة سنة ، ثم غلام إلى إحدى وعشرين سنة ، ثم شاب ما دام يشب ويقبل الزيادة إلى خمس وثلاثين سنة ، ثم كهل إلى الأربعين(١) ، ثم شيخ إلى سبع وأربعين سنة ، ثم هرم إلى آخر العمر .

الهواء وأثره فى الإنسان والحيوان

وجميع تغير أحوال الحيوان من الناطقين وغيرهم فمن الهواء يكون ذلك. وقد قال الحكيم أبقراط : إن تغير حالات الهواء هو الذى يغير حالات الناس : مرة إلى الغضب ، ومرة إلى السكون ، وإلى الهم والسرور وغير ذلك ، وإذا استوت حالات الهواء استوت حالات الناس وأخلاقهم .

وقال : إن قوى النفس تابعة لمزاجات الأبدان ، ومزاجات الأبدان تابعة لتصرف الهواء : إذا برد مرة وسخن(٢) أخرى خرج الزرع نضيجاً ومرة غير نضيج ، ومرة قليلا ومرة كثيراً ، ومرة حاراً ومرة بارداً ، فتتغير لذلك صورهم ومزاجاتهم ، وإذا اعتدل الهواء واستوى خرج الزرع معتدلا ، فاعتدل بذلك الصور والمزاجات .

الاستدلال بالأقاليم على تأثير الهواء

فأما علة تشابه صور الترك فإنه لما استوى هواء بلدانهم فى البرد استوت صورهم وتشابهت ، وكذلك أهل مصر لما استوت أهواؤهم تشابهت صورهم ، ولما كان الغالب على هواء الترك البرد وعجزت الحرارة عن تنشيف رطوبات أبدانهم كثرت شحومهم ، ولانت أبدانهم ، وتشبهوا بالنساء فى كثير من أخلاقهم ، فضعفت شهوة الجماع فيهم ، وقل ولدهم ؛ لبرد مزاجهم ، وللرطوبة الغالبة عليهم ، وقد يكون ضعف الشهوة أيضاً لكثرة ركوب الخيل ، وكذلك نساؤهم : لما سمنت أبدانهن ورطبت ضعفت أرحامهن عن جذب الزرع إليها.

---

(١) فى ا « ثم كهل الى تسع وأربعين سنة ، ثم شيخ ، ثم هرم » .

(٢) فى ب « إذا برد مرة وسكن أخرى » وأثبتنا ما فى ا .

وأما حمرة ألوانهم فللبرد كما ذكرنا ؛ لأن البياض إذا ألحت عليه البرودة صار إلى الحمرة ، وبيان ذلك أن أطراف الأصابع والشفة والأنف إذا أصابها برد شديد احمرَّتْ .

وذكر الحكيم أبقراط أن فى بعض البلدان من الجنوب بلدة كثيرة الأمطار كثيرة النبات وَالعُشْب ، وأن أشجارها ذاهبة فى الهواء ، ومياهها عذبة ودوابها عظيمة ، وهى مخصبة ؛ لأن تلك البلاد لم يلحقها حر الشمس ، ولم يلحقها يبس البرد ، فأجسام أهلها عظيمة ، وصورهم جميلة ، وأخلاقهم كريمة ؛ فهم — فى صورهم وقاماتهم واعتدال طبائعهم — يشبهون باعتدال زمان الربيع ، غير أنهم أصحاب دَعَة لا يحتملون الشدائد والكد .

وقال أبقراط فى معنى ما وصفنا وما إليه قصدنا ، من بيان الأهوية وتأثيرها فى الحيوان والنبات : إن الروح المطبوعة فينا هى التى تجذب الهواء إلينا ، وإن الرياح تقلب الحيوان من حال إلى حال ، وتصرفه من حر إلى برد ، ومن يبس إلى رطوبة ، ومن سرور إلى حزن ، وكما تغير ما فى البيوت من بزر أو عسل أو فضة أو شراب أو سمن فتسخنها مرة وتبردها أخرى [وترطبها مرة وتيبسها أخرى][1] ، وعلة ذلك أن الشمس والكواكب تغير الهواء بحركاتها ، وإذا تغير الهواء تغير بتغيره كل شىء ، فمن تقدم وعرف أحوال الأزمنة وتغيرها والدلائل التى فيها عرف السبب الأعظم من أسباب العلم وتقدم فى حفظ[2] صحة الأبدان .

أثر الجنوب

وقال أيضاً : إن الجنوب إذا هبت أذابت الهواء وبردته ، وسخنت البحار والأنهار ، وكل شىء فيه رطوبة ، وتغير لون كل شىء وحالاته ، وهى ترخى الأبدان والعصب ، وتورث الكسل ، وتحدث ثقلا فى السماع ، وغشاوة فى البصر ؛ لأنها تحلل المرة ، وتنزل الرطوبة إلى أصل العصب الذى يكون فيه الحس .

---

(١) زيادة عن ا .

(٢) فى ب « من أسباب العالم وتقدم فى صحة الأبدان » .

أثر الشمال

وأما الشمال فإنها تصاب[1] الأبدان، وتصح الأدمغة، وتحسن اللون، وتصفى الحواس، وتقوى الشهوة والحركة، غير أنها تحرك السُّعَال ووجع الصدر.

وقد زعم بعض من تأخر فى الإسلام من الحكماء أن الجنوب إذا هبَّ بأرض العراق تغير الورد، وتناثر الورق [وتشقق القنبيط] وسخن الماء، واسترخت الأبدان، وتكدر الهواء، قال: وذلك شبه ما قاله أبقراط: إن الصيف أوبأ من الشتاء؛ لأنه يسخن الأبدان فيرخيها ويضعف قواها، وإن أهل العراق يكون الرجل منهم نائماً فى فراشه فيحس بهبوبها، وإنه إذا هبت الشمال بَرَدَ الخاتم فى إصبعه واتسع لانضمام البدن[2] بها، وإذا هبت الجنوب سخن الخاتم وضاق، واسترخى البدن، وحدث فيه الكسل، وهذا يجده سائر مَنْ بالعراق ممن له حس، إذا صرف همته إلى تأمل ذلك، وكذلك يجده من تأمل ما وصفناه فى سائر الأمصار فى بقاع الأرض والبلدان، وإن كان ذلك بالعراق أظهر لعموم الاعتدال.

الرياح الأربعة

ثم قال الحكيم أبقراط فى معنى ما ذكرناه: إن الرياح العامة أربعة: إحداها تهب من جهة المشرق، وهى القَبُول، والثانية تهب من المغرب، وهى الدَّبُور، والثالثة من التيمن، وهى الجنوب، والرابعة من التيسر[3]، وهى الشمال.

[فأما الريح التى تهب فى بلد دون بلد فإنها تسمى الريح البلدية][4].

قال المسعودى: وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب جوامع من الأخبار [عن الأرض والبحار، وكثير من الممالك والبلدان، وذكرنا فى هذا الباب جوامع من الأخبار] عن الطبائع والأهوية والبلدان وأرباع الأرض من العامر والغامر، وغير ذلك مما تقدم ذكره وانتظم تصنيفه واتَّسق بحمد الله إيراده؛ فرأينا أن نختم هذا الباب بجوامع من مساحات الممالك، وما بينها من البعد والقرب، على حسب ما حكاه الفزارى صاحب كتاب الزيج والقصيدة فى هيئة النجوم والفلك:

(١) فى ا «فإنها تطب الأبدان». (٢) فى ا «لأنه يضمر البدن بها»

(٣) فى ا «والرابعة من الجدى». (٤) لا توجد هذه العبارة فى ب.

مساحات الممالك ومابينها من المسافة

زعم الفزارى أن عمل أمير المؤمنين من فَرْغَانَة وأقصى خراسان إلى طَنْجَة بالمغرب ثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ ، والعرض من باب الأبواب إلى جدة ستمائة فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ثلثمائة فرسخ ، ومن مكة إلى جدة اثنان وثلاثون ميلا .

عمل الصين من المشرق أحد وثلاثون ألف فرسخ فى أحد عشر ألف فرسخ .

عمل الهند فى المشرق أحد عشر ألف فرسخ فى سبعة آلاف فرسخ .

عمل التبت خمسمائة فرسخ فى مائتين وثلاثين فرسخاً .

عمل كابلشاه[1] أربعمائة فرسخ فى ستين فرسخاً .

عمل التغزغز[2] بالترك ألف فرسخ فى خمسمائة فرسخ .

عمل الترك لخاقان سبعمائة فرسخ فى خمسمائة فرسخ .

[عمل الخزر واللان سبعمائة فرسخ فى خمسمائة فرسخ][3]

عمل برجان ألف وخمسمائة فرسخ فى ثلثمائة فرسخ .

عمل الصقالبة ثلاثة آلاف وخمسمائة فرسخ فى أربعمائة فرسخ[4] وعشرين فرسخاً

عمل الروم [بقسطنطينية خمسة آلاف فرسخ فى أربعمائة وعشرين فرسخاً

عمل رومية الروم][3] ثلاثة آلاف فرسخ فى سبعمائة فرسخ .

عمل الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ثلثمائة فرسخ [فى ثمانين فرسخا][3] .

عمل إدريس الفاطمى ألف ومائتا فرسخ فى مائة وعشرين فرسخاً .

عمل ساحل سجلماسة لبنى المنتصر أربعمائة فرسخ فى ثمانين فرسخاً .

عمل أنبيه ألفان وخمسمائة فرسخ فى ستمائة فرسخ .

عمل غانة بلاد الذهب ألف فرسخ فى ثمانين فرسخاً .

عمل ورام مائتا فرسخ فى ثمانين فرسخاً .

عمل نخلة مائة فرسخ وعشرون فرسخاً فى ستين فرسخاً .

عمل واح ستون فرسخاً فى أربعين فرسخا .

(١) فى ب « ما بنشاه » . (٢) فى ب « البلغار » .

(٣) لا توجد هذه العبارة فى ب. (٤) فى ا « سبعمائة فرسخ » .

عمل البجة مائتا فرسخ فى ثمانين فرسخاً .
عمل النجاشى ألف وخمسمائة فرسخ فى أربعمائة فرسخ .
عمل الزنج بالمشرق سبعة آلاف وستمائة فرسخ فى خمسمائة فرسخ .

[عمل أسطولا لأحمد بن المنتصر أربعمائة فرسخ فى مائتين وخمسين فرسخاً](١) .

فذلك الطول اثنان وسبعون ألفاً وأربعمائة وثمانون فرسخاً، والعرض خمسة وعشرون ألفاً ومائتان وخمسون فرسخاً .

أصول الطب

وأما الكلام فى وصف أصول الطب، وهل ذلك مأخوذ من طريق الرياضة والقياس أم من غيره ؛ ووصف تنازع الناس فى ذلك ؛ فلم نتعرض لإيراده فى هذا الباب ، وإن كان متعلقاً ومتصلا بالكلام فى الطبائع وجمل المعانى المذكورة فى هذا الباب ؛ لأنا قد أوردناه فيما يرد من هذا الكتاب فى أخبار الواثق على إيضاح جرى بحضرته ، وقد حضر مجلسه حنين بن إسحاق وابن ماسويه [وبختيشوع وميخائيل](١) وغيرهم من الفلاسفة والمتطببين ، فأغنى ذلك عن إيراده فى هذا الباب ، ولولا أن الكتاب يَرِدُ على أغراض مختلفة من الناس لما هُمْ عليه من اختلاف الطبائع والتباين فى المراد لما ذكرنا بعض ما نورد فيه من أنواع العلوم وفنون الأخبار ، وقد يلحق الإنسان الملل لقراءته ما لا تهوى نفسه فينتقل منه إلى غيره ، فجمعنا فيه من سائر ما يحتاج الناس من ذوى المعرفة إلى علمه ، ولما تغلغل بنا الكلام فى نظمه وتشعبه واتصاله بغيره من المعانى مما لم يتقدم ذكره ، وقد أتينا على مبسوط سائر ما ذكرناه على الاتساع والإيضاح فى كتابنا « أخبار الزمان » وفى الكتاب الأوسط ، والله تعالى أعلم.

(١) مابين المعقوفين هنا ساقط من ب .

ذكر البيوت المعظمة، والهياكل المشرفة

وبيوت النيران والأصنام
وذكر الكواكب، وغير ذلك من عجائب العالم

[قال المسعودى] :

عبادة الهند واتخاذهم الأصنام

كان كثير من أهل الهند والصين وغيرهم من الطوائف يعتقدون أن الله عز وجل جسم، وأن الملائكة أجسام لها أقدار، وأن الله تعالى وملائكته احتجبوا بالسماء، فدعاهم ذلك إلى أن اتخذوا تماثيل وأصناما على صورة البارى عز وجل، وبعضها على صورة الملائكة: مختلفة القدود والأشكال، ومنها على صورة الإنسان وعلى خلافها من الصور، يعبدونها، وقربوا لها القرابين، ونذروا لها النذور؛ لشبهها عندهم بالبارى وقربها منه، فأقاموا على ذلك برهة من الزمان وجملة من الأعصار.

عبادتهم الكواكب واتخاذهم أصناما لها

حتى نبههم بعض حكمائهم على أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى، وأنها حية ناطقة، وأن الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله، وأن كل ما يحدث فى هذا العالم فإنما هو على قدر ما تجرى به الكواكب عن أمر الله، فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم، فمكثوا على ذلك دهراً، فلما رأوا الكواكب تخفى بالنهار وفى بعض أوقات الليل لما يعرض فى الجو من السواتر أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناما [وتماثيل على صورها وأشكالها، فجعلوا لها أصناما وتماثيل][1] بعدد الكواكب الكبار المشهورة، وكل صنف منهم يعظم كوكبا منها، ويقرب لها نوعا من القربان خلاف ما للآخر، على أنهم إذا عظموا ما صوروا من الأصنام تحركت لهم الأجسام العلوية من السبعة بكل ما يريدون، وبنوا لكل صنم بيتا وهيكلا مفرداً، وسموا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب.

---

(١) مابين المعقوفين ساقط من ا .

وقد ذهب قوم إلى أن البيت الحرام [هو بيت زُحَلَ، وإنما طال عندهم بقاء هذا البيت][١] على مرور الدهور معظما فى سائر الأعصار لأنه بيت زُحَلَ، وأن زحل تولاه، لأن زحل من شأنه البقاء والثبوت، فما كان له فغير زائل ولا داثر، وعن التعظيم غير حائل، وذكروا أموراً أعرضنا عن ذكرها لشناعة وصفها.

بوداسف أول الصابئة

ولما طال عليهم العهد عبدوا الأصنام على أنها تقربهم إلى الله، وألفوا عبادة[٢] الكواكب، فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر بوداسف بأرض الهند، وكان هنديا [وقد كان بوداسف] خرج من أرض الهند إلى السند، ثم سار إلى بلاد سجستان وبلاد زابلستان، وهى بلاد فيروز بن كبك، ثم دخل السند [ثم] إلى كرمان، فتنبأ وزعم أنه رسول الله، وأنه واسطة بين الله وبين خلقه، وأتى أرضَ فارس، وذلك فى أوائل ملك طهمورث[٣] ملك فارس، وقيل: ذلك فى ملك جَمّ، وهو أول من أظهر مذاهب الصابئة على حسب ما قدمنا آنفاً فيما سلف من هذا الكتاب، وقد كان بوداسف أمر الناس بالزهد فى هذا العالم والاشتغال بما علا من العوالم؛ إذ كان من هنالك بدء النفوس، وإليها يقع الصدر من هذا العالم.

وجد بوداسف عند الناس عبادة الأصنام، والسجود لها، لشُبَه ذكرها، وقرَّبَ لعقولهم عبادتها بضروب من الحيل والخدع.

جم أول من دعا إلى عبادة النار

وذكر ذوو الخبرة بشأن هذا العالم وأخبار ملوكهم أن جَمَّ الملك أول من عَظَّم النار، ودعا الناس إلى تعظيمها، وقال: إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب؛ لأن النور عنده أفضل من الظلمة، وجعل للنور مراتب.

ثم تنازع هؤلاء بعده، فعظَّم كل فريق منهم ما يرون تعظيمه من الأسماء[٤] تقربا إلى الله بذلك [ثم تنازعوا برهة من الزمان].

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ب.

(٢) فى ا «وألفوا عبادة الكواكب».

(٣) فى ب «طيموث» (٤) فى ا «من الأشياء».

عمرو بن لحى أظهر الأصنام بمكة

ونشأ عمرو بن لحى فساد قومه بمكة[١] واستولى على أمر البيت ، ثم سار إلى مدينة البلقاء من عمل دمشق من أرض الشام ، فرأى قوماً يعبدون الأصنام ، فسألهم عنها ، فقالوا : هذه أرباب نتخذها : نستنصر بها فننصر ، ونستسقى بها فنسقى ، وكل ما نسألهم نعطى[٢] ، فطلب منهم صنماً يدعونه هُبَل[٣] ، فسار به إلى مكة ، ونصبه على الكعبة ومعه إساف ونائلة ، ودعا الناس إلى تعظيمها وعبادتها ، ففعلوا ذلك ، إلى أن أظهر الله الإسلام وبعث محمداً عليه الصلاة والسلام ؛ فطهر البلاد ، وأنقذ العباد .

البيت الحرام

وقد قال هؤلاء : إن البيت الحرام من البيوت السبعة المعظمة المتخذة على أسماء الكواكب من النيرين والخمسة .

بيت للمجوس بأصبهان

وبيت ثان معظم على رأس جبل بأصبهان يقال له مارس ، وكانت فيه أصنام ، إلى أن أخرجها منه يستاسف الملك لما تمجّس وجعله بيت ناره ، وذلك على ثلاثة فراسخ من أصبهان ، وهذا البيت معظم عند المجوس[٤] إلى هذه الغاية .

بيت بالهند

والبيت الثالث يدعى مندوسان[٥] ببلاد الهند [وهذا البيت تعظمه الهند] وله قرابين تقرب ، وفيه أحجار المغناطيس الجاذبة والدافعة والمنفرة من أوصاف لا يسعنا الإخبار عنها ؛ فمن أراد أن يبحث عن ذكرها فليبحث ، فإنه بيت مشهور ببلاد الهند .

بيت البرامكة ببلخ

والبيت الرابع هو النوبهار الذى بناه منوشهر بمدينة بَلْخَ من خراسان على اسم القمر ، وكان من يلى سِدَانته تعظمه الملوك فى ذلك الصقع ، وتنقاد إلى أمره وترجع إلى حكمه ، وتحمل إليه الأموال ، وكانت عليه وقوف ، وكان الموكل بسدانته يدعى البرمك ، وهو سمة عامة لكل [من يلى] سدانته ، ومن أجل ذلك سميت

(١) فى ب « فسار بقومه إلى مكه » . (٢) فى ب « وكل من سألها يعطى »
(٣) فى ا « فدفعوا إليه هبل » . (٤) فى ب « عند اليهود » .
(٥) فى ب « سندوساب » .

البرامكة ؛ لأن خالد بن بَرْمَك كان من ولد مَنْ كان على هذا البيت ، وكان بنيان هذا البيت من أعلى البنيان تشييداً ، وكان تنصب على أعلاه الرماح عليها شقاق الحرير الأخضر طولُ الشقة مائة ذراع فما دونها قد نصب لذلك رماح وخشب تدفع قوة الريح بما عليها من الحرير ، فيقال والله أعلم : إن الريح خطفت يوماً بعض تلك الشقاق ورمت به ، فأصيب على مسافة خمسين فرسخاً ، وقيل : أكثر من تلك المسافة ، وهذا يدل على زيادته فى الجو وتشييد بنيانه ، وكان الحيز[1] المحيط بهذا البنيان أميالا لم نذكرها ؛ إذ كان أمر ذلك مشهوراً من وصف علوّ السور وعرضه .

قال المسعودى : وقد ذكر بعض أهل الرواية والتنقير[2] أنه قرأ على [باب] النوبهار ببلخ كتاباً بالفارسية ترجمته « قال بوداسف : أبوابُ الملوكِ تحتاج إلى ثلاث خصال : عقل ، وصبر ، ومال » وإذا تحته بالعربية « كذب بوداسف ، الواجب على الحر إذا كان معه واحدة من [هذه الثلاث] الخصال أن لا يلزم باب السلطان » .

غمدان بصنعاء

والبيت الخامس بيت غُمْدَانَ الذى بمدينة صنعاء من بلاد اليمن ، وكان الضحاك بناه[3] على اسم الزهرة ، وخربه عثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ فهو فى وقتنا هذا [— وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة —] خراب قد هدم فصار تلا عظيما ، وقد كان الوزير على بن عيسى بن الجراح — حين نفى إلى اليمن وصار إلى صنعاء — بَنَى فيه سقاية وحَفَرَ فيه بئراً .

ورأيت غُمْدَان ردماً وتلا عظيما قد انهدم بنيانه ، وصار جبل تراب كأنه

(١) فى ب « وكانت مسافة البحر المحيط بهذا البنيان » .

(٢) فى ا « الدراية والتقير » .

(٣) قوله « وكان الضحاك بناه » قال المجد : وغمدان كعثمان قصر باليمن بناه يشرخ بأربعة وجوه أحمر وأبيض وأصفر وأخضر . وبنى داخله قصراً بسبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعا ، وقوله « يشرخ » هو . ليشرخ بكسر اللام وفتح الياء وسكون الشين

لم يكن ، وقد كان أسعد بن يعفر صاحب قلعة كحلان النازل بها وصاحب مخاليف اليمن فى هذا الوقت ، وهو المعظم فى اليمن ، أراد أن يبنى غمدان ، فأشار عليه يحيى بن الحسين الحسنى أن لا يتعرض لشىء من ذلك ؛ إذ كان بناؤه على يدى غلام يخرج من أرض سبأ وأرض مأرب يؤثر فى صقع [من] هذا العالم تأثيراً عظيما .

وقد ذكر هذا البيت جد أمية بن أبى الصلت [وقيل : هو أبو الصلت] أمية ، واسمه ربيعة[1] فى مدحه لسيف بن ذى يَزَن ، وقيل : إن الممدوح بهذا الشعر معديكرب بن سيف حيث يقول :

اشْرَبْ هنيئاً عليك التاجُ مُرْتَفِقاً ... برأس غُمْدانَ داراً منك مِحْلالاَ

وكان أبو أمية جاهلياً ، وهو القائل فى أصحاب الفيل :

[إن آيات رَبِّنا بينات ... ما يُمَارِى بهنَّ إلا كَفُور]

غلب الفيل بالمُغَمَّس حتى ... ظَلَّ يحبو كأنه معقور[2]

حوله من شباب كِنْدَةَ فتيا ... نٌ ملاوِيثُ فى الحروب صُقُور

[واضعاً خلفه الجِرار كما قُطـ ... ـر صخرٌ من جانب محدُورُ][3]

---

(١) هكذا فى ا ، وقد وقع فى ب « وقد ذكر هذا البيت جد أمية بن أبى الصلت أخو أمية واسمه ربيعة » وهى عبارة فى غاية الفساد ، والذى فى سيرة ابن إسحاق « قال ابن إسحاق: قال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى . قال ابن هشام: وتروى لأميه بن أبى الصلت » اه ، ولعل أصل عبارة الأصل ههنا : وقد ذكر هذا البيت أميه بن أبى الصلت ، وقيل : أبو أمية بن أبى ربيعة » ولكن أصابها تحريف النساخ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢) المغمس — كمعظم ومحدث — موضع بطريق الطائف فيه قبر أبى رغال دليل أبرهة ويرجم ، قاله المجد اه ، ووقع فى ا ، ب « ظل يخبو »

(٣) سقط من ا أول هذه الأبيات ورابعها .

و [قد] قيل : إن ملوك اليمن كانوا إذا قعدوا فى [أعلى] هذا البنيان بالليل واشتعلت الشموع رأى الناس ذلك من مسيرة ثلاثة أيام[١] .

بيت بفرغانة بخراسان

والبيت السادس كاوسان ، بناه كاوس[٢] الملك بناء عجيباً على اسم المدبر الأعظم من الأجسام السماوية وهو الشمس ، بمدينة فرغانة من مدائن خراسان ، وخربه المعتصم بالله ، ولهدمه هذا البيت خبر طريف قد أتينا على ذكره فى كتاب « أخبار الزمان » .

بيت بالصين

والبيت السابع بأعالى بلاد الصين ، بناه ولد عامور بن سوبل[٣] بن يافث ابن نوح ، وأفرده للعلة الأولى ؛ إذ كان منشأ هذا الملك ومبدأه وباعث الأنوار إليه ، وقيل : إنما بناه بعض ملوك الترك فى قديم الزمان وجعله سبعة أبيات فى كل بيت منها سبع كُوًى يقابل كل كوة صورة منصوبة على صورة [كوكب] من الخمسة والنيرين من أنواع الجواهر المضافة إلى تأثير تلك الكواكب ، من ياقوت [أو عقيق] أو زمرد على اختلاف ألوان الجواهر ، ولهم فى هذا الهيكل سِرٌّ يسرونه فى بلاد الصين ، بما قد زخرف لهم فيه القول وزينه لهم الشيطان ، ولهم فى هذا الهيكل علوم فى اتصال الأجسام السماوية وأفعالها بعالم الكون الذى تحدثه ، وما يحدث فيه من الحركات والأفعال عند تحرك الأجسام السماوية ؛ [وقد قرب ذلك إلى عقولهم : بأن جعل لهم مثالا من الشاهد يدل على ما غاب عنهم من فعل الأجسام السماوية][٤] فى هذا العالم ، وهو خشب الديباج الذى ينسج به ؛ فبضرب من حركات الصانع بذلك الخشب والخيوط الإبريسم تحدث ضروب من الحركات ، فإذا اتصلت أفعاله وتواترت حركاته من النسج

(١) فى ا « رئى ذلك على مسيرة أيام كثيرة » .
(٢) فى ب « كارشان شاه ، بناه كارش الملك » .
(٣) فى ب « عابور بن بعويل » .
(٤) ما بين المعقوفين ساقط من ب . وفيها فى مكانه « وهو على حسب الذى نسج فيه بنصب من حركات الطبائع بتلك الخشب » .

للثوب الديباج تمت الصورة فيه ؛ فبضرب من الحركات يظهر جناح طائر ، وبآخر رأسه ، وبآخر رجلاه ؛ فلا يزال كذلك حتى تتم الصورة على حسب مراد الصانع لها ؛ فجعلوا هذا المثال واتصال الإبريسم بآلة النسج وما يحدثه الصانع فى ذلك من الأفعال مثالا لما ذكرنا من الكواكب العلوية ، وهى الأجسام السماوية ، فبضرب من الحركات ظهر فى العالم الطائر [وبضرب آخر بيضة] وبضرب آخر فرخ ، وكذلك سائر ما يحدث فى العالم ، ويسكن ويتحرك ويوجد ويعدم ، ويتصل وينفصل ، ويجتمع ويفترق ، ويزيد وينقص ، من جماد أو نبات أو حيوان ناطق أو غير ناطق ، فإنما يحدث عن حركات الكواكب على حسب ما وصفنا من نسج الديباج وغيره من الصنائع ، وأهل صناعة النجوم لا يتناكرون أن يقولوا : أعطته الزهرة كذا ، وأعطاه المريخ كذا ، كالشُّقْرة وصُهُوبة الشعر [وأعطاه زُحَلُ خفة العارضين وجُحُوظَ العينين] وأعطاه عُطَارد دقة الصنعة ، وأعطاه المشترى الحياء والعلم والدين ، وأعطته الشمس كذا ، وأعطاه القمر كذا ، وهذا باب يكثر القول فيه ويتسع وصف مذاهب الناس فيه ، وما قالوه فى بابه .

ذكر البيوت المعظمة عند اليونانيين

البيوت المضاف بناؤها إلى مَنْ سلف من اليونانيين ثلاثة بيوت :

بيت أنطاكية

فبيت منها كان بأنطاكية من أرض الشام ، على جبل بها داخل المدينة، والسور محيط بها[1] ،وقد جعل المسلمون فى موضعه مَرْقَبًا لِيُنْذِرهم مَنْ قد رُتِّبَ فيه من الرجال بالروم إذا وردوا من البر والبحر،وكانوا يعظمونه،ويقربون فيه القرابين ؛ فخرب عند مجىء الإسلام ، وقد قيل : إن قسطنطين الأكبر بن هيلانى[2] الملكة المُظْهِرة لدين النصرانية هو المخرب لهذا البيت ، وكانت فيه الأصنام والتماثيل من الذهب [والفضة] وأنواع الجواهر ، وقد قيل : إن هذا البيت هو بيت بمدينة أنطاكية على يَسْرة الجامع اليوم ، وكان هيكلا عظيما، والصابئة تزعم أن الذى بناه سقلابيوس[3] ، وهو فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — [سوق] يعرف بسوق الجزارين[4] ، وقد كان ثابت بن قرة بن كرانى[5] الصابىء الحرانى — حين وافى المعتضد بالله فى سنة تسع وثمانين ومائتين فى طلب وصيف الخادم — أتى هذا الهيكل وعَظَّمه ، وأخبر من شأنه ماوصفنا .

الأهرام بمصر

والبيت الثانى من بيوت اليونانيين هو بعض تلك الأهرام التى ببلاد مصر وهو يرى من الفُسْطاط على أميال منها .

بيت المقدس

والبيت الثالث هو بيت المقدس ، على مازعم القوم ، و [أهل] الشريعة إنما تخبر أن داود عليه السلام بناه وأتمه سليمان بعد وفاة أبيه،والمجوس تزعم

---

(١) فى أ « والسور محيط به » . (٢) فى ب « بن هيلانة » .
(٣) فى ب « سفلاينوس » .
(٤) فى ا « يعرف بسوق الحرابين الزرادين » .
(٥) فى ب « بن كرابا » .

أن الذى بناه الضحاك ، وأنه سيكون له فى المستقبل من الزمان خطب طويل، ويقعد فيه ملك عظيم ، وذلك عند ظهور شوبين[1] على بقرة من صفتها كذا، ومعه من الناس كذا من العدد ، وأقاصيص تدعيها المجوس فى هذا المعنى ، واختلاط طويل نزه كتابنا عن ذكره ، والله تعالى ولى التوفيق .

ذكر البيوت المعظمة عند أوائل الروم

بيت قرطاجنة

[كانت] البيوت المعظمة عند أوائل الروم قبل ظهور [دين] النصرانية بيت ببلاد المغرب بمدينة قَرْطَاجنة — وهى تونس — من وراء بلاد القيروان ، وهى من أرض الإفرنجة ، وبنى على اسم الزهرة بأنواع من الرخام.

بيت بإفرنجة

والبيت الثانى بإفرنجة ، وهو بيت عظيم عندهم .

بيت مقدونية

والبيت الثالث [عندهم] بمقدونية[2] ، [وأمره مشهور فى التنبيد ، وما كان من خبره بمقدونية] ، وقد أتينا على أخباره وأخبار غيره فيما سلف من كتبنا ، والله تعالى أعلم .

---

(١) فى ب « عند ظهور موسى » . (٢) فى ب « ب بمقدونة» وسقط منها ما وضعناه بين المعقوفين بعد ذلك ، وهو ثابت فى ا .

ذكر البيوت المعظمة عند الصقالبة

البيت الأول

كانت فى ديار الصقالبة بيوت تعظمها : منها بيت كان لهم فى[١] الجبل الذى ذكرت الفلاسفة أنه أحد جبال العالم العالية ، وهذا البيت له خبر فى كيفية بنائه ، وترتيب [أنواع] أحجاره ، واختلاف ألوانه[٢] ، والخاريق المصنوعة له ، [فيه على أعلاه ، وما من مطلع الشمس فى تلك الخاريق المصنوعة] وما أودع فيه من الجواهر والآثار المرسومة فيه الدالة على الكائنات المستقبلة ، وما تُنْذِر به تلك[٣] الجواهر من الأحداث قبل كونها ، وظهور أصوات من أعاليه لهم ، وما كان يلحقهم عند سماع ذلك .

البيت الثانى

وبيت اتخذه بعض ملوكهم على الجبل الأسود ، تحيط به مياه عجيبة ذوات ألوان وطعوم مختلفة عامة المنافع ، وكان لهم فيه صنم عظيم على صورة رجل قد[٤] انحنى على نفسه ، وهو شيخ بيده عصا يحرك به عظام الموتى من النواويس ، وتحت رجله اليمنى صُوَر أنواع من النمل ، وتحت الأخرى غرابيب سود من صور الغُدَاف[٥] وغيرها ، وصور عجيبة لأنواع من الأحابيش والزنج .

البيت الثالث

وبيت آخر على جبل لهم يحيط به خليج من البحر قد بنى بأحجار المرجان الأحمر ، وأحجار الزمرد الأخضر ، فى وسطه قبة عظيمة ، تحتها صنم [عظيم] أعضاؤه من جواهر أربعة: زمرد أخضر[٦] ، وياقوت أحمر ، وعقيق أصفر ،

---

(١) فى ب « كان لهم فى هذا الجبل » .

(٢) فى ا « واختلاف ألوانها » (٣) فى ب « وماتدل به تلك الجواهر »

(٤) فى ا « رجل قد اتخذ على هيئة شيخ بيده عصا » .

(٥) الغداف — كغراب — غراب القيظ . والنسر الكثير الريش ، جمعه غدفان ، اهـ قاله المجد .

(٦) فى ا « زبرجد أخضر » .

وبلور أبيض ، ورأسه من الذهب الأحمر ، وبإزائه صنم آخر على صورة جارية ، وكان يقرب له[1] قرابين ودخن ، وكان ينسب هذا البيت إلى حكيم كان لهم فى قديم الزمان ، وقد أتينا على خبره ، وما كان من أمره بأرض الصقالبة ، وما أحدث فيهم من الدكوك[2] والحيل والمخاريق المصطنعة التى اجتذب بها قُلُوبَهُمْ وملك نفوسهم واسترقَّ بها عقولهم مع شراسة أخلاق الصقالبة واختلاف طبائعهم ، فيما سلف من كتبنا ، والله تعالى ولى التوفيق .

(١) كذا ، ولعل الأصل « كأنها تقرب له القرابين » .

(٢) هكذا فى ا ، ووقع فى ب « من الذيول والحيل » .

ذكر البيوت المعظمة، والهياكل المشرفة[1]

للصابئة وغيرها [وغير ذلك] مما لحق بهذا الباب [واتصل بهذا المعنى]

هيكل العقل والعلة الاولى

للصابئة من الحرّانيين هياكل على أسماء الجواهر العقلية والكواكب؛ فمن ذلك هيكل العلة الأولى، وهيكل العقل، وما أدرى أأشاروا إلى العقل الأول أم الثانى، وقد ذكر صاحب المنطق فى كتابه فى المقالة الثالثة من كتاب النفس العقل الأول الفعّال، والعقل الثانى، وذكر ذلك تامسطيس[2] فى كتابه فى شرح كتاب النفس الذى عمله صاحب المنطق، وقد ذكر العقل الأول والثانى الإسكندر الأفرودوسى[3] فى مقالة أفردها فى ذلك قد ترجمها إسحاق بن حُنَين .

جملة من هياكلهم

ومن هياكل الصابئة هيكل السلسلة[4]، وهيكل الصورة، وهيكل النفس، وهذه مُدوَّرات الشكل، وهيكل زُحَل مسدس، وهيكل المشترى مثلث، وهيكل المريخ [مربع] مستطيل، وهيكل الشمس مربع، وهيكل عطارد مثلث الشكل، وهيكل الزهرة مثلث فى جوف مربع مستطيل، وهيكل القمر مثمن الشكل [وللصابئة فيما ذكرنا رموز وأسرار يخفونها] .

وقد حكى رجل من ملكية النصارى من أهل حرّان يعرف بالحارث بن سنباط[5] للصابئة الحرانيين أشياء ذكرها من قرابين يقربونها من الحيوان ودخن للكواكب يبخرون بها وغير ذلك مما امتنعنا عن ذكره مخافة التطويل

والذى بقى من هياكلهم المعظمة فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — بيت لهم بمدينة حرّان فى باب الرقة يعرف بمغليتيا[6]، وهو هيكل آزر أبى إبراهيم الخليل عليه السلام عندهم، وللقوم فى آزر وابنه إبراهيم كلام كثير

---

(١) فى ب « ذكر بيوت معظمة وهياكل شريفة » .

(٢) فى ب « معيطوس» . (٣) فى ب « والإفردويس »

(٤) فى ب « هيكل السنبلة » . (٥) فى ب « بالحارث بن سنبسطاط »

(٦) فى ب « يعرف بمصلينا » .

ليس كتابنا هذا موضعاً له ، ولابن عيشون[١] الحَرَّانى القاضى — وكان ذا فَهمٍ ومعرفة ، وتوفى بعد الثلثمائة — قصيدة طويلة يذكر فيها مذاهب الحرانيين المعروفين بالصابئة ، ذكر فيها هذا البيت وما تحته من السراديب الأربعة المتخذة لأنواع صور الأصنام التى جعلت مثالا للأجسام السماوية وما ارتفع من ذلك من الأشخاص العلوية ، وأسرار هذه الأصنام ، وكيفية إيرادهم لأطفالهم إلى هذه السراديب وعرضهم لهم على هذه الأصنام ، وما يُحْدِث ذلك فى ألوان صبيانهم من الاستحالة إلى الصُّفْرة وغيرها لما يسمعون [من] ظهور أنواع الأصوات وفنون اللغات من تلك الأصنام والأشخاص ، بِحِيل قد اتخذت ومنافيخ قد عملت : تقف السَّدَنة من وراء جُدُرٍ فتتكلم بأنواع من الكلام ، فتجرى الأصوات فى تلك المنافيخ والخاريق والمنافذ إلى تلك الصور المجوفة والأصنام المشخصة ، فيظهر منها نطق على حسب ما قد عمل فى قديم الزمان ، فيصطادون به العقول ، وتسترقُّ بها الرقاب ، ويقام بها الملك والممالك[٢] [ومما ذكر فى هذه القصيدة قوله :

إن نفيس العجائب بيت لهم فى سرادب
تعبد فيه الكواكب أصنامهم خاف غائب]

ولهذه الطائفة المعروفة بالحرانيين والصابئة فلاسفة ، إلا أنهم من حشوية الفلاسفة ، وعوامهم مباينون لخواص حكمائهم[٣] [فى مذاهبهم، وإنما أضفناهم إلى الفلاسفة] إضافة سبب لا إضافة حكمة ، لأنهم يونانية، وليس كل اليونانيين فلاسفة ، إنما الفلاسفة حكماؤهم .

ورأيت على باب مجمع الصابئة بمدينة حران مكتوباً [على مدقة الباب] بالسريانية قولا لأفلاطون فسره مالك بن عقبون[٤] [وغيره] منهم وهو «من عرف ذاته تألَّه » وقد قال أفلاطون «الإنسان نبات سماوى ، والدليل على هذا

(١) فى ب « ولا بن عيسون » (٢) لا يوجد هذا الكلام فى ا
(٣) فى ب «مضافون لخواص حكمائهم إضافة سبب »وسقط منها ما بين المعقوفين
(٤) فى ب « مالك بن عقنون » .

أنه شبيه بشجرة منكوسة أصلها إلى السماء وفروعها فى الأرض» ولأفلاطون [وغيره ممن سلك طريقه فى النفس الناطقة] كلام كثير فى هل النفس فى البدن أو البدن فى النفس، كالشمس أهى فى الدار أو الدار فى الشمس، وهذا قول يتغلغل بنا الكلام فيه إلى الكلام فى تنقل الأرواح فى أنواع الصور.

القول فى تنقل الأرواح

وقد تنازع أهل هذه الآراء ممن قصد هذه المقالة فى النقلة على وجهين، فطائفة من الفلاسفة القدماء اليونانيين والهند — ممن لم يثبت كلاما منزلا ولا نبياً مرسلا منهم أفلاطون ومن يمم طريقهم — حكى عنهم أنهم زعموا أن النفس جوهر ليست بجسم، وأنها حية عالمة مميزة لأجل ذاتها وجوهرها، وأنها هى المدبرة للأجسام المركبة من طبائع الأرض المتضادة، وغرضها فى ذلك أن تقيمها[1] على العدل وما تم به السياسة المستقيمة والنظام المتسق[2] وتردها من الحركة المضطربة إلى المنتظمة.

وزعموا أنها تلذ وتألم وتموت، وموتها عندهم انتقالها من جسد إلى جسد بتدبير، وبطلان ذلك الشخص الذى فسد ووصف بالموت، لأن شخصها يفسد، ولأن جوهرها ينتقل.

وزعموا أنها عالمة بذاتها وجوهرها [عالمة بالمعقولات من ذاتها وجوهرها] وفيها قبول علم المحسوسات من جهة الحس.

ولأفلاطون وغيره فى هذه المعانى كلام يطول ذكره، ويعجز عن وصفه وإظهاره لاعتياصه وغموضه، وكذلك صاحب المنطق وفيثاغورس وغيرهما من الفلاسفة ممن تقدم وتأخر؛ لأن الطالب لعلم هذه الأشياء والإحاطة بفهمها وبلوغ غايتها لا يدرك ذلك إلا نصبوا من الكتب، ورتبوا من التصنيف للعلوم المؤدية إلى معرفة [علومهم وأغراضهم التى إليها قصدوا فى كتبهم وهى معرفه] الألفاظ الخمس، وهى:

(١) فى ب «تقيمها مقام العدل».
(٢) فى ب «والنظام غير المفسد».

المقولات

الجنس ، والفصل ، والنوع ، والخاصة ، والعرض، ثم معرفة المقولات ، وهى عشرة : الجوهر ، والكمية ، والكيفية ، والإضافة — وهى النسبة — وهذه أربع بسائط ، والست الأخر مركبات ، وهى : الزمان ، والمكان ، والجِدَة — وهى المِلْكُ — والوضع ، والفاعل ، والمنفعل ، ثم ما بعد ذلك مما يترقى فيه الطالب إلى أن ينتهى إلى علم ما بعد الطبيعة من معرفة الأول والثانى.

عود إلى الكلام عن الصابئة

ثم رجع بنا الإخبار عن مذاهب الصابئة من الحرانيين ، وذكر مَنْ أخبر عن مذاهبهم وكشف عن أحوالهم .

فمن ذلك كتاب رأيته لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى الفيلسوف صاحب كتاب « المنصورى » فى الطب وغيره ، ذكر فيه مذاهب الصابئة الحرانيين منهم ، دون من خالفهم من الصابئة، وهم الكياريون[1] ، وذكر أشياء يطول ذكرها ويقبح عند كثير من الناس وصفها ، أعرضنا عن حكايتها ، إذ كان فى ذلك خروج عن حد الغرض من كتابنا إلى وَصف الآراء والديانات .

وقد خاطبت مالك بن عقبون[2] وغيره منهم بشىء مما ذكرنا وغيره مما عنه كتبنا ، فمنهم من اعترف ببعضه ، وأنكر بعضاً من ذكر القرابين وَغيره [من الآراء] ، مثل فعلهم بالثور الأسود ، فإنه يضرب وجهه بالملح إذا شدت عيناه ثم يذبح ، ويُرَاعى كل عضو من أعضائه ومايظهر منه من الحركات والاختلاج على ما يدل ذلك من أحوال السنة وغير ذلك من أسرارهم ومحالاتهم[3] وأحوال قرابينهم .

قال المسعودى: وقد ذكر جماعة — ممن له تأمل بشأن أمور هذا العالم والبحث عن أخباره — أن بأقصى بلاد الصين هيكلا مدوراً له سبعة أبواب ، فى داخله قبة مسبعة عظيمة الشأن عالية السمك ، فى أعالى القبة شبه الجوهر[ة] يزيد

(١) فى ب « وهم الكنياريون » .
(٢) فى ب « وقد خاطب مالك بن عفنون ».
(٣) فى ا « ومخبآتهم » .

على رأس العجل تضىء منه جميع أقطار ذلك الهيكل ، وأن جماعة من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة فلم يَدْنُ أحد منها على مقدار عشرة أذرع [إلا خَرَّ ميتاً] وإن حاول أحد منهم أخذ هذه الجوهرة بشىء من الآلات الطوال كالرماح وغيرها وانتهت إلى هذا المقدار من الذَّرْع[1] انعكست وعطلت ، وإن رميت بشىء كان كذلك ، فليس شىء من الحيل يؤدى إلى تناولها [بوجه] ولا بسبب ، وإن تعرض لشىء من هَدْم هذا الهيكل مات مَنْ يروم ذلك [وهذا عند جماعة] من أهل الخبرة لقوة دافعة منفردة قد عملت من أنواع الأحجار المغناطيسية ، وفى هذا الهيكل بئر مسبعة الرأس متى أكبَّ الإنسان على رأس البئر إكباباً متمكناً تهوَّر فى البئر فصار فى أسفلها[2] على أم رأسه ، وعلى رأس هذه البئر شبه الطوق مكتوب عليه بقلم قديم أراه بقلم المسند[3] « هذه بئر تؤدى إلى مخزن الكتب وتاريخ الدنيا وعلوم السماء وما كان فيما مضى من الدهر وما يكون فيما يأتى منه ، وتؤدى هذه البئر أيضاً إلى خزائن رغائب هذا العالم ، لا يعمل إلى الوصول إليها والاقتباس منها إلا من وازت قدرته قدرتنا ، واتصل علمه بعلمنا ، وصارت حكمته كحكمتنا ، فمن قدر على الوصول إلى هذا المخزن فليعلم أنه قد وازانا ، ومن عجز عن الوصول إلى ما وصفنا فليعلم أنا أشد منه بأساً ، وأقوى حكمة ، وأكثر علماً ، وأثقب[4] دراية ، وأتم عناية » ، والأرض التى عليها هذا الهيكل والقبة وفيها البئر أرض حجرية صابة عالية من الأرض كالجبل الشامخ لا تُرام قلعته ولا يتأتى نقب ما تحته ، فإذا أدرك البصر ذلك الهيكل والقبة والبئر وقع للرائى عند رؤيته ذلك جَزَع وحزن واجتذاب للقلب إليه وحنين على إفساده وتأسف على إفسادشىء منه أو هدمه ، والله أعلم بذلك .

---

(١) فى ا « من الأذرع » . (٢) فى ا « وصار فى قرارها » .

(٣) فى ب « أراه بقلم الهند سند » .

(٤) فى ب « وأنعت دراية »

ذكر الأخبار عن بيوت النيران ، وغيرها

رأيهم فى النار والنور

فأما بيوت النيران ومن رسمها من ملوك الفرس الأولى والثانية فأول ما يحكى ذلك عنه أفريدون الملك ، وذلك أنه وجد ناراً يعظمها أهلها ، وهم معتكفون على عبادتها ، فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم فى عبادتها ، فأخبروه [بأشياء اجتذبت نفسه إلى عبادتها ، و] أنها واسطة بين الله و بين خلقه ، وأنها من جنس الآلهة النورية ، وأشياء ذكروها أعرضنا عن ذكرها الاعتياصها[1] ، وذلك أنهم جعلوا للنور مراتب ، وفرقوا بين طبع النار والنور ، وأن الحيوان يجتذب فيحرق نفسه كالفَرَاش الطائر بالليل ، فما لطف يطرح نفسه فى السراج فيحرقها ، وغير ذلك مما يقع فى صيد الليالى من الغزلان والطير والوحوش ، وكظهور الحيتان من الماء إذا قربت من السراج فى الزوارق ، كما يصطاد ببلاد البصرة السمك فى الليل يظهر من الماء طافياً حتى يقع فى جوف المركب والسُّرُج قد جعلت حواليه ، وأن النور صلاح هذا العالم ، وشرف النار على الظلمة ومضادته لها ، ومرتبة الماء وزيادته على النار بإطفائه ومضادته لها وأنه أصل لكل حى ومبدأ لكل نام

أماكن بيوت النيران

فلما أخبر أفريدون بما ذكرنا أمر بحمل جزء منها إلى خراسان ، فاتخذ لها بيتاً بطوس [واتخذ بيتاً آخر بمدينة بُخَارا يقال له برد سورة] وبنى آخر من بيوت النار بسجستان يقال له كراكركان اتخذه بهمن بن إسفنديار بن يستأسف ، وبيت آخر ببلاد الشيز والران[2] ، وكان فيه أصنام فأخرجها أنوشروان ، وقيل : إن أنوشروان صادف هذا البيت وفيه نار معظمة فنقلها إلى الموضع المعروف بالبركة ، وبيت آخر للنار يقال له كوسجة بناه كيخسرو الملك ، وقد كان بقومس بيت للنار معظم لا يدرى مَنْ بناه يقال له جريش[1] ، ويقال : إن الإسكندر لما غلب عليها تركها ولم يطفئها

---

(١) فى ا « لاغتماضها » .

(٢) فى ا « السيروان والرى »

(٣) فى ب « حريس » .

ويقال : إنه كان فى ذلك الموضع فيما مضى مدينة عظيمة عجيبة البناء فيها بيت كبير عجيب الهيئة فيه أصنام فأخربت تلك المدينة بما فيها من البيوت ، ثم بنى بعد ذلك بيت وجعلت فيه تلك النار ، وبيت آخر [يسمى كنجده] بناه سياوخس[1] ابن كاوس الجبار ، وذلك فى زمان لبثه بشرق الصين مما يلى البركند[2] ، وبيت نار بمدينة أرجان من أرض فارس اتخذ فى أيام بهراسف .

زرادشت والبيوت التى اتخذها

وهذه البيوت العشرة كانت قبل ظهور زرادشت بن أسبيمان[3] نبى المجوس ، ثم اتخذ زرادشت بن أسبيمان بعد ذلك بيوت النيران ، وكان مما اتخذ بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان ، وبيت آخر بمدينة نَسَا والبيضاء من أرض فارس ، وقد كان زرادشت أمر يستأسف الملك أن يطلب ناراً كان يعظمها جمّ الملك ، فطلبت فوجدت بمدينة خوارزم ، فنقلها بعد ذلك يستأسف إلى مدينة دَرَابْجَرْدَ من أرض فارس وكورها بهذا البيت ، وهذه النار تسمى فى وقتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — آزرجوى[4] ، وتفسير ذلك نار النهر ، وذلك أن آزر أحد أسماء النار [وجوى أحد أسماء النهر] بالفارسية الأولى ، والمجوس تعظم هذه النار ما لا تعظم غيرها من النيران والبيوت .

وذكرت الفرس أن كيخسرو لما خرج غازيا إلى الترك سار إلى خوارزم ، فمر على تلك النار ، فلما وجدها عظمها وسجد لها ، ويقال : إن أنوشروان هو الذى نقلها إلى الكاريان ، فلما ظهر الإسلام تخوفت المجوس أن يطفئها المسلمون فتركوا بعضها بالكاريان ، ونقلوا بعضها إلى نسا والبيضاء من كورة فارس ؛ لتبقى إحداهما إن طفئت الأخرى .

بيت بإصطخر

وللفرس بيت نار بإصطخر فارس تعظمه المجوس ، وكان فى قديم الزمان فأخرجته حماية بنت بهمن بن اسفنديار وجعلته بيت نار ، ثم نقلت عنه النار

(١) فى ب « بناه فارس بن كاوش الجبار » .

(٢) فى ب « مما يلى البركة » (٣) فى ب « زرادشت بن استيجان » .

(٤) فى ب « آزر وحواء » .

المؤلف يصف بيتاً رآه بإصطخر

فتخرب ، والناس فى وقتناهذا يذكرون أنه مسجد سليمان بن داود، وبه يعرف وقد دخلته ، وهو على نحو فرسخ من مدينة إصطخر ، فرأيت بنياناً عجيباً ، وهيكلا عظيما ، وأساطين صخر عجيبة ، على أعلاها صور من الصخر طريفة من الخيل وغيرها من الحيوان عظيمة القدر والأشكال ، محيط بذلك حيز عظيم وسور منيع من الحجر ، وفيه صور لأشخاص قد تشكلت وأتقنت صورها ، يزعم من جاوز هذا الموضع أنها صور الأنبياء ، وهو فى سفح جبل والريح غير خارجة من ذلك الهيكل فى ليل ولا نهار ، ولها هبوب ودَوِىٌّ ، يذكر مَنْ هنالك [من المسلمين] أن سليمان بن داود عليهما السلام حبس الريح فى ذلك الموضع ، وأنه كان يتغدَّى ببعلبك من أرض الشام ، ويتعشَّى فى هذا المسجد ، وينزل بينهما بمدينة تَدْمُرَ وملعبها[1] المتخذ فيها ، ومدينة تَدْمُرَ فى البرية بين العراق ودمشق وحمص من أرض الشام يكون منها إلى الشام نحو خمسة أيام أو ستة ، وهى بنيان عجيب من الحجر ، وكذلك الملعب الذى فيها ، وفيها خَلْق من الناس من العرب من قحطان .

بيت بسابور

وفى مدينة سابور من أرض فارس بيت للنار معظم عندهم ، اتخذه دارا ابن دارا .

بيت بجور

وفى مدينة جور من أرض فارس ــ وهو البلد الذى يحمل منه ماء الورد الجورى وإليه يضاف ــ بيت للنار ، بناه أردشير بن بابك ، وقد رأيته ، وهو على ساعة منها على عين هناك عجيبة ، وله عيد ، وهو أحد متنزهات فارس ، وفى وسط مدينة جور بنيان كان تعظمه الفرس يقال له الطِّرْبال[2] أخربه المسلمون ، وبين جور ومدينة كوار عشرة فراسخ ، وبها يعمل ماء الورد الكوارى وإليها يضاف ، وهذا الماء الورد المعمول بجور وكوار أطْيَبُ ماء ورد يعمل فى العالم ، لصحة التربة[3]

(١) فى ب « وقلعتها المتخذة فيها » ويؤيد ماأثبتناه العبارة التى بعد ذلك بقليل

(٢) فى ب « البرمال » .

(٣) فى ب « لصحة البرية »

وصفاء الهواء ، وفى ألوان سكان هذه البلاد حمرة فى بياض ليست لغيرهم من أهل الأمصار ، ومن كوار إلى مدينة شيراز — وهى قصبة فارس — عشرة فراسخ ، ولجور وكوار وشيراز وغيرها من كور فارس أخبار ، ولما فيها من البنيان أقاصيص يطول ذكرها قد دونتها الفرس ، وكذلك ما كان بأرض فارس من الموضع المعروف بماء النار ، وقد بنى عليه هيكل .

وكان كورش الملك — حين ولد المسيح عليه السلام — بعث ثلاثة أنفس : دفع إلى أحدهم صرة من لبان ، وإلى آخر صرة من مر ، وإلى آخر صرة من تبر ، وسَيَّرهم يهتدون بنجم وَصَفَهُ لهم ، فساروا حتى انتهوا إلى السيد المسيح وأمه [مريم] بأرض الشام ، والنصارى تغلو فى قصة هؤلاء النفر ، وهذا الخبر موجود فى الإنجيل ، وإن هذا الملك كورش نظر إلى نجم قد طلع بمولد المسيح عيسى ، فكانوا إذا ساروا سار معهم ذلك النجم ، وإذا وقفوا وقف بوقوفهم ، وقد أتينا فى كتابنا «أخبار الزمان» على شرح هذا الخبر ، وماقالت فيه المجوس والنصارى ، وخبر الرُّغْفَان التى دفعتها إليهم مريم ، وما كان من الرسل وجعلهم الخبز تحت الصخرة وغَوْصها فى الأرض ، وذلك بفارس ، وكيف حفر عليها إلى الماء[1] وأنها وجدت وقد صارت شعلتى نار على وجه الأرض تتقدان ، وغير ذلك مما قيل فى هذا الخبر

بيوت أخرى

وقد كان أردشير بنى بيتا آخر يقال له بارنوا[2] ، وفى اليوم الثانى من غلبته على فارس[3] ، وبيت نار على خليج القسطنطينية [من بلاد الروم ، بناه سابور بن أردشير بن بابك — وهو سابور الجنود — حين نزل على هذا الخليج ، وحاصر القسطنطينية] فى عساكره ، فلم يزل هذا البيت هنالك إلى خلافة المهدى ، فخرب وله خبر عجيب ، وكان سابور الجنود اشترط على الروم بناء هذا البيت وعمارته عند حضارة القسطنطينية ، وكان مسيرهُ فى جيوش فارس وغيرها من الترك وملوك الأمم ، فسمى سابور الجنود ؛ لكثرة من تبعه من الجنود .

(١) فى ا « وكيف حصر عليها الماء » . (٢) فى ب « يقال له باربو »
(٣) فى ب « من غلبة فارس » .

وقد كان سابور لما سار إلى بلاد الجزيرة[١] عَدَلَ عن طريقه فنزل الحصن المعروف بالحضر، وقد كان هذا الحصن للساطرون بن اسيطرون[٢] ملك السريانيين فى رستاق يقال له أباجر[٣] من بلاد الموصل ، وقد ذكرته الشعراء ؛ لعظم ملكه وكثرة جيوشه وحسن بنائه لهذا الحصن المعروف بالحضر ، فمن ذكره منهم أبو دُوَاد[٤] جارية بن حجاج الإيادى بقوله :

حصن الحضر

وأرى الموت قد تدلى من الحضـ ـر على رَبِّ أهله الساطرون

ولقد كان آمناً للدواهى ذا ثراء وجوهر مكنون

قوله فى نسب النعمان ابن المنذر

وقد قيل: إن النعمان بن المنذر من ولد الساطرون بن اسيطرون [يقال : هو النعمان ابن المنذر بن امرىء القيس بن عمرو بن عدى بن نصر بن الساطرون بن اسيطرون] والساطرون واسيطرون هذه ألقاب ، وهم ملوك ملكوا على السريانيين .

ثم تملك تلك الديار بعد مَنْ ذكرنا من أفناهم الدهر الضيزن بن جبهلة، وجبهلة أمة[٥] [وهو الضيزن بن معاوية ملكا على قومه من تَنُوخ بن مالك بن فهم بن تيم اللات بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة] وهو الضيزن ابن معاوية بن العبيد[٦] بن حرام بن سعد بن [سليح بن حلوان بن عمران بن إلحاف ابن قضاعة ، وكان كثير الجنود ، مهادِنا للروم ، متحيزا إليهم ، يغير رجاله على العراق والسواد ، وكان فى نفس سابور عليهم ذلك ، فلما نزل على حصنه تحصن الضيزن فى الحصن ، فأقام سابور عليه شهراً لا يجد سبيلا إلى فتحه ، ولا يتأتى له حيلة فى دخوله ، فنظرت النضيرة بنت الضيزن يوماً وقد أشرفت من الحصن

(١) فى ب « إلى بلاد الحيرة » (٢) فى ب « للساطرون بن استطرون »
(٣) فى ب « يقال له أباحر » (٤) فى ا «أبو داود بن خمران بن حجاج الإيادى » وفى ب «أبو داود بن حارثة بن حجاج الإيادى» وكلاهما تحريف ما أثبتناه موافقا لما فى معجم الشعراء، والبيت الأول منسوب فى البلدان إلى عدى بن زيد
(٥) كذا ، والذى فى معجم ياقوت (٣ : ٢٩٠) « الضيزن بن جلهمة أحد الأحلاف » وفيه أنه، الضيزن بن معاوية بن عبيد بن الاحرام بن عمرو بن النخع ابن سليح بن حلوان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة» (٦) فى ا «معاوية بن العتيك»

إلى سابور فهويته وأعجبها جماله ، وكان من أجمل الناس وأمدّهم قامة ، فأرسلت إليه : إن أنت ضمنت لى أن تتزوجنى وتفضلنى على نسائك دللتك على فتح هذا الحصن ، فضمن لها ذلك ، فأرسلت إليه : أئت الثرثار[1] — وهو نهر فى أعلاه — فانثر فيه تبنا ثم اتبعه فانظر أين يدخل فأدخل الرجال منه ، فإن ذلك المكان يُفضى إلى الحصن . ففعل ذلك سابور ، فلم يشعر أهل الحصن إلا وأصحاب سابور معهم فى الحصن ، وقد عمدت النضيرة فسقت أباها [الخمر] حتى أسكرته طمعا فى تزويج سابور إياها ، وأمر سابور بهدم الحصن بعد أن قتل الضيزن ومن معه ، وعرّس [سابور] بالنضيرة بنت الضيزن فباتت مُسهَّدة ، فقال لها سابور : مالك لا تنامين ؟ قالت : إن جنبى يتجافى عن فراشك ، قال : ولم فوالله ما نامت الملوك[2] على ألين منه وأوطأ وإن حَشْوَه لَزغب النعام ؟ ! ! فلما أصبح سابور نظر فإذا ورقة آس بين عُكَنها[3] ، فتناولها فكاد بطنها أن يَدْمَى ، فقال لها : ويحك ! ! بم كان أبواك يغذيانك ؟ فقالت : بالزبد والمُخ[4] والثلج والشهد وصفو الخمر ، فقال لها سابور : إنى لجدير أن لا أستبقيك بعد إهلاك أبويك وقومك ، وكانت حالتك عندهم الحالة التى تَصفين ، فأمر بها فربطت بغدائرها إلى فرسين جموحين[5] ، ثم خلّى سبيلهما ، فقطّعاها ؛ ففى هذا [الملك] المقتول ومن كان معه [فى الحصن] يقول جرى ابن الدهماء[6] العبسى :

ألم يحزنك والأنباء تنمى ... بما لاقت سَرَاةُ بنى العبيد

ومصرع ضيزن وبنى أبيه ... وأحلاف الكتائب من تزيد[7]

---

(١) فى ب « البربار » . (٢) فى ا « مابانت الملوك » .

(٣) فى ا « بين كتفيها » . (٤) فى ب « والمخ والقمح » .

(٥) فى ا « فرسين حصانين » .

(٦) كذا فى ا ، وفى ب « جدى بن الدهمى » وفى ياقوت « الجدى بن الدلهاث » .

(٧) فى ا « وأحلاف الكتائب من يزيد » .

أتاهم بالفيُول مجللات وبالأبطال سابور الجنود
[فهدَّم من بروج الحصن صخراً كأن بناءه زُبُرُ الحديد](١)

وفى قتل سابور للنضيرة بنت الضيزن وما كان منها من الغدر بأبيها وقومها وإرشاد سابور إلى دخول الحصن يقول عدى بن زيد العبادى :

والحضر صُبَّتْ عليه داهية من قصره قد أبدَّ ساكنها(٢)
رَبِيبةٌ لم تُوَقِّ والدها لحينها إذ أضاع راقبها
وأسلمت أهلها لليلتها تظن أن الرئيس خاطبها
وكان حظ العروس إذ جشر الصبح دماء تجرى سبائبها

والشعر فى هذه القصة كثير .

جملة من بيوت النار

وبأرض العراق بيت للنار بالقرب من مدينة السلام ، بنته بوران بنت كسرى أبرويز الملكة فى الموضع المعروف بأستنيا(٣) .

وبيوت النيران كثيرة مما بنته المجوس بالعراق وأرض فارس وكرمان وسجستان وخراسان وطبرستان والجبال وأذربيجان والران، وفى الهند والسند والصين ، أعرضنا عن ذكرها ، وإنما ذكرنا ما اشتهر منها .

بيت بعل

والهياكل المعظمة عند اليونانيين وغيرهم كثيرة : مثل بيت بَعْلٍ ، وهو الصنم الذى ذكره الله عز وجل بقوله : (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين؟) وهو بمدينة بعلبك من أعمال دمشق من كورة سنير ، وقد كانت اليونانية اختارت لهذا الهيكل قطعة من الأرض بين جبل لبنان وجبل سنير(٤) فاتخذته موضعاً للأصنام، وهما بيتان عظيمان أحدهما أقدم من الآخر، فيهما من النقوش العجيبة المحفورة

---

(١) لايوجد هذا البيت فى ا
(٢) كذا فى ب . وفى ا « من قعره آبدت مناكبها » وفى سيرة ابن إسحاق « من فوق أيد مناكبها » وفى ياقوت « شديدة أيد مناكبها » .
(٣) فى ب « بأسبيا » .
(٤) فى ب « من حسبان وجبل نستر فأحدثنه » .

فى الحجر الذى لايتأتى حفر مثله فى الخشب مع علو سمكهما وعظم أحجارهما، وطول أساطينهما ، ووسع فتحهما ، وعجيب بنيانهما ، وقد أتينا على خبر هذه الهياكل وما كان من خبر القتل على رأس ابنة الملك وما نال أهل هذه المدينة من سفك الدماء .

جيرون بدمشق

وهيكل عظيم البنيان[1] فى مدينة دمشق ، وهو المعروف بجيرون ، وقد ذكرنا خبره فيما سلف من هذا الكتاب وأن بانيه جيرون بن سعد[2] العادى ، ونقل إليه عمد الرخام ، وأنه إرم ذات العماد المذكورة فى القرآن، إلا ماذكر[3] عن كعب الأحبار حين دخل على معاوية بن أبى سفيان وسأله عن خبرها وذكر عجيب بنيانها من الذهب والفضة والمسك والزعفران وأنه يدخلها رجل من العرب يتيه له جملان فيخرج فى طلبهما فيقع إليها، وذكر حِلْية الرجل، ثم التفت فى مجلس معاوية فقال: هذا هو الرجل، وكان الأعرابى قد دخلها يطلب ما ندَّ من إبله؛ فأجاز معاوية كعباً ، وتبين صدق مقالته وإيضاح برهانه، فإن كان هذا الخبر عن كعب حقاً فى هذه المدينة فهو حسن ، وهو خبر يدخله الفساد من جهات من النقل وغيره ، وهو من صنعة القُصَّاص .

وقد تنازع الناس فى هذه المدينة ،وأين هى؟ولم يصح عند كثير من الأخبار بين ممن وفد على معاوية من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين [فيها ، إلا خبر عبيد بن شَرِيَّة وإخباره إياه عما سلف من الأيام][4] وما كان فيها من الكوائن والحوادث وتشعب الأنساب ، وكتاب عبيد بن شرية متداول فى أيدى الناس مشهور .

وقد ذكر كثير من الناس ممن له معرفة بأخبارهم أن هذه أخبار موضوعة من خُرَافات مصنوعة ، نظمها مَنْ تقرب للملوك بروايتها ، وصال على[5] أهل عصره

(١) فى ا « عظيم الشأن » (٢) فى ب « أسعد العادى »
(٣) فى ب « لاماذكر عن كعب » (٤) زيادة فى ا وحدها
(٥) فى ا « وحال على أهل عصره »

يحفظها والمذاكرة بها ، وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية ، وسبيل تأليفها مما ذكرنا مثل كتاب هزار أفسانة ، وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية [ألف خُرَافة ، والخرافة بالفارسية] (١) يقال لها أفسانة ، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها وهما شيرزاد (٢) ودينا زاد ، ومثل كتاب فرزة وسيماس (٣) وما فيه من أخبار ملوك الهند والوزراء ، ومثل كتاب السندباد ، وغيرها من الكتب فى هذا المعنى .

كتاب ألف ليلة وليلة

وقد كان مسجد دمشق قبل ظهور النصرانية هيكلا عظيما فيه التماثيل والأصنام على رأس مناره تماثيل منصوبة ، وقد كان بنى على اسم المشترى وطالع سعد ، ثم ظهرت النصرانية فجعلته كنيسة ، وظهر الإسلام [فجعل مسجداً] وأحكم بناءه الوليدُ بن عبد الملك ، والصوامع منه لم تغير ، وهى مَنَاَئر الأذان إلى هذا الوقت .

أصل مسجد دمشق

وقد كان بدمشق أيضاً بناء عجيب يقال له البريص (٤) ، وهو مبقّى إلى هذا الوقت فى وسطها ، وكان يجرى فيه الخمر فى قديم الزمان ، وقد ذكرته الشعراء فى مدحها لملوك غسان من مأرب وغيرهم .

البريص بدمشق

وهيكل أنطاكية يعرف بالديماس ، على يمين مسجدها الجامع ، مبنى بالآجر العادى والحجر ، عظيم البنيان ، وفى كل سنة يدخل القمر عند طلوعه من باب من أبوابه ومن أعاليه (٥) فى بعض الأهلة الصيفية ، وقد ذكر أن هذا الديماس من بناء الفرس حين ملكت أنطاكية ، وأنه بيت نار لها .

الديماس بأنطاكية

قال المسعودى : وقد ذكر أبو معشر المنجم فى كتابه المترجم بـ « كتاب الألوف » الهياكل والبنيان العظيم الذى يحدث بناؤه فى العالم فى كل ألف عام ، وكذلك ذكره ابن المازيار تلميذ أبى معشر فى كتابه « المنتخب من كتاب

---

(١) زيادة عن ا وحدها (٢) فى ب « ودايتها شيرزاد ورسا زاد »
(٣) فى ب « وزره وشماش » (٤) فى ب « البريض » محرفا
(٥) فى ا « أبوابه العالية فى بعض الأهلة الصيفية » .

الألوف» وقد ذكر غيرهما ممن تقدم عصرهما وممن تأخر عنهما كثيراً من البنيان والعجائب فى الأرض، وقد أعرضنا عن ذكرها، وذكر السد الأعظم — وهو سد يأجوج ومأجوج — وقد تنازع الناس فى كيفية بنائه كتنازعهم فى إرم ذات العماد على ما ذكرنا آنفاً، وكيفية بناء الأهرام التى بأرض مصر وما عليهما من الكتابة المرسومة ، وما بصعيد مصر من البَرَابِى المصنوعة ، وبغير أرض الصعيد من بلاد مصر ، وأخبار مدينة العقاب ، وما ذكر الناس فيها، وكونها فى وهاد مصر وأنها فى جهة الواحات مما يلى المغرب والحبشة ، وخبر العمود الذى ينزل منه الماء فى فصل من السنة بأرض عاد ، وأخبار النمل الذى على قدر الذئاب والكلاب، وقصة أرض الذهب التى حذاء سجلماسة من أرض المغرب ، ومن هنالك من وراء النهر العظيم ، ومبايعتهم من غير مشاهدتهم ولا مخاطبتهم ، وتركهم المتاع ، وغدوّ الناس إلى أمتعتهم فيجدون أعمدة الذهب وقد تركت إلى جنب كل متاع من تلك الأمتعة ، فإن شاء مالك المتاع اختار الذهب وترك المتاع ، وإن شاء أخذ متاعه وترك الذهب، وإن أحَبَّ الزيادة ترك الذهب والمتاع ، وهذا مشهور بأرض المغرب بسجلماسة ،ومنها يحمل التجار الأمتعة إلى ساحل هذا النهر، وهو نهر عظيم واسع الماء، وكذلك بأقاصى خراسان مما يلى بلاد الترك من أقاصى ديارهم أمة تتبايع على [مثل] هذا الوصف من غير مخاطبة ولا مشاهدة ، وهم هنالك على نهر عظيم أيضاً ، وخبر البئر المُعَطَّلة والقصر المَشِيدِ، وذاك ببلاد الشِّحْر من بلاد الأحقاف بين اليمن وحضرموت، والبئر ومافيها من الخرق[1] واتصالها بالقرى والفضاء من أعلاها [وأسفلها] وما قاله الناس فى تأويل هذه الآية فيها ، وهل المراد بالقصر والبئر هذا القصر والبناء أم غيره ؟ وأخبار مخاليف اليمن، وهى القلاع والحصون كقلعة نحل وغيرها، وأخبار مدينة رومية وكيفية بنائها وما حوته من عجيب الهياكل والكنائس ، والعمود الذى عليه السودانية من النحاس

بعض عجائب الدنيا

(١) فى ب « وما فيها من الحِرف »

وما يحمل إليهامن الزيتون فى أيامه بالشام وغيره ، ويحمل ذلك الطائر[١] المعروف بالسودانية فى مخالبه ومنقاره ؛ فيطرحونه فى تلك[٢] السودانية النحاس ، فيكثر زيتون رومية وزيتها من ذلك ، على حسب ما ذكرنا فى أخبار الطلسمات عن بلينوس[٣] وغيره فى كتابنا «أخبار الزمان» ثم أخبار البيوت السبعة التى ببلاد الأندلس وخبر مدينة الصُّفْر وقبة الرصاص التى بمفاوز الأندلس، وما كان من خبر الملوك السالفة فيها وتعذر الوصول إليها ، ثم ما كان من أمر صاحب عبد الملك ابن مروان فى نزوله عليها ، وما تهافَتَ فيه المسلمون عند الطلوع على سورها ، وإخبارهم عن أنفسهم أنهم وصلوا إلى نعيم الدنيا والآخرة ، وخبر المدينة التى أسوارها من الصُّفْر على ساحل البحر الحبشى فى أطراف مفاوز الهند، وما كان من أخبار ملوك الهند وعدم وصولهم إليها ، ومايجرى من وادى الرمل نحوها ، وما ببلاد الهند من الهياكل المتخذة للأصنام التى على صورة البدرة المتقدم ظهورها فى قديم الزمان بأرض الهند ، وخبر الهيكل المعظم الذى ببلاد الهند المعروف بالأدرى[٤] ، وهذا عند الهند يُقْصَد من البلدان الشاسعة ، وله بلد قد وقف عليه وحوله ألف مقصورة فيها جَوَارٍ لم تنظر لتعظيم هذا الصنم من الهند، وخبر الهيكل الذى فيه الصنم ببلاد المولتان على نهر مهران من أرض السند ، وخبر سندان كسرى ببلاد قرماسين من أعمال الدينور من ماه الكوفة ، وكثير من أخبار العالم وخواص بقاعه وأبنيته وجباله وبدائع ما فيه من الخلق [من الحيوان] وغيره مما قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا ، وكذلك ما خص به كل بلد [من أنواع الفواكه دون غيره من البلدان ، فى الإسلام وغيره من الممالك ، وما بان به أهل كل بلد] من اللباس والأخلاق دون غيرهم ، وما انفردوا به من أنواع الأغذية والمآكل والمشارب والشِّيَم ، وعجائب كل بلد ، وذكرنا

(١) فى ب « ويحمل ذلك الزيتون المعروف بالسودانية طير »

(٢) فى ب « فيطرحه على السودانية النحاس » .

(٣) فى ب « ماليعاس » (٤) فى ب « المعروف ببلاد الرى »

أخبار البحار وما قيل فى اتصال بعضها ببعض وتغلغل مياهها، وما يحدث فى كل بحر منها من الآفات وما فيه من الجواهر دون غيره من البحار، كتكون المرجان ببحر المغرب، وعدمه من غيره، ووجود اللؤلؤ فى البحر الحبشى دون غيره.

محاولات قديمة لوصل بحر الروم بالبحر الأحمر

وقد كان بعض من ملك من الروم[1] حَفَر بين القلزم وبحر الروم طريقاً فلم يتأت له ذلك؛ لارتفاع القلزم، وانخفاض بحر الروم، وأن الله عز وجل قد جعل ذلك حاجزاً على حسب ما أخبر فى كتابه، والموضع الذى حفره ببحر القلزم يعرف بذنب التمساح على ميل من مدينة القلزم، عليه قنطرة عظيمة يجتاز عليها مَنْ يريد الحج من مصر، وأجرى خليجاً من هذا البحر إلى موضع يعرف بالهامة ضيعة لمحمد بن على الماذرانى[2] من أرض مصر فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — فلم يتأتَّ له اتصال [ما] بين بحر الروم وبحر القلزم.

وحفر خليجاً آخر مما يلى بلاد تنيس ودمياط وبحيرتهما، ويعرف هذا الخليج بالربر والخبية[3]، واستمر الماء فى هذا الخليج من بحر الروم [وبحيرة تنيس إلى موضع يعرف بنعنعان حتى اتصل بنحو بلاد الهامة، فكانت المراكب تدخل من بحر الروم] إلى نحو من هذه القرية، ومن بحر القلزم فى خليج ذنب التمساح فيتتابع أرباب المراكب، ويقرب حمل ما فى كل بحر إلى آخر، ثم ارتدم ذلك على تطاول الدهور، وملأته السَّوَافِى من الرمل وغيره.

وقد رام الرشيد أن يوصل بين هذين البحرين مما يلى النيل من أعالى مصبه من نحو بلاد الحبشة وأقاصى صعيد مصر؛ فلم تتأتَّ له قسمة ماء النيل، فرام ذلك مما يلى بلاد الْفَرَمَا نحو بلاد تنيس، على أن يكون مصب بحر القلزم إلى البحرْ الرومى، فقال يحيى بن خالد: يخطف[4] الروم الناس من

---

(١) فى ا « بعض من ملك من ملوك العالم ».

(٢) فى ب « صنعه محمد بن على الحرانى »

(٣) فى ب « بالزنير والحسة »

(٤) فى ا « يختطف الروم الناس »

المسجد الحرام والطواف ، وذلك أن مراكبهم تنتهى من بحر الروم إلى بحر الحجاز ، فتطرح سراياها مما يلى جدة ، فيخطف الناس من المسجد الحرام ومكة والمدينة على ما ذكرنا ، فامتنع من ذلك .

وقد حكى عن عمرو بن العاص — حين كان بمصر — أنه رام ذلك ؛ فمنعه منه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذلك لما وصفنا من فعل الروم وسراياهم ، وذلك في حال ما افتتحها عمرو بن العاص فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وآثار الحفر بين هذين البحرين — فيما ذكرنا من المواضع والخلجان — [بينة] على حسب ما شرعت فيه الملوك السالفة طلباً لعمارة الأرض ، وخصب البلاد ، وعيش الناس بالأقوات ، وأن يحمل إلى كل بلدٍ ما ليس فيه من الأقوات وغيرها من ضروب المنافع وضروب[٢] المرافق ، والله تعالى أعلم .

---

(١) فى ا « وصنوف المرافق »

ذكر جامع التاريخ

من بَدْءِ العالم إلى [مولد] رسول الله صلى الله عليه وسلم

وما لحق بهذا الباب

بعض قول الطبيعيين

قد ذكرنا فيما سلف من كتبنا جملا من تباين الناس فى بدء العالم ، ممن أثبت حدوثه ونَفاه ، وماجرت الآراء بهم فيه إلى جهات شتى ، وقد أخبرنا أنهم طوائف [الهند] وفرق من اليونانيين ، ومَنْ وافقهم على القول بالقدم من الفلكيين والطبيعيين ، وما أوردته الفلكية من قولها : إن الحركة الصانعة للأشخاص المحلِّة فيها الأرواحَ متى قطعت المسافة التى بين العقدة التى ابتدأت منها ، حتى تنتهى إليها راجعة ، ثم تنفصل عنها — أعادت كل ما بدأت به أولا كهيئته وأشخاصه وصُوَره وضروب أشكاله ؛ إذ كانت العلةو السبب اللذان بوجودهما توجد الأشياء قد وجِدَا عَوْداً كما وجدا بَدْءا، فوجب ظهور الأشياء متى عادت إلى المبدأ الذى كان عنه الصَّدَر ، ثم ماتعقب هذا القول من قول الطبيعيين : إن علة كون الأشياء الجسمانية والنفسانية من قبل حركات الطبائع واختلاطها ؛ لأن الطبيعة عندهم تحركت فى بدوِّها واختلطت فأظهر الحيوان والنبات وسائر الموجودات فى العالم ، وجعلت لها أصلا من التناسل ، لما عجزت عن تبقية الأشخاص وعدلت إلى النسل ، وإن الطبائع تنتقل من مركب إلى بسيط،ومن بسيط إلى مركب، حتى إذا أدى المركب كنهمافيه عادت الأشياء إلى البسيط إلى ،وابتدأ السكون [ماراً] على طريقه ؛ لأن الذى أوجبه أولا قد وجد ، فحقه أن يوجد منه بوجود المعنى الذى أوجده ، فظهر ذلك الظهور ، كالنبات فى الربيع ، وتحرك قوته تحت الثرى ، وذلك أن الشمس تبلغ فى الربيع إلى رأس الحمل ، بادئة فى شرفها ،

آخذة في نمرها ، وهي العلة الكبرى في إحياء النبات[1] ويأخذ الثمر في الظهور[2] من الشجر بادئاً كما كان ظاهراً بالمثال الأول الذي قد باد في الشتاء ويبسه وبرده ؛ لأن علة الكون الحرارة والرطوبة وعلة الفساد البرد واليبس ، فإذا انتقلت الأشياء من الحرارة والرطوبة إلى البرد واليبوسة فارقت الكون المتمم ودخلت الفساد ، فإذا انتهى بها الفساد إلى غايته وأوصلها إلى نهايته عاقبها الكون بوصول الشمس إلى رأس الحمل ، فبدأ بها كعادته في إنشائها ، وأبرزها من خساسة الفساد إلى نفاسة الكون ، ولو كانت الحواس تضبط شأن الأجسام وتحيط بانتقالها من حال إلى حال لشاهدت نمرها في دائرة الزمان ، مبتدئة من رتبة ، راجعة إليها ، مشكلة في محيط الدائرة بأشكال توافق بعضها ، والشكول مختلفة باختلاف العلل ، متفرقة كاختلاف الأسباب ، وفي هذا القول من هذه الطائفة ما صرح بالقول بالقدم وأبان عنه .

دليل على حدوث العالم

وقضية الفحص توجب أن الأشياء الموجودة غير خالية من إحدى المنزلتين : إما أن يكون بدء وانتهاء ، وإما أن يكون بلا بدء ولا انتهاء ، فإن [كان] بلا بدء ولا انتهاء فواجب أن تكون أجزاؤها وأبعاضها غير متناهية ، وواجب أن يكون الزمان غير عادٍّ لها ولا حاصر لجميعها ، وقد وجدنا التناهي والابتداء في أجزائها وأبعاضها على الدوام ، وأنا في كل يوم جديد نعاين خلقاً جديداً ، وصوراً في العالم لم تكن وصوراً بادئة قد كانت متأثلة ، وفي هذا ما يدل على حصر الأشياء ووقوعها في غاية انتهاء صورها ، ووجب أن للأشياء بدءاً وانتهاء ، وبطل وهم المتوهم أن الأشياء بلا نهاية ؛ وأن ليس لها ابتداء ولا غاية ، وذلك باطل ومحال فاسد ، ولو وجب أن تكون الأشياء الموجودة بلا بدء ولا نهاية لوجب أن لا يزول شيء من مركزه ، ولا يتحول عن رتبته ، ولبطلت الاستحالة ، وسقطت المضادة ، وهذا

(١) في ب «في الإحياء»

(٢) في ب « وما حدث من التمر والزهور في الشجر »

(٣) في ب « وإما أن يكون بدء لا انتهاء »

مستحيل ، [ولو] وجب أن تكون الأشياء على غير نهاية ، لما كان لقولنا اليوم وأمس وغداً معنى ؛ لأن هذه الأزمان تعد ما هو بالنهاية ، ويوجد فى حوزتها إيجاد مالم يكن وإدخالها فى حوزتها ما هو كائن .

وفيما ذكرنا ما أوضح عن تنقل شأن المعانى ، ودل على حدوث الأجسام ، وهذه الدلالة مأخوذة من الحس ، ومستظهرة[1] للعقول والبحث .

المحدث للعالم

وإذ قد وضح أن الأشياء مُحْدَثة لكونها بعد أن لم تكن فلابد لها من محدث هو بخلافها لا شكل له ولا مثل ؛ لأن العقل لا يقيم لشىء مثلا حتى يعلم له قدراً ووزناً ، ويعادله بمثله وشكله ، وتعالى جل وعز من لا تُعَبِّرُ عن ذاته اللغات ، وتعجز العقول أن تحصره بالصفات ، وتدركه بالإشارات ، أو يكون ذا غايات ونهايات .

قال المسعودى : فلنرجع الآن إلى الكلام فى حصر تاريخ العالم [ووصف أقاويل الطوائف فى ذلك المعنى ؛ لأنا إنما ذكرنا الكلام فى حدث العالم] لما ذكرنا قول من قال بقدمه ودل على أزليته ، وقد تقدم ذكرنا لقول الهند فى ذلك فيما سلف من هذا الكتاب .

عمر الدنيا

وأما اليهود فإنهم زعموا أن عمر الدنيا ستة[2] آلاف سنة وأخذوا فى ذلك مأخذاً شرعيًّا ، وذهبت النصارى إلى أن عمر العالم ما ذهبت إليه اليهود ، وأما الصابئة من الحرانيين والكاريين[3] فقد ذكرنا قولهم فى ذلك فى جملة قول اليونانيين ، وأما المجوس فإنهم ذهبوا فى ذلك إلى حد غير[4] معلوم من نفاذ قوة الهرمند وكيده ، وهو الشيطان ، ومنهم من ذهب فى ذلك إلى نحو ما ذهب إليه أصحاب الاثنين فى المزاج والخلاص[5] ، وأن العالم سيعود بدءاً متخلصاً من الشرور والآفات .

وزعمت المجوس أن من وقت زرادشت بن أسبيمان نبيهم إلى الإسكندر مائتين وثمانين[6] سنة ، وملك الإسكندر ست سنين ، ومن ملك الإسكندر

---

(١) فى ا « ومضطرة فى العقل والبحث » (٢) فى ب « سبعة آلاف سنة »
(٣) فى ب « والكتابيين » (٤) فى ب « إلى حد معلوم »
(٥) فى ب « أصحاب الأنيس والجلاس » (٦) فى ا « مائتان وثمانون وخمسون سنة »

إلى ملك أردشير خمسمائة [سنة وسبع عشرة سنة ، ومن ملك أردشير إلى الهجرة خمسمائة][(١)] سنة وأربع وستون سنة ؛ فذلك من هبوط آدم إلى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ستة آلاف سنة ومائة سنة وست وعشرون سنة : منها من هبوط آدم عليه السلام إلى الطوفان ألفان ومائتان وست وخمسون سنة ، ومن الطوفان إلى مولد إبراهيم الخليل عليه السلام ألف وتسع وسبعون سنة ، ومن مولد إبراهيم إلى ظهور موسى بعد ثمانين سنة خلت من عمر موسى بن عمران — وهو وقت خروجه ببنى إسرائيل ، من مصر إلى التيه — خمسمائة وخمس وستون سنة ، ومن خروجهم إلى سنة أربع من ملك سليمان بن داود — عليه السلام ! — وذلك وقت ابتدائه فى بناء بيت المقدس — ستمائة وست وثلاثون سنة ، ومن بناء بيت المقدس إلى ملك الإسكندر سبعمائة وسبع عشرة سنة ، ومن ملك الإسكندر إلى مولد المسيح ثلثمائة سنة وتسع وستون سنة ، ومن مولد المسيح إلى مولد النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وإحدى وعشرون سنة ، وبين أن رفع الله المسيح ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، إلى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة [سنة[(١)] وست وأربعون سنة ، وبين مبعث المسيح وهجرة النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة] وأربع وتسعون سنة ، وكانت وفاة نبينا صلى الله عليه وسلم فى سنة تسعمائة وخمس وثلاثين سنة من [سنى] ذى القرنين ، ومن داود إلى محمد صلى الله عليه وسلم ألف سنة وسبعمائة سنة وسنتان وستة أشهر وعشرة أيام ، ومن إبراهيم إلى محمد صلى الله عليه وسلم ألفا سنة وسبعمائة سنة وعشرون سنة وستة أشهر وعشرة أيام[(٢)] [ومن نوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة آلاف سنة وسبعمائة سنة وعشرون سنة وعشرة أيام][(٢)] فعلى هذا القول جميع جملة التاريخ من هبوط آدم إلى الأرض إلى مبعث النبي صلى الله عليه وسلم

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ب .

(٢) ما بين هذين المعقوفين ساقط من ا .

أربعة آلاف سنة [وثمانمائة سنة](١) وإحدى عشرة سنة وستة أشهر وعشرة أيام ، فجملة التاريخ من هبوط آدم إلى الأرض إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، من خلافة المتقى بالله ونزوله الرقة من ديار مضر — خمسة آلاف سنة ومائة وست وخمسون سنة .

وقد ذكرنا جملا من التاريخ فيما سلف من هذا الكتاب فلم نُعِدْ منه ما تقدم.

وللمجوس فى التواريخ أقاصيص يطول ذكرها ، وعود المُلْك إليهم وإلى غيرهم من الطوائف السالفة فى بدوّ العالم وفنائه ، ومن قال منهم ببقائه ، وأن لا بَدْء له ولا نهاية ، ومن ذهب منهم إلى أن له انتهاء ولا بدء له(٢) ، وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا فأغنى ذلك عن الإعادة فى هذا الكتاب ؛ لاشتراطنا فيه على أنفسنا الاختصار والإيجاز والتنبيه على ما سلف لنا من الكتب .

رأى أهل النظر من المسلمين

وقد ذهب جماعة من أهل البحث والنظر من أهل الإسلام [إلى] أن الدلالة قد قامت على حدوث العالم وكونه بعد أن لم يكن ، وأن المحدث له الخالق البارى جل وعز ، أحدثه لا من شىء ، ويبعثه لا من شىء فى الآخرة(٣) ليصح بذلك وعده ووعيده ؛ إذ كان الصادق فى وعده ووعيده لا مبدل لكلماته ، وأن أول العالم من لدن آدم ، وقد غاب عنا حصر السنين وإحصاؤها ، وتنازع الناس فى بدء التاريخ ، والكتاب لم يخبر بحصر أوقاته ولا بَيَّنَ عن كيفيته ولا أعداد سنيه فيما مضى ، وليس علم ذلك مما تهجم عليه الآراء ، ولا تحصره أقْضِيَاتُ العقول وموجبات الفحص وضرورات الحواس عند مذاكرتها لمحسوساتها ، فكيف توجب(٤) أن يوقت عمر الدنيا بسبعة آلاف سنة ، والله عز وجل يقول ، وقد ذكر الأجيال ومن ضمه الهلاك : (وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً) والله تعالى ذكره لا يقول

(١) لا توجد هذه الكلمة فى ب

(٢) فى ا « ومن ذهب منهم إلى أن له بدءا ولا انتهاء له »

(٣) فى ا « ويفنيه لما شاء من الآخرة » (٤) فى ا « فكيف يجوز أن يوقت — إلخ »

الكثير إلا فى الشىء الحقيق الكثير ، وأعلمنا فى كتابه خلقه آدمَ ، وما كان من أمره وأمر الأنبياء بعده ، وأخبر عن شأن بَدْء الخلق ، ولم يخبرنا بمقدار ذلك فنقف عليه كوقوفنا عند ما أخبرنا به ، ولاسيما مع علمنا أن المَدَى[1] بيننا وبينه متفاوت، وأن الأرض كثرت بها المدن والملوك والعجائب، فلا نحصر مالم يحصره الله عز وجل ، ولا نقبل من اليهود ما أوردته ؛ لنطق القرآن أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويكتمون الحق وهم يعلمون ، ونفيهم النبوات[2] وَجَحْدهم ما أتَوْا به من الآيات مما أظهره الله عز وجل على يَدَىْ عيسى بن مريم من المعجزات ، وعلى يَدَىْ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من البراهين الباهرات والدلائل والعلامات ، والله عز وجل يخبرنا بما أهلك من الأمم لما كان من فعالهم وكفرهم بربهم ، قال الله عز وجل : (الحاقة وما الحاقة ؟ وما أدراك ما الحاقة ؟ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) إلى قوله : (فهل ترى لهم من باقية ؟) ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كذب النسابون » وأمر أن ينسب إلى معد[3] ، ونهى أن يتجاوز بالنسب إلى ما فوق ذلك ؛ لعلمه بما مضى من الأعصار الخالية والأمم الفانية ، ولولا أن النفوس إلى الطارف أحَنُّ ، وبالنوادر أشْغَفُ ، وإلى قصار الأحاديث أمْيَل وبها أكْلَف ، لذكرنا من أخبار المتقدمين وسير الملوك الغابرين مالم نذكره فى هذا الكتاب ، ولكن ذكرنا فيه ما قرب تناولُه تلويحاً بالقول دون الإيضاح والشرح ؛ إذ كان مُعَوَّلنا

---

(١) فى ب « أن البدء »

(٢) فى ا « ودفعهم النبوات »

(٣) المؤلف ذكر معدا ، وإنما هو عدنان ، كما ذكر فى كثير من مصنفات التاريخ والحديث، والإجماع على أن رسول الله صلى الله علية وسلم إنما انتسب الى عدنان ولم يتجاوزه

فى جميع ذلك على ما سَلَفَ من كتبنا وتقدم من تصنيفنا ، وإذا علم الله عز وجل موقع النية ووجه القصد(١) أعان على السلامة من كل مَخُوفٍ .

وقد ذكرنا فى هذا الكتاب من كل فن من العلوم وكل باب من الآداب ـ على حسب الطاقة ومبلغ الاجتهاد والاختصار والإيجاز ـ لمعاً سيعرفها(٢) من تأمل ، وينبه بها مَنْ رآها .

وإذ قد ذكرنا جوامع ما يحتاج المبتدىء والمنتهى من علوم العالم وأخباره؛ فلنذكر الآن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومولده ، ومبعثه ، وهجرته، ووفاته ، وأيام الخلفاء والملوك : عصراً فعصراً ، إلى وقتنا هذا ، ولم نعرض فى كتابنا هذا لكثير من الأخبار ، بل لَوَّحْنا بالقول بها تخوفاً من الإطالة ووقوع الملل ؛ إذ ليس ينبغى للعاقل أن يحمل البنية(٣) على ما ليس فى طاقتها ، ويسوم النفس ما ليس فى جِبِلَّتها(٤) ، وإنما الألفاظ على قدر المعانى [فكثيرها لكثيرها] ، وقليلها لقليلها ، وهذا باب كبير ، وبعضه ينوب عن بعض ، والجزء منه يوهمك الكل ، والله تعالى ولى التوفيق .

(١) فى ا «وحقيقة القصد» .
(٢) فى ا « يشعر فيها من تأمله وتنبه عليها من رآها » .
(٣) فى أ « أن يحمل لسانه ماليس فى طاقتها » محرفا
(٤) فى ب « ماليس فى حيلتها »

ذكر مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ونسبه

وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

تقديم

قد ذكرنا فيما سلف من كتبنا بَدْء التاريخ فى أخبار العالم[1] وأخبار الأنبياء والملوك ، وعجائب البر والبحر ، وجوامع التاريخ لفارس والروم والقبط ، وشهور الروم والقبط ، وما كان من مولد النبي صلى الله عليه وسلم إلى مَبْعَثه ، ومَنْ آمن به قبل رسالته ، وقد قدمنا فى هذا الكتاب مَنْ كان بينه وبين المسيح من أهل الفَتْرَة ، فلنذكر الآن مولده ؛ إذ كان الطاهر المطهر الأغر[2] الأزهر ، الذى اتسعت أعلام نبوته ، وتواترت دلائل رسالته ، ونطقت الشهادات[3] له قبل بعثته .

نسبه الشريف

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مَنَاف بن قُصَى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر ابن كنانة بن خُزَيْمة بن مدركة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن معد بن عدنان بن أُدد بن ناخور بن سود بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل ابن إبراهيم خليل الرحمن بن تارح ، وهو آزر بن ناخور بن ساروخ بن أرعواء بن فالغ بن عابر بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام[4] .

هذا ما فى نسخة ابن هشام فى كتاب المَغَازِى والسير عن ابن إسحاق ، والنسخ مختلفة الأسماء فى النسب من نزار .

(١) فى ا « فى خلق العالم » - (٢) فى ا « الأعز الأزهر »

(٣) فى ب « ونطقت له السموات قبل بعثته »

(٤) الأسماء من بعد عدنان فيها اختلاف كثير فى العدة والضبط، وانظر سيرة ابن هشام أول الجزء الأول

الخلاف فى نسب معد ابن عدنان

وفى نسخة أن نزارا ابنُ مَعد بن عدنان بن أدد بن سام بن يشجب بن يعرب بن الهميسع بن صانوع بن يامد بن قيدر بن إسماعيل بن إبراهيم بن تارح ابن ناخور بن أرعواء بن أسروح بن فالغ بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح ابن متوشلخ بن أخنوخ بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم.

وفى رواية ابن الأعرابى عن هشام بن محمد الكلبى : هو نزار بن معد ابن عدنان بن أد بن أدد بن الهميسع بن نبت بن سلامان بن قيدر بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل بن تارح بن ناخور بن أرعواء بن فالغ بن عابر بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ بن يرد بن مهلاييل ابن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

وفى التوراة أن آدم عليه السلام عاش تسعمائة سنة وثلاثين سنة ؛ فيجب والله أعلم أن آدم عليه السلام كان عند مولد لمك -- وهو أبو نوح النبي عليه السلام — ابن ثمانمائة سنة وأربع وستين سنة[1] ، وشيث ابن سبعمائة وأربع وأربعين سنة ؛ فيجب على هذا الوصف من الحساب أن مولد نوح عليه السلام كان بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة .

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم — على حسب ما ذكرنا من نَهْيِه — أن يتجاوز عن معد ؛ فقد ثبت أن نتوقف فى النسب على [معد ، وقد اختلف أهل النسب على] ما ذكرنا ، فالواجب الوقف عند أمره عليه السلام ونهيه .

قال المسعودى : وقد وجدت نسب [مَعد] بن عدنان فى السِّفْرِ الذى أثبته باروخ بن ناريا[2] كاتب أرميا[3] النبي صلى الله عليه وسلم أن معداً ابنُ عَدْنان

(١) فى ا « وأربع وسبعين سنة » (٢) فى ب « تاروخ بن باريا »
(٣) فى ب « كاتب أمر النبي » تحريف

ابن أدد بن الهميسع بن سلامان بن عوص بن برو بن متّساويل بن أبى العوام
ابن ناسل بن حرا بن يلدارم بن بدلان بن كالح بن فاجم بن ناخور بن ماحى
ابن عسقى بن عنف بن عبيد بن الرعاء بن حمران بن يسن بن هرى بن بحرى
ابن يلخى بن أرعوا بن عنفاء بن حسان بن عيسى بن أقتاد بن إيهام بن معصر
ابن ناجب بن رزاح بن سماى بن مر بن عوص بن عوام بن قيدر بن إسماعيل
ابن إبراهيم الخليل عليه السلام[1] .

وقد كان لأرمياء مع معد بن عدنان أخبار يطول ذكرها ، وما كان من أمرهما بالشام ، وقد أتينا على ذكر ذلك فيما سلف من كتبنا ، وإنما ذكرنا هذا النسب من هذا الوجه ليعلم تنازع الناس فى ذلك .

وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن تجاوز معد ؛ لعلمه من تباعد الأنساب وكثرة الآراء فى طول هذه المدة والأعصار .

كنية الرسول

وكنيته صلى الله عليه وسلم : أبو القاسم ، وفى ذلك يقول الشاعر :

لله ممَّنْ قد بَرَا صفوةٌ وصفوة الخلق بنو هاشم[2]
وصفوة الصفوة من هاشم محمد النور أبو القاسم

أسماؤه

وهو محمد ، وأحمد ، والماحى الذى يمحو الله به الذنوب ، والعاقب ، والحاشر الذى يحشر [الله] الناس[3] على عقبه صلى الله عليه وسلم .

مولده

وكان مولده عليه الصلاة والسلام عامَ الفيل ؛ و [كان] بين عام الفيل

(١) وكما اختلف النسابون فى عدد هذه الأسماء وألفاظها اختلفت نسخ هذا الكتاب اختلافا كثيراً ؛ وقد أثبتنا ما فى ا ، واعتمدنا لفظها وعددها .
(٢) برا : أصله برأ ، ومعناه خلق ، فسهل الهمزة بقلبها ألفا
(٣) فى ا « الذى يحشر الله الخلق على عقبه » .

حروب الفجار

وعام الفِجَار عشرون سنة ، والفِجَار(١) حرب كانت بين قيس عَيْلاَن وبنى(٢) كنانة ، استحلوا فيها القتال فى الأشهر الحرم ، فسميت الفِجَار ، وكنانة : ابن خزيمة بن مدركة ، وهو عمرو ، بن إلياس بن مضر بن نزار ، كان ولد(٣) إلياس عمراً وعامراً وعميراً(٣) ، فعمرو هو مُدْرِكة ، وعامر هو طابخة ، وعمير هو قمعة ، وكانت أمهم ليلى بنت حُلْوَان بن عمران بن إلحاف ابن قضاعة وهى خِنْدِف ؛ فغلب على مَنْ ذكرنا الألقابُ ، ونسب ولد إلياس إلى أمهم خِنْدِف ، وفى ذلك يقول قُصَى بن كلاب بن مرة :

إنى لدى الحرب وحىّ وأبى عند تناديهم بآل وَهَبِ(٤)
معترم الصَّوْلة عالى النسبِ أمّىَ خِنْدِفُ وإلياس أَبِى(٥)

بطون قريش

وقريش خمسة وعشرون بطناً ، وهم : بنو هاشم بن عبد مناف [بنو المطلب ابن عبد مناف] ، بنو الحارث بن عبد المطلب ، [بنو أمية بن عبد شمس ،

---

(١) قال الجوهرى : « الفجار : يوم من أيام العرب ، وهى أربعة أفجرة كانت بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان فى الجاهلية وكانت الدبرة على قيس ، وإنما سمت قريش هذه الحرب فجارا لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، فلما قاتلوا فيها قالوا : قد فجرنا ، فسميت فجارا » اهـ

(٢) فى ب « بين قيس عيلان وبين كنانة »

(٣) قوله « وكان ولد الياس » إلخ قال المجد : « وولد الياس بن مضر عمرا وهو مدركة وعامرا وهو طابخة وعميرا وهو قمعة ؛ وأمهم خندف كزبرج وهى ليلى بنت حلوان بن عمران ، وكان الياس خرج فى نجعة ، فنفرت إبله من أرنب؛ فخرج إليها عمرو فأدركها ، وخرج عامر فتصيدها وطبخها ، وانقمع عمير فى الخباء ، وخرجت أمهم تسرع ، فقال لها الياس : أين تخندفين ؟ فقالت : ما زلت أخندف فى أثركم ، فلقبوا مدركة وطابخة وقمعة وخندف » اهـ

(٤) كذا فى ا ، و فى ب « إنى أرى الحرب لحي وأبى » محرفا

(٥) فى ا « معتزم الصولة » .

بنو نَوْفَل بن عبد مناف ، بنو الحارث بن فِهْر][1] ، بنو أسد بن عبد العُزَّى؛ بنو عبد الدار بن قُصَىّ - وهم حَجَبة الكعبة - بنو زهرة بن كلاب ، بنو تَيْم ابن مرة ، بنو مخزوم ، بنو يَقَظَة ، بنو مرة ، بنو عَدِىّ بن كعب ، بنو سَهْم ، بنو جُمَح ، وإلى هنا تنتهى قريش البطاح على حسب ما قدمناه فيما سلف من هذا الكتاب ، بنو مالك بن حنبل ، بنو مُعَيْط بن عامر بن لُؤَى [بنو نزار ابن عامر] ، بنو سامَةَ بن لُؤَى ، بنو الأدرم ، وهو تَيْم[2] بن غالب ، بنو محارب بن فِهْر[3] ، بنو الحارث بن عبد الله بن كنانة ، بنو عائذة ، وهو خزيمة بن لُؤَى ، بنو نبانة ، وهو سعد[4] بن لُؤَى ، ومن بنى مالك إلى آخر القبائل فى قريش الظواهر على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا للمطيبين وغيرهم من قريش .

حلف الفضول

وكان من حرب الفِجَار ما ذكرنا للمتفاخرين بالعشائر والتكاثر ، وانتهى الفِجَار فى شوال ، وكان حِلْفُ الفضول بعد منصرفهم من الفِجَار ، فقال بعضهم :

نحن كُنَّا المُلُوكَ من آل نجد   وحماة الزمان عند الذِّمَار[5]
ومنعنا الحَجُونَ من كل حى   ومنعنا الفجار يوم الفِجَار

وفى ذلك قال خِدَاشُ بن زهير العامرى :

فلا توعدينى بالفِجَارِ فإنه   أحَلَّ ببطحاء الحَجُونِ المخازيا

سبب حلف الفضول

وقد كان الحِلْفُ فى ذى القعدة بسبب رجل من زبيد من اليمن ، وكان باع سلعة له من العاص بن وائل السَّهْمى ، فَمَطَلَه بالثمن حتى يئس ، فعلا جبل

(١) ما وضعناه بين المعقوفين ساقط من ب ، ولا يتم العدد بدونه
(٢) فى ب « وهم تيم بن غالب » (٣) فى ب « محارب بن فهم »
(٤) فى ب « وهم سعيد بن لؤى » (٥) فى ب « وحماة الذمار عند الدمار »

أبي قُبَيْس ، وقريش في مجالسها حول الكعبة ، فنادى بشعر يصف فيه ظُلاَمته. رافعاً صوته منادياً يقول :

يا للرجال لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نادى الحى والنفر(١)

إن الحرام لمن تمت حرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغَدِر(٢)

فمشَتْ قريش بعضها إلى بعض ، وكان أول من سعى فى ذلك الزبير بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، واجتمعت قبائل قَريش فى دار النَّدْوة وكانت للحَلّ والعقد ، وكان ممن اجتمع بها من قريش بنو هاشم بن عبد مناف ، وبنو المطلب بن عبد مناف ، وزُهْرَة بن كلاب ، وتَيْم بن مرة ، وبنو الحارث ابن فهر ، فاتفقوا على أنهم ينصفون المظلوم من الظالم ، فساروا إلى دار عبد الله ابن جُدْعان ، فتحالفوا هنالك ؛ ففى ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب :

[حلفت لنعقِدَنْ حلفاً عليهم ... وإن كنا جميعاً أهل دار](٣)

[نسميهِ الفضول إذا عقدنا ... يعز بِهِ الغريب لدى الجوار

ويعلم مَنْ حَوَالى البيت أنا ... أُبَاةُ الضيم نهجر كل عار(٤)

الفجارات

وقد قدمنا فى كتابنا الأوسط أخبار الأحلاف والفجارات الأربعة : فجار الرجل ، أو فجار بدر(٥) بن معشر ، وفجار القرد(٦) ، وفجار المرأة ، والفجار الرابع هو

(١) فى رواية « ببطن مكة نائى الحي والنفر » وهو الصواب

(٢) فى ا « ولا حرام لثوى لابس الغدر » وفى ب « ولا حرام كيومى لابس الغدر »

(٣) سقط هذان البيتان من ا

(٤) فى ا « ويعلم من حوى للبيت » وفيها « نمنع كل عار »

(٥) فى ب « وفجار زيد بن معشر » والتصويب عن ا موافقا لما فى الأغانى (١٩ / ٧٤ بولاق) .

(٦) فى ب « وفجار ألف ود ، وفجار المرأة » ولا معنى له ؛ وأثبتنا ما فى ا ، وانظر الأغانى ؛ واعلم أن الفجارات التى ذكرها المؤلف أربعة وهى أيام الفجار الأول . وربما عد آخر ما ذكره هو من أيام الفجار الثانى . واطلب تفصيل ذلك من الأغانى (١٩ / ٧٤ وما بعدها طبع بولاق)

فجار البراض ، وبين الفجار الرابع [الذى كان فيه القتال وبين بنيان الكعبة خمس عشرة سنة ، وكان من][1] حضور النبي صلى الله عليه وسلم ومشاهدته الفجارَ الرابع إلى أن خرج إلى الشام فى تجارة خديجة ، ونظر نسطور الراهب إليه وهو فى صومعته ، والنبى صلى الله عليه وسلم مع مَيْسَرَة ، وقد أظلته غمامة ، فقال : هذا نبى ، وهذا آخر الأنبياء — أربع سنين ، وتسعة أشهر ، وستة أيام ، وإلى أن تزوج خديجة بنت خُوَيْلد شهران ، وأربعة وعشرون يوماً ، وإلى أن شهد بنيان الكعبة ، وحضر منازعة قريش فى وضع الحجر الأسود عشر سنين .

قريش تبنى الكعبة

وقد كان السيلُ هَدَم الكعبة فسرق[2] منها لما انهدمت غزال من الذهب وحلى وجواهر ، فنقضتها قريش ، وكان فى حيطانها صُوَر كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة : منها صورة إبراهيم الخليل فى يده الأزلام ، ويقابلها صورة إسماعيل ابنه على فرس يُجيز بالناس مُفيضاً[3] ، والفاروق قائم على وفد من الناس يقسم فيهم ، وبعد هذه الصور صور كثير من أولادهم إلى قصى بن كلاب وغيرهم ، فى نحو من ستين صورة مع كل واحد من تلك الصور إله صاحبها ، وكيفية عبادته ، وما اشتهر من فعله .

وضع الحجر الأسود

ولما بنت قريش الكعبة ورفعت سَمْكها وتأتَّى لها ما أرادت فى بنيانها من الخشب الذى ابتاعوه من السفينة التى رمى بها البحرُ إلى ساحلهم التى بعث بها ملك الروم من القلزم من بلاد مصر إلى الحبشة ، لتُبنى هنالك له كنيسة ، وانتهوا إلى موضع الحجر على ماذكرناو تنازعوا أيهم يَضَعُه ، فاتفقوا أن يرضوا بأول مَنْ يطلع عليهم من باب بنى شَيْبَة ، فكان أول من ظهر لأبصارهم النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك الباب ، وكانوا يعرفونه بالأمين؛ لوقاره وهديه وصدق

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ب . ولا يتم الكلام بدونه

(٢) فى ب « فبرق منها » محرفا

(٣) فى ب « يخبر الناس مقبضا ؛ والعاروب قائم — إلخ »

اللهجة ، واجتنابه القاذورات والأدناس ، فحكموه فيما تنازعوا فيه ، وانقادوا إلى قضائه، فبسط ما كان عليه من رداء ، وقيل : كساء [طارونى] ، وأخذ عليه الصلاة والسلام الحَجَرَ فوضعه فى وسطه ، ثم قال لأربعة رجال من قريش — [وهم] أهل الرياسة فيهم ، والزعماء منهم ، وهم : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العُزَّى بن قصى ، وأبو حذيفة بن المغيرة ابن عمرو بن مخزوم ، وقيس بن عدى السهمى — ليأخُذْ كل واحد منهم بجنب من جنبات هذا الرداء ، فشالوه حتى ارتفع عن الأرض ، وأدنوه من موضعه ، فأخذ عليه الصلاة والسلام الحَجَرَ ووضعه فى مكانه وقريش كلها حضور ، وكان ذلك أول ما ظهر من فعله وفضائله وأحكامه .

فقال قائل ممن حضر من قريش متعجباً من فعلهم وانقيادهم إلى أصغرهم سناً : واعجباً لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول عمدوا إلى أصغرهم سناً ، وأقلهم مالا ، فجعلوه عليهم رئيساً وحاكما ! ! أما واللات والعزى ليفوقنهم سَبْقاً ، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً[1] وليكونَنَّ له بعد هذا اليوم شأن ونبأ عظيم .

وقد تنوزع فى هذا القائل : فمن الناس من رأى أنه إبليس ظهر فى ذلك اليوم فى جمعهم فى صورة رجل من قريش كان قد مات ، وزعموا أن اللات والعزى أحيتاه لذلك المشهد ، ومنهم من رأى أنه بعض رجالهم وحكمائهم ومَنْ كانت له فطنة .

فلما استتمت قريش[2] بناء الكعبة كَسَتْهَا أردية الزعماء ؛ وهى الوصائل ، كسوة الكعبة وأعادوا الصور التى كانت مصورة فى الكعبة ، وأتقنوا[3] شكل ذلك وإحكامه

[وكان أبو طالب حاضراً فلما سمع هذا الكلام من هذا القائل فى النبى[4]

---

(١) فى ا « حظوظا وحدوداً » (٢) فى ا « فلما أتمت قريش »

(٣) فى ب « وأبقوا شكل ذلك وأحكامه »

(٤) سقط مابين هذين المعقوفين من ا

صلى الله عليه وسلم ، وما يكون من أمره فى المستقبل ، أنشأ يقول :

إن لنـــا أوله وآخره فى الحـكم العدل الذى لا ننكره

وقد جهدنا جهـدنا ليغمره وقد عهـــدنا أوله وآخره

فإن يكن حقاً ففينا أكثره]

وكان من بناء الكعبة إلى أن بعثه الله صلى الله عليه وسلم خمس سنين ، ومن مولده إلى يوم مبعثه أربعون سنة ويوم .

تحديد المولد

والذى صح من مولده عليه الصلاة والسلام أنه كان بعد قدوم أصحاب الفيل مكة بخمسين يوماً ، وكان قدومهم مكة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ثمانمائة واثنتين وثمانين من عهد ذى القرنين ، وكان قدوم أبرهة مكة لسبع عشرة خلت من المحرم ولست عشرة ومائتين من تاريخ العرب ، الذى أوله حجة الغدر[1] ولسنة أربعين من ملك كسرى أنو شروان .

وكان مولده عليه الصلاة والسلام لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة بمكة ، فى دار ابن يوسف ، ثم بعد ذلك بنتها الخيزران أم الهادى والرشيد مسجداً وكان أبوه عبد الله غائباً بأرض الشام فانصرف مريضاً ، فمات بالمدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم حَمْلٌ ، وقد تنوزع فى ذلك : فمنهم من قال : إنه مات بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم بشهر ، ومنهم من قال : إنه مات فى السنة الثانية من مولده .

نسب أمه عليه السلام

وأمه آمنة بنت وَهْب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب وفى السنة الأولى من مولده دُفع إلى حليمة[2] بنت عبـــد الله بن الحـارث تُرْضِعه ، وفى السنة الثانية من كونه فى بنى سعـد كان أبو عبد[3] الله يقول :

---

(١) فى ب « حجة العدة »

(٢) فى ب « رفع إلى حليمة » (٣) أبو عبد الله : هو عبد المطلب بن هاشم

الحمد لله الذى أعطانى هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان أعيذه بالبيت ذى الأركان

[وفى رواية أن عبد المطلب قال :

لاهُمَّ رب الراكب المسافر يحمد قلب بخير طائر
تنح عن طريقه الفواجر وحيه برصد الطواهر
واحبس كل حلف فاجر فى درج الريح والأعاصر][1]

أحداث قبل النبوة

وفى السنة الرابعة من مولده شَقَّ الملكان بطنه ، واستخرجا قلبه ، فشقاه وأخرجا منه عَلَقَة سوداء ثم غسلا بطنه وقلبه بالثلج ، وقال أحدهما لصاحبه : زِنْهُ بعشرة من أمته ، فوزنه فرجَحَ ، ثم ما زال يزيد حتى بلغ الألف، فقال والله لو وزنته بأمته لوزنها .

وفى السنة الخامسة رَدَّته إلى أمه مرضعته حليمة ؛ وقيل : فى مستهل السادسة وبين ذلك وبين عام الفيل خمس سنين وشهران وعشرة أيام .

وفى السنة السابعة من مولده خرجت به أمه إلى أخواله تزورهم ، فتوفيت بالأبْوَاء ، وقدمت به أم أيْمَنَ إلى مكة بعد خامسة من موت أمه .

وفى السنة الثامنة من مولده توفى جده عبد المطلب ، وضمه عمه أبو طالب إليه ، وكان فى حِجْره ، وخرج مع عمه إلى الشام ، وله ثلاث عشرة سنة ، ثم خرج فى تجارة لخديجة بنت خويلد إلى الشام مع غلامها مَيْسَرَة وهو ابن خمس وعشرين سنة .

قال المسعودى : وقد أتينا على مبسوط هذا الباب ، فى كتابينا : « أخبار الزمان » والأوسط .

---

(١) سقطت هذه الأبيات من ا وليست مستقيمة الوزن

(٢) فى ب « وفى السنة الثالثة » وجعلت رد حليمة إياه فى السنة الرابعة .

ذكر مبعثه صلى الله عليه وسلم

وما جاء فى ذلك إلى هجرته

مجمل

ثم بعث الله رسوله وأكرمه بما اختصه به من نبوته ، بعد بنيان الكعبة بخمس سنين على ما قدمنا آنفاً ، وهو ابن أربعين سنة كاملة؛ فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وأخفى أمره ثلاث سنين ، ونكح خديجة بنت خويلد [وله خمس وعشرون سنة] وأنزل عليه بمكة من القرآن اثنتان وثمانون سورة ، ونزل تمام بعضها بالمدينة ، وأول ما نزل عليه من القرآن (اقرأ باسم ربك الذى خلق) ، وأتاه جبريل صلى الله عليه وسلم فى ليله السبت ، ثم فى ليلة الأحد ، وخاطَبه بالرسالة فى يوم الاثنين ، وذلك بحراء ، وهو أول موضع نزل فيه القرآن، وخاطبه بأول السورة إلى قوله تعالى (عَلَّم الإنسان ما لم يعلم) ونزل تمامها بعد ذلك؛ وخوطب بفرض الصلوات ركعتين ركعتين ، ثم أمر بإتمامها بعد ذلك ، وأُقِرَّتْ ركعتين فى السفر وزِيدَ فى صلاة الحضَرِ .

تحديد المبعث

وكان مبعثه صلى الله عليه وسلم على رأس عشرين سنة من مُلْك كسرى أبرويز ، وذلك على رأس مائتى سنة من يوم التحالف بالرَّبَذَة ، وذلك لستة آلاف ومائة وثلاث عشرة سنة من هبوط آدم عليه السلام ، وقد ذكر مثل هذا عن بعض حكماء العرب فى صدر الإسلام ممن قرأ الكتب السالفة على حسب ما استخرج منها ، وفى ذلك يقول فى أرجوزة طويلة :

فى رأس عشرة من السنين
إلى ثلاث حصلت يقين[1]

(١) فى ب «فى رأس ألف من السنين» وأثبتنا ما فى ا ، وعجز البيت فى ا «جعلت يقين»

والمائة المعدودة التمام   إلى ألوف سدست نظام
أرسله الله لنا رسولا   وكان فينا هادى السبيلا[١]

إسلام على ابن أبى طالب

وقد تنوزع فى على بن أبى طالب كرم الله وجهه وإسلامه ، فذهب كثير من الناس إلى أنه لم يشرك بالله شيئاً فيستأنف الإسلام ، بل كان تابعاً للنبى صلى الله عليه وسلم فى جميع أفعاله مقتدياً به ، وبلغ وهو على ذلك ، وأن الله عصمه وسدده ووفقه لتبعيته[٢] لنبيه عليه السلام ؛ لأنهما كانا غير مضطرين ولا مجبورين على فعل الطاعات ، بل مختارين قادرين ، فاختارا طاعة الرب ، وموافقة أمره ، واجتناب منهياته ، ومنهم من رأى أنه أول من آمن ، وأن الرسول دعاه وهو موضع التكليف بظاهر قوله عز وجل : (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، وكان بدؤه بعلى إذ كان أقْرَبَ الناس إليه وأتبعهم له ، ومنهم من رأى غير ما وصفنا ، وهذا موضع قد تنازع الناس فيه من الشيعة ، وقد احتج كل فريق لقوله ممن قال بالنص فى الإمامة والاختيار ، وأرضى كل فريق كيفية إسلامه ومقدار سنيه ، وقد أتينا على الكلام فى ذلك على الشرح والإيضاح فى كتابنا المترجم بـ « كتاب الصفوة فى الإمامة » وفى كتاب « الاستبصار » وفى كتاب « الزاهى » وغيره من كتبنا فى هذا المعنى .

إسلام أبى بكر ومن أسلم بإسلامه

ثم أسلم أبو بكر رضى الله عنه ، ودعا قومه إلى الإسلام ، فأسلم على يديه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وَقّاص ، وطلحة بن عبيد الله[٣] ؛ فجاء بهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسلموا ، فهؤلاء النفر سَبَقُوا الناس بالإيمان ، وقد قال بعض مَنْ تقدم من الشعراء فى صدر الإسلام يذكرهم :

---

(١) كذا ؛ وهذه الأبيات كلها ليست بشىء
(٢) فى ا « ووفقه كعصمته لنبيه » وهو أدق وأظهر
(٣) فى ب « وطلحة وعبيد الله » وليس بشىء .

فيا سائلى عن خيار العبا د ، صادَفْتَ ذا العلم والخبرهْ
خِيَارُ العباد جميعاً قريْشٌ وخير قريش ذوو الهجرهْ
وخير ذوى الهجرة السابقون ثمانية وحدهم نُصْرَهْ
عَلِيٌّ وَعُثمان ثم الزُّبير وَطَلْحَة ، واثنان من زُهرهْ
وشيخان قد جاوَرَا أحمدا وَجاوَرَ قبراهما قبرهْ
فمن كان بعدهما فاخراً فلا تذكروا عِندهم فخرهْ[1]

الخلاف فى أول من أسلم

وقد اختلف فى أول من أسلم : فمنهم من رأى أن أبا بكر الصديق كان أول الناس إسلاماً ، وأسبقهم إيماناً ، ثم بلال بن حمامة ، ثم عمرو بن[2] عبسة ، ومنهم مَنْ ذهب إلى أن أول من أسلم من النساء خديجة ، ومن الرجال[3] عَلِيّ ، ومنهم مَنْ رأى أن أول من أسلم زيد بن حارثة [حِبّ النبى صلى الله عليه وسلم] ثم خديجة ، ثم علىّ كرم الله وجهه ، وقد ذكرنا ما اجتبينا من القول فى ذلك فيما قدمنا ذكره [من كتبنا] فى هذا المعنى ، والله تعالى ولى التوفيق .

(١) فى ا « فلا يذكرن عندهم فخره » بنون التوكيد الخفيفة

(٢) فى ا « بلال بن حمامة بن عمرو بن عنبسة » وفى ب « بلال بن حمامة ثم عمرو بن عنبسة » وفى كلهما خطأ . وذكرنا ما نص عليه ابن حجر فى الإصابة

(٣) كان على رضى الله عنه يوم أسلم صبيا يكفله رسول الله . وتمام هذا القول . أن أول من أسلم من النساء خديجة ، ومن الرجال أبو بكر ، ومن الصبيان على ومن الموالى زيد ، رضى الله عنهم أجمعين !

ذكر هجرته ، وجوامع مما كان فى أيامه

صلى الله عليه وسلم

إلى وقت وفاته

تقدمة

أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة ، وفرض عليه الجهاد ، وذلك فى سنة إحدى من [سنى] الهجرة ، وهى السنة التى نزل فيها الأذان ، وكانت سنة أربع عشرة من المبعث .

وكان ابن عباس يقول : بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة ، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وهاجر عشراً ، وقبض وهو ابنُ ثلاث وستين سنة .

تحديد الهجرة

وكانت سنة إحدى من الهجرة ، وهى سنة اثنتين وثلاثين من ملك كسرى أبرويز ، وسنة تسع من ملك هرقل ملك النصرانية ، وسنة تسعمائة وثلاث وثلاثين من ملك الإسكندر المقدونى .

كيف فعل فى الهجرة ؟

قال المسعودى : وقد ذكرنا فى الكتاب الأوسط كيفية فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خروجه من مكة [ودخوله الغار] واستئجار على[1] له الإبل ، وَنَوْمه على فراشه ؛ فخرج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة ، ومعه أبو بكر ، وعامر بن فُهَيْرَة مولى أبى بكر ، وعبد الله بن أُرَيْقِط الديلى[2] دليل لهم على الطريق ، ولم يكن مسلماً ، وكان مُقام علىّ بن أبى طالب بعده بمكة ثلاثة أيام إلى أن أدّى ما أمر بأدائه ، ثم لحق بالرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(١) كذا فى ب ، وفى ابن هشام وغيره أنه خرج على راحلة لأبى بكر ، وأنه اشتراها منه ، ووقع فى ا « واستخلاف على رضى الله عنه له » وهى التى تطابق ما فى كتب السيرة .

(٢) فى ب « الديلمى » محرفا

دخول المدينة . وكان دخوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ، فأقام بها عشر سنين كوامل ، وكان نزوله عليه الصلاة والسلام في حال موافاته المدينةَ بقُبَاء على سعد بن خَيْثَمَةَ [وابتنى المسجد][١] وكان مقامه بقَبَاء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وسار يوم الجمعة ارتفاعَ النهارِ ، وأتته الأنصار حيًّا حيًّا يسأله كل فريق[منهم][١] النزول عليه، ويتعلقون بزمام راحلته وهى تجذبه[٢] . فيقول عليه الصلاة والسلام: «خَلُّوا عنها فإنها مأمورة » حتى أدركته الصلاة فى بنى سالم ، فصلّى بهم يوم الجمعة، وكانت تلك أول جمعة صليت في الإسلام ، وهذا موضع تنازع الفقهاء في العدد الذى تتم بهم صلاة الجمعة : فذهب الشافعى فى آخرين معه إلى أن الجمعة لا تجب إقامتها حتى يكون عدد المصلين أربعين فصاعدا ، وأقَلُّ من ذلك لا يجزى ، وخالفه غيره من الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم ، وكانت صلاته في بطن الوادى المعروف بوادى رَانُونَاء[٣] إلى هذه الغاية ، ثم استوى على ناقته ، فسارت لا تُعَرِّج على شىء ، ولا يردها رادٌّ ، حتى أتت إلى موضع مسجده عليه الصلاة والسلام، والموضع يومئذ لغلامين يتيمين من بنى النجار، فبركت ، ثم سارت[فمضت][١] غير بعيد ، ثم عادت إلى مبركها فبركت واطمأنت ، والنبى صلى الله عليه وسلم يراعى أحكام البارى فيه ، وتوفيقه له، فنزل عنها، وسار إلى منزل أبى أيوب الأنصارى — وهو خالد بن كليب بن ثعلبة بن عوف بن سحيم بن مالك بن النجار[٤] — فأقام فى منزله شهراً حتى ابتنى المسجد من بعد ابتياعه الموضعَ ،وأحدقت به الأنصار واشتد سرورهم به ، وأظهروا التأسف على مافاتهم من نُصْرته ، وفى ذلك يقول

---

(١) لا توجد هذه الكلمة فى ب (٢) فى ا «وهو يجنبهم » (٣) فى ا «ذنوبا»

(٤) هكذا فى ب ، وفى ا « خالد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عوف بن عتبان ابن مالك بن النجار » وفى الإصابة « خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عوف ابن غنم بن مالك بن النجار »

صرمة بن [أبى] أنس أحد بنى عدى النجار من قصيدة :

ثوَى فى قريش بضع عشرة حِجَّةً ... يُذَكِّر لا يلقى صديقاً موانيا(١)

[ويعرض فى أهل المواسم نفسه ... فلم يرَ من يوفى ، ولم يرَ داعيا](٢)

فلما أتانا أظْهَرَ الله دينه ... وأصبح مسروراً بطَيْبَةَ راضيا

[وأصبح لا يخشى من الناس واحداً ... بعيداً ، ولا يخشى من الناس دانيا]

[بَذَلْنَا له الأموال فى كل ملكنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا]

[ونعلم أن الله لا رب غيره ... وأن رسول الله للحق رائيا]

نعادى الذى عادى من الناس كلهم ... جميعاً ، وإن كان الحبيب المصافيا

فافترض [صيام] شهر رمضان ، وحُوِّلت القبلة إلى الكعبة بعد قدومه بثمانية عشر شهراً ، وقد قيل : إنه أنزل عليه بالمدينة من القرآن اثنتان وثلاثون سورة .

علته ووفاته

ثم قبضه الله يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول سنة عشر فى الساعة التى دخل فيها المدينة ، فى منزل عائشة رضى الله عنها ، وكانت علته اثنى عشر يوما(٣)

غزواته

وكانت غزواته صلى الله عليه وسلم بنفسه ستاً وعشرين غزوة ، ومنهم من رأى أنها سبع وعشرون ، الأولون جعلوا منصرف النبى صلى الله عليه وسلم من خيبر إلى وادى القرى غزوة واحدة ، والذين جعلوها سبعاً وعشرين جعلوا غزوة خيبر مفردة ووادى القرى منصرفه إليها غزوة أخرى غير خيبر ؛ فوقع التنازع فى أعداد الغزوات من هذا الوجه ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم حين فتح الله خيبر انصرف منها إلى وادى القرى من غير أن يأتى المدينة .

ترتيبها

وكان أول غزواته صلى الله عليه وسلم من المدينة بنفسه إلى وَدَّان ، وهى

(١) فى ا « يذكر لو يلقى صديقاً مواسياً »

(٢) هذه الأبيات التى وضعت بين المعقوفين لا توجد فى ا

(٣) فى ا « ثلاثة عشر يوماً »

المعروفة بغزوة الأبْوَاء ، ثم غزوة بُواط إلى ناحية رَضْوى ، ثم غزوة العشيرة من بطن ينبع ، ثم غزوة بدر الأولى ، وكان خروجه طلباً لكرز بن جابر ، ثم غزوة بدر الكبرى ، وهى بدر الثانية التى قُتل فيها صناديد قريش وأشرافها وأسر من أسر من زعمائهم ، ثم غزوة بنى سُلَيم حتى بلغ الموضع المعروف بالكدر[1] ماء لبنى سُلَيم ، ثم غزوة السويق طلبا لأبى سفيان بن حرب فبلغ فيها الموضع المعروف بقرقرة الكُدْر ، ثم غزوة غطفان إلى نجد وتعرف هذه الغزوة بغزوة ذى أمر ، ثم غزوة بحران وهو موضع بالحجاز[2] من فوق الفرع ثم غزوة أحد ، ثم غزوة حمراء الأسد ، ثم غزوة بنى النَّضِير ، ثم غزوة ذات الرقاع من نجد[3] ، ثم غزوة بدر الأخيرة ، ثم غزوة دومة الجندل [ثم غزوة المُرَيْسِيع][4] [ثم غزوة الخندق ، ثم غروة بنى قُرَيْظة ، ثم غزوة بنى لحيان ابن هذيل بن مدركة ، ثم غزوة ذى قرد ، ثم غزوة بنى المصطلق من خُزَاعة ، ثم غزوة الحديبية لا يريد قتالا فصَدَّه المشركون ، ثم غزوة خيبر ، ثم اعتمر عليه السلام عمرة القضاء ، ثم فتح مكة ، ثم غزوة حُنَيْن ، ثم غزوة الطائف ، ثم غزوة تَبُوك .

قاتل منها فى تسع غزوات : بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف ، وتَبُوك .

قول الواقدى فى غزواته

هذا قول محمد بن إسحاق ، فأما ماذهب إليه الواقدى فإنه وافق ابن إسحاق فى قتال النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه التسع الغزوات ، وزاد أن النبى صلى الله عليه وسلم قاتل فى غَزَاة وادى القرى ، وذلك أن غلامه المعروف بمدعم[5] رمى بسهم فقتل ، وقاتل فى يوم الغابة فقتل من المشركين ستة نفر ، وقتل يومئذ محرز بن نضلة ففى قول الواقدى أنه قاتل فى إحدى عشرة غزوة ، وفى قول ابن إسحاق

(١) فى ا « بالكديد » (٢) فى ا «وهو معدن بالحجاز»
(٣) فى ا « ثم غزوة ذات الرقاع من نخل » (٤) لا توجد هذه العبارة فى ا
(٥) فى ا « المعروف بمذغم »

فى تسع ، فقتاله فى التسع باتفاق منهما ، وزاد الواقدى على ما ذكرنا .

وقد قيل : إن أول غزوة غزاها عليه السلام ذات العشيرة .

سراياه وبعوثه

وقد تنازع مَنْ سلف من أهل السير والأخبار فى عدة سراياه وبعوثه : فقال قوم[1] : إن عدة سراياه وبعوثه بين أن قدمَ المدينة وبين أن قَبَضَه الله خمس وثلاثون بعثاً وسَرِية ، وذكر محمد بن جرير الطبرى فى كتابه فى التاريخ قال : حدثنى الحارث قال : حدثنا ابن سعد ، قال : قال محمد بن عُمَر الواقدى : كانت سرايا النبى صلى الله عليه وسلم ثمانياً وأربعين سَرِيَّةً ، وقيل . إن سراياه صلى الله عليه وسلم وبعوثه كانت ستة وستين .

مشاهير الأحداث

وقبض صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة على حسب ما تقدم فى صدر هذا الباب من قول ابن عباس ، ولم يخلف من الولد إلا فاطمة عليها السلام ، وتوفيت بعده بأربعين يوماً ، وقيل : سبعين يوماً ، وقيل غير ذلك ..

وكان تزوج على بن أبى طالب لفاطمة عليهما السلام بعد سنة مضت من الهجرة ، وقيل أقل من ذلك .

وكانت أول امرأة تزوج بها النبى صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خُوَيْلد ابن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وكانت وفاتها فى شوال بعد مبعثه بثلاث سنين[2] .

وَأُسْرِىَ به وهو ابن إحدى وخمسين سنة وثمانية أشهر وعشرين يوماً .

وكانت وفاة عمه أبى طالب — واسمه عبد مناف [بن عبد المطلب] — بعد وفاة خديجة بثلاثة أيام ، وهو ابن تسع وأربعين سنة وثمانية أشهر ، وقد قيل : إن أبا طالب اسمُه له .

وتزوج بعد وفاة خديجة بسَوْدة بنت زَمْعة[3] بن قيس بن عبد وُدّ بن نصر[4]

(١) فى ا « فذكر محمد بن إسحاق »

(٢) كذا ، وربما كان الأصل « بتسع سنين » أو « بعشر سنين » مع ترك الشهور أو جبرها ، وانظر ص ٢٩٤ الآتية (٣) فى ا « بسوادة بنت زمعة » محرفا.

(٤) فى ب « بن نصر » بالصاد المهملة .

ابن مالك [بن حِسْلٍ] .

وتزوج بعائشة رضى الله عنها [قبل الهجرة بسنتين ، وقيل : تزوجها بعد وفاة خديجة ، ودخل بها][(1)] بعد الهجرة بسبعة أشهر وتسعة أيام ، وقد أتينا على ذكر سائر أزواجه فى الكتاب الأوسط ؛ فأغنى [ذلك] عن إعادته .

روى جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن على عن أبيه على بن الحسين[(2)] بن على ابن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : إن الله عز وجل أدَّبَ محمداً صلى الله عليه وسلم فأحسن تأديبه ، فقال [خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين] فلما كان كذلك قال الله تعالى [وإنك لعلى خلق عظيم] فلما قبل من الله فوض إليه[(3)] فقال [وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا] وكان يضمن على الله الجنة ، فأجيز له ذلك .

وكان عدة من تزوج من النساء خمس عشرة : دخل بإحدى عشرة منهن ، ولم يدخل بأربع ، وقبض عليه السلام عن تسع .

النزاع فى عمره عليه الصلاة والسلام

قال المسعودى: وقد تنوزع فى مقدار عمره عليه السلام ، وقد قدمنا ماروى فى ذلك عن ابن عباس ، وهو ما ذكره حماد بن سلمة عن أبى حمزة عن ابن عباس ، وقد روى عن أبى هريرة مثل قول ابن عباس ، وذكر عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وهو ابن ثلاث وأربعين سنة ، وأقام بمكة عشراً ، [وبالمدينة عشراً] ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وكذلك ذكر عن عائشة قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وقد روى عن ابن عباس من وجه آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وهو ابن خمس وستين سنة ، وكذلك ذكر ابن هشام قال : حدثنا على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ،

(١) مابين المعقوفين ساقط من ب (٢) فى ا « على بن الحسن بن على بن أبى طالب » (٣) فى ا « فلما قبل عن الله تعالى ما فرض إليه فقال » محرفا .

وذكر قتادة عن الحسن عن دغفل[1] — يعنى ابن حنظلة — أن النبى صلى الله عليه وسلم توفى وهو ابن خمس وستين ، وقد قيل : إنه قبض وهو ابن ستين ، وذكر ذلك عن ابن عباس وعائشة وعُرْوَة بن الزبير ، وذكر حماد قال : أخبرنا عمرو بن دينار ، عن عُرْوَة بن الزبير ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة ، ومات وهو ابن ستين ، وذكر شيبان عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة قال : حدثتنى عائشة رضى الله عنها وابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث وهو ابن أربعين سنة ، فلبث بمكة عشر سنين ، وبالمدينة عشر سنين ، وقبض وهو ابن ستين ، صلى الله عليه وسلم .

وإنما حكينا هذا الخلاف ليعلم من نظر فى كتابنا هذا أنا لم نغفل شيئاً مما قالوه ، ولا تركنا شيئاً ذكروهُ إلا ذكرنا منه ما تأتَّى لنا ذكره وأشرنا إليه ، ميلا إلى الاختصار وطلباً للإيجاز ، والذى وجدنا عليه آل محمد عليه الصلاة والسلام أنه قُبض ابن ثلاث وستين سنة ، ولما غسل عليه الصلاة والسلام كفن فى ثلاثة أثواب ثوبين صُحَاريين وثوب حِبَرَة أدرج فيها إدراجاً ، ونزل فى قبره على بن أبى طالب والفضل وَقُثَم ابنا العباس وَشُقْرَان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر فى مقدار الثياب للكفن غير ما ذكرنا، والله أعلم بكيفية ذلك .

وفاته وتكفينه ودفنه عليه السلام

ولنرجع الآن إلى ذكر لمع من أموره وأخبارٍ كانت من مولده إلى وفاته صلى الله عليه وسلم وشرَّف وعظَّم .

---

(١) فى ا « عن دعبل » وفى ب « عن دحيل » وأحسب أنه دغفل بن حنظلة الشيبانى الذهلى ، أحد العلماء بالنسب ، يروى عنه الحسن وابن سيرين .

ذكر أمور وأحوال[1] من مولده إلى وفاته

صلى الله عليه وسلم

تقدمة

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب من ذكر مولده عليه السلام ومبعثه وَوفاته جوامِعَ يكتفى بها العالم المستبصر ، ويتنَبَّه بها الطالب المسترشد ، وذكرنا جُمَلاً من الكوائن والأحداث فى تضاعيف ذلك ، وأفردنا هذا الباب لذكر ترتيب جمل من السنين من مولده إلى وفاته ، وجمل أَحْدَاثٍ وكوائن كانت فى أيامه ؛ ليقرب تناول ذلك على مريده ، ويسهل مأخذه على الطالب له ، وإن كنا قد أتينا على لمع من مبسوط هذا الباب فيما تقدمه من الأبواب إن شاء الله تعالى .

السنة الأولى من مولده

فى أول سنة من مولده، دفع إلى حليمة بنت عبد الله بن الحارث بن شجنة[2] بن جابر بن رزام[3] بن ناصر بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمه بن خَصَفَة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[4] .

السنة الخامسة

وفى السنة الخامسة من مولده رَدَّتْه حليمة إلى أمه ، على حسب ما ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب .

السنة السادسة

وفى السنة السادسة أخرجته أمه إلى أخواله زائرة فتوفيت بالأبْوَاء بين مكة والمدينة ، ونمى ذلك إلى أم أَيْمَنَ ؛ فخرجت إليه ؛ وقدمت به إلى مكة ؛

(١) فى ا « ذكر أمور وأخبار — إلخ » .

(٢) فى ب « بن سحنة » بالسين والحاء المهملتين ، وفى ا « بن سخنة » بسين مهملة وخاء معجمة ، ، فلما اختلفا أثبتنا ما نص على ضبطه عن ابن إسحاق .

(٣) فى ا « بن درام » .

(٤) وقع فى ب « بن جابر بن نصر بن معد بن عدنان » وهو نقص ، ولا يخلو ما ذكر من خطأ ، ووقع ما أثبتناه فى ا مع بعض خطأ ذكرنا صوابه ، وفى ابن إسحاق « بن رزام بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن » .

وكانت مولاة له قد ورثها عن أمه .

خروجه إلى الشام

وفى السنة التاسعة خرج مع عمه أبى طالب إلى الشام ، وقيل : إنه خرج مع عمه أبى طالب إلى الشام وله ثلاث عشرة سنة ، وقد كان أبو طالب أخا عبد الله أبى النبى صلى الله عليه وسلم لأبيه وأمه ؛ فلذلك كَفَلَ بأمر النبى صلى الله عليه وسلم من بين سائر إخوته — وهم : العباس ، وحمزة ، والزبير ، وحجل ، والمقوم ، وضرار ، والحارث ، وأبو لهب — وَهم عشرة بنو عبد المطلب ، وكان لعبد المطلب ستة عشر ولداً : عشرة ذكور ، وهم من سمينا ، وست إناث ، وهن : عاتكة ، وصفية ، وأميمة ، والبيضاء ، وبَرَّة[1] ، وأرْوَى ، ولم يسلم منهن إلا صفية أم الزبير بن العوام ، وقد تنوزع فى أروى : فمنهم من قال : إنها أسلمت [ومنهم من خالف ذلك] .

وفى خروجه عليه السلام مع عمه فى هذه السنة نظر إليه بَحِيرَا الراهب ، وأوصاهم بمراعاته من اليهود فإنهم أعداؤه لعلمهم بما يكون من نبوته على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لخبر بَحِيرَا الراهب وما كان من إخباره بنبوة النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك فى باب أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد عليهما السلام .

شهوده الفجار

وقد قدمنا أنه عليه السلام شهد يوم حرب الفِجَارِ ، وذلك فى سنة إحدى وعشرين ، وأنها حرب كانت بين قريش وقيس عيلان ، فيما سلف من هذا الكتاب وغيره ، وأنها إنما سميت بهذا الاسم الذى هو الفِجَار لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، وكانت لقيس على قريش ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لما شاهدها صارت لقريش على قيس ، وكان على قريش يومئذ عبد الله بن جُدْعَان التَّيْمِىُّ ، وكان نخاساً فى الجاهلية[2] بياعاً للجوارى ، وكانت هذه إحدى الدلائل المنذرة بنبوته عليه السلام والتيمن بحضوره .

(١) فى ا « وقرة »
(٢) فى ب « نخاساً للجاهلية ».

ست وعشرين — وفى سنة ست وعشرين كان تزويجه بخديجة بنت خُوَيْلد ، وهى يومئذ بنت أربعين ، وقيل فى سنها غير هذا .

ست وثلاثين — وفى سنة ست وثلاثين بَنَتْ قريش الكعبة ، وتراضت به ، فوضع الحجَرَ على حسب ما قدمنا .

إحدى وأربعين — وفى سنة إحدى وأربعين بعثه الله نبياً ورسولا إلى كافة الناس ، وذلك [يوم الأثنين] لعشر خلون من ربيع الأول ، على حسب تنازع الناس فى تاريخ مبعثه عليه السلام .

ست وأربعين — وفى سنة ست وأربعين كان حصار قريش للنبى صلى الله عليه وسلم وبنى هاشم وبنى [عبد] المطلب فى الشِّعْب .

سنة خمسين — وفى سنة خمسين كان خروجه عليه السلام ومن تبعه من الشِّعب[1] .

وفى هذه السنة كانت وفاة خديجة زوجه [وفيها كان خروجه إلى الطائف][2] على حسب ما ذكرنا .

إحدى وخمسين — وفى سنة إحدى وخمسين كان الإسراء به صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ، على حسب ما نطق به التنزيل .

أربع وخمسين — وفى سنة أربع وخمسين كانت هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وفيها بنى صلى الله عليه وسلم مسجده ، وفيها دخل بعائشة بنت أبى بكر رضى الله عنها وهى ابنة تسع ، وتزوج بها [قبل الهجرة وهى بنت سبع ، وقيل : إنه تزوجها وهى بنت ست سنين ، وبنى بها فى المدينة] بعد الهجرة بسبعة أشهر ، وقيل عن عائشة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وهى بنت ثمانَ عشرةَ سنةً ، وكانت وفاتها سنة ثمان وخمسين من الهجرة ، [بالمدينة ، وصلى عليها أبو هريرة فى أيام معاوية بن أبى سفيان وقد قاربت السبعين] وفيها أمر رسول

(١) فى ب « كان خروجه عليه السلام ومن تبعه إلى الطائف » وهو نقل للكلام من موضع إلى موضع آخر ، وهذه إحدى صنائع النساخين .

(٢) هذه الزيادة لا توجد فى ب ، وهى التى تدل على ما قلناه .

الله صلى الله عليه وسلم بالأذان ، وأرى عبد الله بن زيد كيفية الأذان فى مَنَامه ، وفيها كان تزوج على بن أبى طالب بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على حسب ما ذكرنا من التنازع فى التاريخ .

اثنتين من الهجرة

وفى سنة اثنتين من الهجرة افترض على المؤمنين صوم شهر رمضان ، وفى هذه السنة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتوجُّهِ إلى الكعبة ، وفيها توفيت ابنته رُقَيَّة ، وفى آخر هذه السنة — وهى سنة اثنتين من الهجرة — كان دخول على ابن أبى طالب بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها كانت وقعة بدر ، وذلك فى يوم الجمعة لسبع عشرة ليلةً خلت من شهر رمضان .

ثلاث من الهجرة

وفى سنة ثلاث كان تزويجه بزينب بنت خُزَيمة ، وكانت وفاتها بعد شهرين ، وفى هذه السنة كان تزويجه بحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وفيها كان تزويج عثمان بن عفَّان بأم كلثوم ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها كان مولد الحسن بن على بن أبى طالب على ما فى ذلك من التنازع فى التاريخ ، وفيها كانت غزوة أحد ، وفى هذه السنة[1] استشهد حمزة بن عبد المطلب .

أربع من الهجرة

وفى سنة أربع كانت غزوته المعروفة بذات الرِّقَاع ، وفى هذه الغزاة صلى صلاة الخوف بالناس ، على حسب ما ذكر فى كيفية ذلك من التنازع ، وفيها كان تزويجه بأم سلمة بنت [أبى] أمية ، وفيها كانت غزوته إلى اليهود من بنى النَّضِير وامتنعوا منه بحصونهم ، فقطعوا نخلهم وشجرهم ، وأضرموا النار عليهم ، فلما رأى ذلك صالحهم[2] ، وفيها كانت غزوته إلى بنى المصْطَلَق ، وفيها — وهى سنة أربع — كان مولد الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، وقد قيل: إن مولد فاطمة رضى الله تعالى عنها [كان] قبل الهجرة بثمان سنين .

خمس من الهجرة

وفى سنة خمس كانت غزوة الخندق وما كان [فيها] من حفر الخندق ، وفيها غزا

---

(١) فى ا « وفى هذه الغزوة استشهد حمزة — إلخ »

(٢) فى ا « فقطع نخلهم وشجرهم ، وأضرم النار عليهم ، فلما رأوا ذلك صالحوه »

اليهود من بنى قُرَيْظَة ، وكان من أمرهم ما قد شهر ، وفيها كان تزويجه بزينب بنت جَحْش ، وفيها كان تقَوُّلُ أهل الإفك على عائشة رضى الله تعالى عنها .

ست من الهجرة

وفى سنة ست كان استسقاؤه عليه السلام لما لحق الناس من الضر وَالْجَدْبِ ، وفيها اعتمر عمرته المعروفة بعمرة الحديبية[1] وَواعد المشركين، وفيها أخذ فَدَكَ ، وفيها تزوج أم حبيبة بنت أبى سفيان ، ووَجَّهَ بالرسُلِ إلى كسرى وقيصر ، وكان فيها أداؤه لكتابة جُوَيرية بنت الحارث وتزويجه بها .

سبع من الهجرة

وفى سنة سبع غزا خيبر فافتتحها ، واصطفى صفية بنت حُيَى بن أخْطَب لنفسه ، وفيها تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية خالة عبد الله بن عباس فى سفره حين اعتمر عمرة القضاء ، على ما ذكر من التنازع فى نكاحه لها ، أفى حال حله نكحها أم فى حال إحرامه؟ وما قال الفقهاء فى ذلك ، وتنازع الناس فى نكاح المحرم ، وفيها كان قدوم حاطب بن أبى بلْتَعة من مصر من عند المقوقس ملكها ومعه مارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من هدايا المقوقس إليه ، وفيها كان قدوم جعفر بن أبى طالب من أرض الحبشة [ومعه أولاده وزوجته وغيرهم من المسلمين ممن كان بأرض الحبشة]

ثمان من الهجرة

وفى سنة ثمان استشهد جعفر بن أبى طالب وَزيد بن حارثة وَعبد الله بن رَوَاحة بأرض مُؤْتة من أرض البَلْقَاء من أرض الشام وَأعمال دمشق فى وَقعتهم مع الروم ، وفيها كانت وفاة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : غير ذلك من التاريخ .

فتح مكة

وفى سنة ثمان كان افتتاح النبى صلى الله عليه وسلم مكة ، وَقد تنازع الناس فى فتحها ، أصلحاً كان أم عَنْوَة[2]؟ وَفيها كُسِّرَتْ الأصنام ، وَهُدِمَت العُزَّى[3] ثم

---

(١) فى ا « المعروفة بغروة الحديبية وودع المشركين »

(٢) فى ب « أصلحا كان أم غيره »

(٣) فى ب « وهدمت العرائم » محرفا

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : « اذهَبوا فأنتم الطُّلَقَاء » ، وفيها غزا غزوة حُنَين ، وكان على هوَازن مالك بن عوف النَّضْرِى[1] ومعه دُرَيْد بن الصِّمَّة ، وفيها كانت غزوة الطائف ، وفيها كان إعطاؤه المؤلفة قلوبهم وفيهم أبو سفيان صخر بن حرب وابنه معاوية ، وفيها كان مولد إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مارية القبطية .

تسع من الهجرة

وفى سنة تسع حج أبو بكر الصديق رضى الله عنه بالناس ، وقرأ علىّ بن أبى طالب عليهم سورة براءة ، وأمر أن لا يحج مشرك ، وأنه لا يطوف بالبيت عُرْيان ، وفيها كانت وفاة أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عشر من الهجرة

وفى سنة عشر حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، وقال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خَلَقَ الله السموات والأرض » ، وفيها كانت وفاة إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام ، وقيل غير ذلك ، وفيها كان بعثه عليه الصلاة والسلام بعلىّ إلى اليمن ، وأحرم كإحرام النبى صلى الله عليه وسلم .

إحدى عشرة من الهجرة

[وفى سنة إحدى عشرة كانت وفاته صلى الله عليه وسلم] على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب قبل هذا الباب من ذكر وفاته ومقدار عمره وما قاله الناس فى ذلك ، وفيها كانت وفاة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على حسب ما ذكرنا من تنازع الناس فى مقدار عمرها ومدة بقائها بعد أبيها ، ومن الذى صلى عليها : العباسُ بن عبد المطلب أم بَعْلُهَا على ؟ ولما قبضت جزع عليها بَعلُهَا علىّ جزعاً شديداً واشتد بكاؤه وظهر أنينه وحنينه ، وقال فى ذلك :

لكل اجتماع من خليلين فُرْقَة ... وكلُّ الذى دون الممات قليل
وإن افتقادى فاطما بعــد أحمد ... دليلٌ على أن لا يدوم خليل

(١) فى ا « النصرى » بالصاد المهملة

أولاده عليه السلام

وكلُّ أولاده صلى الله عليه وسلم من خديجة خلا إبراهيم : ولد له صلى الله عليه وسلم: القاسم ، وبه كان يكنى، وكان أكبر بنيه سنًّا ، ورقية وأم كلثوم، وكانتا تحت عُتبة وعتيبة ابنى أبى لهَب [عمه] فطلقاهما لخبر يطول ذكره ، فتزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد واحدة ، وزينب ، وكانت تحت أبى العاص بن الربيع ، وفرق الإسلام بينهما ، ثم أسلم فردها عليه بالنكاح الأول ، وهذا موضع خلاف بين أهل العلم فى كيفية رده عليه الصلاة والسلام لزينب على أبى العاص ، وولدت من أبى العاص أُمامة ، وتزوجها علىّ بعد موت فاطمة عليهما السلام .

وولد له عليه الصلاة والسلام بعد مابعث عبدُ الله وهو الطيب والطاهر ، الثلاثة الأسماء له ؛ لأنه ولد فى الإسلام ، وفاطمة ، وإبراهيم .

وقد أتينا فى كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط على ما كان فى سنةٍ سنةٍ من مولده عليه الصلاة والسلام إلى مبعثه ، ومن مبعثه إلى هجرته ، ومن هجرته إلى وفاته ، ومن وفاته إلى وقتنا هذا — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — وما كان فى ذلك من المغازى [والفتوح] وَالسَّرَايا والبعوث [والطرائق] والأحداث ، وإنما نذكر فى هذا الكتاب لمعاً منبهين بذلك على ما سلف من كتبنا ، ومذكرين لما تقدم من تصنيفنا ، وبالله التوفيق .

ذكر ما بدأ به عليه الصلاة والسلام من الكلام

مما لم يحفظ قبله عن أحد من الأنام

تقدمة

قال أبو الحسن على بن الحسين [بن[1] على] بن عبد الله المسعودى : بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، ومبشراً للناس أجمعين ، وقرنه الله بالآيات[2] ، والبراهين النيرات ، وأتى بالقرآن المعجز ؛ فتحدَّى به قوماً[3] وهم الغاية فى الفصاحة ، والنهاية فى البلاغة ، وأولو العلم باللغة والمعرفة بأنواع الكلام من الرسائل والخطب والسجع وَالْمُقَفَّى والمنثور والمنظوم والأشعار فى المكارم وفى الحث والزجر والتحضيض والإغراء والوعد والوعيد والمدح والتهجين ، فقَرَعَ به أسماعهم ، وأعجز به أذهانهم[4] وَقَبَّح به أفعالهم ، وذم به آراءهم [وَسَفَّه به أحلامهم] وأزال به دياناتهم ، وأبطل [به] سنتهم ، ثم أخبر عن عجزهم مع تظاهرهم أن لا يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، مع كونه عربيًّا مبيناً .

وقد تنازع الناس فى نظم القرآن وإعجازه ، وليس الغرض من هذا [الكتاب] وصف أقاويل المختلفين ، والإخبار عن كلام المتنازعين ؛ إذ كان كتاب خبر ، لا كتاب بحث ونظر .

آتاه الله الحكمة

ثبت عنه عليه الصلاة والسلام بالعلم الموروث ، ونقل إلينا الباقى عن الماضى من بعد قيام الأدلة على صدقه ، وما أورد من المعجزات والدلائل والعلامات التى أظهر[ها] الله على يديه ليؤدى رسالات ربه إلى خلقه — أنه قال : أوتيت جوامع الكلم ، وقال : اخْتُصِرَ لى الكلام ، مخبراً عما أوتيه من الحكمة [والبيان غير القرآن المعجز ، وهو ما أوتيه عليه الصلاة والسلام من الحكمة] والنطق اليسير ، والكلام القصير المفيد للمعانى الكثيرة والوجوه المتفرقة [مع ما فيه من الحكمة وتمام المصلحة] .

---

(١) لا يوجد هذا الاسم فى ا ، وهو ثابت فى ب ؛ وفى نسب المسعودى

(٢) فى ب « وقربه الله بالآيات »

(٣) فى ا « وأتى بالقرآن المعجز ليهتدى به قومه وهم الغاية — إلخ »

(٤) فى ب « وأعجب به أذهانهم »

وكان كلامه صلى الله عليه وسلم أَحْسَنَ المقال وأَوْجَزَه ؛ لقلة ألفاظه ، وكثرة معانيه .

من موجز كلامه

فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم عند عَرْضِه لنفسه على القبائل بمكة ومعه أبو بكر وعلى ووقوفه على بكر بن وائل ، وتقدم أبى بكر إليهم ، وما جرى بينه وبين دغفل من الكلام فى النسب « البلاء مُوَكَّلٌ بالمنطق » وهذا مما سَبَقَ إليه من الكلام[1] ولم يصف إلى غيره من الأنام .

ثم إخباره عن الحرب وقوله « الحرب خُدْعَة » فعلم بهذا اللفظ اليسير والكلام الوجيز أن آخر مكايد الحرب القتال بالسيف ؛ إذ كان بدؤها خدعة ، كما قال عليه الصلاة والسلام ، وهذا يعرفه كل ذى رأى صحيح وذى رياسة وسياسة .

ثم قال : « العائد فى هبته كالعائد فى قَيْئِه » زاجراً بهذا القول للواهب أن يسترجع شيئاً وهبه ؛ إذ كان القىء لا يرجع فيه مَنْ قاءه .

وللناس فى هذا المعنى كلام كثير وخطب طويل ، وإنما الغرض فيما نذكر إيراد كلامه صلى الله عليه وسلم ، ووصف قوله الذى لم يتقدمه به أحد من الناس .

وقوله « احْثُوا فى وجوه المَدَّاحين التراب » المراد من ذلك إذا كَذَبَ المادح ، ولم يُرِدْ عليه السلام إذا شكر الإنسانُ غيره بما أولاه أو وصفه بما هو فيه أو قال ماله أن يقول أن يُحْثَى فى وجهه التراب ، ولو كان هذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم إذاً ما مَدح أحد أحداً ؛ إذ كان هذا النهى عموماً للصادق والكاذب ، وأن يحثى فى وجه الجميع التراب ، وهذا خلاف ما جاء به التنزيل حيث يقول عز وجل مخبراً عن نبيه يوسف وقوله للملك : (اُجْعَلْنِي على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) فقد مدح نفسه ووصف حاله .

وجميع ما يذكر فى هذا الباب مستفيض فى السير والأخبار متعارف عند العلماء ، متداول بين الحكماء ، يتمثل به كثير من الناس ، وتستعمل

(١) فى ا « وهذا مما لم يسبق إليه من الكلام »

العوام كثيراً منه فى ألفاظها ، وتُورده فى أمثالها وخطاباتها ، والأكثر منهم لا يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [أول من تكلم به ، وسَبَق إلى إيراده].

وقال عليه الصلاة والسلام : مَطْل الغنى ظلم ، ومن أُتبِعَ على ملىء فليتبع ، وقوله : الأرواح جنود مجندة ؛ فما تعارف منها ائتلف ، وماتناكر منها اختلف ، رأس الحكمة معرفة الله. ياخَيْلَ الله اركبى وأبشرى بالجنة . الآن حَمِيَ الوطيس . لاينتطح فيها عَنْزَان . لا يُلْدَغ المؤمن من جحر مرتين . لايجنى على المرء إلا يده . ليس الخبر كالمعاينة . الشديد من غلب نفسه . بورك لأمتى فى بُكُورها. ساقى القوم آخرهم شرباً . المجالس بالأمانات . لو بَغَى جبل على جبل لدُكَّ الباغى منهما [ابدأ بمن تعول] مات حَتْفَ أنفه ، يريد بذلك الفَجْأة وأنه مات من غير علة [ولا حال أوجبت ولا سببٍ من أسباب الموت تقدمت][1] ، لا تزال أُمتى بخير مالم تر الأمانة مَغْنَما والزكاة مغرماً . قيدوا العلم بالكتابة . خير المال عين ساهرة لعين نائمة . المسلم مرآة المسلم . رحم الله من قال خيراً فغنم أو سكت [عن شر] فسلم . المرء كثير بأخيه. اليد العليا خير من اليد السفلى. ترك الشر صدقة . فضل العلم خير من فضل العبادة . الغِنَى غنى النفس . الأعمال بالنيات . أى داء أدوأ من البخل؟ الحياء خير كله. الخيل معقود بنواصيها الخير . السعيد من وُعِظَ بغيره. عِدَةُ المؤمن كأَخْذٍ باليد. إن من الشعر لحكمة ومن البيان لسحراً . عفو الملوك بقاء للملك . ارْحَمْ من فى الأرض يرحمك من السماء . المكر والخديعة فى النار . المرء مع من أَحَبَّ ، وله ما اكتسب. ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا. المستشار مؤتمن . من قُتِلَ دون ماله فهو شهيد . لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث. الدال على الخير كفاعله. الندم توبة. الولد للفراش وللعاهر الحجر . كل معروف صدقة . لا يشكر الله من لا يشكر الناس . لا يُؤْوِى الضالة

(١) زيادة عن ن وحدها

إلا ضال ، حُبُّك الشىء يُعْمِى ويصم ، السَّفَر قطعة من العذاب ، وقوله للأنصار : إنكم لتقلونَ عند الطمع وتكثرون عند الفزع ، وقوله : المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً أَحَلَّ حراماً أو حَرَّم حلالا . الرجل أحق بصدر مجلسه وصدر دابته . الناس معادن كمعادن الذهب [والفضة] . الظلم ظلمات يوم القيامة . تمام التحية المصافحة . جُبِلَتِ النفوس[1] على حب من أحسن إليها . أمنك من أعتبك . ما نقص مال من صدقة . التائب من الذنب كمن لا ذَنْبَ له . الشاهد يرى مالا يرى الغائب . خذ حقك فى عَفَاف واف أو غير واف . أعطوا الأجير أجرته قبل أن يجفَّ عرقه . أهل المعروف فى الدنيا أهل المعروف يوم القيامة . الجنة تحت ظلال السيوف . ليس بمؤمن من خاف جارُهُ بَوَائِقَه . اتقوا النار ولو بشق تمرة . أَعْرُوا النساء يلزمن الحجاب . الكلمة الطيبة صَدَقة . لا خير لك فى صحبة مَنْ لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه . الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر . ما أَمْلَقَ تاجر صَدَقَ . الدعاء سلاح المؤمن . خير الأمور أوسطها . إذا أتاكم الزائر فأكرموه . اشفعوا تحمدوا أو تؤجروا . الإيمان الصبر والسماحة . أفضلكم أفضلكم معرفة . ما هلك امرؤ عن مَشُورَة . ما عَالَ امرؤ اقتصد . ما هلك امرؤ عرف قدره. شر العمى عمى القلب . الكذب مجانب للإيمان . ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى[2] . [من أثنى فقد كفى] قلة الحياء كفر . المؤمنون هَيْنُون لَيْنُون . شر الندامة يوم القيامة . شر المعذرة عند الموت . أقيلوا عَثَرَات الكرام . اطلبوا الخير عند صِبَاح الوجوه . الدنيا حُلْوة خَضِرة ، وإن الله مستعملكم فيها ينظر كيف تعملون . انتظار الفرج عبادة . كادت الفاقة أن تكون كفراً. لم يَبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة . فى كل عام ترذلون . زُرْ غبًّا تزدد حبًّا . الصحة والفراغ نعمتان مَغْبُون فيهما كثير من الناس ، أو قال : جميع الناس،

(١) فى ا « جبلت القلوب » وهى أحسن

(٢) فى ا « خير مما كثر وآذى »

وقوله : لا يلقى الله أحد إلا نادماً . من عمل خيراً قال يا ليتنى ازددت ، ومن عمل غير ذلك قال يا ليتنى قصرت ، وهذا مثل قوله : إياكم والتسويفَ وطولَ الأمَلِ ؛ فإنه كان سبباً لهلاك الأمم . وقوله : ليس منا من غَشَّنا ، وهذا القول يحتمل معانى كثيرة : منها أن يكون إخباراً أن من غش المسلمين على حسب الحال فى الوقت أن بعض أهل الكتاب أو المنافقين أخبر عنه بما كان من فعله ، ويحتمل أن يكون على طريق الزجر والنهى عن الغش ، وقد قيل غير ذلك ، والله أعلم ، مثل ما رَوَى عنه أبو مسعود البدرى [أنه] قال : لا يبقى على وجه الأرض بعد مائة أحدٌ إلا مات ، فاستفاضت هذه الرواية عن أبى مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فجزع الأكثر ، فأفضى ذلك إلى على رضى الله عنه ، فقال : صدق أبو مسعود فيما قال ، وذهب عنه المراد بذلك ، وإنما مراد النبى صلى الله عليه وسلم أن لا يبقى على وجه الأرض أحد بعد رأس مائة ممن رأى النبى صلى الله عليه وسلم إلا مات [وقوله : استعينوا على أُمورِكم بالكتمان ، وعلى قضاء حوائجكم بالإسرار](١) .

ذكر بعض من جمع موجز أقوال الرسول عليه السلام

قال المسعودى : وقد جمع كثير ممن تقدم وممن شاهدناه كثيراً من ألفاظ النبى صلى الله عليه وسلم] فأوردوها فى كتبهم ، وذكروها فى تصنيفهم ، وقد أفرد أبو بكر محمدُ بن الحسن بن دريد لذلك كتاباً ترجمهُ بكتاب « المجتبى » يذكر فيه جملا من ألفاظه صلى الله عليه وسلم](٢) ، وكذلك ذكر أبو إسحاق الزجاجى النحوى صاحب أبى العباس المبرد ، وأبو عبد الله نِفطَويه ، وجعفر ابن محمد بن حمدان الموصلى ، وغير هؤلاء ممن تقدَّمهم وتأخر عنهم ، أوردنا من ذلك فى هذا الكتاب ما سهل إيراده وتأتى لنا ذكره ، على حسب الحاجة إليه واستحقاق الموضع له ، وإن كنا قد أتينا على جميع ما يحتاج إليه فى هذه المعانى فيما سلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا فأغنى ذلك عن إعادتها ، والله تعالى ولى التوفيق .

---

(١) لا توجد هذه الجملة فى ا   (٢) سقط هذا الكلام من ب

باب ذكر خلافة أبى بكر الصديق

رضى الله تعالى عنه

جماع تاريخه

قال المسعودى : ثم بايَعَ الناسُ أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، فى سقيفة بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصارى ، فى يوم الاثنين الذى توفِّىَ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفى أبو بكر ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاثَ عشرةَ من الهجرة ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، مستوفياً لعمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا اتفاق فى سائر الروايات على ما ذكرنا ، وكان مولد أبى بكر بعد الفيل بثلاث سنين ، وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام ، ودفن إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم [رأسُهُ على كتف رسول الله صلى الله عليه وسلم][1] ، كذلك قالت عائشة ، وقد قيل : إن أبا بكر كانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرين يوماً ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من أيامهم ومقادير ولايتهم ، وكذلك نفرد فيما يرد[2] فى هذا الكتاب ـ بعد ذكرنا لأيام بنى أمية وبنى العباس ـ باباً نذكر فيه جامع التاريخ الثانى من الهجرة إلى هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ فى خلافة أبى إسحاق المتقى لله ، أو بعد ذلك من الأوقات إلى حيث ينتهى بنا التصنيف ، وما ذكره أصحاب الزيجات فى النجوم ، وما أرَّخُوه فى مقادير السنين والشهور والأيام [والخلاف بينهم وبين] تاريخ أصحاب السير والأخبار [وكتب التاريخ من الأخباريين] وغيرهم ؛ إذ كان التفاوت بين الفريقين بيِّناً ، ومُعَوَّلنا فى ذلك على ما ذكره أصحاب الزيجات .

---

(١) لا يوجد هذا الكلام فى ب . ولعل الصواب « رأسه عند كتف ـ إلخ »

(٢) فى ب « وكذلك نفرد بعد ما نورده فى هذا الكتاب » محرفا عما أثبتناه

ذكر نسبه ، ولمع من أخباره وسيره

نسبه

كان اسم أبى بكر رضى الله عنه عبد الله بن عثمان ـ وهو أبو قُحَافة[1] ـ بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة بن كعب ، وفى مرة يجتمع برسول[2] الله صلى الله عليه وسلم ، ولقبه عَتيق ؛ لبشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم [إياه] أنه عتيق الله من النار ، فسمى يومئذ عتيقاً [وهو الصحيح] وقيل : إنما سمى عتيقا لعتق أمهاته ، وَاسْتُخْلِف وأبوه فى الحياة .

صفاته

وكان أزْهَدَ الناس ، وأكثرهم تواضعاً فى أخلاقه ولباسه ومطعمه [ومشربه] وكان لبسه فى خلافته الشملة والعباءة .

تواضعه وزهده ونسكه

وقَدِمَ إليه زعماء العرب وأشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحُلَل [وَالحِبَرُ] وبرود الوَشْي المثقل بالذهب والتيجان ، فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك ، وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مَذْهَبه ونزعوا ما كان عليهم .

وفود العرب إليه

وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ، ومعه ألف عبد دون من كان [معه] من عشيرته ، وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحُلَل ، فلما شاهد من أبى بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه وَتَزَيَّا بِزِيِّه ، حتى إنه رؤى يوماً فى سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة ، ففزعت عشيرته [لذلك] وقالوا له : [قد] فضحتنا بين المهاجرين والأنصار ، قال : أفأردتم [منى] أن أكون ملكا جباراً فى الجاهلية جباراً فى الإسلام ، لا ها الله ، لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع لله والزهد فى هذه الدنيا ، وتواضعت الملوك ومَنْ ورد عليه من الوفود بعد التكبر ، وتذللوا بعد التجبر .

---

(١) سقط هذا الاسم من ب (٢) فى ا « وفى مرة يجتمع مع نسب رسول الله »

بين أبى بكر وأبى سفيان

وبلغ أبا بكر رضى الله عنه عن أبى سفيان صخر بن حرب أمْرٌ، فأحضره وأقبل يصيح عليه، وأبو سفيان يتملَّقه ويتذلل له، وأقبل أبو قُحَافة فسمع صياح أبى بكر، فقال لقائده : عَلَى مَنْ يصيح ابنى ؟ فقال له : على أبى سفيان ، فدنا من أبى بكر وقال له : أَعَلَى أبى سفيان ترفع صوتك يا عتيق [الله ؟ وقد كان بالأمس سيد قريش فى الجاهلية](١)[لقد تعدَّيْتَ طَوْرَكَ وَجُزْتَ مقدارك](٢) فتبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار، وقال له : يا أبت ، إن الله قد رفع بالإسلام قوماً وأذلَّ به آخرين .

ولم يتقلَّدْ [أحد] الخلافة وأبوه باقٍ غير أبى بكر .

نسب أمه

وأم أبى بكر سلمى ـ وتكنى : أم الخير ـ بنت صخر بن عمرو بن عامر ابن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرة .

وارتدت العرب بعد استخلافه بعشرة أيام .

أولاده

وكان له من الولد : عبد الله ، وعبد الرحمن ، ومحمد ؛ فأما عبد الله فإنه شهد يوم الطائف مع النبى صلى الله عليه وسلم فلحقته جراحة وبقى إلى خلافة [أبيه] أبى بكر ، ومات فى خلافته، وخَلَّف سبعة دنانير ، فاستكثرها أبو بكر ، ولا عقب لعبد الله ؛ وأما عبد الرحمن بن أبى بكر فإنه شهد [يوم بدر] مع المشركين ، ثم أسلم فحسن إسلامه ، ولعبد الرحمن أخبار ، وله عقب كثير بَدْو وحَضَر فى ناحية الحجاز مما يلى الجادة من طريق العراق فى الموضع المعروف بالصفينيات والمسح ، ومحمد بن أبى بكر ، أمه أسماء بنت عُمَيْس الخثعمية ، ومنها عقب جعفر بن أبى طالب ، وخَلَفَ عليها حين استشهد عبد الله(٣) وعونا ومحمدا بنى جعفر ، فقتل عون ومحمد ابنا جعفر بالطَّف مع الحسين بن على ، ولا عقب لهما ، وَعَقِبُ [جعفر عن عبد الله بن جعفر ،

(١) هذه الزيادة فى ا وحدها . (٢) هذه الزيادة فى ب وحدها

(٣) كذا والصواب «وخلف عليها(أبو بكر) حين استشهد جعفر،وقد ولدت لجعفر عبد الله وعونا ومحمدا أبناء جعفر ، وانظر الإصابة فى ترجمة أسماء بنت عميس

وولد لـ][1] عبد الله بن جعفر : على وإسماعيل وإسحاق ومعاوية ، وتزوجها بعده أبو بكر الصديق ، فخلف منها محمدا ، ثم تزوجها على بن أبى طالب فأولدها أولاداً [درجوا] ، ولا عقب له منها ، وأم أسماء العجوز الجريشية كان لها أربع بنات ، وهذه العجوز أكثر الناس أصهارا[2] ، كانت ميمونة الهلالية تحت النبى صلى الله عليه وسلم ، وأم الفضل تحت العباس بن عبد المطلب ، وسلمى تحت حمزة بن عبد المطلب ، وخلف منها بنتاً ، وأسماء تحت من ذكرنا [من جعفر وأبى بكر وعلى ، والعقب من محمد بن أبى بكر قليل][1] ، وأم جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر [الصديق] . وكان محمد بن أبى بكر يدعى عابد قريش لنسكه وزهده ، وربّاه على بن أبى طالب ، وسنذكر خبره فيما يرد من هذا الكتاب ومقتله فى أخبار معاوية بن أبى سفيان[3] .

موت أبى قحافة

ومات أبو قُحافة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ! وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وذلك فى سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وهى السنة التى استخلف فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد قيل : إنه مات فى سنة أربع عشرة .

يوم السقيفة

ولما بويع أبو بكر فى يوم السّقيفة وجُدِّدت البيعة له يوم الثلاثاء على العامة خرج على فقال : أفسدت[4] علينا أمورنا ، ولم تستشر ، ولم ترع لنا حقا ، فقال أبو بكر : بلى ، ولكنى خشيت الفتنة ، وكان للمهاجرين والأنصار يوم السّقيفة خطب طويل ، ومجاذبة فى الإمامة[5] ، وخرج سعد بن عبادة ولم يبايع ،

(١) زيادة عن ا وحدها .
(٢) فى ا « وهذه العجوز أكرم الناس أصهارا » وهى أنسب بما بعده .
(٣) فى ب « فى أيام معاوية بن أبى سفيان » .
(٤) فى ا « افتت علينا أمرنا » ووقع محرفا فيها « افتنت علينا أمرنا » .
(٥) فى ب « محادثة فى الإمامة » وما هنا أحسن .

فصار إلى الشام ، فقتل هناك فى سنة خمس عشرة ، وليس كتابنا هذا موضعاً لخبر مقتله ، ولم يبايعه أحد من بنى هاشم حتى ماتت فاطمة رضى الله عنها .

غدى بن حاتم الطائى

ولما ارتدت العرب إلا أهل المسجدين[1] ، وَمَنْ بينهما وأُناساً من العرب؛ قدم عدىُّ بن حاتم بإبل الصدقة[2] إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه ؛ ففى ذلك يقول الحارث بن مالك الطائى :

وَفَيْنَا وفاء لم يَرَ النَّاسُ مثله وَسَرْبَلَنَا مجداً عدىُّ بن حاتم

علته

وكان أبو بكر رضى الله عنه قد سَمَّته اليهود فى شيء من الطعام ، وأكل معه الحارث بن كَلَدَة فعمى ، وكان السم لسنة ، ومرض أبو بكر قبل وفاته بخمسة عشر يوماً .

كلام له

ولما احْتُضِرَ قال : ما آسَى[3] [على شيء] إلا على ثلاث فعلتها وددت أنى تركتها ، وثلاث تركتها وددت أنى فعلتها ، وثلاث وددت أنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ؛ فأما الثلاث التى فعلتها ، ووددت أنى تركتها فوددت أنى لم أكن فتشت بيت فاطمة ، وذكر فى ذلك كلاماً كثيراً ، ووددت أنى لم أكن حرقت الفُجَاءة وأطلقته نجيحا أو قتلته صريحاً ، ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة قَذَفْتُ[4] الأمر فى عنق أحد الرجلين فكان أميراً وكنت وزيراً ، والثلاث التى تركتها ووددت أنى فعلتها وددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً ضربت عنقه ؛ فإنه قد خيل لى أنه لا يرى شَرًّا إلا أعانه ، ووددت أنى كنت قد قذفت المشرق بعمر بن الخطاب ، فكنت قد بسطت يمينى وشمالى فى سبيل الله ، ووددت أنى يوم جَهَّزْت جيش الردة ورجعت أَقمت مكانى فإن سلم المسلمون سلموا ، وإن كان غير ذلك كنت صدر اللقاء أو مَدَداً ، وكان أبو بكر قد بلغ مع

(١) فى ب « إلا أهل المستنجدين ومن بينهما » محرفا .

(٢) فى ب « بأهل الصدقة » محرفا .

(٣) فى ب « ما أنا على شيء » محرفا . (٤) فى ب « رميت الأمر »

الجيش إلى مرحلة من المدينة ، وهو الموضع المعروف بذى القصة ، والثلاث التى وددت أنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها [وددت أنى كنت سألته فى مَنْ هذا الأمر ؛ فلا ينازع الأمر أهله ، و][1] وددت أنى سألته عن ميراث العمة وبنت الأخ فإن بنفسى منهما حاجة ، ووددت أنى سألته هل للأنصار فى هذا [الأمر] نصيب فنعطيهم إياه .

بناته

وخلف من البنات : أسماء ذات النِّطَاقين ، وهى أم عبد الله بن الزبير ، وعمرت مائة سنة حتى عميت ، وعائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم .

بيعة على إياه

وقد تنوزع فى بيعة على بن أبى طالب إياه : فمنهم من قال : بايعه بعد موت فاطمة بعشرة أيام ، وذلك بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بنيف وسبعين يوماً ، وقيل: بثلاثة أشهر ، وقيل : ستة ، وقيل غير ذلك .

وصيته لأمراء جيشه

ولما أنفذ أبو بكر الأمراء إلى الشام كان فيما أوصى به يزيد بن أبى سفيان وهو مُشَيع له ، فقال له : إذا قدمت على أهل عملك فعِدْهُم الخير وما بعده ، وإذا وعدت فأنجز ، ولا تكثرنَّ عليهم الكلام ، فإن بعضه ينسى بعضاً ، وأصلح نفسك يصلح الناس لك ، وإذا قَدمَتْ عليك رسل عدوك فأكرم منزلتهم[2] ، فإنه أول خيرك إليهم ، وأقلل حَبْسَهم[3] حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت الذى تلى كلامهم ، ولا تجعل سرك مع علانيتك[4] فيمرج عملك ، وإذا استشرت فاصدق الخبر تصدق لك المشورة ، ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك ، وإذا بلغك عن العدو عورة فاكتمها حتى تعاينها ، واستر فى عسكرك [الأخبار] وأَذْكِ حرَسَك ، وأكثر مفاجأتهم فى ليلك ونهارك ، وأصدق اللقاء إذا لقيت ، ولا تجبن فيجبن من سواك .

---

(١) زيادة ليست فى ب ولا تتم الثلاثة إلا بذكرها .

(٢) فى ا « فأكرم مثواهم » . (٣) فى ب « وأقلل جلوسهم » .

(٤) فى ا « فيمزج أمرك » وفى ب « فيخرج عملك » وكلاهما تحريف .

المتنبئون

وقد أعرضنا عن ذكر كثير من الأخبار في هذا الكتاب طلباً للاختصار والإيجاز : منها خبر العَنْسِي الكذاب[1] المعروف بعبهلة ، وما كان من خبره باليمن وصنعاء ، وتنبئه ومقتله، وما كان من فيروز ، وغيره من الأنباء في أمرهم، وخبر طليحة وتنبئه ، وخبر سجاح بنت الحارث بن سويد ، وقيل : بنت غطفان وتكنى أم صادر[2] ، وهي التي يقول فيها قيس بن عاصم :

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الناس ذُكْرَانَا

وفيها يقول الشاعر :

أضل الله سَعْيَ بني تميم كما ضلت بخطبتها سجاح

وقد كانت مع ادعائها النبوة مكذبة بنبوة مسيلمة الكذاب ، ثم آمنت بنبوته ، وكانت قبل ادعائها النبوة متكهنة تزعم أن سبيلها سبيل سطيح [وابن سلمة] والمأمون الحارثي ، وعمرو بن لُحَيّ[3] ، وغيرهم من الكهان، وصارت إلى مسيلمة فنكحها ، وما كان من خبر مسيلمة كذّاب اليمامة ، وحربه لخالد بن الوليد ، وقتل وَحْشِيّ له مع رجل من الأنصار ، وذلك في سنة إحدى عشرة ، وما كان من أمره مع الأنصار في يوم سقيفة بني ساعدة والمهاجرين ، وقول المنذر بن الْحُبَاب : أنا جُذَيلها المحكك وَعُذَيقُهَا المرجَّب ، أما والله إن شئتم لنعيدنّها جَذَعَة ، وقصة سعد بن عبادة ، وما كان من بشر بن سعد[4] ، وتخلي الأوس عن معاضدة سعد خوفاً أن يفوز[5] بها الخزرج ، وأخبار من قعد عن البيعة ومن بايع ، وما قالت بنو هاشم ، وما كان من قصة فَدَكَ ، وما قاله

(١) في ب « لعيسى الكذاب المعروف بأهيعة » محرفا .

(٢) في ب « وتكنى أم صادرة » . (٣) في ب « وعمر بن يحي » .

(٤) في ا « بشير بن سعد » .

(٥) في ب « أن يغور » بغين معجمة وآخره راء مهملة ــ محرفا .

أصحاب النص والاختيار فى الإمامة ، وَمَنْ قال بإمامة المفضول وغيره ، وما كان من فاطمة وكلامها متمثلة حين عدلت إلى قبر أبيها عليه السلام من قول[1] صفية بنت عبد المطلب :

قد كَانَ بعدكَ أنبــاء وهَيْنَمَة　　لو كُنْتَ شاهِدَهَا لم تكثر الخطب[2]

إلى آخر الشعر ، إلى غير ذلك مما تركنا ذكره من الأخبار فى هذا الكتاب ؛ إذ كنا قد أتينا على جميع ذلك فى كتاب « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن ذكره ها هنا ، والله أعلم .

(١) فى ب « من قبر صفية بنت عبد المطلب » .
(٢) فى ب « قد كان عندك أنباء وهينمة » محرفا .

ذكر خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

موجز

وبويع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلما أن دخلت سنة ثلاث وعشرين خرج حاجا ، فأقام الحجَّ فى تلك السنة ، ثم أقبل حتى دخل المدينة ، فقتله فيروز أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة [تمام][1] سنة ثلاث وعشرين ؛ فكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليالٍ ، وقتل فى صلاة الصبح ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ودفن مع النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، عند رجلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل : إن قبورهم مسطرة : أبو بكر إلى جنب النبى صلى الله عليه وسلم ، وعمر إلى جنب أبى بكر ، وحج فى خلافته تسع حجج ، وبعد أن قُتِلَ صلى بالناس عبدُ الرحمن بن عَوْف ، وجعلها شُورَى إلى ستة ، وهم : علىّ ، وعثمان ، وطَلْحَة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وصلى عليه صُهَيْبٌ الرومى ، وكانت الشورى بعد[ه] ثلاثة أيامَ .

(١) زيادة فى ا وحدها .

ذكر نسبه ولمع من أخباره وسيره

نسبه

هو عمر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العزى بن قُرْط[1] بن رِيَاح بن عبد الله ابن رَزَاح[2] بن عدى بن كعب ، وفى كعب يجتمع نسبه مع [نسب] النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمه حَنْتَمَة بنت هشام[3] بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكانت سوداء ، وإنما سمى الفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل ، وكنيته أبو حفص ، وهو أول من سمى بأمير المؤمنين ، سماه عدىُّ بن حاتم ، وقيل غيره ، والله أعلم ، وكان أول من سَلّم عليه بها المغيرة بن شعبة ، وأول من دعا له بهذا الاسم على المنبر أبو موسى الأشعرى [وأبو موسى أول من كتب إليه : لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من أبى موسى الأشعرى] فلما قرىء ذلك على عمر قال : إنى لعبد الله [وإنى لعمر][4] وإنّى لأمير المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين .

صفاته

وكان متواضعاً ، خشن الملبس ، شديداً فى ذات الله ، واتبعه عماله فى سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه ، كلّ يتشبَّه به ممن غاب أو حضر ، وكان يلبس الجبة الصوف المرقّعة بالأديم [وغيره][4] ، ويشتمل بالعباءة ، ويحمل القربة على كتفه مع هيبة قد رُزِقَهَا ، وكان أكثر ركابه الإبل ، وَرَحْله مشدودة بالليف ، وكذلك عُمَّاله ، مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال .

عماله

وكان من عماله سعيد[5] بن عامر [بن خريم] فشكاه أهل حمص إليه وسألوه

---

(١) هكذا ورد فى أصول الكتاب ، والذى فى الإصابة أنه عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب ، وفى أصول هذا الكتاب أن اسم أمه « خيثمة » وهو تصحيف ، والتصويب عن الإصابة (٤ : ٢٧٩) .

(٢) فى ا « رزام » بالميم .

(٣) ويقال : حنتمة بنت هاشم بن المغيرة .

(٤) زيادة فى ا وحدها

(٥) فى ب « سعد بن عامر » ولم يذكر فى ا « بن خريم » .

عَزْله ، فقال عمر : اللهم لاتُفِلْ فراستى فيه(١) اليوم[وقال لهم] : ماذا تشكون منه ؟ قالوا : لايخرج إلينا حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحداً بليل،وله يوم فى الشهر لايخرج إلينا ، فقال عمر : علىَّ به ، فلما [جاء] جمع بينهم وبينه ، فقال : ماتنقمون منه؟ قالوا : لايخرج إلينا حتى يرتفع النهار ، فقال : ماتقول ياسعيد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنه ليس لأهلى خادم ، فأعجن عجينى ، ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزى ، ثم أتوضأ وأخرج إليهم ، قال : وماذا تنقمون منه؟قالوا: لايجيب بليل ، قال : قد كنت أكره أن أذكر هذا ، إنى جعلت الليل كله لربى ، وجعلت النهار لهم ، قال : وماذا تنقمون منه ؟ قالوا : له يوم فى الشهر لايخرج إلينا فيه ، قال : نعم ، ليس لى خادم فأغسل ثوبى ثم أجففه فأمسى ؛ فقال عمر : الحمدلله الذى لم يُفِل فراستى فيك ،يا أهل حمص ، استوصُوا بواليكم خيراً ، قال : ثم بعث إليه عمر بألف دينار ، وقال : استعن بها ، فقالت له امرأته: قد أغنانا الله عن خدمتك ، فقال لها : ألا ندفعها إلى من يأتينا بها أحْوَجَ ما كنا إليه ؟ قالت: بلى، فَصَرَّها صرراً ثم دفعها إلى من يثق به ، وقال:انطلق بهذه [الصرة] إلى فلان ، وبهذه إلى يتيم بنى فلان ، وهذه إلى مسكين بنى فلان ، حتى بقى منها شىء يسير ، فدفعه إلى امرأته ، وقال : أنفقى هذا ، ثم عاد إلى خدمته ، فقالت له امرأته : ألا تبعث إلى بذلك المال فنشترى لنا منه خادماً ؟ فقال : سيأتيك أحْوَجَ ما تكونين إليه .

سلمان الفارسى

ومن عماله على المدائن سلمان الفارسى ، وكان يلبس الصوف ، ويركب الحمار ببرذعته بغير إكاف ، ويأكل خبز الشعير ، وكان ناسكا زاهداً ، فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن وَقَّاص : [أوصنى] ياأباعبدالله [قال:نعم] قال : اذكر الله عند همك إذا هممت ، وعند لسانك إذا حكمت ، وعند يدك إذا قسمت ، فجعل

(١) فى ب « اللهم لا تفل فراستى فيهم » .

سلمان يبكى ، فقال له : يا أبا عبد الله ما يبكيك ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن فى الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المُخِفُّونَ » وأرى هذه الأساودة حولى ، فنظروا فلم يجدوا فى البيت إلا إداوة[١] وركوة ومطهرة .

أبو عبيدة

وكان عامله على الشام أبا عُبَيْدة بن الجراح ، وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافى ، فعذل على ذلك ، وقيل له : إنك بالشام و [والى] أمير المؤمنين[٢] وحولنا الأعداء ، فغير من زيك ، وأصلح من شارتك[٣] ، فقال : ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عمر يحرض على الجهاد

وذكر الواقدى فى كتابه فى فتوح الأمصار أن عمر قام فى المسجد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم دعاهم إلى الجهاد وحثهم عليه[٤] وقال : إنكم قد أصبحتم فى غير دار مقام بالحجاز ، وقد وَعَدكم النبى صلى الله عليه وسلم[٥] فتح بلاد كسرى وقيصر ؛ فسيروا إلى أرض فارس ، فقام أبو عبيد[٦] فقال : يا أمير المؤمنين أنا أول من انتدب من الناس ، فلما انتدب أبو عبيد انتدب الناس ، وقيل لعمر : أمر على الناس رجلا من المهاجرين أو الأنصار ، فقال : لا أؤمر عليهم إلا أول من انتدب فأمَّرَ أبا عبيد ، وفى حديث آخر أنه قيل له : أتؤمر رجلا من ثقيف على المهاجرين والأنصار ؟ فقال : كان أول من انتدب فوليته ، وقد أمرته أن لا يقطع أمراً دون مَسْلَمَة بن أسلم بن حريش[٧] وسليط بن قيس ، وأعلمته أنهما من أهل بدر ، وخرج فلقى جميعاً من العجم عليهم رجل يقال له جالينوس ، فانهزم ، وسار أبو عبيد حتى عبر الفرات ، وعقد له بعض الدهاقين جسراً ، فلما خلف الفرات

(١) فى ب « إلا دواة » (٢) فى ا « وأمير الجيش » (٣) فى ا « وأصلح من آلتك »
(٤) فى ا « وحضهم عليه » . (٥) فى ا « وقد وعدكم الله » .
(٦) فى ا « فقام أبو عبيد بن مسعود » ووقع فى ب « أبو عبيدة » هنا وفى كل ما يأتى ، والصواب ما فى ا .
(٧) فى ب « بن حويس » وهو خطأ ، والتصويب عن سيرة ابن إسحاق ، وفى ا « بن جريش » .

وراءه أمر بقطع الجسر ، فقال له مسلمة بن أسلم : أيها الرجل ، إنه ليس لك علم بما نرى ، وأنت تخالفنا ، وسوف يهلك من معك من المسلمين بسوء سياستك ، تأمر بجسر قد عقد أن يقطع فلا يجد المسلمون ملجأ من هذه الصحارى والبرارى [فلا تريد إلا أن تهلكهم فى هذه القطعة] فقال : أيها الرجل ، تقدم فقاتل فقد حُمَّ ما ترى ، وقال سليط : إن العرب لم تلق مثل جمع فارس قط ، ولا كان لهم بقتالهم عادة ، فاجعل لهم ملجأ ومرجعاً من هزيمة إن كانت ، فقال : والله لافعلت جَبُنْتَ يا سليط ، فقال سليط : والله ما جبنت ، وأنا أجرأ منك نفساً وقبيلا ، ولكن والله أشَرْتُ بالرأى ؛ فلما قطع أبو عبيد الجسر والتحم الناس واشتد القتال نظرت العرب إلى الفيلة عليها التجيافيف فرأوا شيئاً لم يروا مثله قط ، فانهزم الناس جميعاً ، ثم مات فى الفرات أكثر ممن قتل بالسيف ، وخالف أبو عبيد سليطاً ، وقد كان عمر أوصاه أن يستشيره ولا يخالفه ، وكان رأى سليط أن لا يعبر حتى يعبروا إليه[1] ، ولا يقطع الجسر ، فخالفه ، وقال سليط فى بعض قوله : لولا أنى أكره خلاف الطاعة لانحزت بالناس ، ولكنى أسمع وأطيع ، وإن كنت قد أخطأت وأشركنى عمر معك ، فقال له أبو عبيد : تقدم أيها الرجل ، فقال : افعل ، فتقدما فقتلا جميعاً ، وقد كان أبو عبيد فى هذا اليوم ترجَّلَ ، وقد قتل من الفرس نحو ستة آلاف ، فدنا من الفيل ورمحه فى يده فطعنه فى عينه ، فخبط الفيل أبا عبيد[2] بيده ؛ وجال الناس ، وتراجعت رجال فارس[3] ، فأخذ الناس السيف لما قتل أبو عبيد ، وبادر رجل من بكر بن وائل [والمثنى بن حارثة][4] فحمى الناس حتى عقدوا

---

(١) وقع فى ب « ألا يغير حتى يغيروا عليه » .

(٢) فى ب « فقتل الفيل أبا عبيدة بيده » .

(٣) فى ا « وجال المسلمون وتراجعت فلال فارس » .

(٤) لا يوجد هذا الاسم فى ا .

الجسر فعبروا ومعهم المثنى حارثة ، وقد فقد من الناس أربعة آلاف غرقاً وقتلا ، وكان على جيش فارس فى هذا اليوم جاذويه ، ومعه راية فارس التى كانت لأفريدون، حتى ثار الناس من الوهاد[1] ، وهى المعروفة بدرفش كاويان[2] وكانت من جلود النمور طولها اثناعشر ذراعا فى عرض ثمانية أذرع على خشب طوال موصل ، وكانت فارس تتيمن بها وتظهرها فى الأمر الشديد، وقد قدمنا الخبر عن هذه الراية فى أخبار الفرس الأولى فيما سلف من هذا الكتاب .

ولما قتل أبو عبيد الثقفى بالجسر شق ذلك على عمر وعلى المسلمين، فخطب عمر الناس وحثهم على الجهاد ، وأمرهم بالتأهب لأرض العراق، وعسكر عمر [بصرار] وهو يريد الشخوص، وقد استعمل على مقدمته طلحة بن عبيد الله ، وعلى ميمنته الزبير بن العوام ، وعلى ميسرته عبد الرحمن بن عوف، ودعا الناس ، فاستشارهم فأشاروا عليه بالمسير ، ثم قال لعلى: ما ترى يا أبا الحسن ، أسير أم أ‍ ‍ث؟ قال: سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له، فخرج من عنده ، فدعا الناس فى جلة من مشيخة قريش وشاورهم ، فقالوا : أقم وابعث غيرك ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة ، وخرجوا ، فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف ، فاستشاره، فقال عبد الرحمن : فديت بأبى وأمى ، أقم وابعث؛ فإنه إن انهزم جيشك فليس ذلك كهزيمتك ، وإنك إن تُهزَم أو تُقتَل يكفر المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً ، قال : أشر عَلَىّ من أبعث ؟ قال : قلت : سعد بن أبى وقاص، قال عمر : أعلم أن سعداً رجل شجاع ، ولكنى أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب ، قال عبد الرحمن : هو على ما تصف من الشجاعة ، وقد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد بدراً فاعهد إليه وشاورنا فيما أردت أن تحدث إليه ؛ فإنه لن يخالف أمرك ، ثم خرج فدخل عثمان عليه ، فقال له: يا أبا عبد الله

---

(١) فى ا «حتى ثار الناس بالدهاك»

(٢) فى ب « وهى المعروفة بدرفس كاسان » .

أشر على أسير أم أقيم ؟ فقال عثمان: أقم يا أمير المؤمنين وابعث بالجيوش، فإنه لا آمن إن أتى عليك آتٍ أن ترجع العرب عن الإسلام، ولكن ابعث الجيوش ودارِكها بعضها على بعض، وأبعث رجلا له تجربة بالحرب وبَصَر بها، قال عمر: ومن هو ؟ قال: على بن أبى طالب ، قال: فالقه وكلمه وذاكره ذلك، فهل تراه مسرعاً إليه أو لا ، فخرج عثمان فاقى علياً فذاكره ذلك ، فأبى على ذلك وكرهه، فعاد عثمان [إلى عمر] فأخبره ، فقال له عمر: ومن ترى؟ قال : سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل : قال : ليس بصاحب ذلك ، قال عثمان : طلحة بن عبيد الله ، قال له عمر : أين أنت من رجل شجاع ضروب بالسيف رام بالنبل، ولكنى أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب ؟ قال : ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال :سعد ابن أبى وقاص، فقال عثمان: هو صاحب ذاك ؛ ولكنه رجل غائب [وما منعنى من ذكره إلا أنى قلت: رجل غائب] فى عمل ، فقال عمر : أرى أن أوجهه ، وأكتب إليه أن يسير من وجهه ذلك ، فقال عثمان : ومُرْه فليشاور قوماً من أهل التجربة والبصر بالحرب، ولا يقطع الأمور حتى يشاورهم ، ففعل عمر ذلك وكتب إلى سعد بالتوجه نحو العراق .

وقد كان جرير بن عبد الله البجلى قدم على عمر ــ وقد اجتمعت إليه بجيلة ــ فَسَرَّحهم نحو العراق ، وجعل لهم ربع ما ظهروا[1] عليه من السواد، وساهمهم مع المسلمين، وخرج عمر فشيعهم، ولحق جرير بناحية الأُبُلَّة ثم صاعد إلى ناحية المدائن[2]، ونمى قدوم جرير إلى مَرْزُبان المدائن وكان فى عشرة آلاف [من فارس] من الأساورة ، وذلك بعد يوم الجسر ومقتل أبى عبيد وسليط ، فقال بجيلة لجرير : اعْبُرِ الدجلة إلى المدائن ، فقال جرير : ليس ذلك بالرأى ، وقد مضى لكم فى ذلك عبرة بمن قتل من أخوانكم يوم الجسر، ولكن أمهلوا القوم؛ فإن جمعهم كثير حتى يعبروا إليكم، فإن فعلوا فهو الظَّفَر إن شاء الله تعالى، فأقامت

(١) فى ب « وجعل لهم ربعا فاظهروا عليه » . (٢) فى ا « ناحيه المزار »

الفرس أياماً بالمدائن ، ثم أخذوا فى العبور ، فلما عبر منهم النصف أو نحوه حمل عليهم جرير فيمن تَسَرَّعَ معه من بجيلة ، فثبتوا ساعة ، فقتل المَرْزُبان، وأخذهم السيف ، وغرق أكثرهم فى دجلة ، وأخذ المسلمون ما كان فى عسكرهم ، وسار جرير فاجتمع مع المُثَنَّى بن حارثة الشيبانى بالبجلة[1] ، فأقبل إليهما مهران فى جيوشه ، فامتنع المسلمون من العبور إليهم ،فعبر مهران [و بغى على المسلمين؛ فالتقوا وصبر الفريقان جميعاً حتى قتل مهران] قتله جرير بن عبد الله البجلى وحسان بن المنذر بن ضرار الضبى، ضربه البجلى ، وطعنه الضبى، وفاز جرير بمنطقته وسَلَبه وتنازع جرير وحسان فى أيهما القاتل لمهران ، وقد كان جرير ضربه بعد أن طعنه حسان ، ولحسان فى ذلك أبيات:

ألم ترنى خالَسْتُ مهران نَفْسَه بأسْمَرَ فيه كالخلال طرير
[نخر صريعاً والتَقَانى بِرِجْلِهِ وبادر فى رأس الهمام جرير][2]
فقال : قتيلى ، والحوادث جمة ، وكاد جرير للسرور يطير]
[فقال أبو عمرو : وقتلى قتلته ومثلى قليل والرجال كثير]
[فأرسِلْ يميناً أنَّ رمحك نالَهُ وأكرم أن تحلف وأنت أمير]

وقد تنازع أهل الأخبار والسير فى جرير والمثنى : فمن الناس من ذهب إلى أن جريراً كان [هو] المولَّى على الجيش ، ومنهم من رأى أن جريراً على قومه والمثنى على قومه .

ولما قتل مهران أعْظَمت الفرس ذلك،وسار شيرازاد فى جمع فارس الأعظم وكنيته بوران ؛ وقد كانت جمهرة الأساورة تقدمت وتقدم أمامهم رستم ، فتنحى المسلمون لما بلغهم مسيره،فلحق جرير بكاظمة فنزلها،وسار المثنى بقومه من بكر بن وائل فنزل بسيراف، وبها آبار كثيرة بين الكوفة[3] وزبالة على ثلاثة

---

(١) فى ا « بالبجيلة » . (٢) لا توجد هذه الأبيات فى او ليست بذاك
(٣) فى ب « وبها آثار كثيرة وهى من الكوفة على ثلاثة » .

أميال من المنزل المعروف بواقصة ، وكان المثنى قد أصيب بجراحات كثيرة فى بدنه يوم الجسر وغيره فمات بسيراف ، رحمه الله تعالى !

سعد بن أبى وقاص

ولما ورد كتاب عمر على سعد بن أبى وقاص نزل زبالة على حسب ما أمره به عمر ، ثم أتى سيراف ، وأتاه الناس من الشام وغيرها ، ثم سار فنزل العذيب وهو على فم البر وطرف السواد مما يلى القادسية ، فالتقى جيش المسلمين وجيش الفرس وعليهم رستم ، والمسلمون يومئذ فى ثمانية وثمانين[1] ألفاً [وقيل: إن من أسْهِمَ له ثلاثون ألفاً][2] والمشركون فى ستين ألفاً ، أمام جيوشهم الفيلة عليها الرجال ، وحرض الناس بعضهم بعضاً ، وبرز أهل النجدات ، فأنْشَبُوا القتال ، وخرج إليهم أقرانهم من صناديد فارس ، فاعتوروا الضرب والطعن ، وخرج غالب بن عبد الله الأسدى فى [من خرج] ذلك اليوم وهو يقول :

قد علمت واردة المسالح ذات البنان وَاللَّبَان الواضح[3]
أنى سِمَامُ البطل المشايح وفارج الأمر المهم الفادح[4]

فخرج إليه هرمز — وكان من ملوك الباب والأبواب ، وكان متوجاً — فأسره غالب [أسراً] ، فأتى به سعداً ، وكر راجعاً إلى المطاردة ، وحمى الوطيس ، وخرج عاصم بن عمرو وهو يقول :

قد علمت بيضاء صفراء اللَّبَبْ مثل اللجين يتغشّاه الذهب
أنى امرؤ لا من يعنيه السبب [مثلى على مثلك يغريه العتب][5]

فبرز إليه عظيم من أساورتهم ، فجالا ، ثم إن الفارسى وَلّى ، واتبعه عاصم حتى لجأ إلى صفوفهم ، وَعَمُّوه ، وغاص عاصم بينهم حتى أيس الناس منه ، ثم خرج فى مجنبات القلب ، وقدامه بغل عليه صناديق موكبية بآلة حسنة ،

(١) فى ا « فى ثمانية وثلاثين ألفا » . (٢) ما بين المعقوفين ساقط من ا
(٣) فى ب « ذات البيان واللسان الواضح » محرفا
(٤) فى ب « أنى سنام البطل » وفيها « وفادح الأمر » وفى ا « وفارح الأمر »
(٥) فى ا « لا من يعينه النسب » وسقط منها ما بين المعقوفين .

فأتى به سعد [بن مالك](١) وعلى البغل رجل عليه مُقَطَّعات ديباج وقلنسوة مُذَهَّبة ،وإذا هو خبار الملك ، وفى الصناديق لطائف الملك من الأخْبِصة والعسل المعقود ، فلما نظر إليه سعد قال : انطلقوا [به] إلى أهل مَوْقِفِه ، وقولوا : إن الأمير قد نَفَّلَكم(٢) هذا فكلوه [فعلوا] .

أيام القادسية

وكانت وقعة القادسية فى المحرم سنة أربع عشرة، ومال [من الفيلة] سبعة عشر فيلا على كل فيل عشرون رجلا ، وعلى الفيلة تجافيف الحديد والقرون مجللة بالديباج والحرير نحو بجيلة ، وحول الفيلة الرجال والخيول ، فبعث [سعد] إلى بنى أسد لما نظر إلى المراكب والفيول قد مالت إلى بجيلة ، فأمرهم بمَعُونتهم ، ومالت عشرون فيلا نحو القلب ، فخرج طلحة بن خويلد الأسدى مع فرسان بنى أسد [فقتل منهم خمسمائة رجل سوى من قتل من غيرهم](٣) فباشروا قتال الفيلة حتى أوقفوها ، واشتد الجلاد على بنى أسد فى هذا اليوم من سائر الناس ،وهذا اليوم يعرف بيوم أغواث .

فلما أصبح الناس فى اليوم الثانى أشرف على الناس خيول المسلمين من الشام ، والأمداد سائرة قد غطت بأسنتها الشمس عليها هاشم بن عتبة بن أبى وَقاص فى خمسة آلاف فارس من بنى ربيعة ومضر وألف من اليمن ،ومعهم القَعْقَاع بن عمرو ، وذلك بعد فتح دمشق بشهر ، وقد كان عمر رضى الله عنه كتب إلى أبى عبيدة بن الجراح بصرف أصحاب خالد بن الوليد إلى العراق ، ولم يذكر فى كتابه خالداً ، فشح أبو عبيدة(٤) بتخلية خالد عن يده ، وبعث برجاله وعليهم هاشم بن عتبة على ما ذكرنا ، وقد كان فى نفس عمر على خالد أشياء من أيام أبى بكر فى قصة مالك بن نُوَيْرَة ، وغير ذلك ، وكان خالد بن الوليد

(١) زيادة فى ب « ومالك اسم والد سعد بن أبى وقاص » .
(٢) فى ا « إن الأمير قد أرسل لكم هذا » .
(٣) هذه الزيادة عن ب وحدها .
(٤) فى ا « فسنح أبو عبيدة »

خال[1] عمر ، فتقدم القعقاع فى أوائل المدد ، فأيقن أهل القادسية بالنصر على فارس ، وزال عنهم ما لحقهم بالأمس من القتل والجراح ، وبرز القعقاع حين وروده أمام الصف ونادى : هل من مبارز ؟ فبرز إليه عظيم منهم ، فقال له القعقاع : من أنت ؟ قال : أنا بهمن بن جاذويه ، وهو المعروف بذى الحاجب ، فنادى القعقاع : يالثارات أبى عبيد وسليط وأصحابهم يوم الجسر !! وقد كان ذو الحاجب مبارزاً لهم على ماذكرنا من قتله إياهم ، فجالا ، فقتله القعقاع ، ويقال : إن القعقاع قتل فى ذلك اليوم ثلاثين رجلا فى ثلاثين حملة ، كل حملة يقتل فيها [رجلا] ، وكان آخر من قتل عظيما من عظمائهم يقال له بزرجمهر ، ففيه يقول القعقاع :

حَبَوْتُهُ جيَّاشةً بالنفس هَدَّارة مثل شعاع الشمس[2]
فى يوم أغواث قَتيلَ الفرس أنخس بالقوم أشد نخس[3] .
حتى يفيض معشرى ونفسى

وبارز فى ذلك اليوم الأعور بن قطبة شهريار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه [فقال أخو الأعور فى ذلك :

لم أر يوماً كان أحلى وأمر من يوم أغواث إذا افترّ الثّغر
من غير ضحك كان أسوا وأبر][4]

واعتل سعد فتخلف فى حصن العذيب ، وجلس فى أعلاه يشرف على

---

(١) فى ب « وكان خالد بن الوليد بن خالد بن عمر » وهو لا أصل له فأصلحناه كما ترى ؛ لأن خالداً هو ابن الوليد بن المغيرة ، وأم عمر هى حنتمة بنت هشام (أو هاشم) بن المغيرة ؛ فخالد ابن عم أم عمر ؛ فهو خال عمر بنوع من التجوز ووقع فى ا « ابن خالة عمر » .

(٢) فى ا «حبوته حياشة» وفى ب «حباشة» وفى نسخة عند ا «هذارة» .

(٣) فى ا « فى يوم أغواث قتيل العرس * أنحس . . . النحس » .

(٤) سقط هذا من ا ، وهو فى ب موافقا لما فى تاريخ الطبرى .

الناس ،وقد تواقف الفريقان جميعاً ، وأمسى الناس ينتمون ، فلما سمع ذلك سعد قال لمن كان عنده فى أعلى القصر : إن تم [١] الناسُ على الانتماء فلا توقظونى فإنهم أقوياء على عدوهم ، وإن سكتوا فأيقظونى فإن ذلك شر ، واشتد القتال فى الليل .

أبو محجن الثقفى

وكان أبو محجن الثقفى محبوساً فى أسفل القصر ، فسمع انتماء الناس إلى آبائهم وعشائرهم ، ووَقْعَ الحديد وشدة البأس ، فتأسف على مايفوته من تلك المواقف ، لحبا حتى [٢] صعد إلى سعد يستشفعه ويستقيله ، ويسأله أن يخلى عنه ليخرج ، فزجره سعد وردَّه ، فانحدر راجعاً ، فنظر إلى سلمى بنت حفصة زوجة المثنى بن حارثة الشيبانى ، وقد كان سعد تزوجها بعده ، فقال : يابنت حفصة، هل لك فى خير ؟ فقالت : وما ذاك ؟ قال : تخلين عنى وتعيرينى البلقاء ولله علىَّ إن سلمنى الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلى فى القيد ، فقالت : وما أنا وذلك ؟ فرجع يرسف فى قيده وهو يقول :

كفى حزَناً أن تردى الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً على وثاقيا [٣]
إذا قمت عنانى الحديد فأغلقت ... مصاريع من دونى تُصِمُّ المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وثروة ... فقد تركونى واحداً لا أخاليا
فلله عهد لاأخيسُ بعهده ... لئن فرجت أن لاأزور الحَوَانيا

فقالت سلمى : إنى استخرت الله ورضيت بعهدك ، فأطلقته ، وقالت : شأنَكَ وما أردت ، فاقتاد بلقاء سعد ، وأخرجها من باب القصر الذى يلى الخندق ، فركبها ثم دبَّ عليها ، حتى إذا كان بحيال ميمنة المسلمين كبر ، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين ، فأوقف ميسرتهم وقتل رجالا كثيراً من فُتَّاكهم ، ونكس آخرين ، والفريقان يرمقونه بأبصارهم ، وقد تنوزع فى البلقاء

(١) فى ا « إن تمادى الناس » . (٢) فى ا « فجثا حتى صعد » .
(٣) فى ا « كفى حزنا أنى أرى الخيل » وفى الطبرى « أن تردى الخيل » وفى ديوان أبى محجن « أن تطعن الخيل بالقنا » .

فنهم من قال : إنه ركبها عُرْياً ، ومنهم من قال : بل ركبها بسَرْجٍ ، ثم غاص فى المسلمين ، فخرج فى ميسرتهم ، وحمل على ميمنة القوم فأوقفهم ، وجعل يلعب برمحه وسلاحه لا يبدو له[١] فارس إلا هتكه ، فأوقفهم ، وهابته الرجال ، ثم رجع فغاص فى قلب المسلمين ، ثم برز أمامهم ووقف بإزاء قلب المشركين ، ففعل مثل أفعاله فى الميمنة والميسرة ، وأوقف القلب حتى لم يبرز منهم فارس إلا اختطفه ، وحمل عن المسلمين الحرب ، فتعجب الناس منه ، وقالوا : من هذا الفارس الذى لم نَرَهُ فى يومنا[٢] ؟ فقال بعضهم : هو ممن قدم علينا من إخواننا من الشام من أصحاب هاشم بن عتبة المِرْقَال ، وقال بعضهم : إن [كان] الخضر عليه السلام يشهد الحرب فهذا هو الخضر قد مَنَّ الله به علينا وهو علم نصرنا على عدونا ، وقال قائل منهم : لولا أن الملائكة لا تباشر الحروب لقلنا إنه ملك ، وأبو محجن كالليث الضِّرْغام قد هتك الفرسان كالعقاب يجول عليهم ، ومن حضر من فرسان المسلمين مثل عمرو بن معديكرب وطلحة بن خُوَيلد والقعقاع [بن عمرو] وهاشم بن عُتْبة المرقال وسائر فُتَّاك العرب وأبطالها ينظرون إليه ، وقد حاروا فى أمره ، وجعل سعد يفكر ويقول وهو مُشْرِف على الناس من فوق القصر : والله لولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البَلْقَاء ، فلما انتصف الليل تحاجز الناس ، وتراجعت الفرس على أعقابها وتراجع المسلمون إلى مواضعهم على بقيتهم ومصافهم ، وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر من حيث خرج ولا يعلم به ، وَرَدَّ البلقاء إلى مربطها [وعاد فى محبسه] ووضع رجله فى القيد ، ورفع عقيرته وهو يقول :

لقد علمت ثقيفٌ غير فخر ... بأنا نحن أكرمهم سيوفاً

وأكرمهم دُرُوعاً سابغاتٍ ... وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا[٣]

---

(١) فى ا « لا يبرز له فارس » .

(٢) فى ا « لم نره فى قومنا هذا » محرفا .

(٣) فى ا « وأكثرهم دروعا سابغات » وكذلك فى تاريخ الطبرى . وهذه الأبيات فى الديوان (٧٠ ليدن) ببعض اختلاف .

وليلة قادس لم يشعروا بى ولم أشعر بمخرجى الزحوفا[1]
وأنّا رِفــدهم فى كل يوم فإن عتبوا فسل بهمُ عريفا
فإن أحبس فذلكُمُ بلائى وإن أترك أذيقهم الحتوفا

فقالت له سلمى : يا أبا محجن ، فى أى شىء حَبَسَكَ هذا الرجل؟ تعنى سعداً ، قال : والله ما حبسنى بحرام أكلته ولا شربته ، ولكنى كنت صاحب شراب فى الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر يدبُّ الشعر على لسانى فأصف القهوة وتداخلنى أريحية فألتذ بمدحى إياها ، فلذلك حبسنى لأنى قلت فيها :

إذا مت فادفنى إلى جنب كَرْمَة تروِّى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى بالفــلاة فإننى أخاف إذا ماُمتُّ أن لا أذوقها

وهى أبيات .

وقد كان بين سلمى وسعد كلام كثير أوجب غضبه عليها ، لذكرها المُثَنَّى عند محتلف القنا ، فأقامت مغاضبة له عشية أغواث وليلة الهرير وليلة السواد ، حتى إذا أصبحت أتته فترضَّته وصالحته ، ثم أخبرته خبرها مع أبى محجن ، فدعا به ، فأطلقه وقال : اذهب فما أنا مؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعله ، قال : لا جَرَمَ والله لا أجبت لسانى إلى صفة قبيح أبداً .

يوم عماس

وأصبح الناس فى اليوم الثالث وهم على مصافهم ، وهو يوم عماس ، وأصبحت الأعاجم على مواقفها ، وأصبح بين الفريقين كالرِّجْلة الحمراء — يعنى الحرة —[2] فى عرض ما بين الصفين ، وقد قتل من المسلمين ألفان وخمسمائة ما بين رَثِيث وميت ، وقتل من الأعاجم مالا يحصى ، فقال سعد : أيها الناس ، من شاء غسل الشهيد الميت والرثيث ، ومن شاء فليدفنهم بدمائهم ، وأقبل المسلمون على قتْلاهم فأحرزوهم

(١) فى ب « وليلة فارس » وفى ا « و فارس ليلة لم بشعروا بى » وقد أثبتنا ما فى تاريخ الطبرى ، وهذا البيت ليس فى الديوان.

(٢) وقع فى ب « كالدجلة الغوراء والفرات » وفى ب « كالدجلة الغوراء » وأصل العبارة عن الطبرى فأثبتنا مافيه .

وجعلوهم وراء ظهورهم ، وكان النساء والصبيان يدفنون الشهيد ويحملون الرَّثيث إلى النساء ويعالجونهم من كُلُومهم ، وكان بين موضع الوقعة مما يلى القادسية وبين حصن العذيب نخلة ، فإذا حمل الجريح وفيه تمييز وعقل ونظر إلى تلك النخلة — ولم يكن هنالك يومئذ نخلة غيرها ، واليوم بها نخل كثير — قال لحامله : قد قربت من السوداء ، فأريحونى تحت ظل هذه النخلة ، فيراح تحتها ساعة ، فسمع رجل من الجرحى [يقال له بجير من طيئ ، وهو يجود بنفسه و] يقول :

ألا يا اسلمى يانخلة بين فادس وبين العذيب ، لايجاورك النخل (١)

وسمع آخر من بنى تيم الله — وقد أريح تحتها وحُشْوَته خارجة من جوفه — وهو يقول :

أيا نخلة الجرْعآ ، ويانخلة العدا سقتك الغوادى والغيوثُ الهواطلُ (٢)

[وأثخن الأعور بن قطبة (٣) ، فحمل من المعركة ، فسأل حماله أن يريحه تحتها حتى إذا بلغ إليها قال :

أيا نخلة بين العذيب فتاعة سقتك الغوادى الداجنات من النخل] (٤)

وأصبح الناس صبيحة يوم القادسية ، وهى صبيحة ليلة الهرير ، وهى :

---

(١) فى الأصول « بين فارس » والتصويب عن الطبرى (٤ : ١٢٥).

(٢) فى بعض الأصول « أيا نخلة الجرحى » وفى الطبرى :

* أيا نخلة الجرعاء يا جرعة العدى *

(٣) فى ب « بن قطنة » وسقط هذا الكلام من ا .

(٤) فى الطبرى (٤ : ١٢٥) يروى البيت هكذا :

أيا نخلة دون العذيب بتلعة سقيت الغوادى المدجنات من النخل

والذى فى الطبرى أن هذا البيت يقوله عوف بن مالك التيمى ، تيم الرباب وأن بيت الأعور هو قوله :

أيا نخلة الركبان لا زلت فانضرى ولازال فى أكناف جرعائك النخل

تسمى ليلة القادسية من تلك الأيام ، والناس حيارى ولم يغمضوا ليلتهم كلها ، وحرّض رؤساء القبائل عشائرهم ، واشتد الجلاد إلى أن جاء وقت الزوال ، فكان أول من زال حين قام قائم الظهيرة الهرمزان [والنيرمران][1] ، فتأخرا ، وثبتا حيث انتهيا ، وانفرج القلب حين قام قائم الظهيرة ، وهبت ريح عاصف فقطعت طيارة رستم عن سريره ، فهوت فى نهر العتيق والريح دَبُور ، فمال الغبار عليهم وانتهى القعقاع وأصحابه إلى سرير رستم فعثروا به وقد قام رستم عنه حين طارت الريح بالطيارة إلى بغال قد قدمت عليهم بمال يومئذ فهى واقفة فاستظل فى ظل بغل منها وحمله ، وضرب هلال بن علقمة الحمل الذى رستم فى ظله فقطع حباله ، ووقع على رستم أحد العِدْلَيْنِ ولا يراه هلال ولا يشعر به ، فأزال من ظهره فقارة [وضربه هلال ضربة فنفحت مسكا][1] ، ومضى رستم إلى نحو نهر العتيق فرمى بنفسه فيه ، واقتحم هلال عليه فتناوله برجله ، ثم خرج به إلى الخندق وضربه بالسيف حتى قتله ، ثم جاء به يجره حتى رماه بين أرجل البغال وصعد السرير ونادى : قتلت رستم ورب الكعبة ، إلىَّ إلىَّ ، فطاف به الناس لا يحسون السرير ولا يرونه ، وتنادوا ، وتجبنت قلوب المشركين عندها وانهزموا وأخذهم السيف ، فمن غريق وقتيل ، وقد كان ثلاثون [ألفاً] منهم قَرَنُوا أنفسهم بعضهم إلى بعض بالسلاسل والحبال وتحالفوا بالنور وبيوت النيران لا يبرحون حتى يقتحموا أو يقتلوا[2] ، فجثوا على الركب ، وقرع بين أيديهم قناديل النشاب ، فقتل القوم جميعاً .

وقد تنوزع فيمن قتل رستم : فذهب الأكثر إلى أن قاتله هلال بن علقمة من تَيْمِ الرباب على ما قدمنا ، ومنهم من رأى أن قاتله رجل من بنى أسد ، ولذلك يقول شاعرهم فى ذلك اليوم — وهو عمرو بن شاس الأسدى — من أبيات :

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ب .

(٢) فى ا « حتى يقتحوا أو يقتلوا »

جلبنا الخيل من أكنافِ نيقٍ إلى كسرى فوافقها رعالا[1]

[تركن بهم على الأقسام شَجْواً وبالحَقَوَيْنِ أياماً طوالا][2]

قتلنا رستما وبنيه قَسْراً تثير الخيلُ فوقهم الهيالا[3]

تركنا منهمُ حيث التقينا قياماً لا يريدون ارتحالا

وأخذ ضرار بن الخطاب فى ذلك اليوم من فارس الراية العظمى المقدم ذكرها أنها من جلود النمور المعروفة بدرفش كاويان ، وكانت مرصّعة بالياقوت واللؤلؤ وأنواع الجواهر ، فعُوِّض منها بثلاثين ألفاً ، وكانت قيمتها ألفى ألف ومائتى ألف[4]، وقتل فى ذلك اليوم حول هذه الراية — غير ماذكرنا من المقرنين[5] وغيرهم — عشرةُ آلافٍ .

تحديد تاريخ القادسية

وقد تنازع الناس ممن سلف وخلف فى عام القادسية والعذيب ؛ فذهب كثير من الناس إلى أن ذلك [كان فى سنة ست عشرة ، وهذا قول الواقدى عن آخرين من الناس ، ومنهم من ذهب إلى أن ذلك] كان فى سنة خمس عشرة ، ومنهم من رأى أنه كان فى سنة أربع عشرة ، والذى قطع عليه محمد بن إسحاق أنها كانت فى سنة خمس عشرة ، وقال : فى سنة أربع عشرة أمر عمر بن الخطاب بالقيام فى شهر رمضان لصلاة التراويح [والذين ذهبوا إلى أن وقعة القادسية كانت فى سنة أربع عشرة احتجوا بهذه الرواية ، وكتب عمر إلى الأمصار بإقامة صلاة التراويح] ، وذهب كثير من الناس منهم المدائنى وغيره أن عمر أنفذ عتبة بن غَزْوَانَ فى سنة أربع عشرة إلى البصرة فنزلها ومَصَّرَها ، وذهب كثير من الناس أنها مُصِّرت فى ربيع سنة ست عشرة ، وأن عتبة بن غَزْوَانَ إنما خرج إليها من المدائن بعد فراغ سعد بن أبى وقاص من حرب جَلُولاَء وتكريت ،

تمصير البصرة

(١) فى ا « من أكناف ينق » وفى ب فى أكناف هيق » .

(٢) سقط هذا البيت من ا ، ووقع فى ب « تركن لهم على الأصنام سحرا » محرفا

(٣) فى ب « فوقهم الهيالا » . (٤) فى ا « ألف ألف ومائتى ألف » .

(٥) فى ب « المقربين » وأثبتنا مافى ا وهم الذين قرنوا أنفسهم بالسلاسل كما تقدم

وأن عتبة قدم البصرة وهى يومئذ تدعى أرض الهند وفيها حجارة بيض فنزل موضع الخُرَيْبَة[1] ، ومَصَّر سعد بن أبى وقاص الكوفة فى سنة خمس عشرة ، ودلهم على موضعها [ابن] نفيلة الغسانى ، وقال لسعد : أدلك على أرض ارتفعت عن البر وانحدرت عن الفَلاَة ، فدلَّه على موضع الكوفة اليوم .

تمصير الكوفة

أبو لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة

قال المسعودى : وكان عمر لا يترك أحداً من العجم يدخل المدينة ، فكتب إليه المغيرة بن شعبة : إن عندى غلاماً نقاشاً نجاراً حداداً فيه منافع لأهل المدينة ، فإن رأيت أن تأذن لى فى الإرسال به فعلت ، فأذن له ، وقد كان المغيرة جعل عليه كل يوم درهمين ، وكان يدعى أبا لؤلؤة ، وكان مجوسياً من أهل نهاوند ، فلبث ما شاء الله ، ثم أتى عمر يشكو إليه ثقل خراجه ، فقال له عمر : وما تحسن من الأعمال ؟ قال : نقاش نجار حداد ، فقال له عمر : ما خَرَاجُكَ بكثير فى كنه ما تحسن من الأعمال ، فمضى عنه وهو يتذمر[2] ، قال : ثم مر بعمر يوماً آخر وهو قاعد ، فقال له عمر : ألم أُحَدَّثْ عنك أنك تقول : لو شئت أن أصنع رَحاً تطحن بالريح لفعلت ، فقال أبو لؤلؤة : لأَصْنَعَنَّ لك رَحاً يتحدث الناس بها ، ومضى أبو لؤلؤة ، فقال عمر : أما العلج فقد توعَّدَنِي[3] آنفاً ، فلما أزمَعَ بالذى أوعد[4] به أخذ خِنْجراً فاشتمل عليه ثم قعد لعمر فى زاوية من زوايا المسجد فى الغَلَس ، وكان عمر يخرج فى السحر فيوقظ الناس [للصلاة] ، فمر به ، فثار إليه فطعنه ثلاث طعنات إحداهن تحت سرته وهى التى قتلته ، وطعن اثنى عشر رجلا من أهل المسجد فمات منهم ستة وبقى ستة ، ونحر نفسه بخنجره فمات ، فدخل عليه ابنه عبد الله بن عمر وهو يجود بنفسه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، استخلف على أمة محمد ؛ فإنه لو جاءك راعى إبلك أو غنمك وترك إبله أو غنمه لا راعى لها لُمْتَهُ وقلت له : كيف تركت أمانتك ضائعة ؟ فكيف يا أمير المؤمنين بأمة محمد ؟ فاستخلف

---

(١) فى ب « الحربية » محرفا عما أثبتناه موافقا لما فى ا والطبرى (٤/ ١٤)

(٢) فى ب « وهو مدبر » محرفا (٣) فى ا « أما العبد فقد توعدنى »

(٤) فى ا « فلما أزمع على الذى أزمع عليه » .

عليهم ، فقال: إن أستخلف عليهم فقد استخلف عليهم أبو بكر ، وإن أتركهم فقد تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيئس منه عبد الله حين سمع ذلك منه.

وكان إسلام عمر قبل الهجرة بأربع سنين [وكان يخضب بالحناء والكتم][1]

أولاد عمر

وكان له من الولد: عبد الله ، وحفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وعاصم ، وعبيد الله ، وزيد ، من أم ، وعبد الرحمن ، وفاطمة ، وبنات أخر ، وعبد الرحمن الأصغر — وهو المحدود فى الشراب ، وهو المعروف بأبى شحمة — من أم .

عمر وابن عباس

وذكر عبد الله بن عباس أن عمر أرسل إليه فقال: يا ابن عباس ، إن عامل حمص هلك ، وكان من أهل الخير ، وأهل الخير قليل ، وقد رجوت أن تكون منهم ، وفى نفسى منك شىء لم أره منك ، وأعيانى ذلك[2] ، فما رأيك فى العمل؟ قال : لن أعمل حتى تخبرنى بالذى فى نفسك ، قال : وما تريد إلى ذلك؟ قال: أريده ، فإن كان شىء أخاف منه على نفسى خشيتُ منه عليها الذى خشيتَ ، وإن كنتُ بريئا من مثله علمت أنى لست من أهله ، فقبلت عملك هنالك ، فإنى قلما رأيتك طلبت شيئا إلا عاجلته ، فقال: يا ابن عباس ، إنى خشيت أن يأتى علىّ الذى هو آتٍ وأنت فى عملك فتقول: هلم إلينا ، ولا هلم إليكم دون غيركم ، إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم ، قال : والله قد رأيت من ذلك ، فلم تراه فعل ذلك[3] ؟ قال: والله ما أدرى أضَنّ بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم ، أم خشى أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العتاب ، ولا بد من عتاب ، وقد فرغت لك من ذلك ، فما رأيك؟ قال :قلت : أرى أن لا أعمل لك ، قال : ولم ؟ قلت : إن عملت لك وفى نفسك ما فيها لم أبرح قذًى فى عينك ، قال : فأشر علىّ ، قلت : إنى أرى أن تستعمل صحيحا منك صحيحا لك.

---

(١) زيادة فى ب وحدها. (٢) فى ا بدل هذه العبارة « وأخشاه عليك »
(٣) فى ا « قال : قد قلت والله رأيت من ذلك ما رأيت فلم نره فعل غير ذلك » وهى عبارة قلقة .

عمر يستعمل النعمان بن مقرن غازيا لنهاوند

وذكر علقمة بن عبد الله المزنى[١] ، عن معقل بن يسار، أن عمر بن الخطاب شاور الهرمزان فى فارس وإصبهان وأذربيجان ، فقال له : أصبهان الرأس، وفارس وأذربيجان الجناحان، فإن قطعت أحد الجناحين ناء الرأس بالجناح الآخر، وإن قطعت الرأس وقع الجناحان ، فابدأ بالرأس ، فدخل المسجد فإذا هو بالنعمان ابن مُقَرِّن يصلى ، فقعد إلى جنبه ، فلما قضى صلاته قال : ما أرانى إلا مستعملك ، قال: أما جابيا فلا، ولكن غازيا، قال :فإنك غازٍ ،فوجّهه وكتب إلى أهل الكوفة أن يمدّوه، وبعث معه الزبير بن العوام ، وعمرو بن معديكرب ، وحذيفة ، وابن عمرو ، والأشعث بن قيس ، فأرسل النعمان المغيرة بن شعبة إلى ملكهم ، وهو يقال له ذو الجناحين ، فقطع إليهم نهرهم ، فقيل لذى الجناحين : إن رسول العرب ها هنا ، فشاور أصحابه ، فقال : ما ترون ؟ فقالوا : اقعد له فى بهجة الملك [أو اقعد له فى هيئة الحرب ، فقال : بل أقعد له فى بهجة الملك] ، فصعد على سريره ووضع التاج على رأسه وأقعد أبناء الملوك سماطين عليهم الأقراط وأسْوِرَةُ الذهب والديباج ، وأذن للمغيرة ، فأخذ بضبعيه رجلان ومعه سيفه ورمحه قال : فجعل المغيرة يطعن برمحه فى بُسُطِهم يخرقها لينظر وافيغضبهم بذلك[٢] حتى قام بين يديه وجعل يكلمه والترجمان يترجم بينهما . فقال: إنكم معشر العرب أصابكم جهد ، فإن شئتم مِرْنَاكم ورجعتم ،فتكلم المغيرة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: إنا معشر العرب كنا أذلّةً يطؤنا الناس ولا نطؤهم ، ونأكل الكلاب والجيف، ثم إن الله تعالى بعث منا نبيا فى شرف منا أوسطنا حسبا وأصدقنا حديثاً ، وبعث النبى صلى الله عليه وسلم ببعثه ، وأخبرنا بأشياء وجدناها كما قال لنا، وإنه وعدنا فيما وعدنا به أنا سنملك ما ها هنا و نغلب عليه، وإنى أرى ها هنا هيئة وبزة ما مَنْ

---

(١) فى ب « علقمة بن عبد الله المرى » .

(٢) فى ا « فيغيظهم بذلك » .

خَلْفِى بتاركيها [حتى] يصيبوها أو يموتوا ، فقالت لى نفسى : لو جمعت جَرَاميزَكَ ووَثَبْتَ فقعدت مع العلج على سريره حتى يتطير ، قال : فوثبت وثبة فإذا أنا معه على سريره ، فجعلوا يلكزوننى بأرجلهم ويجذبوننى بأيديهم . فقلت لهم : إنا لانفعل برُسُلكم هكذا ، وإن كنت قد فجرت واستخففت فلا تؤاخذونى [1] ، فإن الرسل لايصنع بها هكذا ، فقال الملك : إن شئتم قطعنا إليكم وإن شئتم قطعتم إلينا ، قلت : بل نقطع إليكم ، فقطعنا إليهم ، قال : فتسللوا كل خمسة وستة حتى لايفروا . فدنونا إليهم [2] فضايقناهم ، فرشقونا حتى أشرعوا [3] فينا ، فقال المغيرة للنعمان : إنه قد أشرع فى الناس وقد جرحوا ، فلو حملت ، فقال النعمان : إنك لذو مناقب ، وقد شهدْتَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم القتال ، وكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر ، ثم قال : إنى هاز لوائى ثلاث مرات ، فأما أول هزة فليقض الرجل حاجته وَليتوضأ ، وَأما الثانية فلينظر الرجل إلى شِسْعِه وليلازم سلاحه [4] ، فإذا هززت الثالثة فاحملوا ولا يلوينَّ أحد على أحد ، وإن قتل النعمان ، وإنى داع إلى الله بدعوة ، وأقسمت على كل امرىء منكم لما أمَّنَ عليها ، وقال : اللهم ارزق النعمان اليوم شهادة فى نصر وفتح عليهم . فأمن القوم . فهز [لواءه] ثلاثاً ، ثم أدنى درعه [5] وحمل ثم حمل الناس فكان أول صريع ، قال معقل : فأتيت عليه فذكرت عزيمته ألا أقف عليه ، وأعلمت غلمانه لأعرف مكانه ، وأمْعَنَّا القتل فيهم ، ووقع ذو الجناحين عن بغلة له شهباء فانشق بطنه ، وفتح الله على المسلمين ، فأتيت إلى مكان النعمان فصادفته وبه رَمَق ، فأتيته بإداوة فغسلت وجهه ، فقال : مَنْ هذا ؟ قلت : معقل ابن يَسَار ، قال ما فعل الله بالناس ؟ قلت : فتح الله عليهم ، قال : الحمد لله كثيراً

---

(١) فى ا « وإن كنت عجزت واستحمقت فلا تؤاخذونى » .

(٢) فى ا « فعبرنا إليهم » .

(٣) فى ا « وشقونا » .

(٤) فى ا « ويلزم سلاحه » .

(٥) فى ا « ثم ثنى درعه » .

اكتبوا بذلك إلى عمر ، وفاضت نفسه ، واجتمع الناس إلى الأشعث بن قيس ، وأرسلوا إلى أم ولده : هل عهد إليك النعمان عهداً لها أم عندك كتاب؟ قالت: بل سفط فيه كتاب ، فأخرجوه فإذا فيه : [إذا قتل النعمان ففلان] وإن قتل فلان ففلان ، وإن قتل فلان ففلان ، فامتثلوا ، وفتح الله على المسلمين فتحاً عظيما.

شهداء نهاوند

قال المسعودى رحمه الله : وهذه وقعة نهاوند، وقد كان للأعاجم فيها جمع كثير وقتل هنالك خلق كثير : منهم النعمان بن مقرن، وعمرو بن معد يكرب ، وغيرهما، وقبورهم إلى هذا الوقت بينة معروفة على نحو فرسخ من نهاوند فيما بينها وبين الدِّينَوَر وقد أتينا على وصف هذه الواقعة فيما سلف من كتبنا.

عمر يسأل عمرو بن معديكرب عن قبائل من العرب

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى قال : لما قدم عمرو بن معد يكرب من الكوفة على عمر سأله عن سعد بن أبى وَقَّاص، فقال فيه ما قال من الثناء ، ثم سأله عن السلاح، فأخبره بما علم ، ثم سأله عن قومه ، فقال له : أخبرنى عن قومك مَذْحِج [ودع طيئا] قال : سلنى عن أيهم شئت ، قال : أخبرنى عن علة بن جلد ،قال: هم فرسان أعراضنا(٢) ، وشُفَاة أمراضنا ، وهم أعتقنا ، وأنجبنا ، وأسرعنا طلبا، وأقلنا هربا ، وهم أهل السلاح(٣) والسماح والرماح ، قال عمر : فما أبقيت لسعد العشيرة؟ قال: هم أعظمنا خميسا(٤) ،وأسخانا نفوساً، وخير نا رئيساً، قال : فما أبقيت لمراد ؟ قال: هم أوسعنا داراً، وخيرنا جاراً ، وأبعدنا آثاراً ، وهم الأتقياء البررة ، والساعون المَخَرة ، قال : فأخبرنى عن بنى زَبِيد ، قال : أنا عليهم ضنين ، ولو سألت الناس عنهم لقالوا هم الرأس والناس الأذناب ، قال : فأخبرنى عن طىء، قال : خصوا بالجود ، وهم جمرة العرب ،قال : فما تقول فى عبس ؟ قال: حجم عظيم، وزبن(٥) أثير، قال : أخبرنى عن حِمْيَر،قال : رَعَوُا العفو ، وشربوا الصَّفْوَ ،

---

(١) فى ب « وقبورهم إلى هذا الوقت مبنية » .

(٢) فى ا « فرسان أعراضنا » .

(٣) فى ب « أهل الصباح » .

(٤) فى ا « وهم أعظمنا جسما » .

(٥) فى ا « وذنب أثير » .

قال : فأخبرنى عن كِنْدَةَ ،قال:ساسوا العباد ، وتمكنوا من البلاد[١] . قال: فأخبرنى عن هَمْدَان .قال : أبناء الليل،وأهل النيل ، يمنعون الجار ، ويوفون الذِّمَار[٢] [ويطلبون الثار][٣]قال:فأخبرنى عن الأزد.قال: هم أقدمناميلاداً . وأوسعنابلاداً ، قال:فأخبرنى عن الحارث بن كعب،قال:هم الحسكةالمسكة،ناقى المنايا على أطراف رماحهم. قال:فأخبرنى عن لخم.قال:آخرنامُلْكاً،وأولناملكا، قال:فأخبرنى عن جُذَام.قال:أولئك كالعجوز الغبراء[٤] ، وهم أهل مقال وفعال ، قال : فأخبرنى عن غسان.قال:أرباب فى الجاهلية نجوم فى الإسلام،قال: فأخبرنى عن الأوس والخزرج قال [هم الأنصار و][٥]هم أعزنا داراً،وأمنعنا ذماراً،وقد كفانا الله مدحهم إذ يقول:(والذين تبوَّؤوا الدار والإيمان ـ الآية)قال:فأخبرنى عن خُزَاعة.قال: أولئك مع كنانة لنا نسبهم ، وبهم نصرنا[٥].قال: فأى العرب أبغض إليك أن تلقاه؟قال : أمامن قومى فوادعة من هَمْدَان ، وغطيف من مراد، وبَلْحَرث من مَذْحِج، وأمامن سعد فعدى من فزَارة،ومرة من ذبيان ، وكلاب من عامر،وشيبان من بكر بن وائل. ثم لوجُلْتُ بفرسى على مياه معد ما خفت هيج أحد مالم يَلْقَنِى حُرَّاها وعَبْداها.قال:ومن حُرَّاها ومَنْ عبداها؟قال: أما حراها فعامر بن الطُّفَيل وعُيَيْنة بن الحارث بن شهاب التميمى ، وأما عبداها فعنترة العبسى وسُلَيك المقانب .

ويسأله عن الحرب

ثم سأله عن الحرب فقال: سألت عنها خبيراً ،هى والله يا أمير المؤمنين مرة المذاق ، إذا شَمَّرت عن ساق، من صبر فيها ظفر ، ومن ضعف فيها هلك[٦]، ولقد أحسن واصفها فأجاد :

الحرب أولَ ما تكون فتيةٌ	تبدو بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشَبَّ ضِرَامُهَا	عادت عجوزاً غير ذات حليل

(١) فى ا « تمكنوا فى البلاد »

(٢) فى ا « ويوفون بالذمار »

(٣) زيادة عن ا

(٤) فى ب « كالعجوز العيراء »

(٥) فى ا « ولهم نصرهم »

(٦) فى ا « من صبر فيها عرف ، ومن ضعف فيها تلف » وهى أوفق

شمطاء جُزَّتْ رأسها وتنكرت مكروهـــة للثم والتقبيل[1]

ثم سأله عن السلاح ، فأخبره [بما عرف] حتى بلغ السيف ، قال: هنالك قارعتك أمك عن ثكلها[2] ، فعلاه عمر بالدرة ، وقال : بل أمك قارعتك [عن ثكلها] ، والله إنى لأهم أن أقطع لسانك ، فقال عمرو : الحُمَّى أضرعتنى [لك] اليوم ، وخرج من عنده وهو يقول :

أتوعدنى كأنك ذو رُعَيْن بأنعم عيشة أو ذو نُوَاس؟
فكم قد كان قبلك من مليك عظيم ظاهرِ الجبروت قاس
فأصبح أهله بادوا ، وأمسى ينقَّلُ من أناس فى أناس
فلا يغررك ملككَ، كلُّ ملك يصير مذلة بعد الشِّمَاس

قال : فاعتذر عمر إليه ، وقال : مافعلت مافعلته إلا لتعلم أن الإسلام أفضل وأعز من الجاهلية ، وفضله على الوفد.

عمرو يحدث عمر عن فراره ذات مرة

وقد كان عمر آنس عمراً بعد ذلك ، وأقبل يسأله ويذاكره الحروب وأخبارها فى الجاهلية ، فقال له عمر : ياعمرو ، هل انصرفت عن فارس قط فى الجاهلية هيبة له ؟ قال : نعم ، والله ما كنت أستحلُّ الكذب فى الجاهلية فكيف أستحله فى الإسلام ؟ لأحدثنك حديثا لم أحدث به أحداً قبلك ، خرجت فى جريدة خيل لبنى زبيد أريد الغارة[3] ، فأتينا قوما سراة ، فقال عمر : وكيف عرفت أنهم سراة؟ قال: رأيت مزاود وقدوراً مُكْفَأة وقباب أدم حمراً ونَعَماً كثيراً وشاء ، قال عمرو: فأهويت إلى أعظمها قبة بعدما حوينا السبى ، وكان متبدداً من البيوت ، وإذا امرأة بادية الجمال على فرش لها ، فلما نظرت إلى وإلى الخيل استعبرت ، فقلت : ما يبكيك؟ قالت : والله ما أبكى على نفسى ، ولكنى أبكى حسداً لبنات عمى

---

(١) فى ا « للشم والتقبيل » (٢) فى ا « عن الثكل » .
(٣) فى ا « أريد بنى كنانة » .

يَسْلَمن وأبتلي أنا من بينهن ، فظننت والله أنها صادقة ، فقلت لها: وأين هُنَّ ؟ قالت : في هذا الوادي ، فقلت لأصحابي : لا تُحْدِثوا شيئا حتى آتيكم، ثم همزت فرسي حتى علوت كثيبا ، فإذا أنا بغلام أصهب الشعر أهذب [أقنى أقبَّ] يخصف نعاله وسيفه بين يديه وفرسه عنده، فلما نظر إليَّ رَمى النعل من يده ثم أحْضَرَ [(١)] غير مكترث ، فأخذ سلاحه وأشرف على ثنية ، فلما نظر إلى الخيل محيطة ببيته [ركب ثم] أقبل نحوي وهو يقول :

أقول لما مَنَحَتْني فاها … وألبستني بكرة رداها
إني سأحوي اليوم مَنْ حواها … فليت شعري اليوم مَنْ دهاها

فحملت عليه وأنا أقول :

عمرو على طول الردى دَهَاها … بالخيل يبقيها على وجاها [(٢)]
[حتى إذا حَلَّ بها حَوَاهَا]

ثم حملت عليه بالفرس] فإذا هو أروغ من هر ، فراغ عني ، ثم حمل علي فضربني بسيفه ضربة جرحتني، فلما أفقت [من ضربته] حملت عليه، فراغ والله، ثم حمل علي ، ثم صرعني ، ثم استاق ما في أيدينا ، ثم استويت على فرسي ، فلما رآني أقْبَلَ وهو يقول :

أنا عبيد الله محمود الشيم … وخير مَنْ يمْشِي بساق وقدم
* عَدُوُّه يفديه من كل السَّقَمْ *

فحملت عليه وأنا أقول :

أنا ابن ذي التقليد في الشهر الأصم … أنا ابن ذي الإكليل قَتَّالُ البُهَم
من يلقني يودى كما أودت إرم … أتركه لحماً على ظهـــر وَضَمْ

---

(١) في ا « ثم قام غير مكترث » .
(٢) في ب « تتبعها على هواها » محرفا .

فراغ والله عنى ، ثم حمل على فضربنى ضربة أخرى ، ثم صرخ صرخة ،
ورأيت الموت والله ياأمير المؤمنين ليس دونه شىء ، وخِفتُه خوفا لم أخف [قط]
أحداً مثله ، وقلت له : من أنت ثكلتك أمك ؟؟ فوالله مااجترأ علىّ أحد قط
إلا .. بن الطفيل لإعجابه بنفسه، وعمرو بن كلثوم لسِنِّه وتجربته [فمن أنت؟]
قال : بل مَنْ أنت ؟ خبرنى. وإلا قتلتك ، قلت : أنا عمرو بن معد يكرب ،
قال : وأنا ربيعة بن مُكَدَّم ، قلت : اختر منى إحدى ثلاث خصال : إن شئت
اجتلدنا بسيفينا حتى يموت الأعجزُ منا ، وإن شئت اصطرعنا ، وإن شئت
السِّلْم ، وأنت ياابن أخى حَدَثٌ [وبقومك إليك حاجة ، قال: بل هى إليك،
فاختر لنفسك ، واخترت السلم ، ثم قال : انزل عن فرسك ، قلت : ياابن أخى]
قد جرحتنى جراحتين ولا نزول لى[(1)] ، فوالله ما كفّ عنى حتى نزلت عن
فرسى ، فأخذ بعنانه ، ثم أخذ بيدى فى يده وانصرفنا إلى الحى وأنا أجر رجلى،
حتى طلعت علينا الخيل ، فلما رأونى همزوا[(2)] خيولهم إلى فناديتهم : إليكم ،
وأرادوا ربيعة ، فمضى والله كأنه ليث حتى شقّهم ، ثم أقبل على فقال : ياعمرو ،
لعل أصحابك يريدون غير الذى تريد ، فصمَتَ والله القومُ مافيهم أحد ينطق ،
وأعظموا ما رأوا منه ، فقلت : ياربيعة بن مُكَدَّم لا يريدون إلا خيرا ،
وإنما سميته ليعرفه القوم ، فقال لهم : ما تريدون ؟ فقالوا : وما تريد ؟ قد
جرحت فارسَ العربِ ، وأخذت سيفه وفرسه ، ومضى ومضينا معه ، حتى
نزل ، فقامت إليه صاحبته وهى ضاحكة تمسح وجهه ، ثم أمر بإبل فنحرت،
وضُربت علينا قباب ، فلما أمسينا جاءت الرعاء ومعهم أفراس [الربيعة] لم أر
مثلها قط [فلما رأى نظرى إليها قال : كيف ترى هذه الخيول ؟ قلت : لم أر

(١) فى ب « ولا يزالان بى » وسقط منها ما بين المعقوفين قبلها .
(٢) فى ب « غمزوا خيولهم إلى » .

مثلها قط] قال : أما لو كان عندى بعضها ما لبثت فى الدنيا إلا قليلا ، فضحكتُ وما ينطق أحد من أصحابى ، فأقمنا عنده يومين ثم انصرفنا .

عمرو بن معديكرب يغير على بنى كنانة

قال : وقد كان عمرو بن معديكرب بعد ذلك بزمان أغار على كنانة فى صناديد قومه ، فأخذ غنائمهم ، وأخذ امرأة ربيعة بن مُكَدَّم ، فبلغ ذلك ربيعة — وكان غير بعيد — فركب فى الطلب على فرس عُرْى ومعه رمح بلا سنان حتى لحقه ، فلما نظر إليه قال : ياعمرو ، خَلِّ عن الظعينة [وما معك] فلم يلتفت إليه ، ثم أعاد عليه ، فلم يلتفت إليه ، فقال : ياعمرو ، إما أن تقف [لى وإما أن أقف لك] فوقف عمرو ، وقال : لقد أنصف القارَةَ من راماها ، قف لى ياابن أخى ، فوقف له ربيعة ، فحمل عليه عمرو وهو يقول :

أنا أبو ثَوْرٍ ووقاف الزلق لست بمأفون ولا فىَّ خُرُقْ(١)

وأسد القوم إذا احمر الحَدَقْ إذا الرجال عَضَّهم نابُ الفرق(٢)

* وجدتنى بالسيف هَتَّاكَ الحلق *

حتى إذا ظَنَّ أنه خالطه السنان إذا هو لَبَبٌ لفرسه ، ومَرَّ السنانُ على ظهر الفرس ، ثم وقف له عمرو ، فحمل عليه ربيعة وهو يقول :

أنا الغلام ابن الكنانى لابذخ كم مِنْ هِزَبْرٍ قد رآنى فانشدخ(٣)

فقرع بالرمح رأسه ، ثم قال : خذها إليك ياعمرو ، ولولا أنى أكره قتل مثلك لقتلتك ، فقال عمرو : لاينصرف إلا أحَدُنا ، فقف لى ، فحمل عليه حتى إذا ظن أنه قد خالطه السنان إذا هو حِزَام لفرسه [ومر السنان على ظهر الفرس] ثم حمل عليه ربيعة فقرع بالرمح رأسه أيضاً ، وقال : خذها إليك ياعمرو ثانية ،

---

(١) فى ب «أنا أبو ثوار» وفيها «لست بمأمون ولا فى حرق» .

(٢) وقع هذا البيت فى ا هكذا :

أشد القوم إذا احمر الحدق إذا الرحال غصهم خوف الفرق

(٣) فى ا * أنا الكنانى الغلام لا بذخ *

وإنما العفو مرتان ، وصاحت به امرأته : السنان لله درك ، فأخرج سناناً من سِنْخٍ إزاره كأنه شعلة نار ، فركبه على رمحه ، فلما نظر إليه عمرو ، وذكر طعنته بالاسنان قال له عمرو : [يا ربيعة] خذ الغنيمة ، قال : دَعْهَا وانْجُ ، فقالت بنو زبيد : أنترك غنيمتنا لهذا الغلام ؟ فقال لهم عمرو : يابنى زبيد ، والله لقد رأيت الموت الأحمر فى سنانه ، وسمعت صَرِيره فى تركيبه ، فقالت بنو زبيد: لايتحدث العربُ أن قوما من بنى زبيد فيهم عمرو بن معديكرب تركوا غنيمتهم لمثل هذا الغلام ، قال عمرو : [إنه][1] لاطاقة لكم به ، ومارأيت مثله قط ، فانصرفوا عنه ، وأخذ ربيعة امرأته والغنيمة وعاد إلى قومه .

قال المسعودى رحمه الله تعالى : ولعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أخبار كثيرة فى أسفاره فى الجاهلية إلى الشام والعراق مع كثير من ملوك العرب والعجم ، وسير فى الإسلام ، وأخبار وسياسات حسان ، وما كان فى أيامه من الكوائن والأحداث وفتوح مصر [والشام والعراق وغيرها من الأمصار][1] ، قد أتينا على مبسوطها فى كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وإنما نذكر فى هذا الكتاب لمعاً مما لم نذكره فيما سلف من كتبنا ، وبالله التوفيق .

---

(١) زيادة فى إحداها .

ذكر خلافة عثمان بن عفان

رضى الله تعالى عنه !

موجز

بويع [عثمان] يوم الجمعة غرة المحرم [لليلة بقيت من ذى الحجة] سنة ثلاث وعشرين [وقتل لاثنتى عشرة ليلة مضت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين][1] ، وقيل غير ذلك مما سنورده بعد هذا الموضع [إلا أنه فى ذى الحجة][1] ؛ فجميع ما ولى اثنتا عشرة سنة إلا ثمانية أيام ، وقتل وهو ابن اثنتين وثمانين[2] سنة،ودفن بالمدينة بموضع يعرف بحش كوكب[وكانت خلافته رضى الله تعالى عنه اثنتى عشرة سنة إلا ثمانية أيام][3] .

(١) هذه الزيادة فى ب وحدها ، ووقع فيها « وقيل لاثنى عشرة » محرفا

(٢) فى ب « وقتل وهو ابن اثنتين وستين سنة » وليس بذاك .

(٣) ثبتت هذه العبارة فى ب ، وهى مكررة مع ماذكر قبلها بسطر واحد

ذكر نسبه ، ولمع من أخباره وسيره

نسبه،وأولاده

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ويكنى بأبى عبد الله [وأبى عمرو ، والأغلب منهما أبو عبدالله] ، وأمه أروى بنت كريز[(١)] بن جابر بن حبيب بن عبد شمس ، وكان له من الولد : عبدالله الأكبر ، وعبد الله الأصغر ، أمهما رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأبان ، وخالد، وسعيد، والوليد،والمغيرة ، وعبد الملك ، وأم أبان،وأم سعيد ، وأم عمرو[(٢)] ، وعائشة،وكان عبدالله الأكبر يلقب بالمطرف[(٣)] لجماله وحسنه . وكان كثير التزوج ، كثير الطلاق ، وكان أبان أبرص أحول ،قد حمل عنه أصحاب الحديث عدة من السنن . وولى لبنى مروان مكة وغيرها.[وكان سعيد أحول بخيلا . وقتل فى زمن معاوية]وكان الوليد صاحب شراب وفتوة ومجون . وقتل أبوه وهو مخلق الوجه سكران عليه مصبغات واسعة . وبلغ عبد الله [الأصغر] من السن ستا وسبعين عاما . فنقره ديك فى عينه ، فكان ذلك سبب موته ، وعبد الملك مات صغيراً ولا عقب له .

صفاته

وكان عثمان فى نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل فى القريب والبعيد . فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته ، وتأسوا [به] فى فعله . وبنى داره فى المدينة ، وشيدها بالحجر والكلس ، وجعل أبوابها من الساج والعرعر واقتنى أموالا وجنانا وعيونا بالمدينة .

ثروته

وذكر عبد الله بن عتبة أن عثمان يوم قتل كان [له] عند خازنه من المال خمسون

---

(١) فى ب « أروى بنت بكر » .
(٢) فى ب « عمر » ولم يذكر عمر ولا عمراً فى الذين ذكرهم من أولاده.
(٣) فى ب « بالظرف » .

ومائة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القُرَى وحُنَيْن وغيرهما مائة ألف دينار ، وخلف خَيْلاً كثيراً وإبلا .

ثروة الزبير ابن العوام

وفى أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضِّيَاعَ والدور : منهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة ، وهى المعروفة فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحريين[1] وغيرهم ، وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية ، وماذكرنا من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية .

وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس ، وألف [عبدو] أمة ، وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار .

ثروة طلحة ابن عبيد الله

وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمى : ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت ، المعروفة بالكُنَاسة[2] بدار الطلحيين ، وكان غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك ، وبناحية الشراة[3] أكثر مما ذكرنا ، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجرّ والجصّ والساج .

ثروة عبد الرحمن ابن عوف

وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهرى : ابتنى داره ووسعها ، وكان على مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف [شاة] من الغنم ، وبلغ بعد وفاته رُبُعُ ثمنِ مالِهِ أربعةً وثمانين ألفاً .

ثروة قوم من الصحابة

وابتنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ، فرفع سمكها ، ووسع فضاءها ، وجعل أعلاها شُرُفَاتٍ .

وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤس ، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار .

---

(١) فى ب « وأصحاب الجهات من البحرين — إلخ » .
(٢) فى ب « بالكناس » . (٣) فى ب « وبناحية سراة »

وابتنى المقداد داره بالمدينة فى الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها مجصَّصة الظاهر والباطن

ومات يعلى بن منية[1] ، وخلف خمسمائة ألف دينار ، وديوناً على الناس ، وعقارات ، وغير ذلك من التركة ما قيمته ثلاثمائة ألف دينار[2] .

وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه ، فيمن تملك من الأموال فى أيامه ، ولم يكن مثل ذلك فى عصر عمر بن الخطاب ، بل كانت جادَّةً واضحة وطريقة بينة .

وحج عمر فأنفق فى ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر ديناراً ، وقال لولده عبد الله : لقد أسرفنا فى نفقتنا فى سفرنا هذا .

ولقد شكا الناس أميرهم [بالكوفة] سعد بن أبى وقاص — وذلك فى سنة إحدى وعشرين — فبعث عمر محمد بن مسلمة الأنصارى حليف بنى عبد الأشهل ، فحرق عليه باب قصر الكوفة ، وعرضه فى مساجد الكوفة يسألهم عنه ؛ فحمده بعضهم ، وشكاه بعض ، فعزله وبعث إلى الكوفة عمار بن ياسر على الثغر ، وعثمان بن حُنَيْف على الخراج ، وعبد الله بن مسعود على بيت المال ، وأمره أن يعلم الناس القرآن ويفقههم فى الدين ، وفرض لهم فى كل يوم شاة ؛ فجعل شطرها وسواقطها لعمار ابن ياسر ، والشطر الآخر بين عبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف ، فأين عُمر ممن ذكرنا ؟ وأين هو عما وصفنا ؟

عمال عثمان

وقدم على عثمان عمه الحكم بن أبى العاص وابنه مروان وغيرهما من بنى أُمية — والحكم[3] هو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى غرَّبه عن المدينة ، ونفاه عن جواره — وكان عماله جماعة منهم الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط على الكوفة ،

(١) فى ب « يعلى بن أمية »
(٢) فى ب « مائة ألف دينار »
(٣) فى ب « ومروان هو طريد رسول الله » .

وهو ممن أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه من أهل النار ، وعبد الله بن أبى سَرْح على مصر ، ومعاوية بن أبى سفيان على الشام ، وعبد الله بن عامر على البصرة ، وصَرَفَ عن الكوفة الوليد بن عُقْبة ، وولاها سعيد بن العاص .

الوليد بن عقبة

وكان السبب فى صرف الوليد [بن عقبة] وولاية سعيد — على ماروى — أن الوليد بن عقبة كان يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح ، فلما آذنه المؤذنون بالصلاة خرج متفضِّلا فى غَلاَئله ، فتقدَّمَ إلى المحراب فى صلاة الصبح ، فصلى بهم أربعا ، وقال : أتريدن أن أزيدكم ؟ وقيل : إنه قال فى سجوده وقد أطال : اشرب واسقنى ، فقال له بعض من كان خلفه فى الصف الأول : ما تزيد لا زادك الله من الخير[1] . والله لا أعجب إلا ممن بعثك إلينا واليًا وعلينا أميراً ، وكان هذا القائل عتاب بن غيلان الثقفى .

وخطب الناس الوليد فحصبه الناس بحصباء المسجد ، فدخل قصره يترنح ، ويتمثَّلُ بأبيات لتأبط شَرًّا :

ولست بعيداً عن مدام وقَيْنة — ولا بصفا صلد عن الخير معزل[2]
ولكننى أروى من الخمر هامتى — وأمشى المَلاَ بالساحب المتسلسل

وفى ذلك يقول الحطيئة :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه — أن الوليد أَحَقُّ بالعذر
نادى وقد تَمَّتْ صلاتهم — أأزيدكم ؟ ! ثَمِلاً وما يدرى
ليزيدهم أخرى ، ولو قبلوا — لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك فى الصلاة ، ولو — خَلَّوْا عنانك لم تزل تجرى[3]

---

(١) فى ا ، ب « مزيد الخير » .
(٢) فى ا « ولست بعيدا غير خمر وقينة » .
(٣) فى ا « حبسوا عنانك إذ جريت ولو »

وأشاعوا بالكوفة فعله، وظهر فسقه ومداومته [على] شرب الخمر، فهجم عليه جماعة من المسجد منهم أبو زينب بن عوف الأزدى وجندب[١] بن زهير الأزدى وغيرهما، فوجدوه سكران مضطجعاً على سريره لا يعقل، فأيقظوه من رقدته، فلم يستيقظ، ثم تقايأ عليهم ما شرب من الخمر، فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فَوْرِهِم إلى المدينة، فأتوا عثمان بن عفان، فشهدوا عنده على الوليد أنه شرب الخمر، فقال عثمان: وما يدريكما أنه شرب خمراً؟ فقالا: هى الخمر التى كنا نشربها فى الجاهلية، وأخرجا خاتمه فدفعاه إليه، فزجَرَهما[٢] ودفع فى صدورهما، وقال: تنحَّيَا عنى، فخرجا [من عنده] وأتيا على بن أبى طالب رضى الله عنه وأخبراه بالقصة، فأتى عثمان وهو يقول: دفعت الشهود، وأبطلت الحدود، فقال له عثمان: فما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إلى صاحبك [فتحضره] فإن أقاما الشهادة عليه فى وجهه ولم يَدْرَأ عن نفسه[٣] بحجة أقمت عليه الحد، فلما حضر الوليد دعاهما عثمان: فأقاما الشهادة عليه ولم يُدْلِ بحجة فألقى عثمان السوط إلى على، فقال على لابنه الحسن: قم يابنى فأقم عليه ما أوجب الله عليه، فقال: يكفينيه بعض من تَرَى، فلما نظر إلى امتناع الجماعة عن إقامة الحد عليه تَوَقِّياً لغضب عثمان لقرابته منه أخذ على السوط ودنا منه، فلما أقبل نحوه سبه الوليد، وقال: ياصاحب مكس، فقال عقيل بن أبى طالب وكان ممن حضر: إنك لتتكلم يا ابن أبى مُعَيط كأنك لاتدرى من أنت، وأنت علج من أهل صَفّورِيَّة — وهى قرية بين عكاء واللَّجُون، من أعمال الأردن، من بلاد طبرية، وكان ذكر أن أباه كان يهودياً منها — فأقبل الوليد يَرُوغُ من على، فاجتذبه على فضرب به الأرض، وعلاه بالسوط، فقال عثمان: ليس لك أن تفعل به هذا، قال: بل وشراً من هذا إذا فسق ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه.

---

(١) فى ب «وأبو جندب بن زهير». (٢) فى ب «فرزأهما»

(٣) فى ب «ولم يدل بحجة».

سعيد بن العاص

وولى الكوفة بعده سعيد بن العاص ، فلما دخل سعيد الكوفة والياً أبى أن يصعد المنبر حتى يُغْسَل ، وأمر بغَسْلِهِ ، وقال: إن الوليد كان نجساً رجساً، فلما اتصلت أيام سعيد بالكوفة ظهرت منه أمور منكرة ، فاستبد[1] بالأموال، وقال فى بعض الأيام أو كتب به عثمان : إنما هذا السواد[2] قطين لقريش ، فقال له الأشتر ، وهو مالك بن الحارث النخعى : أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك ؟ ثم خرج إلى عثمان فى سبعين راكبا من أهل الكوفة فذكروا سوء سيرة سعيد [بن العاص]، وسألوا عَزْلَه عنهم ، فمكث الأشتر وأصحابه أياما لا يخرج لهم من عثمان فى سعيد شىء ، وامتدت أيامهم بالمدينة ، وقدم عَلَى عثمان أمراؤه من الأمصار منهم عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح من مصر ومعاوية من الشام وعبد الله بن عامر من البصرة وسعيد بن العاص من الكوفة، فأقاموا بالمدينة أياما لا يردهم إلى أمصارهم ، وكراهة أن يرد سعيداً إلى الكوفة ، وكره أن يعزله ، حتى كتب إليه مَنْ بأمصارهم يشكون كثرة الخراج وتعطيل الثغور، فجمعهم عثمان وقال : ما ترون ؟ فقال معاوية : أما أنا فراض بى جندى ، وقال عبد الله بن عامر بن كريز : ليكفك امرؤ ما قبله أكْفِكَ ما قبلى ، وقال عبد الله بن سعد بن أبى سرح: ليس بكثير عزل عامل للعامة وتولية غيره ، وقال سعيد بن العاص : إنك إن فعلت هذا كان أهل الكوفة هم الذين يولون ويعزلون ، وقد صاروا حلقا فى المسجد ليس لهم غير الأحاديث والخوض ، فجهزهم فى البعوث حتى يكون هَمُّ أحدهم أن يموت[3] على ظهر دابته، قال: فسمع مقالته عمرو بن العاص فخرج إلى المسجد ، فإذا طلحة والزبير جالسان فى ناحية منه ، فقالا له : [تعال] إلينا ، فصار إليهما ، فقالا : ما وراءك؟ قال : الشر ،

---

(١) فى ب « واشتبه بالأموال » .
(٢) فى ب « فطير لقريش » .
(٣) فى ا « أن يحرب على ظهر دابته».

ما ترك شيئا من المنكر إلا أتى به وأمره به ، وجاء الأشتر فقالا له : إن عاملكم الذى قمتم فيه خطباء قد رُدَّ عليكم وأمر بتجهيزكم فى البعوث وبكذا وبكذا ، فقال الأشتر : والله لقد كنا نشكو سوء سيرته وماقمنا فيه خطباء ، فكيف وقد قمنا ؟ ! وايْمُ الله على ذلك لولا أنى أنفدْتُ النفقة وأنضيت الظهر لسبقته إلى الكوفة حتى أمنعه دخولها ، فقالا له : فعندنا حاجتك التى نقوم بك[1] فى سفرك قال : فأسلفانى إذاً مائة ألف درهم ، قال : فأسلفه كل واحد منهما خمسين ألف درهم ، فقسمها بين أصحابه ، وخرج إلى الكوفة فسبق سعيداً ، وصعد المنبر وسَيْفُه فى عنقه ما وضعه بعد ، ثم قال: أما بعد ، فإن عاملكم الذى أنكرتم تعدِّيه وسوء سيرته قد رُدَّ عليكم ، وأمر بتجهيزكم فى البعوث ، فبايعونى على أن لا يدخلها ، فبايعه عشرة آلاف من أهل الكوفة وخرج راكبا متخفيا[2] يريد المدينة أو مكة ، فلقى سعيداً بواقصة فأخبره بالخبر ، فانصرف إلى المدينة ، وكتب الأشتر إلى عثمان : إنا والله ما منعنا عاملك الدخولَ لنفسد عليك عملك ، [ولكن لسوء سيرته فينا وشدة عذابه ، فابعث إلى عملك] مَنْ أحببت . فكتب إليهم : انظروا من كان عاملكم أيام عمر بن الخطاب فولوه ، فنظروا فإذا هو أبو موسى الأشعرى ، فولَّوْهُ .

بدء الطعن على عثمان وسببه

وفى سنة خمس وثلاثين كثر الطعن على عثمان رضى الله عنه ، وظهر عليه النكير لأشياء ذكروها من فعله :

منها ما كان بينه وبين عبد الله بن مسعود ، وانحراف هُذَيْل عن عثمان من أجله .

ومن ذلك ما نال عمار بن ياسر من الفتن[3] والضرب ، وانحراف بنى مخزوم عن عثمان من أجله .

(١) فى ب « حاجتك التى تقوتك » .

(٢) فى ا « وخرج راكبا فى ثقيف » .

(٣) فى ا « ما قال عمار بن ياسر من العنف » .

الوليد بن عقبة ويهودى مشعوذ

ومن ذلك فعل الوليد بن عقبة فى مسجد الكوفة ، وذلك أنه بلغه عن رجل من اليهود من ساكنى قرية من قرى الكوفة مما يلى جسر بابل يقال لها زرارة[1] يعمل أنواعاً من الشعبذة والسحر يعرف ببطرونى[2] فأحضر[ه] فأراه فى المسجد ضربا من التخييل ، وهو أن أظهر له فى الليل قيلا عظيما على فرس [يركض] فى صحن المسجد ، ثم صار اليهودى ناقة يمشى على حبل ، ثم أراه صورة حمار دخل من فيه ثم خرج من دبره ، ثم ضرب عنق رجل ففرق بين جسده ورأسه ، ثم أمرّ السيف عليه فقام الرجل ، وكان جماعة من أهل الكوفة حُضُوراً منهم جندب بن كعب الأزدى ، فجعل يستعيذ بالله من فعل الشيطان، ومن عمل يبعد من الرحمن ، وعلم أن ذلك [هو] ضرب من التخييل والسحر، فاخترط سيفه وضرب به اليهودى ضربة أدار رأسه ناحية من بدنه ، وقال: (جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا) ، وقد قيل : إن ذلك كان نهارا ، وإن جندبا خرج إلى السوق ودنا من بعض الصياقلة وأخذ سيفا ودخل فضرب به عنق اليهودى ، وقال : إن كنت صادقا فأحْيِ نفسك، فأنكر عليه الوليدُ ذلك ، وأراد أن يَقيدَهُ به ، فمنعته الأزد، فحبسه ، وأراد قتله غيلة[3] ، ونظر السجان إلى قيامه ليلَه إلى الصبح، فقال له: انْجُ بنفسك ، فقال له جندب: تُقْتل بى ، قال : ليس ذلك بكثير فى مرضاة الله والدفع عن ولى من أولياء الله فلما أصبح الوليد دعا به وقد استعدّ لقتله فلم يجده ، فسأل السجان ، فأخبره بهربه، فضرب عنق السجان ، وصلبه بالكناسة .

بين عثمان وأبى ذر

ومن ذلك ما فعل بأبى ذر ، وهو أنه حضر مجلسه ذات يوم فقال عثمان: أرأيتم من زكى ماله هل فيه حق لغيره ؟ فقال كعب : لا ياأمير المؤمنين، فدفع

(١) عن ب عبارة « يقال له زرارة » .
(٢) فى ب « يعرف بطروى » .
(٣) فى ا « وأراد قتله بحيلة » .

أبو ذر فى صدر كعب ، وقال له : كذبت يا ابن اليهودى ، ثم تلا (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب — الآية) فقال عثمان : أترون بأساً أن نأخذ مالا من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينوبنا من أمورنا ونعطيكموه؟ فقال كعب : لا بأس بذلك ، فرفع أبو ذر العصا فدفع بها فى صدر كعب وقال: يا ابن اليهودى[1] ما أجرأك على القول فى ديننا ! فقال له عثمان : ما أكثر أذاك لى ! غيِّبْ وجهك عنى فقد آذيتنا ، فخرج أبو ذر إلى الشام ، فكتب معاوية إلى عثمان : إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع ، ولا آمن أن يفسدهم عليك، فإن كان لك فى القوم حاجة فاحمله إليك، فكتب إليه عثمان بحمله، فحمله على بعير عليه قتَبٌ يابس معه خمسة من الصقالبة يطيرون به[2] ، حتى أتوا به المدينة وقد تسلّخَتْ بواطن أفخاذه وكاد أن يتلف ، فقيل له : إنك تموت من ذلك ، فقال : هيهات لن أموت حتى أنفى ، وذكر جوامع ماينزل به بعد ، ومن يتولى دفنه ، فأحسن إليه [عثمان] فى داره أياما ، ثم دخل إليه فجلس على ركبتيه وتكلم بأشياء ، وذكر الخبر فى ولد أبى العاص إذا بلغوا ثلاثين رجلا اتخذوا عباد الله خوَلاً ، ومرَّ فى الخبر بطوله ، وتكلم بكلام كثير ، وكان فى ذلك اليوم قد أتى عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف [الزهرى] من المال ، فنثرت البِدَر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم ، فقال عثمان : إنى لأرجو لعبد الرحمن خيراً ؛ لأنه كان يتصدّقُ ، ويَقْرِى الضيف ، وترك ماترون ، فقال كعب الأحبار : صدقت ياأمير المؤمنين ، فشال أبو ذر العصا ، فضرب بها رأس كعب ، ولم يشغله ما كان فيه من الألم وقال : ياابن اليهودى تقول لرجل مات وترك هذا المال : إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على الله بذلك ، وأنا سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول «مايسرنى أن

---

(١) فى ا هنا « يابن السوداء » .

(٢) فى ا « يطردون به » .

أموت وأدع ما يزن قيراطا » فقال له عثمان : وَارِ عنى وجهك، فقال : أسير إلى مكة ، قال : لا والله ، قال : فتمنعنى من بيت ربى أعبده فيه حتى أموت ؟ قال : إى والله ، قال : فإلى الشام ، قال : لا والله [قال: البصرة ؟ قال : لا والله][(١)]، فاختر غير هذه البلدان ، قال : لا والله ما أختار غير ما ذكرت لك، ولو تركتنى فى دار هجرتى ما أردتُ شيئا من البلدان ، فَسَيِّرْنِى حيث شئت من البلاد، قال: فإنى مسيرك إلى الرَّبَذَةِ ، قال: الله أكبر، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبرنى بكل ما أنا لاقٍ ، قال عثمان : وما قال لك ؟ قال : أخبرنى بأنى أمنع عن مكة والمدينة وأموت بالرَّبَذَةِ ، ويتولى مواراتى نفر ممن يَرِدُونَ من العراق نحو الحجاز ، وبعث أبو ذر إلى جمل له فحمل عليه امرأته ـ وقيل : ابنته ـ وأمر عثمان أن يتجافاه الناس[(٢)] حتى يسير إلى الرَّبَذَةِ ، فلما طلع عن المدينة ومروان يسير عنها طلع عليه على بن أبى طالب رضى الله عنه ومعه ابناهُ [الحسن والحسين] وعقيل أخوه وعبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر ، فاعترض مروان فقال : ياعلى إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر فى مسيره ويشيعوه ، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك ، فحمل عليه على بن أبى طالب بالسوط [وضرب] بين أذنى راحلته[(٣)]، وقال: تَنَحَّ نحاك الله إلى النار ، ومضى مع أبى ذر فشيعه ثم ودَّعه وانصرف ، فلما أراد على الانصراف بكى أبو ذر ، وقال : رحمكم الله أهل البيت ، إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشكا مروان إلى عثمان ما فعل به على بن أبى طالب ، فقال عثمان: يامعشر المسلمين من يعذرنى من على ؟ ردَّ رسولى عما وجَّهته له ، وفعل كذا، والله لنعطينه حقه ، فلما رجع على استقبله الناس ، فقالوا له : إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر ، فقال على : غَضَبَ الخيل على اللُّجُمِ .

---

(١) زيادة فى ب

(٢) فى ا « أن يتحاماه الناس » .

(٣) فى ا « بين أذنى ناقة مروان » .

فلما كان بالعشى جاء إلى عثمان ، فقال له : ما حملك على ماصنعت بمروان ولم اجترأت علىَّ ورددت رسولى وأمرى ؟ ! قال : أما مروان فإنه أستقبلنى يردنى[1] فرددته عن ردى، وأما أمرك فلم أردَّهُ ، قال عثمان : ألم يبلغك أنى قد نهيت الناس عن أبى ذر وعن تشييعه ؟ فقال على : أَوكل ماأمرتنا به من شىء نرى طاعة الله والحق فى خلافه اتبعنا فيه أمرك ؟ بالله لا نفعل ، قال عثمان : أَقِدْ مروان ، قال : وممّ أقيده ؟ قال : ضربت بين أذنى راحلته [وشتمته، فهو شاتمك وضارب بين أذنى راحلتك] قال على : أما راحلتى فهى تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل . وأما أنا فوالله لئن شتمنى لأشتمنَّكَ أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقا . قال عثمان : ولم لا يشتمك إذا شتمته، فوالله ما أنت عندى بأفضل منه ؟ ! فغضب على بن أبى طالب وقال : ألى تقول هذا القول ؟ وبمروان تعدلنى ؟ فأنا والله أفضل منك، وأبى أفضل من أبيك، وأمى أفضل من أمك ،وهذه نَبْلِى قد نَثَلْتُهَا ،وهلم فانثل بنبلك، فغضب عثمان واحمرّ وجهه ، فقام ودخل داره ، وانصرف على ، فاجتمع إليه أهل بيته ، ورجال من المهاجرين والأنصار

فلما كان من الغد واجتمع الناس إلى عثمان شكا إليهم عليا وقال : إنه يعيبنى ويُظاهر من يعيبنى[2]، يريد بذلك أبا ذر وعمار بن ياسر وغيرهما ، فدخل الناس بينهما [حتى اصطلحا] وقال له على : والله ما أردت بتشييع أبى ذر إلا الله تعالى .

عمار بن ياسر

وقد كان عمار حين بويع عثمان بلغه قول أبى سفيان صخر بن حرب فى دار عثمان عقيب الوقت الذى بويع فيه عثمان ودخل داره ومعه بنو أمية فقال أبو سفيان : أفيكم أحد من غيركم ؟ وقد كان عَمِىَ ، قالوا : لا ، قال يابنى أمية ، تَلَقَّفُوهَا

(١) فى ا « استقبلنى يردى » .

(٢) فى ا « إنه يغشنى ويظاهر من يغشنى » وما نظنه صحيح الرواية وإن كان له معنى لا يمتنع

تلقفَ الكرة ، فوالذى يحلف به أبو سفيان مازلت أرجوها لكم ولتصيرَنّ إلى صبيانكم وراثة ، فانتهره عثمان ، وساءه ماقال ، ونمى هذا القول إلى المهاجرين والأنصار [وغير ذلك الكلام] فقام عمار فى المسجد فقال : يامعشر قريش ، أما إذ صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ههنا مرة وههنا مرة فما أنا بآمِنٍ من أن ينزعه الله [منكم] فيضعه فى غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه فى غير أهله وقام المقداد فقال : ما رأيت مثل ماأوذى به أهل هذا البيت بعد نبيهم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : وماأنت وذاك يامقداد [بن عمرو؟] فقال : إنى والله لأحبهم لحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم ، وإن الحق معهم وفيهم ، ياعبد الرحمن أعجب من قريش – وإنما تطوُّلهم على الناس بفضل أهل هذا البيت – قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد[ه] من أيديهم أما وأيم الله ياعبد الرحمن لو أجد على قريش أنصاراً لقاتلتهم كقتالى إياهم مع النبى عليه الصلاة والسلام يوم بدر ، وجرى بينهم من الكلام خطب طويل قد أتينا على ذكره فى كتابنا « أخبار الزمان » فى أخبار الشُّورَى والدار .

الثورة على عثمان

ولما كان سنة خمس وثلاثين سار مالك بن الحارث النخعى من الكوفة فى مائتى رجل ، وحكيم بن جبلة العبدى فى مائة رجل من أهل البصرة ، ومن أهل مصر ستمائة رجل عليهم عبد الرحمن بن عديس البَلَوِىُّ[1] ، وقد ذكر الواقدى وغيره من أصحاب السير أنه ممن بايع تحت الشجرة ، إلى آخرين ممن كان بمصر مثل عمرو بن الحمق الخزاعى وسعد بن حُمْرَان التُّجِيبى[2] ، ومعهم محمد أبى بكر الصديق ، وقد كان تكلم بمصر ، وَحرَّضَ الناس على عثمان لأمر يطول ذكره كان السبب فيه مروان بن الحكم ، فنزلوا فى الموضع المعروف بذى الخشب[3] فلما علم

(١) فى ب « الشاوى » .
(٢) فى ب « عمرو بن الجموع الخزاعى وسودان بن أحمد التجيبى ، ومنهم محمد بن أبى بكر » .
(٣) فى ب « المعروف بخشب »

عثمان بنزولهم بعث إلى على بن أبى طالب فأحضره[1] ، وسأله أن يخرج إليهم ويضمن لهم عنه كل ما يريدون من العدل وحسن السيرة ، فسار علىّ إليهم ، فكان بينهم خطب طويل ، فأجابوه إلى ما أراد وانصرفوا ، فلما صاروا إلى الموضع المعروف بحسمى[2] إذا هم بغلام على بعير وهو مُقْبل من المدينة ، فتأمَّلوه فإذا هو ورش غلام عثمان ، فقرَّرُوه ، فأقرَّ وأظهر كتاباً إلى ابن أبى سَرْح صاحب مصر [وفيه] « إذا قدم عليك الجيشُ فاقطع يد فلان ، واقتل فلاناً ، وافعل بفلان كذا ، وأحْصِ أكثر مَنْ فى الجيش ، وأمر فيهم بما أمر » وعلم القوم أن الكتاب بخط مروان ، فرجعوا إلى المدينة ، واتفق رأيهم ورأى مَنْ قدم من العراق ، ونزلوا المسجد وتكلموا ، وذكروا ما نزل بهم من عُمَّالهم ، ورجعوا إلى عثمان فحاصروه فى داره ، ومنعوه الماء ، فأشرف على الناس وقال : ألا أحد يسقينا ، وقال : بم تستحلُّونَ قتلى وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يحلُّ دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنى بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير نفس » ؟ ووالله ما فعلت ذلك فى جاهلية أو إسلام ، فبلغ علياً طلبه للماء ، فبعث إليه بثلاث قِرَبٍ ماء ، فما وصل إليه ذلك حتى خرج جماعة من موالى بنى هاشم وبنى أمية ، وارتفع الصوت ، وكثر الضجيج ، وأحدقوا بداره بالسلاح وطالبوه بمروان ، فأبى أن يخلِّىَ عنه ، وفى الناس بنو زُهْرة لأجل عبد الله بن مسعود لأنه كان من أحلافها ، وهُذَيل لأنه [كان] منها ، وبنو مخزوم وأحلافها لعمار ، وغِفَار وأحلافها لأجل أبى ذر ، وتَيْم بن مرة مع محمد بن أبى بكر ، وغير هؤلاء ممن لا يحمل كتابنا ذكره ، فلما بلغ علياً أنهم[3] يريدون قتله بعث بابنيه الحسن والحسين مع مواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته ، وأمرهم أن يمنعوه منهم ، وبعث الزبير ابنَه عبد الله ، وبعث طلحة ابنه محمداً ، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم

(١) فى ا « فأخبره » (٢) فى ب « بحمس » .

(٣) فى ا « فلما رأى على أنهم – إلخ »

آباؤهم اقتداء بمن ذكرنا ، فصدّوهم عن الدار ، فرمى من وصفنا بالسهام ، واشتبك[1] القوم ، وجُرح الحسن ، وشُجّ قنبر ، وجرح محمد بن طلحة ، فخشى القوم أن يتعصب بنو هاشم وبنو أمية ، فتركوا القوم فى القتال على الباب ، ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار فتسوّرُوا عليها ، وكان ممن وصل إليه محمد بن أبى بكر ورجلان آخران ، وعند عثمان زوجته ، وأهلُه ومواليه مشاغيل بالقتال ، فأخذ محمد بن أبى بكر بلحيته ، فقال : يا محمد ، والله لو رآك أبوك لساءه[2] مكانك فتراخت يده ، وخرج عنه إلى الدار ، ودخل رجلان فوجداه فقتلاه[3] ، وكان المصحف بين يديه يقرأ فيه ، فصعدت امرأته فصرخت [وقالت : قد] قتل أمير المؤمنين ، فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما من بنى أمية ، فوجدوه قد فاضت نفسه رضى الله عنه ، فبكوا ، فبلغ ذلك علياً وطلحة والزبير [وسعداً] وغيرهم من المهاجرين والأنصار ، فاسترجع القوم ، ودخل علىّ الدار ، وهو كالواله الحزين ، وقال لابنيه : كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب[4] ؟ ولَطَمَ الحسن وضرب [صدر] الحسين ، وشتم محمد بن طلحة ، ولعن عبد الله بن الزبير ، فقال له طلحة : لا تضرب يا أبا الحسن ، ولا تشتم ، ولا تلعن ، لو دَفَعَ [إليهم] مروان ما قتل ، وهرب مروان وغيره من بنى أمية ، وطُلِبُوا ليقتلوا فلم يوجدوا ، وقال على لزوجته نائلة بنت الفرافصة : مَنْ قتله وأنتِ كنت معه ؟ قالت : دخل إليه رجلان وقصت خبر محمد بن أبى بكر ، فلم ينكر ما قالت ، وقال : والله لقد دخلت عليه وأنا أريد قتله[5] ، فلما خاطبنى بما قال خرجتُ ، ولا أعلم بتخلف الرجلين عنى ، والله ما كان لى فى قتله [من] سبب ، ولقد قتل وأنا لا أعلم بقتله .

---

(١) فى ا « واشتد القوم » (٢) فى ا « لساءه ذلك » .
(٣) فى ا « فوجئاه فقتلاه » ووقع فيها « فرجئاه » بالراء — محرفا
(٤) فى ا « وأنتم على الباب »
(٥) فى ا « وإنى أريد قتله »

وكانت مدة ماحوصر عثمان فى داره تسعاً وأربعين يوماً ، وقيل : أكثر من ذلك .

مقتله

وقتل فى ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذى الحجة ، وذكر [1] أن أحد الرجلين كنانة بن بشر التجيبى ، ضربه بعمود على جبهته ، والآخر منهما سعد بن حُمْرَان المرادى [2] ، ضربه بالسيف على حبل عاتقه فحلّه .

وقتلته

وقد قيل : إن عمرو بن الحمق طعنه بسهام تسع طعنات ، وكان فيمن مال عليه [3] عمير بن ضابىء [البرجمى] التميمى ، وخضخض سيفه فى بطنه

مدفنه

ودفن على ما وصفنا فى الموضع المعروف بحش كوكب ، وهذا الموضع فيه مقابر بنى أمية ، ويعرف أيضاً بحلة [4] ، وصلى عليه جُبَير بن مطعم وحكيم بن حزام وأبو جَهْم بن حذيفة .

ولما حوصر عثمان كان أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه يصلّى بالناس ، ثم امتنع ، فصلى بهم سهل بن حُنَيف ، فلما كان يوم النحر صلى بهم على ، وقيل : إن عثمان قتل ومعه فى الدار من بنى أمية ثمانية عشر رجلا منهم مروان بن الحكم .

وفى مقتله تقول زوجته نائلة بنت الفرافصة :

ما قيل فيه من الرثاء

ألا إنَّ خير الناس بعد ثلاثة ... قتيلُ التجيبىِّ الذى جاء من مصر

ومالِيَ لا أبكى وتبكى قرابتى ... وقد غيبوا عنى فضول أبى عمرو

وقال حسان بن ثابت فيمن تخلف عنه وخذله من الأنصار وغيرهم ، وأعان [عليه و] على قتله ، والله أعلم بما قاله ، من أبيات :

خذلَتْهُ الأنصار إذ حضر المو ... تَ وكانت ولاية الأنصار

---

(١) فى ا « وقيل : إن أحد الرجلين هو كنانة بن بشير التجيبى »

(٢) فى ب « سودان بن حمران المرادى » وانظر ص ٣٥٢

(٣) فى ا « وكان فيمن مال إلى قتله »

(٤) فى ب « بحل »

مَنْ عَذِيرى من الزبير ومن طلـــحة إذ جا أمر له مقـدار
فتولى محمد بن أبى بكـر عياناً ، وخلفه عمار[١]

فى شعر له طويل يذكر فيه غير من ذكرنا ، وينسبهم إلى التمالؤ على قتله، والرضا بما فُعل به ، والله أعلم ، وكان حسان عثمانياً منحرفاً عن غيره ، وكان عثمان إليه محسناً ، وهو المتوعد للأنصار فى قوله فى شعره :

[ياليتَ شعرى وليت الطير تخبرنى ما كان شأن على وابن عفانا][٢]
لَتَسْمَعُنّ وشيكا فى ديارهمُ الله أكبر ، ياثارات عثمانا

وكان عثمان رضى الله عنه كثيراً ماينشد أبياتاً فالها ويطيل ذكرها لاتُعْرف لغيره ، منها :

تفنى اللذاذة مِمَّنْ نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار
يلقى عواقب سوء من مغبتها لا خير فى لذة من بعدها النار[٣]

وكان الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيْط أخا عثمان لأمه ، فسمع فى الليلة الثانية من مقتل عثمان يندبه ، وهو يقول :

بنى هاشم ، إنا وما كان بيننا كصَدْع الصفا لايرءبُ الدهرَ شاعِبُهْ
بنى هاشم ، كيف الهَوَادة بيننا وسيف ابن أرْوَى عندكم وحرائبه
بنى هاشم ، ردُّوا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوه ، لا تحلُّ مناهبه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مَرَازِبُهْ

وهى أبيات :

فأجابه عن هذا الشعر ، وفيما رَمَى به بنى هاشم ونسبه إليهم ، الفضلُ بن العباس [بن عتبة] بن أبى لهب فقال :

فلا تسألونا سيفكم ؛ إن سيفكم أضِيعَ ، وألقاه لَدَى الرَّوْع صاحبه

---

(١) هذه الأبيات لاتوجد فى نسخ ديوان حسان بن ثابت .
(٢) سقط هذا البيت من ا (٣) فى ا « تبقى عواقب سوء من مغبتها »

سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا - فهم سلبوه سيفه وحرائبه
وكان ولىّ الأمر بعد محمد على ، وفى كل المواطن صاحبه[1]
علىٌّ ولى الله أظهر دينه وأنت مع الأشْقَيْنَ فيما تحاربه[2]
وأنت امرؤ من أهل صفواء نازح فمالك فينا من حميم تعاتبه[3]
وقد أنزل الرحْمنُ أنك فاسق فمالك فى الإسلام سهم تطالبه

قال المسعودى رحمه الله : ولعثمان أخبار وسير ومآثر حسان ، قد أتينا على ذكرها فى كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وكذلك ما كان فى أيامه من الكوائن والأحداث والفتوح والحروب من الروم وغيرهم [والله ولى التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم][4] .

---

(١) فى ب « وكان ولى العهد بعد محمد »
(٢) فى ا « على إلى أن أظهر الله دينه »
(٣) فى ب « وأنت امرؤ من أهل صيفور مارخ » .
(٤) لا توجد هذه العبارات فى ا .

ذكر خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب

كرم الله وجهه !

موجز

بويع على[1] بن أبى طالب فى اليوم الذى قُتل فيه عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فكانت خلافته إلى أن استشهد أربع سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام وقيل : أربع سنينَ وتسعة أشهر إلا يوماً ، وكانت الفرقة بينه وبين معاوية [ابن أبى سفيان] على ما ذكرنا فى خلافته[2] ، وكان مولده فى الكعبة ، وقيل : إن خلافته كانت خمس سنين وثلاثة أشهر وسبع ليال ، واستشهد وهو ابن ثلاث وستينَ سنة ، وعاش بعد الضربة الجمعةَ والسبتَ ، وتوفى ليلة الأحد ، وقد قيل فى مقدار عمره أقل مما ذكرنا ، وقد تنوزع فى موضع قبره ؛ فنهم من قال : إنه دفن فى مسجد الكوفة ، ومنهم من قال : إنه حمل إلى المدينة فدفن عند [قبر] فاطمة ، ومنهم من قال : [إنه] حمل فى تابوت على جَمَلٍ ، وإن الجمل تاه ووقع إلى وادى طيىء ، وقد قيل من الوجوه غير ما ذكرنا ، وقد أتينا على ذلك فى كتابنا «أخبار الزمان» والكتاب الأوسط.

---

(١) فى ا « وبايع الناس على بن أبى طالب »

(٢) فى ا « فيما ذكرنا من خلافته » .

ذكر نسبه ، ولمع من أخباره وسيره

نسبه

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ويكنى أبا الحسن ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، ولم يكن من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا من خلافة المتقى [ممن ولى الخلافة] مَن اسمه علىٌّ غيره ، و [غير] المكتفى بالله على بن المعتضد ، وكان أولَ من وَلَدَهُ هاشميَّان من الخلفاء ، وقد قيل : إنه بويع البيعة العامة بعد قتل عثمان بأربعة أيام ، وقد ذكرنا البيعة الأولى فيما سلف من هذا الكتاب ، وتنازع الناس في اسم أبى طالب أبيه ، ووَلَدُ أبى طالب بن عبد المطلب أربعة ذكور وابنتان فطالب وعقيل وجعفر وعلى وفاختة وجُمَانة[1] لأب وأم ، أمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وبين كل واحد من البنين عشر سنين : [فطالب الأكبر وبينه وبين عقيل عشر سنين ، وبين عقيل وجعفر سنتان ، و][2] بين جعفر وعلى عشر سنين ، وأخرج مشركو قريش طالبَ بن أبى طالب يوم بدر إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم كرهاً ، ومضى ولم يعرف له خبر ، وحُفظَ من قوله فى هذا اليوم :

إخوته وأخواته

يارب إما خرجوا بطالب ... فى مقنب من تلكم المَقَانِبِ

فاجعلهم المغلوب غير الغالب ... والرجل المسلوب غير السالب

وكان زوجَ فاختة بنت أبى طالب أبو وَهْب هبيرةُ بن عمرو بن عائذ[3] بن عمرو بن مخزوم ، وخلف عليها ابناً وبنتاً ، وهاجرت ، ومات زوجها بنجران مشركا ، وفيها يقول ببلاد نجران من أبيات كثيرة :

---

(١) فى ا « وحمانة » بالحاء المهملة (٢) فى ب يقع هذا الكلام متأخرا .

(٣) فى ب « بن عابد » .

أشاقَتْكَ هند أم شَآكَ سؤالها ؟ كذاك النوى أسبابها وانتقالها[1]

وأرَّقني فى رأس حصن مُرَّدٍ بنجران يسرى بعد نوم خيالُها

فإن تك قد تابعت دين محمد وقطعت الأرحام منك حبالُها

وهى طويلة ، وكانت تكنى أم هانىء ، وقد استعمل على — حين أفضت الخلافة إليه — ابنَهَا جعدة بن هبيرة ، وجعدة هو القائل :

أبى من بنى مخزوم إن كنت سائلا ومن هاشم أمِّى لخير قبيل

فمن ذا الذى يبأى علىَّ بخاله وخالى علىٌّ ذو النَّدَى وعقيل[2]

وجمانة بنت أبى طالب كان بعلها سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهى أول هاشمية ولدت لهاشمى[3] ، كذلك ذكر الزبير بن بكار فى كتابه فى أنساب قريش وأخبارها ، وهاجرت وماتت بالمدينة فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم .

مسيره إلى البصرة

وكان مسير علىّ إلى البصرة فى سنة ست وثلاثين ، وفيها كانت وقعة الجمل ، وذلك فى يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى منها ، وقتل فيها من أصحاب الجمل من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفاً ، وقتل من أصحاب على خمسة آلاف ، وقد تنازع الناس فى مقدار من قتل من الفريقين : فمن مقلل ومكثر ؛ فالمقلل يقول : قتل منهم سبعة آلاف [والمكثر يقول: عشرة آلاف] على حسب ميل الناس وأهوائهم إلى كل فريق منهم ، وكانت وقعة واحدة فى يوم واحد .

وقيل : إنه كان بين خلافة على إلى وقعة الجمل [خمسة أشهر وأحد وعشرون يوما ، وبين وقعة الجمل] وأول الهجرة خمس وثلاثون سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام ، وبين ذلك وبين دخول على إلى الكوفة [شهر ، وبين ذلك وبين أول الهجرة خمس وثلاثون سنة وستة أشهر وعشرة أيام ، وبين دخول على و] التقائه مع معاوية للقتال بصِفِّينَ ستة أشهر وثلاثة عشر يوما ، وبين ذلك وأول الهجرة ست وثلاثون سنة وثلاثة عشر يوما .

---

(١) فى ا « فآك سؤالها » وفى ب « نآك سؤالها » . (٢) يبأى : يفخر

(٣) فى ب « وهى أول هاشمية ولدت بهاشمى » .

قتلى صفين وأيامها

وقتل بصفين سبعون ألفاً : من أهل الشام [خمسة وأربعون ألفاً] ، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً ، وكان المقام بصفين مائة يوم وعشرة أيام ، وقتل بها من الصحابة ممن كان مع على خمسة وعشرون رجلا : منهم عمار بن ياسر أبو اليقظان المعروف بابن سُمَيَّة وهو ابن ثلاث وسبعين[1] سنة .

وكانت عدة الوقائع بين أهل العراق والشام سبعون وقعة[2]

التقاء الحكمين

وفى سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين ـ وهما عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى ـ بأرض البلقاء من أرض دمشق ، وقيل: بدومة الجندل، وهى على [نحو] عشرة أميال من دمشق ، وكان من أمرهما ما قد شهر ، وسنورد فى هذا الكتاب جوامع ما ذكرنا ، وإن كنا قد أتينا على مبسوط ذلك فيما سلف من كتبنا .

وفى هذه السنة حكمت الخوارج [وتحكمت] ، وهم الشُّرَاةُ .

وكان ممن شهد صفين مع على من أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلا : منهم سبعة عشر من المهاجرين ، وسبعون من الأنصار ، وشهد معه من الأنصار ممن بايع تحت الشجرة وهى بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعمائة ، وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة .

حربه مع الخوارج

وفى سنة ثمان وثلاثين كان حربه مع أهل النَّهْرَوَانِ من الخوارج ، وقعد عن بيعته جماعة عثمانية لم يروا إلا الخروج عن الأمر : منهم سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وبايع يزيد بعد ذلك والحجاج لعبد الملك بن مروان ، ومنهم قُدَامَةُ بن مظعون ، وأهبان بن صيفى[3] ، وعبد الله بن سلام ، والمغيرة بن شعبة الثقفى ، وممن اعتزل من الأنصار كعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، وكانا شاعرين ، وأبو سعيد الخُدْرِى ، ومحمد بن مسلمة حليف بنى عبد الأشْهَلِ ،

---

(١) فى ا « ثلاث وتسعين سنة » (٢) فى ا « تسعون وقعة » .

(٣) فى ب « ووهبان بن صيفى » .

[ويزيد بن ثابت ، ورافع بن خديج ، ونعمان بن بشير][1] وفضالة بن عبيد ، وكعب بن عجرة [ومَسْلَمة بن خالد ، فى آخرين ممن لم نذكرهم من العثمانية من الأنصار] وغيرهم من بنى أمية وسواهم .

وانتزع على أملاكا كان عثمان أقطعها جماعةً من المسلمين[2] ، وقَسَّم ما فى بيت المال على الناس ، ولم يُفَضِّلْ أحداً على أحد ، وبعثت أم حبيبة بنت أبى سفيان إلى أخيها معاوية بقميص عثمان مخضَّباً بدمائه مع النعمان بن بشير الأنصارى ، واتصلت بيعة على بالكوفة وغيرها من الأنصار ، وكان أهل الكوفة أسرع [إجابة][1] إلى بيعته ، وأخذ له البيعة على أهلها أبو موسى الأشعرى ، حتى تكاثر الناس عليه ، وكان عليها عاملا لعثمان .

بنو أمية عند على

وأتاه جماعة ممن تخلف عن بيعته من بنى أمية : منهم سعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، والوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيط ، فجرى بينه وبينهم خطب طويل ، وقال له الوليد : إنا لم نتخلف عنك رغبة عن بيعتك[3] ، ولكنا قوم وَتَرَنَا الناسُ ، وخفنا على نفوسنا ، فعذرنا فيما نقول واضح ، أما أنا فقتلْتَ أبى صبراً ، وَضربتنى حداً ، وقال سعيد بن العاص كلاماً كثيراً ، وقال له الوليد : أما سعيد فقتلت أباه ، وأهنت مَثْواه ، وأَمّا مروان فإنك شتمت أباه ، وعبت عثمان فى ضَمِّهِ إياه[4] .

وقد ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى أن حسان بن ثابت وكعب بن مالك والنعمان بن بشير — قبل نفوذه بالقميص — أتوا علياً فى آخرين من العثمانية فقال كعب بن مالك : ياأمير المؤمنين ، ليس مسيئاً مَنْ عتب ، وخير كفر ما محاهُ عذر ، فى كلام كثير ، ثم بايع وبايع من ذكرنا جميعاً .

---

(١) زيادة فى ا (٢) فى ا « جماعة من الناس » .

(٣) فى ا « لم نتخلف عن بيعتك رغبة عنك » .

(٤) فى ب « وكبت عثمان فى صنعه إياه » .

عمرو ابن العاص

وقد كان عمرو بن العاص انحرف عن عثمان لانحرافه [عنه] وتوليته مصر غيره، فنزل الشام ، فلما اتصل به أمر عثمان وما كان من بيعة على ، كتب إلى معاوية يهزُّه ويشير عليه بالمطالبة بدم عثمان ، وكان فيما كتب به إليه : ما كنت صانعاً إذا قشرت من كل شىء تملكه فاصنع ما أنت صانع ، فبعث إليه معاوية ، فسار إليه ، فقال له معاوية : بايعنى ، قال : لا ، والله لا أعطيك من دينى حتى أنال من دنياك ، قال : سَلْ ، قال : مصر طُعْمَة ، فأجابه إلى ذلك ، وكتب له به كتاباً ، وقال عمرو بن العاص فى ذلك :

مُعَاوِىَ لا أعطيك دينى ولم أنَلْ ... به منك دنيا ، فانْظُرَنْ كيف تصنع
فإن تعطنى مصرا فأرْبِحْ بصفقة ... أخذتَ بها شيخاً يضر وينفع(١)

المغيرة بن شعبة ينصح عليا ثم يرجع

وأتى المغيرة بن شعبة علياً ، فقال له : إن لك حق الطاعة والنصيحة ، وإن الرأىَ اليوم تحوز به ما فى غد، وإن المضاع(٢) اليوم تضيع به ما فى غد ، أقْرِرْ معاوية على عمله ، وأقرر ابن عامر على عملِهِ ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى إذا أتتك طاعتهم وطاعة الجنود(٣) استبدلت أو تركت ، قال : حتى أنظر ، فخرج من عنده وعاد إليه من الغد ، فقال : إنى أشرت عليك بالأمس برأى وتعقبته برأى ، وإنما الرأى أن تعاجلهم بالنَّزْع فتعرف السامع من غيره وتستقبل أمرك ، ثم خرج [من عنده] فتلقاه ابن عباس خارجاً وهو داخل ؛ فلما انتهى إلى على قال : رأيت المغيرة خارجا من عندك ففيم جاءك ؟ قال : جاءنى أمس بكيت وكيت ؛ وجاءنى اليوم بذيت وذيت ؛ فقال : أما أمس فقد نصحك ؛ وأما اليوم فقد غشّك ؛ قال : فما الرأى ؟ قال : كان الرأى أن تخرج حين قتل عثمان ، أو قبل ذلك ، فتأتى مكة فتدخل دارك فتغلق عليك بابكَ ؛ فإن كانت العرب مائلة مضطرة فى أثرك لا تجد غيرك ؛ فأما

---

(١) فى ب « فأربح صفقة » . (٢) فى ب « وإن التصارع اليوم » .
(٣) فى أ « وبيعة الجنود » .

اليوم فإن بنى أمية سيحسنون الطلب بأن يلزموك شُعْبَة من هذا الأمر، ويشبهون فيك على الناس ، وقال المغيرة : نصحته فلم يقبل ، فغششته ، وذكر أنه قال : والله ما نصحته قبلها ، ولا أنصحه بعدها .

قال المسعودى : ووجدت فى وجه آخر من الروايات أن ابن عباس قال : قدمت من مكة بعد مقتل عثمان بخمس ليال ، فجئت علياً أدخل عليه ، فقيل لى : عنده المغيرة بن شعبة ، فجلست بالباب ساعة ، فخرج المغيرة ، فسلم علىّ ، وقال : متى قدمت ؟ قلت : الساعة ، ودخلت على علىّ وسلمت عليه ، فقال : أين لقيت الزبير وطلحة ؟ قلت : بالنواصف ، قال : ومَنْ معهما ؟ قلت : أبو سعيد بن الحارث بن هشام فى فتية[1] من قريش ، فقال على : أما إنهم لم يكن لهم بد أن يخرجوا يقولون نطلب بدم عثمان ، والله يعلم أنهم قَتَلَة عثمان ، فقلت . أخبرنى عن شأن المغيرة ، ولم خَلاَ بك ؟ قال : جاءنى بعد مقتل عثمان بيومين ، فقال : أخْلِنِي[2] ، ففعلت ، فقال : إن النصح رخيص وأنت بقية الناس ، وأنا لك ناصح ، وأنا أشير عليك أن لاترد عمال عثمان عامَكَ هذا ، فاكتب إليهم بإثباتهم على أعمالهم ، فإذا بايعوا لك واطمأن أمرك عزلت من أحببت وأقررت من أحببت ، فقلت له : والله لاأداهن فى دينى ، ولا أعطى الرياء فى أمرى ، قال : فإن كنت قد أبيت فانزع من شئت واترك معاوية فإن له جراءة وهو فى أهل الشام مسموع منه ، ولك حجة فى إثباته فقد كان عمر ولاه الشام كلها، فقلت له : لا والله لاأستعمل معاوية يومين أبداً ، فخرج من عندى على ماأشار به ، ثم عاد ، فقال : إنى أشرت عليك بماأشرت به وأبيت على ، فنظرت فى الأمر ، وإذا أنت مصيب لاينبغى أن تأخذ أمرك بخدعة ، ولا يكون فيه دلسة[3] ، قال ابن عباس : فقلت له : أما أول ماأشار [به] عليك فقد نصحك ، وأما الآخر فقد غَشَّك ، وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية

(١) فى ب « بن فتية » (٢) يريد كن معى فى خلوة .

(٣) فى ب « دنسة » .

فإن بايع لك[1] فعلىَّ أن أقلعه من منزله ، قال : لا ، والله لاأعطيه إلا السيف، ثم تمثل :

فما مِيتَةٌ إنْ مُتُّهَا غير عاجز بعَارٍ ، إذا ما غالت النَّفْسَ غولُهَا

فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت رجل شجاع ، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحرب خُدْعَة » ؟ فقال على : بلى ، قلت : أما والله لئن أطعتنى لأصدرن بهم بعد ورود ، ولأتركنهم ينظرون فى أدبار الأمور ، ولا يدرون ما كان وجهها ، من غير نقص لك ، ولا إثم عليك ، فقال لى : يا ابن عباس ، لست من هنياتك ولاهنيات معاوية فى شىء تشير به علىَّ برأى ، فإذا عصيتك فأطِعْنِى ، فقلت أنا : أفعل ، فإنَّ أيْسَرَ مالك عندى الطاعة ، والله ولى التوفيق .

(١) فى ا « فإن بايعك » .

ذكر الأخبار عن يوم الجمل وبدئه

وما كان فيه من الحرب ، وغير ذلك

تدبير الخروج على على

ودخل طلحة والزبير مكة ، وقد كانا استأذنا عليًّا فى العمرة ، فقال لهما : لعلكما تريدان البصرة أو الشام ، فأقسما أنهما لا يقصدان غير مكة ، وقد كانت عائشة رضى الله عنها بمكة ، وقد كان عبد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة هرب عنها حين أخذ البيعة لعلى بها على الناس حارثة بن قُدَامة السعدى ، ومسير عثمان بن حُنَيْف الأنصارى إليها على خراجها من قبل على رضى الله عنه ! وانصرف عن اليمن عامل عثمان [وهو يعلى بن منية ، فأتى مكة وصادف بها عائشة وطلحة والزبير ومروان بن الحكم فى آخرين من بنى أمية ، فكان ممن حَرَّضَ على الطلب بدم عثمان](1) ، وأعطى عائشة وطلحة والزبير أربعمائة [ألف] درهم ، وكُرَاعاً وسلاحاً ، وبعث إلى عائشة بالجمل المسمى عسكراً ، وكان شراؤه عليه باليمن مائتى دينار ، فأرادوا الشام ، فصدَّهم ابن عامر ، وقال : إن به معاوية ، ولا ينقاد إليكم ، ولا يطيعكم(2) ، لكن هذه البصرة لى بها صنائع وعَدَد ، فجهزهم بألف ألف درهم ومائة من الإبل وغير ذلك .

المسير إلى البصرة

وسار القوم نحو البصرة فى ستمائة راكب ، فانتهوا فى الليل إلى ماء لبنى كلاب يعرف بالحَوْأَب ، عليه ناس من بنى كلاب ، فَعَوَتْ كلابهم على الركب ، فقالت عائشة : ما اسم هذا الموضع ؟ فقال لها السائق لجملها : الحوأب ، فاسترجعت وذكرت ما قيل لها فى ذلك(3) ، فقالت : رُدُّونِى إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا حاجة لى فى المسير ، فقال الزبير : بالله ما هذا الحَوْأَب ، ولقد غلط فيما أخبرك به ، وكان طلحة فى سَاقَةِ الناس ، فلحقها فأقسم

---

(1) زيادة فى ا (2) فى ا « ولا يعطيكم من نفسه النصفة » .

(3) يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنسائه « كأنى بإحداكن وقد نبحتها كلاب الحوأب » ثم قال لعائشة « إياك أن تكونيها » .

أن ذلك ليس بالحوأب ، وشهد معهما خمسون رجلا ممن كان معهم ، فكان ذلك أول شهادة زور أقيمت فى الإسلام ، فأتوا البصرة فخرج إليهم عثمان ابن حُنَيْف فمانعهم ،وجرى بينهم قتال، ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك على كفّ الحرب إلى قدوم على ، فلما كان فى بعض الليالى بَيَّتُوا عثمان بن حُنَيْف فأسروه وضربوه ونتفوا لحيته ، ثم إن القوم استرجعوا وخافوا على مخلَّفيهم بالمدينة من أخيه سهل بن حُنَيف وغيره من الأنصار ، فخلَّوْا عنه ، وأرادوا بيت المال فمانعهم الخُزَّانُ والموكلون به وهم السبابجة[1]، فقتل منهم سبعون رجلا غير من جرح ، وخمسون من السبعين ضربتْ رقابهم صبرا [من] بعد الأسر ، وهؤلاء أول من قُتِلَ ظلماً فى الإسلام وصبرا ،وقتلوا حكيم بن جَبَلَة العبدى ، وكان من سادات عبد القيس وزُهَّاد ربيعة ونُسَّاكها ، وتشاحّ طلحة والزبير فى الصلاة بالناس ، ثم اتفقوا على أن يصلى بالناس عبد الله ابن الزبير يوماً ، ومحمد بن طلحة يوماً ، فى خطب طويل كان بين طلحة والزبير إلى أن اتفقا على ما وصفنا .

مسير على إلى العراق

وسار على من المدينة بعد أربعة أشهر ، وقيل غير ذلك ، فى سبعمائة راكب منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار منهم سبعون بَدْرِيًّا وباقيهم من الصحابة، وقد كان استخلف على المدينة سهل بن حنيف الأنصارى ، فانتهى إلى الرَّبَذَة بين الكوفة ومكة من طريق الجادة ، وفاته طلحة وأصحابه[2]، وقد كان عليٌّ أرادهم ، فانصرف حين فاتوه إلى العراق فى طلبهم ، ولحق بعلى من أهل المدينة جماعة من الأنصار فيهم خُزَيمة بن ثابت ذو الشهادتين ، وأتاه من طيىء ستمائة راكب ، وكاتَبَ على من الرَّبَذَة أبا موسى الأشعرى ليستنفر الناس ، فثبَّطهم

---

(١) فى ب « وهم السابحون » وفى ا « وهم السابحة » .
(٢) فى ب « وفاته طلحة والزبير » .

أبو موسى ،وقال: إنما هي فتنة،فنمى ذلك إلى على،فولّى على الكوفة قَرَظَة[١] ابن كعب الأنصارى ، وكتب إلى أبى موسى : اعتزل عملنا يا ابن الحائك[٢] مذموماً مدحوراً ، فما هذا أول يومنا منك ، وإن لك فينا لهنات وهنيات .

وسار على بمن معه حتى نزل بذى قار ، وبعث بابنه الحسن وعمار [بن ياسر] إلى الكوفة يستنفران الناس ، فسارا عنها ومعهما من أهل الكوفة نحو من سبعة آلاف ، وقيل : ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلا [منهم الأشتر] فانتهى [على] إلى البصرة وراسَلَ القوم وناشدهم الله ، فأبَوْا إلا قِتَاله .

قدوم على البصرة

وذكر عن المنذر بن الجارود فيما حدث به أبو خليفة[٣] الفَضْلُ بن الْحُبَاب الجمحى عن ابن عائشة عن مَعْن بن عيسى عن المنذر بن الجارود قال : لما قدم على رضى الله عنه البصرة دخل مما يلى الطفّ ، فأتى الزاوية فخرجتُ أنظر إليه، فورد موكب فى نحو ألف فارس يتقدمهم فارس على فرس أشْهَبَ عليه قانسوة وثياب بيض متقلد سيفاً ومعه راية ، وإذا تيجان القوم الأغلبُ عليها البياضُ والصفرة مُدَجَّجين فى الحديد والسلاح ، فقلت : من هذا ؟ فقيل : هذا أبو أيوب الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء الأنصار وغيرهم ، ثم تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض متقلد سيفاً متنكب قوساً معه راية على فرس أشْقَرَ فى نحو ألف فارس ، فقلت: من هذا ؟ فقيل : هذا خُزَيمة بن ثابت الأنصارى ذو الشهادتين ، ثم مَرَّ بنا فارسٌ آخر على فرس كُمَيْتٍ معتمٌّ بعمامة صفراء من تحتها قلنسوة بيضاء وعليه قَبَاء أبيض [مصقول] متقلد سيفاً متنكب قوساً فى نحو ألف فارس من الناس ومعه راية ، فقلت : من هذا ؟ فقيل لى: أبو قَتَادة بن ربعى ، ثم مر بنا فارس آخر على فرس أشْهَبَ عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سَدَلها من بين يديه ومن خلفه

(١) فى ا « قرطة » بالطاء مهملة ، وهو تحريف.

(٢) فى ب « يابن الحائد» (٣) فى ب « أبو حنيفة» محرفا

شديد الأدمة عليه سكينة[١] ووقار رافع صوته بقراءة القرآن متقلد سيفا متنكب قوساً معه راية بيضاء فى ألف من الناس مختلفى التيجان حوله مشيخة وكهول وشباب[٢] كأنما قد أوقفوا للحساب ، أثَرُ السجود [قد أثر] فى جباههم ، فقلت: من هذا ؟ فقيل : عمار بن ياسر فى عِدّة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم ، ثم مر بنا فارس على فرس أشْقَرَ عليه ثياب بيض وقلنسوة بيضاء وعمامة صفراء متنكب قوساً متقلد سيفاً تخط رجلاه [فى] الأرض فى ألف من الناس الغالبُ على تيجانهم الصفرةَ والبياضُ معه راية صفراء ، قلت : من هذا؟ قيل : هذا [قيس بن] [٣] سعد بن عُبَادة فى [عدة من] الأنصار وأبنائهم وغيرهم من قحطان ، ثم مر بنا فارس على فرس أشْهَلَ ما رأينا أحسن منه، عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سَدَلَها من بين يديه بلواء ، قلت : من هذا ؟ قيل : هو عبد الله بن العباس فى [وفده و] عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تلاه موكب آخر فيه فارس أشبه الناس بالأولين ، قلت : من هذا ؟ قيل : عبيد الله بن العباس، ثم تلاه موكب آخر فيه فارس أشبه الناس بالأولين، قلت : من هذا] [٤] قيل: قُثَم بن العباس ، أو معبد بن العباس [٥] ثم أقبلت المواكب والرايات يقدم بعضها بعضاً ، واشتبكت الرماح ، ثم ورد موكب فيه خلق من الناس عليهم السلاح والحديد مختلفو الرايات فى أوله راية كبيرة يقدمهم رجل كأنما كُسِرَ وجُبِرَ [قال ابن عائشة : وهذه صفة رجل شديد الساعدين نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى فوق ، وكذلك تخبر العرب فى وصفها إذا أخبرت عن الرجل أنه كسر وجبر] كأنما على رؤسهم الطير، وعن [يمينه شاب حسن الوجه، وعن] يساره شاب حسن الوجه [وبين يديه شاب مثلهما] قلت: من هؤلاء قيل: هذا على بن أبى طالب: وهذان الحسن والحسين عن يمينه وشماله، وهذا محمد بن الحنفية بين يديه معه الراية

---

(١) فى ا « قد علته سكينة » (٢) فى ا « وكهول وشبان »

(٣) فى ا « هذا سعد بن عبادة » (٤) سقط هذا من ب .

(٥) فى ب « أو سعيد بن العاص » وسعيد كان عثمانيا .

العُظْمى ، وهذا الذى خَلْفه عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وهؤلاء ولد عَقِيل وغيرهم من فتيان بنى هاشم ، وهؤلاء المشايخ [هم] أهل بدر من المهاجرين والأنصار .

فساروا حتى نزلوا[1] الموضع المعروف بالزاوية ، فصلى أربع ركعات ، وعفر خديه على التراب ، وقد خالط ذلك دموعه ، ثم رفع يديه يدعو : اللهم ربَّ السموات وما أظلت ، والأرضين وما أقلت ، ورب العرش العظيم ، هذه البصرة أسألك من خيرها ، وأعوذ بك من شرها ، اللهم أنزلنا فيها خير منزل وأنتَ خير المنزلين ، اللهم [إن] هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتى ، وَبَغَوْا علىّ ونكثوا بيعتى ، اللهم احقن دماء المسلمين .

وبعث إليهم من يناشدهم الله فى الدماء ، وقال : عَلاَمَ تقاتلوننى ؟ فأبوا إلا الحرب ، فبعث [إليهم] رجلا من أصحابه يقال له مسلم معه مصحف يدعو[هم] إلى الله ، فرموه بسهم فقتلوه ، فحمل إلى على وقالت أمه :

يارَبِّ إن مسلماً أتاهم يتلو كتاب الله لايخشاهم
فخَضَّبُوا من دمه لحاهم وأمـــــه قائمة تراهم

مبدأ القتال

وأمر على رضى الله عنه أن يصافُّوهم ، ولا يبدءوهم بقتال ، ولا يرموهم بسهم ولا يضربوهم [بسيف] ولا يطعنوهم برمح ، حتى جاء عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى من الميمنة بأخ له مقتول ، وجاء قوم من الميسرة برجل قد رمى بسهم فقتل ، فقال على : اللهم اشهد ، وأعذروا إلى القوم .

ثم قام عمار بن ياسر بين الصفين فقال : أيها الناس ، ما أنصفتم نبيكم حين كففتم عقائلكم فى الخدور[2] وأبرزتم عقيلته للسيوف ، وعائشة على جَمَل فى هَوْدج من دفوف الخشب قد ألبسوه المسوح وجلود البقر ، وجعلوا دونه اللبود ، وقد غشى على ذلك بالدروع ، فدنا عمار من موضعها ، فنادى : إلى ماذا تدعين ؟ قالت :

(١) فى ا « فسار حتى نزل – إلخ » .
(٢) فى ب « حيث كففتم عتقاء تلك الخدور » .

إلى الطلب بدم عثمان ، فقال : قَاتَلَ اللهُ فى هـذا اليوم الباغى والطالب بغير الحق ، ثم قال : أيها الناس ، إنـكم لتعلمون أينا الممالىء فى قتل عثمان ؟ ثم أنشأ يقول وقد رَشَقُوه بالنبل :

فمِنك البكاء ، ومنك العويل ومنك الرياح ، ومنك المَطَرْ
وأنت أمَرْتَ بقتل الإمام وقاتلُه عنـدنا مَنْ أمر

وتواتر عليه الرمى واتصل ، فحرك فرسه ، وزال عن موضعه [وأتى عليا] فقال : ماذا تنتظر ياأمير المؤمنين وليس لك عند القوم إلا الحرب ؟!

خطبة لعلى قبل الالتحام

فقام على رضى الله عنه [فى الناس خطيباً رافعاً صوته] فقال : أيها الناس إذا هزمتموهم فلا تُجْهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيراً ، ولا تتبعوا مولّياً، ولاتطلبوا مدبراً ، ولا تـكشفوا عورة ، ولاتمثلوا بقتيل ، ولاتهتـكوا ستر، ولاتقربوا [شيئاً] من أموالهم إلا ما تجدونه فى عسكرهم من سلاح أو كُرَاع أو عبد أو أمة ، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله .

بين على والزبير

وخرج على بنفسه حاسراً على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاسلاح عليه فنادى : يازبير ، اخرج إلى ، فخرج [إليه الزبير] شاكاً فى سلاحه ، فقيل [ذلك] لعائشة، فقالت: واثُـكْلَكِ ياأسماء[1] ،فقيل لها: إن علياً حاسر، فاطمأنت، واعتنق كل واحد منهما صاحبه ، فقال له على : ويحك يازبير ! ما الذى أخرجك ؟ قال : دم عثمان ، قال : قَتَلَ الله أولانا بدم عثمان ، أما تذكر يوم لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى بَيَاضة وهو راكب حماره، فضحك إلى رسول الله، وضحكت [إليه، و]أنت معه ، فقلت أنت: يارسول الله ، مايدع علىٌّ زَهْوه ، فقال لك « ليس به زهو ، أتحبه يازبير » فقلت : إنى والله لأحبه ، فقال لك « إنك والله ستقاتله وأنت له ظالم » فقال الزبير : أستغفر الله ، والله لو ذكرتها ما خرجت ، فقال له : يازبير ارجع ، فقال : وكيف أرجع الآن وقد التقت حَلْقَتَا البِطَانِ ؟ هذا

(١) فى ب « واحرباه بأسماء » .

والله العار الذى لا يُغسَل ، فقال : يازبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار فرجع الزبير وهو يقول :

اخترت عاراً على نار مؤجَّجة ما إن يقوم لها خلق من الطين(١)
نادى علىٌّ بأمر لست أجهله عار لعمرك فى الدنيا وفى الدين
فقلت: حسبك من عَذْل أبا حسن فبَعْضُ هذا الذى قد قلت يكفينى

فقال ابنه عبد الله: أين [تذهب و] تدَعُنَا؟ فقال: يا بنى أذْكَرَنى أبو الحسن بأمر كنت قد أنسيته . فقال : لا والله، ولكنك فررت من سيوف بنى عبد المطلب ؛ فإنها طوال حدَاد ، تحملها فتية أنجاد، قال: لا والله ، ولكنى ذكرت ما أنسانيه الدهر ، فاخترت العار على النار ، أبا لجبن تعيرنى لا أبالك ؟ ثم أمال سنانه وشدَّ فى الميمنة(٢) فقال على : أفرجوا له فقد هاجوه ، ثم رجع فشدّ فى الميسرة ، ثم رجع فشدَّ فى القلب ، ثم عاد إلى ابنه ، فقال : أيفعل هذا جبان ؟ ثم مضى منصرفاً، حتى أتى وادى السباع والأحْنَفُ بن قيس معتزل فى قومه من بنى تميم ، فأتاه آتٍ فقال له : هذا الزبير مارا، فقال : ما أصنع بالزبير وَقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضاً وهو مار إلى منزله سالماً ؟! فلحقه نفر من بنى تميم فسبقهم إليه عمرو بن جُرْموز ، وقد نزل الزبير إلى الصلاة [فقال : أتؤمُّنى أو أؤمك ؟! فأمه الزبير] فقتله عمرو فى الصلاة ، وقتل الزبير رضى الله عنه وله خمس وسبعون سنة ، وقد قيل: إن الأحنف بن قيس قتله بإرساله مَنْ أرسل من قومه

مقتل الزبير ورثاؤه

وقد رثته الشعراء وذكرت غَدْرَ [عمرو] بن جُرْموز به، وممن رثاه زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفَيل أخت سعيد بن زيد ، فقالت :

(١) فى ا « أنى يقوم لها خلق من الطين ؟ » .
(٢) فى ا « ثم قلع سنانه من قناته وشد فى ميمنة على » .

غَدَرَ ابن جرموز بفارس بُهْمَةٍ يوم اللقاء ، وكان غير مسدَّدِ[1]

يا عمرو ، لو نَبَّهته لوجدته لاطائشاً رعش الجنان ولا اليد

[هَبِلَتْكَ إن قتلت لَمُسْلِماً حَلَّتْ عليك عقوبة المتعمد][2]

[ما إن رأيت ولا سمعت بمثله فيمن مضى ممن يروح و يغتدى][2]

وأتى عمرو عليا بسيف الزبير وخاتمه ورأسه ، وقيل : إنه لم يأت برأسه ، فقال على : سيف طالما جلا الكربَ عن [وجه] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكنه الحَيْنُ[3] ومصارع السوء ، وقاتلُ ابن صفية فى النار ؛ فى ذلك يقول عمرو بن جرموز التميمى [فى أبيات] :

أتيت عليـاً برأس الزبير وقد كنت أرجو به الزلفهْ

فَبَشَّرَ بالنار قبل العيان و بئس بشارة ذى التحفهْ[4]

لَسِيَّان عندىَ قتلُ الزبير وضرطة عنز بذى الجحفهْ[5]

ثم نادى على رضى الله عنه طلحةَ حين رجع الزبير : يا أبا محمد ، ما الذى أخرجك ؟ قال : الطلب بدم عثمان ، قال علىّ : قتل الله أولانا بدم عثمان ، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » وأنت أولُ من بايعنى ثم نكثت ، وقد قال الله عز وجل (ومن نكث فإنما ينكث على نفسه) فقال : أستغفر الله ، ثم رجع ، فقال مروان بن الحكم : رجع الزبير ويرجع طلحة ، ما أبالى رَمَيْتُ ههنا أم ههنا ، فرماه فى أَكْحَلِه فقتله ، فمر به علىٌّ بعد الوقعة فى موضعه فى قنطرة قرة ، فوقف عليه ، فقال : إنا لله و إنا إليه راجعون ، والله لقد كنت كارهاً لهذا ، أنت والله كما قال القائل :

بين على وطلحة

فَتًى كان يُدْنيه الغنى من صديقه إذا ماهو استغنى و يُبْعِدُهُ الفقر

---

(١) فى ا « وكان غير معدد » (٢) سقط هذان البيتان من ا

(٣) فى ب « ولكنه الجبن » .

(٤) فى ا « وليست بشارة ذى التحفة » (٥) « وضرطة عير » .

كأن الثريَّا عُلِّقت فى يمينه   وفى خده الشعرى، وفى الآخر البدر (١)

وذكر أن طلحة رضى الله عنه لما ولّى سُمِعَ وهو يقول :

ندامة ما ندمت وضل حلمى   ولهفى ثم لهف أبى وأمى

ندمت ندامة الكُسَعِيِّ لما   طلبت رضا بنى جَرْم بزعمى

وهو يمسح عن جبينه الغُبَار ويقول : (وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً) وقيل : إنه سمع وهو يقول هذا الشعر وقد جَرَحَه فى جبهته [عبد الملك] ورماه مروان فى أكحله وقد وقع صريعا يجود بنفسه .

ترجمة طلحة

وهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عبيد الله بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرة ، وهو ابن عم أبى بكر الصديق ، ويكنى أبا محمد، وأمه الصعبة، وكانت تحت أبى سفيان صخر بن حرب ، كذلك ذكر الزبير بن بكار فى كتابه فى أنساب قريش ، وقتل وهو ابن أربع وستين سنة ، وقيل غير ذلك ، ودفن بالبصرة ، وقبره ومسجده [فيها مشهور] إلى هذه الغاية ، وقبر الزبير بوادى السباع .

مقتل محمد ابن طلحة

وقتل محمد بن طلحة مع أبيه فى ذلك اليوم ، ومَرَّ به علىٌّ فقال : هذا رجل قتله بِره بأبيه وطاعته [له] وكان يدعى بالسَّجَّاد ، وقد تنوزع فى كنيته ، فقال الواقدى : كان يكنى بأبى سليمان ، وقال الهيثم بن عدى : كان يكنى بأبى القاسم ، وفيه يقولُ قاتلهُ :

وأشعث سَجَّاد بآيات ربه   قليل الأذى فيما ترى العين مسلم (٢)

شككت له بالرمح جيب قميصه   فخرَّ صريعاً لليدين وللفم

على غير شىء غير أن ليس تابعاً   عليًا ، ومن لا يَتْبَع الحق يَنْدَم

---

(١) فى ا « علقت فى جبينه » وهى أفضل مما أثبتناه عن ب ، وهى المحفوظ

(٢) فى ا « وأشعث قوام بآيات ربه » .

يذكرنى حاميم والرمح شارعٌ فهلا تلاَ حاميم قبل التقدم[١]

وقد كان أصحاب الجمل حملوا على ميمنة على وميسرته فكشفوها ، فأتاه بعض ولد عقيل وعلىٌّ يَخْفِق نعاساً على قَرَبُوس سرجه ، فقال له : يا عم ، قد بلغت ميمنتك وميسرتك حيث ترى ، وأنت تخفق نعاساً ؟ قال : اسكت يا ابن أخى ، فإن لعمك يوماً لا يعدوه ، والله ما يبالى عمك وقع على الموت أو وقع الموت عليه ، ثم بعث إلى ولده محمد بن الحنفية ، وكان صاحب رايته : احمل على القوم فأبطأ محمد بحملته[٢] ، وكان بإزائه قوم من الرماة ينتظر نفاد سهامهم ، فأتاه على فقال : هلا حملت ، فقال : لا أجد متقدَّماً إلا على سهم أو سنان ، وإنى منتظر نَفَاد سهامهم وأحمل ، فقال [له] : احمل بين الأسنة ؛ فإن للموت عليك جنة ، فحمل محمد ، فشك بين الرماح والنشاب فوقف ، فأتاه علىٌّ فضربه بقائم سيفه وقال : أدركك عِرْق من أمك ، وأخذ الراية وحمل ، وحمل الناس معه ، فما كان القوم إلا كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، وأطافت بنو ضبة[٣] بالجمل وأقبلوا يرتجزون ويقولون :

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل [ننازل الموت إذا الموت نزل][٤]

رُدُّوا علينا شيخنا ثم بَجَلْ نَنْعَى ابْنَ عفان بأطراف الأسل

والموت أحلى عندنا من العسل

وقطع على خطام الجمل سبعون يداً ، من بنى ضبة منهم سعد بن سود[٥] القاضى متقلداً مصحفاً ، كلما قطعت يد واحد منهم [فصُرِع] قام آخر فأخذ الخطام وقال : أنا الغلام الضبى ، ورُمى الهودج بالنشَّاب والنبل حتى صار كأنه

---

(١) فى ا « يذكرنى حاميم والرمح شاجر » وهو المحفوظ .

(٢) فى ب « فأبطأ محمد عليه » (٣) فى ب « وأطافت بنو أمية » محرفا.

(٤) سقط ما بين المعقوفين من ا .

(٥) فى ب « معهم كعب بن سوار القاضى » .

قنفذ ، وعرقب الجمل وهو لا يقع وقد قطعت أعضاؤه وأخذته السيوف حتى سقط ، ويقال : إن عبد الله بن الزبير قبض على خطام الجمل ، فصرخت عائشة — وكانت خالته — : واثُكْلَ أسماء ، خلِّ الخطام ، وناشدته ، فخلّى عنه ، ولما سقط الجمل ووقع الهودج جاء محمد بن أبى بكر ، فأدخل يده فقالت : من أنت ؟ قال: أقرب الناس [منك] قرابة، وأبغضهم إليك ، أنا محمد أخوك ، يقول لك أمير المؤمنين هل أصابك شىء ؟ قالت : ما أصابنى إلا سهم لم يضرنى ، فجاء علىٌّ حتى وقف عليها ، فضرب الهودج بقضيب ، وقال : يا حُميراء ، رسول الله أمرك[1] بهذا ؟ ألم يأمرك أن تقرى فى بيتك؟ والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا عقائلهم[2] وأبرزوك ، وأمر أخاها محمداً فأنزلها فى دار صفية بنت الحارث بن طلحة العبدى[3] [وهى أم طلحة الطلحات] ووقع الهودج والناس مفترقون يقتتلون، والتقى الأشتر مالك بن الحارث النخعى وعبد الله بن الزبير فاعتركا وسقطا على الأرض عن فرسيهما [وطال اعتراكهما على وجه الأرض ، فعلاه الأشتر ولم يجد سبيلا إلى قتله لشدة اضطرابه من تحته] والناس حولهما يجولون ، وابن الزبير ينادى :

اقتلونى ومالكا واقتلوا مالكا معى

فلا يسمعه أحد لشدة الجلاد ووقع الحديد [على الحديد] ولا يراهما راء لظلمة النَّقع ، وترادف العَجَاج ، وجاء ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت إلى على فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تنكس اليوم رأس محمد، واردد إليه الراية ، فدعا به ، وردَّ عليه الراية ، وقال :

أطعنهمُ طعن أبيك تحمد لا خير فى الحرب إذا لم توقد
بالمشرفىِّ والقنا المسرَّدِ[4]

---

(١) كذا فى ب ، ا ، ولعله « ياحميراء رسول الله ، آلله أمرك بهذا ؟ » .
(٢) فى ب « إذا صانوا حلائلهم وأبرزوك » .
(٣) فى ب « بن أبى طلحة العبدىّ » .
(٤) فى ا « والقنا المسدد » وما هنا عن ب أحسن .

ثم استسقى ، فأتى بعسل وماء ، فحسا منه حُسْوَة ، وقال : هذا الطائفى ، وهو غريب [بهذا] البلد ، فقال له عبد الله بن جعفر : أما شَغَلَكَ ما نحن فيه عن علم هذا ؟ قال : إنه والله يا بنى ما مَلأَ صدر عمك(١) شىء قط من أمر الدنيا.

دخول على البصرة

ثم دخل البصرة ، وكانت الوقعة فى الموضع المعروف بالخُرَيْبة [وذلك] يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، على حسب ما قدمنا آنفاً من التاريخ ، وخطب الناس بالبصرة خطبته الطويلة التى يقول فيها: يا أهل السبخة(٢) يا أهل المؤتفكة ائتفكت بأهلك من الدهر ثلاثاً ، وعلى الله تمام الرابعة ، يا جُنْد المرأة، يا أتباع البهيمة، رغا فأجبتم ، وعقر فانهزمتم(٣)، أخلاقكم رقاق، وأعمالكم نفاق، ودينكم زيغ وشقاق ، وماؤكم أجاج [و] وزُعاق ، وقد ذم على أهل البصرة بعد هذا الموقف مراراً كثيرة .

بين ابن عباس وعائشة

وبعث بعبد الله بن عباس إلى عائشة يأمرها بالخروج إلى المدينة ، فدخل عليها بغير إذنها ، واجتذب وسادة فجلس عليها ، فقالت [له] : يا ابن عباس أخطأت السنة المأمور بها ، دخلت إلينا بغير إذننا ، وجلست على رحلنا بغير أمرنا فقال لها : لو كنت فى البيت الذى خلفك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دخلنا إلا بإذنك، وما جلسنا على رحلك إلا بأمرك ، وإن أمير المؤمنين يأمرك بسرعة الأوبة ، والتأهب للخروج إلى المدينة ، فقالت : أبَيْتُ ما قلت وخالفت ما وصفت ، فمضى إلى على، فخبره بامتناعها ، فردّه إليها ، وقال : إن أمير المؤمنين يعزم عليك أن ترجعى ، فأنعمت وأجابت إلى الخروج، وجهزها على وأتاها فى اليوم الثانى ودخل عليها ومعه الحسن والحسين وباقى أولاده وأولاد إخوته وفتيان أهله من بنى هاشم وغيرهم من شيعته من هَمْدَان ، فلما بصرت به النسوان صحن

(١) فى ب « ماحلا بصدر عمك »
(٢) فى ب « يا أهل المسجد » وفى ا « السنحة ».
(٣) فى ا « رغاما جئتم ، وعقوقا تهرجتم فانهزمتم » وهو تحريف .

فى وجهه وقال : يا قاتل الأحبة ، فقال : لو كنت قاتل الأحِبَّةِ لقتلت مَنْ فى هذا البيت ، وأشار إلى بيت من تلك البيوت قد اختفى فيه مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عامر وغيرهم ، فضرب مَنْ كان معه بأيديهم إلى قوائم سيوفهم لما علموا مَنْ فى البيت مخافة أن يخرجوا منه فيغتالوه ، فقالت له عائشة بعد خطب طويل كان بينهما : إنى أحب أن أقيم معك فأسير إلى قتال عدوك عند سيرك ، فقال : بل ارجعى إلى البيت الذى تركك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألته أن يؤمِّنَ ابن أختها عبدَ الله بن الزبير ، فأمنه ، وتكلم الحسن والحسين فى مروان ، فأمنه ، وأمن الوليد بن عقبة وولد عثمان وغيرهم من بنى أمية ، وأمَّنَ الناس جميعاً ، وقد كان نادى يوم الوقعة : من ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن .

حزن على على القتلى

واشتد حزن علىٍّ على من قتل من ربيعة قبل وروده البصرة ، وهم الذين قتلهم طلحة والزبير من عبد القيس وغيرهم من ربيعة ، وجَدَّد حزنه قتل زيد بن صوحان [العبدى] قتله فى ذلك اليوم عمرو بن سبرة[1] ، ثم قتل عمار بن ياسر عمرو بن سبرة فى ذلك اليوم أيضاً ، وكان على يكثر من قوله :

يا لَهْفَ نفسى على ربيعه ربيعة السامعة المطيعه

وخرجت امرأة من عبد القيس تطوف [فى] القتلى ، فوجدت ابنين لها قد قتلا ، وقد كان [قُتِلَ] زوجها وأخوان لها فيمن قتل قبل مجىء على البصرة ، فأنشأت تقول :

شهدت الحروب فشيبننى فلم أر يوماً كيوم الجمل
أضَرَّ على مؤمنٍ فتنةً وأقتله لشجاع بطل
فليت الظعينة فى بيتها وليتك عسكر لم ترتحل .

(١) فى ا « عمرو بن شرى » .

وقد ذكر المدائنى أنه رأى بالبصرة رجلا مصطلم الأذن ، فسأله عن قصته ، فذكر أنه خرج يوم الجمل ينظر إلى القتلى ، فنظر إلى رجل منهم يخفض رأسه ويرفعه وهو يقول:

لقد أوردَتْنَا حومَةَ الموتِ أُمُّنَا ... فلم تنصرف إلا ونحن رِوَاءُ
أطعنا بنى تَيْمٍ لشقوة جدنا ... وما تيم إلا أعبدٌ وإماء(١)

فقلت : سبحان الله ! أتقول هذا عند الموت ؟ قل لا إلهَ إلا الله ، فقال: يا ابن اللَّخْنَاء ، إياى تأمر بالجزع عند الموت؟ فولَّيْتُ عنه متعجبا منه ، فصاح بى ادْنُ منى [و] لقنى الشهادة ، فصرت إليه ، فلما قربت منه استدنانى ، ثم التقم أذنى فذهب بها ، فجعلت ألعنه وأدعو عليه ، فقال : إذا صرت إلى أمك فقالت مَنْ فعل هذا بك؟ فقل عمير بن الأهلب الضبى مخدوع المرأة التى أرادت أن تكون أمير المؤمنين .

خروج عائشة من البصرة

وخرجت عائشة من البصرة ، وقد بعث معها على أخاها عبد الرحمن [بن أبى بكر] وثلاثين رجلا وعشرين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس [وهَمْدَان وغيرها] ، ألبسهن العمائم وقلدهن السيوف ، وقال لهن : لا تُعْلِمْنَ عائشة أنكن نسوة [وتَلَثَّمْنَ] كأنكن رجال ، وكُنَّ اللاتى تلين خدمتها وحملها ، فلما أتت المدينة قيل لها : كيف رأيت مسيرك ؟ قالت : كنت بخير والله ، لقد أعطى على بن أبى طالب فأكثر ، ولكنه بعث معى رجالا [أنكرتهم] فعرفها النسوة أمرهن ، فسجدت وقالت : ما ازْدَدْتَ والله يا ابن أبى طالب إلا كرما ، ووددت أنى لم أخرج وإن أصابتنى كيت وكيت(٢) من أمور ذكرتها [شاقة] ، وإنما قيل لى : تخرجين فتصلحين بين الناس ، فكان ما كان ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن

---

(١) فى ا « وما التيم إلا أعبد وإماء » .
(٢) فى ا « وأنى أصابنى كيت وكيت » .

الذى قتل من أصحاب على فى ذلك اليوم خمسة آلاف [نفس] ومن أصحاب الجمل [وغيرهم] من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفاً ، وقيل غير ذلك .

ووقف علىٌّ على عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية وهو قتيل يوم الجمل فقال : لهفى عليك يَعْسُوبَ قريش ، قتلت الغطاريف من بنى عبد مناف ، شفَيت نفسى و جدعت أنفى ، فقال له الأشتر[1] : ما أشدَّ جزَعَكَ عليهم يا أمير المؤمنين وقد أرادوا بك ما نزل بهم ! فقال : إنه قامت عنى وعنهم نسوة لم يقمن عنك [وقد كان قتَاله فى ذلك اليوم الأشتر النخعى] وأصيب كف ابن عتاب بمنًى [وقيل باليمامة] ألقتها عُقَاب وفيها خاتم نَقْشُه عبد الرحمن بن عتاب وكان اليوم الذى وجد فيه الكف بعد يوم الجمل بثلاثة أيام .

ودخل علىٌّ بيت مال البصرة[2] فى جماعة من المهاجرين والأنصار ، فنظر إلى ما فيه من العين والورق فجعل يقول : يا صفراء ، غُرِّى غيرى [ويا بيضاء ، غرى غيرى] وأدام النظر إلى المال مفكراً ، ثم قال : اقسموه بين أصحابى ومن معى خمسمائة خمسمائة ، ففعلوا فما نقص درهم واحد ، وعدد الرجال اثنا عشر ألفاً .

وقبض ما كان فى معسكرهم من سلاح ودابة ومتاع وآلة وغير ذلك فباعه وقسمه بين أصحابه ، وأخذ لنفسه كما أخذ لكل واحد ممن معه من أصحابه وأهله [وولده] خمسمائة درهم ، فأتاه رجل من أصحابه فقال : يا أمير المؤمنين إنى لم آخذ شيئاً ، وخلفنى عن الحضور كذا ، وأدْلَى بعذر ، فأعطاه الخمسمائة التى كانت له .

وقيل لأبى لَبيد الجهضمى من الأزد : أتحب علياً؟ قال : وكيف أحب رجلا قتل من قومى فى بعض يوم ألفين وخمسمائة ، وقتل من الناس حتى لم يكن أحد يعزى أحداً ، واشتغل أهل كل بيت بمن لهم ؟

---

(١) فى ا « فقال له رجل من أصحابه » .

(٢) فى ب « بيت مال الكوفة » محرفا .

مسيره إلى الكوفة

وولى علىّ على البصرة عبدَ الله بن عباس، وسار إلى الكوفة ، فكان دخوله إليها لاثنتى عشرة ليلة مضت من رجب ؛ وبعث إلى الأشعث بن قيس يعزله عن أذربيجان وأرمينية ، وكان عاملا لعثمان [عليها ، وصرف عن همدان جرير بن عبد الله البجلى ، وكان عاملا لعثمان] ، فكان فى نفس الأشعث على علىّ ما ذكرنا من العزل، وما خاطبه به حين قدم عليه فيما اقتطع هنالك من الأموال .

على يبعث إلى معاوية

ووجّه بجرير بن عبد الله إلى معاوية [وقد كان الأشتر حذّره من ذلك ، وخوفه من جرير] ، وقد كان جرير قال لعلى : ابعثنى إليه ، فإنه لم يزل [لى] مستنصحا ووادا ، فآتيه وأدعوه إلى أن يسلم لك هذا الأمر ، وأدعو أهل الشام إلى طاعتك ، فقال الأشتر : لا تبعثه ولا تصدقه ، فوالله إنى لأظن هواه هواهم ونيته نيتهم ، فقال على: دعه حتى ننظر ما يرجع به إلينا ، فبعث به وكتب إلى معاوية معه يعلمه مبايعة المهاجرين والأنصار إياه واجتماعهم عليه ، ونكث الزبير وطلحة ، وما أوقع الله بهما ، ويأمره بالدخول فى طاعته ، ويعلمه أنه من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ، فلما قدم عليه جرير دافعه وساءله أن ينتظره وكتب إلى عمرو بن العاص على ما قدمنا [فقدم عليه فأعطاه مصر طُعْمَة على ما قدمنا] فى صدر هذا الباب ، فأشار إليه عمرو بالبعث إلى وجوه الشام وأن يُلزِم علياً دم عثمان ، ويقاتله بهم ؛ فقدم جرير على على فأخبره خبرهم، واجتماع أهل الشام مع معاوية على قتاله ، وأنهم يبكون على عثمان ويقولون : إن علياً قتله ، وآوى قتلته ومنع منهم ، وإنهم لا بُدَّ لهم من قتاله حتى يفنوه أو يفنيهم ، فقال الأشتر : قد كنت أخبرتك يا أمير المؤمنين بعداوته وغشه ، ولو بعثتنى لكنت خيراً من هذا الذى أرخى خناقه وأقام حتى لم يدع باباً نرجو روحه إلا فتحه ، ولا باباً نخاف منه إلا أغلقه ، فقال جرير : لو كنت ثَمَّ لقتلوك ، والله لقد ذكروا أنك من قتلة عثمان ، قال الأشتر : لو أتيتهم والله يا جرير لم يُعْيِنِى جوابهم ،

ولا ثقل على خطابهم ، وحملت معاوية على خطة أعجلته فيها عن الفكر ، ولو أطاعنى أمير المؤمنين فيك لحبسك وأشباهك فى محبس فلا تخرجون منه حتى يستقيم هذا الأمر .

فخرج جرير عند ذلك إلى بلاد قرقيسيا والرحبة من شاطىء الفرات ، وكتب إلى معاوية يعلمه بما نزل به ، وأنه أحب مجاورته والمقام فى داره ، فكتب إليه معاوية يأمره بالمسير إليه .

بين المغيرة ومعاوية

وبعث معاوية إلى المغيرة بن شُعْبة الثقفى — عند مُنْصَرَف على من الجمل ، وقبل مسيره إلى صِفِّينَ — بكتاب يقول فيه : لقد ظهر من رأى ابن أبى طالب ما كان تقدم من وعْده لك فى طلحة والزبير ، فما الذى بقى من رأيه فينا ؟ وذلك أن المغيرة بن شعبة لما قتل عثمان وبايع الناسُ عليا دخل عليه المغيرة فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لك عندى نصيحة ، فقال : وما هى ؟ قال : إن أردت أن يستقيم لك ما أنت فيه فاستعمل طلحة بن عبيد الله على الكوفة ، والزبير بن العوام على البصرة ، وابعث إلى معاوية بعهده عَلَى الشام حتى تلزمه طاعتك ، فإذا استقر قرارها رأيت فيه رأيك ، قال : أما طلحة والزبير فسأرى رأيى فيهما ، وأما معاوية فلا والله لا يرانى الله أستعين به مادام على حاله أبداً ، ولكنى أدعوه إلى ما عرفته ، فإن أجاب وإلا حاكمته إلى الله ، فانصرف المغيرة [مغضبا] وقال :

نصحت عليا فى ابن هند مقالةً فردت ، فلا يَسْمَعْ لها الدهرَ ثانيه
وقلت له : أرسل إليه بعهده عَلَى الشام ، حتى يستقر معاويه
ويعلم أهْلُ الشام أن قد مَلَكْته وأم ابن هند عند ذلك هاويه
فلم يقبل النصح الذى جئته به وكانت له تلك النصيحة كافيه

قال المسعودى رحمه الله : وقد قدمنا[1] فيما سلف من هذا الكتاب ما كان من المغيرة مع على ، وما أشار به ، وهذا أحد الوجوه المروية فى ذلك .

فهذه جوامع ما يُحتاج إليه من أخبار يوم الجمل وما كان فيه ، دون الإكثار والتطويل وتكرار الأسانيد [فى ذلك] والله ولى التوفيق .

(١) انظر ص ٣٦٣ السابقة .

ذكر جوامع مما كان بين أهل العراق[(١)]
وأهل الشام بِصِفِّينَ

قال المسعودي رحمه الله : قد ذكرنا جملا وجوامع من أخبار علي رضي الله عنه بالبصرة، وما كان يوم الجمل ؛ فلنذكر الآن جوامع من سيره[(٢)] إلى صِفِّينَ ، وما كان فيها من الحروب ، ثم نعقب ذلك بشأن الحكمين والنَّهْرَوَان ، ومقتله عليه السلام .

مسيره إلى صفين

وكان سير[(٢)] علي من الكوفة إلى صِفِّينَ لخمس خَلَوْنَ من شوال سنة ست وثلاثين ، واستخلف على الكوفة أبا مسعود عُقْبَة بن عامر الأنصاري[(٣)] فاجتاز في مسيره بالمدائن ، ثم أتى الأنبار ، وسار حتى نزل الرقة ، فعُقِدَ له هنالك جسر ، فعبر إلى جانب الشام .

عدد جيشه

وقد تنوزع في مقدار ما كان معه من الجيش ، فمكثر ومقلل ، والمتفق عليه من قول الجميع تسعون ألفاً ، وقال رجل من أصحاب علي لما استقروا مما يلي الشام من أبيات كتب بها إلى معاوية [حيث يقول] :

اثْبُتْ معاوي قد أتاك الْحَافِلُ تِسْعُونَ ألفاً كلهم مُقَاتِلُ
* عَمَّا قليل يَضْمَحِلُّ البَاطِلُ *[(٤)]

جيش معاوية

وسار معاوية من الشام ، وقد تنوزع في مقدار من كان معه [أيضاً] فمكثر ومقلل ، والمتفق عليه من قول الجميع خمس وثمانون ألفاً ، فسبق عليًّا إلى صِفِّينَ ،

---

(١) في ا « ذكر جوامع ما كان بين أهل العراق ــ إلخ » .
(٢) في ا « مسيره » (٣) في ا « عقبة بن عمرو الأنصاري » .
(٤) في ا « أسرع ما يقشع عنك الباطل » .

وعسكر فى موضع سهل أفيح اختاره قبل قدوم على ، على شريعة لم يكن على الفرات [فى ذلك الموضع] أسهل منها للوارد إلى الماء ، وما عداها أخراق عالية[1] ، ومواضع إلى الماء وَعْرة ، ووكل أبا الأعور السلمى بالشريعة مع أربعين ألفاً ، وكان على مقدمته ، وبات علىٌّ وجيشه فى البر عطاشاً قد حيل بينهم وبين الورود [إلى الماء] فقال عمرو بن العاص لمعاوية : إن علياً لا يموت عطشاً هو وتسعون ألفاً من أهل العراق وسيوفهم على عواتقهم ، ولكن دعهم يشربون ونشرب ، فقال معاوية : لا والله أو يموتوا عطشاً كما مات عثمان ، و[خرج] علىٌّ يدور فى عسكره بالليل ، فسمع قائلا [وهو] يقول :

[أيمنعنا القوم ماء الفرات ... وفينا علىٌّ وفينا الهدى ؟
وفينا الصلاة ، وفينا الصيام ، ... وفينا المناجون تحت الدجى

ثم مرَّ بآخر عند راية ربيعة ، وهو يقول :

أيمنعنا القَوْم ماء الفرَات ... وفينا الرِّمَاح وفينا الحَجَفْ ؟
[وفينا علىٌّ لَهُ صولة ... إذا خَوَّفُوه الردى لم يخف]
ونحن غداة لقينا الزبير ... وطلحة خُضْنَا غِمَارَ التلف
فما بالنا أمسِ أسْدَ العرين ... وما بالنا اليوم شاءَ النَّجَف ؟[2]

وألقى فى فسطاط الأشعث بن قيس رُقعة فيها :

لئن لم يُجَلِّ الأشعثُ اليومَ كربةً ... من الموت فيها للنفوس تَفَلُّتُ
فنشرب من ماء الفراتِ بسيفه ... فَهَبْنَا أُنَاسًا قَبلُ كانوا فموتُوا

فلما قرأها حَمِىَ وأتى عَلِيًّا رضى الله عنه ، فقال له : أخرج فى أربعة آلاف من الخيل حتى تهجم بهم فى وسط عسكر معاوية فتشرب وتستقى لأصحابك أو تموتوا عن آخركم ، وأنا مُسَيِّر الأشتَرَ فى خيل ورَجَّالة وراءكَ ، فسار الأشعث [فى أربعة آلاف من الخيل] وهو يقول مرتجزاً :

---

(١) فى ا « فأجواف علية » (٢) فى ا « شاء عجف » وليس بشىء .

لأوردنَّ خيـلىَ الفراتا شُعْثَ النَّواصى أو يقال ماتا

ثم دعا علىّ الأشتر فسرَّحه فى أربعة آلاف من الخيل والرجَّالة ، فصار يوم الأشعث [و] صاحب رايته وهو رجل من النَّخَع [وهو] يرتجز ويقول :

يا أشتر الخيرات يا خير النَّخَعْ وصاحبَ النصر إذا عَمَّ الفزع

قد جَزِعَ القَوْمُ وَعُمُّوا بالفزع إن تَسْقِنا اليوم فما هو بالبدع (١)

ثم سار علىّ رضى الله عنه وراء الأشتر بباقى الجيش ، ومضى الأشعث فما رد وَجْهَه [أحد] حتى هجم على عسكر معاوية ، فأزال أبا الأعور عن الشريعة ، وَغرَّق منهم بشراً وخيلا ، وأورد خيله الفرات ، وذلك أن الأشعث داخلته الحمية فى هذا اليوم ، وكان يقدم رمحه ثم يحث أصحابه فيقول : ازحموهم (٢) مقدار هذا الرمح ، فيزيلوهم عن ذلك المكان ، فبلغ ذلك من فعل الأشعث عليًّا ، فقال: هذا اليوم نصرنا فيه بالحمية ، وفى ذلك يقول رجل من أهل العراق :

كَشَفَ الأشعث عنا كُرْبَةَ الموت عِيانَا

بعد ما طارت طلاقا طيرةً مست لهَانَا

فلهُ المَنُّ علينـا وبه دارت رَحانَا

وارتحل معاوية عن الموضع ، وورد الأشتر ، وقد كشف الأشعث القومَ عن المـاء ، وأزالهم عن مواضعهم ، وورد علىٌّ فنزل فى الموضع الذى كان فيه معاوية فقال معاوية لعمرو بن العاص : يا أبا عبد الله ، ما ظنك بالرجل أتراه يمنعنا المـاء لمنعنا إياه (٣) ؟ وقد [كان] انحاز بأهل الشام إلى ناحية فى البر نائية عن الماء ، فقال له عمرو : لا ، إن الرجل جاء لغير هذا ، وإنه لا يرضى حتى تدخل فى طاعته أو يقطع حبل عاتقك ، فأرسل إليه معاوية يستأذنه فى وروده مشرعته واستقاء الناس (٤) من طريقه ودخول رسله فى عسكره ، فأباحه علىٌّ كلَّ ما سأل وطلب منه

(١) فى ا ، ب « قد خرج القوم وعالوا بالفزع » .

(٢) فى ب « ارجموهم » (٣) فى ا « كمنعنا إياه » .

(٤) فى ا « وإسقاء الماء » .

ولما كان أول يوم من ذى الحجة — بعد نزول علىّ على هذا الموضع يومين — بعث إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة[1] والدخول فى جماعة المسلمين ، وطالت المراسلة بينهما ، فاتفقوا على الموادعة إلى آخر المحرم من سنة سبع وثلاثين ، وامتنع المسلمون عن الغزو فى البحر والبر لشغلهم بالحروب ، وقد كان معاوية صالح ملك الروم على مال يحمله إليه لشغله بعلى ، ولم يتم بين على ومعاوية صلح على غير ما اتفقا [عليه من الموادعة فى المحرم ، وعزم القوم على الحرب بعد انقضاء المحرم] ففى ذلك يقول حابس بن سعد الطائى صاحب راية معاوية :

فما دونَ المنايا غيرُ سبع بقين من المحرم أو ثمان

ولما كان فى اليوم الآخر من المحرم قبل غروب الشمس بعث [علىٌّ] إلى أهل الشام : إنى قد احتججت عليكم بكتاب الله ، ودعوتكم إليه ، وإنى قد نبذت إليكم على سَوَاء ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين ، فلم يردوا عليه جوابا إلا « السيف بيننا وبينك أو يهلك الأعجز منا » .

مبدأ الحرب

وأصبح على يوم الأربعاء — وكان أول يوم من صفر — فعبّأ الجيش ، وأخرج الأشتر أمام الناس ، وأخرج إليه معاوية — وقد تصافّ أهل الشام وأهل العراق — حبيبَ بن مسلمة الفهرى ، وكان بينهم قتال شديد [سائر يومهم] ، وأسفرت عن قتلى من الفريقين[2] جميعاً ، وانصرفوا .

فلما كان يوم الخميس — وهو اليوم الثانى — أخرج على هاشم بن عتبة بن أبى وقاص الزهرى المِرْقَال ، وهو ابن أخى سعد بن أبى وقاص ، وإنما سمى المِرْقَالَ لأنه كان يرقل فى الحرب ، وكان أعور ذهبت عينه يوم اليرموك ، وكان من شيعة على ، وقد أتينا على خبره فى اليوم الذى ذهبت فيه عينه ، وحسن بلائه فى ذلك

(١) فى ا « إلى اجتماع الكلمة » .

(٢) فى ا « واستقرت عن قتلى » فى كل المواضع هذا وما بعده .

اليوم ، فى الكتاب الأوسط فى فتوح الشام ، فأخرج إليه معاوية أبا الأعور السُّلَمِى وهو سفيان بن عوف وكان من شيعة معاوية والمنحرفين عن على ، فكانت بينهم [الحرب] سِجَالاً ، وانصرفوا فى آخر يومهم عن قتلى كثير .

وأخرج على فى اليوم الثالث — وهو يوم الجمعة — أبا اليقظان عمار بن ياسر فى عدة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار فيمن تسرع معهم[1] من الناس ، وأخرج إليه معاوية عمرو بن العاص فى تَنُوخَ وبَهْرَاء[2] وغيرهما من أهل الشام ، فكانت بينهم سجالا إلى الظهر ، ثم حمل عمار بن ياسر فيمن ذكرنا ، فأزال عمراً عن موضعه وألحقه بعسكر معاوية ، وأسفرت عن قتلى كثيرة من أهل الشام ودونهم من أهل العراق .

وأخرج على فى اليوم الرابع — وهو يوم السبت — ابنه محمد بن الحنفية فى هَمْدَان وغيرها ممن خَفَّ معه من الناس ، فأخرج إليه معاوية عبيد الله بن عمر ابن الخطاب فى حمير ولَخْم وجُذَام ، وقد كان عبيد الله [بن عمر] لحق بمعاوية خوفا من علىّ أن يقيده بالهرمزان — وذلك أن أبا لؤلؤة [غلام المغيرة بن شعبة] قاتل عمر ، وكان فى أرض العجم غلاماً للهرمزان ، فلما قُتل عمر شَدَّ عبيد الله عَلَى الهرمزان فقتله ، وقال : لا أترك بالمدينة فارسياً ولا فى غيرها إلا قتلته بأبى ، وكان الهرمزان عليلا فى الوقت الذى قتل فيه عمر — فلما صارت الخلافة إلى علىّ أراد قتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان لقتله إياه ظلماً من غير سبب استحقه فلجأ إلى معاوية ، فاقتتلوا فى ذلك اليوم ، وكانت عَلَى أهل الشام ، ونجا ابن عمر فى آخر النهار هرباً .

وأخرج علىّ فى اليوم الخامس — وهو يوم الأحد — عبد الله بن العباس فأخرج إليه معاوية الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيْط ، فاقتتلوا ، وأكثر الوليد من

---

(١) فى ب « فيمن شرع معهم » .

(٢) فى ب « فى تنوخ ونهد » .

سَبٌّ بنى عبد المطلب بن هاشم ، فقاتله ابن عباس قتالا شديداً ، وناداه : ابرز إلى يا صفوان ، وكان لَقَبَ الوليد ، وكانت الغَلَبَة لابن عباس ، وكان يوماً صعباً

وأخــرج على فى اليوم السادس — وهو يوم الاُثنين — سعيد ابن قيس الهمدانى ، وهو سيد همدان يومئذ ، فأخرج إليه معاوية ذا الكَلاَع ، وكانت بينهما إلى آخر النهار ، وأسفرت عن قتلى ، وانصرف الفريقان جميعاً .

وأخرج علىّ فى اليوم السابع — وهو يوم الثلاثاء — الأشتر فى النَّخَع وغيرهم ، فأخرج إليه معاوية حبيبَ بن مسلمة الفهرى ، فكانت [الحرب] بينهم سجالا ، وصبر كلا الفريقين وتكافئوا وتواقفوا[1] للموت [ثم انصرف الفريقان] وأسفرت عن قتلى منهما ، والجراح فى أهل الشام أعم .

خروج علي للقتال

وخرج فى اليوم الثامن — وهو يوم الأربعاء — على رضى الله تعالى عنه بنفسه فى الصحابة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار وربيعة وهمدان .

قال ابن عباس : رأيت فى هذا اليوم علياً وعليه عمامة بيضاء ، وكأن عينيه سراجا سَليط ، وهو يقف على طوائف الناس فى مراتبهم يحثهم ويحرضهم[2] ، حتى انتهى إلىّ وأنا فى كثيف من الناس ، فقال : يا معشر المسلمين ، عموا الأصوات ، وأكملوا اللأمة ، واستشعروا الخشية ، وأقلقوا السيوف فى الأجفان قبل السلّة ، والحظوا الشَّزْر ، واطعنوا الهبر ، ونافحوا بالظبا[3] ، وصلوا السيوف بالخطا والنبال بالرماح ، وطيبوا عن أنفسكم أنفساً ، فإنكم بعين الله ، ومع ابن عم رسول الله ، عاودوا الكرّ ، واستقبحوا الفرّ ، فإنه عار فى الأعقاب ، ونار يوم الحساب

---

(١) فى ب « وتكاثروا وتواقفوا للحرب » .

(٢) فى ا « ويحضهم » .

(٣) فى ب « ونافحوا الصبا » .

ودونكم هذا السواد الأعظم ، والرواق المُطَنَّب ، فاضربوا نَهْجَه[١] ، فإن الشيطان راكب صعبده ، مفترش[٢] ذراعيه ، قد قَدَّم للوثبة يداً وأخَّرَ للنكوص رِجْلاً ، فصبراً جميلا حتى تنجلى عن وجه الحق ، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يَتِرَكم أعمالكم .

وتقدم علىٌّ للحرب على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشَّهْبَاء ، وخرج مُعاوية فى عدد أهل الشام ، فانصرفوا عند المساء وكلٌّ غير ظافر

وخرج فى اليوم التاسع — وهو يوم الخميس — علىّ ، وخرج معاوية ، فاقتتلوا إلى ضحوة من النهار ، وبرز أمام الناس عبيد الله بن عمر بن الخطاب فى أربعة آلاف من الخضرية معممين بشقاق الحرير الأخضر متقدمين للموت يطلبون بدم عثمان ، وابن عمر يقدمهم وهو يقول :

أنا عُبَيد الله يَنْمِينى عُمَرْ خير قريش مَنْ مضى ومن غَبَرْ
غير نبى الله والشيخ الأغر قد أبطأت فى نصر عثمان مُضَرْ
والربعيون ، فلا أُسقوا المطر

فناداه على : ويحك يا ابن عمر ، علام تقاتلنى ؟ والله لو كان أبوك حياً ماقاتلنى ، قال : أطالب بدم عثمان ، قال : أنت تطلب بدم عثمان ، والله يطلبك بدم الهرمزان ، وأمر علىّ الأشْتَرَ [النخعى] بالخروج إليه ، فخرج الأشتر إليه وهو يقول :

إنى أنا الأشتر معروف السير إنى أنا الأفعى العراقىُّ الذَّكَرْ
لست من الحى ربيع أو مضر لكننى من مَذْحِج البيض الغُرَرْ

فانصرف عنه عبيد الله ولم يبارزه ، وكثرت القتلى يومئذ .

(١) فى ا « فاضربوا بثجة » .
(٢) فى ب « معترض ذراعيه » .

عمار بن ياسر

وقال عمار بن ياسر : إنى لأرى وجوه قوم لايزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطلون ، والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سَعَفَاتِ هَجَرَ[١] لكنا على الحق وكانوا على الباطل .

وتقدم عمار فقاتل ثم رجع إلى موضعه فاستسقى ، فأتته امرأة من نساء بنى شيبان من مصافهم بعُسٍّ فيه لبن ، فدفعته إليه ، فقال : الله أكبر الله أكبر ، اليوم ألقى الأحبة تحت الأسنة ، صَدَقَ الصادق ، وبذلك أخبرنى الناطق ، وهو اليوم الذى وُعِدْتُ فيه ، ثم قال : أيها الناس ، هل من رائح إلى الله تحت العوالى ؟ والذى نفسى بيده لنقاتلنهم على تأويله كما قاتلناهم على تنزيله ، وتقدم وهو يقول :

نحن ضربناكم على تنزيله ... فاليوم نضربْكُمْ على تأويله

ضَرْباً يزيل الهام عن مَقِيلِهِ ... ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليله

أو يرجعَ الحقُّ إلى سبيله

فتوسط القوم ، واشتبكت عليه الأسنة ، فقتله أبو العادية العاملى[٢] وابن جَون السكسكى ، واختلفا فى سَلَبه ؛ فاحتكما إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال لهما : اخرجا عنى ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، أو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وولعت قريش بعمار[٣] «مالهم ولعمار ؟ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» وكان قتله عند المساء وله ثلاث وتسعون سنة ، وقبره بصفين وصلى عليه علىٌّ عليه السلام ولم يغسله ، وكان يغير شيبه . وقد تنوزع فى نسبه فمن الناس من ألحقه ببنى مخزوم ، ومنهم من رأى أنه من حُلَفَائهم ، ومنهم من رأى غير ذلك ، وقد أتينا على خبره فى كتاب « مزاهر الأخبار وطرائف الآثار »

---

(١) فى ا « شعبات هجر » محرفا وفى الطبرى (٦ / ٢١) مثل ما أثبتنا عن ب .

(٢) فى ا « أبو العادية العاملى وابن حوين السكسكى » وفى ب « أبو الهادية العاملى وأبو حواء السكسكى » وفى شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة (٢ / ٢٧٤) « ابن حوى السكسكى » وأحسب الأصل « ابن جون السكونى » .

(٣) فى ب « وبغت قريش بعمار » .

عند ذكرنا الأشراط الخمسين الذين بايعوا عليًّا على الموت ، وفى قتله يقول الحجاج ابن عُزَيّة[1] الأنصارى أبياتاً رثاه بها :

يا للرجال لعين دمعها جارى قد هاج حزنى أبو اليقظان عمّارُ
أهوى إليه أبو حوّا فوارسه يدعو السكون وللجيشين إعصار[2]
فاختلّ صدر أبى اليقظان معترضاً للرمح ، قد وجبت فينا له النار
الله عن جمعهم لاشك كان عفا أتت بذلك آيات وآثار
من ينزع الله غلاً من صدورهم على الأسرة لم تمسسهم النار
قال النبى له تقتلك شرذمة سيطت لحومهمُ بالبغى ، فُجّار
فاليوم يعرف أهل الشام أنهمُ أصحاب تلك وفيها النار والعار

ولما صرع عمار تقدم سعيد بن قيس الهمدانى فى همدان ، وتقدم [قيس ابن] سعد بن عُبادة الأنصارى فى الأنصار وربيعة ، وعدى بن حاتم فى طيء وسعيد بن قيس الهمدانى فى أول الناس ، فخلطوا الجمع بالجمع ، واشتدّ القتال وحطمت همدان أهل الشام حتى قذفتهم إلى معاوية ، وقد كان معاوية صَمَدَ فيمن كان معه لسعيد بن قيس ومن معه من همدان ، وأمر علىّ الأشتر أن يتقدم باللواء إلى أهل حمص وغيرهم من أهل قنسرين ، فأكثر القتل فى أهل حمص وقنسرين بمن معه من القراء ، وأبلى المِرْقَال[3] يومئذ بمن معه فلا يقوم له شيء ، وجعل يرقل كما يرقل الفحل فى قيده ، وعلىٌّ وراءه يقول له : يا أعور ، لا تكن جباناً ، تقدم ، والمِرْقال يقول :

قد أكثر القومُ وما أقلاّ أعور يبغى أهله محلا[4]

(١) فى ب « الحجاج بن عرية الأنصارى » ولم يذكر فى ا من الشعر غير البيتين الأخيرين ، وفى أول الأبيات المذكورة هنا عيب الإيطاء .
(٢) كذا فى ب ، وأحسب الأصل « أهوى إليه ابن جون فى فوارسه » .
(٣) فى ب « وأبلى المرقال » (٤) فى ا « قد أكثر القول » .

قد عالج الحياة حتى مَلاَّ لا بُدَّ أنْ يَفُلَّ أوْ يُفلاَّ
أشُلُّهُمْ بذى الكعوب شَلاَّ(١)

ثم صمدهاشم بن عتبة المِرْقَال لذى الكَلاَع وهو فى حمير، فحمل عليه صاحب لواء ذى الكلاع، وكان رجلا من عُذْرة وهو يقول:

أثبت فإنى لست من فرعَىْ مضر نحن اليمانيون مافينا ضجر
كيف ترى وقع غلام من عذر ينعى ابن عفان ويَلْحى من غدر
[ياأعور العين رمى فيها العور] سيان عندى من سعى ومن أمر

مصرع هاشم المرقال

فاختلفا طعنتين، فطعنه هاشم المرقال فقتله، وقتل بعده تسعة عشر رجلا، وحمل هاشم المرقال وحمل ذو الكلاع ومع المرقال جماعة من أسلم قد آلوا أن لا يرجعوا أو يفتحوا أو يقتلوا، فاجتلد الناس، فقتل هاشم المرقال، وقتل ذو الكلاع جميعاً، فتناول ابن المرقال اللواء حين قبل أبوه فى وسط المعركة وكر فى العَجَاج وهو يقول:

ياهاشم بن عتبة بن مالكْ أعْزِزْ بشيخ من قريش هالكْ
تخبطه الخيلاتُ بالسنابك أبْشِرْ بحور العين فى الأرائك
والرَّوْحِ والريحان عند ذلك

ووقف على رضى الله عنه عند مصرع المِرْقَال ومَنْ صرع حوله من الأسلميين وغيرهم، فدعا لهم وترحَّمَ عليهم، وقال من أبيات:

جزى الله خيراً عصبة أسلمية صباح الوجوه صُرِّعُوا حول هاشم
يزيد وعبد الله بشر بن معبد وسفيان وابنا هاشم ذى المكارم(٢)
وعروة لا ينفَدْ ثناه وذكره إذا اخترطت يوماً خفاف الصوارم(٣)

(١) فى ب « أسلهم بذى الكعوب سلا » وما أثبتناه عن ا أدق، ومعنى أشلهم: أطردهم وأسوقهم كما تطرد الأنعام وتساق. وفى الطبرى (٦ : ٢٤) « يتلهم بذى الكعوب تلا » ومعنى يتلهم يصرعهم. (٢) فى وقعة صفين « يزيد وعبد الله بشر ومعبد ». (٣) هذا البيت والذى قبله لا يوجدان فى ا، ووقع عجز هذا البيت فى ب « إذا سل بالبيض الخفاف الصوارم » محرفا عما أثبتناه عن وقعة صفين.

حذيفة بن اليمان ، وابناه

واستشهد فى ذلك اليوم صفوان وسعد ابنا حذيفة بن اليمان ، وقد كان حذيفة عليلا بالكوفة فى سنة ست وثلاثين ، فبلغه قتل عثمان وبيعة الناس لعلى فقال: أخرجونى وادعوا « الصلاةَ جَامعةً » فوضع على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وعلى آله ، ثم قال : أيها الناس ، إن الناس قد بايعوا عليًّا فعليكم بتقوى الله وانصروا عليًّا ووازروه ؛ فوالله إنه لعلى الحق آخراً وأولاً[1] ، وإنه لخير من مضى بعد نبيكم ومن بقى إلى يوم القيامة ، ثم أطبق يمينه على يساره ثم قال: اللهم اشهد ، إنى قد بايعت عليًّا ، وقال: الحمد لله الذى أبقانى إلى هذا اليوم ، وقال لابنيه صفوان وسعد : احملانى وكونا معه ، فستكون له حروب كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس ، فاجتهدا[2] أن تستشهدا معه ، فإنه والله عَلَى الحق ، ومن خالفه عَلَى الباطل ، ومات حذيفة بعد هذا اليوم بسبعة أيام ، وقيل : بأربعين يوماً [واستشهد عبد الله بن الحارث النخعي أخو الأشتر] واستشهد فيه عبد الله وعبد الرحمن ابنا بُدَيل بن ورقاء الخزاعى فى خلق من خزاعة ، وكان عبد الله فى ميسرة عَلِى وهو يرتجز ويقول :

لم يبق إلا الصبر والتوكلْ وأخذك الترس وسيف مصقل
ثم التمشى فى الرعيل الأولْ

فقتل ثم قتل عبد الرحمن أخوه بعده ، فيمن ذكرنا من خزاعة .

ولما رأى معاوية القتل فى أهل الشام وكَلَبَ أهل العراق عليهم استدعى بالنعمان ابن جَبَلة التنوخى -- وكان صاحب راية قومه فى تنوخ وبَهْرَاء[3] -- وقال له لقد هممت أن أولى قومك من هو خير منك مقدماً ، وأنصح منك[4] دينا ، فقال له النعمان: إنا لو كنا ندعو قومنا إلى جيش مجموع لكان فى كسع الرجال بعض الأناة

(١) فى ا « أولا وآخرا » (٢) فى ا « فاجهدا » .
(٣) فى ب « تنوخ ونهد » (٤) فى ا « وأنصح جيبا » .

فكيف ونحن ندعوهم إلى سيوف قاطعة، ورُدَيْنية شاجرة[١]، وقوم ذوى بصائر نافذة، والله لقد نصحتك على نفسى، وآثَرْتُ ملكك على دينى، وتركت لهواك الرشد وأنا أعرفه، وحِدْتُ عن الحق وأنا أبصره، وما وُفِّقْتُ لرشد حين أقاتل على ملكك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول مؤمن به ومهاجر معه، ولو أعطيناه ما أعطيناك لكان أرأف بالرعية، وأجزل فى العطية، ولكن قد بذلنا لك الأمر ولا بد من إتمامه كان غيا أو رشداً، وحاشا أن يكون رشداً، وسنقاتل عن تين الغوطة وزيتونها إذ حرمنا أثمار الجنة وأنهارها، وخرج إلى قومه، وصمد إلى الحرب[٢].

مقتل عبيد الله ابن عمر

وكان عبيد الله بن عمر إذا خرج إلى القتال قام إليه نساؤه فشددن عليه سلاحه، ما خلا الشيبانية بنت هانىء بن قبيصة، فخرج فى هذا اليوم، وأقبل على الشيبانية، وقال لها: إنى قد عبّأت اليوم لقومك، وايم الله إنى لأرجو أن أربط بكل طُنُب من أطناب فُسْطاطى سيداً منهم، فقالت له: ما أبغض إلا أن تقاتلهم قال: ولم؟ قالت: لأنه لم يتوجه إليهم صنديد [فى جاهلية ولا إسلام وفى رأسه صعَر] إلا أبادوه، وأخاف أن يقتلوك، وكأنى بك قتيلا وقد أتيتهم أسألهم أن يهبوا لى جيفتك، فرماها بقوس فشجّها وقال لها: ستعلمين بمن آتيك من زعماء قومك، ثم توجّه فحمل عليه حريث بن جابر الجعفى فطعنه فقتله، وقيل: إن الأشتر النخعى هو الذى قتله، وقيل: إن علياً ضربه [ضَرْبَةً] فقطع ما عليه من الحديد حتى خالط سيفه حُشْوة جوفه، وإن عليا قال حين هرب فطلبه ليقيد منه بالهرمزان: لئن فاتنى فى هذا اليوم لا يفوتنى فى غيره، وكلم نساؤه معاوية فى جيفته، فأمر أن تأتين ربيعة فتبذلن فى جيفته عشرة آلاف، ففعلن ذلك، فاستأمرت ربيعة علياً، فقال لهم: إنما جيفته جيفة كلب لا يحل بيعها، ولكن

(١) فى ا « وردينية شارعة ».

(٢) فى ا « وصمد للحرب ».

قد أجبتهم(١) إلى ذلك ؛فاجعلوا جيفته لبنت هانىء بن قبيصة الشيبانى زوجته، فقالوا لنسوة عبيد الله : إن شئتن شددناه إلى ذَنَبِ بغل ثم ضربناه حتى يدخل إلى عسكر معاوية ، فصرخن وقلن : هذا أشد علينا ، وأخبرن معاوية بذلك، فقال لهن : ائتوا الشيبانية فَسَلُوها أن تكلمهم فى جيفته ، ففعلن،وأتت القوم وقالت :أنا بنت هانىء بن قبيصة وهذا زوجى القاطع الظالم وقد حذرته ما صار إليه فهَبُوا إلىَّ جيفته ، ففعلوا ، وألقت إليهم بمطرف خز فأدرجوه فيه ودفعوه إليها [فمضت به ، وكان] قد شد فى رجله إلى طنب فسطاط من فساطيطهم.

ولما قتل عمار ومن ذكرنا فى هذا اليوم حرض على عليه السلام الناس وقال لربيعة : أنتم درعى ورمحى ، فانتدب له ما بين عشرة آلاف إلى أكثر من ذلك من ربيعة وغيرهم ، قد جادوا بأنفسهم لله عز وجل،وعلىٌّ أمامهم على البغلة الشهباء ، وهو يقول :

من أى يومَىَّ من الموت أفر أيومَ لم يُقدَّر أم يوم قُدِرْ(٢)

وحمل وحملوا معه حملة رجل واحد ، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض ، وأهمدوا كل ما أتوا عليه ، حتى أتوا إلى قبة معاوية ، وعلىٌّ لا يمر بفارس إلا قدَّه وهو يقول :

أضربهم ولا أرى معاويهْ الأخْزَرَ العين العظيم الحاويه(٣)

* تهوى به فى النار أمٌّ هاويه *

وقيل : إن هذا الشعر لبديل بن ورقاء ، قاله فى ذلك اليوم .

ثم نادى على : يا معاوية ، علام يقتل الناس بينى وبينك ؟ هلم أحاكمك إلى

(١) فى ا « ولكن إذا أجبتم فاجعلوا جيفته ـ إلخ » .
(٢) فى ا « أيوم لا يقدر أم يوم قدر » وفى صفين « أيوم ما قدر ـ إلخ »
(٣) فى ب « العظيم الهاوية » محرفا .

الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور، فقال له عمرو : قد أنصفك الرجل، فقال له معاوية : ما أنصفت، وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله أو أسره، فقال له عمرو : وما يجمل بك إلا مبارزته، فقال له معاوية : طمعت فيها بعدى، وحَقَدَها عليه .

وقد قيل فى بعض الروايات : إن معاوية أقسم على عمرو لما أشار عليه بهذا أن يبرز إلى على، فلم يجد عمرو من ذلك بداً، فبرز، فلما التقيا عرفه علىٌّ وشال السيف ليضربه به، فكشف عمرو عن عورته، وقال: مُكْرَهٌ أخوك لا بطل[1] فحول علىٌّ وجهه [عنه]، وقال : قبحت ! ورجع عمرو إلى مصافه.

وقد ذكر هشام بن محمد الكلبى عن الشرقى بن القطامى أن معاوية قال لعمرو بعد انقضاء الحرب : هل غششتنى منذ نصحتنى؟ قال : لا، قال : بلى والله يوم أشَرْتَ على بمبارزة على وأنت تعلم ما هو، قال : دعاك إلى المبارزة فكنت من مبارزته على إحدى الحسنيين : إما أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزداد شرفاً إلى شرفك، وإما أن يقتلك فتكون قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، فقال معاوية : يا عمرو، الثانية أشد[2] من الأولى .

وكان فى هذا اليوم من القتال ما لم يكن قبل، ووجدت فى بعض النسخ من أخبار صفين أن هاشما المِرْقَال لما وقع إلى الأرض وهو يجود بنفسه رفع رأسه فإذا عبيد الله بن عمر مطروحا[3] إلى قربه جريحا، فحبا[4] حتى دنا منه، فلم يزل يعض على ثدييه حتى نبتت فيه أسنانه لعدم السلاح والقوة؛ لأنه أصيب فوقه ميتاً هو ورجل من بكر بن وائل، قد زحفا إلى عبيد الله [جميعا] فنهشاه[5]، وانصرف القوم إلى مواضعهم، وخرج كل فريق منهم يحملون ما أمكن من قتلاهم .

(١) يروى النحاة هذا المثل « مكره أخاك لا بطل » على اللغة غير المشهورة من لغات العرب .

(٢) فى ب « أشر من الأولى » (٣) فى ب « مطروح »

(٤) فى ب « فجثا حتى دنا منه » (٥) فى ب « فجشاه »

ومن معاوية فى خواص من أصحابه فى الموضع الذى كانت ميمنته فيه ، فنظر إلى عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى مُعَفّراً بدمائه ، وقد كان على ميسرة على ، فحمل على ميمنة معاوية فأصيب على ما قدمنا آنفا ، فأراد معاوية أن يمثل به ، فقال له عبد الله بن عامر وكان صديقا لابن بديل : والله لا تركتك وإياه ، فوهبه له ، فغطاه بعمامته [وحمله] فواراه ، فقال له معاوية : قد والله واريت كبشا من كباش القوم وسيداً من سادات خزاعة غير مدافع ، والله لو ظفرت بنا خزاعة لأكلونا ، ولو أنا من جَنْدَل ، دون هذا الكبش ، وأنشأ يقول متمثلا :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ... وإن شَمَّرت يوما به الحرب شمرا

كليث هِزَبْرٍ كان يحمى ذِماره ... رمته المنـــــايا قصدها فتقطَّرا

ونظر على إلى غسان فى مصافهم لا يزولون[1] ، فحرض أصحابه عليهم ، وقال : إن هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن يخرج منه النسيم ، وضرب يفلق الهام ويصجُّ العظام[2] ، وتسقط منه المعاصم والأكف ، وحتى تشدخ جباههم بعُمُد الحديد[3] ، وتنتثر لممهم[4] على الصدور والأذقان ، أين أهل الصبر وطلاب الأجر ؟ فثاب إليه عصابة من المسلمين من سائر الناس ، فدعا ابنه محمداً ، فدفع إليه الراية وقال : امْشِ بها نحو هذه الراية مشياً رويداً ، حتى إذا أشرعت فى صدورهم الرماح ، فأمسك حتى يأتيك أمرى ، ففعل ، وأتاه على ومعه الحسن والحسين وشيوخ بدر وغيرهم من الصحابة ، وقد كَرْدَسَ الخيل ، فحملوا على غسان ومن يليها ، فقتلوا منها بشراً كثيراً ، وعادت الحرب فى آخر النهار كحالها فى أوله ، وحملت ميمنة معاوية وفيها عشرة آلاف من مذحج وعشرون ألفاً مقنعون فى الحديد على ميسرة على ، فاقتطعوا ألف فارس ، فانتدب من أصحاب على عبد العزيز بن الحارث الجعفى ، وقال لعلى : مرنى بأمرك ، فقال : شَدَّ

(١) فى ا « لايزالون »
(٢) فى ب « ويطفح الطعام » .
(٣) فى ب « بعدد الحديد »
(٤) فى ب « وتنتشر حواجبهم » .

ليلة الهرير

الله ركنك[1] ! سِرْ حتى تنتهى إلى إخواننا المحاط بهم ، وقل لهم : يقول لكم على : كبروا ثم احملوا ونحمل حتى نلتقى ، فحمل الجعفى ، فطعن فى عرضهم حتى انتهى إليهم ، فأخبرهم بمقالة على ، فكبروا ، ثم شدوا حتى التَقَوْا[2] بعلى ، وشَدَخُوا سبعمائة من أهل الشام ، وقتل حوشب ذو ظليم ، وهو كبش من كباش اليمن من أهل الشام ، وكان على راية ذُهْل بن شيبان[3] وغيرها من ربيعة الحُصَيْنُ[4] بن المنذر بن الحارث بن وعلة الذهلى ، وفيه يقول على فى هذا اليوم :

لمن راية سَوْداء يخفق ظلها ... إذا قلت قَدِّمْهَا حُضَيْنُ تقدما

فأمره بالتقدم ، واختلط الناس ، وبطل النبل ، واستعملت السيوف ، وجَنَّهم الليل ، وتنادوا بالشعار ، وتقصفت الرماح ، وتكادم القوم[5] ، وكان يعتنق الفارسُ الفارسَ ويقعان جميعاً إلى الأرض عن فرسيهما ، وكانت ليلة الجمعة — وهى ليلة الهرير — فكان جملة من قَتَلَ علىٌّ بكفه فى يومه وليلته خمسمائة وثلاثة وعشرين رجلا أكثرهم فى اليوم ، وذلك أنه كان إذا قتل رجلا كبر إذا ضرب ، ولم يكن يضرب إلا قتل ، ذكر ذلك عنه مَنْ كان يليه فى حربه ، ولا يفارقه من ولده وغيرهم .

وأصبح القوم على قتالهم ، وكسفت الشمس[6] ، وارتفع القَتَام ، وتقطعت الألوية [والرايات] ولم يعرفوا مواقيت الصلاة ، وغدا الأشتر يرتجز وهو يقول :

نحن قتلنا حَوْشَبا ... لما غدا قد أعلما
وذا الكَلاَع قبله ... ومعبدا إذ أقدَمَا

---

(١) فى ب « شد الله ركبك » (٢) فى ا « حتى لحقوا بعلى » .

(٣) فى ب « هذيل بن سنان » محرفا .

(٤) فى ا ، ب « حصين » بالصاد مهملة ، محرفا .

(٥) فى ب « وتصادم القوم » (٦) فى ا « وكشفت الشمس » تحريف .

إن تقتلوا منا أبا الـــيقظان شيخا مُسْلما
فقد قتلنا منكمُ سبعين رأساً مجرما
[أضْحَوْا بصفين وقد لاقوا نكالا مؤلما](١)

خدعة رفع المصاحف

وكان الأشتر فى هذا اليوم — وهو يوم الجمعة — على ميمنة على، وقد أشرف على الفتح، ونادت مشيخة أهل الشام : [يا معشر العرب] الله الله فى الحرمات والنساء والبنات، وقال معاوية: هلم مخبآتك يا ابن العاص فقد هلكنا، وتذكر ولاية مصر ، فقال عمرو : أيها الناس، مَنْ كان معه مصحف فليرفعه على رُمْحه ، فكثر فى الجيش رفع المصاحف ، وارتفعت الضجة ونادوا : كتاب الله بيننا وبينكم ، مَنْ لثغور الشام بعد أهل الشام؟ ومَنْ لثغور العراق بعد أهل العراق؟ ومن لجهاد الروم ؟ ومن للترك؟ ومن للكفار ؟ ورفع فى عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف ، وفى ذلك يقول النجاشى بن الحارث :

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القَنَا عليها كتاب الله خير قُرَانِ
ونادوا عليا : يا ابن عم محمد أما تتقى أن يَهْلِكَ الثقلانِ ؟

فلما رأى كثير من أهل العراق ذلك قالوا : نجيب إلى كتاب الله ونُنيب(٢) إليه ، وأحَبَّ القوم الموادعة ، وقيل لعلى: قد أعطاك معاوية الحق ، ودعاك إلى كتاب الله فاقبل منه ، وكان أشدهم فى ذلك [اليوم] الأشعث بن قيس ، فقال على : أيها الناس ، إنه لم يزل(٣) من أمركم ما أحب حتى قرحتكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت ، وإنى كنت بالأمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً ، وقد أحببتم البقاء ، فقال الأشتر : إن معاوية لا خَلَفَ له من رجاله ،

(١) هذا البيت لا يوجد فى ا ، وفى ص « نكالا مؤثما »
(٢) فى ب « ونتوب إليه »
(٣) فى ب « إنه لم يكن من أمركم — إلخ ».

ولك بحمد الله الخلف ، ولو كان له مثل رجالك لما كان له مثل صبرك ولا نصرك ، فاقرع الحديد(١) [بالحديد] واستعن بالله(٢) ، وتكلّم رؤساء أصحاب على بنحو من كلام الأشتر ، فقال الأشعث [بن قيس] : إنا لك اليوم على ما كنّا عليه أمس ، ولسنا ندرى ما يكون غداً ، وقد والله فُلّ الحديد ، وكَلّت البصائر(٣) ، وتكلم معه غيره بكلام كثير ، فقال على : ويحكم [إنهم] ما رفعوها لأنكم تعلمونها ولا يعلمون بها(٤) ، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومَكيدة ، فقالوا له : إنه ما يسعنا أن نُدْعَى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله ، فقال : ويحكم إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب ، فقد عَصَوُا الله فيما أمرهم به ، ونبذوا كتابه ، فامْضُوا على حقكم وقصدكم ، وخذوا فى قتال(٥) عدوكم ؛ فإن معاوية وابن العاص وابن أبى مُعَيْط وحبيب بن مسلمة وابن النابغة وعدداً غير هؤلاء ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وأنا أعْرَفُ بهم منكم ؛ صحبتهم أطفالا [ورجالا] ، فهم شر أطفال ورجال ، وجرى له مع القوم خطب طويل قد أتينا ببعضه ، وتهددوه أن يُصْنَع به ما صنع بعثمان ، وقال الأشعث : إن شئت أتَيْتُ معاوية فسألته ما يريد ، قال : ذلك إليك فأته إن شئت ، فأتاه الأشعث فسأله ، فقال له معاوية : نرجع نحن وأنتم إلى كتاب [الله ، و] إلى ما أمر به فى كتابه : تبعثون منكم رجلا ترضونه وتختارونه ، ونبعث برجل ، ونأخذ عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما فى كتاب الله ولا يخرجا عنه ، وننقاد جميعاً إلى ما اتفقا عليه من حكم الله ، فصَوّبَ الأشعث قوله ، وانصرف إلى على ، فأخبره ذلك ، فقال أكثر الناس : رضينا وقبلنا وسمعنا

---

(١) فى ب « فاقدع الحديد »

(٢) فى ب « واستعذ بالله » (٣) فى ا « كل الحديد وقلت البصائر »

(٤) فى ا « لأنهم يعلمونها ولا يعملون بها »

(٥) فى ا « وجدوا فى قتال عدوكم »

وأطعنا ، فاختار أهل الشام عمرو بن العاص ، وقال الأشعث ومن ارتد بعد ذلك إلى رأى الخوارج : رضينا نحن بأبى موسى الأشعرى ، فقال على : قد عصيتمونى فى أول [هذا] الأمر فلا تعصونى الآن ، إنى لا أرى أن أُوَلِّىَ أبا موسى الأشعرى ، فقال الأشعث ومن معه : لا نرضى إلا بأبى موسى الأشعرى ، قال : ويحكم ! هو ليس بثقة: قد فارقنى وخَذَّل الناس [منى] وفعل كذا وكذا ، وذكر أشياء فعلها أبو موسى ، ثم إنه هرب شهوراً حتى أمنته ، لكن هذا عبد الله بن عباس أُوَلِّيه ذلك، فقال الأشعث وأصحابه : والله لا يحكم فينا مُضَريان[1] ، قال على : فالأشتر ،قالوا :وهل هاج هذا[2] الأمر إلا الأشتر ، قال : فاصنعوا الآن ما أردتم ، وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه ، فبعثوا إلى أبى موسى وكتبوا له القصة[3] ، وقيل لأبى موسى : إن الناس قد اصطلحوا ، فقال : الحمد لله ، قيل : وقد جعلوك حكماً ، قال :إنا لله وإنا إليه راجعون .

---

(١) فى ب «مضرى» وما هنا عن ا أدق ، فإن عمرو بن العاص الذى اختاره معاوية مضرى ، فإذا انضم إليه ابن العباس ، وهو مضرى أيضا ، كانت الحكومة لمضريين ، وأكثر المتكلمين من أصحاب على قحطانيون .

(٢) فى ا « وهل أشعل ما نحن فيه إلا الأشتر » .

(٣) فى ب « وكتبوا له القضية » .

ذكر الحكمين وبدء التحكيم

كان أبو موسى الأشعرىُّ يحدِّث قبل وقعة صِفِّينَ ويقول : إن الفتن لم تزل فى بنى إسرائيل ترفعهم وتخفضهم حتى بعثوا الحكمين يحكمان بحكم لا يرضى به من اتبعهما [وإن هذه الأمة لا تزال بها الفتن ترفعها وتخفضها حتى يبعثوا حكمين يحكمان بما لا يرضى به من اتبعهما](١) ، فقال [له] سويد بن غَفَلة(٢) : إياك إن أدركت ذلك الزمان أن تكون أحَدَ الحكمين ، قال : أنا ؟ قال : نعم أنت ، قال : فكان يخلع قميصه ويقول : لا جعل الله لى إذا فى السماء مَصْعَداً ، ولا فى الأرض مقعداً ، فلقيه سويد بن غَفَلة بعد ذلك فقال : يا أبا موسى ، أتذكر مقالتك ؟ قال: سَلْ رَبَّكَ العافية .

شروط الحكم وموعد الاجتماع

وكان فيما كتب فى الصحيفة أن يُحْيِي الحكمان ما أحيا القرآن [ويميتا ما أمات القرآن] ، ولا يتبعان الهوى ، ولا يُدَاهنان فى شىء [من ذلك] فإن فعلا فلا حكم لهما ، والمسلمون من حكمهما بُرَاء ، وقال علىٌّ للحكمين حين أكره على أمرهما وورد الأشتر وكان قد أشرف فى ذلك اليوم على الفتح فأخبره مخبر بما قالوا فى على وأنه إن لم يَرُدَّه سُلِّم إلى معاوية يفعل به ما فعل بابن عفان، فانصرف الأشتر خوفاً على علىّ [فقال لهما علىٌّ] : على أن تحكما بما فى كتاب الله، وكتابُ الله كلُّه لى ، فإن لم تحكما بما فى كتاب فلا حكم لكما ، وصَيَّرُوا الأجل إلى شهر رمضان على اجتماع الحكمين فى موضع بين الكوفة والشام ، وكان الوقت الذى كتبت فيه الصحيفة لأيام بقين من صفر سنة سبع وثلاثين ، وقيل : بعد هذا الشهر منها ، ومَرَّ الأشعث بالصحيفة يقرؤها على الناس فرحاً مسروراً، حتى انتهى إلى مجلس لبنى تميم ، فيه جماعة من زعمائهم ، منهم عروة بن أدَيَّة(٣) التميمى ، وهو أخو بلال الخارجى ، فقرأها عليهم ، فجرى بين الأشعث وبين

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ب (٢) فى ب « سويد بن علقة » .

(٣) فى ا « عروة بن أذية » بالذال معجمة .

أناس منهم خطب طويل ، و إن الأشعث كان بدء هذا الأمر والمانع لهم من قتال عدوهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وقال له عروة بن أدَية : أتحكمون فى دين الله وأمره ونهيه الرجال؟لا حكم إلا لله، فكان أولَ من قالها وحكم بها ،وقد تنوزع فى ذلك ، وشد بسيفه على الأشعث فضم فرسه عن الضربة(١) فوقعت فى عجز الفرس ونجا الأشعث ، وكادت العصبية أن تقع بين النزارية واليمانية ، لولا اختلاف كلمتهم فى الديانة والتحكيم .

وفى فعل عروة بن أدَية بالأشعث يقول رجل من بنى تميم فى أبيات :

[عُرْو يا عرو كلُّ فتنة قوم سَلَفَتْ إنما تكون فَتيَّهْ](٢)
[ثم تَنْمِي ويعظم الخطب فيها فاحذرنْ غِبَّ ما أتيت عُرَيَّهْ]
أعَلَى الأشعث المعصب بالتا ج حملْتَ السلاح يا ابن أدَيه ؟
[إنها فتنة كفتنة ذى العجـ ل ، أيا عروة العَصاَ والعصيَّهْ]
فانظر اليوم ما يقول علىّ واتّبعه ، فذاك خيرُ البريه

عدة قتلى صفين

وقد تنوزع فى مقدار من قتل من أهل الشام والعراق بصفين : فذكر أحمد ابن الدورقى عن يحيى بن معين أن عدة من قتل بها من الفريقين فى مائة يوم وعشرة أيام مائة ألف وعشرة آلاف من الناس : من أهل الشام تسعون ألفاً ، ومن أهل العراق عشرون [ألفاً] ، ونحن نذهب إلى أن عدد من حضر الحرب من أهل الشام بصفين أكثر مما قيل فى هذا الباب ، وهو خمسون ومائة ألف مقاتل ، سوى الخدم والأتباع ، وعلى هذا يجب أن يكون مقدار القوم جميعاً مَنْ قاتل منهم ومن لم يقاتل من الخدم وغيرهم ثلثمائة ألف، بل أكثر من ذلك ؛ لأن أقل من فيهم معه واحد يخدمه ، وفيهم من معه الخمسة والعشرة من الخدم والأتباع وأكثر من ذلك ، وأهل العراق كانوا فى عشرين ومائة ألف مقاتل دون الأتباع والخدم

---

(١) فى ا « فعثر فرسه عن الضربة » .
(٢) هذه الأبيات لاتوجد فى ا .

وأما الهيثم بن عدى [الطائى] وغيره مثل الشرقى بن القطامى وأبى مخنف لوط ابن يحيى فذكروا ما قدمنا ، وهو أن جملة من قتل من الفريقين جميعاً سبعون ألفاً: من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً ، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، فيهم خمسة وعشرون بَدْرِيا ، وأن العدد كان يقع بالتقصّى [1] والإحصاء للقتلى فى كل وقت ، وتحصيل هذا يتفاوت ؛ لأن فى قتلى الفريقين من يُعْرَف ومن لا يعرف ، وفيهم من غرق ، وفيهم من قتل فى البر ؛ فأكلته السباع فلم يدركهم الإحصاء ، وغير ذلك مما يعتور [2] ما وصفنا ، وسمعت امرأة بصفين [من أهل العراق] وقد قتل لها ثلاثة أولاد وهى تقول :

أعينىَّ جُودَا بدمع سَرِبْ   على فتية من خيار العرب
وما ضرهم غير حَيْنِ النفوس   بأى امرىء من قريش غَلَبْ

بعد التحكيم

ولما وقع التحكيم تباغض القوم جميعاً [3] [وأقبل بعضهم يتبرأ من بعض]: يتبرأ الأخ من أخيه ، والابن من أبيه ، وأمر علىٌّ بالرحيل ، لعلمه باختلاف الكلمة ، وتفاوت الرأى ، وعدم النظام لأمورهم ، وما لحقه من الخلاف منهم ، وكثر التحكيم فى جيش أهل العراق ، وتضارب القوم بالمقارع ونعال السيوف ، وتسابوا ، ولام كل فريق منهم الآخر فى رأيه ، وسار علىٌّ يؤم الكوفة ، ولحق معاوية بدمشق من أرض الشام ، وفرّق عساكره فلحق كل جند منهم ببلده .

الخوارج الحرورية

ولما دخل علىٌّ رضى الله عنه الكوفة انحاز عنه اثنا عشر ألفاً من القراء وغيرهم فلحقوا بحَرَوْرَاء — قرية من قرى الكوفة — وجعلوا عليهم شبيب بن ربعى التميمى ، وعلى صلاتهم عبد الله بن الكوّاء اليشكرى من بكر بن وائل ، فخرج علىٌّ إليهم وكانت له معهم مناظرات ، فدخلوا جميعاً الكوفة : وإنما سموا الحرورية لاجتماعهم فى هذه القرية ، وانحيازهم إليها.

(١) فى ب « بالقضيب والإحصاء » محرفا.
(٢) فى ب « مما يعسر ما وصفنا ».
(٣) فى ا « تباين القوم جميعا » .

وقد ذكر يحيي بن معين قال : حدثنا وهب بن جابر بن حازم ، عن الصَّلْتِ ابن بهرام ، قال : لما قدم عليّ الكوفة جعلت الحرورية تناديه وهو على المنبر : جزعت من البلية ، ورضيت بالقضية ، وقبلت الدنية ، لا حكم إلا لله ، فيقول : حُكْمَ الله أنتظر فيكم ، فيقولون (ولقد أوحِيَ إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فيقول على : (فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) .

التقاء الحكمين

وفى سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين بدومة الجندل ، وقيل : بغيرها ، على ما قدمنا من وصف التنازع فى ذلك ، وبعث عليّ بعبد الله بن العباس وشريح ابن هانئ الهمدانى فى أربعمائة رجل فيهم أبو موسى الأشعرى ، وبعث معاوية بعمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن السمط[1] فى أربعمائة ، فلما تدانى القوم من الموضع الذى كان فيه الاجتماع قال ابن عباس لأبى موسى : إن علياً لم يرض بك حكما لفضلٍ عندك[2] والمتقدمون عليك كثير ، وإن الناس أبَوْا غيرك ، وإنى لأظن ذلك لشر يُرَاد بهم ، وقد ضم داهية العرب معك ، إن نسيتَ فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة ، وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة ، ووصى معاوية عمراً حين فارقه وهو يريد الاجتماع بأبى موسى ، فقال : يا أبا عبد الله ، إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على أبى موسى ، وأنا وأهل الشام رَاضُونَ بك ، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى ، فأخِّر الحز[3] ، وطبق المفصل ، ولا تَلْقَه برأيك كله ، ووافاهم سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمرو [وعبد الرحمن بن عوف الزهرى] والمغيرة ابن شعبة الثقفى وغيرهم ، وهؤلاء ممن قَعَدَ عن بيعة على ، فى آخرين من الناس ،

---

(١) فى ب « شرحبيل بن الصمة » .

(٢) فى ا « لفضول ما عندك » وفى ب « لفضل غيرك »

(٣) فى ب « فأخذ الجد » .

وذلك فى شهر رمضان [من سنة ثمان وثلاثين] ، فلما التقى أبو موسى وعمرو قال عمرو لأبى موسى: تكلم وقل خيراً ، فقال أبو موسى : بل تكلم أنت ياعمرو فقال عمرو : ما كنت لأفعل وأقدم نفسى قبلك ، ولك حقوق كلها واجبة لسنك وصحبتك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت ضيف ، فحمد الله أبو موسى وأثنى عليه ، وذكر الحدث الذى حلّ[1] بالإسلام ، والخلاف الواقع بأهله ، ثم قال : يا عمرو : هلم إلى أمر يجمع الله به الألفة ، ويلم الشّعَث ، ويصلح ذات البين ؟ فجزّاه عمرو خيراً، وقال : إن للكلام أولا وآخراً، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله ، فاجعل ما كان من كلام بيننا فى كتاب يصير إليه أمرنا ، قال : فاكتب ، فدعا عمرو بصحيفة وكاتب ، وكان الكاتب غلاماً لعمرو ، فتقدم إليه ليبدأ به أولا دون أبى موسى ؛ لما أراد من المكر به ، ثم قال له بحضرة الجماعة : اكتب فإنك شاهد علينا ، ولا تكتب شيئاً يأمرك به أحدنا حتى تستأمر الآخر فيه ، فإذا أمرك فاكتب ، وإذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا ، اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان فكتب ، وبدأ بعمرو ، فقال له عمرو : لا أم لك ! أتقدمنى قبله كأنك جاهل بحقه ؟ فبدأ باسم عبد الله بن قيس ، وكتب: تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ثم قال عمرو : ونشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عمل بكتاب الله وسنة رسول الله حتى قبضه الله إليه ، وقد أدّى الحق الذى عليه ، قال أبو موسى : اكتب ، ثم قال فى عمر مثل ذلك ، [فقال أبو موسى : اكتب] ثم قال عمرو : واكتب «وأن عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله

---

(١) فى ا « الذى أخل بالإسلام » .

صلى الله عليه وسلم ورضاً منهم ، وأنه كان مؤمناً ، فقال أبو موسى الأشعرى : ليس هذا مما قعدنا له ، قال عمرو : والله لا بد من أن يكون مؤمناً أو كافراً [فقال أبو موسى : كان مؤمنا ، قال عمرو : فمُرْه يكتب] : قال أبو موسى : اكتب ، قال عمرو : فظالما قتل عثمان أو مظلوما ، قال أبو موسى : بل قتل مظلوما ، قال عمرو : أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطانا يطلب بدمه ؟ قال أبو موسى : نعم ، قال عمرو : فهل نعلم لعثمان وليا أولى من معاوية ؟ قال أبو موسى : لا ، قال عمرو : أفليس لمعاوية أن يطالب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز [عنه] ؟ قال أبو موسى : بلى ، قال عمرو للكاتب : اكتب ، وأمره أبو موسى فكتب ، قال عمرو : فإنا نقيم البينة أن عليا قتل عثمان ، قال أبو موسى : هذا أمر قد حَدَثَ فى الإسلام ، وإنما اجتمعنا لغيره ، فهلم إلى أمر يصلح الله به [أمر] أمة محمد ، قال عمرو : وما هو ؟ قال أبو موسى : قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً ، وأن أهل الشام لا يحبون عليا أبداً ؛ فهلم نخلعهما جميعا ونستخلف عبد الله بن عمر ؟ وكان عبد الله بن عمر على بنت أبى موسى ، قال عمرو : أيفعل ذلك عبد الله بن عمر ؟ قال أبو موسى : نعم إذا حمله الناس على ذلك فعل ، فعمد عمرو إلى كل ما مال إليه أبو موسى فصوَّبه ، وقال له : هل لك فى سعد ؟ قال له أبو موسى : لا ، فعدَّد له عمرو جماعة وأبو موسى يأبى ذلك إلا ابن عمر ، فأخذ عمرو الصحيفة وطواها وجعلها تحت قدمه بعد أن ختماها جميعا ، وقال عمرو : أرأيت إن رضى أهل العراق بعبد الله بن عمر وأباه أهل الشام أتقاتل أهل الشام ؟ قال أبو موسى : لا ، قال عمرو : فإن رضى أهل الشام وأبى أهل العراق أتقاتل أهل العراق ؟ قال أبو موسى : لا ، قال عمرو : أما إذا رأيت الصلاح فى هذا الأمر والخير للمسلمين فقم فاخْطُبِ الناس ، واخلع صاحبينا [معا] وتكلم باسم هذا الرجل الذى تستخلفه ، فقال أبو موسى : بل أنت قم فاخطب فأنت أحق بذلك ، قال عمرو : ما أحب أن أتقدمك ، وما قولى وقولك للناس إلا قول واحد ، فقم راشداً .

تمام الخدعة

فقام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس ، إنا قد نظرنا فى أمرنا ، فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح ولَمِّ الشَّعَثِ وحَقْن الدماء وجمع الألفة خَلْعَنَا علياً ومعاوية ، وقد خلعت عليا كما خلعت عمامتى هذه ، ثم أهْوَى إلى عمامته فخلعها ، واستخلفنا رجلا قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وصحب أبوه النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فبرَّزَ فى سابقته ، وهو عبد الله بن عمر ، وأطْرَاه ، ورَغَّبَ الناس فيه ، ثم نزل .

فقام عمرو فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس ، إن أبا موسى عبدَ الله بن قيس قد خلع عليا وأخرجه من هذا الأمر الذى يطلب ، وهو أعلم به ؛ ألا وإنى قد خلعت علياً معه ، وأثبتُّ معاوية علىَّ وعليكم ، وإن أبا موسى قد كتب فى الصحيفة أن عثمان قد قتل مظلوماً شهيداً وأن لوليه [سلطانا] أن يطلب بدمه حيث كان ، وقد صحب معاوية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وصحب أبوه النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، [وأطراه ، ورغّب الناس فيه ، وقال] : هو الخليفة علينا ، وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان ، فقال أبو موسى : كَذب عمرو ، لم نستخلف معاوية ، ولكنا خلعنا معاوية وعلياً معا ، فقال عمرو : بل كَذب عبد الله بن قيس ، قد خلع علياً ولم أخلع معاوية .

قال المسعودى رحمه الله : ووجدت فى وجه آخر من الروايات أنهما اتفقا على خلع على ومعاوية ، وأن يجعلا الأمر بعد ذلك شورى : يختار الناس رجلا يصلح لهم ، فقدَّم عمرو أبا موسى ، فقال أبو موسى : إنى قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وتنحّى ، وقام عمرو مكانه فقال : إن هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبى معاوية ، فقال أبو موسى : مالك

لا وفقك الله غَدَرْتَ وفَجَرْتَ ؟ إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، فقال له عمرو : بل إياك يلعن الله ، كذبت وغدرت ، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ثم وكر أبا موسى[1] فألقاه لجنبه ، فلما رأى ذلك شريح بن هانىء قنّع عمراً بالسوط ، وانخزل أبو موسى[2] ، فاستوى على راحلته ولحق بمكة ، ولم يَعُدْ إلى الكوفة ، وقد كانت خطته وأهله وولده بها ، وآلى أن لا ينظر إلى وجه على ما بقى ، ومضى ابن عمر وسعد إلى بيت المقدس [فأحرما] .

ما قيل من الشعر فى التحكيم

وفى فعل الحكمين يقول أيمن بن خريم بن فاتك الأسدى :

لو كَانَ للقومِ رأى يعصمون به عند الخطوب رَمَوْكم بابن عباس
لكن رموكم بِوَغْدٍ من ذوى يمن لم يدر ما ضَرْبُ أخماس لأسداس

وفى اختلاف الحكمين والحكمة يقول بعض من حضر ذلك :

رضينا بحكم الله لا حكم غيره وبالله رَبًّا والنبى وبالذكر
وبالأصْلَعِ الهادى علىّ إمامنا رضينا بذاك الشيخ فى العسر واليسر
رَضِينا به حَيًّا وَمَيْتاً ؛ فإنه إمام الهدى فى موقف النهى والأمر

ولأبى موسى يقول ابن أعين[3] :

أبا موسى ، بليت وأنت شيخ قريب العفو محزون اللسان
وما عمرو صَفَاتُكَ يا ابن قيس فيا لله من شيخٍ يَمانى[4]
فأمسيت العشــيَّةَ ذا اعتذار ضعيف الركن منكوب الجنان
تعض الكف من ندمٍ ، وماذا يرد عليك عضك للبنان ؟

---

(١) فى ا « ثم ركل أبا موسى » . (٢) فى ب « وتحول أبو موسى »
(٣) فى ب « يقول ابن عباس » .
(٤) فى ا و ما عمرو صفابك » .

وقيل : إنه لم يكن بينهما غير ما كتباه فى الصحيفة وإقرار أبى موسى بأن عثمان قتل مظلوماً وغير ذلك مما قدمنا ، وإنهما لم يخطبا ، وذلك أن عمراً قال لأبى موسى : سَمِّ من شئت حتى أنظر معك ، فسمى أبو موسى ابن عمر [وغيره] ثم قال لعمرو : قد سميت أنا فَسَمِّ أنت ، قال : نعم ، أسمى لك أقوى هذه الأمة عليها ، وأسَدَّها رأياً ، وأعلمها بالسياسة ، معاوية بن أبى سفيان ، قال : لا والله ما هو لذلك بأهل ، قال : فآتيك بآخر ليس هو بدونه ، قال : من هو ؟ قال : أبو عبد الله عمرو بن العاص ، فلما قالها علم أبو موسى أنه يلعب به ، فقال : فعلتها لعنك الله ، فتَسَابَّا ، فلحق أبو موسى بمكة .

فلما انصرف أبو موسى انصرف عمرو بن العاص إلى منزله ، ولم يأت إلى معاوية ، فأرسل إليه معاوية يدعوه ، فقال : إنما كنت أجيئك إذ كانت لى إليك حاجة ، فأما إذا كانت الحاجة إلينا فأنت أحق أن تأتينا ، فعلم معاوية ما قد دُفع[1] إليه ، فخمر الرأى وأعمل الحيلة ، وأمر معاوية بطعام كثير فصنع ، ثم دعا بخاصته ومواليه وأهله ، فقال : إنى سأغدو إلى عمرو ، فإذا دعوت بالطعام فَدَعُوا مواليه وأهله فليجلسوا قبلكم ، فإذا شبع رجل [منهم] وقام فليجلس رجل منكم مكانه ، فإذا خرجوا ولم يبق فى البيت أحد منهم فأغلقوا باب البيت ، واحذروا أن يدخل أحد منهم إلا أن آمركم .

خدعة معاوية لعمرو بن العاص

وغدا إليه معاوية وعمرو جالس على فراشه ، فلم يقم له عنها ، ولا دعاه فجاء مُعاوية وجلس على الأرض ، واتكأ على [ناحية] الفراش ، وذلك أن عمراً كان يحدث نفسه أنه قد ملك الأمر وإليه العقد ، يضعها فيمن يرى ، وينتدب للخلافة من يشاء ، فجرى بينهما كلام كثير ، وكان مما قال له عمرو : هذا الكتاب الذى

(١) فى ب « ما قد وقع إليه ، فخد الرأى »

بينى و بينه عليه خاتمى وخاتمه ، وقد أقرَّ بأن عثمان قتل مظلوماً ، وأخرج عليًّا من هذا الأمر ، وعرَض علىَّ رجالا لم أرهم أهلا لها ، وهذا الأمر إلى أن أستخلف من شئته، وقد أعطانى أهل الشام عهودهم ومواثيقهم ، فحادثه معاوية ساعة وأخرجه عما كانوا عليه ، وضاحكه وداعبه ، ثم قال : يا أبا عبد الله ، هل من غداء ؟قال : أمَّا شىء يشبع مَنْ ترى فلا والله، فقال معاوية:هلم ياغلامى غداءك ، فجىء بالطعام المسنعد ، فوضع ، فقال : يا أبا عبد الله ، ادع موالىك وأهلك،فدعاهم،ثم قال له عمرو: وادع أنت أصحابك، قال : نعم،يأكل أصحابك [أولا] ثم يجلس هؤلاء بعدُ ، فجعلوا كلما قام رجل من حاشية عمرو قعد موضعه رجل من حاشية معاوية ، حتى خرج أصحاب عمرو وبقى أصحاب معاوية ، فقام الذى وكله بغلق الباب ، فأغلق الباب ، فقال له عمرو : فعلتها ، فقال : إى والله بينى وبينك أمران فاختر أيهما شئت : البيعة لى ، أو أقتلك، ليس والله غيرهما، قال عمرو : فأْذَن لغلامى وردان حتى أشاوره وأنظر رأيه ، قال : لا تراه والله ولا يراك إلا قتيلا أو على ما قلت لك ، قال : فالوفاء إذن بطعمة مصر[1]،قال: هى لك ما عشت ، فاستوثق كل واحد منهما من صاحبه ، وأحضر معاوية الخواصَّ من أهل الشام ، ومنع أن يدخل معهم أحد من حاشية عمرو ، فقال لهم عمرو : قد رأيت أن أبايع معاوية ، فلم أر أحداً أقوى على هذا الأمر منه ، فبايعه أهل الشام ، وانصرف [معاوية] إلى منزله[2] خليفة .

بين على وأصحابه

ولما بلغ عليًّا ما كان من أمر أبى موسى وعمرو قال : إنى كنت تقدمت إليكم فى هذه الحكومة ونهيتكم عنها ، فأبيتم إلا عصيانى ، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم على ؟ والله إنى لأعرف مَنْ حملكم على خلافى والترك لأمرى،ولو أشاء أخذه لفعلت ، ولكن الله من ورائه ، يريد بذلك الأشعث بن قيس

---

(١) فى ب « قال : فأولنى إذا مصر » .

(٢) فى ا « وانصرف معاوية إلى أهله خليفة » .

والله أعلم ، وكنت فيما أمرت به كما قال أخو بنى خثعم[(١)] :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

مَنْ دعا إلى هذه الحكومة فاقتلوه قتله الله ولو كان تحت عمامتى هذه ، ألا إن هذين الرجلين الخاطئين اللذين اخترتموها حكمين قد تركا حكم الله ، وحكما بهوى أنفسهما بغير حجة ولا حق معروف ، فأماتا ما أحيا القرآن ، وأحييا ما أماته ، واختلف فى حكمهما كلامهما ، ولم يرشدهما الله ولم يوفقهما ، فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين ، فتأهبوا للجهاد[(٢)] واستعدوا للمسير ، وأصبحوا فى عساكركم[(٣)] إن شاء الله تعالى .

قال المسعودى : وقد اختلفت الفرق من أهل ملتنا فى الحكمين ، وقالوا فى ذلك أقاويل كثيرة ، وقد أتينا على ما ذهبوا إليه فى ذلك وما قاله كل فريق منهم ، ومن أيد قوله من الخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم من فرق هذه الأمة فى كتابنا فى « المقالات فى أصول الديانات » وذكرنا فى كتاب « أخبار الزمان » قول على فى مواقفه وخطبه ، وما قاله فى ذلك ، وما أكره عليه ، وتأنيبه[(٤)] لهم بعد الحكومة ، وما تقدم الحكومة من تحذيره إياهم منهاجين ألحوا فى تحكيم أبى موسى الأشعرى وعمرو ، حيث قال : ألا إن القوم قد اختاروا لأنفسهم أقرب الناس مما يحبون ، واخترتم لأنفسكم أقرب الناس مما تكرهون ، إنما عهدكم بعبد الله بن قيس بالأمس وهو يقول ألا إنها فتنة ، فقطعوا فيها أوتاركم وكسروا قسيكم ، فإن يك صادقاً فقد أخطأ فى مسيره غير مستكره عليه ، وإن يك كاذباً فقد لزمته التهمة ، وهذا كلام أبى موسى فى تخذيله الناس ،

---

(١) فى ا « كما قال أبو هيثم » .

(٢) فى ا « فتهيئوا للقتال » . (٣) فى ب « وأصبحوا فى عساكرهم

(٤) فى ب « وما بينه لهم بعد الحكومة » .

وتحريضهم على الجلوس [وتثبيطهم] عن أمير المؤمنين عليّ فى حروبه ومسيره إلى الجمل وغيره ، ثم ما قاله فى بعض مقاماته فى معاتبته لقريش ، وقد بلغه عن أناس منهم ممن قعد عن بيعته ونَافَقَ فى خلافته كلام كثير ، فقال: وقد زعمت قريش أن ابن أبى طالب شجاع ولكن لا علم له بالحروب ، تَرِبتْ أيديهم ! وهل فيهم أشد مِرَاساً لها منى ؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين[1] ، وها أنا ذا قد أربيت[2] على نيف وستين ، ولكن لا رَأْىَ لمن لا يُطَاع .

قال المسعودى : وإذ قد تقدم ذكرنا جُمَلٍ من أخبار الجمل وصِفِّينَ والحكمين ؛ فلنذكر الآن جوامع من أخبار يوم النهروان ، ونعقب ذلك بذكر مقتله عليه السلام ، وإن كنا قد أتينا على مبسوط سائر ما تقدم لنا فى هذا الكتاب وما تأخر ، فيما سلف من كتبنا ، والله أعلم .

---

(١) فى ب « وما بلغت الثلاثين » وليس بدقيق ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقى ربه وعلى رضى الله عنه ابن ثلاثين سنة تقريبا ، وقد حارب رسول الله قبل انتقاله للرفيق الأعلى عشر سنين أو يزيد .

(٢) فى ا « وقد أتيت على نيف وستين » .

ذكر حروبه[1] رضى الله عنه مع أهل النهروان

وما لحق بهذا الباب من مقتل محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه والأشتر النخعى ، وغير ذلك

اجتماع الخوارج ومسير على إليهم

واجتمعت الخوارج فى أربعة آلاف ، فبايعوا عبد الله بن وَهْب الراسبى ، ولحقوا بالمدائن ، وقتلوا عبد الله بن خباب عامل على عليها : ذبحوه ذبحاً ، وبقروا بطن امرأته وكانت حاملا ، وقتلوا غيرها من النساء ، وقد كان على انفصل عن الكوفة فى خمسة وثلاثين[2] ألفاً ، وأتاه من البصرة ، من قبل ابن عباس — وكان عامله عليها — عشرة آلاف[3] فيهم الأحْنَفُ بن قيس وحارثة بن قدامة السعدى ، وذلك فى سنة ثمان وثلاثين ، فنزل على الأنبار ، والتأمت إليه العساكر ، فخطب الناس وحرضهم على الجهاد ، وقال : سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قُدُماً ، فإنهم طالما سَعَوْا فى إطفاء نور الله ، وحرضوا على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، ألا إن رسول الله أمرنى بقتال القاسطين وهم هؤلاء الذين سرنا إليهم ، والناكثين وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم ، والمارقين ولم نلقهم بعد ، فسيروا إلى القاسطين ، فهم أهم علينا من الخوارج ، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جَبَّارين يتخذهم الناس أرباباً ، ويتخذون عباد الله خَوَلاً ومالهم دُوَلاً ، فأبوا إلا أن يبدءوا بالخوارج ، فسار علىّ إليهم ، حتى أتى النهروان ، فبعث إليهم بالحارث بن مرة العبدى رسولا يدعوهم إلى الرجوع ، فقتلوه ، وبعثوا إلى على : إن تُبْتَ من حكومتك وشهدت على نفسك [بالكفر] بايعناك ، وإن أبيت فاعتزلنا حتى نختار لأنفسنا إماماً فإنا منك بَرَاء ، فبعث إليهم على : أن ابعثوا إلى[4]

---

(١) فى ا « ذكر حربه » (٢) فى ا « خمسة وستين ألفا » .

(٣) فى ا « ثلاثة آلاف » .

(٤) فى ا « أن ادفعوا إلى قتلة إخوانى فأقتلهم » .

بقتلة إخوانى فأقتلهم ثم أتاركـكم إلى أن أفرغ من قتال أهل المغرب ، ولعل الله يُقَلِّبُ قلوبكم ، فبعثوا إليه : كلنا قتلة أصحابك ، وكلنا مستحلٌّ لدمائهم، مشتركون فى قتلهم ، وأخبره الرسول — وكان من يهود السواد — أن القوم قد عبروا نهر طبرستان[1] ، وهذا النهر عليه قنطرة ، تعرف بقنطرة طبرستان، بين حلوان وبغـداد ، من بلاد[2] خراسان ، فقال على : والله ما عبروه ولا يقطعونه ، حتى نقتلهم بالرميلة دونه ، ثم تواترت عليه الأخبار بقطعهم لهذا النهر ، وعبورهم هذا الجسر ، وهو يأبى ذلك ، ويحلف أنهم لم يعبروه، وأن مصارعهم دونه . ثم قال : سيروا إلى القوم ، فوالله لا يفلت منهم إلا عشرة،ولا يقتل منكم إلا عشرة، فسار على، فأشْرَفَ عليهم، وقد عسكروا بالموضع المعروف بالرميلة على[حسب]ماقال لأصحابه. فلما أشْرَفَ عليهم قال: الله أكبر ، صدق [الله و] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتصافَّ القوم ، ووقف عليهم بنفسه ، فدعاهم إلى الرجوع والتوبة ، فأبوا ورموا أصحابه ، فقيل له : قد رمونا ، فقال : كفوا ، فكرروا القول عليه ثلاثاً وهو يأمرهم بالكف ، حتى أتى برجل قتيل متشَحِّط بدمه ، فقال على : الله أكبر ، الآن حَلَّ قتالهم ، احملوا على القوم ، فحمل رجل من الخوارج على أصحاب على ، فجرح[3] فيهم ، وجعل يغشى كل ناحية ، ويقول :

أضربهم ولو أرى عليا   ألبسته أبيضَ مَشْرَفيا

فخرج إليه على رضى الله عنه ، وهو يقول :

يا أيُّهَـذَا المبتغى عليًّا   إنى أراك جاهلا شَقِيًّا
قد كنت عن كفاحه غنيًّا   هَلُمَّ فابرز هاهنا إليَّا[4]

---

(١) فى ا « نهر طرارستان » (٢) فى ا « من جادة خراسان ».
(٣) فى ب « فخرج فيهم » (٤) فى ا « قد كنت عن لقائه غنيا » .

وحمل عليه علىٌّ ، فقتله .

ثم خرج منهم آخر ، فحمل على الناس ، ففتك فيهم[1] ، وجعل يكر عليهم ، وهو يقول :

أضربهم ولو أرى أبا حَسَنْ ألبسته بِصَارِمِى ثوب غَبَنْ[2]

فخرج إليه علىٌّ وهو يقول :

يا أيهذا المبتغى أبا حَسَنْ إليك فانظر أينا يلقى الغَبَنْ

وحمل عليه علىٌّ وشكّه بالرمح ، وترك الرمح فيه ، فانصرف على وهو يقول : لقد رأيتَ أبا حسن فرأيتَ ما تكره.

وحمل أبو أيوب الأنصارى على زيد بن حصن فقتله ، وقتل عبد الله بن وهب الراسبى ، قتله[3] هانىء بن حاطب الأزدى ، وزياد بن حفصة ، وقتل حرقوص بن زهير السعدى ، وكان جملة من قتل من أصحاب على تسعة ، ولم يفلت من الخوارج إلا عشرة ، وأتى علىٌّ على القوم ، وهم أربعة آلاف ، فيهم المخدج [ذو الثدَيَّة] إلا من ذكرنا من هؤلاء العشرة ، وأمر على بطلب المخدج ، فطلبوه ، فلم يقدروا عليه ، فقام علىٌّ وعليه أثر الحزن لفقد المخدج ، فانتهى إلى قتلى بعضهم فوق بعض ، فقال : أفرجوا ، ففرجوا يميناً وشمالا واستخرجوه ، فقال على رضى الله عنه : الله أكبر ، ما كَذَبْتُ على محمد ، وإنه لناقص اليد ليس فيها عظم ، طرفها حلمة مثل ثَدْىِ المرأة ، عليها خمس شعرات أو سبع ، رؤوسها معقفة ، ثم قال : ائتونى به ، فنظر إلى عضده ، فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدى المرأة عليه شعرات سود إذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذى بطن يده الأخرى ، ثم تُترك فتعود إلى منكبه ، فثَنَى رجله ونزل ، وخر لله ساجداً .

المخدج (ذو الثدية)

---

(١) فى ا « فقتل فيهم » . (٢) فى ا يروى هذان البيتان هكذا :

أضربهم ولو أرى أبا حسن ذاك الذى لهذه الدنيا ركن

(٣) فى ب « وقتل عبد الله بن وهب الذى قتل هانىء بن حاطب »

ثم ركب ومرَّ بهم وهم صَرْعَى، فقال: لقد صرعكم مَنْ غركم، قيل: ومَنْ غرهم؟ قال: الشيطان وأنفُسُ السوء، فقال أصحابه: قد قطع الله دابرهم إلى آخر الدهر، فقال: كلا والذى نفسى بيده، وإنهم لفى أصلاب الرجال وأرحام النساء، لا تخرج خارجة إلا خرجت بعدها مثلها حتى تخرج خارجة بين الفرات ودجلة مع رجل يقال له الأشمط[1] يخرج إليه رجل منا أهل البيت فيقتله[2]، ولا تخرج بعدها خارجة إلى يوم القيامة .

وجمع على ما كان فى عسكر الخوارج، فقسم السلاح والدواب بين المسلمين، وردَّ المتاع والعبيد والإماء إلى أهليهم، ثم خطب الناس، فقال: إن الله قد أحسن إليكم وأعز نصركم، فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم، فقالوا: يا أمير المؤمنين قد كَلَّت سيوفنا، ونفدَتْ نبالنا، ونصلت أسنة رماحنا، فدعنا نستعد بأحسن عُدَّتنا، وكان الذى كلمه بهذا الأشعث بن قيس، فعسكر على بالنخيلة .

تفرق أصحاب على وردتهم

فجعل أصحابه يتسللون ويلحقون بأوطانهم، فلم يبق معه إلا نفر يسير، ومضى الحارث بن راشد الناجى فى ثلاثمائة من الناس فارتدوا إلى دين النصرانية، وهم من ولد سامة بن لؤى [بن غالب، من ولد إسماعيل] عند أنفسهم، وقد أبى ذلك كثير من الناس، وذكروا أن سامة بن لؤى ما أعْقَبَ، وقد حكى عن على فيهم ما قد ذكرناه فى كتابنا فى «أخبار الزمان».

ولد سامة ابن لؤى وعلى

ولست [تكاد] ترى ساميًّا إلا منحرفًا عن على: من ذلك ما ظهر من على بن الجَهْم الشاعر السامى من النصب[3] والانحراف، وقد أتينا على لمع من شعره وأخباره فى الكتاب الأوسط، ولقد بلغ من انحرافه ونصبه العداوة لعلى عليه السلام أنه

---

(١) فى ب «الأسمط» بالسين المهملة، تحريف (٢) فى ب «فيقتلهم»

(٣) فى ب «من التعصب والانحراف» والنصب: كراهية آل بيت رسول الله، ويسمى معتنقو ذلك ناصبة .

كان يلعن أباه ، فسئل عن ذلك ، وبم استحق اللعن منه ؟ فقال : بتسميته إياى عليا .

فسرّح إليهم[1] علىٌّ معقلَ بن قيس الرياحى ، فقتل الحارث ومن معه من المرتدين ..بسيف البحر ، وسبى عيالهم وذراريهم ، وذلك بساحل البحرين ، فنزل معقل بن قيس بعض كُوَرِ الأهواز بسبى القوم ، وكان هنالك مصقلة بن هبيرة الشيبانى عاملا لعلى ، فصاح به النسوة : امنن علينا ، فاشتراهم بثلثمائة ألف [درهم] وأعتقهم ، وأدّى من المال مائتى ألف وهَرَب إلى معاوية ، فقال على : قبح الله مصقلة ، فعل فعل السيد وفر فرار العبد ، لو أقام أخَذْنَا ماقَدَرْنَا على أخذه ، فإن أعسر أنظرناه ، وإن عجز لم نأخذه[2] بشىء ، وأنفذ العتق وفى ذلك يقول مصقلة بن هبيرة ، من أبيات :

تركت نساء الحى بكر بن وائل وأعتقت سَبْياً من لؤى بن غالب
وفارقت خير الناس بعد محمد لمالٍ قليلٍ لا محالة ذاهب

وفى ذلك يقول الآخر :

ومصقلة الذى قد باع بيعاً ربيحاً يوم ناجية بن سامه

ولمصقلة أفعال أتاها ، وحيل عملها قد ذكرناها وما قال فى ذلك من الشعر فى الكتاب الأوسط .

وقال على بن محمد بن جعفر [العلوى] فيمن انتمى إلى سامة بن لؤى ابن غالب[3] .

وسامة منّا ، فأما بنوه فأمرُهُمُ عندنا مُظْلِم

(١) فى ب « فسرح عليهم » (٢) فى ب « لم نؤاخذه بشىء »
(٣) فى ب « سامة بن لؤىء بن غالب بن محمد » وكلمة « بن محمد » خطأ ، فلم نذكرها ، وكلمة « بن غالب » ساقطة من ا

أُناس أتونا بأنسابهم خرافة مضطجع يحلُمُ
وقلنا لهم مثل قول الوصِىِّ وكلُّ أقاويله مُحْكم
إذا ما سئلت فلم تَدْرِ ما تقول ، فقل : ربنا أعلم

عمرو بن العاص ومحمد بن أبى بكر فى مصر

وفى سنة ثمان وثلاثين وجه معاوية عمرو بن العاص إلى مصر فى أربعة آلاف ، ومعه معاوية بن خديج[١] ، وأبو الأعور السلمى ، واستعمل عمراً عليها حياته ، ووَفّى له بما تقدم من ضمانه ، فالتقوا هم ومحمد بن أبى بكر — وكان عامل على عليها — بالموضع المعروف بالمسناة[٢] ، فاقتتلوا ، فانهزم محمد لإسلام أصحابه إياه وتركهم له ، وصار إلى موضع بمصر ، فاختفى فيه ، فأحيط بالدار ، فخرج إليهم محمد ومن معه من أصحابه ، فقاتلهم حتى قتل ، فأخذه معاوية بن خديج[١] وعمرو بن العاص وغيرهما ، فجعلوه فى جلد حمار وأضرموه بالنار ، وذلك بموضع فى مصر ، يقال له : كوم شريك ، وقيل : إنه فعل به ذلك ، وبه شىء من الحياة ، وبلغ معاوية قتل محمد وأصحابه ، فأظهر الفرح والسرور . وبلغ عليا قتل محمد وسرور معاوية ، فقال : جزعنا عليه على قدر سرورهم ، فما جزعتُ على هالك منذ دخلت هـــذه الحروبَ جزَعِى عليه ، كان لى ربيباً ، وكنت أعدُّه ولداً ، وكان بى براً ، وكان ابن أخى ، فعلى مثل هذا نحزن[٣] ، وعند الله نحتسبه .

ولاية الأشتر ومقتله بالعريش مسموما

وولّى على الأشتر مصر وأنفذه إليها فى جيش ، فلما بلغ ذلك معاوية دَسَّ إلى دهقان كان بالعريش ، فأرغبه ، وقال : أترك خراجك عشرين سنة ، واحتل للأشتر بالسم فى طعامه ، فلما نزل الأشتر العريش سأل الدهقانُ : أى الطعام والشراب أحبُّ إليه ؟ قيل له : العسل ، فأهدى له عسلا ، وقال :

---

(١) فى ا « معاوية بن حديج » بالحاء المهملة.
(٢) فى ب « المعروف بالمنشأة » .
(٣) فى ا « فقل مثل هذا الحزن ، وعند الله حسبته »

إن من أمره وشأنه كذا وكذا ، ووصفه للأشتر ، وكان الأشتر صائماً ، فتناول منه شربة ، فما استقرت فى جوفه حتى تلف ، وأتى مَنْ كان معه على الدهقان ومن كان معه ، وقيل : كان ذلك بالقلزم ، والأول أثبت ، فبلغ ذلك عليًّا ، فقال : لليدين والفم ، وبلغ ذلك معاوية ، فقال : إن لله جنداً من العسل .

وقبض أصحابه عن علىّ فى هذه السنة ثلاثة أرزاق على[1] حسب ما كان يحمل إليه من المال من أعماله ، ثم ورد عليه مال من أصبهان ، فخطب الناس ، وقال : اغدوا إلى عطاء رابع ، فوالله ما أنا لكم بخازن ، وكان فى عطائه [أسوة للناس] يأخذ كما يأخذ الواحد منهم .

ولم يكن بين على ومعاوية من الحرب إلا ما وصفنا بصفين ، وكان معاوية فى بقية أيام[2] على يبعث سرايا تُغِيرُ ، وكذلك على كان يبعث من يمنع سرايا معاوية من أذية الناس ، وقد أتينا على ذكر السرايا والغارات فيما سلف من كتبنا .

فرق المعاملة بين الجمل وصفين وسره

قال المسعودى رحمه الله : وقد تكلم طوائف من الناس ممن سلف وخلف من أهل الآراء من الخوارج وغيرهم فى فعل علىّ يوم الجمل ، وصفين ، وتباين حكمه فيهما ، من قتله من أهل صفين ، مقبلين ومدبرين ، وإجهازه على جَرْحاهم ، ويوم الجمل لم يتبع مُوَلِّياً ، ولا أجهز على جريح ، ومن ألقى سلاحه أو دخل داره كان آمناً ، وما أجابهم به شيعة على فى تباين حكم على فى هذين اليومين لاختلاف حكمهما ، وهو أن أصحاب الجمل لما انكشفوا لم يكن لهم فئة يرجعون إليها ، وإنما رجع القوم إلى منازلهم ، غير محاربين ولا منابذين ، ولا لأمره مخالفين[3] ، فرضوا بالكف عنهم ، وكان الحكم فيهم رفع السيف

---

(١) فى ا « وقبض على أصحابه فى هذه السنة ثلث رزق على » .

(٢) فى ب « بقية أعمال على »

(٣) فى ا « ولا لإمامته مخالفين »

إذ لم يطلبوا عليه أعوانًا ، وأهل صفين كانوا يرجعون إلى فئة مستعدة ، وإمام منتصب ، يجمع لهم السلاح ، ويُثْنِي لهم الأَعْطِيَةَ ، ويقسم لهم الأموال[١] ، ويجبر كسيرهم[٢] ، ويحمل راجلهم ، ويردهم ، فيرجعون إلى الحرب ، وهم إلى إمامته منقادون ، ولرأيه متبعون ، ولغيره مخالفون ، ولإمامته تاركون ، ولحقه جاحدون ، وبأنه يطلب ما ليس له قائلون[٣] ، فاختلف الحكم لما وصفنا[٤] ، وتبايَنَ حكماهما لما ذكرنا ، ولكل فريق من السائل والمجيب كلام يطول ذكره ويتسع شرحه ، وقد أتينا على استيعابه[٥] ، وما ذكره كل فريق منهم فيما سلف من كتبنا ، فأغنى ذلك عن إعادته ، والله أعلم .

---

(١) فى ا « ويقيم لهم الأنزال » (٢) فى ا « ويجبر كسرهم »
(٣) فى ا « ما ليس له قابلون » (٤) فى ا « فاختلف حكم اليومين للوصفنا »
(٥) فى ا « أتينا على استيفائه » .

ذكر مقتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب

رضى الله عنه !

المؤامرة

وفى سنة أربعين اجتمع بمكة جماعة من الخوارج ، فتذاكروا الناسَ ، وماهم فيه من الحرب والفتنة ، وتعاهد ثلاثة منهم على قتل علىّ ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، وتواعدوا ، واتفقوا [على] أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذى يتوجَّه إليه ، حتى يقتله أو يُقْتَلَ دونه ، وهم : عبد الرحمن ابن مُلْجَم ، لعنه الله ! وكان من تُجِيب ، وكان عدادهم فى مُرَاد ، فنسب إليهم ، وحجاج بن عبد الله الصريمى ، ولقبه : البُرَكُ ، وزادويه : مولى بنى العنبر ، فقال ابن مُلْجَم — لعنه الله ! — : أنا أقتل عليًّا ، وقال البرك : أنا أقتل معاوية ، وقال زادويه : أنا أقتل عمرو بن العاص ، وَاتَّعَدُوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من شهر رمضان ، وقيل : ليلة إحدى وعشرين .

ابن ملجم وقطام

فخرج عبد الرحمن بن مُلْجَم المرادى إلى علىّ ، فلما قدم الكوفة أتى قطَامِ بنتَ عمه ، وكان [علىٌّ] قد قتل أباها وأخاها يوم النهروان ، وكانت أجمل أهل زمانها ، فخطبها ، فقالت : لا أتزوج حتى[1] تسمى لى ، قال : لا تسألينى شيئاً إلا أعطيته ، فقالت : ثلاثة آلاف وعبداً وقينة ، وقتل علىّ ، فقال : ما سألت هو لك مهر إلا قتل على ، فلا أراك تدركينه ، قالت : فالتمس غِرَّته ، فإن أصبته شفيت نفسى وَنَفَعَكَ العيشُ معى ، وإن هلكْتَ فما عند الله خير لك من الدنيا ، فقال : والله ما جاء بى إلى هذا المصر ، وقد كنت هارباً منه إلا ذلك ، وقد أعطيتك ما سألت ، وخرج من عندها وهو يقول :

ثلاثة آلافٍ وعبدٌ وقينَةٌ ... وقتلُ على بالحسام المصمم

(١) « تسمى لى » أى : تذكر مقدار المهر . وفى ا « حتى تسمح لى » .

فلا مَهْرَ أغلى من على وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن مُلْجَم (١)

فلقيه رجل من أشْجَعَ يقال له شبيب بن نجدة (٢) من الخوارج ، فقال له : هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ فقال : وما ذاك ؟ قال : تساعدنى على قتل علىّ ، قال : ثكلتك أمك ! لقد جئت شيئاً إدًا ، قد عرفت غَنَاءه (٣) فى الإسلام ، وسابقته مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال ابن مُلْجَم : ويحك ! أما تعلم أنه قد حَكَّم الرجال فى كتاب الله ، وقتل إخواننا المصلِّينَ ؟ فنقتله ببعض إخواننا ، فأقبل معه حتى دخل على قَطَام ، وهى فى المسجد الأعظم ، وقد ضربت كِلَّةً لها (٤) وهى معتكفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر رمضان ، فأعلمتهما أن مجاشع بن وردان [بن علقمة] قد انتدب لقتله معهما ، فدعت لهما بحرير فعصبتهما وأخذوا أسيافهم وقعدوا مقابلين لباب السدة التى يخرج منها على للمسجد ، وكان على يخرج كل غداة أول الأذان [يوقظ الناس] للصلاة ، وقد كان ابن مُلْجَم مَرَّ بالأشعث وهو فى المسجد ، فقال له : فَضَحَكَ الصبح (٥) ، فسمعها حُجْر بن عدى ، فقال : قتلته يا أعور قتلك الله ، وخرج على رضى الله عنه ينادى : أيها الناس ، الصلاة ، فشد عليه ابن مُلْجَم وأصحابه وهم يقولون : الحكم لله ، لا لك ، وضربه ابن مُلْجَم على رأسه بالسيف فى قَرْنه ، وأما شبيب فوقعت ضربته بعضادة الباب ، وأما [مجاشع] بن وردان فهرب ، وقال على : لا يفوتنكم الرجل ، وَشَدَّ الناس على ابن مُلْجَم يرمونه بالحصباء ، ويتناولونه ويصيحون ، فضرب ساقه رجل من همدان برجله ، وضرب المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وجهه فصرعه ، وأقبل به إلى الحسن ، ودخل ابن وردان بين الناس ، فنجا بنفسه ، وهرب شبيب حتى أتى رحله ، فدخل إليه عبد الله بن نجدة — وهو

---

(١) فى ب « أعلى من على وإن علا » . (٢) فى ب « شبيب بن بجيرة » محرفاً . (٣) فى ا « لقد عرفت بلاءه فى الإسلام » .

(٤) فى ب « وقد ضربت كلة به » (٥) فى ب « فضحك الله »

أحد بنى أبيه — فرآه ينزع الحرير عن صدره ، فسأله عن ذلك ، فخبره [خبره] فانصرف عبد الله إلى رحله ، وأقبل إليه بسيفه فضربه حتى قتله .

وقيل : إن علياً لم يَنَمْ تلك الليلة ، وإنه لم يزل يمشى بين الباب والحجرة ، وهو يقول : والله ما كذبت ولا كذبت ، وإنها الليلة التى وعدت [فيها] فلما [خرج][1] صاح بط كان للصبيان ، فصاح بهن بعض من فى الدار ، فقال على : ويحك ! دعهن فإنهن نوائح .

وقد ذكرت طائفة من الناس أن علياً رضى الله عنه أوصى [إلى] ابنيه الحسن والحسين ؛ لأنهما شريكاه فى آية التطهير ، وهذا قول كثير ممن ذهب إلى القول بالنص .

وصية على لأولاده

ودخل عليه الناس يسألونه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن فقدناك ، ولا نفقدك ، أنبايع الحسن ؟ قال : لا آمركم ولا أنهاكم ، وأنتم أبصر ، ثم دعا الحسن والحسين ، فقال لهما : أوصيكما بتقوى الله وحده ، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شىء منها ، قولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأعينا الضعيف ، وكونا للظالم خصما وللمظلوم عوناً ، ولا تأخذكما فى الله لومة لائم ؛ ثم نظر إلى ابن الحنفية فقال : هل سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم ، قال : أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك ، وتزيين أمرهما ، ولا تقطعن أمراً دونهما ، ثم قال لهما : أوصيكما به ، فإنه سيفكما وابن أبيكما[2] ، فأكرماه واعرفا حقه .

فقال له رجل من القوم : ألا تعهد يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، ولكنى أتركهم كما تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فماذا تقول لربك إذا أتيته ؟ قال : أقول : اللهم [إنك] أبقيتنى فيهم ما شئت أن تبقينى ، ثم قبضتنى وتركتك فيهم فإن شئت أفسدتهم ، وإن شئت أصلحتهم ، ثم قال : أما والله إنها الليلة التى

---

(١) فى ب « فلما صرخ بط كان للصبيان صاح بهن — إلخ » .
(٢) فى ا « فإنه صغيركما وابن أبيكما » .

ضرب فيها يُوشَعُ بن نون ليلة سبع عشرة ،وقبض ليلة إحدى وعشرين .

وبقى على الجمعة والسبت ، وقبض ليلة الأحد ، ودفن بالرحبة عند مسجد الكوفة[1] .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب فى أخباره تنازع للناس فى موضع قبره ، وما قيل فى ذلك.

سنه وفضله

وقبض وقد أتى عليه اثنتان وسبعون سنة[2] ،وقيل : اثنتان وستون ، وقد قدمنا تنازع الناس فى مقدار سنه ، وكان كما قال الحسن : والله لقد قبض فيكم الليلة رجل ماسبقه الأولون إلا بفضل النبوة ، ولا يدركه الآخرون ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبعثه المبعث فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه .

وكان الذى صلى عليه الحسن ابنه ، وكبر عليه سبعاً[3] ، وقيل غير ذلك .

تركته

ولم يترك صفراء ولا بيضاء ، إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه ، أراد أن يشترى بها خادماً لأهله ، وقال بعضهم : ترك لأهله مائتين وخمسين درهما ومصحفه وسيفه .

فعلهم بابن ملجم

ولما أرادوا قتل ابن مُلْجَم لعنه الله قال عبد الله بن جعفر :دعونى حتى أشفى نفسى منه ، فقطع يديه ورجليه وأحمى له مسماراً حتى إذا صار جمرة كحله به ، فقال : سبحان الذى خلق الإنسان، إنك لتكحل عمك[4] بملمول الرصاص ، ثم إن الناس أخذوه وأدرجوه فى بوَارى ثم طلوها بالنفط وأشعلوا فيها النار فاحترق ، وفيه يقول عمران ابن حطّان الرقاشى يمدحه فى ضربته من شعر له طويل :

يا ضَرْبةً من تَقِيٍّ ما أراد بها ... إلا لِيَبْلغَ من ذى العرش رضوانا

---

(١) فى ا « عند المسجد بالكوفة » .

( ) فى ا « اثنتان وستون سنة » ولم يذكر القول الأول فيها .

(٣) فى ا « وكبر تسعاً » . (٤) فى ا « إنك لتكحل عينيك — إلخ »

إنى لأذكره يوماً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

[فأجابه القاضى أبو الطيب طاهر بن عبد الله الشافعى :[1]

إنى لأبرأ مما أنت قائله عن ابن ملجمٍ الملعونِ بهتاناَ

ياضربة من شقى ما أراد بها إلا ليهدم للإسلام أركاناَ

إنى لأذكره يوماً فألعنه دنيا ، وألعن عمراناً وحِطّاناَ

عليه ثم عليه الدَّهْرَ متصلا لعائن الله إسراراً و إعلاناَ

فأنتما من كلاب النار جاء به نص الشريعة برهاناً وتبياناَ

وزاد بعضهم على هذه الأبيات بيتاً آخر ، وهو :

عليكما لعنة الجبار ما طلعت شمس، وما أوقدوا فى الكون نيراناَ

معارضة لبيتى اللعين ابن حطان لعنه الله فى ابن ملجم أخزاه الله:

قل لابن ملجم ، والأقدار غالبة، هَدَمْتَ ويلك للإسلام أركانا

قتلت أفضل مَنْ يمشى على قدم وأول الناس إسلاماً وإيمانا

وأعلم الناس بالقرآن ، ثم بما سَنَّ الرسول لنا شرعا وتبيانا

صهر النبى ، ومولانا ، وناصره أضحت مناقبه نوراً وبرهانا

وكان منه على رغم الحسود له مكان هارون من موسى بن عمرانا

وكان فى الحرب سيفاً صارماً ذكراً ليثاً إذا ما لقَى الأقرانُ أقرانا

ذكَرْتُ قاتله والدمع منحدر فقلت :سبحان رب الناس سبحانا

إنى لأحسبه ما كان من بشر يخشى المَعادَ ولكن كان شيطانا

أشقى مراد إذا عُدَّت قبائلها وأخسَرُ الناس عند الله ميزانا

كعاقر الناقة الأولى التى جَلَبَتْ على ثمود بأرض الحجر خسرانا

قد كان يخبرهم أنْ سوف يخضبها قبل المنية أزمانا فأزمانا

فلا عفا الله عنه ما تحمّله ولا سقى قبر عمران بن حطابا

(١) من هنا إلى آخر الشعر الوارد فى ص ٤٢٨ ساقط من ا ، وهو الصواب ولا يكون ذلك مما كتبه المسعودى ، والغالب أنه زيادة كتبها بعض النساخ .

لقوله فى شقى ظل مجترماً ونال ما ناله ظلماً وعدوانا
(يا ضربة من تقىّ ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا)
بل ضربة من غوىّ أورثته لظى مخلداً قد أتى الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصداً بضربته إلا ليَصْلَى عذاب الخلد نيرانا[١]

ولعمران بن حطان ولأبيه حطان أخبار كثيرة قد أتينا على ذكرها فى كتابنا «أخبار الزمان» فى باب أخبار الخوارج من الأزارقه والأباضية والحرية والصفرية والنجدية[٢] وغيرهم من فرق الخوارج إلى سنة ثمان عشرة وثلثمائة .

وكان آخر من خرج منهم ربيعة المعروف بغيرون[٣]، فأدخل على المقتدر بالله ، بعث به ابن حمدان من كفرتوثا[٤]، وقد كان خرج فى أيامه أيضاً المعروف بأبى شعيب .

وقد رثى الناس أمير المؤمنين علياً رضى الله عنه فى ذلك الوقت وإلى هذه الغاية ، وذكروا مقتله ، وممن رثاه فى ذلك الوقت أبو الأسود الدؤلى من أبيات .

ألا أبلغ معاوية بن حَرْبٍ فلا قَرَّتْ عيونُ الشامتينا[٥]
أفى شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طرًّا أجمعينا ؟
قتلتم خير من ركب المطايا وذَلَّلها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حَذَاها ومن قرأ المثانى والمبينا
إذا استقبلت وجه أبى حسين رأيت النور فوق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت بأنك خيرهم حَسَبًا ودينا

البرك ومعاوية

وانطلق البركُ الصريمى إلى معاوية فطعنه بخنجر فى أليته وهو يصلى فأخذ وأوقف بين يديه ، فقال له : ويلك ! وما أنت ؟ وما خبرك ؟ قال : لا تقتلنى وأخبره ، قال : إنا تبايعنا فى هذه الليلة عليك وعلى علىّ وعلى عمرو ؛ فإن أردت

---

(١) إلى هنا ينتهى الساقط من ا
(٢) فى ب « والمهجرية » مكان « النجدية » محرفاً
(٣) فى ب « المعروف بفروان »
(٤) فى ب « من هرمونا »
(٥) فى ا « معاوية بن صخر »

فاحبسنى عندك ، فإن كانا قتلا وإلا خليت سبيلى فطلبت قتل علىّ ، ولك على أن أقتله وأن آتيك حتى أضع يدى فى يدك ، فقال بعض الناس : قتله يومئذ ، وقال بعضهم : حبسه حتى جاءه خبر قتل على فأطلقه .

زادويه وعمرو ابن العاص

وانطلق زادويه — [وقيل: إنه] عمرو بن بكر التميمى — إلى عمرو بن العاص ، فوجد خارجة قاضى مصر جالساً على السرير يطعم الناس فى مجلس عمرو ، وقيل: بل صلى خارجة بالناس الغداة ذلك اليوم ، وتخلف عمرو عن الصلاة لعارض ، فضربه بالسيف ، فدخل عليه عمرو وبه رَمَقٌ ، فقال له خارجة : والله ما أراد غيرك ، فقال عمرو : ولكن الله أراد خارجة ، وأوقف الرجل بين يدى عمرو ، فسأله عن خبره ؛ فقص عليه القصة وأخبره أن عليًّا ومعاوية قد قتلا فى هذه الليلة ، فقال : إن قتلا أو لم يقتلا فلا بد من قتلك ، فبكى ، فقيل له : أجزعاً من الموت مع هذا الإقدامَ ؟ !قال: لا والله ، ولكن غما أن يفوز صاحباى بقتل على ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو ، فضربت عنقه وصلب .

وكان على رضى الله عنه كثيراً ما يتمثل :

تِلكم قريش تَمَنَّانى لتقتلنى ... فلا وربك ما بَرُّوا وما ظفروا

فإن هلكت فَرَهْنٌ ذمتى لهمُ ... بذات وَدْقَين لا يعفو لها أثر[1]

وكان يكثر من ذكر هذين البيتين :

أُشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيكا

ولا تجزع من الموت ... إذا حَلَّ بواديكا

وسمعا منه فى الوقت الذى قتل فيه ، فإنه قد خرج إلى المسجد ، وقد عسر عليه فتح باب داره ، وكان من جذوع النخل ، فاقتلعه وجعله ناحية ، وانحل إزاره ، فشدَّه وجعل ينشد هذين البيتين المتقدمين .

وقد كان معاوية دَسَّ أناساً [من أصحابه] إلى الكوفة يشيعون موته ،

(١) فى ا « بذات ردفين لا يعفو لها أثر » .

وأكْثَرَ الناسُ القول فى ذلك حتى بلغ عليا ، فقال فى مجلسه : قد أكثرتم من نعى معاوية ، والله ما مات ولا يموت حتى يملك ما تحت قدمى ، وإنما أراد ابن آكلة الأكباد[١] أن يعلم ذلك منى ، فبعث مَنْ يشيع ذلك فيكم ليعلم ويتيقن ما عندى فيه ، وما يكون من أمره فى المستقبل من الزمان ، ومَرَّ فى كلام كثير يذكر فيه أيام معاوية ومن تلاه من يزيد ومروان وبنيه وذكر الحجاج وما يسومهم من العذاب ، فارتفع الضجيج ، وكثر البكاء والشهيق ، فقام قائم من الناس فقال : يا أمير المؤمنين ، ولقد وصفت أموراً عظيمة ، آلله إن ذلك كائن ؟ قال على : والله إن ذلك لكائن ، ما كذبت ولا كذبت ، فقال آخرون : متى [يكون] ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال : إذا خُضِبَتْ هذه من هذه ، ووضع إحدى يديه على لحيته والأخرى على رأسه ، فأكثر الناسُ من البكاء ، فقال : لا تبكوا فى وقتكم هذا فستبكون بعدى طويلا ، فكاتب أكثر أهل الكوفة معاوية سِرًّا فى أمورهم ، واتخذوا عنده الأيادى ، فوالله ما مضت إلا أيام قلائل حتى كان ذلك ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب — بعد ذكرنا لزهده ولمع من كلامه — جملاً من أخباره أيضاً فى أيام معاوية بن أبى سفيان[٢] ، والله ولى التوفيق .

---

(١) فى ا « آكلة الكبود » .

(٢) فى ب « وجمل من أخباره أيضا أخبار معاوية بن أبى سفيان » وليس ذلك بمستقيم .

ذكر لمع من كلامه ، وأخباره ، وزهده

رضوان الله عليه !

لم يلبس عليه السلام فى أيامه ثوبا جديداً ، ولا اقتنى ضيعة ولا رَبْعاً[1] ، إلا شيئاً كان له بينبع[2] مما تصدق به وحبسه .

والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة ؛ وتداول الناس ذلك عنه قولا وعملا .

خيار العباد

وقيل له : مَنْ خيار العباد ؟ قال : الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أساؤا استغفروا [وإذا أعطوا شكروا] وإذا ابتلوا صبروا ، وإذا أغضبوا غفروا .

وصف الدنيا

وكان يقول : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، الدنيا مسجد أحباء الله[3] ، ومصلى ملائكة الله ، ومهبط وحيه ، ومَتْجَرُ أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا فيها الجنة ، ومن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ، ونادت بفراقها ، ونَعَتْ نفسها وأهلها ، ومثلت لهم ببلائها البلاء ، وشوقت بسرورها إلى السرور ، وراحت بفجيعة ، وابتكرت بعافية ؛ تحذيراً وترغيباً وتخويفاً ، فذمها رجال غبَّ الندامة[4] ، وحمدها آخرون عبَّ المكافأة ، ذكرتهم فذكروا تصاريفها ، وصدقتهم فصدقوا حديثها[5] ، فيا أيها الذامُّ للدنيا المغتر بغرورها ، متى استدامت لك الدنيا ؟ بل متى غرتك من نفسها ؟ أبمضاجع آبائك من البلى ؟ أم بمصارع أمهاتك من الثرى ؟ كم قد عللت بكفك ومرَّضْتَ بيدك من تبغى له الشفاء وتستوصف له [الدواء من] الأطباء ! لم تنفعه بشفائك ، ولم تسعف له بطلبتك[6] ، وقد مثلت لك به الدنيا نفسك ، وبمصرعه

(١) فى ب « ولا ريعاً »
(٢) فى ب « بسرف »
(٣) فى ا « مسجد أنبياء الله »
(٤) فى ا « غداة الندامة »
(٥) فى ا « فصدقوا خدمتها »
(٦) فى ا « ولم تستشف بطلبتك »

مصرعك : غداً لا ينفعك بكاؤك ، ولا يغنى عنك أحِبَّاؤك — ولا تسمع فى مدح الدنيا[(١)] أحسن من هذا .

ومما حفظ من كلامه فى بعض مقاماته فى صفة الدنيا أنه قال : ألا إن الدنيا قد ارتحلت مُدْبِرة ، وإن الآخرة قد دنت مُقْبِلة[(٢)] ، ولهذه أبناء . ولهذه أبناء ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، ألا وكونوا من الزاهدين فى الدنيا ، والراغبين فى الآخرة ، إن الزاهدين فى الدنيا اتخذوا الأرض بساطاً والتراب فراشاً والماء طيباً ، وقَوَّضُوا الدنيا تقويضاً ، ألا ومن اشتاق إلى الجنة سَلاَ عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات ، ومن راقب الآخرة سارع فى الخيرات ، ألا وإن لله عباداً [كأنهم] يرون أهل الجنة فى الجنة منعمين مخلدين ، [ويرون أهل النار فى النار معذبين] قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، أنفسهم عفيفة ، وحاجتهم خفيفة صبروا أياماً قليلة فصارت لهم العقبى ، راحة طويلة ، أما الليل فصافُّو أقدامهم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يجْأرون إلى ربهم ، ويسعون فى فكاك رقابهم ، وأما النهار فعلماء حكماء بَرَرَة أتقياء ، كأنهم القِدَاح[(٣)] بَرَاهم الخوف والعبادة ينظر إليهم الناظر فيقول : مرضى ، وما بالقوم من مرض ، إن خولطوا فقد خالطهم أمر عظيم من ذكر النار ومن فيها .

وقال لابنه الحسن : يا بنى ، اسْتَغْنِ عمن شئت تكن نظيرهُ ، وسل من شئت تكن حقيره[(٤)] ، وأعط من شئت تكن أميره .

ودخل عليه رجل من أصحابه فقال : كيف أصبحت يا أمير المؤمنين ؟ قال : أصبحت ضعيفاً مُذنباً ، آكل رزقى ، وأنتظر أجلى ، قال : وما تقول فى الدنيا ؟

---

(١) فى ا « ولم يسمع فى مديح الدنيا — إلخ » .

(٢) فى ا « قد ارتحلت مقبلة » (٣) فى ا « كأنهم الفراخ ، محرفاً

(٤) فى ا « تكن أسيره » وهو المحفوظ

قال : وما أقول فى دار أولها غم ، وآخرها موت ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، حَلاَلُها حساب ، وحرامها عقاب ، قال :فأى الخلق أنعم ؟ قال : أجساد تحت التراب ، قد أمنت [من] العقاب ، وهى تنتظر الثواب .

وصف على عند معاوية

ودخل ضرار بن ضمرة(1) — وكان من خواصّ على — على معاوية وافداً ، فقال له : صف لى علياً ، قال: أعفِنِي يا أمير المؤمنين، قال معاوية : لابد من ذلك ، فقال:أما إذا كان لا بد من ذلك فإنه كان والله بعيد المَدَى ، شديد القوى ، يقول فَصْلا ، ويحكم عدلا ، يتفجَّرُ العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يعجبه من الطعام ما خشن ، ومن اللباس ما قصر [وكان والله] يجيبنا إذا دعوناه ، ويعطينا إذا سألناه ، وكنا والله — على تقريبه لنا وقربه منا — لا نكلمه هيبة له ، ولا نبتدئه لعظمه فى نفوسنا(2) ، يَبْسِم عن ثغر كاللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويرحم المساكين، ويطعم فى المَسْغَبة يتيما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ، يكسو العُرْيَان ، وينصر اللَّهفَان، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل وظلمته، وكأنى به وقد أرْخَى الليل سُدُولَه ، وغارت نجومه ،وهو فى محرابه قابض على لحيته يتمامل تململ السليم، ويبكى بكاء الحزين، ويقول: يادنيا غُرِّى غيرى ، ألى تعرضت أم إلىَّ تشوفت ؟ هيهات هيهات ! ! لا حان حينك ، قد أبنتك ثلاثاً لا رَجْعة لى فيك ، عمرك قصير ، وعيشك حقير(3) ، وخطرك يسير ، آه من قلَّة الزاد [وبعد السفر] ووَحْشَة الطريق .

من كلامه

فقال له معاوية : زدنى شيئاً من كلامه ، فقال ضرار : كان يقول : أعجب ما فى الإنسان قلبه ، وله مواد من الحكمة ، وأضداد من خلافها ، فإن سَنَحَ له الرجاء أَمَالَهُ الطمع ، وإن مال به الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه القنوط

(1) فى ب « ضرار بن حمزة » محرفا

(2) فى ا « ولا نبدبه لعظمته فى نفوسنا » وليس بشىء

(3) فى ا « وغنيك حقير » وهى أحسن مما هنا عن ب.

قتله الأسف ، وإن عَرَضَ له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعده الرضا نسي التحفظ[١] ، وإن ناله[٢] الخوف فضحه الجزع، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن عضته فاقة فضحه الفقر ، وإن أجهده الجوع أقعده الضعف ، وإن أفرط به الشبع كَظَّته البِطْنَة ، فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد.

فقال له معاوية : زدني كلما وعيته من كلامه ، قال : هيهات أن آتي على جميع ما سمعته منه ، ثم قال: سمعته يوصي كميل بن زياد [ذات يوم فقال له]: يا كميل ذُبَّ عن المؤمن فإن ظهره حِمى الله ، ونفسه كريمة على الله ، وظالمه خصم الله ، وأحذركم من ليس له ناصر إلا الله .

قال : وسمعته يقول ذات يوم : إن هذه الدنيا إذا أقبلت على قوم أعارتهم محاسن غيرهم ، وإذا أدبرت عنهم سَلَبتهم محاسن أنفسهم.

قال : وسمعته يقول : بَطَر الغنى يمنع من عز الصبر .

قال : وسمعته يقول: ينبغي للمؤمن أن يكون نظره عبرة ،وسكوته فكرة، وكلامه حكمة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم — بعد أن قتل جعفر بن أبي طالب الطيار بمُؤتة من أرض الشام — لا يبعث بعلي في وجه من الوجوه إلا يقول: (رب لا تذرني فرداً ، وأنت خير الوارثين) .

وحمل عليٌّ يوم أحد على كردوس من المشركين [خشن] فكشفهم ، فقال جبريل: يا محمد ، إن هذه لهي المواساة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا جبريل إن علياً مني » قال جبريل : وأنا منكم ، كذلك ذكره إسحاق عن ابن إسرائيل[٣] وغيره .

ووقف عَلَى عَلِيٍّ سائل ، فقال للحسن: قل لأمك تدفع إليه درهما ، فقال: إنما

---

(١) في ا « نسي الحفظ » (٢) في ب « وإن أماله الخوف »

(٣) في ب «ذكره إسحاق بن إبراهيم »

عندنا ستة دراهم للدقيق ، فقال على : لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده ، ثم أمر للسائل بالستة الدراهم كلها ، فما برح على رضى الله عنه حتى مر به رجل يقود بعيراً ؛ فاشتراه منه بمائة وأربعين درهما ، وأنسأ أجَلَه ثمانية[1] أيام ، فلم يحلَّ أجله[2] حتى مر به رجل والبعير معقول فقال: بكم هذا؟فقال : بمائتى درهم ، فقال : قد أخذته ، فوزَنَ له الثمن ، فدفع على منه مائة وأربعين درهما للذى ابتاعه منه ، ودخل بالستين الباقية على فاطمة عليها السلام ، فسألته : من أين هى ؟ فقال : هذه تصديقٌ لما جاء به أبوك صلى الله عليه وسلم : (مَنْ جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) .

ومَرَّ ابن عباس بقوم ينالون من على ويسبونه ، فقال لقائده : أدْنِنِى منهم ، فأدناه، فقال: أيكم الساب اللهَ ؟ قالوا : نعوذ بالله أن نسب الله، فقال: أيكم الساب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : نعوذ بالله أن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أيكم الساب على بن أبى طالب ؟ قالوا : أما هذه فنعم ، قال: أشهد لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سبنى فقد سب الله ، ومن سب عليًّا فقد سبنى » فأطْرَقوا ، فلمَّا ولى قال لقائده: كيف رأيتهم ؟ فقال :

نظروا إليك بأعين مُزْوَرَّة ... نظر التيوس إلى شفار الجازر[3]

فقال : زدنى فداك أبى وأمى ، فقال :

خُزْرَ العيون مُنَكِّسِى أذقانهم ... نظر الذليل إلى العزيز القاهر[4]

قال : زدنى فداك أبى وأمى ، قال : ما عندى مزيد ، [قال] : ولكن عندى :

أحياؤهم تخزى على أمواتهم ... والميتون فضيحة للغابر

---

(١) فى ا « واستأجله ثمانية أيام » (٢) فى ا « فلم يحل حبله »
(٣) فى ا « بأعين محمرة »
(٤) فى ا « خزر العيون نواكسى أبصارهم »

وقد ذكر جماعة من أهل النقل عن أبى عبد الله جعفر بن محمد عن أبيه محمد ابن على بن الحسين بن على أن عليا قال فى صبيحة الليلة التى ضربه فيها عبد الرحمن ابن مُلْجم : بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم : كل امرىء ملاقيه ما يفر منه، والأجل تُساق النفس إليه ، والهرب منه موافاته، كم اطردت الأيام أتحينها عن[1] مكنون هذا الأمر فأبى الله عز وجل إلا إخفاءه، هيهات علم مكنون ، أما وصيتى فالله لا تشركوا به شيئاً ، ومحمداً لا تضيعوا سنته، أقيموا هذين العمودين، حمل كل امرىء منكم مجهوده ، وخفف عن الجهلة رب رحيم ، ودين قويم ، وإمام عليم ، كنا فى إعصار ذى رياح تحت ظل غمامة اضمحل راكدها فمحطها من الأرض حيا ، وبقى من بعدى جُثَّة جاواء ، ساكنة بعد حركة ، كاظمة بعد نُطْق، ليعظكم هدوئى وخُفُوتُ أطرافى، إنه أوعظ لكم من نطق البليغ ، ودعتكم وداع امرىء مرصد لتلاق ، وغدا ترون ويكشف عن ساق ، عليكم السلام إلى يوم المرام ، كنت بالأمس صاحبكم واليوم عِظَةٌ لكم وغداً أفارقكم ، إن أُفِق فأنا ولى دمى ، وإن أمت فالقيامة ميعادى ، والعفو أقرب للتقوى ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم .

وصيته يوم موته

ومن خطبه قبل هذا وتزهيده فى هذه الدنيا قوله فى بعض مقاماته وخطبه : إن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أشرفت وأقبلت باطلاع ، وإن المضمار اليوم والسباق غدا ، ألا إنكم فى أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد حسن عمله[2] ، [وما قَصَّرَ أجله ، ومن قَصَّر فى أيام أمله خسر أجله ، ألا] فاعملوا لله فى الرغبة ، كما تعملون فى الرهبة ، ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ، ألا وإنه مَنْ لم ينفعه الحق يضره الباطل ، ومن لا يستقيم له الهدى يجزيه[3] الضلال

تزهيده فى الدنيا

(١) فى ا « أبحثها عن مكنون هذا الأمر »

(٢) فى ا « فقد ربح عمله »　　(٣) فى ا « يحويه الضلال »

وقد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل .

وفضائل على ومقاماته ومناقبه و[وصف] زهده ونسكه أكثر من أن يأتى عليه كتابنا هذا أو غيره من الكتب ، أو يبلغه إسهاب مسهب ، أو إطناب مُطْنب ، وقد أتينا على جمل من أخباره وزهده وسيره ، وأنواع من كلامه وخطبه فى كتابنا المترجم بكتاب « حدائق الأذهان ، فى أخبار آل محمد عليه السلام » وفى كتاب « مزاهر الأخبار ، وطرائف الآثار ، للصفوة النورية والذرية الزكية أبواب الرحمة وينابيع الحكمة » .

فضائله رضى الله عنه

قال المسعودى : والأشياء التى استحق بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الفضلَ هى : السبق إلى الإيمان، والهجرة، والنصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقربى منه [والقناعة] وبذل النفس له ، والعلم بالكتاب والتنزيل ، والجهاد فى سبيل الله ، والورع، والزهد، والقضاء ، والحكم، والفقه[1] والعلم وكل ذلك لعلى عليه السلام منه النصيبُ الأوفر ، والحظ الأكبر ، إلى ما ينفرد به من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين آخى بين أصحابه « أنت أخى » وهو صلى الله عليه وسلم لا ضد له ، ولا ند، وقوله صلوات الله عليه : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى » وقوله عليه الصلاة والسلام : « من كنت مولاه فعلى مولاه، اللّهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه » ثم دعاؤه عليه السلام وقد قدم إليه أنس الطائر : اللهم أدخل إلىّ أحبَّ خلقك إليك يأكل معى من هذا الطائر ، فدخل عليه على ، إلى آخر الحديث ، فهذا وغيره من فضائله وما اجتمع فيه من الخصال مما تفرق فى غيره[2]، ولكل فضائل ممن تقدم

(١) فى ب « والنفقة والعلم »

(٢) فى ا « مما لم يوجد فى غيره » وما هنا عن ب أحسن

وتأخر ، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم وهو راضٍ عنهم، مُخْبِر[١] عن بواطنهم بموافقتها لظواهرهم بالإيمان ، وبذلك نزل التنزيل ، وتولى بعضهم بعضاً ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتفع الوحي حدثت أمور تنازع الناس في صحتها [منهم ، وذلك غير يقين][٢] ، ولا يُقْطَع عليهم بها ، واليقين من أمورهم ما تقدم ، وما روى مما كان في أحداثهم بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم فغير متيقن ، بل هو ممكن ، ونحن نعتقد فيهم ما تقدم ، والله أعلم بما حدث، والله ولى التوفيق .

قد تم — بحمد الله تعالى وحسن توفيقه — تحقيق الجزء الثاني من كتاب « مروج الذهب ، ومعادن الجوهر » للعلامة المسعودى ، ويليه — إن شاء الله — الجزء الثالث منه ، مفتتحا بخلافة الحسن بن على بن أبي طالب ، نسأل الله القدير أن يمن علينا بإكماله ، ويوفقنا ويعيننا على ضَبْطه وتجويده ، إنه ولى ذلك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) فى ا « يخبر عن بواطنهم » (٢) زيادة فى وحدها

فهرس الموضوعات الواردة فى الجزء الثانى

من كتاب « مروج الذهب ، ومعادن الجوهر »

لأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى

فهرس الجزء الثانى من كتاب

مروج الذهب ، ومعادن الجوهر

قد تمت ــ بحمد الله تعالى ــ فهرس الجزء الثانى

من كتاب « مروج الذهب ، ومعادن الجوهر » للمسعودى

والحمد لله أولا وآخرا ، وصلاته على سيدنا محمد وآله






Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



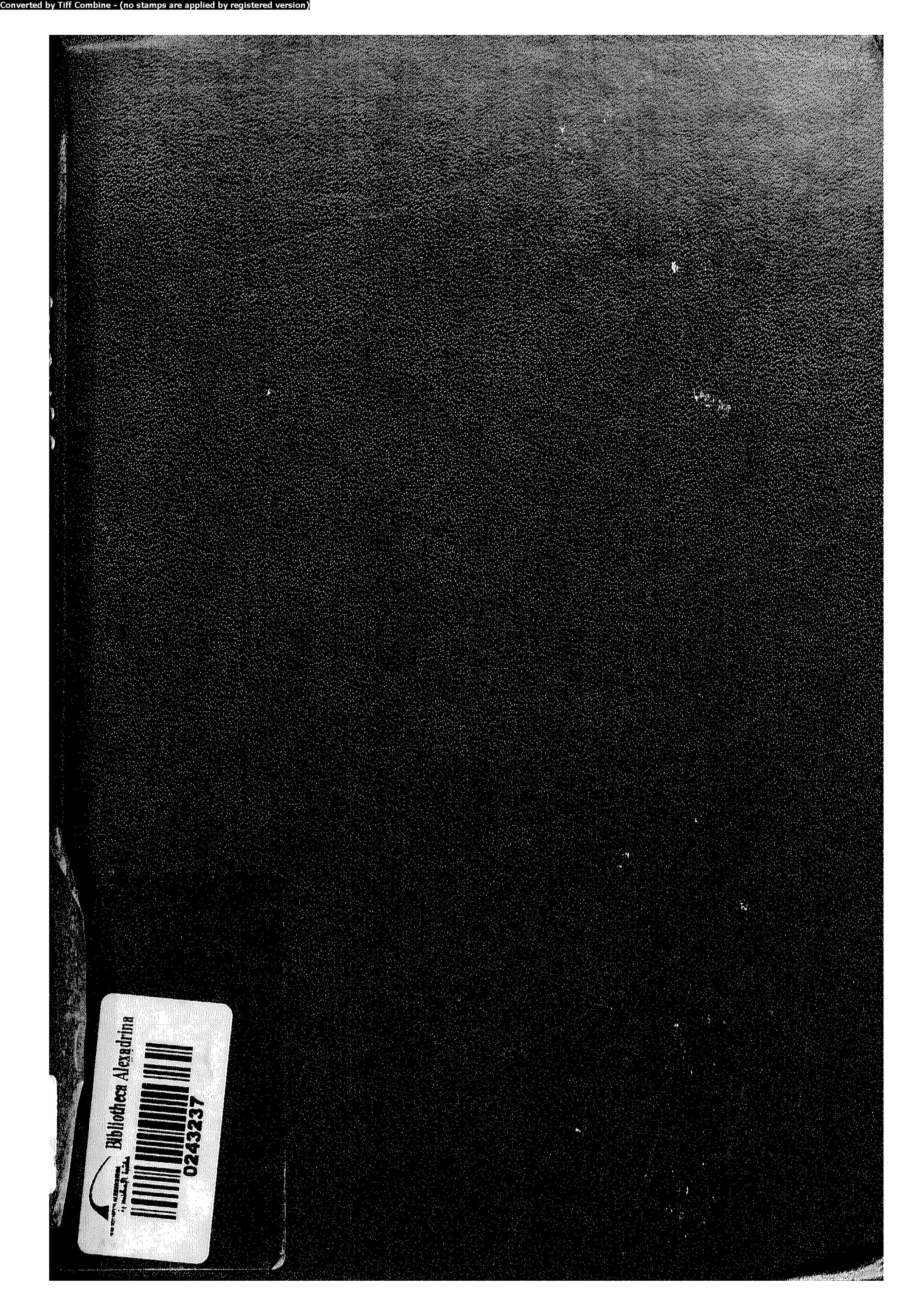



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)








Bibliotheca Alexandrina
0243237